كتاب الشهر

نور في الغابة



بقلم
كونراد ريشتر

عن كتاب

THE LIGHT IN THE FOREST

آمضى جون بتلر « تروصان » أحـد عشـر عاما من أعـوامه الخمسـة عشـر على أنه ابن بالتبنى للمحارب الهندي العظيم «كايلوجا» ، متمتعـا بأسـلوب فى الحيـاة جعل عالم البيض شيئا لا يستطيـع ادراكه • وعندما أعيد الفتى الى أهله الحقيقيين بمقتضى معاهدة ، وجـده أبواه ثائرا متمـردا تمـلأ الشـكوك نفسه ، وتتجه به للعودة الى أسرته الهندية المحبوبة •



ومن هذا الموقف المثير، نسج قلم كونراد ريشتر الحائز على جائزة نوبل كتابه « نور في الغابة» • وريشتر مؤلف قصصى له مؤلفات شهيرة عن الحياة الامريكية الاولى وفي طليعتها كتب «الاشجار» و«الحقول» و « البلدة » وتستند قصة «نور في الغابة» الى وقائع حقيقية ، اذأن ريشتر خلال بحثـه في السجلات القديمة لبعض الاسري البيض الذين اجتمع شملهم بأهلهم أذهلته محاولاتهم اليائسـة للعودة الى البيوت الهنـدية التى نشأوا بين جدرانهـا •• وقد صور ريشتر هذه الحقبة من عصر اختفى في كتابه الرائع الذي أعيـد طبعه ١٦ مرة ، وأصـبح من أعظم الروايات الخيالية المعاصرة •

كان الفتي في حوالي الخامسة عشرة من عمره عندما سمع النبأ ، وقد حاول ان يقف هادئا صلب العود ، فقد انشأه أبوه علي احتمال الالم ومواجهة المشاق بقوة ، ولكن كل شيء اصبح مظلما في أعماقه …

وعندما جاءت الانباء الي القرية الهندية تقول : ان قبيلتي « ليني ليناب » و «الشوانيز» يجب ان يسلما ماليديهما من الاسري البيض ، لم يخطر قط ببال الفتي ان لهذا الامر اية صلة به ، فهو هندي منذ الوقت الذي تعيه ذاكرته ، أبوه هو « كايلوجا » فقد تبناه منذ احد عشر عاما ليحل محل ابنه الذي مات بسبب « القيء الاصفر » وقيل له اكثر من مرة ان اباه ردد كلمات معينة وهو في الرابعة من عمره ، انتزعت دماءه البيضاء ، ووضعت مكانها دما هنديا ، ومحت أفكاره البيضاء الحقيرة ، وأحلت محلها أفكار الهنود الباسلة . ومنذ ذلك الحين ، أصبح « تروصان » — أى الابن الحقيقى — من دم كايلوجا ولحمه .. هنا عاش أحد عشر عاما ، واحدا من ابناء هذه القرية التي تقع علي نهر « تاسكاراواس » ، وعضوا كاملا في الاسرة … فكيف يمكن ان ينتزع من بيته كما تنتزع الشجيرة الصغيرة من الارض ، ويعطي للبيض وهم اعداؤه ؟

كانت الافكار المحمومة تدور في رأسه طوال الصباح وهو سائر فى الطريق مع أبيه .. انه لم يعرف قط من قبل ان اباه كان علي خطأ .. فهل يمكن ان يكون الآن علي صواب ؟ .. أتراه قد ترك دون ان يدري بعضا من الدم الابيض في عروقه ، ومن ثم فلابد من اعادته للبيض ؟

ووقعت انظارهم بعد ذلك علي الحصون الخشبية الكئيبة والخيام الشاحبة التي أقامها جيش البيض عند تشعب نهر « ماسكنجهام » .. وهنا احس الفتي انه ليس في عروقه قطرة دم واحدة تعرف هذه الاشياء .. لقد اجتاحه نفور وحقد شديد بمجرد رؤيته الرجال البيض وتسلل روائحهم الي انفه ، فأمسك به أبوه وسحبه وهو يتلوي بين يديه صارخا ، حيث القي به فوق اوراق الشجرة المنثورة فى بيت مجلس البيض .

وقال كايلوجا للحارس الابيض :

— لقد تعهدت باحضاره …

وها هو ذا الآن انه ينتمي اليكم .

وظل الفتي راقدا بين الاسري الآخرين ووجهه الي اسفل … كان

واثقا ان اباه مازال موجودا ، فهو يستطيع ان يحس وجوده ويشم رائحة غليونه الحلوة المنبعثة من قشر الصفصاف الاحمر مخلوطا بأوراق السماق المجففة وعندما جاء الغسق ، جاء حارس أبيض ينساديه الآخرون باسم « ديل » وربما كان ذلك لانه يتكلم بلغة قبائل « ليني ليناب » التي يسميها البيض « ديلاوير » • وسمعه تروصان يقول لابيه أن على كل الهنود ان يفارقوا المعسكر عند حلول الليل •

وأحس الفتي بأبيه يقترب منه ويقول بصوت خفيض : « تصرف الآن كهندي أحمر يا تروصان • ولا تجلب على المزيد من العار » •

وسمع الفتي وقع أقدامه علي أوراق الشجر ، وابتعد الحفيف رويدا رويدا • وعندما جلس تروصان كان ابوه قد ذهب •• ذهب الي مكان لم يبد في ذهن الفتي اكثر جمالا وصفاء مما يبدو الآن •

انه يستطيع ان يري القرية في غسق الخريف والدخان يتصاعد من صفي أكواخها ، وانعكاس السماء الابيض المتألق وراء نهر تاسكاراواس •• ومن باب كوخ أبيه المفتوح تتوهج النيران الحمراء الدافئة ، وقد التفت حولها أمه وشقيقاته ، وعلي مقربة من النار ، وضع لحاء الشجر السميك علي الارض ، حيث فراشه المعهود وجلد الدب القديم البالي الذي يلتحف به ليلا •••

وطغى عليه الحنين ، فانحدرت عبراته في سكون •

رسالة من كايلوجا

كان صباح يوم اشهب عندما غادروا تشعب نهر ماسكنجهام ، وساروا بعض الوقت في نفس الطريق الذي جاء منه مع أبيه ، وخفق قلب الفتي وخيل اليه انه عائد الي بيته ، ولكنه عندما بلغ مفترق الطرق أحس بشيء يريد ان يصرخ في أعماقه ••• كانت هناك شجرة جميز عجوز تقف عند التشعب ، وجذع شجرة ميت يشير الي الطريق المتجه شرقا الي بنسلفانيا •• والي الجانب البعيد غصن حي يشير الي الطريق المتجه في اشراق وحرية نحو بيته • وشعر أن أقدامه تريد ان تنطلق فوق هذا الطريق وكافح بشدة ليهرب ولكن « ديل » دفعه الي الامام •

ثم سمع من خلال الظلمة التي ملأت قلبه ، صوتا ينادي بلغة ديلاوير : « تروصان •• انظر • ليس بعيدا • انني هنا »

ورأت عينا الفتي هنديا شـــابا يتحرك بين الاشجـــار القريبة ... يعرف فيه ابن عمه « هاف آرو » رفيق صباه الذي لعب معه وصـــاد الاسماك والحيوانات .. فقال له :

ـ أهذا انت يا هاف آرو ؟ .. مازلت حيا ؟

ورد هاف آرو في مرح :

ـ لقد انتظرتك طويلا حتي ظننت انك لن تأتي .. اني اراك مقيدا فكيف ذلك ؟ .. لقد كنت اظنك بين أهلك ؟

فقال الفتي بمرارة :

ـ كلا .. لست بين اهلي .. انني بين أعدائي ..

ـ حسنا .. هأنذا اهلك معك ..

واذا سار « ليتل كرين » مع زوجته البيضاء فانني استطيع السير معـــك

وأحضر له هاف آرو بعض الهدايا : حذاء مزركش بالخيوط الحمـــراء صنعته أمه واخواته الهنديات وجلد الدب البالي الذي ينام عليه في الكوخ

وظل « هاف آرو » يصحبه أياما خلال الســـــير الطويل الي بنسلفانيا ، يتبادلان الحديث ، حتي اقتربا أخيرا من النهر الذي يجب ان يفترقا عنده .

وخيمت عليهما الكآبة والصمت ، وعندما حرروا يدي تروصـــان لكي يحمل حزمته فوق مستوي الماء قفـــز على احد الحراس واسقطه ارضـــا وحاول اخذ سكينه او بلطته، وتدحرجا علي الارض ، بينما امسك جنـــدي آخر « هاف آرو » واقبل آخـــرون بسرعة لابعاد تروصان ، وقيـــدوا ذراعيه مرة أخري وهو يكافح بكـــل قواه .

وقال هاف آرو في لهجة جادة :

ـ كنت اريد ان انقل لتروصـــان رسالة من أبيه قبل ان نفترق .

فقال ديل بحدة :

ـ تستطيع ان تبلغه الرسالة ولكن اياك ان تعطيه سكينا والا نلت رصاصة بين ضلوعك ..

وراح هاف آرو يتحدث الي ابن عمه فقال :

ـ تروصان .. انني احدثك الآن باسم ابيك . وهـــذه هي كلماته : « اتذكر يا تروصان عندما كنا نصيد معا علي نهر المرأة البيضاء ؟ .. لقد التقينا يومئذ بدب، قصمت طلقتي عظام ظهره ، فسقط وراح يصيح كالنمور الارقط « لونج تيل » وضربه ابوك علي انفه بمدك البندقية وقال له : يادب انت جبان ، ولست المحارب الذي تزعم انك اياه . أنت تعلم اننا في حرب وانك اذا هزمتني ، تحملت الهزيمة بشجاعة ومت كمحارب . اما انت ايها الدب

فانك تجلس هنـــا وتئن كأنك امرأة عجوز • انك عار علي قبيلتك بسلوكك هذا • اتذكر يا تروصان ؟ »

فقال الفتي مزمجرا :

ـ اذكره •• قللابي انني ساحتمل عاري كهندي احمر ، وسأنتظر حتي يحين الوقت المناسب لاضرب ضربتي

ليس أبي !

لن يبارح منظر بلدة « كارليل » التي يقطنهـــا الرجال البيض ذاكرة « تروصان » •• الفضاء المسدود في الوسط حيث لا توجد اية منازل ، والرجال البيض يقبلون في عبــاءات ومعاطف فضفاضة وقد التفترؤوسهم في اوشحة ووضعت فوقها القبعات ، ووقفت في الوسط مجموعة الاسري العائدين يرتدون ثيابا هندية بسيطة ، وقد تعرت بعض اجســـامهم لرياح مطلع الشـــــتاء ••• وأخذ الاسري يتقدمون واحدا وراء الآخر الي الامام في احجام ويعلنون ما عرف عنه او عنها ، ثم تسمع اقوال الذين يزعمون ان لهم علاقة بهم ، وفيكثير منالاحيان كان الحشد ـ وبينه كثير من الجنود البيض ـ تنفجر عواطفهم ويمسحون عيونهم الباكية ، اما الاسري فكانوا يواجهون الموقف بعيون جافة واعصاب ثابتة •• وقال تروصان لنفسه ان آباءهم وامهاتهم الهنود سوف يفخرون بهم •

وعنـــــدما لم يتبق غير قلائل لم يطلبهم أحد ، أحس الفتي بارتياح وأمل ••• ان اباه الابيض لا يريده ، ولعلهم يتركونه الآن يعود الي بيته البعيد علي طول نهر تاسكاراواس •

وفجأة أقبل رجل ضـــئيل الحجم يمتطي جوادا احمر اللون يتصبب منه العرق ، ويمسك بيده جوادا آخر لا يركبه احد •• وسرت رعشة باردة في عظام الفتي •• لاشك انهليس هناك أية صلة بينه وبين هذا الشخص التافه ذي الوجه الذي لا لون له ، والقبعة الحمقاء فوق رأسه •• ولكن الرجـل أقبل نحوه في لهفة ، وحدق في وجه الفتي بعينيه الزرقاوين ، بينما امتدت يده الشاحبة في رعشة ظاهرة •

ووقف « تروصان » ثابتا لا يتحرك بينما امره « ديل » بلغة ديلاوير •: « مد يدك وصافح مستر بتلر » •

ومد الفتي يده في تردد •• كان الرجل يتكلم بكلمات ذات صـــوت عجيب ، وقال ديل مترجما :

« ان اباك يرحب بعودتك ، وهو يحمد الله لانك سالم آمن » •

وعندما ضغط الفتي علي شفتيه ، اضاف ديل قائلا : « الا تستطيع ان

قول انك سعيد برؤية ابيك بعد كل
هذه السنين ! »
وكان قلب « تروصـــان » جامدا
كالحجر .. كيف يمكن ان يكون هذا
الانســـان الضئيل الذي يرتدي ثوبا
بال لونه شيئا بالنسبة له ؟ هـــذا
المخلوق الشـــاحب الذي يكشف عن
عواطفه امام الجميع ؟ وبدت أمـــامه
صورة ابيه الهندي : ما اعظم الفارق
بين مظهره وتصرفه ، وبين الكرامة
وضبط النفس الذي يمكن ان يتصرف
به أبوه الهندي حيال مثل هذا الموقف
في السلم او الحرب .
ان هذا الرجل ذات الوجه الشاحب
لا يعتبر شيئا الي جوار كايلوجا .
وقال الفتي : « هذا ليس ابي » .
وفي الصباح التالي ، رحلوا جميعا
الي بيت « تروصان » الجديد . كان
الفتي يمتطي جواده علي مقربة من
ابيه صامتا مكتئبا .. ولم يتكلم الا
بعد ان ركبوا معدية عبر النهـــــر
الكبير . واتجه ببصره صـــــــوب
الامتداد الفسيح من الماء الذي يبلغ
اتســـــاعه حوالي كيلو متر ونصف
كيلو متر ، حيث تبدو الحقــــــول
والبيوت على شاطئه البعيد ، ثم تدفق
لسانه بكلمات مريرة بلغة ديلاوير ،
فقال ابوه : « ماذا يقول ؟ »

فأجاب ديل :
ـ انه يقول ان النهر وكل الماء الذي
يتدفق منه ملك لشعبه الهندي ويقول
ان اباه الهندي يعيش علي ضفافه الي
الشمال ، وقبور اسلافه تقـــع الي
جواره ، وكثيرا ما سمع اباه يحدثه
عن النهر والقبور التي سرقها البيض
منهم .
وبدا الارهاق علي مستر بتلر وهو
يقول : « قل له اننا سنتحدث عن ذلك
فيما بعد ... واننا نقترب الآن من
البيت ، واذا تطلع الي تلك التلال عبر
النهر فسيري بلدة « باكستون » حيث
ولد .
وقبل ان يترجم له ديل هـــــــذه
الكلمات بدا علي الفتي انه فهمها ،
فقد حدق ببصره الي الضفة الاخري
في هلع مفاجيء وقال بلغة انجليزية
هندية ثقيلة : « بيشتانك .. بلدة
الرجال البيض ! »
ووضع ابوه يده علي كتف الفتي
برفق وقال : « هذا صحيح يابني ..
ان بيشتانك هي باكستون .. »
ونظر الفتي وكأنه اصيب بضربة
سوط ... وقبل ان يلمس القارب
الشاطيء ، ركل الجواد فجأة بعقبي
حذائه وانطلق به الي الماء الضحل .
وراح يحث الجواد على الســـــير

بصرخات الهنود الحمر •

وقال ابو الفتي :

ـ سوف يوقفونه عند قلعـــة (فورت هانتر) •

ولكن قبل ان يصلوا الي القلعة ، وجدوا جواد الفتي يقف بلا راكب ، ولكن كان من الصـعب اقتفاء آثار الفتي ، وسار ديل في طريق يؤدي للنهر ، وسرعان ما توقف في منطقـة مزدحمة بالاشجار واخرج منها الفتي وهو يركل ويعض ، واضطر مستر بتلر الي مساعدة ديل في سحبـه واعادته فوق جواده ، وعاد الركب مرة أخري الي طريق النهر •

كان القلق يبدو علي وجه مستر بتلر •• لقد كان يتطلع الي الوقت الذي يعود فيه ابنه الي البيت ولكنه لم يكن يعتقد ان عودته ســتكون بهذه الصورة !

غريب في البيت

مال ابوه في طريق تحفه اشجار الجوز الصغيرة •• كان هناك بيت من الحجر الجيري الي الامام ، وخلف نبع من الماء ، تقف دار كبيرة من الحجر ذات باب كبير متسع ، وعندما اقترب منها الفرسان ، خرجت الي الشرفة الامامية خادم معها صـبي صغير ، ووقفت الي جوارهما سيدة عجـوز •• وترجل بتلر وديل عن جواديهما أما الفتي فلم ينزل الا بعد ان أمراه بذلك •

وقال الاب للصبي الصغير :

عاد اخوك الي البيت » ••

ثم التفت الي تروصان وقال : « انك لم تر جوردون قط • لقد ولد وأنت بعيد • ولكنك تستطيع ان تذكر عمتك كيت » •

ووقف الفتي في ثوبه الهندي صامتا متجاهلا كل ما حوله • وحدقت في الخادم ، بينما راحت العمـة كيت ترمقه في استهجان ظاهر • أما الصبي الصغير فقد كان يبدو وكأنه لا يري شيئا غريبا في هذا المنظر ، بل اخذ يحدق في اخيه بغبطة واعجاب ••

وقال الاب :

ـ هيا بنا الي الداخل •

وفي القاعة الفسيحة ، سمع صوت سيدة تنادي من الطابق الاعلي بلهفة : « هاري ! »

ونظر الاب الي الجندي الحارس وقال له :

ـ يستحسن ان تأتي معنا •

كانت الغـرفة التي دخلوها في الطابق الثاني كبيرة مشمسة ، والي جوار النافذة ، اضطجعت سـيدة ترتدي ثوبا ازرق علي اريكة ، وكان



الكمين ...

شعرها وعيناها السوداوان ، ونظرة اللهفة التي القتها علي الفتي تدل كلها علي انها امه التي أصابها المرض وظلت طريحة الفراش منذ خطف الهنـــود ابنها من احد عشر عاما ، ومازال كابوس الحادث يبدو لذهنها بين حين وآخر .

كان ذلك في موعد الحصاد وقـــد أحضر زوجها بعض الرجال لمساعدته في حصاد محصوله ، كما اخذ معه ابنه جوني الصغير ، وبينمـــا كانوا يحصدون القمح في ابعد الحقول ، كان الهنود يختفون بين الاشجـــار يرقبون العمال ، وانتظروا حتي اذا أصبحوا في منتصف الحقل بعيدين عن بنادقهم الموضوعة علي طول السور اطلقوا عليهم النـــــار فقتلوا عاملا وأصابوا آخر ، وهرب الباقون عـدا جوني الصغير الذي تركوه في ظـل شجرة جوز كبيرة .. وعندما عاد

الرجال بالنجدة ، كان الطفل قد ذهب •• وابقوا النبأ سرا عن أمه اطول فترة ممكنـــة ، ولكنهم اضطروا الي ابلاغها به في النهاية •

ولم يشعر الفتي بأمه الا عنـــدما جذبت رأســـه نحوها وقبلته وهي تصيح :

ـ انك تبدو اشبه بالهنود ياجوني •• بل انك تتحدث مثلهم • لقد مرت بك فترة عصيبة ، ولكن حمدا لله لانهم أبقوا علي حياتك ، وانك عدت مرة اخري الي بيتك •

وانطوي « تروصان » علي نفسه في ركن بعيد •• فقـــالت امه في انفعال :

ـ الا يذكر شيئا من اللغـــة الانجليزية ؟

فقال ابوه :

ـ انه يفهم الكثير كمـــا نظن ، ولكننا لا ندري مبلغ قدرته على الكلام بها فهو لم ينطق حتي الآن غير كلمات قليلة •

وقالت امه برقة :

ـ لقد امضيت وقتا طويلا بعيدا يا جون ، فتوقف تعليمك واضطررت ان تعيش في ظلام الكفر والجهل ، ويجب الآن ان تعوض ما فاتك • لقد اوشكت ان تصبح شابا واهمما يجب ان تعرفه الآن هو لغتك الانجليزية •• وسنبدأ بذلك فورا • انني امك « ميرا بتلر » وهذا ابوك هاري بتلر ، وذاك اخوك جوردون • وانت جون بتلر •• قل معي : « جون كاميرون بتلر »

ولكن الفتي لم يقل شيئا بل وقف صامتا ، فأخذت امه بعض الملابس التي كانت تصلحها ، فسري الانقباض في نفس الفتي وهو يري بنطلونا رماديا وسترة صفراء مما يرتديه البيض ، وقالت امه :

ـ عنـــدما سمعت انك عائد ، استعرت هذه الثياب من ابن عمـك اليكس •• هيا ارتدها الآن لاري كيف تناسبك •

فنظر الفتي الي البنطلون والسترة في كراهية •• فقال له ديل بلهجـة حادة :

ـ ألم تسمع ما قالته امك ؟

ولكن الفتي ظل ساكنا ••• كيف يلبس مثل هذه الاشياء ؟ ••

ومد أخوه جوردي يده فتناولها من أمه ، وصحب أخاه الي خارج الغرفة وهو يقول في لهفة :

ـ عندما ترتدي هذه ، هل تعطيني ثيابك الهندية يا تروصان لكي اصبح هنديا ؟

ولم يقل الفتي شيئا حتي بلغ الغرفة التي قاده اليها اخوه الصغير .. وبعد لحظة واحدة ، تبادل الشقيقان نظرة تفاهم واحترام متبادل

قصة بشتانك

في تلك الليلة ، رقد الفتي في المكان الغريب الذي خصص له هو والحارس ديل ، وكانت الجدران والسقف مغطاة بالطين السميك الذي كسي بالورق لكي تصبح محكمة الاغلاق ضد الهواء وكانت المنافذ الوحيدة قد سدت بأبواب خشبية ومربعات زجاجية .

واحس تروصان انه وضع داخل قبر مغلق .. لقد عرف الآن لماذا يبدو الشحوب على الانجليز فهم يحبسون أنفسهم بعيدا عن الهواء مصدر الحياة ، فهم اشبه بالحشائش الخضراء التي ابيض لونها لانها نشأت تحت احجار لا تصل اليها الشمس .

ولكن الشيء الذي جعل الفتي يقضي أغلب ليلته الاولي مستيقظا ، هو احساسه بأن اعداءه حوله . فمازالت قصة « بشتانك » التي سمعها من أبيه ماثلة حية في ذهنه .

قال ابوه : انها حدثت في الشهر الذي يزعم فيه البيض ان ربهم الطيب ولد فيه . وكانت قبيلة «كونستوجو» الهندية قد اعتنقت دين الرجل الابيض ، وعاشت بين البيض في سلام بأفرادها القليلين ، ثم جاء البيض المتوحشون من بلدة بشتانك علي ظهور الخيل يحملون بنادقهم وبلطهم .... وكان هنود الكونستوجو مخلصين في دينهم فلم يظهروا اية مقاومة ، فلم ينج منهم غير الذين كانوا بعيدين عن البلدة في ذلك الحين .

وقالت « استونا » اخت تروصان تسأل :

ـ وكم عدد الذين نجوا ؟

فقال أبوها بصوت اجش :

ـ لم ينج أحد في النهاية . فعندما عاد الغائبون لم يجدوا قريتهم . كانت الاكواخ قد احرقت ، واخوانهم قد قتلوا ، فذهبوا الي مدينة «لانكستر» البيضاء وطلبوا وضعهم في السجن ليكونوا في أمان كما ظنوا بعد ان فقدوا حرصهم الهندي ... وقبل عيد ميلاد الزعيم المسيحي بيوم أو يومين ، عاد البيض الهمج ، واقتحموا أبواب السجن دون ان يحاول اي رجل ابيض مقاومتهم ، وقتلوا علي بكرة أبيهم ... وبينما اعتاد الهنود تبني الاسري الذين يحبونهم ، وأن يجعلوهم اعضاء في أسرهم يتمتعون

بكل ما لديهم ، فان البيض لا يريدون أن يشاركوا الهنود حتي في الهواء الذي يستنشقونه •

ولقد اعتاد هؤلاء البرابرة البيض سلخ فروة رءوس الهنود ، وقطع أيدي الرجال والنساء • وذات مرة وضعوا فوهات البنادق في فم أحد أبناء عمه الهنود بينما كان يتكلم ونسفوا رأسه الي قطع صغيرة •

بذور الحقد

في اليوم التالي كان الفتي لايزال محجما عن ارتداء السترة والبنطلون الكريهين • وعلى مائدة الافطار ، نظر ابوه وعمته كيت الي ثوبه الهندي باستهجان ، ولكنه لم ير أمه ••• وعندما بدا أمامهم بثوبه الهندي مرة أخري علي مائدة الغداء قالت عمته في صرامة بالغة :

ـ كفى هذا يا جوني ••• ان أقاربك قادمون لرؤيتك ، ويجب الا تبدو أمامهم كالمتوحشين القذرين يجب ان ترتدي هذه الثياب وان تغتسل اولا ، والا فعلت هذا بنفسى •

وخجل تروصان ••• وادرك ان هذه المرأة القوية الكئيبة المظهر تعني ما تقول ، وانتهز جوردي رد الفعل الذي بدا علي أخيه وقال : « سوف اريه كيف يفعل ذلك يا عمتي » •

وعلمه جوردي كيف يستخدم الماء والصابون ، وبينما كان يستحم اخذ ينهال عليه بالاسئلة عن حياته بين الهنود ، وعندما انتهي ، ارتدي تروصان الملابس التي يحتقرها ،وذهب ليقدم نفسه الي أمه في غرفتها •

وفي ذلك الحين كان الضيوف قد أقبلوا ، فهبط الي الطابق الاسفل ببطء حيث قاده ابوه في ارجاء القاعة الكبري وهناك صافحه ١٢ شخصا من أعمامه وعماته وابناء أعمامه البيض ، وأخيرا تركه ابوه بين اثنين من أعمامه ، أحدهما نحيل طويل الساقين متهدل الجلد هو عمه « اوينز » الذي قال له :

ـ يمكنك ان تشكر حظك الطيب لانك تخلصت من قبضة هؤلاء الشياطين يا جوني •

أما عن ويلز ـ وهو رجل قصير متين البنيان ـ فقد اجتاح الفتي بعينين أقل ودا وقال مزمجرا :

ـ انه مازال يبدو في نظري هنديا •• كم امضي مع هؤلاء المتوحشين ؟ أحد عشر عاما ! ان المرء اذا اصبح هنديا مرة ، ظل هنديا دائما •

فقال ابوه في قلق :

ـ ان جوني ليس هنديا ... انه له نفس الدم الابيض الذي لك ولي .

فقال العم ويلز :

ـ ربما كان ذلك في يوم ما . ولكن المتوحشين جعلوا دمه أحمر بالافكار الوثنية التي ادخلوها فيه : الشــر خير ، والخير شر ، والسرقة فضيلة والكذب فن ، والذبح وقطع فروة رأس النساء والاطفال البيض هما النصـر الاكبر ! انظر اليـــه الآن وهو يقف هادئا باردا كالهندي انني احـذرك يا هاري ، فهو يدبر شيئا شيطانيا في أعماقه .

ثم التفت الي تروصان وقال بعينين تلتهبان غضبا :

ـ قل الحق يا فتي .. اليس هذا ما تفعله الآن ؟

ولم يظهر علي تروصان انه سمع شيئا ، فزمجر عمه قائلا :

ـ لماذا يصمت ؟ .. كيف لا يرد على من هم افضل منه ؟

ونقل ديل الاسئلة الي الصبي بلغة الهنود ، فقال العم ويلز :

ـ ما هذه اللغة ؟ الا يستطيع ان يتكلم بالانجليزية بدل هــذا الخليط الهندي الانجليزي الحقير ؟

وأحس الفتي انه لايستطيع الصمت اطول من ذلك بطريقة مشرفة ، فنصب قامته وقال كلاما بلغـــة ديلاوير ، ترجمه ديل قائلا : انه يقول « ان لغة ديلاوير ليست لغة حقيرة ، فعندما يجتمع الهنود من قبـــائل مختلفة ، يتحدثون معا بهذه اللغة التي تعتبر لغة اساسية لهم ، كما ان كثيرين من البيض يتكلمون بها .. وهو يقول انها لغة غنية فهناك وسائل كثيرة يمكن ان تقول بها نفس الشيء ، ويمكنك دائما ان تقول بها ما تعنيه بالضبط . كما يقول ان اباه الهندي كايلوجا اخبره ان هناك اكثر من ٢٠ طريقة لذكر اسم « الله » بلغة ديلاوير ، وكل منها يعني شيئا مختلفا .

وقاطعه العم ويلز قائلا :

ـ انني لااستطيع ان احتمل ذلك .. اتعني ان كايلوجا الكافر الذي سرق جوني وزعم انه اباه يتحدث عن الله قبل ان يخـــرج لقتـل المسيحيين والمسيحيات !

وغضب تروصان لهذه الاهانة التي لحقت بأبيه الهندي ، فنهض واقفــا ونظر الي عمه في غضب وراح يتحدث اليه بسرعة ، فقال عمه ثائرا :

ـ لقد كنت تكذب علينا اذن عندما قلت انك لا تســتطيع التحـــدث بالانجليزية .

ـ انني لم اكذب ••• فأنا لم اقل شيئا •

ـ ولكنك حاولت ان تخـــدعني بسكوتك لنعتقد انك لا تفهم ما نقول • انها حيلة هندية قديمة ومن اجل هذا نال « الكونستوجو » ما يستحقون • لقد ادعوا انهم مسيحيون ليمكنهم قتل البيض دون ان يشك فيهم أحد او يعتقلهم •

فقال تروصان :

ـ كان لديكم ٤٠ او ٥٠ رجلا ، ومعكم سكاكين وجياد وبنادق وبلط ، فسلختم رؤوس الرجال الهنود وقتلتم النساء والاطفـــال ، وقطعتم ايديهم واعضاءهم ورؤوسهم •• ولم يعبـــأ العم ويلز بنفي هذه التهمة ، بل حدج ابن اخيه بنظرة غاضبة ثم قال لاخيه :

ـ كل ما ينبغي ان اقوله ياهاري ، هو انه من الافضل مراقبته ••• فهو اذا وقف ضد أقاربه وجيرانه البيض فسيكون عرضة للايذاء •

ثم التفت الي تروصان وقال :

ـ وسأقول لك شيئا آخر : اياك ان تدعو احد اصدقائك الهنود لرؤيتك هنا •• فاذا كنت تتوقع زيارة من أحد خاطفيك الكفرة ، فالافضل ان تطلب منه الابتعاد •

وأصاب قلب الفتي رعب مفاجيء ، وهو يفكر في احتمال حضـــور ابيه الهندي ، فتدفقت الكلمات المريرة من بين شفتيه مهاجما عمه الابيض وقال :

ـ كان هناك رجل ابيض يعيش مع الهنود وتزوج هندية علي طول نهر ماسكنجهام ، وانجب ثلاثة اطفـــال كلهن بنات •• وذات يوم قرر العودة الي قومه ، فقتل زوجته وبنـــاته الثلاث ، واخذ معه فروة رؤوسهن الي فيلادلفيا لبيعها ، واسم هذا الرجـل ديفيد اوينز ولعلك شقيقه •

ونهض عمه ويلز كالقط العمـــلاق وصفع الفتي بقوة القته ارضـــا ثم صاح :

ـ كلا •• انني لست شقيقه ولكنني اود ان اكون كذلك •• لقد ادي واجبه لبلاده وشعبه ، فهو يؤمن بوجـوب التخلص من هذه الديدان ، وكذلك انا

وبصعوبة بالغة عاد تروصان الي وقفته الصلبة ، وقرر الا ينطق بكلمة أخري ،وكانت هناك علامة بيضـــاء تركتها يد عمه علي فمه ، ولكنـــه نظر الي صاحب هـــذه اليد بعينين تشتعلان حقدا وكراهية بالغتين •

في ذلك المساء خلع تروصان ثياب ابن عمه « اليك » • ولم يستطع احد ان يغـــريه بارتدائها ، كان في كل صباح يرتدي ثياب الهنود ، وعندما

منعه ابوه من النزول للطابق الاسفل بهذه الثياب ، جعل من غرفتــــه سجنا • وبعد أيام قليلة • جاء حائك البلدة ليصنع له ثيابا جديدة ، كما وصل صانع الاحذية لاخذ مقـــاس قدميه ، ولكن تروصان تجاهل الثياب والاحذية الجـــديدة •• وبينما كان نائما ذات ليلة اخذت العمة كيت ثيابه الهندية واخفتها ، فاضـــطر لارتداء ثياب البيض ، حتي لا يلازم فراشه •

مرض عنيد

ظل الفتي يرقب التـــلال البعيدة منتظرا وصول رسول من قومه ••• لابد ان تصل اليه رسالة من ابيـــه الهندي تعزز شجاعته عنـدما نزهر الاشجار ••• ولكن الاشجار ازهرت وبدأت اوراقها تتساقط دون ان يصل اليه شيء ••• وظهر انه اصبح ميتا بالنسبة لاهله الهنود ، ونسوه كأوراق الخريف الماضي •

وكان أسوأ شيء بالنسبة له ، هو انه احس ان شيئا ما حدث لروحه الهندية التي لا تقهر ، فعنـــدما أخذوه من أهله الهنود لاول مرة كان على استعداد لمقاتلة جيش بأسره لكي تتاح له فرصة العودة • اما الآن وقد مضى عليه فترة طويلة في صحبـــة البيض الاشرار ، وتسللت ميـــاههم الدافئة الي دمائه ، فقد اصبح اليفا ذلولا كجواد الحرث في الحقل ، وقد ثار في البداية علي حمل الفأس والعمل في الحقل لان هذا العمل من اختصاص النساء في قبائل الهنود ، ولكن اباه الابيض قال له انهم ينظرون الي الامر نظرة مختلفة •

زيارة من هاف ارو

وبعـــد فترة من الوقت اصيب تروصان بمرض شـــديد ورقد في الفراش وهو علي وشـــك الموت • وذات مســـاء أحس تروصـــان باحساس غامض بأن شيئا غير عادي يحدث ••• وسمع صوت جـــواد يركض خببا ، ثم سمع ضجيجـــا ينبعث من الشرفة الخلفية للمنزل • وصوت عمته كيت تصيح في غضب : « اذهب •• اذهب بعيدا »

وسرعان ما جـــاء جوردي الي الفراش الكبير الذي يشاطر فيه شقيقه الاكبر ، وقال في تأثر ان العمة كيت شاهدت هنديا يختلس النظر من نافذة المطبخ ، ولكنها عندما ذهبت الي الباب بالمكنسة اسرع الهندي هاربا في جبن !

وظل تروصان راقدا في سكون حتي رسخت الكلمات في رأسه ••• هناك واحد من قومه الهنود قريبا من هذا المكان ، لعله يحمل الرسالة التي طال

انتظارها ، وأحس بصدره يتفتح ، وتدخله اول قطرة من مادة مانحـــة للحياة ، وبدأت الغصة التي في أعماقه تذوب ٠٠ وانتظر بلا حراك حتي نام شقيقه جوردي ، ثم جلس في فراشه ٠

ومع انه كان في حالة ضعف شديد ، فانه أحس انه أقوي مما كان ينتظر ٠ واستطاع بعد قليل ان يضع قدميه على الارض ٠ ووجد ثيابه الهندية معلقـــة بجوار ثياب البيض ــ وكانت العمـــة كيت قد أعادتها بعد مرضه علي امل ان تكون عزاء له ولضميرها ايضا ــ وراح يرتديها وهو يستريح علي مقعد بين حين وآخر من فرط الاجهاد ، وأخيرا تسلق من النافذة المفتوحة الي سقف المطبخ المنخفض ، ثم ترك نفســـــه يسقط على الارض منزلقا كالعنكبوت ٠

وسار حتي بلغ حقل الاذرة الكبير ، وهناك توقف امام مجموعة من الاشجار الكثيفة يستطيع ان يختفى وسطها ٠ وفي غمرة السكون السائد راح يطلق صيحات مشابهة لصوت البومة الطويلة الاذنين في فترات منتظمة ، ثم سـكت فترة اعاد بعدها النداء عدة مرات الي ان سمع ردا ينبعث علي مقربة من حاجز الاشجار ، فكاد يقفز من مكانه ٠٠ وقال بصوت خافت بلغة ديلاوير :

« من انت ؟ »

وسمع صوتا مألوفا يقول :

ــ انني هندي ٠٠

ــ من اين اتيت ؟

ــ من مكان علي نهر سكاراواس

وعرف تروصان صاحب الصـــوت على الفور ، فصاح فينوبة فرح طاغية :

ــ هاف آرو ! ٠٠ الا تزال حيا ؟

واندفع الولدان كل منهمـــا نحـو الآخر ، وتعانقا وبكيا معا ٠٠ وقال هاف آرو :

ــ كدت لا اعرفك يا ابن العم ٠٠٠ لقد بدا صوتك كصوت شخص أبيض يحاول ان يبدو هنديا ٠

فتمتم تروصان في حزن :

ــ هل أصبحت سيئا الي هذا الحد ؟

وحكي له « هاف آرو » ما حدث له عندما وصل الي البيت وكيف طردته ســـيدة عجوز ، فقال تروصان : ان البيض لم تكتمل اخلاقهم بعد فهم لم يتعلموا كرم الضيافة الهندي ٠٠ ثم أضاف :

ــ اذا طلبت منهم طعاما فســـوف يطعمونك ٠٠

فقال هاف آرو :

ــ كلا ٠٠ لست جائعا ٠ فقد أكلت امس مع ليتل كرين

ــ ليتل كرين ! أمازال حيا ! ٠٠ ماذا يفعل بعد ان ترك زوجته البيضاء ؟

ـ لقد ظل يحـــدثني عنها طوال الطريق من تاسكاراواس ، ولكنها تقيم على مسافة يومين آخرين ٠

ـ ارجو الا يذهب اليها قبل‌ان اراه

ـ كلا ٠٠ انه لم يذهب ٠ وتستطيع رؤيته ٠

كان حديثه يبدو غريبا وهو ينطق هذه الكلمات ٠٠٠ وسار الصـــغيران معا ، بينما أخذ تروصان يذهـــال بأسئلته على هاف آرو ، وأحس الفتي ان روحه المعنوية قد ارتفعت ، فلم يشعر بالطريق الذي يســـيران فيه ، حتي اقتربا فجأة من أحد المراعى ، وهنا توقف هاف آرو عن الحديث ، وأخذ يسير ببطء وحذر ، فسأله تروصان قائلا :

ـ لماذا تسير هكذا بتثاقل ؟ ٠٠ لو انك اطلقت صفيرا فانه سيرد عليك الا اذا كان قد اصبح اصم لا يسمع ٠

فقال هاف آرو وهو يتنقـــل من شجرة لاخري في حذر :

ـ لقد اصبح اصم حقا !

وتوقف بعد قليل قائلا : « هاهو »

وحدق تروصان خلال الظلال ، فرأى شيئا أسود علي الارض ظنـــه كتلة خشب صغيرة ، فازداد اقترابا منه ، واستطاع حتي في ظلمة الليل ان يري علامات معطف « ليتل كرين » الذي كان يرتديه في الخريف السابق ، وقد بسط كالغطاء فوق جثة لا تتحرك ولا تتكلم !

وصاح قائلا :

ـ ليس هذا ليتل كرين !

ولكن هاف آرو اسرع نحو الكتلة السوداء وركع بجـــوارها ، ثم ازاح المعطف عن الجثة التي تتمدد ، فرأى تروصان في هلع جثمان صاحبها وقد انتزعت فروة رأسه !

وقال الفتي :

ـ من الذي فعل هذا الشيء الشرير يا هاف آرو ؟

ـ لقد جاءت الطلقات من الخلف ، وعندما نظرت ورائى ، كان القصابون هناك وراء الاشجار ٠

ـ أين كنتما ، وماذا فعلتما لكي يطلق عليكما هؤلاء الرجال النار في زمن السلم ؟

ـ لم نفعل شيئا ٠ وقد توقفنا في مكانين فقط ٠ الاول لنســـأل عنك ، فأرسلونا الي الثاني ٠ حيث عمـــك الابيض الذي يعمل لديه بعض الرجال في صناعة البراميل ٠

وعرف انه عمه ويلز الذي يمتلك محلا لصناعة البراميل ٠٠٠ انه الرجل الذي صفعه علي وجهه ٠٠ وقال :

ـ هل قلت شيئا أثاره انت او ليتل

كرين ؟

ـ كلا يا ابن العم ٠٠ فقبل ان ندخل المكان قال لي ليتل كرين اننا يجب ان نذكر اننا ضيوف على البيض ، وان نبدو سعداء ، ولا نذكر غير الحكايات السعيدة ٠

وبدا القلق علي تروصان ، وتذكر صديقه المرح (ليتل كرين) الذي اصبح الآن جثة هامدة ٠ ثم تعاون هو و (هاف آرو) علي حفر قبر يثوي جثمانه ٠٠

وسار تروصان في ضعف وتعب وقد تصبب عرقه ، متجها مع صديقه الي بيت عمه الابيض ويلز لسؤاله عن قاتل ليتل كرين ٠

ودق تروصـــــان باب البيت ذي الطابقين ـ الذي يوجد محل البراميل الي جواره ـ وفتح عمه الابيض الممتلىء الجسم الباب ، وما كاد الفتي يراه حتي ازدادت كراهيته له وقال في حقد :

ـ اين ليتل كرين ؟

فقال عمه :

ـ اذا كان هو أحد الهنديين اللذين جاءا هنا ، فانه يوجد حيث لن يستطيع ارتكاب شرور اخري ٠٠

وعرف القادم فجأة فصاح قائلا :

ـ أهذا انت يا فتي ؟ لقد كنت اعتقد انك مريض علي وشك الموت ٠٠ أيعرف أبوك اين انت ؟ ٠٠ اعتقد انه من الافضل ان أبقيك هنا حتي اخبره بذلك ٠

وامتدت اصابعه الغليظة لتمســـــك بالفتي بقوة ، وحاول تروصان تخليص نفسه عبثا فصاح لاهثا :

ـ النجدة !

وهنا برز هاف آرو بسرعة من بين الظلال ، وصوب ضربة قوية للرجـل علي حين غرة القته ارضا ولكنه كان أقوي من الصبيين معا ، فاستطاع ان يدفع هاف آرو الي الوراء ، وأمســـك تروصان بعنف حتي كاد يخنقه ٠٠٠ واسودت الدنيا في عيني الفتي وهو يري صديقه (هاف آرو) يتراجع وقد بدا في عينيه حقد الهنود العميق ، وأمسك في يديه عصا غليظة اهوي بها علي رأس الرجل الابيض ، فسقط علي وجهه هادرا كالثور ٠

واخرج هاف آرو سكينه قائلا انه سينتزع قلبه الاسود من بين ضلوعه ولكن تروصان صاح به :

ـ كلا ٠٠٠ انه يقول انه عمي ٠

فقال هاف آرو :

ـ حسنا ٠٠ سوف ننتزع شـــعر رأسه اذن كما فعل مع ليتل كرين ٠٠ هيا بسرعة ٠٠

وعكف الاثنان علي اداء هذه العملية بسرعة ، ولكنهما سمعا وقع أقدام على

ارض الطابق الذي يعلوهما وظهر احد عمال مصنع البراميل فجـأة في أعلي السلم ، وما كاد يراهما حتي اسرع بالعودة في هلع وقال تروصان :

ـ لقد ذهب لاحضار بندقيته ... هيا نجري معا .

وتركا الفريسة في أسف ، واختفيا وسط ظلام الليل ، واتجه تروصان الي مخزن الغلال حيث كان يخفي في كومة من الدريس كيسا من الدقيق وحقيبة جلدية بهـا بعض الرصاص وسكينا وبعض البارود ، وغطاءه القديم من جلد الدب ، وبندقية طويلة .

وقال لهاف آرو :

ـ لقد ذهب البعض يلتمس نجـدة لامساكنا .

وسمعا أقدام الجياد وهي تعـدو عبر الوادي ، فانطلقا مسرعين نحـو جبل كيتناني ، حيث ظلت اصـوات الجياد تتابعهما ، مطلقة صيحة الانذار في بلدة « باكستون » .

عالم الهنود

وظلا يسيران عدة ايام الي ان بلغا نهر « الليجني » ثم استقلا قاربا أخذاه من أحد التجار ، ومضيا به في النهـر حيث كانا يسيران ليلا ، ويختفيان في النهار على ضفة النهر ، واستمرا في السير حتي تجاوزا (فورت بيت) التي تقع علي نقطـة التقاء نهرين ، ثم تجاوزاها الى نهر اوهايو الذي يقـع وراءها .. وقال هاف آرو :

ـ اننا الآن في العالم الهندي ولن يستطيع أحد ان يأتي خلفنا هنا .

وكان اول ما فعلاه عندما بلغا نهـر « ماسكنجهام » انهما اغتسلا في مياهه الحبيبة ، وبدت لهما الآن كل ربوة وكل ضفة منظرا مألوفا ، وأخيرا وصلا الي المنحني الاخير حيث تقبع قريتهما بين الاشجار الضخمة ، وشاهدا الدخـان الازرق يتصاعد فوق الاسقف العالية ، واشباح اهل القرية تتحرك بين الاكواخ حيث تلقي الشمس ظلالها الطويلة عبر النهر .

واحس تروصـان برعشة تجتاح جسمه وكأنه يراها لاول مرة .

وعندما استقر قاربهما علي الشاطيء كانت هناك مجموعة صغيرة من النساء والاطفال تقف في انتظارهما على الضفة العالية ... وردا على الاسئلة التي وجهت اليهما بوقار ورباطة جأش ، فقد أصبحا الآن رجالا ، صادا الحيوانات ، وعادا من ارض اجنبية .. وحمـلا اشياءهما في هدوء ، وصـعدا الي الشاطيء دون ان يتلفتا يمنة او يسرة .

كانت امه تنتظره علي باب الكوخ ، ورأى نظرة الفرح التي بدت علي عينيها

وما كاد يصل الي الباب حتي انسحبت الي الوراء ، تاركة اياه يمر اولا ليقابل أباه الذي كان يقف منتصب القامة • وبدا وجه كايلوجا قويا لا يتأثر ، لا يستطيع أحد ان يقرأ ما يدور في خلده ، ولكن تروصان رأى في عينيه نظـــرة ترحيب عميقة ••• وتعانق الاثنان في ظل الكوخ ، بينما ازدحم حولهمـــا الكثيرون ، وأخذت العيون ترقبهما في سرور •

وقال الرجل :

ـ تروصان ••• الا تزال حيا ؟ •• هل عدت الي بيتك لتبقى ؟

مجلس الحرب

احتفلت القرية بعودة الغلامين ، وفتح والد « تروصان » وعمــــه كوخيهما للاصـــدقاء للحضـــور ومشاطرتهما الافراح وقدمت للرجـال الحلوي المصنوعة من دقيق الاذرة وزيت الدب وسكر الاشجار ولحم الغزال ، وأخذ المحاربون والصيادون يتنقلون من بيت لآخر يأكلون ويدخنون ، ولـكن تروصان احس ان ابناء عمومة « ليتل كرين » لم يشتركوا في هذه المهرجانات بل جلسوا علي كتلة من الخشب مع مجموعة من اصدقائهم ، وامتنعوا عن الترحيب بتروصان عندما مر بهم •

وقال هاف آرو :

ـ لو اننا احضرنا معنا فروة رأس عمك الابيض لما حدث هذا • ولـكن هون عليك فان ابي يقول ان كل هذا ســــــوف ينقضى وسيجففه الزمن كالجيفة •

وشعر الغلامان ايضا بقلق مماثل عندما جاء شقيق « ليتل كرين » من كيلباك وهو يدعى « ثيتبان » ومعناها « المر » وجاء معه « هاي بانك » والد زوجته ، ونيكستون الذي وشم جلده من الرأس الي القدم بعلامات الشجاعة ، وكان هناك آخرون بينهم « تشيك بون » من قبائل الشواني يحملون البنـــادق والبلط والمطارق واجتمعوا مع ابناء عم ثيتبان في دار المجلس الذي يقع علي مقربة من كوخ كايلوجا وهنا بدأوا في دق الطبول •

وعرف تروصان من وجه ابيه ان المسألة خطيرة ، فقــد اختفى مرحه ورزانته ، واخذ يصغى الي الطبــول واغاني الحرب والانتقام في كآبة ••• وكان شقيق ليتل كرين ينادي بالانتقام من أجل مصرع أخيه ويقول بصوت عال ان قضية أخيه تنادي بالدم •

وقالت ام تروصان في الكوخ :

ـ ليس من الضروري ان ينضم اليهم اى انسان •

فأجاب بلاك فيش ، والد هاف ارو :

« كلا .. ولكنني لست اي انسان . لقد كان ابني هو رفيق ليتل كرين وقد سار معه في الرحلة التي قطعت فيهـا فروة رأسه ، فكيف ادير لهم ظهري ؟ »

وقال كايلوجا موافقا اياه :

ـ ان ظهري وظهري اعرض من ان نديرهما ... فالرحلة لزيارة ابني هي التي سلبت ليتل كرين حياته ، في قرية ابني البيضاء .

فقالت زوجته في توسل :

ـ اذا ذهبت فلا تأخذ معك تروصان وهاف آرو فهما مازالا غلامين .

ولم يرد كايلوجا وبلاك فيش ، بينما تبـادل الغلامان النظرات من وراء ظهريهما ، وبدا بوضوح انهما يتلهفان للذهاب ... وعنـدما ردد مجلس الحرب اغانيه الحربية ، امتلأت نفسا الاثنين تأثرا .

وقالت ام تروصـان لزوجها في مرارة :

ـ كايلوجا .. فكر فيما سيفعله البيض بابننا اذاقبضـوا عليه انهم سيحرقونه باعتباره خائنـا لقومه .

فقال كايلوجا مويخا اياها :

ـ ابقي في البيت يا امرأة واغلي قدورك .. هذا شيء لا خيار لي فيه .. لقد اصبح تروصان رجلا ، ولن يكون من اللائق ابقـاؤه وراءنا .. سيقول اصدقاؤنا انه ابيض بكـل تأكيد وانه لا يرغب في قتال قومه البيض .

فقال تروصان بسرعة :

ـ سأذهب معكم ..

ووقف منتصب القـامة ، وأدار بصره بعيـدا لكيلا يري الالم الذي ارتسم بسـرعة على وجـوه أمه وشقيقاته الهنديات .. وعندما انضم كايلوجا وبلاك فيش وولداهمـا الي اصدقاء ليتـل كرين وابناء عمه ، التأمت الجروح بين الطرفين ، فقد أصبح الجميع اخوانا في السلاح ضد البيض السفاحين .

فروات الرؤوس الاولي

عرف تروصـان من مستنقعات الاشجار وميل الشمس انهم يسيرون مع الريح الشرقية من أحد الجوانب وريح الجنوب من الجانب الآخر ، ثم عبروا نهر الاوهايو عند ضفة رمليـة عميقة ، وصعدوا تلالا غريبـة ثم انقسموا في أحد اودية الغـابة الي فريقين ، أحدهما برئاسة بلاك فيش وقد ظل سائرا في هذا الطـريق ، والثاني بزعامة « ثيتبان » وكايلوجا وقد دار الي الجنـوب حيث ذكر « ويسبليفر » انه توجد اكواخ للرجال

البيض ، وسار الغلامان مع الفريق الاول •

وعندما اجتمع الرجال جميعا عند الاصيل ، لاحظ تروصان على الفور ان فريق ثيتبان يحمل معه بعض الاحذية والاشياء الاخرى ، وسرت القشعريرة في دمه كالزئبق وهو يرى بعض فروات الرؤوس معهم ، وكانت احـــداها سوداء داكنةكالحديد الصدىء ، واثنانية بنية اللون ذات خطوط شهباء ••• كما كات هناك فروة صفراء ذات شعر طويل ناعم كلون اغصان الصفصاف في الربيع •

- وفي ذلك المساء ، جلس الغلامان الى جوار النار يصغيان الى وصفالمعركة وقد سردها الذين اشتركوا فيها بكل تفاصيلها ، وكيف نصبوا كمينا ناجحا للبيض الذين اظهروا جبنا وحاولوا الهرب ولكن ذكرى فروة الرأس ذات الشعر الناعم الطويل بلون اغصـــان الصفصاف في الربيع ظلت تتسلل الى دماء تروصان وكأنها ديدان طويلة تسد تدفقه الحار المنطلق ••• وحاول أن يتناسى ما قاله لامه البيضاء من انه لم ير الهنود ينزعون فروة رأس طفل على الاطلاق •

وقبل ان يرقد لينام الليلة ســـأل اباه :

ـ هل الاطفال الصغار البيض هم أعداؤنا ايضا ؟

ولم يجب ابوه ، بل ظل صــــامتا ينظر في ترفع وكأنه يقـــول انه لم يرتكب هذا العمل ، ولكن « ثيتبان » الذي افتخر بأنه صاحب هذه الرأس الصغير قال في غضب :

ـ أجل انهم اعداؤنا ••• أكان أخى صغيرا ام كهلا ؟ ••• انه لم يكن اكثر من فتى صغير ، ومع ذلك فقد قتله عمك الابيض •

فقال تروصان في تواضع :

ـ لقد وضح الامر لي الآن يا ابن العم •• ارجو ان تغفر لي جهلي فانني لم اكن اعرف اننا نحـــارب الاطفال !

وأثارت كلماته تمتمة استهجان • وقال ثيتبان :

ـ يا ابن العم الصغير ••• انني لم احارب اطفالا ، ولكنني وانا فى طريق العودة كان لابد لي من أخذها أسيرة ، ولما كان وجود الطفلة يعرقل تقدمنا ، فقد رأيت انه من الاخف حمل فروة رأسها بدلا من جسمها •

ولم يقل تروصان شيئا ، وان أحس بالسخط الذي بدا في العيون بســبب هذا النقد الذي أبداه غلام صغير •

وفي اليوم التالي ، وصلوا الى نهر

فسيح ، وانضم اليهم هندي يدعى « اندر ذي هيل » وقال ان هنـــاك قاربا يمتليء بالبيض قد مر منـــذ قليل ، وانهم لو جاءوا قبل ذلك بساعة واحدة لامكنهم جره الي الشـــاطيء ولحصلوا علي بنادقهم وبارودهم •

وعقد المحاربون مجلسا بسرعة ، وقرروا انتظار قارب آخر ، وعندئذ قال ثيتبان لكايلوجا :

ـ يستطيع ابنـــك الآن ان يكون مفيدا في شيء ••• فهو يستطيع غدا ان ينادي علي ابناء عمه البيض فاذا اقترب القـــارب ، سنهجم عليهم بالرصاص والبلط •

الكمين

كان القارب اكبر مما كان يتوقع ، وقد ازدحم بالبيض وحاجاتهم ••• وبعد قليل رفع يديه الي أعلى وصاح بالانجليزية : « اخواني •• النجدة يا اخواني •• انني انجلـــيزي •• أبيض البشرة مثلكم »

وبدا ان القارب يبطيء سيره ، ثم اوقف الرجال حـــركة المجاديف ، وانجرف القارب مع التيار بينما كان ركابه يحدقون في الفتي •• وعندما قلت المسافة بينهم وبين تروصان ، رأى بينهم نساء كثيرات •• فصاح :

ـ ايتها الامهـــات ••• خذوني معكن •• انظرن الي • انني فتي أبيض • خذوني معكن حتيلا اموت جوعا •

واستطاع ان يسمع الجدل العنيف الذي ثار في القـــارب ، وفهم اكثـــر الكلمات •• كان البعض يصـــدقه والبعض الآخر يصيح مطالبـــا بالاستمرار في السير لانهم لا يثقون في هذا الفتي الغريب ، الذي ينادي « اخواني وأيتها الامهات •• » مثل المتوحشين •• والذي قص شـــعره حول اطراف رأسه كالهنود !

وقال احد الرجال : انه لن يقترب اكثر من ذلك ولو كان الفتي يحمـــل انجيلا بين يديه ، ولكن احدي النساء قالت لهم انهم جبناء وانهم اذا كانوا يخشون اخـــذه معهم فانها ستأخذ مجدافا وتفعل ذلك بنفسها •

واذعن لها بعض الرجال ، واخـــذ القارب الثقيل الحمولة يقترب شيئا فشيئا من ضـــفة النهر ، وأحس تروصـــان بالبهجة التي سرت في أصدقائه الهنود الذين يختفون علي الشاطيء •

وفجأة تحرك شخص ما في القارب فكشف خلفه عن طفل • كان في مثل سن جوردي ، يرتدي ثوبا اســـود يحيط به شريط عريض كالثوب الذي اعتاد ان يرتديه اخوه الصغير •••

حدق تروصان بنظره • ثم توقف
جأة عن اطلاق توسلاته •• وخطر
باله خاطر رهيب : ايكون امه وابوه
ي هذا القارب وقد جاءا للبحث عنه
معهما جوردي ؟

ونسي من هو واين يوجد ، ولم
بعد يدري الا ان طفلا مثل جوردي
يقترب من بلط وبنادق رفاقه المختفين
•• وسمع صوت الطفل الرقيق يتحدث
لي امه في القارب ، فارتعدت اوصاله
صاح فجأة •

ـ عودوا بسرعة •• انه كمين !

وحدق الرجال في ذهول لحظة ،
ورأى تروصان الرعب والهلع يبدوان
على وجوه النساء البيض ومالبث
الرجال ان اسرعوا يجدفون ليعودوا
بالقارب بعيدا عن مرمي البنادق •
وعندما وضح ان الفريسة تهرب ،
انطلقت رصاصات الهنود كالسيل ،
واحني الفتي رأسه حتي يتفاداها ••
وعندما خرج الهنود من مخابئهم الي
ضفة النهر يصرخون ويعيدون تعبئة
بنادقهم ، كان القارب قد ابتعد الي
وسط النهر متجها نحو الضفة
الاخري !

لا أحمر •• ولا أبيض !

لم يدرك الفتي خطورة ما فعله الا
بعد ان عاد الي الشاطيء •• لقد
غدر باخوانه • وعندما صعد الي
ضفة النهر لم يستقبله أحد ، حتي
(هاف آرو) اشاح بوجهه بعيدا عنه
ماذا يمكن ان يقول لهم مما يمكن
ان يفهموه ؟ انه لا يفهم نفسه •••
ووقف في تعاسة والماء يتساقط منه
بينما انسحب المحاربون الهنود
لمناقشة امره ••• كان يسمع بين
حين وآخر كلمات « ثعبان » ••
« جاسوس » ثم امسك به ديسبليفر
واندر ني هيل وقيدا يديه وقدميه •
ثم اخذ الاول قطعة فحم من النار
وسود نصف وجه تروصان ، بينما
أحضر اندر ني هيل قطعة طفل بيضاء
من ضفة النهر ، صبغ بها النصف
الآخر وعرف الفتي معني ذلك •••
انهم هنا في محكمتهم سوف يقررون
مصيره •• هل يحرقونه ام يتركونه
حيا ؟

وبدأ ثيتبان بالادلاء بصوته اولا ،
فالقي عصا غليظة في النار ، دلالة على
انه يختار الحرق ••• واخذ الآخرون
يلقون عصيهم واحدا بعد الآخر ،
وعندما رأى (هاف آرو) كيف تسير
الامور ، دار علي عقبيه وخرج يتعثر
من الغابة • ورآه تروصان في رثاء وهو
يختفى بين الاشجار •• كما لاحظ ان
اباه انتظر الي النهاية ، ثم اتجه نحو

النـــــار في ترو ... فغاص قلب تروصان ، فقد أحس عن ثقة ان اباه قد انضم في التصويت ضده .

ولكنه رآه لا يحمل اي عصا ... بل التقط من النار عصا محترقة ، وبدأ يسود وجهـــه من الجانبين ويديه وواجههم قائلا :

ـ اخواني .. ماذا تنتظرون مني ؟ هل اقف ساكنا وانتم تحرقون ابني ؟ ان ابني لم يتسبب في موت احد منا والخدوش التي احـــدثها ليست في أجســـامنا ، بل في كبريائنا ... اخواني . لو انكم احـــرقتم ابني ، فكيف استطيع العودة ومواجهة تلك التي تعيش معي في منزلي ؟ كيف انظر في عيني شقيقاته اللواتي يعتقدن إن قوس قـــزح يخيم فوقه ؟ ... اخواني . اسهل ان اقاتلكم جميعا من ان اعود واقول ان كايلوجا وقف ساكنا دون ان يفعل شيئا وهم يحـــرقون ابنه .

وفي سرعة النمر الارقط اســـتل سكينه وقطع قيود الفتي ، ثم وقف بجواره في انتظار الهجوم ولكن احدا لم يتقدم .. لقد دهش المحاربون ايما دهشة ، فوقفوا يرقبون المأساة فى اكتئاب .. هاهو كايلوجا العظيم في اشجع مواقفه ، ولا احد يعرف ماذا سيفعل بعد ذلك .

وعندما رأى ترددهم في مقاتلته التفت نحــــو الفتي وقال في وقا ورزانة :

ـ تروصان .. عندما كنت صغير جدا ، تبنيتك في اسرتي ، فكنت لـ كابني تماما . وعلمتك كيف تنط بلسان مستقيم . وعرفتك الخطـــ والصواب .. وتعلمت الصيد والقنص .. كنت أقول لنفسى انني عندما ته عظامي ، سوف تعولني بزيت الد ولحم الغزال ... وعندما تبرد رما حياتي ستكون النار التي تدفئني ف شيخوختي ولم يخطر ببالي قط انا سوف تنقلب علي ، وانني سأضط الي اعادتك لاهلك البيض . لقد كنـ انظر اليك دائما باعتبارك هنـــديا ولكن هذا كله تحطم الآن ..

فقال تروصان في انفعال :

ـ أبي .. انني لن أعود أبدا الي البيض . انهم غرباء بالنسبة لي . انهم اعدائى .. ابي . اذا كان لابد ان ارحل فانني سأرحل ، ولكنني لن اذهب أبدا الي البيض .

ونظر اليـــــه كايلوجا في صرامة واشفاق فترة .. ثم قال :

ـ تروصان .. ان قلبك هندي ورأسك هندي ولكن دمك مازال رفيعا

البيض • يجب ان ترحل معى من
نا • وعندما نصل الى طريق الرجل
بيض يجب ان تذهب من طريق ،
نا من الطريق الآخر ، وبعد ذلك
سوف يغلق الطريق بيننا • اننا لم نعد
ا وابنا • نحن اعداء • وعندما نجتمع
يما في معركة فلابد ان تقتلني ، لان
ذا ما يجب ان أفعله لك •

وجمع الاثنـــان حزمتيهما •••
سار كايلوجا وخلفه تروصـــان ،
قرب ظهر اليوم التالي ، وصلا الي
خاضة في النهر •• كان هنـــاك
طريق فسيح قادم من الشمال عبــر
النهر •• وفي احساس سقيم ، رأى
الفتي في الطريق آثار عربات الرجال
البيض • فقال أبوه في كآبة :

ـ هنا يجب ان نفترق •• هنـا
يجب ان يغلق الطـــريق بيننا • ان
مكاني على هذا الجانب ومكانك هناك
•• واذا عدت فانني لن اســـتطيع
استقبالك • وسيقتلك الآخرون •

ووقف الفتي هناك فترة طويلة •
وكان يعرف ان اباه ينتظر رحيله ••
وأخيرا قام هو بالخطوة الاولي وعندما
بلغ حافة المــاء استدار علي عقبيــه
وقال : « ابي ••• هل يودع كل منا
الآخر هنا ؟ •• »

فقال كايلوجا بخشونة : ان الاعداء
لا يفعلون ذلك ••• انني لم اعد اباك
ولم تعد ابنا لي •

فصاح الفتي في يأس :
ـ ومن يكون ابي اذن ؟

واســــتدار بسرعة ليخفى دموع
عينيه ••• ولم يسمع اي رد خلفه ،
وبعد لحظة أجبر نفسه علي السير في
الماء ، وعندما ادار وجهه ، كان ابوه
الهندي قد ذهب ••• ووقف هو وحده
في الغابة بجوار النهر •

***

كان الطريق المليء بآثار عربات
البيض يجري الي الامـــام ••• انه
يعرف انه ســــيؤدي به الي اناس
قيدوا انفسهم بمحض ارادتهم في ثياب
ثقيلة كسروج الخيــل ••• رجــال
اختاروا ان يكونوا عبيدا لما يملكون او
يملكه غيرهم ، ويعيشون حياة خالية
موحشة ، أبعــد كثيرا عن الحرية
المحبوبة التي يعيشـــها الهنود فى
البراري !

***

عمليون !

عرف اليابانيون بانهم قـوم عمليون ..ولهذا قرروا ارجاء اجراء دراسة في ارتفـاع تكاليف المعيشة ، لانها سوف تكلف الكثير !

١ - كتاب الشهر

القصة العجيبة لحياة وكفاح هيلين كيلر



بقلم : ايشبل روس

عن كتاب

The Extraordinary Story of Helen Keller

رحلة الى عالم النور

ان لهيلين كيلر طابعا خاصا لا ينال منه الزمن ، يلازمها حتي في مظهرها ، ويلائم قصة حياتها التي تثير الدهشة .. فقد اصابها العمي والبكم والصمم في طفولتها الباكرة ، ولكنها استطاعت ان ترتفع فوق عاهتها المثلثة لتصبح من اشهر شخصيات العالم الحديث ، ومبعثا للالهام للعميان والمبصرين علي السواء في كل مكان . وعندما زارت اليابان في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، هرع الفتيان والفتيات في القري البعيدة لتحيتها صائحين : « هيلين كيلر ! » .. لقد نفذ اسمها الي الغابات ، حتي في الايام التي سبقت السينما والراديو ، وعلي الرغم من سرورها لهذه الانفعالات الانسانية ، فانها لا تريد ان تنفصل عن بقية الجنس البشري ، فهي تؤمن بأن فاقدي البصر يجب ان يعيشوا ويعملوا كبقية الناس ، وان

يتحملوا مسئوليتهم كاملة •

لقـــد كانت هيلين كيلر وهي في العاشرة من عمرها تقرأ في نهم بطريقة برايل ، وتستطيع التخاطب بطريقـة الابجدية اليدوية •• وفي ربيع ١٨٩٠ سمعت عن فتـــاة نرويجية مصابة بالصـــــم والبكم والعمي تدعى : «راجينهالد كاتا» تعلمت كيف تتحدث فأسرعت هيلين تكتب في يد مدرستها آن ســـوليفان عبـــارة : « لابد أن اتكلم » •

وصحبت مس سوليفان « هيلين » الي مس سارا فولر ناظرة مدرســـة هوراس مان للصم في بوســـــطن ، فشرعت مس فولر في العمـــــــل فورا ، وأخذت تمرر يد هيلين بخفة على الجزء الاسفل من وجهها وهي تضع اصابعها في فمها لتستطيع ان تحس وضع لسان المدرسة وأسنانها وحركة فكها الاسفل •

ثم وضعت مس فولر لسانها خلف أسنانها الامامية السفلي لكي تصدر صوت حرف I في كلمة IT ، وبعد ذلك وضعت سبابة هيلين فوق أسنانها ، ووضعت أصبعا أخري علي حلقها ، وكررت الحرف عدة مرات ، وما أن توقفت ، حتي طارت أصابع هيلين الي فمها وحلقها ، وبعــد ان نظمت وضع لسانها واسنانها ، نطقت صوتا قريبا مما صنعته المدرســـة حتي انه بدا صدي له !

وتدربا بعد ذلك علي حــرف (أ) و (و) من الحروف المتحركة، فرددتهما هيلين بوضوح • وجربتا بعــد ذلك كلمتي ماما وبابا ، فنطقت مس فولر كلمة « ماما » في رقة وفي نفس الوقت سحبت أصابعها علي ظهر يد هيلين لتشير الي الطول النسبي للمقطعين وبعد ان كررت ذلك عــدة مرات ، خرجت كلمتا « ماما » و « بابا » من شفتيها صحيحتين « مع عذوبة تكاد تكون موسيقية » •

وبينما كانت عائدة في ســـيارة الاتوبيس الي بيتها بعد درســـــها الســـابع ، التفتت هيلين الي مس ســـوليفان وقالت في همس أجوف : « انني لست بكماء الآن » وكانت تلك اول مرة تستخدم فيها الكلمات فعلا في نقل فكرة ما ، وقد تم ذلك بعد مرور شهر واحد علي درسها الاول في النطق •• وخرجت الكلمـــات البشرية من شفتي مخلوقة بلغت العـــاشرة من عمرها دون ان تنطق غير الاصـــوات الخشنة التي يصدرها البكم !

وتلقت هيلين احد عشر درسا من مس فولر ، ولكن تلك كانت مجـــرد

بداية لكفاحها الطويل مع الكلام ، فقد ظلت تعمل اسبوعا بعد آخر ، وشهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام لتحسين نطقهـــا ، فكانت تكرر الكلمـــات والعبارات ساعات طويلة ، مستخدمة أصابعها لتحس بالذبذبات من حلق مس سوليفان ، وحركة لســـانها وشـــفاهها وتعبيرات وجهها وهي تتكلم ‥ ولم تتوقف قط عن العمـــل لتحسين صوتها لكي تلقى كلمات امام النـــاس ، وتدير اغلب محادثاتها بالكلام المباشر ، ولاحظ المقربون اليها ان نطقها تحسن بصورة ملموسة وهي في عقـــدها السادس ، واطلق علي اتقانها للكلام اسم « اعظم نجاح فردي في تاريخ التعليم » وبعد سنوات من التدريب ، اصبحت هيلين بارعة في قراءة الشـــفاه عن طريق الذبذبات وكانت تستطيع سماع ما يقـــوله الآخرون ، ولاسيما اذا كان كلامهم واضحا رنانا بوضع الاصبع الوسطي على الانف والسبابة علي الشـــفتين والابهام علي الحنجرة ٠ وقد وجدت في فرنكلين روزفلت نموذجا مثاليا في هذا الصدد ‥ وكانت تسمع اجمـــل فكاهات مارك توين عن طريق الذبذبة كما تدفق صوت روزو الذهبي في يدها عندما كانت تضـــع اصابعها علي شفتيه ‥ وردد « فيودور شاليابين » اغنية ملاح الفولجا علي مسامعهـــا وذراعه تحيط بها باحكام لتستطيع ان تشعر بكل ذبذبة من صوته القـــوي وعزف لها جاشا هايفتز بينما كانت اصـــابعه تستقر علي كمانه برقة ، وقرأت اشعار كارل ساندبرج مـــن شفتيه ، كما سمعت اغاني الملاحين الشعبية القديمة من اطراف فيناره ، وأحست باهتزازات رقيقة عندما كانت يدها تستقر علي البيانو ، وتمتعت باللحن العذب ، كما استطاعت ان تلقى استجابة من الراديو ايضـــا عن طريق الذبذبة ٠

***

ان اول اختراق لحجب الظـــلام التي كانت تحيط بهيلين كيلر ترجع الي عام ١٨٨٦ وهي في السادسة من عمرها ، فقد ولدت ببلدة « تاسكامبيا » بولاية الاباما في ٢٧ يونيو ١٨٨٠ ، وكانت طفلة عادية حتي بلغت الشهر التاسع عشر من عمرها ، حيث كانت تتمتع بالزهور ، والطيور التي ترفرف في الجـــو ، ومنظـــر الاضـــواء والظلال ، ثم اصابتها « حمي في المخ والمعدة » ومرضت مرضا شديدا ، ولكن الحمي سكنت فجأة كما بدأت ٠

وسرعان ما لاحظت الام ان عيني

هيلين لاتطرفان عندما تقوم بتنظيفهما في الحمام ، فأخذت الطفلة الي طبيب للعيون ، وعرفت منه ان هيلين فقدت البصر ••• ثم لاحظت ان الطفلة لا تستجيب لرنين الجرس المرتفع وتبين انها اصبحت صماء كذلك ، ولم يكن هناك مفر من ان تصبح بكماء ايضا وهي في الثالثة من عمرها ، فنسيت الكلمات التي كانت تنطق بها وعمرها سنة ونصف سنة •

ونمت هيلين بسرعة ، وكانت قوية البنية جميلة التكوين ، ولكن روحها المرحة كانت تذوب في نوبات جنونية ، فقد كان فشلها في افهامهم ما تريد تتبعه نوبات ثورية عارمة •• كانت تلقى بنفسها على الحشائش، وتطلق صيحات لا يمكن السيطرة عليها •• وكانت آداب المائدة لديها مفزعة ، كما كانت تمتنع عن غسل وجهها أو ربط حذائها •• وكتبت بعد سنوات تقول : « كنت أشعر أن هناك أيادي خفية تمسكني ، وكنت اجاهد بجنون لاحرر نفسي منها »

كانت امها الرقيقة التي افزعها هذا السلوك العنيف تسلم لها بكل شيء ، وكانت هيلين تفيض بقسوة ضخمة بدلا من الجمود الذي يصيب عادة اي طفل مثلث العاهات مثلها ، وكانت مسز كيلر قد اوشكت على اليأس ، عندما امسكت كتاب تشارلس ديكنز « مذكرات امريكية » وقرأت فيه لورا بريدجمان الفتاة الصماء البكماء العمياء في نيوانجلند التي استطاع « صمويل جريدلي هاو » مدير معهد بيركنز ان يصل الي ذهنها •

وأخيرا صحبت الام طفلتها هيلين الي « ميشيل اناجنوس » الذي خلف الدكتور هاو في منصبه ، فأوصى بأن تتولي تعليمها فتاة ايرلندية كانت قد تخرجت لتوها من المعهد ••• وهذه الفتاة هي أن سوليفان التي أصبحت فيما بعد رفيقا لا ينفصل عن هيلين كيلر طوال نصف القرن التالي ••

وكانت طفولة آن سوليفان أيضا بائسة ، فقد كان ابوها المسكين يضربها دائما ، ويتركها جائعة مهملة ، وأخيرا وضعها في ملجأ للفقراء ••• وفي عام ١٨٨٠ دخلت معهد بيركنز بعد ان اصيبت بالعمي بسبب مرض التراخوما ، وأجريت لها عمليتان أعادتا اليها البصر ، ولكنها ظلت تعاني من عينيها طوال حياتها ، حتي عاد اليها العمي مرة أخري فيسنواتها الاخيرة •

وعندما وصلت آن سوليفان الي

الاباما ، اذهلتها هيئـة ميلين كيلر الجميلة والذكاء البادي علي وجهها ، وماكادت تهبط من العربة ، حتيهرعت اليها ميلين وتحسست ثوبهـــا ووجهها ، وحاولت ان تفتح حقيبتها ، وأثارت ضجة علي عتبة الباب عندما حاولت امها منعها ••• وقدمت لها مس سوليفان عروسة أرسلها أطفـال المعهد ، وعندما لعبت بها ميلين بعض الوقت ، تهجت مس سوليفان في يدها بحروف ع ر و س ة ، فاجتذبت هذه الحركة غير المألوفة اهتمام الطفلة ، وحاولت ان تقلد حركات الاصبع ••• وكان هذا اول جهد واع في سبيل تعليم ميلين كيلر •

وعندما حاولت مس سوليفان ابعاد العروسة عنها ، بدأت بينهمـــا معـــركة ، تبعتها معارك كثيرة • وابعدت ميلين عن أبويها اللذين اثارت انزعاجهما وأقامت في كوخ قريب ، ونشبت معركة عنيفــة بين الارادات ظلت عدة ايام ، وكان الصراع فيها بدنيا وعقليا في وقت واحد ، واخيرا كسبت مس سوليفان المعركة وان كانت قد اضطرت لامساك ميلين بالقـوة ذات مرة لمدة ساعتين لاخماد مقاومتها العنيفة •• وتقول المدرسة معقبة علي ذلك : « كانت روحها القلقة تتلمس طريقها في الظلام ، فأخذت يداها غير المدربتين ، غير القانعتين تدمران كل ما تلمسه ، اذ كانت لا تعـرف ماذا تفعل بالاشياء غير ذلك •

ولاحظت مس سوليفـــان أن لدي الطفلة وسائل عديدة للاشـــارة الي رغباتها ، فكانت اذا تاقت نفســـها للمثلجـــات ، قلدت فتح باب ثلاجة وهمية ، واذا ارادت خبزا وزبدا ، قلدت حركات قطع الخبز ونشر الزبد فوقه ، وكانت تمثل وجود نظـــارة علي عينيها لكي ترمز الي ابيها •• كما اعتادت ان تهدهد عروســـتها الجديدة وهي تصدر صوتا يوحـــد النغم بشفتيها ، وتلمسها بأصابعها برفق ، ولكنها تعلمت كذلك ان تتهجى كلمات جديدة بلغـــة الايدي مثل : دبوس وقبعة وقدح ، وبعض الافعال مثل جلس ، ووقف ، وسار •

وفي خلال اسبوعين ، بزغ بصيص من الضـــوء •• فقد صحبتها مس سوليفان الي مكان المضخة، وأخرجت بعض الماء •• وبينما كان الماء يتدفق في الاناء وعلي يد الطفلة اليمني ، تهجت مس سوليفان في يدها الاخري كلمة م ا ء •• وكتبت بعد ذلك تقول : « يبدو ان الكلمة اذهلتها عندما جاءت غريبة جدا من الاحساس بالماء البارد

وهو يتدفق علي يدها ، فألقت بالاناء على الارض ، ووقفت كانسانة مأخوذة .. وماليث وجهها ان اشرق بنسور جديد » ..

وذكرت هيلين هذا الحادث بقولها : « لقد تكشف لي سر اللغة بطريقة ما ، وادركت عندئذ ان كلمة (ماء) تعني ذلك الشيء البارد الرائع الذي تدفق علي يدي .. وقد ايقظت هذه الكلمة الحية روحي ، وأفاضت عليها نورا وأملا وبهجة ، وحررتها من قيودها».

وعادت هيلين الي البيت وقد اصابتها حمي من التأثر . فأخذت تلمس كل شيء وهي تتنقل من مكان لآخر ، باحثة عن الاسم بطريقة ظاهرة : الارض ، التكعيبية ، الاشجار المضخة . لقد اصبحت الآن تعرف ان لكل شيء اسما ، وتريد ان تعرف ما هو ..

وخلال ساعات قليلة أضافت ٣٠ كلمة جديدة الي قاموس كلماتها ... ومن هذه النقطة من التعليم ، انطلقت الي الامام بسرعة عجيبة .

وعلمتها مس سوليفان كيف تقرأ بعبارات قليلة كانت تضعها في اطار بعد كل كلمة منفصلة فوق صندوق من الورق المقوي ، وقد وضع الي جواره الشيء الخاص به مثل :

« العروسة علي الفراش » .

وكتبت مس سوليفان تقول :

« عندما كانت اصابعها تستقر على اشياء تعرفها ، كانت تصيح في سرور وتحتضنني وتقبلني فرحا .. وعندما اعطيتها لوحي الخاص بطريقة برايل لتسليتها ، سرعان ما اخذت الساحرة الصغيرة تكتب عليه حروفا ، ولم اكن ادري انها تعرف ما هو الحرف ! »

وفي نهاية الشهر الثالث ، كانت هيلين تعرف ٤٠٠ كلمة وكثيرا من الاصطلاحات . وفي ذلك الصيف استمرت اللعبة في الداخل والخارج ، وكانت تستمر احيانا عدة ساعات كل مرة ... وتعلمت كيف تميز بين غار الجبل والياسمين ، وبين الخنزير والدجاجة ... وقد صنعت مس سوليفان خرائط بارزة بالطين لتلاميذها ذات دوبارة وعصى صغيرة تمثل خط الاستواء ، والمدارين ، والقطبين ، كما علمت هيلين كيف تعد الارقام بوساطة نظم الخرز في مجموعات ، وترتيب قش رياض الاطفال للجمع والطرح . وكان الموضوع الوحيد الذي تكرهه الطفلة هو الحساب . وسرعان ما اصبحت كتابتها بالقلم ممتازة ، وبعد شهر واحد من محاولتها ، كتبت رسالة لابنة عمها في هجاء صحيح وخط

يمكن قراءته .

وأعادت « مس سوليفان » هيلين الي معهد بيركنز عندما بلغت الثامنة تقريبا ، وهناك تفتح لها عالم جديد بأسره .. فقد وجدت كتبا للقراءة بطريقة برايل ، ووجدت نفسها مع اطفال آخرين يعرفون الكلام بطريقة الايدي ، وسرعان ما كشفت عن قدرات مدهشة .. فدرست الحساب والجغرافيا وعلم الحيوان والنبات والقراءة ...

كانت تلك ايام نمو عقلي عظيم لهيلين ... وفي خلال سفرها مع مس سوليفان ، كانت المدرسة تصف لها في يدها المناظر التي تمر بها باسهاب : التلال والانهار ، والقرى والمدن ، والطريقة التي يبدو بها الناس ويرتدون ثيابهم .. وايضا الصيف في كيب كود ، وتعلمت هيلين السباحة ، وان كان نزولها الي البحر اول مرة قد أثار مفاجأة كبري في نفسها اذ لم يفكر أحد في ان يقول لها ان هناك ملحا في ماء المحيط .. وتعلمت كيف تجدف وتسير بالقارب ذي الشراع ، وتركب الخيل ، وتستخدم دراجة لراكبين . وفي ذلك الحين كانت طويلة القامة رشيقة الجسم ، وقد كشفت عن سحر ومرح بالغ ..

كانت الكلية هي الخطوة التالية ، وقد استعدت لها هيلين بدقتها المعهودة ، فالتحقت بكلية كامبريدج للبنات في ماساتشوستس ، وتلقت قدرا كبيرا من العلم ، وكانت مس سوليفان الي جوارها دائما لتقرأ المحاضرات في يدها . وفي عام ١٩٠٠ التحقت بكلية رادكليف ، وكانت اول شخص ذي ثلاث عاهات يلتحق بمعهد تعليم عال . ولكن الكلية اثارت خيبة في نفس هيلين ، فرغم انها كانت تسير فيها علي ما يرام ، فانها كانت تحس بالافتقار الي الوقت للتأمل . ولم يكن في استطاعتها ان تدون مذكرات خلال المحاضرات لان يديها كانتا مشغولتين بالاستماع .. وكانت عندما تعود الي البيت تدون كل ما يمكنها تذكره ، وكانت تستخدم آلة كاتبة بطريقة برايل لتسجيل المعلومات الخاصة بالجبر والهندسة والطبيعة ، ولكنها لم تكن علي استعداد كبير للحساب ، كما كانت الامتحانات كابوسا ، ولكنها كانت تجد متعة في بعض العلوم .. وعملت هي ومعلمتها بحماسة بالغة كالمعتاد ، وجلبتا كتبا بطريقة برايل من المانيا وانجلترا .. وظلت هيلين تقرأ حتي ادمت أصابعها .

وفي عام ١٩٠٤ تخـــرجت هيلين بدرجات شرف خاصة في اللغـــــة الانجليزية ، وكانت يومئذ في الرابعة والعشرين منعمرها ، وتدفقت الطلبات عليها للظهـــور في مختلف الاماكن ، وكتابة مقالات للصحف ، كما دعيت الي معرض سانت لويس في ١٩٠٤ لاثارة اهتمام العـــالم بتعلم العميان والصم ولكن في اليوم الذي ظهـــرت فيه هيلين كيلر افلت زمام الجمهور وتمزق ثوبها ، وخطفوا زهور قبعتها !

وكانت تستعد لالقـــاء المحاضرات بأخذ دروس خاصـــــة مع مدرس للموسيقى ، وكان صوتها احيانا يفلت زمامه ، فيغوص او يحلق الي اعلي دون ان تتمكن من السيطرة عليه ، كما كانت الامطار والرياح والغبار والتأثر تؤثر علي طبقة الصوت ، ولكنهـــا ظهرت امام الجمهور لاول مرة في سنة ١٩١٣ وعلقت علي ذلك يومئذ بقولها : « لقد تجمد ذهني وابتهلت الي الله». كانت الكلمات تبرز الي شـــفتيها ، ولكنها لم تستطع انتنطق مقطعا واحدا واخيرا اخرجت صوتا بدا لها اشبه بمدفع ينطلق ، ولكن قيل لها بعد ذلك انه كان مجرد همسة !

وظهرت هيلين ومدرستها بعد ذلك مرارا امام الجمهور ، وكانت المدرسة تبين كيف استطاعت تعليم هيلين ، ثم تتكلم التلميذة ، وتنتهي بهذه العبارة « انني لست بكماء الآن » . وفي عام ١٩١٤ ذهبتا معا في اول جولة عبر القارة تبعتها جولات كثـيرة وفي ذلك الحين كانت هنـــاك فتاة سكوتلندية شابة تتمتع بنشاط كبير تدعى بوللي طومسون انضمت اليهما للعمـــــل كسكرتيرة ومديرة للاعمال .. وذهبن الي هوليـــوود لعمـــل فيلم يسمي « الخلاص » ثم بدأتا فصلا من نوع الفودفيل المحترم اثار ضجة في مسرح (بالاس) بنيويورك واحبت هيلين ذلك النوع من التمثيل اذ كانت تجده فياضا بالحيـاة والالوان والتنوع ، وكانت ـ كما تقول ـ تحس بانفاس المتفرجين في وجهها .

واشتهرت هيلين كيلر في انحـــاء العالم ، وترجمت كتبها الي لغـــات كثيرة ، كما نشرت بطريقة برايل ، وفي العقد الثالث من هذا القرن بدأت رحلاتها الدولية ، فذهبت الي اوروبا عـدة مرات ثم الي الشرق ، وكانت دائمة الإهتمـــــام بالعميـان ، تلقى محاضرات من اجلهم وتجمع المـال لمساعدتهم ... واقبـل الذين قرأوا عنها ليروها ، وكانت في ذلك الحـين شابة رزينة متعلمة ، وحصلت علي

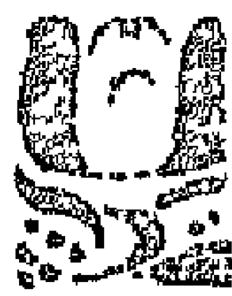
درجات فخرية وأوسمة من دول كثيرة

ولكن صحة المدرسة اخذت تضعف واوشكت ان تفقد بصرها ، فلمتستطع مسايرة هيلين كيلر القوية السليمة ، وماتت آن سوليفان عام ١٩٣٦ بعد سلسلة طويلة من عمليات جراحية في عينيها ، وفي تلك السنة حصلت الاثنتان علي وسام روزفلت من أجل « تعاونهما الناجح وطبيعته الفريدة ومغزاه البعيد » .

***

وتعيش مس كيلر في بيت جميل أقيم في غابات كونكتيكت علي مقربة من وستبورت وفي أحد اركان الحديقة مصباح ياباني من الحجر يبلغ ارتفاعه ثمانية أقدام يقف مشتعلا بضوء لا ينقطع ، ولن ينطفيء طالما كانت هيلين علي قيد الحياة .. وعلي جدران مكتبها كتب طبعت بطريقة برايل ، تقرأها حتي تضطر الي ربط اطراف اصابعها التي قطعت كل هذه الاميال من النقاط البارزة ، بالحرير لوقايتها .. وهي تقرأ في الظلام والنهار ، مثل كل العميان الذين لا ينامون جيدا ، ولا يعرفون الليل من النهار ..

وهيلين كيلر ذات روحانية عميقة ، يساعدها ايمانها في الساعات الهادئة عندما تعتكف خلال الصمت العميق الذي لا يعرفه غير الصم البكم العمي .. وهي تقول : « انني اتطلع الي عالم المستقبل .. عندما تتهاوي كل الحدود المادية التي تغللني كالقيود وحيث أجد معلمتي المحبوبة من جديد واعمل في خدمة اعظم من اية خدمة عرفتها حتي الآن .



مقدرة !

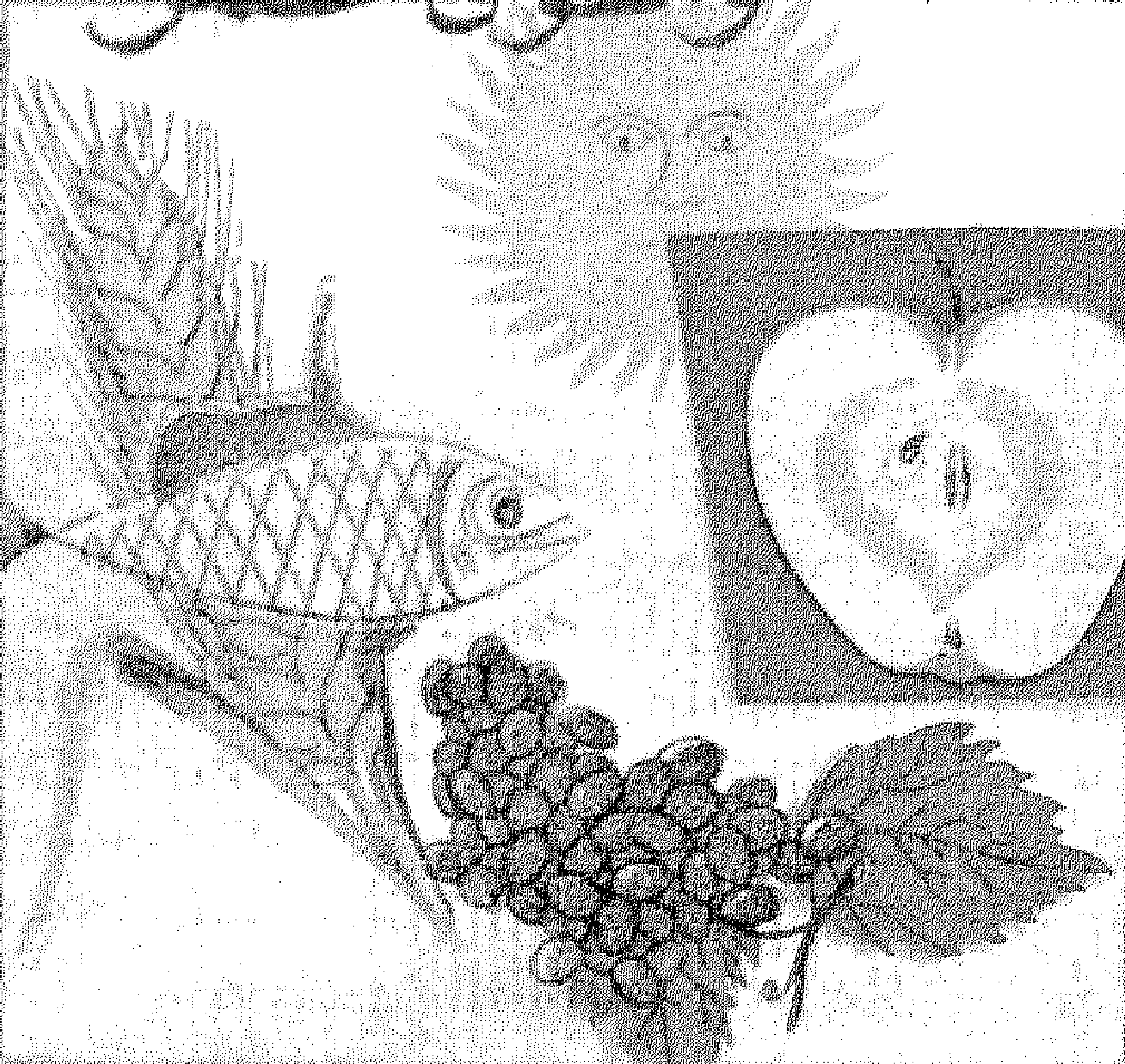
اشتهر المهندس الفنلندى الشهير ايروسارنين بالبطء البالغ فى الحديث .. وحدث يوما أثناء ظهوره فى برنامج تليفزيونى أنأخذالمذيع يكرر النظر الى ساعة الحائط فى عصبية .. ثم قال اخيرا ..

— ان الوقت ضيق جدا يامستر سارنيين ..فهل تستطيع التحدث بسرعة اكثر ؟ وعندئذ اخرج سارنيين غليونه من جيبه ببطء ، واشعله.. ثم قال ببطء شديد :

— كلا ياسيدى .. ولكننى استطيع التحدث بسرعة اقل !

كتاب الشعب

كن أكثر شبابا وأطول عمرا



جايلورد هاوسر .. مؤلف هذا الكتاب وعشرات الكتب الأخرى عن علم التغذية من خبراء التغذية المعروفين عالميا ... وقد أثار الكثير من تنظيم الطعام في حياتها وحماسا بين نجوم السينما وعدد كبير من المشاهير .. وهو يقدم برنامجه للاحتفاظ بصحة جيدة ولطول العمر على الاكتشافات التي توصل اليها العلم في ميدان التغذية.

كن اكثر شبابا واطول عمــرا

تلخيص كتاب

Look Younger ... Live Longer

بقلم : جايلورد هاوسر

اسمح لي ان اقدم لك واحدة من اســعد النــاس الذين عرفتهم في حياتي .. لقد التقيت بها لاول مرة في عـام ١٩٤٣ ، وكانت واحدة من المئات الذين احتشدوا في احدي قاعات لوس انجليس للاستماع الي احدي محاضراتي . كانت تجلس منتصبة القامة وقد استقر راســـها الابيض بية كتفيهـــا المستقيمتين فى كبرياء ، وكشف وجهها القوي العذب عن جمال داخلي الي جانب جمـال ملامحها وجسمها .

وبعد المحاضرة ، رايتها بين الحشد الذي اجتمع حول المنصة لمقابلتي ... وقالت لي وهي تضــــع يديها علي بطنها في يأس مفتعل : « اخبرني ... ماذا افعل بشأن هذه الكرش ؟ »

وأثارت كلمتها عاصفة من الضحك بين الحاضرين .. فقد كانت « اديلين دي والت رينولدز » يومئذ في الثانية والثمانين من عمرها ..

وكانت قد قررت الالتحاق بالجامعة وهي في الخامسة والستين ، بعـد ان قامت بتربية ابنائها الاربعة وساعدت في تربية عدد كبير من احفادها ... وفي التاسعة والستين تخـــرجت في جامعة كاليفورنيا ، ثم اكتشـــفتها هوليوود ، وهكذا ولدت النجمـــة الجديدة « الجدة رينولدز » ، وفي سن الثانية والثمانين ، وبعد ان ظلت نجمة طوال ١٣ عاما ، كانت لا تري حدودا لما ينتظرها من سنوات أخري في عالم النجوم اذا استطاعت ان تتخلص من كرشها !

ولم تكن تلك مسألة عسيرة ... فقد اعتادت اداء تدريبات رياضـية بانتظام طوال حياتها ، كما كانت تتمتع بموهبة طبيعية للاسترخاء ، مع حافز مستمد من حماسة خالصة للحياة ، مما جعل من جسمها اداة مدربة جيدا

مستجيبة .. كما كانت عادات غذائها الاساسية ممتازة فعلا . ولم أنصح الا بتغييرات تضمن ان يتضمن طعامها قدرا كبيرا من البروتين وعلمتهـــا التدريب الرياضي الذي اعتبره امرا لا غني عنه .

ومرت ستة شهور .. وعدت الي لوس انجليس لالقى محـــاضرة اخري ، فوجدت الجدة رينولدز (×) بين الحاضرين .. كان رأسها اكثر كبرياء من ذي قبل ، وعيناها تفيضان تأثرا ، اذ كانت قد بدأت العمل في فيلم جديد ، هو احسن دور مثلته في حياتها ، فقد عهد اليها بالبطولة امام بنج كروسبي في فيلم « اســير في طريقى » ..

فماذا حدث لكرشها ؟

لم يذكر احدنا شيئا عنها ، فقد كان بطن الجدة رينولدز مسطحا عبر عضلة الحجاب الحاجز مثل بطني انا .

وعندما اقتربت الجدة رينولدز من العام المائة من حياتها ، بدأت حيـاة جديدة تماما كممثلة في التليفزيون .. فما هو سر حياتها الطويلة وصحتها الطيبة وسعادتها ؟ ... كان سرها انها ظلت طوال حياتها تتبع بوحى غريزي المبـــادىء الاساسية لبرنامج « مظهر اكثر شبابا وعمرا اطول » .

***

ان بين اصدقائى وتلاميذي عددا من اشهر الرجال والنساء في العالم ، فضلا عن الوف من المواطنين العـــاديين ، ويشترك كل هؤلاء في شيء واحد :

انهم جوعى !

ولكنهم لم يكونوا جوعى لمزيد من الطعام ، بل لمزيد من الحياة ، ومزيد من الصحة ، واجسام اكثر شبابا ، وعقول اكثر ذكاء ... وقد استطعت ان اشبع جوعهم ... علمتهم سر الاكل من اجل الصحة والمظهر الحسن ومزيد من الحيوية ، ومن المؤهلات التي اتاحت لي تعليم النـاس كيف يعيشـــون عمرا اطول ، انني كنت شديد الاهتمام بموضوع اطالة العمر ، وقد زرت أماكن المياه الشـــهيرة في اوروبا وامريكا ، ودرست انظمتهـــا واطعمتها الخاصة ، وقرأت في نهم كل شيء عن موضوع اطالة العمر ، في ميادين التغـــذية والطب ، وعلم الغدد ، والكيمياء الحيوية ، والفلسفة والتربية البدنية ، كلما وجدتهـــا امامي .

× توفيت الجـــدة رينولدز في اغسطس ١٩٦١ قبل عيدها التاســع والتسعين بقليل .

ويجد العلماء في انحاء العالم كله ، الذين يدرسون موضوع اطالة الحياة ادلة اكثر على ان ينبوع الشباب هو **التغذية الجيدة** • وقد ذكر بحث من اشهر ابحاث التغذية في العالم ، انه اذا تناول الانسان الاغذية المنتقاة بطريقة صحيحة ، امكن ان تطول الحياة البشرية كثيرا ، فضلا عن ان السنوات الاخيرة منها يمكن ان تكون اكثر فائدة واكمل قدرا •

- ولكن ما هو المقصود بالتغذية الجيدة ؟

اولا : انها تغذية كافية ، لا تمنح الجسم الكمية فحسب ، بل ونوع الغذاء الذي يحتاج اليه •

ثانيا : انه غذاء متوازن ، يمد خلايا الجسم بعناصر غذائية حيوية بالنسبة المناسبة ويجمع العلماء علي ان الافراط في التغذية باختزان سعر حراري زائد في صورة دهن يمكن ان يساهم بصورة جوهرية في تدهور الجسم وعملية الشيخوخة •

***

اعتبر جسمك سيارة •• وهو مصنوع من البروتين في الداخل والخارج : شرايين وغدد وأنسجة رابطة ، وعضلات ، وجلود ، وعظام ، وكلها تحوي بروتين ، وتتم صيانتها وتجديدها بالبروتين •• اما الدهون والنشويات ، فهي زيوت وبنزين جسمك ، اذ انها تحترق معا لانتاج الطاقة • والفيتامينات والمعادن هي شموع الاحتراق اللازمة للانتفاع بالطعام •

وجسمك هذا متين البنيان الي حد عجيب ••• رائع في قدرته علي الاحتفاظ بنفسه واعادة البناء ، فاذا منح العناية اللازمة ، ادي وظائفه بنعومة وواصل اداءه لها ، واذا لم يسمح لاي عضو مهم فيه ان يتعطل ، فانه سيجدد نفسه في أى سن •

ولقد اظهرت الدراسات العلمية ان فترة الحياة يمكن ان تقصر قبل الاوان بالغذاء غير الكافي ، او نقص المواد الغذائية الضرورية كالاحماض الامينية المهمة الموجودة في البروتين الجيد ومن ناحية اخري ، فان الحياة يمكن ان تطول بمجرد اضافة كميات سخية من عناصر غذائية اساسية ، كالاطعمة التي تحتوي الكالسيوم ، واطعمة فيتامين (أ) •

فكيف نستطيع تطبيق هذه النتائج العلمية ، التي تعدنا بالقوة والصحة والحياة الطويلة ؟

الرد علي ذلك بسيط •• اتبع القواعد الاساسية للاغذية التي تطيل

العمر ، وتأكد ان قائمة طعامك اليومي تزودك بكميـــــات وفيرة من كل الفيتامينات ، والمعادن ، والبروتينات ، والسكر الطبيعي ، والنشاء ، ولاتأكل الا الاطعمة غير المنقاة •

الغذاء النموذجي

ان كل لقمـــــة تاكلها تفيدك او تؤذيك ••• والسر في عدم الشيخوخة انما يكمن في الاكل بذكاء وان تحب تناول الاطعمة التي تفيدك فقط •

والغذاء النموذجي للعمر الطويل ، هو الذي يحوي كثيرا من البروتين : (اللبن وخصوصا الزبادي ، والبيض ، واللحم غير السمين ، والسمك غير السمين ، والجبن الطازج) والكثير من الخضر الطـــــازجة ، والخضر الصفراء ، وعصـــير الخضراوات ، والفاكهة وعصير الفاكهة ، والغلال ذات الحبوب بنسبة ١٠٠ ٪ ، والدقيق فضلا عن ان كل شخص جاوز الاربعين يجب ان يكمـــــل غـذاءه بالفيتامين وكابسولات المعادن •

تناول كل انواع الطعام الجيد ، طازجا او مطهيا بطريقة صحيحة (ولا تأكل المطهي اكثر مما يجب) وذلك بتنوع لا حد له •• وتمتع به بكل وسيلة • زد نكهة اللحوم والصلصة بالاعشاب والتوابل المعتدلة كما يفعــل الفرنسيون • واعتبر طبق الســلاطة الكبير جزءا مهما من الوجبة الاساسية وتناوله في البداية عندما تكــــــون شهيتك في أعلي درجاتها ، ولابد ان تصبح الفاكهة هي طبق الحلوي المفضل لديك سواء أكانت طازجة ام مطهية بالطريقة الحديثة مع العسل •• وقبل كـــل شيء البروتين ، والمـزيد من البروتين . وفيتامينات (ب) والمزيد منها ••

ويقول علماء التغذية : ان بروتينات الدرجة الاولي بالاضـافة الي عائلة فيتامين (ب) الكاملة شيء لا غني عنه لاطالة الحياة مع الاحتفاظ بخصائص الشباب •

***

ولكي تضيف سنوات اخري الي حياتك ، عليك ان تتعرف الي هــذه الاطعمة الخمسة السحرية واستخدامها في كل يوم وهي : مسحوق خميرة البيرة ومسحوق اللبن الخالي الدسم ، واللبن الزبادي ، وخميرة القمح ، والعسل الاسود •

ان خميرة البيرة تحوي ١٧ نوعا من الفيتامينات بما فيها كل عائلة فيتامين (ب) و ١٦ من الاحمـــاض الامينية ، و١٤ من المعادن الضرورية كما تحوي ٤٦ ٪ من البروتين ، ومع

ذلك فهي تكاد تكون خالية من السكر والنشاء ، والدهون • ويمكن اضافتها للماء واللبن وعصير الطماطم والليمون الهندي والاناناس وغيرها من عصير الفاكهة ، واذا لم تستسغ طعم مسحوق خميرة البيرة الخالص فانك تستطيع شراءها في صور ذات نكهة ، وانا نفسي اتمتع بخميرة ذات نكهة غلال مخلوطة بعصير اناناس غير محلي بالسكر •

وتكمن قيمة مسحوق اللبن الخالي من الدسم في غناه بالبروتين الخالي من الدهون والكالسيوم ، وفيتامين (ب) « ريبوفلافين » وغيرها من العناصر الغذائية ، ولست اقترح ان تجعله بديلا للبن الطازج ، بل ان تستخدمه بكل وسيلة ممكنة لدعم الاطعمة الاخرى • فاذا ضربت نصف كوب من مسحوق اللبن الخالي الدسم في لتر من اللبن الطازج حصلت علي قيمة لترين من اللبن في حجم لتر واحد • واللبن الطازج المدعم بهذه الصورة يتمتع بنكهة ومزيد من الغنى كشراب او عند استخدامه في الطهي ، كما يمكن اضافة نصف كوب او اكثر من مسحوق اللبن الخالي الدسم الي الخبز والفطائر ، والصلصة والحساء والكستردة وما اشبه ذلك دون احداث اية تغييرات اخري في طريقة اعدادها •

ويمكن شراء اللبن الزبادي الجيد من متاجر كثيرة للاطعمة ، ويمكن تناوله كما هو ، او باضافة بعض الاعشاب اليه ، وهو يقدم مع الفاكهة الطازجة او المعلبة ، او يصنع علي هيئة مثلجات مع شراب الاسفندان ، ومع العسل الابيض ، او المولاس •• وهو شيء « ضروري » في النظام الغذائي لاطالة الحياة ، وتطول سنوات العمر بين البلغار اكثر من اية شعوب أخري في الدنيا •• حيث يعتبر اللبن الزبادي جزءا من كل وجبة ، وقد اشتهر البلغار بالاحتفاظ بصفات الشباب الي سن متقدمة جدا •

وخميرة القمح من افضل مصادر الفيتامين (هـ) والحديد وكل فيتامينات (ب) • ونصف قدح منها يحوي اربعة امثال ما في البيضة من بروتين •• ويمكن طهيه في اللبن مع الغلال ، او يضاف الي غلال باردة او ساخنة ، كما يمكن اعداد كعكة ساخنة ممتازة وفطائر وخبز باستبدال كمية تتراوح بين نصف قدح وقدح من خميرة البيرة بدلا من قدر مماثل من الدقيق •• وتستطيع باستخدام جهاز كهربائى للخلط ان تصنع مشروبات لذيذة بنصف لتر من عصير اية فاكهة مع

قطعة من الموز ونصف قدح من خميرة البيرة •

اما العسل الاسود فهو مصدر عجيب لا لكثير من فيتامينات (ب) فحسب ، بل وللحديد والكالسيوم والمعادن الاخري كذلك • والعسل الاسود انتاج اضافي لتكرير السكر ، وهو يحوي كل المعادن والفيتامينات المستخرجة من عصير القصب الاصلي ويمكن تناوله بملعقة ، او اذابته فى اللبن ، او استخدامه كبديل للسكر والشراب •

ويمكن شراء خميرة البيرة ومسحوق اللبن الخالي الدسم ، واللبن الزبادي ، وخميرة القمح ، والعسل الاسود من متاجر الاطعمة الصحية ، واذا اصبحت هذه الاطعمة السحرية الخمسة جزءا من طعامك اليومي ، فانك تستطيع التأكد من حصولك علي البروتين الاساسى وكل فيتامينات (ب) مع الكالسيوم والحديد وغيرها من المعادن بمقادير وفيرة •

***

وعليك بالاضافة الي ذلك الاهتمام بفيتامينات ا وج ود ، ان كميات كبيرة من الخضر الصفراء والخضراء والفاكهة ، والكبد ، والزبد ، واللبن ، هي أحسن المصادر لفيتامين (ا) ويلعب فيتامين (ح) كما يبدو دورا مهما في اطالة صفات الشباب ويمكنك الحصول علي فيتامين (ح) بكمية كافية مع كل وجبة من الاطعمة الطبيعية مثل ثلاثة أكواب من عصير البرتقال ، او ثلاث من ثمار الفلفل الاخضر ، او نصف رأس كرنبة •

أما فيتامين (د) فلايوجد في الاطعمة بكميات كافية للاحتفاظ بصحة طيبه ، وقليل من الاشخاص الذين تجاوزوا المراهقة يمكنهم قضاء وقت كاف تحت شمس الصيف للسماح لفيتامين (د) بأن تمتصه اجسامهم من خلال الجلد فضلا عن ان الزيوت الطبيعية في الجلد الضرورية لتكوين فيتامين (د) غالبا ما تزول عند الافراط في استخدام الماء والصابون •

فاذا لم تستطع قضاء ساعة في الشمس كل يوم ، فالافضل ان تدعم غذاءك بألف وحدة من فيتامين (د) ويفضل ان يكون في صورة كابسولات من زيت السمك •

لماذا القلق ؟

انك قد تتساءل : لماذا يجب علينا ان نفهم هذه المعلومات دائما عن الغذاء ؟ ••

ان أجدادنا لم يكونوا يعرفون شيئا عن الفيتامينات والمعادن وغير ذلك ،

بل كانوا يأكلون بلا تفكير في توازن غذائى ، ومع ذلك كانوا علي صحة طيبة ..

والرد على ذلك ، هو ان حبوبهم وفاكهتهم وخضرهم كانت تنمو في تربة غنية طبيعية . كانت اطعمتهم تحوي قدرا من الفيتامينات والمعادن اكبر بكثير مما في أطعمتنا ، كما كانت فيها كميات اكبر من البروتين ، وكانت لحومهم وبيضهم والبانهم اغني كثيرا بعناصرها الغذائية مما في بيضنا ولحومنا ولبننا ، كما انهمكانوا يقضون ساعات كثيرة في العراء خلال ايام الصيف ، وكانت اجسامهم قادرة علي اختزان كميات من الفيتامين (د) لاستخدامها فورا أو في الشتاء .

ومن حسن حظ أجدادنا ايضا انهم كانوا لا يعرفون كيف يقومون بتنقية دقيقهم وغلالهم والقضاء علي عناصرها الغذائية ، كما كانوا متحررين من مغريات السكر الابيض النقى ، ومشروبات الكولا ، وقطع الحلوي ، ومنتجات المخابز الانيقة التي تقضي على الصحة وتجلب الشيخوخة .

وانني ارجو ان اري اليوم الذي يستخدم فيه السكر الطبيعي دائما بدلا من السكر الابيض (العسل الاسود ، والابيض ، وشراب الاسفندان) . كما ادعو ايضا الي استخدام انواع الدقيق والغلال بحبوبها الكاملة بدلا منالانواع التي تفقد حيويتها ، او التي يزعمون انها « غنية » فقد كان الخبز والغلال فيما سبق مصادر يمكن الاعتماد عليها من اجل فيتامين (هـ) و (ب) . اما الدقيق الابيض المستخدم اليوم فهو خال من العناصر مانحة الحياة .

التدخين

ان التدخين باعتدال ليس مضرا ، كما انه يمكن انيساعد علي الاسترخاء بعد الطعام ولكنني وجدت ان المفرطين في التدخين يأكلون قليلا ، ويجعلون أجسامهم في حاجة ماسة للبروتين الضروري والفيتامين والمعادن اللازمة مما يجعلهم عصبيين ، وعندما يشعرون بالعصبية يمدون ايديهم الي سيجارة اخري ، فاذا شبع الجسم بكمية وفيرة من طعام جيد ، ولاسيما كميات وفيرة من اطعمة تحوي الكالسيوم (كاللبن او الجبن) فسيكون من السهل تقليل التدخين الي النقطة التي يصبح فيها متعة ، لا لعنة .

تغذية الغدد

كلما ازدادت دراساتي وعملي وملاحظاتي ، أصبحت اكثر اقتناعا بأن التغذية القائمة علي التخطيط تمنع الشيخوخة قبل أوانها ، فالمظهر

الاكثر شـــبابا والعمر الاكثر طـولا يعتمد في قدر كبير علي التناسق في أداء وظائف كل غددك ، والتفــــاعل المستمر بين كل الغدد ينظم النور في عينيك ، وجمال ابتسامتك ، وصـــفاء ذهنك ، ودقة تفكيرك وشجاعة جسمك وعواطفك ، وصوتك ، وسلوكك العام ، واخلاقك .. وهكذا فان الطعام الذي تأكله يؤثر في وظائف غددك ويؤثر في شخصيتك وطعامك .

ونقص البروتين في غذائك يمكن ان يضعف وظائف الغـــدد ويؤدي الي الشيخوخة المبكرة ، كما ان المعـادن والفيتامينات الكافية ضرورية للاحتفاظ بتوازن سليم في وظائف غددك وليس منقبيل المصادفة ان الاشخاص المرحين المسرورين ، الذي يمتلئون حكمـــة وإملا ، يعيشون حياة اطول واكثـر سعادة من المنقبضين ، الحسودين ، الثرثارين ، القلقين ، المتعصبين ، وتلك نتيجـــة طبيعية لانسجام الوظائف وتوازنها في الغدد ، والمستمدة من غذاء كاف متوازن .

السمنة :

كلما صغر خط وسطك ، طالت حياتك ، وتعتبر البدانة في طليعـــة الاسباب التي تقضي على الشــكل الجيد وتقصر الحياة .

فلماذا يستهلك ملايين من النـاس انفسهم ويصيبون اجسامهم بالتعاسة ويودعونها القبـــور في وقت مبكر ، فيحرموا انفسهم واسرهم من اسـعد وأفضل السنوات في حياتهم واكثرها انتاجا ؟ .. انهم يفعلون ذلك غالبا بسبب العادة ... فالاكل هو اول عادة نكونها في حياتنا . والجوع هو اول حوافزنا ، واشباعه هو متعتنا الاولي ، وقد تضـــع دوافعنا ومتعنا الاخري الاكل في مؤخرة الصورة فيما بعد ، ولكن في الوقت الذي يتقدم فيه الناس في السن ، فانهم يكونون تحت ضغط اقلمن حوافز اخري ، ويتوقعون (عن خطأ) اشباعا اقل من متـــع اخري ، ثميميلون اليالالتفاف باهتمام متجدد نحو متعة الاكل .

والذين يفرطون في الاكل غالبـــا اشخاص جوعى لا يشبعون ، ولكن جوعهم الاساسي ليس للطعام ، بل للحب ، والاثارة والمرح والمغامرة ، وكل الاشياء الطيبة في الحيــــاة التي يخشون ان تنتهي منهم لانهم تجاوزوا الاربعين ، والخمســين ، والستين ، او كيفما كانت أعمارهم .. وعندئذ يبدأون شيئا فشيئا فياستخدام الطعام كبديل للعيش ، لا من اجـل الاحتفاظ بالحياة .

واذا كنت مفرطا في السمنة ، فلا تتنهد وتقول : انه بسبب السن •• او بسبب غددك • ان البدانة هي نتيجة للافراط في الاكل ، والخطـــوة الاولي في التخسيس هي ان تقرر انك تريد ان تخس •• انظر الي الحلوي وقل لنفسك : « انها ستبقى لحظات قليلة في فمي ، وســـاعات قليلة في معدتي ، وطوال حياتي في ردفي •• انني لا اريدها » •

والخطوة الثانية هي ان تقرر انك سوف تنقص وزنك لمدة ٣٠ يوما علي الاقل •• لماذا ؟

لان اي شيء تفعله ٣٠ مرة يصبح عادة ، والطريقة الوحيدة للتخسيس هي تكوين عادة حب الاطعمة ذات السعر الحراري القليل •

وعندما فحصت اغذية الوف من الناس ، ادركت ان الشيء المهم هـــو منع الشخص من الاحساس بالجـوع ومن اجل هذا السبب اوصيتهم بتناول اللبن الزبادي الذي لا يؤدي للسمنة بكل تأكيد كما ان مذاقه افضل كثيرا من اللبن ، ويظل مدة طويلة في المعدة ، ويمنع « آلام الجوع » وكذلك اقترحت عليهم تناول كميات سخية من الخضر النيئة ، فهي لا تهضم كلها كالخضر المطهية ، بل « تبقى معك » مدة اطول •

وبعض الخضر النيئة تحوي نصف السعر الحراري الذي تحويه اذا تم طهيها ، ولنفس السبب اقترحت تناول الفاكهة ذاتها لا عصيرها •

كما انني عرفت اهمية الطعـــــام الذي يســـــتسيغه الذوق ، ومن ثم اوصيت بزيادة كمية البروتين الي حد غير عادي ، وان يكون هناك كثير من اللحم الاحمر ، وكل البروتينات الاخري ذات الدرجة الاولي ، لجعل الطعـام منوعا وذا نكهة •

ان كل الفيتامينات والمعادن ضرورية بطبيعة الحال ، وبصفة خاصـــــة فيتامينات عائلة (ب) ، فهـــــذه الفيتامينات ذات صلة بالكالسيوم ، وسرعان ما ستساعدك علي التغلب على اشتهاء الحلوي ، والطعام الذي يمنحك اكثر فيتامينات (ب) مع اقل عدد من السعر الحراري هو مسحوق خميرة البيرة ، ويمكنك ان تذيب ملعقة منها في كل مشروباتك ، فان بها ٤٦ ٪ من البروتين ولا تحوي اية دهـــون تقريبا ، وكلما زاد استهلاكك منها زاد شعورك بالتحسن وازددت نشاطا •

وهكذا اذا اردت ان تفقـــد بعض وزنك ، فاليك اربع نقـــاط لابد من تذكرها :

١ ـ ان اطعمة البروتين تجعـــل

جسمك قويا فتناولها بسخاء •

٢ ـ تعلم كيف تستسيغ النكهة الطبيعية للخضر بأقل كمية من الزبد ويستطيع اللبن الزبادي ان يجعـــل السلاطة لذيذة •

٣ ـ تخلص من عادة اكل الحلويات المشهية ، ولا تتناول قطع الحلوي •

٤ ـ تعلم التمتع بالقهوة بلا قشدة ولا سكر ، او اشرب القهـــــوة باللبن ، بحيث يكون نصفها قهـوة والنصف الآخر لبنا ساخنا خاليا من الدسم •

لا ينبغي ان تتعب

ان التعب عدو قاتل لبرنامج « اكثر شبابا واطول عمرا » فلابد لنـا من القضاء عليه • والغذاء يساعدنا في ذلك ، فالتعب لا يكون طبيعيا في اي سن ، بل ان سببه في الاغلب نقص غذائي وقد اظهرت تجارب علميــــة كثيرة ذلك (علي الحيوانات والمتطوعين من البشر) •

ففي مشتشفي مايو كلينيك مثــلا تطوعت بعض الممرضات الشـــابات للتجربة ، فحرمن انفسهن من تناول الخضـــر الطازجة والبروتينـــات الضـــرورية كاللبن والبيض واللحم ، واتبعن نظاما غذائيا يحوي مواد نشوية انتزعت حيويتها ، وخضرا مطهيـــة بافراط ، وخبزا ابيض وســـــكرا ابيض ، وقطعا من الحلوي ، ولم تمض فترة طويلة حتي وجدت هؤلاء الشابات ـ اللواتي كن يفضن مرحا وحيوية ـ انفسهن وقد اصبحن قلقـــــات عصبيات ، متوترات ، متهيجات ، وسار الامر في حلقة مفرغة ، فكلما زاد احساسهن بالتعب ، كثر اكلهن ، في محاولة لاستعادة طاقاتهن المعهودة ، وكلما زاد الطعام الذي انتزعت حيويته الذي يتناولنه ، زاد تعبهن وقلقهن !

ولكن دراســـاتي وتجـــاربي في التغذية ، اظهرت ان الاشخاص الذين يتناولون اطعمـــــة طبيعية كالخبز المصنوع من القمح كله ، والغـــلال المكونة من الحبوب كلها ، والســكر الاصفر اللون والعسل الاسود ، لا يحتمل ان يصيبهم التعب •

وثمة مشكلة تعب اخري يسببها نقص مفاجيء في سكر الدم ، ويمكن ان تصل الي ذلك اذا لم تأكل عــددا كافيا من المرات •• وكثيرات مـن السيدات يشكون من هذا التعب الذي قد يأتي وانت مشغولة جدا في الشراء من الحوانيت حتي تنسين الطعام ، او خلال رحلة طويلة بالسيارة ، او في ساعات طويلة من عملك اليومي •

ان كثيرين من طلبتي اشخـــاص

نشطون ، مشغولون ، ذوو اهمية ، يتقاضون مرتبـــات عالية ولا يمكن الاســـتغناء عنهم .. هؤلاء الرجال والنساء يرفضون ان يتعبوا ، لقـــد اكتسبوا عادة تناول الاكل في وقت الطعــــام وبين الوجبات ، وهم بين الوجبات يتمتعون بأكلات خفيفة من الفاكهــــة والجبن ، والخبز المحمر ، واللبن ، ومشروبات الفاكهة التي تمنع ضياع الطاقة والاثارة والتوتر العصبي .. وقد تعلم الحكماء بالتجربة ان هناك سرين فقط للحياة والعمل بخطي قوية دون معرفة معني التعب .. هذان السران همـــــا : غذاء متوازن غني بالفيتامين والمعادن ، وفن الاسترخاء ... واذا لم تكن قادرا علي الاسترخاء فان كل انواع الفيتامينات والمعادن التي في العالم لن تساعدك ..

ان صديقة لي - وهي سيدة مرحة في أواخر عقدها السادس ، تمتعت بفترة طويلة من انعدام الشيخوخة كما انها ناجحة في حياتها - تلخص لي الامر كما يلي : « ان التوتر هو الشــيخوخة ، والاســــترخاء هـو الشباب » .. ابعد التوتر من وجهك يصبح اكثر انسجاما وجاذبية مهما كان عمرك او شكلك ... ان الرجال والنساء من كل الاعمار الذين يتمتعون بجاذبية طبيعية ، هم الاشخاص الذين يأخذون الامور ببساطة تماما ، ولا يثيرون قلقك أبدا ، وكل امرأة ورجل عظيم حقا تعلم هذا الفن الذي يجعله علي وفاق مع نفسه ومع الآخرين .

واذا كان في امكـــــاني ان اجعلك تسترخى وتبقى مسترخيا بقية حياتك بمجرد الحديث عن الاسترخاء ، فانني اكون اعظم معلم علي ظهر الارض . ولكنني آمل ان افعل احسن شيء يتلو هــــــذا الشيء .. ان اجعلك تتأثر بالاسترخاء الي حد ان تحدث نفســك عنه ..

اطلب من نفسك ان تسترخى .. ولاحظ انني اقول لك «اطلب» لا «قل» فأنت لا تستطيع ان تجبر نفسك على الاسترخاء ، فالاجبار انما يخلق مزيدا من التوتر ولابد فعلا من ان ترغب في تقليل التوتر . ويقترح الدكتــــــور « ديفيد هارولد فنيك » استخدام هذه الكلمات « استرخ .. انبسـط .. استرخ .. أكثر واكثر »

استمر في ذلك دقيقة او دقيقتين ، واغلق عينيك برفق لا باحكام .. ودع أجزاء وجهك المختلفة تسترخي .. تحدث الي جبهتك المتوترة وعينيك . غط عينيك برفق براحتي يديك ، وضع المرفقين علي ركبتيك .. لا تفكر ..

انبسط .. وتنفس بعمق .. دع دقيقة تمر ، وابق عينيك مغطاتين ، وتأكد أنهما مسترخيتان في غير اغلاق محكم بحيث تسقطان من محجريهما .. دع دقيقة اخرى تمر ، واجعل فمك وفكيك مسترخية واترك رأسك متجها للامام في .. استرخ ..

عندما تتعلم كيف ترخي جسمك كله كما تشاء ، فستكون قد تعلمت سرا من أسرار منع الشيخوخة ، وابسط وسيلة وجدتها لاسترخاء الجسم كله ، هي في « وضع الجسم المائل » عندما يكون الرأس اكثر انخفاضا من القدمين ، ومن وسائل اتخاذ وضع الجسم المائل ، الاستلقاء علي لوح خشبي بينما يكون أحد اطرافه علي الارض ، والآخر يرتفع الي اعلي حوالي ٣٠ سنتيمترا .

وفي وضع « الجسم المائل » تكون قوة الجاذبية علي سوائل الجسم عكسية ، بينما يستقيم العمود الفقري ، وينبسط الظهر نفسه ، وتسترخي العضلات التي تكون عادة متوترة قليلا حتي خلال الوقوف او الجلوس اليسير ، وتتاح للقدمين والساقين فرصة للتخلص من الاحتقان في مجري الدم والانسجة بعد ان تتحرر من عبئها التقليدي وقوة الجاذبية وترتفع عضلات البطن المتهدلة .

اتخذ هذا الوضع كلما امكنك عند الاستيقاظ وقبل النوم ، او عندما تعود متعبا من عملك الي البيت فانه افضل الاوضاع جميعا .

التدريب الوحيد الضروري

ان وضع الجسم المائل هو ايضا الوضع المثالي لممارسة التدريب الوحيد الذي تحتاج اليه لرشاقة قوامك . استلق في استرخاء تام في وضع « الجسم المائل » واجذب بطنك الى الداخل عندما تعد واحدا (استمر في التنفس بطريقة طبيعية خلال اداء هذا التمرين ، ثم اجذب بطنك الي الداخل ثم الي الخارج مسافة أبعد وأنت تعد « اثنين » ، وعندما تعد ثلاثة اجذبه للداخل علي مقربة من العمود الفقري الذي يكون ملتصقا في انبساط فوق اللوح الخشبي .. حاول ان تبقى هذا الوضع حتي تعد الي عشرة ، ثم استرخ وكرر التمرين عشر مرات . وانا اسمي هذا التمرين باسم « رفع البطن » ، وهو معروف لكل من تلقى تدريبا عسكريا .

وانت تستطيع انتؤدي هذا التمرين اينما كنت : علي الشاطئ ، في الحمام ، في المصعد ، او عندما تنتظر سيارة الاتوبيس ، او فيالطابور

امام شباك التذاكر ، كما يمكن للسيدة عمله وهي جالسة تحت جهاز تجفيف الشعر ، او في بهو الفندق ، او وانت تشاهد فيلما سينمائيا سخيفا •

واظب علي اداء تمـــرين « رفع البطن » بقية حياتك ، لتنقذ خصرك بصورة دائمة ، انك سوف تنقذ به قوامك ورشاقتك وثقتك بنفســك •• وهو من افضـــــل الاقتراحات التي استطيع ان أقدمها لك •• انهالتمرين الذي يضع حدا لكل تمرينات الرشاقة الاخري •

البرنامج الاساسى

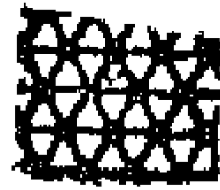
والنظام الغذائى الذيأصفه لكثيرين برنامج اساسى : انه جزء من تفكيرهم كآرائهم السـياسية ، او مصطلحات المهنة ، وعندما يفكرون في الطعـام فانهم يفكرون بعبارات اللحوم الحمراء المحمرة او الشــواء ، والخضر غير المطهية تماما ، واطباق الســلاطة ، والبيض والجبن والفاكهة ، واللبن : لتر من اللبن او الزبادي كل يوم ، وخميرة القمح ، ومسحوق خمـيرة البيرة ، والعسل الاسود يملأ ارفف منازلهم وكذلك كابسولات الاغـــذية الاضافية : زيت السمك (فيتامين ا و د) و « فيتامين ج » والكالسيوم ، واقراص تحوي املاحا معدنية ويودين

ولكي تبدو اصغر سنا وتعيش عمرا اطول ، عليك ان تذكر الدروس التي تعلمها كل هؤلاء الناس في انحـــاء البلاد :

١ ـ راقب طعامك بقية حياتك ، واجعله يشتمل علي المزيد من البروتين والمزيد من المعادن والفيتامينات ، وقلل من النشا والسكر ، مع اقل قدر ممكن من الدهن •

٢ ـ سيطر علي جسمك ولا تجعله يسيطر عليك •

٣ ـ اكتسب عادة ان تكون دائما في أفضل حالاتك ، وان تبدو دائما في أحسن مظهر وتشعر احسن شعور ، واستخدم دائما افضل جهودك لكي تجعل الدنيا من حولك افضل واكثر سعادة •



العكس بالعكس ••

كان سير توماس بيتشـام قائد الاوركسترا البريطانى يقود فرقة خلال العصر الذى كانت فيه مطربات الاوبرا من ذوات الاوزان الثقيلة

وقد سئل يوما عن سبب عدم اختيـــار مطربات يأكلن قليلا •• فقال :

ـ كم كنت اتمنى ذلك •• ولكننى وجدت مع الاســف ان اللواتى يغردن كالعصـافير يأكلن كالخيول ••• والعكس بالعكس !

كتاب الشهر

حافة الهاوية

بقلم ماري هاكيت

كتبت ماري هاكيت تقول : « ان آخر شيء تفكر فيه عن شخص تحبه .. هو أنه ينتمي الي مستشفي للمجاذيب » . وعندما لم يعد في الامكان تجاهل أوهام زوجها ، وجدت يأسها مروعا ، والتجربة كلها محطمة .. ولكنها عندما واجهتها ، عرفت ان المرض العقلي كأي مرض آخر ، وأنه لم يعد مستعصيا علي العلاج بفضل العلاج الحديث ..

ان قصة «حافة الهاية» قصة حب صادق ملهم ، تسجل كفاح امرأة ضد احتمالات تبدو ساحقة لتنقذ زوجها وأسرتها .. كما أنها أيضا قصة كفاح محارب سابق شاب خلال سنة من الظلام العقلي وكيف خرج منها رجلا أكثر قوة .

حافة الهاوية

ملخصة عن كتاب The Cliff's Edge

كانت لهجة طبيب ادارة المحاربين القدماء تتسم بالعطف وان كانت حاسمة وهو يقول لي :

ـ ان زوجك مريض جدا يا مسز ماكيت .. ونحن مضطرون لادخاله المستشفي .

وابتسمت للهجة الجادة ... وقلت :

ـ ربما استطاع في الشهر القادم ان يقضي في المستشفي بضعة أيام خلال عطلته ..

فقال :

ـ كلا !.. كلا !! بل يجب أن يكون هنا غدا .. ان زوجك مريض بخلل في الشعور ويمكن أن يكون خطرا عليك وعلي الاطفال .

ومع ذلك فانني لم اسمح لنفسي أن أنظر الي المسالة بهذه الصورة الجدية البالغة .. لقد ساورني القلق حقا بشأن بول ولاسيما بعد التقلبات المفاجئة في مزاجه ، والصداع العنيف ، ولياليه القلقة . والحديث العجيب عن قوي الشر والخير ، وكنت أعتقد أن لكل ذلك صلة بالجرح الذي أصابه في الرأس وأنهي حياته كطيار في الجيش ، ومن ثم فانني توجهت الي ادارة المحاربين القدماء في نيوآرك ألتمس النصيحة

ولكنني ما كدت أستقر هناك ، حتي أخذت أجيب علي أسئلةالطبيب في تردد ، يخامرني احساس بعدم الاخلاص بصورة ما .. ولولا الالحاح في السؤال لما حدثته عن المسدس الذي يحتفظ به بول الي جوار فراشه ، وفي تغييره الكثير غير المعقول للوظائف والاعمال ..واعترفت أننا في خلال ست سنوات مرت علي زواجنا انتقلنا من ولاية الي اخري ، وقطعنا كل علاقاتنا بالاسرة والاصدقاء تحت اصرار بول ، ونحن الان نعيش مع أطفالنا الثلاثة في بلدة بولاية نيوجرسي لا نعرف فيها أحدا .

وأصغي الطبيب في جد ، وكان قد تصفح ملف بول بادارة المحاربين القدماء ، ثم أصدر حكمه .. الحكم الذي وجدته أقسى من ان اقبله ، فان آخر شيء تفكر فيه عن شخص تحبه، هو أنه يجب أن يكون في مستشفي للمجاذيب ...

وحتي في اليوم التالي ، عندما

أقنعت بول بالذهاب معي لفحصه ، واقترح الطبيب دخوله مستشفي المحاربين القدماء في «ليونز» فورا ، ظللت أقلل من شأن الموقف ، وبينما كنا منطلقين بالسيارة في طريقنا الي المستشفي بعد ظهر أحد أيام مايو الدافئة ، كنت علي ثقة من أنه لن يبقي هناك أكثر من أيام قليلة ، حتي يتمكن الفحص الطبي من تحديدمصدر متاعبه •• ومما يثير الدهشة أن بول كان راغبا تماما في أن يعالج بمستشفي الامراض العقلية ، رغم نوافذه الكئيبة ذات القضبان السوداء •• وعندما أقفلت عليه أبواب المبني الاحمر الداكن ، لم يكن أحد منا يعرف حقيقة المحنة التي نواجهها ••

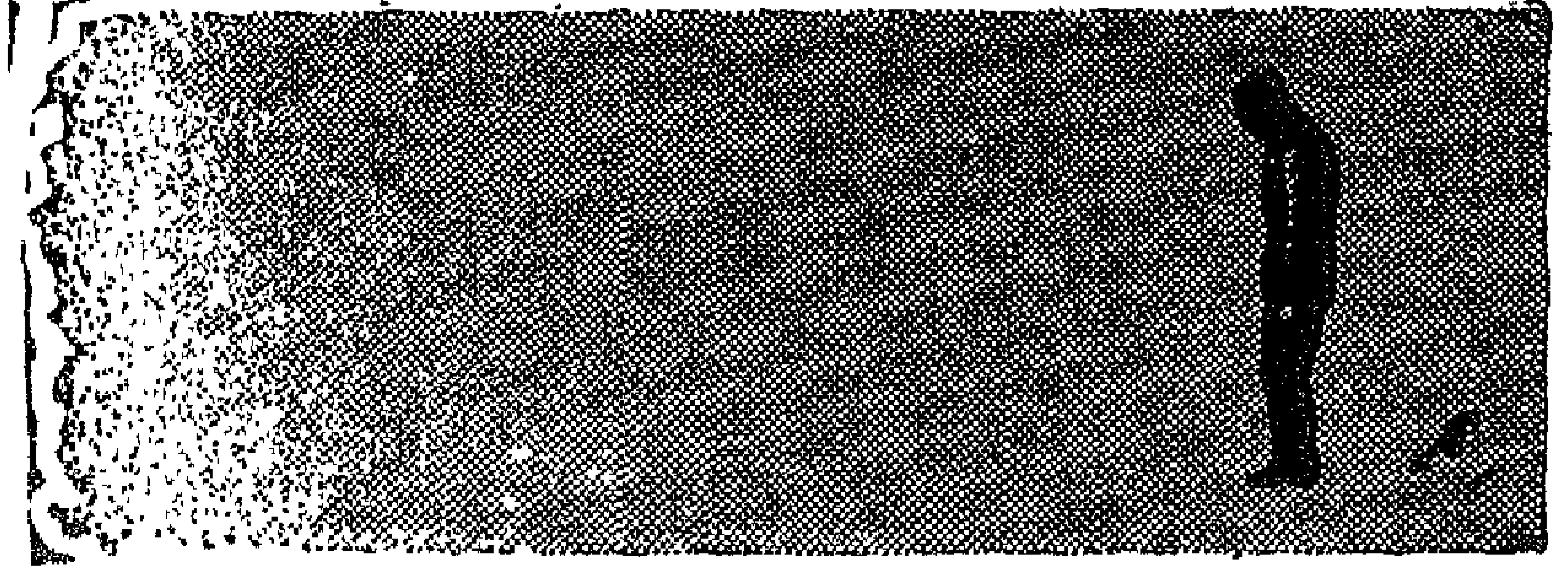
وخلال الاسبوع التالي ظللت أتصل بالمستشفي كل يوم ، لكي أتلقي فقط تأكيدات تشوبها بعض الحماسة ، بأن كل شيء سيسير علي مايرام•• ولم يكتب لي بول أو يتصل بي تليفونيا ، وقيل لي أنني لا أستطيع ان أزوره ، وعندئذ ازداد شعوري بالقلق •• لم تكن هناك أزمة مالية مباشرة ، اذ كنا لانزال نتلقي معاش العجز المقرر لبول ، ولكن الامل في عودته المبكرة ما لبث أن تبدد في ظل الصمت الذي بدأ يسود البيتوالاولاد وأنا نفسي ••

ومر شهر رهيب كنت خلاله نهبا مقسما بين التفكير في حماقة ذهابي به الي المستشفي ، وبين الشك في أنه كان ينبغي أن يذهب الي هناك منذ وقت بعيد •

وأخيرا سمحوا لي بالبدء في زيارة بول ، ولكنني لم أجد راحة كبري في زياراتي له ففي بعض الاحيان كان يجلس شارد الذهن ، صامتا ، وفي أحيان اخري يتحدث في تأثر عن مشروعات المستقبل • وبدأت اقتنع بأنه كان للمستشفي تأثير سيء علي نفسه واصررت علي انه يجب ان يسمح له بالعودة الي البيت لبضعة ايام •• وأخيرا ، وبعد مرور شهرين على دخوله المستشفى ، منح اجازة فيعطلة نهاية الاسبوع •

***

لم تكن الزيارة سيئة حتي يوم الاحد ، وفي ليلة الاحد ، كنت ارقد نصف نائمة وانا احس ان شيئا طيبا قد حدث ••• لقد عاد بول الي البيت ، ومددت يدي لالمسه حتي اتأكد من ذلك ، ولكن الوسادة كانت خالية الي جواري • وجلست في الفراش ، ودرت ببصري في ارجاء الغرفة التي ينيرها ضوء القمر ، ورحت اصغي ••




ثم نهضت ، وسرت نحـــو القاعة ، ووقفت في اعلي درجات الســـلم ، واعتقدت انه هبط الي الطابق الارضى ليشرب كوبا من اللبن ، فناديت عليه برقة حتي لا اوقظ الاطفال .

كان الصمت يسود المكان .. ثم سمعت صوت اقدام عارية تســـير ، ورايته بول يصعد الدرجات بسرعة ، كما رأيت ايضا انه كان يحمـــل سكينا لقطع اللحم كانت تبرق في ضوء القمر وكانت عيناه تومضان في هياج في الضوء الخافت وهو يقول :

ـ ماري .. اجمعي الاطفال في غرفة واحدة .. وسأقف هنا .

فسألته :

ـ ماذا حدث يابول .. أهنــاك أحد في البيت ؟

ـ افعلي كما اقول لك .. اجمعي الاطفال في غرفة البنتين .

وعنـــدما ترددت ، ضربني علي خدي ، ولم أشـــعر بالالم السريع ، ولكنني ادركت فقط ان زوجي ـ الذي احبه ـ قد ضربني .

ودرت علي اعقابي ، واسرعت الي غرفة البنات واغلقت الباب ، ثم جلست علي الارض ابكي بين الفراشـــين الصغيرين ، وقد وضعت احدي يدي علي ، كريس ، والاخري علي جينا لحمايتهما .. ورحت اقول لنفسي مرة بعد اخري : هذا ما كان يعنيه الاطباء .. هذا هو الجنـــون ... ان بول مجنون ، وقد وقعت في الشرك انا والاطفال .

وفتح البـــاب ، ولكنني لم ارفع بصري ، بل تحركت لكي اجـــذب الغطاء علي كريس كأنمـــا لاحميها وأمسك بول يدي وقال انه لميكن يقصد ضربي ، وان عليه ان يقاتل المعركة وحده في المستشفى ... وعدنا الي غرفتنا حيث رقـــدت الي جواره في صمت حتي استغرقت في النوم ، وكان في استطاعتي وانا في الفراش ان اري السكين التي القاها علي ارض القاعة .

ورحت اصغي الي انفاســـه ...

انها نفس الطريقة التي مرت بهـــا آلاف الليالي الاخري : الاطفـــال نائمون وزوجي الي جواري.. الليالي التي كنت استيقظ خلالهـــا افكر في النزهات الخلوية او اتخيل الاطفال وقد كبروا ... ولكن هـــذه الليلة كانت مختلفه ، لانني عرفت أخيرا ان بول مريض مرضا خطيرا ... بل واكثر مرضا مما كنتاسمح لنفسي بالاعتقاد فيه ... وسألت نفسي عندئذ : كيف امكن الا اري مرضه كل هذا الوقت الطويل ؟

***

عندما قابلت بول اول مرة ، كنت طالبة في السنة الاولي بكلية الحقوق بجامعة بوسطن ، وكان هو يسبقني هناك ، اذ كان اول محارب قديم يعود الي الدراسة : شاب اشقر ، ازرق العينين لوحت الشمس وجهـــه ، له اسنان بيضاء جميلة ، وقد عشنا نحن الاثنين طوال حياتنا علي مقربة من بوسطن وكان والدانا مهندســـين ، والتحقنـــا كـــلانا بالمدارس الكاثوليكية الابتدائية والثانوية . وقد اكتشـــفنا هذه التجارب المتماثلة في الشـــهور التي مرت بعـــد لقائنـــا الاول .. الشهور الرائعة التي غرقنا خلالها في الحب الي أذقاننا .

واكتشفت كذلك ان بول كان يتمتع بذهن مشرق وحيوية فياضة ، وطموح شديد ، مع ضمير يبدو انه يطارده باستمرار ... وعندما أخبرني انه اصيب بارتجاج في المخ في الجيش وانه تمر به حالات عصبية مروعة ، كنت أحبه الي حد بدت معه هذه الاشياء غير ذات اهمية .

وتزوجنا بعد ذلك بستة اشهر ، ولم تكد تمضي فترة قصيرة حتي ترك بول كلية الحقوق وكرس كل وقته للعمل في محل الراديو والاجهزة الصوتية الذي كان يديره الي جانب الدراسة ، ورغم انه بذل كل ما في وسعه ، فقد أفلس في النهاية . ثم بدأت بعد ذلك فترة طويلة كان يتولي خلالهـــا العمل في مشروع بعد آخر ، ولا يكاد يحـــرز تقدما في أحدها حتي يدمره في نوع غريب . كان يتكتم متاعبه في العمل ولم اكن انا اسأله عنها ، ولكنني كنت اشعر من وقت لآخر ان شكوكه في شركائه في العمل أو مستخدميه كانت غير معقولة .

وعندما وصل اطفالنا ـ اولا كريستي ثم جينا ، وأخيرا جون الصغير ـ بدا ان بول كان شديد التأثر مثلي ، وكان أبا طيبا لهم ، ولكن قلقه ظل يزداد .. لم يكن هناك مشروع جديد يبدو انه

يرضيه ، وسيطرت عليه فكرة دراسة علم النفس ، وغادرنا بوسطن في النهاية ، ليستطيع ان يتلقى دراسات عليا في علم النفس بجامعة نوردهام بنيويورك ، ولكنه بعد شهور قلائل ترك ذلك لكي يتولي وظيفة لبيع السيارات في نيوجيرسى •

طوال ذلك كله ، ورغم الحوادث غير المعقولة التي كان يجب ان تحذرني مقدما من مرض زوجي ، كتمت شكوكي ، ولم اذكر الا اننا عاشقين مغرمين ، وان الله رزقنا بأطفال رائعين ••• وعشت مع احلامي الخيالية بأنني الزوجة الكاملة بلا نزاع بينما كان بول يكافح وحده ، لا من أجل المال اللازم لاعالتنا فحسب ، بل ومن اجل سلامة عقله ايضا !

***

بينما كنت اقود السيارة عائدة ببول الي المستشفى في صباح اليوم التالي لهذه الحادثة المرعبة التي امسك فيها بالسكين ، حاولت الا اتساءل عما يفكر فيه، وحاولت الا أحسد هؤلاء الازواج الذين كانوا يمرون بسياراتهم امامنا •• وعندما تكلم ، كان حديثه متسما بطابع المرض الذي يسيطر عليه اذ قال :

ـ ماري •• اني احبك • وعندما اهزم كل قوي الشر ، سوف تكونين فخورا بي !

وعندما بلغنا المستشفى قبلني قبلة عنيفة فيها حب ، وغضب ، وهياج •• ثم سار وحده نحو احد المباني ذات الطوب الاحمر ••

***

ظللت ازور المستشفى مرتين كل اسبوع لمدة شهرين ، وتحدثت عدة مرات مع احد الاطباء ، وكان دائما في عجلة لا يكاد يصغى الي الا نصف اصغاءة ، ويرد علي اسئلتي باجابات مبهمة لا تشبع غليلا وكنت بعد زيارة بول للبيت ، قد عزمت علي الحصول علي معلومات محددة عن حالته ، ومن ثم فانني وصلت الي المستشفى يوم الاحد التالي قبل موعد الزيارة حتي أجد وقتا اقابل فيه الطبيب •••

وفي تلك المرة وجدت في المكتب طبيبا آخر ، وهو رجل ضخم الجسم في منتصف العمر ذكرني بطبيب العائلة ، ووقف الرجل وصافحني قائلا :

ـ أنا الدكتور ادواردز يا مسز ماكيت • لقد كنت في أجازة ، ولكنني اعرف حالة بول •

وشجعني دفء حديثه وروحه الانسانية علي ان اصب في اذنيه كل مخاوفي ، وقلقي لان حالة بول لم

تتحسن ، وقلت له انني اتلهف لمعرفة تشخيص المرض الدقيق ، ثم سردت عليه حادث السكين وقلت : « يبدو لي ان بول قد ازداد مرضـــا وهو في المستشفي ، ولعله اذا استطاع ان يعود الي البيت استطعنا ان ندبر له علاجا خاصا ... »

وسكت الدكتور ادواردز برهة قبل ان يجيب قائلا :

ـ مسز هاكيت ... ان العاملين هنا يعتقدون ان بول مريض جدا .. لقد وضع تحت اختبارات عقلية كثيرة منذ دخوله المستشفي ، وكان الطبيب الآخر يراوغ في الرد عليك لانه كان غير متأكد فقط .. ولكن بول في رأينا يصاب بجنون الشيزوفرينيا « الانفصام العقلي » .. وهي تعني بعبارة اكثر بساطة ان هناك خيالات توحي له ان قوي الشر تتحالف ضده . وقـــد اصيب بانفصال خطير عن الواقع .. وهذا الحادث الذي وقع في عطلة نهاية الاســـبوع يعني ان اوهامه اصبحت نشطة ولا يمكنني ان انصحك حقـــا باخراج بول الآن .

ولابد ان الارتبـــاك قد ظهر علي ملامحي بأجلي معانيه . فقـــد تكلم الطبيب بصوت اكثر ودا وقال :

ـ ان الحالة ليست ميئوسا منهـــا يا مسز هاكيت . لقد رأيت كثيرا من الاشخاص يتحسنون ...

ولكنك قد تواجهين ثلاث ســـنوات يتناوب خلالها علي بول اليـــأس ، والغضب ، والسرور ، والانعزال ، وخلال تلك الفترة سيكون عليك ان تنكري في طريقة ما لرعاية الاطفـــال .. وانتظاره . انها ستكون مهمـــة عصيبة . ففي بعض الايام لن يعرفك ، وفي أيام اخري ستعتقدين انه ليس مريضا .. وقد يكون ميالا الي القتل او الي الانتحار في بعض الاحيان . انه يمكن ان يتحسن ، او ربما فشل في ذلك . انني آسف يامسز هاكيت ، ولكن لابد ان تعرفي ذلك من شخص ما .

ـ ولكن ما سبب ذلك يا دكتور ؟.. ولماذا يحدث لبول ؟

ـ ليس هناك دليل علي المرض قبل الخدمة العسكرية او في تاريخ اسرته .. ولكنه بعد ان اصيب رأسه في حادث سقوط الطائرة ، بدأ سلسلة من حالات الانفصال عن الواقع . ان الآثار المادية لاصابة الرأس لا تحدث هذه المتاعب ، ولكن آثارها النفسية يمكن ان تحدث ذلك .

وسألته السؤال الذي ظل قابعا في رأسي منذ شهور . فقلت :

ـ ماذا بشأن الاطفال ؟

ـ هذا المرض ليس وراثيا ، فلاتدعي القلق يساورك بهذا الصدد .

ـ ولكن ماذا سيحدث لبول ؟ أليس هناك شيء استطيع ان أفعله ؟ .. انني اشعر بالعجز التام .

فقال الطبيب بهدوء :

ـ اننا لم نعرف بعد ما يكفي عن الامراض العقلية . ولكن هناك شيئا وأحدا تستطيعين أن تفعليه :

تغلبي علي مخاوفك من هذا المرض .. انه مجرد مرض ولاشيء غيرذلك . وبعض المرضى يشفون منه ، ولا اظن ان حالة بول ميئوس منها . انني اعدك بانني سأفعل كل ما في وسعي ، وفي نفس الوقت عليك ان تحرصي علي أطفالك وبيتك . وعليك ان تزوري بول وتكتبي له بانتظام . وقبل ذلك عليك ان تأملي وتبتهلي الي الله ، وثقي انه سيكون علي ما يرام ، ودعيه يشعر بحبك .. يجب الا تخذليه » ..

ولتخفيف متاعبنا المالية ، وجدت عمـــلا اقوم فيه ببيع بعض ملابس الاطفال الصـــغار بطريق التليفون ، وكان هـــذا هو العمل الوحيد الذي استطعت العثور عليه ، والذي يمكن القيام به في البيت حيث يمكنني ان ارعى الاطفال ، وكانت أرباحى من هذا العمـــل مع معاش العجز الذي يتقاضاه بول يساعدنا ولكن لفتـرة قصيرة فقط .

وبينما كنت أتحدث تليفونيا مـع الســـيدات الحوامل ، كان على أن أمنع نفسى عن التفكير في مدي حظهن السعيد لان ازواجهن معهن في البيت ، ولكننى لم أكن أترك رثائى لنفسى يفسد بهجة الاشخاص الذين اتعـامل معهـــم . كنت أقول لنفسى في تلك الساعة ، هناك سيدات انفصلن عن أزواجهن بسبب الحـــرب في كوريا ، فهل أنا أضعف منهن حتى أن الانفصال يعتبر مستحيلا بالنسبة لى ؟

وفي ادارتى للمنزل بمفردي كانت كل بلية صغيرة تزيد اضطرابى وتزيد الاسباب التى تجعل الحاجة الى بول أكثر الحاحا .. وهكذا مرت الايام والاسابيع ، كتبت خلالها بعض الرسائل لبول خلال الوقت الذي كنت أنتزعه من الاطفال .. رسائل كافحت لكي أجعلها تفيض ببهجة ، ولكنها لم تكن تحظي بأى رد قط .. اسابيع اجبرت نفسى خلالها علي الاتصال التليفوني لبيع ثياب الاطفال ، وتهدئة اعصابى مع الاطفال ، وكتم احزانى عنهم ... أسابيع كنت أبكى فيها حتى أنام وأنا وحيدة في الليل .

وبعد ظهر ذات يوم دق بابنا ..

ووجدت سيدة ضئيلة الجسم بيضاء الشعر ترتدي معطفا أسود اللون ، قدمت نفسها قائلة : انني جارتك وأنا أقطن على مسافة أربعة بيوت وأدعى ماربيت ويلسون .. أتسمحين لي بالدخول ؟

وصحبتها الى الغرفة الامامية ، وانتظرت أن تتحدث فقالت :

ـ لقد كنت أريد زيارتك منذ بعض الوقت . لقد سمعت عن محنة زوجك ، وتحدثت الى الاطفال حتى أنني أكاد أشعر أنني أعرفك . وأنا أريد أن أقدم مساعدتي .

وشرعت في القول انه ليس هناك شيء أحتاج اليه ، ولكنها قاطعتني قائلة :

ـ مسز هاكيت .. انني أنا وزوجي نعرف كل شيء عن الحاجة الى المساعدة . لقد فقدنا منزلنا خلال فترة الكساد ، وفقدنا ابنتنا الوحيدة في حادث سيارة . وبعض الناس لايحاولون المساعدة الا بطريقين : اما أن يقدموا لك نقودا ، او يحاولوا العثور على حل سحري كبير ، ولكنني لا أفكر في ذلك . انني سأحضر فقط بعض الطعام ، وأرعى الاطفال نيابة عنك بضع ساعات .. منذ متى أعددت لنفسك وجبة محترمة ؟

واضطررت الى الابتسام ، فمنذ غياب بول اعتدت حقا الا آكل الا مايتركه الاطفال .

وخلعت مسز ويلسون معطفها واتجهت نحو المطبخ . وجاء الاطفال للغداء ، فلم يبد عليهم أي دهشة لرؤيتها . واكتفيت أنا بالجلوس على مقعد في غرفة الجلوس وأنا أحس بالارهاق . وأحضرت لي مسز ويلسون الغداء وقدحا من الشاي الثقيل وقالت في اقتضاب :

ـ لماذا لاتأكلين هذا الآن وتنامين قليلا ؟ وسأرعى أنا الاطفال .

ونمت ثلاث ساعات دون أن أسمع صوتا ، مع أنني طوال شهور كنت أنام واحدي اذني متجهة نحو أصوات المنزل . وعندما هبطت الى الطابق الاسفل ، وجدت الاطفال يساعدون مسز ويلسون في خبز بعض الفطائر . وقبل أن ترحل أصرت على أن أسمح لها بالحضور للبقاء مع الاولاد في الايام التي أزور فيها بول .. ثم انصرفت قبل أن أجد الكلمات لشكرها ..

***

ولكن لم يكن الجميع يتسمون بالفهم مثل مسز ويلسون ، فـ عندما

شاع نبأ مرض بول في البلدة ، بدأت أشعر بالقلق في نفوس الناس ، اذ أن متاعبى ذكرتهم بمشكلة لا تحل كنت أحس أن كثيرين يعتقدون أن الاشخاص المصابين بمثل مرض بول، ليست لهم أية حقوق ، وأن الافضل لهم أن يموتوا •• وكان السؤال الذييتكرر غالبا وهو : «ماذا ستفعلين الآن ؟ » هو التضمين بأن بول عزز بطريقة ما حقه في الحب والولاء •• واحتضنت أطفالى ، وحاولت ألا أفكر أكثر من ذلك كل يوم ••

وحاولت أن أقرأ كلكتاب استطعت الحصول عليه في علم النفس ، آملة أن يساعدنى ذلك في فهم حقيقة ماأصاب بول ، وكانت الكتب التى استخدمها خلال دراسته لعلم النفس لاتزال في دولاب كتبنا ، ولكننى لم أجد فيها أي أمل رغم مافيها من آراء خبيرة ، وحلول بارعة ، وحالات مرضية مختارة •• واستطعت أن أدرك كيف تخلى بول – وهو مريض في أعماقه – عن الدراسة فجأة •• وكان علي أن أعتمد على أمل أكثر قدما ، وعقيدة أوسع نطاقا •• فلم يكن أمامى الا أن أسأل الله أن يحمى بول وأن يهبنى الشجاعة لانتظاره •

كانت متاعبى المالية تزداد تكدسا في نفس الوقت ، فقد أوقف صرف معاش بول الى أن يعاد تقدير مقدار عجزه ، ولم يكن في استطاعة مرتبي أن يواجه نفقات المعيشة ، دفع أقساط البيت ، والقروض الخاصة بالسيارة والاثاث التى حل موعد سدادها •

كنت أحسأننى لايمكننى أنالتمس المساعدة من أقاربى في بوسطن، فقد أصبحت أمى أرملة معتلة الصحة ، بينما كان بول قد قطع صلته بأسرته منذ سنوات ، ولم يكن يريد أن أكتب لهم •

كنت أعرف أن هناك هيئات لتقديم الاعانات ، ولكننى لم أكن أعرف كيف الجأ اليها كما كنت أخجل من أن التمس مساعدتها • وعندما ازداد موقفى المالي سوءا ، أرسلنى الطبيب الى سيدة تدعى مس برلنتون بجمعية الصليب الاحمر في «هاكنساك» •• وكانت لها ابتسامة ودية ، وسرعان مافهمت المحنة التى أواجهها ومرض بول •• وكان بين الاشياء التى قالتها لى عبارة كنت أرددها لنفسى كلما خانتنى شجاعتى : «قد تعتقدين يامسز هاكيت أن أحدا آخر لم يواجه هذه المشكلة ولكن هناك كثيرين آخرين •• اننى أقابل الناس دائما

كلما بلغت الامور ذروة السوء ، ومع ذلك فانني كثيـرا ماأحس أنهـم سيجدون الشجاعة التى تسـاعدهم على الاحتمال •• وهذا هو شعوري وأنا أتحدث اليك» •• ووافقت على أن تعد لى ميزانية ، وأن تساعدنى على سداد ما لا يستطيع مرتبى أن يغطيه ••

وفي تلك الليلة ، أحسست براحة في قلبى ، لا بسبب القـرض الذي حصلت عليه من الصليب الاحمر ، بل لانني وجدت عددا قليلا من الناس مدوا لى يد المساعدة في أكثر اللحظات حاجة اليها •

وأحس الاطفال بحالتى المعنوية ، وقد عزفت لهم على البيـانو وهم يرقصون ، وعندما حملت جينا الى الفراش ، همست قائلة :

ـ «انك سعيدة ياأماه •• لابد أن أبى سيعود الى البيت ! »

***

وعلى الرغم من أننى في زياراتى للمستشفى كنت أجد بول أحيـانا تفصله عنى حالات من اليأس الداخلى الرهيب ، فانهم في سبتمبر ـ بعد حوالي شـهرين على زيارته الاولى للبيت في عطلة نهاية الاسبوع ـ قرروا أنه تحسن الى حد يكفى للسماح له بزيارة أخري للمنزل في عطلة نهاية الأسبوع •• وكان وقتا رائعا لنـا جميعا ، فقد أشرق البيت لهـذه المناسـبة ، وامتلأ الاطفـال سرورا لوجود أبيهم ، كمـا كان بول فى أفضل حالات سلوكه ، وبينما كنت أتناول العشاء مع بول على ضـوء الشموع بعد أن نام الاطفال ، وجدت أننى لم أكن خائفة أو أشعر بالوحدة ، بل انني أكثر حبا له من ذي قبل •

ولكنه كان لا يزال بعيـدا عن التحسن•• ففى يوم السبت ، وبينما كان يجلس ليرقب الاطفال أثناء لعبهم ، قال بول فجأة : « لقد كنت أفكر في الطريقة التي يعمل بها عقلي ، كأنني أحس بثلاثة مستويات من الوعي فى نفس الوقت ، كثلاثة أجهـزة من الراديو تدور في غرفة واحدة ، وانني لأتساءل عما اذا كان عقل كل الناس يتحرك كعقلى » •

كانت تلك هي أول مرة يتحـدث عن اختلال في عقله •• وقد أرسلت الاطفال للعب في الخارج ثم طوقتـه بذراعى وقلت : « ربما كان عقلى عاديا ، لايفكر الا في شيء واحد فى المرة الواحدة •• أما أنت فان لك عقلا موهوبا لامعا يابول •• ومن ثم فانه قد يكون مختلفا » •

وابتسم لى ثم قال : « لعل عندي انقساما في الشخصية انا الآخــر كرفاقى في المستشــــفى .. ولكن تذكري أن كلا من الشــــخصيتين تحبك » .

وكنت أعرف أنه يحاول أن يعب شيئا في ذهنه .. كان الامر أشبه بمن يرى شخصا يحبه يتسلق سفح جبل منحدر .. وقلت له : « اذا كان هناك أي خلل فانك سوف تتحسن يابول .. انك في مستشفى جيد » .

فقال في كآبة : اذا كنت مثــل الآخرين ، فانني لا ادري ماهي فرصى في الشفاء .. أعتقد أننى يجب أن أنكر لك ذلك .

وجلست على مقربة منه ، وقلت انه حتى اذا لم تكن هناك فرصــة لتحســـنه .. وحتى اذا أصبحت حياتنا معا كلها مجرد زيارات قليلة في عطلات نهاية الاسبوع ، فان هذا يكفينى .

وعندما حان وقت عودة بول ، قال بلهجة جادة :

ـ لا تظنني ابدا انك مسئولة عن ابتعادي ياماري . فاذا كنت مريضا، فانني كنت كذلك منذ وقت بعيد ـ على الاقل منذ خــدمتي بالجيش ـ فاذا تحسنت ، فسيكون ذلك بسبب أشياء مثل هذه الزيارة .

وبدأ بول بعد ذلك يكتب لى من جديد ، وبدا أنه تحسن كثيرا لاننى سمحت لنفسى أن آمل في عودته الى البيت الى الابد .. ولقـد حذرنى الاطباء قائلين ان ذلك سوف يتطلب وقتا ، وأن هناك حالات تغيير سريع في هـذا المرض ، ولكن آمالى كانت تزداد مع كل يوم يمر .

وأعيد تقدير المعاش أخيرا ، وتلقينا مبلغا أتاح لنـــا أن نسدد فواتيرنا وقرض الصليب الاحمــر ، وفي يوم الزيارة التالى ، حملت معى الشـيك لكي يقوم بول بتظهيره ، وبينما كان يوقع عليه بامضائه قال :

ـ سيكون لديك كثير من النقـود كل شهر دون أن يضــايقك وجود الزوج .

ونظرت اليه في ذهول .. فحدجنى بنظراته عن كثب ثم ضرب ركبتـــه بقبضة يده بعنف وقال :

ـ اننى آســف ياماري .. انك لاتستحقين ذلك .. ان حديث الزملاء هنا عن زوجاتهم وأمهاتهم هو السبب فيمـــا قلت .. ولعلك لاحظت أننا نستقبل ثلاثة أضعاف العدد المعتاد من الزوار في اليوم الذي يريدون فيه التوقيع على الشيكات !

ولم أشعر بأية راحة في تلك الليلة •• فقد خشيت ان يفصل المستشفى بيننا أكثر مما فعل مرض بول •

***

في الليالى القليلة الاولى التى بكى فيها جون خلال نومه ، ظننت أنه ربما أحس بالبرد بسبب هواء الخريف القارص ، ولكن الاغطية الزائدة التي وضعتها فوقه لم تهدىء قلقه •• فسرعان ماتبين لى أنه أصيب بنوع منتظم من الحمى ، فيكون عاديا فى الصباح ، وترتفع حرارته في المساء، ويلتهب في الليل • وفحصه أحد الاطباء وأعطاه جرعات من البنسلين، وقد أفاده ذلك ليلة أو ليلتين فقط ، ثم عاوده المرض •

وقررت ألا أكتب لبول حتى أعرف حقيقة المرض ، حتى لايظن أن هناك قوي شريرة أصابت ابنه • وكنت أعرف أنه لو حدث أي شيء لجون، فان أباه قد لا يشفى أبدا ، اذ كنت هناك رابطة عميقة بين الاثنين •

وأجريت له اختبارات لا تحصى للحساسية في احدي العيادات ولكنها لم تكشف عن شيء • وجرب الطبيب اعطاءه «الاوريومايسين» ، ولكن الطفل لم يتحسن • وأهملت عملى ، بل ونسيت الكتابة الى بول بينما كنت أقضى الليالى الى جوار فراش جون لايغمض لى جفن •• كان الطفل يغمغم أحيانا في غمرة الحمى بصوت يمزق القلوب قائلا : « أبى •• أبى» ويردد ذلك مرة بعد أخري •

وفي ذات ليلة وأنا ناعسة في مقعد بجواره •• احدث جون صوتا عجيبا مختنقا ، فأخذته بين ذراعى • كان جسده كله يلتوي فيتشنجات، وازرقت بشرته كلها • واستدعيت طبيبا ، وعندما جاء قال ان الطفل أصيب بتقلصات بسبب حرارته • ونقلنا في سيارته الى المستشفى ، وهو يسير ببطء خلال الضباب ، بينما كنت احتضن جون بين ذراعى •

وعندما وضع جون أخيرا داخل خيمة أوكسجين بالمستشفى، واستطاع أن يتنفس بسهولة ، انتحى بى الطبيب جانبا وقال لى ان الطفل مريض مرضا خطيرا ، ورغم انهم لن يتمكنوا منتشخيص المرض بدقة قبل الصباح فان من الافضل أن أرسل في استدعا زوجى •

كانت الساعة الرابعة صباحا عندما اتصلت بمستشفى بولتليفونيا، فقالوا انه لايمكن عمل أي شيء قبل الصباح • وجلست في القاعة خارج غرفة جون ، ورحت أصلى في خوف

شديد •

وفي الساعة السابعـــــة صـباحا استطعت الاتصـــال بالدكتور ادواردز بمستشفى المحاربين القدماء فقال لي: « ولكن بول مريض أيضا ، ولايمكننا اخراجه من هنا ، رغم أنني أعرف مدي السوء الذي بلغته الامور بالنسبة لك»•• ثم أضاف قائلا : « انه يخشى أن تزداد حالة بول سوءا اذا عرف ان ابنه يحتضر بسبب حمي مجهولة »

وقاطعته قائلة : « انني أعرف بول أيضا •• فاذا حدث أي شيء لجون دون أن نخبره ، فانه لن يثق بأحد بعد ذلك مطلقا ، ولن يتحسن أبدا » •

وسكت الدكتور ادواردز لحظـــة ثم قال :

ــ سوف أعمل على ارساله للمنزل، ولكن أرجو أن تقومى برعايته والا كانت مسئوليتي بالغة •

كان جسمى يرتعش كله •• فلم يخطر ببالي قط أنهم قد لايسمحـون لبول بأن يأتى ، وقد عرفت الآن كيف كان القرار صعبا •

وكنت قد اتصلت لتـــوي بمسز ويلسون لالتمس منها العناية بكريس وجينا ، عندما اتصلت بى احـــدي المرضات وأبلغتنى أن جـــون بدأ نوبات تشـــنج جديدة • ولم يكن الطبيب موجودا ، وعلى الرغم من أن ثلاث ممرضات كن حول فراش جون، يمسكن يديه ويضعن عصا في فمه ، فانني استطعت أن أري أن التشنجات تهز جسمه الصغير وتلوي وجهـــه بصورة تثير الاشـــفاق •• ووقفت عاجزة عن أن أقول أو أفعل شيئا ، أرقبه بعينين غارقتين في الدموع بينما كان الطفل يحتضر ••

ثم احسست بذراع تطوق كتفى ، ورفعت بصري فاذا بول يقف بجواري •• وقلت له ماكنت أكرره لنفسى مرة بعد أخري : « انه يحتضر يابول•• ولكنه لايمكن أن يموت •• ان الاطفال لايموتون بهذه الطريقة » •

وأمسك بى بول وقال : «سوف يصبح على مايرام ياماري» •

وأحسست عنـــــدئذ أننى لست وحيدة •• انه هنا ، وهو لم يوجه لى أي لوم ••

وجاء الطبيب وسرعان ماأعطــاه بعض الحقن ، فهدأ الطفل ، وأصبح تنفسه أقل صعوبة •• وتبع الطبيب ذلك بعمليـــة بذل للنخـاع الشوكى لتخفيف الضـــغط على المخ ، ولكي يجري اختبـــارا للحمى المخيـــة الشوكية •

وجلست بعد ذلك أنا وبول صامتين

نرقب جون وهو يستغرق في النوم ، وعندما حان المساء ، طلب بول أن أعود الى البيت لاري الفتاتين ، وأنام قليلا ، وعندما انصرفت ، كان يتحدث الى جون بلطف ، يحكى له بعض القصص ، فلم أشعر بأي خوف من تركهما معا وحيدين ..

كان الصباح التالى باردا ممطرا ، فأعـددت الافطار بسرعة ، وتركت البنتين مع مسز ويلسون ثم انطلقت بالسيارة الى المستشفى . كان جون نائما وبول لايزال جالسا الى جوار سريره عندما وصلت .. كان يبدو هادئا وفي حالة معنوية طيبة . وقال لى : « لقد أمضى جون ليلة طيبة ، ولكن حرارته مازالت مرتفعـــة ، والتقلصات تؤثر على قلبـــه ، فاذا استطاعوا تهدئة الحمى، فانه سيكون على مايرام» .

وبينما كنت أجلس الى جــوار فراش جون، وقف بول بجانب النافذة يرقب المطر .. وتساءلت عما يدور في ذهنه . كنت أريد أن أطلب منــه أن يصلى معى ، ولكننى لم أجــرؤ على ذلك . ثم نظرت الى وجه بول الشــاحب ، ووجدت الشجاعة التى جعلتنى أقول :

ـ ألا تردد صلاة معى من أجــل جون ؟

كان بول منذ مرضه حتي ذلك الحين ، يرفض في غضب كل مايتعلق بالعقيدة والدين .. أما الآن فقـــد نظر الى ومرت لحظة من الصمت ، والصراع الداخلى ، ثم أمسك يدي، ورحنا نصلى معا ..

***

في تلك الليلة ، أصبحت حــرارة جون عادية.. ان ابننا سوف يتحسن، وازدادت حالتى المعنوية تحســنا بعد أن مرت الازمة ، وأحسست بثقـــة جديدة عندما فكرت في مرض بول.. كان يبدو كما كان قبل المرض الذي أصاب عقله ، وفي اليوم الذي عاد فيه الى المستشفى ، أعربت له عن آمالى قائلة :

ـ بول .. ربما عدت الى البيت قريبا لتبقى ..

ووافق على أن هذا احتمال حقيقى، كما بدا أن الدكتور ادواردز متفائل بتقـــدمه ، اذ قال لى في أحد أيام ديسمبر : « ان بول يسير في طريق التحسن .. ربما أحسن مما كنـــا نتوقع . ان له عقلا ممتازا ، ولهذا يؤثر فيه العلاج النفسانى » .

ولكن كانت هناك تقلبات ونكسات، وبدت مشكلاتى في البيت لاتنتهى .

حدث تحول مذهل في حالة بول بعد ذلك نتيجة للعلاج النفسي الكثير الذي كان يتلقاه. وكنت اجد من الصعوبة فهم هذا النوع من العلاج . وقد سألت الدكتور ادواردز قائلة :

ـ أتعني انه بمجرد التحدث مع بول تستطيع ان تشفيه ؟

قال :

ـ ان المسألة ليست بهذه البساطة ، ولكن الفكرة هي انه في خلال عملية التحدث معه قد يعرف بعض تفكيره الملتوي ولما لم يكن في استطاعتنا ان تمنح وقتا كثيرا لكل مريض ، فانني احاول ان أجعل المرضى ذوي القدرة اللفظية على ان يكتبوا كل ما يفكرون فيه ـ مجرد بضع صفحات كل يوم ـ ولدي حافظة كاملة من كتابات بول ، وبغض النظر عن قيمتها العلاجية ، فانني اعتقد انها كتابة بديعة جدا .. ان بول لم يكتب قط من قبل . أليس كذلك ؟

ـ كلا ... انه لا يكاد يكتب حتى الرسائل .

ـ شيء طريف .. ان لديه قدرة ادبية عظيمة . انني اود ان تكتب كل كتاباته على الآلة الكاتبة ، وتحضريها معك في كل يوم للزيارة .. ان ذلك سيساعد على تقديره لنفسه .

وقدم لي حافظة اوراق ذات لون بني مليئة بالاوراق المكتوبة بخط اليد وقال لي : « لا تدعي هذه الكتابات تزعجك . ان اغلبنا لديه وسائل للدفاع طوال الوقت ... اما عندما يكتب شخص مريض ، فانه لا يكون لديه اية وسيلة للدفاع . ان تقليب بعض الصفحات سيكون امرا قاسيا . »

وقبلت الحافظة بعواطف متضاربة .. اكان الدكتور ادواردز يعطيها لي لمجرد ان يشغلني ويجعلني اعتقد انني اساعد بول ؟

وبينما كنت اقف متأهبة للانصراف قال بهدوء :

ـ اعتقد ان هذا مجهود يستحق البذل والا ما اقترحته عليك ... ان بول يتقدم بصورة طيبة .. ولكن خبريني . ماذا حدث لك انت ؟

لقد فوجئت بالسؤال ، ولكنني بعد لحظة رحت احدثه عن حاجتي الى الشجاعة ، والى المساعدة من الخارج .. وقلت له : انني مضيت الى ابعد مما استطيع بمفردي .

ورمى الدكتور ادواردز ببصره عبر النافذة ذات القضبان السوداء . ثم التفت الي وقال بلهجة تكاد تكون فظة :

ـ اننا نبذل كل ما في وسعنا .. ولكن بول على الرغم من تحسنه

لايزال يطوي جوانحه علي الكثير من الغضب والعنف حتي انني احيانا اعتقد ان حبه لك والاطفال هو وحده الذي يجعله متماسكا للآن ، ولكن هذا الحب لا يتزعزع قط ، فهو يصوب نفسه دائما بطريقة ما بعد كل نكسة وانني اعتقد ان هناك بعدا وراء كل شيء نفعله ، ومن ثم واصلي الصلاة من اجله .

***

وفي تلك الليلة بعد ان وضعت الاولاد في أسرتهم ، بدأت اقرأ ما كتبه بول ... كانت اشياء لم اقرأ مثلها من قبل .. اشياء بها قوي دافعة رهيبة تدور بسرعة ... وأحسست بالذهول في البداية . ثم خلبت الكتابة لبي فنسيت من الذي كتبها ... لقد اذهلتني الموهبة وقوة الخيال ، وصورة فتي صغير مثقل الضمير ، ثائر في عنف علي بيئته ، لا يفهم حقيقة مشاعره ... وكان الليل قد كاد ينتصف عندمابلغت الجزء الذي ظل بعد ذلك اكثر الاجزاء التي قرأتها اثرا في نفسي .

كانت فقرة كتبها عن « عملاق شاب » اكتشف ان احدي ذراعيه ثم الاخري ، وأخيرا كل جسمه قد تحول الي ورق مقوي ! .. ثم قابل العملاق فتاة جميلة ، طيبة وقوية ، فتزوجا ، وأصبحت قوتها قوته ، فعوضته عن نقصه وانجبا اطفالا .. ولكنه ظل يتحول الي ورق مقوي ، وفي النهاية وضع في مستشفى للمجانين وقال : « انه يرقد في فراش ، وذراعاه من الورق المقوي ، ويأتي الاطباء ليروا ما الذي جعل العملاق ينهار .. ومعه عمالقة آخرون منهارون ، كلهم ينتظرون ليروا ان كانت قواهم ستعود ، ام ان احدا سيشعل فيهم عودا من الثقاب ، او يلقى بهم بعيدا ، او يضع قبعة من القش علي رؤوسهم ، ثم يضعهم في الحقول ، او يحبسهم في قبو مترب الي الابد ! »

وبينما كنت اقرأ هذه الكلمات رحت أفكر وأفكر .. وقلت لنفسي : « كان ينبغي ان اجعلك تعرف يابول ان العملاق ليس من ورق مقوي علي الاطلاق » .

وفي يوم الاحد التالي لم اكد أستطيع الانتظار لكي اعطي النسخ المكتوبة علي الآلة الكاتبة الي بول ، ولكنه في المستشفى اقبل نحوي مع الآخرين دون ان يبدو عليه انه يعرفني حتي اصبح بجواري .. لقد كان شارد الفكر ، يفكر في اشياء اخري . وبينما كنا نسير في الخارج في جو الشتاء ، حدثته

عما فعلته علي الآلة الكاتبة وسلمته حافظة الاوراق • فقال لي :

ـ لقد أخبرني الطبيب ••• كان يجب الا تزعجى نفسك ، فهذه مجرد شخبطة ••

قلت :

ـ كلا يا بول •• بل هي كتابة رائعة ، انها احسن ما قرأت •• بل يمكن ان تكون كتابا هل يمكنك ان تستمر في الكتابة وتصحيح العمل الذي كتبته علي الآلة ؟

وفتح الحافظة وبدأ ينظر فيها • ثم قال :

ـ لست ادري اين استطيع ان احفظ هذه • ان بعض الاشخاص يمزقون كل ورقة يرونها • واذا حملتها معى ظن الاطباء انها عرض من الاعراض ، فبعض الرجال يحمل اكياسا تحوي صحفا مطوية ، ويدسونها تحت حشية الفراش •

ـ الا يمكنك ان تطلب الي دكتور ادواردز حفظها في مكتبه ؟ انه مهتم بهذه الكتابات •

ـ حسنا •• سأفعل •

ثم اخرج بعض الاوراق المطوية من داخل حزامه وقال لي :

ـ اذا اردت حقا ان تكتبي هذا الكلام علي الآلة الكاتبة ، فان عندي المزيد هنا •

وعندما كنا علي وشك الافتراق قال لي مازحا :

ـ انت التي تخصصت في اللغة الانجليزية في الجامعة تكتبين هذه الكتابة الطائشة علي الآلة الكاتبة ! ان كليتك القديمة سوف تتبرأ منك !

وبينما كنت في طريق العودة الي البيت ، ادركت انه كان احسن حالا عند انصرافي •

وأصبحت كتابة بول وتدا جديدا اعلق عليه آمالي في شفائه ، وعزمت ان اعرض كتاباته علي بعض المحترفين فأرسلت قسما منها يصف صلاة في مستشفى المجانين الي مجلة « العالم الكاثوليكي » وكانت مكتوبة بأسلوب قوي يمزج بين الحقيقة القوية ، والحب الدائم لله •• واشترتها المجلة ، وعندما سمع بول النبأ الطيب ابتسم قائلا : « اراهن ان هذه اول مرة ينشر فيها شيء لشخص يقيم في مستشفى المجاذيب » •

ولكن النسخ علي الآلة الكاتبة كان عبئا اضافيا • وعندما حل مارس ببرده وعواصفه الشديدة الممطرة ، وجدت ان كل شيء افعله يتطلب مزيدا من الطاقة ••• ونظرا لانني كنت اكتب ببطء ، وكنت اريد ان اعد كتابات بول

قبل كل زيارة ، فقد كنت اضطر الي العمل حتي ساعة متأخرة من الليل .. وفي خلال النهار اصبحت اكثـر اثارة بسبب الاطفال ، وكنت اجبر نفسي علي اجراء الاتصالات اليوميـة الخاصة ببيع ثيـــــاب الاطفال .. وتدهورت مبيعاتي ، وبدأت متاعبي المالية تتكدس مرة اخري ، وزاد الضغط وعبء المتاعب كمياه الفيضان التي تضغط علي سد ضعيف ... لقد كنت علي وشك الانهيار .

ولكن بول كان يتحسن كل يوم .. وزادت المرات التي اصبحوا يسمحون له فيها بالعودة الي البيت في نهـــاية الاســــبوع ، وفي كل زيارة ، كان يطمئنني بأنني لن اضطر للانتظـــار طويلا ..

جاءت الكلمات التي كنت احن اليها منذ زمن بعيد فجأة وبصورة عابرة تقريبا ... ففي أمسية يوم بديع من ايام الربيع كنت في مكتب الدكتـــور ادواردز عندما قال لي :

ـ اننا نعتقد جميعا ان بول قــد اظهر تحسنا عظيما ... لقد بدأت أجزاء شخصيته تعود الي أماكنهـا ، فلم يعد في حرب مع نفسه ، وسأحاول ان اعيده الي البيت في الاســبوع القادم .

فسألته في تردد :

ـ الي البيت للابد ؟

ـ سوف يأتي لاختباره امام الاطباء فاذا اجتاز الاختبار ، فسوف يحصل علي ترخيص بزيارة لمدة ٣ اشهر علي سبيل التجربة .. ثم نقوم بالفحص ، فاذا كان علي مايرام ، مددنا الذترة تسعة اشهر واذا ظل بعيـــدا عن المستشفى عاما ، فاننا سوف نخرجه بصفة دائمة .

كانت هذه الانباء الطيبة كفيلة بملء قلبي طربا في ديسمبر ، اما الآن ، فانني رغم تأثري العميق بها فان رد الفعل الاساسي عندي هو الارهاق ... لقد انفقت من الطاقة العاطفية قدرا كبيرا الي حد انني لم اعد املك القدرة علي الحماسة .

واستمر دكتور ادواردز يقول :

ـ عندما يعود الي البيت ، ستصبح مشكلة العمل من المشكلات الضخمة ، اذ لاشك انه ينبغي ان يقوم بول بعمل غير متجانس في البداية ، بل قد يكون من الافضل له اذا قام بعمل يدوي .

فسألته :

ـ ما رأيك في الكتابة يا دكتـــور ادواردز ؟ الا يستطيع ان يشـــتغل بالكتابة ؟

ـ انها ميدان يحفل بمنافسة كبيرة

•• انني اعتقد انه يكتب جيداً ، وقد يكون مستقبله في الكتابة في النهاية ولكن الصعوبة انما تكمن في السنوات القليلة القادمة •

وسكت لحظة •• ثم قال :

ـ لاتزال امامك لحظات عصيبة قادمة يامسز هاكيت ، ولكنني اثق كثيرا فيكما معا واعتقد اننا قد خرجنا من الغابة •

وفي الايام السابقة على مثول بول امام لجنة الامتحان ، رحت انتظر وارقب مرور الوقت ، عاجزة عن العمل او عمل اي شيء غير الصلاة والابتهال •• وبدأت اعتمد علي عودته الي البيت كآخر أمل ، معتقدة انني انما تعبت كثيرا من الاستمرار بدونه ، ولكن كل شيء يتوقف علي الاثر الذي سيتركه في نفوس اللجنة •

كنت اعرف ان المقابلة ستكون فاحصة ، وخشيت ان يحدث شيء خاطيء ••• ربما اثار سؤال غير متوقع انفجارا في اعصاب بول يقضي علي آمالنا ؟ ••• وازداد توتري عندما اقترب الصباح الخطير ، ومر دون ان اتلقى كلمة من المستشفى •

وفي باكورة الاصيل دوي جرس التليفون ، وسمعت صوت بول يقول :

ـ كل شيء علي مايرام يا ماري •• لقد نجحت •• تستطيعين ان تحضري لاخذي غدا ••

كنت انا والاطفال في حالة رائعة من السرور ونحن ننطلق بالسيارة عائدين مع بول في اليوم التالي وفي تلك الليلة اقمنا مأدبة صغيرة له •• واخذ بول يدور ببصره حول المائدة التي تضيئها الشموع ، ناظرا الي الاطفال والي ، كأنه لا يكاد يصدق انه معنا ••

وتحدثت انا وهو حتي ساعة متأخرة من الليل •• لقد اصبح في استطاعته الآن ـ وقد ترك المستشفى وراءه ـ ان يبحث مرضه بطريقة موضوعية •

وقال لي :

ـ لقد كانت حالتي قاسية •• لا يدري احد مدي قسوتها • ولكنني تغلبت عليها ، وانا واثق انني لن اعود للمرض مرة اخري •

ان بول لم يدل بمثل هذا القول من قبل قط ••• ومضى يقول :

ـ لقد مرت بك سبع سنوات مريرة يا ماري •• ولكنك لن تمري بها بعد ذلك • لقد كانت تلك السنة اشبه بمعتكف لي ، بل انني كنت في الدير تقريبا •• انه شيء عجيب يقال عن مستشفى للمجاذيب ولكنني اعرف ان الحياة يجب الا تعقد •• فهي بسيطة حقا •• انني احبك انت

والاولاد ، وساقوم بأى عمل أستطيع القيام به لمساعدتكم .

***

ولكن الامر لم يكن يمثل هذه السهولة تماما ...

لقد بدأ بول بحثه عن العمل في يوم الاثنين التالي تملؤه آمال كبري . كانت مصانع معدات الدفاع المحلية تستخدم الموظفين باطراد ، وكان يعتقد انه لابد ان يتمكن من الحصول علي وظيفة في أحد المصانع ولكن الايام مرت يوما بعد آخر وهو لا يتلقي الا رفضا وتهربا .. وأصبح عملا روتينيا يائسا ان يملأ طلبات استخدام ، لكي تعود بمجرد علمهم بالسنة التي امضاها في مستشفى المجانين .. وكان بول قد قرر انه اذا اخفي هذه الحقيقة ، فان كل يوم سيقضيه في الوظيفة سيتعرض خلاله للضغط بسبب خوفه من اكتشاف سره ، ومن ثم فانه كان يذكر الحقيقة ، وتكون النتيجة انه قوبل بجدار من الخوف والتحامل .

واخبره مدير المستخدمين في مصنع للورق ذات مرة بصراحة ان الشركة لا تستطيع ان تغامر باستخدام شخص كان مريضا الي هذا الحد . وختم حديثه بعبارة ظل بول يسمعها مرة بعد أخري وهي : « ان الحكومة يجب ان تتولي رعايتكم ايها الفتيان .. »

وعاد بول الي البيت ظهر ذلك اليوم وقد بدا الارهاق علي وجهه ، والتوي فمه قليلا وقال :

ـ هذا اقسى مما كنت اظن ...

لا عجب ان المرضي الذين يخرجون من المستشفى يعودون اليه دائما . ولكن لا يساورك القلق علي اعصابي .. انني اعرف ان الامور تسير هكذا .

وتكدست ايام البحث غير المثمر ، وفي غمرتها أخرجت انا من عملي في بيع ثياب الاطفال ، ولم يسمح بول لذلك ان يؤثر علي توازنه العاطفى الذي اكتسبه بعد مشقة .. وأخذ يقدر موقفنا بطريقة واقعية ، ولكن دون ذعر ، وكان يعالج محصلي الفواتير بمرح وحسم ، ولكنه كلما خرج في الصباح بحثا عن عمل ، كنت اعرف انه علي استعداد لان يقبل أي شيء .

وذات يوم اتصل بي من « باترسون » ليقول في سرور بالغ انه وجد عملا ، كعامل في مقبرة يحفر القبور ! .. ولم استطع ان انكر له ما اشعر به ... لقد كان شيئا شنيعا ان يقبل شخص له مثل مواهبه وآماله عملا كهذا ، ولكنه عاد

الي البيت في حالة نفسية طيبـــة وقال :

ـ انها وظيفـــة علي الاقل ••• وسأحصـــل علي حوالي دولار في الساعة •• علي اية حال فالمفـروض انني كاتب • ويجب علي الكاتب ان يعرف كيف يشعر الانسان عنـــدما يحفر قبرا !

وظل بول طوال الصيف يعمـــل نهارا في المقبرة وليلا في اعداد كتابه ، محاولا انيجعل مما كتبه في المستشفى قصة ••• وبينما كنت انقلها علي الآلة الكاتبة ، أحسست انها تحولت الي الكتاب الذي كنت احلم به ولكنني كنت اتساءل في قلق عما اذا كان ينبغي ان يفعل ذلك ؟ •• لقد كان اغلب الكتـــابات يتسم بالمرض والدوامة السريعة ، وقد خشيت انه عندما يعيد قراءته سوف يتزعزع ويصاب بنكسة

ولكنه مع كل يوم يمر كان يبـــدو اكثر هدوءا وثقة بنفسه • كان يرفض ان يساوره القلق ، ولانه مر بأسوأ تجربة في حياته ـ بعد الموت ـ فانه لم يعد قادرا علي ان يسمح لنفســه بالقلق بشأن العمل الذي يقوم به ، او ما معه من نقود ، او نوع السيارة •• لقد كان اشبه بالرجل الذي حكم عليه بالموت في غرفة الاعدام ، ثم تلقى عفوا تاما •• لاشك انه سيكون احمق اذا بدأ بالشكوي من الطعام !

وحتي عندما عاد بول الي مستشفى المحاربين القدماء ، وتقرر مد فترة تجربته في الخارج تسعة شهور اخري لم استطع الشعور بالراحة ، فقـــد مرت بنا ازمة تتلوها ازمة خلال الشهور القليلة التالية ، وفي الخريف لم يجـد بول عملا في المقابر لقلة الحاجة الي الايدي العاملة •• وراح يعمل في عمل مؤقت بعد آخر •• في مغسلة وفي كشك لبيع السجق ، او كســـاع احتياطي للبريد ، ولكننا اصبحنـــا عاجزين اكثر من ذي قبل عن سداد اقساط الرهن •

وحاولت ان احتفظ بايمـــاني في المستقبل ، ولكن بدا لي ان ظروفنـــا كانت تضغط ضغطا عنيفا علي بول • وأحسست ان الضغط علي سيطرته علي نفسه أصبح لا يحتمل ••• تري هل كتب عليه ان يسير دائما فوق مثل هذه الحافة الضيقة ••• وعلي مقربة من حافة الهاوية ؟

وكان بول هو الذي توصل الي حل لمشكلتنا ، فقد بعنا البيت بناء علي اقتراحه وانتقلنا الي نيويورك ، فقد نشأ كلانا في مدينة كبيرة ، ولم نكن نحب العيش في بلدة صغيرة ، ولاسيما

ان كثيرين من التجار والجيران اظهروا قلقا في وجود بول منـــذ عودته من المستشفى ، فضلا عن ان بيع البيت اسفر عن حصولنا علي بضع مئات من الدولارات نستطيع ان نبدأ بها من جديد •

كانت المساكن قليلة في نيويورك ، وقد امضينا شهرين نعيش في غرفتين بالفنادق ، ولكن المدينة كانت مناسبة لبول ، لقد كان في حاجة الي الحيـاة الخاصة فيها ، وعـــدم ظهوره او اهتمام احد بامره •• وكانت هنـاك الوف من المطاعم الصـــغيرة حيث يستطيع ان يجـد عمـــلا يوميا بينما يواصل الكتابة في ساعات فراغه •

وكان بول عندما انتهي من نصف كتابه قد بعث المخطوط الي أحد وكلاء النشر الذي قال أنه عمـــل رائع ، واستطاع بول أنيتم الكتاب فينيويورك وسرعان ما تملكتنا الغبطة عنـــدما سمعنا أن أحد الناشرين قد قبله • هذا الكتاب الذي اطلق عليه اســـم «عمالقة من الورق المقوي» بدأ كتابته فيالمستشفي ، وكتب فيأقسى مايمكن من الظروف ، ثم قبـل للنشر بينما لايزال بول يعتبر مريضا من الناحية الرسمية ••

وأحسست أنه فتح امامه حيـاة جديدة بأسرها ••

ولكن ما لبث سبب آخر للقلق أن أصابني •• تري هل ينشر الكتـاب باسم بول نفسه ، ويتيح للعالم كله أن يعـــرف مدي المرض الذي كان يعانيه ؟ وعندما سألتـــه عن ذلك ، نظر الي في دهشة وقال :

ـ كيف اكتب كتابا كهذا ثم اخشى أن أضع اسمي عليه؟•• انني مندهش لمجرد تفكيرك في ذلك •

قلت :

ـ ولكن أغلب الذين يعرفوننـــا يا بول لم يكونوا يعرفون أنك مريض •• كل الذين في بوسطن •• أسرتي وغيرهم •• لماذا لا تكتبه علي الاقل في صورة قصة وتغير كل الاســـماء التي فيها ؟

ـ كلا •• هذا واحد من المواقف الحمقاء التي أريد القضـاء عليها •• انني مدين به للمرضي الاخرين •

وظل مصرا بعناد عليهذا الموقف•

وبعد ذلك بفترة قصيرة ، ساعدنا الحظ فوجدنا مسكنا به ثلاث غرف للنوم في ريفرديل بنيويورك •• وكان أغلب السكان الاخرين يماثلوننا سناء يلعب أطفـــالهم مع أطفالنا ، وكان مسلكهم حيـــال المرض العقلي أكثر تحررا من الكهول •• وقد لخص جيم

باركر – وهو كاتب اذاعى يعيش في نفس المبني – الامر عندما قال لبول – ان نصف الاشخاص الذين نعرفهم يفزعهم أن يصابوا بانهيار عصبي .. لقد اجتزت المحنة كلها واستطعت ان تستقر علي قديك ثانية. انك تغلبت علي خوف من أكبر مخاوف الانسان الحديث .

وفي خلال وقت قصير ، بدا أن أحدا لايفكر في المرض العقلي عندمايتحدث مع بول ، واسترد بول كل ثقته بنفسه معهم ، ولم يعد منطويا علي نفسه كما كان .. وشكرت الله علي هذا التغيير .

كانت عملية البناء تجري بنشاط في ريفرديل ، وهناك مساكن جديدة ذات حدائق تبرز في كل ناحية تقريبا . وقد وجد بول عملا في أحد هذه المشروعات علي الفور كعامل .. لم يسأله أحد عن تاريخه ، وكان يحب أعمال البناء ، وقد اشتغل فيها كثيرا خلال العطلات في دراسته الثانوية والجامعية . وكانوا يعطونه ١٫٦٠ دولارا عن الساعة مع أجر عن الوقت الاضافي ، وسيكون المبلغ لا بأس به بالاضافة الي ما يحصل عليه من كتاباته .

وفي غضون ذلك ، تقرر اخراج بول رسميا من عداد مرضي المستشفي ، وأحسسنا أخيرا أننا أصبحنا في أمان واطمئنان ، وأن طريقنا سيكون سهلا ميسورا .. ولكن أخطر الازمات وأعنف الاختبارات لاتزان بول العاطفى ، لم يكن قد حان موعدها بعد ..

ففي بعد ظهر أحد الايام ، امتلأت العمارة التي نسكن فيها برجال البوليس والمخبرين .. وكانت مسز براون – وهي امرأة تعيش بمفردها في المسكن الذي يعلو مسكن آل باركر – قد وجدت قتيلة وقد قطعت رقبتها بفتاحة العلب ، بينما انتزع تليفونها من الحائط ، وترك الجاني غرفتها في حالة اضطراب شديد . وسرعان ما ظهرت صحف المساء تحمل عناوين تقول : « البوليس يبحث عن مجنون في حادث قتيلة «ريفرديل» .

وقرأ بول قصة الصحف في كآبة .. ثم قال : « عندما يعرفون نبأ مرضي السابق ، فانهم سيأتون هنا فورا . »

وكان علي صواب .. فبعد ظهر اليوم التالي لم يكد يعود الي البيت من العمل حتي جاء اثنان من رجال البوليس السري ، وقالا انه مطلوب

في مركز البوليس لسؤاله .. وابتسم بول في مرارة ، ثم هز كتفيه وانصرف معهما . وبينما كنت ارقبه من النافذة وهم يتجهون صوب عربة البوليس ، غمرتني فجاة كل مخاوفي القديمة . فلو أن بول فقد أعصابه ، أو أصابته الكآبة والانقباض .. اذا اعتقد ان الناس لن يتركوا ابدا مريضا أطلق سراحه هو وشأنه ، فقد يعود مرضه كله من جديد .

كانت الساعات القلية التالية ساعات رهيبة بالنسبة لنا معا .. وعندما عاد الاطفال من لعبهم ، وضعتهم في الفراش بطريقة آلية وقد تجمدت اطرافي من الرعب .

وفي ذلك اليوم كان بول يواجه رجالا يشكون انه مرتكب هذه الجريمة الشريرة .. وقال له رجل بوليس يبدو عليه حنان الابوة : « لقد كنت مريضا جدا .. ولعلك يمكن ان تفعل اشياء ولا تتذكرها ... لقد دربتم ايها المحاربون القدماء على العنف لكي تحدث اشياء كهذه . »

ولكن هذا الاسلوب الذي يتسم بالعطف ، تغير بهجمات قاسية من مخبر خشن الحديث ، واستمر التعذيب ولم يكن لدي بول ما يقوله لهم وأخيرا عندما وصل جيم باركر ومعه محام من عمارتنا ، اطلق البوليس سراحه .

وعندما عاد بول الي البيت بعد هذا الاستجواب العنيف ، كان مرهقا الي حد كبير ، ولكنني شعرت بارتياح لان هذه المحنة لم تثر شيئا من مشاعر الغضب او الخوف او الاحساس بالذنب في نفسه كما كان الحال من قبل بل انه لم يفقد سيطرته علي نفسه او يشعر بأية مرارة حيال البوليس .

وأدركت عندئذ انه مهما حدث فليس هناك ما يدعوني للخوف علي بول .

ولم يستجوبه البوليس مرة اخري .. فقد تبين ان مسز براون قد انتحرت ، وكانت مدمنة علي الخمور ، وقد سبق ان حاولت الانتحار مرارا بنفس الطريقة دائما !

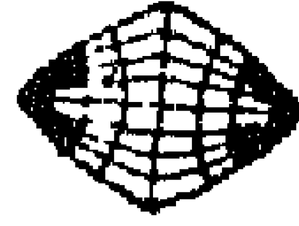
عندما صدر كتاب بول في أكتوبر ، قوبل مقابلة طيبة للغاية ... وقد كتب عنه سترلنج نورث يقول :

« ان (عمالقة من الورق المقوي) هي القصة العجيبة الساحرة الملهمة لرجل انقذه من الجنون زوجة محبة وطبيب ذكي .. وكثير من مشاهدها مرعب ، ولكن اغلب جمالها هو الذي نسج من خلال الرعب وقد عرف هذا المؤلف الجديد اللامع الذي اجتاز وادي

الظلام كيف يتحدث عن قضية العقل والكرامة ، والعزة الانسانية ، ليمنح املا للآخرين الذين مازالوا يكافحــون في الظلام » •

ولقى الكتاب اعجابا على نطـــاق واسع ، فلخصته مجلة (كاثوليـــك دايجست) واختاره نادي الكتاب بين مختاراته ، ونشرته احدي دور النشر البريطانية وبدأ بول يتلقى رســـــائل من مرضى بأمراض عقلية واقاربهم من كل انحاء البلاد ، وامضى مزيدا من الوقت يعمل من أجل توفير ظروف أفضل للصحة العقلية •

وذات يوم ظهر بول في حديث اذاعى •• وبينما كنت اجلس في البيت اصغى اليه ادركت ان كل طاقته القديمـــــة العنيفة مازالت باقية ، ولكنها لم تعد قوة مدمرة موجهة ضد نفسه ، بل أصبحت الآن سلاحا يستخدم في المعركة التي يختارها •

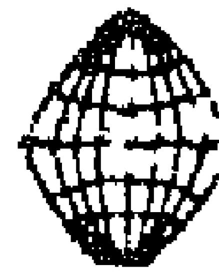


كوارث !

توجه احـد جنود ســلاح الطيران الى مكتب رئيسه والتمس اجازة طارئة لان زوجته وضعت مولودا لتوها •• وابلغ رئيســه انه لا يمكن منحه اجازة طوارىء، ولكنهم قد يستطيعون البحث عن سبب آخر للاجازة •• فقال الرجل:

ـ حسنا •• هذا هو طفلنا الحادى عشر ••فهل يمنح سلاح الطيران اجازة كوارث ؟

وحصل على الاجازة المطلوبة !



نمـــو !

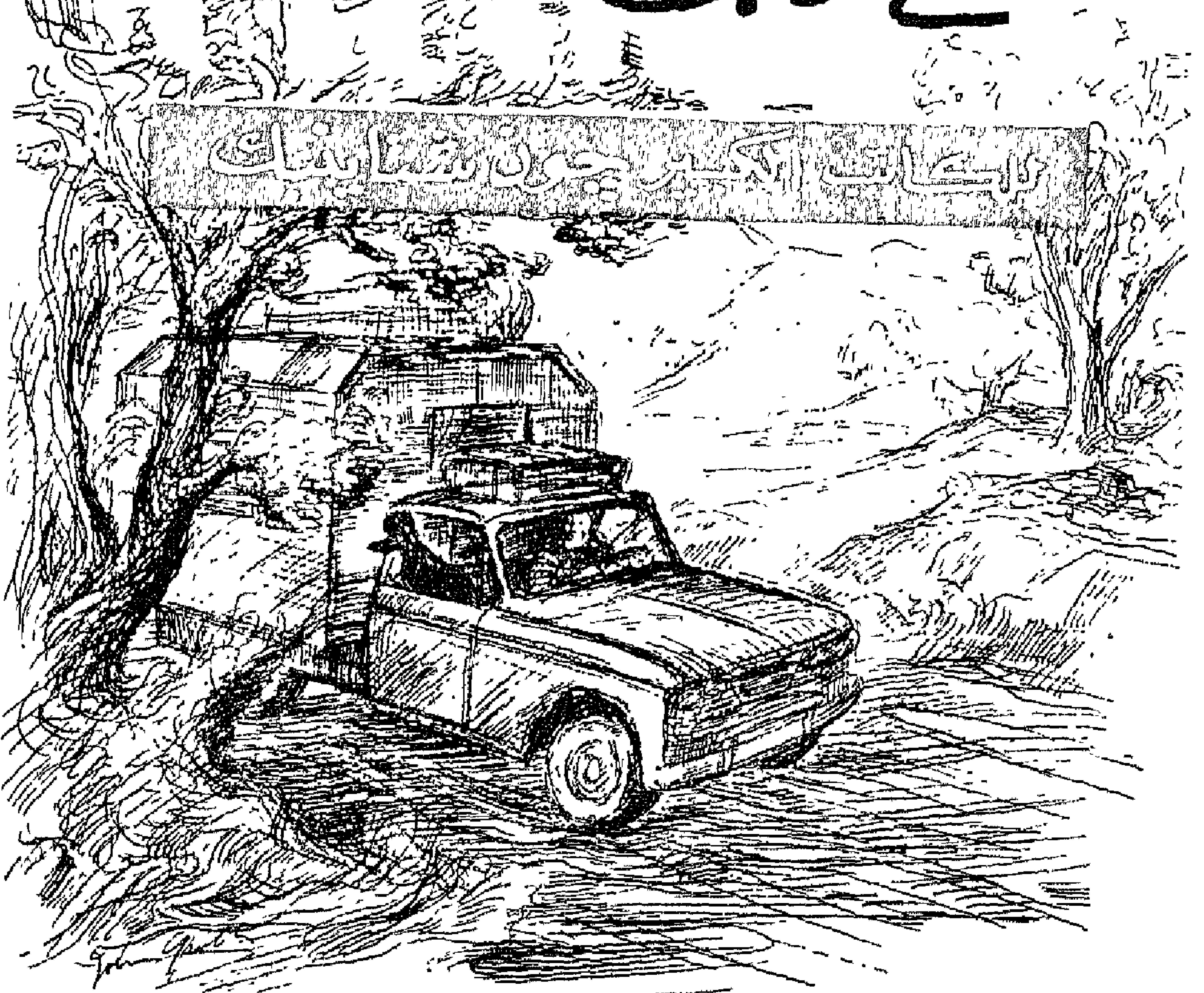
يستخدم أحد اصحاب المطاعم فى نيويورك محـلولا من الماء والصـابون لغسل سيارته الفرنسية الصغيرة الحجم ، وهو يسكب هـذا المحلول من رشاشة ماء عادية ••

ومنذ بضعة أيام ، بينما كان يرش سقف السيارة برشاشة الحديقة ، توقف احد اصحاب السيارات الاخرى قليلا ••• ثم صاح قائلا :

ـ انت تضيع وقتك سدى يا صاحبى ••فهذا الشيء لن يكبر عن ذلك !

كتاب الشهر

رحلات مع كلبي تشارلي



TRAVELS WITH CHARLEY



يعتبر جون شتاينبك الحائز على جائزة نوبل أبدع الروائيين الامريكيين الذين على قيد الحياة وهو يحكي لنا في كتابه « رحلات مع تشارلى » قصة رحلة طولها ١٦ ألف كيلومتر .. لقد عبر الولايات المتحدة ليحاول « اكتشاف هذه الارض المهولة ! » .. وقد امتلأت ملاحظاته البارعة بالصور الطبيعية الصادقة ، مما جعل هذا الكتاب من أكثر الكتب رواجا ...

كانت خطتي واضحة موجزة ومعقولة كما أعتقد .. لقد سافرت طوال سنوات الى أجزاء كثيرة من العالم ، وانا اعيش في امريكا بمدينة نيويورك ، ولكن نيويورك لم تعدهى امريكا ، اكثر مما تعتبر ان باريس هى فرنسا ، أو لندن هى انجلترا .. وهكذا اكتشفت انني باعتباري كاتبا، انما أعمل من الذاكرة ، فأنا لم أعرف بلادي نفسها ، وهكذا قررت أن أحاول اعادة اكتشاف هذه الارض الغريبة! ..

وكتبت الى احدى الشركات الكبرى التى تصنع سيارات النقل ، وحددت لها مطالبى : انني أريد سيارة نقل صغيرة حمولة ثلاثة ارباع الطن ، تستطيع السير فى أى مكان ، وفوق هذه السيارة أريد بناء بيت صغير اشبه بمقصورة قارب صغير .. وفى الوقت المناسب تلقيت ماكنت أريده بالضبط : مركبة سريعة متينة ، بها فراش مزدوج ، وموقد ذو أربع شعلات ، وسخان وثلاجة ، ومصابيح تضيء بغاز البوتان ودورة ماء كيميائية، ومكان للتخزين ، ونوافذ مغطاة بالستائر لمنع الحشرات .. وقد اطلقت عليها اسم «روكنانت» وهو اسم حصان دون كيشوت !

وعندما دنا الصبح الذى سأرحل فيه ، قررت أن أصحب معى رفيقا واحدا ، هو كلب فرنسى عجوز اسمه « تشارلى » .. وتشارلى دبلوماسى بالسليقة ، فهو يفضل التفاوض على القتال ، وذلك شيء يناسبه تماما نظرا لضعفه الشديد فى القتال ، ولكنه كان كلب حراسة ممتازا ، يزأر كالاسد كما أنه صديق ورفيق طيب ، يحب السفر أكثر من أى شيء آخر ، وقد ساهم بالكثير فى هذه الرحلة ..

كونكتيكت

وأقبل الصبـاح ، وكان صباحا مشرقا ، يبدونوره نحاسيا كالخريف فى ضوء الشمس ، وقد افترقت عن زوجتى بسرعة ، لان كلينـــا يكره الوداع .

وبينما كنـا ننطلق شمالا — أنا وتشارلى — خـلال ولاية كونكتيكت خطر ببالى أنه من المناسب ان ادعو النـاس الذين التقى بهم على طول الطريق لتناول كأس معى ، ولكننى كنت قد أهملت تجهيز بيتى بالخمر، وقد وجدت متجرا صغيرا على جانب الطريق فى بستان من أشـجار سكر الاسفندان ،وكانت به حديقة تحظى بعناية طيبة ، وصناديق للزهور .. وقد طلبت زجاجات من الويسـكى الاسكوتش ، والبوربون ، والجين ، والفيرموت ، والبرانـدى ، وبراندى التفاح ، وصندوقا من البيرة ..وهو طلب ضخم على متجر صغير .. وقد تأثر صاحب المتجر — وهوشاب صغير شاحب الوجه — فقال :

— لابد انك ستقيم حفـلا كبيرا ؟

— كلا .. بل هو مجرد تموين للسفر ..

وساعدنى فى حمل صناديق الورق المقوى الى خارج المتجـر ، وفتحت باب السيارة ، فقال :

— هل ستسافر بهذه ؟

— بكل تأكيد

— الى أين ؟

— الى كل مكان

وعندئذ رأيت — مارأيته بعد ذلك مرارا خـلال الرحلة — نظرة شوق .. وعبارة : « ياالهى .. ليتنى استطعت الذهاب »

وقلت له :

— « ألا تحب البقاء هنا » ؟

— بكل تأكيد .. ولكننى وددت لو امكننى الذهاب ..

— ولكنـك لاتعرف حتى الى أين أنا ذاهب !

— لايهمنى ذلك .. اننى أريد الذهاب الى أى مكان .

واخـيرا اضطررت للخروج من الطرق التى تختفى بين الاشـجار ، وبذلت مافى وسعى لكى اتفـادى المرور بالمدن الكبرى التى تضـج بالصناعة ، وتكتظ بحركة المرور .. ان المدن الامريكية أشبه بجحر حيوان «الغرير» ، كثيرة الضجيج ، تحيط بها النفايات ، فكلها محاطة بأكداس من السيارات المحطمـة التى علاها الصدأ ، تكاد تختنق بالقمامة .. ان كل مانستخدمه نحن الامريكيين يأتى فى صناديق وعلب من الورق المقوى ،

وصفائح ، وهى أنواع التعبئة التى نحبها كثيرا .. ولكن جبال الاشياء التى نقذف بها أكبر كثيرا من الاشياء التى نستخدمها ، ومن هذه الناحية يمكننا ان نرى وفرة انتاجنا بلا عياء !

وبينما كنت أقود سيارتى ، تذكرت كيف أن كلا من هذه الاشياء التى نلقى بها يمكن فى فرنسا وايطاليا استخلاصها واستخدامها فى شىء ما ... ولست أقول هذا على سبيل انتقاد نظام أو آخر ، ولكننى كنت أتساءل فقط عما اذا كان سيأتى وقت لايمكننا أن نتحمل فيه هذا التبديد والاسراف !

نيوهامبشير

وانطلقت بالسيارة .. « روكنانت » نحو منطقة صغيرة للنزهة ، واخرجت كتاب خرائطى ، وفجأة بدت أمامى الولايات المتحدة أضخم مما يمكن تصديقه ، من المستحيل عبورها .. وتساءلت كيف ورطت نفسى فى مشروع لايمكن تنفيذه ! .. كان الامر أشبه ببدء كتابة رواية ، عندما أواجه استحالة كئيبة لكتابة ٥٠٠ صفحة ، ويساورنى احساس سقيم بالفشل ، وادرك اننى لن استطيع انجاز الكتاب أبدا ، ثم أكتب صفحة فأخرى تدريجا .. ان كل ما اسمح لنفسى بالتفكير فيه هو عمل يوم واحد ، وابعد عن ذهنى فكرة امكان انجازه .

وهكذا بينما كنت انظر الى صورة امريكا اللامعة الملونة ، قرب تشارلى أنفه من اذنى وقال : « فت » ! .. انه الكلب الوحيد الذى اعرف انه ينطق الحروف الساكنة ، وتلك من سيئاته ، فهى مأساة تبعده عن معارض الكلاب ... وكلمة (فت) تعنى عادة انه يريد الالتقاء بشجيرة ، أو تجربة ما .



وفتحت باب السيارة وتركته يخرج فأخذ يطوف بارجاء المكان .

ومضيت أقود السيارة بعد ظهر أحد أيام الخريف .. كان طريقى يتجه شمالا فى ولاية فيرمونت ثم شرقا فى نيوهامبشير الى الجبال البيضاء .. كانت محطات الطرق الجانبية تمتلىء بالقرع الذهبى ، والاسمر الضارب للحمرة ، وسلال التفاح الاحمر الناعم الحلو الذى لااكاد أضغط عليه بأسنانى حتى ينبثق منه العصير .. وكانت القرى والشاطىء

من أجمل الصور التى رأيتها فى البلاد كلها .

وتغير الجو سريعا فأصبح باردا ، وبدت الاشجار بألوانها الحمراء والصفراء الرائعة ، وصعدت الى أعلى الجبل قبل الغسق ، وكانت هناك لافتة وضعت بجانب نهير صغير ، تعرض بيضا طازجا للبيع ، فاتجهت نحوها بالسيارة ، واشتريت بعض البيض ، وطلبت السماح لى باقامة معسكر صغير بجوار النهير ، وابديت استعدادى للدفع ..

وكان المزارع رجلا ضئيل الحجم ، ظننت من وجهه انه امريكى من الشمال . . وقال لى :

ـ لاداعى للدفع . . ان الارض لاتستخدم .. ولكنى أود أن ألقى نظرة على هذا الجهاز الذى لديك هناك

قلت :

ـ اسمح لى بترتيبه أولا ، ثم تعال لكى تتناول عندى قدحا من القهوة .

واخذت أدور بالسيارة حتى وجدت مكانا مستويا ، استطيع ان أسمع منه حفيف الماء فى النهير . . كانت الدنيا تزداد ظلاما ، والاكل باردا ، ولكن المصباح ، وشعلات النار فى الموقد اشاعت الدفء فى بيتى الصغير البهيج .. وتناول تشارلى عشاءه ، ثم اتجه نحو ركن تحت المائدة ..

وكانت القهوة معدة عندما اطلق تشارلى زئيره الذى يشبه الاسد ، ولا شك انك تشعر بارتياح عندما تبلغ بأن شخصا يقترب فى الظلام .

وطرق صاحب المزرعة باب بيتى فدعوته للدخول .. وقال : «ان الجو جميل هنا .. أجل ياسيدى انه جميل » وانزلق فى المقعد المجاور للمائدة ، فصببت له قدحا من القهوة وبدا لى ان رائحة القهوة تزداد حسنا عندما يكون الجو باردا جدا . .

وسألته عما اذا كنت أقدم له شيئا الى جانبها .

فقال :

ـ كلا .. هذا يكفى

ـ ألا تريد قليلا من براندى التفاح؟ لقد أرهقتنى القيادة وانا نفسى اريد قليلا منه .

فنظر الى فى اهتمام مكبوت ـ يعتبر قلة كلام لدى غير الامريكيين ـ وقال:

ـ ألا تتناول كأسا اذا لم اشرب انا؟

ـ كلا .. لااعتقد

ـ لن أحرمك اذن منه .. أعطنى مجرد ملء ملعقة

وهكذا صببت لكل منا جرعة طيبة من براندى عمره ٢١ عاما .. وجلست أمام ناحيتى من المائدة .. كانت هناك

رقة فى الرجل .. لامكان لاى سؤال مباشر أو شـــخصى ، حتى انه لم يسألنى عن اسمى أو يذكر اسمه ..

وسألته :

ـ هل استمعت الى الاذاعة اليوم؟

ـ نشرة أخبار الساعة الخامسة

ـ ماذا حدث فى الامم المتحدة ؟

ـ لن تصدق .. لقد خلع مستر (خ) حذاءه ودق به المائدة .

ـ لمــاذا ؟

ـ لم يعجبه مايقال . .

ـ انها كما يبـــدو طريقة عجيبة للاحتجاج !

فارتشف البراندى بتلذذ عميـــق وقال :

ـ حسنا .. لقد لفت اليه الانظار

ـ ومارأى الناس هنا فى كل هذا الحديث عن الروس ؟

ـ لست أدرى ماذا يقول الآخرون، ولكني أعتقد أنك اذا كنت تكتفى بترديد الكلام ، فان هذا عمل يشبه حراسة المؤخـــرة ، اننى أود ان أرانا نفعل شيئا ، حتى يضـــطروا هم الى الحديث عنا .

واعدت ملء قدحى القهوة ، وصببت لكلينا مزيدا من براندى التفاح وقلت:

ـ اتعتقد اننا يجب ان نهاجم ؟

ـ أظن انـــا يجب على الاقل ان نأخذ أحيانا زمام المبادرة . . كلا . شكرا .. كفى . اننى اســتطيع ان أشم رائحة عشائك الذى أوشــك أن يتم . سأنصرف . شــكرا للقهوة . طبت مساء .

وأكلت علبة من اللحم المفروم ، ثم اعددت الفراش ، ولكننى وجــدت اننى لااستطيع النوم ومع ان صوت اصطدام المــاء بالصخور كان مريحا جدا ، فان حديث المزارع ظل ملازما اياى .. انه رجل حكيم فصيح .

وقبل ان استغرق فى النوم ، كانت الديوك تطلق صيحاتها .. ان تشارلى يحب اليقظة مبكرا ، ولابد لى من ان استيقظ مبكرا أنا الآخر . ولعل أكثر الوسائل التى يستخدمها لايقاظى اثارة ، هى الجلوس بهـــدوء بجوار فراشى والتحديق فى وجهى ، فى عذوبة . واستيقظ من نومى العميق واناأحس ان هنالك من ينظر الى !

وسرعان ما اكتشفت انه اذا أراد اى غريب أن يتسمع الى مايقول سكان منطقة ما فان الاماكن التى يتجه اليها هى الحانات والكنائس .. ولكن بعض مدن نيوانجلنـــد ليس بها حانات ، والكنـــائس لاتفتح ابوابها الا فى أيام الاحد . وكان البديل الطيب لذلك هو المطاعم المقـــامة على جوانب الطرق ،

ولكنك لكى تجد هذه الاماكن مشغولة بالناس ، يجب ان يستيقظ الانسان مبكرا جدا ، ولكن الاشخاص الذين يستيقظون مبكرين لايتحدثون كثيرا الى الغرباء ، فضلا عن ان أحدهم قل أن يتحــــدث للآخر ، وقلة الكلام الطبيعيــة فى نيو انجلند تبلغ أقصى ذروتها ساعة الافطار .

واطعمت تشارلى ، ومضيت قدما ، وعنــد أول مطعم أوقفت السيارة ، واتخذت مكانى امام «البنك» .. كان الزبائن جميعــــا مطرقين برؤوسهم فوق أقداح القهوة كنبات السرخس ، وكان الحديث العادى يجرى كمايلى :

الخادم :

ـ نفس الطلب ؟

الزبون :

ـ أجل .

الخادم :

ـ بارد كالعادة ؟

الزبون :

ـ أجل ..

(وبعد عشر دقائق)

الخادم :

ـ هل أعيد ملء القدح ؟

الزبون :

ـ أجل ..

وهــذا الزبون ثرثار حقا ، اذ قد يكتفى البعض بالتجشــؤ ، والبعض لايرد على الاطلاق .

ولاية مين

أردت ان أرى « اروستوك » وهى أكبر مقاطعة شمالية لزراعة البطاطس بولاية (مين) . لقد رأيت كثيرين من الاشخاص المهاجرين الذين يعملون فى الحصاد فى انحاء البلاد : اشخاص من الهند والفلبين والمكسيك ، وامريكيون هاجروا من ولاياتهم ، وهنا فى (مين) كان الكثــــيرون جدا من الكنديين الفرنسيين وقد عبروا الحدود لموسم الحصـــــاد ، وهناك بعض خيام ، وسيارات نقل ومقطورات استقرت على حافة بحـــيرة صافية جميلة ، والروائح المنبعثة من نـــيران طهيهم تشـــير الى انهم لم يفقدوا عبقريتهم الفرنسية فى صنع الحساء . وأوقفت السيارة على مســافة ٨٥ مترا ، ثم تركت القهوة على النار لتغلى .

ان تشـــارلى يعتبر سفيرا لى فى انشاء الاتصالات مع الغرباء ، اطلقه فيتجه نحو الهدف ثم اذهب لاستعادته حتى لايزعج جـيرانى .. وهكذا يتم الاتصال !

واطلقت ســفيرى ، وشربت قدحا من القهوة ، تاركا له فسحة من الوقت ليعمل .. ثم اتجهت نحو المعسكر

لانقذ جيرانى من مضايقة الكلب التعس . كانوا أشخاصا ذوى مظهر رقيق ، يبلغ عددهم ١٢ غير الاطفال ، وكان الاطفال يرتدون بنطلونات من المخمل المضلع ، وأوشحة زاهية اللون ، وكان زعيمهم رجلا وسيم المظهر فى حوالى الخامسة والثلاثين ، عريض الكتفين



وقال لى : ان الكلب لم يثر لهم أية مناعب ، بل انهم فى الحقيقة لاحظوا أنه كلب جميل . ووجدتنى بطبيعة الحال متحاملا عليه «لاننى صاحبه» ولكن الكلب كانت له ميزة واحـــدة يمتاز بها على أغلب الكلاب .. وهى انه ولد وترعرع فى فرنسا !

ويسألون :

ـ أهذه هى الحقيقة ؟ .. وفى أى مكان فى فرنسا ؟

ـ فى بيرس من ضواحى باريس . . واسألهم « هل يعرفونها ؟ »

. كلا لحسن الحظ ، فهم لم يذهبوا قط الى وطنهم الاصلى !

وقلت اننى ارجو ان يعالجوا هذه المسألة .. !

كانوا قد لاحظوا قافلتى باعجاب ، فقلت اننى يسعدنى ان اريها لهم اذا شاءوا .. هل انتظرهم بعد العشاء ؟

قالوا انهم يتشرفون بذلك !

واعددت المقصـــورة ، وسخنت علبة طعام محفوظ ثم أكلت محتوياتها ، وتأكدت من ان البـــيرة باردة ثم سمعت عواء تشـــارلى وهو يقودهم للداخـــل ... ان ستة أشخاص يستطيعون ان ينحشروا وراء مائدتى ... وقد فعلوا ، ووقف اثنـــان بجوارى ، أما الباب الخلفى فكان مكللا بوجوه الاطفال .

وفتحت زجاجات البيرة للكبار ، والكوكاكولا للواقفين فى الخارج .

وبعد قليل ذكر لى هـؤلاء الناس بعض المعلومات عن انفسهم ، فعرفت ان هـــذه العشيرة تركوا مزرعتهم الصغيرة فى اقليم «كويبك» لتغفو فى الشتاء ، وعبروا الحدود لكى يصنعوا لانفســـهم عشا صغيرا .. كانوا اشخاصا ذوى بأس ، واكتفاء ذاتى ، قادرين تماما على العناية بأنفسهم .

ومددت يدى تحت الحـــوض ،

واخـــــرجت زجاجة من البراندى العتيق الموقر ، وقدمت لزعيمهـــم جون (بريمة) لفتحهـــا ، ثم وضعت ثلاثة اقداح صغـــيرة للقهوة من البلاستيك ، وكأس الجيللى وطاسة حلاقة الذقن ، وعددا من زجاجات حبـوب الدواء ذات الحلق المتسع .

كان الكونياك ممتازا جدا ، ومنذ ان ننطق بأول كلمة « فى صحتك » تستطيع أن تشعر بأخوة الانســـان تنمو حتى تمـــلأ جنبات السيارة . ورفضوا كأسا ثانيـــة ، واصررت انا وكان تقسيم الكأس الثالثة على اساس انه لم يبق فى الزجاجة مايكفى لحفظها .. ومع القطرات القليلة التى قسمت على هذه الكأس الثالثة ، فاض على السيارة سحر انســـانى منتصرا ، يستطيع ان يبـــارك بيتا أو سيارة كبـــــيرة .. لقد امتلأت السيارة « روكنانت » بوهج لم تفقـــده بعد ذلك قط ..

وكان الوداع قصيرا رسميا ، ثم عاد الضيوف الى بيتهم ، وقد حمل جون مصباحا صـغيرا من الصفيح ليضىء لهم الطريق .

ونمت الى أن نظر تشارلى فى وجهى خلال الضـــوء الزائف المعتم للفجر وقال « فت » وبينمـــا كنت اسخن قهوتى ، كتبت لافتة صغيرة على ورقة سميكة ، ثبتها عـــلى عنق زجاجـــة للبراندى كانت خالية ، وبينما كنت أمر بجوار المعســـكر الذى لايزال نائما ، توقفت ووضعت الزجاجـة بحيث يســـتطيعون رؤيتها . وقد كتبت عليها :

« ياأبناء فرنسا .. موتوا فى سبيل الوطن ! » .

أوهايو

منـــذ بداية رحلتى ، تفاديت تلك المناطق الشديدة السرعة ، المرصوفة بالاسمنت والقار والتى تسمى « طرقا ممتازة جدا » ولكننى تسكعت خلالها فى نيو انجلند . وكان الشتاء قد زاد سرعة ، وخيـــل الى اننى محاصر بالجليد فى ولاية نورث داكوتا ، وبحثت عن الطريق رقم ٩٠ الذى يصل بين الولايات ، وهو شق فسيح من طريق عام كبير .. وأخذت السيارة تنطلق مسرعة طوال الطريق .

ان هـــذه الطرق الكبرى رائعة فى نقل السلع ، ولكنها لاتصلح لمشاهدة الريف ، فانت مقيد بالعجلات ، عيناك على السيـــارة التى امامك ، ومرآة المنظر الخلفى لترى السيـــارة التى وراءك أو سيارة النقل التى توشك أن تتجاوزك ، وفى نفس الوقت يجب

أن تطالع كل اللافتات حتى لاتفوتك بعض التعليمات أو الاوامر ، وعندما تصبح هذه الطرق عامة في أنحاء الولايات المتحـــدة كلها فســوف يكون من المستطاع قيادة سيارتك من نيويورك الى كاليفورنيا دون أن ترى شيئا !

وقد قدت السيارة فى هذا الطريق الواسع الخالى من الاحـــداث . مارا ببافالو ، وايرى ، حتى ماديســـون بولاية اوهايو ، ثم وجـــدت الطريق المماثل فى اتساعه وسرعته رقم ٢٠ ومررت بكليفلاند ، وتوليـدو فـوق هـــذه الطرق ، وخرجت من مراكز التصنيع ، حيث يتحرك الكثـير من البيوت المتنقلة ، تجرها سيارات نقل صنعت خصيصـــا .. وفى رحلاتى الاولى لفتت هــذه الاشياء الجديدة تحت الشمس نظرى ، ولمـــا كانت تحدث بازدياد مطرد فى انحاء البلاد ، فربما حققت بعض التكهنات .

والبيوت المتنقلة ليست مقطورات يجرها المرء بسيـــــارته ، بل هى سيارات طويلة لامعـــة أشبه ببار البولمان ، وهى بيوت رائعـــة البناء ، قد يصل طولها احيانا الى ٢٠ مترا وبها غرفتان أو خمس ، وهى مزودة بتكييف الهواء ، ودورة ماء ، وحمامات ، وجهاز تليفزيون .

ولاحظت منذ بداية رحلاتى الاماكن التى تباع فيها .. ان البيت المتنقل يجرى سحبـــــه الى الساحة التى سيقف فيها ، ثم يجرى تركيبه فوق منصـة منحدرة ، ويثبت تحته انبوبة « مجـارى » ثقيلة ، ويتصـــل بالمـاء والكهرباء ، وسرعان مايرتفـع فوقه هوائى التليفزيون ، ويصبـــح مكانا للاسرة ، ويتقاضى اصحاب الساحات ايجارا ضئيلا ، ويتم ايصال التليفونات بمجرد توصيلها باحدى الروافع .. ويتفق كثيرون من مديرى الساحات على أنه فى العام الماضى ، كان واحد من كل ٩ من وحـــــدات الاسكان الجديدة فى أنحاء البلاد بيتا متنقلا .

ان كون هذه البيوت سهلة النقل لايعنى انها لابد ان تنقل ، فقد يبقى اصحابها احيانا عدة سنوات فى مكان واحد ، يزرعون الحـــدائق ويبنون جدرانا حولهـا ، ويضعون الاثاث فى الحــــديقة ، والخمائل ، واصحابها فخورون لاظهار بيوتهم امامى . وقد سألت واحدا منهم :

ــ كيف تشترونها ؟

ــ بالتقسيط كالسيارة . . ان الامر أشبه بدفع ايجار

ثم لم ألبث ان اكتشفت أكبر اغراء .. اغراء يزحف من خـلال الحرب

الامريكيـــة كلها تقريبا . ذلك ان التحسينات تجرى كل عام على هذه البيـــوت المتنقلة ، فاذا كنت بارعا استطعت بيع بيتك القـديم لتشترى نموذجا جـديدا ، كما يفعل كثيرون بالسيارة . وقيمـة البيوت المتنقلة المستعملة أكبر منها فى السيـارات ، لان هناك ســوقا جاهزا للبيـوت المستعملة ، كمـا انها سهلة الصيانة لاتحتـــاج الى طلاء ، فهى عادة من الالومنيـــــوم ، ولا صلة بينها وبين تقلبات اسعار الاراضى .

وكان العشاء من بين المآدب التى حضرتها فى بيت متنقـــل ، وقد تم طهيه فى مطبخ نظيف ، من البــلاط المصنوع من البلاستيك ، مع احواض من صلب لايصـــدأ ومواقد وافران داخل الجدار ..

ان الزنجى يعمل كعامل ميكانيكى فى جراج على مسافة حوالى ٦ كيلو مترات ، ويحصـــل على اجر طيب ، وهناك ولدان يسيران كل صباح نحو الطريق العام ، حيث تلتقطهما سيارة اتوبيس مدرســة سفراء اليونان .

وبعد العشـــاء اثرت سؤالا كان يحيرنى .. وقلت :

ــ من اعظم المشاعر التى نعتزبها ، شعور يتعلق بالجذور ، .. جذورنا التى تنمو فى أرض أو مجتمع ما فكيف يشعرون هم حيال نشأة اطفالهم بلا جذور ؟

وأجاب الاب قائلا :

ــ كم من النـاس يمتلكون اليوم ماتتحدث عنه ؟ وأية جذور هناك فى مسكن يقع فى الطابق الثانى عشر ؟أية جذور فى مشروع للاسكان يضم ألفا من المساكن الصغيرة المتشابهة جميعا؟

ثم قال :



ــ لقد جاء أبى من ايطاليا حيث نشأ فى توسكانى فى بيت عاشت فيه أسرته منـذ ألف عام تقريبا ، أهذه هى الجـــذور بالنسبة لك ؟ حيث لامياه جارية ، ولا مرافق صحية ، يطهون طعـــامهم بالفحم أو أغصان الاشجار .. ان عندهم غرفتين فقط : مطبخا وغـــرفة نـــوم ــ حيث نام الجميع : أبى وامى وكل الاولاد ــ .. ولا مكان للمطالعة . . لامكان تختلى

فيه بنفسك .. فهل كان هذا أفضل؟ أراهن انك لو تركت الخيـار لابى ، اقطع جذوره ، وعاش مثلنا ؟

وبينما كنت أقود السيارة فى الطريق العام الكبير قرب « توليدو » أجريت حديثا مع تشـارلى حول الجذور : أيمكن أن يـكون الامريكيون شـعبا حائرا متنقـلا ؟ • ان الرواد الذين سكنوا القـارة ، كانوا من الاشخاص الذين سـاورتهم الحيرة والقلق فى أوربا . ألا يكون من غير الطبيعى لو اننا لم نرث هذه الميول ؟ .

مونتانا

اننى أحب مونتانا ، أما الولايات الاخرى فاننى أعجب بها وأحترمهـا واقدرها وقد أكن لها بعض الود .. اما بالنسبة لمونتانا ، فهذا هو الحب .. ان مونتـانا رشاش ضخم من البهاء ، ان المعيار ضخم ولكنه ليس متغلبـا ، فالارض غنيـة بحشائشها والوانها ، والجبال ، من النوع الذى سوف أصنع مثله ، لو اننى وضعت الجبال فى جدول أعمالى !

هنا لاول مرة سمعت لهجة ريفية محـددة لم تتـأثر بما تسمعه فى التـليفزيون .. كـلام دافىء بطىء الخطى .. وخيـل لى ان الضجيج المجنون فى أمريكا لايوجد فى مونتانا .. ان هدوء الجبال وانبساط الاراضى المزروعة بالحشائش قد تسـلل الى ابنـاء الولاية ، فالمدن أماكن للعيش وليست خـلايا نحل عصبية . . والناس يجدون وقتا للتوقف خـلال عملهـم لـكى يمارسوا فن الجـوار المفقود .

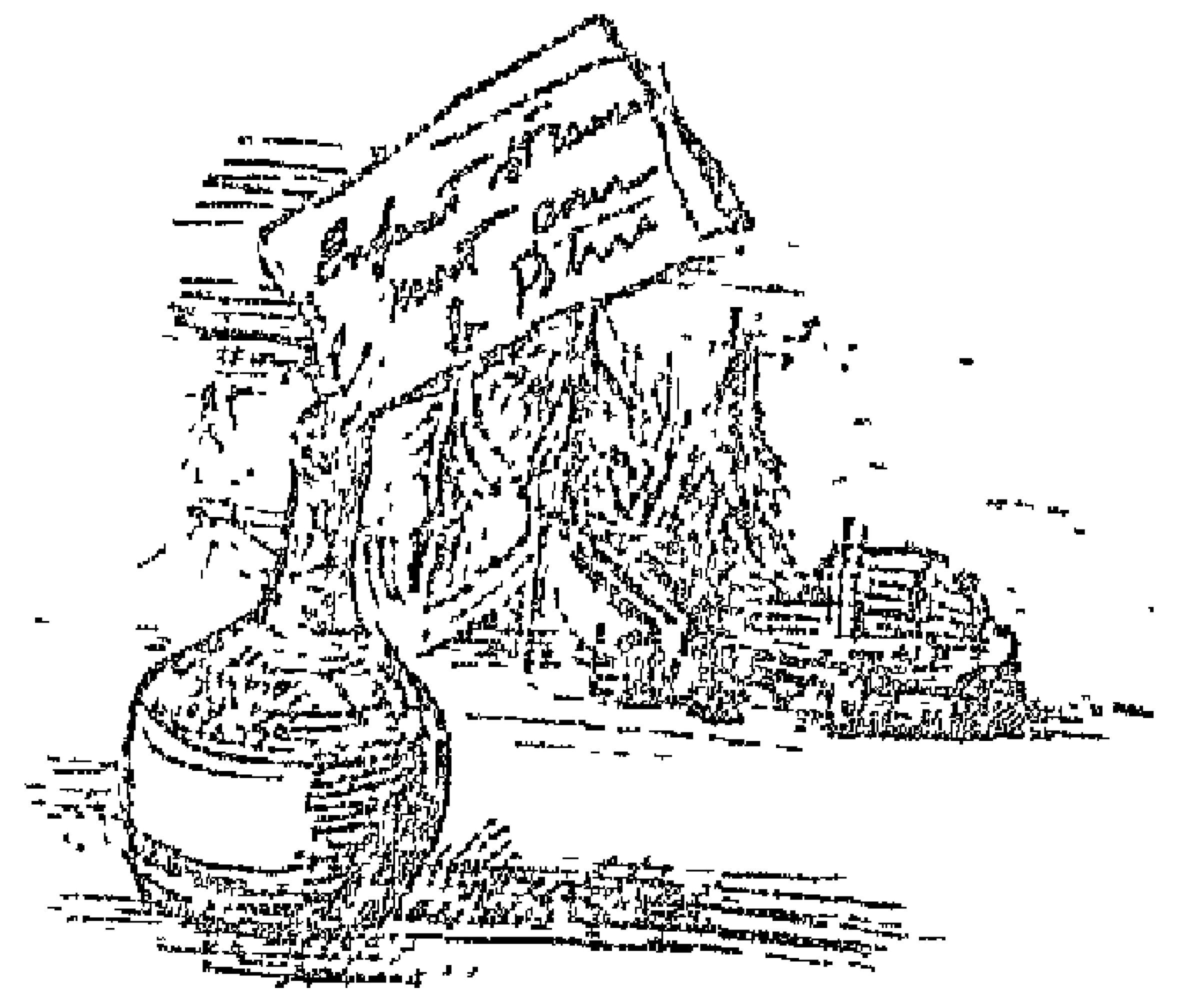
ووجـدت اننى لا اندفع خـلال المـدن حتى انتهى منها بسرعة ، بل وجدت أشياء يجب أن اشتريها حتى اتمهل فى سيرى .. ففى (بيلنجز) اشتريت قبعة ، وفى (ليفنجستون) اشـتريت سـترة ، وفى (بوث) اشتريت بندقية مستعملة ، لم أكن فى حاجة اليها بصفة خاصـة ، ثم وجدت منظـارا للتصويب يجـب الحصول عليه ، وانتظرت ريثما تم تركيبـه على البندقية ، وفى خـلال ذلك ، عرفت كل شىء عن الحـانوت والزبائن الذين دخـلوه ، وامضـيت الجانب الاكبر من هـذا الصباح فى هذا العمـل ، لاننى كنت اريد البقاء غالبـا .

ولكنى رأيت انه الحب الصامت. ان لمونتانا سحرا على النفس •• انها البهاء والدفء ولو كان لمونتانا شاطىء على البحر ، أو اذا كان فى استطاعتى أن أعيش بعيـدا عن البحر لانتقلت

فورا والتمست قبولى فيها . .انها بين كل الولايات هي ولايتي المفضلة . انها حبى ! . .

كاليفورنيا

أجد من العسير على الكتابة عن مسقط رأسى شمال كاليفورنيا ،وكان ينبغي أن تكون أكثرها ســهولة ، لانني أعرف هذه البقعة من الارض ذات الزوايا المتجهة نحو الباسيفيك افضل من أي مكان آخر في العالم .



هذا الطريق العــام المرصــوف بالخرســانة الرباعى الشعب ، اذكره عندما كان طريقا جبليا ضيقا ملتويا ، يتنقل فوقه الحطابون ببغالهم القوية، وكانت هناك بلدة صغيرة حقيرة ، عبــارة عن متجر عــام مقام تحت شجرة ، وحانوت حــداد ، ومقعد خشبي كبير أمامه لكى نجلس ونصغى الى دقات المطرقة على السندان . . أما الآن فهناك بيوت خشبية صغيرة، كل منها أشبه بالاخــر ، تنتشر على مسافة ميــل في كل الاتجاهات . . وهذا هو التل الذى تكسوه اشجار البــلوط ذات اللون الاخضر الداكن ، والحشـــائش المحترقة ، حيث تغنى الذئاب في الليالى القمرية ، واليــوم ، أزيلت قمــة التــل ، وارتفعت مكانها محطة تقوية للتليفزيون متجهة الى الســماء !

وقبل أن أغادر كاليفورنيــا فعلت شيئا واحدا بصورة رسمية وعاطفية .. لقد قدت سيارتي صاعدا قمــة (فريمونت) ، ثم صعدت آخــر الصخور الشائكة المتجهة الى القمة . هنــا بين هـــذه الصخور السوداء الجرانيتية وقف الجنرال فريمــونت وقفة ضد الجيش المكسيكى وهزمه، وعندما كنت غلاما ، كنا نجد في تلك المنطقة بين حين وآخر قنابل مدافع وسونكيات يعلوها الصدأ .

ان هذه القمة الصخرية الوحيدة تطل على كل طفولتى وشــبابى . . وادى (سالينـاس) العظيم الذى يمتد جنوبا حوالى ١٥٠ كيلومترا ، وبلدة ساليناس التى ولدت فيها تمتد الان نحو سفوح التلال . . وشعرت بهبات الريح من الوادى الطويل ، وجلست مع تشارلى الذى رقد تحت قــدمى وقد اهتزت اذناه الطويلتان كالغسيل

فوق الجبال !

وقلت له : هل تعرف ياتشارلى انني كنت أصيد اسماك السالمون هناك في أسفل هذا الوادي الصغير ، مع العم تشارلى الذى تحمل اسمه ، وهناك ــ انظر الى حيث اشير ــ اطلقت أمس النار على قط متوحش.

هل تستطيع أن ترى هذا المكان الاكثر اظلاما ؟ . حسنا .. انه ممر جبلي صغير ، وجدول ماء صاف جميل ،تحف به أشجار الاضاليا البرية ، وعلى جانبية اشجارالبلوط الضخمة ، وفوق أحدى هذه الاشجار احرق ابى اسمه بقضيب من الحديد الساخن ، الى جوار اسم الفتاة التى أحبها ، وعلى مر السنين الطويلة ، نما القشر على مكان الحريق وغطاه . ومنذ فترة قريبة ، قطع رجل هندى هذه الشجرة ليشعل النار بخشبها ، فكشف الوتد الذى شقها به عن اسم أبى .. وارسله لى الرجل ..

وفى الربيع يا تشارلى ، عندما تغطى زهور نبات الذئب الزرقاء الوادى ، فيصبح كبحر من الزهور ، هناك تجد رائحة السماء .. انها رائحة السماء .

وطبعت المنظرمرة أخرى على عينى جنوبا وغربا ، وشمالا . ثم أسرعنا مبتعدين عن الماضى الدائم الذى لا يتغير ، حيث كانت امى تطلق النار دائما على القطط البرية ، وابى يحرق دائما اسمه مع اسم حبيبته !

تكساس

ان ولاية تكساس أمة كاملة بكل معنى الكلمة ، وهى تهدد دائما بالانفصال عن الاتحاد ، وقد سمعناهم كثيرا يهددون بذلك ، حتى اننى شكلت منظمة حماسية باسم (الاصدقاء الامريكيون لفصل تكساس) وادى ذلك الى وقف الحديث عن هذا الموضوع ، فهم يريدون ان يتمكنوا من الانفصال بأنفسهم ، ولكنهم لا يريدون أحدا يحثهم على ذلك !

وتقاليد رعاة البقر على الحدود ، ترضع لبان الحنان فى تكساس ، وعندما يصنع شخص ما ثروة من البترول أو عقود الحكومة لتوريد المواد الكيماوية ، أو تجارة البقالة بالجملة ، فان أول عمل يقوم به ، هو شراء مزرعة .. اكبر مزرعة يستطيع الحصول عليها ، ويربى بعض الماشية .. والشخص المرشح لمنصب عام لا أمل له فى انتخابه ــ كما يقال ــ اذا لم يكن يمتلك مزرعة ،ويرتدى رجال الاعمال أحذية ذات كعوب ومهماز ، وهناك رجال ممن يمتلكون ثروات ضخمة ولهم بيوت فى باريس

ويصـــــيدون (القطا) بانتظـام فى سكوتلندا ، يشيرون الى انفسهم بانهم ر فتيان من البلاد الصغيرة العتيقة) !

وقد يكون من اليســـير التنــــدر بمسلكهم ، لو لم يعرف الانسان انهم بهذه الطريقة انما يحاولون الابقاء على الروابط التى تربطهم بالارض وقوتها ·· انهم يشعرون بوحى الغريزة ان هذا مورد لا للشراء فحسب، بل للطاعة أيضا ·· وطاقة أبناء التكســـاس لا حدود لها وهى طاقة متفجرة ·· ان صاحب المزرعة التقليدية الناجحة ليس مالكا متغيبا عنهـا ـ بتجـــربتى على الاقل ـ بل هو يعمل فيهـا ، ويرقب قطيعه من الماشية ويعمل على زيادته·· ان هذه الطاقة فى الجو الشديد الحرارة تثير الذهول ، وهم يتمسكون بتقليد العمل الشاق ، مهمـا كان حظهم من الثراء أو عدمه ·

ولقـــد تنقلت فوق جزء كبير من تكساس ، وفى داخل حدودها رأيت أنواعا كثـــيرة من البـــلاد والبيئات والاجواء ،وهى بالتأكيد تكاد تماثل ما فى العالم كله ـ باستثناء المنطقة القطبية ـ وكثير من رياح الشمال يمكن أن تجلب الانفاس الثلجية الى الجنوب ··· انك ترى سهولا جادة تبدو أسوارها فى الافق غريبة على التلال ذات الاشجار، والانهار العـــذبة فى جبـال ديفيز ، وبساتين الموالح الخصبة بوادى « ريو جراندى » ،لاصلة بينها وبين مراعى أشجار «القصعين» فى غرب تكساس، والهواء الساخن الرطب على ســـاحل الخليج لاشبه بينه وبـــين البلورات الباردة فى الجزء الشـــمالى الغـربى الناتىء من تكساس ·

وأغلب مناطق العـالم يمـــكن أن توضع فى خطوط الطول والعرض ، وتوصف ســـماؤها وأرضها وماؤها بتعبيرات كيميائية ·· وهناك أماكن أخرى ، كاليونان ، وتلك الاجزاء من انجلترا التى سار فوقها الملك ارثر، توجد فيها الاسطورة والخرافة ،والحب والتحامل فتشوه التقدير الهـادىء الواضح ، وهنـــاك نوع من الفوضى السحرية المتعددة الالوان تسود بصورة دائمة ···

ان تكساس حقا هى هذا المكان !

العودة الى البيت

منذا الذى يعرف رحلة انتهت قبل أن يعود المســـافر ؟ ·· اننى أعرف بالضـبط أين ومتى انتهت رحلتى ، فاننى أستطيع ـ حتى « ابنجدون » بولاية فيرجينيا ـ أن أستعيد صور الرحلة كفيلم سينمائى ، أســتطيع أن أذكر كل شىء تقريبا : كل وجه وكل تل ،

وكل شجرة وكل لون أما بعد ابنجدون .. فلا شيء ! ... هناك شردت منى الرحلة وتركتنى هائمـا بعيـدا عن وطنى !

وشـققت طريقى مغمض العينين خلال وست فيرجينيا ، وبنسلفانيا ، ونيوجيرسى . ولابد أننى توقفت لكى أملأ خزان بنزينى ، وأسير ، وأطعم تشارلى ، وآكل ، وأتحدث بالتليفون ولكننى لا أذكر شيئا من ذلك !

وفجأة وجدتنى أهبط على مانهاتن بطريقة سحرية .. فى قلب المدينة ، حيث الذعر اليومى الذى ينتاب سكان الضـواحى ، وقمت بدورة أخـرى بالسيارة ، ودخلت شـارعا ذا اتجاه واحد من الناحية الخطأ ، واضطررت للعودة لاخرج منه ، ثم وجدتنى وسط تقـاطع طرق من شلالات دوارة من الناس !

وفجأة أوقفت السـيارة فى منطقة غير مسموح فيها بالوقوف . وأوقفت المحرك ، واستندت الى الوراء فى المقعد وضحكت ... ولم أستطع التوقف عن الضحك ، وأخـذت يداى وذراعاى وكتفاى تهتز بعصبية . واقترب منى عسكرى عتيق الطراز ، أحمر الوجه ، أزرق العينين وقال بنظرة باردة :

ـ ماذا هناك يا صديقى ؟

قلت : أيها الجندى .. لقد قدت هذا الشيء فى أنحاء البلاد ، وسـط الجبال والسهول والصحارى ، وعندما عدت الآن الى بلدتى التى أعيش فيها ، ضللت الطريق !

فابتسم فى سـعادة وقال : هون عليك يا صديقى ... فقد ضللت أنا طريقى فى بروكلين يوم السبت الماضى .. والآن الى أين تريد الذهاب ؟

وهكذا آب المسـافر الى وطنه مرة أخرى !

حقيقة الذاتية الامريكية

من الاشياء التى تثير البهجة ، اننى أسـتطيع أن أقول عن رحلاتى مع تشـارلى : « ذهبت أبحث عن الحقيقة فى بلدى ، ووجدتها .. » وكم أود أن يكون الامر بهذه السهولة !

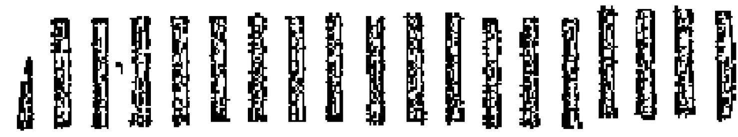
ولو أن انجليزيا أو فرنسـيا ، أو ايطاليا سافر فى الطريق الذى سرت فيه ، ورأى ما رأيت وسمع ما سمعت لما كانت صورهم المختزنة فى ذاكرتهم مختلفة عن صورى فحسـب ، بل ولاختلف كل منهم عن الآخر ... ولو أن أمريكيين آخرين قرأوا هذه القصة واعتقدوا انها صحيحة ، فان هـذا الاتفاق انما يعنى اننا متشابهون فى طابعنا الامريكى

ومنذ البداية الى النهاية ، لم أجد

غرباء ، ولو انني وجدتهم ، لاستطعت أن أتحدث عنهم بطريقة أكثر موضوعية ، ولـــكن هؤلاء هم قومي ، وتلك هي بلادي • واذا أردت أن أضع رأيا عاما خالصا بعد تفحص لقلت ما يلي : اننا على الرغم من كل امتدادنا الجغـرافي الكبـير ورغم كل طائفتينـــا ، وكل أجناسنا المتداخلة التي جاءت من كل جزء من العالم المختلف الاجناس، فاننا أمة واحدة •• ونتاج جديد •

ان الامريكيين هم أمريكيـون ، لا شماليون ، ولاجنوبيون أو غربيـون أو شرقيون ، وليس هذا مجرد تفاخر وطني ، بل هي حقيقة لا حظتها بدقة •• ان الصـــــينى في كالفورنيـا ، والايرلندي في بوسطن ، والالماني في ويسكونسين ، وزنوج الاباما ، كلهم لديهم من الامور المشتركة ، أكثر مما لديهم من أسباب الفرقة •• ومما يثير الدهشة أن يحدث هـذا في أقل من ٢٠٠ سـنة ، والجزء الاكبر منه في الخمسين عاما الماضية ••

ان الذاتية الامريكية شيء حقيقي ، يمكن اثباته •



عقبة !

في خلال احدى جولات أبي في الخدمة مع مشاة الاسطول في اليابان ، تلقى رسالة من أمي تطلب فيها ان يرسل اليها ((حكاكة ظهر)) يابانية حقيقية ..

ورد أبي عليها قائلا : ((آسف ياعزيزتي لانني لن استطيع ان ارسل اليك حكاكة الظهر لانهم لن يسمحوا لها بالمرور من خلال الجمارك !..



هدية العيد !

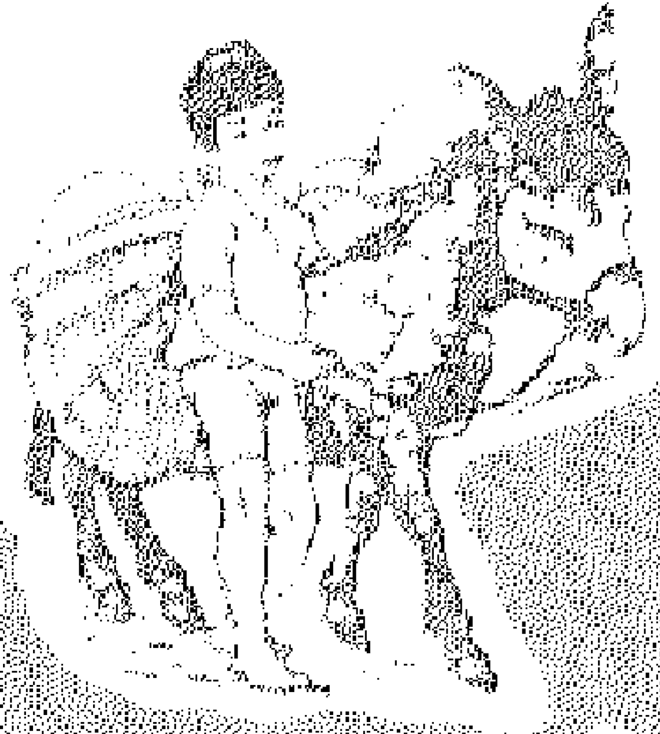
في خلال جولة قامت بها احدى الغواصات واضطرت للبقاء في البحر طوال موســم العطلات ، وضع أحد البحارة ليلة عيـــد الميلاد ثوب استحمام من قطعة واحدة على سطح الغواصة ووضع الى جواره رسـالة تقول :

((عزيزي بابا نويل :

أرجو ان تملأ لي هذا من أجل عيـــد الميلاد))

كتاب الشهر

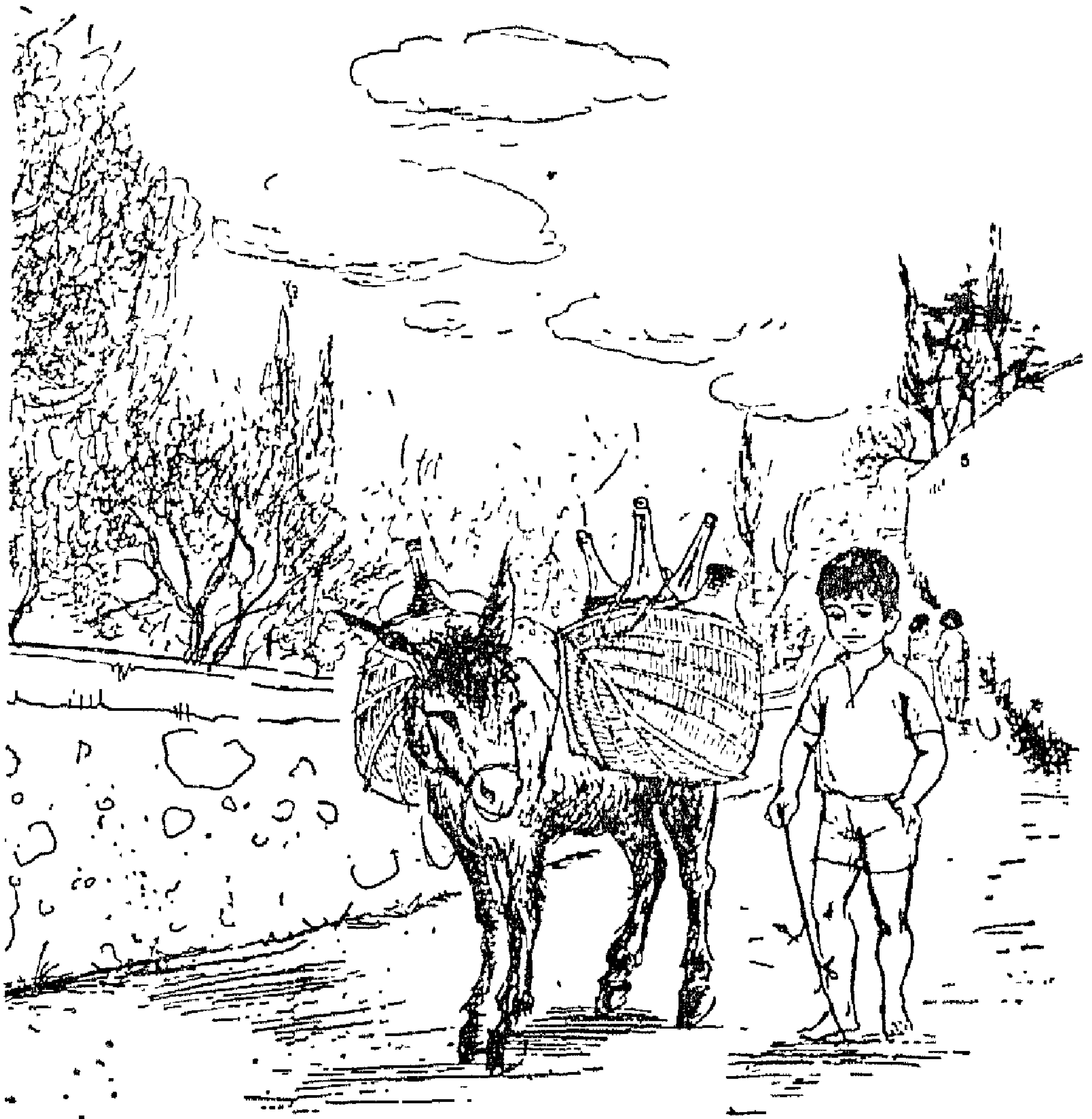
ملخص عن كتاب : The Small Miracle



المعجزة الصغيرة

يعتبر بول جاليكو من اشهر القصصيين في عصرنا هذا ، وقد فاز كتابان من كتبه بحب القراء بصفة خاصة علي مر السنين وهما : « المعجزة الصغيرة » التي صدرت في عام ١٩٥٠ ، و « اوزة الجليد » التي صدرت لاول مرة في عام ١٩٤١ .. وكان الاقبال على هذين الكتابين شديدا الي حد انه سيعاد الآن طبعهما في مجلد واحد من اجل جيل جديد من القراء ، فان رشاقة الاسلوب والجمال البسيط اللذين تمتاز بهما هاتان القصتان شيء لا يعدو عليه الزمن ... ويقدم المختار لقرائه هذا الشهر ملخصا لكتاب « المعجزة الصغيرة »

/



عندما تقترب من بلدة «أسيسى» من الطريق الطباشيري المغبر الذي يتلوي في صعوده الي جبل « سوباسيو » سوف تصل في النهاية الي تقسيم عليك ان تختار فيه بين طريق مرتفع وآخر منخفض ... فاذا وقع اختيارك على الاخير ، فانك سرعان ما ستجد نفسك تدخل البلدة من خلال بواكى يرجع عهدها الى القرن الثاني عشر . اما اذا اخترت الطريق الاعلي ، فستجد نفسك في النهاية حائرا وسط خليط من البشر والثيران والماعز ، وصياح العجول وضجيج العربات التي تكدست في مكان السوق خارج أسوار البلدة .

وهنا ستلتقى على الارجح بببينو وحمارته « فيوليتا » وهما يعملان في جد ، باحثين عن اي شيء يستطيع غلام صغير ودابة حمل قوت كسبه من الليرات اللازمة لشراء الطعام

ودفع أجر المأوي في حظيرة السائس « نيكولو » •

كان ببينو وفيوليتا همـا كل شيء لبعضهما البعض ، ولقـد كان من المشـاهد المألوفة في انحـاء بلدة « أسيسى » ان تري ذلك الغلام الاسمر النحيل بأسماله البالية وقدميه الحافيتين وعينيه السوداوين الواسعتين وأذنيه الكبيرتين ، وشعره القصير المنتصب ، وحماره الصغير ذي اللون الترابي •

وكان ببينو في العاشرة ، قتـل أبوه وامه واقاربه في الحرب ، ولكنه كان في اعتماده علي نفسه وحكمته وتصرفاته اكبر من ذلك بكثير ، وقـد ساعده علي الاستقلال بحياته ، ذلك الميراث الذي آل اليه وجعـله في غير حاجة للاعتماد علي أحد ••• وكان ميراث ببينو هو « فيوليتا » •

ولقد كانت فيوليتا حمارة ممتازة وان لم تختلف فيمظهرها عن أيةحمارة أخري ، وكانت ذات عينيه رقيقتين يبـدو فيهمـا الود ، وأنف أملس وأذنين طويلتين مدببتين لونهمـا بني ، وكان الاستثنـاء الوحيـد الذي يميـزها عن غيرها أنه كان لفيوليتا تعبير غريب يبدو علي زوايا فمهـا وكأنها تبتسم في لطف لشيء اعجبها وابهجها ••• ومن ثم فانه مهما كان نوع العمل الذي يطلب منها القيام به او ضخامته ، فان فيوليتا كانت تبدو دائما وهي تؤديه بابتسامة هادئة مرتاحة ، وكان اتحاد عيني ببينـو السوداوين اللامعتين، وابتسامة فيوليتا منسجما الي حد ان النـاس كانوا يفضلونهما علي غيرهما مما اتاح لهما لا مجرد كسب ما يقوم بأودهما فحسب بل وادخار القليل ايضا وذلك بفضل معونة ونصائح الاب داميكو قسيس البلدة •

وكان في استطاعة ببينو وحمارته ان يقوما بكل شيء •• حمل شحنات الاخشاب ، والماء ، وتسليم المبيعات أو يؤجران للمساعدة علي سحب عربة غاصت في الوحل ، او المساعدة في موسم حصـاد الزيتون ، وأحيانا مساعدة بعض المواطنين الذين أفرطوا في شرب النبيذ حتي لم يعد في امكانهم العودة الي بيوتهم علي الاقدام •

ولكن هذا لم يكن السبب الوحيد للحب القائم بين الصبي وحمارته ، فقد كانت فيوليتا اكثر من مجـرد وسيلة لكسب العيش بالنسبة لببينو • فقد كانت له بمثابة الاب والام والاخ ، ورفيق اللعب ، والصاحب ، وكان ببينو ينام في الليل فوق القش بحظيرة نيكولا وقد انكمش علي مقـربة من

فيوليتا عندما يكون الجو باردا ، وكان يتخذ من عنقها وسادة يضع عليها رأسه ، فاذا غمر قلبه السرور ، كان يردد الاغنيات في اذنيها ، وحتي اذا ساوره الالم والاحساس بالوحدة ، كان في امكانه ان يستند برأسه الي خاصرتها الدافئة ليسكب دموعه •

وكان ببينو من جهته يطعمها ويسقيها ، وينظفها من الحشرات ، وينتزع قطع الاحجار من حوافرها ، ويحك لها جسدها وينظفه ، ويداعبها ويسخو في حبه لها ولاسيما عندما يكونان بمفردهما ، فاذا كانا امام الناس لم يحاول ضربها قط بعصا الحمير اكثر مما ينبغي •• ومن اجل هذه المعاملة ، جعلت فيوليتا من ببينو معبودها وعوضته الاخلاص والطاعة والحب •

وهكذا فانه عندما أصاب المرض فيوليتا في مطلع الربيع •• كان هذا هو أخطر شيء حدث لببينو !

الابتسامة الضائعة !

بدأ المرض بخمول غير عادي لا يستجيب للعصا أو للتدليل ، أو الصفير الحاد الذي يحثها علي السير •• ثم لاحظ ببينو بعد ذلك أعراضا أخري ، اذ بدأت ضلوع فيوليتا التي كانت ممتلئة لحما تبرز من خلال جانبيها ، وكان أكثر الاشياء ايلاما ، هو أن فيوليتا نفدت ابتسامتها الساحرة المحبوبة !

وسحب ببينو مائة ليرة من كنزه المدخر وتوجه الى بارتولى الطبيب البيطري مع حمارته ، وفحصها الرجل جيدا ، وأعطاها بضع جرعات ، وبذل معها جهدا كبيرا ، ولكنها ظلت تزداد نحولا وضعفا •• ونصحه الطبيب باراحة فيوليتا وأن يقدم لها طعاما خفيفا وقال انه اذا زايلها المرض وشاء الله فانها قد تعيش ، والا فانها سوف تموت بكل تأكيد ويكون في ذلك نهاية لآلامها •

وبعد أن عاد من عند الطبيب ، وضع ببينو رأسه علي خاصرة فيوليتا اللاهثة ، وراح يبكي بحرقة ، ولكن بعد أن هدأت العاصفة ، أدرك ما ينبغي عليه عمله •• فاذا لم يكن قادرا علي الحصول علي المساعدة لفيوليتا من الارض ، فان التماسه يجب أن يرفع الي فوق !

كانت خطته تتلخص في مصاحبة فيوليتا الي السرداب الذي يقع تحت الكنيسة السفلي بكاتدرائية القديس فرنسيس حيث توجد رفات القديس الذي أحب كل مخلوقات الله بما فيها الطيور وذوات الاربع •• وهناك

سوف يبتهل لكي يشفيها القديس ، ولم يكن هناك أي شك لدي ببينو في أن القديس سيفعل ذلك عندما يرى فيوليتا ٠٠ وقد عرف هذه الاشياء من الاب داميكو الذي كان يتحدث عن القديس فرنسيس وكأنما هو شخص حي تستطيع مقابلته اذا درت حول ناصية الميدان الرئيسى بالقرية !

وكانت هناك الي جانب ذلك سابقة في هذا الصدد ، فان صديقه جيانى ابن السائس نيكولو أخذ قطته الي السرداب وطلب الي القديس فرنسيس أن يشفيها فشفيت القطة ، بعض الشفاء علي الاقل اذ أنها مازالت تجرجر ساقيها الخلفيتين ولكنها لم تمت ٠٠

كان ببينو يعتقد أنه اذا ماتت فيوليتا فستكون تلك نهاية كل شيء بالنسبة له !

لا تعتبر كلمة « لا » ردا أبدا !

أقنع ببينو حمارته المريضة بالنهوض بصعوبة بالغة ، ثم قادها خلال شوارع البلدةالمتعرجة ، وصعد بها التل نحو الكاتدرائية ، وأمام الباب المزدوج للكنيسة السفلي ، طلب الي الاب برنارد الذي يقف هناك بكل احترام أن يسمح له بأخذ فيوليتا الي القديس فرنسيس لكي تسترد صحتها ٠٠ وكان الاب برنارد راهبا حديثا ، فانتهر ببينو بشدة وأمره بالانصراف هو وحمارته حتي لا يدنس حرمة الكنيسة ، فضلا عن أنه لا يتصور كيف يستطيع أن يهبط معها الي السرداب السفلي ٠

وابتعد ببينو كما طلب منه بعيدا عن البوابة وقد طوق عنق فيوليتا بذراعه ، وأخذ يفكر فيما ينبغى عمله لكي يحقق هدفه ، ومع أن خيبة الامل قد أصابته لحظة لما أصابه من صد ، فانه لم يفقد الامل تماما ٠

وعلي الرغم من المأساة التيأصابت ببينو في مطلع حياته وحرمته من أسرته ، فقد كان يعتبر نفسهمحظوظا اذا قورن بكثيرين غيره ، اذ لم يكن له ميراث يساعده في كسب عيشه فحسب ، بل وكانت له تعاليم هامة يعيش بمقتضاها ، اذ كان قد عقد أواصر الصداقة مع أونباشى أمريكي عسكرت فرقته قرب بلدة «أسيسى» طوال أشهر ستة ، حظي خلالها بالكثير من قطع الشيكولاته والصابون واللبان وغيرها ، وكان ببينو يعتبر صديقه فرنسيس اكزافييه أوهالوران نصف اله ، وبطلا كبيرا ٠٠ وقبل أن يخرج من حياته الي الابد ، قال لببينو : « اذا أردت أن تمضي قدما

في هذا العالم يابني ، فلاتعتبر كلمة «لا» ردا قط .. » ولم ينس ببينو هذه النصيحة المهمة قط !

ومع أنه رأي خطوته التالية بوضوح ، فقد توجه أولا الي صديقه وناصحه الاب داميكو يلتمس منه التأييد وقال الاب داميكو ذو الرأس الكبير والعينين اللامعتين : « ان من حقك يابني ان تذهب بملتمسك الي المراقب العلماني وفي سلطته أن يقبل أو يرفض » ..

كان يري أنه ليس هناك أي ضير من هذا التشجيع الذي قدمه لببينو ، فقد كان يعتقد أنهليس هناك ما يمنع اجابة طلب الصبي ، ولكن هذا أمر خارج عن اختصاص الاب داميكو ، الذي كان تواقا لمعرفة كيف سيتصرف المراقب في هذه المسألة ، ولو أنه كان يعتقد أنه يعرف هذا التصرف مقدما!

ولم يدل الاب داميكو بمخاوفه لببينو ، ولكنه ناداه قبل أن يرحل قائلا : « اذا لم تستطع الدخول الي السرداب من أعلي ، فهناك مدخل آخر من أسفل عن طريق الكنيسة القديمة ، ورغم أنه أقيم أمامه جدار منذ مائة عام فانه من الممكن فتحه.. يمكنك أن تذكر ذلك للمراقب عندما تقابله ، فهو يعرف مكانه !

في الطريق الي روما

شكر ببينو الاب داميكو ، ثم عاد بمفرده الي الكاتدرائية والتمس الاذن بمقابلة المراقب ، ولم يكن من الصعب الوصول الي تلك الشخصية ، ومع أن المراقب كان مشغولا بالحديث مع الاسقف ، فقد طلب دخول ببينوالذي دخل حدائق الدير ، ثم وقف ينتظر في احترام حتي ينتهي الرجلان الكبيران من حديثهما ..

كان الرجلان يسيران جيئة وذهابا ، وكانت أذنا ببينو مرهفتين بعد أن تبين أنهما يتحدثان عنالقديس فرنسيس ، والدرس الذي يتمثل في حياته .. وقال المراقب :

— ان قبره في السرداب يجتذب الكثيرين اليبلدة آسيسي، ولكنوجود الجثمان كان يمكن أن يكون أفضل من ذلك .. لو كان لدينا لسانه أو خصلة من شعره ، أو أحد أظافره !

كانت عينا الاسقف تنظران بعيدا وهو يهز رأسه برفق .. ثم قال :

— اننا في حاجة الي رسالة يا عزيزي المراقب .. رسالة من قلب كبير ، يتحدث الينا عبر فجوة عمرها سبعة قرون ، ليذكرنا بالطريق الذي يجب أن نسير فيه ..

وتوقف المراقب عنالحديث وسعل،

بعد أن لاحظ أن ببينو يقف فيالانتظار وهو يلتفت اليهما .. ثم قال :

ـ أجل يابني .. ماذا يمكنني أن أفعل لك ؟

فقال ببينو :

ـ أرجو مساعدتي يا سيدي .. ان حمارتي فيوليتا مريضة جـــدا ، وقد قال لي الدكتـــور بارتولي انه لا يستطيع أن يفعل لها أكثر مما فعل وأنها قد تموت .. فأرجو أن تأذن لي بأخذها الي قبر القديس فرنسيس لالتمس منه شفاءها ، لقد كان يحب كل الحيوانات ولاسـيما الحمـــير الصغيرة اذنى واثق أنه سيشفيها .

وبدا الذهول علي وجـــه المراقب وقال :

ـ حمار .. في الســـرداب ؟.. كيف طرأت لك هذه الفكرة ؟

وشرح له ببينو قصة صديقـــه «جياني» وقطتــه الصغيرة المريضة ، بينما استدار الاسقف ليخفي ابتسامته وأشار المراقب بيـــده علامة الجنون محذرا الاسقف .. وقال :

ـ لا يمكننا بطبيعة الحـــال أن نسمح هنا بشيء كهذا .. ولو فعلنا لوجدت كل شخص وقد جاء يحمـل كلبا مريضا أو ثورا أو عنزة .. بل وربما خنزيرا .. ولا يدري أحد الي أين ينتهي بنا الامر بعد ذلك .

وقال ببينو متوسلا :

ـ ولكن أحدا لن يعرف يا سيدي .. سنأتي وننصرف بسرعة .

وراح المراقب يدير الفكـــرة في رأسه .. كان هنـــاك شيء مؤثر في صوت الصبى ، ولكنه قال لنفسه : ماذا يحدث لو سمحنا له بما يريد ثم ماتت الحمارة .. وهو الامر الاكثر ترجيحا ؟.. سوف يذيع النبأ عندئذ، وتعاني الكنيسة من آثاره .. وساءل نفسه : تري ما هو رأي الاســـقف لحل المشكلة !

وعاد يقول :

ـ وفضلا عن ذلك فاننا لو سمحنا لك بذلك ، فلن يمكنك ادخال الحمارة الي الدرجات السفلي .. وهكذا تري أن الامر مستحيل .

فقال ببينو :

ـ ولكن هنـــا مدخـلا آخر من الكنيسة القديمة لم يستخدم منذ وقت بعيد ولكن يمكن فتحه مرة أخري .

وبدا الاستياء على وجه الاسقف ثم قال :

ـ ماذا تقول ؟.. أنذمر ممتلكات الكنيسة ؟ ان المدخل مسدود منـذ أكثر من قرن ، يوم بني الســرداب الجديد .

وظن الاسقف انه وجد مخرجا من المازق ، فقال للصبي بلطف :

ــ لماذا لا ترجع الى بيتك وتبتهل للقديس فرنسيس ليساعدك ؟ لو أنك فتحت له قلبك وكنت مؤمنا فسوف يسمعك بكل تأكيد ٠

فصاح ببينو وصوته يرتعش بالعبرات التي توشك أن تسيل من عينيه :

ــ كلا ٠٠ لن ينفع ذلك ٠٠ يجب أن آخذها حيث يستطيع القديس رؤيتها ٠ انها ليست كأي حمار آخر ٠٠ ان لفيوليتا أجمل ابتسامة ولكنها لم تعد تبتسم منذ مرضت ، ولعلها تفعل ذلك مرة أخري من أجل القديس فاذا رآها فانه يشفيها ٠

ولكن المراقب هز رأسه قائلا :

ــ آسف يابني ٠٠ ولكن اجابتي هي : لا ٠

***

وعندما عاد ببينو الي الاب داميكو سأله قائلا : من هناك اذن فوق منصب المراقب والاسقف ٠٠ من يستطيع أن يطلب منهما السماح لي بأخذ فيوليتا الي السرداب ؟

وأحس الاب داميكو ببرودة تسري في معدته ، وهو يفكر في الترتيب الهرمي بين رجال الدين في أسيسى وروما ، ومع ذلك فقد راح يشرح له بأقصي ما يمكنه من جهد ، وختم حديثه قائلا :

ــ وعلي رأس الجميع قداسة البابا نفسه ٠٠ ان قلبه سوف يتأثر ولاشك بما سوف يسمعه منك فهو رجل عظيم صالح ، ولكنه مرهق بمهام هامة ثقيلة ومن المستحيل مقابلته يا ببينو ٠

وعاد ببينو الي حظيرة نيكولو حيث قدم الدواء والطعام والماء لفيوليتا ، ثم أخرج ٢٠٠ ليرة أخري من نقوده بعد أن وضع ١٠٠ ليرة جانبا اذ وعد بها صديقه جياني اذا عني بفيوليتا ، ثم ربت بيده على الحمارة ، ومسح دموعه التي عادت تسيل بعد أن رأي مدي نحولها ، وانطلق الي الطريق حيث أشار بأصبعه لسيارة نقل ، حمله سائقها معه الي روما ٠٠ في طريقه لمقابلة الحبر الاعظم !

باقة من زهور الربيع !

كان ببينو يبدو ضئيلا جدا يائسا وهو يقف في ميدان القديس بطرس الفسيح الذي كان يخلو في تلك الساعة المبكرة من الصباح ٠٠ كان كل شيء يطل عليه من عل ، وكل شيء يسعى ليجعله يبدو بائسا مخذولا بقدميه

الحافيتين وبنطلونه الممـزق وسترته الرثة ٠٠ لم يكن هناك أكثر منـــه احساسا بالخوف والوحدة والهزيمة، أو حمل عبء أكبر من التعاســـة فى قلبه ٠

أما وقد أصبح في روما ، فقد بدأت ضخامة المباني والاثار وجلالها المهيب تستنفد شجاعته ، وكاد يستبد به اليأس ، لولا أن برزت في خيـــاله صورة حمارته الصغيرة الحـــزينة ، التي يهددها الموت اذا لم يستطع أن يجد من يساعدها ، وقد دفعته هذه الافكار في النهاية الي عبور الميـدان والاقتراب في وجل من أحد المداخـل الجانبية للفاتيكان ٠

كان الحـــارس السويسري بزيه الرسمي الذي يجمـــع بين الالوان الحمراء والزرقاء والصفراء ، ورمحه الطويل يبدو عظيما مخيفـــا ، ولكن بيبنو اقترب منه وقال له :

ـ هل تتكرم بأخذي لمقابلة البابا؟ انني أود محـادثته عن حمـــارتي فيوليتا ؟

وابتسم الحارس في عطف ، فقـد اعتاد أمثال هذه الطلبات التي تتسم بالبراءة والجهل ، ولكنه هز رأســه وقال مبتسما ان قداسته مشغول جدا ولا يمكن مقابلته ٠٠ ودق الحارس الارض بطرف رمحه الطويل ، ووضعه مائلا عبر الباب ليؤكد قوله ٠

وتراجع ببينو بعيـــدا ٠٠ وراح يفكر : ماذا يستطيع أن يفعل في وجه مثل هذه السلطة والهيئة ؟ ولكنه تذكر ما قاله صديقه الاونباشى أوهالوران، فقرر أن يرجع الي الفاتيـــكان من جديد ٠٠

كانت هناك امرأة عجـــوز تجلس تحت مظلة علي جانب الميدان تبيـع باقات صغيرة منزهور الربيع ليضعها الزائرون علي ضريح قديسهم المفضل بطرس ٠٠ كانت الزهور تتألق بمـــا عليها من قطرات المـــاء العالقـــة بأوراقها ٠٠

وما أن نظر اليهـــا ببينو ، حتي فكر في قريته وفي الاب داميكو ٠٠ وتذكر ما قاله عن حب القـــديس فرنسيس للزهور ، وقال لنفســه انه اذا كان القـــديس فرنسيس الرجل المقدس مولعا بالزهور ، فلعل البابا يحبها أيضا ، وهو في مركز أكـــثر قداسة !

واشتري باقة صغيرة بخمســـين ليرة ، تبرز منها بعض زنابق الوادي، والبنفسج والزهور الحمراء ، وزهرة البانسيه الاصــــفر ، وأحيطت كلها بغلاف من أوراق الاشـــجار ٠٠ ثم

حصل علي قلم وورقة من كشك لبيع التذكارات وبطاقات البريد .. وبعد جهد جهيد كتب رسالة قال فيها :

« أيها الأب المقدس العزيز .. أرسل هذه الزهور لك وأرجو أن تسمح لي بمقابلتك والتحدث اليك عن حمارتي فيوليتا التي توشك أن تموت ، والتي رفضوا السماح لي بجعلها تري القديس فرنسيس لعله يشفيها .. انني أقطن بلدة أسيسى وقد جئت خصيصا لمقابلتك .

المحب لكم .. بيبينو »

وعاد بعد ذلك الي الباب ، وألقي بالرسالة والباقة في يد الحارس السويسري وقال متوسلا : « أرجو أن تحمل هذه للبابا .. انني واثق أنه سيقابلني عندما يأخذ الزهور ويقرأ رسالتي »

لقاء مع البابا

لم يكن الحارس يتوقع ذلك .. لقد وضعه الطفل في مأزق لم يستطع أن يجد لنفسه مخرجا منه أمام هاتين العينين الكبيرتين اللتين تبدو فيهما الثقة ، ومع ذلك فانه كان خبيرا بمعالجة مثل هذه الامور .. ليس عليه الا أن يكلف زميلا بالوقوف مكانه ، ثم يذهب الى غرفة الحرس ويلقي الزهور والرسالة في سلة المهملات ، وبعد أن يتغيب فترة مناسبة ، يعود لكي يقول للغلام ان البابا يشكره على هدية الزهور ويأسف لان ضغط العمل يجعل من المستحيل عليه مقابلته .

وبدأ الحارس ينفذ خدعته الصغيرة علي الفور ، ولكنه عندما بلغ الفصل الاخير من المسرحية ، وجد أنه لا يستطيع اجبار نفسه علي عملها .. كانت سلة المهملات فاغرة فاها امامه ، ولكن الزهور الصغيرة بدت ملتصقة في أصابعه .. ما أجملها وأحلاها .. وأبردها هذه الزهور ! .. لقد أعادت له ذكري الربيع في الوديان الخضراء ببلدته البعيدة في لوسرن ، وعاد يري الجبال التي يكسو الجليد ذراها والتي أمضي فيها شبابه .. والبيوت الصغيرة الزاهية الالوان ، والماشية ذات العيون الرقيقة وهي ترعى في المروج التي تملؤها الزهور .

وأذهله ما حدث له ، فابتعد عن غرفة الحرس ، وراح يتجول بين الممرات ، فانه لم يكن يدري الي أين يذهب أو ماذا يفعل بحمله .. وفي النهاية التقي بقسيس ضئيل الجسم، منهمك في العمل ، فتوقف مندهشا لمشاهدة الحارس الضخم وهو يتأمل الباقة الصغيرة في يأس وقنوط !

وهنا وقعت المعجزة الصغري التي

جعلت طلب ببيذو يعـــبر الحدود في القصر الذي يفصل العالم الدنيوي عن العالم الروحى ، فقد أخذ القس هذه الاشياء الملتهبة من يد الحارس الذي أحس براحة بالغـــــة لذلك ·· وقد أثرت الزهور في نفس القسيس بلغتها العالمية التي تثـــير في نفس كل من يراها أعز الذكريات ·

وهكذا راحت الباقة الصغيرة تنتقل من يد الي أخري ، وبدأت تفقد بعض رونقها وبهاءها ولكنها ظلت محتفظة بسحرها ورســـالة الحب والذكريات التي تحملها حتي استقرت أخيرا مع الرسالة التي تصاحبهـــا علي مكتب الرجل المرسلة اليه ·

وقرأ الرســالة ، ثم جلس يتأمل يتخيل الصورة التي بدت في ذهنه·· ورأي نفسه طفلا صغيرا في روما في يوم أحد فوق تلال «البان» حيث رأي زهور البنفسج البريئة لاول مرة ·

وعندما فتح عينيه في النهاية قال لسكرتيره : « دع الطفل يأتي هنا ·· سأقابله » ·

وجاء ببيذو الي حضـــرة البابا ، وجلس علي مقعد وراح يحكي قصة فيوليتا الكاملة ، وأنه يرغب فيصحبتها الي قبر القديس فرنسيس ، وكيف منعه المراقب ، كما ذكر له كل شيء عن الاب داميكو ، وابتسامة فيوليتا، وحبهما المتبــادل ·· كان يصب كل ما في قلبه في أذني الرجل العطوف الذي جلس ساكنا خلف مكتبه ·

وعندما خرج في النهاية من حضرة البابا بعد نصف ساعة ، كان واثقــا تماما أنه أسعد طفل في العالم ، فهو لم يحظ ببركة البـــابا فحسب ، بل وكان يحمل في ســــترته رسالتين ، احداهما موجهة الي المراقب العلماني في دير أسيسى ، والاخـــري للأب داميكو ·

ولم يشعر بضآلته وهو يخرج الي الميدان مرة أخري ويسير أمامالحارس السويسري الذي استبدت بهالدهشة· كان يشعر أنه يستطيع في وثبـة واحدة أن يطــير عائدا الي جوار فيوليتا !

همسة من شجاعة

قبل أن يخيم ليل ذلك اليوم ،كان قد عاد الي قرية اسيسى ، وبعد أن زار فيوليتا للاطمئنان علي أنها تحظي بالرعاية ، ولم تكن أسوأ مما كانت عندما تركها ، اتجه ببيذو نحو الأب داميكو وقدم له الرسالتين ··

وفتح الاب داميكو الرسالة الموجهة اليه في احساس دافيء سعيد ، ثم قال لببيذو :

ـ سنأخذ رسالة المراقب اليه غدا ·· وسيستدعى البنائين ويحطمالباب

القديم ، وسوف تستطيع أن تصحب فيوليتا الي القبر وتصلي من أجل شفائها .. لقد وافق البابا نفسه علي ذلك .

وكانت رسالة البابا الي الأب داميكو تقول : «لابد أن المراقب يعرف أن القديس فرنسيس كان في حياته يصحب الي الكنيسة حملا صغيرا اعتاد أن يتبعه في أرجاء اسيسي . فهل الحمار أقل شأنا لان جلده اكثر خشونة واذنيه اكثر طولا ؟ » .

وقال داميكو لببينو : « هناك شيء يجب أن تدركه قبل أن تذهب لرؤية المراقب ، وهو أنك تأمل أن يساعدك القديس فرنسيس ويشفي حمارتك من أجل ايمانك .. ولكن هل فكرت في أنه ربما كان القديس الذي اهتم بكل مخلوقات الله سيحب فيوليتا الي حد أنه يريدها أن تكون الي جواره في الأبدية ؟ » .

وأحس ببينو برعشة برد رهيبة تسري في جسده وهو يستمع الي هذه الكلمات . ثم قال :

ـ كلا يا أبت .. لم أكن أظن .

ولكن الاب داميكو استطرد يقول:

ـ أستذهب الى السرداب ياببينو لكي تطلب فقط أم أنك ستكون مستعدا للعطاء اذا لزم الامر ؟

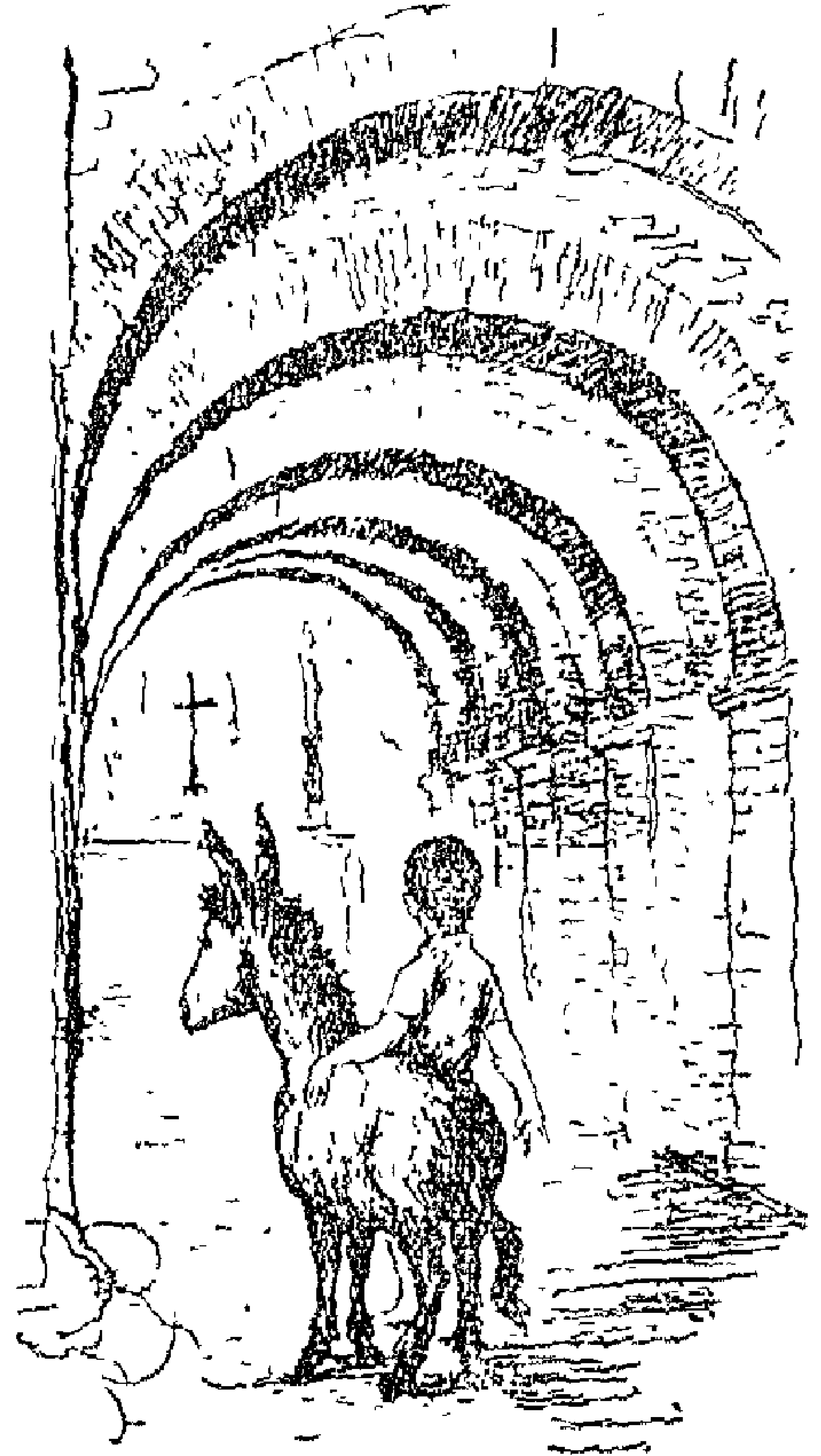
كان كل ما في ببينو يصيح ضد احتمال فقد فيوليتا ، حتي ولو كان الذي سيأخذها شخصا محبوبا كالقديس فرنسيس . ولكنه عندما رفع وجهه الحزين ونظر الي عيني الاب داميكو ، كان في أعماقهما شيء شجعه علي أن يهمس قائلا :

ـ سأعطي .. اذا كان ذلك ضروريا .. ولكني أرجو أن يتركها معي فترة أطول قليلا !

اشارة من القديس

أخذ رنين معول البناء يدوي مرة بعد أخري في الغرفة المعقودة السقف في الكنيسة السفلي ، بينما كانت عملية هدم الباب المؤدي الي السرداب المغلق تجري .. وعلي مقربة وقف المراقب وصديقه الاسقف ينتظران الى جوار الاب داميكو والغلام الصامت الشاحب ذي العينين الكبيرتين وقد تعلقت ذراعا الغلام بعنق فيوليتا ، والتصق وجهه بوجهها ، بينما كانت الحمارة الصغيرة ترتجف وسيقانها لا تقويان علي حملها .

وأخذت قطع الاحجار تتساقط ، والفجوة تزداد اتساعا ، وتدفق من الممر تيار من الهواء ناثرا سحبا من الغبار ، وتبين أن جزءا من الحائط صلب متين ، فأخذ عامل البناء يهوي علي الباكية المقامة علي جانبه ليضعف



الدعامة التي يستند اليها ، حتى بدأ البناء يتهاوي ، وظهر من خلفه ممر ضيق واستطاعوا أن يروا من خلال الفتحة ضوء شموع المذبح البعيـــدة المهتزة فوق جثمان القديس فرنسيس•

واتجه بيبنو نحو الفتحة ، أو لعل فيوليتا هي التي تحركت في عصبية وقد أخافها المكان والضجيج غـــير العـــادي •• وقال الاب داميكو : « انتظرا » وحاول بيبنو امساكها ، ولكن أقدام الحمارة المرتعشة انزلقت فوق الانقاض ، ثم اندفعت في ذعـر واصطدمت بجانب الجـــدار المقوس الذي أضعفه الهدم ، فسقطت قطعـة من الحجر ، وظهر وراءها شق كبير•

وقفز الاب داميكو وجـذب الفتى وحمارته بعيدا في الوقت الذي انهـار فيه الجدار بصـــوت رهيب ليكشف عن قطعة من سور قديم والفجوةالتي وراءه ، قبل أن يختفي كل شيء في سحابة من الغبار •• وعندما استقر الغبار ، أشار الاسقف في دهشة الي شيء استقر في محراب بالفجوة •• كان صـندوقا صـــغيرا رماديا من الرصاص ، استطاعوا وهم في مكانهم أن يروا حـــروف ١٢٢٦ محفورة عليـه ، وهو عام وفاة القـــديس فرنسيس ، كما كان منقوشا عليـه حرف (ف) بحجم كبير •

وتنهد الاسقف قائلا : « أيمكن أن يكون ذلك صحيحا ؟•• تراث القديس فرنسيس ؟ لقد ظل مختفيـا طوال قرون لم يعثر عليه أحد » •

وقال المراقب بصوت أجش :

ـ ترى ماهي محتوياته ؟ دعنـا نرى ماذا بداخله ؟ قـد يكون شيئا ثمينا !

وتردد الاسـقف ، ثم قال : قد يكون من الافضل أن ننتظر ، ان هذا الكشف معجزة في حـــد ذاته ولكن الاب داميكو الشاعر الذي كان يرى في القديس فرنسيس ملهما صـــاح

يقول : «افتحوا الصندوق · أتوسل اليكم ·· لقد ارشدتنا اليه السماء بكل تأكيد » ·

وحمل المراقب المصباح بينما راحت أيدي عامل البناء تفكان الاربطة وترفعان غطاء الصندوق المحكم حتي فتحه وكشف ما وضع فيه منذ أكثر من سبعة قرون ·

كانت هناك قطعة حبل من القنب معقودة بطريقة تبين أنها كانت تحيط يوما بالخصر ، وكان في العقدة غصن من نبات القمح وكأنه نبت بالامس فقط ، كما كان هناك ساق عليها زهرة جبلية مجففة ومحفوظة ، وبجوارها ريشة زغب من طائر صغير ·

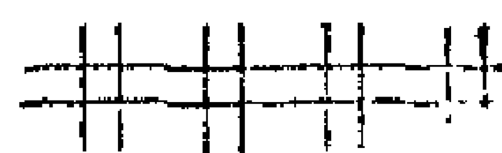
أخذ الرجال يحدقون في هذه الاشياء في سكون ، محاولين قراءة معانيها ·· وبكي الاب داميكو ، فقد جعلته يتذكر صورة القديس شبه الكفيف ، الهزيل المرهق ، وقد عقد الحبل حول خصره وهو ينشد ويسير في أرجاء حقل مزروع بالقمح ، ولعل الزهرة هي أول شيء اكتشفه بعد جليد الشتاء ، ورأي الاب داميكو بعين خياله طائرا صغيرا في الحقل يقف مطمئنا علي كتف القديس وهو يزقزق ، ثم يترك ريشة في يده ·

وأوشك الاسقف علي البكاء هو الاخر ·· ثم فسر بطريقته الخاصة الاشياء التي عثروا عليها فقال : « أي شيء هناك أفضل من رسالة القديس لنا ! ·· انه يوصينا جميعا بالحب والايمان » · وقال ببينو :

ــ هل يمكننا أنا وفيوليتا أن نذهب الآن الى السرداب ؟

ومسح الاب داميكو دموعه ·· لقد أصبح المدخل مفتوحا الان ، يستطيع الغلام وحمارته المرور منه·· وقال له : أجل يا ببينو .. يمكنكما الدخول الان ·· والله معكما ·

وراحت حوافر الحمارة تدب بقوة فوق أرض الطريق القديمة الرخوة ، وسار الي جوارها ببينو وقد استقرت يده علي عنقها في رقة وحب ·· كان رأسه عاليا وكتفاه مستويتين فى شجاعة ، وخيل للأب داميكو أن البسمة قد عادت الي شفتي فيوليتا !



شكوى

قال السياسى الامريكى للصحفى فى عتاب :

ــ عندما تحدثت اليك فى المرة الاخيرة حديثا ليس للنشر لم ار كلمة واحدة منه فى صحيفتك !

كتاب الشهر

هذا هو الحب يا ابنتي

ملخص عن كتاب

LETTERS TO KAREN

بقلم

تشارلي شيد

هذا هو الحب
ياابنتى

بقـلم
تشارلى شيد

قبل ان تتزوج ابنتى كارين بعدة شهور، طلبت الى ان اكتب لها بضع رسائل خاصة وقالت لى بوجه باسم مشرق : ((أبت .. أرجو ان تخبرنى كيف استطيع ان احتفظ بحبه لى الى الابد)) .

ولقد التمست منى ابنتى هـذا المطلب لاننى أمضيت سـاعات لا تحصى أناقش المشكلات الزوجيـة مع الازواج والزوجات الذين يواجهون المتـاعب ، وقد تعلمت من النجاح والفشل اللذين اسفرت عنهما أمثال تلك المناقشات ، انه على الرغم من ان كل زواج يخلق اسلوبه الخاص الفريد ، فان ثمة قواعد معينة تنطبق على كل زواج ، ومن ثم فاننى آمل ان تكون هذه الرسائل التى كتبتها لارشاد كارين ومن تحبه ، مفيده لغيرها أيضا

« المثال ١ »

« عزيزتي كارين

يقولون « أن التملق يستطيـع أن يصل بك الي كل مكان ٠٠» ولقـد جعلتني كلماتـك أهرع الي آلتي الكاتبة ٠٠ واي اب لا ينتفخ زهـوا بمثلها ؟٠٠ تصوروا أن ابنتي تقـدر آرائي كل هذا التقدير !

ولكنني عندما جلست لكي أبدأ٠٠ بزغ أمامي ضوء عظيم !

ان طلبك اطراء رفيع ، ولكنه ليس موجها لي ، فقد ظللت طوال عشرين عاما ترقبين « المثال ١ » ٠٠ وهكذا فانني أقبل اقتراحـك باعتباره باقة ثمينة لأمك التي كانت جـديرة بها حقا ٠٠

وأنت تعرفين مدي خـلوي من المعلومات في كثير من الميـادين ، ولكنك تعلمين أيضا أنني خبير لاأباري في موضوع واحد ، فانني أدرك عن

تجربة مدي روعـــة أن تكون محبوبا من مخلوق يتمتع بعبقـــــرية في فن «كيف تكونين زوجة » •

وسيكون امرا ممتعا أن أصف لك اساليبها في ذلك ••

مع حب

والدك »

أنت التي وجدته ••

« عزيزتي كارين

لقد خرجت مع فتيـان كثيرين ، وكنت أنا وأمك نعجب بذوقـــــك في اختيارهم ، واذا لم تخني الذاكــــرة فان أحدا منهم لم يفشل فشـــلا تاما (حتي المهرج الكبير الذي كان«ساذجا» لم يكن سيئا جدا) لقد كانوا جميعا ذوي أخلاق طيبة ، وعلي جانب طيب من النظـــافة والاناقة وكانوا ــ كما كنت تقولين : « ســـائقين ماهرين جدا » •

وقد استرعى هذا اللاعب العملاق



لكرة القدم أنظارنا ، ولابد أنه أنفق ثروة طائلة من أجـــل الاتصال بك تليفونيا من مسافات بعيدة • لقد كان اشبه بكلاب سان برنار : ضخم ولكنه رقيق جدا •• ثم جاءت ليـــــلة لن أنساها أبدا • كان ذلك بعد أن ظللت تخرجين معه فترة من الوقت •وكنت أنا لاأزال في الطابق العلوي ، عندما عدت أنت وأعلنت أنك شطبت اسمه من قائمتك •• وأنت تعـرفين كيف يكون الامر علي الاباء ، فقد خشيت أن يكون شيئا كريهـــــا قد حدث ، ولكنك طمأنتني بقولك : « كلا •• انه لطيف جدا ، ولكن يا أبي ، يبدو لي أن كل الفتيان الذين أخـــرج معهم يكونون بمثل هـــــذه الرقة فترة من الوقت ، ولا يلبث أن يتملكنيالضجر •• وبعد عدد قليل من المواعيـــــد ، يبدو لي كأنني أعرف كل ما ينبغى معرفته ! فهل تعتقد أن هناك خطأ في أنا ؟ •• انني أفزع عندما أفكر في الزواج •• وأســـأل نفسى : كيف يمكنني أن أقضي كل حياتي مع رجل واحد ؟•• هــــل تظن أنني سأجد واحـــدا يثير في نفسى من الاهتمام ما يكفي لابقاء اهتمامي به للابد؟»

وبعد أن طمأنتك ، أمسكت يدي فجأة وقلت لي : « لقد حزمت أمري

.. انني لن اتزوج أبدا الا اذا التقيت بفتي عظيم تستغرق معرفة كل شيء عنه الحياة بأسرها » .

وخيل لي أن هذا قرار مروع !

ومر حين من الوقت .. ثم حدث ذات مساء أنك اتصلت بي تليفونيا من الجامعة .. أتذكرين ؟ وكان في صوتك نغمة خشوع جديدة تسري فيها البهجة وأنت تقولين : « أبت .. هناك فتي رائع حقا يقوم بالخدمة علي موائد عنبرنا في الكلية .. انه أطرف شخص قابلته في حياتي . لقد طاف حول العالم عدة مرات ! »

كان هذا ما قلته انت ... ولكنني اعتقد ان ذلك حدث مرتين فقط ... أليس كذلك ؟ وهل يستطيع شخص ان يفعل اكثر من ذلك في البحرية الا اذا كان بحارا محترفا ؟

ومضيت انت كالجدول الرقراق تقولين : « انه يعرف اكثر بكثير مما أعرفه أنا عن كل شيء : يفهم كل شيء عن التليفزيون .. فهو متخصص في هذه الدراسة ، كما انه خبير حقا في شئون أمريكا اللاتينية فهذا هو موضوع تخصصه الآخر ... ولقد نسيت ان اذكر لك ان اسمه « فنسنت » اليس هذا هو أجمل الاسماء ؟ انه يعمل خلال الدراسة . ولم ار قط شخصا يفهم الناس مثلما يفعل هو ، فضلا عن انه وسيم والجميع يحبونه ، لانه يستطيع ان يتحدث في اي موضوع .. وانت تعرف يا أبى كم كنت شديد الولع انت وامي باليونان ؟ حسنا .. انه يعرف كل شيء عن اليونان فقد توقفت سفينته هناك ثلاثة اسابيع .. وغير ذلك ..

لقد جعلتني ادور في فلكه معك ، حتي انني نسيت مؤقتا انني انا الذي سأدفع قيمة هذه المكالمة التليفونية (ولابد ان تكون هناك رسوم خاصة لمثل هذه المناسبات التاريخية !)

ولكننا اتفقنا في النهاية علي انه بمجرد حصوله علي فرصة للفراغ من أعماله العديدة ، ان يحضرك الي البلدة في سيارته المتعة الصغيرة طراز (فولكس فاجن) وان تتركي لبقية الاسرة ان يروه بأنفسهم ... وعندما انتهت المكالمة سألني أحد اخوتك :

« فيم كنتما تتحدثان ؟ »

فقلت له : « عن زوج كارين المستقبل »

لقد وجدت رجلك أخيرا ... وجدت واحدا » تستغرق معرفة كل شيء عنه حياة بأسرها » انك علي صواب .. انها نعمة كبري ان تتزوجي شخصا ترين فيه جزرا تكتشف ، وجبالا تتسلقينها ، ووديانا ترتادينها ،

وعجائب جديدة تبرز من بعيد ٠٠٠ ففى مثل تلك الرحلة لن يسود أيامك اية كآبة ٠ لقد امضيت انا وامك ٢٦ عاما منذ زواجنا ومازلت اكتشف فيها أشياء جديدة ٠٠ ولأزال احمد الله لانه وهبني مخلوقا عظيما استغرق حياتي كلها في دراسته ٠٠

ان متعتك انما توجد في العـــالم المجهول الفسيح ٠

ابوك »

السعادة هي أن تكبري

«عزيزتى كارين

«هناك موضوع بين أوراقى اعتز به، لقد كتبه للمدرسة غلام فيالعاشرة يدعى تومى ٠ وهذا هو الموضوع :

« ما هو الحب ؟ »

« ان الحب شىء يجعل شخصين يعتقدان انهما جميلان ، ولو لم يكن هناك غيرهما يظن ذلك ٠ ويجعلهما يجلسان معا علي مقعد خشبي واحد ولو كان هناك مكان فسيح ٠٠ انه الشيء الذي يجعل شخصين يجلسان ساكنين تماما عندما يكون هناك احد حولهما،وعندما يعتقدان أنه انصرف، راحا يتحدثان عن الزهور والاحلام٠٠ هذا هو كل ماأعرفه عن الحب ٠٠٠ حتى أكبر ! »

ان الكلمتين الاساسيتين هنا هما «حتى أكبر» ، فالسعادة في الزواج تتطلب النضج ، وكل منا عرضة لان يرى « صورة احلام » لما سيكون عليه حبيبه الكامل في يوم ما ٠ واذا ظللت تتعلقين بمثل أحلام الطفولة هــذه تعلقا شديدا ، فانك تبددين وقتـــا وطاقة كثيرين جدا ، وأنت تحاولين تحويل رجلك الي شيء ليس مقصودا له قط٠ كما أنك تستطيعين أن تركزي أفكارك كثيرا على أشياء ليست فيه، بحيث تغفلين عن بعض الاشـــياء الجميلة التى تجعله **من هو** ٠ والنضج ضروري لادراك أن عيوبا معينـة هي جزء من الثمن الذي يجب أن يدفعه أغلب الناس لفضائلهم ٠

اكبري يابنتى ، ولا تندفعى بشدة بالغة ، وابتهلى أن يلهمك الله الصبر٠ مع أجمل تمنياتى لحب ناضج٠٠

أبوك »

دعى الحرية تدق الناقوس

«عزيزتى كارين

«اننى أعمل الآن مع زوجة شابة أصيبت حديثا بصدمة كبري ٠٠ فقد أعلن زوجهـــا أنه يريد أن يخـرج بمفرده ليلة كل أسبوع ، فضلا عن أنها يجب ألا تتوقع منه أن يذكر لها أين كان أو ماذا فعـل ٠ وقد ذكر مطلبه بهدوء قائلا أنه سيمهلها بعض

الوقت لتفكر في الامر !

وكان هذا شيئا قاسيا على «سالى» بصفة خاصة ، فقد تزوجا منذ أقل من ستة شهور ، وقد نشأت هي على فكرة انك اذا تزوجت انسانا ما فان كلا منكما ينبغى ان يذكر كل شيء للآخر ·· ولكنها كانت شابة بارعة، فوافقت على أن تفكر في الامر ، ثم راحت تلتمس المساعدة للوصول الى الرد المناسب ·· وبينما كنا نتحدث، بدأت ترى حكمة البحث عن دلائل في ماضى زوجها تفسر مسلكه هذا ·

وهذا مكان رائع للبدء منه ، عندما يؤذيك شخص ما ، فأنت تعرفين أن الآخرين كثيرا ما يفعلون لك اشياء غريبة لاسباب لا ترجع اليك ، فقد يتصرفون بوحى شيء مكبوت منذ الطفولة ، فيثيرون نزاعا قديما ، او يصارعون من جديد مشكلة بدأت قبل أن يعرف كل منكما الآخر بفترة طويلة ··

وشكرا ، فقد كانت سالى من النضج بحيث أبعدت ذهنها عن جراحها هي وركزتها على جراحه هو ·· كانت تعلم ان زوجها (جيف) كان أصغر أخوة عديدين ، فلم تتح له فرصة مثلها لتكون له حياة خاصة في البيت ·· لم يكن مسموحا له بالاسرار الصغيرة الثمينة للطفولة ·

وكان أبواه يتخذان القرارات نيابة عنه ، بعد فترة طويلة من الوقت الذي يجب أن يتخذها فيه بنفسه ، وفى سنوات المراهقة ، كان يخضع لتحقيق دقيق بعد كل موعد مع فتاة ·· كان أبوه لايثق أساسا في أحد، حتى أفراد أسرته ·

وبينما كانت (سالى) تبحث المشكلة أخذت تفكر في عدد من الاحتمالات، فداعبت رأسها فكرة الثأر منه ، كأن تطالب منه أن يسمح لها هي أيضا بقضاء ليلة في الخارج دون حساب·· ولكنها قررت أن هذه ليست أفضل خطوة تقدم عليها وقالت لنفسها أن هذه قد تبقيه في البيت في البداية ، ولكنها لن تحل المشكلة ، فهو فيحاجة للايمان بأن شخصا ما يضع فيه ثقة مطلقة ، فضلا عن أن قضاء ليلة في الخارج بمفردها سوف تثير ضجرها ·· ثم صرحت بقول قد تودين حفظه وهو : « لقد قررت أنه قد يكون من الحكمة أن أتركه يعتقد أننى كلى ملك له ، وأنه كله ملك لنفسه » ·· ألا ترين أنها ملاحظة عظيمة لانسانة لاتزال في سنتها الاولى من الزواج ؟·· وهكذا أجابته الى طلبه ·· أن يقضى ليلة واحدة

مثيرة في الخارج كل أسبوع دون أن يذكر عنها شيئا لاحد ٠

وقد مضت ثلاثة شهور وهـــذا الامر يجري حتى الآن ٠٠ فمـــاذا تعتقدين أنه حدث ؟

ان جيف يقضي المزيد من هـــذه الليالى «الحرة» في البيت ، أو يأخذ زوجته معه الى الخارج ، وقد نجحت طريقتها السرية جيدا ، حتى أنه بدأ يخبرها عن الاماكن التى يذهب اليها بمفـــرده : دار السينما ، أو لعب البليارد مع الاصـــدقاء ٠٠ وهي وأنا نصدقه ٠ ويمكنك ان تري ان سالي بحرصها كانئني قد اتاحت له الشـــعور بالحرية الذي يحتاج اليه ، ولكنهـــا كانت تجتـــذبه ــ دون أن يدري ــ ليزداد قربا منها ٠

هـــذا تناقض طريف عن «التجمع معا» ٠٠ فهو يجب أن يتضـــمن أي قدر من «الابتعاد» المناسبلكل منكما، واذا سمحت بقدر كاف «للابتعاد» فان له طريقة لاجتذاب «التجمع» بصورة مغناطيسية ٠ وبعبارة أخري انه كلما استطاع كل منكما أن يكون حرا عن الآخر عندما يشعر بالحـــاجة الى الحـــرية ، كان كل منكما حرا مع الآخر في مشاطرة نفسيكما كاملتين٠

دعي ناقوس الحرية يدق ٠

ابوك »

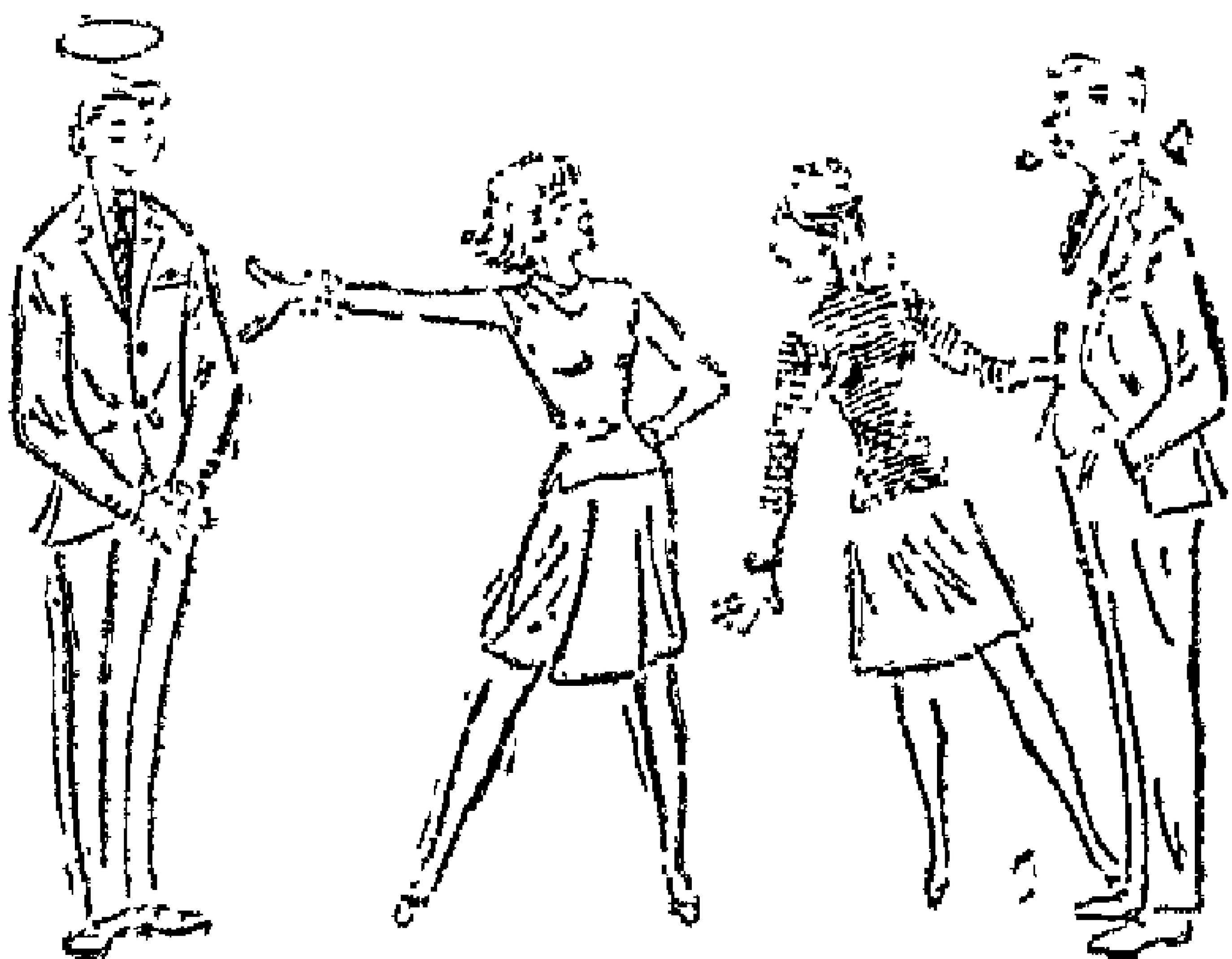
قولى له انه رائع

« عزيزتي كارين

ثلاث كلمات حزينة تصف زيجات كثيرة وهي « توقفا عن التودد» ٠٠ وقد ينتهى التودد أحيانا على الفور٠ وفي أحيـــان كثيرة تنتهى المجاملات تدريجا ، بينما يبدأ كل من الازواج والزوجات في اعتبـــار الآخر شيئا مسلما به ٠٠

« ولو أنك طرقت كل باب في أي شارع معين ، وسألت متى أطري كل منالزوج أوالزوجة الآخر ، فستجدين أن كثيرين من الازواج قل أن يقـــول احدهما للآخر كلمة رقيقة ، ومع ذلك فان الاطراء لايكلف شيئا ، ويجعل الحياة أكثر احتمالا ، وقد يجعـــل القلب يغنى ٠٠

قال لي أحد الازواج السعداء يوما : « ان زوجتى هي أفضل وكيل للدعاية لى» ولكن زوجا آخـــر ــ مظهـــره



كئيب قال لي : « ان زوجتي لاتعرف أي اطراء ، فهي في حالة صيد مستمر بحثا عن عيوبى» •

تذكري ياابنتى أنك تستطيعين أن تحتفظي بحب زوجك للابد اذا تعلمت ألف طريقة مختلفة لكي تقولى له انه رائع٠٠لقد اشتهر زوج صامت عجوز بأنه لم يكلم زوجته طوال ٢١ عاما الي ان حطم الصمت ذات صباح على مائدة الافطار ليقول : « عندما افكر احيانا في مدي ماتعنيه بالنسبة لى ، أكاد أعجز عن منع نفسى من أن اذكره لك ! ٠٠ »

وعندما تذكرين لزوجك انه رائع فمن أهم الاشياء أن تكونى مخلصة في قولك ، وستكونين حكيمة اذا راقبت العلامات التى تدل على أنه يحصل على غذاء كاف لذاتيته ، فاذا كان يميل الى الافراط في مدح نفسه ـ وكثير من الازواج يفعلون ذلك بين حين وآخر ـ فقد يعنىذلك أنه يحتاج الى المزيد من اطرائك •

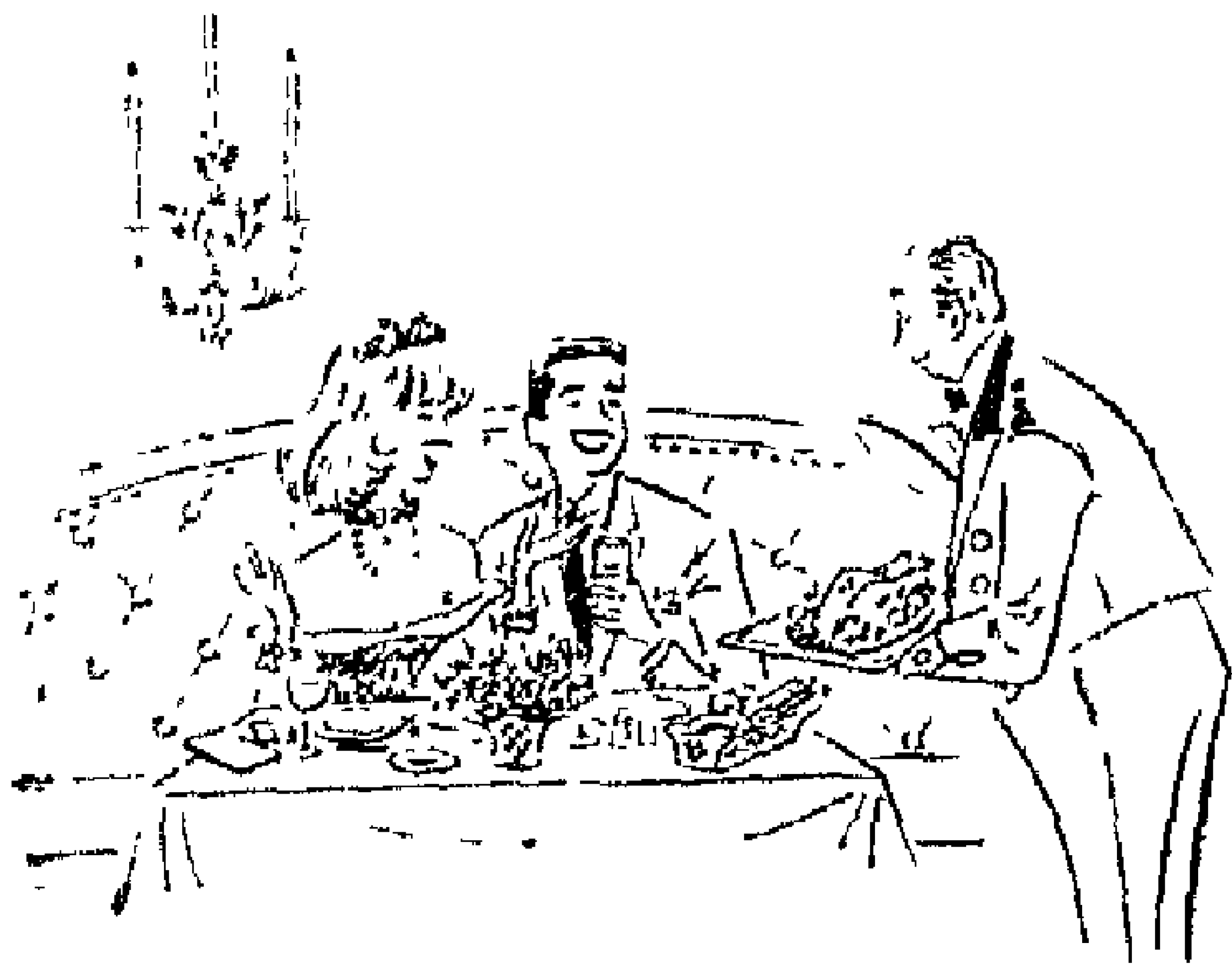
مع كل امنياتى الطيبة لكل الاطراءات الطيبة •

ابوك »

جسر الاتصالات

«عزيزتى كارين

«هل أنتما ماهران في بحث



مشكلاتكما معا ؟ هل تستطيعين مناقشة أحاسيسكما معا ؟ أهناك موضوعات معينة يجب أن تدورا حولها على أطراف أصابعكما ؟٠٠ وامدي براعتكما في ابلاغ أعمق أفكارهما الي بعضكما البعض ؟

ان مثل هذه الاسئلة مفضلة لدي مستشاري الزواج ، فقد أكد لى اغلب الازواج الذين قمت بتزويجهما أن الاتصالات هي أقوي نقاطهما ، ولكن الازواج الذين تزوجوا منذ سنين عديدة ، كثيرا ما يذكرون قصة مختلفة ٠٠ انهم يقولون : ماذا تعني بمناقشة المشكلات ؟٠٠ ان زوجتى أشبه بأبى الهول »

أو تقول الزوجة : « انه لايجيب أبدا ٠٠ بل يزمجر فقط ! » او « ان الحال لدينا أشبه بالزواج من شخص غريب ! » وهذه أقوال مقتبسة بالضبط من أقوال سمعتها في هذا الموضوع •

ماذا تظنين أنه يحـــدث للمحبين الذين كانوا واثقين تماما من قدرتهم على التخاطب ؟٠٠ وماذا تستطيعين عمله لتفادي هذا الانفصال ؟

ان بعض وسائل العلاج الصـغيرة تحدث أحيانا تغيرات كبري ، فأنت تستطيعين أن تضـــيفى الكثير الى حياتك الزوجية ، باعداد ماكنا نسميه في بيتنا «محادثاتنا الصغيرة» وانى علي ثقة منانك ستتذكرين الشيء الطيب الذي كنا نفعله فيبيتنا عندما تعهدنا جميعا بأننا « سوف ندبر الوقت اللازم للدردشة أثناء وجبة المساء ، فنتشاطر اهم اخبار اليوم ونناقشها معا » ٠

وفي احـدي الزيجات التى تفيض حيوية، لدي الزوجوالزوجة مايسميانه «صفقتهما الصغيرة» وهما يقولان انه ثبت أنهـــا من أكبر الصفقات التى عقداها في حياتهما ٠ فقد تعهـد كل منهما للآخر بأن يقضى دقائق قليلة قبلالنوم لتبادل هذا السؤال : «ماهي أسعد لحظة في حياتك اليوم ؟ »

وهناك ازواج اتفقوا على تنـاول وجبـــة واحدة علي الاقل معا كـل أسـبوع ، وهم يدبرون في ميزانيتهم أجرا لجليسة للاطفال ، ويخصصـان اعتمادات خاصة لتناول العشـاء في مكان محبوب لهما ٠٠ ان الاحداث الاجتماعية مع الآخرين لا أهمية لها، ولكنهما في تلك اللحظات التي ينفردان فيهـا ، يركز كل منهما روحه على الآخر ٠

مع تمنياتى لك بتخاطب أفضل٠ أبوك »

عين ٠٠٠ لعين

« عزيزتي كارين

هناك صوت واحد ستكونين علي استعداد له اذا كنت تتمتعين بالحكمة انه صوت صيحة المعركة فحيث يكون هناك شخصان عصبيان يقومان ببنـاء بيت ، سوف تجدين مشادات أحيانا ومواجهة حامية بين حين وآخر ٠

ولكن هذا النبأ يجب الا يؤثر فيك اذا تعلمت كيف تعالجين المسألة، فهذه الحروب الصـــغيرة قد تكون هي ما يحتاج اليه زواجك بالضبط ٠٠٠ ان المشاجرة الجيدة النظيفة يمكن ان تكون دواء واقيا ممتازا لســـلامة صحتك العامة ، فاعدي مدافعـــك بين حين



وآخر ، واستعدي لضجيج المعـــركة عندما تواجه العين العين •

واليك سبع قواعد رسمية للمعركة النظيفة الجيدة التي كنا نسوي بهـــا خلافاتنا انا وامك طوال ٢٦ عاما من زواجنا •

١ ــ قبل البدء يجب ان يوافق كلانا علي ان الوقت مناسب :

تعرف المرأة العاقلة كيف تقـــرأ الاشارات ، وهي أحيانا تهر مع القطط الصغيرة عندما تفضل انتخربش مع القطط • وقد سألت أخيرا فريقا صغيرا من النساء كيف يعرفن اعلام الحـرب التي يرفعها أزواجهن •• وها هي اجابات اربع منهن : « كلما بدأ يلعن حركة المرور ، فهذه اشارة الانذار بالنسبة لي » و « استطيع ان اعـرف ان هناك ما يضايقة عندما يضع كمية كبيرة من الملح علي طعامه » و « اذا ثار ثورة غير عادية علي طريقة كي قمصـــــانه فانه يكون على وشـــك الانفجار » و « ان زوجى يبحث عـن معركة عند الشكوي من الفواتير » •

٢ ــ سنذكر ان هـــدف معركتنا الوحيد هو تفاقم اعمق لبعضنا البعض :

الصبر من المقتضـــيات الضرورية بصفة خاصة • فبدونه تستطيعين ان تدمري في ســـــاعة واحدة ما يتطلب اصلاحه عدة اسابيع •

٣ ــ سنفحص أسلحتنـــا كثيرا للتأكد من أنها ليست قاتلة :

اننى أعمل الآن في عـــلاج زواج فقد الطرفان فيـــه أعصابهما • لقد ارتكب الزوج غلطة صغيرة اذ صاح في غضب : « اننى لم أحب قط النمش الذي يغطى وجهك على أية حال» •

كان النمش يغطى صفحة وجهها، ومع أن وجهها كان جذابا جـدا فى الحقيقة ، فانه كان يضايقها منــــذ أوائل عهد المراهقة ، وكان هو يقول لها دائما انه مولع به بجنون • وأنا واثق من أنه كان كذلك حقا •

ومع أنه اعتذر عن هذه الملاحظة ألف مره ، فقد ظل هناك ذلك القلق الصغير الذي يتسلل الى عقلها فترة طويلة : أهو يحب نمش وجهى حقا كما كان يقسم دائمـــا ؟•• أم كان يقول الحقيقة عندما فقد السيطرة على أعصابه ؟

حتى أتفه الانتقادات عندما يقذف بها الزوج في ثورة فانهـــا قد تكون قاتلة ، وهناك عبارات اتهام معينـــة تحدث ردود أفعال سيئة بطريقــــة آلية •• كأن يقول أحدهما : « انك لم تعد قط الي المنزل في وقت مناسب!» أو « أنك تضعين الاطفال قبـــل كل شيء دائما » • مثل هذه الكلمات

تشعل فتائل خطيرة تؤدي الى المتاعب، وهكذا قرر زوجان ناجحان أعرفهما تفادي هذه الكلمات الخطيرة والغاءها من قاموس معاركهما ٠

٤ ـ سنخفض أصواتنا بدلا من أن نرفعها :

هذه القاعدة ـ ككثير من الاشياء الطيبة في حبنا ـ جاءت من هـدوء أمك ، ففى ماضينا العاصف كنـــا نصرخ عندما يزداد غضبنا ، ويرتفع صوتنا كلما تزايد الغضب والسخط٠

لقـد أخبرتك كيف احببت صوت أمك قبل أن أري وجههـا ٠٠ كانت تلقى احدي المقطوعات في فصلنا الكبير بالمدرسة الثانوية بينما كنت أنا أحدق من النافذة في كسل ، ثم تسلل الى أذنى صوت سلام عميق كأنه صوت ملائكى ناعم٠٠ وتطلعت الى مصدره، وعندئذ أقسمت على شيء : اننى لو بدأت أفكر في الفتيات كثيرا فستكون هذه هي أول فتاة أفكر فيها كثيرا !

وأنت تعرفين الباقى ٠٠ فعنـدما بدأنا توددنا، أحسست كأن شيكسبير كان يعنيها عندما قال : كان صوتها دائما ناعما رقيقا خفيضا ، وهو شيء رائع في المرأة ٠٠

ولكن ـ كما هو الحـال مع كل المحبين ـ جاءت أول ساعة غضب، وبدأت أصـــرخ ٠٠ وأوقفتنى هي قائلة أنها تعرف طريقة أفضل ٠٠ ثم قالت بهدوئها الداخلى : « لماذا لانتفق من الآن على أننا عنـدما نتشاجر نخفض صوتنا طبقة بدلا من أن نرفعه طبقتين ! » كانت مشاجرة مهيبة٠٠ ولكنها أثمرت !

٥ ـ لن نتشاجر أبدا امام الناس ، أو نكشف مسائلنا الخاصة أمامهم

هناك نقطة فرعية لهذه القاعدة٠٠ فقد اتفقنا أيضا على ألا ينقد أحدنا الآخر علنـا اذا لم نكن معا ٠ وقد عرفت عددا قليلا جـدا من الرجال الذين يستطيعون أن يصفحـــوا عن زوجاتهـــم لانهن اعتنبهم من وراء ظهورهم ٠

٦ ـ سوف نبحث عقد هدنة كلما صاح أي منا : «قف»

ها هي خطوة نحو الهدنة قبل أن تفشل معنا وتتلخص كما يلى : «لقد أدرك ماتعنيه ولكنى أحتاج الى بعض الوقت لكي أفكر في المســألة ٠٠٠ فأرجوك أن تهدأ الآن لاستطيــع أن أفكر لحظة فيما اذا كنت على حق (ويمكن أن يكون كذلك كما تعرفين)٠

٧ـ عندما نصل الى اتفاق، فسوف نطرح المسألة جانبا حتى نتفق معا علي انها تحتاج الي المزيد من المناقشة:

هل لاحظت هذا «التجمع» في تلك القاعدة أيضا ؟.. لو أن عينا تألقت كثيرا في فترات الانتظار ، فسيكون من الافضل أن تبحث المسألة ، وربما أخرجت المشكلة لاعادة النظر فيها ، ان من أعظم نواحى التفاهم غير المحدود في أي علاقة بين الزوج وزوجته ، هي ان كلا منكما يستطيع أن يحب الآخر ، ولو كانت هناك أشياء لاتحبينها هنا بالضبط .

ولعل أهم ثلاث كلمات في الزواج بعد كلمة «أحبك» هي الاعتراف المتواضع بقول «آسف ياحبيبى» .. ويقول بعض خبراء المسائل الزوجية ان سر النجاح في البيت هو تغيير نسبة المشاركة المعتادة من ٥٠ ـ ٥٠ الى ٦٠ ـ ٤٠ ويقولون انه عندما يكون كل عضو في الزواج على استعداد للسير الى أكثر من نصف الشوط ، فسوف ينجح هذا الزواج .. وتنطبق حكمتهم بصفة خاصة على الاعراب عن الاسف .

واصلى المعركة بشرف ..

أبوك »

لماذا يضل الازواج ؟

«عزيزتى كارين

منذ سنوات تخلى شخص من الزعماء في كنيستنا عن زوجته ـ وهو أب لفتاتين ناضجتين ـ وتزوج عاملة المصعد في المبنى الذي يعمل به .

ولم أكن الوحيد الذي ذعر من ذلك ، فقد ذهلت كل البلدة عندما صفى عمله الناجح وانتقل الى ولاية أخري ، ومرت فترة بدا فيها أنه ليس هناك شيء آخر تتحدث عنه البلدة.

وكنا من أقرب الاصدقاء.. وعندما جاء يودعنى ، عرض علي التفسير التالى .. قال : «شارلى : لست أتوقع منك أن تدرك ، ولكن دعنى أخبرك كيف بدأت المسألة .. كنا وحيدين ذات يوم في المصعد . وقبل ان تفتح لي الباب امام طابقى مباشرة وضعت يدها على ذراعى وقالت لى: « أرجو ألا تظن أننى جريئة . ولكنى أردت أن تعرف أننى أعتقد أنك أرق الرجال في هذا المبنى كله . لقد رأيتك منذ أربع سنوات وأنت ترفع قبعتك للسيدات في ابتسامة ، وكنت تفعل ذلك بطريقة مختلفة عن بقية الرجال ، اذ كان الامر يبدو منك وكأنه صادر من القلب ، وقد أردت فقط أن أشكرك لانك هكذا » .

وعلى مر الاسابيع ، بدأ كل منا يري الآخر .. واكتشفت ماكانت تعنيه عندما قالت أنها تزوجت قبل ذلك مرتين ، وقالت : « لقد عاملنى

الرجلان كأنني شيء لا مخلوقة» وقال لي الرجل ان هذه الكلمات أشعلت في قلبه النار ، لان هذا هو الشعور الذي كانت زوجته تبثه في نفســـه فعلا ٠٠ كان زوجا مخلصا وابا طيبا، ينفق عن سعة ، ولكن كان هنـــاك عنصر واحد ينقص زواجه ٠٠ وقد وصفه لي كما يلي :

« ان زوجتي لم تكن تحبني من اجل ذاتي ، بل كانت تحبني من أجل نفسهـا ٠٠ كانت تستغلني» وكذلك كانت تفعل ابنتاي ، ولم أدرك ذلك الا بعد أن التقيت بقلب خال آخر ٠٠ كم يكون ألامر رائعا اذا وجدت من يحبك لانك أنت ! »

هذا ماقاله لي الرجل ، الذي تخلى عن مركزه الاجتماعي وعمله وزعامته ومستقبله المضمون ، فأدار ظهـــره لكل ذلك من أجل عاملة مصـــعد أحبته لذاته ، لا من أجل ماتستطيع الحصول عليه منه ٠

ومنذ تلك التجربة الاولى المذهلة، رأيت الشيء ذاته يحدث عدة مرات، ومن ثم قررت ان أنقل اليك تفسير الزوج الهـــارب عن سبب رغبته في التخلي عن كل شيء لكي يبـدأ من جديد ٠

لعلك تجدين في هذا شيئا جديرا بالتأمل ٠٠

أبوك »

يحيا الاختلاف

«عزيزتي كارين

«يبدو أن أزواجا كثيرين ينسون أن أحدهم رجل والآخر سيدة ، وأن مظهر كل منهما تطبعه هذه الحقيقة الواضحة ٠٠ فالرجل مثلا يحتمل أن يكون موضوعيا شارد الذهن ، كما أن الرجال يميلون الى تركيز اهتمامهم خارج البيت ، بينما تركز النســـاء اهتمامهن أكثر على الاسرة ٠

ولما كان هذا صحيحا ، فمن الايسر لكثير من الرجال أن يفسروا عالمهم بطريقة غير شخصـــية ، وقد تعلم بعضنا بالطريقة الصـعبة أن النساء كثيرا مايأخذن المسائل بطريقة أكثر شخصية من الرجال ٠

وعندما تعملين مع كلا الجنسين عن كثب ، فسرعان ماستكتشفين أنك تستطيعين التعـــامل بصراحة وعلى المكشوف مع أغلب الرجال ، وأنهـــم يعاملونك على نفس الاســاس ، ثم تذهبان معـا لتناول القهوة كأحسن الاصدقاء ٠٠ أما التعامل مع النساء فانه يتطلب طريقة أخرى ٠ ان كثيرا من المبتدئين (وأنا أتكلم عن تجربة)

قد نزعوا بعض التروس المهمة من الآلة قبل ان يتصدوا للخلاف ٠

ان الزواج السعيد يعتمد من ناحية على مراعاة هذه الخلافات الجوهرية، بل انك تستطيعين تعلم كيفية تقدير أمثال هذه الاشياء وجعل كل منهما يكمل الآخر في زواجك ٠

وسيعرف هذا أيضا من اندفاعك عندما لايشاطرك «فنسنت» حماستك للاقمشة الجديدة على الفور ، أو يطير فرحا مثلك عندما تظهر أولى أسنان طفلكما ٠ وما قد تفسرينه انت على أنه استخفاف من ناحيته ، قد يكون مجرد انعكاس لطبيعته كرجل وأنت كامرأة ٠

والآن دعينا نعزو هذا الى حياتك الجنسية :

ان الجنس بالنسبة لازواج كثيرين يبدأ بخيبة أمل عامة ، ويمضى لكي يصبح شيئا محطما متكررا ، وفى النهاية لا طعم له تماما ، وبعض الزيجات المضطربة ، أصبحت كذلك ، لان الزوج والزوجة لم يواجها قط هذه الحقيقة : ان هناك خلافات طبيعية بين الذكر والانثى ! فما هي هذه الخلافات ؟

هيا بنا نفحص ناحيتين من هذه الخلافات المهمة :

١ ـ قد يكون للجنس معان اعمق بالنسبة للمرأة مما له بالنسبة للرجل ٠٠

وقد يثير هذا دهشتك لاول وهلة٠

ومن الشكاوي الشائعة لدي الزوجات قولهن: «يبدو أن كل مايفكر فيه زوجى هو الجنس٠٠» ولكن سيطرة الجنس البادية على عقل الرجل لاتدل على أنه يعنى بالنسبة للذكر أكثر مما يعنى بالنسبة للانثى، بل انه على النقيض قد يعنى العكس، فحافز الرجل الجنسى ذو طبيعة اكثر مادية وسطحية في حين أن حافز المرأة قد يكون أكثر عمقا، فهو مسألة تتعلق بالنفس والروح ٠

ولقد ذكرت لى زوجة صغيرة رقيقة شيئا اود ان تشاركيني فيسماعه ٠٠ كانت هي أيضا تشعر بالرهبة من شهية زوجها الجنسية التى تبدو وكأنها لاتشبع ٠٠ ومن سوء الحظ أنه كان واضحا أيضا أنه كان شخصا صبيانيا قليل الذكاء في الوسائل التى يتبعها معها ٠

وهكذا ناقشنا فكرة الخلاف بين الجنسين، فقالت في ألم : « اعتقد أننى كنت أفكر بطريقة خاطئة ، فقد اعتقدت أن الجنس يمكن أن يبدأ منذ الافطار ، ويتجمع خلال النهار ، ثم

ينفجر في الفراش ليلا ! »

والحقيقة أنها كانت على صواب في تحليلها ١٠٠٪ فيما ينبغى أن يكون، ولميكن في استطاعتها ان تقول افضل من ذلك ، فهـــذا مايجب أن يكون بالنسبة لاغلب النساء ، والرجل الحكيم هو الذي يتعلم هذه المهارة ، ويسعى ليصبح فنانا عند العزف على أوتار قلب زوجته ..

اننى أتمنى لك مثل هذه الخبرة الفنية .. ولكن مثل هؤلاء الرجال نادرون ، وهذا يؤدي بنا الي الاختلاف الثانى الذي يجب أن تعرفيه وهو :

٢ ـ ان أغلب الرجال يحتاجون للجنس أكثر من أغلب النساء

لا يمكن وضـــع قاعدة يستطاع تطبيقها على كل زواج .. فعدد مرات الاختلاط الجنسى شىء يجب أن يتفق عليه كل زوجين ، ولكن من الزيجات التى واجهتنى في الاستشارة ، يبدو واضحا أن عـــدد المرات يهم الرجل أكثر في العـــادة ، بينما تهتم المرأة اكثر بكيفية الحدوث .

ومع ذلك فمهما كان عدد المرات، فان الشىء الرئيسى هو أن تصلى اليها بطريقة بهيجة ولا استثناء لهذه القاعدة . فأنت تكونين زوجة حريصة عنـــدما تنظرين الى الجنس ـ من ناحية ـ باعتباره فرصة أمامك لكي تكونى متعة لزوجك . والمرأة الرقيقة تدرب نفسها لكي تتلقي قدرا كبيرا من الرضاء بمجرد ارضاء رجلها .

وثمة كلمة واحدة أخيرة : ان أغلب الشبان يدخلون الزواج بمخزون كبير من خيبة الامل تجمع خلال ســـنوات نموهم . وهذا السبب في أنه من المهم بالنسبة لك الامتناع عن انجاب الاطفال بسرعة بالغة .. فسيكون لابنك أم وأب أفضل اذا قضيت أنت وفنسنت وقتـــا أكثر في دراســـــة كل منكما للآخر ، وأفاض كل منكما حبه على الآخر دون تنافس خـــــلال السنوات القليلة الاولى .

مع شكري ..

أبوك »

القديس والخاطئة الصغيرة الحلوة

«عزيزتى كارين

«لقد وصف أكمل شريك لحياة أي رجل بأنها «ملاك في البيت وشيطان في الفراش» ولكن النساء اللواتى عرفتهن ممن يمكن أن يوصـــفن بمثل هـــــذا الوصف هن أقلية ، وأنا عكسهن كثيرا خلال الاستشارات . ان بعضهن يعلن فيزهو : « اننيلاارفض طلبه أبدا .. » والواقع أن هذا قد يكون أسوأ شىء

تستطيعين قوله عن زواجك • فان أي رجل يتملكه الضجر اذا كان عليه أن يتخذ هو الخطوة الاولى •

ومن ثم فهيا نبدأ بهذه النقطة ، وسأقدم لك بعض اشارات عن الكيفية التى تصبحين بها «الشيطانة القديسة الصغيرة» التى تستطيع أن تجعل من رجلها الرجل الذي تريده :

١ـ كونى عدوانية من الناحية الجنسية أحيانا :

لاتنسى أبدا ان الزوج يريد انيكون مطلوبا • وزوجك يتلهف الى الاعتقاد بأنه رائع بالنسبة لك الى حد أنك تشعرين أحيانا برغبة في اتصال جنسى معه • ويهم الرجل كثيرا ـ اذا كان له بيت ـ أن يعرف أن قيمته فيه لاتقدر كرجل ـ وسوف يستطيع زوجك أن يصمد أكثر فى هذا العالم القاسى اذا أقنعته أنت بأن هناك مكانا عاطفيا ينتظره ، له فيه أهمية حيوية •

٢ـ لاتخافي التجربة والتنوع :

ان الجنس يجب ان يكون متعة • فاذا أردت أن تكتشفى أجمل مباهجه، فلابد من أن تقبلى على هذه العلاقة على اعتبار أنها غير محرمة وذلك قدر استطاعتك ، ويجب أن يمنح كل منكما الآخر الحرية للتمتع بالآخر بأية طريقة تكون طبيعية لكما معا.

٣ـ احتفظى بجسمك في حالة مغرية :

كنت أزور احدي أعضاء كنيستى في الخامسة بعد ظهر ذات يوم ، عندما وقفت السيدة فجأة وقالت لى: «والآن •• هل تسمح لى يادكتور شيد ؟•• ان جون سيعود الى البيت بعد نصف ساعة ، وأنا أقضى دائما الدقائق الثلاثين السابقة لوصوله فى اعداد نفسى لاستقباله» •

لقد فعلت ذلك بطريقة طبيعية جدا •• وعندما أدركت أنها طلبت منى الرحيل ، احمر وجهها خجلا واستولى عليها الارتباك •• أما أنا فلم أرتبك •

وبينما كنت أقود سيارتي عائدا الي البيت رحت أفكر : كم يكون عالمنا أفضل مماهو لو أن كل زوجة أمضت هذه الدقائق الثلاثين بهذه الطريقة•• ولابد أن أضيف أيضا أن لهذه السيدة ذاتها خمسة أطفال ، وكلهم في سن المدرسة •• ولا تسأليني كيف استطاعت أن تنظمهم لهذا الامر ، فانني لست امرأة ، ولكنني اعرف ان زوجها يحبها حبا بالغا •

قد يقول فنسنت أنه سيظل يحبك مهما بدا مظهرك ، وقد لا يبدو أنه

يهتم اذا أصـــــبحت بدينة ، وكان مظهرك مبهدلا ، ولكنك فتاة جميلة ، وليس هناك ما يدعو لعدم قدرتك علي ابقائه فخورا بشكل زوجته فـــترة طويلة ٠

وعليك أيضا أن ترتدي أجمـــــل ما لديك ٠٠ وفي أوائل اشـــتغالي بعملي ، قدم لي زميل يكبرني سـنا هذه النصيحة الابوية قال : « يجب أن توفر نقودا بطريقة ما ٠٠ ولكن هنـاك مكانين يجب ألا تدخر فيهما ابدا ٠٠ لا تحاول ان توفر من الطعام أو ملابس النساء الحريرية ٠٠

ان هذه النصيحة الحكيمة قدمهـا لي قديس أرمني ، كان لديه ٥٠ عاما من الحب يسند أقواله ، فقد خلقت الانثي من البشر ذات قوي للاغراء ، أفسدها الاثمون ، وأضر بها الكتاب الاخلاقيون علي مر السنين ٠٠ فهل تعتقدين أن العالم لم ينضج بعد لكي يعرف هذه الحقيقة ، وهي أنالنساء قد خلقن بهذه الطريقة ، لانهاالطريقة التي يطلبهن فيهـا الرجال في الوقت والمكان المناسبين ٠

مع آمالي الكبار في نشوة سماوية

ابوك »

هذه الجنيهاتالكبيرة العظيمة الجميلة

« عزيزتي كارين

لقد كنا نعيش ـ كما تعرفين ـ في بيتنا وشعارنا في النقود هو :

اعط ١٠٪ وادخـــر ١٠٪ وانفق الباقي بالشكر والثناء ٠

ولم نأسف قط علي اليـوم الذي اخترنا فيه هذا القرار ، رغم أنبعض المبـــادیء التي تتخذ في وقت مبكر تختلف في السنوات التالية اختـــلافا كبيرا ٠

هذا الالتزام بالتخلي عن ١٠٪ من دخلك ليس من أجل القلوب الضعيفة ٠٠ وعنـــدما تتسلمين أول مرتب ، ستجلســين وتحســـــبين فواتيرك ، وستجدين مايغـــريك بالانضمام الي الفريق الذي يقول : « ان مشكلتنا لا تختلف عن مشكلة اي شخص آخر »

وقد تقولين لنفسك : « عنـــدما نحصل علي المزيد ، سنعطي المزيد» ولكنك لن تفعلي فهـذا شيء اما أن تفعليه أو لا تفعليه ٠

والواقع أن قرار التنازل عنالعشرة فيالمائة قد يكون في البـــداية عامل سلامة عندما يأتي يوم رخائك وتبدأ ثمار عملك في النضج ٠

وتوفير هذه العشــــرة الثانيـة سيتطلب أيضا نظاما صارما ، ولكن هناك اسبابا عديدة تجعله جديرا بما يبذل من أجله ٠٠ فانه يمكن أولا أن

يحول دون الوقوع في أخطاء حمقاء من الاسراف في الانفاق ، وسيمنحك شعورا بارتياح قوي اذا عرفت أنك انما تؤمنين مستقبلك وان الايام العاصفة لن تفاجئك علي غير استعداد أو مصاريف تعليم ابنتك ، أو الرحلة التي تحتاج اليها لتوسيع آفاقك ·· ولا حتي زفاف ابنتك المحبوبة ·

والعمل علي أساس مبدأ محدد يمكن أيضا أن يحرر ذهنك حتي تستطيعى تركيزه بجلاء اكثر لاداء عملك بطريقة افضل ·· ان الوقت الذي قد تبددينه في القلق تستطيعين الان تكريسه لمزيد من الكفاءة تضمن أساسا جوهريا لمستقبلك ·

تطلعي دائما الي أعلي

ابوك »

انظري أحيانا الي الخارج

« عزيزتي كارين

سمعت حديث طبيب نفسى يقدم تقريرا هاما عن الصحة العقلية · لقد نصح أحد مرضاه بأن « يفتح بعض النوافذ في «ذاتيته» وقال له : «يجب أن تفعل ذلك لا للسماح للشمس بالدخول فحسب ، بل لكي تتيح لعينيك فرصة النظر الي الخارج ·· فقد نسيت أن في العالم أشخاصا آخرين » من الخير لك انت وفنسنت أن تكونا ذوي اكتفاء ذاتي ، ولكنك أيضا يجب أن تصادقي أشخاصا آخرين وتشاركيهم في حبك ، فهذا سبب من الاسباب الكبري التي وهب لك القلب من أجلها ·· وأريد أن تضعى أقاربك وأصهارك بين أصدقائك ، وأنا أعلم أن هذا قد يشكل أحيانا مشكلة، ولكن كلما وجدت اغراء لوضع أقاربك او أقارب زوجك في مكانهم ، فذكري نفسك مرة أخري أن ما يهم بعض الناس ، هو الشيء الذي لا تقولينه ·

واذا كان زواجك سليما ، فانك سوف تودين أيضا أن تكوني مفيدة للمجتمع الذي تعيشين فيه ، والمثل الاعلي هنا هو أن تسعى لايجاد توازن سليم بين الخدمة العامة والالتزامات الخاصة ·

انني أرجو أن تعرفي مدي التأثر الذي يشعر به أولئك الذين يتركون هذا العالم أفضل مما وجدوه ·

ولتكن أفكارك جريئة باسلة

ابوك »

أعظم منكما معا ··

« عزيزتي كارين

هاهو شيء لاحظته مرات لاتحصى خلال مشاوراتي مع الاخرين ·· انه مفتاح المفاتيح للحب في أفضل حالاته المشرقة ··

ان الزوجـــــين اللذين فهما أن اتحادهما هو لشخص اعظم منهما معا، اكتشفا البداية الســـرية للزواج في احسن صوره ٠

لقد سمعت أخيرا أحد رجال الدين من المهتمين بالرياضات وهو يتحدث في الاذاعـــة ويردد بعض الاقـــوال الطريفة ، فقال ان هناك زواجا بين كل أربعة ينتهي بالطلاق ٠ وقال ان نسبة البيوت المحطمة بين الاسر التي تتردد علي الكنيسة بانتظام هي واحدة بين كل ٥٤ ٠٠ ثم قال ان المعـدل يصل الي واحد في كل ٥٠٠ بين الاسر التي يصلي أفرادها معا ٠

انه لم يذكر من أين استقي هـذه الارقام ، ولكنني بعد سماع حديثه، أجريت تحليـــــلا من وحي تجاربي الخاصة ٠ انني أقدر انه في خلال ٢٠ عاما جاء الي أكثر من ٢٠٠٠ زوج وزوجة بمشكلاتهم لاستشـــــارتي ، وكانت مشكلاتهم تتراوح بين أشـياء تافهة ، ومشكلات صاخبة ٠٠

والآن اسمعي ما يلي : انني لم أر قط زوجين أو أحدهما يجيء الي بمشكلة اذا كان الاثنان يصليان معا (هناك عدد قليـــل لعله ١٢ فقط ، قالوا لي « لقد اعتدنا ذلك») ٠

ان تعلم الصلاة معا يتطلب وقتا، أسوة بكل الاشياء الطيبة في الزواج، ولكنهـــا ذات فائدة ٠٠ ان الله هو الحب ، وأنتما تعتقدان أنه هو الذي ألف اتحادكما معـا ، ومن ثم فانه كلما زاد عدد القنوات التي توجدانها والتي يمكن لحبـه الالهي أن يتدفق منها الي حبكما الانساني ، كان حبكما أعظم ٠

ان ما أقوله هنا ليس مجرد نظرية، فقد رأيت مرة بعـــد أخري زيجات كان يبدو أنه لا أمـــل فيها مطلقا ، فبعثت فيها الحياة عن طريق الصلاة الصامتة للزوج والزوجة معا كما أنني أتحدث عن تجربة شخصية ، فقـــد كان العمل الذي قامت به أمك عندما تزوجتني عمـلا عظيما ، اذ سرعان ما اكتشفت أن شخصيتي تحـــوي كثيرا من النفوس المتحاربة ، وكان التحدي الذي واجهته ، هو أن تجتذب رجلا خشنا شارد الذهن وتوحـــــد شخصيته وذلك بهدوئهـــا الداخلي ونعومتها وأنوثتها الرقيقة ٠

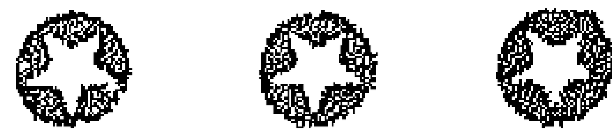
وأنت تعرفين كيف فعلت ذلك ٠٠ أليس كذلك ؟ لقد كنت ارقبها وهي جالسة في الصباح مع كتابها المقدس وكتبها ٠٠ وكانت تسمي ذلك «وقتها الهاديء» وقد أدركت أن صفاء روحها انما كان ردا علي ارتباكي ٠٠ وسألتها ذات

يوم في يأس أن تقودني أيضـــا الي جوار «المياهالساكنة» وهكذا صحبتني معها الي مدرسة صـلاتها ، وكانت تلك هي الطريقـــة التي عرفت بها بنفسى ان هذا مفتاح المفاتيح ٠

واليوم ــ وبعـــد ٢٦ سنة من الزواج ــ ما أزال أكثر شعورا بهزة وجودها أكثر من احسـاسى بها في أي وقت مضي ٠ وعندما التقي بها فجأة وسط جمع ، يبدو وكأن أغنية سارة صغيرة تنبعث من مكان ما في داخلها ٠٠ وعندما تلتقى عيناي بعينيها أمام الناس ، يبدو وكأنها تعلق فيها لافتة تحمل الكلمة الملهمة التي أحتاج اليها في ذلك الحين تماما ٠٠ وعندما أقود سيارتي في المساء ، فانني أوجه إهتمامي من دواســـة القدم حتي لا أقودها بسرعة بالغة عندما اقترب من المـــنزل حيث تنتظرني ومازلت أشعر بأكبر هزة في جســدي عندما تنــدفع من أي مكان تكون فيه لكي تستقبلني وعنــدما أنظر الي الطريق وأري رجلا وســـيدة كهلين يسيران وقت الغروب وقد تشابكت أيديهما ، أدرك في قلبي أن النهـــاية ستكون أفضل كثيرا من البداية ٠

ولاأستطيع أن أتمني لفنسنت نعمة أكبر من هذه ٠٠ ان تقوده زوجته كما قادت أمهـــــا أباها الي الغرفة السرية للمشاركة المقدســـة ، حيث تمتزج حيــاة شخصين في وحـــدة مقدسة ٠٠

مع كل ابتهالاتي
ابوك »



سخاء !

تطلعت السيدة العجوز حولهـــا فى محطةالســـكك الحديدية تبحث عبثا عن احـد الحمالين ، ثم شاهدت اثنين منضباط البحرية يتحدثان معا على مقربة منها ، فقـــالت لأطولهما قامة :

ــ هل تتكرم أيها الشاب بحمل حقائبىالى الرصيف رقم واحد ؟

وغمز الضابط بعينه لصديقه ، ثم حمل الحقائب ، وصحب السيدة حتى صعدت الى قطارها ..

وعندما دست فى يده قطعة من ذات الشلنين ونصف شلن ، قال لها :

ــ انك سخية جدا ياسيدتى .. ان نصفشلن يكفى

فقالت العجوز وقد تألقت عيناها :

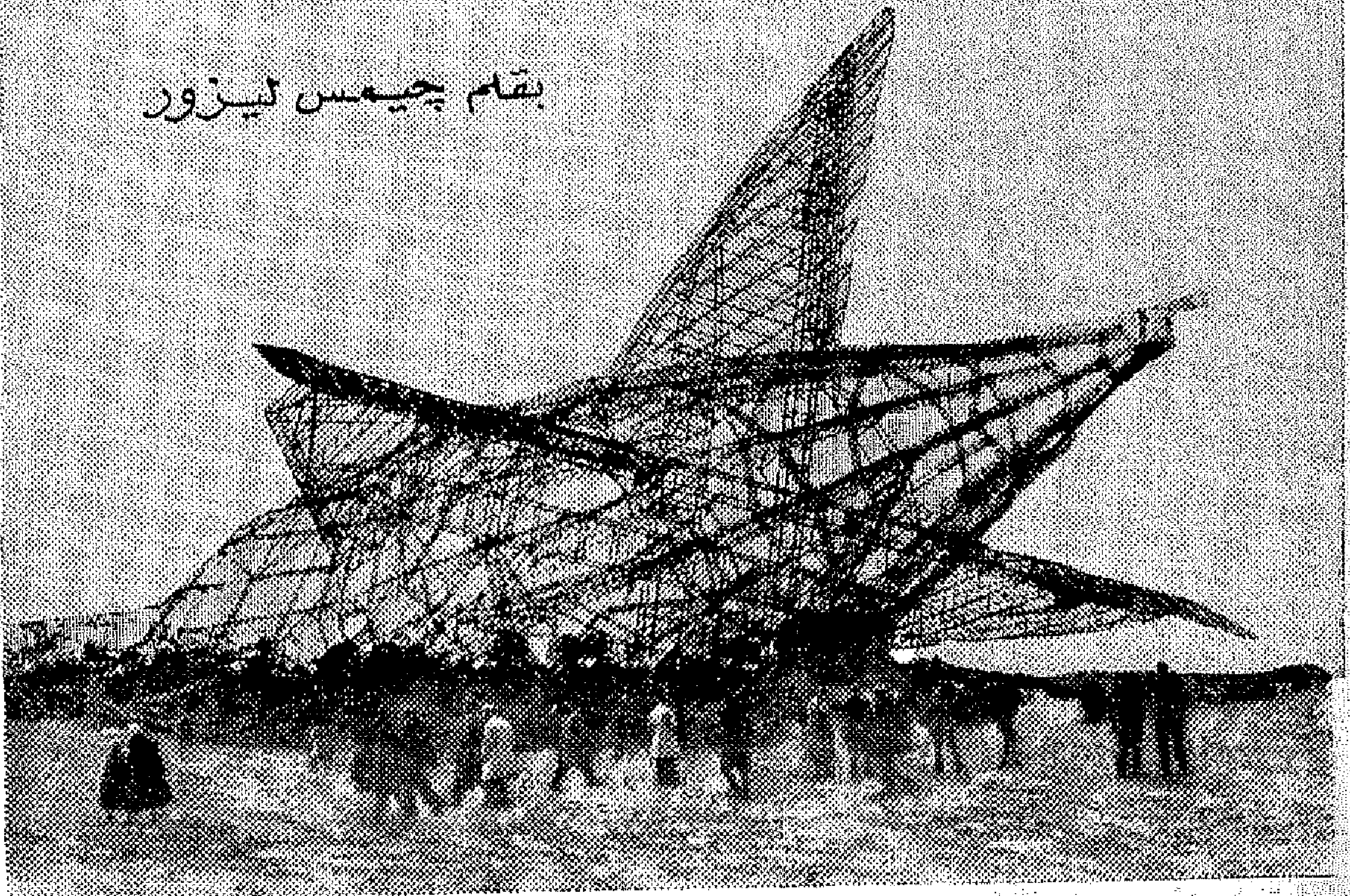
ــ لم أستطعأن أعرض عليك نصفشلن . فانك تبدو وكانك صف ضابط لامجرد حمال!

كتاب الشهر

واحد في المليون

عن كتاب *The Millionth Chance*

بقلم چيمس ليزور





((عندما تم بناء المنطاد البريطانى الشهير ر-١٠١ قالوا قبل بدء رحلتـه الاولي انه اكبر واغلي وأمتن منطاد في التاريخ .

وقال وزير الطيران البريطانى أنه أكثر أمانا من المنزل .. وأن فرصة سقوطه أو احتراقه واحد فى المليون !)) ...

واحد في المليون

ظل الناس يتوافدون طوال اليوم علي مطار كاردنجتون ليروا المنطاد الكبير عند رحيله على الرغم من أنه لم يكن سيرحل قبل المساء ، وما أن وافت السادسة من بعد ظهر هذا اليوم الكئيب ، يوم السبت ٤ أكتوبر ١٩٣٠ حتي كانت الطرق قد أصبحت مسدودة منذ ساعات بوساطة حركة المرور ، وقد وقف حوالي ٦٠٠٠ شخص ينتظرون في توتر مثير .

وفوقهم جميعا ، تعلق المنطاد الفضي الذي يشبه الطوربيد ، يلمع في وهج شديد من عدد كبير من الانوار الكاشفة ، طويلا فاخرا كأنه عابرة محيطات .. أكبر شيء يمكن قيادته في العالم : انه منطاد صاحب الجلالة ر ـ ١٠١ على وشك القيام برحلته الاولي الي مصر ومنها الي الهند . ولو قدر لهذه الرحلة النجاح، لكانت الاولي في خط جوي بريطاني منتظم يجعل الاسماعيلية ـ بمصر ـ علي مسافة يومين ونصف يوم فقط من لندن ، وبومباي علي مسافة خمسة أيام .. وسوف يقوم المنطاد ر ـ ١٠١ في النهاية وهو يخوض عباب السماء بسرعة ٨٠ كيلومترا في الساعة دون مشقة ، باحاطة الامبراطورية برحلات منتظمة بين بريطانيا واستراليا وكندا .

وكان صاري المرسى الذي قبع المنطاد في أعلاه عبارة عن هيكل معقد من دعامات حديدية متقاطعة بنيت على غرار برج ايفل ، وكان الفريق الارضي يجسرون فى اهتمام صاعدين وهابطين درجات السلم الحلزوني التي يبلغ عددها ٢٠٠ درجة ، وأحذيتهم تدق علي الدرجات المعدنية العارية ، بينما صعد غيرهم من الركاب البارزين والموظفين في المصعد باحترام .

وعلي ظهر المنطاد ، وجدوا أن المسئولين لم يدخروا وسعا لجعل مقصورات الركاب مريحة كأفخر الغرف في السفن عابرة المحيطات . كانت قاعة المدخل تؤدي الي استراحة

كبري مطلية باللونين الابيض والذهبي، تتسع لمائة شخص ،وفي الطرف الاخر من الاستراحة التي وضعت في أركانها أشجار نخيل داخل اصص ضخمة ، توجد ثلاث درجات تؤدي بك الي سطح للنزهة يستطيع الركاب الجلوس فيه فوق مقاعد تشبه تلك التي توضع علي أسطح السفن الكبيرة ، ويتطلعون الي أسفل من خلال نوافذ طويلة واسعة من السليلويد ليروا البلاد التى يحلقون فوقها .

وبالاضافة الي ذلك ، فقد كان المنطاد (ر-١٠١) فريدا في نوعه ، اذ كانت به غرفة خاصة للتدخين ، وهناك يستطيع الركاب والضباط أن يجلسوا في أمان بين ذراعى مقاعد مريحة ويتمتعون بتدخين غلايينهم وسجائرهم وسيجارهم ، يحيط بهم ١٥٥ الف متر مكعب من الهيدروجين الذي لا يشتعل ، ولا يفصلهم عنه الا أكياس رفيعة من الغاز ، وحواجز من المعدن .. ومع ذلك فان كل من صعد الي ظهر المنطاد كان يجري تفتيشه بحثا عن الثقاب الذي كان ممنوعا منعا باتا .. وفي غرفة التدخين كانت توجد ولاعات للسجائر ومنفضات للسجائر ، ولكنها كانت كلها مقيدة بالسلاسل الي الموائد حتي لا يستطيع أحد أن يحملها سهوا الي مقصورته ليدخن سيجارة أخيرة في الفراش .

شكوك واختلافات

وضع تصميم المنطاد ر-١٠١ لكي يحمل ١٠٠ راكب ، ولكنه في رحلته الاولي لم يأخذ غير ١٢ راكبا بالاضافة الي خمسة ضباط و ٣٧ من الملاحين . واشترك في الرحلة ٦ من المسئولين في مصانع الطائرات الملكية في كاردنجتون التى قامت ببناء المنطاد ، أما الستة الاخرون فقد كان أبرزهم لورد طومسون وزير الدولة لشئون الطيران بوزارة رامسى مكدونالد العمالية الذي أحضر معه خادمه الخاص ، وسير سفتون جرانكر مدير الطيران المدنى .

وصل سير سفتون الي كاردنجتون في حالة نفسية طيبة ، وكان كثيرون من الضباط يحملون خوذات رأس متينة أعطيت لهم للوقاية من شمس مصر ، وتبادل سفتون المزاح مع البعض حول هذه المعدات التي تشبه روايات كبلنج والتي لا تلائم عصر يوم من أيام أكتوبر في انجلترا .. ولكنه رغم كل هذا المرح ، كانت الشكوك تساور برانكر حيال الحكمة

من القيام بهذه الرحلة بصفة خاصة ·

وبينما كان العمل يجري ليـــــلا ونهارا طوال الشهر السابق في مطار كاردنجتون لاعـــداد المنطاد ر-١٠١ لرحلة الشرق ، كان القلق يزداد لدي برانكر ، وقائد الجناح كولمور مدير انتاج الطائرات خوفا مما قد يقع ، اذ كان المنطاد في رأيهما غير جدير حقا بالطيران ، وكانا يطالبان بمزيد من التجارب قبل الذهاب في مثل تلك الرحلة الطويلة عبر جبـــــال الالب الثلجية ، وصحراء مصر الحارقة ·

وفي يوم الخميس السابق علي يوم رحيل المنطـــــاد ، زار برانكر لورد طومسون بوزارة الطـــيران وأفضي اليه بشكوكه ، ولكن طومسون رفض الاستماع اليها وقال انه وعد بالسفر والعودة في الوقت المناسب للاشتراك في مؤتمر امبراطوري سيعقد في ٢٠ أكتوبر ·· واحتج برانكر قائلا انه مادام المنطاد غير صـــالح للسفر ، فان علي طومسون أن يواجه الوقائع ويرجىء الرحيل ·

ورد طومسون قائلا : حسنا ·· اذا كنت تخاف السفر ، فلا تذهب ، وهناك كثيرون يتلهفون الي مثل هذه الفرصة ·

وأحس برانكر بضيق بالغ لذلك ، فقد كان ينظر الي الخطر المحـــدق بشخصه نظرة جدية علي أساس أنه قدر محتوم ، ففي خـــلال زيارة قام بها لباريس قبل ذلك بست ســنوات في صيف ١٩٢٤ سأل أحـــد زملائه على مائدة الغداء فجأة : لماذا لا يقرأ طالعه ؟·

فأجابه الصديق في دهشة : وهل قرأت أنت طالعك ؟

فقال برانكر : أجل ·· وهو يقول انني سأكون علي مايرام لـــدة ست سنوات علي أية حال ·

ــ وبعد ذلك ··

ــ بعد ذلك ·· لم يظهر أي شىء·

***

وفي اليوم المقرر للرحلة ، جاء لورد طومسون ــ الرجل الوحيـــد غير رئيس الوزراء الذي يستطيع الغـــاء رحلة المنطاد ر-١٠١ أو تأجيلها ــ في وقت مبكر الي كاردنجتون وكان يبدو عليه الثقة التامة ، وقال « ان المنطاد ·· آمن كالبيت ·· وان الخطر عليه بنسبة واحد في المليون » ·

ومع ذلك ، ففي اليوم الســـابق فقط ، كان طومسون قد أخرج ورقة من نوتة بمكتبه في وزارة الطيران ، وكتب وصية يقول فيها : «في حالة وفاتي خلال رحلة المنطاد ر-١٠١ الي

الهند ومنها ، أو نتيجة لها ، فانني أهب كل ما أملك لأخي» ٠

وبطريقته المهذبة ، ومظهره الانيق المعروف ، شق لورد طومسون طريقه نحو المنطاد ، بينما كان الصحفيون يتقاطرون حوله، وسأله احد المخبرين: « هل ستقوم بكل الرحلة ؟» فأجاب طومسون بابتســـامة السياسي الذي لا يعرف القلق : « ولم لا ؟ لقد تلقيت أمرا بالعودة الي لندن قبل ٢٠ أكتوبر ٠٠ ولست أنوي تغيير خططي هذه»

وكان طومسون يأمل عنـد عودته الي لندن في أواخر اكتوبر أن يهبط منالمنطاد بعد عودته لينطلق بالسيارة رأسا الي المؤتمر الامبراطوري ، وكان يقدر أن رئيسي وزراء استراليـــا ونيوزيلندا سوف يقضيان ســـتة أو سبعة أسابيع للوصول الي لنــــدن للاشتراك في المؤتمـر ، ومن ثم فانه سيستطيع الذهاب الي الهند والعودة منها لالقاء خطابه في المؤتمر في أقل من نصف هذا الوقت وستكون تلك أفضل طريقة للدعاية للمناطيـــــد ، والطريق الجوي الذي يربط بين دول الامبراطورية ، بدلا من الاعتماد علي المحادثات والمشروعات ٠

استعدادات للرحيل

ما كاد لورد طومسون يصل الي برج مرسى المنطاد ، حتي قفز بخفة الي المصعد الذي حمله الي أعلي ، وقد تطلب نقل متـــاعه رحلتين من المصعد ، اذ كانت حقائبه نقيلة جدا ٠٠ وظل المصعد مشغولا طوال اليوم في الصعود الي المنطاد ، حاملا المؤن والركاب والامتعة ٠ وقد افزع هـــذا المهندسين الذين يعــــرفون أن زيادة الحمولة تقلل من حــــــد الامان في المنطاد ٠

وكان الترتيب قد اعد لاقامة حفل عشاء رسمي في مصر علي ظهرالمنطاد ر-١٠١ ومن أجل هذا الحفـل ، لم يدخر المسئولون وسعا في اعداد كل مظاهر الابهة والروعـــة ، فأحضروا أدوات مائدة من الفضة ، وصناديق شمبانيا ثقيلة ، وبراميـــل للبيرة ، وسجادة طويلة طولهـــــا ٦٠٠ قدم بسطت في الممر ، كما شحنت تسعة أطنان اضافية من زيت الوقود ، لكيلا يضطر المنطـاد الى التزود بالوقــود في مصر مما يربك الاحتفال المنتظر٠

ومع ذلك ، فانه من أجل تخفيف حمولة المنطاد ، طلب الي الملاحـين ترك مظلات الهبوط وراءهم !

***

كانت الساعة قد بلغت السادســة والنصف ، وغمـــر الظلام الكون ،

وازداد الجـــو برودة ، بينما بدأت أربعة مصابيح حمراء ترسل وميضها من أعلي البرج لتحـــذير أية طائرة من الطيران المنخفض وفقا للحظرالذي أصدرته وزارة الطيران ٠٠ وفيعربات المحركات الخمسة الصــغيرة المدلاة تحت جسم المنطاد بوســاطة دعامات قوية ، كان المهندســون يجلسون في الانتظار ، علي اســـــتعداد لادارة المحركات الصغيرة التيتدير محركات الديزل الكبيرة ٠

ودق جرس التلغــراف في مركبات المحركات ، وسرعان ما أخذت كل المحركات تدور في نعومة لكي تسخن، ودوت أصوات غازات العادم كالرعد، تثير رعشة الذين يقفون أسفل المنطاد بينما وقف قائد المنطاد الضـــــابط الطيار «بيرد اروين» في مركبة القيادة السفلي المعلقة تحت المنطاد كأنهـــا عربة ترام ، منتظرا لحظة التحليق٠

لم يكن اروين يشعر بالثقة حيال نجاح الرحلة ، فقـــد كانت هناك عقبات كثيرة جدا لا يمكن تجاهلها وقرارات كثيرة جدا اتخـــذت علي عجل ، وتغييرات كثيرة ، هذا فضلا عن أن آخر التقـــارير الجوية كانت تتنبأ بأمطـــار ورياح ٠ وكانت كل دواعى الحكمة والخـــبرة تدعو الي وجوب تأجيل الرحلة ، ولاســيما أن المنطاد لم يسبق أن قام بأية تجربة بأقصي ســـرعة ، ولم يحلق الا في رحلات قصيرة وفي ظروف مثاليـــة للطيران ٠

وبينما كان اروين يصـــدر أمره بزيادة سرعة المحركات ، حتييستطيع أن يشعر بابتعاد المنطاد عن المخروط الذي استقرت فيه مقدمتـه في أعلي الصارية ، سمع ركاب المنطاد هتافا ينبعث من الجمهور الواقف في أسفل، وان كان قد وصل اليهم خافتا ٠

وصدر الامر من مقصورة القيادة بالاســتعداد للانطلاق ٠٠ وبعد لحظة انطلق المنطاد بعيدا عن مرساه ٠

وبينما كان المنطاد (ر ــ ١٠١) يغادر المخروط، كان لابد لمقدمته منالارتفاع الي أعلي ولكنهـــا بدلا من ذلك ، هبطت قليلا الي أســفل ، فقد كان المنطاد مثقلا بحمولته الي حد أنه لم يعد قادرا على مقــاومة الضغط ٠٠ ولكن هذا الهبوط الطفيفكان خطيرا، نظرا لان المنطاد لم يكن يرتفع فوق الجمهور غير ١٨٠ قدما فقط ٠

لم تكن هناك دقيقة واحدة يفقدها «اروين» ، اذ كان عليه أن يعيـــد مقدمة المنطاد الي أعلي مرة أخـــري علي الفور ، وكانت الطريقة الوحيدة

لذلك ، أن يخفف الاثقال من مقدمته، مما يتركه بغير الكثير منها ، مما يحتاج الي افراغه اذا ثقلت المقدمة مرة أخري خلال الرحلة ، ولكن كيفما كان الامر ، فانه اذا لم يفرغها الآن فقد لاتتم أية رحلة ..

كان المنطاد مثقلا بالمياه ، فأخذ يرش كميات كبيرة منه ، وانطلقت المياه كأنها مليون دمعة تتساقط وقد انعكس منظرها فبدت أشبه بالنافورة الخرافية ، ولكن الرياح التي تولدها المحركات الدائرة ، كانت تبخر الماء، وتنفخ هذا المطر البارد الغريب الى اسفل حيث سقط علي وجوه المشاهدين المتجهة الي أعلي .

وصاح أحد المتفرجين : ها هو يتحرك !

وكان المنطاد قد أخذ يتحرك فعلا في تثاقل وكسل ، وكأنما أصابه الارهاق قبل أن يبدأ الرحلة !

وبينما كان المنطاد يتقدم في الظلام ببطء ، أخذت الجماهير تهتف ، وأشاد الكثيرون بحذق الربان وحرصه ، ظنا منهم أنه يحتفظ بثبات المنطاد في وجه الرياح المتزايدة ، ولم يخطر ببال أحد ممن رأوه وهو يدور حول المطار ، انه يزداد بطئا لانه لا يستطيع أن يسير بسرعة أكثر !

وفي أعلي انحني «سكاي هانت» المسئول عن دفة المنطاد علي حاجز مركبة القيادة ، وأخذ يضيء مصباحه اليدوي ويلوح به للجمهور ، وكانت تلك اشارة متفقا عليها بينه وبين طفلته الصغيرة « جريندولين » التى صاحت بين دوي المحركات العنيفة قائلة : « وداعا يا أبي » .

وتألقت أنوار الملاحة الحمراء والخضراء ، بينما كان المنطاد يدور، ثم انزلق وسط السماء المظلمة ، بعيدا عن دائرة الاضواء الكاشفة ، وفي النهاية لم يبق منه غير هدير خافت من المحركات مع بقية رائحة الزيت الثقيلة في الهواء الرطب .

وبينما كان الوقت يمر ، بدأ المطر ــ المنتظر من فترة طويلة ــ يتساقط .. رذاذا في البداية ، ثم ازداد شدة، واشتدت الرياح ، منذرة بليلة عصيبة حقا !

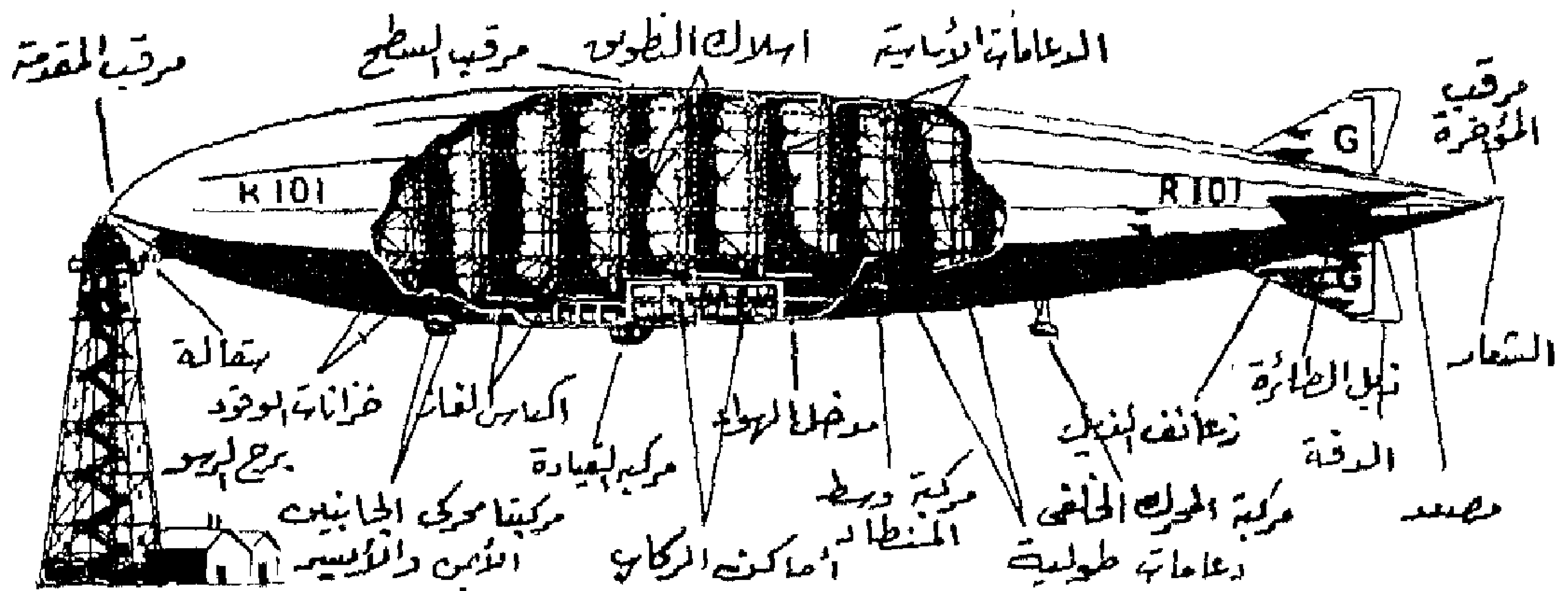
ممر عاصف

اتجه المنطاد الي الجنوب في بطء، وكان الغاز يحدث فحيحا في صماماته وهو يكافح للارتفاع ، بينما كانت الرياح المتزايدة تضرب علي نسيج الغلاف الكبير ، وكان الجو يزداد سوءا لحظة بعد أخري وأدرك الاحون

ان (ر-١٠١) يهتز فى هـذه الرحلة أكثر من أية رحلة سابقة ، فهو لم يحلق قط في أي جو يشبه العاصفة من قبل ٠

وعلى مسافة بضعة أميال شمال لندن ، بدأ ضغط الزيت يقل في المحرك الموجود في المركبة الخلفية ، فأوقفوا المحرك ، بينما حاول المهندسون كشف الخلل فيه٠٠ وقبع المهندسان خطرها الي الضعف وسط العاصفة والمنطاد يهتز بشدة ، وبينما تكون أجزاء السلم المتحرك زلقة بسبب المطر ٠

وفي الساعة ٩٫٣٥ مساء ، أذاع عامل اللاسلكي رسالة قال فيها : «اننا نعبر الشاطيء عند هاستنجز٠ مطر شديد ورياح جنوبية غربية شديدة ٠ قاعدة السحب علي ارتفاع



المسئولان ارثر بل وجون بنكس معا الي جوار المحرك الساخن الصامت، بينما كانت العاصفة تدق علي غلاف المركبة الرقيق بشدة ٠

وكانت الوسيلة الوحيدة للعودة الي المنطاد ، هي تسلق السلم الخارجى ، والسير في باب العنبر ، وهي مهمة صعبة بالنسبة لمن لهم معدة سريعة الغثيان ، ويزداد ١٥٠٠ قدم ، ولكن المنطاد يسيرعلي مايرام بصفة عامة » ٠

والواقع أن المنطاد لم يكن يسير علي مايرام ، بل كان يهتز ويتمايل وكأنه قارب شراعى في بحر هائج وبينما كان يمر فوق بلدة «بيت لفيل» علي مقربة من هاستنجز ، ظن أحد المراقبين ويدعى ريجنالد كوك أنه ينبغى تحذير قوارب النجاة في

«دانجنس» لتكون علي استعداد في حالة وقوع حادث فوق البحر ، وقد رأي أن المنطاد لا يرتفع فوق الماء غير ٥٠٠ قدم ، وأنه يطير فوقه بالعرض •

كان المطر يتساقط بشدة والمنطاد يترك خلفه أنوار انجلترا ، وكان المحرك الخلفي مازال عاجزا عن تسجيل ضغط الزيت ، أما الان فقد تركز الشك حول مقياس ضغط الزيت ، والاعتقاد بأنه أصيب بخلل، وهبط ملاحظ الهندسة هاري ليشي ، ومعه المهندس الاول وليم جنت الي مركبة المحرك الخلفي ، لتغيير المقياس . ونظر ليشي من نافذة المركبة فادهشه أن يري الامواج تتحطم وسط سحب بيضاء من الرذاذ علي مسافة مئات قليلة من الاقدام تحته !

وقال ليشي : « اننا علي ارتفاع منخفض جدا •• انظر بنفسك »

ونظر جنت وراءه ، ثم أطلق صفيرا من بين شفتيه ، فقد كانت المياه تمتد الي أبعد ما تراه العين والظلام أعمق من الليل ، تشقه قمم الامواج البيضاء ، باردة موحشة معزولة •• ولاحظا عدة مرات أن المنطاد كله يغوص فجأة الي أسفل فيلقي بكل منهما علي الاخر ، ثم ترتفع مقدمته الي أعلي ، وهو يتسلق العاصفة •

***

في غرفة التدخين ، جلس لورد طومسون ومعه سير سفتون برانكر في مقعديهما المصنوعين من الاغصان المجدولة ، ومعهما قائد السرب هـ• أونيل الذي كان مسافرا الي الهند لكي يتولي منصبه كنائب لمدير الطيران المدني ، وقائد السرب و• بالسترا الذي يمثل الحكومة الاسترالية ودون أن يدري هؤلاء ، كان الملاحون يفحصون أكياس الغازات الموجودة حول غرفة التدخين بأسرها، وراء الحواجز الفاصلة في المنطاد ، وممرات الحبال التي تمتد بطول المنطاد كله، وكانوا يرتدون «سويترات» صوفية سميكة للوقاية من البرد القارص ، وأحذية ذات نعال من المطاط تفاديا لخطر اشعال أية شرارة فوق أي معدن عار ، ولم تكن تلك الاحذية شائعة يومئذ ، اذ أن أي بقعة من الزيت فوق أي جزء معدني من السلم، معناها انزلاقهم وسقوطهم سقطة خطيرة •

وعلي كل جانب ، كانت الاسلاك والسلاسل المعلقة حول أكياس الغازات وبكراتها تصدر صريرا ، وينبعث

صليل ضخم من حلقات السلسلة ، بينما يهتز المنطـــاد ، وكان صوت الفحيح والضجيج المنبعث من الغـــاز المتسرب من حلوق الصمامات أشـبه بصوت أفيال تتنفس في الظلام !

واستغرق عبور المانش ساعتين٠٠ وبينما كان المنطاد يتجـــه جنوبا ، مبتعدا عن البحـــــر ، ويطير فوق الحقول المنبسطة في شمال فرنسا ، تلقي مطار كاردنجتون اشارة لاسلكية ثانية تقول : « اننا نعبر الســـاحل الفرنسي عند «بوان دي سانكونتين» ٠٠ الرياح سرعتها ٣٥ ميـــــلا في الســـاعة» ٠ كانت الرياح تزداد ، وهي حقيقة مشئومة ، لم يقلل منها معرفة أن محرك المركبة الخلفية عاد يدور بعد ثلاث ساعات من الاصلاح٠

مراقبة ليلية

كان الملاحون يعملون بنظام المراقبة علي أساس العمل ثلاث ساعات عمل وثلاث ساعات راحة ٠٠ وفي الساعة الحادية عشرة تغيرت نوبة المراقبة ، وأخذ الركاب يتجهـــون رويدا رويدا الي مقاصيرهم وهم يشدون أنفسهم لحفظ توازنهم علي طول الممر المترنح، بينما كانت المحـــركات تدوي تحتهم مطمئنة اياهم ، والمراوح تتألق كأنها أقراص فضية دوارة في الضـــوء من قاعات الاستراحة ٠

وبعد كفاح طويل مع المحـــــرك الساكت فوق بحـــر المانش ، صعد ليشى ليعود الي المنطاد ، ثم اغتسل وتناول عشاء سريعـــا ، وبحث عن وليم جنت في غرفة التدخين ، فقـــد كانا صديقين قديمين ٠

وقال ليشى : لماذا لا تغفو قليلا ؟ سأقوم بالمراقبة الليلية ، فقد أمضيت أنت يوما مرهقا تماما ٠

ودون أن يدري ليشى ، أنقذ نفسه بهذه المجاملة الرقيقة ٠

وبينما كان ليشى يبدأ نوبة المراقبة، انحني علي حاجز سطح النزهات ، وحدق من خلال النوافذ المبللة بالمطر المصنوعة من السليلويد ، باحثا في أسفل عن معالم أرضية في الغـــابة المظلمة ٠٠ ولكنـــه لم ير شيئا ٠٠ كان هنا وهناك ضـــوء صغير يهتز كأنه نجم أسير ، ثم اســتدار وبدأ يفحص مركبات المحركات ٠

وكان المهندسون المعلقون في عزلتهم التي يدوي فيها صوت كالرعد ، فوق الريف النائم، محبوسين مع محركاتهم في كابسولات معدنية صـــــغيرة ، يبحثون عن عيني ليشى من أجـــل الاطمئنان ، وقد أسعدهم أن يروه ، وقد بدت وجوههم شـاحبة في ضوء

مولد الكهرباء ، والجو الثقيل المشبع بالزيت • وبينما كان الضجيج المستمر من أنابيب العادم يجعل الحديث مستحيلا ، كان الاجراء واحدا في كل مركبة •• حواجب مرفوعة ، وايماءة •• وابتسامات •

هم يسألون : أكل شيء علي مايرام ؟•• وضغط الزيت جيد ؟

ويأتي الرد : أجل يا سيدي •• كل شيء علي مايرام •

واذا كان المهندسون في عزلة ، فان مركباتهم لم يكن بها نفس جو الخوف من الاماكن المغلقة كالجو الموجود في المنطاد نفسه ، اذ علي الرغم من اتساع قاعة الاستراحة وفخامتها ، فان بعض الجالسين فيها لم يستطيعوا تخليص أفكارهم من الاحساس بأنهم محبوسون •• ففيما عدا الابواب التي تؤدي اليالمحركات السفلية ، والمدخل الرئيسي المؤدي الي مقدمة المنطاد ، لم يكن هناك أي منفذ للخروج •• لقد كان الركاب والملاحون سجناء في قوقعة المنطاد الكبيرة ، الي أن يعاد فتح أبواب المقدمة •

ومر حوالي نصف ساعة تقريبا قبل أن ينتهي ليشي من نوبة المراقبة، واجتاحه فجأة احساس بتعب اليوم الذي تكدس فوقه ، فصعد مرهقا الي غرفة التدخين الخالية ، واستلقي علي أريكة ورفع قدميه •• في استرخاء •

كانت الساعة الثانية صباحا — وهو موعد تغيير نوبة المراقبة — وزمجر المهندس بنيكس في فراشه وتمطي ثم ثبت قدميه فوق حافة الفراش ، وبحث عن بنطلونه وحذائه المطاطي ، ثم شق طريقه من غرفة الملاحين ، وسار في الممر الذي تمتد علي جانبيه الحبال نحو الباب الارضي القلاب لكي ينزل منه الي مركبة المحرك •

كانت العاصفة قد بلغت ذروتها ، بينما كانت أكياس الغازات الضخمة يصطدم بعضها ببعض فوق رأسه وسط الظلام ، وكأنها هي تحاول الانطلاق من قيودها في غضب •

وقال بنيكس فيما بعد : « سوف أظل اذكر تلك الليلة دائما •• كنت أرتدي معطفا قصيرا من قماش قطن خشن وأمسك بيدي بعض القضبان الخشبية والحبال ، وكانت الرياح عنيفة الي حد أنها حطمت القضبان الخشبية تماما » •

كان جسمه يتصبب عرقا ،وقطرات المطر تغمر وجهه وتحجب عنه الرؤية،

ولم يكن في استطاعته الا أن يتعلق بالسلم ويواصل هبوطه بطريقة آليـة الي حيث كان المهندس أرثر بل في انتظاره وبدأه بل الحديث متهما اياه بأنه تأخر عن الموعد ، وهز رأسـه مشيرا نحو ســاعة المركبة وكانت تشير الي الثانية وأربع دقائق ٠٠

وقال بنيكس : انني آسف ياأرثر ٠٠ فقد أفرطت في النوم ٠

صرخة الخطر

سار بنيكس نحو الكوة الصغيرة وحدق الي الخارج ٠٠ وفجأة أطلق صيحة ذعر ٠٠ فهناك علي مسـافة بضعة أمتار فقط ، رأي سطح كنيسة يبرز خـلال المطر والظلام ٠٠ كانت تلك قبة كاتدرائيــة «بوفيبه» أعلي وأجمل كنائس أوربا ٠

وصاح بنيكس : اننا علي مستوي الاسطح تقريبا ٠٠ لقد رأيت كنيسة أو شيئا كهذا ٠

وبينما كان الرجـــلان يتبـادلان نظرات القلق ، أخذ المنطاد يتمايل ، ويغوص ثم يعـــود الي مكانه ٠٠ وترنح الاثنان الي الخلف ، باحثين عن شيء يمسكان به ٠٠ لقد أحسـا كأنهما في مصعد يهوي مسافة طويلة ثم يتوقف فجأة ٠

ولهث بنيكس قائلا : ماذا حدث؟

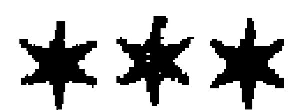
فقال بل : لا شيء ٠٠ انهـــا العاصفة

ولكن أحدا منهما لم يصدق ذلك٠

وعادت أرضية المنطاد تغوص مرة أخري ثم ترتفع ٠٠ ولكن ارتفاعهـا هذه المرة كان أقل ، وكأنما لم يعد في قدرة المنطاد الكبير الارتفاع لمواجهـة تحدي العاصـــفة ٠٠ ثم عاد يهوي ثانية ٠٠٠

وقال بنيكس : انه يزداد ثقلا٠٠ ماذا حدث ؟

وقبل أن يتمكن (بل) من الردعليه، دق جرس التلغـــراف علامة الامر بالابطاء ، فقام على الفـور بايقاف المحرك ، وبينما كانا يحدقان فيالظلام محاولين عبثا رؤية أي ضوء أو معالم أرضية كانت كل أعصابهما مشدودة متنبهـة للخطر المجهول ٠٠ وأخذت المركبة كلها تهتز تحت دقات أقدام تجري علي طول ممر الحبـال الذي فوقها ٠٠ وسمعا صوت سكاي هانت يعلو علىالضجة قائلا في زمجرة تحذير كبري : « اننا نهبط ياأولاد ٠٠ نحن نهبط ! »



كان ليشى يرقد على أريكة صغيرة في غرفة التدخين ، وهو يشعر بمتعة لانه ليس لديه مايعمله غير الراحـة

والنوم ٠٠ ولكنه استيقظ تماما على هزة كالرعد ٠٠ كانت الارض تميل بزاوية مزعجة وبدأت المقاعد الخفيفة تنزلق نحو المقـدمة ، وازداد هدير المحركات قوة ٠٠ وبعد حوالي ٢٠ ثانية ، انخفض مستوي الارضية مرة اخرى ٠

وقال ليشى لنفسه : « مرحى ٠٠ نحن لها » ٠٠

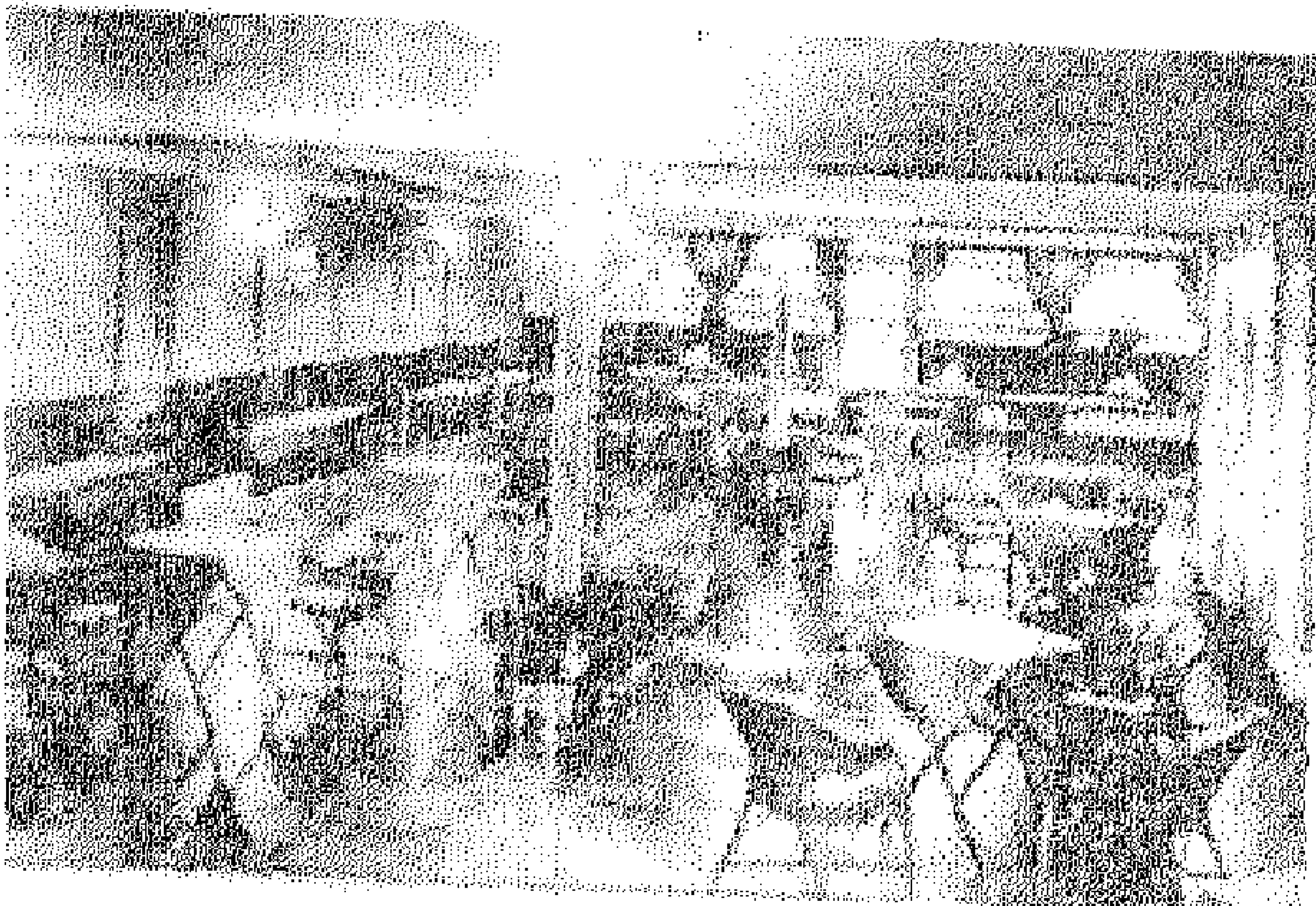
وشـــد قامته مستعـــدا للانخفاض التالى أو ميل المنطاد في المرة التاليـة ٠٠ وبينما كان ينتظر في توتر، انخفض المنطاد ثانيـة فالقى به فوق الاريكة ، واصطدم بالحـاجز الفاصل ، وسـمع تلغـراف غرفة المحرك يدق ، ثم شـــعر بهزة عنيفة بينما كان المنطـــاد يصطـدم بالارض !

في لحظة الاصطدام ، انطفأت الانوار ، وفتـــح باب غــرفة التدخين، ليكشف وراءه وميضا من الوهــج الابيض ٠٠ كانت خمسـة ملايين ونصف مليون قدم مكعبـــة من الهيدروجين تشتعل ٠٠!

وحاول ليشى أن يقف على قدميه ، ولكن السطح العلوي انهـــار فوق الاريكة التى ينـــام عليهـــا ، فلم يترك فوق رأســه غير أربعة أقدام ٠٠ وزحف نحـو الحـاجز الفاصـــل في يأس محاولا الخروج وكاد يختنق وســط الدخان الكثيف ، فراح يحاول تحطيم الحاجز الفاصل ويركله بقدميه ويضرب المعدن بكتفيه ٠٠ كان هاري ليشى محبوسا في قلب أتون مشتعل !



ســطح النزهة حيث يســتطيع الركاب مشاهدة البلاد التى يحلقون فوقهـا ...



كانت قاعــة الطعــام تتسم بكل مظاهر الابهة والروعة ..

شهود العيان

كان يوجين رابوبى ينصب شباكا لصيد الارانب في الحقول القريبة من بوفييه عندما رأي المنطاد (ر-١٠١) لاول مرة وهو يتحرك ببطء بالغ فوق غابة «دي كوتيم» على ارتفاع لايزيد على ١٥٠ قدما ، وكانت الرياح تضطره للاتجاه نحو الشرق ٠

وقال رابوبى فيما بعد : « رأيت مقاصير الركاب بوضوح ٠٠ كانت مضاءة جيدا ، كما شاهدت الانوار الحمراء والخضراء على جانبى المنطاد ، وفجأة هبت رياح عنيفة ، فانخفضت مقدمة المنطاد بضع مرات ، وسقط الجزء الامامى في الحافة الشمالية الغربية لغابة دي كوتيم ٠٠ وعلى الفور دوي انفجار هائل جعلنى أسقط على الارض ٠

« وسرعان ماارتفعت ألسنة اللهب الى السماء حتى بلغ ارتفاعها حوالي ٣٠٠ قدم ، ورأيت أشباحا بشرية تعدو بين الحطام كالمجانين هنا وهناك ، ثم فقدت رشدي وأسرعت هاربا نحو الغابة » ٠

وبينما كان يوجين يتوغل في الغابة في جنون سمع دوي انفجارين آخرين ، أعادا الى ذهنه ذكري المنظر المرعب الذي رآه من قبل ، فلم يتوقف عن العدو الى أن بلغ بيته وأغلق الباب خلفه حتى ينسى ماشاهده ٠٠ ثم ألقى بنفسه فوق الفراش !

***

وفي قرية «آلون» كان لوي بيتى في طريقه الى فراشه بعد ليلة زاخرة بالعمل في حانوته ، وقال فيما بعد : «سمعت فجأة صوتا أشبه بدوي الرعد ، فهرعت الى الشارع ٠٠ وعلى ارتفاع منخفض جدا فوق الكنيسة ، شاهدت شيئا بدا أشبه بقرية مشتعلة ٠ وكنت أعرف أن المنطاد سوف يمر من فوقنا ، فأدركت أن شيئا قد وقع ٠٠ كان المنطاد يسير في اتجاه جانبى ، وفجأة انطفأت كل الانوار ، وبعد لحظة عادت تضىء ٠٠ ثم انطفأت مرة أخري ، وعادت تضىء وتطفأ ٠٠ وفي كل مرة كانت الاضواء تنار فيها كنت أقول لزوجتى ان المنطاد ينخفض قليلا ٠٠ ثم هوي المنطاد ومقدمته الى أسفل ، ودوي صوت انفجار عنيف ٠٠ لقد كان شيئا لايمكن تصوره ، وكأن العالم كله قد انفجر ! ٠

واتصلت بالبوليس تليفونيا ، وأبلغتهم أن المنطاد سقط فوق الحقول»

وبعد دقائق ، كان مطار لوبورجيه بباريس على مسافة ٤٠ ميلا الى الجنوب ، يذيع النبأ على العالم :

« المنطاد ر-١٠١ يحترق ! »

نجاة المهندسين

كانت صيحة «سكاي هانت» وهو يقول : اننا نهبط ، لاتزال تدوي فى أذن بنيكس وهو ينظر من المركبة الى المقدمة ، وبدلا من جسم المنطاد الغض اللامع ، وجد نفسه ينظر الى هيكل عار يتوهج محمرا بالنار، وكأنه هيكل سمكة عملاقة ، فلم يبق غير أجزاء من نسيج مشتعل فوق الضلوع ، بينما أمسكت النيران المجنونة بالباقى وهي تزمجر وتهدر تحت المطر ..

وحدق (بل) في دهشة مماثلة الى هذا الكابوس الرهيب .

وقال وهو يسحب رأسه ، ويقوم بحركة آلية باقفال كل صنابير وقود الزيت : « يستحسن أن نخرج من هنا» ، وسحب بنيكس ذراعه وهو يقول : « كلا .. انتظر » .

كانت الرياح تهب في اتجاه مضاد، فتعصف باللهب وتوجهه الى أسفل من المقدمة الى الذيل .. ولم يكن في استطاعتهما أن يأملا في البقاء أحياء وسط هذا الجحيم ، فسوف تحترق ثيابهما وجلودهما قبل أن يغادرا المركبة .. وكانت الخطوة البديلة وهي الانتظار أقل كآبة قليلا ، فقد كان معهما في مركبة المحركات بضعة براميل معدنية بها ٣٠ جالونا من البترول لادارة المحركات .

وبدأت ألسنة النيران تلعق الواح الارضيات وتحرق نعال أقدامهما .. لم يكن أمامهما غير لحظات قليلة قبل أن ينفجر البترول .. وفجأة أخذ سائل يتدفق عليهما من أعلى ، وسقط بعضه على وجه بنيكس وفمه فصاح في تاثر :

- ماء !..

لقد انفجرت خزانات الاثقال الموجودة داخل المنطاد ، فأنقذت أرواحهما دون شك ..

وأمسكا قطعا من خرق التنظيف، ورفعاها الى أعلى حتى تشبعت بالماء، وألقياها على الارض لاطفاء النار .. ثم أدارا ظهريهما للرياح ، وخرجا من الباب وقفزا الى الخارج ، فاذا بهما يستقران على أيديهما وأرجلهما فوق أرض ناعمة لمنحدر رقيق .

وقال بنيكس فيما بعد : « اننا بخروجنا وظهرانا الى النار ، أنقذنا بصرينا ، رغم احتراق وجهينا وأيدينا .. ولكننا لم نشعر بذلك الا فيما بعد » .

وراحا يزحفان في ألم مبتعدين عن الحطام المتوهج وقد لهثت أنفاسهما،

وقد بدا أن سماء الليل لم يعد فيهـا هواء يستطيعان تنفسه ٠٠ ان خمسة ملايين ونصف مليون قدم مكعبة من الهيـــدروجين الملتهب ، استهلكت الاوكسيجين المحيط بالمنطقة ، حتى أن الذين بقوا أحياء ، كانوا أشـبه بملاحى السماء القدماء ، الهواء يحيط بهم من كل جانب ، ولكنهم لايجدون شيئا يمكنهم استنشاقه ٠

وبينما كانا يزحفان على الارض، يفتحان أفواههما طلبا للتنفس ، جاء رجل ثالث يتعثر في سـيره نحوهما وهو يفتح ذراعيه وكأنما يحاول طرد رؤيا مفزعة ٠

وقال : هل يوجد هنا أحد ؟

فقالا : نحن هنـــا ٠٠ بنيكس ، و بل ٠٠

وهرع الشـبح نحوهما ٠٠ كان وجهه قد أصيب بحروق رهيبة، كما احترق شعره عند الجبهة ٠٠ وفى ضوء الوهج الذي لايزال ينبعث من هيكل المنطاد المشتعل ٠٠ عرفا فيه هاري ليشى !

أحسن شراب في حياتى !

عنـدما انطفأت الانوار ، وانهار السقف الى غرفة التدخين ، كان ليشى قد أدرك أنه اذا لم يستطع أن يشق طريقه من خلال الحاجز الفاصل الى الهواء الخارجى ، فانه سوف يحبس داخل قبر في الجو ، وأمسك احـــدي الموائد الصغيرة من ساقها وأخـــذ يضرب بها على الحاجز ٠٠ وتحطمت المائدة في يده الى كتلة من الشظايا الاسفنجية التى لافائدة منها ، فقـد تبين أنها مصنوعة من خشب خفيف وأخذ يتسلق في ثبات وألم الارضية المنحدرة ، فوجد مائدة أخري ومقعدا ومنفضة للسجائر ، وراح يحطم كل منها بدوره على الحاجز الفاصـل ، ولكنها كانت تتحطم واحدة بعــــد الاخري وبقي وحده وحيدا في الظلام لا أمل له ٠٠

وبدأ يركل الحاجز المعــدنى فى وحشـــية ، يضربه بنعـــل حذائه المطاطى ٠٠ ولما وجد أنه لافائدة من ذلك ، أخذ يتلمس طريقه على طول الحاجز الفاصـل الى أن وجد تحت المعــدن الاملس سطحا أكثر خشونة من الاسبستوس قليلا ، فدق عليــه بقبضتى يديه ، فاستطاع أن يحدث فجوة صغيرة٠٠وراح يعمل لتوسيعها حتى أصبحت تكفى لخروجه منها٠٠ ووجد نفسه في الخارج وسط دعامات وقضبان عارية يلفها الدخان واللهب، وتملؤها رائحة قوية من زيت الوقود المحترق ، لقد هرب من المقلاة ليجد

نفسه في النار نفسها !

ودار ببصره حوله ، فرأي فجوة في جانب المنطاد ، فوثب منهـا دون تفكير .. ومازال ليشي بعد سنوات من الحادث يذكر لحظة سقوطه .. وقال : « لم أعرف ماذا يحدث . كنت اعرف فقط أننى يجب أن أغادر المنطاد قبـل فوات الاوان . وكنت سعيد الحظ . لانني عندما قفزت سقطتعلى شجرة ، فخففت الاغصان وقع الصـدمة ، وكانت الدنيا تمطر بشدة .. وعندما اهتزت الاغصـان بعد وقوعى فوقها ، أفرغت ميـاه المطـر فوقى .. وكانت تلك أحسن جرعة شربتها في حيـاتى .. كان جسمى قد شوي في النار ، وقد برده هذا المطر ..

شخص آخر على قيد الحياة

استرد الرجال الثلاثة فوقالحشائش أصواتهم .. كان القرويون يجرون حاملين مصابيحهم ومشـاعلهم ، واستطاعوا سماع أصوات تصـيح وهي تذكر الاتجـاه لكل منهم .. ونسـوا اصاباتهم ونهضـوا متجهين نحو الجانب الايسر للمنطاد للبحث فيه عن أحياء . كانت الرياح لاتزال تعصف بالنار ، وتوجه ألسنتهـا نحوهم، حتى شعروا بآلام فيعيونهم، ولهثت صدورهم يريدون التنفس وقد كادوا يختنقون وسـط دخان الزيت الاسود .. ووجدوا رجـلا ألقت به الصدمة بعيدا، ومع أنه كان يحتضر، فانه استطاع أن يعرفهم .. وبينما كانوا يركعون بجواره ، أشار اليهم لينزعوا سترته .. ثم همس قائلا : «معى هنا بعض السجائر» .

وبحثوا في جيوبه ، وأخرجوا علبة من الصفيح بها ٥٠ سيجارة، فأخذ كل منهم سيجارة . ثم اكتشفوا انه ليس معهم ثقاب ..

وتبادلوا النظرات لحظة .. وفجأة خطرت لهم نفس الفكرة .. وأخرج بنيكس سيجارته من فمه ، وخطا نحو قطعة من حطام المنطاد لاتزال تتوهج بالنار ، وأشعلها من المعدن الملتهب الساخن ، وكانت تلك أغلى «ونعة» في حياته .. تكلفت أكثر من مليون جنيه !..

بجعة .. وعنقاء !

لم ينج من ركاب المنطاد وملاحيه وعددهم ٥٤ غير ستة فقط هم ليشي وبل وبنيكس وعامل اللاسلكى ويسلى والمهندسان كوك وسافوري .

أما لورد طومسون وسير سفتون برانكر ، والملازم الجوي أروين قائد المنطاد ، والكولونيل ريشموند كبير

المصممين ، وقائدا السرب أونيـــل وبالستر ، وبيل‌جنت، وسكاي هانت، وغيرهم ممن سجنوا في فراشهم أو أماكن عملهم، فلابد أنهم هلكوا سريعا فى الحريق الهـــائل ٠٠ ولم تتسن معـــرفة شخصـــيات أغلب القتلى وعددهم ٤٨ ٠

وبعـــد عام ٠٠ وجـدت محكمة التحقيق أنه بدلا من فرصة «واحد في المليون » ، ان الحادث وقع نتيجـة مليون شىء خاطىء ، فقد كان المنطاد ثقيلا جدا ، وقد تسرب منه الغـــاز الثمين الذي يحمله في الجو ، كما أنه لم يختبر الا في جو معتدل ، ولم يكن يستطيع تحمل العاصفة ، هذا فضلا عن أن رحيل المنطاد تم على عجلة من أجل أغراض سياسية ٠٠ وكان السبب المباشر للحادث هو فقد الغاز فجأة من أحد الاكياس الامامية عندما ضغط تيار هواء سفلى على المقدمة٠

وبعد انقضاء لوعة الحزن الاولى، بدأ رد فعل ضخم ضد المناطيد ٠٠ لقـد أثبتت الكارثة أن الطائرة أكثر أمانا من المنطاد ٠٠ وحتى المنطـاد (ر-١٠٠) الذي تكلف ٤٥٠ ألف‌جنيه، قطع الى أجزاء وبيع خردة ، واتجهت بريطانيا باهتمامها من‌جديد الى انتاج الطائرة التى ارتفعت أشـبه بالعنقاء من رماد المنطاد ر-١٠١

ومن حسن الحظ أن هذا حدث في الوقت المناسب ، فبعد بضع سنوات فقط ، وقعت معركة بريطانيـــا ، وأصبحت حياة البلاد كلها تعتمد على طائراتها !



تاريخ !

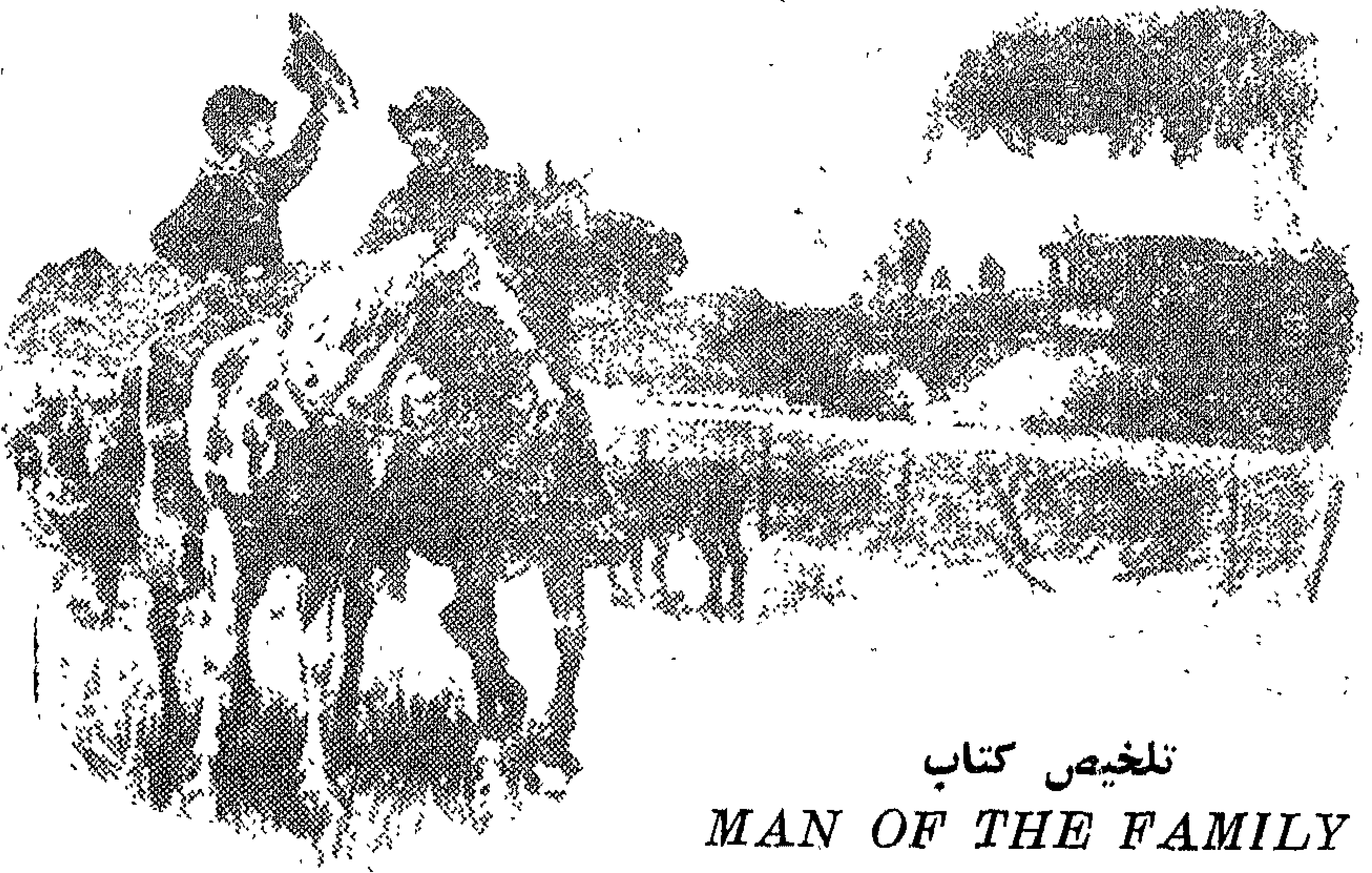
قالت السيدة لعامل اصلاح التليفزيون الذى طرق الباب يسأل عن احد السكان :
ـ لقد كانوا يفطنون هنا فعلا عنـــدما اتصلوا بك لتحضر !.



رجاء !

على مؤخرة سيارة صغيرة تقودها سيدة فى منتصف العمر ، وضعت لافتة كتب عليها بحروف واضحة : ((لا تصدم امنا !))

عن أجل أسرتي



تلخيص كتاب
MAN OF THE FAMILY
بقلم رالف مودى

« قالت صحيفة نيويورك هيرالد تريبون عن هذه القصة التى تصور عزيمة صبى صغير قرر أن يصبح رجل الاسرة بعد وفاة أبيه •• انها قصة لن تنساها •• »

من أجل أسرتي

عندما مات أبى في عام ١٩١٠، ترك لامي خمسة أطفال، دون أية نقود على الاطلاق ، وكنا قد انتقلنا حديثا من مزرعة صغيرة جرداء الى بلدة ليتلتون المجاورة بولاية كولورادو ، وقالت لى أمى : «رالف أنت رجلى الآن ، وسأعتمد عليك» •

وبدا لى أن رجل الاسرة يجب ألا يذهب الى المدرسة ، فقد كنت أريد أن أعمل ، كما فعل أبى ، وأكسب مايقوم بأود الاسرة •• وكان أخى فيليب مازال في الثامنة من عمره بينما لم يتجاوز هال الخامسة ، فهما أصغر من أن يحصلا على عمل ، في حين أن أختى جريس كانت في الثالثة عشرة وموريل في العاشرة ، ولكنهما بنتان !

كنا قد أحضرنا معنا من المزرعة فرستنا «ليدي» ، وكنت واثقا أنني أستطيع بها أن أجد سبلا كثيرة لكسب عيشنا ، كحرث الحدائق ، وسحب الاشياء ، ورعاية الماشية ، وكان عندي بطبيعة الحال عمل آخر لتربية الارانب والدجاج ، وقد أردت أن أخبر أمى في ذلك الحين أننى لن أذهب الى المدرسة بعد ذلك ، ولكننى أحسست أنه من الافضل الانتظار قليلا •

وبينما كنت أرتدي ثيابى في الصباح التالى ، قررت أن أذهب لرؤية مستر كوب الذي يمتلك مزرعة كبيرة لتربية الماشية سبق أن عملت فيها في الصيف الاسبق ، وكان الرجل قد أعطانى ٢٠ دولارا في الشهر وأخبرنى أنه على استعداد لاسناد عمل لى كلما كان أبى في غير حاجة الي في المنزل •

وعندما شرحت خطتى لامى ، أمسكت يدي وقالت لى : «رالف •• لقد ضحى أبوك بنفسه في سبيل العناية بنا لانه لم يتلق تعليما مناسبا،

وأنا لاأريدك أن تفعل مثله » ... ثم ابتلعت ريقهـــا وحاولت أن تبتسم قائلة : « ان المسافة الى مزرعة كوبر قد تصل الى ٢٥ كيلو مترا ، ولن تستطيع أبدا أن تذهب وتعـــود كل يوم ، ولابد لى من رجـل في البيت خلال الليالى » .

لم أكن قد فكرت في حاجة أمى الى وجودي بالبيت في الليل، ومن ثم قبلت الذهاب الى المدرسة ..

ولكننى ظللت أحاول التفكير فى عمل ما أستطيع أن أبدأه في البلدة ، وقد شغلنى التفكير في هذا الامر ذات يوم الى حد أننى كدت أسقط تحت حوافر ستة عجول هائجة ذات قرون طويلة .

كان أصحاب الماشية وهم يدفعون قطعانهم شمالا أو جنوبا يضطرون الى المرور بها خلال ليتلتون لكي يعبروا نهـــر بلات ، وكان الرعاة يكرهون «ليتلتون» ، فان الماشية لم تكن تبقى أبدا على الطريق المرتفع ، بل تنطلق عنـــد تقاطع الطرق أو تجـري الى الساحات غير المسورة ، وكان الامر يتطلب منهم يوما بأكمله تقريبا للمرور ببعض القطعـــان الكبيرة ، وكان في استطاعتك أن تسمع سباب رعاة البقر ولعناتهم في كل أنحاء البلدة.

وفي ذلك اليـوم ما أن رأيت تلك العجول البرية ، حتى خطرت ببالى فكرة ، وأسرعت أعدو الى البيت ، حيث ألجمت الفرس «ليدي» وصفرت بفمى لكلبنا الاسود «كنج» ثم اندفعت بأقصى سرعة في الطريق وأنا أمتطى الفرس دون سرج حتى بلغت طريق النهر في الوقت الذي كان فيه ملاحظ الرجال يدير العجل الذي في المقدمة نحو الجسر . كان يتحدث الى المأمور ماك جراث ، وعندئذ اتجهت بالفرس نحوهما ببطء ، حتى لاأحول العجل الامامى عن طريقه .

وعندما رآنى المأمور نادانى قائلا : « تعال هنا ياليتل بريتشز .. هـذا هو سيد جيبسون » وكان اسم ليتل بريتشز هو الاسمالوحيد الذي يعرفنى به كثير من الناس .

وقال المأمور . « اننى شديد الاسف لسماع نبأ فقد أبيك .. ماذا تنـوي أنت وأمك أن تفعلا لكسب عيشكما ؟ أعتقد أنك ينبغى أن تعود للعمل من أجل لين كوبر » فقلت : « كنت أود ذلك ولكننى لا أستطيع ، فان أمى تحتـــاج الى رجل في البيت خلال الليل» . ونظر الي سـيد جيبسون متفحصا في سخرية ، ورأيت المأمور يغمز له بعينه .

وفي ذلك الحين ، بدأ أحد الرعاة على الناحية الاخري ينفخ في نفيره، فاندفع ١٢عجلا مارة أمامه ، وأخذت تعدو بسرعة نحو الحارة التى تقع خلف حظيرة الخيول ·· ووصلت أنا و «كنج» الى الناصية قبل أن تصل اليها العجول ، وبعد أن أعدناها الى الطريق المرتفع ، عدت الى حيث تركت الملاحظ والمأمور·· كان الملاحظ يسب ويلعن كسائق البغال قائلا : «لابد أن يأخذ الانسان معه ستة رعاة بقر اضافيين ليستطيع أن يسوق قطيعا خلال هذه البلدة اللعينة، وبذلك نخسر مائة دولار تذهب الى الجحيم»

كان ذلك يتفق تماما مع فكرتى· كنت أعتقد أننى قد أجد صاحب ماشية يدفع لى أجرا لكي أساعده على اجتياز البلدة بقطيعه، وكنت أعلم أننى لن أجد أية مشقة في جمع عشرة غلمان لمساعدتى في مراقبة الطرق المتقاطعة مقابل ربع دولار في اليوم· وما كاد «سيد» يقول «مائة دولار» حتى دفعت فرستى «ليدي» على مقربة من حصانه وصحت قائلا : « أراهن أننى أعرف كيف أوفر لك ٩٠ دولارا»

ودفع الرجل قبعته الى الوراء وابتسم قائلا : «حسنا ياراعى البقر· أسمعنى خطتك» ·

وهنا حدثته عن فكرتى ، وما كدت أنتهى من حديثى حتى قال : « لقد حصلت على صفقة يالبتل بريتشز· سأعود بالقطيع من هذا الطريق حوالي ١٠ أكتوبر» ·

وعندئذ لكزت الفرس بكاحلى قدمى ، وانطلقت الى المدرسة بأسرع ماأستطيع · وعند الظهر تحدثت مع الاولاد الآخرين ·· وقد رغب كل الصبيان ـ بل وبعض البنات ـ أن يعملوا معى !

وعندما عدت الي البيت ، كان جوادا كارل هنري مربوطين أمام المنزل بلونهما الكستنائى · وكان كارل من جيراننا عندما كنا نعيش في المزرعة ، وعندما دخلت البيت ، توقفت أمي وكارل عن الحديث ، وأدركت من النظرة التي بدت علي وجه أمي أن هناك شيئا ما ··

وقالت أمي : «احضر كرسيا يابني لقد كنت أتحدث الان مع كارل عن أبقاره الجميله من فصيلة جيرسى · وقد ذكر لي أن واحدة منها يمكنها أن تقدم لنا كل اللبن والزبد اللذين نحتاج اليهما·· فهل يمكنك أن ترعى بقرة ؟

وقلت انني أستطيع بطبيعة الحال أن أعني ببقرة واحدة · ثم قلت :

«حسنا» .. أعتقد أننا قد نحصـــل علي بقرة هذا الخريف بعد أن أكسب بعض المال .. وهناك كثير من البرسيم والحشائش علي طول النهـر أستطيع أن اقطعه وأخضره مع «ليدي» لتاكله البقرة وفي الخريف سيكون عنـــدنا ما يكفي لطعام البقرة والفرس طوال الشتاء .

وانحنت أمي الي الامام ثم وضعت يدها على ركبتى وقالت : « لقد كنت أتحدث مع كارل حول مبادلة «ليدي» بالبقـــرة .. فأنت تري يابني أن الاحتفاظ بالفرس يتطلب نفقات لاقدرة لنا عليها ، فهي تحتـاج الي حبوب كل يوم ، في حين أن كارل يقول أن البقرة لن تحتاج لاي شيء خـــلال الصيف .

وبدا لي أن عالمي كله قد انهار ، ووقفت غصة كبـــيرة في حلقي فلم أستطع أن أقول شيئا .. لم أبك ، ولكن عينى كانتا تؤلماننى بشدة . ولم أستطع أن أنظر الي أمي أو كارل .

وقال كارل : هاهي فكرة أخـري قد تكون أفضل .. أنت تعرف أنني فقدت أحد جيادي في هـذا الربيع ، وسأحتاج الي جواد آخر خلال موسم جمع الدريس ، فما رأيك اذا أعرتني فرسك وأعرتك بقرتي ؟.

كان خوفي من أن أفقد فرسي عظيما الي حد أن أي شيء آخر بدا أمامي مناسبا ، فمددت يدي نحـــو كارل وقلت : «اتفقنا» ثم أسرعت أعدو الي الجرن بأسرع ما أستطيع حيث أعطيت (ليدي) قدحا من الذرة المجروشة ، ورحت أنظفها وأغسلها حتي أصبحت تلمع كالمخمل ، ثم انصـــرفت حتي لا أكون هناك عندما يأخذها كارل .

***

كانت أمي تعرف كيف تطهي أشياء طيبة حقا .. من مواد تموين عادية، وعندما عدت الى البيت في أحد أيام الاثنين بعد المدرسة ، رأيت أنها هي وجريس كانتا تواصـلان الطهي طوال النهار ، وكان الطعام موضوعا علي المائدة والدخان يتصاعد منه ، بينما كان المطبخ أكثر سخونة من الجحيم.

وقالت أمي : «رالف» سوف أعهد اليك بعمل مليء بالمسئولية .. اننـــا ينبغى أن نبدأ في كسب عيشـــنا ، ولابد لنا من أن نكســـبه عن طريق أشياء نستطيع أن نفعلها في البيت فهل تظن أنك تستطيع أن تطوف بالبيوت حاملا هذه العينات من الطعام ، لتري ان كان من الممكن أن نحصـــل علي طلبات تكفي لجعل هذا العمل مفيدا؟

وحنيت رأسى ، بينما مضت أمي

تقول :

« تستطيع أن تأخـــذها في عربة هال الصغيرة ٠٠ ادفعها أمامك الي الابواب الخلفية واسأل السيدات عما اذا كن راغبات في تجربة طهي أمك٠٠ وسأكتب لك الاسعار : الفاصوليـــــا ١٥ سنتا للتر ، والخبز الاسمر عشرة سنتات للخمسة أرطال ، والكعـــــك عشرة سنتات للاثنتي عشرة ، وفطائر التفاح ٢٠ سنتا للواحدة ٠ وقد يبدو هذا سعرا غاليا لفطيرة التفـاح التي تباع في المتاجر بسعر عشرة سنتات، ولكنك يجب أن تشير الي أن فطائري أكبر حجما وبها تفاح أكثر » ٠

وقامت أمي بتســـــخين لوح من الخشب في الموقد ، ثم وضـــعته في قاع عربة هال ليظل كل شيء ساخنا، ثم وضعنا الاطعمة المطهية داخلها ٠

ولم أعد يومئذ الي البيت الا بعــد الظلام بفترة طويلة ، ولم يكن يبـدو أنني أصلح للعمـــل كبائع متجول ، وعندما سألتني أمي عما اذا كنت قد واجهت أية متاعب ثرت غاضبا وقلت صارخا : « أجل ٠٠ لقـــد واجهت الكثـــير ٠٠ انني لا أحب أن أتعامل مع النساء ٠٠ انهن جشعات حقيرات غشاشات ٠٠ كلهن تقــريبا ٠ ولم أحصل الا علي طلبـــات قيمتها ثلاثة دولارات و ٣٠ ســـنتا ٠ وقد التهمن كل الكعك وأكثر من نصف الفاصوليا والخبز الاسمر ٠٠ والمرأة التي أكلت أكثر كمية قالت انه غال جـــدا ٠٠ وهذه المرأة العجوز البدينة ٠٠٠٠

ولكن أمى قاطعتنى قائلة : كفى ٠٠ كفي ٠٠ انك متعب جدا وجائع ٠٠ انني أري أنك قمت بعمل طيب بالنسبة ليومك الاول ٠ يكفي أن نبيع بما يساوي ٢٠ دولارا في الاسبوع ، ولما كان نصفه ربحا فاننا سنحصل علي عشـــــرة دولارات ، وهذا كل ما نحتاج اليه لنعيش ٠ وراحت أمي تدعك مؤخرة عنقي بيدها وقالت :

ــ اجلس الان ودعني أســـــخن عشاءك قبل أن تحلب بقرتنا الجديدة٠

كانت بقرتنا الجديدة ممتازة ، ولم يكن ظهرها أعلي من رأســـها وقد أطلقنا عليها اسم «ساقي البطة» لان سيقانها كانت قصيرة جدا ، وكانت ضروعهـــا ضخمة حتى تكاد تقترب جدا من الارض ، وكانت تدر حوالي ١٢ لترا من اللبن كل مرة ، ولما كنا لا نستطيع استخدام كل هذه الكمية فقد قررنا أن نبيع الزائد منها بسعر اللتر خمسة سنتات ٠

وكان حظي في ايجــاد زبائن للبن في الصباح التالي أسعد منه في بيع

الطعام والخبز الاسمر وقد كتبت جريس بعض البطاقات لبيعها للزبائن مقابل دولار لكل عشرين بطاقة . وكان كل ما يجب أن أفعله هو أن أحصل على الدولار فأعطى الزبون رزمة من البطاقات التى تصلح كل منها لشراء لتر من اللبن الذي أبيعه. وقد نجحت هذه الطريقة فما كادت الساعة تبلغ العاشرة حتى كنت قد بعت كل البطاقات وعدت لامي بثمانية دولارات .

وفي اليوم التالي عندما خرجت ببعض عينات أخري منالطعام المطهي، صادفني حظ أسعد من ذي قبل ، وحصلت على كثير من الطلبات .

ذات صباح كنت أنا وداتش جانتر نسير معا في الطريق الي المدرسة.. كنا متأخرين قليلا ، وكان هذا من حسن حظنا أيضا ، فعندما مررنا بدار مسز روبرتس ، خرجت ونادت علينا وقالت ان أحد أصحاب الماشية اتصل بها تليفونيا ليقول أن قطيعا من الماشية يتجه شمالا علي الطريق المرتفع .

ووضعت أصابعى بين أسناني وأطلقت صفيرا مرتفعا مناديا كلبي كنج ، ثم طلبت الى داتش أن يجمع رفاقنا الصغار بينما أذهب أنا لأعقد صفقة مع راعى القطيع .

كان علي أن أحصل علي حصان من مكان ما . وكان أول من فكرت فيه ، هو «نبتو» جواد ايفا سنو الذي تقوده دائما الي المدرسة وهو يجر عربة قديمة ، ولم أكن قد رأيت أحدا يحاول ركوبه ، ولكنني لم أفكر في ذلك وأنا أعدو نحو ساحة المدرسة وكنت أعتقد أن ايفا سوف يسعدها أن تؤجره لي مقابل ربع دولار .

كان الزمام لايزال موضوعا علي نبتو ، وعندما تسلقت ظهره ، أصابه الخبل ، وقبل أن نخرج من فناء المدرسة كان قد ألقي بي عن ظهره ، ولكنني ظللت أمسك حبل المقود واستطعت أنأتسلق ظهره مرة أخري، وهنا أخذ نبتو يقفز في سيره ، ولكنه لم يقذف بي بعد ذلك، وعندما ضربته بطرف الحبل ، انطلق بي نحو الطريق المرتفع بأقصي سرعة .

كان الخط الحديدي يسير بجوار الطريق المرتفع ، وكان القطيع قد اقتحم سور الاسلاك الشائكة بين الطريق والقضبان ، واستطعت أن أري الماشية وهي تدخل ممرا منحوتا في تل مرتفع ، وكان هناك ثلاثة أو أربعة من الفرسان بين الماشية يلوحون بحبالهم ويطلقون اللعنات بصوت مرتفع استطعت أن أسمعه

فوق صياح الماشية ، وكانوا يحاولون اعادة القطيع الي الوراء ، ولكن دون جدوي .

وعندما دفعت نبتو من خلال فجوة في السور ، واتجهت نحو رئيس الرعاة وكنج في أعقابي صاح رئيس الرعاة قائلا : « اسرع بالابتعاد من هنا مع هذا الكلب قبل أن تدهسك الماشية» .

وازداد تأثري الي حد أنني رددت عليه صائحا : « لن يكون لديك أي قطيع يدهسني اذا لم تخرجه من هذا الشق قبل أن يصل قطار البريد .. الذي سيصل الان » .

كنت أحاول أن أفكر ماذا يفعل أبي لو أن لديه ماشية في مثل هذا الموقف السيىء ، وخطرت الفكرة ببالي في ذلك الحين فصحت قائلا : « لا تحاول اعادة هذه العجول الى الوراء ابعث رجالك فوق التل لايقافها عند هذا الطرف ، ثم اخرج هذه من ذلك الطريق !»

وبدأ يطلق صيحاته كالثور ويلوح بذراعه للرجال لكي يتبعوه الي التل ، بينما انطلقت أنا فوق صهوة (نبتو) داخل القضيب الحديدي ، حيث استطعت أنا والكلب كنج أن نقود القطيع الي أسفل وهو يخرج من الشق ، وبعد أقل من دقيقتين من اخراج آخر عجل ، رأيت قطار البريد قادما !

وبعد أن مر القطار بجوارنا ، أخذ العرق يتصبب من رئيس رعاة البقر وجواده ، بينما راح يطلق سيلا من الشتائم واللعنات عليالماشية والاسوار والخط الحديدي وبلدة ليتلتون وانتظرت الى أن هدأ بعض الشىء ثم حدثته عن احضار عشرة أولاد لمساعدتي ، لكي نخرج قطيعه من البلدة بسلام مقابل عشرة دولارات . فصاح قائلا :

ـ هذا ثمن باهظ !

ثم ابتسم في وجهي وقال : «أعترف أنني حصلت منكم علي ما يساوي عشرة دولارات ولكنك لن تحصلعليها الا بعد أن يخرجني رفاقك منالبلدة» .

وقضينا وقتا عصيبا ، اذ ما كدت أعود مع داتش والاولاد ، حتى كان القطيع قد تناثر علي طول الطريق المرتفع لمسافة ميلين ، واقتحمالاسوار في ١٢ مكانا مختلفا . وكانت الساعة قد بلغت الثالثة تقريبا قبل أن نجمعه وننطلق به من خلال البلدة ، وقد استبد بي الخوف من أن يندفعالقطيع نحو النهر ، بعد أن أصابه الجفاف الشديد .

وفي الوقت الذي بلغنا فيه البلدة ،

كانت المدرسة قد صرفت التلاميذ بعد انتهاء اليوم الدراسى ، ورأيت الاولاد يخرجون من الفناء أفواجا ، فأرسلت داتش يعدو لكي يخبر أكبـر الاولاد بأننا ننتظرهم لمســاعدتنا علي ضفة النهر. وكانت الفتيات أفضل الجميع. ويخيل لى أن هذه الماشية لم تر فتيات من قبل ، فقد خافت منهن .. كان كل ماعلى الفتيات أن يفعلن لتوجيـه القطيـــع الى الطريق ، هو التلويح بجونلاتهن .

كان القطيع يضم أكثر من ٩٠٠ رأس ، فلم يشرد منا أي عجـل أو ثور ، وماكادت الساعة تبلغ السادسة حتي كنا قد أخرجناه جميعا من البلدة واتجه صوب الغرب .

وعندما صافحت رئيس الرعاة كان هنــاك شيء صلب في يده . وقال : « لقد أحسنتم صـنعا . ان بعضكم أيها الاولاد سوف يصـــبح من رعاة البقر الممتازين » ثم غمز لي بعينــه وقال : « والبنات ممتازات أيضا . ولو كنت منك لحرصت علي مكافآتهن جيدا .. هل تقبل صفقة مماثلة لك ولي في أكتوبر ؟» .

قلت : « أجل يا سيدي »

وعندما ســحبت يدي من يده ، وجدت بها قطعة ذهبية منفئة العشرة دولارات وذهبنا بها الي متجر شيلا بارجر حيث قمنا بصرفها واقتسامها.

***

في يوم معرض منتصف الصيف ، أردت أن أذهب الى ســاحة المعرض بنفسى وكنت أعرف أن رعاة البقر من مزرعة كوبر سيكونون هناك ، وكنت أشـــعر بحنين الى المزرعـة والجياد . وتساءلت عمـــا اذا كان الرجال سوف يتذكرونني ، ولاسيما «هاي» . لقد كان رئيسا لرعاة كوبر ، وهو الرجل الذي علمنى فعلا كيف أستخدم الجواد ، والذي اشتركت معه في القيام ببعض الحيل على الحصان في العام الماضى .

وذهبت الى ساحة المعـــرض ،. وتسلقت السور الذي يحيط بالجياد البرية . كان هناك حوالي ٤٠ حصانا تقفز داخله ، وكنت أدرسها ، عندما وجدت يدا تبعدنى فجأة عن الحظيرة .. كان هاي . لقـــد أدارنى من حوله بساق واحدة ، ثم رفعنى الى أعلى فوق كتفيه .. وصاح قائلا : «ياالهى .. انه ليتل بريتشز بعينه.. كيف حالك أيها الشريك ؟ »

لم أستطع الرد على هاي .. لاننى لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة .

وأنزلنى الىالارض وقال : «أراهنك

بحياتى على أنك لاتستطيع أن تخمن ماذا أضع في حظيرة الجياد ؟٠٠»

واستطعت أن أخمن٠٠ انه جوادي المحبوب !٠٠

واستبد بى التأثر الى حد أن صوتى ارتفع عاليـا يقول : « أهو سكاي هاي ؟٠٠» فضحك قائلا : « أصبت يالعين ٠٠ انه سكاي هاي »٠

كان سكاي هاي في الناحية الاخري من الحظيرة عنـدما توجهنا اليها ، ولكنه رفع رأسـه عندما ناديته ، وقد حمحم برقة ، ثم أخذ يسـير خببا نحو القضبان ٠

وقال هاي : أليس هذا جميلا ؟ انه يتصرف مثل مهر قديم وجـد فرسه المفقودة٠ وكنت عندئذ قد جلست فوق الحواجز وكأننى أمتطى صهوة حصان ، ووضع «سكاي هاي» أنفه في حجري ٠٠

في تلك اللحظـة كان مستر كوبر وكل عمال مزرعته قد أقبلوا نحونا٠٠ كانوا جميعا يتحدثون عن جواد ذي لون أحمـر مائل للاسمرار أحضره فريد أولتلاند من كانساس ، وقال انه يستطيـع أن يقطع الاربعمـائة متر كالبرق ، وكان مقررا أن يركبه توم بروجان في السباق الذي جعلت جائزته ١٠٠ دولار ، وراهن عليه كل الرفاق٠

وكان الرجال يعـدون جواد فريد الاسمر لتجربته ، وكل شخص يحاول أن ينصح بروجان بطريقة ركوبه ، وصحت أنا قائلا : « أراهن أن سكاي يستطيع التغلب عليه في أي وقت »٠

وضحكوا جميعا ٠٠ ثم قال فريد لتوم :

ـ دع ليتل بريتشز يركب جواده الى جوارك وأنت تعده للسباق ، فقد يمنع ذلك الجـواد الاسـمر من أن يصـبح عصبيا حتى يعتـاد شكل الارض هنا ٠٠

وخلال الجولة الاولى حول الحلبة، تركنا الجوادين يسيران في يسر لكي نريح أعصابهما ٠٠ كان سكاي يجري بخطوات سهلة بجوار الجواد الاحمر المائل للاسمرار في سهولة كأنه كلب صيد٠٠ وعندما بدأنا نقـوم بالدورة الثانية ، صنع جيري آلدر علامة لخط البداية ووقف هناك بمسدسه ذي الست طلقات ٠ وعندما أطلق المسدس، كان يخيل اليك أن الجوادين معا قد أطلقا من فوهة مدفع ٠

كان الجواد الاسمر هو الذي اندفع أولا ، ولكنه بنصف طول فقط ، وبعد أن قطعنـا خمسين مترا ، كان فى المقدمة مباشرة ٠٠ كان الجواد يجري في قفزات قصيرة وسيقانه تنطلق مثل

أعمـــدة الكباس ، أما سكاي فكان يجري بخطـوات طويلة قوية وقد مد رأسه الى الامام كأنه أوزة برية تطير في الهواء ، وكان علي أن أفعل شيئا لكي أجعل «سكاي» يجري بخطـوات أقصر ، وأكثر عددا ٠

ومددت جسمى على طول عنقــه حتى أصبح رأسى على مقربة من أذنيـه ، وبدأت أتحدث اليه وظللت أقول له مرة بعد أخرى : « هيا ٠٠ هيا ٠٠ هيا » وذلك على ايقاع صوت حوافره ، ثم بدأت أقولهـا بسرعة أكثر قليـــلا ٠ لم أكن أصرخ ، بل أقولها بسهولة، بالطريقة التى يتحدث بها هاي دائما الى أي جواد ٠

وظل الجواد الاسمر في المقـــدمة أغلب الطريق ٠٠ ثم صحت قائلا : «انطلق ياسكاي !٠٠» وضربته بالزمام ٠٠ فانطلق فعلا بينما ظللت أقول له : «هيا ٠٠ هيا ٠٠ هيا»

وكانت مســـافة الاربعمـائة متر قصيرة بالنســـبة لنا ، فلم نفز الا بأنف الجواد !

وضرب «هاي» ساقه بيده وصاح قائلا : « بحق السماء ٠٠ لقد ظننت ياليتل بريتشز أنك ستضع رأسك عبر خط النهـــاية أمام رأس «سكاي» العجوز ٠٠ ماذا كنت تقول لهـــذا الجواد ؟ »

ولم يفز الجواد الاسمر في السباق الحقيقى أيضا، بل فاز جواد باتشليت الكستنائى بنصـــف طـول ٠ كان باتشليت هو تاجر الماشية الكبير في ليتلتون ٠ وأعتقد أنه تناول بضـــع كئوس لانه عندما جاء لكي يحصـل نقوده ، قال لفريد ان جواده الاسمر ليس ممتازا ، وأن أي عجل بقر كان في استطاعته أن يتغلب عليه في أي يوم ٠٠ وقد اضطروا الى امســـاك فريد لمنعــه من أن يصوب لكمة الى مســـتر باتشليت ، وقد ظننت أنه ستنشب معركة حامية ، ولكي هاي خطرت بباله عندئذ فكرة اجراء سباق بين الجوادين بمجرد انتهاء برنامج السوق ٠

وقبل الســـباق بقليل ، صحبنى فريد وهاي واشـــتريا لى شـطيرة باللحم المشـــوي ، وقال لى هاي : سوف تمتطى صـــــهوة جواد فريد ياليتل بريتشز ٠ ولكن عليك أن تهتم بنفســـك فان باتشليت سيعهد الى «لوبو» بركوب جـواده الكستنائى ، وهو رجل‌خشن ، فكن شديد الحرص في عدم الاقتراب منــه ٠ ولكنك اذا تحدثت الى الجواد الاسمر بالطريقة التى فعلتها مع سكاي ، فانك تستطيع

أن تكسب السباق دون أن تقترب منه ..

وقال فريد أولتلاند : «هذا صحيح ياليتل بريتشز .. يجب أن تفهم أن هذا ليس سباق موت أو حياة .. هناك مبلغ ضخم للرهان عليه حقا ، ولكن اذا شرع لوبو في التحرش بك، فانسحب فورا، فان أي سباق لايستحق ايذاءك » ..

كنت أعرف لوبو .. كان ضئيل الجسم ، ولكنه قاس كسوط من الجلد ، وكان دائم الشجار في كل حانة بالبلدة ، ولكنه كان يستطيع ركوب أي شيء له أربع سيقان !

وقلت لهما : «هونا عليكما .. سوف أظل بعيدا عنه» .

كان نصف الرجال الذين تجمعوا حول حلبة السباق من أبناء الريف عندما ركبت أنا ولوبو الجوادين ، وكانت أصواتهم تبدو أشبه بسرب من الغربان .. ولم أعرف قط كم من النقود راهنوا بها على هذا السباق. ولكن رفاقنا راهنوا بكل مايستطيعون، وأظن أن أغلب الحاضرين فعلوا ذلك أيضا .

وسار «هاي» بجوار الجوادالاسمر وجواري وقد وضع يده على ركبتى التى كانت ترتعش ، ولكن كلما كنت أحاول السيطرة عليها ، كانت تزداد ارتعاشا .. وظل هاي يتحدث الي بلطف طوال الطريق ، بنفس الطريقة التى يفعلها مع جواد أصابه الفزع، ولكن كل ماأستطيع أن أذكره من حديثه هو : «لاتدخر وسعا ياليتل بريتشز .. لاتدخر وسعا » .

وفاز لوبو في القرعة ، واتخذ الجانب الداخلى بجوار الحاجز . وبدأ الجوادان جريهما معا عندما انطلق صوت المسدس ، وسارا جنبا الى جنب ، وقد حرصت على أن يبقى الجواد الاسمر على مسافة متر بعيدا عنالجواد الكستنائى ، وعندما اقتربنا من الدوران كنت لاأزال على مسافة حوالي نصف متر منه ، وبدأ الجواد الآخر يبتعد عنا..كان جوادي الاسمر يبذل كل ما في استطاعته ، ولكننى مددت جسمى على طول عنقه ، والتقطت ايقاع حوافره وبدأت أناديه: «هيا .. هيا» ولكن الجواد الكستنائى ظل يبتعد عنا ببطء الى الامام حتى أصبح ذيله محاذيا لكتفى .

كنت منهمكا تماما في الحديث الى الجواد حتى أننى نسيت ما قاله لى «هاي» عن الابتعاد عن الجواد الآخر، وعندما عدنا الى الطريق المستقيم ، كنت قد اقتربت جدا من الجواد

الكستنائى وبدأ جوادي يتقدم، وبينما كان ذيل الجواد الآخر يمر بجوار كتفى ، رأيت «لوبو» يستدير نحونا، وبعد ثانية كان سوطه يسقط على أنف جوادي الاسمر ٠

وارتعد الجواد ، ثم اندفع للامام في غضب حتى أصبح رأسه بحذاء ركبة لوبو ، ثم سبقناه ٠ والتفت لوبو نحونا وبصق كمية كبيرة من عصير التبغ في عينى جوادي مباشرة وتناثر بعضه في عينى أنا أيضا ٠٠ وقفز الجواد قفزة جانبية ، حتى كدت أسقط عن السرج ولكنه لم يقلل من سرعته قط ٠ كان كل مااستطعت رؤيته هو المنصة الكبري ٠٠ وكان فمى ملتصقا بأذنى الجواد عندما بدأت أصيح به : « انطلق ! انطلق»٠

وانطلق الجواد الاسمر بصورة لم أر مثلها في حياتى قط ٠٠ ودوي صوت الجمهور كأنه قطيع ماشية أجفل فجأة ٠٠ كانت عيناي ملتهبتين، ولكننى استطعت أن أفتحهما وأري الخطوط البيضاء المطموسة للحاجز الخارجى ٠ وجذبت الزمام القريب حتى لانحتك به وفي اللحظة التالية ، التفت ذراعا هاي حولى وانتزعتنىمن داخل السرج !

ولم أعرف أننا فزنا الا بعد أن وضعنى على ركبتيه بجوار مضخة الماء، وصب فريد ماء باردا في عينى٠٠ وكان مستر باتشليت هناك أيضا ، وقد انحنى علي وقال بصوت رقيق كأنه صوت امرأة : « ياللشيطان الصغير المسكين» وظل يقول : « لم أر قط مثل هذه الشجاعة في الجياد والرجال طوال حياتى» ٠

لم أكن قد أصبت بأي أذي حقيقى، وان كانت عيناي تلسعاننى ، وبعد فترة قصيرة تحسنت حالتى٠ وبينما كنت أنا وهاي نسير معا نحو بوابة الخروج ، أبلغنى هاي أن مستر باتشليت سوف يضع عينيه علي الآن بعد فوزي في السباق ، وأنه يستطيع أن يعرض علي كثيرا من الاعمال٠٠ ثم قال : « ان باتشليت ليس رجلا خسيسا ٠٠ كم أود لو أنك رأيته وهو ينتزع « لوبو » من فوق جواده الكستنائى ويضربه ٠٠ ان باتشليت العجوز لا يتغاضي قط عن مثل هذه الخدع » ٠

كان شهر يوليو شديد الحرارة ، وكنت أشعر بوطأتها في الايام التى أقوم بها بانتزاع الحشائش منحديقة مستر ويلكى ، ولكننى كنت أستطيع على الاقل أن أجد نسمة من هواء ، ولكن أمى وأختىجريس كانتا تصليان

هذه الحرارة فقد كان المطبخ ساخنا كأنه قلب الموقد ، وكلما ازداد الجو حرارة ، زادت طلبات الطعام المطهى التى أحصل عليها • وأعتقد أن أغلب السيدات في ليتلتون لابد قد توقفن عن الطهى !

وفي بعض الاحيان كانت أمى عندما تنصب قامتها أمام الموقد ، تضع يديها معا على ظهرها وتبدو أكبر سنا بكثير •• وكان وجهها وكتفاها أكثر نحولا ، ولكنها كانت تبدو منهارة في الوسط وكأنها ذابت في تلك المنطقة ، وقلت لها : « اننى أخشى أن تقتلى نفسك بالعمل بهذه المشقة أمام هذا الموقد الساخن» •

وأنزلت أمي يديها من ظهرها ، وشدت قامتها وقالت : « كلا •• كلا •• اننى على مايرام » •ثم قامت بتسوية ثيابها وقالت : « ياالهى •• لقد أصبحت شديدة الاهمال في نفسى منذ مات أبوك • يجب أن أحصل على مشد جديد «كورسيه» فقد أصبح مشدي في حالة يرثى لها » •

وفي ذلك اليوم قضيت نصف ساعة تقريبا في شحن عربة الطعام بما طهته أمى ــ ٢٦ فطيرة ليمون و٢٢ دستة كعك ، و١٦ فطيرة تفاح ، وفاصوليا ، وخبز أسمر •

وقالت أمى : «ستكون هذه أكثر شحناتنا ربحا ••» وبعثت جريس لمساعدتى أنا وفيليب •

كانت الحمولة مرتفعة الى حد أن كل مكان غير مستو في الطريق كان يجعلها تهتز ، وكان فيليب يجر العربة ، وأنا وجريس ندفعها من الخلف ، ونحن نوازن الحمولة أثناء الجر ، وقد سار كل شىء على مايرام حتى أقبلنا على منحنى في الطريق ، وعندئذ بدأت الحمولة تترنح ناحيتى، فأسرعت جريس لمعاونتى •• ولعلنا دفعنا العربة بقوة أكثر مما يجب ، فقد اهتزت الشحنة الى الوراء ، وتمايلت ثم سقطت على الارض ، وانسكب كل مافيها على العربة !

وبقى فيليب وجريس هناك ريثما عدت الى البيت لاخبر أمى ، ولا أعرف شيئا كان أكره على نفسى من هذه المهمة • كانت ترقد على أريكة في غرفة الجلوس ، ولكنها ماكادت تري وجهى ، حتى جلست بسرعة وسألتنى : «ماذا حدث يابنى ؟ هل تحطمت العربة ؟ »

لم تغضب ، بل قالت هذه الكلمات بنفس الهدوء الذي تقول به : « هل السماء مليئة بالغيوم ؟ »

ولو أنها ثارت غضبا لما بكيت ••

ولكن سلوكها الرقيق هو الذي أصابني بالاضطراب ، فبكيت ·· ولا أذكر أنني ركعت بجوارها ، ولكنني أذكر أنها راحت تمر بيدها على شعري في رفق وتقول : « كلا ·· كلا يابني·· ليست هذه هي الطريقة التي يتصرف بها الرجل ·· ان لكل عمل نكساته· والآن اذهب واجمع بقايا الطعام في دلاء لاجل الدجاج ، ثم أبلغ زبائنك أننا أصبنا بحادث صغير ولا نستطيع تنفيذ طلباتهم اليوم » ·

وأعتقد أنني أحببت أمي في ذلك اليوم أكثر من أي يوم آخر ·· لقد ظللت طوال الطريق أفكر في عدم تقريعها لي ، وأذكر كيف كانت تبدو متعبة منهارة · وقبل أن أصل الى آخر بيت ، كنت قد عرفت ماسأفعله·

كان عندي بعض النقود التي جمعتها من مستر ويلكي مقابل تشذيب حديقته ، فانطلقت رأسا نحو متجر الثياب العام وقلت لمسز ريتشاردز التي تعمل هناك انني أريد شراء مشد «كورسيه» لامي ، من النوع المعروض في الواجهة بدولار واحد ·· فنظرت الي في شيء من السخرية وقالت :

«هل أنت ابن مسز مودي الصغير؟ لقد ازدادت أمك بدانة أخيرا ·· أليس كذلك ؟ »

فقلت لها : « كلا ·· ولكنها أصبحت كثيرة الانشغال منذ مات أبي ، وقد أصبحت مشداتها ممطوطة بسبب نيران الموقد » ·

وعندما عدت الى البيت ومعي المشد الجديد، أغرورقت عينا أمي بالدموع· وقالت لي انها سوف ترتديه يوم الاحد مع أفضل ثيابها ·· وكنت أخشى ألا أكون قد اشتريت نوعا مناسبا ، ولكنها قالت انه النوع الذي كانت تنوي شراءه بنفسها، أو أرخص قليلا ··

***

وبعد ذلك استعدنا فرستنا «ليدي» فقد كانت أعمال الطهي تكسبنا مالا، وأصبحت الطلبات أكبر من أن تتسع لها عربتنا الصغيرة ·· وأصبح الطريق الذي تقطعه أطباق الطعام المطهي أكثر سهولة بفضل «ليدي» والعربة ذات الزنبركات ، وكنت أعمل مع أخي فيليب في قيادتها ، ولكن أمي وجريس كانتا ترهقان نفسيهما بالعمل الى حد كبير ، وأصبحت أمي تصاب بنوبات دوار ، وكلما شدت قامتها أمام الموقد ، كانت تعض شفتها وتضع كلتا يديها على ظهرها ·

ثم حدث في أحد أيام السبت أن قالت لي : « قل للسيدات أنك لن

تحضر لهن شيئا خلال الاسبوعين القادمين، فاننا سنتأخذ عطلة قصيرة»

وذات صباح ، لم تتناول أمى شيئا خلال الافطار ، بل انها لم تجلس أمام المائدة ، بل ظلت تدور في أرجاء المطبخ وفي يدها قدح من الشاي الساخن٠٠ ثم قالت : « ألا يكون يوما لطيفا لكم اذا ذهبتم في نزهة خلوية طوال اليوم ؟٠٠ ان عندي رسائل كثيرة أريد كتابتها ولا أريد أن يزعجني أحد ٠٠ اعدي بعض الشطائر واللبن ياجريس» ٠

ثم أرسلتني برسالة الى مسز روبرتس ٠ وبعد أن طالعتها مسز روبرتس ، قالت انها ستحضر لرؤية أمى بعد بضع دقائق ٠٠ وعندما شرعت في الانصراف ، قالت لى : «عليك أن تبقى الاطفال في الخارج طوال اليوم ٠ ان أمك أمامها يوم حافل بالعمل ، ولايمكنها أن تتحمل ازعاجكم لها بالدخول والخروج » ٠

ومع أننى لم أفهم شيئا من ذلك، فاننا ذهبنا في نزهة خلوية ، وعندما عدنا الى البيت بعد الظهر ، قابلنا الدكتور براون عند الباب وقال لنا : « ان لدي أمكم شيئا تريد أن تعرضه عليكم »، وتبعناه جميعا الى غرفة أمى ٠٠

كانت أمنا تجلس في فراشها وقد ابيض وجهها حتى أصبح أشبه بغطاء الوسادة ، ولكن كانت هناك ابتسامة خافتة على فمها ٠٠ وسرنا جميعا على أطراف أصابعنا نحو الفراش ٠٠ وهنا رفعت أمنا الغطاء وقالت :

ـ هذه أختكم الجديدة٠٠ اليزابيث ٠٠ أليست جميلة ؟

وأحسست بشعور أحمق ، وأعتقد أن جريس أحست به أيضا ٠٠ لقد كنا نعرف مايكفى عن الامهار، والارانب والاشياء الاخري التى تولد، مما يجعلنا نحدس سبب المشكلة التى كانت تعانيها أمنا ٠٠ ولكن أحدا منا لم يخطر ذلك قط على باله !

***

في ذلك الخريف ، انتقلت الى السنة السابعة الابتدائية ٠ ولكن بعد أن بدأت المدرسة ببضعة أيام ، أصبنا جميعا بالحصبة ، وكانت جريس أسوأنا حالا حتى كادت تموت ٠

وقدم لنا جيراننا كل مااستطاعوا من معونة خلال تلك المحنة ، ولكن في الوقت الذي سمح فيه الطبيب لاختى جريس بالنهوض من فراشها، كانت أمى تبدو مريضة مثلها ٠٠ لقد أصبحت نحيلة جدا ، وغارت عيناها

وقد أحاطت بهما دوائر سوداء ٠

وفي أواخر نوفمبر ، كانت جريس قد استردت قواها ، ولكن أمي كانت لاتزال ضعيفة بسبب الوضع ، وتمريضنا جميعا خلال الحصبة ٠٠ وبدأنا عملية الطهى والتوزيع مرة أخري ٠ ومع اننى لم أكن أحضر طلبات كثيرة ، فان أمي لم تعد تقدر على اعدادها جميعا الا بصعوبة ٠٠ كانت لاتزال تشعر بالدوار أمام الموقد ، ولكن الشيء الذي كان يؤلمها أكثر من غيره هو القلق بشأن الشتاء الذي سيقبل قبل أن نستعد له ٠٠ وكنا قد استنفدنا مدخراتنا لسداد ماعلينا ، بل واضطررنا الى بيع بعض فاكهتنا المحفوظة حتى نستطيع أن نشتري أحذية وثياب الشتاء الداخلية ٠٠

وبعد أن تناولنا العشاء ذات مساء ، أخذت أرقب أمي وهي تحيك الثياب ، واستطعت أن أري أنها تعانى متاعب في ابقاء عينيها مفتوحتين ٠٠ وحتى عندما تفتحهما ، فانهما لاتنظران الى ماتحيكه ، بل تتجهان رأسا الى التقويم السنوي الموضوع على الحائط ٠٠ وفجأة قالت : « ألم أر هذا البناء في مكان ما ؟ »

ونظرت الى التقويم وقلت : «أعتقد أن أغلب الناس رأوه ٠٠ هذا هو فندق «براون بالاس» في دنيفر» ٠

وأشرق وجه أمي اشراقا لم أره منذ شهور وقالت : «أعتقد أن عندي فكرة ياأولادي ٠٠ سأذهب أنا وأنت يارالف الى دنيفر غدا» ٠

كانت أمي تظن دائما أننى أقود الجياد بسرعة بالغة ٠٠ ولكنها فى الصباح التالى ، كانت هي التى تريد أن نسرع ٠ ولم أسأل أمي عما ستفعله في دنيفر بعبارات صريحة ، ولكننى ألمحت الي ذلك قدر استطاعتى ٠٠ فكان كل ماقالته هو : «أعتقد أن الله حدثنى ليلة أمس ٠٠ لابكلمات صريحة ، بل بالوحي » ٠

وعند فندق «براون بالاس» ترجلت، وطلبت منى أن أنتظرها وقالت ان لديها شيئا تريد أن تتحدث عنه مع المدير ٠ وعندما خرجت بعد حوالي نصف ساعة كان معها حمال يحمل لفافة تكاد تبلغ نصف حجمها، وكانت أمي تبدو سعيدة جدا ، فقد ارتفعت قامتها عندما جلست في السيارة وانطلقنا بها ، وأدركت أنها فخور حقا بشيء ما ٠

وقالت لى : « لقد أرسلتنا العناية الالهية الى هنا يابني ٠٠ ومعى الآن لفافة كبيرة من الستائر المزركشة

الخاصة بفندق «براون بالاس» لكي أصلحها وأغسلها ، ولكنى واثقة من أننى أعرف كيف أقوم بهذا العمل٠٠ انها مجرد عينة بطبيعة الحال، ولكننا اذا نجحنا فيها ، فاننا سنحصل على ٣٠ سنتا عن كل زوج من الستائر»٠

وعندما عدنا الى المنزل ، نظرت أولا الى تقويمنا السنوي ٠٠ لم أكن قد لاحظته من قبل ولكننى رأيت الآن أن كل نافذة في صورة الفندق كانت مغطاة بستارة مزركشة !

***

لم يكن الامر سهلا كما حاولت أمى أن تصوره ، فقد كانت كل الستائر التى في اللفافة في حالة يرثى لها ، وكأنها خرق قديمة مملوءة بالثقوب ، كما كانت من أحجام مختلفة ٠ وقالت جريس : « انها مجرد مجموعة من ستائر عتيقة مهمله ٠٠»

وبدت خيبة الامل على وجه أمى كذلك ، ولكنها حدثتنا عن رقة المدير معها ، وكيف أنه أتاح لهم فرصة لاظهار جدارتهم بالعمل في الستائر الاخري الجيدة ٠

وظللنا نعمل في اصلاح هذه الستائر طوال الاسبوع ، وقد بذلنا جهدا كبيرا لفرد الستائر المزركشة التى لايمكن كيها ، كما أمضت أمى وجريس ساعات طويلة في البحث عن افضل طريقة لاعادة نسيج الفجوات، ورفو الاطراف الممزقة ٠٠ وفي نهاية الاسبوع كانت يدا أمى ترتعشان ، فاضطرت أختى جريس الى اكمال العملية بمفردها ، بينما قامت أمى بطهي الاصناف التى أحضرت أنا طلباتها ٠

ولكن هذا التجهد كان جديرا بما بذل فيه ٠٠ فعندما رأي مدير الفندق ورئيس الخدم فيه في يوم الاثنين هذه الستائر العتيقة وقد بدت شبه جديدة، لم يعد هناك شك في أننا سنحصل على كل ستائر الفندق المزركشة مقابل ٣٠ سنتا للزوج ٠

ولم تكن الستائر التى عدنا بها الى المنزل في تلك الليلة كلها في حالة سيئة ، بل كانت مطوية بعناية ، ولم يكن بها فجوات الا قليلا ٠٠ وقالت أمي وهي تنظر اليها :

ـ اننى واثقة الآن أن الله تحدث الي ٠٠

وقالت جريس وهي ترسم بأصابعها دائرة على احدي الستائر :

ـ اننى واثقة أنه حدثنى عدة مرات في الايام الاخيرة ٠

فقالت أمى : « أجل ياعزيزتى٠٠

وماذا قال لك ؟ »

ولم ترفع جريس رأسها ، بل قالت : «قال انك ستقتلين نفسك اذا لم نترك عملية الطهي » •

وسكتنا جميعا لحظة • ثم التفتت أمي نحوي وقالت : «يابني •• عندما تسلم طلباتك يوم الاربعاء يمكنك أن تقول لزبائنك أننا سنغلق فرع الطهي• ولا تنس شكرهم على تعاملهم معنا» •

وفي الربيع ، كانت أمي وجريس تقومان باصلاح وتنظيف عدد يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ ستارة في الاسبوع ، وكنا نحصل من ذلك علي ما يكفي لدفع ايجار المنزل وفواتير التموين وجزء من ملابسنا • وكنت أنا وفيليب نشتري ملابسنا الخاصة ونضع بقية النقود التي نكسبها في البنك وكنت أحصل من الارانب التي أربيها علي ما يكفى لشراء الحبوب اللازمة للفرس «ليدي» والبط والدجاج •

***

في يوم الاحد الاخير من شهر مايو، سمحت لي أمي بركوب الفرس الي مزرعة كوبر لقضاء اليوم هناك ، وكنت أريد أن أري «هاي» بطبيعة الحال ، وتصادف أن كان مستر باتشليت هناك أيضا في ذلك اليوم • وكنا نقف جميعا حول حظيرة الخيول عندما عرض علي مستر كوبر ٢٥ دولارا شهريا اذا شئت أن أعمل في مزرعته •

فقال باتشليت علي الفور : « سأدفع له أكثر من ذلك •• انني أعرض عليه مائة دولار للعمل خلال الصيف» ثم نظر الي وقال : «سأقوم برحلة الي الجنوب وسأجمع مائتي رأس من أبقار الحلب لكي أبيعها في دنيفر هذا الخريف ، وسأعود في أوائل سبتمبر •• فهل تحب أن تأتي معي ؟

وسرني أن أجد الاثنين يرغبان في استئجاري بأجر مرتفع ، ولكنني قلت بصوت ثابت : « انني أود أن أعمل لحسابكما أنتما الاثنين •• ولكنني سأفكر في الامر » •

وسرت أنا وهاي الي عنبر رعاة البقر •• لم كن قد ذكرت شيئا عن عودتي ، وأحسست بشعور من الضيق وقلت له :

ـ ألا تريدني في المزرعة يا هاي ؟

فأخرج علبة الطباق ، وصنع لنفسه سيجارة قبل أن يقول : « أنت تعرف ياليتل بريتشز انني اريدك في المزرعة ، وكل رجالي يحبون ذلك •• ولكني لا أريدك ان تكون راعى بقر عاديا •• واذا جئت هنا فانك لن تتعلم

شيئا لا تعرفه الان ، أما اذا ذهبت مع باتشليت فانك سوف تتعلم حرفة وتعرف كيف تصبح تاجر ماشية »

وعندما حان وقت الانصـــراف ، سار هاي معي حتي الطريق العام ، وقبل أن ألمس الفرس بطرف مهمازي، نظر الي وقال : « تستطيع أن تقول لأمك أنني أقول أن باتشليت رجـــل صالح » ثم لوح لي بقبعته ، واستدار عائدا الي عنبر رعاة البقر ٠

ولم أجد ما يدعو لاخبار أمي عما قاله «هاي» ، فقـد حدثها باتشليت بنفســـه قبل أن أجـــد في نفسي الشجاعة للتحـــدث في الموضوع ٠٠ وهكذا فانني عندما تحـدثت اليها ، كان الجو مهيأ من قبل ٠٠ وقالت لي أمي : « ان غلاما في الثانية عشرة من عمره اصغر من ان يتولي مثل هذا العمل ، ولكنني أدرك أن الظروف قد أتاحت لك خبرة أعظم بكثير ممايعرفه غلمان في مثل سنك ٠٠ وانني واثقـة أنك تستطيع أن ترفع رأسك كأبيـك تماما ، ومن ثم فقد قلت لمســـتر باتشليت أنك تستطيع الذهاب معه »

***

كانت هذه هي الطريقة التي يعمل بها مستر باتشليت ٠٠ ان قلائل من الناس هم الذين يحتفظون ببقـــرتهم بعد انتجف ضروعها ، بليستبدلون بها بقرة جديدة مقابل خمسة او عشـرة دولارات اضـــــافية ٠ وكان لمسـتر باتشليت مزرعة مساحتها ٥٠٠٠فدان قرب كولورادو ســـــبرنجز ، وكان يشتري الابقار التي جفت ضروعهـا بسعر رخيص ، ويبقيها هناك حتي يقترب موعد انجابها عجـولها ، ثم يعيدها الي ســاحاته في «ليتلتون» ، ويبيعها بعد أن تفطم العجول ، وبهذه الطريقة كان يحصــل علي العجل ، فضلا عنالمبلغ الاضافي !

وفي يوم الثلاثاء السابق لعيـــد العمل في أوائل سبتمبر ، بدأنا نجمع الابقـــار التي سننقلها الي ليتلتون ، وكانت هناك حـــوالي ٦٠٠ بقرة في مزرعة باتشليت يومئذ ، وقد أطلقت علي كل واحدة اسم سيدة من سيدات ليتلتون ، فقد كانت أبقار اللبن أشبه بالناس وكل منها تختلف عن الاخري

وكانت عملية جمع الابقار بطيئة، فالابقار الثقيلة ذات العجول تحب أن تسير وحدها ، وهكذا كانت الستمائة بقرة متناثرة علي مسافات بعيدة في المزرعة ذات الخمســة آلاف فدان ، وعند غروب يوم الجمعة لم نكن قد جمعنا في الحظائر الا أقــل من مائة بقرة !

وهكذا قال مستر باتشليت إثناء العشاء : « لقد وعدت أم ليتل‌بريتشز باعادته في عيد العمل ·· ويبدو من سير الامور الآن اننا قد لا نستعد للرحيل قبل أسبوع ولكن يبدو لي أن هناك ١٢ رأسا قد تضع عجولا قريبا جدا اذا لم تنقل ببطء شديد جدا · ومن ثم فانني أري أن أسمح للفتي بأخذها الان قبل أن يقترب موعد وضعها كثيرا ·· هل توافق علي ذلك يا ليتل بريتشز ؟· سيكون عليك ان تفرش غطاء وتنام كلما حل بك الليل » ·

وما كادت بشائر الفجر تبدو حتي كنت سائرا في طريقي ·· وخلال الساعتين الاوليين لم يكن هناك كثير أقوم به ، ولكن بعد أن ارتفعت الشمس ، بدأت أواجه المتاعب مع «مسز كالاهان» وهي أسمن بقرة في المجموعة ، وكانت تسير دائما وكأنها تحمل قرنين يؤذيانها · وكانت تحب أن تقف في ظل كل شجرة بلوط قصيرة نمر بها ·· وعندما أضربها بطرف الحبل كانت تكتفي بالنظر الي شزرا · وعند الغسق كنا قد قطعنا ٢٢ كيلومترا فقط ولكن الليل كان لطيفا باردا ، وسارت الابقار بصورة أفضل مما فعلت أثناء النهار وظللت أدفعها الي الامام حتي أصبحت واثقا أننا قطعنا ٣٠ كيلومترا ، ثم وجدت مكانا طيبا لاقامة معسكرنا فيه ·· وبسطت غطائي علي الارض، واستغرقت في النوم ·

كان نور الصباح لم يظهر بعد عندما استيقظت ·· فلم أجد «مسز كالاهان» ولكنني استطعت أن أسمع صوتها علي مقربة ، بجوار بعض الاشجار ·· كانت تبدو في الظلام أشبه بصخرة ضخمة تقبع هناك ·· وكان الي جوارها صخرة أصغر حجما ·· ان العجل الذي وضعته لم يزيد عمره على ساعة واحدة ·· وربت علي عنق مسز كالاهان وأنا أنحني لألقي نظرة علي صغيرها في الظلام · ونظرت لي وهي تتمتم وكأنها تقول : « هذا هو ابني المحبوب »

لم يكن في استطاعتنا ان نفكر في السير ذلك الصباح بهذا العجل الذي ولد لتوه وعندما شرعنا في السير بعد ذلك ، لم نقطع مسافة طويلة ، وقد يكون السبب هو زهد « مسز كالاهان » أو ربما أن وقت الوضع قد حان لغيرها ، وعلي أية حال فان بقرتين أخريين وضعتا عجلين في ليلة الاحد عندما بلغنا «لاركسبير» ·

وكانت المسافة من لاركسبير الي

«كاسـل روك» لا تزيد على ١٥ كيلومترا ، ولكننا قطعناها في خمسة أيام ، وعندما وصلنا الي كاسـل روك ، كان هناك عشرة عجول أخري ، أغلبها لايزال قادرا على السير على قدميه • وقال لي صاحب المتجر في «كاسل روك» انني أستطيع أن آخذ ما اشـاء من مواد التموين والحبوب وأنه سيحصل علي ثمنها من مستر باتشليت •• ولم أكن في حاجة الي شيء ، ولكنني أخذت فطيرة ليمون وأكلتها كلها بمجـرد الوصول الي أطراف البلدة •

ولم نواجه متاعب كثيرة في الوصول بعد ذلك الي «ليتلتون» اذ لم تعـد هناك أبقار أخري تضع ، فقطعنـا المسافة في يومين ، وكانت أبدع فترة في حياتي خلال ذلك الصيف ، ومع ذلك فقد استبدت بي السعادة عندما وصلت الي البيت !

وغمرت الفرحـة الجميع لعودتي أيضا •• وقد ضمتني أمي بقـوة وراحت تقبلني مرة بعـد أخري ، وكانت بين كل قبلة وأخري تحدثني عن مدي فخرها بي ، وانني سأبدو مثل أبي •• وكانت جـريس قد تحولت الي امرأة صغيرة في الاشهر الثلاثة التي تغيبت خـلالها • بينما بدت مورييـل وهال أطول عـدة سنتيمترات، وأصبحت الطفلة الصغيرة تسير علي قدميهـا •• وقد توردت وجنتا أمي ، وأصـبح فيليب يؤدي الاعمال المنزلية الصـغيرة ، وعلمت أن الاسرة تكسب كثيرا من اصلاح الستائر المزركشة ، كما أن جريس والاطفال كسبوا مبلغـا لا بأس به خلال موسم التوت والكريز•• وهكذا أصبح لدينـا حوالي ٣٠٠ دولار في البنك بما فيه الشيك الذيحصلت عليه من مستر باتشليت •

وعند العشاء في تلك الليلة جلست أمي أمام أحد طرفي المائدة وجلست أنا أمام الطرف الاخر في مقعد أبي الكبير •• وتحدثنا جميعا عما حدث خلال الصيف، وما سنفعله فيالشتاء، وكانت أسعد وجبة أكلتها في حياتي رغم أنني لا أذكر ما تناولنا ليلتئذ •

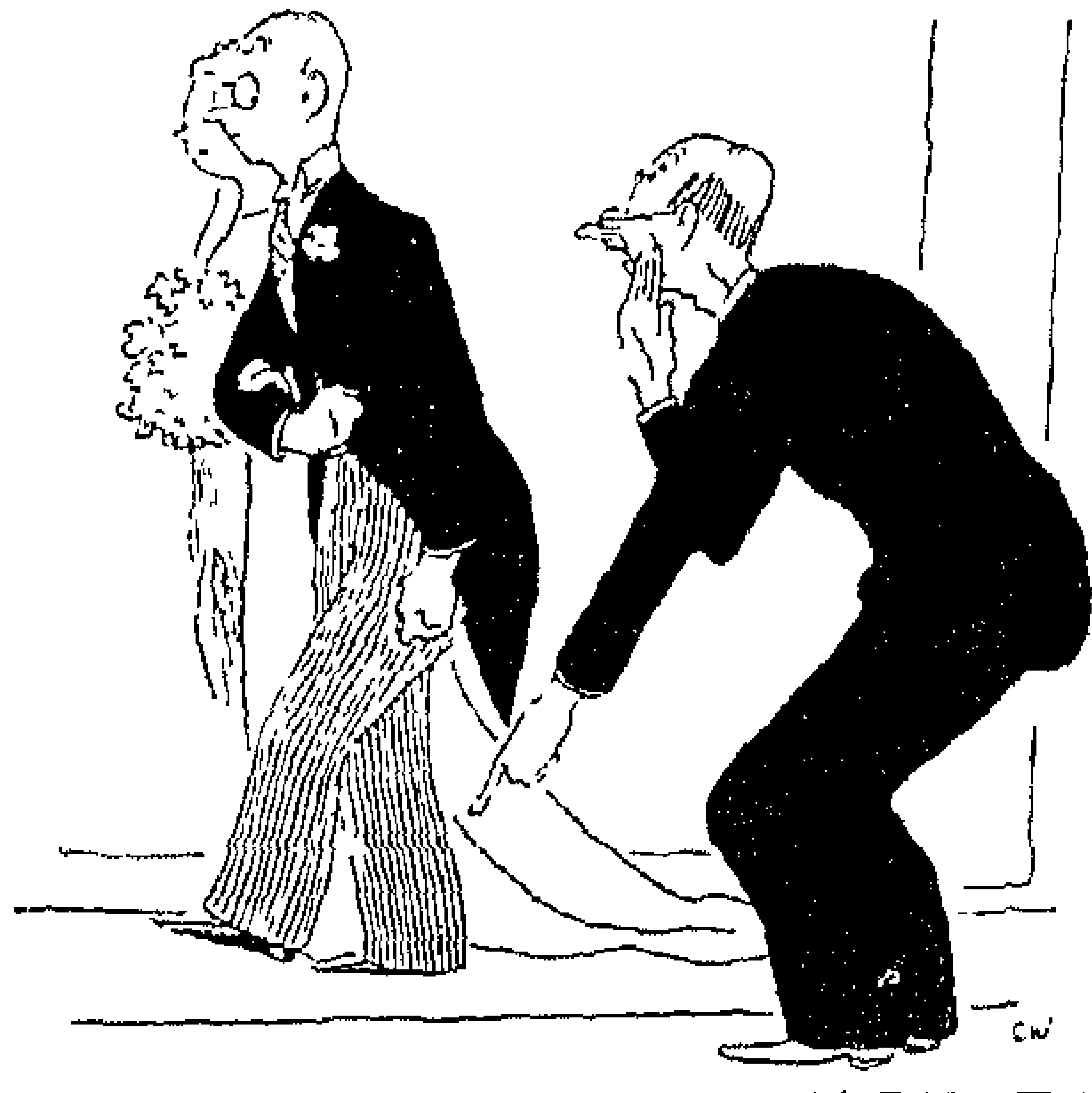


الشيء الناقص !

أولئك الذين يؤدون الرقصات الحديثة يمارسون كل شيء ••• ما عدا الخيال !

كتاب الشهر

والد العروس



ماذا يحدث لاعصاب الاب ودفتر شيكاته ، عندما تمضي ابنته في الطريق الطويل المؤدي الى حفل الزفاف ؟ ... ان ادوارد ستريتر يحكي لنا ذلك في كتابه الرائع ((والد العروس)) الذي قال عنه أحد النقاد : ((انه كتاب زاخر بالضحكات ، يجد فيه كل أب الشاعر الذي يروى قصته بعد طول عنـــاء)) ...



والد العروس

تلخيص كتاب

FATHER OF THE BRIDE



بقلم: ادوارد ستريتر

كانت الجهـــود التي كانت تبذلها كاي من اجل الزواج ، فان ستانلي بانكس لم يكن ينظر اليها بأى تحبيذ ، فقد كان مولعا بأولي فلذات كبده اكثر مما يدرك ٠

وقد ظل يرفض كل من طلب يدها طوال السنوات التي سبقت بلوغها سن العشرين ، فمنذ ان كشفت (كاي) عن نفسها بشعرها المتموج لعالم المجتمع اول مرة ، لم ينقطع الشبان المراهقون بشعورهم المهوشة وسيقانهم الطويلة عن التردد علي المنزل رقم ٢٤ بشارع مابل درايف ، ولكن مستر بانكس ظل يرمقهم جميعا بنظرات شزراء يشوبها الاصفرار ٠

وبينما كانت سنوات الشباب الغض تمضى قدما دون ان يبدو علي هذه الاتصالات ما يدل علي انها اكتسبت صـــفة الدوام ، بدأ البندول العاطفى لمستر بانكس يميل الي الاتجاه الآخر ، ووجد نفسه يتساءل عن العيب الكامن في ابنته ٠٠٠ تري ما الذي يجعـــل الرجال يخطرون في حياتها اسابيع او أشهرا قصيرة ٠٠٠ ثم يختفون بعد ذلك الي الابد ؟

وفجأة ــ ودون انذار ــ بدا بوضوح ان شيئا ما كان يحدث لكاي ٠٠ نوعا من الكيمياء يتفاعل بين جوانحها ٠٠٠ والملامح الساكنة الرزينة التي كانت تبدو بها دائمـــا في البيت قد حلت محلها اشراقة جعلتها تكاد تبدو في بعض الاحيان مخلوقة غريبة بالنسبة لمستر بانكس !

وسأل زوجته :

ــ ماذا حدث لكاي يا ايللي ؟ ان تصرفاتها تبدو غريبة ؟

فقالت مسز بانكس :

ــ لست ادري ٠٠٠ ربمــا كانت تحب ٠

وأصدر مستر بانكس اصواتا تدل على الازدراء ٠٠ وقال :

ــ تحب ! من ياتري هــــذا الذي نحبه ؟

ــ اتذكر ذلك الفتي المسمي «باكلي» او شيئا كهذا ؟

ــ اتعنين هذا المهرج الضخم الجثة العريض المنكبين ؟ ٠٠ هراء !

ولكن بينما كانت الايام تمر ، بدأت شخصية « باكلي » تزداد ظهورا فى الصورة ٠٠ لقد أخذ اسمه يتسلل الي أحاديث كاي بازدياد مطرد ، وان كان الحديث عنــه يبدو دائما بصـــــورة عارضة ٠

ولم يكن مستر بانكس يعـــــرف بوضوح اين تمضى كاي وقتها ٠٠٠ ولكن اينما كان ذلك ، فقد كان ظاهرا ان باكلي يقضى وقته هناك ايضـــا ٠ وفجأة احس بانكس بعودة مســــلكه القديم مرة اخري ٠٠٠ ان هـــــذه الفراشة الجديدة التي بدأت تطير علي مقربة من اللهب اصبحت تثير نفوره دون اي شك ٠

وخيم جو من التوقع الصامت علي أسرة بانكس ، كما يحدث في المسرح قبل رفع الستار ٠٠ ولكن شيئا لم يحدث ، وظلت كاي تبدو حالمة ، اما باكلي فانه في خـــلال فترات ظهوره القصيرة بغرفة الجلوس ينتظر كاي ، كان يحيط نفسه بجو من التعـــــالي المشوب بالقلق ٠٠ وبعد لحظات قليلة كان الاثنان يندفعان الي الليل في حرية وانطلاق ٠٠

***

ثم ثارت العاصفة فجأة ٠٠٠

كانوا مجتمعين حول مائدة العشاء في احدي المناسبات التي تتناول فيهـــا كاي طعامها في المنزل ــ والتي اصبحت تزداد ندرة ــ وكانشقيقاها الصغيران قد انصرفا مبكرين للذهاب الي دار السينما ٠٠٠ عندما قالت كاي بصورة عارضة :

ــ بهذه المناسبة يا أماه ٠٠٠ فانني لن اعود الي البيت في عطلة نهاية هذا الاسبوع ٠

وسألتها مسز بانكس :

ــ الي اين ستذهبين ياعزيزتي ؟

ــ سأذهب لقضاء هذه العطلة مع أسرة باكلي

والقى مستر بانكس قطعة خبـز جافة في حسائه ٠٠ ثم قال :

ــ هل ستتزوجين هذا الشخص ؟

فأجابت كاي :

ـ اظن ذلك .

وساد السـكون فترة لم يسمع خلالها شيء غير صـوت ارتشاف صلصة الطماطم في تأمل .. وأخيرا قطعت مسز بانكس الصمت سـائلة ابنتها في تهكم :

ـ ومتي تنويان الزواج ؟

ـ لا ادري حقا يا أمي .. ربما بعد شهور ، او بعد أسابيع .. ان كل شيء يتوقف علي مشروعات باكلي

كان صوت كاي يبدو اشبه بصوت معلمة مرهقة الاعصاب في روضـة الاطفال ... وازدفت تقول :

ـ ان باكلي حازم جدا بشأن هذا النوع من الاشياء ، فهو لا يريد ان يفعل شيئا يقيد حركته

وأحس مستر بانكس ان عنقه بدأ يصطدم بياقته ، ورشف جرعة طويلة من الماء ثم قال في صوت متوتر :

ـ ارجو الا يعتقـد باكلي انني فضولي او انني احاول ان أقيده ، اذا سألت قليلا من الاسئلة البسيطة .

وبدا الضجر علي وجه كاي .. بينما قال أبوها :

ـ من هو باكلي هذا بحق الشيطان .. وما هو لقبه ؟ .. ومن اين جاء .. ومن يظن انه سوف يعوله ؟ .. اذا كان يفكر في أنا فانه يجب ان يخمن شيئا آخر .. ومن بحق السماء ..

فقاطعته مسز بانكس قائلة :

ـ ستالي ... ليس بيننا احـد اصم ، ولا داعى لان تسب وتلعن مع كل كلمة . وتذكر ان «دليلة» تستمع الينـا في المطبخ ... اتح لكاي فرصة .. دعها ...

وفي تلك اللحظة ، انقلبت عليـه «كاي» ـ أعز مخلوق الي قلبه ـ وعارضته بلهجة جدية لاول مرة في حياتها .. قالت : « اصغ الي يابي .. انني في الرابعة والعشرين وباكلي في السـادسة والعشرين .. ونحن الاثنـان ناضجان .. وفيما يتعلق بمسألة اعالتك لباكلي فانني اقول لك الآن انه من النوع الذي لا يسمح لاي مخلوق بالانفاق عليه .. انه يفضـل ان يموت قبل ان يفعل ذلك ... انه من النوع الذي لا يعتمد أبدا علي أحد .. أما اسمه الكامل فهو « دانستان » .. باكلي دانستان ... وهو رجل أعمال رائع .. واعني رجل أعمـال رائع حقيقة .. ولديه الان عمـل مدهش ..

فسألها مستر بانكس :

ـ وماذا يعمل ؟

ـ اوه.. لاادري يابي..انهيعمل شيئا ما ... وهل هناك اية اهمية

حقا لما يعمل ؟ ٠٠ انه من النوع الذي يستطيع ان يفعل اي شيء ٠٠ اي شيء علي الاطلاق ٠٠ واما فيما يتعلق بأبويه فســـوف اقول لك هذا يا ابي ٠٠٠ انهما شخصان طيبان مثلك انت وامي تماما ٠٠

وكان في صوتها ما يوحى بأن في ذلك تقليلا من شـــأنهما ٠٠ ولاسيما عندما قالت :

ـ انهما يعيشـــــان في « ايست سميثفيلد » اظن ان ايست سميثفيلد مكان طيب مثل « فيرفيو مانور » التي نعيش فيها ٠٠ وان كنت لا اري اية أهمية لذلك علي اية حال ٠٠

ووافق مستر بانكس علي ذلك في صمت ٠٠

وهبط ضغط دمه بنفس السرعة التي



ارتفع بها حتي انه لم يكد يسمع ما قالته كاي ونسى كل شيء عن باكلي ٠ كان يتطلع الي وجه ابنته الذي كساه الاحمرار عندما تذكر طفلة صغيرة ذات ضفائر كستنائية ، وبنطلون قذر ، اعتادت ان تطير وراء شـــــقيقيها الصغيرين عندما يغيظانها كثيرا ٠٠

وبدا له ان ذلك كان منـــذ وقت قصير الي حد لا يكاد يصدق ٠٠٠ واستبد به الهلع عندما احس ان دموعه توشك ان تسيل من عينيه ، فنهض عن مقعده ، وقبلها علي رأسها ٠ وقال لها :

ـ حسنا يا قطتي الصغيرة ٠٠ انني أحبه فعلا !

***

ولكنه منذ تلك الامسية ، استطاع ان يشعر بأنه تحول من محام منطقي متزن الي شخص مختـــل التفكير ، يكتنفه القلق وتتملكه العصبية ٠٠ وفي كل ليلة كان يرقد علي ظهره في الظلام يحدق في بقعة صغيرة من الضوء ، تنعكس من مصباح الشارع علي أحد اركان سقف غرفة النوم ٠٠٠ من تكون هذه الشخصية التي تمتليء بالشكوك التي غزت حرمة بيتـــه ، واختطفت طفلته تحت انفه ؟ ٠٠ طفلته ! ٠٠ أجل انها لم تزل طفلة ٠٠ فماذا تعرف

هي عن الصفات الضرورية في الرجل ليكون زوجا ناجحا ؟ .. ماذا تعرف عنه كاي ـ بالاضـــافة الي اسمه ، أجل .. انه رائع ! وسيكون هـــذا مساعدا له عندما يبدأ في انشاء اسرة !

ونظر الي مسز بانكس ... كان يبدو أنها تنام في سلام وهدوء ... ان النساء مخلوقات متناقضات ، فلو كان الاولاد في الخارج في المرقص ، فانها لا تستطيع ان تنام الا بعد ان يعودوا ، ولكن عندما تصبح المسألة : كيف ستأكل ابنتها الوحيدة بقية حياتها ، فانها تستغرق في النوم كطفل صغير !

لقد بدأ يتضح له بجلاء تدريجي من ملاحظاتها العابرة ، ان ذهنها لم يكن يفكر في باكلي علي الاطلاق ، بل فى حفل الزفاف ، والاشياء المادية المتعلقة به : الملابس والقبعات والاحذية ... في آلاف الاشياء التي تجعل الزواج بالنسبة للمرأة .. أمرا مشـــروعا حقا !

ولقد كان يعرف دائما ان مســز بانكس في أعمـــاقها ، وكيلة شراء بالفطرة ، رغم ان مواهبها كانت مقيدة الي حد ما بالظروف ... وهاهي أخيرا ، قد حصلت علي بغيتها لاظهار هذه المواهب .. وتمتمت تقـــول : « ستكون كاي عروسا جميلة ، فان لديها الجسم واللون الملائمين .. انني اعرف بالضبط اي نوع من الثيـاب يجب ان ترتديه ... الاكمام الطويلة ، والحبكة المضبوطة .. والجونلة .. الخ »

***

وبدا بوضوح انهما لابد ان يفعلا شيئا ـ ان عاجلا او آجلا ـ بشـأن مقابلة اسرة باكلي ، ولكن مســـتر بانكس ظل يرجىء هذا الامر .

وقال يشكو في كآبة : « الا ترين ان كاي كان ينبغى ان تختار شخصا نعرفه بدلا من اسرة لم نرها قط .. انني اعرف نوع هؤلاء الاشخاص .. سيكون الامر شنيعا ! »

وأخيرا تولي آل دانستان الامر ، ووجهـــا الدعوة لمستر ومسز بانكس لتناول العشاء يوم الاحد ... علي ان تضم المائدة اربعـــة فقط : الابوين والامين بدون كاي وباكلي ... ليتم التعارف بينهم ...

وقال مستر بانكس :

ـ انهما من النوع الودود جدا ..

وخلال الايام السابقة علي الدعوة ، اظهر بانكس كل اعراض فتاة المجتمـع الناشئة التي يوشكون ان يقدموها الى البلاط الملكي ... وفي صباح الاحد ارتدي بعناية سترة رياضية وبنطلونا

من قماش «الفانيلا» ، ثم صعد الي الطابق الاعلي بعد الافطـــار وارتدي حلة من حلل العمل ، واصر علي ان يبدأ قبل الموعد بنصف ساعة ٠

***

ان اول لقاء بين آباء العروسين ، يمكن مقارنته بالمقابلة الاولي للرجل الابيض والمتوحشين ، حيث يحدق كل من الطرفين في الآخر بمزيج من العداء والفضول ٠ ففى تلك المقابلة الاولي ، قامت مسز بانكس بجرد شامل لمسز دانستان من تصفيفة شـــعرها حتي حذائها ، وفعلت مسز دانستان المثل لمسز بانكس ، وبعد ان وجدتا ان كل شيء مرض من الناحيتين ، اقتربت كل منهمـــا من الاخـــري ممدودة الذراعين ، وتبادلتا الاحضان وكـــل منهما تقول : «ياعزيزتي» ٠٠

أما الرجلان فقد صافح كل منهما الآخر في ارتباك ، وقالا في صـــوت واحد :

ـ انني مسرور بكل تأكيد لمقابلتك

وشرعت مسز دانستان تقـــود الطريق الي غرفة الجلوس ٠٠ وقال مستر دانستان :

ـ هل تود ان تغسل يديك ؟

فأجاب بانكس وهو ينظر اليه فى ارتياب :

ـ لقد غسلتهما ٠٠

وقالت مسز دانستان :

ـ لن استطيع ان اصف لكما مدي حبنا الشديد لكاي ٠

فقالت مسز بانكس :

ـ وهذا هو نفس شعورنا حيـال باكلي ٠

وأيدها بانكس قائلا :

ـ أجل ٠٠ بكل تأكيد ٠

كان هذا بالنسبة له هو كل ما يمكن ان يقال ٠٠ لقد كان علي استعداد تمـــاما لتأييد اي اقتراح بتأجيـــل الاجتماع ٠٠

وانقذ الموقف ظهور خادم تحمـــل خلاط كوكتيل مليئا بأنواع الشراب وصينية من المشهيات ٠٠ ونظر مستر بانكس الي هذا الترتيب بسرور وهو لا يصدق عينيه ٠

وتناول كأسا من الشراب ، فوجده ممتازا ٠٠ وقال مستر دانستان : « اعتقد اننا ينبغى ان نشرب نخب العريس والعروس » وشرب بانكس الكأس حتي الثمالة ، ثم استرخى كأنه بالون خلا من الهواء ، بينما اعـــاد دانستان ملء الكؤوس ٠

وتشجع بانكس بهذا الكرم غـــير المتوقع ، واغتساله السابق في الفندق ، فأحس انه يجب ان يتكلم ٠٠ وقال :

هذه مناسبة هامة ، كنا نتطلع اليهــا أنا وزوجتي منذ زمن بعيد ٠٠٠ لقد ادركت منذ رأيت ابنكم انه شــخص عظيم ، وقد احببته الان اكثر بعد ان التقيت بأبيه وامه ٠٠ وانني اتوقع منذ اليوم ان علاقة اسرتينا لن تنفصم أبدا »

فقالت مسز دانستان : انني واثقة اننا سنكون متجانسين ٠٠٠ ونرجو ان تنادينا دوريس وهربرت ٠

فقالت مسز بانكس في حماسة :

ـ ونحن ستانلي وايللي ٠

وقالت مسز دانستان :

ـ اعتقد ان العشاء جاهز ٠

وتقدمتهم نحو غرفة الطعام ٠٠٠ فقالت مسز بانكس وهي تســـــير بجوارها :

ـ ان بيتكم رائع يا اديث ٠

فقالت مسز دانستان :

ـ هلا جلست هناك يا دوريس ٠٠ والآن نريد ان نسمع كل شيء عن ابنتنا الجديدة

ـ أخشى الا يكون هناك الكثير مما يستحق القول

ولكن مستر بانكس قال :

ـ هراء ٠٠٠ أتريدين ان تسمعى كيف تركت ايللي ابنتها كاي في عربة الاطفال خارج متجر البقـــالة ، ثم نسيتها وعادت الى البيت !

وراح يقص عليهما القصة في تفصيل مرح ٠٠٠ وتدفق من شفتيه سيل من الذكريات والحكايات الطريفة ٠٠ وراح يطوف بهمـــا خلال طفولة كاي وايام دراستها خطوة خطوة ، ثم قص عليهما سردا مفصلا لصباه هو ، ورجولته المبكرة ، وحياته الزوجية ، وبين حين وآخر كان واحـــد من آل دانستان يقاطعه بتعليق موجز ٠٠٠ وقرب انتهاء الطعام توقفا عن التنافس في الحديث٠

وبعد العشاء ، اختار بانكس مقعدا مريحا في اظلم ركن بغرفة الجلوس ٠٠ وأحس فجأة الرغبة في النوم ٠٠٠ وقال :

ـ والآن يجب ان تذكرا لنا كل شيء عن باكلي ٠٠

ولكن ماكاد ابوه يصل الي مرحلة دخول باكلي السنة الاولي من الدراسة الثانوية ، حتي كانت عينا مســـتر بانكس قد اغلقتا تماما ، واستغرق في نوم عميق !

وعادا بالسيارة الي «فيرفيو مانور» في ساعة متأخرة من الامسية ، وكانت مسز بانكس هي التي تقود السيارة ، اما مستر بانكس فكان يشعر بسعادة واسترخاء ٠٠٠ انه لا يعتقد حقا ان هناك من هو اسهل في التحدث معه من



آل دانستان ٠٠ انها اسرة بديعة ! واخذ يدندن بأغنية قصيرة ، اما مسز بانكس فلم تقل شيئا ٠

***

كان واضحا لدي مستر بانكس ان الامور لا يمكن ان تمضى هكذا الي الابد ، فعندما يقرر شخصان ان يتزوجا فانهما يعلنان خطبتهما ، ثم يحدث

زفاف ٠٠ والسؤال الوحيد هو : متي يحدث ذلك !

وبينما كان ذهنه مركزا علي الحفل الفعلي ، بدأ يشعر بشكوك غامضة فهو باعتباره والدا للعروس ، كتب عليه ان يلعب دورا رئيسيا ، فيما اخذ يبدو له مشهدا عاما وكان رأيه انه اما ان ينهي المسألة بأسرع ما يمكن او يؤجلها الي وقت بعيد جدا كالموت بحيث انه لن يضطر الي الشعور بالقلق حيالها في الوقت الحاضر ، أما مسز بانكس فانها كانت تنظر الي المسألة من وجهة نظر مدير المسرح ٠٠٠ كم سيستغرق اعداد الثياب ، وبناء المناظر واعداد المسرح !

وقالت كاي بنفسها انه يبدو ان الجميع قد نسوا اهم شيء ٠٠٠ وهو انها هي التي ستتزوج - لا الابوان او الامان - وقالت : انها ستتزوج متي وحيث تدفعها روحها ٠٠ فلا حاجة الي كل هذا الضجيج ٠٠ ولا داعي لان ترفع امها يدا ٠٠ او اصبعا ، فعندما تقرر هي (كاي) الامر ، فسيوضع كل شيء موضعه ٠٠ تلك هي الطريقة التي ستعيش بها هي وباكلي ٠٠ ببساطة ، وبدون كل هذا الجهد ، انها لم تر غير نشاط كثير لافائدة منه طوال حياتها ٠٠ اما الآن فكفاها ما رأت !

وثارت عاصفة المناقشة وكأنها اعصار استوائى ٠٠ ثم مالبثت ان انتهت فجأة ٠٠٠ وتم الاتفاق في انسجام علي ان يتم الزفاف يوم الجمعة ١٠ يونيو في الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر بكنيسة سانت جورج ٠

***

ان حفلات الزفاف العصرية تكاد تشبه اخراج مسرحية جديدة ، فما ان يتم الاتفاق علي توزيع الادوار ، حتي يكون الشيء التالي هو تحديد ما اذا كانت الرواية تمثل علي مسرح كبير ام مسرح صغير ٠٠٠ ثم تمتليء الدار !

وقالت كاي : « سأقول لكم شيئا ٠٠ سيكون هذا زفافا صغيرا وحفل استقبال صغيرا ٠

كان المفروض من الناحية النظرية ان يبتهج مستر بانكس لذلك ، ولكن اذنه المدربة احست شيئا من التنافر ٠٠ فقال : « كنت اتحدث الي جاك جيبونز منذ ايام - وقد زوج جاك اربعا من بناته ٠٠ فقال لي ان حفلات الزفاف اما ان تكون مقصورة علي العائلة ، او تقام في قاعة للحفلات »

فقالت كاي :

- حسنا ٠٠٠ ان زفافي لن يكون كهذا او ذاك ٠٠٠ سوف ادعو

أصدقائى ولن يكون مؤتمرا لرجـال الاعمال !

فقال مستر بانكس : « اننا لم نقل شيئا عن مؤتمر اعمال ٠٠ كل ما اقول هو ان الحفل سيضم اما ٣٠ ٠٠ او ٣٠٠ مدعو »

وبوحى خاطر مفاجىء اسرع يحضر نوتة من الورق وكتب ثلاثة اسماء ٠٠ ثم قال :

ـ هذا هو اصغر زفاف يمكن اقامته بمقتضى القانون : انت وباكلي ، والقس سايروس جالزورذي ٠٠ والآن هل هناك شخص آخر ؟

وطوحت كاي بيديها وقالت :

ـ هذا شىء اشبه بلعب الاطفال حقا ٠٠٠ انت دائما تنظر الي الامر من زاوية فنية يا ابي ٠

فقالت امها :

ـ أحيانا تكون لابيك افكار طيبـة يا كاي ٠٠٠ هيا يا ستانلي ٠ ضـع أسماء آل دانستان واسماءنا نحن ، وبن وتومي ٠

فقالت كاي :

ـ والعمة هاريت بطبيعة الحال ، والعم شارلي ٠٠٠

وقال بانكس :

ـ بلاشك ٠٠ ولكنني سأسير ببطء ابتداء من الان واخذ يكتب بسرعة وهو يقلب الاوراق وبعد ٤٥ دقيقة ، نفد ما معه من ورق فقال :

ـ أتعرفون كم اسما في القائمـة الان ؟

فقالت كاي :

ـ حوالي ٥٠

ـ بل ٢٠٦ وهو لا يتضمن اغلب أصدقائنا ، ولعل اسرة باكلي لديها شخص او شخصان تريد ادخالهما ٠

ـ حسنا يا ابي ٠٠ انه زفافي أنا ٠ وسيكون زفافا صغيرا ، ولن يهمني أحد ٠

وغادرت المائدة فجأة ، وهرعت الي الطابق الاعلي بينما كان ابوها يحدق فيها بدهشة ثم قال :

ـ ماذا حدث لكاي يا ايللي ؟ ٠٠ لقد جلسنا فقط لنكتب بضعة اسماء في هدوء ، فاذا بها تثور غاضبة ٠

فقال تومي :

ـ انها عصبية ٠٠٠ كل النساء عصبيات ٠

***

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة ، عندما خيم سكون النوم علي « فيرفيو مانور » رقد بانكس علي ظهره محدقا في انعكاس نور الشارع علي السقف ٠

ثلاثمائة شخص سوف يحتســون الشمبانيا التي لديه ٠٠ ثلاثمائة شخص

يأكلون طعامه ...

لقد كتب عليه الدمار .. دمار تام واضح .. لقد كان طوال حياته رجلا حريصا مدبرا ، والآن يقع في الشرك وهو علي وشـك ان يعتصر حياته الاقتصادية بيديه وزمجر قائلا :

ـ لن افعل ذلك ...

ولكنه كان يعرف انه سيفعل !

***

وبعد مناقشة متوترة ، تقرر ان ١٥٠ شخصا هو اقصى رقم يمكن ان يتسع له المنزل رقم ٢٤ بشارع مابل درايف دون ان يصيبه اذي مادي ، وقد ترسل ١٠٠ دعوة اخري لحضور حفل الكنيسة ، ولكن هؤلاء لن يدعوا الي حفل الاستقبال بالمنزل بكل تأكيد .

وقد بدا هـذا الرقم مذهلا لمسز بانكس التي اعتادت ان تستضيف عددا محدودا من الناس ، واقترحت ان يقوم كل واحد بكتابة قائمة مستقلة تحوي الاشخاص الذين يريدون حضـورهم حقـا .

وامضي مستر بانكس امسية كاملة في الجمع بين هذه القوائم . كان عدد الاسماء المزدوجة قليلا الي حد يثير الانزعاج ، وبدا بوضوح ان آل بانكس ليس لديهم اصدقاء مشتركون ! وأخيرا التفت الي زوجته وابنته وقال :

ـ هل تعرفون كم عددهم ؟

فقالت مسـز بانكس في قلق :

ـ مائتان !

فصاح مستر بانكس في لهجـة انتصار :

ـ بل ٥٧٢ ... الم اقل لكم ؟ اما ان ندعو اعضاء الاسرة فقط ، او يقام الحفل في قاعة المؤتمر !

وامسكت مسز بانكس القوائم وهي تقول :

ـ هراء .. دعني اري . لابد انك اخطأت . اراهنك انني اسـتطيع اختصار هذا الرقم ... انظر ، لاحاجة بنا لدعوة آل سباركمان . اننـا لا نراهما أبدا ، ولا يهمني ان ادعو هذه المرأة ذات الشعر المصبوغ الي بيتي مرة اخري .

وتساءل مستر بانكس : لماذا كلما اكتشف امرأة جذابة ، قالت زوجته انها تصبغ شعرها .. وقال :

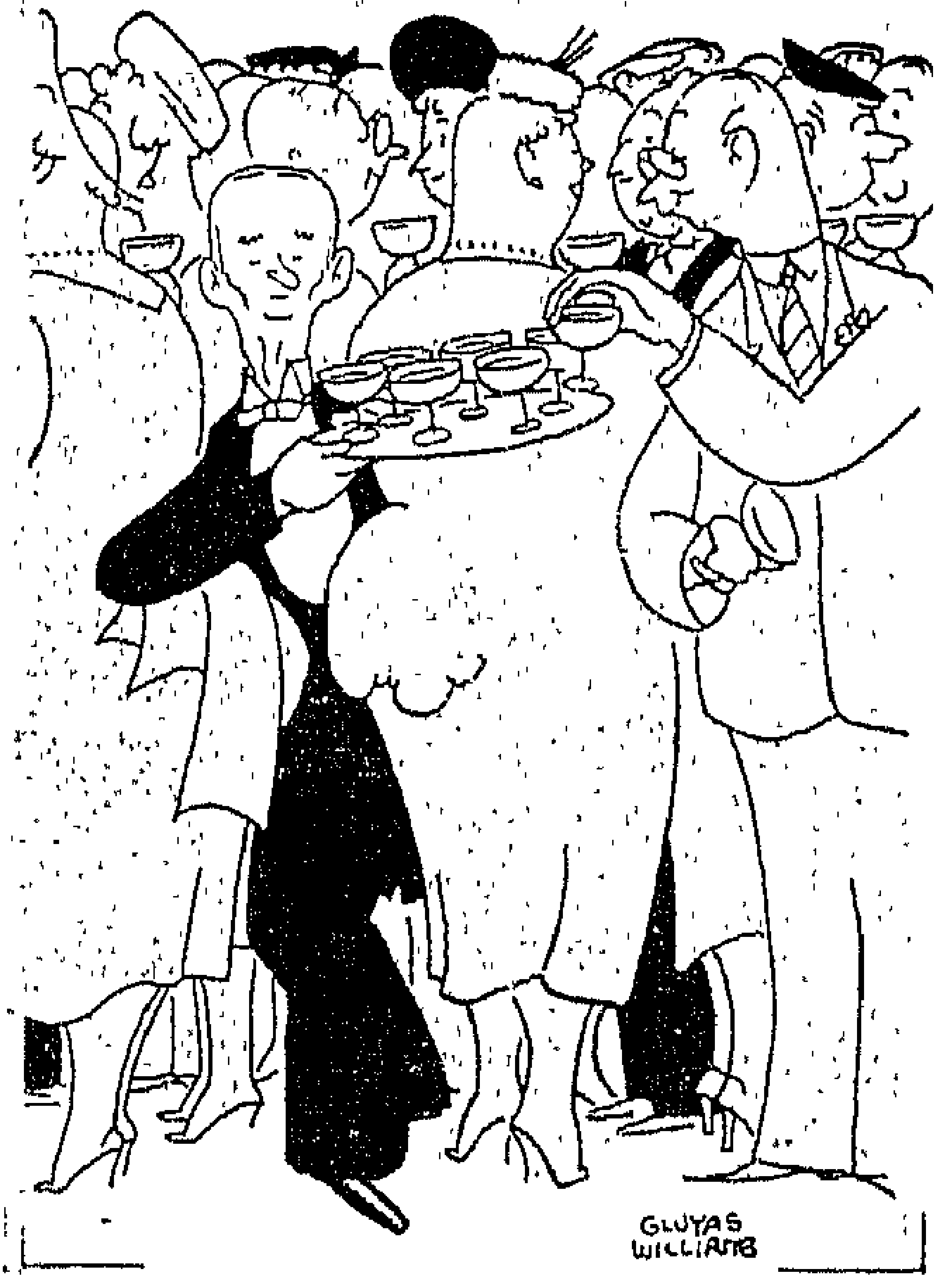
ـ أتعرفين ان هاري سباركمان من أقرب اصدقائي ، فضلا عن انه عميل طيب جدا .

فقالت :

ـ لغو ! انك لا تكاد تراه أبدا .. نستطيع ان ندعوهما الي الكنيسة .

فصاح بانكس :

ـ الكنيسة ! .. اتعنين انك تريدين



دعوة هاري وجين سـسباركمان الي الكنيسة وليس الي البيت ؟ هاري سباركمان ؟ صديقى الحميم ؟ ٠٠ هل اكتفيا بدعوتنا الي الكنيسة فقط عندما تزوجت ابنتهما ؟ كلا ٠٠ وقد فرحت انت للذهاب الي حفل الاستقبال !

وبعد بضعة ايام ، كان بانكس قد تناول الغداء مع عميل يرأس مؤسسة كبري للمحاسبة مر هو نفسه بمثل هذه المشكلة ، وقد قال له ان ضيوف الزفاف يجب تقسيمهم الي وحـدات كنيسة ، ووحدات حفل الاستقبال ، فهذه هي الطريقة الوحيدة لمعـرفة التكاليف بالوحدة ، وقد تكلفت كـل وحدة ـ اي كل مدعو ـ في حفـل زفافه ٣٫٧٢ دولار في حفل الاستقبال ، بما في ذلك الشمبانيا ، والطعـام ، والبقشيش ، والزهور ، ونقل الاثاث والتأمين الاضافي ٠

***

واجـري مسـتر بانكس بعض العمليات السابقة علي غطاء المائدة ٠ وعندئذ هربت منه روح الكرم ٠٠ وقال لزوجته بحزم :

ـ « سأقول لك شيئا واحدا فقط يا ايللي ٠٠ اننا لن ندعو لحفـل الاستقبال غير ١٥٠ شخصا ٠٠ يجب ان تختصري القائمة ، لن يهمني ان ننسي صديقا بعد ان ينتهي هذا الامر ارجو ان تأخـذي هـذه القائمـة وتختصريها علي اسس واقعية » ٠

***

علي الرغم من ان مسز بانكس كانت تزعم دائما انها لا تجد دقيقة واحدة تخلو فيها من الصباح حتي المساء ، فقد كانت تهرع هي وكاي كل يوم الي البلدة بعد الافطار مباشرة ، وكانت جوارب مستر بانكس ملقاة دون رفو في كيس الحياكة ، وقمصانه الخالية من الزرائر مكدسة في أكوام منتظمة في دولابه ٠

كانت الفترة المخصصة لشـراء

الملابس تمضي في سرور •• وفي المساء يجلس مستر بانكس والغلامان ليأكلوا عشاءهم في سـكون عابس ، وهم يصغون الي مناقشات مشكلة ثياب كاي • ورغم ان دولاب كاي كان يمتليء بالملابس ، فقد سمع منها في دهشة انه « خال كدولاب رجل فقير » ، ولو انها كانت فينوس تخرج من البحر لما كانت مشكلة تجهيزها اكثر اهمية من ذلك •• ومع تجاهل حقيقة ان كاي وباكلي سيعيشان في بيتٍ ضئيل ، وستقضى كاي – علي الاقل – جزءا كبيرا من وقتها ورأسها في الموقد ، فانها حصلت في النهاية علي ثياب لكل حـدث اجتماعى ورياضي يمكن تصور حدوثه فيما بين نيويورك وسان موريتز !

كانت هناك صناديق غامضة تصل كل يوم ، كلها من نساء ليس لهن القاب : «آنيت» و «استيل» و «هيلين» •• و «بابيت» •• وهي اسـماء صانعات الثياب الفرنسيات •

وبدا ان ثوب مسز بانكس يسبب لها قدرا كبيرا من الحيرة ، وقد اجرت محادثات تليفونية لا تنقطع مع مسز دانستان حول هذا الموضوع •

وسألها مستر بانكس :

– ما صلة ثوبها بثوبك ؟ •• هل ستظهران معا كتوأمتين ؟

وفي كل مساء ، كان يجلس ليصغى الي اصوات النساء من الطابق الاعلي •• حوار لا نهاية له ، تتخلله بين حين وآخر صرخات ابتهاج ، ومع كل صرخة ، كان مستر بانكس يجفل ، اذ كان يعرف من تجربته ان مثل هذه البهجة النسائية تشتري بثمن غال !

***

كان مستر بانكس يحتفظ بمذكرة صغيرة ليدون فيها افكاره بشـأن الزفاف وعندما يذهب الي الفراش ، كان يضعها علي مائدة بجواره ، وحتي في منتصف الليل ، كان يضيء النور فجأة ليدون فيها بعض الاشياء مثـل « شرائط الورق الملونة » او اكليـل العروس « من يدفع ثمنه ؟ »

ومن أوائل الاشياء التي سجلها في المفكرة ، كلمة «شمبانيا» ، ولكنـه خلال الاسابيع التالية ، تلقى عددا كبيرا من النصائح المتضاربة بشأن هـذا الموضوع فقط ، الي حد انه اسـتولي عليه الاضطراب تماما ولم يفعل شيئا قط بشأنه ••

***

ان التليفون الذي لم يكن قط أداة واضحة الحديث ، في بيت آل بانكس ، بدأ الان يدق في نفس اللحظة التي تعاد فيها السماعة الي مكانها •••

ـ من كان يتحدث يا ايللي ؟
ـ امرأة تريد ان تأخذ صور زفاف كاي ..

ياله من مخلوق بريء ! .. ان ميزانية الزفاف الاصلية التي أعـدها كانت تحوي صندوقا او صندوقين من الشمبانيا ، ومائة شـطيرة ، وثوبا للزفاف ، وهدية انيقـة للعروس ، وبعض مصاريف نثرية .. وهذا هو كل شيء .. فالكنيسة مجانا .. فماذا هناك بعد ذلك ؟

انه يبدو الان وكأنه العميل الوحيد لصناعة كبيرة منظمة اعظم تنظيم ، تعمل خطوط انتاجها كلها من اجله وحده !

وبدا لمستر بانكس ان زفاف كاي يتخذ تدريجا صورة التنظيم المعقـد لحملة انتخابية كبري .. خذ مثـلا مسألة وصيفات العروس . ان كاي التي كادت تصـبح وصيفة عروس محترفة خلال السنوات الخمس الاخيرة تسدد الان التزاماتها بغض النظر عن الاعداد !

وبينما كانت القائمة تزداد نموا ، زمجر مستر بانكس قائلا :
ـ سـيكون الامر اقرب الي الاستعراض منه الي زفاف !

***

منذ ان ارسلت الدعوات ، اصبح وصول بريد الصباح مسألة ذات اولوية كبري .

وهتفت مسز بانكس :
ـ يا للعار ! ان آل ليندلي ديفيز لن يستطيعوا الحضور ..

واشرق وجه بانكس فرحا ... بينما قالت مسز بانكس :
« لقد دعى آل وايتهيد الي حفـل زفاف آخر ، ولكنهما لن يذهبا اليـه لانهمـا لا يريدان ان يفوتهما زفاف ابنتنا .. ما اجمل ذلك منهما »

ودفن مستر بانكس وجهـه في صحيفة الصباح ... لقد كانت انباء الحرب الباردة اكثر بهجة !

وفي كل يوم ، كان عدد متزايد من الناس ـ معروفينومجهولين ـ يقبلون الدعوة بسرور . والظاهر ان كاي قد اختارت لزفافها يوما ، لن يكون فيه أى شخص علي مسافة ٤٠٠ ميل ، لديه شيء يعمله .. ولاشك ان زواج آل بانكس وآل دانستان سيكون واحة في صحراء من الملل !

***

قالت مسز بانكس :
ـ لقد كنت ابحث موضوع متعهدي الحفلات .. ان الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو احضـار واحـد من

البلدة . لقد احضرت سالي هاريسون احدهم لاعداد حفل زفاف سالي الصغيرة ، وكانت معجبة به جدا ، فقد كان رجاله اكفاء ومؤدبين تماما ، وقالت لي انه كان معقولا جدا ..

وفي صباح يوم السبت التالي توجه مستر ومسز بانكس بالسيارة الي البلدة ، وزارا مكتب باكنجهام متعهد الحفلات .

وكان واضحا ان مستر ماسولا المكلف بهذا العمل شابا محنكا تماما ، وكانت له شفة عليا طويلة ، يزين حافتها السفلية شارب رفيع ، وكأنه بقايا أهداب غطاء مصباح !

وقال لهم : حفل استقبال بمناسبة زفاف ! .. ان مؤسسة باكنجهام مجهزة تماما لتولي هذا العمل ، ولا داعي لان يفكر فيه مستر ومسز بانكس مرة اخري .. لقد تولت المؤسسة تنظيم عدد من اكبر واغلي حفلات الزفاف في البلاد .. وفهما من مستر ماسولا بجلاء انه ليس من عادة المؤسسة ان تتولي حفلات زفاف ليست من النوع الفاخر .

وبدأ مستر بانكس يتمني لو انه اختار متعهدا اقل شهرة .. وغامر بالقول :

ــ لن يكون حفلنا .. حفل استقبال كبيرا !

ــ صغير للصفوة المختارة .. انني أفهم جيدا ..

واحضر مستر ماسولا البوما كبيرا من تحت المائدة وقال : « دعوني اعرض عليكما صورا لبعض حفلاتنا »

وبينما كان مستر بانكس ينظر ، تحول الهلع الي فزع ... فقد بدا ان مؤسسة باكنجهام لا تتعهد الا حفلات الضياع الضخمة والقصور .. وتساءل : كيف يستطيع الخروج من هذه الورطة بلباقة . لقد تحول شارعه فجأة الي حارة خلفية في احدي الضواحي . ولاشك ان منزله سيبدو في نظر مستر ماسولا اشبه ببوابة بيت ما .

ولكن الوقت كان قد فات ، فقد اخرج مستر ماسولا مجموعة من الاستمارات وقال :

ــ علينا الان ان نحصل علي فكرة عن الاشياء التي تحبون تقديمها .. اننا سنقدم الشمبانيا بطبيعة الحال .

واحمر وجه مستر بانكس قليلا وقال في الم :

ــ آسف .. اعني انني لا اعرف ، اعني انني اشتريت الشمبانيا فعلا

وبدا الضيق علي وجه مستر ماسولا ، ولكنه كبت شعوره وقال

ـ سوف نأخذ اذن أجرا علي الفتح

ـ الفتح ؟

ـ أجل ·· دولار عن كل زجاجة مقـــابل فتحها وصب الشمبانيا في الكؤوس ·· والان ننتقل الي الطعام ·· فلذر · ان الزفاف سيكون في أوائل يونيو ·· فما رأيكما في وضع سمكة سالمون كبيرة باردة في كل طرف من المائدة ، مع انواع مختلفة من السلاطة في أطباق كبيرة في الوسط ؟ ·· اما فيما يتعلق بالمثلجات ، فاننا نفخر بالتأثير الخاص الذي تحدثه الاضـــواء الكهربائية الملونة الموضوعة داخـــل كعكـــة ضخمـــة من المثلجـــات ، تتوجها ···

فقاطعته مســـز بانكس قائلة في خجل :

ـ ولكننا لم نكن ننوي اقامة مثل هذا النوع من الحفلات ··

وحدجها مستر ماسولا بنظرة تتسم بالحيرة ثم وضع قلمه جانبا ·· وقال :

ـ ماهي فكرتكما ياسيدتي ؟

فأخذت اصابع مسز بانكس تعبث بحقيبتها بعصبية وقالت :

ـ لقد كنا نفكر في الاكتفاء بتشكيلة صـــغيرة من الشطائر ـ من انواع مختلفة ـ ومثلجات ، وكعكات صغيرة

ـ يمكنك الحصول علي ما تريدين يا سيدتي ·· ولكن هذا ما نقدمه عادة في حفلات الاطفال ·

فقالت مسز بانكس بخشونة مفاجئة ادهشت زوجها :



ـ حسنا ·· هذا ما نريده ·

فدون ماسولا بعض الملاحظات ·· وقال :

ـ طبعا ·· طبعا ·· واســتطيع ان اؤكد لكما انكما سوف تشعران بالسرور عندما ترون النتائج ·· والان اين سيقام حفل الاستقبال ؟

فقال بانكس : في المنزل رقم ٢٤ شارع مابل درايف ـ فيرفيو مانور

فسأله ماسولا : اهذا ناد ام ضيعة ريفية ٠

فأجاب بانكس في اعتـــزاز : انه بيتي !

ـ وكم عـــدد الذين تنتظـــرون حضورهم ؟

ـ حوالي ١٥٠

ـ أهو بيت كبير ؟

فقال بانكس متحديا : كلا ٠٠ انه بيت صغير

ـ اذن انتم تنوون اقامة سرادق في الشرفة بطبيعة الحال ؟

ـ ليس عندنا شرفة ٠ فاذا امتلأ البيت ، فانهم يستطيعون التجول في الحديقة ٠

فســأل ماســولا وهو يحدج مسز بانكس بعينيه :

ـ وماذا اذا امطرت الدنيا ؟

فقالت مسز بانكس : هذا ماقلته ٠٠ ماذا نفعل ياستانلي اذا امطرت ؟

وطمأنهمـــــا ماسولا بقوله : ان السرادق رخيص جدا ٠

فقال بانكس في يأس : استمع الي ٠٠ لقد تحدثنا عن كل شيء فيما عدا التكاليف ٠

ـ ستكون النفقات ضئيلة نســبيا لمجموعة كالتي وصفتموها ٠٠

وكانت لهجته تشير الي ان نوع الجماعة التي وصـفها مستر بانكس ليست ممتـــازة تماما ٠٠ واستطرد يقول : « لا تفكر في النفقات يا مستر بانكس ، فستكون زهيدة اذا قورنت بالخدمة التي ستقدم لكم »

وبعد ايام قلائل ، وصل مســـتر ماسولا نفسه الي الرقم ٢٤ بشارع مابل درايف وكان مصحوبا بشخص يبدو عليه الخجل ، طويل الشارب ، كان يشير اليه باسم (جو) ٠

وكانت مسز بانكس ربة بيت دقيقة في عملها ، وكانت تفخر دائما ببيتها ٠٠ وبينما كان مستر ماسولا وجو يتجولان من غرفة لاخـــــري بعينين باردتين فاحصتين ، راحا يتمتمان بتعقيبـات بين حين وآخر ، وادركت هي ان كليهما لم يسبق ان تعهد حفلا فيمثل هذه العشة !

وقال ماسولا : صغير ٠

فقال جو : حقا ٠

ـ والتهوية سيئة ٠

ـ فعلا ٠٠

فقالت مسز بانكس : سنفتح كل النوافذ في ذلك اليوم ٠

***

عندما يركز الانسان أفكاره بشدة وخلال فترة طويلة علي حدث فيالمستقبل البعيد ، فانه يصبح في النهاية ثابتا في

الذهن كشيء بعيد الي الابد ، وتكون النتيجة انك تشعر بصدمة عنـــدما تستيقظ ذات صـــــباح ، وتجد ان المستقبل البعيد قد اصبح فجأة هــو الحاضر المباشر !

وفي يوم الزفاف ، بدأ مستر بانكس يتقلب في فراشه في ساعة مبكرة ، ولكن مضى بعض الوقت قبل ان يدرك ذهنه الذي استيقظ ببطء ، ان اليوم قد حان حقا ، وانه في خلال ساعات قليلةسوف تتزوج ابنته الكبري •

وفي الطابق الاسفل ، كان المنزل يبدو في صورة لا يمكن معرفته بهــا فقد اختفى الاثاث وانبعثت رائحـــــة شمع الارضية والصابون من المكـــان بأسره • •

وراح بانكس يتجول علي غير هدي خلال الغرف العارية ، كانت ارضية غرفة الجلوس مغطـــاة بنباتات فى أصص ، واشجار سرخس ، وكتل من التراب الرطب ، واخذ بانكس يسير في قلق بين الانقاض ، ثم خرج الي الحديقة الخلفية ، وهناك وجد ثلاثة اشخاص غرباء يفرشون لفافة كبيرة من القماش السميك • •

وسألهم : اهذا هو السرادق ؟

فقال احدهم مصححا قوله : انهــا الخيمـــة التي ستستخدم لزفاف آل بانكس •

ونظر بانكس الي السماء الخالية من الغيوم ، وومضت فكرة ذكية في ذهنه المدبر فقال بلهجة عابرة : في يوم مثل هذا لا اعتقد اننا سنحتاج الي خيمة

وتوقف الرجال عن فرد الخيمة ، وحدقوا فيـــه في صمت ودهشة • • وأخيرا استعاد احدهم صوته وقال : « لا تحتاج الي خيمة ! • • اســمع ياسيد • هذه الخيمة تم التعاقد عليها منذ ثلاثة اسابيع ، وهناك اشخاص يطلبونها في كل مكان • • ولكنك سعيد الحظ فقط » •

***

كان العمال قد رحلوا وجاء محلهم الاقارب ، وكان المكان غاصا بهم ، وجرس التليفون يدق بلا انقطاع • • كان العم جــو في البلدة وهــو يطلب تعليمات مفصلة عن كيفية الحضور الي « فيرفيو مانور » وابنة العم برتا في المحطة تطلب احدا للحضور اليها وفجأة ، وسط الاضطراب ، لاحظ ان كاي غير موجودة •

ووجدها في الطابق الاعلي مضطجعة علي فراشـــها ، ووجههـا مدفون بين الوسائد ، وجلس الي جوارها علي الفراش • • وقال :

ــ ماذا هناك ياقطتي الصغيرة ؟

هذا يوم زفافك ٠٠

قالت :

ــ اعرف ذلك يا ابي ٠٠٠ وهذه هي المشكلة ٠٠ انه يوم زفافي ، ولكنه ليس كذلك حقا ٠٠ انه يوم زفاف كل انسان آخر الا انا !

ــ اعرف ذلك ،٠٠ اعرف ٠٠ انا أيضا !

ووصلت مسز بوليتسكي ، التي اعدت ثوب زفاف مسز بانكس ليلائم كاي ، بعد الظهيرة للتأكد من ان كل شيء علي مايرام ٠

وقال مستر بانكس لمن حوله :

ــ ياالهي ٠٠٠ أهذا وقت مناسب للتأكد من ان الثوب يلائمها ! ٠٠ ماذا ستفعل هذه المرأة ؟٠٠ هل تبدأ اجراء تعديلات الان ؟ الا يعرف الناس ان الساعة الآن الثالثـــة والربع ، وان هناك زفافا سيتم بعد ساعة و ٤٥ دقيقة ؟

واحتج بن وتومي علي ذلك قائلين :

ــ أتظن ان ارتداء الملابس سيستغرق منا ساعة ياابي ؟

وبذل مستر بانكس جهدا ضخمـا للسيطرة علي اعصابه ، فلم يكن الوقت مناسبا لاجراء اختبار للقوة ٠ وقال لهما في هدوء مكبوت :

ــ ان عليكما مسئولية ضخمة اليوم فأنتما المرافقان الوحيدان اللذان تعرفان اسرتكما ٠ خذا السيارة واذهبا الي هناك قبل الرابعة ٠

ــ سنكون هناك يا ابي فلا يساورنك اي قلق ٠٠ عليك ان ترتاح فقط ٠

وقالت مسز بوليتسكي : « ان كاي مستعدة » فتبعها الي القاعة في الطابق الاسفل وتوقفت امام باب كاي ، ثم فتحته بطريقة مسرحية ٠٠ كانت كاي تقف في وسط الغرفة ، وذيل ثوبها وغلالتها الرقيقة يمتدان وراءها في عناية ٠٠ انها لم تعد تلك الفتاة الكستنائية الشعر التي لا يزيد طولها علي خمس أقدام واربع بوصات ، بل اميرة في بلاط من العصور الوسطي ٠ كان رأسها ملقي قليلا الي الوراء وهي ترقب الاثر الذي يتركه منظرها علي رجال البلاط باطمئنان وهدوء وكأنها ولدت في قصور الملوك ٠٠

وغامت عينا مستر بانكس فجأة ٠٠ وقال : انت رائعة يا قطتي الصغيرة ٠٠ رائعة !

فاعتصرت يده وقالت : شـــكرا يا ابي

والتقت عيناها بعينيه لحظة ٠٠ لا كابنة ، بل كامرأة ٠٠ ثم قالت : « والآن هيا الي مذبح الكنيسة ! »

ونظر الي ساعته ، ثم قال : ياالهي

٠٠ ان الساعة الرابعة وخمس دقائق !

***

كانوا في دهليز يؤدي الي داخل الكنيسة من خلال ابواب مزدوجة ، كانت لاتزال مغلقة ، وكانت وصيفات العروس هناك ، مع عدد قليل من مرافقى الضيوف ٠ ولاحظ مستر بانكس في دهشة ان الجميع يرتدون ثيابهم وفقا للتعليمات ٠٠ وقد بدا تومي وكأنه اعتاد ارتداء هذا الثوب الرسمي بعد ظهر كل يوم ٠

وبدا ان الجميع يعرفون ماذا يحدث فيما عدا مستر بانكس ٠٠٠ لقد كان شيئا لا يصدق ان تحدث مثل هذه التفصيلات المعقدة دون اشرافه ، وبحركة مسرحية ، فتح مستر ترينجل حارس الكنيسة الابواب المزدوجة المؤدية للكنيسة ، ورأى مستر بانكس «بن» وهو يميل الي الممر الاوسط وأمه تتأبط ذراعه ٠

وجاء مرافقو المدعوين الباقين بعد ذلك ، ووقف مستر ترينجل بجوار الزعماء وقال :

« مستعدون ! » ثم ضغط علي زر صغير علي الحائط ٠

وخفتت اصوات موسيقى الارغن ، وخيم السكون علي كنيسة سانت جورج ، لا يقطعه غير ضجيج مئات من الاشخاص محاولين مواجهة اتجاهين في وقت واحد ٠

كانت تلك هي اروع لحظة ٠ اللحظة التي كان مستر بانكس يخشاها ويتوقعها منذ اسابيع كثيرة ٠٠ لقد جاء كل شيء سريعا في النهاية ، حتي انه لم يكد يجد وقتا لادراك مغزاه أما الآن ٠٠ فانه هاديء رزين ، ولكنه لميكن هدوءا عاديا كهدوء ايامالعملبل هدوء منفصلغيرحقيقى ٠٠حتيالفتاة التي الي جواره كانت غريبة عنه ٠ انها لم تعد ابنته الصغيرة بل امرأة جميلة هادئة ، تدفقت فيها فجأة كل الحكمة بطريقة غامضة ، كانت تقف في ثبات علي عتبة مغامرتها الكبري ، ووجهها يضيء بالثقة والفهم ٠

وفي تلك اللحظة بالذات ، استبد به الذعر عندما لاحظ اناثنتين منوصيفات العروس بدأتا تهزان انفيهما ، وكانتاقد اختطفتا منديلين مطويين بعناية من جيبي مرافقى المدعوين ، واخذتا تجففان عيونهما ٠

وقال مستر بانكس : يا الهي !

ولكن لم يتح له الوقت الكافي حتي تستقر الفكرة في ذهنه فقد تناهي صوت الارغن الي سمعه من بعيد بنغماته الدافئة ، وربتت كاي علي ذراعه برفق وقالت :

ـ حسنا ٠٠ سنبدأ الان يابي ٠٠

وهمس مستر ترينجل قائلا :

ـ حسنا ٠٠ بالقدم اليمني ٠٠ القدم اليمني ٠٠

ونقل بانكس خطوته بسرعة ، وغير الجميع خطواتهم في نفس اللحظة ، فاضطر الي تعديل خطوته مرة اخري ٠٠ وسار الموكب خلال الباب المصنوع من خشب البلوط ، الي الكنيسة ٠

كان بانكس يري من زاوية عينيـه وجوها مألوفة له ٠ وكانت التعبيرات البادية عليها تكشف عن اعجـاب بالفتـاة التي الي جواره ٠٠٠ وطرد الزهو كل العواطف الاخري ، ورأى باكاي واشبينه ينتظرانه فى نهـاية المر ، وبعد لحظة كانوا يقفون صـفا واحدا امام الدرجات والقسيس يتلو من كتاب مغطي بحرير ابيض ، تتدلي منه شارة ارجوانية اللون ٠٠

كان بانكس يشعر بصورة ما ان هناك اشارة مقبلة ، وعندما يصـل الاب جالزورثي الي النقطة التي يسأل فيها : « من يعطي هذه المرأة ؟ » ٠٠ كان علي بانكس ان يقول : «انا» فقد كان هذا هو السـطر الوحيد الذي سينطق به ٠٠ وقد اراد ان يخلص نفسه بطريقة مناسبة ، فأخذ يفكر في الكلمات التي سيقولها ٠

كان مشغولا بالتفكير في هذه الواقعة حتي انه بعد ان نطق بالسطر الوحيد المخصص له وانجز دوره الاخير ، كان مفترضا ان يتراجع للوراء خطوة ، ثم يدور علي اعقابه ٠وينضم الي زوجته في الصف الامامي من الكنيسة ، وكم كان يود لو رأى ما يقبع خلفه مباشرة ولكنه شاهد منظرا غير مريح ، فتراجع الي الوراء ، وتعثر في شيء لم يكن يتوقعه كأنه ركن سجادة مقلوبة ، فبدأ يتراجع في خفة بقدمه اليمني ، وهـو يستخدمها كأنها قرون استشعار حشرة وكان يرجو الا يتمكن احد من ملاحظته اذ ان الناس سرعان ما يعزون هـذا التردد الي الخمر !

ودوي صوت الاب جالزورثي من مكان يعلوه ، قائلا : « من يعطي هذه المرأة ؟ »

واخذته هـذه الكلمات علي حين غرة ، رغم كل هـذه الاحتياطات ، ولكزته كاي ، ثم وضعت يدها في يده ، فتمتم قائلا : « انا » وكان صوته لا يكاد يسمع ، ثم وضع يدها في يد باكلي وبينما كان يقوم بهذا العمـل البسيط ، احس ان شيئا ما في أعماقه قد تمزق تمزقا طفيفا ٠٠ ولم ير الباقى بل استدار ببطء ، وحدق في صفوف الوجوه بتحد ، ثم دخل اول صـف

ووقف بجوار مسز بانكس ٠٠ وحاول عبثا ان يصغى الي كلمات المراسم ٠٠ وفجأة انتهي كل شيء ٠٠

لقد بدا الامر مستحيلا ٠٠ ولكنه انتهي بصورة حاسمة ٠٠ وكانت كاي وباكلي يتبادلان القبلات ٠ وانتقلت انغام الارغن الي « مارش الزفاف » المرح لمندلسون ، كغلام صغير ، اطلقت مدرسة الاحد سراحه ليخرج الي شمس الربيع الساطعة ٠٠٠ كانت وصيفة الشرف تكافح مع ذيل ثوب كاي ، بينما كان المدعوون للزفاف يبحثون تحت المقاعد عن الملابس المفقودة ، ويصلحون القبعات التي جلست زوجاتهم عليها ٠

وابتسمت كاي لهم في سعادة وهي تمر الي جوارهم ، وقد تأبطت ذراع باكلي ٠٠ ومرة اخري احس مستر بانكس بهذا الشيء الغريب الصغير في أعماقه ٠٠ وظهر تومي لكي يصحب امه الي الخارج ٠٠ وسار بانكس خلف زوجته ، وهو يتلوي الي اليمين والي اليسار ٠

***

وصل مستر ومسز بانكس الي الدار رقم ٢٤ شارع مابل درايف بعد جماعة العروسين بدقائق قليلة ، وخلال غيابهما كان مستر ماسولا قد تولي كل شيء وفقا لوعوده ، وكان رجال شركة كاننجهام يطوفون بأرجاء المكان بسرعة وكأنهم «عفاريت» والت ديزني ٠

والتقى بهما مستر ماسولا عند الباب الخارجى وقال : « كل شيء علي مايرام ٠٠ لا تدعا القلق يساوركما ٠٠ اذهبا مباشرة الي غرفة الجلوس » ٠

واستطاع ان يتذكر فيما بعد ضجيجا من الاصوات - واشخاصا يسخرون منه - ولكن هذا المشهد ظل الي الابد غير واضح تماما في ذاكرته ، وأخيرا احس بشيء يجذب كمه ووجد كاي وباكلي يقفان وراءه ، وكانت كاي تمسك ذيل ثوبها المثني علي ذراعها وقالت مبتسمة : « مرحى يا أبي ٠٠ سنكون علي استعداد الان ، الا تريد ان تراني اقذف زهور عرسي ؟ »

وتبعهما الي القاعة الامامية ، بينما كان المدعوون يندفعون بعدهم في صخب وكانت كاي وباكلي يطلان من «بسطة» السلم فعلا ٠

ودهش بانكس عندما إكتشف تعبيرا جديدا تماما علي وجه كاي ٠٠ لقد اختفت النظرة الاثيرية التي كانت تضعها علي ملامحها عندما بدأوا السير في ممر الكنيسة ، وعادت ملامحها الهادئة تشرق الان في ثقة بالنفس ومرح خبيث لم يره قط من قبل ٠٠٠

واستقرت عيناه لحظة علي باكلي الذي كان مظهر الزهو بالتملك ، يرسـل موجة من الهياج في عموده الفقري !

وبدأت المناورات المعتادة للحصول علي مكان تحت درجات السلم ، ودوت صرخات المارة عندما تساقطت باقة زهور العروس علي حاجز السلم ، واستقرت برقتها المعهودة بين ذراعي وصيفة الشرف الممدودتين • ثم اختفت كاي وباكلي خلف ركن درجات السلم يتبعهما جماعة العروسين •

***

واقترب منه أحد الشبان وقال :

— ان مسز بانكس تبحث عنـك يا سيدي •• انها تكاد تمزق شعرها يأسا •

وشق بانكس طريقه نحو البيت ، وأوسع لنفسه طريقا بالقوة حتي وصل الي جانب زوجتـه ، فقالت له : « ستانلي بانكس ••• اين كنت ؟ •• لقد كدت اجن • اعتقد انك كنت في تلك الخيمة تحكي قصصا ••• تعـال الآن • ان كاي وباكلي علي وشك النزول في أية لحظة • »

وتجمع حشد كبير مرة اخري امام المنزل ، وكان رجال مستر ماسـولا يتحركون خلال الحشد يحملون اطباق السلاطة المملوءة بالشرائط الملونة ، وكان الناس يغترفون منهـا ملء ايديهم ويتركون اغلبها ينزلق من بين أصابعهم الي الارض •

كان هـذا هو المشهد الذي تخيله مستر بانكس كثيرا خلال السنـوات الخمس والعشرين الاخيرة ، اللحظـة التي ستسرع فيها اولي اولاده وهي تهبط الدرجات العريضة علي ذراع رجل غريب قوي العضلات •• لكي تختفي من حياته الي الابد •• اما وقد حانت هذه اللحظة ، فانه لا يشعر الا بتنميل في أطرافه !

وحدقت احدي وصـيفات العروس حول ركن «بسطة» السلم ، ثم ابتسمت في خجل واختفت ، وصـاح بعضهم وكأنه في ميدان سباق خيل : « هاهما قادمان » ••• ثم اخذت كاي وباكلي يهبطان الدرجات ، وخيل اليه انهما جـديران في كل شيء ••• وعندما وصـلا الي الممر الامامي ، كانت اكتافهما مغطـاة بالاوراق الملونة ، ومازال رأساهما منخفضين بين اكتافهما وجاء بانكس خلفهما مباشرة ومن ورائه وصيفات العروس ، ومرافقو المدعوين

كانت سيارة باكلي تقف عند نهاية الممر •• ودخل الاثنان السـيارة ، وانحنت كاي من خلال النافذة المفتوحة بينمـا كان باكلي ، يدفع الصـبيان

المدعوين بعيدا عن النافذة الاخري ٠
وقالت كاي : « وداعا يا ابي ٠٠
لقد كنت رائعا ٠٠ انني احبك »

وانطلقت السيارة الي الامام ، بينما دار مســـتر بانكس علي أعقـــابه ، ليستقر بين ذراعى احـدي وصيفات العروس ، وتمتم يقول : « وداعا ٠٠ اتمني لكما حظا سعيدا » ٠

وعاد مستر بانكس الي البيت ٠٠

***

قالت مسز بانكس في لهجة حالمة :

ـ لقد كانتتبدو جميلةحقا فيثوب الخروج ٠٠ الا تظن انه كان جميلا ؟

لم يستطع بانكس ان يتذكره جيدا ٠٠ ولكن وجهها كان محفورا في ذاكرته الي الابد ٠٠ وقال :

ـ انها مخلوقة عزيزة

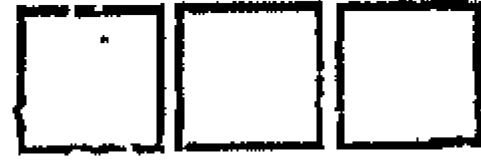
وقالت مسز بانكس في تأمل :

ـ من الغريب ان آل جريزفالد لم يحضرا ٠٠ لقد قبلا الدعوة وقالت لي جين انهما سيأتيان ٠

ـ لاادري كيف عرفت ما اذا كانا قد جاءا ام لا ٠

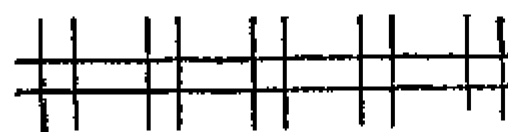
ـ انني اعرف كل من جاء ، وكل من لم يأت ٠

ولم يجادلها مستر بانكس في ذلك ٠٠ انه يعرف انها تتذكر الان والي الابد كل من جاء وكل من لم يجيء ٠



الفرق !

اشتركت النجمة جينا لولو بريجيدا فيتمثيل أفلام صورت فى مختلف أنحاء العـالم ٠ وهى تشرح الفرق فى مزاج كل دولة فتقول : « فى هوليوود يقدمون لك الكوكاكولا المثلجـة لكى يظهروا لك انك زائر منتظم ٠٠ وفى بريطانيا يقدمون لك الشاى المزوج باللبن ، لكىيظهروا انك واحد من الاصدقاء ٠٠ وفى فرنسا يقدمون الشمبانيا اذا كنت رقيقا حقا ٠٠ أما فىايطاليا فانهم لا يقدمون لك شيئا ، لانهم يكونون مشغولين جدا بتقبيل ذراعك !))



عذر !

« ان الشخص الذى يشرع فى ارتكابعمل غير انسانى ٠ يعذر نفسه دائما بقوله :«اننى على أية حال لست الا بشرا !٠٠ » ٠

كتاب الشهر

شمعة أضاءت قارة

القصة الكاملة لرحلة السفينة "مايفلاور"

ومغامرات الرواد الأول الذين استوطنوا أمريكا



ملخصة عن كتاب
One Small Candle
بقلم توماس فلمينج

شمعة أضاءت قارة

هناك لحظات قليلة في التاريخ تسمو على الزمن ، وتكتسب معنى خالدا .. وقد مرت مثل تلك اللحظة ، عندما استقل ١٠٢ من الرجال والنساء والاطفال الانجليز السفينة «مايفلاور» للقيام برحلة تجمع بين المغامرة والرجاء وقدر لها أن تستمر روحيا أكثر من ٣٠٠ عام .

ان كتاب « شمعة صغيرة » ليصورلنا في لوحة حية نابضة ، كيف عاشت عصبة من المزارعين والتجار والخاصة ، رغم اخطار الغرق ، والتمرد ، وهجمات الهنود الحمر ، والجوع والمرض ، وارست دعائم طريقة من الحياة ، غيرت العالم فيما بعد .. انها ملحمة من الشجاعة الروحية ، والعناء الذي يقصم الظهور ، اللذين أصبحا الروح والقوة لامة عظيمة ... ولكنها قبل كل شيء ، قصة انتصار الاخوة والحب ، قصة ستبقى من المعالم الدائمة في سعى الانسان الذى لا ينتهى نحو الحرية والايمان .

لم تكن السفينة قد حملت من قبل أي ركاب ، بل كانت سفينة بضائع عتيقة أرهقتها السنون التي أمضتها في نقل الاقمشة والحرائر من ألمانيا ، والقبعات والقنب من النرويج ، والنبيذ والكونياك من فرنسا .. وبفضل النبيذ ، أصبحت «سفينة حلوة» تفيض الروائح المسكرة من عنابرها .. ولكنها وهي تقف بجوار مرساها علي نهر التيمس في ذلك اليوم المعتدل الجو من أيام يونيو ١٦٢٠ لم تكن تختلف عن مئات غيرها من السفن الشراعية الاخري التي تقف في ميناء لندن الصاخب ..

وهبط رجلان الي الرصيف البحري المزدحم ، ونادي أحدهما بحارا كان يصلح الاشرعة فوق السطح المشمس:

ـ اسمع يا صاح .. أهذه «مايفلاور» اللندنية ؟

ـ أجل

ـ هل أنت الكابتن كريستوفر جونز ؟

ـ نعم ..

كانت تلك أسئلة ضرورية ، فقد

كان للسفينة اسم شائع ·· كانت هناك ٢٠ سفينة علي الاقل تحمل اسم «مايفلاور» مسجلة في سجلات الميناء في ذلك العصر · ودعا الكابتن جونز الرجلين للصعود الي السفينة وفي مقصورته الكبيرة المريحة ، قدما له نفسيهما : روبرت كاشمان وهو رجل هاديء ، عصبي زائغ العينين ، وصف نفسه بأنه من المشتغلين بتمشيط الصوف ، أما صاحبه ، فهو رجل صاخب متين البنيان ، من أبناء لندن يدعى توماس وستون ·· وهو الذي كان يقوم بأكثر الحديث ··

قال وستون للكابتن جونز انه هو وبعض أصدقائه من أبناء لندن ،كونوا شركة مساهمة لتمويل مزرعة جديدة في أمريكا · أما كاشمان ، فكان يعمل ممثلا لجماعة من المنفيين الانجليز المتدينين كانوا يعيشون في هولندا ويعرفون باسم « المستعمرين » وقد حصلت الشركة أخيرا علي براءة ملكية للحصول علي رقعة من الارض علي الساحل الامريكي ، وكان كل ما يحتاجون اليه الان هو سفينة ·· فهل يهتم الكابتن جونز بمساعدتهم ؟

كان كريستوفر جونز في الخمسين من عمره ، وهو رجل أعمال محترم له زوجة وولدان علي الشاطيء ·· ولما كان يمتلك ربع «مايفلاور» مما يضمن له الرفاهية ، فقد كان عليه أن يفكر مرتين بشأن القيام برحلة عبر المحيط الاطلنطي الغادر الفسيح·

ولكن الكابتن جونز كان يسمع ويقرأ قصصا عن أمريكا منذ سنوات ·· ولا يكاد يمر شهر حتي يظهر كتاب جديد ، ألفه ربان سفينة أو طبيب مركب ، يصف فيه عجائب السواحل الجديدة ، وعندما كان جونز يذهب الي المسرح ، كان يبغى علي الارجح أن يري شخصيات من أمثال «كاليبان» ، ذلك الوطني العجيب القادم من العالم الجديد ، في مسرحية «العاصفة» لشيكسبير ، أو الكابتن سيجال في قصة « الحرث شرقا » لتشابمان ، التي تحكي قصصا عن اليواقيت والماسات الموجودة علي الشاطيء الامريكي ·

وكان الكابتن جونز قد صاد في شبابه الحيتان علي مقربة من جرينلاند ·· فلماذا لا يقوم برحلة جريئة أخري قبل أن تزحف اليه الشيخوخة ؟

وسرعان مادارت مساومات عنيفة في المقصورة الكبيرة ·· كان أجر عبور الاطلنطي لكل راكب هو ٢٠٠ دولار ، ويزيد الاجر ١٧٥ دولارا اذا قدم أصحاب السفينة الطعام ، ولكن

وستون وكاشمان سرعان ما ذكرا ان «المستعمرين» سوف يحملون معهم مؤنهم . واصر جونز علي حقه في أن يتقاضي الاجر باليوم اذا اضطر الي التمهل علي الساحل الامريكي بعد نزول الركاب وتم الاتفاق علي هذه النقطة ، وأخيرا اتفق الرجال الثلاثة علي سعر في حدود ٢٠ الف دولار .

ووقعت العقود النهائية في الايام القليلة التالية ، وقال كاشمان للربان أن المنفيين سيغادرون هولندا فيسفينة أخري هي «سبيدويل» التي ستصاحب «مايفلاور» ثم تبقي في العالم الجديد، وتقرر أن تلتقي السفينتان للبدء في الرحلة بميناء سوثمبتون في منتصف يوليو .. أي بعد أكثر من شهر بقليل .

وقد تبدو عملية استئجار«مايفلاور» فيالظاهر مجرد عمليةتجارية روتينية، ولكن لو كان الكابتن جونز قد عرف كل المخاطر التي تتضمنها لفكر ثانية بكل تأكيد قبل أن يعقد الاتفاق .

وعلي الرغم من البراءة الملكية ، فان المنفيين في هولندا كانوا جميعا لايزالون معرضين للاعتقال وفقا لأهواء الملك بمجرد وصولهم الي انجلترا . والنبأ الاكثر ازعاجا للكابتن جونز هو أن واحدا من أوائل ركابه سيتم تهريبه علي ظهر مايفلاور متنكرا ، لانه هارب ، كان الملك جيمس يفتش عنه في أنحاء انجلترا وهولندا منذ أكثر من عام ..

● المنفيون

لم تكن مثل هذه المطاردات الملكية شيئا نادرا في ذلك الحين ، ففي عام ١٦٢٠ كانت انجلترا دولة يسودها القلق ، تنتابها هزات اجتماعية ودينية خطيرة، وكان الفقر والبطالة منتشرين علي نطاق واسع ، ومع ذلك فان الملك جيمس كان مصرا علي استنزاف الخزانة ، ببذخه واسرافه ، في الوقت الذي يذهل فيه البلاد بتبذله الاخلاقي .. وفي خلال القرن السابق أيضا ، كانت كتابات مارتن لوثر وما تبعه من اصلاح بروتستانتي قد ألهب عقول الناس بالمثل الاعلي للاستقلال الشخصي المتزايد ولم ترحب أمة بالفكرة الجديدة للحرية مثلما فعلت انجلترا ، ولكن الملك ظل يقاوم بشدة أولئك الذين يتوقون الي الحرية الدينية .

وتبع ذلك نوعان من رد الفعل : لقد أخذت الكتب والمنشورات تتدفق من مطابع سرية علي أنحاء البلاد تدعو الي اصلاح كنيسة انجلترا كخطوة أولي نحو اصلاح التاج

الفاسد ٠

أما رد الفعل الثاني ، فقد مضي خطوة أبعد ٠٠ فقد كان هناك الذين تولاهم اليأس من الاصلاح ، ونادوا بدلا من ذلك بالانفصال الكامل عن كنيسة انجلترا ، والحق في العبادة مثلما توجههم ضمائرهم ٠

وكان هذا مذهبا اكثر خطورة ٠٠ فاذا كان الانسان حرا في اختيار دينه اليوم ، فانه قد يشعر غدا بأنه حر في اختيار مليكه !٠٠ وهكذا ثار الغضب الملكي الجامح ضد « دعاة الانفصال » هؤلاء وأمر رجال البوليس بطردهم من البلاد ٠

وكانت جماعة المبعدين الدينيين الذين من أجلهم أجر الكابتن جونز سفينته (مايفلاور) قد طردوا من انجلترا تنفيذا لهذا المرسوم ٠

وكانوا قد بدأوا الاجتماع قبل ذلك ببضع سنوات في بلدة (سكروبي) علي مقربة من أواسط انجلترا ، ويقيمون صلوات سرية تحت ارشاد وليم بروستر من محضري المحاكم وحراس البريد ٠

وعندما بدأ الجواسيس والمرشدون التابعون للاسقف المحلي يطاردون اجتماعاتهم ، قرروا الذهاب اليالمنفي ٠٠ وهجروا بيوتهم المريحة ووظائفهم واحدا بعد الآخر لكي يستقروا فى هولندا ، حيث ازدهرت الحرية الدينية ٠

ولم تكن الاحدي عشرة سنة التي قضوها في وطنهم الجديد سهلة ، فقد اضطروا لتعلم صناعة الغزل والنسج وحبك الصوف في مصانع ليون ، مركز صناعة النسيج الهولندية الشهيرة ، ولكن وليم برادفورد ـ النساج الشاب الذي أصبح من زعمائهم ـ كتب يقول انهم وجدوا أخيرا « السلام والراحة الروحية » اللذين يرونهما اثمن من اي ثروة أخري ٠

فلماذا اذن قرروا أخيرا الرحيل عن هذه المدينة المسالمة بقنواتها المائية الجميلة وشوارعها النظيفة وميادينها المشمسة ؟

كانت هناك أسباب عديدة لذلك٠٠ فقبل ذلك بسنوات ، خلال حرب تحرير هولندا منالاستعمار الاسباني، واجهت (ليدن) حصارا وحشيا مات خلاله ٨٠٠٠ من سكانها جوعا او مرضا ٠٠ والان بدت في الافق نذر حرب جديدة بين الدولتين ٠ ولما كان الهولنديون تواقين الي التحالف مع انجلترا فانهم قد يضطرون الي مهادنة الملكجيمس باضطهاد كنيسة اللاجئين، فضلا عن أن سحر الحياة الهولندية

ونعومتها جعـلا اللاجئين يخافون أن يجـد ابناؤهم ما يغريهم بانتاجهـــا والتخـــلي عن تراثهم الانجلـــيزي وتكريسهم الديني أيضـــا ٠٠ وكان هناك كذلك رغبـة الشخص المنفي في أن يقف علي قطعة من الارض ويقول: « هذه أرضي أنا » ٠

وهكذا اتخذ في النهاية قرار انشاء مستعمرة في العـــالم الجديد ، رغم التنبؤات القاسية بالمجـــاعة والمرض والعذاب علي أيدي الهنود المتوحشين!

وتبع هذا القرار ثلاث سنوات من الدبلوماسية الخطرة ، حيث أخـــذ بروستر وغيره يتفاوضون في انجلترا عن طريق أصدقاء ذوي نفوذ للحصول علي منحة ملكية من الارض ٠٠ وفي احدي المرات بعث الملك رجاله لاعتقال بروستر الذي أصدر كتابا هاجم فيه سياسة الملك الدينية ، واضطربروستر الي الاختباء (وهو الذي طلب تهريبه بعد ذلك في السفينة مايفلاور) ٠ ومن أجل جريمـــة مماثلة ، حكم علي قسيس سكوتلندي بغـرامة ١٥٠ ألف دولار، وضرب بالسياط وعذب مرتين، وقطعت احدي اذنيه ، وشق انفه ، ودمغ وجهـــه بحرفي (م٠ف) أي « مثير الفتن » ثم سجن مدي الحياة !

ولكن أمكن اقناع الملك في النهـاية بمنحهم براءة الحصول علي الارض ، لا للمبعدين انفسهم ، بل لمن يؤيدونهم ماليا ، وهي شركة توماس وستون ٠ وسرعان ما أرسل النبأ الي هولنـدا

واختار بعض الرجال المتزوجـين القيام بالرحـلة بمفردهم ، بينما قرر غيرهم صحبة زوجاتهم وترك بعض الاطفال خلفهم ٠٠ وأحضـــر آخرون أسرهم كلها ٠٠ وأخـــيرا ركب ١٦ رجلا و ١١ سيدة و ١٩ طفلا سـفن القناة التي ستحملهم الي السفينـــة (سبيدويل) ومنها الي اللقاء المقرر في سوثمبتون ٠

غرباء ٠٠ وأنباء سيئة

عندما ألقت السـفينة «سبيدويل» مرساها بجوار «مايفلاور» بمينـــاء سوثمبتون ، كان اللقاء مثيرا سعيدا بين المبعدين وزعمائهم الذين قضـــوا هذه السنين العصيبـــة في انجلترا ، ولكن هذه التحيـــات التي تسودها البهجة سرعان ما انقلبت الي فزع ، عندما واجه القـادمون من (ليدن) بعض وقائع الحيـــاة الكئيبـــة غير المنتظرة ٠

لقد اكتشفوا منذ البداية أن هناك فعلا أكثر من ٨٠ راكبـــا علي ظهر مايفلاور : وكان هؤلاء «الغرباء» كما أسماهم المبعدون ، قد جمعهم توماس

وستون وشركاؤه في لندن لمل‌ء حصة المستعمرة ، كما كان علي السفينة عدد من البحارة والخدم ، فضلا عن ستة أطفال التقطوا من الآلاف اليتامي الذين يهيمون في شوارع لندن ٠

كانت صدمة للمبعدين أن يجدوا أنفسهم بين مثل هذا العدد الذي يفوقهم من الغرباء ولكن كانت هناك أخبار أكثر سوءا مازالت تنتظرهم٠٠ فأولا حدثت فترات تأخير طويلة سببها نزاع مع توماس وستون حول النصوص النهائية لعقد المستعمرين مع ممولي لندن وعندما رفض وستون تقديم أية أموال أخري ، اضطر المبعدون الي بيع ما يساوي ٣٠٠٠ دولار من المؤن الثمينة لتسوية ديونهم مع مختلف التجار ٠

وعلي الرغم من هذه المصاعب ، فان المستعمرين كانوا علي استعداد للرحيل ٠ وفي يوم ٥ أغسطس ، انطلقت مايفلاور وسبيدويل من ميناء سوثمبتون الي بحر المانش ، وقد امتلأت عنابرهما ببراميل ضخمة من الماء والجعة والكعك والاسماك المقددة، وأكياس من اللحوم المدخنة والبيض المخلل !

ولكن حدثت عندئذ ضربة ساحقة ٠٠ فبعد اقلاع السفينتين بفترة قصيرة ، بدأ الماء يتسرب الي سبيدويل بصورة سيئة ، فاتجهت عائدة الي ميناء داتموث لاجراء اصلاحات فيها ، ثم بدأت السير من جديد ، ولكنها ما كادت تقطع مع مايفلاور حوالي ٣٠٠ ميل من المحيط ، حتي اصيبت الاولي بمحنة أخري ، وفي هذه المرة عادت الي بلايموث ، حيث قرر الخبراء ان السفينة لاتصلح للابحار ويجب اخلاؤها ٠

كان هذا النبأ كارثة ٠٠ فان كل الرحلات السابقة لانشاء مستعمرات في العالم الجديد كانت تقلع في جماعات من سفينتين او اكثر ، اما الآن فان علي المسافرين اذا ارادوا الاستمرار في الرحلة ان يواجهوا الاطلنطي المخادع علي ظهر «مايفلاور» وحدها ، كما ان سبيدويل كانت حجر الزاوية في مشروعاتهم لصيد الاسماك والتجارة ، وبدونها تضاءلت الآمال في الحصول علي ارباح كبيرة ٠ كما ان المستعمرة ستصبح معزولة ، دون وسيلة لبعث رسائل لانجلترا اذا نفدت المؤن ٠

وعقد المبعدون اجتماعا مع الكابتن جونز الذي قال انه واثق من ان مايفلاور تستطيع عبور الاطلنطي وحدها ٠٠ وبعد ساعات من الصلاة

والتأمل قرر المسافرون المضي قدما !

ونقلت المؤن من سبيدويل الي مايفلاور ، بينما كان جونز يحسب الركاب الذين يستطيع أخذهم من السفينة العاجزة . كان لابد من ترك ٢٠ من الغرباء ، ولكن كان من العسير العثور علي متطوعين لذلك . وكان دوار البحر ونذر الكارثة قد انقصت العدد .

وهكذا ، انطلقت مايفلاور مرة أخري في ٦ سبتمبر وهي تحمل ١٠٢ راكبا حشروا كلهم في سفينة واحدة .

وكان هناك شيء واحد يعزي المبعدين خلال الرحلة ، وهو انه لم تقع أية متاعب مع الملك فان البلاط الانجليزي كان مشغولا الآن بالضجة التي أثارها دخول اسبانيا النزاع الذي عرف فيما بعد باسم « حرب الثلاثين سنة » .. لقد كانت اوروبا كلها علي وشك الانغماس في هذا اللهيب المستعر ، فمن الذي يستطيع ان يتوقف لكي يلاحظ عصبة من المنفيين المحطمين الذين ابحروا غربا علي ظهر سفينة بضائع بالية ، فى ظل وهم سخيف بأنهم شعب الله المختار ، الذين كتب عليهم ان يغرسوا أمة جديدة وسط القفار البعيدة !

● عاصفة فى البحر

هبت عاصفة بحرية صغيرة ، جعلت مايفلاور تترنح في شمال الاطلنطي ، وكانت الرياح بالنسبة للكابتن جونز بمثابة هدية يرحب بها ولكن اغلب المسافرين سرعان ما أصابهم دوار البحر مما اثار سخط البحارة .

وقد بدأ الاحتكاك بين البحارة والمسافرين منذ اليوم الاول في البحر ، اذ كان البحارة يسخطون عندما يصطدمون اثناء عملهم بالنساء والاطفال الذين يملأون سطح السفينة ولكن عداء البحارة ازداد عمقا ، اذ كان بحارة ذلك العصر اميين ، مشاغبين ، ذوي السنة قذرة وعندما عرف بحارة « مايفلاور » ان ركابهم من المتدينين ـ وكانوا يجتمعون كل صباح لترديد المزامير الدينية ـ زاد غضبهم ، فهم انما هربوا الي البحر فرارا من الصلاة والتراتيل الدينية .

وهكذا تحولت شكاواهم الي سخرية علنية ، وبدأ البحارة يطلقون السنتهم بالسباب والالفاظ القذرة بأعلي صوت ، وكان أحدهم يجد لذة خاصة في اغاظة الذين يصيبهم دوار البحر ، ويقول لهم انه يأمل في القاء نصفهم علي الاقل في

البحر قبل نهاية الرحلة · وعندما أصيب هذا البحار الملحد بمرض خفي مفاجيء بعد مرور أسبوعين ، ومات بعد آلام شديدة دهش زملاؤه ، ودفعهم ايمانهم بالخرافات الي الظن بأن هؤلاء المنشدين للصلوات والتراتيل قد يكونون مقربين الي الله ·· وهكذا تركوهم في سلام بقية الرحلة ·

كانت مايفلاور التي لا يزيد طولها علي ٣٤ مترا قادرة علي حمل الكابتن جونز وبحارته الثلاثين و١٠٢ راكبا بالاضافة الي ٧ من الضباط والمساعدين ، ونجار السفينة وطبيبها وطاهيها ، وبعض المدفعية لادارة مدافع السفينة العشرة ·

ولأحد يعرف بالضبط كيف تم ترتيب الركاب ، ولكن بعض المؤرخين يعتقد ان الكابتن جونز ورجاله احتشدوا في مؤخرة السفينة تاركين مقاصيرهم للركاب وربما عاش اغلب المتزوجين والفتيات غير المتزوجات والاطفال الصغار في مقاصير الضباط بينما بقي الرجال العزاب والاولاد الكبار علي سطح المدافع الذي يعلو عنبر السفينة الاسفل مباشرة ·

ولابد ان الافتقار الي الانفراد بالنفس والاماكن المزدحمة كان مؤلما ، ولكن هذه المشكلة طغي عليها الطعام غير المستساغ ، الشائع في سفن تلك الايام ·

ومع ذلك ، فان الطعام التعس والازدحام الكئيب كانا اقل اثارة لقلق المنفيين القادمين من ليدن من التنظيم المستقبل لمستعمرتهم ·· فقد ادركوا أنهم وقد أصبحوا الآن أقلية ، لاتتجاوز ٢٧ من البالغين ، لابد لهم من العثور علي حلفاء بين هؤلاء الغرباء اذا أرادوا الاحتفاظ بالسيطرة علي الجماعة ، وانشاء نوع من الكومنولث الذي تخيلوه ··

وهكذا امضوا جانبا كبيرا من أسابيعهم الاولي في محاولات حذرة للتعرف علي رفاقهم الجدد ·

واستطاع رجلان ان يؤثرا في نفوس المنفيين علي الفور ، أحدهما شاب أشقر متين البناء يدعى جون ألدن ، وهو صانع براميل في الحادية والعشرين من عمره ، والثاني يدعي مايلز ستانديش وهو ضابط سابق في جيش الملكة اليزابيث ، أحمر الشعر ، كان مكلفا بتولي امور الدفاع عن المستعمرة الجديدة · وما ان انتهت النوبات الاولي لدوار البحر ، حتي شرع ستانديش في تدريب شراذم من الرجال ، معلما اياهم كيف يستخدمون السيوف ، والبنادق التي

اشتريت للرحلة ، ورغم قصر قامته ، فقد كان ستانديش زعيما بالفطـرة يستطيع حفظ النظـام بين الرجال بسهولة .



● أسرى البحر

كان الكابتن جونز يتفرس في الافق الشمـالي الغربي كل يوم ، يرقب اضطراب الجـو المتوقع عندما تهب الرياح الغربية المنتظرة في الخـريف قادمة من جرينلند ، وعندما اقبلت هادرة في النهاية تعرضت السـفينة لامواج عالية كالجبال ، ملأت سطحها بالماء ، ووجهت للسفينة مايفـلاور ضربات قاصمة ، بينما تجمع الركاب في الاسطح السفلي يملؤهم الزعب ، وأخذوا يصلون ويبتهلون . وجاءت موجة وحشية اخري ، أسقطت احدي الدعامات الاساسية وسط السفينة مما ادي الي تناثر الشظايا من السـطح المحطم ..

وتدفق الماء من فتحات جديدة ، حتي اضطر الركاب الذين اسـتبد بهم الفزع الي الالتصاق بالجـدران هربا من الماء .

واستدعى النجار ، الذي قال انه لن يمكن انقاذ السفينة الا اذا امكن اعادة الدعامة الي مكانها ، وتعاون أقوي الرجال علي ظهر السفينة ، وهم جون ألدن وستة آخرون علي القيـام بهذا العمل ، ولكن الدعامة الضخمة لم تلبث ان تدلت مرة اخري .

وتذكر البعض رافعة لولبية حديدية ضخمة كان المنفيون قد اشتروها من هولندا للمساعدة علي اقامة المساكن في العالم الجديد ، فبحث عنهـا البحـارة حتي وجدوها في عنبر السفينة ، وأحضروها ثم وضعوها تحت كتلة الخشب الساقطة ، وأخذوا يديرون ذراع الرافعة ببطء حتي أعادوا الدعامة الي مكانهـا ، ودعموها بأطواق من الحديد .

وانطلقت السفينة مرة أخري نحو العالم الجديد ، وان ظلت «مايفلاور» أياما واياما تواجه جبالا من الامواج وسط المحيط الاطلنطي ... واستمر

الاطلنطي في ثورته ، ولكن الركاب البؤساء ، بذلوا كل جهودهم لاحتماله

وهنا ظهرت ازمة جديدة ·· لقد ارتفعت صيحات الالم من المقصورة الكبري ·· ان اليزابيث هوبكنز – من الغرباء – جاءتها آلام المخاض · ولم تكن هي ولا زوجها ستيفن هوبكنز يتوقعان ان يأتي طفلهما خلال عاصفة وسط الاطلنطي ·· واقترح وليم بروستر ان يركع المنفيون والغرباء معا للصلاة من أجل اتمام الوضع بسلام · وسرعان ما جاءت انباء طيبة ·· لقد ولد الطفل في حالة جيدة ، وعلي الفور اسماه ابوه « اوقيانس » ·

ورفعت ولادة الطفل الروح المعنوية للجميع ، الي ان اقترب الاسبوع العاشر ، فاذا بالخادم وليم باتني الذي يبلغ الثالثة والعشرين من عمره يقع مريضا ·· كانت تلك اول حالة بمرض الاسقربوط ، ولكنها كانت اصابة قاتلة ·· ولف البحارة الجثمان في كفن ، ثم القوا به في اليم · وكانت هناك علامات أمراض اخري منذرة بالشر في الاسطح السفلي للسفينة ، فقد كان الرجال والنساء يشكون من سيقان متورمة ، ورعشة وحمي ، ولكن الجو بدأ يصفو أخيرا لحسن الحظ ففتحت الطاقات ، وارسل حتي المرضي الي السطح للقيام ببعض التمرينات بناء علي نصيحة الربان ·

وهنا سري في السفينة جو من الانتظار ، اذ كان الكابتن جونز قد ذكر ان الارض قد تظهر في أية لحظة وكان هناك بحار يقبع فوق أعلي «صاري» ، يحدق في الافق البعيد دون ان يري شيئا غير اميال من محيط لا طريق فيه ·· ومر يوم آخر ··

وفي صبيحة يوم ٩ نوفمبر ، كان البحارة يؤدون اعمالهم المعتادة ، بينما كان الكابتن جونز يرقب الفجر وهو يبزغ علي صفحة البحر المتألقة ، والاشرعة تخفق في أعلي وسط رياح فقدت قواها · واشار الضابط المساعد جون كلارك الي لون الماء المتغير الذي تحول من الزرقة الي لون فيروزي مما يعني ان الارض قريبة ·· وامر الربان بقياس عمق الماء ، وبعد لحظات صاح أحد البحارة : « « العمق ٨٠ قامة يا سيدي »

في هذا المكان ، وتحت بطن السفينة بحوالي ٤٨٠ قدما ، كانت قارة امريكا الشمالية تمد ذراعيها في البحر لكي ترحب بهم ·· وهنا انعكست اشعة الشمس علي أشرعة مايفلاور البالية فجعلتها تتوهج وكأنها منسوجة

بالذهب ٠

ومن اعلي الصـاري الكبير ، انطلقت الصيحـة التي كان الركاب والبحارة يسمعونها في أحلامهم منـذ اسابيع : « الارض !٠ الارض !٠ »

● التعهد الاول بالولاء

دوت صيحات الفرح ، وتساقطت دموع الارتياح ٠٠٠ وركع كثيرون علي ركبهم ليشكروا الله في بساطة تلقائية ، ولكن الفرحة كانت قصيرة ، فبعد استشارة الخرائط ، قال الكابتن جونز ان الشاطيء الطويل المنخفض المغطي بالرمال الذي يقتربون منه ، هو جزء من تلك الذراع الكبيرة من الارض المعروفة باسم رأس كود او « كيب كود » ٠

وكان هذا النبأ مخيبا للآمال ٠٠ فكيب كود ليست هي المكـان الذي خصصه الملك لزرعتهم فالتصريح الذي يحملونه يسمح لهم بالاستقرار فقط عند مصب نهـر هدسون ، ضمن الاراضي التي تسيطر عليها شركة فيرجينيا ٠٠٠ وضغط الركاب علي أسنانهم ، وروضـوا انفسهم علي احتمال يوم آخر او يومين علي ظهر « مايفلاور » ٠٠ وانطلقوا صـوب الهدسون ولكنهم اضطروا خـلال ساعات الي اعادة النظر في هذا القرار اذ بينما كانت « مايفلاور » تتجـه جنوبا اجتاحتها فجأة موجات عالية خطرة في منطقة ضحلة ، وبعـد مناورات مرهقة استغرقت ساعات استطاع الكابتن جونز ابعادها عن تلك المنطقة الضحلة المميتة ٠

وعقد الركاب بعد ذلك مؤتمـرا آخر ، قيل فيه اذا كانت المياه غير المرسومة في الخرائط تحوي منـاطق ضحلة كهذه ، فقد يستغرقون بضعة أسابيع للوصول الي نهر هدسون ، ولعل من الاحكم الاستقرار هنا علي شواطيء نيوانجلند ، وعدم اضاعة تلك الايام الثمينة علي حافة الشتاء ٠ وبعد مناقشات استمرت طوال الليل وافق الزعماء القادمون من ليدن ومن لندن علي المغامرة بالبقاء في نيوانجلند ٠٠ وفي الصباح اعلنوا قرارهم ٠

وبقي بعد ذلك شيء واحد ٠٠٠ هو انتخاب حاكم للمستعمرة ٠٠ وبلا معارضة ، انتخب جون كارفر لاحتلال المنصب لمدة عام واحد ٠٠٠ وتجمع الزعماء الذين احسوا بالراحة وملأ الامل قلوبهم ، وانضموا الي الآخرين وهم يصطفون علي سطح مايفلاور ليلقوا علي العالم الجديد نظرة عن كثب !

● **كنز في الارض**

كان حطب النار قد استنفد علي ظهر السفينة « مايفلاور » ، ومن ثم فقد انطلقت جماعة من الرجال في قارب السفينة الطويل متجهين نحو الشاطيء ، ولكن الحواجز الرملية حالت دون هبوطهم علي الساحل ، فاضطروا الي الخوض في مياه يبلغ عمقها حوالي متر ، وهي تجربة تثير القشعريرة في أوائل شهر نوفمبر ، ولكن فرحة ملامسة الارض الصلبة كانت شديدة ، حتي ان أحدا منهم لم يعبأ بهذه البرودة •

كان الرجال قد هبطوا في المكان الذي تقع فيه الآن مدينة برنستون علي طرف كيب كود وسرعان مازحفوا الي الغابة حيث اقتطعوا مؤونة ضخمة من خشب الشربين الحلو الرائحة ، وعندما عادوا الي السفينة ، سرعان ما امتلأت اسطح مايفلاور السفلي بهذه الرائحة البرية وتمتع الركاب بأول وجبة ساخنة منذ اسابيع •

ولم يوجد اي ماء عذب في الغابات مما ثبط كل فكرة لانشاء المستعمرة هناك ، وأراد الرجال ان يواصلوا البحث •• وكانوا قد أحضروا قاربا يزن عشرة اطنان واختزنوه فوق سطح مايفلاور ، لمساعدتهم علي التحرك بسرعة علي طول المياه الساحلية ، ولكن القارب اصيب ببعض الفتحات خلال الرحلة ، وقال نجار السفينة ان اصلاحه وجعله صالحا للاقلاع يتطلب عدة اسابيع •

وأعلن بعض المغامرين من الرجال انه من الجنون الانتظار •• وأبدوا الرغبة في استكشاف البلاد علي أقدامهم ، وبعد قليل من التردد ، وافق الحاكم كارفر علي السماح لستة عشر رجلا بالرحيل ، محذرا اياهم من قضاء اكثر من يومين في هذه الرحلة •

وتسلح الرجال بالخوذات والسيوف والبنادق ، والدروع الفولاذية ، ثم هبطوا الي الشاطيء يتقدمهم مايلز ستانديش ، ولكنهم بعد ان قطعوا حوالي ميل ، توقفوا فجأة في دهشة : لقد استطاعوا ان يروا علي مبعدة خمسة او ستة اشباح قادمين نحوهم

انهم هنود حمر ! ••• وحث ستانديش زملاءه علي السير قدما ، فان الهنود الحمر يستطيعون اخبارهم بمعلومات عن الارض : اين توجد المياه العذبة ، والمواني الصالحة •• ولكن الهنود استداروا فجأة نحو الغابة واختفوا فيها •• ووجد رجال ستانديش آثارهم وتبعوها اميالا ،



حتي اضطرهم الليـــل الي نصب خيامهم ، واستأنفوا البحث في الصباح التالي ، ولكن املهم خاب في العثور عليهم فاضطروا الي التخلي عن البحث .. لقد اختفى الرجال الحمر تماما !

كان الرجال قد وصلوا الآن الي واد من الحشائش الطويلة ، حيث توجد الآن بلدة « ترورو » وهنـــا ساروا في طريق صغير ، فاذا بهم يواجهون منظـــرا غريبا عبارة عن « أكوام من الرمال » وقـــد غطي أحدها بقوس خشبي ، وحفر الرجال بسيوفهم فيها ، فأخرجوا قوســـا وعددا من الســـهام التي تفتتت في أيديهم . وسرعان ما قرروا ان هذه مقبرة ، وتوقفوا عن الحفر فيها .

ولكن علي قمة تل قريب ، لاحظ أحـــدهم ربوة أخري من الرمال ، وكانت عـــلامات الايدي لاتزال بادية عليها مما يدل علي انهـــا صنعت حديثـــا .. وبنـــاء على أوامر ستانديش بدأ ثلاثة رجال الحفـــر وسرعان ما كشفوا عن سلة مليئـــة بالاذرة .. وتملكهم التأثر فزادوا من الحفر ، وأخرجوا سلة اخري ضخمة مليئة « بأذرة بديعة بعضها اصفر

والبعض أحمر ، واخري مشـــوبة باللون الازرق »

كان هذا كشفا هاما جدا ٠٠ وكان المسافرون قد أحضروا معهم بذورا للقمح والشـــعير ولكنهم علموا من الانباء الواردة من فيرجينيا انافضل الحاصلات نموا في العالم الجديد هو الاذرة ٠٠٠ فاذا فشلت حبـــوبهم الاخري ، فان هذه البذور قد تعني الفرق بين الموت والحياة !

وعنـــدما عاد المستكشفون الي « مايفلاور » اصـــغى الركاب الي تقريرهم ، وعندما شاهدوا ما وجدوه علي السفح المنحدر ، الذي يســمي حتيالآن تل الاذرة « كورن هيل » ، تملكتهم الدهشة ، ولاسيما الفلاحون منهم ، الذين ادهشهم حجم البذور مما يعني تربة خصبة ومحصولا طيبا في المستقبل ٠٠

● معركة أمام المتاريس

وقضى الرجال البيض يوما آخـر في بحث غير مثمر عن الهنـــود ، ولكنهم اكتشـــــفوا شيئا آخر يثير الحيرة ٠٠ ففى منطقة كبيرة خالية من الاشجار ، وجدوا مقبرة كبري محاطة بحاجز من الاشجار لابد ان هذا المكان كان محل كارثة رهيبة ، فقد دفنت في المقبرة مئات من الجثث ، وعلي مسافة غير بعيدة ، تقف حقول الاذرة مهجورة ، لا يزرعها أحد !

ماذا يعني هذا ؟ ٠٠ لقد استولي العجب والحيرة علي قلوب الرجال ، فأقاموا معســكرا آخر وبنوا حاجزا صغيرا ، ومواقع للحراسة ٠٠ وخلال تلك الليلة ، أقلق نومهم عواء الذئاب وقبل الفجر مباشرة ، مزقت الهــواء صرخة تصم الآذان : لقد صاح أحد الحراس : « الهنود !٠٠ الهنود !٠٠ » وفي نفس اللحظة انهــــال سيل من السهام من الظلام فأصاب المتاريس

كان بعض الرجال قـــد تركوا بنادقهم في القـــارب ، فأسرعوا الي الشاطيء لاحضارها ، وعندما اسرع الهنود لقطع الطريق عليهم ، استدار بعض الرجال البيض بسيوفهم لمواجهة الهجوم ، ولكن هذه المعركة لم تدم طويلا ، لان الرجال الذين بلغـــوا القارب أطلقوا بنادقهم فهرب الهنود عائدين الي الغابة ٠

ولكن مايلز ســـتانديش والحاكم كارفر ، وبرادفورد والرجال الآخرين في المخيم كانوا لايزالون يواجهـــون هجوما ضاريا ، فقد كان للمتاريس ثلاثة جوانب فقط ، فانهال الهنـــود بسهامهم من الفتحة المتروكة فيالجانب الرابع ٠ وامر ستانديش الرجـــال

بعدم اطلاق نيرانهم الي ان ينقشـــع الظلام . وانتظر الرجال وهم يصغون الي صيحات الهنود الوحشية ، وعندما بزغ الفجر ، استطاعوا رؤيتهم وهم يتحركون خلال الغابة .

وبدأ المحاصرون اطلاق نيرانهم ، وسرعان ما تبدد هجوم الهنود ولم يبق غير واحد منهم ، هو الزعيم كما يبدو ، الذي وقف خلف شجـرة علي مدي طلقات البنادق ، وهو يطلق سهامه علي البيض .

وأخيرا صوب أحد الرجال بندقيته جيدا علي المحارب الهندي ، واطلق الرصاص علي مقربة من اذنه وعندئذ اطلق الهندي صيحة عالية واســرع بالفرار ، واختفى مع رجاله جميعا ، تاركين المستكشفين وحدهم مرةأخري علي حافة الغابة الصامتة .. دون ان يصاب أحدهم بأذي .

● الهبوط في بلايموث

اجتاحت العــواصف والامطــار والجليد سطح البحر ، وعند العصر ، كانت الانواء تعصف بالقارب الكبير الذي حطمت الامواج العالية دفته ، واضطرت الرجال لاستخدام المجاديف في تسييره ، ثم هبت لفحة قوية مزقت الشراع وحطمت الصــارية الكبري فسقطت في البحر .

كان الوقت في الغسق ، والرجال يجدفون بجنون باحثين عن ميناء لا يستطيعون رؤيته خلال الظلام واخيرا وجدوا مياها اكثر هدوءا ، فشـــقوا طريقهم باحثين عن مأوي علي الارض دون ان يعرفوا اين هم ...

وترك الرجال قاربهم في الماء المتجمد من البرودة ، وهرعوا الي الشاطيء . حيث اوقدوا نارا التفوا حولها وقد كاد اليأس يستولي عليهم .. لقد انقضى شهر تقريبا منذ بلغوا العالم الجـــديد ، وهاهم الان يواجهون الكارثة بعد ان اصيب القـــارب بالعجز ، وحاصرهم الجو المرير ، والهنود المعادون ..

ولكن ما كاد الفجر يبزغ ، حتي ارتفعت روحهم المعنوية ، فقد صـفا الجو ، وبرزت اشعة شمس الشتاء الساطعة ، فوجــدوا انفسهم فوق جزيرة تواجه « ميناء اللصوص » ، وأمامهم عبر المياه ، تلال تكسوها الاشجار التي تتوهج بالجليد ، وكأنها مسرح خلوي كبير يحيط بالخليج .

كانوا ينظرون الي « بلايموث » .. وصنع الرجال صاريا جديدا لقاربهم ، وفي فجــر ١١ ديسمبر أقلعوا عبر الميناء الهاديء ، نحو الشاطيء الذي يكسوه الجليد .

وأمر مايلز ستانديش رجاله بالوقوف صفا واحدا وبنادقهم في ايديهم ، ثم زحفوا الي الارض ، وقد أحسوا علي الفور بالاعجاب بما شاهدوه .. كان هناك حقول ذرة متفرعة ، وعدد من جداول الماء الصغيرة الجارية .. ولكن الحقول كانت كسابقتها مهجورة ، وسرعان ما قرروا ان هذا افضل مكان للمستعمرة فهي علي الاقل افضل ما استطاعوا العثور عليه ، وكانوا سعداء بقبوله ، بسبب ظروف الجو والضرورة .

وعاد الرجال الي قاربهم بقوة جديدة وتأثر بالغ ليزفوا النبأ الطيب الي السفينة « مايفلاور » .. لقد وجدوا لهم موطنا !

وتلاشت كل الشكوك الباقية حول مكان المستعمرة ، عندما القت مايفلاور مراسيها بعد بضعة ايام في خليج « بلايموث » ، واستطاع الركاب ان يلقوا نظرة عن كثب علي الارض ... ووجدوا التربة رائعة واشجار الاخشاب وفيرة ، وكان أفضل شيء انهم وجدوا قرب الشاطيء تلا يستطيع المسافرون ان يروا منه مسافة بعيدة من البحر ، وأوصى ستانديش ببناء قلعة هنا ، تسيطر علي الخليج ، وعلي الاراضى المحيطة بها معا .

كان الجميع يتلهفون للنزول الي الشاطيء ، وبدء بناء المنازل ، ولكن عاصفة مريرة هبت من الشمال الشرقى أجبرتهم علي الانتظار .. وأخيرا بدأ العمل في ٢٣ ديسمبر ، حيث غادر كل رجل قادر السفينة وبدأ يقطع اشجار الصنوبر وينشرها الي ألواح لاقامة مسكنهم . الاول ، الذي اصبح « دارا مشتركة » كبرى .

وفي خلال الاسبوع ، وضع الرجال المقاييس لانشاء اول شارع رئيسى « مين ستريت » في نيوانجلند وقد تقرر ان يصعد التل ، علي ان تقام صفوف من المنازل علي جانبيه ، وينتهي عند القلعة في أعلي التل ، وتوفيرا للوقت ، وجعل المستعمرة محكمة قدر الاستطاعة ، عهد الي الرجال العزاب بالحياة مع العائلات وقد قلل هذا عدد المنازل المطلوبة الي ١٩ منزلا .

كانت المنازل التي بناها المستعمرون عبارة عن دور خشبية ، تتكون من غرفة واحدة ومدفأة ، وغرفة علوية للنوم يمكن الصعود اليها بسلم متنقل ، ولم يكن بناء هذه المساكن الصغيرة سهلا ، اذ كان كل منها

يتطلب اساسا متينا من الحجارة ، وصنعت السقوف من الحصير المجدول ولم يكن هناك اي زجاج علي النوافذ ، واستخدم بدلها ورق شفاف ، وسدت الشقوق والمفصلات في الجدران بالطين ..

ومضى العمل يتقدم باطراد خلال الاسابيع التالية ، وسرعان ما بدت مظاهر الحضارة علي الشاطيء القفر وتم انشاء الدار الكبري المشتركة ، كما اوشك العمل ان يتم في اغلب البيوت .. وفجأة في أواخر يونيو تعثر العمل ، ثم توقف تماما .

وفي الدار المشتركة ، وعلي ظهر « مايفلاور » وفي منزل صغير آخر ، خصص كمستشفى للطواريء ، رقد الرجال والنساء يسعلون ، ويلهثون بأنفاس متقطعة .

لقد جاء « المرض العام » !

منذ رسو السفينة « مايفلاور » لم تحدث غير وفيات قليلة ، كما اصيب عشرات بالبرد ، وبالمراحل الاولي من داء الاسقربوط .. ولكن الآن اجتاح المستعمرين فيروس مشابه في كثير من أعراضه الانفلونزا بصورة وبائية وفي بعض الاحيان ، كان هناك ٦ او ٧ فقط من الرجال الذين يملكون القوة للوقوف علي أقدامهم وراح الرجال والنساء يموتون بمعدل ٢ او ٣ كل يوم .

كانت لحظة ازمة كبري في المستعمرة الصغيرة .. واخذ الذين ظلوا اصحاء يعملون دون انقطاع فى رعاية المرضى .. يوقدون لهم النار ، ويعدون اللحوم ، ويغسلون الثياب القذرة ، ويلبسونهم ملابسهم ويخلعونها عنهم .

وسرعان ما اجتاح الوباء بحارة « مايفلاور » ، وعندئذ تقدم من بقي من الركاب علي ظهر السفينة لمساعدة البحارة المرضى ، الذين كان زملاؤهم أنفسهم يبتعدون عنهم ، وقد ترك هذا العمل انطباعا قويا في النفوس .. وظل الوباء يجتاح المستعمرة اسابيع عديدة ، وعدد الوفيات مستمرا ، حتي لم يبق غير نصف المستعمرين أحياء .. ومحيت اسرة كاملة من الوجود .. فقد ماتت ١٣ زوجة من بين الزوجات الثماني عشرة ، بينما مات ١٩ من الرجال العزاب من بين ٢٩ ، ودفنوا جميعا في تل منخفض فوق الشاطيء مباشرة في مقابر غير عميقة ، لا تحمل اية علامات ، خوفا من ان يعرف الهنود ان عدد البيض قد تضاءل ، ويشجعهم علي الهجوم .. وكانت هناك علامات

علي وجود الهنود علي مقربة •

وحث ستانديش الرجال علي انشاء القلعة ، ومع ان عدد القادرين علي العمل كان قليلا ، فقد امكن بنـــاء منصة قوية للمدافع ، وفي ٢١ فبراير ساعد البحارة المستعمرين علي سحب مدفعين كبيرين الي أعلي التل ، وكان احدهما يزن ١٢٠٠ رطل والآخـــر ١٥٠٠ ، وقد وضعوا في أماكنهما مع مدفعين اصغر حجما •

وعنـدما انتهي العمـل ، أخـذ ستانديش يذرع المنصة بارتياح •• فمن هذا الموقع ، تستطيع المدافع ان تكتسح الغـــابات المحيطة بالتل ، والميناء •• ورغم « المرض العام » ، فان بلايموث خطت خطوة كبري نحو البقاء •

● شمعة صغيرة

بينما كان الشتاء يقترب ، استعد المستعمرون للاشـــهر العجاف التي تنتظرهم ، فأضيفت حصر جـــديدة للسقوف ، وسدت الثقوب بالطفل ، وظفـر الصـيادون بمئونة طيبة من الدجاج البري ولحم الغزلان •

ولكن كل هذا العمل قوطع فجـأة ، عندما اقبل هندي أحمر يجري في شوارع البلدة حاملا انباء من كيبكود •• قال ان هناك ســفينة تقلع في اتجاه بلايموث ، وهي سفينة ضخمة ذات أشرعة •• انها سفينة الرجال البيض •

واثار النبأ قلقا سريعا ، فلم يكن المستعمرون ينتظرون اية سفينة من انجلترا ، وقد خشوا هجـــوما من القراصنة المغيرين او من المغـــامرين الفرنسيين او الاسبان ، وسرعان ما أمر برادفورد باطلاق مدفع لاستدعاء الذين كانوا بعيدا يصيدون ، ووضع ستانديش شراذم صغيرة من الرجال علي طول الشاطيء لرد اي نزول قد يحدث علي الشاطيء ••

ومرت ســـاعات ، ثم مالبثت السفينة الغامضة ان ظهرت علي مقربة من مدخل الميـنــــاء ، وارتفع علي صاريها علم تجمع المستعمرون ليروه •• كان العلم الانجلـــيزي ! ونزل قارب طويل من السفينة اتجه نحـــو الشاطيء ، وعندئذ عرف كثيرون من المستعمرين الشخص الذي يقف في مقدمة القارب •• انه صديقهم القديم الرجل الذي ســـاعد علي استئجار « مايفلاور » •• روبرت كاشمان !

وهبط الي الشـــاطيء ٣٥ راكبا جاءوا علي الســـفينة « فورشان » أغلبهم رجال اصحاء ، وقد احضـر كاشمان معه مرسوما ملكيا جديدا

كان المستعمرون قد بعثوا في طلبه مع (مايفلاور) عند عودتها • وقد اكد المرسوم الجـديد ملكية المستعمرين لبلايموث ، واعترف بميثـاقهم ، وخولهم حق وضـع القـوانين والتشريعات لحكم انفسهم بوسـاطة الاغلبية •

وجاء بعد ذلك رجال آخرون •• رجال من عقـائد مختلفة ، أسسوا مستعمرات اكثر قوة في هذه القارة العظيمة •• ولكن بلايموث وحـدها هي التي حوت بصورة نقية مؤثرة ، المزيج الفريد من الشجاعة والايمان ، الضروريين للتجربة الامريكية ، وقد أضحت قصتها المحك لقيم الامة ومثلها العليا ••

ولعل وليم برادفورد قد أحس فعلا بالفخر الهادىء ، الواضح في هـذه السطور التي كتبها بعد سنوات يلخص فيها المغامرة الكبري :

« ان شمعة واحدة صغيرة يمكن ان تضىء الف شمعة ، وهكذا فان الضوء الذي اشـتعل هنا ، اصبح أضواء عديدة غمرت الامة بأسرها •• ولقد سجلنا هذه الاشـياء ، حتي يمكنكم ان تروا ما هي جديرة به ، ولا تهملوا لتفقدوا ما حصل عليـه آباؤكم بمشقة بالغة »

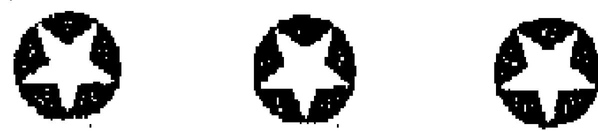


تدريب !

كان صـياد الوحوش فى طريق عودته الى مخيمه بأحدى الغابات الافريقية ذات ليلة عندما خرج أمامه فجأة أسد هائل الحجم .. وبينما كان الاسد على استعداد للقفز على الصياد ، اطلق هذا عليه رصاصته الاخيرة ، ولكنها لم تصب الاسـد ، الذى قفز قفزة واسعة جعلته ينزل على مسافة ١٥ قدما وراء الصياد ••

واسرع الصياد بالفرار الى معسكره فى امان ••

وفى اليوم التالى ، توجه الصياد الى منطقـة خاصة للتدريب على اطلاق النـار من مسافة قصيرة ، وهناك سمع صوتا غريبا بين الاشجار القريبة ، فتوجه لمعرفة سببه ، وهناك وجد الاسد ••• يتدرب على الوثب فى قفزات قصيرة !



قلق لا موجب له !

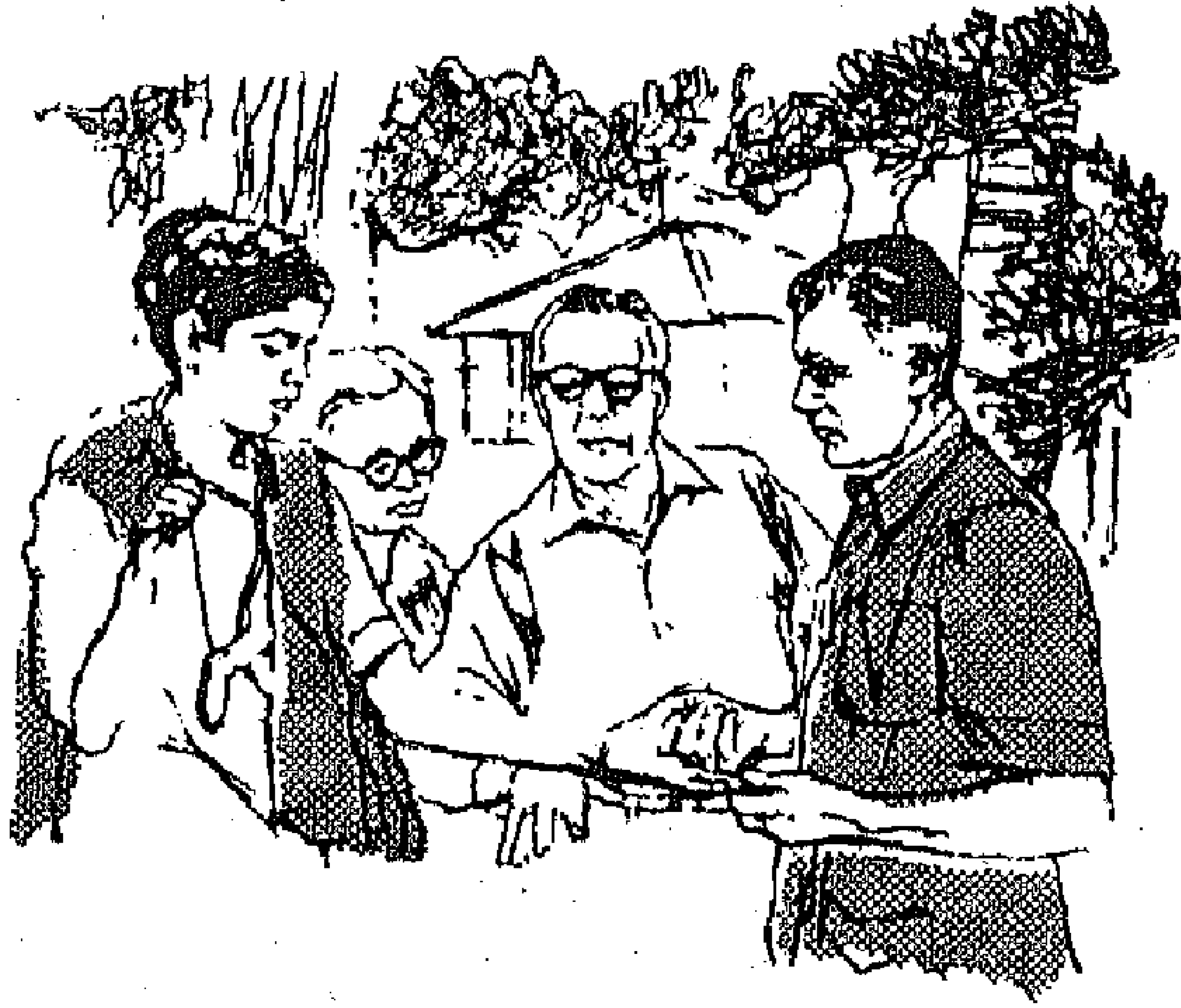
قال المحاسب الحكومى لزميله :

– لقد استبد بى القلق بعض الوقت بسبب هذا العجز ••• فقد نسيت انني اعمل لحساب الحكومة !

كتاب الشهر

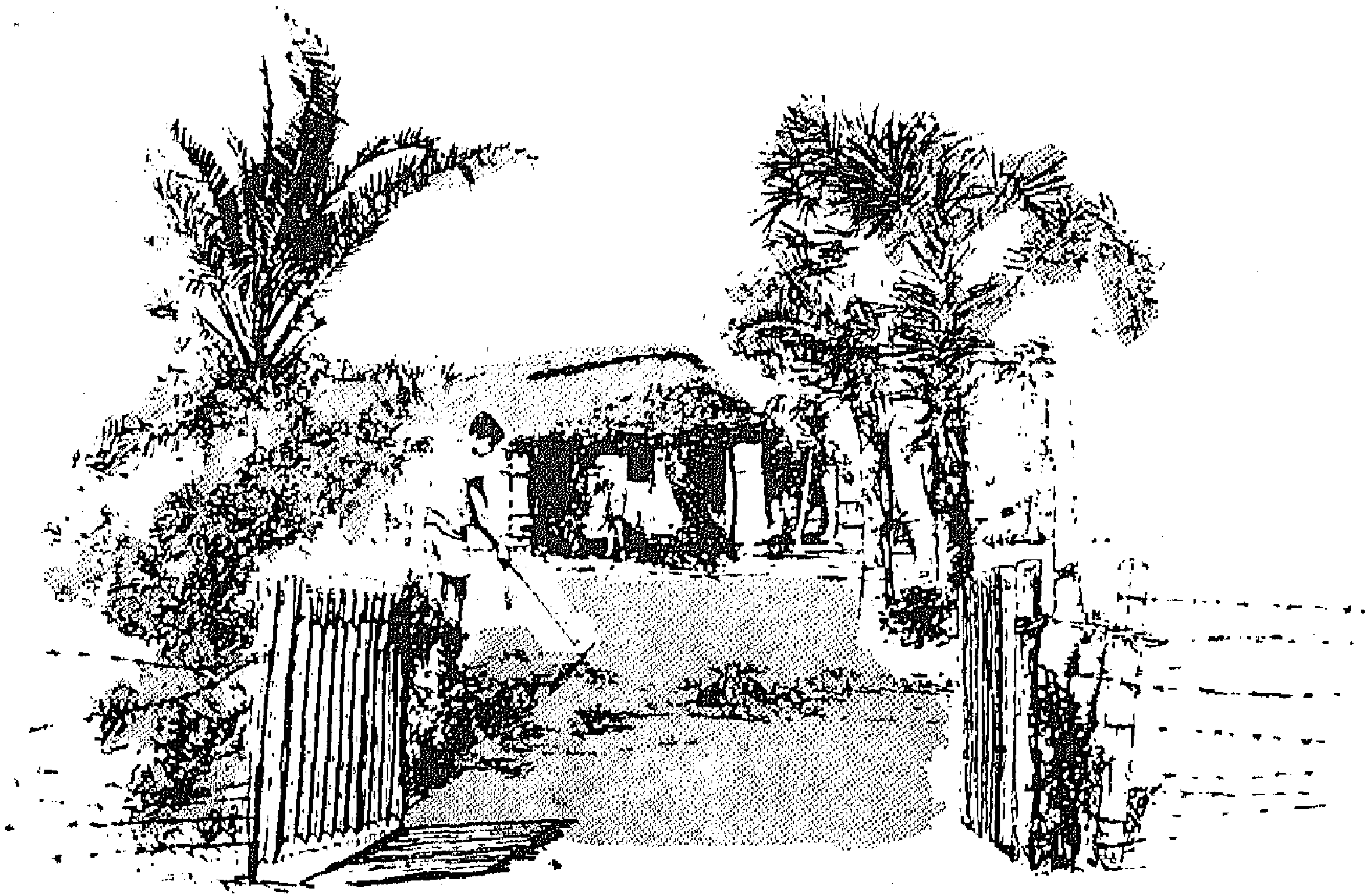
صانع الأمل

قصة طبيب جراح فى الهند
والعمل الإنسانى الكبير
الذى منح الأمل للملايين



ملخصة عن كتاب «*Ton Fingers For God*»

بقلم دوروثي كلارك ويلسون



« هناك مرض واحد منذ مئات السنين ، له من قوة التدمير والاصابة بالعجز ما يجعل مجرد ذكر اسمه كفيلا باثارة الرعب في القلوب .. ولقد كان الدكتور بول براند أول جراح للعظام استطاع أن يشن هجوما مركزا على هذا المرض اللعين ..

وقد استطاعت دوروثي كلارك أن تسجل في كتابها (عشر أصابع من أجل الله) قصة العمل الذي قام به هذا الطبيب الانسان ..

انها قصة ايمان شخص ، ودراسة طبية ، واكتشافات مذهلة ، فتحت آفاقا جديدة من الامل لحوالي عشرة ملايين شخص من ضحايا مرض الجذام »

صانع الامل



كان يوما روتينيا بالنسبة للدكتور بول براند . لقد أتم التدريس لفصوله ، وأخذ يقوم بجولاته الاخيرة في كلية الطب المسيحية ومستشفاها في بلدة «فيلور» بالهند عندما انتحى به رئيسه الدكتور كوشرين مدير المعهد جانبا وسأله فى لطف ورقة :

« لماذا لا تأتي الي شنجلبوت وتتناول العشاء معى ؟ »

ودهش براند .. فان كوشرين رجل قليل الكلام يمتلىء نشاطا ، قل ان يهتم بهذه المجاملات الاجتماعية . ولكن الجراح الشاب قبل الدعوة ، وفيساعة مبكرة من ذلك المساء في عام ١٩٤٧ وصل الي « شنجلبوت » التي تقع على مسافة كيلومترات قليلة جنوب مدراس ومنذ تلك اللحظة ، تغير مجري حياته بأسرها ..

واستقبله كوشرين في شوق وقال له : « ظننت انك تود ان تلقى نظرة على انحاء المستشفى هنا ... فانني اعرف انك رأيت حالات كثيرة من الجذام »

وكان ذلك صحيحا ، فاللوائح الهندية تمنع مرضى الجذام من الاقامة بالمستشفيات النظامية ولم يكن عمل براند كجراح للعظام ليسمح له بزيارات للعيادات المنعزلة ، والصيدليات المقامة على جوانب الطريق ، حيث يعالج الاطباء هذا المرض في « فيلور » ، ومن ثم فانه لم يكن مستعدا علي الاطلاق لما شاهده بعد ذلك .

كانت مباني المصحة وساحاتها نظيفة ، وسرعان ما لاحظ براند ان المرضى قد خلقوا لانفسهم عالمهمالخاص .. كانوا يديرون حوانيتهم الخاصة ،

ويزرعون طعامهم وينسجون القمـــاش اللازم لضماداتهم ، بل ويقومون بتجليد كتبهم الخاصة •

وذكر له كوشرين ان المستشفي لا يستطيع ان يتحمل الا القليل جدا من ثمن عقاقير «السلفون» التي كانت قد ظهرت لعلاج المرض ، وبدلا منها يتناول اغلب المرضي زيت « الشولموجرا » ، ويعطون انفسهم ١٠٠ الف حقنة كل عام •

وقال براند في اعجـــاب حقيقي : « انني معجب بالمكان ٠٠ انه صحى وانساني ، ولا يشبه في شيء الصورة التى كنت أتخيلها للجأ الجذام» •

واستدار كوشرين ليواجه ضيفه ٠٠ وقال في لهجة جادة : « هذا مستشفى وليس ملجأ ٠٠ ونحن لا نذكر قط كلمة جذام »

وبدأ براند يرقب المرضى بمزيد من التمعن ٠٠ لم يكن بالكثـــيرين اية علامات مميزة فيما عدا بقعة من جلد أبيض اللون ، او مساحة صغيرة خالية من الشعر ، ولكن كان هناك آخرون بمثابة دليل حي علي شناعة المرض الرهيب ٠٠ كانوا يسيرون في ارتبـاك علي اقدام ملفوفة في ضمادات ، او يرفعون وجوها عاث فيها الداء ، بعيون عمياء ، وملامح بلغ من تشويهها ان ابتســـاماتهم الودية اصبحت نظرات ساخرة كريهة المنظر •

وسرعان ما تلاشت الصدمة الاولي التي أحس بها براند ليحل محلهـــا اهتمـــام وفضـــول مهني ٠٠ كان كوشرين يشـير بين حين وآخر الي بعض حالات الجلد التي تثير اهتمامه كخبير في مرض الجذام ، ولكن براند وجد ان اهتمـــامه يتجه الي ايدي الضحايا ، فانه كجراح اصبح يحب الايدي البشرية باعتبـــارها من انفع وأثمن الادوات التي ابتكرها الله ٠٠ ولكن هـــذه الايدي كانت أقرب الي المخالب ، فقد تصلبت الاصابع ولم تعد قادرة علي ان تقفل ، وقصر طول بعضها ، بينما كان البعض الآخـر مجرد بقايا لاصابع ٠٠ وأخيرا لم يعد براند قادرا علي التحمل ٠٠ فقال يسأل كوشرين :

ـ ماذا حدث لهذه الايدي ؟ ٠٠ كيف اصبحت بهذه الصورة ؟

وهز الطبيب الاكبر سنا رأســـه وقال :

ـ لست ادري يابول •

ودهش براند لهذا الرد ، فقد كان كوشرين في طليعة خبراء العـــالم في مرض الجذام ، وبدا من المستحيـل انه لا يعرف الرد ٠٠٠ ولكن ماقاله

كوشرين بعــــد ذلك كان اكثر اثارة للدهشة ٠٠ فقد قال :

« هنــاك اكثر من عشرة ملايين مريض بالجذام في العــالم ، ونسـبة كبيرة منهم اصاب المرض ايديهم ٠٠ وأنا الان طبيب امراض جلدية يابول ، أستطيع ان اذكر لك كيف تعالج هذه البقع الجلدية ٠٠ ولكن لم يقم اي جراح للعظام حقا بدراسة تشويهات الجذام »

ولم يقل براند شيئا ، وســـــار الرجلان في صمت بضـــع دقائق ، وفجأة توقف براند وقـــــد استرعى بصره مشهد شاب كان يجلس علي الارض ، محاولا خلع صـــندله ٠٠ كان الشاب يمســك الشريط الجلدي بين ابهامه وراحته ، ولكنه فشــــل مرة بعــد اخـــري في فتح الابزيم وقال كوشرين : « انه شـــــلل في العضلات ، وتلف في الاعصاب ٠٠٠ وعندما يبلغ الجذام هذه المرحلة ، تفقد القدم واليد كل شعور »

وتحـــرك براند نحو الشـــاب وقال له :

ــ هل تسمح لي بالنظـــــر الي يديك ؟ ٠

ونهض المريض وهو يبتسم ، وبعد فحص قصير ، تمعن براند في الاصابع المتيبسة في احدي اليدين ، ثم وضع يده علي الكف المفتـــوحة ، وقال للمريض : « اضــــــغط الآن بأقوي ما تستطيع »

وفجـــأة اجفل براند في آلم ٠٠ كانت قبضة الشاب قوية كالحديد ! ٠

وقال لكوشرين : « هذه اليــــد ليست مشلولة ٠٠٠ مازال بها بعض عضلات قوية صالحة »

وبينما كانا عائدين نحـــــو بيت كوشرين الخشبي ، بدأ براند ينهال عليه بأسئلته : لماذا تبلي اصـــابع اليدين والقدمين فيمرضى الجذام؟ هل الشلل في المرض يحدث بطريقـــــة عشواء ، ام انه يبدو ان هناك اسلوبا معينا لذلك ؟ ٠٠ أهناك امل في أن تتمكن الجراحة من جعل اليد التي تشبه المخلب صــــالحة للاســـتعمال بطريقة فعالة ؟

وكان رد كوشرين علي كل هــذه الاسئلة عبارة عن تحد صريح وهو « قل لي أنت ! » ٠

اكتشاف هام

لم يكن هذا هو اول تحد تلقــــاه براند من كوشرين ٠٠ كان الرجلان قــد التقيا في لنــدن قبــل ذلك بشهور قلائل فقط ، وفي مقابلة واحدة عاصفة استطاع الطبيب الشيخ ان يغري براند

بالحضور الي الهند ٠

وكانت وظيفة كوشرين الاولي — العمل الذي كرس له كل حياته تقريبا — هو ادارة مصحة ليدي ولنجدون الجذام في شنجلبوت ، ولكنه كان قد أقدم خلال احدي الازمات علي قبول رئاسة برنامج لاعادة تطوير كليـــة الطب المسيحية في فيلور ، وقد سعى كوشرين لاحضـــــار براند بسبب ما يعرفه عن ماضي الجراح الشـــاب الفريد ، فقد كان والداه من اعضاء الارساليات الدينية فيالهند حيث قضيا عدة سنوات وقد ولد بول نفسه في موقع امامي لاحدي الارساليات علي جبال الموت وهي سلسلة جبلية نائية تشيع فيها الملاريا ٠

وعندما بلغ بول التاسعة من عمره أخذ مع أخته الصغري كوني الي انجلترا ليعيشا مع بعض أقاربهما ، وخــلال الاعوام التاليــة ، تلقي بول تعليما دينيا وطبيا ممتازا ، وكانت أمه قد بقيت في الهند لادارة الارسالية بعد وفاة أبيه متأثرا بحمي الميـــــــاه الســـوداء ، وكانت هي التي ابلغت كوشرين ان بول قد قبل حديثا كزميل في الكلية الملكية للجراحين ٠

وعندما التقى كوشرين بالجــراح الشاب ، لم يضع كثيرا من المقدمات ، بل شرح له الازمة التي تواجهها كلية الطب المسيحية بعد ان وضعت الحكومة الهندية مجموعة جديدة من المعــايير الطبية ، مما يتطلب اقامة مبان جديدة وتعيين ١٢ طبيبا جديدا للتدريس على الاقل ٠

وكان بول براند قد شرع يسرد كل الاسباب التي تمنعه من مغادرة لندن : فأولا ان الحبر لم يكد يجف علي شهاداته في الجراحة ، وهو لم يكتسب بعد خبرة تكفى لكي يشتغل بالتدريس فقال كوشرين بسرعة : « دعني انا احكم علي ذلك ! » وعندئذ قال بول انه متزوج ، وان زوجتـــه مارجريت تنتظر طفلهما الثاني ٠٠

وأجاب كوشرين قائلا :

« ان فيلور مكان جميل للسيدات والاطفال »

وهكذا راح يدحض كل اعتراض يبديه براند ، حتي استسلم أخيرا ٠

وعاد الي الهند وهو في الرابعــة والثلاثين ، وانضم الي هيئـــــــة التدريس بكلية الطب المسيحية ، وبعد عدة شهور ، لحقت به زوجتـــــه مارجريت — وهي الاخري طبيبة — ومعها طفلهما كريستوفر ذو الثـلاثة الاعوام ، ومولودتهما الجديدة جين٠٠ وسرعان ما تلاءم الجميع مع حياتهم

الجديدة ، ورغم جدول الاعمـــال المزدحم ، كان براند يحب كل لحظة من عمله بالكلية ... وهكذا فانه عندما غادر شنجلبوت في تلك الليلة للعودة الي فيلور ، لم يكن يفكر في شن حملة جهاد ، بل كان يريد فقط أن يعرف الاجابات علي الاسئلة التي أثارها .

كان براند يقضي في التـــدريس واجراء العمليات حوالي ١٢ ســاعة كل يوم ، مما لا يترك له غير وقت قليل للابحاث ، ولكنه بدأ خــلال الليل وفي عطلات نهاية الاسبوع عملية مسح دقيقة للمكتبة الطبية ، واكتشف ان كوشرين كان علي صواب : لم تكن هناك اية دراسة محددة بوســاطة جراح للعظام حول الجذام ، كما ان براند لم يستطع ان يجد الكثير في علم الباثولوجيا عن طبيعـــة المرض الحقيقية بالنســبة لما يســببه من تشويهات ، وفضلا عن ذلك لم تكن هناك اية معلومات متاحة لاظهار ماإذا كان الشلل يتبع طريقا معينا أم لا .. وكانت الخطوة التالية واضحة : لقــد طلب براند عددا من الاسرة لعدد قليل من المرضى حتي يستطيع ان يدرس المرض ، ولكن مجلس ادارة المستشفى رفض طلبه .

وقال أحد المسئولين : « لو اننا سمحنا لمرضى الجــذام بالدخــول ، لهــرب المرضى الآخرون » كما قال آخرون ان هذا مستشفى للتدريس ، وكل فراش فيهـــا ضروري لبرنامج التدريب .

ولكن كانت هناك طرق اخـــري لدراسة المرض ، فبلدة فيلور منكوبة بنسبة من أعلي نسب الاصـــابة بالجذام في العالم .. وهكذا بدأ براند يقوم بزيارات منتظمة للصيدليات التي يعالج فيها المرضى . وجمع فريقـــا صغيرا من المساعدين المهتمين بالامر ، وسرعان ما أعدوا طريقة فنية للفحص بطريقة خط التجميع .. فأولا تأتي اختبارات الحس بالدبوس ثم بريشة ، ويلي ذلك قياس حركات الاصـــابع والاقدام ، ثم دراسات دقيقة لمعرفة أى العضلات أصـــابها الشلل ، وأى الاعصاب تبلدت وماتت .

وبلغت جملة المرضي الذين فحصهم براند في فيلور وشــنجلبوت حــوالي ٢٠٠٠ مريض وأخـــذ تأثره يرتفع ببطء ، فقد أخذت ظاهرة عجيبة تبدو علي مر الشـــهور : ان الشلل يتبع أسلوبا محددا فعلا ! فالنظـــام الذي تضمر به العضـــلات كان واحدا ، والاكثر أهميـــــة من ذلك ان نفس

العضلات تبقى دائما بادية الصحة ٠ وكان ذلك فتحـــا هاما ، أتاح املا حقيقيا للعلاج الجراحى ٠

تقمص طبي

كان قد مضى حوالي عام تقريبا علي زيارة بول براند لشنجلبوت عندما قرر أنه علي استعداد للتجربة الكبري ٠٠ وقال للدكتور كوشرين :

« لو أنك أرسلت لى مريضا بلغت يداه اسوأ حالة ممكنة ، فانني أود ان أري ما يمكن عمله لهما »

كان المريض الذي ارسله اليه دكتور كوشرين شابا هنـديا يدعى كريشنا مورثي ، تكشف يداه وقدماه عن أسوأ ما يمكن للجذام ان يحدثه من عجز ٠٠ ففى بطن كل من القدمين كانت هناك قروح كبيرة كريهة الرائحة ، بلغ من عمق اصابتها ان عظامها كانت عارية تقريبا، أما اليدان فقد تآكلتا وأصبحتا عديمتي النفع ، بعــــد ان تقوست اصابعهما واتخذتا وضع المخالب ٠

ولكن الشيء الذي كان يثير الحزن اكثر من هذه المناظر الخارجيــــة الشنيعة ، هو اليأس الذي كان المرء يشعر به في أعماق الرجل البائس ٠ كان كريشنا مورثي ينحدر من اسرة طيبة ، وقد تلقى تعليما جيدا بصورة غير عادية ، اذ كان يتكلم عـــدة لغات ، كما كان يتـولي في يوم ما مناصب مسئولة ٠٠ ولكن عنـــدما ظهرت البقع التي تكشف عن حقيقـة مرضه ، تخلت عنه أسرته ، ورفض الجميع استخدامه ، وأخذ ذهنـــه يصاب بالتخدير مع يديه وساقيه ٠٠

وسأله براند :

ـ هل أنت مســتعد للسماح لي باجراء بعض عمليات ؟

وهز الرجل كتفيه ٠٠ ومد مخالبه الي الطبيب في قلق ، يكاد يكـــون ازدراء ، وقال له : « افعل ما يحلو لك بها ٠٠ انها لا فائدة منها لي »

وهكذا بدأت اســابيع طويلة من الاســتعداد ٠ كان براند يعلم ان العضلات الذاتية في اليد ، التي يسيطر عليها العصب الزندي ، هي التي سبب شللها ذلك التشويه الذي يجعلهـــا كالمخالب ٠٠ ولكن كانت هناك عضلات صالحة لاتزال باقية ، فلماذا لا يأخذ واحدة منها يمكن الاستغناء عنها ، ويستبدل بها الذاتية المشلولة ؟ ان هذا النوع من الجراحة يستخدم كثــيرا لاصلاح انواع مماثلة من العجز بسبب شلل الاطفال وغيره منالامراض التي تؤدي الي الشلل ٠

وبدأ باجراء جراحة علي اصبعين فقط ، بفتح شق علي كل جانب من

كل اصبع ، وبعـــد ان اخرج وترا صـــــالحا غير مشلول ، قسمه الي جزأين ، ثم أعاد ادخاله في الاصبعين ليحل محل العضلة المشلولة ، واختبر توتره مرة بعد أخري ثم خاط الجروح وضمدها بالاربطة ، وجبيرة خفيفة من الجبس ·· ولم يكن هناك ما يفعله بعد ذلك الا ان ينتظر ·· ويبتهل !

والتأمت الاصبعان جيدا ، ولـكن بول لم يسمح لنفسه او لمساعديه بأى أمل في النجاح ســـابق لاوانه ·· وتطلب الامر مزيدا من العمليات علي الاصـبعين الاخريين ثم علي الابهـام وتبع ذلك فترة طويلة من العـــلاج الطبيعى الدقيق قبل ان يتأكد النجاح او الفشل ·

ولكن بينما كانت الاسابيع والشهور تمر ، لم يستطع الفريق ان يسيطر علي ابتهاجه فقد كان براند يرقب ببطء ، وخطوة خطوة ، المخالب وهي تبدأ تحولها مرة اخري الي يد بشرية ·· وفي بعض الاحيان كان التقـــدم من يوم الي يوم لا يكاد يكـــــون ملموسا ·· وحتي عندما تأكد نجاح الجراحة ، فان العلاج كان عمليـــة بطيئة لاعادة تكييف مفاصـــــل لم تستخدم منــــذ وقت طويل ، واعادة تعليم نبضات المخ لكي تجعل العضلات التي كانت تثني الاصابع من قبل ، ان تعمل علي الجانب المضاد من اليـد لكي تجعلها تستقيم ·

ثم تحققت المعجـــزة فجأة ··· أصبحت اليد تفتح وتقفل بعمل طبيعى تقريبا ، تمســـك اشياء من مختلف الاحجام والاشكال لتحسين براعتها : كتل من الاخشاب ، وكرات من المطاط وزجاجات صغيرة واقلام رصاص ·· وصاح كريشنا مورثي ذات يوم فى انتصار : « انظر » وثني اصـــابعه الثلاث الاول ، وغـرف بهـا حفنـــة ضخمة من الارز والكاري من طبقه · وأبقاها بمعونة الابهام المضاد ، ثم طوحها في فمه ·

وكانت اعادة خلق الرجل نفســه أكثر ارضاء من العمليات الناجحة ، فقد بدأ كريشنا مورثي يضحك من جديد ، ويتمتع بقراءة الكتب ، والمرح مع الاطباء والمرضات ·· وبعد حوالي عام أخرج من المستشفى مزودا بيدين نافعتين لحياته الجـديدة ، وقدمين شفيتا مما بهما ، وقدر وفير من الامل والشجاعة ·

مركز الحياة الجديدة

بعد شهرين ، عاد الهندي الشاب الي المستشفي وقد بدا نحيلا هزيلا الي حـــد مروع ، وحاول ان يبتسم



عندما رأي براند ، ولكن عينيه كانتا خاليتين من الضحك ٠٠ ومد يديه للامام قائلا : « ان اليـــدين اللتين أعطيتهما لي ياسيدي الدكتور ليستا صالحتين »

وفحصهما بول بسرعة ٠٠ كانت اليدان تبدوان طبيعيتين ، ولمتكن بهما اية علامات ظاهرة علي الاضمحلال ٠٠ ثم قال في حذر : « ماذا تعني ؟ انهما تبدوان لي جيدتين »

فقال الشـــاب : « انهما يدان لا تصلحان للتسول »

وشرح الامر فقال : انه لمـا كان لايزال يحمـل علامات الجذام ، فان أحـدا لم يقبـل استخدامه ، او حتي يمنحه مكانا يعيش فيـه ٠٠ وكان الناس من قبل عندما يروا يديه غير النافعتين يشفقون عليه ويلقون له بقطع النقود ، اما الآن وقد شفيت يداه فانهم لم يعودوا يشفقون عليه ٠

وادخل الشاب المستشفى (وكان براند قد حصل الآن علي فراشـين لمرضي الجذام) وبعـد ان استراح واطعم جيدا ، سرعان ما استعاد صحته ، وكان قبل اصابته بالجـذام قد تعلم الكتابة علي الآلة الكاتبة ،

وأحس براند انه سيكون تحديا للرجل ان يحاول اكتساب المهارة مرة أخري وشرع الهندي في العمل ، وسرعان ما بدأ يكسب نقودا بأداء أعمال علي الآلة الكاتبة للمرضى الذين يستطيعون دفع أجر خدماته ٠

ولكن براند ادرك ان هذا لن يحل المشكلة الكبري ، فان مريضا آخر عاد الآن لاعادة فحصه طبيا ، ردد نفس الشكوي وقال له :

ـ سيدي الطبيب ٠٠ هل تعلم كم آذيتني ؟

ـ آذيتك !

وكان هذا المريض ايضا قد عجر عن العثور علي عمل بيديه الجديدتين وعندما اتجه مرة اخري الي التسول اصبح يتلقي قدرا اقل من النقود ٠٠ وسأله :

ـ ماذا افعل ياسيدي الطبيب ؟؟

ولمس هذا السؤال الاثر الحساس في هدف براند : اهو يخلق فقط متسولين ذوي قدرة اقل علي التسول ؟ ٠٠ وكانت الاجابة واضحة دون شك ٠ فهؤلاء المرضي يجب ان يتعلموا وسائل جديدة لكسب العيش حرفا يستطيعون ممارستها دون ان يعتمدوا علي استخدام الآخرين لهم ٠٠ ولكن كيف ؟ لابد ان يكون لهم مكان يعيشون فيه اثناء تعلم الحرف ومعلمون مهرة لتعليمهم ٠

كل هذا سوف يتطلب مالا ٠٠ ولا مال هناك ٠٠ كان بعض الاصدقاء قد ارسلوا من انجلترا بعض التبرعات التي مولت النفقات الاولي لفريق الابحاث ، ولكن هذه الاموال لم تبدأ بعد تغطية المطالب المتزايدة للبحث والجراحة ٠ وذات صباح بحث بول المشكلة مع احدي مريضاته وهي سيدة ذات قلب عطوف تعرف باسم «الام» ايتون ٠

وكانت الام ايتون احدي عضوات الارساليات الامريكية وقد امضت كثيرا من أعوامها التي بلغت الرابعة والثمانين في الهند ، وقد جاءت أخيرا الي فيلور تلتمس المساعدة من التهاب مفاصل روماتزمي حاد غير قابل للشفاء ٠٠ ومن سوء الحظ انه لميكن من الممكن عمل شيء لها عدا تخفيف بعض الالم بوساطة بعض الاقراص والحقن ٠٠٠ ولكنها لم تكن ممن تجعلهم الآلام اكثر قسوة ومرارة ٠

وقالت لبراند : « عندي قليل من المال في البنك ٠٠ حوالي ٥٠٠ جنيه ، ولم يبق لي ايام كثيرة اعيشها ، وأريدك ان تأخذ النقود وتنتفع بها » ٠

كانت هذه الكلمات هي بداية مركز

الحياة الجديدة « نافا جيفا نيلايام » لتأهيل مرضي الجـــذام • وقد لقي براند في البداية بعض الصـــعوبة في الحصول علي اقرار للمشروع وحتي الدكتور كوشرين لم يكن مؤيدا للعمل المباشر وقال لبول : « ان المصحة انما تبني لهذا الغرض فقط بوســـــاطة ارسالية الجذام ، وارساليات الجذام الامريكية •• فلماذا لا تنتظر ذلك ؟ »

ولكن براند لم يكن يريد الانتظار •• لقـــــد مر عامان منذ وضعت الخطط للمصحة واختير موقعها ،ولكن الارض القفراء مازالت خالية من الحياة البشرية • هذا فضلا عن ان ماكان يريده بول لم يكن منشأة انيقة ، بل مجرد قرية صغيرة بسيطة ، مألوفة ، كتلك التي جاء منها اغلب مرضاه ، والتي سيعودون اليها ، وكان يعرف اين يريد بناءها •• بقعة في ركن ناء من ساحة الكلية •

وهنا ظهرت معارضة حقيقية •• لقد استهجن بعض كبار الاطباء وجود مرضى الجذام في حرم الجامعة مع طلبة الطب ، ولم يقر براند بموافقتهم الا علي اساس الموافقة علي مد حاجز من الاسلاك الشائكة حول المستعمرة الجديدة وحذروه بأن كل المرضىيجب أن يكونوا في عزلة ، ولا يسمح لاحد منهم بعبور السور ودخول حـــــرم الجامعة (ومن الاشياء ذات المغـزي انه في خـلال الاعوام التالية ، كان الطلبة هم الذين يقتحمون الحواجز ، فقد عبروا السور اولا لزيارة المرضى ومشاركتهم في تسـليايتهم وصلواتهم ، وأخيرا ازالوا السور كلية) •

واذعن براند لهـــــذه الشروط ، وسرعان ما اتخذ المشروع شكله : مجموعة صغيرة من ابنية نظيفة ذات جدران من الطين ، مطلية بالجير ، تعلوها اسقف من حشائش مجدولة ، وكان بول قد عمل بضع سنوات فى انجلترا كبناء ، وقد اثبتت هذه الخبرة قيمتها الآن • لقد رسم التصميمات ، واشرف علي بناء الاكواخ وورشـــــة التدريب ، التي جهزت بالعــــــدد والادوات اللازمة ، وكان الاصـــدقاء والزملاء الذين اعجبوا بعمل الجراح الشاب يأتون ويقدمون مساعداتهم ، وسرعان ما كانت المرات محـــوطة بأشجـــار الزهور وعباد الشمس • كما تسلقت النباتات جدران الاكواخ وأسطحها •

وعندما تمت القـــرية الصغيرة ، اختار بول اول سكانها : ستة فتيان صغار دون العشرين ، وسرعان ما نمت هذه المجموعة وأصبحت عشرة

ثم اثني عشر وكان بول يقضى كل دقيقة من وقت فراغه معهم ٠٠ كان يريهم كيف يستخدمون ادوات النجارة ثم علمهم كيف يصنعون لعب الاطفال من الحيوانات والقاطرات ، والسيارات والعاب الالغاز ٠٠ وتحت اشـرافه الدقيق أصبحت اللعب تصنع جيـدا وتصقل بصورة جيدة ، ومالبثت ان وجدت سوقا لها ٠ كانت اللعب كلها في البداية يتم تعقيمها ، ويعلن عن ذلك رغم ان هذا الاحتياط لم يكن ضروريا لان الجذام لا ينتشر الا بالاتصـال الشخصى فقط ، ولكن بمرور الوقت وزيادة عـدد الراغبين في الشراء ، سـاعدت عملية الشراء ذاتها علي تحطيم حاجز التحامل ٠

وتعلم الفتيـان كذلك مهـارات الزراعة ، وزرعت خضر الحـدائق وأشجار الفاكهة للمساعدة علي توريد الطعام للمستعمرة التي واصلت نموها وتعلمت الطبقات العليا والسـفلي ، الفقراء والاغنياء ، المتعلمون والجهلة ان يعيشوا جميعا في انسجام ٠وكانت الجماعات الاولي تضم بين ظهرانيها مهندسا ، ومحاسبا ، وأحد كهنـة البراهما السـابقين الذي اعتنق المسيحية ، الي جانب قرويين غـير متعلمين ، وكانوا جميعا يتنـاوبون القيـام بالاعمـال اليدوية كتنظيف المستعمرة وجلب الماء ، والواجبات الصحية ، وهكـذا اصبح « مركز الحياة الجديدة » مغامرة في العيش الي جانب التأهيل ٠

مسألة عائلية

بينما كان بول يزداد انهماكا في عمله الجديد ، كانت زوجته مارجريت تصارع مشـكلة تواجه كثيرات من زوجات العاملين في الارساليات : كيف تستطيع ان تجمع بين حياتين ملحتين : حياة الام ٠٠ وحياة الطبيبة ؟

كانت مارجريت شـقراء زرقاء العينين ، وهي ابنة طبيب عمل فى جنوب أفريقيا وقد أحبت بول منذ ان تقابلا خلال سنتهما الاولي في دراسة الطب بلندن ولما كانت مهتمة بعمـل الارساليات ، فقد كانت تجد متعة في سماع القصص التي يحكيها بول عن أمه التي لاتزال تشـتغل بالتدريس والوعظ علي مقربة من جبال الموت ، كما تأثر بول من ناحيتـه بذكائهـا العلمي ، فقد كان هو الثاني فيترتيب فصله ٠٠ ومارجريت الاولي !

وبعد زواجهمـا وانتقالهما الي الهند ، أصر بول علي أن تتمهـل زوجته الشـابة قبل أن تقرر نوع العمل الذي سـتقوم به ٠ ووافقت

مارجريت ، ولكنها بالاضـــافة الي تدبير المنزل ، والعناية بالطفلين جين وكريستوفر ، كانت لاتزال قادرة علي أن تقضي بعض الوقت في قسم الاطفال بالمستشفي ٠٠ وفي الصيفين الاولين، طلب بول اليها أن تبتعد عن الحرارة التي لا تحتمل في «فيلور» وأرسلها مع الطفلين الي مصيف قرية كوتاجيري فيتلال نيلجيري جنوب غرب مدراس، وهناك كانت مارجريت تعمـل بعض الوقت في مركز ارسالية طبية هناك٠

وقرب نهاية الصيف الثـــاني ، قررت مارجريت أنها تستطيع أن تبدأ عملا منتظما في المستشفي عندعودتها الي فيلور ٠

وكتبت لبول تقول : « لا يهم أي قسم يضعونني فيه مادام لن يكون قسم العيون » ٠

وبعد فترة قصيرة تلقت رســالة موجزة من عميد الكلية يقول : «اننا في حاجة الي معونة في (شـيل) ويسعدنا لو استطعت قضـــاء بضع ساعات هناك كل يوم » ٠

وذهلت مارجريت ٠٠ فان «شيل» هو اسم قسم العيون ! ولكنها عندما احتجت بأنها لا تكاد تعرف شيئا عن طب العيون ، بعث لها العميـــد ردا رزينا يحوي نبوءة اذ قال لها : «لايهم يا عزيزتي ٠٠ فسوف تتعلمين» ٠

وقد تعلمت حقا ٠٠ وبسرعة !٠٠ كان هناك وباء مفاجيء أصـــــاب «الملتحمة» في عيـــون الاهلين حول فيلور ، وسرعان ما وجدت مارجريت نفسها تجلس في العيادة الخارجية في شـــيل ، حيث ينتظر حوالي ٢٠٠ مريض الفحص والعلاج ٠٠ وأدهشها أن تجد متعة في التحدي ، وبمساعدة الدكتور فيكتور رامبو ، مدير قسـم العيون ، نمت براعتها في التشخيص والجراحة بسرعة ٠

وسرعان ما التحقت بفـــريق من الاطباء والممرضات والفنيين ، يطوف بعيادات العيون المقـامة علي جوانب الطرق ، والتي كان الدكتـور رامبو قد أقامها في عدد من القري القريبة٠٠ وهنا رأت الدليل الحي علي أمراض العيون التي تستشري بصورة مذهلة في الهند ٠٠ كان مرض «الســحابة» وحده مسئولا عن اصـــابة أكثر من نصف مليون شـــخص بالعمي ٠٠ وكانت الجماهير تحتشد كلما وصل فريق الاطباء ، وخلال تلك الزيارات، كانت حوالي ١٠٠ عملية جراحيـــة تجري في اليوم الواحـــد ٠٠ وبينما كانت ثقة مارجـريت تزداد ، أصبح العمل متعة لا يمكن التعبير عنها ،

ولا سيما روعة منح البصر لمئات من أطفال الهند العميان •

سر الاصابع المختفية

ظل مركز الحياة الجديدة ينمو ، وسرعان ما أصبح معملا حيا لابحاث براند • لقد أصبح في استطاعته الان أن يرقب مرضاه يوما بعد يوم ، ويدرس أيديهم التي أعيد بناؤها ، وابتكار فنون جراحية جديدة •• والاكثر أهمية من ذلك أنه استطاع أن يبدأ بحثا منتظما للوصول الي اجابة علي السؤال الذي يحيره قبل كل سؤال آخر وهو : لماذا تذوي أصابع أيدي وأقدام مرضي الجذام ؟

وخلال عملية التشويه التي تجري دون هوادة ، كانت الاعضاء تبدو أنها تقصر شيئا فشيئا حتي أصبحت مجرد بقايا ، أو اختفت تماما •• وكان من الممكن ولاشك نسبة كثير من الحالات الي مرض معد أو الي حوادث ، ولكن فيما عدا هذه الاستثناءات الواضحة ، فان أغلب الاخصائيين كانوا يعتقدون أن عملية التقصير هذه كانت نتيجة مباشرة للمرض نفسه •

ولم يكن براند مقتنعا تماما بذلك ، فالواقع أن تحرياته بدا أنها تناقض هذه النظرية فقد حدث مثلا خلال واحدة من زياراته الاولي لشنجلبوت أنه فحص مريضا «سالبا» ــ وهو رجل كان خاليا تماما من العدوي طوال سبع سنوات ــ ولكنه كان يصر علي أن أصابعه تنكمش باستمرار •

وسأله براند : « كم كان طول أصابعك عندما أصبحت حالتك سلبية؟ وكان الرجل ذكيا وذاكرته ممتازة فقد قال : « لقد فقدت حوالي نصف بوصة من هذه الاصبع وثلاثة ارباع البوصة من تلك » •

وكان كل اصبع من أصابعه الان طولها حوالي بوصة •

وعاد براند يسأله : هل يمكنك تذكر اي شيء حدث لك منذ ذلك الحين ؟

وتذكر المريض عددا من الحوادث •• بعض حروق بسيطة وكدمات ، ولا شيء بالغ الاهمية •

وتوجه براند الي هاري بول ، وهو من كبار الاخصائيين في الجذام ، وكبير مراقبي مستشفي شنجلبوت وقال له : « ان أصابع هذا الرجل تقصر منذ خمس سنوات ، ومع ذلك فان حالته سلبية منذ سبع سنوات فكيف يمكن أن يكون ذلك جذاما ؟ »

ولم يجد كبير المراقبين ردا علي هذا السؤال ، ومن ثم شرع براند في فحص أنسجة الاصابع المتناقصة ،

وأخذ منها عينات صغيرة طلب من الدكتـور ادوارد جولت رئيس قسم الباثولوجيا بالكليـة تحليلها بدقة ·· وقد جاء تقرير الدكتور جولت مؤكدا أن في كل حالة كانت الانسجة طبيعية ·· كانت هناك بعض أنسجة بها آثار جـروح ، ولكن لم يكن في أي منها أي دليل علي الجذام ·

وهكذا ظل اللغـز قائما ، الي أن حدث يوما أن لاحظ براند في مركـز الحياة الجديدة شيئا يثير الدهشة·· كان يحاول أن يفتح باب أحد المخازن ولكن القفل كان صدئا فلم يدر فيـه المفتاح ·· وأقبـل مريض في حوالي العاشرة من عمـره ومد يده ممسكا المفتاح ··

وأطبق الغلام ابهامه وسبابته علي يد المفتـاح الصغيرة وقال : « دعني أجرب يا سيدي الطبيب » ·

وبحركة واحدة سـريعة من يده أدار المفتاح في القفل ·

وصاح وهو يرفع عينيـه في بسمة خجول : ها هو قد فتح !

ولكن عيني براند ضـاقتا باهتمام مفاجيء ·· وسـقطت قطرة دم علي الارض ، فقال للغلام : « أرني يدك »

وفحص أصابع الغلام ، فوجـد أن المفتاح قد مزق الجلد تمزيقا عميقـا حتي كشف العظام في قاع الجـرح ، ولكن الغلام لم يكن داريا بما حـدث له ولاشـك لان يده كانت فاقـدة الاحساس ·· وقد أتلف اصبعه تلفا خطيرا لانه لم تكن هناك علامات الالم المحذرة لكي توقفه ·

كانت هذه الحادثة بداية لمرحـلة جديدة في تفكير بول ·· كانت حقيقة أن كثيرين من مرضي الجذام فقـدوا الاحساس في أيديهم تعني أن أصابعهم معرضة باستمرار للاصـابة من الكدمات والجـروح ، والتسلخات والحروق ·· ألا يمكن للتأثير المتجمع لهذه الاصابات التي تحـدث للجلد والعظام ان تبلي الاصابع ؟·· وشك في أن هذا هو الرد علي سؤاله ··

وأخذ بول بعـد ذلك يتوقف كل ليلة في مركز الحياة الجـديدة لزيارة الورشة بعد انتهاء عمله بالمستشفي في كل ليلة ·· وكان يحث المرضي قائلا· «استمروا في عملكم وانسـوا أنني هنا » ·

وكان يجلس سـاعة أو ساعتين يرقبهم ·· لم يكن يرقب عملهـم أو آلاتهم ، بل أيديهم ·· وعندما تغلق الورشة أبوابها ، كان يطلب اليهم أن يمدوا أيديهم جميعا في صف واحد ، ويفحص كل اصبع فيهـا ·· وقد

أصبح يعرفها جيدا الي حد أنه كان يعرف كل ندبة وكل التواءة طفيفة ، وكل تحديد في الحركة • وصورت الاصابع ، وفحصت ، وكانت حدودها ترسم بانتظام علي الورق مع كتابة التواريخ عليها وحفظهـا في ملفات خاصة ، بحيث ان اي اصبع تفقد ولو جزءا من السنتيمتر كان يعرف علي الفور •• واستمر هذا العمل أسبوعا بعد آخر ، وشهرا بعد آخر، وأخذ الدليل الذي يؤيد نظرية بول ينمو ببطء •• لم يكن هناك أي تغيير يحدث في أي اصبع لا يمكن معرفة سببه : أداة ساحجة ، او افراط في ضغط ، أو شظايا خشبية الخ •• ولم يكن لاي من هذه الاسباب أية صلة بالمرض •

لعبة بوليسية !

خلال فترة المراقبة والفحص والتجارب هذه ، والتي استمرت حوالي عامين ، أصبح لتدريب براند علي البناء أهمية بالغة ، فمع كل كشف للسبب الكامن وراء الاصابة ، كان يبتكر طرقا لتحسين الامان والكفاءة في العمل • وكان بتوقيتـه للمرضيلاحظ كم مسمارا يستطيعون دقه في خمس دقائق مثلا • وعرف أن أغلب ما يصيبهم من ارتباك ، راجع الي عجزهم عن الاحساس ، فعندما يمسكون مسمارا مثلا ، لم يكن في استطاعتهم التأكد مما اذا كان يتجه الوجهة الصحيحة أم لا دون أن ينظروا اليه ، بحيث أن هذهالعملية كانت تستغرق وقتا أطول من دق المسمار نفسه ، ومن ثم فقد اقترح براند أن يحاولوا التقاط المسامير بالملقاط •

ونجحت الطريقة بصورة مدهشة، وزاد العمل سرعة ، كما ساعدت الملاقط المرضي علي عدم دق أصابعهم دون أن يدروا • وبعد ذلك صنع براند صندوقا صغيرا ذا جوانب مائلة ، وبه شق علي طول القاع ، يجعله معلقا فوق بنك الشغل • وكانت المسامير تلقي في هذا الصندوق آليا فتتدلي من خلال الشق في الوضع الصحيح لامساكها بالملقاط•• وجهزت كل العدد بمقابض ضخمة مستديرة ملساء • ونظمت المبارد بحيث تحمي الايدي من الضغط عليها ، كما أن كل العدد الخطرة مثل ــ الفارة ــ جهزت بمقابض كبيرة ، مع ايد اضافية •

كما رأي براند ضرورة تعديل الايدي بعمليات جراحية لكي تناسب نوع العمل الذي ستقوم به ، وغير عمليته القياسية للمرضي الذين

سيشتغلون بالنجارة بحيث أنها بدلا من أن تركز قوتهـــا علي أطراف الاصابع ، فانها تميـــل الي توزيع الضغط بالتساوي علي أنحاء اليـــد كلها •

ولكن الهدف الاساسي من البحث ظل كما هو : معرفة سبب كل قرحة وكل خدش ، وتعجر وحرق فيالايدي وعقدت اجتماعات يومية بين المرضي والعاملين بالمستشفي تبحث خـــلالها كل اصابة جديدة بحثا شاملا • وكان السبب في العادة يبدو واضحا ، ولكن هنـــاك اوقاتا جعلت براند يبدأ في الخوف من تعرض نظريته للخطر •

لم يكن من العسير جدا اقتفاء أثر كل جرح علي راحة اليد ، ولـكن بعضالفتيان ظلوا يأتون وهم مصابون بقروح علي العقل الثلاث الاولي ممـا حير فريق براند ، فأخـذوا يرقبون الفتيان أثناء العمل عن كثب وخـلال الطعام واللعب •• ولكن أحـــدا لم يستطع تعليل أسباب هذه القروح •

ثم اكتشـــف البعض أن الجروح الجديدة لم تكن تلاحظ اولا الا خلال الفحص الذي يجـــري في الصباح ، فلابد اذن من انها تظهر خلالالليل •• وفي تلكالفترة كانت الحيرة قد أصابت المرضى أيضا ، فقاموا بممارسة نوع من الالعاب البوليسية بثبات ودأب ، دارسين كل دليل ، باحثـين عن أية آثار ، حتي استطاع أحد المرضي أن يكتشف المجرم !

في ذلك الحين لم تكن هناك كهرباء في المركز ، وكان الفتيان يستخدمون مصابيح زيتية ذات أغطية زجاجية من النوع المستخدم فيالهواء الطلق وكانوا يضيئونها بعناية نظرا لتحذيرهم الدائم من الحريق ، وعندما كانوا يذهبون للنوم ، كانوا يضعون المصابيح بجوار الحصائر التي ينامون عليها، ويرقدون ثم يمدون أيديهم لاطفاء النور ، ولكن خلال عملية ثني المقبض الصـــغير للاغطية الزجاجية للمصـــباح كانت ثلاث عقل من الاصبع تحتك بالزجاج الساخن ولما كان الظلام يسود بعــد ذلك مبـــاشرة ، فان أحــدا لم ير القروح الا في الصباح ، وعلي الفور جهز براند المقابض بقطع خشـــبية واقية ولم تعد القروح للظهور •

ومن أسوأ لحظات الشك التي مرت ببراند ، تلك التي حدثت ذات صباح عندما جاءه أحد الفتيان ، وقداختفي حوالي ثلث اصبعه البنصر •• وسأل الفتي الدامع العينين :

ـ ماذا حدث يابني ؟

ـ لا أدري يا سيدي •• لقد كان

موجودا أمس ، وقد قستله بنفســـك الليلة الماضية ٠

واتجه براند الي الغرفة التي نام فيها الفتي وفحص الارض حـــــول حصيرته ٠ كانت هناك قطرات قليلة من الدماء ، ولكن لم تكن هناك قطعة واحدة من اللحم فهـل كانت النظرية الشائعة صحيحة بعد كل ذلك ؟ هل هناك شيء في المرض يجعل أصـــابع الايدي والاقدام تتساقط ؟٠ ولكن اذا كان الامر كـــذلك ، فلابد أن يكون الجزء المفقود في مكان ما !

وعادا يبحثان من جديد بمزيد من العناية ، وفي تلك المرة لاحظا فيالتراب الذي تساقطت عليه بقع الدم ، آثار أقدام قليلة ٠٠ انها الفئران !

كان الفتيان الذين لا يشعرون بأى ألم يرقدون علي الارض دون أن يدروا أن حشرة قارضة تمضغ أصابعهم !

وقد أمكن تصحيح هذا الخطــــر أيضا بسهولة ، فقـــد أدخلت القطط بعد ذلك الي المكان ، وأصـــبح كل مريض يغـــادر المستعمرة يأخذ معه قطة صــــغيرة كجزء من معــداته الضرورية !

وهكذا استمر البحث ، وازدادت السجلات تضخما عاما بعد عام ، وفي النهاية ، عندما أتيحت لبراند الفرصة لمقارنة عمله بعمل الاخصائيينالاخرين عبر العـــالم ، علم ان نظرياته كانت صائبة الي حد بعيد ، وان كان قد وجد أنه في حوالي ١٪ من الحالات ، كان الجذام يغزو عظام الاصابع حقا ويجعلها هشة بحيث أن أي عمـــل ـ ولو ربط لفافة ـ قد يجعلها تكسر ولكن المعالجين يستطيعون تفادي هذا الضرر باستخدام جبائر خلال الفترة الحرجة ٠

بحث مخيب للآمال

في ذلك الحين كان عمل براند قد بدأ يجتذب قدرا كبيرا من الاهتمام٠ ففي عام ١٩٥٢ جاء الي فيلورالدكتور ريتشموند أندرسون مندوب مؤسسة روكفلر، وطاف معه براند أرجاء مركز الحياة الجـــديدة ، وذكر له بعض المشكلات التي يواجهها ٠ قال ان من أهم الاشياء ضرورة معرفة المزيد من الوقائع ٠٠ عن المرض نفسه ، وعن جراحة التجميل ، وترقيع الجـــلد ، وشلل الاعصاب ٠٠ وعنـدئذ عرض عليه أندرسون عرضـــا مذهلا ٠٠ قال له :

ـ لماذا لا تزور أجزاء مختلفة من العالم وتحصل علي المســاعدة ؟٠٠ ابحث عمــــن تريد من الجراحـين والباثولوجيين وخبراء الجذام وسندفع

نحن التكاليف

وهكذا بدأت رحلة حملت براند وأسرته حول نصف العالم · وكانت أول محطة توقف فيها هي انجلترا

وبعد بضعة شهور في انجلترا ، انفصلت الاسرة · كان براند قد اصبح له الآن اربعة اطفال ، فأخذتهم مارجريت لزيارة أبويها في جنوب أفريقيا ، بينما توجه براند الي امريكا حيث قام بجولة مرهقة ·

وحملته المرحلة الاخيرة لرحلته الي جنوب أفريقيا ليلحق بزوجته واطفاله ·· وفي جوهانسبرج التقى براند بالدكتور جاك بني جراح التجميل المرموق ، الذي ابتكر عملية ناجحة لاعادة انوف مرضى الجذام المنهارة !

كانت الرحلة تجربة عظيمة لبراند، ولكنه عندما عاد الي الهند في مايو ١٩٥٣ كان قد انتهي الي نتائج واعية ، اذ كان قد تعلم الكثير من رجال كانوا يقومون بعمل رائع في جراحة الايدي والتأهيل ، أما فيما يتعلق بتطبيق هذه الوسائل علي مرضي الجذام ، فلم يكن هناك كثيرون يستطيعون تقديم كثير من المساعدة له · وعندما عاد براند الي فيلور ، واستعرض العمل الذي لايزال من الواجب عمله أدرك أنه هو وفريقه يجب أن يعتمدوا علي أنفسهم ·

« روبنسون كروزو هنا ! »

لعل أعظم تحدواجهه براند - وأكثر اثارة لخيبة الامل في مشكلة معالجة الايدي - هو كفاحه للحيلولة دون تكوين القروح علي أقدام مرضاه · وقد ظن في البداية أن هذه القروح سببها مجرد فقد امداد الدم عندما يقف الرجل علي قدميه فترة طويلة · ووضع ثقله علي نفس الجزء من القدم، ومن ثم فانه أمر بمزيد من المقاعد و «الدكك الخشبية» وحث مرضاه علي الجلوس في الاوقات التي لا يسيرون فيها ·

وقال لهم : « ان القروح لا يمكن أن تحدث أثناء السير لانك كلما رفعت قدمك عن الارض ، حصلت علي امداد فوري من الدم » ·

وكان مخطئا في ذلك ·· فقد اتبع المرضي تعليماته ولكن القروح بقيت ، وظلت بعد حوالي ست تجارب أخري باستخدام مطهرات وضمادات طبية جديدة ·

ثم حدث خلال زيارته لشنجلبوت أن بدأ براند يلاحظ أكوام الاحذية التي تترك كل صباح خارج المظلة الخشبية التي كان المرضي يقفون تحتها لكي توضع الضمادات حول أقدامهم ·

وكشف فحص سريع أن كثـــيرا من الاحذية لا يمكن أن يلبسها أشخاص لديهم شعور في أقدامهم · ففي بعض الحالات كانت هناك مسامير تبرز من النعال حتي أن أكثر من سنتيمتر منها كان يخترق الاربطة والضمادات والجلد بينما كانت بعض الاحــذية في حالة سيئة بحيث أنها تسبب قروحا وبثورا كبيرة ·

وهكذا اختار براند مريضا اسمه «سادا جوبان» وبدأ يصنع له حــذاء خاصا وجرب الجلد أولا ، صانعا كل حذاء تحت قدم الفتي الجوفاء ، مقورا الجلد تحت نقط الضــــغط · وكانت النتائج الاولي مشجعة ، فقد شفيت قروح ساداجوبان ·· ولكنها مالبثت أن عادت بعد بضعة أسابيع · وكانت تلك بداية نموذج مثير لخيبة الامل ، فقد كان الحذاء الجــديد يصلح أياما أوأسابيع، ثم يحدث بعد ذلك عيب ما ـ شق في الجلد ، أو تغيير في وضع القدم في الحــذاء ـ يعيد القروح الي الظهـــور · وجرب براند الخشب ، ولكنه سرعان ما اكتشف أن الاحذية ذات الشظايا او القطع غير المنتظمة من الخشب أسوأ من عدم ارتداء حــذاء علي الاطلاق · ووضع قوالب من آثار الاقدام بالشمع ، وجــرب قوالب من الجبس والبلاستيك ·

وعندما فشلت هذه ، بدأ يبحث عن مواد أفضل في المعــــامل الكيماوية وشركات المطاط في أنحاء آسيا وأخيرا بعد عام من التجارب ، اكتشــف أن وضع «فرشة» داخل الحذاء من مطاط مسامي ، هو أفضل وســادة للقــدم التي فقدت الاحساس ·

وكانت تلك نقطة تقـــدم عظيمة ، ولكن لم تزل هناك مشـــكلة العثور علي النوع المناسب من الاحــذية ·· ثم حــدث بعــد ظهر أحد الايام ان هرعت ماري ـ ابنته الصغيرة ـ اليه وهي تلهث وصاحت في تأثر :

ـ أبي ·· ان روبنسون كروزو هنا !

وتبعها براند الي شجرة«البانيان»، حيث وجد شابا في حوالي العشرين من عمره ، يرتدي بنطلونا قصيرا من الجلد وقميصا مكرمشا ، وكان يحمل معه لفافة ، وله لحية كثة شعثاء ·

وقدم الغريب نفسه اليه · قال انه يدعى جون جيرلنج وأنه تلقي تعليمه في سكوتلندا وقد سئم الاشتغال بأي عمل فحزم حاجاته ذات يوم ، وشرع يطوف بالعالم وقد تجول في أوربا ، وعبر تركيا وايران وباكستان، وعندما وصل الى الهند شاهد آثار الجذام المخربة،

وعلي الفور بحث عن مستشفي لهذا المرض وعرض خدماته ، وكان يؤدي أعمالا يدوية حقيرة مثل كنس الارضيات وتنظيف دورات المياه ، وعندما أخبره البعض عما يفعله براند ، وعن مركز الحياة الجديدة ، جاء الي فيلور ·· وسأله براند :

ـ اي تدريب تلقيت ؟

ـ لا شيء ·· ولكن عندي يدين ماهرتين ·

وتردد براند قليلا · ثم قال : اننا لا نستطيع أن ندفع مقابل الاعمال اليدوية الأجورا ضئيلة ، ولا أستطيع أن أعرض عليك أكثر من ١٠٠ روبية في الشهر ــ حوالي ٩ جنيهات ·

وأدهش براند أن الشاب قبل هذا المبلغ ، تاركا بول يواجه مشكلة المكان الذي يعينه فيه ، وفي ذلك الحين ، كان هناك مركز جديد يجري اقامته في كاريجيري وهي قرية لاتبعد كثيرا عن فيلور ، وهو مركز وليم شيفلين لابحاث الجذام ومصحة التدريب ، وقد اصبح براند من اكثر مؤيديه حماسة ولم يكن قد تمت اقامة غير عدد قليل من المباني ، بينها ورشة لصناعة الاحذية وفي هذا المكان ذهب جيرلنج للعمل ·

ومضت أسابيع نسى فيها براند أمر الشاب ، ولكنه عندما ذهب ذات مساء الي كاريجيري ، لاحظ عددا من الاحذية المعروضة ، من نوع أعلي كثيرا مما رآه من قبل · وكانت الاحذية التي صنعها جيرلنج ، وسرعان ما تولي الشاب ذو اللحية أمر الورشة كلها ·

واشترت المصحة الجديدة بعض الآلات لصنع «الفرش» الداخلية للاحذية التي كان براند في حاجة اليها لأحذيته ، وقد أصبحت هذه بمرور الوقت صناعة هامة للتأهيل بالنسبة للمرضي في كاريجيري ، ولكن خلال المراحل الاولي كانت الآلات تنتج أنواعا غير جيدة ، مليئة بالثقوب · ودرس جيرلنج المشكلة وأجري بعض التحسينات ، وخلال أسابيع قلائل ، كان المرضي ينتجون مطاطا ممتازا ·

وقال له بول : يجب أن ندفع لك الان مزيدا من النقود ·

ولكن جيرلنج لم يوافق وقال في سرور : « لا أظن أنني أستطيع أن أنفق أكثر من ١٠٠ روبية في الشهر» والواقع أنه في ذلك الحين كان قد ألف الحياة الهندية والطعام الهندي ، وكان سعيدا جدا · وقد انضم الي بول في البحث عن الضغوط علي القدم ، وكتب الرجلان بمعاونة زميل آخر

مقالا عن دراساتهم ، نشرت في مجلة « العظام وجراحة المفاصل » الطبية ٠

وكان جيرلنج هو الذي ساعد بول في ابتكار احـــذيته العادية والطويلة «الهزازة» فقـــد انتهي بول الي ان أفضل طريقة لمنع الضغط العالي تحت القدمين هوجعلالقدم تهتز كالارجوحة (بدلا من أن تنثني) وذلك فوق محور مركزي ، وقد تم ذلك بوضع هزازات مقوسة ـ مصـنوعة من الخشب أو الجلد الثقيل ـ تحت النعال ٠ وأعطي الحذاء الجديد لساداجوبان ، وأخيرا كوفيء براند علي صبره الطويل ، فقد ظل الهندي الشاب عدة أسابيع وشهور بل وسنين دون أي علامة لقرحة او جرح ٠

وقد أدت الصعوبة البالغة فيالبحث عن الحذاء الصحيح لساداجوبان الي أن يتخيل براند قاعدة جديدة تسمي «مذهب القرحة الاولي» فالقدم المصابة اصابة سيئة قد يكون من المستحيـل انقاذها ، والرجـــل الذي لم يصب بقرحة ، قد لا يعتقـــد أنه سيصاب بواحدة ، ولكن الرجل الذي كان قد أصيب بقرحة واحـدة علي استعداد للتعلم ، ولن يحتاج الا الي صـندل بسيط لحمــــاية قدمه من الاشواك والمسامير ٠

وبدأت حملة تعليمية ، ولم تمض فترة طويلة حتي كانت مجموعة حالات الاصابة بقروح القدمـــين في المناطق القروية المحيطة بفيـــلور قد نقصت بنسبة ٥٠٪ ٠

وكان بول قد أثبت أن الاحـــذية لمرضي الجذام أهم كثيرا للقدمين من الجراحة وقد يتطلب تدريب جراحين علي أساليبه الجـــــديدة سنوات ، وسيكون عددهم دائما قليــلا ، ولكن باعطاء تدريب بضعة شهور لمجموعة من المتطوعين القادرين من أمثال جون جيرلنج ، سيجعل من الممكن ادخال الاحذية الخاصة بسرعة في كل انحاء العالم ٠

قد اصبح هـــذا هدفا أساسيا لعمل براند ٠

طبيب في مقعد متحرك

ان أعظم راحـــة شعر بها براند خلال تلك السنوات جاءت من مراقبة تحول حياة المرضي الذين استطاع مساعدتهم ٠٠ كانت هناك مثلا حالة محام من كلكتا ، وكان هذا الرجل علي عكس الكثيرين من المرضى قادرا علي دفع نفقات علاجه الطبي ، وقد توقف عن ممارسة عمـــله القانوني خلال اشـــتداد حدة المرض عليه ، ولكن عندما أمكن وقف سريان المرض،

عاد الي عمله ٠

ولكن الاثار المعجزة للمرض كانت تبدو بوضـــوح مؤلم ، وبدأ زملاؤه المحامون يرددون اعتراضهم عليه علنا قائلين أنه من العــار علي المهنة أن يترافع رجل في قضـــية بأيد ذات مخالب ! وقدمت الشكاوي ضده ، وتحدد موعد لنظر موضوعه ٠٠ وفي يأس كتب المحامي الي بول براند ٠

وأبرق له بول يقول : «تعال فوراً» وعندما جاء الرجل ، أجري له عملية جراحية علي يديه معا في يوم واحد، وهو استثناء من قواعده الجراحية ، وكانت النتائج رائعة ، وعاد المريض الي كلكتا في وقت مناسـب لحضور دعواه وبعـــد أن ذكرت الاتهامات الموجهة الي تشـــويه يديه ، نهض المحامي ليلقي دفاعه ورفع يديه وفرد أصابعــــه التي أصبحت قادرة علي الانثناء والاستقامة في حرية وبحركة طبيعية ٠

وقال : « اية تشويهات تقولون ؟ » وسرعان ما شطبت الشكوي ضده !

مهمة جديدة

بعد ظهر أحـــد الايام ، كانت مارجريت براند تفرز الثيــاب لغسيل الاسرة عندما لاحظت رســـالة لبول تركت في أحد جيوب بنطلونه ، فدفعها فضول الزوجة العتيد الي اخراجهـا وقراءتها ٠٠ وكان مكتوبا فيها :

« **يسر جـــلالة الملكة أن تعينكم بدرجة قوماندر في الفرقة المدنيـــة لأعظم وســــــام في الامبراطورية البريطانية ٠٠**»

ودهشت مارجريت بعد أن أدركت أن زوجها قد منح وسـاما من أرفع الاوسمة التي تمنحها الملكة ، ولكنــه كعادته لم يذكر أية كلمة عن ذلك !

ولعله كان مشغولا جـدا بعمله ، ففى ذلك الحين كان الاطباء حديثــو التخرج والاطباء القـدامي يأتون الي فيلور باعداد تتزايد باطراد ليتعـلموا فنون براند الخاصة فيجراحةالاصلاح، وقد بدأت عملية الحج الي فيلور بعدد قليل من العاملين في مراكز الجـذام الاخري في الهند ، ثم جاء طبيب من انجلترا ، وأخيرا فيض من أطباءالعلاج الطبيعى والجراحين من فنزويلا ومصر وبورما والفلبين والبلجيـــك وغانا وعشرات من الدول الاخري ٠

ثم حدث في عام ١٩٦٠ أن تجمع فريق من خبراء الجراحة والجذام في فيلور لحضـــور مؤتمر يستمر ١٠ أيام ٠ وعرضت علي الزائرين الاحذية «الهزازة» ثم قاموا بجولة في مركـــز الحياة الجديدة ، حيث يقوم المرضي

بصــــناعات عـــديدة ، كأغطيـــة الميكروسكوبات البلاستيك ، ولوحات أرقام الســيارات ، واطارات الصور ولعب الاطفال وقطع الاثاث • وأصبح هناك سجلات لحـــوالي ٥٠٠٠ حالة اصـــلاح للايادي ، وقد فتح براند ملفاتها للزائرين ، وهو نفســه قام باجراء أكثر من نصف هذه العمليات •• كانت هناك ١٨ صورة علي الاقل قد أخذت لكل يد في مختلف مراحل العلاج ، تكفل سجلا مؤثرا لنجـــاح عمل براند •

وفي عــام ١٩٦٣ ، كان براند قد أصـبح زعيما معـــترفا به في عالم التأهيل ، مطلوبا في أنحــاء العالم ، وهو الآن عضو في لجنة الجذام بمنظمة الصحةالعالمية ، ومدير متفرغ لامراض العظام لبعثة الجذام ، كما انه ساعد في انشاء مصنع هندي يقوم فيـــه ذوو العاهات وضحايا شللالاطفال ومرضى الجذام بصناعة الاجزاء الدقيقة للآلات الكاتبة ــ كما قام بجولات للتدريس جعلته يدور في أنحاء العالم مرتين •

وكانت هذه المهمة الجديدة تضحية أخري لبراند ، اذ تضــطره الي أن يمنح وقتا أقل للعمل الذي يحبه أكثر من غيره : الجراحة والبحث ، ولكنها تتمشى مع فلسفته •

وقد قال براند مرة : « أعتقد أن أثمن ما يمتلكه أي مخلوق بشري هو روحه ، وارادته للحياة ، وشـعوره بالكرامة •• ورغم أن مهنتنا قد تتعلق بالعظام والاوتار ، وأطراف الاعصاب، فان الشخص هو الشىء المهم • ونحن ولاشك في حاجة الي فنيين وجراحين وممرضات ، وأطباء عــلاج طبيعى ، ولكننا نحتاج قبل كل شىء الي رجال ونساء يقبلون تحدي الشخص بأسره •• حياته وعقيدته وأمله ! »



من البادي ؟

عندما عاد الاب الى منزله ، وجد أطفالهفى مشاجرة حامية مع بعضهم البعض ،فصاح قائلا :

ــ ريتشارد .. من الذى بدأ هـــذهالمعركة ؟

فقال الطفل :

ــ لقد بدأت عندما رد ديفيد على ضربتىبضربة أخرى !

كتاب الشهر

وحدي مع المحيط

تلخيص كتاب **Tinkerbelle**

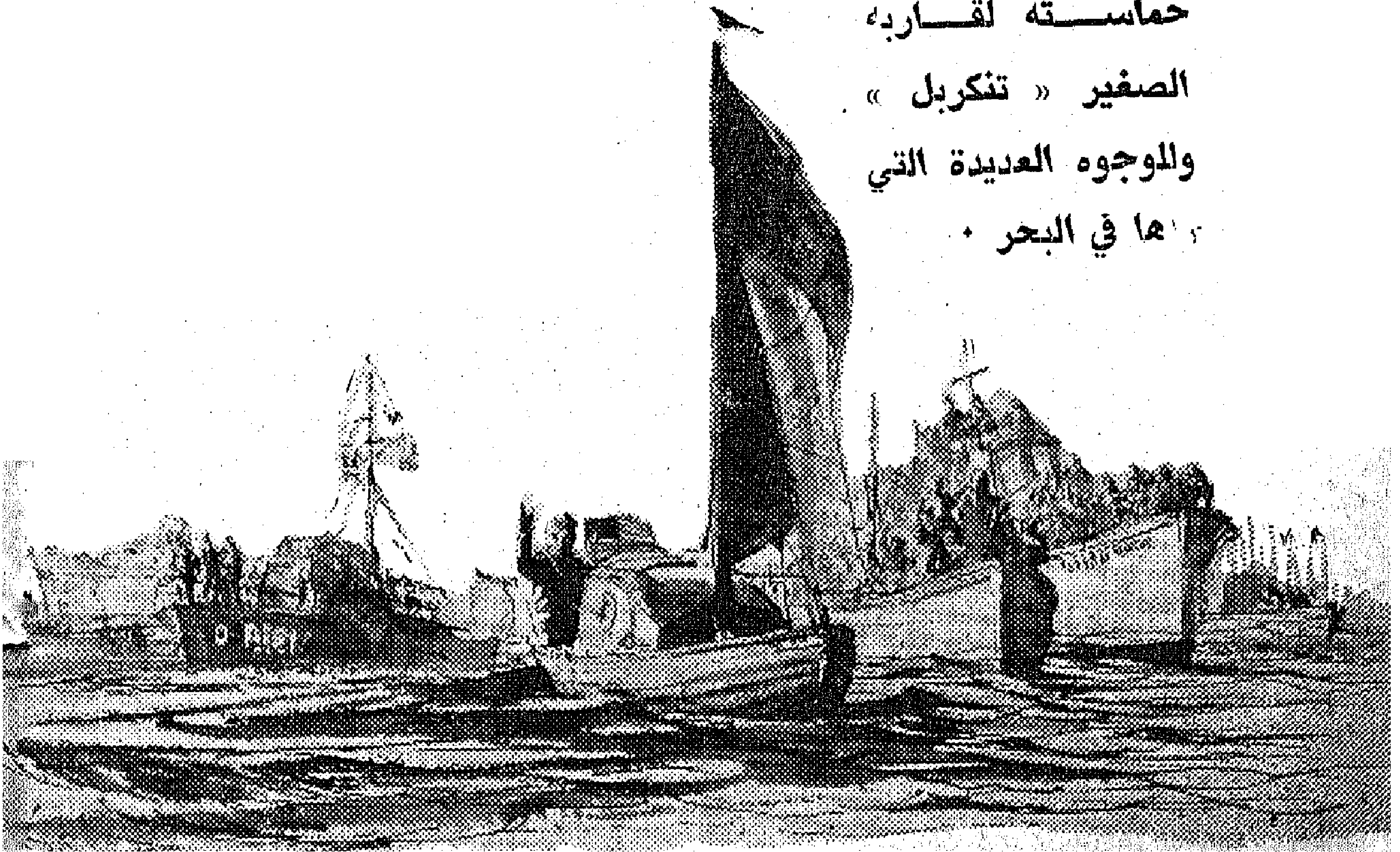
بقلم

روبرت

مانري



في الصيف الماضي ، تصـــدي صحفى في السابعة
والاربعين من عمــره لعبور المحيط الاطلنطي في قاربه الشراعى
الذي لا يزيد طوله علي أربعـة أمتار ..
والذي أطلق عليــه اسم « تنكربل» ..
وقد نجح في رحلته الجريئة ببراعة .. وبلغ الشاطيء الانجليزي
في ٧٨ يوما . ولشــد ما كانت دهشته
عندما اعتبر الناس هذا العمــل الرائع
انتصارا بحريا أسطوريا ..
وفي هذه الصفحات يحكي روبرت مانري
قصة هذه الرحلة الفذة لا بطريقة تأسر القاريء فحسب ..
.. بل وبحماسة لا حد لها بحيث تنتقل عدواها
لكل من يستمع لهذه المغامرة ..
حماســته لقــاربه
الصغير « تنكربل »
وللوجوه العديدة التي
..ها في البحر .



وحدى .. مع المحيط

في صيف ١٩٥٨ قــررت أنا وزوجتي فيرجينيــا ، أنه أصبح في استطاعتنا أخيرا أن نشتري قاربا شراعيـــا مستعملا .. كنت أعمل محررا بصحيفة « بلين ديلر » التي تصدر في كليفلاند بولاية أوهايو، وعندما تخرج نسخ الطبعة الاولي من المطابع كل ليلة ، أفحص في لهفة باب الاعلانات المبوبة ، ولكن كانت أغلب اعلانات القوارب مخيبة للامل ، وبعد أسابيع من البحث ، وجدت الاعلان التالي :

« قارب شراعى طوله ٣٥ر١٣ قدما ــ أولد تاون ــ في حاجة الي بعض اصلاحات. سعر متهاود ١٠ ن ــ ١ــ ٧٢٩٨ » .

وانتهزت فرصة أنني رأيت الاعلان قبل مشتركي الجـــريدة المنتظمين ، الذين لن يروه الا بعد بضع ساعات، فاتصلت بالرقم تليفونيا علي الفور ، واتفقت علي رؤية القارب في الصباح التالي .

وقابلني صـــاحب القارب ــ وهو كهل يوناني جذاب ــ تتألق عيناه ، واستطعت أن أعرف من الطريقة التي كان يتحــدث بها ، أنه يحب القارب الذي كان عمره حوالي ثلاثين عاما ، ولكن كانت أول نظرة ألقيها عليــــه مذهلة ، فقد كان مقــلوبا في اهمال رأسا علي عقب في حديقــــة بيتــه الخلفية ، وقد تساقطت قطع من الطلاء المتعددة الالوان الذي كان مدهونا به في طبقات كثيرة ، واستطعت أن أري شقين كبيرين فيه ، أما فيما عــدا ذلك ، فقد بدت ألواحه سليمة متينة.

ورقدت علي ظهـــــري ، ودفعت نفسي تحت القارب ، وأخذت أفحص داخله ، فاكتشفت أن عبـــارة « في حاجة الي بعض اصـــلاحات » أقل كثيرا من الحقيقة ، فان حوالي ٢٤ من أضلاعه كانت مكسورة ، وحوالي ست أخري اصابها التعطن والجفاف الذي أدي أيضا الي تآكل قطــع من الكتل الخشــــبية التي تسند أسفل الصاري ، والغطـــاء الذي ينزلق في داخله اللوح الاوسط .. وكان قماش السطح السميك باليا الي حد كبير، كما أن الاشرعة كانت رثة خيوطها متقطعة لا تصلح للاستخدام .. وفيما عدا ذلك فان كل شيء آخـــر كان سليما بصفة أساسية .

كان القارب كبيرا الي حد يتســع لي أنا وفيرجينيــا ، وابنتنا «روبين»

التي تبلغ السابعة وابننا دوجلاس ، الذي يبلغ الرابعة من العمر ، وهو في نفس الوقت صغير الي حد يكفي لوضعه في حظيرة السيارة (وهكذا نوفر رسوم رسوه في الميناء ، وهي كفيلة بافلاسنا في تلك المرحلة) .

وبدت ألواحه المشقوقة من الممكن اصلاحها وعندما قمت بموازنة الثمن المطلوب ـ وهو ١٦٠ دولارا ـ مقابل نفقات اصلاحه وشراء أشرعة جديدة، قررت أخيرا أنه أصلح قارب لنا رغم تهدمه !

وبعد يومين ، استأجرت أنا وفيرجينيا مقطورة ، وذهبنا لاستلام قاربنا الصغير ، ورحب بنا صاحبه ، وجاء الجميع للمساعدة في اعادة القارب الي وضعه الطبيعى ، وربطه بالمقطورة ، وقد قالت لي فيرجينيا بعد ذلك أنها رأت دموعا في عيني الرجل العجوز ، وأنه هو وزوجته كانا يربتان علي القارب في حنان مودعين اياه ..

وتطلب الامر ٣٠٠ دولار ، وكل وقت فراغى طوال تسعة شهور ، لاعادة القارب ـ الذي أسميناه «تنكر بل» الي شكله اللائق ، وقد آتي هذا الجهد ثماره ، ومع أنني لم أكن قد أقلعت بالقوارب أكثر من خمس مرات طوال حياتي ، فانني كنت عاشقا دائما للقوارب الشراعية، ولم يخيب «تنكر بل» أملي ، فعندما بدأنا نقلع به بانتظام في بحيرة (ايري) القريبة ، ونقضي عطلاتنا فوقه ، تغلغل القارب في أعماق قلوبنا ولم يعد بالنسبة لنا مجرد قارب ، بل صديقا جديرا بالثقة .

ومع ازدياد براعتنا في الاقلاع بالقارب ، ازداد طموحى أيضا ، فأصبحت أتوق الي رحلات أطول علي ظهر تنكر بل ، ولكي أجعل هذا الامر ممكنا ، عمدت أخيرا الي اعادة تجهيزه تجهيزا كاملا، وأمضيت سنة كاملة في اعادة تصميم وبناء هيكله الاساسى .

وفي تلك المرحلة ، تلقيت دعوة مثيرة ، ففي أوائل ١٩٦٤ ، اقترح صديق يملك سفينة شراعية للرحلات طولها ٧,٥ متر أن نقلع به عبر الاطلنطي الي انجلترا ، وكان يتحدث في شبه مزاح ، غير مدرك أنني كنت أحلم بمثل هذه المغامرة منذ ٣٠ عاما ، وانني سوف أتعلق بالفكرة بحماسة واصرار عظيمين . ووافقت فيرجينيا والطفلان علي الرحلة المقترحة علي الفور ، وكان مقررا القيام بها في صيف ١٩٦٥ .

وعندما وافق رئيسى في الصحيفة علي منحي أجازة للقيام بها ، كان سروري لاحد له .

وظللت في حالة ابتهاج بالغ حوالي ستة أسابيع .. ثم جاءت ضربة ساحقة ، فقد تراجع ربان الرحلة المنتظر عن المغامرة بعد أن أقنعته زوجته وأبوه وشركاؤه في العمل بأنها عمل غير مأمون .. ويستغرق وقتا طويلا جدا ..

وأحسست أن قلبي قد تحطم ، وأصبحت أشبه بمن هوي من الجنة الي النار في لمح البصر ..

ولكنني عندما أخذت أسترد هدوء أعصابي ، خطرت ببالي فكرة : لماذا لا أقوم بالرحلة وحدي في تنكر بل ؟ ..وكلما كنت أمعن التأمل فيالفكرة، كانت تبدو أقل غرابة مما تبدو ، فقد تحول (تنكر بل) في ذلك الحين الييخت صغير مناسب ، به مقصورة وغرفة للقيادة ، وأضواء ، وبوصلة، وغير ذلك من المعدات التي لا توجد عادة الا في السفن الاكبر حجما ، وقد وضعت فيه لوحا حديديا رفيعا في وسط هيكله ، يزن حوالي ٤٥ كيلوجراما ويسهل تحريكه ونقله ، مما زاد ثبات القارب ، وعندما كانت كل الابواب والمنافذ تغلق تماما ، كان القارب يصبح محكم الاغلاق لا ينفذ منه الماء ، قادرا علي البقاء في البحر كزجاجة مغلقة بالفلين .

وهكذا بدأت أستعد للرحلة ، دون أن أذكر شيئا عن تغيير الخطة الا لزوجتي والطفلين ولم أكن أريد أن يساور القلق زوجتي فيرجينيا دون مبرر ، بالاصغاء الي مخاوف الناس الذين لا يعرفون شيئا عن البحر .

خطر واحد .. في كل مرة !

كانت خطوتي الاولي ، هي أن أحدد بأقصى ما يمكن من دقةالمخاطر



التي يمكن توقعها في رحلة عبور الاطلنطي بمثل هذه السفينة الصغيرة جدا ، ثم أقرر بعد ذلك في وعى ورزانة ما اذا كان من الممكن التغلب عليها أم لا .. فاذا لم يكن ممكنا تذليلها ، فان علي أن أعود الي عملي كمحرر عادي، تساوره أحلام عظيمة، ولكن بلا أمل !

وكتبت الي مكتب الارصاد الجوية الامريكي في واشنطون أطلب تنبؤاته الجوية ، وأخذت أدرس الخرائط الرائعة الموضحة للمعلومات في شمال الاطلنطي التي يصدرها المكتب الامريكي للمحيطات التابع للبحرية ، وبدا لي منها أن فرصة مواجهة عاصفة خلال الصيف تصل الي أكثر من ٥٠٪ ، ولكنني كنت علي ثقة من أن قاربي الصغير سوف يعنى بنفسه جيدا ، فان القارب الصغير ، الخفيف ، سوف يمتطي الامواج بصفة عامة ، في حين أن السفينة الكبيرة سوف تواجهها بمقاومة كبيرة .

ومع ذلك فقد اتخذت كل احتياط يمكن أن يخطر علي البال .. ولكي أجعل «تنكر بل» قاربا لا يغرق ، ملأت كل الفراغات الموجودة بين دعامات سطحه بمادة من البلاستيك الرغوي القابل للطفو علي الماء ، واشتريت جهازا خاصا للارسال اللاسلكي من أجهزة سلاح الطيران أستطيع أن أرسل به اشارات طلب النجدة علي ذبذبتين مختلفتين في حالة مواجهة أية متاعب ، فاذا فشلت هذه الطريقة، فسيكون معي شعلات مضيئة يمكن اطلاقها في الجو ، وأنواع من الصبغات التي تلون سطح المحيط لجذب أنظار الطائرات التي تقوم بالبحث ، وسآخذ معي أيضا مرايا عاكسة لارسال الاشارات .

وكانت المشكلة الثانية الكبري هي خطر اصطدامي بسفينة كبيرة أثناء نومي وقد أمكنني التغلب عليها بسهولة ، وذلك بالابتعاد عن مناطق الملاحة المنتظمة وكلها مرسومة علي الخرائط ، وحيث يكون من الضروري عبور مثل هذه الطرق ، فانني سأظل مستيقظا ـ بمساعدة بعض الاقراص اذا دعت الحال ، حتي أصل بسلام الي المناطق التي لا تسير فيها السفن الكبري .

ولكن ماذا بشأن الملاحة ؟

كان من الامور الضرورية ، أن أتعلم مبادىء هذا العلم ، ولكنه كان موضوعا يكفي اسمه لكي يملأ قلبي هلعا . ولحسن الحظ ، أن

بعض رجال مجهـــولين رائعين قد قد أزالوا كل مشقة من هذا العلم ، باخراج كتاب من جداول اللوغاريتمات يسمي (هـ٠ و ــ ٢١٤) يبسط كل العمليات الحسابية المطلوبة ويجعلهــا عمليات جمع وقسمة بسيطة ، وهو ما أستطيع عمله ٠

وهكذا تزودت بالـكتب والخرائط المختلفة ، وبآلة «مزولة» مستعملة ، وشرعت أعـــلم نفسى كيف أوجه القارب من ميناء الى آخر عبر بحر لا طرق فيه ولا علامات مميزة، وكنت أفعل ذلك في شرفة بيتنا الامامية ٠ وعندما استخدمت المزولة أول مرة ، وجدت نفسى في مكان ما وسط خليج هدسون ، على مسافة مئات الكيلو مترات الى الشمال ، وكان هذا مثيرا للانزعاج قليـلا ، ولكننى مالبثت أن تحسنت بمرور الوقت ٠ وفي النهاية أصبحت تقريراتى لاتبعد أكثر من ٩ أو ١٠ أميال من المكان الصحيح وهو قرب كاف للاطمئنان ٠

ولكي أواجه خطرا واحدا في كل مرة ، حاولت أن أتوقع كل نكبة يمكن تصورها فوضعت مانعة صواعق فى أعلى صارية تنكربل ، تصل الى طبق من النحاس في أسفل الصارية، وأعددت حبلا للانقاذ لربط نفسى به في القارب، حتى لاتجرفنى موجة قوية الى الماء، وجمعت صندوقا للعدد ، ومؤونة من قطع الاخشاب واشتريت قاربا للنجاة من المطاط الذي لاينفذ منه الهواء ، وجهازا لاسلكيا ذا موجة قصيرة ، وجهازا للتقطير بأشـــعة الشمس ، لتحويل ماء البحر الى ماء عذب، وقطع غيار لكل قطعـــة من المعدات التى تتعرض للاجهاد ، وحصلت على عدة لاصلاح الشراع ، وأشرعة زائدة ، وجمعت مجموعة من الادوات الطبيـة اللازمة في حالة الطوارىء ٠

وفي صيف ١٩٦٤ ، قبل أن تمضى الخطة بعيدا، قمت أنا وابنى دوجلاس الذي بلغ العاشرة يومئذ برحلة بحرية طولهـــا ٢٠٠ ميل بحري في بحيرة (ايري) وهي اطول رحلة قام بهـا تنكربل حتى ذلك الحين ، وخــلال عاصفة رعدية هبت ذات يوم، واجهت أقسى رياح وأضخم أمواج واجهتها من قبل، اذ كان ارتفاع الموج يتراوح بين مترين ومترين ونصـف متر ، وقد جعلتنى الطريقـــة الرائعة التى واجهت بها هذه الامواج أكثر تفاؤلا بشأن مغامرة الاطلنطى ٠

وفي يناير ١٩٦٥ ، بدأت أجمـع مؤونة الطعـام : قطع لحم مجففة ، وعلب طعام محفوظ من التى يستخدمها

الجيش ، وخبزا أبيض محفــوظا في علب، وكعك فاكهة، و ١٠٦ لترات من الماء ، وعددا كبيرا من صفائح عصير الفاكهة ، والمشروبات الغازية، وكنت اتوقع ان تستـغرق الرحلة بين ٦٦ و٧٥ يوما ، ولـكننى لكي أكون في الجانب السليم ، حشدت مؤنا تكفى ٩٠ يوما ، دون أن أنسى وضع عدد من أدوات فتح العلب ٠

كوكب صغير

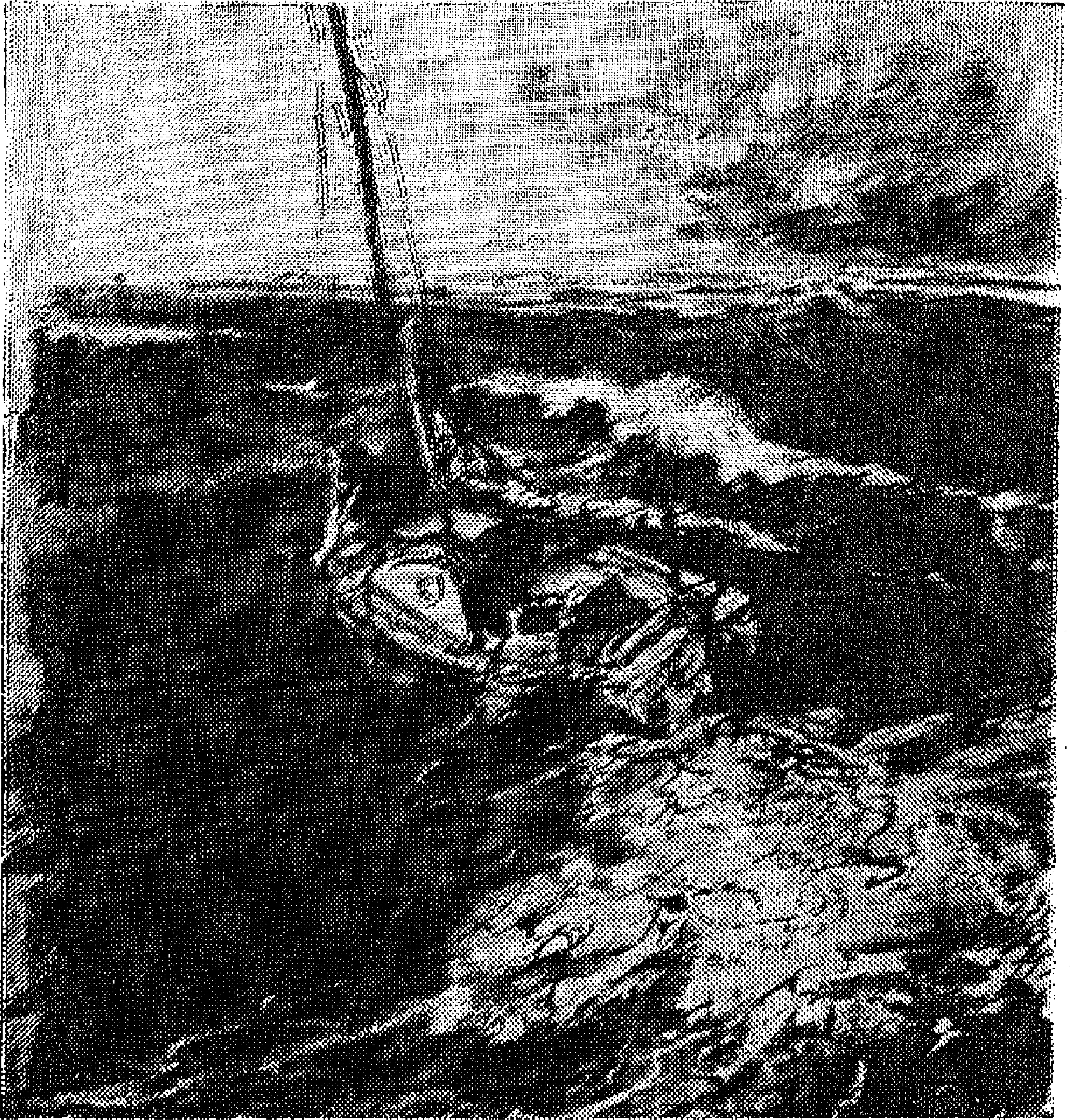
وأخيرا تحدد الموعد ٠ سوف أبدأ أنا وتنكربل مغامرتنا لعبور الاطلنطى في أول يونيو ، لنبحر من «فالموث» بولاية ماساتشوستس ، الى فالموث بانجلترا ٠ وجاءت فيرجينيا وأخوها جون معي بالســيارة الي الشرق ، وفي ٢٦ مايو ، رفعنا «تنكربل» من مقطورته وانزلناه في الميـنـاء الداخلي في فالموث ٠

كانت تلك أول تجربة للقارب مع البحر ، وقد خاضها في كبرياء ، فبدا وكأنه قارب جديد تماما ، وكان هيكله الابيض وسطحه الاحمــر ، وسقف مقصورته وصاريهالمصقول تتألق تحت أشعة الشمس ، ولم يكن هناك نزاع في أنه لايوجد قارب آخر مثله في أي مكان في العالم !

ولم يستطـــع الرجل الذي يمتلك الرصيف البحري الذي كنا نستخدمه أن يصدقعينيه عندما رأي كل الاشياء التى وضعناها على ظهــر القارب . وسأل فرجينيا في دهشة : «الى أين هو ذاهب ؟٠٠ الى انجلترا ؟ »

وفي تلك الليـــلة ، تناولنا عشاء الوداع ، وفي صباح اليوم التالي عادت فيرجينيا وجون الي كليفلاند ٠ وقد شغلت التفاصيل الاخيرة الايام القليلة التاليـــــة ، وفي ليلتى الاخيرة على الشاطىء، كتبت لاصدقائى في صحيفة «بلين ديلر» مفضيا اليهم بالحقائق عن رحلتى ، وكنت آمل ألا يغضب أحد لخداعى . كما اتصلت بمنزلى تليفونيا مودعا أسرتى الوداع الاخيــر ، ثم عدتالى تنكربل، وحاولت أن أستريح خلال الليل ، ولكن النوم ظل يجافيني طويلا ٠٠

كان كلانا مربوطا في مرساه، متلهفا للانطلاق ، وكانت الحبال التى تربط تنكربل بالمرسى قوية من الداكرون سمكها حوالي سنتيمتر ، أما تلك التي تربطنى أنا فكانت مصنوعة من مادة غير منظورة : العــرف والتقاليـــد الاجتماعية ، وأساليب التفكير وروابط الود التى تربطنى بالحيـــــاة على الشاطىء، ولكنحبالى كانت ـ بطريقتها الخاصة ـ قوية كحبال تنكربل، وربما



أقوي ·· فلماذا اذن أنا هنا ؟

لقد كنت ككل انسان ، أبحث عن الحقيقة في الحياة · ولكن هناك ايضا التحدي ، والرغبة في أن اسيطر علي الرياح والماء ، وأخضعهما لشيئتي ، وان أسيطر عليفسي عندما تواجهني أزمة ، وأتأرجح علي حافة الذعـر

***

دق جرس المنبـــه فأيقظني علي الفور ·· كانت الساعة التاســـعة صباحا ، والشمس ترسل أشعتها علي سقف المقصورة ، وحوالي العــاشرة

والنصف ، فردت الشراع الاحمر الرئيسى لتنكربل ، والشراع الصغير المثلث الشكل الموجود امام الصاري الرئيسى وانطلقت انا والقارب في في رحلتنا العظيمة .

كان يوما جميلا ، السماء داكنة الزرقة ، والجو دافيء بهيج ، ونسيم رقيق يداعب الشراع .. ان الحظ يبتسم لنا .

كان النهار يحتضر في وهج أحمر ونحن نتسلل من مضيق « فاين يارد » الي المحيط الفسيح . وكانت تلك لحظة مثيرة بصورة خاصة بالنسبة لي .. لقد كنت علي عتبة تحقيق أمنية حياتي .. وهانذا أجد طريقي الي ارض المستحيل ، حيث تتحقق الاحلام .

الملاح الكامل !

كنت متجها صوب طريق الجنوب الشرقى ، لكي أعبر طرق الملاحة المزدحمة خارج نيويورك وابتعد عنها ، وكنت اتوقع ان تكون هذه هي اخطر فترة في الرحلة ، باستثناء الاقتراب من انجلترا ، والواقع انه ثبت انها زاخرة بأحداث قريبة من الكوارث .

وواصلت السير بالقارب طوال الليل ، في لهفتي لعبور طرق الملاحة بأسرع ما يمكن ، وبينما كنا نتخبط وسط ظلام المحيط الكثيف ، أتاح لي «تنكربل» رؤيتي الاولي للعرض الذي تقدمه حيوانات البحر الصغيرة المضيئة ، وكان الماء ، الذي يضطرب لدي مرور القارب ، يتألق ويبرق بلهب متوهج ، وبدا وكأننا نطفو فوق سجادة من شرارات اكثر لمعانا مما رأيته من قبل ، وتسير في أعقابنا بذيل مضيء يشبه ذيل نيزك من النيازك .

وعندما بزغ الصباح ، لم تظهر امامي اية ارض ، وتناولت افطارا باردا حتي لا اضطر الي الوقوف لأعداد اي طعام ، ولكن بعد الظهر بفترة قصيرة ، هدأت الرياح ، واضطررت للتوقف علي أية حال .. ولما لم يكن في استطاعتنا التحرك ولم أكن قد نمت منذ أكثر من ٢٤ ساعة ، فقد تركت الشراع الرئيسى الاحمر للقارب منشورا ، وتمددت في غرفة القيادة في غفوة قصيرة .

كانت الساعة حوالي الثانية والنصف صباحا عندما استيقظت ووجدت ـ لهلعى ـ انه ليس هناك اية رياح ، والاسوأ من ذلك اننا كنا محاطين بضباب كثيف الي حد يكفى لجعل أية سفينة تمر فوقنا دون ان تدري . وأخرجت المجاديف لاكون علي استعداد للتجديف للنجاة بحياتي

اذا اضطررت الي ذلك ، ورفعت عاكس الرادار لتحذير السفن المزودة بالرادار علي الاقل وتنبيهها الي وجودنا ، كما أخرجت نفير الضباب الذي يعمل بالهواء المضغوط ، واخذت اطلقه من حين الى آخر ، دون أن أتلقى أي رد

وبعد ساعة ، هب نسيم رقيق منحنا مايكفى من قوة الرياح للاحتفاظ بالقدرة على توجيه القارب ، ولكن الضباب المخيف ظل باقيا ، وعندما بدأت اسمع السفن المارة بجواري ، زاد قلقى · اننا في منطقة وقعت فيها حوادث كثيرة اشهرها حادث التصادم بين عابرة المحيط (اندريا دوريا) والسفينة ستوكهولم في عام ١٩٥٦

كانت بعض السفن تمر علي مقربة مني الي حد أنني استطيع سماع الامواج التي تقتحمها بمقدمتها ، واذا كانت سفن شحن ، كنت اسمع صوت مراوحها وهي تمزق الماء ·· ولكننى لم اكن قادرا علي رؤية اي شيء ، الي ان برز فجأة هيكل اسود هائل الحجم من وسط الضباب علي مقربة من جانبنا الايمن ، ويبدو انها شاهدت شراع « تنكربل » الاحمر اذ انها اطلقت صوتا رهيبا افزعني حتي كدت أسقط في الماء ، وبعد لحظات مرت من ورائى ، واختفت مرة اخري في الضباب ·

وعلى الرغم من أن مطرا غزيرا هطل في تلك الليلة مبددا الضباب ، فان رياحا تتراوح سرعتها بين٦٥و٧٠ كيلومترا في الساعة اثارت امواجا ارتفاعها عشر أقدام لم أر أمواجا في مثل ضخامتها من قبل ، وأنزلت الشراع ، وأخرجت المرساة البحرية، ثم قبعت في مقصورة القيادة ، متوقعا أن تغرقني المياه في أية لحظة ، ولم يهدأ البحر لحظة واحدة حتى الفجر·

في ذلك الحين ـ وكان ذلك بداية اليوم الثالث للرحلة ـ كانت حاجتي الي الراحة قد أصبحت شديدة للغاية ولكنني لم اكن مدركا لذلك ، فان الحبوب التي كنت اتناولها لابقى مستيقظا جعلتني اشعر انني علي مايرام ، في حين أننى كنت في الواقع علي حافة الانهيار · وبعد ظهر ذلك اليوم ، اصبت بحالة هذيان شديد ، وظللت عدة ساعات انطلق بالقارب على غير هدي ، جيئة وذهابا ، وقد خيل لي انني نقلت معي راكبا · وانني يجب ان انزله علي جزيرة قريبة (ليس هناك اية جزر في ذلك الجزء من المحيط الاطلنطي)

وأخيرا استطعت ان استرد بعض الوعى لكي انزل المرساة البحرية ،

وارفع الشراع ثمزحفت الى مقصورتي ورقدت علي كومة من المؤن وجذبت غطاء فوق جسمي ، ورحت فيغيبوبة، كأنني اصبت بضربة قاضية في جولة ملاكمة !

وعندما استيقظت ، وقد استرحت تماما ، كانت الشمس تسطع بشدة ، وادركت بعـــد ان حسبت مكاني بالبوصلة والمزولة ، انني أصبحتعلى مسافة أميال كثيرة من المكان الذي كان ينبغى أن أكون فيه ٠٠ وقلت لنفسى : « حسنا ٠٠ غدا سأحاول من جديد »

ولكنني اكتشفت في الصـــــباح التالي ــ وكان يوم ٥ يونيو ــ شيئا يثير القلق ، اذ انني عندما القيت دلوا من القماش بحبل طوله ٤٥ مترا خرج مملوءا بالرمال ، في حين انه كان مفروضا أننا في مياه عمقها اكثر من ميل ٠٠

وأخـــرجت المزولة مرة أخـــري ، وعــــدت أحـــدد موقفى بدقة قدر الاستطاعة ، واستنتجت منهـــا ومن الماء الضحل ، اننا علي حافة منطقة « كالتيفيتور شول » التي تقع علي مسافة ٩٠ ميلا فقط شرق «نانتاكت» ـ وهو تقدم ضئيل في أربعة أيام ــ والاسوأ من ذلك ، اننا كنا جنوب الطرق الملاحية للسفن ، ولكننا بطريقة ما رجعنا للوراء مسافة ٣٠ ميلا شمال هذه الطرق ، ومن ثم فان علي ان ادخل وأعبر هذه المنطقة الخطرة مرة آخـــري ٠٠ وكان ادراكي الصريح لعيوبى كملاح قد جعلنى أرتجف : تري هل قمت بعمل اكبر من مقدرتي؟

لقاء مع غواصة !

غفوت قليــلا ، ثم اعددت لنفسى وجبة عشاء شهية على موقد يستخدم وقودا جافا في علبـــة من الصفيح ، وعندما اختفت الشمس وراء الافق ، انطلقت بالقــــارب وظللنا نقلع طوال الليل معتمدين علي دفعات الموج الهينة وسرعان ما وصلنا بعد الفجـــر الي منتصف الطريق الملاحى مباشرة ، وقد شاهدت خلال النهار حوالي سبع او ثماني سفن ، وكانت كلما اختفت واحدة منها ظهرت الاخري ، ولكن في منتصف فترة العصر عدنا وحيـــدين مرة أخري ٠

في تلك الليلة كتبت في سجل الرحلة « مازلت لا أعرف بالضبط اين انا ٠ سوف أقوم بمحاولة تحـــديد موقعى غدا عن طريق آلة السدس «المزولة» ٠ ان المحيط امتداد فسيح خال وقـــد بدأت ادرك حقيقة العزلة الحقيقية ٠ لقد أحرقت الشمس انفى ، وأصبحت

مؤخرة يدي خشنة من كثرة البلل الذي اصابهما • ولكن مشكلتي الكبري هي مؤخرتي • انني اشعر بألم من الرطوبة ، والهـــزات المستمرة ، والجلوس علي وسادة حلقة النجـاة يساعدني قليلا ، ولكنني غدا يجب ان أقوم ببعض الاســـعاف الاولي • وفيما عدا ذلك فأنا في حالة طيبة •

كان اليوم التالي رائعا ولم يحدث شيء غير عادي، ولكن في بداية المساء شاهدت سفينة الي الشمال جعلتني اخشى اناكون لأزال قريبا منالطريق الملاحي للسفن ومن ثم فقد اتجهت جنوبا لمدة ساعتين ، ثم رفعتالشراع لكي انام •

انني اذكر تلك الليلة جيدا ، وكان القلق قد أخذ يساورني بسبب تكاثف الضـــباب وقد اطارت العاصفة التي هبت منذ بضعة أيام عاكس الرادار في القارب الذي كان يمكن ان يحـذر السفن للابتعاد عني ، وقـد جعلني القلق غير قادر علي النعـاس فترة طويلة •

وقبل أن أستيقظ تماما في الصباح التالى ، ساورنى احساس بصـــوت غريب • كان يبدو أنه صوت مجموعة من الرجال تصيح ، ولكن هـذا كان احساسا سخيفا •• لابد أننى أحلم•



وحاولت أن أتجاهل الصـوت ، وأنا أسحب الغطاء فوق رأسى ، ولكننى فجأة استعدت وعيى الكامل ، على صوت يقول :

ــ آه ٠٠ يونــ نــ نــ٠٠٠ جا ٠٠ آه ٠٠ يونــ نــ نــ ٠٠ جا ٠٠

لم يكن هذا حلما ٠ كان خليطا من عويل العفـــاريت ، وهدير الرعد ، وصراخ كل شياطين الجحيم ٠ ان هذا الصـــــوت الرهيب لايعنى الا شيئا واحدا : لقد انتهت أيامى على الارض! ٠ وعندما عرفت أن الهدير المصاحب له هو صوت محركات الديزل ، تأكدت من ذلك ٠٠ ان سفينة ضخمة على وشك أن تقتحم «تنكربل» دون شك ٠

ولابد أننى كنت أندفـــع بسرعة تعادل ثلاثة امثال سرعة الصوت عندما فتحت باب المقصـــورة نحو سـطح القارب ، مستعدا لالقاء نفسى في الماء ٠ ولحسن الحظ أننى استطعت أن أوقف نفسى قبل أن أغوص في البحر ، اذ اكتشفت أن القارب لم يكن على وشك الانقلاب ، ولكن الشىء الذي رأيتـه جعل عيني تبرزان من محجريهما ٠ كانت هناك غواصة ضخمة ترقد على طول جانب القـــارب ، وقد بلغ من قربها ، أننى كنت أستطيع القفز فوقها ، وعلى جسرها ثلاثة أو أربعة رجال يحدقون في وجهى !

وأحسست بحماقتى ، اذ أن الرعب الذي أصابنى أمام هؤلاء الناس جعلنى أشعر بالذل ، وحاولت انقاذ كبريائى بمحاولة الظهور بمظهر عدم المكترث وتحية هؤلاء الرجال مخفيا عــلامات الذعر ، ولكننى أشك في أننى خدعتهم بذلك ٠٠

ونادي أحدهم قائلا :

ــ أتريد أية مساعدة ؟

وقلت في ارتباك :

ــ كلا ٠٠ شكرا لكم ٠

وساد الصمت بعد ذلك ٠٠ لم يكن في استطاعتنا أن نفكر في أي شىء آخر نقوله ، بل وقفنــا يحدق كل منا فى الآخر في سكون وتعجب ، بينما كان كل منا يبتعد عن الآخر حتى لم يعد في استطاعتنا أن نسمع أصوات بعضنا البعض اذا أردنا الحديث ٠ وبينمــا كانت مؤخرة الغواصة تمر أمامى ، رأيت عليها علامات دلتنى على أنهــا غواصة أمريكية ، اسمها «ذي تنش» ٠

وعلمت بعد ذلك أنها كانت مشتركة في تدريبات مع عدة سفن أخري تابعة لحلف شمال الاطلنطى ، وقد غادرت (نيولندن) في اليوم السابق ٠ وعندما شاهد ربانها شراعى الاحمر ، جاء نحوي ليحقق الامر ٠

رجل في الماء !

في ١٣يونيو – بعدحوالي أسبوعين من بدء الرحلة ، وعلى مسافة حوالي ٤٨٠ميلا شرق لونج ايلاند، استيقظت لاجد رياحا شديدة تهب ، ومن ثم فانني – كما فعلت عدة مرات منذ أيام لقائي بالغواصة «ذي تنش» – قيدت «تنكربل» الى مرساتها البحرية، وقدأصبح هذا العمل مثار مضايقة لي، اذ لما كنت أخشى أن ينقلب بي القارب فانني لم أكن أقلع عندما ترتفع الامواج ، وهو أمر معقول ، ولكني لنفس السبب كنت أبقى خارج مقصورتي ، ومن ثم فانني لم أكن أستطيع استخدام هذا الوقت في النوم واذا لم نبدأ الحركة سريعا ، فان الامر سوف يتطلب أكثر من ثلاثة أشهر للوصول الى انجلترا بدلا من الشهرين اللذين قدرتهما :

وهدأت الرياح قليلا بعد الظهيرة ومن ثم فقد أقلعت بالقارب ، ومع أن الرياح ازدادت قوة مرة أخرى بعد حلول الظلام ، فانني ظللت مندفعا في طريقي بصبر نافد • كان «تنكربل» يسير بسرعة سبع عقد في الساعة ، وهي أقصى سرعة له ، وبدلا من ان يكون قارب سباق ، كان بطيئا جدا عندما تهدأ الريح ، ولكن اتساعه ، وقاعه المسطح كانا يكسبانه مزيدا من الاستقرار أمام اللطمات الشديدة • وهو اليوم في حاجة الى كل ثباته واستقراره •

وفي الرابعة والنصف ، ارتفعت الشمس ، وكذلك روحي المعنوية ، فان الاشعة الحمراء المذهبة . أضاءت أخشاب مقصورة القارب ، وأرسلت موجات من الارتياح في أعماق جسمي المرتعش من البرد والخوف •

ان ماحدث بعد ذلك جاء بسرعة بالغة الى حد أنني مازلت عاجزا حتى الآن عن تخيل صورة واضحة له •• انني أذكر أنني كنت واقفا تحت أشعة الشمس ، عندما سقط فوق «تنكربل» فجأة جدار من الماء غمر القارب ، وطوح بي في المحيط بحركة شقلبة الى الوراء •• كنت جالسا منذ لحظة في مكان القيادة ، وفي اللحظة التالية ، كنت قد انقلبت في الماء رأسا على عقب !

وبوحي الغريزة ، رحت أحرك ذراعي وساقي ، مكافحا للوصول الى سطح الماء ، ولكنني كنت أرتفع ببطء، بسبب ثيابي الثقيلة التي كانت تجذبني الى أسفل ، وكانت رئتاي على وشك الانفجار عندما برز رأسي فجأة فوق ماء المحيط ، وكنت أتوقع أن أجد

القـــارب مقلوبا على وجهه ، ولكن الفرحة الكبري ملأت قلبىعندما رأيت القارب العظيم مازال ممتطيا صهوة الامواج ، كأنه طائر النورس • وكنت مربوطا الى القارب بحبل النجــــاة الموضـوع حول وسطى ، ولهذا فان المســـافة التى كانت تفصـل بيننا لم تكن تزيدعلى ثلاثة أمتار، وأمسكت الحبـــل ورحت أجذب نفسى حتى صعدت فوق القارب ، بعد أن بذلت جهدا ضخما بسبب ثيابى المبللة •• وألقيت بنفسى في مكان القيادة ممسكا بمقبض الباب •

كان من الممكن أن يكون المـوقف أكثر سوءا ، فان «تنكربل» كان لايزال في حالة طيبة ، خاليا من الماء ، فضلا عن أننى رأيت بنفسى الدليـل على قوة ثباته ولن أعانى بعد ذلك أية ليال مليئة بالعذاب في مكان القيادة ، بل سوف أنام منذ الآن في المقصـــورة المريحـــة ، مهما كان الجو رديئا ، مطمئنا الى أن قاربى المخلص سوف يتغلب على العاصفة •

وتحققت ظنونى بأننى سأســـير بسرعة أكثر بعـــد أن ازداد معرفة بطرق الابحار في المحيط • فقد عبرت العلامة غير المنظورة التالية ـ وتقـع على خط طول ٥٠ غربا ـ في يوم ٢٨ يونيـــو ، وهكذا قطعت في ١٢ يوما مسافة قطعت مثلها قبل ذلك في ١٦ يوما •

كنت في ذلك الحين قد أصبح لى روتين يومى راسخ ، حيث استيقظ عادة في حوالي الرابعة صباحا ، وأبدأ اليوم بتناول الافطار في الفراش ، كما كنت أتناول العشاء كذلك في الفراش، اذ أن مقصـــورة تنكربل كانت من الصغر بحيث لاتتيح لى وسيلة أخري لتناول العشاء ، ولم أكن أحلق ذقنى الا مرة كل أسبوع ، تاركا شاربى الذي أصبح منظره محترما ، كما كنت أستحم بالاسفنج ومـيــاه البحر مرة أسبوعيا ، ثم أغسل جسمى بعد ذلك بالماء العذب •

كنت في العادة أواصل السير الى مابعد حلول الظلام ، ثم أتوقف للنوم في أي مكان من التاسعة مساء حتى منتصف الليل ، وان كنت بين حين وآخر أواصل النوم طوال الليل• وكنت أنام بثيابى ، ونظـــرا للظروف التى تسود المقصورة ، فقد كنت أنام فى وضع شـبه مضطجع ، وكان التعب ينال منى عادة بحيث أننى لا أجـد صـعوبة في النوم بأية صورة وكان البحر يهزنى وكأننى طفل في المهـــد

ومن حسن الحظ أننى لم أصب قط

بدوار البحر) وعندما يشرق الصباح، يجدنى جالســـا في الفراش ، وكل ماينبغى أن أفعله ، هو أن أمد يدي الى الموقف ·· ويبدأ اليوم الجديد !

رسالة من فيرجينيا

• كان يوم ١١ يوليـــو يوما هاما بالنسبة لي ، لانني في بعض الاحيان كنت أتوقع خلاله أن أجتـــاز دائرة نصف النهار عند درجة ٤٠ غربا ، وكانت تلك تقل درجات قليـــلة من علامة منتصف الطـــريق ، ولكننى اعتبرتها نقطة اللاعودة ، وبعـــد أن أصبحت الرياح الغربية تسود الجو، سوف يصـبح المضى قدما ســـهلا كالعودة ، وكنت آمل أن أجـــد يوما طويلا طيبا من السير سريعا بالقارب·

كانت الرياح قوية ، والامواج تبدو هائلة (بعضها كما أعتقد يرتفع حوالي ستة أمتار) ولكننى ظللت أدفع تنكربل الى الامام ··

وبينما كانت روحى المعنـوية فى ارتفاع مستمر ، سمعت فجأة صوتا أدركت منـــه أن دفتى الاضافية قد كسرت · وكانت تلك مشكلة جدية، تعنى تأخيرا طويلا، اذ يجب أن أصلح هذا التلف ، وزاد الطين بلة ، وأنا أجمع أطراف شجاعتى بعد هـــذه البلية ، أن موجة عالية أصابت دعامة «تنكربل» وأسقطتها ، وقذفت بى الى المحيط للمرة الخامسة! واعتدل القارب فوق سطح الماء من تلقاء نفسه فورا، بينما كافحت أنا للصعود فوقه بسرعة، اذ كنت قد اكتسبت خبرة كبيرة في هذه العملية، ثم ألقيت المرساة البحرية في الماء ·

كان أمرا مؤســـفا الا أتمكن من الاقلاع في مثل هـــذا اليوم البديع ، ولكننى كنت مضطرا لمواجهة هـــذه الحقيقة الكئيبة ·· وجمعت عددي وأدواتى معـــا مع قطع من خشب السنديان ، والمســامير النحاسية ، والالياف الزجاجية ، والصمغ الذي يقاوم الماء ، وشرعت في العمل ·

وبعد الظهر ، قمت بقياس موضع الشمس بالمزولة ، وعرفت أننا لم نبتعد عن درجـــة ٤٠ غربا أكثر من ثلاثة أو أربعة أميال ، ولكن هذه المعلومات لم تثر بهجتى · وكنت أدرك أن فى استطاعتى اصلاح الدفة المكسورة ، ولكن الوقوف لاجـراء الاصلاحات ، وبطء تقدمنا ، جعلانى أشعر بالكآبة·

وعندما حل الظلام ، كنت في حالة انقباض شـــديد ··· لقد افتقدت زوجتي فيرجينيـــا وابني دوجلاس وابنتي روبين ، وزاد التفكـــير في تأخيري والقلق الذي سيسببه لهم من

عذابي ·· ولكن امامي منفذ من ذلك فاذا اصبحت الرحلة مفعمة بالمشاق والمتاعب ، فان في استطاعتي ان أختصرها بالاتجاه صوب جزر «الآزور» وبدا الآن ان افضل شيء يمكن عمله ، بعد اصلاح الدفة هو ان اتجه الي الجنوب الشرقى ، وأوقف المغامرة ·

ولكن بعد ان تناولت العشاء فى المساء ، وجلست لاسجل احداث اليوم ، رأيت طرف قطعة من الورق تبرز من بين صفحات الكراسة التي ادون فيها سجل الرحلة ·· كانت ورقة من نوتة صغيرة لا تستطيع غير فيرجينيا وضعها هناك ·· وجاء فيها :

« لقد وصل تشارلس لندبرج وهو يعبر الاطلنطي بمفرده بالطائرة الي مرحلة لم يستطع بعدها ان يواصل السير فقد كان مرهقا تماما ، وتعبت يداه الي حد أنهما رفضتا اطاعة عقله ، وعندئذ ردد هذا الدعاء البسيط : « اللهم امنحني القوة » وهو يقول انه منذ تلك اللحظة احس بجزء ثالث من نفسه « عنصرا روحيا » تولي امر عقله وجسمه معا ، يشملهما بحمايته ، كما يري الاب الحنون اطفاله »

كان عثوري علي تلك الرسالة فيتلك اللحظة من الضيق التام ، شيئا أشبه بالمعجزة ، اذ انني كنت فيأمس الحاجة الي شيء ينتزعني من هذا الضيق · وكانت محتويات الرسالة في حد ذاتها مفيدة ، ولكن الشيء الذي قام بالدور الاكبر من رفع روحى المنهارة ، هو ادراك الحب الشديد الذي دفع فيرجينيا الي دس تلك الرسالة في كراسة الرحلة ·· لقد منحني ذلك قوة وعزيمة جديدتين ، ولم تمض فترة طويلة حتي استعدت توازني الشخصي ·

وجوه المحيط العديدة

بعد يومين ظل القارب ينجرف فيهما بمرساته البحرية بينما كنت أصلح الدفة المحطمة ، بدأنا السير من جديد ، وسرعان ما تبين ان الاصلاح الذي قمت به سوف يتحمل عبء العمل ·

لقد قضيت حتي الآن اكثر منسبعة اسابيع في البحر ، ومع ذلك فمازلت أجد في كل يوم سحرا وفتنة ·· ان المحيط يعرض تشكيلة لا نهاية لها من الامواج ·· وفي بعض الاحيان كانت تتلون بلون ازرق زاه حتي ليخيل لي انها سوف تلون هيكل (تنكربل) الازرق · وفي احيان اخري يكون

لونها رماديا معتما كئيبا ..

حتي الجو الرديء كان متعة ، اذ كانت مقصورة «تنكربل» ملاذا رائعا ، عالما من الراحة والدفء والنظام .. هناك استطيع ان انتظر هدوء العواصف ، قاطعا الوقت في القراءة والاكل ، وكتابة الرسائل ، والاصغاء الي الاذاعة البريطانية وصوت امريكا او اعزف علي آلة الهارمونيكا الموسيقية ، وهنا ايضا استطيع ان ارفع عقيرتي بالغناء دون ان اخشى ازعاج اي مخلوق .

وكان هناك دائما شيء تراه .. لقد قابلنا حيتانا ودرافيل ، وأسماكا طائرة ، وعددا لا يحصى من قناديل البحر ، وذات مرة كنا ننطح سمكة قرش طولها تسعة أقدام تتسكع على سطح الماء ، واعتقد انها كانت نائمة ، كما كانت هناك اشياء طريفة غير متحركة تطفو بجوارنا ، برميل زيت ضخم ، وجذوع اشجار ، وعوامات .. وأعجب شيء رأيناه ، هو مصباح كهربائي يبرز من بين الامواج

نبأ عظيم

واجهتنا عاصفة رعدية يوم اول اغسطس ، ولتمضية الوقت قررت القاء زجاجة بداخلها رسالة . وسجلت موقعي في المحيط والتاريخ ، وطلبت ممن يجدها ان يكتب لي ، واعدا اياه بمكافأة خمسة دولارات ووضعت هذه الرسالة في زجاجة ماء خالية من البلاستيك وقذفت بها في المحيط . وقد ادهشني وسرني ان أعلم بعد ذلك بشهرين أن شخصا وجدها في ٢٥ سبتمبر في بلدة «سينترا» بالبرتغال وقد عثر عليها بناء يدعى فرانشيسكو ماريا باليزاو ، وسرني أن أبعث اليه بالخمسة الدولارات مع مكافأة اخري قدرها ١٠ دولارات .

وكما توقعت ، بدأت التقى بمزيد من حركة المرور في المحيط ، وفي مساء ٦ أغسطس كتبت في سجل الرحلة : « لم ار سفنا اليوم ، ولكن حوالي الخامسة مساء ، مرت الي جواري السفينة « سيريو » من باليرمو . وقد هتف لي البحارة هتافا حارا » .. وأضفت فيما بعد : « رأيت خمس سفن أخري » .. وفي ٨ اغسطس التقينا بناقلة البترول « بيلجالف جلوري » التي يبلغ طولها ١٧٠ مترا وحمولتها ١٨ الف طن . وتوقف ربانها اميل سارت وناداني قائلا :

« هل تريد اية تموينات ؟ »

ولم اكن في حاجة الي مؤن في الحقيقة ، ولكنني قبلتها بسرور ، وقد اعطوني دجاجة محمرة كاملة وفاكهة

وخبزا وشيكولاته ، وزجاجتي بيرة ٠

وبدأت الاحداث تتحرك بعد ذلك بسرعة ، فبعد ظهر نفس اليوم ، مرت قاذفة قنابل تابعة للسلاح الجــوي البريطاني وحلقت هادرة فوقنا ثلاث مرات ، ثم هبطت الي حد انني ظننت انها سوف تشتبك بأعلي صــاري «تنكربل» وبينما كانت تمر بجواري ، اســـقطت علبتين ارجوانيتي اللون تحويان فاكهة ورسالة من قائدالجناح ١٠ كارسون قال فيها :

« مرحبا بكم في المياه البريطانية : انت نبأ عظيم ٠ وسنحضر رجــال الصحافةلرؤيتكم غدا» وحدد فيرسالته موقعي بالضبط ٠

وفي تلك الليلة بينما كنت اجلس اصغي الي اذاعة « صوت امريكا » باللغة الفرنسية ٠ بدأ المذيع بالحديث عن روبرت مانري « الملاح المنفرد » ٠ ولم استطع ان أفهم بقية الخبر ، ولكن عندما اعيدت نشرة الانباء بالانجليزية بعد بضع دقائق ، ذكرت كلشيء عني وعن تنكربل ورحلتنا ! واستولت علي الحـــيرة ، اذ رغم خبرتي الصحفية ، فانني لم استطع تقـــدير قيمة نبأ قصتي تقديرا مناسبا ٠

وفي اليـــوم التالي توقفت سفينة الصيد « ذي روزلاند » وهي تحمل بيل جورجنسن احد مذيعي التليفزيون من كليفلاند ومعه مصوره ، وكان من الواضح انهما قطعا مسافة بعيدة وبذلا جهدا ونفقات طائلة للعثور علي ٠٠

وبينما كان جورجنسن يسألني عن رحلتي ، عادت طائرتان حربيتـــان بريطانيتان بصحبة طائرة مدنية تحمل رجال الصحافة ، وبعد ان حلقتعلى ارتفاع منخفض فوقنا مرة بعد اخري القت احدي الطائرات علبةمن الصفيح تحمل رســـالة من ثلاثة من زملائي بصحيفة « بلين ديلر » تقول :

« بوب ـ سوف تري قاربنا في مكان ما خارج فالموث ، وســتكون فيرجينيا والاولاد معنــا ٠ استمر في السير ٠ نتمني لك حظا ســـعيدا وليباركك الله ٠٠ سنراك قريبا» كانت تلك هي مفاجأة رائعـــة حقا ٠٠ ان فيرجينيـــا والولدين في فالموث ! كم أتمني أن أراهم !

اجتمع الشمل !

كان لابد من تأجيـــل مشروعات صحيفة « بلين ديلر » المعدة من أجلي اذ انني وانا أقترب من وجهتي ، وقعت في قبضـــة تيار بدأ يجتذبني شمالا نحو ايرلندا رغم كل جهودي ٠ وفي ظهر ١٢ أغسطس ، اشـــارت مزولتي الي انني علي مسافة ٦٥ ميلا

فقط من ســـــاحل مقاطعة كورك الايرلندية • وفي النهـــاية صححت طريقي ، واتجهت جنوبا من جديد ، ولكن في غضون ذلك كانت طائرات السلاح الجوي البريطاني قد بحثت عني دون جدوي ، وذاع نبأ فقدي •• لم يكن هناك من يعرف اين انا •• عداي !

ولكن في ١٦ اغسطس استيقظت علي اصوات تصيح : « استيقظ ايها البحار ! •• هل انت هنا ايهـــا الامريكي ؟ » •• وقفزت خارجا من مقصورتي ، فرأيت سفينة صـــيد انجليزية ، علي ظهرها أربعـــة أو خمسة من الرجال ينادون علي •

وتبين ان ربان الســـفينة واسمها « تروافينث » ويدعى هاري سمول ، وهو شقيق زوجة « ارنست هانتر » ربان الســـفينة « اكسلنت » التي تستقلها فيرجينيا ، كان ينقب فيارجاء المحيط بحثا عني ، وسرعان ماتصل الكابتن ســـمول بهانتر بالتليفون اللاسلكي واخبره انه وجدني وحدد له مكاني •

وبعد ثلاث ساعات لاحت السفينة « اكسلنت » في الافق ، وسرعان ما وقع بصري علي فيرجينيا لاول مرة •• كانت تبـــدو عظيمة •• لوحت الشمس بشرتها ، وفي حالة صحيـــة طيبة كأنما حياة البحر تناسبها تماما ولا ادري ما هي اول كلمات تبادلناها فقد كنت في حالة ذهول تام ، ولكنني أخيرا صحت قائلا لها : « لقد جعلك تنكربل تحضرين الي انجلترا رغم كل شيء » •

فقالت : اجل ••• بل وقبلك !

وعندما سار « تنكربل » الي جوار « اكسلنت » في أمان ، قفزت فيرجينيا الي جواري ، وتبادلنا الاحضـــان والقبلات ، وظل مصـــورو الصحف يطلبون مزيدا منالاوضاع العاطفية ، ثم جلسنا معا في مقصورة القيـادة الصغيرة وقد احتضن كل منا الآخر وحاولنا ان نتكلم • قالت انها طارت الي لندن في ٤ اغسطس مع ولدينـــا روبين ودوجلاس وعدد من زملائي في صحيفة « بلين ديلز » وقد أرادوا ان ينفردوا بقصـــة لقائي مع زوجتي وولدي ، ومن ثم فقد تم كل شيء في سكون ، فنقلت فيرجينيا والولدين سرا الي « فالموث » في ٦ أغسطس، وسرعان ما بدأ البحث عني بعد ذلك

وبعـــد ان انتهت زيارة فيرجينيا القصيرة لي ، ابتعدت الســـــفينة « اكسلنت » وسرعان ما اصبحت انا وقاربي « تنكربل » وحيدين من جديد ،

وواصلنا السير دون راحة طوال الليل ، وما ان اقترب الفجر ، حتي تغيرت السماء المظلمة الي لون اشهب ثم اخذ الضوء يزداد اشراقاً رويدا رويدا مع كل دقيقة تمر .. والي الامام ، كان ضوء منارة «ليزاردهيد» يومض بنوره مرة كل ثلاث دقائق ، ولكن لم يكن ممكنا معرفة مدي قربه بالضبط ..

وانطلق تنكربل نحوها في ابتهاج وهو يقفز فوق الامواج بصورة ادركت منها انه كان فخورا وسعيدا ، وله مطلق الحق في ذلك ، فقد وقاني بعناد من كل اخطار البحر وأسوئها .. وكان يعدل نفسه كلما قلبته الامواج وظل طافيا فوق الماء رغم كل شيء .

وقد ظننت انه لما كانت انجلترا دولة بحرية ، ولها نصيبها الكامل من البحارة المغامرين ، فان وصول تنكربل لن يحظي بكثير من الاهتمام ، وكنت اتوقع ان ابحر الي فالموث دون ان يلاحظني أحد تقريبا ثم اذهب الي فندق لآخذ حماما لطيفا ثم انام . وفي الصباح ابحث عن مندوب وكالة الاسوشيتدبرس في فالموث ، وأخبره انني عبرت الاطلنطي بمفردي ، وان صحيفتي في امريكا قد يهمها الحصول علي قصة عن ذلك .

ولكن بدا ان وصولي لن يكون بهذه الصورة تماما .. لقد ذكرت الاذاعة ان جوا مثيرا جدا يتجمع في فالموث ، وان استقبالا عظيما يجري اعداده ، وقد أجل عمدة المدينة أجازته حتي يستطيع استقبالي . وأحسست برغبة شديدة في أن أهرب من هذه المحنة الموشكة الوقوع ، ولكنني رأيت انني يجب ان اواجه ما سيقع .

ومع اضواء الفجر ، استطعت ان أميز معالم الارض الوعرة المنحدرة.. كان مشهدا يبهر الانفاس ، أخذت التهمه ببصري في نشوة بالغة .. الارض .. الارض أخيرا !

عمل رائع !

هذا اليوم – وهو الثامن والسبعون منذ تركنا كيب كود – كان يبشر بأنه يوم مهم ، وقد بدا أن الجو زاخر بالطنين وكأنه مشحون بالكهرباء ، وكان في استطاعتي ان احس بالقشعريرة والرجفة التي تسري في جسمي وانا أقترب من الشاطيء .

وتناولت افطاري ، واستحممت ثم حلقت ذقني ، وشذبت شاربي ، وارتديت أنظف ثيابي ، ثم صعدت علي سطح «تنكربل» والعلم الامريكي يرفرف من مؤخرته ، بينما العلم الانجليزي يرفرف من الجانب الايمن ،

وقد بدا القارب كالفتاة الجميلة وهي تستقبل هبات النسيم الرقيقة .

وبينما كنا نقترب من صخـــور « ماناكلز » المهيبة الوعرة التي تمتد من الشاطيء ، وكأنها الفك الاســفل لوحش عملاق بارز الانياب ، خطــر ببالي اننا ربما كنا نسير فوق نفس المياه التي سبق ان استخدمها اسطول الارمادا الاسبانى قبل ذلك بحـوالي ٣٧٧ عاما في طريقه لملاقاة الاسطول الانجليزي ، وما ان برز هذا الخاطر في ذهني ، حتي ظهر اسطول آخر ، وكان في هذه المرة انجليزيا ، انطلق رأسا نحو « تنكربل » .. كان يتجه نحونا بسرعة ، ثم دار حولنا حتي احتوانا في وسطه ، ليصحبنا الاميال القليلة الباقية علي فالموث . وقد قرر أحد الصحفيين ان حوالي ٣٠٠سفينة كانت تحيط بنا .. لقد كان مشــهدا خياليا !

كانت سفن تجارية كثيرة تحمــــل أيضا أشخاصا جاءوا لمقابلتنا ، وكلما مرت بنا احدي السفن كنا نســـمع هتافات تملأ الجو : « عمل رائع ! » فأرد قائلا : « شكرا لكم » ونتبادل التلويح بالايدي في سعادة وفرح .. انني لم ار قط مثل هؤلاء النـــاس الودودين ذوي القلوب الطيبة ، وقبل ان نصل الي مدخل الميناء ، كانت هناك بطاقات تحمل صورة «تنكربل» وسط ذلك الارمادا تباع للجمهور !

كانت المسافة الباقية الي الميناء لا تزيد علي ١٢ ميلا ، ولكن في الساعة السادسة مساء ، كان لايزال امامنــا ميلان ، وقد هدأت الريح حتي كادت تختفي ، وأخيرا عرض علي رئيس الميناء ان يقطر القارب ، وقد ترددت في قبول هذا العرض ، لانني كنت آمل ان نتمكن من الوصول الي الشــاطيء بأنفسنا ، ولكنني فكرت في أولئك الذين ينتظرون علي الشاطيء لرؤيتنا ومدي خيبة الامل التى سيشعرون بهــا ، وأخيرا قبلت العرض .

كانت القوارب تحيط بنا من كل جانب ، حتي خيل الي عدة مرات انها ستسحق قاربنا وكان الناس يهتفون ويرسمون بأصابعهم شارة النصر ، ويرددون عبارات المديح والتشجيع .

وبينما كنا نمر امام ارصفة ميناء فالموث ، ثم الي رصيف مبني الجمرك كان الناس يحتشدون في كل مكان .. علي الشاطيء ، وعلي أفاريز النوافذ ويصطفون علي جوانب الطـــرقات ويتسلقون الاشجار ، وقد سمعت ان ٥٠ الف شخص قد شهدوا نهـــاية رحلتنا .

وعندما القيت مرسى تنكربل علي الرصيف الحجـــــري وقفـزت الي الشاطيء كدت اسقط على وجهي ، فقد بدا ان الرصيف يهتز ، وترنحت كرجل أفرط في الشراب ، وقد أدركت انه ستمضى ايام حتي اســـــترد احساسى بساقى فوق الارض .

واطلقت كل سفن الميناء صفاراتها حتي هز الصوت كل منطقة الميناء ، بينما كانت قاذفات السلاح الجـــوي تحلق فوقنا مرسلة تحياتها ، وعزفت احدي الفرق الموسيقية النشيد القومي الامريكي ، وبعد ان التأم شملي مع فيرجينيا وابني وابنتي ، حيـــاني صمويل هوبر العمدة بثيابه القرمزية الرسمية . وعندما سألني احـــد الصحفيين عن رأيي في الاستقبال قلت : « انني مذهول ! »

واذا كانت المناسبة تتسم بالنصر ، فقـد كانت تتسم بالحزن ايضا .. لقد كان هناك سلام فوق مياه المحيط وسط الهدوء والتحدي الذييبرز أفضل ما في الانسان ويركزه علي الاشـــياء الجوهرية .. وقد انتهي كل ذلك الان وخلفناه وراءنا .. لقـــد اردت ان يشـــاطرني هذا التصفيق وعبارات المديح علي الاقل قاربي « تنكربل » الذي جعل هذه التجربة ممكنة . وقد شعرت بوخزات ضمير وأنا أغادره، ولكنني وانا استدير لالقى عليه نظرة وجدته يختفى وراء الجانب المرتفعمن الرصيف والجمهور ، فلم اســـتطع ان اري حتي طرف صاريه !



رحمـــــة

في خلال اسبوع الرفق لحيوان ، تحدثت المدرسة الى تلاميذها الصـغار عن وجوب اظهار الرحمة والحنان حيـال حيـواناتهم الاليفة .. وسألت المدرسة أحد التلاميذ عما فعله فى هذا الصدد فقال :

ـ لقـد ركلت غلاما بقـدمى ، لانه ركل كلبه ..!



للضيوف فقط !

ان الزيارات تسبب السرور دائما . . ان لم يكن عند القدوم ، فعلى الاقل عنـد الرحيـــل !

كتاب الشهر

على حافة العدم في أمريكا



تلخيص لكتاب يصدر قريبا بعنوان :

ON THE EDGE OF NOWHERE

بقلم جيمس هانتجتون كما رواها للورانس اليوت



على حافة العدم في ألاسكا

قصة من ألاسكا

ظل جيم هانتنجتون سنوات طويلة يكافح أرضـــا قاسية عنيفة ، حيث الحياة غالبا ما تصبح مسألة صراع علي البقاء .. وفي هذه القصة التي تفيض حياة ومغامرة ـ كلها حقيقة ـ يروي جيم الذي تجمع عروقه بين دماء نصفها هندية والنصف الآخر بيضاء ، كيف ناضل عناصر الطبيعة في ألاسكا وحيواناتها البرية ، وأوهام الثراء ، ليكسب عيشه ، وكذلك قدرا رفيعا من الكرامة الانســـانية ...

بدأت النيران في يوم مكفهر عاصف من ايام سبتمبر ، وكان الوقت عصرا ... كان يوما من الايام التي تضع فجأة نهاية لصيف الاسكا ، حيث تهب الريح في صفاء ، محذرة بمقدم الثلوج والتجمد . كنت قد ظللت أعمل في الخارج طوال الصباح ، أنشر رفوفا للمتجر الذي افتتحته حديثا في « هوسليا » وهي قرية هندية صغيرة علي نهر « كويوكوك » قرب الدائرة القطبية ، وكان « واين » اصغر ابنائى يرقبني وأنا أعمل ، أما باقى الاولاد فكانوا في المدرسة .

كنت اريد ان أقول لواين ان يمتنع عن مص أصبعه ، ولكنني عندما رأيته يحدق في بعينيه العسليتين الكبيرتين ، لم يطاوعني قلبي علي ذلك ، فقد افتقد الطفل أمه ، بل افتقدناها جميعا ، ولكن لم تكن هناك وسيلة أشرح بها لهذا الطفل ذي الثلاثة الاعوام أنه بعد زواج امتد ١٢ عاما ، وبعد سبعة اولاد ، ملت أمه زوجها المخلط ، وجمعت حاجاتها ، وتركتنا !

وبعد قليل قال الطفل انه يشعر بالبرد ، فأرسلته الي البيت وقلت له : « لا تلمس شيئا في المتجر ، بل ابق في الجزء الخلفى » . وواصلت عملي ورأسى الي أسفل ، فلم ألاحظ قط ذلك الدخان الاشهب القذر الذي بدأ يتسرب من تحت أخشاب السقف .

وفجأة صاح بعضهم مناديا اياي من ضفة النهر :

— جيمي ! جيم هانتنجتون ! ان بيتك يحترق .

ورفعت رأسى ورأيت الدخان . وأدركت ان الريح لابد اسقطت مصباحا كيروسينيا . واستبد بي الخوف فوقفت مسمرا في مكاني ، ثم اندفعت بسرعة نحو البيت وانا اصرخ : « واين ! واين ! »

وفتحت الباب بشدة ، فاصطدمت باندفاع عنيف من دخان ساخن ، ورأيت في الداخل لهبا برتقالي اللون يعربد في كل مكان ممسكا بصفوف البضائع المحفوظة ، ولفات الاقمشة التي جاءت منذ أسبوع واحد فقط .. وتراجعت خطوة ، ثم جريت وانا أواصل الصراخ ، محاولا ان اري من خلال النار والدخان ، وكانت صورة الطفل المسكين واين ماثلة في خيالي ، وقد حوصر في الداخل وتملكه رعب قاتل ، مناديا اياي لانقذه ..

ولابد انني فقدت الوعى ، اذ انني اذكر في غموض ان شخصا ما سحبني نحو الباب ، ولا يمكن ان يكون قد

حـــدث وأنا مازالت في كامل حواسى .. وفي الخارج استنشقت الهـــــواء المنعش ، وســـرعان ما تذكرت كل شىء ، فشققت طريقى نحو البيت ثانية ، ولكن اصدقائى لحقوا بي ، وامسكوا بذراعى .. وهنـــــا وقع انفجـــــار اطار النوافذ والسقف ، وتهاوي البناء في ضجة مخيفة .. وأخيرا رقدت علي الارض بلا حراك .. لقد فات الاوان الآن لانقاذ واين .

وأحضر البعض اولادي الآخرين من المدرسة .. كانوا يســـيرون في بطء ووجوههم شاحبة يبدو عليها الرعب، وحاولت ان اطوقهم جميعـــا بذراعى واقربهم مني ... وبدأوا يبكون !

وفجأة ، أقبل أحد الرجال من فوق التل بسرعة .. وهو يسحب واين من يده ! ان واين مازال حيا سليما معافي !

وقال لي الرجل : « لقد كان هناك يلعب مع الكلاب .. ولم يذهب قط الي المنزل ! »

وامسكت الطفل ودموعى تتساقط من مقلتي ، واعتصرته بين أحضاني بقوة لابد انها آلمت عظامه وعنـــدما تركته ، حاولت ان ابتسم حتي يزايله خوفه .. ولم يكن قـــد بقى لي ما ابتسم من أجله ! لقد ابتلع الحريق والدخان جهد حياتي وعمل ٢٥ عاما .. وفقدت كل شىء : المتجر ، والمؤن التي لم اسدد ثمنها بعد ، وبيتنا ، بل وطعامنا لفصل الشتاء ... كلهـــا أصبحت كوما من الرماد !

وأحسست انني أصبحت شيخـــا محطما متعبا ... وادركت فجأة مدي السهولة التي يمكن ان اتخلي بها عن كل شىء ، وانجرف نحو احدي مدن الرجل الابيض ، كما فعل كثيرون من الوطنيين ، ليعيشوا من أعمال عابرة كعمال او علي ما يجودون عليهم به .

ولكنني لا يمكن ان استسلم هكذا .. ان تراثى كله وتجاربي تدعوني لمواصلة الكفاح . لقد ولدت علي حافة العدم ، وهأنذا اعود الي حيث بدأت .. ولكن أحـــدا لم يعد اي رجل : هندي او اسكيمو او أبيض — بأن الحياة سهلة في هذه الارض القفراء . ان عليك ان تناضل من أجل كل شىء مهم بالنسبة لك . لقد لقنني أبي هذا الدرس ، وكانت امي الهندية تسير علي هداه .

براءة قاتل

كانت أمي (آنا) تنحدر من احدي قبـــائل « اتابسكان » الهندية التي تعيش في الداخل قرب منطقة يوكون . وكانت هناك مشاحنات دموية دائما

بين الهنود والاسكيمو ، وغالبا ماتكون عنيفة وحشية . وكان الاتصال السلمي الوحيد بينهم يتم عن طريق أبي وهو تاجر ، يشق طريقه في شهر مارس من كل عام نحو حافة المنطقة الهندية لمقابلة « شيليكوك » التاجر الاسكيمو ، ثم يقضى بضعة أيام في المقايضات وكانت امي – وهي فتاة – تصحب أبي بانتظام في هذه الرحلات التجارية ، وتعلمت لغة الاسكيمو .

وكان زواج أمي الاول من صياد حيوانات يدعى « فيكتور بيفلت » ، وكان جارهما الوحيد رجل ابيض يدعى (ند ريجان) يعيش علي مسافة ٦ر٥ كيلومتر أسفل نهر كويوكوك ، ورغم كل تلك الاراضى الكبيرة التي ينصب شباكه فيها ، فقد تشاجر مع بيفلت علي عدد من فخاخ الحيوانات وبعد ظهر ذات يوم اندفع الي كوخه ، وأمام عيني (آنا) المرتعبتين ، قتل بيفلت بطلقة نارية في وجهه .

وعندما حوكم ريجان في (نومي) بعد ذلك بعام ، أحضروا امي للادلاء بشهادتها ، ولم تكن راغبة فيالذهاب ، فان نومي علي مسافة ١٢٠٠ كيلومتر بالسفينة البخارية ، وعليها ان ترحل في سبتمبر قبل ان تتجمد الانهار ، ومن ثم فانها ستنفصل عن قومها طوال الشتاء ، ولكن جدي أصر علي رحيلها لانها شاهدة الاتهام الوحيدة .

وأجريت المحاكمة ، ولكن (آنا) لم تكن تعرف الا القليل من الانجليزية ، ولم تستطع المحكمة أن تجد أحدا ليترجم لهجتها الهندية ، ولهذا او ربما لان المحلفين البيض رفضوا تصديق شهادة هندية ضد واحد من جنسهم ، صدر الحكم بأن ريجان غير مذنب ... واستولي الحزن علي أمي .

كان ذلك في فبراير ١٩٠٥ ، ولو انتظرت حتي الصيف لاعادتها المحكمة بالسفينة الي بلدتها . ولكنها رفضت أن تبقي مع هؤلاء الناس الذين برأوا قاتل زوجها .. وتسلحت بسكين فقط وقطعتين ذهبيتين ، وبعض المؤن التي تستطيع حملها علي ظهرها ، وانطلقت المرأة الهزيلة لتقطع مئات من الاميال علي قدميها نحو اصقاع ألاسكا المتجمدة ..

يتامي في البراري

بعد سنوات تزوجت «آنا» من أبي وهو تاجر أبيض ، وأدارا معا متجرا صغيرا علي ضفاف نهر (هوجاتزا) وأنجبا خمسة أبناء بينهم ثلاث بنات هن : الزي ، وأدا ، وطفلة رضيعة هي

ماريون وأنا وأخي سيدني .

وعندما كبرت الزي وأدا ارسلتنا الي مدرسة ارسالية « آنفيك » علي مسافة ١٠٠٠ كيلومتر في أسفل نهر يوكون . وفي الربيع التالي انطلق ابي في زورقه النهري ليعود بهما لقضاء الصيف في البيت وصـــاح بنا وهو يرحل : « ايها الفتيان ، عليكما برعاية الامور هنا حتي اعود » وحملنـــا مسئوليتنا الجديدة بروح جادة وكان سيدني في السابعة ، وأنا في الخامسة .. أما ماريون فلم تبلغ الثانية بعد !

وعندما استيقظت ذات صباح ، أدركت ان الهدوء التام يسود البيت .. أين صوت أمي وهي تعــــد الافطار ؟ ولماذا لم توقظنا لنغســـل وجوهنـــا ؟ .. ونزلت من فراشي وهبطت الي اســـفل وقرب نهـــاية الدرجات توقفت .. اذ انني استطعت ان اري امي راقدة ووجهها الي الارض

وناديت : أماه .. أماه !

وهرعت اليها في جنون ولكنها لم تتحرك . وصحت مناديا سيدني ، وحاول هو ايضـــا ان يوقظها دون جدوي ثم ادركنا ما حدث : لقـــد ماتت !

اقامة كوخ للشـــتاء

في أوائل اغسطس ، جاء الاب فريد درين القسيس ليرانا وكان يقـــوم بجولته السنوية في اعالي النهر ، مقيما الصلوات ومعمدا الاطفال في القـــري ومعسكرات صيادي الاسماك ، وصلي علي روح امي ثم عرض ان يأخذنا نحن الاطفال الخمسة جميعـــا الي مدرسة ارسالية آنفيـك وقد آلم ذلك أبي ولكن لم يكن أمامه خيار آخر .

وتقع آنفيك علي نهـــر يوكون في الارض المنبسطة غربي الاسكا غـير بعيد عن بحر بيرنج وكان الجميـع هناك طيبين معنـــا ، ولكنني لم اكن معتادا الوسائل المتبعة في عالم الرجل الابيض فقـــد عشت في الادغال طيلة حياتي وكنت اشعر بخجل وارتبـاك بين الاشخاص الاخرين .. ولكن كان لدينا طعام كثير لنأكله ، وقد تعلمت القراءة والكتابة .

وكانت زيارة ابي لنا كل ربيع هي افضل شيء ، فلم يكن قلبه يطاوعه علي ادارة متجره بمفرده ، ومن ثم كان يتجول في أرجاء المنطقة ناصبا الفخاخ ، منقبا عن الذهب حيثمـــا يسمع عن كشف يبشر بأمل. وكنت أنا وسيدنى نتوسل اليه أن يأخذنا فيقول :

« في يوم ما .. عنـــدما تكبران قليلا » ..

وفي الشتاء الذي بلغت فيه سن الثانيةعشرة ، ماتت أختى آدا متأثرة بالتهاب حاد في الزائدة الدودية .. وعنـــدما جاء أبى لرؤيتنـا في تلك السنة ، كان يبـدو مرهقا هزيلا ، ولكنه حمل لنا أنباء عظيمة .. فقد قال لى أنا وسيدنى :

« لقد شاركت شارلى سوانسون العجوز ، وحصلنا على مركب كبير ذي محرك وسوف نذهب اليكويوكوك لنصب الفخاخ في الشتاء القادم» .

وبعد أن سرنا قليلا نحو الغـابة توقف فجأة ودق الارض بكعب حذائه وقال: « أتحبان الحضور معنا ياأولاد في هذه الرحلة ؟.. أعتقد أن الوقت قد حان لكي تتعلما كيف تعيشـــان بعيدا عن الريف ، ولعلى لن أكون موجودا فترة طويلة لكي أعلمكما ».

وكانت تلك هي نهـــاية تعليمى المـــدرسى . وكنت قد وصلت الى الجزء الثالث من كتاب القراءة، وهو أكثر مما يصل اليه أغلب الاولاد في هذا الجزء من العالم . وعلي الان أن أتلقى نوعا أكثر أهمية من التعليم .

وما كاد الثلج يذوب من النهـــر حتى ودعنا الزي وماريون ، وانطلقنا الى (نولاتو) حيث كان شـــارلى العجوز في انتظارنا مع المـــركب الذي يسير بالمحرك . ولقد كان شـــارلي رجلا أبيض أشيب الشعر ، لايتكلم كثيرا ، ولكنه يحب الاطفال. وعندما جاءت سفينة الامدادات بمؤن الشتاء لنا ، بدأنا نشحنها على مركبنـا ، وعندما صعدنا اليــه مع الكلاب التي اشـــتراها أبي ، كاد المركب يستقر في الماء .. ولكن لم تكن هناك طريقة أخري لنصب فخاخ الشـــتاء . فاذا نسيت شيئا أو فرغ منــك ، فمن الافضل أن تكونمستعدا للحياة بدونه لان أقرب متجر قد يكون على مسافة ٢٥٠ كيلو مترا .

كنا نقطع مسافة تتراوح بين ٣٠ و٥٠ كيلو مترا في اليوم ونحن نشق طريقنا الى أعالى النهر ثم نرســو على ضفة النهر كل ليلة لننام تحت أشجار الحور .. وفي اليوم الثامن، التقينا بحـــاجز رملى تحت امتداد مكشوف لارض مرتفعة ، وقال أبى ان هذا المكان يبدو جيدا ومن ثم فقد ربطنا المركب ، ونصبنا خيمة على الصخور . وبينما كنت أنا وسيدنى نفرغ شحنة المركب ، ونخرج الكلاب منه ، بدأ أبي يخلي قطعة أرض في الغابة ثم أخذ بلطة وشرع في قطع أخشاب للكوخ الذي يجب أن يكون جاهزا قبل أن يسقط الجليد . وفي

نفس الوقت كان شارلى العجـــوز يلقى شبكتين لصـــيد الاسماك فى النهر ، الذي كان غاصـــا بأسماك السالمون التى قد لا توجد غـــدا ، واطعام سبعة كلاب يتطلب كثيرا من الاسماك المجففة ·

كان يبدو أن هنـــاك شيئا يجب عمله كل ساعة من كل يوم · كان علينا أن نضع رفوفا لتجفيف الاسماك، ومخبأ على عمق ٣ أمتار في الارض لتخزين اللحوم· وكانت مهمتنا الكبري هي صــنع الكوخ ·· كنا نسحب كتل الاخشاب ، ونسد الفجوات التى بينها وعندما تعلو الى حد كاف ، كنا نضع أعمدة السقف · ولم يكن لدينا ألواح من الحديد للسقف ومن ثم فقد نزعنا قشور أشجار الزان ، ووضعناها عبر الاعمـدة وفوق ذلك وضــعنا الطحالب ، ثم قدمين من التراب ، مما جعل السقف لاتتسرب منه المياه أبدا حتي في أشـد فترات المطر أو ذوبان الجليد ·

وانتقلنا الى الكوخ حوالى منتصف سبتمبر · وبعد ذلك أمضينا كثيرا من الوقت في صنع زحافاتنا وأحذية الجليد التى سنرتديها · وكيفما كان العمل الذي نقوم به ، فقد كان أبى يرينى أنا وسيدنى كيف نعمله مرة واحدة فقط ، ثم يتركنا وشأننا ، وكنا ننجزه رغم تعثرنا ومجادلاتنا، ويقول أبى : « هذه هي الطريقة ، لاتدع أي شىء يقف عثرة في سبيلك»

كان كل شىء رائعا ·· فيما عدا أن أبي كان يجعلنـا نستحم مرة كل أسبوعين !··

الى القارب !

وأخيرا بدأت الايام تزداد طولا·· ان الربيع قادم · وبينما كنا ننتظر ذوبان الثلوج ، قررنا أن نبنى قاربا يسير بالزانة · وقال أبى انه سيكون خير معين عندما نشحن المركب لنحمل جلودنا الى أسفل النهر ، ولكن تبين فيما بعد أننا احتجنا اليه قبل ذلك بوقت طويل ··

ورغم مرور جزء كبير من شــهر مايو، فقد كان هناك الكثير من الجليد على الارض والثلوج في النهر، وكان هناك احتمال كبير بأنه عندما يذوب الثلج سيملأ النهـــر ويجعله يفيض وبعد ظهر أحد الايام سمعنا هديرا ضخما في أعالى النهر ·

وهرع أبى وشارلى الى ضـــفة النهر ، وتبعتهما أنا وسيدنى· وعلى مسافة ٨٠٠ متر كان هناك جـــدار ثلجى قد اندفع مسافة ١٥ مترا بعيدا عن الماء ، وكان يتجه نحونا رأسا ·

وقال أبى بحدة : « أخرج كل شيء من الكابين فورا وضع كل ماتستطيع على السقف ، والباقى في المخبأ » ٠

وجرينا جميعـــا ٠٠ وبينما كان سيدنى وأنا نحمل لهما الاغطيـــــة وعلب الفاصوليـــا من المركب ، قام أبى وشارلى بربط قارب الزانة الى الكابين وبدآ يكدسان الاشياء داخله٠ وحتى ونحن نعمـــــل ، جاء الثلج هادرا في النهر ومر أمامنا ، وكان يرتفع فوق رؤوسنا ، بينما انبثقت نافورات من الماء على ضفة النهر ٠ وأنت الكلاب وجذبت سلاسلها وقام شارلى العجوز بفك كل اثنين منهـــا وربطها في القارب ٠ ثم ملأت الثلوج المنطقة التى تقع تحتالكابين مباشرة واندفعت ميـــاه النهر بقوة مغـــرقة الارض ٠ وصاح أبى : « هيا الى القارب ! »

وقفزت أنا وسيدنى داخله وتعلقنا به بقوة حفظا لحياتنا ٠٠ كانت المياه تفور تحتنا وترفعنا الى أعلى ، ثم تندفع صوب الغابة ، وكانت تدور حول المخبأ، واسقطت أرففالاسماك، ومازالت ترتفع ٠٠ وظل أبى متعلقا بالحبـــــل حتى أصبح القارب على مستوي أعلى باب الكابين ، ثم تركه ودفعنا داخل هذا التيار ، وأخذ هو وشارلى العجوز يجدفان نحو الغابة بكل قواهما ٠ وكانت قطع من الثلج تصطدم بنا ، والكلاب تعوي بينمـــا قبعت أنا وسيدنى على ركبنا ٠

وظل أبى يقود القارب على طول طريق الغابة ، وكان يبدو أنه من الجنون أن نسير بين قمم الاشجار ولكننا استطعنا أن نعود الى التلال، التى أصبحت الآن مجرد جزر صغيرة تبرز وسط الفيضان العظيم ٠

وبقينا هناك ثمانيـــة أيام ، نعيش علي المؤن القليـــــلة التي أحضرناها معنا ، وننام علي الارض الباردة ثم ذاب الثلج وانحسر المـــاء ، وعدنا نشق طريق العودة ٠٠ كانت الاشياء القليلة التي بقيت في الكابين قد تلفت وامتلأت بالطين ، فاتجهنا نحو المخبأ بقلوب حزينة ، ولكننا لم نجده ٠٠ لقد ذهب بكل لحومنا وفرائنا ٠٠ ان عمل الشتاء كله قد ضاع !

أيها الفتيان ٠٠ هيا للعمل

في تلك الليلة تناقش أبي وشارلي العجوز في الامر ، واتخـــــذا بعض قرارات صارمة ٠ علينـــــا أن نحاول البحث عن المركب ذي المحرك الغازي، ويجب أن نحصـــــل بطريقة ما علي ما يلزمنا للشتاء القادم ٠

ولما كان القارب الصغير لا يتسع

لنا جميعا في الرحلة الي يوكون مسافة ٥٦٠ كيلومترا ، فقد تطوع شارلي العجوز للبقاء مع الكلاب حتي نعود. وكان عملا شجاعا فريدا ، ولاشك أنني أحسست بالاسى من أجله عندما ابتعدنا عن ضفة النهر وتركناه واقفا هناك .

وبعد أن جدفنا يوما كاملا ، سمعنا أول نبأ طيب .. كان هناك تاجر فراء يربط سفينته قرب مصب نهر «هوجاتزا» وقد أخبر أبي أنه سمع أن مركبا يسير بالمحرك قد أخرجه بعض الوطنيين من الثلوج عند محطة «كويوكوك» بعد أن أصابه تلف شديد وقال أنه متجه في هذا الطريق ، وهو مستعد لاخذنا معه ، ومن ثم فقد وضعنا أشياءنا علي ظهر سيفنتهالتي تسير بالمحرك وربطنا القارب وراءها وانطلقنا .

كانت السفينة تبدو لي عندما وجدناها في حالة لا يمكن اصلاحها ، فقد تحطمت الكابين ، وفتحت فجوة كبيرة في جانبها ، واختفت الاسطح تحت قدم من الطين . ولكن أبي شرع فورا في ازالة الطين عنها ، وأخذت أنا وسيدني نقوم بسد مؤقت للفجوة، ثم سحبنا السفينة الي الماء حيث كنا نأمل في ادارة المحرك القديم ثانية .

ولم تمض فترة بعيدة حتي كان كل العمال الميكانيكيين في (فولاتو) قد جاءوا الي المرسى محاولين مساعدتنا علي تسيير هذا المحرك ، ولكن حتي بعد تنظيفه تماما ، كان أفضل ما استطاعوا عمله هو ادارة اسطوانتين منه ، أما الاثنتان الاخريان فقد فشلت كل الجهود في ادارتهما . وظل الرجال يتناوبون العمل فيها ثلاثة أيام . وخطرت لي فكرة ولكن أبي طلب مني أن أسكت فان هؤلاء الرجال يعرفون كل شيء عنالمحركات

وأخيرا رفع أحد الرجال رأسه وسألني في مداعبة عما اذا كنت أعرف أين يوجد العيب ؟

فقلت هادرا : « أعتقد أنه حدث خلط في أجزائه . فلو أنك غيرت أسلاك شمعة الاحتراق ووضعت رقم ٢ مكان رقم ٤ ، فاني أظن أنه سيعمل » .

فقال مبتسما : هيا يافتي وجرب ذلك .. فلن تفعل أسوأ مما فعلنا

كانت أصابعي أشبه بالمخالب وهي تجوس خلال تلك الاسلاك ، ولكن بعد أن انتهيت ، وأداروا المحرك ، دار كالساعة ! وضرب الرجال ركبهم بأيديهم وضحكوا جميعا .. ومنذ ذلك الحين والناس يأتون الي لكي أصلح محركاتهم .. ومازالوا

يفعلون !

وأمضينا الاسبوع التـالي نصنع سفينة لصـيد السمك ذات عجـلة جانبية ، وهي سفينة تقف في الماء ، وتخرج من أطرافها ٨ أو ١٠ شـباك للصيد ، ويقوم التيار بادارة العجلة كالطاحونة ، فترفع الشـباك الاسماك التي تمر بجوارها ، وتلقي بهـا في حوض كبير وبعـد أن انتهينا من اعدادها ، وضـعناها أمام السفينة وربطنا قارب الزانة خلفهـا ومضينا الي أسفل النهر مسافة ١٩ كيلومترا، ثم أقمنا خيمة هناك وأمضينا اليومين التاليين نصنع أرففا للسمك ، ومكانا لتدخينه ·

ثم أقبل سمك السـالمون ·· ولم أكن قد رأيت في حياتي شيئا مثله ، والطريقة التي جاء بها الي النهـر كالتيار الاحمر ، وهو يقفز من الماء، يتدافع بالمناكب ، ويكافح للعودة الي البحيرات التي فقس بيضـه فيها ، ليضع بيضه هو هنـاك ثم يموت · وكانت كل دورة للعجلة تحضر أربع أو خمس سمكات ، وبعد أن عملنـا جميعا بكل ما نستطيع من جهـد ، أخذنا نقطع الاسـماك ونعلقها بنفس السرعة التي تخرجها بها العجلة ·

وبعد أن أمضينا هنـاك حوالي أسبوع ، جاء لزيارتنا ذات يوم بوب راسل وهو تاجر من (فولاتو) وقال أنه كان يفكر فيما سنفعله في الشتاء القادم ، وقال أنه يعرض علينا سفينة مقابل امداده بشـحنة من الاسماك المجففة للكلاب التي يؤجـرها للناس لجر الزحافات علي أن تعتبر هـذه الشحنة القسط الاول من ثمن السفينة، علي أن نسدد البـاقي بعد أن نعود بالفراء في الربيع التـالي · وصافح أبي يد راسل وقال لي أنا وسـيدني وهو يبتسم :

– أيها الفتيان ·· لقد عدنا للعمل ثانية ·

لقد كنا نعمل الآن حقـا · كان المكان الذي أعددناه لتدخين الاسماك يعمل ليلا ونهارا وعنـدما امتلأت أرفف التجفيف ، صـنعنا غيرها ، وفي أوائل أغسطس كنا قد انتهينـا من حزم كل الاسـماك التي طلبها راسل ، مع ٣٠٠٠ سمكة لكلابنا نحن وعدنا الي فولاتو حيث أصلحنا مركبنا الاصلي ، وشحناه بالمؤن ، وعدنا الي المعسكر ·

وتطلبت العودة عشرة أيام ، ولكننا عنـدما درنا حول المنعطف الاخير ، كان شارلي العجوز يقف منتظرا علي ضفة النهر ، وقد سـررنا كثيرا

لرؤيته • وصـــافحناه ونحن نتكلم جميعا في وقت واحد محاولين ابلاغه بما حدث •• وكان شارلي يقف وهو يومىء برأســه فقط ، كأنه لم يكن يشك قط في أننا سنفعل كل ما ذهبنا لعمله : أن نجد سـفينتنا ، ونحضر الاسماك للكلاب ، وســفينة جديدة للشتاء !

جراحة بابرة من العظام

كانت نبوءة أبي بأنه لن يبقي معنا فترة طويلة ، نبوءة دقيقة تماما •• فبعد عام آخر من نصب الشـباك ، أصيب بالسل ، واضطر أخيرا للذهاب للعيش في بيت الرواد في (سيتكا) حيث يستطيع أن يجد الرعاية الطبية، وقد أقسم أنه سيعود ، ولكننا لم نره حيا بعد ذلك قط •• وبعــد ذلك ، أخذت أنا وسيدني وشــارلي العجوز نعمل معا في الصيد لمدة عامين ، ولكن الطريق كان أكثر مما يحتمله شارلي أيضا ، فانطلق الي أسفل النهر باحثا عن عمل بأجـر ، ولكن الوقت كان عصيبا ، وقد ســمعنا أنه مات في فيربانكس ، وقال البعض أنه مات جوعا •

وفي نفس السنة التقي سيدني بفتاة وطنية بمحطة كويوكوك وأراد الزواج بها وقال أننــا نستطيع أن نستمر في الصيد معا ، نحن الثــلاثة ، ولكنني كنت أعرف شيئا أفضل •• وهكذا تمنيت له حظا سعيدا بعــد الزواج وانطلقت وحدي •

لقد كنت في السادســة عشرة ، مسئولا عن نفسى !

وظللت طوال أربع ســنوات أعيش بعيدا عن الريف ، وعنــدما بلغت العشرين ، تزوجت فتــاة هندية في السادسة عشرة تدعى«سيسليا أولين» وبعد عام رزقنا بأولي بناتنا«كريشين» ورغم أن أسعار الفراء ظلت تتدهور، فقد ظللت أقضى كل شتاء في الغابات بمفردي محاولا أن أواجه مسئولياتي الجديدة بصيد الحيوانات بالشباك ، أما خــلال الصيف فكنت أعيش مع زوجتي وطفلتي ، أصيد الاسماك أو أعمل أعمالا مختلفة مقابل أجر

وبعد زواجنا بثلاثة أعوام ، أقمت مع سيسليا ذات صيف معسكرا على مســافة ٢٥٠ كيلومـترا في أعالي هوجاتزا عند مصب خور«كاريبو» ولم نر أحدا تقريبا طوال الصيف ولكن في أواخر أغسطس جاء شــخصان من الاسكيمو في قارب بالنهر ، فدعوناهما للغداء معنا • لقد تغيرت الامور بين الاسكيمو والهنود منذ أيام أمي • لم نكن نعتبر أنفسنا أشقاء في الدم حقا

ولكننا علي الاقل لم نعد نطلق النـار علي بعضنا البعض بمجرد الرؤية ، وكان هذان الاثنـان ، وهما غلام في الخامسة عشرة أو نحو ذلك ورجـل أكبر عمرا يدعى هنري ، في طريقهما الي موطنهما شمال الدائرة القطبية ، ومازال أمامهما طريق طويل يقطعانه.

وسارت الامور بيننا علي مايرام ، الي أن ذكر الرجل مصادفة أنه أطلق النار علي دب في اليوم السـابق ، وعندما سألته عن لحمه ، هز كتفيه وقال أنه تركه خلفه وقال : «لاداعى لجمع اللحـوم في مكان يمتليء بها حولك » .

وعندئذ غلت دمائى الهنـدية في عروقي ، واكتفيت بالنظر اليه لحظـة طويلة ، لا أكاد أصدق أذني ، ولكنني قلت أخيرا : « لقد وضعت الحيوانات في هذه البلاد لتطعم الاهالي ـ الهنود .. اننا لا نقتلها لمجرد اثبات براعتنا في التصويب » وطلبت اليهما الرحيل قبل أن أستيقظ في الصباح .

ورحلا في الصباح . ولكن الامر لم ينته معهما عند هذا الحـد . ففي المسـاء كنت أجلس مع سيسليا علي ضفة النهر أدخن وأرقب آخر أسماك السلمون تصارع النهر ، عندما جاء قارب الاسكيمو حول المنحني والصبي يجدف بشدة نحو معسـكرنا . وفي قاع القارب كان الرجل الاكبر سـنا أقرب الي الموت منه الي الحياة وقد تمزقت كل ثيـابه وجسمه أيضا . وقال الصبي : « لقد توغل في الغابة وراء دب جريح » . ولكن الشرح كان



أمرا غير ضروري ، فهناك نظرةمعينة لا تخطيء لرجل هاجمه دب ٠

ووضعنا الضحية علي قطعة قماش سميك ، ومزقت ثيابه لكي أقدر مانالله من ضرر ٠ كانت هناك علامات عميقة لمخالب الدب علي ظهره وعنقه ، كما غرس الدب مخالبه في وجهه ومزق فروة رأسه كلها تقريبـــا ، وبدا أن ضلعين قد تكسرتا من عظامه ٠

وطلبت الي سيسليا أن تغلي بعض الماء ، ثم أذبت بعض الملح فيه وبدأت أغسل الجـروح ، وكان هذا هو كل ما لدينـا من دواء ، ولكنني رأيت أنه لا فائدة من ذلك ، فاذا لم ينقذ الله هذا الرجـــل ، فلن يفلح كل الدواء الذي في فيربانكس في مساعدته ٠٠ وقد صرخ وأغمي عليه ، ولكن كان هذا هو أفضل ما أستطيع أن أفعله له ، لانني لم أبدأ بعد حياكة جروح وجهه ٠

وانتزعت بعض شعرات من رأســه لكي أستخدمها في حياكة الجـروح ، وألقيتها في ماء ملحى يغلي مع ابرة من العظام تستخدمها سيسليـــا في حياكة الاحذية ، ثم أخـذت أفحص رأس الرجل الاسكيمو محاولا معرفة أفضل طريقـــة لحياكته معا ٠ وكان الفتي يرقبني طوال الوقت ويساعدني حيثما استطاع ، ولكنني ما ان بدأت أحيك فمه الممزق ، حتي وضع الفتي يديه علي فمه وهرب الي الغابة ٠

وظللت أحيك الجـــرح حتي غابت الشـمس وراء الافق ، ثم طلبت الي سيسليا أن تحضر المصـــباح الزيتي وتقف بجواري لكي أري وأنا أواصل العمل في حياكة داخل الفم الممزق ٠ لقداستغرقت العملية حوالي ٤ساعات، ولاشك أنه سيصبح مشوها اذا قدر له العيش ، ولكنني بذلت كل جهدي من أجله ٠

وظل يحـــوم ثلاثة أيام بين الموت والحيــاة ، بينما كان الفتي يجلس القرفصاء بجواره ساعة بعـــد أخري ليمسح العرق عن وجهه ويبعد عنه البعوض ٠٠ ثم زالت الحمي ، وفتح هنري عينيه وقال : « ان صـــدري يؤلمني » ٠

وقد أدهشني أنه مازال قادرا علي الكلام ٠ كان وجهه متورما الي حـد أنك لا تستطيع أن تعرف أين ينتهي فمه ، وأين تبدأ عينـــاه ٠ ومزقت بعض قطع من القمـــاش السميك وضمدت أضلاعه المكسورة، وفي اليوم الرابع ساعدناه علي القيـــام حتي لا يتيبس جسمه ، وفي اليوم التـالي أزلنا الخيوط وأعطيناه مرآة ٠٠ لم

يكن يبدو سيئا للغــــاية • كان أثر الجرح جيــــدا ومستقيما ، فيما عدا أنني لم أعد زاوية فمــه الي مكانها الاصلي بالضبط ، فبـــدا أنه يبتسم دائما من شيء ما • ولكنـــــه كان مرتاحا راضيا .•

وسألني : أين تعلمت حيــــاكة الجروح ؟

فقلت له • بالعمل في جروحك !

حياة اجتماعية في كوخ الاسكيمو

ذهبت لنصب الشباك في الشـتاء ، وجاءت معي زوجـتي وطفلتي وقالت سيسليا ان ذلك لن يكون اســـوأ من البقاء بمفردها• ولكنها لم تكن معتادة علي حيــــاة البراري مثلي ، وهكذا عندما أقبل عيد الميلاد ، قررنا العودة الي (كاتوف) لحضور عيد (بوتلاش) الهندي الذي يقـــام في الشتاء لتبادل الهدايا واقامة المهرجانات •

ووجدنا أخبارا سيئة ، فقد احترق المتجر هناك ، ولم يكن في المدينـــة كلها غير بعض اللحـــوم القليلة التي صيدت حيواناتها حديثا • وفي الليل بحثت الامر مع سيسليا • وتذكرت أن الفتي الاسكيمو كان قد أخبرني عن وجود متجر لا يبعد عن (كويوك) أكثر من ١٥٠ كيلومترا الي الشمال• فلوأخذت بعض الرجال معي لاستطعنا أن نأخذ معنا بعض الجلود ونبادلها بالاشياء التي يحتاج اليها أهل القرية•

ولم نفتقـــر الي المتطوعين ، فان أحدا منا لم يسبق أن ذهب الي بلاد الاسكيمو ، وبدت تلك فرصة طيبـة لرؤيتها ، وفي الصباح الباكر انطلق خمســـة منا يقودون أربع فرق من الكلاب التي تجر الزحافات ، وبعد أسبوع بلغنا كويوك •

وتدفق الناس من كل حدب وصوب حولنا ، وقد حدقوا فينا بدهشـــة وكأننا جئنا من عالم آخر ، كما بدا هذا المكان غريبا لنا أيضا ، اذ كانت البيوت تبدو مستديرة ، أشبه بأكواخ الاســـكيمو التي تراهـــا في الكتب المصـورة • وقد بنيت بمربعات من الحشائش الجافة ووضعت كتل الجليد لاكسابها مزيدا من الوقاية •

وفجأة سمعت شـخصا يناديني : «جيم هانتنجتون !» كان الصبي الذي جاء الي معسكرنا في الصيف الماضي •• وسألني : « ماذا تفعل في هــذه البلاد ؟ »

وعندما أخبرته أننا نبحث عن مؤن قال ان المتجر لايبعد غير ١٣ كيلومترا أعلي النهر وأصـــــر علي أن أذهب لتناول الطعـام بمنزله • وقال شيئا لقومه بلغة الاسكيمو ، وبعد قليـــل

أخذوا كلابنا وعنوا بها ، وذهب كل من رفاقي الي كوخ مختلف •

ودخلت بيت الصبي من خلال كوخ طويل منخفض ، ووجدت نفسي في غرفة متوسطة الحجم مضاءة بمصباح يشتعل بزيت كلب البحر ، وكانت الغرفة مليئة بأسرته • وحدثهم الفتي عني ثم جلسنا جميعا لنأكل: أسماك السالمون المجففة ، وجلد الحوت ، ولحم الوعل ، وبعض الكعك والشاي القوي ••

وسألته عن صديقه (هنري)،وفجأة ساد السكون في الكوخ ، وهز الصبي رأسه حزنا وقال انه ذهب الي النهر بعد موجة الصقيع الاول ولكن الثلج كان لايزال رقيقا ، فسقط في هوة ولم يعثر عليه أحد •

كدت أجن عندما سمعت هذا النبأ •• أبعد كل ما فعلته لكي أبقي حياته يحدث هذا ؟

وسرعان ما دعيت الي منزل آخر، وآخر ، وفي كل منها شاي وطعام كثير ، وأخيرا أعدوا لي فراشا في بيت آخر لكي أقضي الليل ••

كان بيتا أكبر حجما من البيوت الاخري وبه مزيد من الناس — بينهم عدد منالفتيات غير المتزوجات • وما كدت أخلع حذائي ، حتي أبعدتهم عني فتاة جميلة في السابعة عشرةمن عمرها • وبعد أن أشعلت سيجارة جلست تحت قدمي مستعدة لخدمتي اذا احتجت لأي شيء آخر •

وقالت لي ربة البيت الذي سأنام فيه : « والآن حدثني كيف حكت جروح ابني ؟ » •

وعندئذ أدركت الحقيقة • كان هذا هو بيت هنري ، وأسرته ، وسيكون لهم شرف استضافتي لقضاء الليلة •

وحدثتهم عن هنري والدب وأنا أحاول اظهار ابنهم في صورة الرجل الشجاع غير المتهور وكان الكثيرون من الناس يأتون لسماع القصة حتي امتلأ المنزل علي سعته بهم ، وقد أصغى الجميع في امعان واهتمام بالغ • وعندما انتهت القصة • أخرج الاب كل الزائرين ثم جذبني جانبا وشكرني •• وقال :

« انك لم تنقذ حياة ابني فحسب، بل وجعلته يبدو شجاعا يمتلئ رجولة ، وأنا أعلم أنه لم يكن كذلك• ولكنه مات الان ، ومن الخير أن يعتقد الناس أنه كان طيبا » ثم أمسك يدي وقال : كل ما عندي ملك لك

ونظرت الي الفتاة الصغيرة الراكعة تحتقدمي وفكرت قليلا وقلت لنفسي: «ان هنري الملعون لن يتوقف عن ازعاجي ! » •

وسرعان ما أطفأ الرجل العجـــوز المصباح ، فسعى كل شـــخص من الاسرة الي ركن لينام فيه • وعندما ذهبت الي مكاني ، تبعتني الفتاة ــ التي اكتشفت ان اســـمها كيتي ــ وأخذت خفي ووضعتهما بجوار فراشى ، ثم أطفأت المصباح • وفجأة وجدتهـا بجواري في الفراش •

وقلت : أليس لك فراش ياكيتي ؟

قالت : أجل •• هذا هو •

ــ تعني أنك ستنامين معى ؟

ــ كلا أنت الذي ســتنام معى • هذا مكاني •

وفجأة رفعت نفسها علي أحـــد ساعديها وقالت : ألا تميـــل الي ؟ أتحب احدي شقيقاتي ؟

ــ كلا •• كلا •• انني أميل اليك •• ولكن فقط عندي زوجة !

ــ انها ليست هنا • وأنا هنا•• والان لننم معـا • ستكون لي طوال اقامتك هنا ولن تتحدث اليك أية فتاة أخري •

لم يكن هناك اي مناقشة لمثل هذا النـــوع من المنطق •• ومادمت في أرض الاســـكيمو فلابد أن أجـاري عاداتهم •

الهنود يعاذون في سكون

في العام التالي انتابت ألاسكا حمي شديدة بسبب ســباق الزحافات التي تجرها الكلاب • وكانت الجائزة الكبري للسباق الذي سيقام في فيربانكس في مارس تبلغ عشرة آلاف دولار ، وكنت أحب هذا النوع من الرياضة دائما ، فقررت أن أشــترك في السباق للفوز بالمبلغ الكبير •

وســـباق الزحـافات يتطلب قوة كبيرة ، اذ تبلغ مسافته عادة ١٥٠ كيلومترا تقريبا ، مما يجعل الاحتمال هاما مثل السرعة ســـواء بسواء • وأنت تجري أحيانا بجوار الزحافة ، وأحيانا تقف في وجه الذين خلفك ، أو تهبط سفح تل • واذا بدأت باثني عشر كلبا فعليك أن تعــود مع ١٢ (أي أن تضع أي كلب مصاب علي الزحافة لتعود به) ، وما أن يترك السائق خط البداية ، فهو وحده الذي يسمح له بوضع يده علي الكلاب ، وقد يضطر لتسلق شجرة فرارا من الدببة او الجـــاموس البري وتتناثر كلابه في كل اتجاه •

وأمضيت أغلب الشتاء في استعداد جاد ، بعد أن استعرت مجموعة من الكلاب حتي اخترت منهـــا ١٤ هي أفضلها جميعا ، وكنت أجعلها تسحب كتلة ضخمة من الاخشاب يوما بعد يوم حتي تبرز ألسنتها من التعب ،

لتدريبها علي الاحتمال وزيادة قواها، كما دربتها في البطاح المنبسطة علي السرعة وأنا أجري وراء الزحافة حتي تتقطع أنفاسى •

وكان سباقا قاسـيا طوله ١٥٠ كيلومترا •• وفي اليوم الاول سرنا في طريق سليم حتي معسكر التعـدين ، وما كدنا نصل الي هذا المكان الذي سنقضى فيهالليل، حتي واجهنامنحدر شديد الميل لاتفلح الفرامل في امساك الزحافة خـلاله • واصطدمت الزحافة بكلبي المؤخـرة ، فأصيبا اصابات سيئة حالت بينهما وبين العمـل ، واضطررت لفك زمامهمـا ووضعهما فوق الزحافة ، ومع ذلك جاء ترتيبي الخامس في ذلك اليوم •

وفي اليوم التالي ، انطلقنا عائدين الي فيربانكس وليس لدينا غير عشرة كلاب تجر الزحافة وكلبين فوقها •• وكان جهدا ضخما ، ولكننا عنـدما هبطنا الي الارض المنبسـطة علي مسافة ٨ كيلومـترات من النهاية ، أدركت أننا نقترب من المتسابقصاحب المركز الرابع • وكانت هنـاك جائزة قدرها ٥٠٠ دولار للفـائز الرابع • ودفعت هذه الـكلاب بكل قواي •• وأخذنا نتقـدم شيئا فشيئا حتي أصبحنا في الشارع الرئيسى – علي مسافة ألف متر فقط من نقطةالنهاية، وعندئذ ، أصيبت الكلاب التي تجـر الزحافة التي تسبقنا باعجاب مفاجيء بمضخة في محطة للبنزين ، فاتجهت نحوها رغم لعنـات سائقها وتهديداته وراحت تدورحول المضخة عدة مرات، وظلت كذلك حتي سـبقتها واحتللت المركز الرابع •

ولكنني عندما ذهبت لاسـتلام مكافأتي • قال لي مدير السـباق : « جيمي •• لانقود هناك ، فان المبلغ الذي جمع لايكاد يكفي غير الفائزين الثلاثة الاول فقط •• لقد أفلسنا ! »

ووقفت لحظة أفكر في تحطيم رأسه لذلك !• لقـد كانت فيربانكس مكانا غاليا جدا ، ولم يكن قد بقي معى من الالف دولار غير القليل •• وقد تملكتني ثورة عارمة بعد خيبـة أملي ولكني أعتقـد أنه ليس هناك ما يكفي من الرجل الابيض في عروقي •• فالهندي يعرف كيف يعـاني في صمت •• وهكـذا استدرت علي أعقابي •• وكانت الكلاب فيانتظاري•

ان أمامنا رحلة طويلة شاقة تبلغ **ألف كيلومتر !**

في خـلال سنوات قليلة أصيبت سيسليا بالسل الرئوي ، وقال الطبيب اننا لن نستطيع أن نفعل لها أكثر من

الامل ٠٠ ولكن الامل لم ينجح كثيرا، فقد ازدادت حالتهـــا سوءا ٠٠ ثم ودعت الحياة أخيرا ٠ وأخذت أترك كريستين بعد ذلك مع بعض أصدقائى أو أقاربي كل شتاء كلما ذهبت لنصب الشباك ، ولكنني ســرعان ما قررت أنها في حاجة الي أم ، وهكذا تزوجت بعد عامين فتاة تدعى دوروتي فرانك، وعشنا معا ١٢ عاما أنجبنا فيهـــا سبعة أطفـــال ٠٠ وكانت طوال تلك الفترة زوجة طيبة وأما صـــالحة ، ولا يطاوعني قلبي حتي اليوم لأقول شيئا سيئا عنها ٠٠ فلماذا هجرتنا؟ أود أن أعرف ذلك حقا ٠

وعندما مات التاجر الابيض ، اغلق أقرب متجر الينا وقال بعض الناس: «لماذا لا تفتـــــح متجرا جديدا هنا يا جيم ؟٠ اننا في حاجة الي متجر» وكانت الفكرة جذابة ، اذ أن صـــيد حيوانات الفراء كان يقل شيئا فشيئا ٠٠ ولكن لابد من نقود لفتح المتجر٠

واقترح بعض أصدقائى أن أجرب سباق الزحافات مرة أخري ٠ وكانت مسابقة بطولة ألاسكا الكبري تجري في فبراير كل عام وتعرض جائزة قدرها ٢٥٠٠ دولار ، كما أن ديربي زحافات أمريكا الشمالية الذي يعتبر أهم حدث خلال مهرجان «فيربانكس» في الشتاء يعرض نفس المبلغ ٠ وتطوعوا بعرض مساعداتهم علي ٠

ولم أدر بماذا أجيب ٠ لقد كنت صغيرا عندما اشتركت في ســـــباق الزحافات الاول أما الان فقـــد بلغت الاربعين - أي بعد السن المناسـبة للرياضة بخمسة عشر عاما ٠ ولكنني بعد أن فكـرت في الامر مليا قررت أن أحاول وبدأت التدريب علي الفور

وفي فيربانكس كان هناك أكثر من ٣٢ متسابقا ، وقد فزت في اليـــوم الاول ، وكدت أفوز في اليوم الثـاني أيضا لولا أن الكلب الجـــديد الذي يتولي القيادة تعثر قبل خط النهـاية وأصيب بعرج شديد حتي لم يعــد قادرا علي الســير ٠ وعندما فككت زمامه ووضعته فوق الزحافة ، كنت قد فقدت تقدمي وجئت الثـــاني في الترتيب ، وجاء اليوم الاخير ، وكانت المســافة ٥٠ كيلومترا والجو دافئـــا بصورة لاتبعث علي الارتياح ، وبدأت أزداد شعورا بأثر سني ، اذ أحسست بأوجاع في جســـمي نتيجـــة المائة والثمانين كيلومترا التي قطعتهـــا في الاسبوعين الماضيين ، فضلا عن أنني اضطررت الي اســتخدام (مانكي) العجوز في مكان قيـادة الكلاب ٠٠٠ وعنـــدما ذاع النبـــأ بدأ المقامرون

يتراهنون ضد فوزي ·

وكان سباقا قاسيا عنيفا ، اذ أثرت الحرارة علي أعصاب الرجال والكلاب ، وأخذت الزحافات تتوقف علي جانب الطريق واحدة بعدالاخري، ولم يبق غير ١٥ متسابقا قبل خط النهاية· وفي نقطة الفحص في منتصف الطريق كان جالاهورن يسبقني بأكثر من دقيقتين ، وأخذت أصيح وأحث الكلاب علي الاسراع فوق التلال ·· واستجابت الكلاب لندائى حقا ··

وعندما اقتربت من الزحافة الاولي وجدت أن قائدها هو جالاهورن،ولكنه كان في حالة يرثى لها ، مناضلا فقط من أجل الاستمرار حتي يفوز ببعض المبلغ المقرر للجوائز وظللت أواصل السير بكل قوة وسرعة ، حتي لاحت أمامي من بعيد مباني مدينة ،وتحتها خط أسود غير واضح ، لزحافة كلارنس شارلي·· وسرعان مااقتربت منه ، وكانت كلابي تتعثر في سيرها، ولكنها مازالت تواصل السير قدما··

وسبقت كلارنس قبل بلوغ خط النهاية مباشرة ، وعندئذ دوي هدير المتفرجين يصم الآذان ثم جذبني بعضهم بينما بدأ آخرون يفكون زمام الكلاب ·

وسمعت المذيع يعلن نبأ فوزي قائلا انني كسبت السباق بثمان وعشرين ثانية ·· وانني أصبحت بطلا لأمريكا الشمالية ·· وثالث رجل يكسب سباقي ألاسكا الكبيرين للزحافات ··

***

وكانت هذه هي الطريقة التي سارت بها الامور حقا : العمل ، وارشاد السفن ، والمتجر الجديد ، تحققت كلها ·· وفي عام ١٩٦٢ جاءت زوجة جميلة ومازلت ارتعد خوفا كلما فكرت كم كان من السهل ان اتخلي عن كلشيء واستسلم لليأس في الايام السوداء بعد الحريق ·· وهكذا اعتز بهذه الحياة الجديدة الطيبة ، وأخبر قومي انها شيء يمكن عمله ·· وقد تكون اصعب قليلا بالنسبة للهندي وقد تستغرق وقتا اطول قليلا ·· ولكنها شيء ممكن تحقيقه ·

وصف !

قال احد اعضاء النوادى فى لندن يصف الريف :

((انه مكان رطب ، تحلق فيه كل أنواع الطيور ... غير المطهية !))

تحقيق خاص للمختار

وراء القنبلة الهيدروجينية المفقودة في أعماق البحر

ان قصـــة البحث عن القنبلة الهيدروجينية المفقودة قرب الشاطئ الاسباني تعتبر من اغرب القصص البوليســية في هـــذا العصــر الذري ...



بقلم : جون هابل

رئيس التحرير المتجول للريدرز دايجست



كان الامر مأساة كبري ، وسرا كبيرا في نفس الوقت ، وربما كان معجزة نوعا ما ٠٠٠ لقد حدث في يوم عيد سان انطون ، القديس الشفيع لفيلاريكوس ، وهي قرية عتيقة فقيرة من قري صيادي الاسماك تقع في أقصى ركن في الجنوب الشرقي لاسبانيا ٠٠ وكان هناك شهود عديدون ، اذ اعتاد صيادو قرية « فيلاريكوس » وفلاحو قرية « بالوماريس » المجاورة منذ سنوات رؤية المشهد العظيم لتزويد الطائرات بالوقود كل صباح ، في السماء الصافية التي تعلو رؤوسهم ، وقد أصبح هذا المشهد أمرا عاديا لاهالي القري ، كناقوس الكنيسة الذي يدعوهم للصلاة ولكن هذا الروتين تحطم في الساعة العاشرة والدقيقة الثانية والعشرين من صباح ١٧ يناير الماضى ، عندما اصطدمت طائرتان تابعتان للقيادة الجوية الاستراتيجية الامريكية ، احداهما قاذفة قنابل من طراز (ب ــ ٥٢) والثانية ناقلة وقود نفاثة من طراز (ك ــ س ــ ١٣٥) ، وكان اصطدامهما علي ارتفاع ٩٥٠٠ متر ، وهما تحاولان الاتصال لتزويد القاذفة بالوقود ٠

وحدث انفجار رهيب ٠٠٠ كان صوته مرتفعا ، الي حد أن كثيرين ممن لم يشاهدوا هذا الاجراء اليومي

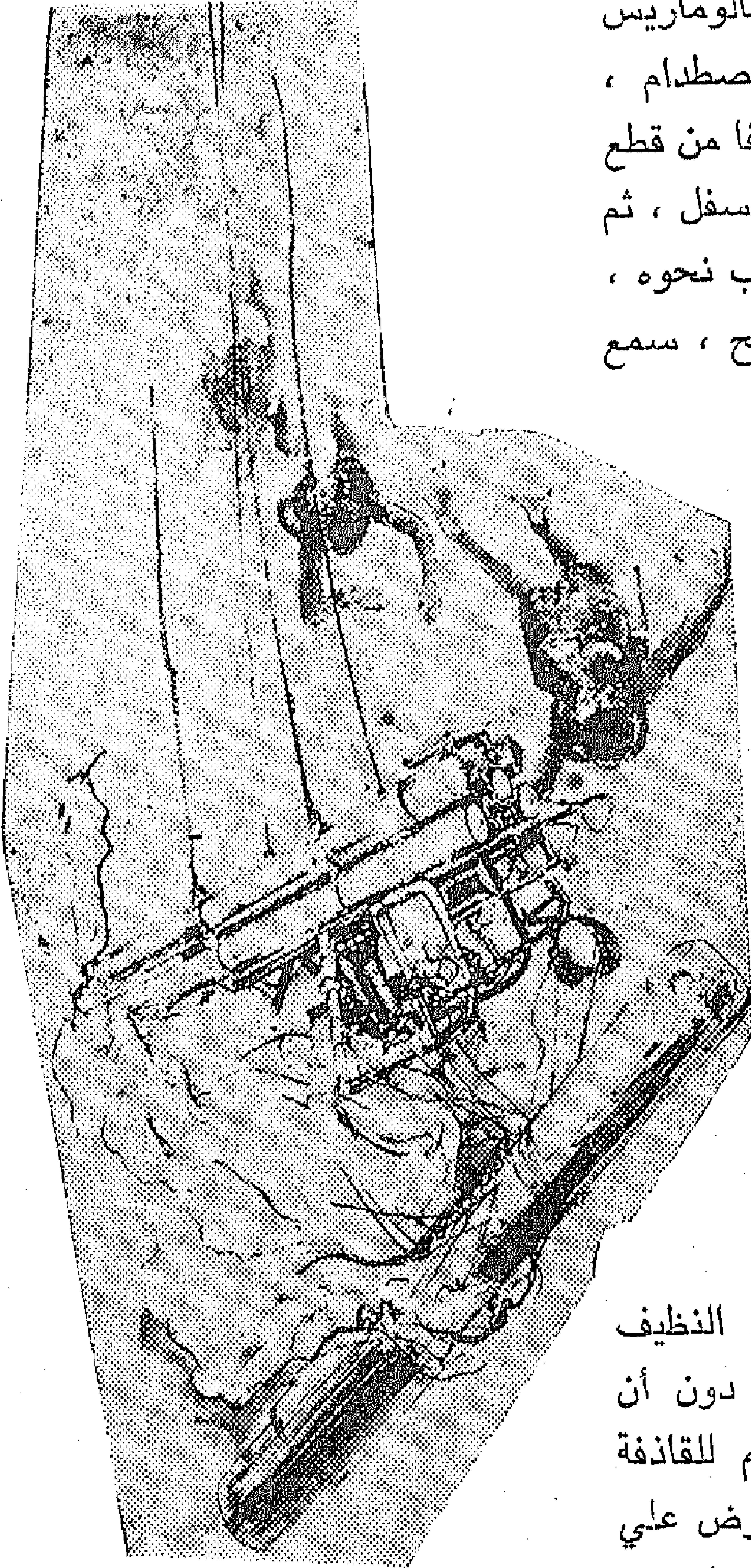
العادي ، هرعوا خارجين من منازلهم التي تقع علي مســـافة تســـعة كيلومترات ونصف كيلومتر الي أسفل ليروا ما حدث ٠٠ وشاهدوا القاذفة التي كانت قد تحركت خلف وتحت ناقلة الوقود مباشرة ، ثم بدأت تتحطم واختفت وراء سحابة هائلة من الدخان والنيران ، أما الطائرة ناقلة الوقود ، فقد بدت تهتز الي الامام لحظة ، قبل أن تبدأ في التفكك هي الاخري ٠٠٠ وتنـــاثر حوالي ٢٠٠ طن من حطام الطائرتين في ارجاء السماء ــ أغلبـه مغلف باللهب ــ ثم سقط نحو الذين وقفوا علي الأرض يرقبون المشهد فى فزع ٠

كان جوليو بونس نافاريت ــ وهو مزارع قصـــير متين البنيان ، في منتصف العمر ، يروي حقل الليمون المجاور لبيته في الطرف الغربي لقرية بالوماريس ، عندما رفع بصره الي أعلي في الوقت المناسب ليري الانفجار الهائل ، فوقف ثابتا في مكانه ٠٠٠ كانت الرياح تجرف كرات ضخمة من النـــار ، قادمة من السماء نحـــوه مباشرة !

وبحث عن زوجته ماريا في جنون ، فوجدها تروي زهور « الجيرانيوم » الحمراء التي زرعتها في الناحيـــة الجنوبية من المنزل ٠٠٠ وكانت قـد سمعت الانفجار ، ولكن المبني حجب عنها الرؤية ، فلم تستطع ان تري ما حدث ٠٠ وأشار جوليو الي السماء وصاح بها : « هناك نيران هابطة من أعلي ٠٠٠ تعالي » وجذب يد «ماريا» ثم هرعا بعيدا عن البيت ٠ ونظـر جوليو وراءه ، فبدا ان كتلة ضخمة من النيران ، سوف تستقر بكل تأكيد على سقف بيته ، ولكنها مرت في اللحظـة الاخيرة من فوقه ، وسقطت فـوق طريق ترابي ضيق يقع علي مســافة حوالي ٣٠ مترا وراء البيت ٠

وارتفع عمـــود سميك من الدخان وسط الحطـــام ، وعندما هرع اليه جوليو وماريا ، وجـــدا ثلاثة رجـال مربوطين في مقاعـدهم في جـزء من مقصورة القيادة بالطائرة ناقلة الوقود كان هناك اثنان لا يمكن مساعدتهما ، اذ كان واضحا انهما فقدا الحياة ، أما الثالث ، فانه رغم فقده للشعور، كان يتحرك ويئن في ضعف ٠ وحاول جوليو وماريا ان يصلا اليه ، ولكن النيران كانت شـــديدة جدا ، فبدآ يغترفان التراب ويلقيان به علي اللهب وبعد بضع دقائق ، اشار جوليو الي ماريا ان تتوقف ٠ كان الرجل قد مات ٠

وكان المزارع انطونيو سابيوتي جارسيا يعمل في حقله في واد فسيح قرب الطرف الشمالي لقرية بالوماريس عندما شاهد هو ايضا الاصطدام ، فوقف مذهولا ، وهو يري آلافا من قطع النيران الصغيرة تتدفق الي اسفل ، ثم اندفعت كتلة ضخمة من اللهب نحوه ، وبينما كان يطلق ساقيه للريح ، سمع صوت سقوط شيء مدو، واصطدمت بظهره موجة كبري من الحرارة ، ثم اجتاحته وتجاوزته ، ونظر خلفه في رعب رغم انه لم يصب بأذي، فرأي جناح القاذفة ب ٥٢ ـ ومحركاتها الاربعة تشتعل بالنيران ·



وكانت الكارثة الكبري أكثر قربا في وسط القرية ، فقد كان هناك ٥١ طالبا صغيرا ومعلمهم جوزيه مولنييرو وقد عكفوا علي دروسهم بمبني مدرستهم النظيف اللامع عندما سمعوا ، دون أن يروا ، جهاز الهبوط الضخم للقاذفة (ب ـ ٥٢) يسقط علي الارض علي مسافة تزيد قليلا علي ٣٠ مترا منهم وتفتحت مظلات هبوط متعددة

الالوان في السماء ، وكانت شـرائط بعضها ذات الوان برتقالية ـ حمراء وبيضاء ، في حين كانت الاخري رمادية وكان القليل منها يحمل رجالا وكانت مجموعات من رجال آخرين يمسكون اشياء لا يمكن تمييزها ، بعضها يندفع نحو البحر واستقرت مظلة في حقل « جوزيه توليدو آلاركون » ، وكانت تحمل جسما ضخما وهناك رجـــل مربوط داخلهـــــا باحكام ، ولدي اصطدامها بالارض ، سقط الجسم الي الامام بينما ظل الرجل راقدا ووجهه الي أسفل ، وصاحت امرأة : « انه ميت ! ٠٠ انه ميت ! »

وصاح جوزيه في غضب : « كيف عرفت أنه ميت ؟ لعلنا نستطيع أن نفعل شيئا ؟ »

واقترب جوزيه من الرجل وقلبه برفق ٠٠ لم يكن فاقد الحياة، ولكنه كان مصابا بجروح شديدة ، ويعانى ألما بالغا ٠ وكان هـذا الرجل هو الميجـــور ايفنز بوكانان الذي يبلغ الرابعـة والثلاثين من عمره ، وهو يعمل بسلاح الطيران منذ ١٦ عاما ويعمل ملاحا واخصائيـــا للرادار بالقاذفة ب ـ ٥٢ ٠ وعندما ضـغط على زر مقعده الذي ينطلق به بعيدا عن الطائرة ، انفجرت كوة منالجانب الاسفل للقاذفة ، ووجد بوكانان نفسه يندفع الى أسفل من خلال كرةالنيران المحرقة الناتجة عن الانفجار٠ وابتعد عن كرة النيران ، ولكنه لم يستطع تحرير نفسه من المقعـد المنفصل ، وبينما كان يتقلب فيالسماء ، استطاع أن يكافح ليخرج مظلته من بين ظهره والمقعد ، وفتحها ، ولكن ثقل المقعد الزائد الذي يبلغ حوالي ٩٠ كيـلو جراما، أنزله بسرعة بالغة ، فأصيب بكسر في عموده الفقري ، كما أصيب بحروق وجروح عميقـــة فوق عينه اليسري ، فضلا عما انتابه من صدمة ٠٠وظل يقول بصوت ضعيف : «انني أشعر ببرد شديد» ٠

وحاول جوزيه أن يسكن من روعه ثم وضعه بمساعدة رجلين آخرين في ســـيارة نقل صغيرة ذهبت به الى مستوصف قريب ٠

وفي الجو ، كان سبعة شبان على درجة عالية من التدريب قد قتلوا : انهم طاقم ناقلة الوقود بأكمـــله ، وثلاثة من رجال قاذفة القنابل ٠٠ وكان ثلاثة رجال قد تمكنوا بطريقة ما ـ بالاضافة اليبوكانان ـ منالخروج من القاذفة أحياء ، ورغم عاصـــفة القطع الفولاذية التي انهمـرت نحـو الارض كالمطر ، فان أحدا لم يصب

بأي أذي على الارض ، وكـذلك لم يصب أي حيوان أو مبنى ، وهو أمر أقرب الى المعجزات ٠

ولكن لم يكن كل ماهبـط من السماء ، أنقاضا أو رجالا ٠٠ فعند الطرف الشرقى لقرية بالوماريس ، اصطدم جسم ما بجدار حجري فى قطعة أرض مزروعة بالطماطم على مسـافة حوالي ٧٠ مترا من بيت «ادواردو نافارو بورتيلو» ٠ وحـدث انفجار هادر أتلف جزءا من الجدار، ومئات من أشجار الطماطم ، وأطار كل نافذة في بيت نافاريت ، وهرع ادواردو الى الشرفة مع بعض الرجال فوجد الجسم يحترق ، فأخـذوا يركلونه بعيدا وأهالوا التراب عليه، حتى خمدت النيران في النهاية ٠٠ ولم يعـرف ادواردو ان ماركله هو وأصدقاؤه٠٠ كان قنبلة هيدروجينية!

« السهم المكسور في اسبانيا ! »

وعلي الفـور اتصـل الجنرال الامريكي ويلسون من أسبانيا بمقـر القيادة الجوية الاستراتيجيـة في قاعدة أوفات الجوية قرب «أوماها» بولاية نبراسـكا ٠ وكانت الساعة ٤ر٣٥ صـباحا في أوماها ٠ ودق جرس التليفـون الموجود الى جوار فراش الجنرال تشارلس ايزنهـارت رئيس أركان حرب القيادة الجـوية الاستراتيجية ، وقال ويلسون: «سهم تحطم في جنوب شرق اسبانيا ! »

ان عبارة «السهم المحطم» معناها بالشفرة «**حادث نووي**» ٠

وأجاب ايزنهارت على ويلسـون بأن يطلب أية مواهب أومعدات تلزمه، على أن ترسل بأعظم سرعة مستطاعة ٠٠ فقـد كانت هنـاك ٤ قنابل هيدروجينية على ظهـر القـاذفة (ب ــ ٥٢) ولابد من استعادتها ٠٠ وبسرعة !

***

في خلال العشرين عاما التى مضت منذ انتاج الاسلحة الذرية ، أصيبت الولايات المتحدة بأحد عشر «سهما محطما» ، ولكن لم يحدث من قبـل أن وقع أي حادث فوق أرض أجنبية وكان مجرد التفكير في مثل هـذا الحـادث يثير الرعشـة في أطراف الزعمـاء الدبلوماسيين والعسكريين الامريكيين ، وقد أدرك الجنـرال سـتانلى دونوفان رئيس الهيئـة الاستشارية المشتركة للمسـاعدات العسكرية في اسبانيا ، أن الحادث مفعم بتعقيدات سياسية عميقة ، اذ كانت القاذفة السـاقطة ، عضوا في قوة الانذار ، وهي ذلك الجزء من

أسطول القيادة الجوية الاستراتيجية الذي يبقى محلقا في الجو باستمرار، على استعداد للتحرك ضد هدف معين في حالة تعرض الولايات المتحدة أو أي من حلفائها لهجوم ذري ٠

وهكذا كان اول اتصال قام به دونوفان ، هو مقابلة انجيير بيدل ديوك السفير الامريكي الذي انطلق على الفور لمقابلة وزير الخارجية الاسباني ٠ وكان من الضروري أن تبلغ الحكومة الاسبانية فورا بالحادث ، فأسبانيا صديق لامريكا ، وقد قدمت للولايات المتحدة قواعد جوية استراتيجية ، وسمحت لها بالتحليق فوق أراضيها ، كما عرضت مرافقها البحرية في(روتا) علي الساحل الجنوبي الشرقي كقاعدة لغواصات بولاريس عندما تحتاج اليها امريكا لعملياتها في البحر المتوسط ، اذا رفضت الدول الاخري في ذلك البحر ايواءها ٠

وفي نفس الوقت ، هرع عدد آخر من الرجال الذين استبد بهم القلق ، لمواجهة موقف لم يسبق له مثيل فى العصر الذري ، وتقرر ان تسترجع القنابل الاربع المفقودة بأسرع ما يمكن بوساطة باحثين يعرفون جيدا ماذا يبحثون عنه ٠ وهكذا بدأ الموظفون في جمع الارقام المسلسلة للاجزاء المكونة لكل قنبلة من الملفات السرية للجنة الطاقة الذرية الامريكية ووكالة الدفاع الذري ، ومطابقتها علي اسماء الرجال الذين صمموها واشرفوا علي صنعها ٠

كان هناك شيء واحد لا يثير قلق الرجال الذين يعرفون الحقيقة وهو حدوث اي انفجار ذري ، فان وسائل الامان التي اعدت لطرق نقل واستخدام الاسلحة الذرية الامريكية، وفي الاسلحة ذاتها ، تعتبر مضمونة الي حد انه لا يمكن حدوث اي انفجار عارض ، فالقنبلة الهيدروجينية الامريكية لا يمكن تفجيرها الا عمدا ٠٠ وهذه هي الطريقة التي تعمل بها :

لكي تنفجر القنبلة الهيدروجينية ، لابد اولا من ان تضغط المواد الذرية الموجودة فيها باحكام شديد ، ويتحقق الضغط بكمية محددة من مفرقعات شديدة مثل مادة (ت٠ ن٠ ت) تحيط بالقلب النووي ٠ ولابد من ان تنفجر المادة المفرقعة الي الداخل ، حتي تنتشر قوة متساوية تماما في انحاء المحيط الكلي للقلب النووي ولو حدث ان تفجرت المادة المفرقعة بطريقة غير متساوية ولو الي حد طفيف ، نتيجة حريق مثلا ، او من أثر اصطدام ،

فلن يحدث أى انطلاق للطاقة الذرية لانه لن يكون هناك ضغط متساو علي الكتلة النووية ، وفي مثل هذه الحالة فان موجة الصدمة الناتجة عن المادة المتفجرة ، ســوف تسعى فقط الي الخروج من السلاح ، وربما حطمت الغلاف ، وتناثرت المواد الاشعاعية ، ولكن القنبلة ذاتها لا يمكن ان تنفجر

في أعماق البحر

كان بارثولومي رولوان مارتينـيز ربان سفينة الصيد (دوريتا) يسير بسفينته في البحر علي مسافة ثمانيـة كيلومترات ونصف كيلومتر منساحل « فيلاريكوس » عندما شاهد عددا من المظلات الهابطة تتجه نحو الماء فصاح ببحارته قائلا : « اسحبوا الشباك » •

وقبل ان يتمكنوا من تنفيذ الامر كان هو قد اطلق العنان لمحرك الديزل الذي يسير السفينة ، مقدرا ان اقرب طيار سوف يهبط علي مسافة حوالي ميل منه ، آملا ان يتمكن من الوصول اليه قبل ان يغوص في الماء • وظن بحارة بارثولوميالستة أنه مجنون•• فكيف يمكنهم سحب الشباك الثقيلة وهو منطلق بالسفينة بأقصى سرعة ؟

•• ولكن بارثولومي أخذ يصيح : «اسحبوها» •

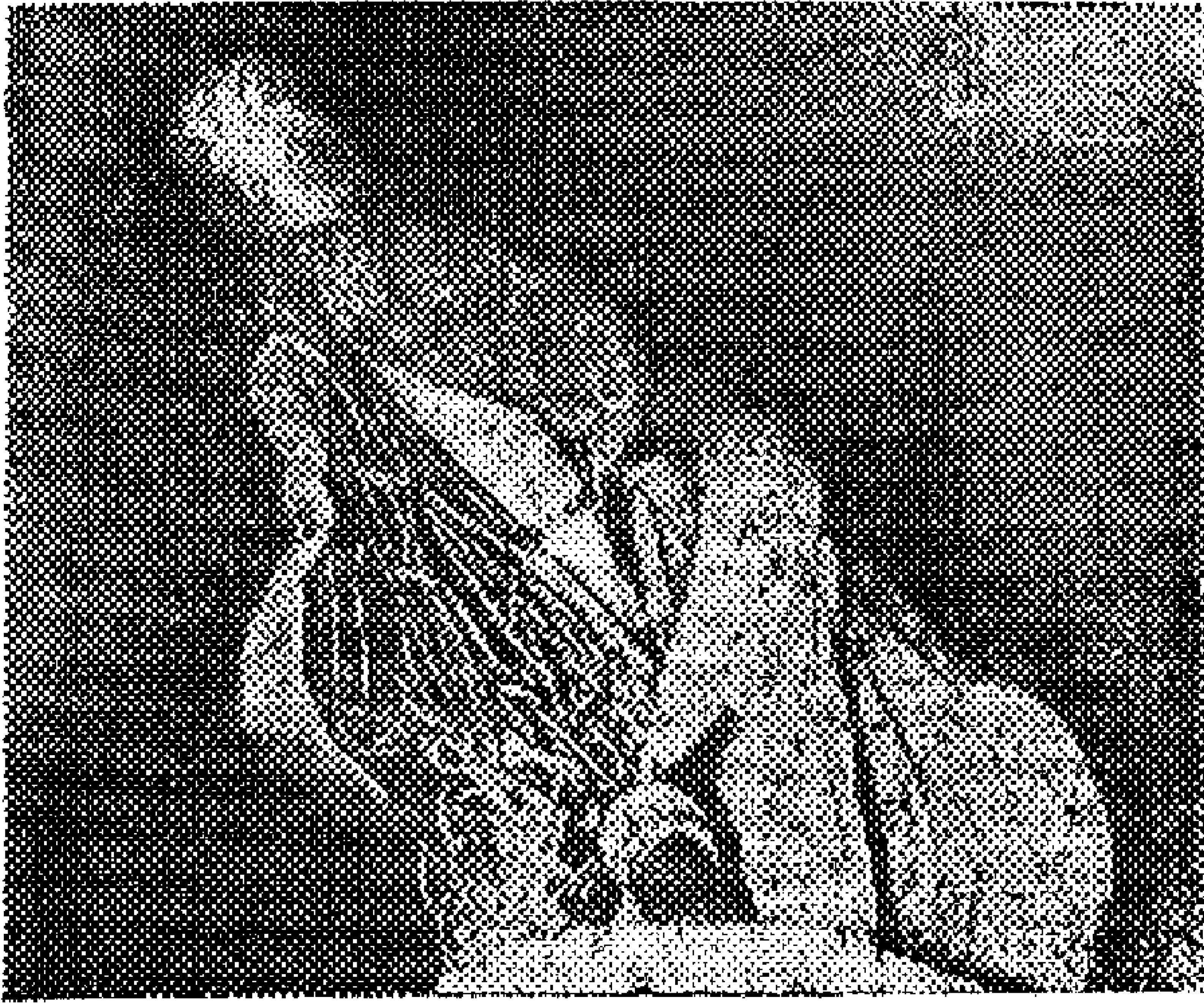
كانت الرياح القريبة من الشاطيء قوية ، لعلها تصل الي ٤٠ عقدة ، وكان البحر مضطربا والامواج عالية ، وعندما وصـل بارثولومي الي المكان الذي ظن ان أقرب طيار قد غاص فيه ، بدأ يدور فوق موجة عالية بعـد أخري ، وبحارته يبحثون عن الرجل في كل مكان ، وبعـد دقائق عديدة مشحونة بالقلق وجدوه ، فرفعـه بارثولومي الي ظهر السفينة ••وكان الرجل هو الكابتن تشارلس وندورف قائد القـاذفة (ب ــ ٥٢) وهو في الثلاثين من عمره، ولكن ذراعهاليسري كانت مكسورة • وعلي مسافة ١٨٠ مترا أخـري هبطت مظلة أخري ، فانطلقت السفينة « دوريتا » نحـوها وسرعان ما عثرت علي شخص آخـر أخرجه البحارة ووضعوه علي ظهـر السفينة •

وكان الرجل الثاني هو الملازممايكل روني ــ ٢٦ سنة ــ مسـاعد قائد القاذفة ب ــ ٥٢ وكان سعيد الحظ جدا لبقائه حيا ، فان مقعده المنفصل لم ينطلق من الطائرة ، ففك قيوده ، وهبط علي سلم من الحبال ، وشق طريقه علي يديه وساقيه في القاذفة المحترقة التي تدور بشـدة نحو كوة ملاح الطائرة المفتوحة ، وظلت الرياح والحركات العنيفة للقاذفة المحطمـة

تقذف به من جانب لآخر عدة لحظات يائسة ، ولكنه استطاع في النهاية ان يلقي بنفسه منهـا وان يفتح مظلة النجاة المعلقة علي ظهره ، وقد اصيب بجرح طويل عميق في جبهتـه ، وقد نزع ملاحو بارثولومي ثيابه ، وضمدوا جرحه ، وألبسوه ثيابا جافة ثم لفوه داخل ستة أغطية صوفية ٠

وكان فرنشيسكو اورتز سيمو ربان السفينة « مانويلا اورتز سيمو » التي تحمل اسم أمه يعمـل علي مسافة حوالي ثلاثة أميال خلف السـفينة « دوريتا » عنـدما رأى مظلتين في منطقته ، ولـما كانت احداهما تنجرف بعيدا ، فقد اتصـل باللاسلكي بابن عمه الفونسو الذي يعمل علي سـفينة اخري ، لكي يتجه نحوها ، والواقع أن الفونسو كان قد أطلق العنان لمركبه فعلانحو المظلة الهابطة والتقط الطيـار بمجرد لمسه للماء ، وكان هو الميجور لاري ميسنجر ـ ٤٤ سنة ـ وهو طيار بالقيادة الجوية الاستراتيجية ، كان مساعدو وندروف فيالمهمة الطويلة،ولم يصب ميسنجر بأي جرح ٠ أماالمظلة التي انطلق فرنشيسكو سيمو نحوها فكانت تهبط بسرعة ، وبدا أنالجسم الذي تحمله ليس رجلا، بلكان جسما اسطواني الشكل صلبا ذا لون فضى،

وقد رآه سيمو يصطدم بالماء ، ولكنـه عندما بلغ البقعة التي سقط فيها لم يجد شيئا ٠ وكان واضحا أنه شيء هام ، نظرا لانه كان مربوطا بمظلة نجاة ٠٠ ودفعه تفكيره الي أن يرسم خطوطا



.. كان واضحا انه شيء هام ..
نظرا لانه كان مربوطا بمظلة نجاة

للاتجاه من نقط في الشمال ، وقطعها بخطوط من نقاط في الغرب ٠٠٠ وقد أكسبه هذا العمل البسيط فيما بعد شهرة عالمية ٠

علي يديه وساقيه !

وقبل ان يحل المساء ، كانت كل أجزاء الحطام الكبيرة قد جمعت ، ووضعت جثث الطيـارين السبعة في نعوش ونقلت الي مقبرة صغيرة علي تل وراء مزرعة جوليو نافارو ، لتبقى

هناك الي ان يأتي الامريكيون في طلبها ٠٠ وفي ذلك الحين ، كان قد علم ان أحدا علي الارض لم يصب بجراح ، واتفق الجميع علي ان القديس سان انطون دي اباد قد حقق معجزة !

كان الظـلام قـد حـل عندما عاد الجنرال ويلسـون الي بالوماريس ، وكان الجنرال دونوفان قد وصل من مدريد ، فاتجه الرجلان وبعض كبار الضباط الي المكان العـام المضيء في تلك المنطقـة ، وهو حانة صغيرة تضاء بالمصابيح الزيتية ، لكي يضعوا خطط استعادةالقنابل الضائعة وكان من الممكن ان تكون قد تناثرت علي مسافة عدة كيلومترات في هـذه المنطقـة الريفية الوعرة ، اذ يتوقف ذلك علي ما اذا كانت مظلاتها قد فتحت أم لا ٠٠ ولكن لم يكن من المستطاع اجراء تفتيش فعـال خلال الظلام ، وتقرر احضار طائرات هليكوبتر من (دورون) ، ويبدأ البحث الارضي والجوي بمجرد بزوغ الفجر ٠

وجاء أحد رجال الحرس الاسباني وقال انه وجد ما يعتقد انه قنبلة علي مسافة حوالي ٤٥٠ مترا من قاع النهر الجاف علي مقربة من البحر ، وعلي مسـافة حوالي ١٢٠٠ متر من ذيل القـاذفة ب ـ ٥٢ ٠ واكد رجال الصيانة من فرقة السـيطرة علي الكوارث ان هذه احدي القنـابل الهيدروجينية ، وكانت سليمة تماما ، فوضع عدد من رجال البوليس التابع للسلاح الجوي الامريكي حولها الي ان يتسني وضعها في صندوق وازالتها من هذا المكان ٠

وقد ادي اكتشاف هذه القنبلة الي ارتفاع الروح المعنوية ، واعتقد أغلب الموجودين انكل القنابل سوف تكتشف سريعا ، كما ان حطام الطائرة يمكن نقله في أيام قلائل ، ولاشك انها ستكون عملية تنظيف روتينية ٠

وعاد الجميع الي مكان قاع النهر عند الفجر ، حيث انتشرت ثلاث فرق للبحث ، تضم حوالي ٦٠ من رجال الحرس المدني الاسباني في جبهـة يبلغ اتسـاعها حوالي ميل وطائرات الهليكوبتر تحلق فوقهـم ، وبدأوا بالسير من خط يقع علي مسافة ثلاثة كيلومترات شمالبالوماريس ، متجهين نحو خط علي مسافة اربعة اميـال من الساحل ٠٠٠ وكانت عمليـة شاقة ، فهناك مئات من الفدادين من الحقـول المزروعة ، أغلبهـا يفيض بطماطم ناضجة علي اشجارها التي تتسلق آلافا من التكعيبات الصغيرة ٠

وتحركت خطوط البحث ببطء ، اذ

كان لابد من تفتيش كل نبات والارض التي تحته ، وكان عملا شاقا قـذرا علي الايدي والسيقان ، وتصبب الرجال عرقا وتمزقت ثيـابهم العسكرية ، وخدشت ذقونهم ، واخذوا يطلقـون اللعنات وهم ماضون في عملهم ••• وكانت هناك أيضا حقول من الفاصوليا والبرسيم والقمح وكان هناك سـدود يجب تسلقها ، وقنوات صـغيرة مختفية تبلل ملابسهم • وثمة مجموعة من تلال منخفضة تحيط بأغلب البلدة قاحلة تماما حتي لتبدو وكأنها من جبال القمر ، وكانت سحب من غبار خانق ترتفع ، بينما كانت خطوط الباحثين تصعد هذه التلال ، وهي تدس عصيا في أعماق أقل حـز في الارض ، قد يكون حفرة تغوص فيها القنبلة •

وخلال ساعات قليلة ، عثرت طائرة هليكوبتر علي قنبلة هيدروجينية ، ثانية ترقد في حقل خلف المدافن ، ثم عثرت احدي فرق البحث علي قنبلة ثالثة ، وهي القنبلة التي سـقطت بجوار حقل طمـاطم ادواردو نافارو عند الطرف الشرقي للقرية • ورغم الصعوبة التي لاقاها الباحثون ، فقـد بدا ان البحث سوف ينتهي الي نجاح كامل سريع •

ولكن بقيت قنبلة لابد من العثور عليها ،في الوقت الذي نقلت فيـه جثث الطيارين السبعة بالطائرة الي مدريد في الليلة التالية للحادث •

وبعد ظهـر ذلك اليوم ، أخذت فرق البحث تسير من الغـرب الي الشرق خطوة خطوة فوق نفس الارض التي فتشوها في الصباح من الشمال الي الجنوب ، ولكن القنبلة الرابعة لم يعثر عليها في أي مكان •

وفي ذلك الحين كان محققو حوادث السلاح الجوي قد سألوا عشرات من الشهود ، وأخـذت فرقة الحوادث النووية القادمة من (البوكيرك) تراجع شهاداتهم بدقة ، وكان أكثر الاوصاف التي ذكرت للقنبلة الضائعة احتمالا، هو الوضع الذي ذكره صياد الاسماك فرنشيسكو سيمو أورنيس ، فاذا كان صحيحا ، فانهـا لابد أن تكون قد غاصت في أعماق الماء مسافة حوالي ٩ كيلومترات ، ولكنـه قد لا يكون علي صواب ، فانه لا يعرف شكل القنبلة الهيدروجينية، وكثيرا مايرتكب الناس أخطاء في ظروف التوتر والتأثر

سرب التطهير

وفي نفس الوقت كانت عملية ازالة آثار التلوث الذري تجري علي قدم وساق ففي ١٩ ينـاير ، وصلت الدفعة الاولي من موظفي مكتب الطاقة

الذرية الاسباني الي بالوماريس ، حتي تجمع منهم ٢٣ برئاسة البروفسور ادواردو راموس رودريجيز

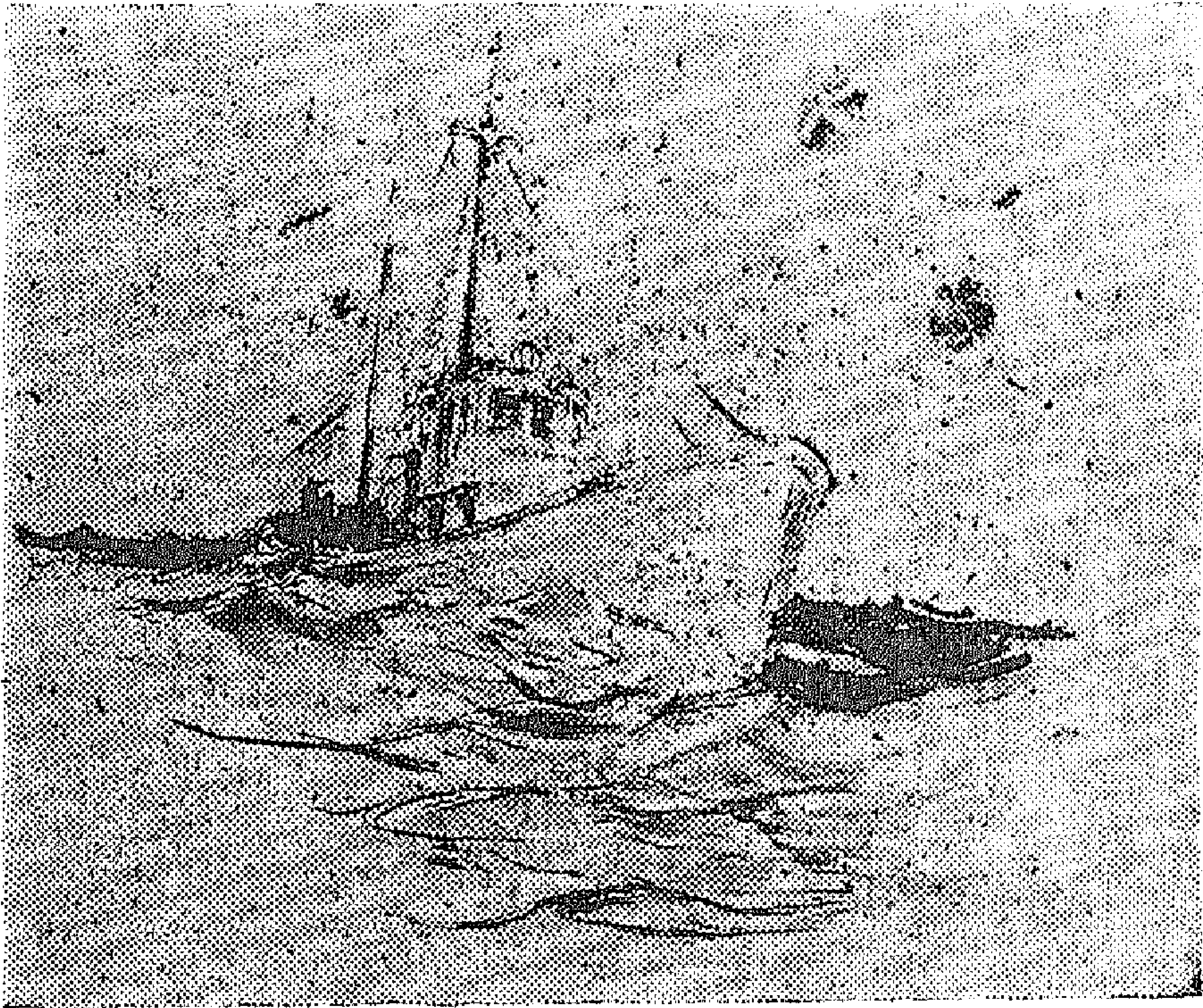
وأنشأ الخبراء – وهم يضعون أقنعة علي وجوههم – دوائر للفحص حول كل فجوة ، ثم رسموا خطوطا من الدائرة بين كل منها والاخر ١٥ درجة ، وانقسم الجميع الي فرق يضم كل منها رجلين ، أحدهما من مكتب الطاقة الذرية الاسبانية والثاني من خبراء السلاح الجوي الامريكي، وشرع كل فريق للعمل علي طول كل خط من هذه الخطوط · وكان كل فريق يحمل عدادا لاشعة ألفا ، وهو جهاز في حجم صندوق الاحذية ، به مؤشر في أعلاه ، متصل بسطح حساس مسطح بوساطة سلك قصير، وكان أحد الرجلين ينظر الي حركة المؤشر ويريها لزميله الذي يسجلها فورا ، ثم يسيران ١٢ قدما ، وينظران مرة أخري الي المؤشر ، ويظل الاثنان سائرين بهذه الطريقة الي أن يظهر المؤشر أنه ليست هناك اشعاعات ، وعندئذ يغرسان وتدا ترفرف فوقه راية حمراء ، وكانا يرسمان خطا للصفر بالنسبة للتلوث، من وتد الي آخر ، ثم يجري تطهير المنطقة التي بينهما ·

كان عملا بطيئا يحطم الظهر ، ولاسيما أنه يتطلب الانحناء خلال حقول مليئة بالحاصلات وخلال أخاديد وهوات منحدرة صعودا ونزولا فوق تلال وعرة ، وفوق البيوت ، وقد صدرت الاوامر برش ستة منها بالماء وطلائها بالجير تماما · وكانت هناك مسائل معقدة ، فالرياح العاليةنشرت الغبار الملوث ونقلته الي مسافات بعيدة ، ولمنع الغبار من التطاير ، قامت ١٦ سيارة لنقل الماء برش٤٧٠ ألف لتر كل يوم فوقه ·

ولا يستطيع الانسان أن يفحص أكثر من نصف هكتار يوميا ، اذا عمل بأقصى ما يستطيع من سرعة ودقة من الشروق الي الغروب ، وقد تطلب الامر حوالي ثلاثة أسابيع لتحديد المنطقة الملوثة ، وهي شبه مستطيلة ، اتساعها حوالي ١٢٠٠متر وطولها أكثر من ٣٠٠٠ متر ، وفي داخل هذا المستطيل كان هناك ٣٨٥ فدانا مزروعة ، تمثل ٨٥٤ قطعة مستقلة من الارض يمتلكها ٨٥٤ شخصا مختلفا !

وكان لابد أن يجري تطهير المنطقة الملوثة وفقا لاقصى معايير الامان التي وضعتها كل من أمريكا واسبانيا ، وقد تطلب ذلك كشط أضأل قطعة من

التربة المشعة من الريف ونقلها الي منطقة دفن المخلفات الذرية القريبة من (آيكن) في ولاية كاليفورنيا الجنوبية ، كما أخذت الحاصلات الزراعية ودفعت أثمانها لاصحابها وقع حادث سقوط طائرتين ، وفي يوم ٢٠ يناير ، ذكرت أن قاذفة القنابل كانت تحمل أسلحة ذرية غير مسلحة وأن عملية المسح الاشعاعى أظهرت أنه لا خطر في المنطقة ، ولم تذكر



اشتركت سفينة أبحاث المحيط (داتون) فى اعداد قالب من المصيص لقاع البحر ..

وكان الطعام صالحا للاكل في أمان ولا يحتاج الا لغسله ، وقد اضطرت القوات العسكرية الموجودة في المكان الي أكل جزء كبير من هذه الحاصلات.

منع نشر الانباء

أعلنت الولايات المتحدة فورا أنه السلطات شيئا عن فقد قنبلة هيدروجينية ، فقد كان من الحماقة اعلان أن بعض الاجزاء السرية قد تكون راقدة في مكان ما، كما كان هناك أمل في سرعة استعادة القنبلة .. وعند هذا الحد ، توقفت اذاعة الانباء،

لاغراض عملية ، اذ كانت الحكومتان الامريكية والاسبانية تشعران بانزعاج شديد للنتائج الاقتصـــادية المحتملة لو أن الحادث أحيط بدعاية واسعة٠٠ فهلتستمر بقيةأوربا – بلواسبانيا – في شراء الفاكهـــة والخضر المزروعة في بالوماريس ، والاسماك التي تصاد علي مقربة من شواطيء فيلاريكوس؟ وماذا يحدث للسياحة في اسـبانيا ، وهي من أكبر موارد دخلها – وقد قدر في عام ١٩٦٥ بحوالي ١٥٠٠ مليون دولار ؟

ولكن سياسة التكتم والســـرية ، زادت اهتمام مخبري الصحف حدة ، ومع ذلك فان اســـبانيا لم تتكلم ، واحترمت الولايات المتحدة رغبـــات حليفتها ٠

كانت المنطقة التي قدر انها أكثر الاماكن احتمالا لوجود القنبلةالضائعة فيها ، عبارة عن دائرة يبلغ قطرها أكثر من ثـلاثة كيلومترات ، تتناثر فيها أراضي المزارع كما تحوي تلالا قفراء ، وتغمرها مداخـــل وفتحات مناجم قديمة ومهجورة ٠٠ وذات يوم وقف أكثر من ٣٠٠ رجل صفا واحدا جنبـا الي جنب ، وبدأوا يتحركون ببطء عبر هذه الارض ، وأمام أدنى انخفاض مشكوك فيه في الارض ، وكل حفرة ، وكل بئر أو فتحة منجم ، كانوا يضعون أوتادا ورايات حمراء٠ وكان هناك حوالي ٤٠٠ من مثل هذه المعالم ، وبعـــد ذلك أنزلت طائرات الهليكوبتر رجال ســـلاح المهمـــات الذين بدأوا مهمة شاقة ، فقد هبطوا بالانوار في كل منجم قديم ، ونزلوا في كل بئر ٠

وقد تطلب الامر حوالي ٧ ساعات من فرق البحث ، لاتمام فحص خط واحد من الشمال للجنوب ، ثم تقوم بالبحث مرة أخري من الغـــرب الي الشرق ، وقد تم تفتيش المنطقة ثماني مرات ، كل مرة بدقة أكثر مماسبقها ٠٠ وازداد الشك قوة في أن الصياد سيمو قد رأي القنبلة وهي تسقط في البحر حقا ٠

بوليس سري تحت الماء !

في يوم ٢٢ يناير ، أي بعد حادث الاصطدام بخمسة أيام ، لجأتالبحرية الامريكية الي معهد علم المحيطات في (وودز هول) بولاية ماساشوستس وسألت الدكتـــور ايرل هايز مدير الابحاث التي تجـــري علي أعماق بعيدة في البحر عما اذا كان جهـاز الغوص المملوك للمعهد ، والمعـــروف باسم « آلفين » يمكن أن يساعد في البحث عن القنبلة الهيدروجينيـــة ،

المفقودة ؟ وهذا الجهاز عبـارة عن سفينة تجارب طولها٧ر٦مترا تستطيع الهبوط الي عمق ٢٢٨٥ مترا ٠

ولكن جهاز الغوص لم يكن مصمما للقيام بأعمال استخراج أشـيـاء من الماء ، وحتي اذا عـثر علي القنبلة المفقـودة ، فان «آلفين» لن تستطيع رفعها ، والواقع أن أحدا لم يكن علي ثقة من وجود أي جهاز يستطيع رفع القنبلة ، فلم يسبق اخراج أي شيء من مثل هذه الاعماق ، التي تتجاوز ٦٠٠ متر ٠

وقرر الدكتور هايز ، والدكتـور بول فاي مدير معهد وودز هول ، وقائدو «آلفين» الثلاثة : وليم ريني ، وفالنتين ويلسون ، ومارفين ماكاميس أن «آلفين» يجب أن تذهب ، فلابد من العثور علي القنبـلة المفقودة ، ولابد أن يقوم جهـاز الغوص بما يستطيع القيام به ٠

وفي ٢٣ ينـاير ، تولي الاميرال وليم جيست قيادة الجزء البحري من عمليات البحث عنالقنبلة واستعادتها، و «جيست» هو نائب قائد القـوات البحرية الضاربة والمساعدة في جنوب أوربا ، وجاء في اليـوم التالي الي بالوماريس ، وقام بجولة استطلاعية في طائرة هليكوبـتر ، وهو يدرس نماذج الانقاض من ارتفاعات مختلفة فوق الارض والبحر ثم حدد منطقة البحث التي تبلغ ٣١٠ كيـلومترات مربعة ٠

وانضم الي وحدة الاميرال جيست ١٣٠ منالضفادع البشرية والغواصين الذين جمعوا من أسطولي الاطلنطي والبحر المتوسط ٠

وكانت سفينة أبحـاث المحيط (داتون) التابعة للبحـرية ، تفحص بأجهزتها محيط قاع المنطقـة التي يجري فيها البحث ، وسرعان ما كان لدي الاميرال جيست قالب منالمصيص لقاع البحر ٠٠ وكان مشهده مروعا، فقاع البحر كان عبارة عن صورة من الارض الوعرة التي تقـع وراء قرية بالوماريس ، وفي الجنـوب الشرقي من منطقة البحث كان هناك واد ضيق تحت البحر ، ينحـدر في هاوية الي أسفل ، حتي يصل في النهاية الي عمق أكثر من ٢٧٠٠ متر ٠ وكانت تلك منطقة منحدرات مائلة وأخاديد٠

وعلي أساس النتائج التي كشفت عنها أجهزة الاسـتماع ، ونماذج الانقاض ، ضغط جيست بصفة مبدئية منطقـة البحث الي ٧٦ر٧٠ كيلومترا مربعا ٠ واستقل فرنشيسـكو سيمو ظهر كاسحة ألغـام ، وقاد الاميرال

الي المكان الذي قال انه رأي القنبلة تسقط فيه بالضبط • وبعد أن حدد جيست هذا المكان علي خـريطة ، رسم حولها دائرة قطرها ميـل •• تلك كانت (ألفا-١) - وهي أكثر المناطق احتمالا بوجود القنبلة فيها•• وعلي مسافة أقرب من الشـاطيء ، كانت هناك (ألفا - ٢) حيث وجد أكثر الطعام ، وحيث يمكن أن تكون القنبلة قد سقطت اذا لم تكن مظلتها قد فتحت تماما ، أما منطقتا «برافو» و «شارلي» فكانتا تمثلان نهاية مسار القنبلة اذا كانت القنبلة قد تحطمت خلال الاصطدام •

ووضعت بعـد ذلك خطة البحث البحـري ونظمت بمراعاة الاعماق ، وتقـرر البحث حتي عمق ٢٤ مترا بوساطة الضفادع البشـرية اعتمادا علي ابصارهم ، ومن عمق ٢٤ الي ٤٠ مترا ، يقوم بالبحث الضـفادع البشرية وكاسحات الالغام ، وأجهزة البحث الالكترونية السمعية ••

ومن مسافة ٤٠ الي ٦٠ مترا ، يغوص السـباحون الذين يعملون من (سيلاب-٢) وهي عبارة عن أسطوانة طولها ١٧٫٣ مترا تابعة للبحرية بها مكان لعمل ، ومطبخ ، وأسرة للنوم، تساعدهم كاسحات الالغـام وسفن أخري مجهزة بعدسات تليفزيونيـة وأجهزة استماع تحت الماء ، بالاضافة الي أجهزة البحث في قاع المحيط ، والغواصة الصغيرة بيري التي تتسع لرجلين فقط •

وعند عمق يتراوح بين ٦٠ و ١١٥ مترا ، يعمل الغواصون ذووالخوذات مع المعدات السـابقة ، اما الاعماق التي بعد ذلك ، فيعمل فيها رجال في أجهزة غوص ، مستخدمين أجهزة البحث فيقاع البحر ، وجهازالاستماع الخاص بالسـفينة (ميزار) • وقد هبطت الغواصة الصغيرة بيزي حتي ١٨٠ مترا ، وتحت هذا العمـق استخدم الباحثون جهـاز الغوص « آلفين » وزميـله «اليومينوت» • وهذا الجهاز الذي يزن ٧٥ طنا وطوله ١٥٫٥ مترا صمم لكي يعمـل علي أعماق تصل الي ٤٥٠٠ متر ، وجهز بتليفونات وأجهزة اسـتماع وأضواء كاشفة وعدستين للتليفزيون ، تعمـل كلها تحت الماء •

ولكن رغم كل المواهب والمعـدات العجيبة التي اشتركت في العمـل ، فقد وجد الاميرال جيست نفسـه يعقد قياسا يثير الخوف : ان البحث تحت البحر سيكون أشبه بالسير في تلال وعرة مظلمة في ليلة بلا قمر ،

وأنت تغطي احدي عينيك ، وتنظر بالاخري من خلال أنبوبة طويلة جوفاء ، وببطارية صغيرة كالقلم ٠٠ تبحث عن شيء أشبه بعلبة حساء من الصفيح !

ارتفاع ٠٠ وانخفاض الروح المعنوية!

ولكن الروح المعنوية في القري كانت أكثر انخفاضا ، فمع كل جهد يبذل في البحث ، لم يفكر أحد في أن يشرح الامور للسكان ، وبينما كان الرجال العسكريون يقومون بالعمل ، كان أعضاء الحرس الوطني الاسباني وجنود السلاح الجوي الامريكي يمنعون الفلاحين من الذهاب لحقولهم التى كانت مستعدة للحصاد ، ولمنع الحوادث ، قام الاسطول الامريكي والاسباني بابعاد صيادي الاسماك عن مناطق صيدهم ، وكان الرجال الذين يرتدون حللا بيضاء ، ويضعون علي وجوههم أقنعة بيضاء ، وفي أيديهم قفازات يعملون في كل مكان بأدواتهم، بينما كانت العصى ذات الرايات الحمراء ـ علامة الخطر ـ تغرس في الحقول ٠٠ ثم دعا موظفو مكتب الطاقة الذرية الاسباني الاهالي الي بالوماريس حيث فحص كل منهم بوساطة الادوات ، وأخذت عينات من بولهم وأمروا بالاستحمام وغسل ثيابهم ، وأن يحاولوا عدم استنشاق الكثير من الغبار ٠

وكان الرجال الخاملون يتجمعون في الميدان والحانات ليزداد قلقهم ٠٠ كانوا يستمعون الي أجهزة الراديو ، حيث تطمئنهم اذاعتهم المحلية بأن كل شيء علي مايرام ، ولكن هذا الكلام لم يستطع أن يقوم بعمل مضاد لاذاعات محطة الاذاعة الاسبانية المستقلة التي تلتقط اذاعاتها في اسبانيا من براغ حيث يديرها الشيوعيون ، والتي كانت تقول أن الشعب الاسباني ضحية كارثة كبري ، وأن القنابل النووية الامريكية قد لوثت حقولهم وأسماكهم باشعاعات قاتلة ، وستجعل أطفالهم يولدون مشوهين ٠

وبدأت موجة الخوف تزداد قوة واتساعا ، فعاد البعض الي بيوتهم حيث أحرقوا ثيابهم ، وأخذوا يستحمون بلا انقطاع ، وأرسل آخرون أطفالهم ليعيشوا مع أقاربهم في مدن بعيدة ، وفكر كثيرون في الرحيل عن المنطقة الي الابد ٠٠ ولكنهم كانوا يتساءلون : تري هل فات الوقت لذلك ؟ ٠٠ وهل أصابتهم الاشعاعات الذرية التي لا يستطيعون رؤيتها أو سماعها أو شمها أو الاحساس بها ؟٠٠ ومتي يموتون

يا ترى ؟

وفي ذات ليلة ، اتجه الكولونيل هنري هيرش - الذي قضى يومه كله في الحقول وامتلأت ثيابه بالتراب والقذارة - بسيارة الجيب الى بالوماريس لاحضار الكابتن جو راميريز أحد القانونيين بالسلاح الجوي ممن يعرفون اللغة الاسبانية ، والذي كان يساعد على انشاء مكتب للتعويضات يستطيع الفلاحون الحصول منه على ثمن محصولاتهم • ووجد هيرش راميريز في الحانة ، وفي أحد أركان القاعة جلس ١٤ من رجال القرية • وقال راميريز : « انهم في حالة رعب مميت ، فهم يعتقدون أن أرضهم قد تسممت وأنهم ربما أصابهم التسمم هم أيضا ، وقد قرروا جميعا الرحيل » •

وتطلع هيرش الى الجماعة •• كانوا جميعا صامتين يحدقون فيه •• ومد هيرش يديه وأخذ يمر بهما على حذائه المليء بالطين والتراب ، وثيابه القذرة ، ثم دعك التراب والغبار على وجهه ، فقد كان يدرك أن أخطاء التلوث المؤذي للصحة قد تلاشت منذ زمن بعيد ، وتنهد الفلاحون وتنفسوا الصعداء ، وعادوا الى الجلوس وتبادلوا النظرات ثم ابتسموا ، وبدأوا يطلبون كؤوس الشراب ، وتقدم بعضهم الى البار ليعقد صداقة مع هيرش وراميريز ، بعد أن قرروا البقاء في القرية •

وذات ليلة استدعى رؤساء عائلات القرية الى اجتماع في دار السينما الصغيرة بقرية بالوماريس ، حيث أكد لهم الجنرال ويلسون أنهم في أمان ، وسينالون تعويضا عن حاصلاتهم ، كما أمر باستخدام أكبر عدد ممكن من العمال المحليين حتى يتفرغ أكبر عدد ممكن من الجنود للبحث •• وبدأت الروح المعنوية ترتفع ثانية •

سر عميق

جاء جهاز الغوص «آلفين» بالطائرة وجهاز « اليومينوت » بالبحر حيث وصلا الى بالوماريس فى ١٠ فبراير

وأخيرا بدأت (الفين) و(اليومينوت) الغوص في ١٥ فبراير • وكانت هناك سفينة صيد سوفيتية بها معدات اصغاء كثيرة ، تقف على مرمى الافق فأرسل الاميرال جيست دوريتين لحراسة منطقة البحث •

ولم يجد الباحثون شيئا في المكان الذي قال الصياد سيمو انه شاهد القنبلة تسقط فيه ، فأرشدهم الى مكانين آخرين بين كل منهما والآخر

عدة مئات من الامتار وكانت المنطقة العامة قد رسمت في مربعات مساحة كل منها ٩٠ مترا مربعا ، وتقرر ان يقوم كل جهاز للغوص بالبحث فيمربع منها كل يوم ، ولكن ثبت ان ذلك مستحيل ، اذ كانت الرؤية سيئة للغاية ، وكان قاع البحر وعرا لايمكن فحصه بسرعة ، وكان لابد من اخراج الجهازين كثيرا لاعادة شحن بطارياتهما .

كان جهازا الغوص يبقيان علي مسافة قليلة من القاع يفحصان الاعماق المظلمة بأجهزة الاستماع والاضواء الكاشفة القوية ، ولم يكن الرجال القابعون داخلهما يرون الا نادرا أكثر من ثلاثة أو أربعة أمتار ، فاذا استقر أحد الجهازين أحيانا علي القاع كان مدي الرؤية ينعدم حيث ينفجر سحاب كثيف ضخم من الغرين الرقيق كالمسحوق الذي يوضع علي وجوه النساء ، فاذا كان هناك تيار في المنطقة ، فانه يبدد السحابة في ٢٠ دقيقة ، والا بقي معلقا عدة ساعات .

كان قاع البحر في تلك المنطقة ضحلا مليئا بالاخاديد المدببة الاطراف السفلي ، من أثر سفن الصيد ، التي تسير في كل اتجاه، وكانعلى جهازي الغوص أن يتبعا الاخاديد التي يثير شكلها الشكوك .. ولم يكن هناك أنقاض كثيرة في تلك المنطقة ، مجرد برميل زيت بين حين وآخر أو علبة صفيح ، أو قطعة من حطام طائرة .. وكان آخر كشف هام ، هو مطبخ قاذفة القنابل ، ولوحا من أحد الاجنحة عرضه ثلاثة أمتار وطوله ٩¾ مترا وقد كشفت على مسافة خمسة كيلومترات من الشاطيء .

وظل جهازا آلفين واليومينوت يجوسان عدة أسابيع في ذلك العالم الساكن ليلا ونهارا ، يبحثان كل خندق وأخدود وهاوية ، ويصعدان كل تل وجبل تحت الماء ، ولم تكن العمليات تتوقف الا بسبب اشتداد الامواج أو للنوم أو اعادة شحن البطاريات بينما كانت السفن علي سطح البحر تواصل فحص عينات ماء البحر ، وما يستخرج من قاع البحر ، فلم تظهر قط أية اشارة على وجود تلوث اشعاعى .

وفي أول مارس كان الجهاز «آلفين» يقوم بغوصه العاشر بقيادة فالنتين ويلسون وكان فوق منحدر جبلي مباشرة ينحدر الي الجنوب الغربى عندما رأي فجأة نوعا جديدا من الاثار شبه أسطواني ، وليس

كالوتد الذي تضعه سفن الصيد ، وبدا أنه صنع بوساطة جسم ثقيل جدا ، انزلق ، أو سحب في هوة عميقة ، وصاح ويلسون في تليفونه تحت الماء :

ـ لقد وجدت علامة !

ومالت آلفين بمقدمتها لتتبع هذا الاثر ، ولكن التيارات وقوة الجاذبية، سحبتها الي أسفل المنحدر بسرعة بالغة ، ففقدت الاثر ٠

قوبل هذا الاكتشاف بالشك الذي كان يحرص عليه الرجال حتي لاتتحطم آمالهم ٠ فان هذا الاثر يمكن أن يحدث من أشياء أخري كثيرة ، كبرميل بترول مثلا ، وتزايد الشك لان آلفين لم تستطع العثور علي هذا الاثر مرة أخري خلال المرات الست التالية لغوصها ٠

«آلفين» تثبت حماستها

في ١٥ مارس كانت قوات الجنرال ويلسون البرية قد فتشت كل بقعة علي الارض في منطقة بحثها ٠٠ وبعد ان اقتنع بأن القنبلة في البحر ، ارسل برقية الي واشنطون يقول فيها انه ينوي وقف البحث علي الارض ، وفي نفس الوقت تقريبا رأي فالنتين ويلسون الاثر ، وفي تلك المرة ، أدار جهاز الغوص ، وبدأ يرجع الي الوراء ببطء ، هابطا المنحدر ، متابعا الاثر في مياه اكثر عمقا ٠ وفي دقائق قليلة رأى مظلة «باراشوت» تغطي شيئا يرقد بالطول علي حافة اخدود منحدر وكانت هناك شفرة خاصة قد اعدت لتلك اللحظة لتفادي اثارة القوة المكثفة بالبحث في وقت سابق لاوانه ، وحتي لا يذكر شيء لسفينة الصيد السوفيتية التي تقف للاستماع ! ٠٠٠ وكانت الكلمة الرمزية المتفق عليها للباراشوت هي « نبتاساوروس » ، وهواسم سمكة ذات ثلاث أرجل تسير في قاع البحر، أما اسم الشفرة للقنبلة فهو « لوحة الادوات » ولكن ويلسون في لهفته لابلاغ النبأ نسى الشفرة ، وصاح قائلا لبيل ريني علي سطح البحر : « أري مسمارا صدئا »

كانت الكلمات لا معني لها ، ولكن ريني أحس بالتأثر البادي في صوت ويلسون فنسف الشفرة تماما بقوله : « تعني انك رأيت القنبلة ؟ »

فقال ويلسون : « كلا ٠٠ انني اري الباراشوت »

وفحص الاميرال جيست خريطته ٠٠ لقد وجد الباراشوت علي مسافة أكثر من ميل الي الشرق ـ ضد التيار ـ من المكان الذي ذكر الصياد سيمو انه شاهد القنبلة تسقط فيه ٠

وازدادت «الفين» قربا ، بحيث استطاع ويلسون والمراقب مارفين ماكاميس ان يري تحت حافة المظلة ما بدا اشبه بقطعة من حامل قنبلة ، وسار ويلسون بآلفين امام هذا الشيء مرتين وهو يدرس وضعه ، محافظا علي مكانه بعيدا عنه ، حتي لا يثير المياه ، اذ ان الشيء الذي كان يرقد تحت المظلة كان مستقرا بطريقة غير ثابتة علي منحدر مائل بمقدار ٧٠ درجة ، ووراءه تكمن أعماق لا غور لها ٠

ووصف ويلسون الموقف لمن علي السطح ، لم يكن يريد الصعود ، فقد خشى ان يقع هذا الشيء ويختفي في الظلام الذي يقع تحته ، او انه قد لا يتمكن من العودة اليه مرة أخري ٠ كان يريد ان تأتي الغواصة الصغيرة «اليومينوت» الي هذا المكان وان تقف للمراقبة عندما يغادر هو المكان ، ولكن «اليومينوت» لم تكن مستعدة ، نظرا لاعادة شحن بطارياتها بعد فترة طويلة من الغوص ٠ وأدار ويلسون «آلفين» بالعرض في الاخدود الضيق ، ودفن مقدمتها في أحد جانبيه ، وذيلها فى الجانب الآخر ، ثم أوقف المحركات ٠٠ وكان العمق ٧٧٧ مترا وجلس الرجلان اكثر من سبع ساعات ينتظران في هذا المكان الشديد البرودة حتي تستطيع «اليومينوت» ان تبدأ فترة مراقبتها لمدة ٢٤ ساعة ٠

وبينما كان يجري اعادة شحن بطاريات «الفين» ، بدأ الرجال يضعون خططهم ٠٠٠ لم تكن هناك اية معدات قد صنعت لاستعادة اي شيء من مثل هذا العمق ولابد من ابتكار شيء من وحى الخيال للقيام بهذا العمل ٠ كان من المستحيل ربط سلك او حبال سميكة بهذا الشيء ، كما ان الفين واليومينوت لم تكونا من القوة بحيث تستطيعان سحب شيء ثقيل ٠ ولكن آلفين كانت مجهزة بذراع ميكانيكية، وقد وضع في مخلبهذه الذراع سيخ حديدي ، يتصل به حبل من البلاستيك طوله ٩٠٠ متر لا وزن له في الماء ، كما أن قطره أصغر من القلم الرصاص٠٠ وحتي هذا الحبل ثبت انه اكثر مما يجب ، ولكن بعد كفاح طويل بطيء ، ادلت «آلفين» الحبل الي القاع ، ووقف السيخ الحديدي في القاع الذي يشبه الصلصال علي مسافة ٤٥ مترا من المظلة ، وربط الحبل علي السطح بعوامة ، لتكون علامة على مكان المظلة تحتها ٠

وقام جهاز آلفين بعد ذلك بانزال أجهزة استماع الى الاصوات ، تتدلى منها حبال وخطافات منالتى تستخدم

في صيد الاسماك ، واتجه ويلسون نحو الهدف ثم ادار ذراع (آلفين) الآلية ببراعة ، بحيثغرس الخطافات خلال المظلة بكل حرص وحذر ، اذ لو اضطربت الباراشوت فجأة، فانه يمكن ان يوقع «آلفين» في شرك داخل المظلة ويعقد الغواصة الصغيرة بين الحبال.

كان هنـاك احتمال آخر بعيـد : هـذه القنبلة - اذا كانت تختفى وراء المظـلة حقـا والتى سقطت في البحر مسـافة عشرة كيلومترات تقريبـا ، واصطدمت بالقـاع ثم سحبت مسـافة لا يدري أحد مداها وهي تصطدم بأرض وعرة ... الا تكفى هزة واحدة - ولو كانت ضئيلة جدا - لكي تفجر مفرقعات القنبلة الشديدة القوة ؟ ان مثل هذه الرجة قد تحطم هيكل الغواصة الصـغيرة «آلفين» ..

وعمل ويلسون بنشاط حتي انتهي من وصل أجهزة الاشارة بالمظلة ، وبالسـطح .. والآن .. حتي اذا تحـرك هذا الجسم ، فان السفينة «ميزار» الموجودة علي السطح سوف تستطيع متابعة اشاراته - او هكذا ظن الجميع ..

سحابة تحت المـاء

في الورش الموجودة علي ظهـر المدمرة (كاسكيد) قام الـكوماندور موري ، والعالمان راي بيتس وجون لندبرج علي عجل باعداد جهاز كانوا يأملون ان يكون فعالا في اخراج القنبلة الهيدروجينية ، وكان عبارة عن اطار فولاذي يقف على عدة سيقان معدنية طويلة ، تمسك أقدامها المدببة بقـوة وعمق في قاع البحر وأوصلوا به أجهزة ارسال الاشارات ، وثلاثة اطوال من حبل خاص من النايلون ، كل منها طوله ٩٠ مترا ، وخطافات متعددة الاصابع في أطرافها ، لكي يتم وصلها بالمظلة ، ثم يرفع الجسم الي أعلي ، وبدا هذا الاختراع شيئا لم ير مثله من قبل قط ، واطلق عليه اسم « بودل » .

واستخدمت مرسـاة تزن ٥٦٧ كيلوجراما لتثبيت حبـل « بودل » الاساسى الرافع ثم هبطت الغواصـة الصـغيرة « آلفين » وقامت بايصال أحـد الحبـال بالمظـلة ، ولكنهـا وجدت ان الحبلين الآخرين أصبحا في حالة لا أمل فيها ، لان «بودل» سقطت فوقه . فأدلوا من السطح بمزيد من الحبال بها خطافات في كلا الطرفين ، وقضت «آلفين» نصف يوم وجزءا من يوم آخر محاولة شبك احد الطرفين ببودل والطرف الآخر بالمظلة ، وفي كل محاولة كانت الحبال تتشابك وتتعقد.

وفي ٢٤ مارس ـ بعد عثور آلفين علي المظلة بتسعة ايام ـ كانت القوة العاملة في حالة يائسة من خيبة الامل ٠٠ وتشاور الاميرال جيست مع خبرائه ، فاتفق علي انه يجب ان يحاول رفع القنبلة بالحبل الوحيد الذي اتصل بها ٠

ان هذه الخطوة ستكون مليئة بالمخاطرة بسبب خطر احتمال قطع الحبل بوساطة الاجزاء المعدنية فى السفينة ، ولكن الرجال رأوا انه حتي اذا قطع الحبل ، فان أجهزة الاشارة المتصلة بالجسم سوف تساعد الغواصات علي العثور عليه مرة أخري بسرعة ٠٠ وقرر جيست ان يقبل المخاطرة ٠

وفي الساعة الثامنة مساء كان الجو صافيا ، والريح هادئة ، والامواج ساكنة ٠

وبدأت احدي الآلات الرافعة علي ظهر السفينة «ميزار» تسحب الحبل ببطء ومرت ساعة ، وبدأ الرجال يعتقدون ان النجاح بات قريبا ، ولكن بعد ٧٥ دقيقة تراخي الحبل فجأة ٠٠ فقد ذهبت الحمولة التي كانت تحت «بودل»!

لقد انقطع الحبل اما بوساطة سن المرساة او بروز في احدي الصخور ٠

كانت تلك خيبة امل شديدة ٠٠ ولكن لم يكن هناك وقت للتفكير ، ففى اليوم التالي ، غاصت « الفين » و «اليومينوت » بعد اعادة شحن بطارياتهما ، واخذتا في البحث والاصغاء الي الاشارات المنبعثة من أجهزة الاشارة، ولكنهما لم تعثرا على شيء ٠ لقد انقلب الجسم المجهول او تدحرج ، ودفنت أجهزة الاشارة في أعماق الوحل ٠

« أحسنتم صنعا »

على مقربة من شاطيء كاليفورنيا ، كان هناك بحث آخر يجري ، فقد وضع جسم مشابه فى الحجم والشكل والثقل للقنبلة المفقودة علي منحدر مائل في أعمال الباسفيك وحضر جهاز يدعى «كيرف» ـ وهو عبارة عن مركبة بحث تحت الماء تدار بوساطة الاسلاك ـ للعثور علي القنبلة الوهمية ، واخراجها من الماء ٠

وفي ٢ ابريل ـ أى بعد ٩ أيام ـ عثر مارفين وريني علي المظلة مرة أخري وكانت لاتزال تغطى حملها تماما ، ولكنها كانت ترقد الان علي منحدر من الصلصال الاملس كالزجاج علي عمق ٨٥٠ مترا ٠ وبعد يومين ٠ أنزل جهاز «كيرف» ـ الذي أرسل من كاليفورنيا على عجل الى منطقة البحث ـ من سفينة انقاذ الغواصات (بيترل) على مقربة من

بالوماريس ، وقد امضت نصف يوم تقريبا لكي تطوق المظلة بحبل ، ثم رفع (كيرف) الي سطح البحر بطرف الحبل الثاني الذي ربط في عوامة خاصة ٠

لم يعد احد ينام الآن رغم توالي النهار والليل ٠٠ وهبطت الغواصة آلفين لكي تتفقد المكان ٠ كانت الرؤية ضعيفة ، وقرر ويلسون ان يقترب من الباراشوت من اسفل ليقلل من احتمالات انزلاق الغواصة امامه قبل أن تتمكن من رؤيتها، ولكن بعد أنقام بدوره علي مسافة ٩٠ ميلا غرب الباراشوت ، وصعد متجها نحوها ، وجد نفسه فجأة داخل المظلة ! وسقطت طيات كبيرة من الباراشوت علي نوافذ المراقبة ٠٠٠ وغاصت آلفين ، حتي اصبحت ملفوفة تماما داخل المظلة !

وأصيب الاميرال جيست بالخبل علي ظهر السفينة «بيترل» ، فلو ان المراوح هي التي اشتبكت وحدها ، لاستطاعت آلفين ان تتخلص منها ، وتصعد الي السطح ، ولكن اذا كانت الغواصة الصغيرة كلها قد اشتبكت في المظلة والحبال التي سترفعها ، فليس هناك وسيلة لاخراجها او رجالها من قاع البحر ٠

لم يكن هناك شيء يمكن عمله ، الا التحدث مع ويلسون بهدوء ، والابتهال الي الله في ان تتمكن براعته في الفنون البحرية من اخراجهم سالمين ٠٠٠ لقد كان فقد قنبلة هيدروجينية امرا سيئا ، ولكن فقدها للابد احسن كثيرا من التضحية برجلين ماهرين شجاعين ٠

كان ويلسون مهتاجا داخل «آلفين» اكثر منه قلقا ، فهو لايستطيع التراجع بالغواصة للخروج من المظلة ٠٠ وبدأ يقوم بمناورات بالغواصة محاولا التخلص من الشرك الكبيرشبه المعتم الذي يحيط بها ، وراح يبعد المظلة الي اعلي ، وهو يدير «آلفين» ببطء بوصة بوصة علي كل جانب ، وبعد ١٥ دقيقة رأى فتحة فغاص بألفين الي اسفل ، ثم دار بحدة الي اليمين تحت حافة المظلة مباشرة ثم بلغ السطح بهدوء ، وقد تخلص من الشرك ٠

كان الجسم الهدف قد تحرك ٩٠ مترا ، ومازال يتحرك ببطء ، وكانت هناك شقوق امامه ، وسرعان ما سيسقط في أعماق أكبر ، وأبعد من ان يصل اليها «كيرف» ٠

واتجه جيست بالسفينة «بيترل» فوق الهدف مباشرة ، وربط حبلا آخر بالباراشوت ٠ وفي العاشرة والنصف

من صباح ٧ ابريل هبط كيرف الي أسفل ليربط به حبلا ثالثا • ولكن في الساعة الثالثة والربع ، اظهر جهـــاز الاستقبال التليفزيونى انه اشتبك بالمظلة وحبالها بصورة سيئة • وحاول الرجال الذين يديرون (كيرف) تخليصـــه لمدة ساعتين ، ولكن الامور كانت تزداد سوءا وبدا الامر باعثا علي اليأس •• فلم تكن هناك اية فرصـــة لتخليص الجهـــاز من خيوط هذا العنكبوت الوحشى المحكمة ، وحمد الاميرال جيست الله لانه مجرد مركبة لا تحمل انسانا ، ثم قال : « علينا ان نخرجه الآن »

وربطت آلفين أجهزة الاشارة مرة أخري بالباراشوت ، وتأكدت من ان الحبل مثبت بقمة المظلة ، حتي لا تفتح ، وتعمل كمرساة بحرية • وفي الساعة السابعة ودقيقتين صباحا ، بدأت آلات «بيترل» الرافعـــة تتحرك •• وببطء وثبات أخذت الحمولة المهيبة ترتفع الي أعلي •• ومرت ١٥ دقيقة ثم ٢٥ •• ثم ٦٠ ••

لم يكن لدي جيست نية المغـــامرة بحبل آخر مقطوع ، وكان هذا أمرا محتمل الحـــدوث جدا تحت السطح مباشرة ، بسبب الجهد الواقع علي الحبل نتيجة حركة الموج ، وفي الساعة ٨ر١٩ صباحا ، وقبل بلوغ هذه المنطقة الخطيرة ، توقفت الآلات الرافعة وارســـــل الكوماندور مودي بعض غواصيه الى أسفل ، حيث جـذبوا الباراشوت بعيـــدا عن الجسم الذي تحيـــط به •• ولاول مرة ، تأكـد الباحثون المتعبون من انهم حصلوا على القنبلة الهيدروجينيـــــة ذات الجسم الفضى الشبيه بالسيجار والتي فقدت كل هذا الوقت الطويل •

ولف الغواصـــون القنبلة بشرائط معدنية ، اوصلوها بأسلاك ســـميكة ثم دارت الآلات الرافعة مرة أخري •• وفي الساعة ٨ر٤٩ سحبت القنبلة الي ظهر السفينة وعادت تحت الســـيطرة الامريكية ـ مرة أخري ـ بعد الحادث بتسعة وسبعين يوما و٢٢ ساعة و٢٣ دقيقة بالضبط !

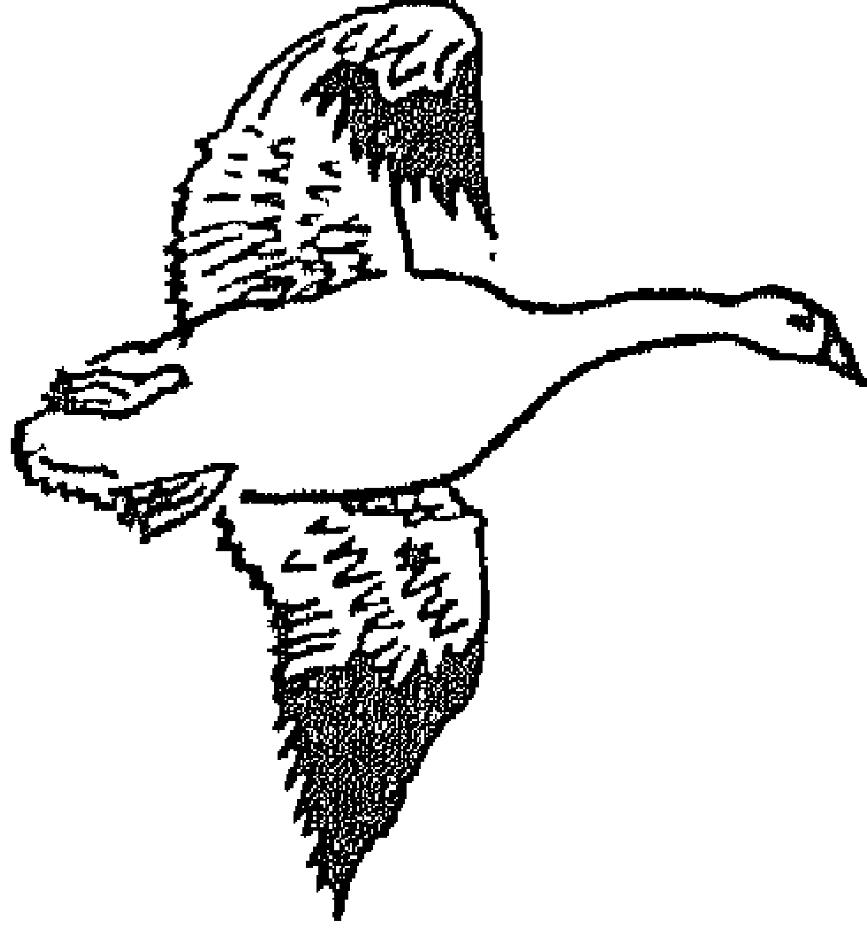


خطر !!

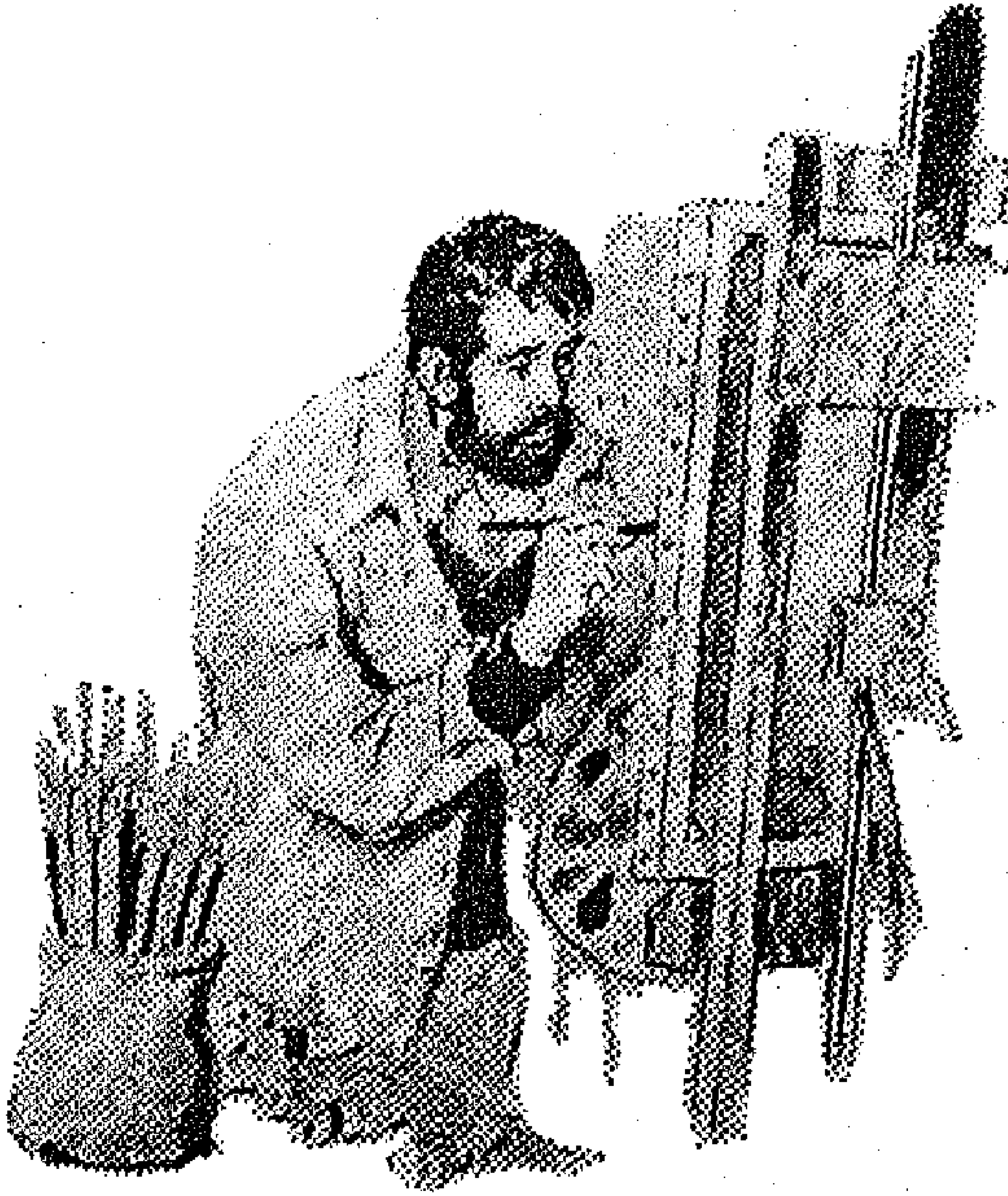
كانت الممثلة شـــيلي ونترز قد امضت فترة من الوقت فى تصوير فيلمها على بحيرة تاهو •• وعندما سئلت عن رأيها فى هذا المكان قالت :

ـ كان الجو شـــديد البرودة الى حـــد أننى كدت اتزوج !

كتاب الشهر



الأحدب والأميرة البيضاء



ملخصة عن كتاب :

The Snow Goose

بقلم المؤلف القصصى الشهير

بول جاليكو

الأحدب والأميرة البيضاء

من روائع القصص العالمي

صدرت قصة «الأحدب والأميرة البيضاء» للقصصي الامريكى الكبير بول جاليكو فى عام ١٩٤١ • وقد لاقت هذه القصة اقبالا كبيرا من القراء وأعيد طبعها عدة مرات • وفى عدد فبراير ١٩٦٦ قدم « المختار » لقرائه قصة جاليكو الأخرى المعروفة « المعجزة الصغيرة » •

وينشر « المختار » هذا الشهر ملخصا لقصة « الأحدب والأميرة البيضاء » وهى احدى روائع قصص الحرب العالمية الثانية



يقع المستنقع الكبير على ساحل اسكس ٠٠ وهو واحد من آخر الاماكن البرية في انجلترا، حيث يمتد منخفض فسيح من الارض تغمره الحشائش وأشجار الغـاب ، ومروج كادت تغطيها المياه ، تنتهى بسهول ملحية موحلة ، وبرك قريبة من البحر الذي لايهدأ صنعتها مياه المد والجزر٠

ان الجداول التى يصنعهـا المد ، والروافد والاذرع الملتوية المتعـرجة لكثير من الانهار الصغيرة التى تنتهى مصباتها عند حافة المحيط ، تشـق طريقها خلال الارض المخضلة ، التى تبدو وكأنها ترتفع وتنخفض وتتنفس مع تواتر تيارات المد والجـزر كل يوم ٠٠ انه مكان موحش منعـزل تماما ، يزيد من وحشـته نداءات وصيحات الطيور البرية التى تستوطن المستنقعات والسهول الملحية، ولاتكاد ترى هناك أحدا من السكان البشر، فيما عدا صيادي الطيور ، أو صيادي المحار من أبناء المنطقـة ، الذين يتمسكون بحرفة عدا عليها الزمن منذ جاء أهل نورماندیا الى هاستنجز ٠

والالوان السائدةهناك هيالرمادي، والازرق، والاخضر الهادىء٠٠ وعندما تظلمالسماء فيمواسم الشتاء الطويلة، تعكس مياه الساحل والمستنقعات لونا باردا قاتما ، أما في ساعات الشروق والغروب فان السماء تتوهج أحيـانا بألوان حمراء ، أو ذهبية ملتهبة ٠

وعلى مقربة من أحـد فروع نهر ايلور الصغير المتعرجة ، يمتد حاجز بحري قديم ، متين أملس ليس به أي منفذ للماء٠٠ انه قلعة الارض لمواجهة عدوان البحر ، وهو يتوغل مسـافة أربعة كيلومترات فوق أرض ملحيـة ابتداء من بحر الشمال ، ثم يتجـه شمالا ٠٠ وفي ذلك الجزء ترى وجهه المهشم حيث أصيب الجدار بشرخ ، تسلل منه البحر الثـائر ، واستولى لنفسـه على الارض والجدار وكل مايقف هناك ٠

وعندما تنخفض المياه ، تبرز فوق السطح أحجار محطمة لانقاض منارة مهجورة ، وحولها هنا وهناك تبرز رؤوس أعمدة مائلة مهتزة ٠٠ لقـد كانت هذه المنارة تتاخم البحر ذات يوم على شاطىء مقاطعة «اسكس» ثم تبدل الزمن والبحر ، وأصبحت غير ذات فائدة ٠٠

ولكنها عادت تستخدم في وقت ما كموطن لمخلوق بشري ، فقـد عاش فيها انسان وحيد ، انحنى جسمه ، أما قلبه فقد امتلأ بحب الاشياء البرية التى يطاردها الصـيادون ٠٠ كان

قبيح المنظر ، ولكنه كان يبتدع جمالا عظيما ٠٠ وهذه القصة تتحدث عنه وعن طفلة عرفته ورأت ماوراء شكله الغريب ، وما يختفي بين ضلوعه ٠٠

أحدب في المنارة !

في أواخر ربيع ١٩٣٠ ، جاء فيليب رايادر الى المنارة المهجورة عند مصب نهر «ايلور» ، بعد أن اشتري المنارة وعـــدة فدادين من أرض المستنقعات والسهول الملحية التي تحيط بها ٠

كان يقيم ويعمل هناك طوال العام، يرسم الطيور والطبيعة بعد أن انسحب من كل المجتمع الانساني لاســـباب خاصة ، بدا بعضـــها خلال زياراته لقرية «شليمبري» الصغيرة مرة كل أسبوعين للحصول على مواد التموين، اذ كان الاهلون ينظرون الى جسمه المشوه ووجهه الاسمر شزرا ٠٠ كان أحـــــدب ، اصيبت ذراعه اليسري بالعجز ، فأصبحت نحيلة مقوسة عند المعصم ، أشبه بمخلب الطير ٠

وسرعان ماإعتاد الناس صـــورته الغريبـــة ، وكان رأســـــه الاسمر الملتحى صغيرا ، ولكنه قوي يميـــل الى أسفل قليلا بسبب البروز الغامض في ظهره ، تتألق عيناه ببريق لامع ، وأطلقوا عليـــه اسم «الرسام العجيب الذي يقطن المنارة» ٠

ان التشويه الجسماني كثيرا مايولد في نفس صاحبـــه كراهية للبشرية ، ولكن رايادر لم يكن يكره أحدا ، بل كان قلبـــــه مليئـــا بالحب ٠٠ حب الانسان والحيوان والطبيعـــــة كلها ، تغمره الشفقة والفهم ، وقد استطاع أن يقهر عاهتـــه ، ولكنه لم يستطع التغلب على نظرات الصد التى يعانيها بسبب شكله ٠٠ وكان الشىء الذي دفعه الى هذه العزلة ، هو فشله في أن يجد في أي مكان استجابة للدفء الذي يتدفق منه ، وابتعد عن النساء، وكان الرجال الذين يعرفونه جيـــــدا يجدون منه حرارة وودا ، ولكن مجرد علمه بأن مجهودا يبذل من أجل ذلك ، كان يؤذي رايادر ويدفعه الى تفادي هؤلاء الاشخاص ٠

ويوم جاء الى «المستنقـــع الكبير» كان في السابعة والعشرين من عمره ٠٠ وقد سافر كثيرا ، وكافح ببسالة قبل أن يتخذ قراره بالانسحاب من العالم الذي لم يستطع أن يتخـــذ فيه مكانا كغيره من الرجال ٠٠ وكانت لـــديه في معتكفه طيوره ورسوماته وقاربه ، فقد كان يمتلك قاربا شراعيـــا يبلغ طوله خمسة أمتار ، يقلع به بمهارة رائعة ، وكان اذا وجد نفسه وحيدا بلا عين ترقبه ، استطاع أن يستخدم

يده المشوهة جيـــدا وكثيرا ماكان يستخدم أسنانه القوية في جذب حبال الشراع المتموج ..

كان ينطلق بقاربه الى البحر، وقد يستمر أياما في المرة الواحدة ، باحثا عن أنواع جديدة من الطيور يصورها أو يرسمها، وبرع في صيدها بالشباك ليضيفهـــا الى مجموعته من الطيور البرية التي استأنست في الســـياج القريب من مرسمه ، والذي جعل منه نواة لملاذ الطيور .. لم يطلق النـار قط على أي طـــائر ولم يكن يرحب بصيادي الطيور قرب أراضيه ، فقد كان صديقا لكل الاشياء البرية ، وقد كافأته على ذلك بصداقتها له .

وقد استأنس رايادر في ســـياجاته الاوز الذي يهبط الى الشاطىء قادما من ايسلندا وسبيتزبرجن كل أكتوبر، في أفواج كبري تظلم الســماء وتملأ الجو ضجيجا ، والاوز البري بأجسامه البنيـــة وأقدامه الوردية وصـــــدوره البيضاء ، وأعناقه السود.. والانواع البرية البيضاء ذات الصدور السوداء، كما كان فيهـــا كثير من أنواع البط البري ، بعضها «مجنح» ليبقى هناك اشارة للطيور البرية بأنهـــا ستجـد الطعام والمأوي في ذلك المكان .

مئـــات كثيرة من الطيور جاءت وبقيت معه طوال الشتاء البارد ، من أكتوبر الى أوائل الربيع ، وعنــدما هاجرت شمالا مرة أخري ، متجهـــة الى أماكن تكاثرها على الحافة الثلجية، كانت تعود في الخريف وهي تطلق صيحاتها في ســـماء الخريف لتدور حول المنارة القـــديمة ، وتهبط الى الارض على مقربة منه ، لتنزل فى ضيافته من جديد .. وهي طيـــور يذكرها جيــدا ويعرفها من الســـنة السابقة .

المقابلة الاولى

بعد ظهر يوم من أيام نوفمبر ـ بعد قدوم رايادر الى المستنقع الكبير بثلاث سنوات ، جاءت طفلة صغيرة الى ستوديو المنارة عن طريق الحاجز البحري ، وهي تحمـــل شيئا بين ذراعيها ..

لم تكن سنها لتزيد علي ١٢ عاما .. نحيلة ، قذرة ، عصبية ، ينتابهـــا الخجل كالطير ، ولكن تحت مظهرها القذر كان هناك جمـــال عجيب .. كانت سكسونية قحة ، طويلة العظام، بيضاء البشرة ، ذات عينين بنفسجيتين عميقتين ..

وسري الفزع الشديد في قلبهـــا لمرأي الرجل القبيح الهيئـــة ، الذي تجمعت حوله الاساطير التي يذيعهـــا

صيادو الطيور المحليون الحانقون عليه لتدخله في عملهم ·· ولكن خوفها الاكبر كان على الشيء الذي تحمله بين ذراعيها ، وكانت قد سمعت في مكان ما أن هذا «الغول» الذي يعيش في المنارة لديه سحر يستطيع أن يشفى به الطيور الجريحة ·

لم تكن قد رأت رايادر من قبل ، فكادت تطلق ساقيها للريح ذعرا عندما شاهدت الشبح الاسمر أمام باب الاستوديو وقد خرج عندما سمع صوت قدميها ، ورأت الرأس الاسود واللحية ، والحدبة المشئومة والمخلب الملتوي ··

ووقفت تحدق فيه في صمت ، وكأنها طائر منزعج يستعد للطيران فورا ·· ولكن صوته كان عميقا وهو يسألها : ماذا هناك ياطفلتي ؟

وظلت واقفة في مكانها لحظة ، ثم تقدمت للامام في خجل·· كان الشيء الذي تحمله في يدها طائرا ابيض كبير الحجم ساكنا تماما ، وثمة بقع دماء تلوث ريشه الابيض ، وصدر ثوبها الذي تحمله عليه ··

ووضعت الفتاة الطائر بين يديه قائلة : لقد وجدته ياسيدي ·· انه جريح ، ولكنه مازال حيا ··

ـ أجل ·· أجل ·· أعتقد ذلك·· تعالي ياطفلتي ·· تعالي ·

ودخل رايادر المنارة يحمل الطير الذي وضعه فوق مائدة ، فتحرك في ضعف، وتغلب الفضول على الخوف، فتبعته الطفلة الى الداخل حيث وجدت نفسها في غرفة يشيع فيها الدفء من النار المشتعلة في الموقد ، وكانت هناك صور كثيرة ملونة على الجدران ·· وفي الغرفة رائحة غريبة ولكنها حلوة·

ورفرف الطائر بجناحيه ، ففرد رايادر بيده السليمة أحد جناحيه الكبيرين البيضاوين ، فرأي أطرافهما محاطة باطار أسود جميل ·· وقال في تعجب :

ـ أين وجدته ياابنتى ؟

ـ في المستنقع ياسيدي حيث كان الصيادون ·· ماهو نوعه ؟

ـ انها « أوزة الجليد» الكندية·· ولكن كيف جاءت هنا بحق السماء؟

وبدا أن هذا الاسم لايعنى شيئا للطفلة التى كانت عيناها البنفسجيتان تبرقان وسط وجهها القذر النحيل ، وقد ثبتت بصرها باهتمام على الطائر الجريح ·· ثم قالت :

ـ هل تستطيع شفاءه ياسيدي ؟

ـ أجل ·· أجل ·· سنحاول·· تعالي لانك ستساعدينني ·

كان هناك مقص وضمادات وجبائر

على أحـد الرفوف ٠٠ وكان الرجل بارعا في عمله ، حتى بمخلبه الملتوي الذي يستطيع امساك الاشياء به ٠٠ وقال لها :

ـ لقد أصيبت بطلق ناري٠٠ يالها من مسكينة ٠٠ كسرت ساقها وطرف جناحها ، ولكن حالتها ليست سيئة، سوف نربط الجناح قرب الجسم حتى لاتستطيع تحريكه الى أن تشفى ٠٠ ثم نضع جبيرة لساقها المكسورة !

الاميرة المفقودة

نسيت الطفلة خوفها ووقفت ترقبه وهو يعمل مخلوبة اللب ، وبينما كان يثبت الجبيرة على الساق المكسورة، راح يحكى لها أعجب قصة ٠٠ قال ان هذه الاوزة صغيرة لم يزد عمرها على سنة واحدة ، وقد ولدت في بلد يقع في الشمال٠٠ بعيدا عبر البحار، في أرض كانت يوما ما ملكا لانجلترا ثم طارت الى الجنوب هربا من الجليد والثلوج والبرد المرير ، ووقعت فى طريق عاصفة جارفة راحت تتقاذفها وتوجهها ، وكانت العاصفة أقوي من أجنحتها الكبيرة ، فظلت في قبضتهـا أياما وليالى ، لاتستطيـــع أن تفعل مامها الا أن تطير، وعندما استطاعت الافلات منها ، حملتها غرائزها الى الجنوب مرة أخري ٠٠ وهناك وجدت نفسها فوق أرض مختلفة ، تحيط بها طيور غريبة لم ترها من قبل ، وكانت محنتها قد أرهقتهـا أخيرا ، فهبطت لترتاح في مستنقع أخضر ودود، لكي تستقبلها بندقية الصياد !

وختم رايادر حديثه قائلا : « انه استقبال مرير لاميرة زائرة ، سوف نطلق عليها اسم «الاميرة بيرديو» أو الاميرة المفقـــودة ، وسوف تتحسن كثيرا في خلال أيام ٠٠ أنظري٠٠»

ومد يده الى جيبه فأخرج حفنـة من الحبوب ، وفتحت أوزة الجليـد عينيهـا المستديرتين الصـــفراوين والتهمتها ٠ وضحكت الطفـــلة فى ابتهاج ، ثم أمسكت أنفاسـها جزعا عندما تذكرت فجأة أين هي ٠٠ ودون أن تنطق بكلمة استدارت واتجهت مسرعة خارجة من الباب ٠

وصـــــــاح رايادر : انتظري ٠٠ انتظري ٠٠

واتجه نحو الباب ثم توقف، ولكن الطفلة كانت قد أسرعت نحو الحاجز البحـري ، وهنـــاك توقفت ونظرت خلفها ٠٠ فسألها :

ـ مااسمك ياصغيرتى ؟

ـ فريث

ـ أين تعيشين ؟

ـ في قرية صـيادي الاسماك فى

ويكلدروث •

ــ هل ستعودين غــدا للاطمئنان على حياة الاميرة ؟

ــ أجل

وانطلقت وشعرها الاشقر ينساب وراءها مع الهواء ••

عودة الى العزلة

تماثلتأوزة الجليد للشفاء بسرعة، وفي منتصف الشتاء كانت تخطر وهي تعرج في أرجاء الســــياج مع الاوز البري ذي الاقدام الوردية الذي يشاركها المكان •• وتعلمت أن تقبل لتنـــاول طعامها عندما ينادي رايادر، وأصبحت الطفلة فريث كثيرة التردد عليه بعد أن تغلبت على خوفها ، واستولى على خيالها وجود هذه الاميرة البيضـــاء الغريبة القادمة من أرض بعيدة عبر البحار •

وحدث ذات صباح ، أن مجموعة من الاوز ذي الاقدام الوردية ــ بعد أن امتلأ جسمها بفضل التغذية الطيبة خلالالشتاء الذي أمضته قربالمنارة ــ استجابت لنداء الطبيعة الاقوي للهجرة الى منطقـــة تكاثرها ، فنهضت فى تكاسل وحلقت في الســماء في دوائر تزداد اتساعا ومعهـــا أوزة الجليد بجسمها الابيض وجناحيهـــــا ذوي الاطراف السوداء ، وكانت فريث فى المنارة عندئذ ، فأطلقت صيحة جعلت رايادر يعدو من الاستديو •• كانت تقول :

ــ أنظر •• أنظر •• الاميرة !• لقد رحلت •

وحدق رايادر في السماء ثم قال :

ــ أجل •• ان الاميرة عائدة الى موطنها •• اسمعى •• انهــا تلقي الينا بتحية الوداع •

ودوت صيحات الطيور من السماء الصافية ، تعلوها نغمة أعلى وأكثر وضوحا تنبعث من أوزة الجليــد ، واتجهت البقع الصـغيرة شمالا على هيئة حرف V أخذ يتضاءل الى أن اختفى ••

وبرحيل أوزة الجليـــد ، توقفت زيارات فريث للمنارة ، وتعلم رايادر من جديد معني كلمة العزلة •• وفي ذلك الصيف، رسم من الذاكرة صورة لطفلة نحيلة تغطيهـــا القذارة ، وقد تطاير شعرها الاشـــقر وحملت بين ذراعيها طائرا ابيض جريحا •

رسالة الى فريث !

في منتصف أكتوبر وقعت المعجزة •• كان رايادر داخل السياج يطعم طيوره وقد هبت رياح شمالية شرقية وفوق أصوات الرياح والامواج سمع نغمة عالية واضحة •• واتجه بعينيه

نحو السماء ، فرأى نقطة دقيقة جدا ثم شاهد أجنحة بيضاء وسوداء تدور مرة حول المنارة ، فأعتقد أنه يرى حلما ، ولكن الحلم مالبث أن أصبح حقيقة هبطت الى الارض داخل السياج ، وأقبلت نحوه تختال لتتناول الطعام وكأنها لم ترحل قط ! •• كانت أوزة الجليد دون شك •• وسالت دموع الفرحة من عينى رايادر •• لقد تذكرته وعادت ••

وعندما ذهب الى شليمبري في المرة التالية لاحضار المؤن ، ترك رسالة لوكيلة مكتب البريد، لابد أنها حيرتها فقد قال لها : « قولي لفريث ان الاميرة المفقودة قد عادت» •• وبعد ثلاثة أيام جاءت فريث وقد ازدادت طولا وان ظلت رثة الثياب شعثاء الشعر•• لقد جاءت في خجل لتزور الاميرة «بيرديو» ••

ومرت الايام •• كان أهل المستنقع الكبير يعلمون الزمن بارتفاع المد وانحساره ، وزحف الفصول البطىء، ومرور الطيور ، أما بالنسبة لرايادر فقد كان يعلمه بوصول أوزة الجليد ورحيلها ••

كان العالم الخارجى يغلى ويضطرم، ويمتلىء بالاضطراب الذي سرعان ماتحطم وأوشك أن يدمره ، ولكنه لم يؤثر على رايادر وفريث •• لقد حدث بينهما انسجام طبيعى غريب. بينما كانت الطفلة تزداد نموا، وعندما كانت أوزة الجليد تأتى الى المنارة ، كانت هي تأتى للزيارة ولكي تتعلم أشياء كثيرة من رايادر • كانا يقلعان معا في القارب السريع الذي يسيره ببراعة ، ويصيدان الطيور البرية لضمها الى مستعمرته التى تزداد باطراد ويبنيان حظائر جديدة ، وتعلمت منه قصة كل طائر بري من النورس الى الباز الحوام ، وكانت تطهى له الطعام أحيانا ، وتعلمت كيف تخلط له ألوان الرسم •

ولكن عندما ترحل أوزة الجليد الى موطنها الصيفى ، كان يبدو أن حاجزا يرتفع بينهما فجأة فلا تعود الى المنارة ، وحدث ذات عام أن الاوزة لم تعد ، فامتلأ قلب رايادر حزنا ، وخيل له أن كل شىء قد انتهى بالنسبة له ، فأخذ يرسم في جنون طوال الشتاء والصيف التالى ولم تعد الطفلة مرة واحدة •• وعندما جاء الخريف ، دوت الصيحة المألوفة فى السماء مرة أخرى ، وهبطت الاوزة البيضاء الضخمة من السماء •

وترك رايادر رسالة مع وكيلة البريد والفرح يملأ قلبه •• ولكن

فريث لم تظهر في الساحة الا بعــــد أكثر من شهر من ترك الرسالة ٠٠ وأدرك رايادر في ذهول أنهـا لم تعد طفلة !

وبعــد العام الذي ابتعدت فيــه الاوزة ، أصبحت فترات غيابها تزداد قصرا ، لقد أصبحت أليفة الى حــد أنها كانت تتبع رايادر في أرجاء المكان، بل وتأتى الى مرسمه وهو يصـــور لوحاته !

جاءت لتبقى !

في ربيع ١٩٤٠ هاجرت الطيــور مبكرة من المستنقع الكبير ٠٠ كان العالم يلتهب بالنار ، وقد أفزعهـــا زمجرة القاذفات وضجيج الانفجارات ٠٠ وفي أول أيام مايو وقفت فريث ورايادر جنبا الى جنب فوق الحاجز البحري يرقبان رحيل آخر الطيور ذات الاقدام الوردية ، ورفع رأسه نحــو السماء وعيناه تتألقان ٠٠

وقالت فريث : انظر يا فيليب ٠

وتابع رايادر بصــرها ٠٠ كانت أوزة الجليـــد قد حلقت في السماء وبسطت جناحيها الكبيرين ، ولكنهـــا هبطت الى ارتفاع منخفض، واقتربت منهما حتى كادت أطراف أجنحتهـــا تلامس وجهيهما ، وراحت تدور حول المنارة مرة ومرتين ، وأخيرا هبطت مرة أخرى الى السياج وبدأت تأكل مع الاوز البري ٠٠

وقالت فريث في دهشة : انهـــــا لن ترحل !

فقال رايادر في صوت مرتعش :

ـ أجل ٠٠ ستبقى ولن ترحل مرة أخرى ٠٠ لقد أصبح بيتها هنا بمحض ارادتها ٠

لقد تحطم السحر الذي كان يحيط بالطائر ٠٠ وأدركت فريث فجأة أنها خائفة ٠٠ وكانت الاشياء التى تخيفها تنبعث من عينى رايادر ٠٠٠ حيث الحنين والوحدة ، والاشياء العميقة الكامنة التى لاينطق بها ٠٠ لقد كان احساس الانثى فيها يدعوها للهرب من شىء لم تكن قادرة بعــــد على ادراكه ٠٠

وقــالت : يجب أن أذهب ٠٠٠ وداعا ٠٠ اننى مسرورة لان الاميرة ستبقى ، فانك لن تصبح وحيدا الآن٠

واستدارت مبتعدة بسرعة٠٠ فقال في حزن : وداعا يا فريث ٠

كان صوته خافتا لايكاد يسمع ، كصوت الشـــبح يسير فوق حفيف حشائش المستنقع في أذنيهـــا ٠٠ وابتعدت كثيرا قبل أن تجسر على أن تدير وجهها لتلقى نظرة الى الوراء٠٠ كان لايزال واقفا عند حاجز البحر٠٠

نقطة سـوداء تنعكس على صفحـة الماء !

لقد هدأ خوفهـا الآن وحل محله شيء آخر ·· شعور غريب بالضياع جعلها تقف ساكنة لحظة· ثم واصلت سيرها ببطء ·· مبتعدة عن اصبع المنارة المتجهة نحو السماء ، والرجل الذي يقف تحتها ·

رجل ·· مرة واحدة !

بعد ثلاثة أسابيع تقريبـا عادت فريث ·· كان شهر مايو في نهايته، وكذلك النهار ، وضوء الغسق الذهبي يتبدد أمام فضة القمر المعلق في السماء ·· وقالت لنفسها وخطواتها تأخذها الى هناك ، انها تريد أن تعرف ماإذا كانت أوزة الجليد قد بقيت حقا أو طارت بعيدا ·· كانت خطواتها على جدار البحر تمتلىء لهفـة ووجدت نفسها تسرع الخطى دون أن تدري·

ورأت ضوء مصباح رايادر الاصفر بجوار رصيفه البحري الصغير، وكان هو هناك وقاربه الشراعى يهتز برقة فوق صفحة الماء وهو يشحنه بالمؤن : ماء وطعـام وخمر وملابس وشراع اضافي ، وعنـدما عاد بعد سماعه صوت قدميها ، رأت انه كان شاحبا ولكن عينيـه السـوداوين الوادعتين كانتا تتألقـان في تأثر ، وكان يتنفس بصعوبة بسبب الجهد الذي بذله ·· واستولى عليهـا انزعاج مفاجىء فنسيت أوزة الجليد ، وصاحت :

ـ فيليب ! أأنت راحل ؟

وتوقف رايادر في عمله ليحييها·· كان هناك شيء ما في وجهه وبريقـه ونظرته التي لم ترها من قبل ·· وقال:

ـ فريث·· انني سعيد لقدومك··

أجل لابد أن أرحل ·· انها رحـلة صغيرة ، وسأعود ··

كان صـوته الرقيق عادة اجش عنـدئذ لما يكتمه في أعمـاقه ·· وسألته :

ـ الى أين ستذهب ؟

وتعثرت الكلمات على شفتيه ·· قال انه يجب أن يذهب الى دنكرك التى تقع على مسافة ١٥٠ ميلا عبر بحر الشمال فان جيشا بريطانيا وقع في الشرك هناك على الرمال ينتظر أن يقضى عليه الالمان الزاحفون ، والموقف يبعث على اليأس ·· وقال انه سمع ذلك في القرية عندما ذهب لاحضـار المؤن· ان كل قاطرة بحرية أو سفينة صيد أو زورق بخـاري يستطيع أن يعبر البحر لنقل الرجال من الشواطىء الى سفن نقل الجنود والمدمرات التى لايمكنها بلوغ المناطق الضحلة، لانقاذ أكبر عدد ممكن من نار الالمان ·

وأصغت فريث ، وشعرت بقلبها يغوص في أعماقها •• انه يقول انه سيعبر البحر بقاربه الصغير الذي يستطيع أن ينقل ستة أو سبعة رجال كل مرة ، وأنه يستطيع القيام برحلات قصيرة من الشواطىء الى سفن النقل •• كانت الفتاة لاتزال صغيرة لاتفهم ماهي الحرب أو ماذا حدث لفرنسا أو مامعنى وقوع الجيش في شرك ، ولكن الدماء التى تجري في عروقها أخبرتها أن هناك خطرا •• وحاولت اقناعه بعدم الذهاب ، ولكنه راح يشرح لها الموقف بعبارات تستطيع فهمها •• قال ان الرجال يتكدسون على الشواطىء كالطيور التى يطاردها الصياد •• الطيور الجريحة التى اعتادا العثور عليها وجمعها لعلاجها •• انهم في حاجة للمساعدة ، ولهذا يجب أن يذهب •• ثم قال : « انني أستطيع أن أفعل ذلك •• أستطيع أن أكون رجلا •• مرة واحدة ! »

وحدقت فريث فيه •• لقد تغير هو أيضا •• ولاول مرة رأت أنه لم يعد قبيحا أو مشوها ، بل بدا مظهره جميلا جدا •• وأحست باضطراب يعتمل في روحها •• كانت تريد أن تصيح ولكنها لم تكن تعرف كيف تقول ماتريد •• وأخيرا قالت :

ـ سأذهب معك يافيليب •

وهز رايادر رأسه وقال : ان مكانك في القارب سيجعلنا نترك وراءنا جنديا مرة بعد أخري•• يجب أن أذهب وحدي •

وارتدي معطفا مطاطيا وأحذية وانطلق بقاربه ، ولوح لها بيده مناديا :

ـ وداعا••أرجو أن تعنى بالطيور الي ان اعود يافريث

ورفعت فريث يدها ولوحت له بها قائلة : رعاك الله يافيليب •• سوف أرعى الطيور ••

ووقفت والظلام مخيم على الحاجز البحري ترقب الشراع وهو ينزلق بعيدا •• وفجأة سمعت صوت أجنحة ترفرف وسط الظلام ، ومرق الى جوارها شىء في الجو ، وشاهدت في ضوء القمر وميض أجنحة بيضاء ذات أطراف سود •• كانت أوزة الجليد تندفع ورأسها للامام ••

وبعد أن ارتفعت ودارت حول المنارة ، انطلقت فوق النهر المتعرج حيث كان شراع رايادر يهتز مع النسيم •• وحلقت فوقه ببطء فى دورات واسعة ••

وظلت فريث ترقبالشراع الابيض والاوزة البيضاء حتى اختفى الاثنان

عن بصرها ، فاستدارت على عقبيها ، واتجهت ببطء مطرقة الرأس عائدة الى المنارة الخالية !

بشير أبيض في السماء

أصبحت القصة الآن مؤلفة من أجزاء مختلفة ٠٠ أحدها يستمد من كلمات الجنود الانجليز الذين عادوا في أجازة ليحكوها في حانة « التاج والسهم » في قرية ايست شابل ٠

قال الجندي بوتون من فرقة بنادق لندن : ان أوزة ناصعة ساعدتني ٠

فقال أحد جنود المدفعية : غير معقول !

ـ كانت أوزة حقا ٠٠ شاهدها جاك مثلى وقد جاءت محلقة من خلال الدخان والقذارة التى تملأ دنكرك ٠٠ كانت بيضاء ذات أجنحة أطرافها سوداء ، ودارت من حولنا وكأنها قاذفة منقضة ٠٠ وقال جاك « لقد قضى علينا ٠٠ انها ملاك الموت مقبل نحونا » ٠٠ ولكننى قلت له انها أوزة متوردة جاءت من الوطن تحمل رسالة من تشرشل وأنها بشير خير ، سوف نخرج من المحنة سالمين ٠٠

وحول المنحنى جاء رجل أسمر ملتح ، احدى يديه كالمخلب ، في قارب شراعي صغير ، له حدبة على ظهره ، وكان يسير بقاربه بهدوء بالغ بينما الماء يغلى من حوله بالقنابل والرصاصات دون أن يعبأ ٠٠ لم يكن يحمل بنزينا يخشى أن يلتهب أو ينفجر ، وكان يضع حبلا بين أسنانه البيض ، وقد وضع يده السليمة على ذراع الدفة ، وأشار بذراعه الملتوية لنأتى ٠٠ وكانت الاوزة المتوردة تحلق فوقنا ٠٠

وقال جاك : « لقد انتهى كل شىء الآن ٠٠ ان الشيطان اللعين جاءنا بنفسه ٠ لابد أننى أصبت دون أن أدري » فقلت له : « كلا ٠٠ أنه بشير خير لا شيطان ٠٠ لقد كان يبدو حقا أشبه بالصور التى نراها في الكتب الدينية بوجهه الابيض وعينيه السوداوين ولحيته وقاربه ٠٠ وعندما اقترب منا صاح قائلا : « أستطيع أن آخذ سبعة في كل مرة ٠٠ »

فصاح ضباطنا : « ياله من رجل طيب ٠٠ تقدموا انتم السبعة القريبون منه » ٠٠

وسرنا نخوض في الماء الى حيث قاربه ، وكنت شديد الارهاق فلم أستطع تسلق جانب القارب ، ولكنه أمسكنى من ياقتى وجذبنى قائلا : «أصعد يابني ٠٠ هيا ٠٠ من بعده؟»

ثم نشر شراعه الذي امتلأ بثقوب رصاص المدافع الرشاشة حتى بدا

كالغربال ·· وصاح :

ـ اذا قابلنا أحـد من أصدقائكم فارقدوا في قاع الزورق يارجال ··

وانطلقنا ·· هو يجلس في المؤخرة وحبله بين أسنانه ويده الملتوية، ويده اليمنى على الدفة ، يوجه القارب بين رشاش القنابل المتناثرة من بطاريات الساحل ، بينما الاوزة البيضاء تحوم حولنا مطلقة صيحاتها ·

« وقلت لجاك : قلت لك ان الاوزة بشري خير ·· انظر اليه هناك ·· انه ملاك الرحمـة الطيب ·· وكان هو يجلس أمام الدفة وهو يتطلع الى الاوزة والحبل في أسنانه، وهو يبتسم لها وكأنه يعرفها طوال حياته » ·

وانتقلنا الى سفن النقل ، ثم دار ليعود بشحنة أخرى ·· وظل يقوم برحلات طوال الامسية والليل ولا أدري كم رحلة قام بها ، ولكنه استطاع مع قاربين آخرين ان ينقلونا جميعا من هذه البقعة من الجحيم دون أن نفقد رجلا واحدا ··

وأقلعت بنا السفينة الكبيرة بعـد صعود آخر رجل ، وقد احتشد على سطحها حوالي ٧٠٠ بينما حمولتهـا ٢٠٠ فقط ·· وكان لايزال هنـاك عندما رحلنا ، ولوح لنا مودعا ، ثم انطلق الى دنكرك والاوزة تحوم حول قاربه ، تضيء صورتها نيران المدافع، وكأنها ملاك أبيض وسط الدخان ·

قارب صغير مهجور

وفي ناد للضـباط بشارع بروك ، جلس الضـابط البحري المتقـاعد الكوماندور كيث بريل أودنر يحـكى تجاربه خلال الجلاء عن دنكرك، وقد سأله أحد ضباط الاحتياط البحريين:

ـ هل قابلتم الاسطورة الغريبـة التى تقال عن أوزة برية ؟·· لقـد كانت دائما فوق الشواطيء ؟ لقـد سمعت بعض الرجال الذين نقلتهـم يتحدثون عنها وقال انها ظهرت فى فترات خلال الايام الاخيرة بين دنكرك ولابان ·· وانك اذا رأيتها فسوف تنقذ في النهاية ·

فقال بريل اودنر : اوزة برية ·· لقد رأيت أوزة أليفة ·· كانت تجربة عجيبة ، ومؤلمة أيضا ، وان كانت بالنسبة لنا سـعيدة الحظ ·· هل أخبركم بهـا !·· في رحلة العودة الثالثة، كانت الساعة حوالي السادسة عندما شاهدت قاربا صغيرا مهجورا يبدو انه فيه شخصا او جثة ، وكان هناك طائر يقبع على حاجزه ··

وذهبنا نحوه لنلقى عليه نظرة ، فتبين أنه رجل ، وكان المسكين قد أصيب بطلقات مدفع رشاش ووجهه

في المســاء .. أما الطائر فكان أوزة أليفة ..

وازددنا قربا ، ولكن عنـدما مد أحدنا يده ، ارتفع فحيـح الاوزة وضربته بجناحيهـا ، ولم نستطع ابعادها ، وفجأة صاح الشاب كترنج الذي كان معى مشيرا الى الجـانب الايمن للسـفينة .. كان هناك لغم كبير يطفو قرب القارب ولو أننا تابعنا طريقنا لاصطدمنا به رأسا .. وبعد أن ابتعدنا عنه نسفه الرجال بنيران البنادق .

وعندما وجهنا اهتمامنا مرة أخري نحو القارب المهجور ، كان قد غرق والرجل معه .. وارتفعت الاوزة في الجو وراحت تدور حول مكانه ثلاث مرات كأنها طائرة تؤدي التحية .. وساورنا شعور غريب ، ثم انطلقت الاوزة بعيدا نحو الغرب .

الوداع الاخير

بقيت فريث وحيـدة في المنـارة الصـغيرة بالمستنقع الـكبير لتعنى بالطيور البرية ، تنتظر .. فهي لم تكن تعرف ماذا حدث .. وكانت في الايام الاولى تتردد على الحـاجز البحري ترقب وهي تعرف أنه لافائدة .. ثم أخذت تجوس غرف التخزين في المبنى ، ورأت أكـداس اللوحات التى سجل عليها رايادر كل حالات الارض الموحشة واضوائها ، والطيور الرائعة الرشيقة التى تعيش فيها .

ووجدت بينها الصورة التى رسمها لها من الذاكرة منذ سـنوات كثيرة وهي طفلة وقد وقفت في خجل على عتبة بابه تحتضن الطائر الجريح .

لقد أثارتها الصورة والاشياء التى رأتها فيها كما لم يثرها شىء آخر من قبل ، فقد كان فيها الكثير من روح رايادر .. والغريب أنها كانت المرة الوحيدة التى رسم فيها أوزة الجليد، ذلك المخلوق البري الذي دفعتـه العاصـفة من أرض أخري ، والذي جعل كلا منهما صديقا للآخر .. ثم عاد اليها في النهاية يحمل رسالة بأنها لن تراه مرة أخري !

كانت فريث قد أدركت أن رايادر لن يعود ، قبل عودة أوزة الجليد في وداعها الاخير بوقت طويل ، وهكذا عنـدما سمعت في غروب ذات يوم الصيحة العالية التى تذكرها جيدا ، لم تبعث أي أمل كاذب في قلبها .. وبدا لها أنها عاشت تلك اللحظة منذ سنوات ..

وهرعت تعدو نحو حاجز البحر، وأدارت عينيها نحو البحر البعيـد حيث يحتمل أن يظهر شراع ، بل

نحو السـماء ، حيث هبطت أوزة الجليد •• ثم حطم المشهد والصوت والوحدة المحيطة بها السد الذي فى أعماقها فانهار مطلقا الحقيقة الطاغية لحبها •• فأطلقت لدموعها العنان •

وبدت وكأنهـا تحلق مع الطائر الكبير ، تهيم معه في سماء المساء ، مصغية الى رسـالة رايادر ، وكأن الاوزة البيضاء تقـول بأجنحتهـا البيضاء ذات الاطراف السـوداء : «فريث •• فريث ياحبيبتى •• وداعا ياحبيبتى ! » •• وكان قلبها يرد قائلا : « فيليب •• انني أحبك »

وظنت فريث في البداية أن الاوزة ستهبط الى السياج القديم ، ولكنهـا هبطت الى ارتفاع قليل ، ثم عادت تطير من جديد في دائرة حلزونيـة واسعة حول المنارة القديمة•• وبدأت تحلق في السماء ••

ولم تكن فريث وهي ترقبها تنظر الى أوزة الجليـد ، بل تري روح رايادر وهي تودعها قبل أن تختفى الى الابد ••

ورفعت ذراعيهـا الى السـماء وصاحت : «رعاك الله يافيليب» ••

كانت الدموع تنساب من مآقيهـا وهي تقف في سكون ترقب الافق بعد اختفاء الاوزة ، ثم دخلت المنـارة واحضرت الصورة التى رسمها لهـا رايادر ، واحتضنتها الى صدرها •• ثم راحت تشـق الطريق عائدة الى بيتهـا على طول الحاجز البحـري القديم ••

وظلت فريث تعود الىالمنارة وتطعم الطيور كل ليلة طوالأسابيع عديدة•• ثم حدث ذات صباح باكر أن أخطأ طيار ألماني مغير وظن المنارة المهجورة هدفا عسكريا فانقضعليها ونسفها•• وضاع كل مافيها وراح في طيـات النسيان !

وعندما جاءت فريث في ذلك المساء، كانت مياه البحر قد تسللت من بين الجدران المحطمة ، وغمر المـاء كل شيء وحطمت العزلة المطلقة •• ولم تجرؤ طيور المستنقع على العودة ، فيما عدا طائر النورس البحري الذي استمر يدور ويحلق مرددا شكواه فوق المكان الذي كان يقيم فيه !

ثقة ••

سمع مستخدم متجر البقـالة راهبتين تتنـاقشـان حـول أيهما تقود السيارة عند العودة الى الدير .. فقالت احداهما :
((انت تقودين يا أخت ايوك وسأصلى أنا))
فقالت الاخرى :
((ماذا هناك . ؟ آلا تثقين فى صلاتى ؟))

كتاب الشهر



تلخيص كتاب

الحب يا فتاتي الصغيرة

بقلم ماريلين م. سيجال

عندما بلغت ابنتي ديبي الشــــهرالخامس من العمر
قال لي الدكتور بعد تردد ، وفيلهجة جادة تنذر بشر منتظر :
« لقـــد كنت ارقب طفلتك منـــذ الولادة
ويعلم الله انني كنت آمل ان اكون مخطئا
ولكنني مقتنع الآن تماما ان ديبياصيبت بشيء ما في المخ !! »
وأحسست كأن الدنيا قد انهارت من حولي
هكذا كتبت ماريلين سيجـــال فيقصتها المؤثرة ٠
« اهربي يا فتاتي الصغيرة »
انها قصـــــة الكفاح الجبار الذي خاضته طفلة ولدت مصابة
في مخها لتعيش حياة طبيعية
وقصة اسرتها التي عقدت العزم
علي مساعدتها ٠



اهربي يافتاتي الصغيرة

كنت قد دخلت عنبر الولادة في تلك الامسية من امسيات أكتوبر امتليء توثبا وثقة ، فقد كانت هذه هي المرة الخامسة التي اضع فيها طفلا ، حتي لقد اصبحت اعتبر نفسى خبيرة في هذا الموضوع ، ولم أشعر بأى قلق لان موعد الوضع الطبيعى مازال باقيا عليه شهران ، اذ كان اطفالي جميعا يميلون الي الوصول قبل الموعد المقرر •

ولكن هذا المخاض استمر عدة ساعات ، حتي توقفت أخيرا عن مكافحة الالم ، ووافقت علي ان اتناول عقارا مسكنا ••• اما ما حدث بعد ذلك ، فان صورته يطمسها الضباب في ذهنى ، وقد شرح لى الدكتور ادوارد سالتزمان طبيب اطفالنا الامر في الصباح التالي ، اذ قال لي انني وضعت طفلة تزن كيلوجراما ونصف كيلوجرام فقط ، وقال ان الوضع كان من المؤخرة وكان قاسيا علي الطفلة حتي لقد امتلأت رئتاها بسائل ، وهي الآن في جهاز الحضن الصناعى، تحيط بها ممرضات خاصات ليلا ونهارا •

وظلت «ديبي» تتأرجح بين الموت والحياة لمدة يومين • كنت اصغى في خوف لكل اقدام تقترب من ردهة المستشفى ••• تري اتكون هذه ممرضة تحمل الي النبأ الرهيب ؟ • وأخيرا هدأ الدكتور سالتزمان مخاوفي •• وقال لي : « لقد مرت هذه الطفلة بوقت عصيب ، ولكنني اعتقد انها سوف تجتاز المحنة •• لست ادري لماذا تواجهها كل هذه المشكلات ، ولكن هناك شيئا ما في الموضوع لم يحدث علي مايرام »

انني ادرك الآن ان الدكتور سالتزمان كان يحاول ان يعدني لبعض المشكلات التي قد اضطر لمواجهتها في السنوات التالية ، ولكنني في تلك الليلة لم اوجه اليه اية اسئلة • لقد وعدني بهبة الحياة ، فاى شيء اهم من ذلك ؟

وامضت «ديبي» في جهاز الحضانة الصناعى اكثر قليلا من شهرين ، وكنت ازورها كل يوم في مكان الحضانة بانتظام ، وكنت وانا اقترب بأنفى من نافذة الجهاز ارقب اتفه حركة واصغى الي كل صوت • وكانت يداي ترتعشان لهفة لضمها بين احضاني •

واخيرا بدت ديبي اقوي قليلا •••

وفي عصر ذات يوم ، رفعتها احدي

المرضـات من جهـاز الحضانة ، ووضـعتها فوق ركبتي ، ثم تركتنا وحدنا ٠٠ كانت لحظة جميلة ٠ وقد غاص جسم «ديبي» الضـئيل بين ذراعي ، واحسست بخفقات قلبهـا الصغير ٠٠ وهمست اقول :

« لو كان في استطاعة الحب ان يجعلك قوية ، فان لدي الكثير منه لك »

كان الدكتور سالتزمان يشاركني آرائي بشـأن الحب ، وعندما بلغت ديبي الاسبوع الثامن من عمرها قال لي : « انني اعتقد حقا ان هؤلاء الاطفال ذوي الاحجام الضئيلة يزدادون تحسنا في البيئة المنزلية ٠٠٠ انها لم تبلغ بعد كيلوجرامين ونصف كيلوجرام ، ولكن مادام والدها طبيبا ، فسوف أسمح بنقلها الي المنزل »

وحمل زوجي «مايك» ـ الذي يبلغ طوله ١٨٨ سم ـ ابنته الجديدة في فخر وهو يغادر المستشفي ، وكانت تبدو بين ذراعيه أقرب الي «العروسة» منها الي طفلة حقيقية٠ وبعد بضعة أسابيع بدأت ـ كما تنبأ الدكتور سالتزمان تماما ـ في التحسن ، وابهجتني زيادة وزنها ، ولكنني سرعان ما ادركت انها لا تفعل شيئا غير الاكل والشرب ٠٠ لم تكن ترفع رأسها وتتطلع حولهـا كما يفعل صغار الاطفال ٠ ولم تكن تبتسم او تستجيب للاصوات او الحركة كما لاحظت ان ساقيها كانتا تتشابكان بطريقة غريبة عندما ارفعها الي اعلي

وعندما بلغت ديبي الشهر الخامس ، أكد الدكتور سالتزمان مخاوفي ، اذ قال لي بعد تردد ، وفي لهجة جادة منذرة بالشر المنتظر : « لقد كنت ارقبهـا منذ الولادة ويعلم الله انني آمل في أن أكون مخطئا ، ولكنني مقتنع بأن ديبي أصيبت بشيء ما في مخها ٠

ومضت بضع ثوان قبل ان اتمكن من الحـديث ٠٠٠ ثم قلت متوسلة في ضعف : « انت لا تعني شـللا في المخ ؟ »

فقال : « لم يحن الوقت بعد لقول ذلك »

ثم اقترح ان نأخذ الطفلة الي مركز طبي قـريب لابداء رأى خـارجي في حالتها ٠

كان الاطباء هناك لا يذكرون لنـا شيئا ، ولكنهم بعد فحصها اعـدوا تقريرا للدكتور سالتزمان وعندما تلقاه حاول ان يخفيـه عنا ، واكد لنا ان النتائج التي ذكروها اكثر كآبة ممـا ينبغي ، ولكننا اصـررنا علي رؤية التقرير ٠٠ وهذا ما جاء فيه :

« هذه الطفلة الصغيرة مصابة بتلف

شديد في المخ ، ولا يظهر أي دليل على سلامة عقلها • ونحن نوصى بوضعها في مستشفى عقلي لما في ذلك من خير للطفلة ولأبويها »

ديبي تتكلم

غضبت انا ومايك لما جاء في هذا التشخيص ، فقد كنت اعرف عن طريق ملاحظاتي الخاصة ، ان ديبي تتمتع بصحة عقلية ، وقد عقدنا العزم علي الا نضعها في أى مستشفى ••• وتساءلنا : « اهناك شيء نستطيع ان نفعله ؟ »

وقال لنا الدكتور سالتزمان : « ليس هناك شيء يمكن عمله لها في سنها الحالية غير الحب والمداعبة »

ولم يكن هذا شيئا عسيرا ، اذ كانت ديبي علي الرغم من مشكلاتها الواضحة شيئا صغيرا جميلا حقا ••• كانت لها عينان عسليتان عميقتان ، وانف صغير مليء بالنمش ، وشعر ذو تجعيدات كستنائية تنحدر فوق جبهتها ، وعندما كنت اضعها في فراشها ليلا ، كانت تصر علي طقوس معينة : اولا يجب ان ارضعها ، وبعد ذلك يجب ان اضع تليفونها الصغير ذا الجرس داخل مهدها ، ثم اغطيها بغطاء معين بحيث تستطيع ان تدعك الرباط الحريري بين اصابعها ••• وأخيرا يجب ان اقبلها قبلة المساء ، وعندئذ تستغرق فورا في النوم •

وعندما بلغت ديبي سنة ونصف سنة من عمرها ، أخذتها الي مستشفى ماساتشوستس العام لاجراء تقييم آخر لها ، ويعتبر هذا المستشفى في نظر البعض مركز امراض شلل المخ في العالم •• ولما كان بيتنا في فلوريدا ، فان الرحلة الطويلة الي بوسطن كانت في حد ذاتها محنة ، وما ان وصلنا الي هناك ، حتي اقمنا معا في غرفة بالمستشفى لمدة ثلاثة ايام ، ساورنا خلالها الخوف والتوتر •

كانت ديبي تكشف عن احساساتها للجميع ، ولكن الاطباء تجاهلوا محنتها وأجروا عليها كل اختبار ورد في الكتب حتي اذا ما انتهوا كان الحكم مشجعا الي حد لا بأس به • قالوا لي ان ديبي تتمتع بذ كاء متوسط ، وانها ستكون صالحة للمدرسة ، ربما علي مستوي عادي ، وان الكلام لن يكون مشكلة كبري ، بل ان هناك احتمالا بأنها ستسير مستعينة بأطواق خاصة خلال سنوات قلائل •

وما ان عدت من بوسطن ، حتي شرعت اصحب ديبي الي مزيد من الرحلات • وكان سلوكها الهستيري في المستشفى قد جعلني ادرك انها فى

حاجة الي الوجود بين الناس · وكنت قد ابقيتها في المنزل اغلب الوقت خلال الاربعة عشر شهرا الاولي ، وقد عللت الامر لنفسي بأن ديبي فتاة رقيقة ، وانه من الخطأ تعريضها للكثير من الجراثيم ، فقد كان من العسير ان اعترف بأن الشخص الذي احميه ·· هو نفسي !

كان في استطاعة كل من ينظر الي ديبي ان يدرك ان لديها مشكلات ، فقد كان رأسها مرتخيا ، وفي عينيها حول كما كانت ملامح وجهها خالية من الحركة ، وكان ذلك يجلب تعليقات قاسية في بعض الاحيان ، حتي من ذوي القلوب الرحيمة ·

ورغم الهمسات والتعليقات فقد قررت انا ومايك ان نعامل ديبي كأى طفل عادي وكنا ندرك اننا يجب ان نحررها من عبء مخاوفها ، ونمنحها نفس الحب والقبول والفرصة ، بل والتهذيب الذي نمنحه لبقية اطفالنا ·

وبعد الرحلة الي بوسطن ، حاولنا تقوية ساقى ديبي بالتدريبات ، ولكن التقدم الحقيقى الوحيد الذي احرزته في ذلك الحين ، كان في الكلمات التي تعرفها فبعد كل بضعة ايام ، كانت تثيرنا بكلمة جديدة ، واصبح في استطاعتها ان تنادي كل واحد من اخواتها باسمه ثم حدث ذات صباح ونحن معا في السيارة ، ان بدأت السماء تمطر ، وادرت مساحتي الزجاج الامامي الآليتين ، فأخذت ديبي تبكى بشدة حتي انني اوقفت السيارة وسألتها :

ـ ماذا حدث ؟

ولم أكن أتوقع أية اجابات حقا ، ولكن ديبى اشارت الى مساحتى الزجاج وقالت : « أماه ·· اننى لا أحب هذا ! »

كانت تلك اول عبارة حقيقية تنطق بها ، واحسست انه من المهم مكافأتها على ذلك فقدت السيارة بقية الطريق حتي البيت بدون ادارة مساحتي الزجاج ·· ومع ذلك فان محاولتي النفسية الحريصة لم تثمر تماما ، اذ أن ديبي لم تنطق أية عبارة أخري لعدة أشهر ·

امل جديد

عندما سمعنا عن « معاهد دومان » في فيلادليفا لاول مرة ، ساورنا الشك فيها · وهذه المعاهد مركز للتأهيل ، يعرف رسميا باسم « معاهد القدرة البشرية » ويقال ان وسائلها تمثل اول فتح في علاج اصابات المخ بلا جراحة · ولكن ديبي كانت قد فحصت بمعرفة الخبراء ، وقد اعتقدنا

ان كل مايمكن عمله لها قد عمل فعلا٠ وقد عزمنا علي الا نسحب طفلتنا خلال محنة طويلة بحثا عن معجزات تحل مشكلاتها ٠

ولكنها عندما بلغت العامين والنصف العام ، توقف تقدم ديبي الجسماني بوضوح ، اذ اصبحت عيناها باديتي الحول بصورة شنيعة ، وعندما كان يجري اصلاحهما جزئيا بعملية جراحية ، كان مظهرهما وحده هو الذي يتحسن دون ان يفيد ذلك توازنها ٠ ورغم اننا جربنا كل التمرينات القياسية التي يصفها اطباء العلاج الطبيعى ، فانها كانت تستطيع الزحف بكل مشقة ، وأخيرا لجأنا الي معاهد دومان ٠

وكنت اعلم انه قبل ان تقبل ديبي للعلاج، يجب أنتجتاز اختبارا للتقييم يجريه رجال المعاهد ، ولهذا عزمت علي ان تترك في نفوسهم اثرا طيبا ، وعندما ركبنا الطائرة الي فيلادلفيا ، كانت تبدو في ثوبها الجديد وشعرها الذي ينحدر علي جبهتها وعينيها العسليتين وانفها الصغير اشبه بعروسة فرنسية صغيرة ٠

ومن العجيب ان ديبي اظهرت تعاونا كبيرا خلال اليوم الاول من التقييم ٠ كانت تبذل كل ما في وسعها لعمل كل ما يطلبونه منها ، فسحبت نفسها على طول ارضية الغرفة ، واخرجت اشياء من حقيبة ، وحاولت ان تلقي كرة صغيرة من قدح لآخر - دون نجاح كبير ومع ذلك فان التشخيص بدا كئيبا ٠

كانت ديبي قد اصيبت بتلف متوسط الشدة في المنطقة الوسطي من فمها ، وكان مستوي الحركة عندها اشبه بما عند طفل في أسبوعه الثامن، وكانكاحلا قدميها مشدودين ، وساقاها متقاطعتين بعنفكالمقص، وعندما ترفع الي اعلي في وضع عمودي ، كانت «تقف» علي اطراف اصابعها ، كانت ديبي تعتبر في الاصطلاح الطبي مصابة بشلل مخي ٠ وكان واضحا انها طفلة صغيرة ذكية ، ولكنها اذا سارت فى الطريق المعتاد للمصابين بهذا الداء ، فانها سوف تنتهي الي ان تصبح قطعة هشة من « البسكويت » في مقعد متحرك ٠

فيتلك الليلة ، تساءلت عما سيحدث اذا رفضت المعاهد قبولها ، وعندما وصلت الي المعاهد في الثامنة من الصباح التالي ، اخذ أحد الاعضاء ديبي من بين ذراعى وحاولت ان اتجاهل صرخاتها ونحن نتبع الجماعة الي قاعة المحاضرات ، وهناك فى

غرفة شديدة الحرارة ظل جلين دومان رئيس هيئة المعاهد يتحدث الى آباء الاطفـــال ثماني ساعات كاملة (لم تتخللها غير ١٥ دقيقة للغداء) عن النظريات والطرق والاهداف التي تعمل المعاهد من أجلها ٠

كانت النقاط الاساسية في حـــديث دومان ، هي ان الاطفال المصـــابين بمشكلات في المخ ينقسمون الى ثلاثة أقسام : عاطفيين ، أو ذوي نقص في المخ ، او اصابة في المخ وان المصابين في المخ ، هم النوع الوحيد من الاطفال الذي يعالج في المعاهد ، والاطفال الذين يأتون ضمن هذا النوع لديهم اذهان جيدة ، ولكن شيئا حدث ، اما عن طريق سوء في التنظيم العصبي ، او اصابة خلايا في المخ في الفترة مابين الحمل وظهور الاعراض ٠

واكد لنا دومان قائلا : « ان سبب وجودكم جميعا هنا ، هو اننانعتقد ان اطفالكم يدخلون ضمن الفئـــــة الثالثة »

كانت تلك هي الكلمات التي نريد سماعها قبل اي شيء آخر ٠ لقـــد منحتنا المعاهد كلمة (نعم) التي يمكن ان تعيد تشكيل حياتنا ٠٠٠ ولـكن فرحنا لم يستمر طويلا ، فقد مضى مستر دومان يقول : ان المعاهد قد وضعت برنامجا لعلاج مخ الطفـــل بوسائل غير جراحية ، ولكنها ليست معجزة ، او دواء لكل شيء ، بل هو روتين شاق ، يتضمن اعادة تنظيم كاملة لاسلوب الاسرة في الحياة ٠ وحذرنا قائلا انه عندما يوضع الطفل ضمن برنامج المعهد ، فاننا يجب ان نوجه كل ساعة من ساعات يقظتنا من أجل تحسين حالته العصبية ٠

وعندما انتهي كان هنـــاك سؤال واحــــد يتردد في أذهان كل الآباء والامهات وهو :

« ان لدينا اطفالا آخرين ، لهم مطالبهم ومشكلاتهم ايضا ، فكيف يمكن أن يضحي الآباء بأسرهم بأكملها من أجل حاجة طفل واحد مصاب ؟ »

واجاب دومان قائلا : « ان كل اسرة لديها طفل مصاب ، هي فعلا اسرة مصابة ٠ وباعادة الطفل المصـــاب الى الصحة ، تصبح الاسرة كلها اكثـــر صحة ٠٠٠ واية هدية يمكنكم تقديمها لاطفالكم الآخرين اعظم من فرصة لبناء حياة اخ او اخت ؟ » .

كانت نفس الفكـــرة تراودني انا ومايك وابنتي بيتي ــ ذات الثـــلاثة عشر ربيعا ــ ونحن نغادر القاعة ٠٠ فاذا كانت الطاقة والحب هما العنصرين اللازمين للنجاح ، فان ديبي ستصبح

نجمة معاهد دومان !

محنة ... ورجاء !

اثارت المرحلة الثالثة من زيارتنا للمعهد تغييرا تاما في الجو ، ففى خلال الزيارتين الاوليين كان كل اب او ام مشغولا بالاحتمالات المنتظرة لطفله الى حد انه لم يشعر بأى شخص آخر . اما الآن فقد اصبحنا جميعا في نفس القارب ، وقد تطلعت ابصارنا جميعا نحو أفق جديد ، وتمنى كل منا الخير

وتعلقت ديبي بعنقى بأصابعها الصغيرة المتوترة ونحن ندخل غرفة الاجتماع الاولي حيث استقبلنا أحد رجال المعهد وسلمنا رسما بيانيا وقال ان هذا الرسم سوف يبين ما تحرزه ديبي من تطورات خلال سيرها وفقا للبرنامج ، وهو عبارة عن مجموعة من المقاييس التى تقارن بين سن الطفل العصبية وسنه الزمنية . وكانت ديبي يومئذ في شهرها الرابع والعشرين من الناحية العصبية ، وشهرها الثالث والثلاثين من ناحية عمرها الحقيقى ،



وكانت اضعف نواحيها في ناحية الحركة حيث كانت في الاسبوع الثامن فقط من الوجهة العصبية ، وكان هدفنا في هذا البرنامج أن نجعل سنالطفلة العصبية تجاري أو تفوق سنها الزمنية في كل ناحية من نواحى النشاط الذهني • وقال لنا ان كل طبيب من اطباء العلاج الطبيعى المختلفين سوف يدلنا علي طريقة توجيهها نحوتحقيقهذا الهدف•

كان تقدم ديبي جيدا في ناحيتين ، هما اللغة والقدرة علي التمييز باللمس •• ولزيادة قدرتهـــا في اللغة ، كان واجبي الاول ان أقرأ واتحدث معها ، وان اتيح لها فرصا كثيرة للتحدث مع الآخرين ، ولزيادة قدرتها علي التمييز باللمس ، كان علي ان اضع اشــياء كثيرة صغيرة في كيس من الورق ، واترك ديبي تميز بينهـــا بمجـــرد تحسسها ، وكلما تحسنت في هـــذه اللعبة ، كان علي ان ازيد عدد الاشياء واقلل حجمها •

وكانت القـــدرة اليدوية والبصرية والسمعية تشكل اكثر من مشكلة ، فلكي اعلم ديبي استخـــدام ابهامها وسبابتها بطريقة متقابلة ، علمونا كيف نتركها تلتقط قطع النقود او فتافيت الكعك ، وأن نجعلها تجرب استخدام قلم كبير ، ولكي تتدرب علي استخدام يديها بطريقة تعاونية ، كنا ندعهـا تصب كرة من قدح لآخر •

ولم يكن من المســتطاع الاحتفاظ بالاصلاح الذي أجريناه في عيني ديبي بالجراحة نظرا لان مشكلة ديبي لم تكن في عضلات العين ، بل في المخ ذاته ، وسوف تتطلب وسائل المعهـد لعلاج عينيها عملا اكثر وصبرا اكثر من الجراحة ، ولكن النتائج ستكون اكثر دواما كما نأمل •

وقد علمتني تاكي دور ، وهي فتاة يابانية ساحرة سلسلة من التدريبات بأضواء المصابيح اليدوية الملونة تهدف الي تدريب عيني ديبي علي ان تميلا بحيث تستطيع ان تدرك العمق ، كما طلب مني ان اتيح لديبي اكبر قـدر ممكن من التنبيه البصري بجعل غرفتها مشرقة زاهية ، وكانت ديبي كلما زادت من استخدام عينيها ، زاد التناسق بينهما •

ولكن مشكلة ديبي الكبري كانت في منطقة القدرة علي الحركة ، وكان الاخصائى المعالج في هذه الناحية هو « بوب كاستر » ، وقد ذكر لي انه لما كان المخ المصاب لا يستطيع ان يوجه الجسم عن طريق الحركات التي تؤدي بصورة طبيعية من الزحف الي السير فان من الضروري ان نفرض هـــذه

الحركات بشدة على مخ الطفل ٠

ولم ادرك ماذا يعني كاستر ، الي ان وضع الطفلة علي مائدة الفحص ، ووقفت عند طرفها الامامي ، امسك رأس ديبي بين يدي ، بينما وقف زوجى مايك عند احد الجانبين وكاستر عند الآخر وقد امسك كل منهما ذراعا وساقا ٠ وبتحريك رأس ديبي ، وذراعيها وساقيها الي الخلف والامام بطريقة ايقاعية ، جعلناها تحبو وهي في مكانها ٠

وقال كاستر لي : « بمجرد تأثيرك بأسلوب ما علي مخ الطفل ، فانك يجب ان تمنحيه الفرصة لكي يعبر عما تعلمه ، بمعني ان تضعي ديبي علي ارض الغرفة بعد تعليمها الاسلوب اللازم ، ودعيها تحاول الزحف والحبو ويجب ان تكون ديبي دائما علي الارض فيما عدا اوقات طعامها وعلاجها ونومها ، فابحثي عن اكثر الارضيات نعومة وانزلاقا ، وتأكدي من بقائها دائما علي بطنها »

كنت علي كثب من ديبي دائما فلم الاحظ هذه التغييرات ، ولكن امي وابي تأثرا من رؤيتها ، فأمضيا ساعات مع مايك يتعلمان كل شيء عن البرنامج وما حدث لحفيدتهما ديبي ٠

فقلت في اصرار : « انها لن تبقي علي بطنها ، فهي تحب ان تتدحرج علي ظهرها »

فقال :

ـ من المهم الا تدعيها تتدحرج ، فاذا لم تستطيعى منع ذلك بأية طريقة أخري ، فاربطي مسطرة طويلة فى ظهرها ، ولا تقيدي حركاتها بثياب او أحذية ضيقة »

وفي اجتماعنا الاخير ، الذي خصص للتعليمات العامة ، طلب منا (بيت موران) ان نضع قناعا على وجه ديبي كل نصف ساعة ، وان نجعلها تنام علي بطنها في الفراش ليلا ، فان الاطفال المصابين بشلل في المخ ترتفع نسبة الوفيات بينهم كثيرا بسبب امراض الجهاز التنفسى ، ويوضح قناع خاص من البلاستيك علي انف ديبي وفمها لمدة ٦٠ ثانية ، وجعلها تستنشق ثانية ثانى اكسيد الكربون المنبعث منها ، يصبح من الممكن تشجيعها على التنفس العميق وزيادة قدرة رئتيها الحيوية ٠

أما سبب الاهتمام بالوضع الذي تنام فيه ليلا ، فهو تحسين تنظيمها العصبي ، فلابد ان تنام دائما علي بطنها ، فاذا كان وجهها متجها الي اليمين ، فان ركبتها اليمني يجب ان ترتفع ، وتوضع يدها اليمني في وضع

مص الابهام ، وذراعها اليسرى وساقاها متجهة الي اسفل • اما اذا كان وجهها متجها الى اليسار، فان وضع الاطراف يجب ان يعكس •

كان الوقت قد بلغ منتصف الليل عندما انتهينا من جولة اجتماعاتنا ، وكان الشيء الذي ادهشنا اكثر من اي شيء آخر ، هو مدي الهدوء الذي اصاب كل الاطفال ، وكان هناك ١٧ طفلا الى جانب ديبي مروا بهذه المحنة طوال اليوم ، ورغم تعبهم جميعا وغضبهم فان احدا منهم لم يثر فعلا ، وكأنما أدركوا بحاسة خاصة أن شيئا طيبا يحدث •

المناوشات الاولي

عندما عدنا الي فلوريدا ، انهالت علينا بقية الاسرة بالاسئلة ، وهم وندي وعمرها ١١ سنة وريكي ابن التاسعة وباتي وعمرها ٨ أعوام ••• سألونا : ماذا قال رجال المعهد عن ديبي ؟ ومتي ستسير ؟ وهل ستعود طبيعية تماما ؟ •• وبعد ان شرحت لهم البرنامج الذي وضع لها ، جلسوا علي الارض ، وفحصوا القناع والاضواء الملونة ، والتعليمات الكثيرة المحيرة التي سجلتها ، وبدت عليهم جميعا مظاهر الحماسة البالغة •

وفي الصباح التالي ، عندما بدأنا البرنامج الفعلي ، التفوا جميعا حول المائدة للمشاهدة ولكنني ماكدت ابدأ حتي شرعت ديبي في الصراخ ، فسألوني : « هل يؤلم هذا العمل ؟ » فقلت لهم: ان تعليمها الاسلوب المطلوب لا يؤلم علي الاطلاق ، ولكن ديبي ظلت تواصل الصراخ ، بينما اصررت انا علي الاستمرار ، وعندما انتهت الدقائق الخمس ، احسوا جميعا بالارتياح وانا أحمل ديبي من فوق المائدة •

وفي فترة وضع القناع علي انفها وفمها ، واجهت نفس المعركة ، فان ديبي كانت تكره تغطية انفها وفمها ، ولهذا صرخت ، وجذبت القناع ، بل وحاولت ان تعض يدي ، وقلت لاولادي البؤساء انها سوف تعتاد كل هذا بعد قليل •

وظلت ديبي تكافح كل شيء أحاول عمله طوال اليوم ، فرفضت ان توضع علي الارض ، او تنظر الي اضواء المصابيح اليدوية الملونة ، أو أن تلتقط قلما ، وكلما وضعتها على المائدة لاعلمها الطريقة اللازمة ، كانت تصارع كنمر مفترس •• وعندما وضعت ديبي المرهقة في فراشها تلك الليلة ، التفتت نحوي ابنتي وندي وقالت في سخط :

ـ ليس هذا برنامجا ، بل هو تعذيب !

واستمرت ثورة ديبي طوال اليوم التالي ، ولم تكن ترد علي اي شيء الا بكلمة (لا) حتي اصبح اظهار الاسلوب المطلوب لها مستحيلا ، وقد اصبحت عصبية حتي قبل ان نضعها علي المائدة وعندما واصلنا عملنا رغم احتجاجاتها تصلب جسمها كلوح من الخشب •

وجاءت اختي جون وزوجها الي البيت في الصباح الثالث ، وكانت ثورة ديبي قد خفت قليلا ، فاستقبلت خالتها وزوجها هاتفة « هاللو » وقرر بوب زوج اختي ان الوقت مناسب لكي يجرب هو استخدام الاسلوب معها ، وطلب مني ان اعلمه كيف يعمل علي دمية صغيرة ، وراقبت ديبي ما يجري بامعان ، وبينما كان العم بوب يحرك رأس العروسة الصغيرة في ايقاع ، راح يغني كلمات « دو — ري — مي » ثم رفع ديبي برفق ووضعها علي المائدة فلم تبك او تصرخ ، بل نظرت اليه وقالت متوسلة : « غن لى أيضا (دو — ري — مي) •

وهكذا مضت الدقائق الخمس اللازمة لتعليمها النموذج المطلوب بسهولة وسط غناء العم بوب •

وكانت وندي التي حلت مشكلة القناع ، اذ قالت لاختها انها تبدو اشبه بالحصان عندما تضعه علي انفها ، ومنذ ذلك الحين اصبح القناع شيئا محبوبا لدي ديبي •

وشكلت تدريبات عيني ديبي مشكلة أخري مختلفة ، اذ كانت ترفض ان تتبع الاضواء المتحركة ، ورغم استخدامي كل المناورات التى وضعت لها ، فان الطفلة كانت تحدق في الفضاء فقط •

وبعد ان جربت بعض الخدع المسلية ، ادركت ديبي ان تدريبات العين شيء مرح وبدأت تتعاون معي فيها ••• وفي البداية كانت ديبي تغضب وتسخط من وضعها علي الأرض اذ اعتادت ان تحمل طوال اليوم ، وزاد الامور سوءا انني كنت مضطرة الي ابقائها علي ارض ناعمة ذات سطح منزلق ، والغرفة الوحيدة الصالحة لذلك في منزلنا ، هي غرفة لعب الاطفال ذات الارضية البلاستيك ، وقد اقترحت «بيتي» ان نشتري حصيرة من المشمع يمكن نقلها من مكان لآخر ، وقد اعجبت ديبي بفكرة اختيار المكان الذي توجد فيه ، فقلت ثورتها على وضعها على الارض •

وكان وضع ديبي علي بطنها اسهل مما كنت أتوقع ، اذ أنها عندما تدحرجت على ظهرها أعدتها ثانية على بطنها وقلت في صوت حاسم : « يجب الا تتدحرجى » فتدحرجت ضاحكة ،

وعندئذ امسكت المسطرة وربطتها على ظهرها ، وهنا انت ديبي قائلة « انني لا أحبها ... ابعديها عني »

فقلت لها : انها اذا ظلت علي بطنها فانني لن اضع المسطرة علي ظهرها ، فأطاعت فورا وتوقفت عن التدحرج .

وفي أقل منأسبوع، كانت ديبي قد تعلمت كيف تتقبل البرنامج ، وجـاء اصدقاء كثيرون لمساعدتي ، كما بقيت اختي جون معي باستمرار ، وكانت ديبي تتمتع بكل هذا الاهتمام .

رسالة ابتهاج

قبل ان تمضى ديبي في البرنامج ، كنا قد رتبنا الامر لكي نقضى شهرا في جرينبيرج بوست فيرجينا ، ولكن الاسابيع الثلاثة الاولي هناك كانتشاقة اذ لم نكد نفرغ حاجاتنا ، حتي راح الاولاد يتسلقون طريقا جبليا ، وقـد تركونا انا وديبي وراءهم ، واردت ان اتبعهـم ، وان انسى كل شيء عن البرنامج ، حتي اصبح حرة كالاطفال في مطاردة الفراش الجميل فوق سفح الجبل ..

وبينما كنت اعمل وحدي في الكوخ مع ديبي ، بدأت اشك في قيمـة البرنامج .. أى دليـل علي انه سينجح ؟ وحتي اذا نجح ، فهـل ستكون عندي القوة للاستمرار فيه ٨ سـاعات كل يوم دون اي راحة اسبوعية او خلال العطلات والاجازات ؟ لقد امضيت اسبوعا واحدا مع ديبي منذ بدأ البرنامج ، فاذا بي اشـعر بالارهاق واستنزاف القوي ، فمـاذا سيحدث بعد شهور وشهور .. بل ربما اعوام واعوام ؟

ومضىالصيف منسيىء الى أسوأ، وقد جعلتني خيبة الامل سريعة الثورة على الاطفال ، فكنت انتقد طريقـة تنفيذهم للاسلوب مع ديبي ، في حين انني اعـرف انهم يبذلون كل ما في وسعهم ، ورفضت عرضهم البقاء مع ديبي في المنزل ، ثم جعلتهم يشـعرون بالذنب لانهم خرجوا !

ولكن مسلكي كله تغير ، عنـدما جاءت امي وابي لقضاء اسبوع معنا ، وقد ابتهجا لرؤية ديبي ، وقال ابي وهو يقذف بها في الهواء : « انهـا تبدو رائعـة ! .. ان ظهرها اكثر قوة وعيناها اكثر استقامة ، وقد اصبح صوتها عاليا »

واثرت حماسـتهما علي نفسى ، فاستعادت الجبـال بهاءها وعادت اشجار الصنوبر تفوح بأريجها فيأنفى واصبح البرنامج اعظم فكرة في هـذا العصر !

وفي آخر أيامنا في الكوخ ، انهمكنا

جميعا في حزم اشيائنا الى حد أننا تركنا ديبي وحدها وسط الغرفة ٠٠ وفجأة صاحت امي وابنتي بيتي معا : انظروا الي ديبي ! من الذي أجلسها هكذا ؟ »

ولدهشتنا لم يجب أحد ٠٠ ورحنا نسأل الاطفال واحدا بعد الآخر ، فأكدوا انهم لم يقتربوا منها ٠

وقالت ديبي في زهو : « لقد جلست بمفردي » .

وهكذا انتهت عطلتنا الصيفية فى الجبال بملاحظة اثارت الابتهاج فى نفوسنا !

كلمات حمراء كبيرة

تعهدنا بالعودة الي المعهد كل شهرين وقد حان الوقت الآن للذهاب ٠٠٠ اي تغيير وجدناه في الجو خلال تلك الزيارة لقد اظهر كل طفل في البرنامج تحسنا ، وكان كل اب تواقا لاظهار هذا التحسن وما ان وصلنا الي غرفة الانتظار حتي وضعت انا ومايك «ديبي» علي الارض مع طفلين آخرين ، فسحبت نفسها نحوهما ، وبدأوا جميعا في اللعب على الفور ببعض اللعب ، حتي اكتشفت ديبي عروسة مصنوعة من الخرق تحت المقعد ، فجذبتها من ساقيها ، وهنا اغرق الآباء جميعا في الضحك فقد نظم الاطفال الثلاثة انفسهم حول «العروسة» واخذوا يدربونها بقوة كما يفعل معهم آباؤهم !

وفي خلال فترة الشهرين من اغسطس الي اكتوبر ، كانت ديبي قد تقدمت حوالي خمسة اشهر في سنها العصبية ، كما أظهرت تحسنا عظيما في اللغة ، مع اننا لم نوجه الا اقل الاهتمام الي هذه الناحية ، فقد ارتفعت عدد الكلمات التي تعرفها من ٢٠٠ الي ٢٠٠٠ واصبحت تتحدث بسهولة في عبارات قصيرة ولكنها كاملة ٠ ولكن نمو الحركة لديها ظل ثابتا ، وهي الناحية التي كانت تسبب اكبر القلق لنا ٠ كانت ديبي قد بدأت تحرك ساقيها حقا في محاولة للحبو ، ولكن المعهد لن يمنحها «تقديرا» الا بعد ان تستطيع بلوغ اسلوب اكثر استمرارا

وقال مستر دومان ، وهو يستعرض انجازات ديبي : « انني اشعر حقا ان زهرتكم الصغيرة علي استعداد الآن للسير في برنامج كامل »

وتبادلت النظرات مع زوجى ٠٠٠ **برنامج كامل ؟** ٠٠ يبدو ان الناس في هذا المعهد لا يعرفون كم ساعة في اليوم ! ولكننا طوال الثمانية عشر شهرا التالية ، كان علينا ان نتعلم مرة بعد أخري ان اليوم الذي يحوي ٢٤ ساعة يمكن بل ويجب مده ٠

وشرحت لنا هازل دومان اول عملية توسيع للبرنامج بعد ان جلسنا فى غرفتها بقولها : « سوف تبدأون مع ديبي برنامجا للقراءة » •

ولم استطع ان اصدق ماسمعته •• ان ديبي لم تبلغ بعد الثالثة من عمرها وقد بدأت لتوها تعلم الكلام ، كما انها لا تبدي اي اهتمام بالحروف الابجدية ومع ذلك فان المعهد يتوقع منها ان تقرأ ! !

ومضت مسز دومان في حديثها متجاهلة ما اظهرته من هلع ، وقالت تشرح الطريقة :

« اننا نبدأ بحروف كبيرة حمراء ـ وصور الجسم هي الافضل ، لانها مألوفة اكثر من غيرها ـ علي ان نقدمها للطفل بمعدل كلمة في كل مرة »

وسلمتني مسز دومان ٤٠ كلمة ضخمة مطبوعة علي ورق مقوي ثقيل واكدت لي ان ديبي تستطيع ان تتعلمها

وعندما عدت الي البيت ، كنت لأزال اشك في فكرة التعليم المبكر للقراءة • ولكني احسست انني يجب ان احاول علي الاقل • وفي اليوم الاول بعد الرحلة اخرجت من مجموعة الكلمات كلمة «اذن» وقدمتها لديبي ثم بدأت اقول في حذر : « هيا نلعب لعبة •• هذه صورة لكلمة ••• انها طريقة أخري لكي تقولي (اذن) » وظللت طوال النهار ابرز امامها كلمة «اذن» في كل مكان ، وكانت ديبي تقول في حماسة كلما ظهرت امامها : «اذن» •

وفي اليوم التالي قدمت لها كلمة «انف» بعد ان وضعتها علي المائدة في ايماءة كبيرة ، فقالت ديبي «اذن» وظلت تقاوم بعناد تعلم كلمة جديدة • وظلت «الاذن» و «الانف» خلال اليومين التاليين تصاحباننا باستمرار وعلقت كلمة (انف) علي لعبة الدب الكبير ، وكلمة «اذن» علي عروسة • وفي نهاية اليوم الثالث اصبحت كلمتا (اذن) و (انف) من الممكن التمييز بينهما بسهولة بالنسبة لديبي •

خلال الايام العشرة التالية ، ظللت أقدم كلمة جديدة كل يوم ، ولكن سرعان ما اصبحت الكلمة الواحدة كل يوم غير كافية لديبي ، فشرعت اكتب بطاقات لكل شيء في المنزل بما في ذلك أخواتها واخوتها • وكم كانت دهشتي عظيمة عندما تعلمت ديبي قراءة مائة كلمة في الشهرين التاليين !

وفي خلال الشهر التالي زرنا مدينة ملاهي (ديزني لاند) ، وسان فرنسيسكو ، ومزرعة للماشية في في كلورادو ، وكنا حريصين علي متابعة البرنامج •

وبعد عشرة أيام بهيجة في المزرعة انتهت عطلتنا ، وكانت أجازة رائعة حقا لم يتعطل خلالها برنامج «ديبي» يوما واحدا ، بل الواقع أن الرحلة أضافت قليلا من المتعة الي كل شيء، باضافتها مزيدا من التحـــدي لنا ، وازداد انهماك الاطفـــال في البرنامج أكثر من أي وقت آخر فأصـــبحوا يدركون المطالب والمشـــكلات التي تتعلق به ، ويتطوعون لبـذل أقصى جهودهم لانجاز العمل ٠

وعدنا الي المنزل في الوقت المناسب لمواجهة الاعصار ، وكنت أقول دائما أن كل شيء يستطيع أن ينتظر برنامج ديبي ، ولكن الاضطراب الشامل الذي خلفه الاعصار زعزع عزيمتى ، فلم تعد ديبي تحصل علي نصيبها الكامل من وقتي ، الي أن عاد كل شيء في البيت الي حاله ، وعندما أصبحت مستعدة لتكريس نفسى للبرنامج مرة أخري ، كانت لدي ديبى أفكار أخري

وقالت لي بلهجة قاطعـــة : « لن أقوم بتمرينات الحبو بعد ذلك » ٠

فقلت معترضة : « بل عليـك أن تقومي بالحبو يا سيدتي الصغيرة ، وهذا أمر لا مفر منه » ٠

وصرخت ديبي ، وصـــــرخت في وجهها ، وأخـذ التوتر يزداد لحظة بعد أخري ، وأخـيرا التفتت ديبي نحوي وقالت في سخط تام : « انني أكرهك يا أمي ٠٠ أكرهـك وسوف أهرب بعيدا عن البيت » ٠

وأثارنا ما في ذلك القول من فكاهة في لحظة واحدة ٠٠ فقلت لها :

ـ اهربي يا صغيرتي ، ولن تنتهي بذلك منحبوك فحسب، بل وسأحضر لك القمر علي طبق من الفضة أيضا!

وضحكنا معا ضـحكة من الاعماق أعادت جوالهدوء ، ومضيت أنا وديبي نواصل عملنا في دأب وجد !

لا داعى للعجلة

ولكن أبهج الاشـــياء جميعا ، أن الحياة مع ديبي الان أصبحت متعة٠ وكانت توجه جدول المواعيد اليومى، وتتابع مواعيد اخوتها جميعا ، وتتأكد من أن والدها قد تناول قرص الدواء في الصباح ، وتنهره عندما يخرج على نظامه الغذائى ، وتذكر «باتي» بموعد تدريباتها ، وتجعـــل «ريكي» يمشط شعره بالمشط بدلا من أصابعه حتي لقد أطلقنا عليها اسم «مديرنا العام»٠

وأخيرا ، عند زيارتنا للمعهـد في ابريل ، أثار مســـتر دومان مسألة مشى ديبي٠ وقد نطقت هذه الكلمات التيكنا ننتظرها بلهفة منذ زمنطويل، خلال التقدير النهائى الذي كان دومان

يذهي به زيارتنا دائما •• فبعد أن فحص بطاقة ديبي ودرس تقـــارير رجال المعهد ، أشرق وجهه سرورا وقال : « ان زهرتكم الصغيرة تقدمت جيدا ، وقد قطعت ساقاها وكاحلاها شوطا طويلا خـــلال العشرين شهرا الماضية •• أجل •• هذه الفتـــاة الصغيرة ستكسب معركتها » •

وكدت أسأله : « متي ستمشى ؟» ولكنه مضي يقول : «يسرني أنكم لم تسألوني متي ستمشى ، فانالطريقة الوحيدة لافساد الاشياء هي العجـــلة الشديدة في انجـازها ونحن لا نريد أن نقنع بأي نوع من السـير ، بل يجب أن تكون ديبي كاملة تماما في مشيها عندما تنهض علي قدميها »

***

واستغرقت ديبي في النوم قبل أن تغادر طائرتنا المطار الي ميـامي في تلك الليـلة ، وبينما كنت أتطلع الي وجهها الهاديء الصغير ، ظلت كلمات مستر دومان تتردد في ذهني : «هذه الفتاة ستنتصر » •• كانت تلك كلمات مليئة بالامل ولكنى كنت أريد شيئا أكثر من ذلك •• كنت أريد أن أعرف متي ستنتصر • أريد من دومان أن يحدد لي تاريخا ، أسجله في تقويمي السنوي •

وعندما بلغنا ميامي كان مايك وأبي في انتظارنا بالمطار وقد انهـالا علي بالاسئلة طوال الطريق في حماســة رائعة حتي لقد نسيت جدول مواعيدي •• وقلت لنفسى : ما أهمية الوقت الذي نستغرقه ، مادمنـــا سوف ننجح في النهـــاية ؟•• وأي شيء أستطيع أن أفعله في هذا العالم أكثر متعة من العمل مع طفلتي الصغيرة ومشاهدتها وهي تشفى ؟

شعلة من المجد

أخذت الايام تمضى كالـــبرق ، وسرعان ما حان موعدنا في يونيـو بفيلادلفيـــا ، بعـد أن قضت ديبي حوالي عامين منـذ بدأت البرنامج وقد صحبنا في هذه الرحلة أبيوأمي، وعمي وأحد أصـــدقاء الاسرة من واشـــنطون •• ولكن ديبي لم تكن تخشى كل هؤلاء المتفرجـــين

وقد دل اختبار انعكاسات قدميها العصبية علي أن الحركات التي كانت تكشف عن عدم نضـــج عصبي قد اختفت تمـاما ، وقال «بيت موران» الذي اختبرها أن ديبي حققت خطوة جبارة الى الامام •

فقالت ديبي وهي تتوقع الاختبار التالي : « وأستطيع أن أهز أصـابع قدمي أيضا » فضـحك بيت قائلا :

« أيتها القردة الصغيرة انك تعرفين الحبال جيدا · سوف نسند اليــك عمـلا ما هنا في يوم من الايام ·· والان هل يمـــكنك أن تؤدي بعض الزحف الجيد من أجل العم بيت ؟»

وزحفت ديبي عـــبر الغرفة دون جهد ، فقال بيت في دهشة : « لقد نجحت فكرة صـــندوق الحبو بكل تأكيـــد ، فهي تزحف وركبتـــاها متباعدتان وهذا عظيم جدا » ·

وكذلك ابتهج تاكي الذي اختـــبر عيني ديبي ، اذ ثبت أنها تستطيع استخدام عينها اليســري واليمني في توافق تام ، مما أكد قوة ابصارها ·

وفي نهاية جولة المعالجين ، سرنا نحو مكتب مســتر دومان ، وكانت زيارة جلين دومان دائما هي أعـلي مرحلة في التقييم ، وكان لهذا اليوم أهمية خاصة ، وبعـــد أن استقبلنا ورحب بنا وجه حديثه لديبي قائلا :

«حسنا أيتها الفتـــاة الصغيرة ، لقد حققت أشياء هامة جدا في هذين الشهرين الماضيين فتحسن توازنك ، وتعلمت الزحف دون أن تصـــطدم ركبتاك معا ·· فماذا يعنى هذا من ناحية ما ستفعلين بعد ذلك ؟ » ·

ثم تحدث الينا وقال : « لاول مرة سوف أحاول أن أقــدم لكم ردا ·· انه لن يكـــون الرد الذي تريدونه بالضبط ، ولكنـــه سيكون ردا طيبا جدا » ·

في تلك اللحظة حدســنا ما سوف يقول ، وجلسنا جميعا علي أطراف مقاعدنا ، ولكن جلين مضى في حديثه غير المتعجل فقال : « لقد بلغت ديبي الان توازنا وســيطرة كافيين بحيث أصبح المشى ممكنـــا لها ·· وأنا كصديق للاسرة ـ لا كمعالج ـ كان في استطاعتي أن أجعلها تبدأ السير من قبل، ولكنني أعرف أن ذلك سيكون سابقا لاوانه ، ومن ناحية أخري ، فانه بعد مرور عام من الان ، ستكون ديبي قد اعتادت الزحف الي حد أنها لن ترغب في المشى ·· وحتي كمعالج فانني لا أريد الانتظار كل ذلكالوقت ·· وفي وقت ما فيما بين الان وبعد عام ، توجد اللحظة المناســبة لكي تبدأ ديبي السير ·· فلنرج الله أن يلهمنا في هذا المعهد الحكمة والتقدير لاختيار تلك اللحظة بالضبط » ·

عند هــذه اللحظة ، انتزع جلين أملا قويا من نفوسنا جميعا ، ولكنه أصر علي موقفه قائلا : « مهما كان الاغراء ، فانكم يجب الا تحاولوا أن تستبقوا الامور فى موضوع ديبي · وعندما تقف علي قدميها أول مرة ،

أريدها أن تكون هنا تحت اشرافي فاذا فقدتم صبركم في هذا الصدد ، فانكم قد تعرضون كل ما فعلتم للخطر » ٠

ورن صوته مرة أخري وهو يستعرض التغييرات في برنامج ديبي، كان التغيير الاكبر في الاسلوب الجديد لتدريبها ، اذ ينبغي علينا أن نمسك قدم ديبي بدلا من ساقها ، وأن نلوي كاحلها التواءة اضافية ، كما اننا يجب أن نغير حجم صندوق الحبو لكي نصغر مساحة حبوها ونجبرها علي أن تزيد قوة الدفع بقدميها ٠ واقترح جلين أن نخصص اليوم كله للحبو والزحف وتعليمها الاسلوب الجديد ، وغادرنا المعهد فى شعلة من المجد ٠

وقابلنا مايك في المطار في الصباح، ثم انهال علينا بالاسئلة بعد ذلك ، وكان يبدو أبا أكثر منه طبيبا وقد سألنى قائلا : « هل قال جلين حقا أن ديبي ستسير خلال عام ؟ قولي لي الحقيقة من أعماق قلبك ٠٠ هل تعتقدين حقا أنه على صواب ؟ »

فقلت مؤكدة له : « أجل ٠٠ سوف ننتصر في معركة ديبي » ٠

اهربى ٠٠ أيتها الفتاة الصغيرة !

كان أكثر ما أحتاج اليه خلال اليومين التاليين ، هو ثلاث آذان اضافية ، فان الاطفال الخمسة كانوا قد اختزنوا قصصا كثيرة خلال الاسابيع الثلاثة ، فلم يتوقفوا عن الحديث منذ عودتنا ٠٠ وأخيرا استطعت أن أعيد الهدوء الي العش لكي استدعى مدرسة ديبي الجديدة، وسألتها : « كيف حال ديبي في المدرسة ؟ » ٠

فأجابت مسز وايزمان : « علي مايرام ٠٠ ولكن ديبي أثارت مشكلة هامة » ٠

فقلت في قلق : « مشكلة ؟ ٠٠ ما هي ؟ » ٠

فقالت وهي تبتسم : « انها مشكلة خطيرة ، فان كل الاولاد والبنات يتقاتلون من أجلها » ٠

وحان موعد زيارتنا للمعهد في أكتوبر ، وبينما كنت أستقل الطائرة مع أمي وديبي الي فيلادلفيا ، كانت ديبي تبدو أشبه بسيدة صغيرة بثوبها الازرق ، وحذائها وحقيبة يدها الصغيرة ، وقد صففت شعرها الي الوراء وربطته بشريط من الخلف٠

ومرت ديبي بسرعة قياسية خلال اختبارات تقييمها ، فقرأت قصة علي مستوي السنة الخامسة الابتدائية ، والتقطت قطع النقود ، وحبت وزحفت

بنشاط ، وأظهرت سيطرة علي عينيها وأذنيها • ولما كان جلين دومان بعيدا عن المدينة ، فقد أعدت الدكتـــورة روزالى ويلكنسون ملخصا عن الحالة ولكنها لم تكن مرتاحـــة تماما الي حركة القدمين خلال الحبو ، وكذلك الزحف وقالت انها مازالت تهتز كثيرا وتحرك يديها أكثر مما يجب •

وأحسست بقنوط كان يتزايد لحظة بعد أخري ، ثم طلبت مني الدكتورة ويلكنسون فجـــأة أن أحاول ايقاف ديبي ، فقلت متسائلة : « أهـــذا ممكن؟» وركعت بجوار ديبي وأمسكت يديها بيدي •• وببطء وتردد ، نجحت ديبي أخيرا في شـــد ساقيها ووقفت علي قدميها • فقالت ويلكنســون : « هذا طيب جدا • أعتقد أنها أصبحت مستعدة لحمل ثقلها » •

واستغرقت ديبي في النوم بعد ثوان في تلك الليلة ، وكنت وحدي في غرفة الفندق وقد أتيـــح لي أخيرا وقت للتمتع بالفرحة الغامرة التيإجتاحتني في ذلك اليوم • لقد وقفت ديبي !•• وقفت ديبي ••! ولم يكن الامر حلما •• واتصلت بالاسرة تليفونيا وأبلغتها نبأ الانتصار العظيم•• وطغت الفرحة على قلوب أبنائي جميعا ، وأدركت أنهم جميعا سعداء ، فخورون بهـــذا النصر •

حقا انني كرست جزءا من حياتي من أجل ديبي وبرنامجها، واستخدمت كل مورد من الحب والطاقة والخيال والذكاء الذي وهبتني اياه الطبيعة ، ومع ذلك فانني اذا قسـت كل ذلك بما نلته أخيرا ، وجدت أن مساهمتي لم تكن ذات بال •

تريهل أستطيع أن آمل منح ديبي جسما قويا ســـليما ؟ انني أعرف التشخيص الذي تقـــدمه السلطات الطبية لديبي في أنحـــاء العالم • ان ديبي مصـــابة بشلل في المـــخ وكل الاحصاءات ضـــدها ، ففي كل تاريخ الطب لم تسجل حالة شفاء واحدة من هذا المرض •• وحتي وأنا أكتب هذه الكلمات ، أقاومهم بكل قلبي •• وأنا أذكر ما قاله مستر دومان في مقابلتنا الاولي :

« ان هدف هـــذا البرنامج ليس اعداد طفل **أفضل** ، أو طفـــل في حالة طيبة تقريبا ، بل طفل في حالة **طيبة تماما** • وعندما تلحقين ديبي بسنتها الاولي بالمدرسة ، فليس من الضروري أن تعرف المدرسة أنها كانت مصابة في مخها » •

لقد رسم دومان لنا مستقبلا أبعـــد بكثير من أكثر ابتهالاتنا حماســـة ،

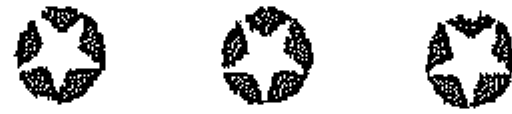
ولم نثق كثيرا بهذه الخطة في البداية، ولكن ديبي ازدادت قوة وتحسنا أسبوعا بعد أسبوع ، وشهرا بعد شهر ، حتي تكون حلم في قلوبنا ، ونحن نعرف أن هذا الحلم سوف يحدث في يوم ما.. وفي يوم ما سوف نقول لديبي : « اهربي أيتها الفتاة الصغيرة !» وسوف تقف علي قدميها .. وتسرع بالفرار !



حلم !

كان الملحن ايرفنج برلين خبيرا في الارق ، يقول انه لم ينم طوال ٣٢ عاما ، وحدث يوما ان كان يقضي عطلته في برمودا مع الصحفي ايرفنج هوفمان . وذات صباح لاحظ هوفمان ان الملحن يبدو اكثر كآبة من المعتاد .. فسأله عما اذا كان قد نام خلال الليل .. فقال برلين في مرارة :

ـ اجل .. لقد نمت .. ولكنني حلمت انني لم انم ! ..

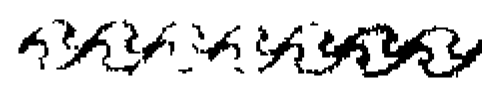


تاكتيك !

دخل جاي برنيان من مديري مجلتي ((تايم ولايف)) يوما احد المصاعد ، ولم يكن فيه غير سمراء ساحرة الجمال ، ومعها طفل صغير يمسك يدها بقوة ..

وبعد ان اغلق الباب واخذ المصعد في الهبوط ، انحنى بريان على رأس الطفل وربت عليه وقال له :

ـ قل لي يا عزيزي .. ألم يقل لك احد ابدا أن لك أما رائعة الجمال !



ايحاء قوى !

قال المنتج السينمائي بريان فوى لبعض اصدقائه :

ـ انني استقبل ممثلين يلجأون الى كل وسيلة للحصول على عمل في افلامي ، ولكن افضل وسيلة شهدتها عندما اتصل بي احد الاشخاص ذات يوم ، وقال لي : ((بريان .. انني لا اتصل بك من اجل عمل ، ولكنني اكتب الآن خطابا لأمي ، واعتقد انك تستطيع ان تساعدني في هجاء كلمة (سوء التغذية))) !

كتاب الشهر

سفينة الأمل

HOPE

قصة "هوب" أول سفينة طبية في العالم

ورحلتها المثيرة عام ١٩٦٢ في بيرو

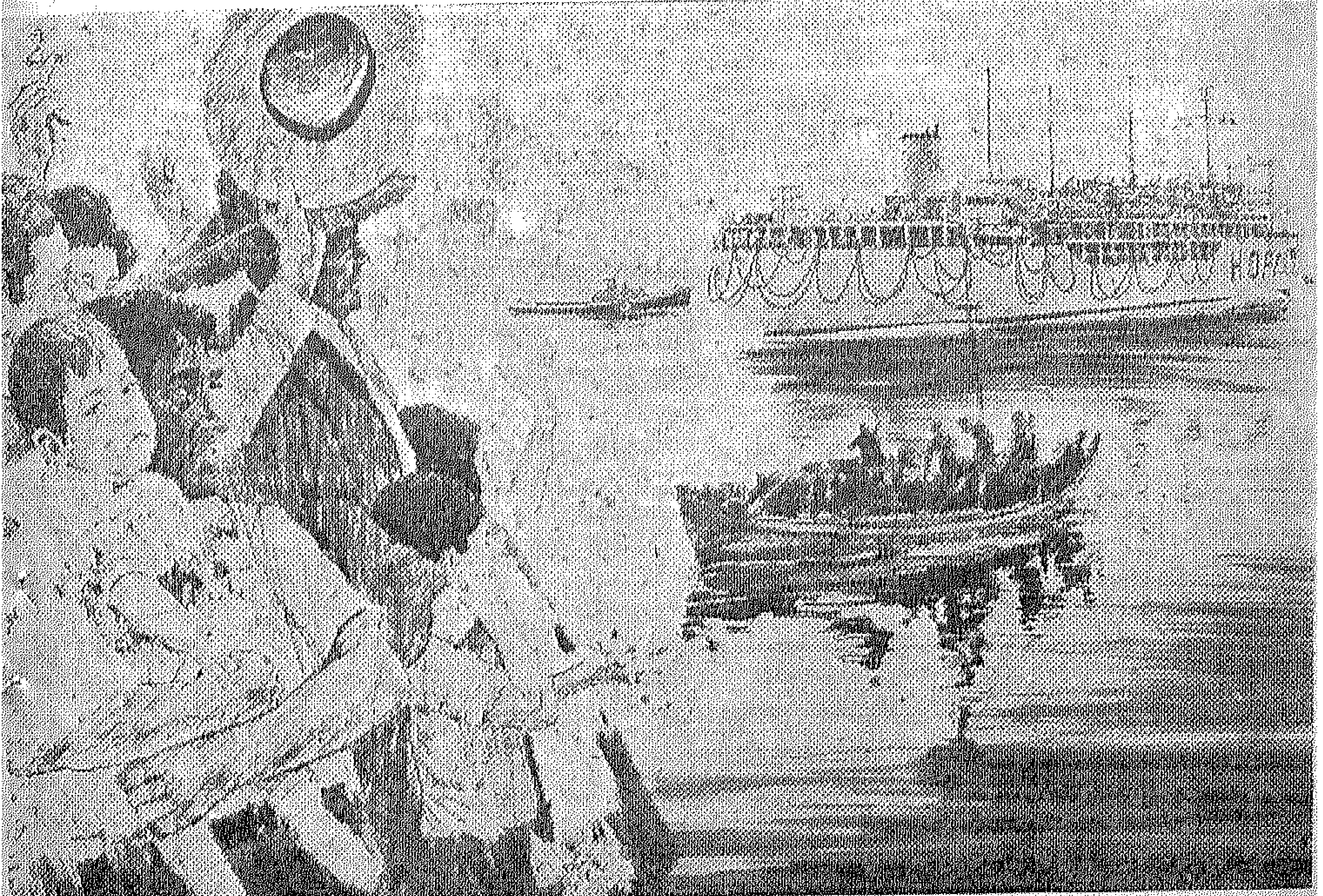
ملخصة عن كتاب

YANQUI, COME BACK

بقلم دكتور ويليام والش

لم يكن هناك اكثر من ١٢ شخصا في استقبال السفينة « هوب » أول سـفينة مستشفى في العالم في وقت السلم ، عندما القت مراسيها في ميناء سـالافيري الصغير ببيرو في مايو ١٩٦٢ ٠٠٠ ولكنها عندما اقلعت بعد ذلك بعشرة شهور ، احتشد ٤٠ الف شخص علي الشاطيء لوداعها هاتفين باكين ، او مشيدين في صمت بأطبائها وممرضاتها ٠٠

وهذه هي القصة الرائعة لفريق من النـاس استطاعوا ان يكسبوا قلب دولة ، بأعمالهم التى تتسم بالايثار٠٠



سفينة الامل

بدأت الرحلة في الحقيقة ، عندما دق جرس التليفون على مكتبي في مقر قيادة « هوب » في واشنطون ذات صباح في أواخر عام ١٩٦١ ، كان المتحدث هو بيل ثومان الصديق القديم الذي كان أحد ضباط الخدمة الخارجية في أمريكا اللاتينية ، وسرعان ما قبلت دعوته للغداء .

وقال بيل : « وبهذه المناسبة ، سيكون معنا أحد اطباء بيرو .. الدكتور فرناندو كابسيس ، واعتقد انك سوف تهتم بما سيقوله »

ومع انه حاول ان يبدو حديثه عرضيا ، فلم يكن لدي شك في ان دعوة بيل تتعلق بسفينتنا «هوب» . فقبل ذلك بثلاث سنوات كان الرئيس ايزنهاور قد عينني أحد رئيسى اللجنة الطبية لبرنامج « من شعب الي شعب » وهو منظمة لا تستهدف الربح يدعو لمشروعات المساعدات المتبادلة للمواطنين والمجتمعات الصغيرة في انحاء العالم ، وفي ذلك الحين كانت لدي فكرة ارسال سفينة مستشفى الى المناطق المحرومة من الخدمات الطبية في العالم ، وكنت اعرف ان هناك الكثير من امثال تلك السفن عاطلة عن العمل ، ومن ثم فانني طلبت الي توماس جيتس وزير البحرية ان يعطيني واحدة منها .

وعندما اقر جيتس الفكرة ، بدا تنفيذ مشروع «هوب» وقد اشتق الاسم من الحروف الاولي لعبارة « فرص صحية للناس في كل مكان » باللغة الانجليزية ولكن كان علينا ان نتعامل مع اكثر من ٢٥ وكالة حكومية قبل ان تخصص السفينة الحربية الامريكية (كونسوليشن) وحمولتها ١٥ الف طن لاستخدامها ويعاد تجهيزها بمعرفة البحرية . ثم بدأت التبرعات العامة تنهال علينا ، ومن بين تلال من طلبات الاستخدام ، انتقينا الفريق الاول من المتطوعين للعمل معنا من الاطباء والمرضات ، وفى النهاية اطلق علي السفينة « كونسوليشن » في أواخر عام ١٩٦٠ اسم « هوب » وبدأت رحلتها الاولي في جولة بجنوب شرق آسيا تستغرق عاما .

كانت تلك الرحلة ناجحة نجاحا مذهلا ،

ففي أندونيسيا وحدها عالجنا ١٨ ألف شخص ، وأجرينا ٧٠٠ عملية جراحية هامة ، وعقدنا ٨٠٠ جلسة تعليمية ، ووزعنا اكثر من ٣٦ الف كيلوجرام من مسحوق اللبن ، و٢٠٠٠ من الاطراف الصناعية ، وفي فيتنام ، اتممنا برنامجا للتطعيم الشامل للاطفال الفيتناميين لاول مرة في تاريخ البلاد ، بالاضافة الي علاج ١١ الف مريض •

وبعد ان انتهت رحلتها الاولي ، كانت (هوب) تقف في سان فرنسيسكو لاجراء اصلاحات ماسة بها ، وعندما ذهبت الي موعدي مع بيل ثومان ، ساورني الشك في ان صديقه طبيب بيرو قد يود الحديث عن رحلتها الثانية •

وأكد الدكتور كابسيس او (كابي) ـ كما طلب مني ان اناديه ـ حدسى وكان رجلا قصيرا ممتلئا ، أبيض الشعر ، ازرق العينين ••• ولم يضع اي وقت بل قال لي :

« اننا في حاجة الي المساعدة يادكتور والش•• ونحتاج اليها الآن! »

كان كابي يتكلم الانجليزية بطلاقة اذ تعلمها خلال سبع سنوات من الدراسة الطبية في الولايات المتحدة ، ومنذ ذلك الحين اكتسب سمعة كأحد كبار جراحى الاعصاب في أمريكا اللاتينية •

وبدأ كابي يناقش مشكلات بيرو بهدوء ، وهي المشكلات التي تعكس المتاعب التى نكبت بها غالبية أمريكا اللاتينية ، كانت الدولة في حالة اضطراب سياسى ، فالاضطرابات وحوادث الشغب ومظاهرات الطلبة تنفجر بانتظام مزعج ، نتيجة فقر وبؤس حقيقيين • (وقد علمت أن متوسط دخل الفرد هناك ٢٣٥ دولارا فى العام) والناس في كل مكان يطالبون بالتغيير ، أي تغيير ، وفي كثير من الاحيان يصعد الي السلطة المرشحون اليساريون المتطرفون مستغلين هذا السخط •

وقال لي : « انني مقتنع بأنك تستطيع ان تحقق هدفين كبيرين بعملك في بيرو احدهما ادخال الوسائل الحديثة في العلاج الطبي في نطاق المهنة التي نكبتها الغيرة والتنافس ،فالاطباء القدامي يرفضون تدريب الشبان خوفا من فقد السيطرة امام المنافسة الجديدة ويمكنك ان تثبت لهم ان التعليم هو التقدم ، وان كل طبيب يزداد تحسنا بفضل الطلبة الذين يدربهم •

اما الكسب الثاني الكبير ، فهو ان تكفل الرعاية الطبية للفقراء ، فان

«هوب» تستطيع ان تبين للناس ان الامريكيين يهتمون بهم حقا ، وانهـا يمكن ان تكون سبيلا الي التقدم لا لبلادي وحدها ، بل للقارة بأسرها »

وقال كابي ان من الاسباب التي تجعل الفقراء لا يتلقون الا علاجا ضئيلا ، ان اغلب الاطباء يمارسون عملهم في العاصمة ليما وحدها لانها أغني المدن • ثم قال :

« هذا هو السبب في أنني ارجو ان تفكر في الحضور الي جامعـة ترو جيللو في الشمال ، فاذا استطعنا ان نحول تروجيللو الي مركز طبي ، فستكون تلك خطوة كبري نحـو نشر مواهبنا الطبية في أنحاء البلاد »

وسكت كابي قليلا ثم ثبت بصره نحوي ، حتي أحسست بقوة عواطفه وهو يقول :

« والآن دعني اسألك ياصديقي •• هل تأتي اذا تلقيت دعوة رسمية ؟ » فمددت اليه يدي وقلت : « سيشرفني ذلك يادكتور »

بلاد قبائل الانكا

وسـرعان ماتلقيت الدعوة من عميد كلية الطب بجامعة تروجيللو ، وفي أوائل ديسـمبر ١٩٦١ انطلقت بالطائرة في أولي زياراتي لبيرو •

ان بيرو تنقسم من الناحيـة الجغرافية الي ثلاثة أقسام : الصحراء الساحلية ، والجبال ، والغابة : ثلاث ثقافات وثلاثة اجواء ، ولكن معشعب واحد • وكان الجزء الذي عرفته اكثر من غيره هو الصحراء الساحلية التي تمتد ٢٢٥٠ كيلومترا وتصـل من شيلي في الجنوب حتي اكوادور فى الشمال • وعلي طول اجزاء من هذه الصحراء ، لم تسقط اية امطار منـذ ٤٥ عاما ، ومع ذلك فان ثلث سكان بيرو يعيشون في تلك المنطقة • ان الرمال الجرداء تغطي اطلال حضـارة الانكا ، وقد علمت ان من اكثر موارد الكسب التي يسلي بها سكان الساحل أوقاتهم ، نهب القبور ، والبحث عن الكنوز القديمة : الخـزف السـابق لعصر الانكا ، والعدد ، بل والثياب التي حفظتها الرمال الجافة والجـو الجاف علي مر القرون •

وكان كابي قد أعد لنا سـيارة لنقلنا من ليمـا الي تروجيللو علي مسـافة ٥٠٠ كيلومتر شمالا علي الطريق العام الموصـل بين الدول الامريكية ، وهذا الطريق الذي يتلوي كالثعبان ويشق طريقه خلال جبـال الانديز الساحلية ، هو طريق الرعب فان اتساعه لا يكاد يكفى مرور سيارة نقل وسيارة عادية معا ، ومع ذلك فان

اي شخص يقود سيارته بسرعة اقل من ١٠٠ كيلومتر في الساعة يقابل بالاحتقار التام ٠

وثالث مدن بيرو هي تروجيللو وسكانها ٤٠ الفا ، وتقبع في واد على مسافة بضعة كيلومترات من البحر، وقلب المدينة عبارة عن منطقة بها مصرف وبعض المتاجر الحديثة ، الا انها لاتزال مدينة مستعمرة كلاسيكية في الحى القديم حيث لكثير من البيوت حاجز حجري فوق الشوارع ، كما ان هناك شوارع جميلة المنظر ، وحديقة عامة فسيحة ، مع الميدان الاسباني التقليدي ، الذي تتاخمه من أحد الجوانب كاتدرائية ضخمة ، والغلمان ماسحو الاحذية في كل مكان ٠

وفي بهو فندق « توريستا » قدمني (كابي) الي الدكتور جورج دي فيناتي كولينز استاذ التشريح بكلية الطب وهو رجل طويل القامة يضع عوينات ذات اطار اسود علي عينيه ، وقد وصف نفسه بأنه « أقبح رجل في تروجيللو » ٠ وكان الدكتور فيناتي قد عرض ان يخدم كمنسق لبعثتنا في بيرو ، وقد تولي هذه العملية مدركا انها ستجعله غير محبوب لدي طلبته والاطباء المحليين الذين كانوا ساخطين علي الامريكيين فعلا ، فاذا فشلت البعثة ، فانه قد يفصل من الكلية ، ولكنه كان يعرف الفرصة الكبيرة التي تعرضها (هوب) ٠

وفي كلية الطب ، وهي مبني ابيض حديث من طابقين يحتل مربعا كاملا من الارض ، كان عميد الكلية وبعض هيئة التدريس في انتظارنا ، وعندما دخلنا الغرفة ، نهضوا في ادب ، ولكن رجلا واحدا فقط هو الدكتور بيرس فالكون رئيس قسم الباثولوجى كان يبتسم ، اما التعبيرات التي بدت علي بقية الوجوه ، فكانت تتباين بين الحذر والعداء الصريح ٠

ورحب بنا العميد هيركليو اوبجوين وقدمنا لزملائه ٠ وكان هناك الدكتور الفريدو آكونا استاذ الجراحة بمستشفى بيلين الملحق بكلية الطب ٠ وكان يبدو بارعا فخورا بعمله ، وكان ميدان عمله هو الذي نستعد لغزوه بناء على دعوة شخص آخر ، وكان في استطاعتي ان ادرك سر التحفظ الذي بدا في هزة رأسه الصلب لتحيتنا وكان هناك ايضا الدكتور اليجاندرو أولوا ، وهو طبيب باطني في مثل سني تقريبا ، وبدا علي منظره وكأنه يقول « حسنا ٠٠٠ هأنت هنا فأرني ماذا تستطيع ! »

وثمة طبيب آخر هو الدكتور

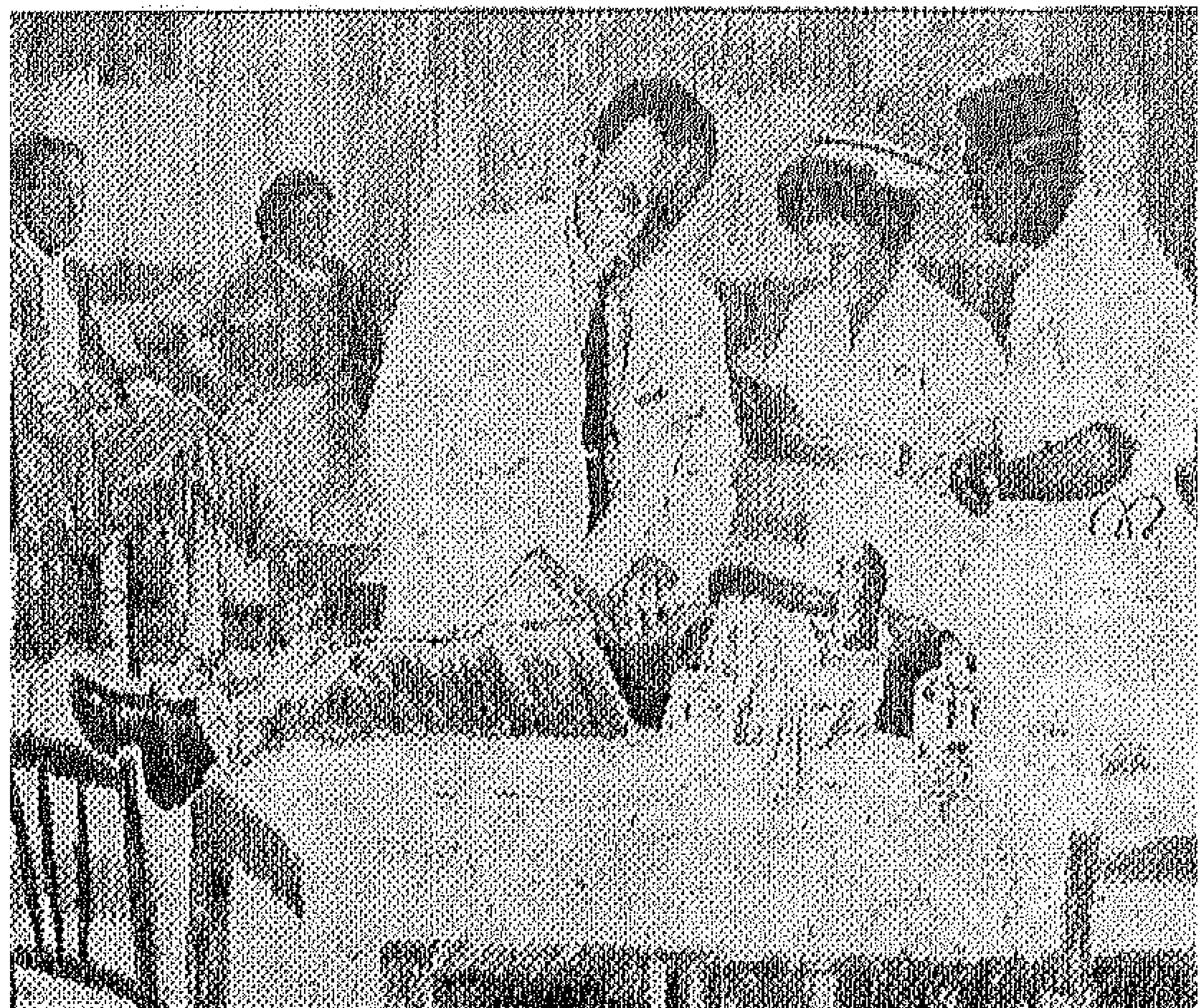
ألفارو كاناليس ، وهو رجل نحيل نشيط له شارب نحيل يمثل زملاءه في الجامعة في الاتحاد الطبي بليما . وهو الذي كشف لنا قلق الاتحاد من ان نهدد ممارسة الاطباء في عياداتهم الخاصة ببيرو . وكنا نعرف ان الاتحاد اقر دعوة (هوب) بعد تردد ، وقد اراد كاناليس ان يبلغ ليما تأكيدنا المطمئن في هذا الصدد .

وقلت ببطء : « دكتور كاناليس انني افهم مشكلتك ، ولكن ارجو ان تتأكد من ان مشروع هوب يريد ان يعمل معكم ، لا ان ينافسكم ، ونظرا لاننا ندرك مدي قلة عددكم وكثرة عملكم ، فاننا نود كثيرا ان نساعد في تدريب طلبة الطب والممرضات لديكم وسيكون تحت اشرافكم ورقابتكم الكاملة ، وبالاضافة لتعليمنا فاننا نود ان نقدم الرعاية الطبية لبعض الشعب ولاسيما الاكثر فقرا في بلادكم »

وبدا ان التوتر السائد في الغرفة قد خف بوضوح ، وغمز لي كابي بعينيه عبر المائدة ، وانفقنا بقية اليوم في وضع تفاصيل المشروع ، وعندما غادرت بيرو كنت اعرف ان الدكتورين دي فيناتي وفالكون اصبحا في جانبنا بحزم ، وان الآخرين علي استعداد للعمل معنا ، علي اسس الترقب والانتظار علي الاقل !

في البحر

وفي الولايات المتحدة ، بدأت الخطط للرحلة الثانية لهوب بخطي سريعة .. وللمرة الثانية واجهنا المشكلات الهائلة للحصول علي المعدات والرجال ولكننا في هذه المرة كانت لنا ميزة كبري : جماعة «هوب» وهي نواة صلبة من طاقم رحلتنا الاولي ، أن



اغلب الاطباء واطباء الاسنان الذين عملوا معنا في الرحلة الاولي لم يوقعوا عقودا لبعثة بيرو فحسب ، بل ومضوا للعمل في جمع التبرعات والرجال ايضا ، كما ان بعض ممرضاتنا السابقات جمعن متطوعين جددا ، وسرعان ما تم اختيار هيئتنا الدائمة ، وبالاضافة الي ذلك كانت هناك فرق بالتناوب ، تتكون من أطباء تعاقدوا للخدمة خلال جولات تتراوح بين شهرين واربعة اشهر ٠

كانت حوالي ٨٠ شركة قد تبرعت بامدادات لرحلتنا الاولي ، والآن انضمت مؤسسات اخري في التبرع بالادوية والمهمات حتي تجاوزت قائمة الشركات التي ترعانا المئات ، وبلغت جملة الامدادات التي شحنت علي السفينة هوب في سان فرنسيسكو حوالي ٦٠٠ طن ، واستأجرنا الكابتن اليجاه هامر وطاقما من الملاحين من شركة « جريس لاين » لادارة السفينة واجريت آخر الاصلاحات في السفينة ٠٠ وأخيرا في يوم ٩ مايو ١٩٦٢ رفعت السفينة مرساها ، ووقفت انا على السطح مع زملائى وعددهم ٨٥ حتي عبرنا جسر « جولدين جيت » ٠٠ ثم شرعنا في العمل ٠

لم تكن الرحلة الي بيرو التي استغرقت ١٢ يوما ، متعة بحرية ، فان السفينة هوب يبلغ طولها ١٦١ مترا واتساعها ٢٢ مترا ، وعمقها سبعة اسطح ، وبها ٢٣٠ فراشا للمرضى ، وأكثر من ٩٣٠٠ متر مربع من مساحة المستشفى ، وكان اعداد السفينة لاستقبال المرضى اشبه بفتح مستشفى كبير علي البر ٠

وعندما قاربنا نهاية الرحلة التي يبلغ طولها ٦٥٠٠ كيلومتر ، تألقت السفينة ، وعوضنا الفخر وروح الجماعة ما كنا نشعر به من ارهاق وتعب في أجسامنا ٠ وفي الليلة السابقة علي وصولنا الي بيرو ، أقمنا مأدبة غير رسمية في استراحة السطح بالسفينة وكنا جميعا متعبين الي حد اننا لم نفعل اكثر من شرب البيرة وتبادل الفكاهات والحكايات ٠ ولكن في تلك الليلة ، بدا لى أن وجوه اعضاء الرحلة يبدو عليها تعبير من السرور الهادىء ٠ ان هوب علي استعداد ٠

أيها الامريكيون ٠٠٠ عودوا لوطنكم

كان الصباح دافئا مشرقا عندما اقتربت هوب من «سالافيري» ، ميناء تروجيلو ، ولكن الميناء نفسه لم يكن منظره باعثا علي الاطمئنان ، فان

سالافيري ميناء لتصدير السـكر والمولاس ، وكانت الآلات الرافعـة منهمكة في نقـل الشحنات من والي سفن الشحن التي تقبع قرب الشاطيء

كان الاستقبال الذي ينتظرنا لايشجع كثيرا . ولعل (هوب) هي أكبر وأروع سفينة ألقت مراسيها في سلافيري ، وكان فريق آخر قد سبقنـا فعـلا وامضى شهرين في تروجيللو ينشر نبأ وصولنا الوشيك . ورغم ذلك فان ١٢ شخصا فقط (وبقرة تبدو عليلة) يقفون علي الشـاطيء يحدقون فى سفينتنا ، وهو منظر علي النقيض تماما من الاستقبال الحافل الذي كنا نتلقاه في رحلتنا الي جنوب شرق آسيا عندما كان بضعة آلاف من النـاس يقفون لاستقبالنا ـ ٨٠٠٠ في ميناء واحد فقط !

وعنـدما ازدادت المدينة قربا ، صوب الدكتور ارني سمولر ، الذي يبدو لاعب كرة اكثر مما يبدو طبيبا ممارسا عاما ، نظارته المكبرة علي الجمع الصغير من الناس المنتظر على الشاطيء ، وفجأة تصلب في وقفتـه واطلق صيحة دهشة ، كان أحـد مستقبلينا يحمل لافتـة في يده .. وقال ارني وهو يقرأ اللافتة بصـوت متوتر : « احترسوا من الامريكيين تجار الحروب . هاهم قد جاءوا في غلالات بيضاء كحمـامة السلام .. احترسوا »

وبدا ان هذه اللافتة تكشف الحالة النفسية للاستقبال الذي ينتظرنا . وقد تردد صداها في رسائل أخري كتبت علي الجدران جميعا في انحـاء تروجيللو ، كنا نقـرؤها ونحن فى السـيارة في طريقنا الي مستشفى بيلين في الصباح التالي .. وهي : « الشـيوعية نعم ، الامريكيون لا » و « أيها الامريكيون عودوا لبلادكم »

وفي المستشفى اسـتقبلنا وفـد برئاسة الدكتور دي فيناتى منسقنا ،



كان يبتسم ولكنه كان في حالة توتر جلية ، كما بدا الدكتور آكون متباعدا بصفة خاصة . والظاهر انه غير رأيه بالنسبة لنا .

وقمنا بجـــولة في المستشفى ، وسرعان ما بدا بوضوح ان هنـــاك الكثير الذي يمكننا ان نفعله ، فلم تكن هناك اية غرف للتعقيم ، بل كانت تستخدم الطرق القديمة غير الكافيـــة للتعقيم بطريق الماء الساخن ، ممـــا يؤدي الي نسبة عالية من الاصـــابة بالجراثيم بعد العمليات الجراحية . وكانت اجهـــزة غســـل الثيـــاب بالمستشفى لا تعمل ، واغطيةالفراش تغسل بطريقة غير ملائمة ، ثم تنشر في الشمس لكي تجف ، والبعض مازال يحمل الجراثيم عندما تستخدم مرة أخري ، وكان اغلب العاملين معنـــا يعرفون أن هذه طريقة سيئة للعمل، ولكنهم اصيبوا بالخيبة لرفضالمساعدة من منظمة « بنفيكا » وهي منظمة من غير الاطباء ، تقوم بالاشراف علي أموال المستشفى .

وكانت شدة الازدحام مشكلة كبري ايضا ، ففى عنابر امراض الاطفـــال لم يكن من الاشياء غير العادية ان تري طفلين او اكثر في كل فراش ، والاكثر اثارة للأسى ، اكتشاف ان أجهزة العزل ، التي تستخدم للاطفال الذين ولدوا قبـــل مواعيد ولادتهم الطبيعية ، كانت موضوعة في نفس الغرفة مع حالات الالتهـــاب الرئوي والحمي المخية الشوكية !

وقد رأينا ان المفتاح الي مستشفى بيلين هو الدكتور آكونا ، فهو باعتباره أستاذ الجراحة واكبر عضو فيهيئة التدريس ، كان يدير قسمه بيد من حديد ، وكانوا يخافونه ويحترمونه في نفس الوقت . وقد بدا الآن بوضوح انه لا يريدنا في عنابره ولا في غـــرف عملياته ، وهكذا قررنا الا نلح في هذه المسألة ، وبدلا من ذلك حصلنا علي موافقة علي اقتراحنا بأن نســـاعد مرضى العيادة الخارجية بالمستشفى .. كان الامر مثبطـــا للعزيمة فان مهمتنا البعيدة المدي، هي أن نجعلمن تروجيللو مركزا طبيا هاما . وما لم نستطع ان نشق طريقنا خلال مقاومة الدكتـــور آكونا وموظفى مستشفى بيلين ، فان البعثة سوف تفشل .

وفي الليلة الثانيـــة بعد رسونا ، استقبلت (هوب) اول مريض لها من بيرو . كانت عربة الاسعاف قد توقفت امام رصيف الميناء ، وحملت حـــالة طارئة علي ظهر السفينة (روزيتا) وهي أحد الزورقين البخاريين اللذين



لم ينس رجال السفينة ((هوب)) الترفيه
عن مرضـــاهم الصغار في أعيـــاد الميلاد

استأجرناهما وعندما وصل المريض الي السفينة « هوب » ذهلنا عنـدما اكتشفنا انه صديقنا الطبيب الدكتور فيناتي ! لقد ظل يعمل منذ وصولنا ليلا ونهارا في بحث خطط البعثة ، وزيارة مرضاه ، وكان قد غادر مؤتمرا مسائيا علي ظهر السفينة قبــل ذلك بوقت قصير ، وبينما كان يقـــود سيارته نحو المدينة ، استغرق فى النوم ، واصطدم بسيارته في سيارة نقل تقف في الطريق ، وظل حبيسا وسط الحطام حوالي ساعة قبل ان يعثر عليه احد رجال البوليس وقد تحطم وجهه وهو ينزف بغزارة ٠

كان الدكتور أروين سمول الجراح علي استعداد مع فريق من ممرضات الجراحة لاجراء عملية في أقل من ٣٠ دقيقة ، ولم يكن بنك الدم لدينا قد فتح بعد ، ولكن عددا من العاملين معنـا تبرعوا بدمائهم لنقلها اليه ، ونجحت

العملية ، وعندما افاق الدكتور فيناتي من المخدر ، وجد نفسه فى رعاية وحدتنا البالغة ، وقد ظل علي السفينة ١٢ يوما ، وهي زيارة دعمت شعوره بأنه كان علي حق عندما وافق علي احضار (هوب) الي بيرو ولكن عندما التأمت جروح وجهه فيما بعد ، وازيل الرباط الاخير منه ، كانت لديه شكوي واحدة ٠٠ وقال : « لقد قام الدكتور سمول بعمله علي مايرام ، فلم يعد في امكاني ان اقول الآن انني اقبح رجل في تروجيللو ! »

فلنفعل شيئا

وفي اليوم التالي دعوت كل الاطباء والمرضات معا علي ظهر السفينة هوب لاطلاعهم علي ملخص الموقف ٠٠ ورحت أستعرض حالات خيبة الامل واحدة بعد أخري: اللافتات المعادية لامريكا، والاستقبال البارد في بيلين ، والفشل في الحصول علي ممرضات من بيرو، وقرار الانسحاب من لا أوروبا ٠ كانت وجوه رجال هوب مقطبة ، والسكون مساندا ٠ ثم قالت «لافيرن فاكيما» ـ وهي ممرضة صحة عامة من سان فرنسيسكو شيئا أعتقد أنه عكس احساسات الجميع فقد صاحت بصوت مجلجل : « حسنا يا دكتور والش ٠ لقد ارتكبنا أخطاء ، ولكن هذا اصبح من الماضى الآن ٠٠ فلنفعل شيئا بدلا من ان نكتفى بالوقوف هنا »

في الاحياء الفقيرة

كانت لافيرن نفسها هي التى ساعدتنا علي رؤية ما يمكننا عمله، وكانت لافيرن ـ وهي فتاة طويلة القامة، هادئة الوجه ذات شعر أسود وعينين جميلتين ـ قد عملت شهرين في تروجيللو ، كجزء من فريق ممرضاتنا الطبيعى ، وفي خلال ذلك الوقت اكتسبت سمعة بأنها فتاة فريدة تجمع بين المثالية والواقعية العنيدة ، مع ارادة مهيبة ٠ وكنت قد أوضحت لكل العاملين معنا في الولايات المتحدة أنني لا أريد من أحد أن يخرج علي أسلوبه في العمل دون أن يراجع الامر مع سلطات هوب ، ولكن لافيرن ـ علي عكس كل الاوامر ـ كانت قد زارت الاحياء الحقيرة الكثيرة التي تحيط بتروجيللو ـ وقررت من تلقاء نفسها أن (هوب) يجب أن تبدأ برنامجا للصحة العامة هناك ٠

كانت لافيرن قد شاهدت الفقر في الولايات المتحدة ، ولكن الشيء الذي شاهدته في تلك الاحياء أذهلها ٤٠ ألف شخص محشورين في أكواخ من الطين دون أية مرافق صحية ،

لا مجاري أو كهرباء أو حتي الميـــاه النقية ، وقد وصفت منزل أم وأطفالها الثلاثة، كانت الجدران الترابية مغطاة بأغطية المجلات والورق المقوي القديم، وهناك رف واحد فوقه بعض أواني الطهي البدائيـــة ، أما الاثاث فانه يتكون من ثلاثة مقاعــــد وصندوق خشبي يســــتخدم كفراش لاصغر الاطفال بينما ينام الاخـــرون علي الارض • وقالت لي لافيرن : « هناك سوء تغذية في كل مكان •• وأمراض ولاسيما السل • اننا يجب أن نساعد هؤلاء الناس يادكتور والش » •

كانت حججها قوية الي حد أنني قررت أن أعطي مشــروعها الاولوية التامة ، وقد وافقت لافـــيرن علي تنسيق خططنا مع سلطات الصحة العامة المحليـــة ، واخترنا منطقـــة صغيرة من البيـــوت الحقيرة تضم حـــوالي ١٢٠٠ شـــخص ، تسمي «أوتنيانو» لكي نبدأ عملنا هناك •

ووجدت لافيرن وحدة أشعة متنقلة غير مستخدمة في مقر ضابط الصحة العامة بتروجيلو وسألت عن سبب عدم استخدامها لمعرفة حالات السل في أوتنيانو ، فهز كتفيـــه وقال : « لا كهرباء هنا » •

وعلي الفورأبلغت لافيرن المسئولين عن المدينة أن من واجبهم أن يوصلوا أسلاكا كهربائية الي المنطقة الفقيرة ـ دون أن يكبدوا السكان أية نفقات • ولعل استسلامهم في النهاية انبثق من حقيقة أنها تعهدت أيضا باسم (هوب) بتقديم كل الفنيين اللازمين للاشعة ، والافلام ، وأية أدوية لازمة للعلاج• وفيخلال أيام بدأ العمل في مد الاسلاك الكهربائية ، واستعدت هوب لاجــراء مسح عن مرضى السل •

وعندما ذاع نبأ ما يحدث في أرجاء «أوتنيانو» ، عرض الناس مســاعدة المشروع ، واختير أكبر كوخ موجود كمكان لوضع أجهزة الاشعة فيه ، بعد أن تم اخلاؤه وتنظيفــه تماما ، بينما تطوع النجارون لصنع المقاعــد والموائد الخشبية لرجالنــا • وفي يوم وصول التيار الكهربائى ، بدأالجمهور في التجمع أمام الكوخ ، وعنـــدما اصطفــوا في طوابير منتظرين دورهم في التقدم نحو جهاز الاشعة ، ضحك الاطفال ، وبكي الكثــير من الاباء، ونظر الينا الشيوخ كأنهم لا يصدقون أعينهم •

كانت نتيجة المسح مذهلة ، فقــد كان ضابط الصحة يقدر أن ٨٪ من الاشخاص لديهم سل نشيط ، ولكن نتائج الاشعة أظهرت أن الرقم يقترب

من ٣٥٪ . وقد وضع المصابون تحت العلاج المباشر .

في ذلك الحين ، كانت لدي لافيرن فكرة أخري.. اذ أنها عندما لاحظت مدي تأثر المسئولين في تروجيللو لاستجابة الشعب ، طلبت منهم أن يتركوا الاسلاك الكهربائية كهدية للحى الفقير ، كانت تريد أن تحول عيادة الاشعة الي فصل دراسة حتي يمكن تعليم الاطفال القراءة نهارا ، والكبار ليلا . كانت تري أن الفصول الليلية شيئا حيويا .. وهناك بدلا من أن يكون الدرس : « بانشو أحضر لي قلم عمتك » أصبح « جوانيتا . اغلي الماء قبل أن تشربيه » .

هوبي ! هوبي !

ورأينا عندئذ أن الاحياء الفقيرة هي مفتاح نجاحنا .. فلو استطعنا أن نصل الي الجماهير هناك ونقنعهم بأننا في جانبهم حقا ، فان أطباء بيرو وسياسييها قد يتقبلوننا أيضا .وكان بعض طلبة الطب في الجامعة قد تطوعوا فعلا لساعدتنا ، وهي علامة مشجعة ، نظرا لان جماعات الطلبة كانت أكثر الجماعات شكا في دوافعنا ..وأحد الطلبة وهو فرناندو أزنوران فيجا طلب الينا أن نطعم حوالي٥٠٠ طفل في بورفينر — وهو حي فقير مهدد بوباء شلل الاطفال ، فأرسلنا طبيبا وممرضتين ، وتمت العملية في يوم واحد .

ولكن هدفنا الاكبر كان حيا فقيرا يدعى «اسبرنزا» .. وفي ذلك الحى الكبير كان يعيش حوالى ١٥ الف شخص، اكثرهم جاء من الجبال علي امل انهم سيجدون أعمالا بمرتب طيب ، وطعاما طيبا ، ومساكن وتعليما في تروجيللو! وأدي هذا الاسلوب الي حضور حوالي ٣٠٠٠ فلاح وأسرهم الي الاحياء الفقيرة في شهر . وما أن يصلوا ، حتى وجدوا أنفسهم بين براثن الاحياء الفقيرة بلا مال للعودة الي مزارعهم .. وأقاموا مساكن من الطين والقش، وحاولوا العثور علي عمل ، ولكن لم يكن هناك غيروظائف قليلة للمزارعين في المدينة ، وسرعان ماوجدوا أنفسهم باعتبارهم من سكان الاحياء الفقيرة، منبوذين محتقرين !

ومع ذلك فان الناس لم ييأسوا ، فقد كان لكل حى فقير مدارسه الخاصة ، ومجلس للقرية يرأسه شخص كالعمدة . وكان العمدة في اسبرنزا هو السنيور بيرجوس وهو مدرس ، وقد ظل يمثل شعبه عدة سنوات لدي مدينة تروجيللو، وحاول أن يبدأ بعض التغييرات التي تمس

اليها الحاجة · وكان من أخطر المشكلات نقص الرعاية الطبية، وعندما اقترحنا ارسال بعثة من هوب الي «اسبرنزا» استبد به السرور ·

كنا قد قررنا أن نفتح العيادة ببرنامج للتطعيم الشامل لاطفال المنطقة ولكن في خلال الايام الاخيرة للاستعداد بدأنا نسمع شائعات مزعجة · كان الشيوعيون يقولون أن عيادتنا ليست الا خدعة امبريالية أمريكية جديدة ، وأن هدفنا الحقيقى هو أن نجد أشخاصا من بيرو أصيبوا بتشوهات من غبار التفجيرات الامريكية الذرية، وأنذروا بأنه بدلا من علاج المرضى ، سنجري تجارب لكي نعرف كيف نعالج ضحايانا من الاشعاعات الذرية، وقد أثار ذلك قلق الكثيرين من اصدقائنا في بيرو خوفا من أن تقضى الشائعات علي كل ما أنجزناه ·

وفي اليوم المحدد لافتتاح عيادة اسبرنزا تطوع كل أفراد هيئة هوب تقريبا للمساعدة في التطعيم ، وتكدست لافيرن ، وبربارا شونيك كبيرة الفنيين في المعمل وغيرهما من رجالنا في سيارة أوتوبيس تحمل كل أنواع العتاد : كحول وأمصال وادرنالين ، وابر طبية وبدأوا الرحلة الى المنطقة البائسة في تأثر باد ·

ولكن قلوبهم غاصت في أعماقهم عندما عرج السائق علي أول شارع رملي في اسبرنزا فلم يكن هناك شخص واحد يبدو أمام عيونهم ·· وظلت الشوارع خالية كلما تقدمت السيارة ·

ثم عرجوا علي الشارع الذي توجد فيه العيادة ، وهناك بدا أن كل أهالي القرية كانوا ينتظرونهم علي الطريق! وما كادت السيارة تظهر حتي دوت أصوات هادرة وهتافات تصيح : « هوبي ! هوبي !·· هوبي ! »

وهمس أحد الاطباء وهو يشق طريقه وسط الحشود : « يا الهي ·· ماذا فعلنا حتي نستحق كل ذلك ؟ » وبكى الدكتور آرشى جولدن فعلا ، وامتدت مئات الاذرع لتصافح رجال ونساء السفينة هوب ، بينما حمل البعض لافتات التحية للاصدقاء ، وتبعوا الجميع نحو مدخل العيادة ·

في ذلك اليوم قام أفراد السفينة «هوب» بتطعيم ألوف من الاطفال ضد التيفوئيد والسعال الديكى، والتيتانوس وشلل الاطفال ، وفيما عدا ثلاثة من أطباء الاطفال ، كان الاطباء الباقون من الجراحين وجراحى الاعصاب وأمراض النساء ـ رجالا لم يسبق لهم القيام بمثل هذه المهام منذ سنوات،

ومع ذلك ، فهاهم كبار الاخصائيين الامريكيين يعملون فوق الرمال وتحت شمس الصحراء • وعندما انتهينا في ساعة متأخرة من تلك الليلة، أحسسنا أن أهل اسبرنزا قد بدأوا يعرفوننا جيدا •

وفي اليوم التالي ، بدأت اللافتات المعادية تختفى وكأنما بفعل السحر، ولم نعد نراها بعد ذلك •

شروق الشمس من أجل سانكو

في منتصف يونيو ، أعلنا أننا سنفتتح السفينة تماما •• كنا لانزال نعاني نقصا في المرضات ، ولكن لم يبق على مهمتنا غير ٨ شهور ، ولم يكن في استطاعتنا أن نضيع أي وقت آخر • وفي الساعة التاسعة منصباح الاربعاء ١٨ يونيو ، بدأ النشان «روزيتا» و«سالافيري كوين» يحضران المرضى الي السفينة هوب• كان هناك أناس مصابون بشلل الاطفال والسل والمرارة وتشويهات منذ الولادة وهنود عجائز مصابون بالمياه الزرقاء في عيونهم ، وأطفال يعانون من أمراض في القلب وسوء التغذية •• وفي خلال ساعات كانت العنابر قد امتلأت •

كان بين مرضانا الاول ، روزا ذات التسعة عشر عاما ، التي كانت في حاجة الي استبدال أحد شرايين الكلي الرئيسية ، وبدون هذه العملية الصعبة التي تتطلب ترقيع شريان من البلاستيك طوله ٥ سنتيمترات ، فانها يمكن أن تموت في خلال ٣ شهور ، ولكنها بعد العملية بأيام قلائل ، كانت تأكل وتتمتع بكل لقمة تقضمها ••

وكان هناك كارلوس الذي ولد بورم غير خبيث في شفته ، وبعد أن أزال جراحو (هوب) هذا الورم بنصف ساعة ، استطاع أن يغلق فمه ويبتسم لاول مرة في حياته !

ولكن أهم الحالات التي عالجناها في تلك الاسابيع الاولي بالنسبة لنا كانت حالة سانكو •• وكان سانكو غلاما نحيلا ذا عينين سوداوين حزينتين ، وهو الابن الوحيد الباقى علي قيد الحياة من أسرته ، فقد مات أخوته الخمسة جميعا من النزيف «الهيموفيليا» وهو مرض رهيب سببه عدم قدرة الدم علي التجلط ممايجعل أقل جرح خطرا قاتلا • وعندما أحضروا سانكو الي السفينة ، كان الاطباء المحليون قد أعلنوا يأسهم من حالته فقد أصيب بالتهاب شديد في نخاع عظامه في ابهامه الايمن الذي كان ينز دما •

وعلي الفور وجه الدكتور مايفيلد هاريس جراح العظام نداء الي هيئة

العاملين بالسفينة للبحث عن فصيلة دم سانكو ، ثم أعد الفتي لاستئصال ابهامه ، وكان أملنا أن توقف خاصية تخثر الدم، في الدم الذي سينقل اليه، نزيف الغلام ، وعندما سارت العملية الجراحية علي مايرام ، امتلأ الدكتور هاريس أملا • وقل النزيف بعــد العملية كما كان التئام الجرح بطيئا ولكن كل يوم كان سانكو يبقاه حيا كان في مصلحتنا •

ثم حدث فجأة بعـد العملية بثلاثة أسـابيع ، أن نادي سانكو ممرضة العنبر • كان يعاني ألما شديدا وقد تورمت يده حتي أصبحت في حجم كرة القدم الصغيرة ، وبدا بوضـوح أنه ينزف تحت الجلد • ونقل الدون اليس وهيرب بلوم سانكو الي غرفة العمليات لفتح الانسجة وازالة كتلة التجلطات التي أحـــدثت التورم • وظلوا يعملون في علاج ســانكو طوال الليل ، بينما كان «مايك» ابن هيرب الذي يخدم كمتطوع في فصل الصيف علي السفينة يداوم الاتصال بجهـاز اللاسلكي ، مناشـــدا كل من يستطيع أن يسمعه أن يرسل جلوبولين مضادا للهيموفيليا ، وقد نجح مســعاه اذ أرسل الجلوبولــين الثمين الذي تبرع به أحد بنوك الدم في أمريكا بالطائرة الي بيرو ووصل الي السفينة في وقت مناسب لوقف النزيف •• ولم تغرب شمس سانكو في تلك الليلة كما كان يتوقع •• ومازال حيـــا بعد أربع سنوات من تلك الليلة اليائسة •

شائعات •• وثورة

وفي أوائل يوليو واجهنـــا تهديدا أعمق من الشـــائعات أو الدعايات ، وذلك عندما اشتدت الحملة لانتخابات الرئاسة بين المرشحين الثـلاثة الذين لم يحصل أحدهم علي أغلبية الاصوات المطلوبة ، اذ نشـــبت الاضطرابات والشغب ، ونصـــحنا كابي بالذهاب الي المنزل الذي نشــغله في ليما ، حتي نستطيع أن نحصل علي تأييـد الرئيس الجـــديد لبعثتنا • وفي ١٨ يوليو اتصل بي شخص لم يذكـــر اسمه وقال انه يتكلم باسـم الرئيس مانويل برادو الذي يمكن أن يعتقل ، ولكنه يقول انه مهما حدث فان هوب يجب أن تبقى في تروجيللو •

وفى تلك الليـــلة سمعت الاذاعة التي قالت أن العسكريين تولوا السلطة لانقاذ الجمهـورية وأن الرئيس برادو وضع تحت الحجز الوقائى • وحوالي الساعة الثانية صــباحا دق جرس التليفون وقال نفس الصوت انه يتحدث باســم بيريز جودوي رئيس المجلس

العسكري ، وكرر رجاءه السابق بابقاء هوب في تروجيللو وقال ان جودوي أعطي ضمانا مطلقا بحماية السفينة وكل رجالها ٠

ومع ان جامعة تروجيللو اضربت فان طلبة الطب الذين كانوا قد انضموا الينا لم ينقطعوا يوما عن السفينة ، وظلت اللنشات ذاهبة عائدة من هوب كالمعتاد ٠٠٠ وهكذا ظلت هوب وسط القلق والثورة راسية بقوة في مكانها ٠

شبح ابتسامة

في تلك الاثناء كانت برامجنا التعليمية قد بدأت تؤتي ثمارها ، فان منهجا في جراحة الفم مثلا بدأ بستة وعشرين طبيبا للاسنان من بيرو ، وكان علي كثيرين منهم ان يسافروا ٥٠ او ٦٠ كيلومترا لحضور المحاضرات ، ولكن احدا لم يتغيب طوال الدراسة التي استغرقت ١١ اسبوعا ، وبالاضافة اليذلك كنا ندرب مساعدي الاشعة ، والفنيين اللازمين للمعامل مع رجالنا في معاملنا ، حيث يجري حوالي ٣٥٠٠ اختبار شهريا ٠

واحرزت رئيسة ممرضاتنا دوروثي ايشليمان وزميلاتها تقدما كبيرا فى المساعدة على حل نقص التمريض عن طريق دراسة لمرضات اضافيات ٠

وكانت البقرة الحديدية تعمل الآن بعض الوقت علي الاقل ، وهذه الاعجوبة الميكانيكية التي انشأتها ومولتها ٣٠ شركة مختلفة ، هي اول مزرعة البان بحرية في العالم ، وباستخدام مسحوق اللبن ، تستطيع بكامل طاقتها ان تعادل الانتاج اليومي لقطيع من ٢٥٠٠ بقرة ٠

ولكن بينما كان العمل علي السفينة وفي الاحياء الفقيرة يسير علي مايرام كان تقدمنا في مستشفى بيلين بطيئا جدا ، ولم يكن الدكتور آكونا كبير الجراحين قد دعا اي طبيب من (هوب) للعمل معه ٠

انني اتساءل عن افضل طريقة لوصف الفريدو آكونا ٠٠ لقد كان رجلا نحيلا ذا شارب رفيع وشعر أبيض ، مع عينين سوداين نفاذتين ولكن الصفة التي اذكرها بكل وضوح هي وجهه الذي لايبتسم أبدا ٠٠ مرة واحدة فقط طوال فترة اقامتنا كلها لاحظت شبح ابتسامة علي شفتيه ، وقد علمنا فيما بعد انه يتمتع بروح مرحة ، ولكن كل ما رآه رجال هوب في تلك الشهور الاولي ، هو طبيب خبير يرفض أن يجري أي تغيير فى الاجراءات الاساسية ٠

وكان يقول متسائلا : « كيف

تستطيع أن تنصح أو تقترح أو تنتقد بطريقة صائبة الا اذا عملت في نفس الظروف التي أعمل فيها »

وأخيرا سألته ذات يوم عما اذا كان يسمح لنا بالعمل معه فترة محدودة وعلي اساس التجربة اذا لم نطلب اية تغييرات ، فوافق علي ذلك ٠

كانت هناك احتجاجات عنيفة ، واعترضت ممرضاتنا بصفة خاصة ، وقلن اننا اذا اتبعنا وسائل الدكتور آكونا ، فان كل تعليمهن سيذهب هباء ٠٠ كان الامر مغامرة ، ولكن بدا انه ليس لنـــا خيار آخر ، فاننا ان لم نحرز نجاحنا في بيلين ، فان آمالنـــا بأن تصبح تروجيللو مركزا طبيـــا كبيرا سوف تتلاشى ٠

وظل رجال هوب يعملون شـهرين في ظروف تجهد الاعصاب الي نقطـة الانهيار وفي كل يوم كان البعض يهدد بالانسحاب ، ولكننا تمسـكنا جميعا بالبقاء بطريقة ما ٠ كانت الادوات كئيبة ، ولم يكن في استطاعة الاطبـاء او الممرضات الاستعداد للعمليـــات الجراحية بصورة مناسبة ، كما كانت الاغطيـــة لا يتم تنظيفهـــا جيدا ، والعجيبة اننا جميعا ظللنا علي قيـد الحياة ٠

وفي نهـــاية فترة التجـربة قدم الدكتور تشارلس جيراسى نائب كبير جراحينا تقريرا من عشر صفحات الي جمـــاعة الرجال الذين يتولون تمويل مستشفى بيلين ، وقــدم مع التقرير رسالة تقول انه اذا لم تحدث تغييرات معينة علي الفور ، فاننا لن نستطيع البقاء للعمل في بيلين ٠

وتضمن التقـــرير عسرات من المقترحات للتحسينات الاساسية فيكل خطوة من التدابير الخاصة بالعمليات الجراحية وما يتلوها ، وكان تقريرا موضـــوعيا تماما ، وقد رأيت من الانصاف ان يراه الدكتور آكونا قبل ارساله ٠

واستدعاني الدكتـــور آكونا انا والدكتور جيراسى في الصباح التالى لليوم الذي تلقي فيه التقرير ، وعندما دخلنا مكتبه ، كان وجهه لايزال جادا كما هو دائما واشار لنا لنجلس ٠٠ ثم قال بهدوء :

ـ لقد قرأت تقريركما باهتمـــام عظيم ٠

وفي تلك اللحظـــة رأيت شبحـا ضئيلا لابتسامة علي شفتيه ٠٠ ثم قال :

ـ انكما تطلبان اكثر ٠٠ اكثر كثيرا مما كنت اجرؤ علي اقتراحه ٠ واني لأرجو مخلصا أن تقبل مقترحاتكما٠

انني اعتبرها توصياتي انا الآخر ٠

وفي تلك اللحظة فقط بدأت ادرك اي ثعلب هو ذلك الدكتور آكونا ٠٠ كان جراحا ممتازا ، وقد علمت انه منذ سنوات يشعر بقلق من نواحي النقص في بيلين كما كنا نحن ، وقد سعى عبثا للحصول علي الاعتمادات الضرورية للمعدات والرجال الجــدد ومن ثم فقد قرر ان يستغلنا ، آملا اننا اذا احسسنا بخيبة آماله ، فاننا سوف نعــد تقــريرا مثيرا قد يدفع اللجنة الماليـــة للعمــل ٠٠ وكانت استراتيجية بارعة ٠ وقد تمت كل التغييرات التي طلبنـــاها في وقت قياسى ٠ ومنــذ ذلك الحين اصبح الدكتور آكونا من افضل اصــدقاء (هوب) ٠

انهم يريدون دمك !

اكتشفنا ان الجو في تروجيللو يظل واحدا طوال العام ٠ وكان التغيير الوحيد الذي لاحظناه عندما أقبــل سبتمبر ، انه كان هناك ضباب اقل قليلا حول السفينة كل صباح ٠

في ذلك الحين كان فريق النـــوبة الثالثة من الاطباء قد انضم الينا ، واصبحت هيئة السفينة كلها مترابطة كأسرة واحــدة ٠٠ وسادت نفس الروح بين المرضات ٠

وكانت الحياة علي سطح السفينة قد اصبحت نوعا من الروتين ، ولكننا تعلمنا ان نتوقع مفاجآت غير منتظرة فلم يكن يمر علينا يوم مثلا دون ان نجد زائرا في حماماتنا فقد كانت فكرة ادارة يد والحصول علي ماء ساخن مثيرة جدا بالنسبة لبعض الذين يأتون لزيارة اصدقائهم او أقاربهم في عنابر المستشفى ٠٠ وفي بعض الاحيان ، كان الزوار يحتلون السرائر المخصصة للمرضى ، بعد ان يرتدوا ثيابا نظيفة عقب الاستحمام بالدش !

وكانت امثال تلك الحوادث تعالج بروح مرحة ، ولكن كانت هنـــاك مشـــكلات اخري تتطلب دبلوماسية أكبر ، وهي تقديم الهدايا ، فان واحدا من الاطباء قدم له ثلاث دجاجات و٢٩ كتكوتا وعنزتان ، بل وسبعة اطفال ! (كان الكثيرون يقدمون لنا اطفالهم الذين انقذنا حياتهم ليكونوا ملكا لنا ، اذ كان الآباء يرون انهم لا يستطيعون ان يستردوا هؤلاء الاطفـــال الا اذا رفضناهم !)

وثمة هدايا اخري لم يكن من السهل رفضها دون ايذاء مشـــاعر المريض المتن ولكننا كنا نعلم كم تكلف هذه الهدايا الغالية اولئك الاشخاص الفقراء الذين هم في اشد الحاجة اليها اكثر

منا •

مديح رائع

كانت الايام التي تلت عيد الميلاد ورأس السنة مليئة بالعمل والاثارة ، فقد بلغت انباء نجاحنا المدن الاخرى ، وارسلت وحدات صغيرة من رجالنا الى تالارا ، واركوبيبا والى غابات اكوتيوس ، وكذلك جاءت طبيبات المساعدة من الدول المجاورة ، وقد قبلنا دعوة من اكوادور لبعثتنا التالية •

وعندما ذاع نبأ قرب رحيل (هوب) امتلأت العيادات ومستشفى بيلين بالمرضى الجدد ، واصبحت تروجيللو تعج بالمرضى باعتبارها مركزا طبيا

وداع صامت

وقبل رحيلنا بوقت قصير ، بدأت حفلات الوداع • وبعد ظهر احد ايام فبراير ، دعي فريق هوب الى ملعب الكرة حيث جاء الفا شخص لمشاهدة البرنامج الذي نظم تكريما لنا ، والذي اشتركت فيه راقصات بيرو وفريق من الخيول المدربة ، وختم الحفل بعرض من اطفال الحى الفقير الذين غنوا لنا انشودة شكر خاصة ، والقى اسقف تروجيللو خطابا مؤثرا ثم قدم لنا مجلدا ذا غلاف جلدي فاخر يحوي توقيعات ١٠ آلاف مواطن وهو اليوم اثمن مجلد في مكتبة هوب

وفي الليلة السابقة للرحيل ، بدأت الجموع تحتشد على الشاطيء • كان هناك فرق موسيقية ، وجماعات متجولة من الموسيقيين يعزفون الالحان الوطنية للدولتين • وكان هناك هنود حمر جاءوا من مئات الكيلومترات من وسط الجبال ، ومرضى سابقون من مدن أخرى •

وعندما حل الليل ، كان هناك اكثر من عشرة آلاف شخص من ابناء بيرو يصطفون على الشاطيء ، وبدأ عرض هائل للالعاب النارية ، وفجأة سمعنا صرخات رعب • ان بعض الصواريخ انفجرات خطأ ، وفي خلال دقائق ، جاء اللنش روزيتا الى جوار السفينة (هوب) يحمل سبعة من الضحايا ••

وماتت سيدة شابة ، بينما اصيب خمسة بجروح مفتوحة : اثنان احتاجا الى نقل دم سريع تبرع به رجالنا • اما السابع فكان رجلا فى حوالي الاربعين ، فقد وعيه وملأ الدم وجهه من جمجمة مكسورة ، وبعد ثلاث ساعات في غرفة العمليات ، تأكدنا انه سيبقى حيا •

لم ينم اكثرنا في تلك الليلة ، وقد

اعيد المرضى الي الشاطيء ، بينما كنا نتساءل عن اثر هذه المأساة في رحيلنا في اليوم التالي ، ولكن فى السادسة صباحا جاءت بعض نساء من تروجيللو لتزيين السفينة ، وفي خلال ساعة ، كانت هوب قد امتلأت بأكاليل الزهور والشرائط الملونة . ثم امتلأ الشاطيء بالالوف من الجماهير لالقاء نظرة اخيرة علي هوب ورجالها

وقبل موعد الاقلاع بساعتين ، كان العدد قد بلغ ٤٠ الفا ، وفجأة ساد سكون عجيب لم يكن يعكره الا اصوات نحيب بين حين وآخر ، والظهور المفاجيء لبعض نفاثات السلاح الجوي في بيرو تحلق جيئة وذهابا فوق هوب .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر اطلق الكابتن اليجاه هامر صفاره الوداع ، وبدأت هوب تنساب خارجة من مرفأ سالافيري ، بينما كانت الجماهير تلوح بأيديها مودعة دون ان يترك أحد مكانه حتي غابت هوب وراء الافق ! !



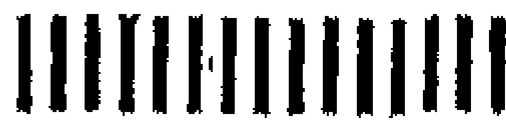
مهلة كافية

عندما نهض المعلق الصحفى ميريل ستانلى ليلقى كلمة فى مادبة غداء اقامها نادى الاعلان فى بيتسبرج ، سال رئيس النادى كارل دوزر

ـ ما هى المدة التى ينبغى أن اتحدث خلالها ؟

فاجابه كارل فى مرح :

ـ تحدث كما تشاء ، فاننا جميعا سوف ننصرف فى الواحدة والنصف !



ايهما افضل

كان السياسى البلجيكى بول هنرى سباك يقوم بجولة لالقاء المحاضرات فى الولايات المتحدة عندما هتفت احدى السيدات بعد احدى محاضراته قائلة :

ـ لقد كنت رائعا يا مستر سباك .. انك تبدو اشبه بونستون تشرشل ، وتتحدث مثل شارل بوابيه نجم السينما ..

فأجاب سباك قائلا :

ـ سيدتى .. اننى افضل ان ابدو مثل شارل بوابيه ، واتحدث مثل ونستون تشرشل !

كتاب الشهر

أخطر جاسوس



قصة
غير عادية
حدثت في طوكيو
وبطلها ريتشارد سورج
السوفيتي الذي يعتبر
أجرأ جاسوس
في العالم

ملخصة عن كتاب

MASTER SPY

بقلم : جوردون و . برانج

أخطر جاسوس في العالم !!

ظل الجاسوس السوفيتى ريتشارد زورجا
يباشر عمله طوال ثمانى سنوات
فى طوكيو ـ أكثر عواصم العالم تنبها للجواسيس
أثناء الحرب العالمية الثانية ..
وقد تسببت شبكة الجاسوسية التى أنشأها
والتى لم تكتشف الا بمحض الصدفة
فى تغيير مجرى الحرب العالمية الثانية

كان العضو الجديد الذي انضم الي سلك الصحفيين الاجانب يظهر كل ما يثبت أنه مواطن ألماني صالح ، وما كاد يصل الي طوكيو في سبتمبر ١٩٣٣ ، حتي توجه الي السفارة الالمانية، وقدم أوراق اعتماد لا تشوبها أية شائبة ، وقال : « أنا ريتشارد سورج (وينطلق زورجا) وقد جئت لأعمل مراسلا خاصا لصحيفة (فرانكفورتر زيتونج) » .

كان زورجا الوسيم بقامته الطويلة وبشرته السمراء ، وعينيه الزرقاوين الصافيتين ، وبروز عظام وجنتيه المرتفعتين يكشف عن ملامح دمه السلافي .. وكان يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره ، يسير في تثاقل يوحى باللامبالاة ، بينما تتسم جبهته العالية بالروية والاتزان ، وكانت درجة الدكتوراه في العلوم السياسية التي يحملها تتيح أن يخاطبه الناس بلقب «هر دكتور» .. ومع أنه قد طلب عضوية الحزب النازي ، فانه لم يكن بكل تأكيد نازيا متعصبا .. بل انه كان يظهر بمظهر الانسان الدمث المهذب ، وهو أمر كان يجد ترحيبا شديدا فيجو السفارة الالمانية الذي تسوده الرزانة ، حيث مازال هناك برود محسوس حيال فظاظة

أعضاء الحزب الاشتراكي الوطني من المتطرفين وذلك بعد مرور سبعة شهور علي تولي هتلر السلطة •

وكانت اتصالات «زورجا» الصحفية هامة ، فان صحيفة « فرانكفورتر زيتونج» التي تستخدمه ، كانت واحدة من أخريات الصحف الكبري التي خضعت لسيطرة النازي ، ومازالت تعتبر حتي ذلك الحين أفضل صحيفة في الرايخ الثالث ، فضلا عن أن «زورجا» كان يحمل معه رسائل من اثنين آخرين من مشاهير الصحفيين ، بالاضافة الي خطاب اعتماد مالي من برلين وصحيفة هولندية هي «آلجمين هاندلزبلاد» التي تصدر في أمستردام •

وقد تأثر القائم بالاعمال الالماني الذي استقبله في السفارة بمظهره ، وقال وهو يعيد اليه مظروف وثائقه: « ان كل شيء يبدو علي مايرام» •

واستطاع زورجا خلال الاشهر القليلة التالية أن يثبت وجوده كمراسل صحفي وذلك بالعمل الجاد المتواصل والنجاح الواضح الذي أحرزه ، وقد اتسمت حياته الجديدة في طوكيو بمخاطرة واحدة ، اذ التقى ذات يوم في السفارة الالمانية بصحفى يابانى يسمي «آريتومي ميتسوكادو» يعمل مخبرا بصحيفة «جيجى شيمبو» سرعان ما التصق بزورجا التصاقا شديدا ، عارضا عليه نصائح مفيدة لا تنتهي ، وأصبح له كظله ، حتي أنه كاد لا يترك الالماني يغيب عن ناظريه •

وسمح زورجا لآريتومي أن يجد له غرفة دائمة بأحد الفنادق ، وبدا أنه قبل الصداقة التي يصر الياباني علي عرضها بالحاح في براءة ، ولكن حتي قبل أن يبلغه مدير الفندق بأن آريتومي كان في يوم ما جاسوسا للجيش الياباني ، كان زورجا قد استنتج أن الصحفى الياباني كان يعمل لحساب بوليس طوكيو الذي وضعه تحت الرقابة الروتينية بالنسبة لكل الاجانب في اليابان •

وكانت محاولات آريتومي فجة الي حد لا يصدق ، بينما كان زورجا يرقب جهوده بنظرة الازدراء والتسلية التي ينظر بها أستاذ الشطرنج الي طفل يتحداه وهو في العاشرة من عمره •• فقد كان ريتشارد زورجا يعمل منذ وقت طويل جاسوسا سوفيتيا محترفا ، وأحد أبطال مخابرات الجيش الاحمر ، وقد شرع الان في عملية من أعجب عمليات الجاسوسية في كل العصور •

اعداد جاسوس

ولد ريتشارد زورجا في روسيا علي مقربة من «باكو» مدينة الزيت الكبري ، وكانت أمه روسية ، بينما كان أبوه مهندسا ألمانيا تستخدمه شركة بترول القوقاز ، وعندما بلغ ريتشارد الثالثة انتقلوا الي برلين ، ولم يكن قد أتم دراسته الثانوية عندما نشبت الحرب في عام ١٩١٤، وجند في الجيش الالماني حيث أصيب بجروح خطيرة ثلاث مرات ٠٠ وفي خلال فترة النقاهة بدأ زورجا يفكر في الاسباب السياسية والاقتصادية لمثل هذه الحرب ، وأغرق نفسه في مطالعة الادب اليساري ، حتي خرج من الحرب مؤمنا بالماركسية ٠

وتخلي عن مشروعاته السابقة للاشتغال بالطب ، وحصل علي شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة همبورج ، ثم انضم الي الحزب الشيوعى ، وخدمه باخلاص كعامل في مناجم الفحم ، وجامع تبرعات ، وممرض ، ومعلم ، وصحفى ٠ وفي عام ١٩٢٤ طلب منه «الكومنترن» أن يساعد في انشاء مكتب للمخابرات في مقره الرئيسى بموسكو ، فأظهر صلاحية كبري لهذا العمل ، ونقل عضويته الي الحزب الشيوعى السوفيتي ، وأصبح سرا من المواطنين السوفيت ، ثم نقل الي الجيش الاحمر ، وفي النهاية أرسل الي شنغهاي حيث أدار شبكة تجسس هامة ٠

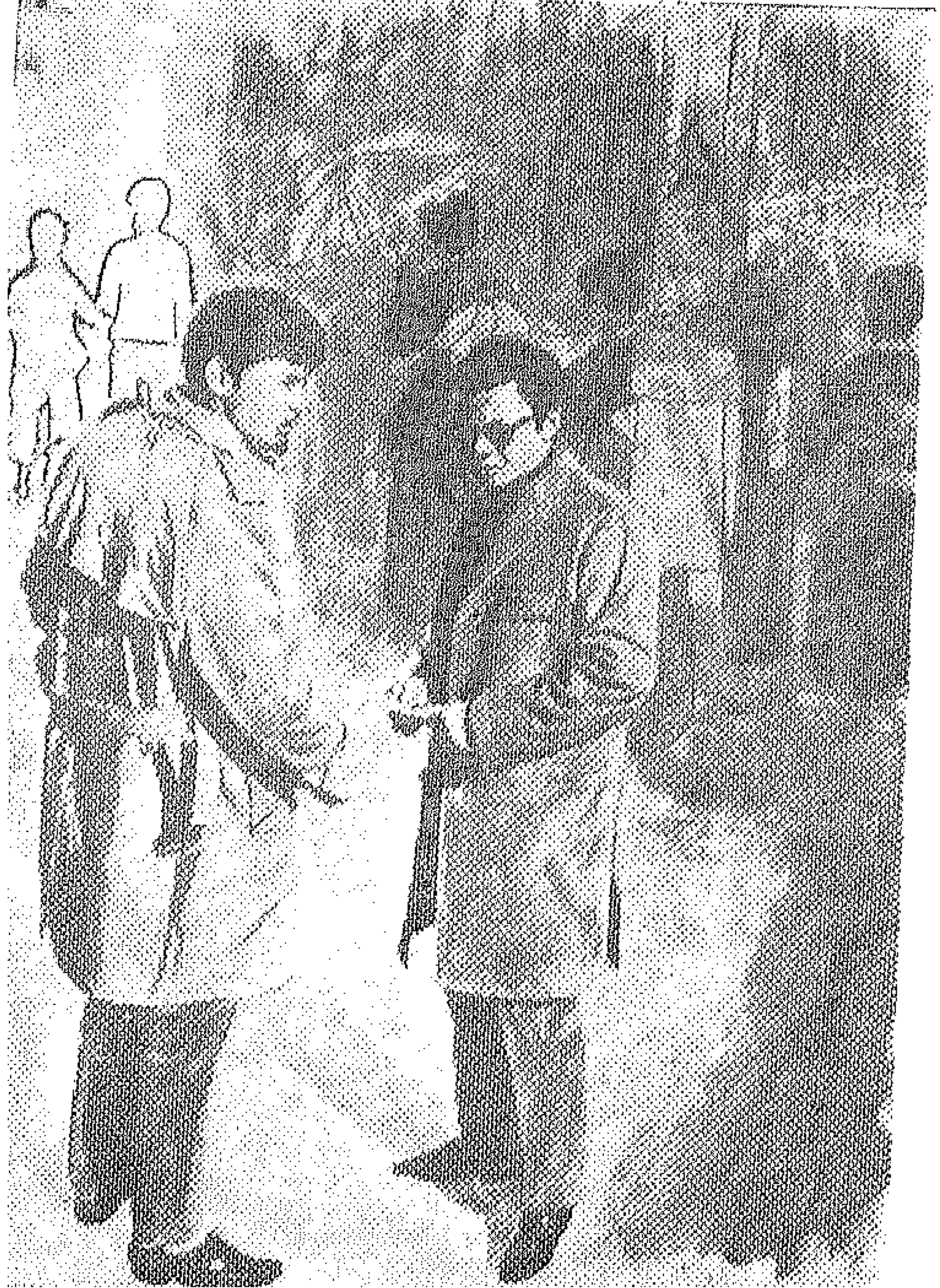
وفي أوائل ١٩٣٣ استدعى الي موسكو وعهداليه بمهمة انشاء شبكة تجسس في اليابان ، وكانت هذه المهمة عملية تجريبية بحتة ، اذ لم يكن هناك من يعرف ما اذا كانت ممكنة أم لا ، كما أن زورجا كان أكثر المرشحين بعدا عنها ، اذ أنه ولاشك سيكونظاهرا باعتباره أجنبيا في اليابان ، ومع ذلك فان رؤساءه السوفيت اعتبروا أنه أصلح رجل لهذا العمل ٠

انه سوف يستغل مظهره الواضح كالماني كستار يعمل من ورائه ، بل وسوف يبرزه ويؤكده ، فيذهب الي طوكيو كصحفى يستطيع أن يذهب الي أي مكان ويقابل كل انسان ، ويوجه أي سؤال ٠٠ وفي استطاعته أن يختفى عدة أسابيع ، ثم يظهر فجأة في أعجب مكان دون أن يثير أي شك حوله ، فان عمله يكفل له أكمل قاعدة عملية للتجسس ٠

ولكن كان من الضروري العودة الي ألمانيا للحصول علي أوراق

الاعتماد المناسبة ، ودور النشرالتي يمثلها•• وسيكون هذا أشبه بالسير علي حبل مشـــدود فوق الكارثة • فمنذ شهر يناير عندما أصبح هتلر مستشارا لالمانيا ، تعرض الشيوعيون لهجوم وحشى في ألمانيا ، وحـــل الحزب الشيوعى ، ودمرت صحفه، وسجن أعضاؤه وتعرضوا للمضايقات •• وكان زورجا ذا نشاط في الحركة السرية الشيوعية في أجـــزاء كثيرة من ألمانيا ، ولا يكاد يوجد شـارع أو زقاق معتم لا يمكن معرفته فيه ، وقد يظهر اسمه في قوائم «المراقبة» في مراكز الحدود الالمانية •

ولكن يبدو أحيانا أن الحظ يخدم ذوي الجرأة ، فقد أتاحت له الاوراق المناسبة التى أعدتها موسكو ، ان يدخل دون أي حادث الي العـــالم العجيب الذي كان يجتـــاح ألمانيا واستطاع الحصول علي جواز سفر ألماني ، وجمـــع خطابات توصية لكثير من ذوي النفوذ في طوكيـو ، ورتب أمر ارســـال برقيـات لصحيفة « فرنكفورتر زيتونج » وكذلك لصحيفتين من صــحف برلين ، ومجـلة « زيتشريفت نور جوبولتيك» •



كانت أصعب مشـكلة هي اكتساب ثقة أعضـــاء الحزب النازي ، ومن أجل هذه الغاية، قرأ زورجا الكثير من الدعايات النازية ، وحفظ كل الـكلمات الشـهيرة ، وأغرق نفسه فى كتاب كفاحى حتى استطاع أن يسرد صفحـات بأكملهـــا من الذاكرة ، وسرعان ما أصـبح يصـيح ويجـادل مع أفضل النازيين، ورحب أصدقاؤه الجدد من أبناء الصليب المعقوف بهذا

المجند الذي يبشر بالأمل في صفوفهم، وصحبوه الي كثير من مآدب حانات البيرة ، ولكنه كان يتوقف عن احتساء الكحول خوفا من أن يشي به لسانه •

وعندما قدم في النهاية طلبا للانضمام للحزب النازي ، أمسك زورجا أنفاسه لان الجستابو يفحص كل الطلبات ، ولكن حظه كان مايزال قويا ، ولعل السبب هو أن أحد العملاء السوفيت ممن تسللوا الى الجستابو ، استطاع في اللحظة الحرجة أن يزيل كل الادلة التي تثير الشك من ملف زورجا •• وكان علي زورجا أن يغادر برلين وهو مازال في شك ، ولكنه في النهاية فاز ببطاقة عضوية الحزب ، لحقت به في اليابان بعد حوالي عام •

الحلقة تجتمع

منذ البداية أخذ زورجا يدعم مركزه بين الجالية الالمانية في طوكيو، فصادق موظفي السفارة ، وحضر كل حفلات النادي الالماني والغرفة التجارية الالمانية ، وتردد كثيرا علي جمعية شرق آسيا الالمانية فيطوكيو، وجاهد دون كلل لتعلم اللغة اليابانية، فجمع مكتبة رائعة من التاريخ والثقافة والاقتصاد والسياسةاليابانية، وكتب برقيات جعلته يشتهر كمراسل مطلع مدرك بصورة غير عادية ••

وكان زورجا يتمتع بسحر مغناطيسى بالنسبة للنساء ، يغزو قلوبهن برشاقة وسهولة ، ويتخلص منهن دون صعوبة ••

وكانت موسكو قد أمهلته مدة عامين ، لكي يضع الاسس لعملية التجسس المستقبلة وهي فترة يجب عليه خلالها ألا يحاول القيام بأي عمل كبير ، وقد بدأت شبكته بثلاثة أعضاء ، الاول ألماني يعرف باسم «برنارد» وهو خريج مدرسة موسكو للاسلكي ، وسيكون مسئولا عن بناء وادارة جهاز لاسلكي سري ثم جاء يوغوسلافي شاب يدعى « برانكو دي فوكيليتش » ويعمل في الظاهر مصورا لاحدي المجلات الفرنسية ، أماالثالث فقد أرسل لان زورجا كان قد طلب شخصا يابانيا يتحدث الانجليزية بطلاقة ، فجاء «مياجى بوتوكو» وهو فنان كثيف الشعر في الثلاثين من عمره كان قد هاجر الي كاليفورنيا وهو في السادسة عشرة من عمره والتحق بالحزب الشيوعى هناك •

كان زورجا قد أمضى حوالي أربعة أشهر في طوكيو عندما ظهر أول حامل رسائل من موسكو وهو

شخص من أهل سكندناوه • وتحدث الرجلان معا بالانجليزية في الفنـــدق الامبراطوري بضع دقائق ، ثم اتفقا على اللقاء للقيام بجولة سياحية في اليوم التالي ، وعندئذ فقط أدلي اليه زورجا بمعلوماته السرية، وفي مقابل ذلك تلقى حزمة تحوي نقودا لتغطية نفقات شبكة الجاسوسية بضعة شهور •• وكانت أمثـــال هذه الزيارات المتقطعة التى يقوم بها الرسول هي اتصالات زورجا الشخصية الوحيدة مع موسكو •

وفي عام ١٩٣٤ قام زورجابحركتين دفعتا أطماع شبكة الجاسوسية الى الامام •• فقد استأجر أولا بيتا من طابقين في حى أزابو ـ كو رقم ٣٠ بنجازاكى ـ ماشى • وكان المنـزل متخربا في حاجـة الي اعادة طلاء ، كما كانت حديقته مليئـة بالحشائش مما يجعله مكانا طبيعيـــا لصحفى بوهيمي غـــير منظم • واستأجر مدبرة منزل عجوزا ، طلب اليها أن تحضر للعمل في الصباح الباكـــر وتنصرف حوالي الثالثة بعد الظهر ، وقد أتاح له ذلك أن يبقى في البيت وحده بعد الظهيرة وفي المســاء لكي يستقبل الزوار المشبوهين أو ممارسة نشاطه الاجتماعى ، وكان وجـــود البيت على مسافة قصيرة من قســم بوليس «توريزاكا» يجعله ســـتارا رائعا لتغطية نشـــاط زورجا •• اذ ليس من المعقول أن يقيم جاسـوس عن عمد في ظل قسم البوليس !

وقام زورجا أيضا من تلقاء نفسه بتجنيـــــد ياباني آخر في شـــبكة الجاسوسية ، وهو صـــحفى بدين يدعى «أوزاكي هوتسومي» سبق أن عمل معه في شنغهاي ، وكان زورجا يعـرف أن أوزاكى شخص حريص داهية ، كما أنه شيوعى مخلص ، وان لم يكن عضوا رسميا في الحزب• وقد أصبح أوزاكي من أكثر أعضـاء الشبكة قيمة •

وفي مايو ١٩٣٥ استدعى زورجا الي موسكو ، فذهب الي هناك عن طريق نيويورك حيث حصل من بعض الشيوعيين علي جواز ســفر زائف حتي لا يظهر سفره الي روسيا علي جوازه الاصلي وقد حمل معه كمية كبيرة من الاوراق ، متحديا تعليماته التي تمنع مثل هذه المجازفات •

واستقبله الجـــنرال ســيميون بتروفيتش أوريتســكي رئيس الادارة الرابعة (المخابرات الروسية) استقبالا وديا ، وبدا خلال المشــاورات التي تلت ذلك متفائلا بشأن مستقبل شبكة

الجاسوسية في طوكيو ، فقد تمت مرحلة الافتتاح ، وسيركز زورجا جهوده بعد ذلك على مسألتين هما : هل تنوي اليابان مهاجمة الاتحاد السوفيتي ؟ واذا كان الامر كذلك ، فما هو مدي استعدادها لشن الحرب؟ ٠٠ وفيما عدا ذلك ، كان لديه تفويض مطلق لاختيار « المسائل التى يعمل فيها وفقا لتطورات الموقف » ٠

ماكس كلاوزن يأتى

كان الشيء الوحيد الذي تحتاج اليه منظمة زورجا الآن هو عاملا لاسلكيا جديدا ، فقد تبين أن برنارد غير صالح تماما ، اذ أخر تركيب الاجهزة اللاسلكية عدة أشهر ، بعد أن ساوره الفزع من هذه المخاطرة، ولم يرسل بعد ذلك الا أقل عدد ممكن من الرسائل ، وكان يصاب بالذعر بعد كل ارسال ، ودفعه التوتر الى الافراط في الشرب وأخيرا وافق زورجا بدافع من سخطه على اعفائه من العمل ، وأرسله الي الاتحاد السوفيتي

وطلب زورجا بدلا منه ماكس كلاوزن ، وهو ميكانيكي ألماني شاب ضخم الجسم ، رث الهيئة ، كان قد عمل معه في شانغهاي كعامل للاسلكي ٠٠وكان قد أنشأ علاقة في شانغهاي مع أرملة فنلندية حسناء تدعى « آنا والنيوس» ولم يؤجل الزواج منها الا خوفا من أن تثير الاجراءات الرسمية بعض التعقيدات المربكة ولم تكن «آنا» شيوعية ، وكان السوفيت الذين يستخدمون ماكس لا يرتاحون الي حالات الزواج أو العلاقات التي تتم مع الغرباء ٠

وعندما طلب زورجا ارساله الي اليابان ، كانت موسكو علي استعداد للتغاضى عن خرقه للنظام نظرا لمهاراته الخاصة الثمينة ٠ وفي أواخر نوفمبر ١٩٣٥ وصل ماكس الي طوكيو ، ومع أنه كان فنيا فحسب ، فان الشبكة لم تمارس عملها حقا الا بعد أن فتحت أصابعه البارعة طريق الاتصالات مع موسكو ٠

في خطوة كاملة

كان أول اختبار شامل للشبكة في أوائل ١٩٣٦ عندما نشبت ثورة غريبة لا معني لها في طوكيو ٠ ففى ٢٦ فبراير ، قام حوالي ١٤٠٠ جندي بزعامة بعض صغار الضباط باحتلال كثير من المباني الحكومية ، بينما حاولت فرق خاصة للقتل مسلحة بالمدافع الرشاشة أن تغتال كبار المسئولين الحكوميين في بيوتهم ٠٠ وقتل اثنان من الوزراء ، بينما أفلت الاميرال أوكادا كويزدك رئيس الوزراء



من الموت لان جلاديه أطلقوا نيرانهم خطأ على شقيق زوجته . وعندئذ أصدر الضباط الثائرون بيانا حماسيا طويلا، بدا للاجانب شيئا غير مفهوم.

كانت مسألة تثير حيرة بالغة ، وعلى الفور طلب زورجا الي فريق جواسيسه مساعدته في ادراك كنهها .. وفي ذلك الحين ، شرعت الشبكة تعمل بكل طاقتها . لم يعد فوكليتش مجرد مصور فوتوغرافي ، بل كان أيضا مخبرا يعمل لحساب وكالة الانباء الفرنسية الرسمية «هافاس» ــ وقد أتاحت له تلك الصلة فتح أبواب كثيرة أمامه . أما الفنان الشاب مياجى الذي لم يكن يعرف شيئا عن الجاسوسية عندما استدعى من كاليفورنيا ، فقد أظهر موهبة عظيمة كعميل ، وقد تخصص في المسائل العسكرية ، كقوة وأسلحة وحركات الاحداث العسكرية اليابانية وروحها المعنوية ، وكان في ذلك الحين في طريق تكوين شبكته الفرعية .

وحصل أوزاكي على وظيفة ستراتيجية هامة في مشروع للابحاث

تحت رعاية صحيفة (أساهي‌شيمبون) وهذا المشـــروع الذي عرف باسم «جمعية استقصاء مشـــكلات شرق آسيا » يستخدم كغرفة مقاصة للآراء عن النواحى المختلفة لعلاقات اليابان بكل من الصـــين ومنشوريا ، وقد تضمنت عضويتها خبراء في المشكلات الاقتصادية والتحليلات الاقتصادية ، ومندوبين عن وزارات الخارجيـــة والبحرية والجيش ، وممثلين لهيئات أركان الحرب العـــامة وغيرهم من مندوبي الحكومة والصناعات اليابانية والمثقفين ، ولو أن زورجا نفســـه وضع تخطيط هذه العملية لما فعـل أفضل من ذلك ٠

وبينما كان هؤلاء الثلاثة يحاولون استقصاء حقيقـــة حادث ٢٦ فبراير من زواياهم الخاصـــة ، أخذ زورجا يعالجه عن طريق السفارة الالمانية ، اذ قال لهم أنه من الاهميـــة بمكان الوصول الي أعماق الازمة ، واقترح أن يقوم هو والسـفير هربرت فون ديركسن والملحق البحـــري الكابتن بول فينكـــــر ، والملحق العسكري الكولونيل يوجـــين أوت بتحقيقات مســـتقلة علي أن يجمعـــوا نتائج اكتشافاتهم في النهاية ٠

وكانت منزلته رفيعـــة في السفارة الي حد أن اقتراحه قبل فورا وحصل من الملحق العســـكري بصفة خاصة علي معلومات ثمينـــة عن العسكرية اليابانية ـ وكان قد عقـــد أواصر صداقة وثيقة مع الكولونيل «أوت» ـ وتضمنت هذه المعلومات أنواعامختلفة من النشرات ، والكتيبات ، والكتابات التى تثير فضـــائح ٠ وكانت هذه الوثائق وغيرها التي جمعتها السفارة بالغة الاهمية بالنسبة لزورجا ، حتي أنه أغلق باب المكتب المخصص له ، واستخدم كاميرا صغيرة في تصويرها صفحة صفحة لارسالها الي موسكو٠

وثبت أن التحليل الذي وضـــعه مياجى دقيق للغاية ، فقد ذكر لزورجا أن الثورة نشبت قبل أوانها ، وأنها ضـعيفة التكامل والتسلح ، وسوف تنتهي سريعا ٠٠ وبعد أربعـــة أيام فقط ، استطاعت القوات التي يقودها ضباط جديرون بالثقـــة أن تستولي علي الموقف ٠

وفي تقرير آخر أشار مياجى الى أن السياسة اليابانيـــة حيال الاتحاد السوفيتي (وهي أهم مسألة بالنسبة لزورجا) سوف تتوقف علي العناصر التي ستكسب المعركة ، ونظرا لان أي شخص يســـيطر علي الجيش ، يسيطر علي اليابان كلها ، فانالعصبة

التي تتولي الحكم سوف تملي سياستها الخارجية ، وتنبأ مياجي بأن المعتدلين تحت زعامة الجنرال أوجاكى كازوشيجى ـ وكان سكرتيره صديقا قديما لمياجى ـ مازالوا يمسكون بزمام الموقف فى أيديهم ، ومن ثم فان الاتحاد السوفيتي ليس في خطر مباشر من ناحية اليابان ٠

وضمن زورجا كل هذه المعلومات في تقرير طويل قدمه للسفارة الالمانية، فبعث الكولونيل أوت المعجب بزورجا، نسخة منه الي رؤسائه في برلين الذين أعجبوا به ، وطلبوا المزيد من مثل هذا العمل الرائع ٠٠ ولم يرفع هذا التقرير من أسهم زورجا في عين ديركسن وأوت فحسب ، بل أنه أتاح له عذرا محكما لاستخدام مصادر السفارة في أبحاثه المستقبلة ٠ وفضلا عن ذلك ، فان مقالاته المليئة بالمعلومات عن الثورة رفعت من قدره بين زملائه الصحفيين ، وكل الجالية الالمانية في اليابان ٠

لقد نجح زورجا في اختباره الاول الحقيقي كجاسوس سوفيتي في طوكيو، وكشف عن كفاءة نادرة في استيعاب وتنقيح المعلومات ، واستغلال الفرصة وتحويلها لصالحه وقد أثبت تقريره المستفيض الذي بعث به الي رؤسائه في المخابرات السوفيتية عن طريق رسول خاص ، انهم كانوا علي حق في اختياره ٠ ومنذ ذلك الحين ظلت شبكة التجسس التي أقامها زورجا تمضى قدما الي الامام طوال الاعوام الخمسة التالية ٠

نساء الشبكة

بقيت «أنا وانيوس» بضعة شهور في روسيا بعد رحيل ماكس الي طوكيو ، ويبدو أنها كانت بمثابة رهينة في أيدي المخابرات الروسية ، ولم يسمح لها باللحاق به الا بعد أن أنشأ اتصالات لاسلكية مرضية ، وأظهر بذلك أنه لايزال في قبضتهم تماما ، ولكنها التقت في النهاية بماكس في شانغهاي وتزوجا هناك ٠

وطلب ماكس استئجار مبان خشبية ذات طابقين في مناطق مزدحمة بالسكان في طوكيو لانشاء أماكن الارسال اللاسلكي ، وذلك لان المعادن تتداخل مع الارسال ، كما أن ارتفاع المبني يساعده في الارسال ، والمناطق المزدحمة تجعل من الصعب علي البوليس تفتيش كل مسكن عندما تشير أجهزة الكشف البدائية التي لديهم الي منطقة عامة ٠ وكانت كل الرسائل ترسل بالانجليزية من أجل الامان ، اذ لو استخدمت اللغة

الروسية وحل اليابانيون الشفرة ، فان ذلك سوف يحرج موسكو ، وكذلك اذا استخدمت الالمانية ، فان ذلك قد يعرض مركز زورجا في السفارة للخطر ·

وقد أنشأ ماكس لنفسه عملا كستار يعمل من ورائه ، وذلك بطبع الرسومات الهندسية وقد نجح عمله منذ البداية ، مما أبهج (أنا) ذات الميول الرأسمالية ، ولم تكن آنا تخفى ميولها المعادية للشيوعية ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل زورجا يقرر استخدامها حاملة رسائل وربما أراد أن يورطها في نشاط الشبكة ليضمن سكوتها · وعلي أية حال فانها ذهبت الي شنغهاي تحمل ٣٠ لفة من الافلام الدقيقة ، وعادت الي طوكيو بقبعة جديدة من الفراء مكافأة من ماكس علي رحلتها الخطرة ·

أما زورجا فلم يستخدم عشيقته الخاصة كحاملة رسائل قط أو أي هدف يتعلق بالجاسوسية ، وكانت ايشي هاناكو فتاة يابانية حسناء تعمل «جرسونة» في بار يمتلكه ألماني يدعى رينجولد يرتاده زورجا كثيرا· وحدث في احدي أمسيات ١٩٣٥ أن جاءت لخدمة مائدة زورجا فأعجبته وبدأ يخرج معها وسرعان ما أنشأ علاقة معها كان يخلص لها بقدر ما تسمح له طبيعته ·

وكان زورجا سخيا مع هاناكو ، وعندما علم أنها تهتم بالموسيقى ، اشتري لها «بيانو» ألماني الطراز ، وجعلها تتلقىدروسا في العزفوالغناء، بل واستأجر لها منزلا لان مسكنها الصغير لا يتسع للبيانو ، وكتم عنها طبيعة عمله ·

ضربة مخابرات

أصبح مركز زورجا في السفارة الالمانية مركزا ممتازا ـ وهو نجاح يدين به جزئيا الي أوزاكي وعندما غزت اليابان الصين في يوليو ١٩٣٧، كتب أوزاكى مقالا تنبأ فيه بحرب طويلة تلي ذلك ولم تكن تلك وجهة نظر شائعة في اليابان ، حيث كان المعتقد علي نطاق واسع أن الصين سوف تكون «دفعة للامام» ولكن بينما كانت الحرب مستمرة شهرا بعد شهر ، ازداد بوضوح أن أوزاكي كان علي صواب ، وزادت هيبته تبعا لذلك ·

كان زورجا يتفق مع أوزاكي حول «حادث الصين» وكان قد ردد في السفارة الالمانية صدي تقرير أوزاكي بأن الحرب ستكون حربا طويلة ، وكانت النتيجة أن أسهم زورجا

ارتفعت من جديد بل لقد دعى لالقاء محاضـــرة علي موظفي السفارة عن الموقف في الصين !

ولكن الحظ كان عاملا ضخما أيضا .. ففى أوائـــل عام ١٩٣٨ ساعد الحظ زورجا بطريقةتجل عنالتصديق، عندما عين صديقه « يوجين أوت » ــ الذي أصبح الان برتبة ميجـــور جنرال ــ ليخلف ديركسن المريض في منصب السفير . وكان أوت وزورجا صديقين منذ البداية ، فقـــد حارب الاثنان معا في الجبهة الغربية ،وكلاهما يهوي الشطرنج .. وبموافقة موسكو كان زورجا قد أطلع أوت بايجاز علي ما يمكن اطلاعه عليه من المعلومات التي حصلعليها من أوزاكي ومياجى، وأتاح هـــذا لأوت نافذة علي اليابان لم يكن ليستطيع أن يفتحها عن طريق الوســـائل الدبلوماسية والعسكرية العـــادية ، وكانت المعلومات التي اكتسبها «أوت» عن شـــئون اليابان بلاشك عاملا في تعيينه سفيرا ، وهو تكريم عظيم، لان ترقية ملحقعسكري الي هـــذا المركز الدبلوماسى الكبير كان أمرا غير عادي .

وازداد اعتمـــاد أوت علي زورجا بعد ان اصبح سفيرا ، وراح الملحقان العسكري والبحـري يستشيرانه فى مشاكلهما ، ويعرضان عليه صـــور البرقيات الهامة والتقارير ليقول لهما مقترحاته فيما ينبغى عمله حيالها .

وكان السـفير أوت قد أخذ يستخدم زورجا كحامل رسائل ألماني ، مرسلا اياه الي مانيلا ، وكانتون ، وهونج كونج متمتعا بصفة دبلوماســية ، لكيلا يتعرض لفحص رجال البوليس او الجمارك .

وقد وقع حدث جديد جعل تغلغله في السفارة أمرا ذا قيمة خاصـــة لروســـيا ، ذلك هو فرار الجنرال ليوشكوف ، الذي غادر منصبه وهرب عبر حدود مانشوكو لكي يقع في ايدي جيش كوانتونج الياباني ، الذي ارسله سريعـــا الي طوكيـــو لاستجوابه استجوابا دقيقا ، وكانت تصريحاته غزيرة وكاشفة للاسرار الي حد ان السفارة الالمانية ــ التي كانت تتلقي معلومات عن اركان الحرب اليابانية ــ اقترحت ان ترسل برلين بعثة خاصة لاستجواب ليوشكوف في المسائل التي تتعلق بالمصــالح الالمانية . ووافقت المخابرات الالمانية علي ذلك .

وســأل زورجا رؤساءه الروس :

« هل تحبـــون رؤية تقرير هـــذه البعثة ؟ » وكان الرد قاطعا .. ان الشبكة يجب ان تبذل اقصى جهـد

لحصول عليه ٠٠ وقال زورجا لموسكو انه سيكون من الصعب تماما الحصول على مثل هذه الاشياء ٠ وكان معتادا ان يبالغ في صعوبة عمله ٠٠ والواقع ان المسألة لم تكن فيها اية صعوبة ، فعندما وضعت البعثة الخاصة تقريرا من بضع مئات من الصفحات ، تلقت السفارة نسخة منه ، عرضتها فورا على زورجا ، وقد كشف التقرير عن وجود عناصر معارضة في سيبيريا ، وقد وجد زورجا ان المعلومات عن وجود الجيش الاحمر في سيبيريا مذكورة بتفصيل مدهش ، فقد ذكرت مثلا ان هناك حوالي ٢٥ فرقة من لجيش الروسى في سيبيريا بما في ذلك منغوليا الخارجية ، ووصفت اماكن وتكوين وعتاد هذه الفرق ٠

ووجد زورجا ان حوالي نصف التقرير يستحق التصوير لارساله الي المخابرات الروسية ، وقد ادي خدمة عظيمة للاتحاد السوفيتي عندما حدد فورا ما عرفه العدو المحتمل بالضبط ، كما ان تقريره الذي ذكر ان ليوشكوف قد افشى سر الشفرة العسكرية ، كان في حد ذاته لا يقدر بثمن ، اذ اتاح للروس الفرصة لتغيير الشفرة ، وهكذا سدوا ثغرة خطيرة في سد مخابراتهم في الشرق الاقصى ٠

تحت الرقابة

عندما اصبح الامير كونوي فوميمارمر رئيسا للوزراء في منتصف ١٩٣٧ ، استفادت شبكة زورجا فائدة بالغة ، فقد كان مياجى صديقا قديما لسكرتير الجنرال أوجاكى كازوشيجي وزير الخارجية الجديد ، كما استخدمت الوزارة الجديدة اوزاكي مستشارا في الشئون الصينية كما اصبح عضوا في الهيئة الاستشارية غير الرسمية لرئيس الوزراء ، وهي تضم تشكيلة من الرجال البارزين ، وكانوا يتناولون الافطار معا مرة كل شهر لمناقشة المشكلات الراهنة ، ومن ثم فانهم كانوا مصدرا ثمينا للمعلومات بالنسبة لاوزاكي ، وقد اطلق علي هذه الهيئة اسم « فريق الافطار » ٠

مثل هذه الاتصالات اتاحت لزورجا ان يرسل لموسكو تقديرات عن انتاج اليابان الزراعي ، وما يمكنها الحصول عليه من صيد الاسماك ، وقوة صناعاتها العسكرية ومعلومات اخري بينها تنبؤات مطلعة عن نواياها السياسية مما جعل موسكو من افضل العواصم اطلاعا في العالم عن شئون الشرق الاقصى ٠

وبعد ١٨ شهرا في الحكم سقطت

وزارة كونوي ، ولكن اوزاكي ظـل عضوا في « فريق الافطار » وبعـد بضعة شهور حصل علي وظيفة فى ادارة التحقيقات بسكة حديد جنوب منشـــوريا ، وهو منصب اكثر ستراتيجية من منصـــبه كمستشار لمجلس الوزراء ، اذ كان للشــركة علاقات وثيقة مع جيش كوانتونج ، كما ان وظيفته في الشركة اتاحت له الحصول علي معلومات عن السياسة والاقتصـــاد والسياسة الخارجيـة



وتحركات جيش كوانتونج والعسكرية اليابانية • والواقع انه كان لاوزاكي مقعد في الصفوف الامامية يتيح له ان يري اية خطـــوة هامة قد تفكر اليابان في الاقدام عليها ضد الاتحـاد السوفيتي •

وفي سبتمبر ١٩٣٩ عندما هاجم هتلر بولنـــدا والقي بأوروبا في أتون الحرب ، ازداد الجو في الســـفارة الالمانية بطوكيو توترا وكان السـفير اوت قد قضى شهورا يحث زورجا علي ان يصبح موظفا رسميا في السفارة ، واستطاع زورجا ان يرفض دون ان يؤدي مشاعر اوت •

وفي أكتوبر ١٩٣٩ بدأت «توكو» — ادارة الامن الياباني الخاصة بمراقبـة الافكار الخطــرة — تراقب زورجا بهدوء • لم يكن هناك أي شك خاص بشأنه ، ولكن كانت هناك من وجهة نظرهم ثلاثة أسباب طيبـة لوضعه تحت المراقبة : انه أجنبى، وصحفي، ويتردد كثيرا على السفارة الالمانيـــة • وهم يعتبـــرون الاجانب مثقفين حملةجراثيم الافكار المعادية لليابانيين ، وربما أفســدوا الشباب اليابانى ، كما أن الصحفيين يتدخلون كثـيرا في أمور ليست من شـــأنهم ، ومن يدري ان مؤامرات تدبر وراء ابواب اية سفارة ؟

كان المخبر الذي عهد اليه بمراقبة زورجا شابا في الثامنـــة والعشرين يدعى سيتو هاروتسـوجو وهـــو

شـــاب وسيم ذكي ، يفخر كثيرا بمركزه كأحد رجال «توكو» ، وكان يتسم بالرزانة والطموح ، لم يندفع في عملية مراقبة زورجا ، بل راح يسجل في هـــدوء ورعاية عادات الرجـــل وروتينـــه ، وفي بعض الاحيان كان يقتفى اثره من البيت ٠ وفي أحيان اخري كان ينتظره في احدي الحانات التي يتردد عليها ، حتي يأتي رجاله لمقابلته ، وكان سيتو شديد الحرص بحيث لم يدع زورجا يراه ، ولم يكن يقضى اكثر من ساعة او ساعتين فى مراقبته كل مرة ٠

تحذير لموسكو

كان سير المسائل الدوليـــة يزداد سرعة لحظة بعد أخري ، وفي ذات يوم جاء من برلين حامل رسائل بالغ الاهمية هو الكولونيل أوســكار ريتر فون ريدرماير لاجــــراء تحقيق حول مدي استعداد اليـــابان للاشتراك في الحرب ضد روسيا ٠ وكان ريدرماير يحمل رسالة تعريف الي زورجا من السفير السابق ديركســــــن ، وتحت سحر زورجا وكرم ضيافته ، أســـر اليه بأن بدء الحرب الروسية ـ الالمانية أصبح حقيقة واقعة ، وأن ألمانيا لها هدف ذو ثلاث شعب هي : (١)احتلال منطقة القمح الاوربية في أوكرانيـــا (٢) الحصول علي مليون أسير علي الاقل للعمل في الصـــناعة والزراعة الالمانية (٣) ازالة الخطر القائم علي حدود ألمانيا الشرقيـــة ٠٠ كان هتلر يعتقد أنه اذا كان على ألمانيا أن تحارب روسيا ، فان هذا هو الوقت المناسب

وساعدت المعلومات المتناثرة التي جمعها زورجا من حملة رسائل أخري علي رسم صورة كاملة للموقف ، فقد توقف الكولونيل شـــــول الذي كان مساعدا للملحق العسكري في طوكيو وهو في طريقه الي منصبه الجديد في تايلاند ، وكشف بسذاجة عن تعليمات علي درجة شـــديدة من السرية اذ قال : « ان الحرب بين روسيا وألمانيا ستبدأ يوم ٢٠ يونيو وقد تؤجل بضعة أيام ، ولكن الاســتعدادات لها تمت فعلا فقد تجمعت بين ١٧٠ و ١٩٠ فرقة ألمانية علي الحددود الشرقية ، وكلها مزودة بالدبابات أوالاجهزة الميكانيكية» وقال: « ان الهجوم سيحدث علي كل الجبهة ، وستوجه القوة الاساســية نحو موسكو ولينينجراد وبعد ذلك الي أوكرانيا ٠ ولن يرســل انذار نهائى لبدء الحرب ، بل ستعلن بعـــد بدء المعركة وقد ينهار الجيش الروسى في خلال شـــهرين وتسقط الحكـــومة الروسية ، ويفتح خط سـكة حديد

سيبيريا في الشتاء ويصبح الاتصـال باليابان ممكنا » ٠ ٠

كانت تلك أنباء مثيرة ، فقد وقع هتلر في ١٩٣٩ ميثاق عدم اعتداء مع ستالين (اتفق فيه سرا علي تقسيم بولندا بينهما) وها هو الآن يستعد لخداع الزعيم الروسي٠ وهرع زورجا بهذه المعـلومات الي كلاوزين وأمره بارسالها فورا ، ثم انتظر بصبر نافد أي اشارة علي أن الاتحاد السوفيتي يستفيد من هذا التحذير ٠

ولكن شيئا لم يحدث ٠٠ لم يتلق أي شكر أو حتي طلبا للمـزيد من التفاصيل !٠ وكان كلاوزين كعـادته قد اختصر التقرير كثيرا ، ولكن مع ذلك ، فان الرد الوحيد كان برقيـة موجزة تقول : « اننا نشك في صدق معلوماتكم » ٠

وتصـادف أن كان زورجا مع كلاوزين عندما جاء هذا الرد الفظ ، فانتابته نوبة غضب جارفة ، وراح يذرع الغرفة ورأسه بين يديه ٠٠ ثم قال صائحا : « لماذا لا يصدقونني؟ هؤلاء التعسـاء كيف يتجـاهلون رسائلنا ؟ » ٠

الي أين تتجه اليابان ؟

وبينما كان زورجا ينتظر الهجـوم الالماني في يأس ، راح يشرب باسراف، وكان أحيانا يعرب عن يأسه المطلق٠ كان يبدو أنه ليس هناك طريق يستطيع أن يحذر به وطنه اللاهي ٠ وعندما وقعت الضـربة ، تبين أن معلوماته كانت دقيقة ، فقد شن هتلر هجومه في ٢٢ يونيو بنجاح خيالي ، حتي بدا أن وجود روسيا نفسه أصـبح موضع شك ٠

وبدأ القلق يساور روسـيا علي الفور ٠٠ هل تنوي اليـابان انتهاز فرصة محنة الاتحاد السوفيتي لطعنه

وأبرقت موسـكو في تأثر تقول : «ما هو قرار الحكومة اليابانية حيال بلادنا، فيما يتعلق بالحرب الروسية ـ الالمانية ؟ هل هناك تحـرك للقوات نحو حدودنا ؟ »

لم تستطع السـفارة الالمانية أن تزود زورجا برد علي هذا السؤال، اذ رغم أن اليابان وألمانيا كانتا حليفتين اسما ـ بعد توقيع الميثاق الثلاثي مع ايطاليا في ٢٧ سبتمبر ١٩٤٠ ـ فان اليابان كانت كما يلوح لا تتوق الي أن تستغل لخدمة الاهداف الالمانية ٠ وعندما حاول السـفير أوت اقناع اليابان بأن هـذا هو الوقت المناسب لمساعدة حليفتها ألمانيا بمهاجمة روسيا من الشرق أخذ اليابانيون يراوغون، ورفضوا في أدب التقيد بأي التزام٠

وكانت اليابان قد وقعت أخيرا ميثاق حياد مع روسيا أثار دهشة الالمان، فهل تري نفسـها الان ملتزمة بهذه المعاهدة ؟ لم يكن في استطاعة السفير الالماني أوت الرد علي هذا السؤال !

وكذلك لم يستطع أوزاكي اكتشاف نوايا اليابان علي الفور ، رغم أن هيئة (فريق الافطار) كانت تجتمع أسبوعيا في ذلك الحين ٠ ففيالاجتماع الاول لها بعد بدء الغـزو ، ناقشت الهيئة هذا التحول الجـديد للاحداث بمشاعر مختلطة٠٠ فان بعضالاعضاء وهم يرقبون تقدم كسارة البنـدق الالمانية في هيبـة كانوا يخشون ألا تتوقف الا بعـد أن يرفرف الصليب المعقوف علي فلاديفوستوك ، ولم يكن هذا الاحتمال مثيرا للبهجـة ٠٠ ان الالمان حلفاء رائعـون مادام هنـاك محيط وقارة يفصـلان بينهم وبين اليابان !

ولكن ٠٠ أليست هذه فرصة من السماء لضرب روسيا في سيبيريا ، والحصول علي شـقة من الارض للشمس المشرقة ، وربما للتخلص من الخطر الروسى للابد ؟٠٠ كان رأي الفريق سلبيا ٠٠ وقد قال ماتسوموتو شيجهارو رئيس تحرير وكالة أنبـاء دوماي اليابانيـة يومئذ « حتي اذا انضمت اليابان الي ألمانيا في الحرب، فسيكون من الصعب جدا هزيمـة روسيا » ٠

ولكن لم يكن هناك من ينكرحقيقة أن اليابان قد بدأت الان تعبئة عامة، ربما استعدادا للهجوم علي روسيا ٠ وبدا أن العسكريين ـ أصحابالسلطة الاخيرة ـ يميلون الي الغـزو وكان هناك فريق (كان أوزاكي يؤيده بشدة خلال مناقشات فريق الافطار) يؤيد تجاهل روسيا والتوسع نحو الجنوب، حيث يكمن في الاراضى الخصبة مثل اندونيسـيا والملايو ، وجزر الهند الشرقية والفلبين ، البترول والمـواد الخـام الاخري لاذكاء نـيران الامبراطورية ، اليجانب منافذ جديدة للملايين من اليابانيين ٠

لم يستطع زورجا ابلاغ موسـكو عن نوايا اليـابان ، مادام اليابانيون أنفسهم لم يستقروا بعد علي شيء، ولم يقرروا الي أي طريق يقفزون ٠٠

التوكو

كان الحظ قد أخذ يتخلي عنشبكة زورجا ٠٠ لقـد ظلوا عدة سنوات يعملون بنشاط دون أن تحـدث أية نكبة جدية لهم ، ولكنهم الان يعيشون علي حافة الخطر ، وأخذ يوم النهاية المنتظر يقترب ٠ كان الفنان مياجى

قد أصيب بالسل ، وطواه الحزن ، وأسلم نفسه لحكم القضاء والقدر ، وراح يضاعف احتياطاته ، واتخــذ من دروس الرسم التي كان يعطيها لابنة أوزاكي حجــة لزيارة منزله ، ولكنــه كان لايزال ينتظر أن يضع البوليس يده علي كتفه في أية لحظة.

وكذلك كان ماكسكلاوزين عصبيا. وقد وقعت أخيرا سلسلة من الحوادث المفزعة حطمت أعصابه ، وزاد خوفه أن خادمته أبلغتــه أن جاره أوياما شيجــيرو - من رجال البوليس السري الياباني - يأتي كثيرا خلال غيابه ليسألها عنه ..

أما الشخص الذي وجــه بوليس الامن الياباني دون أن يدري الي شبكة زورجا ، فهو شــاب يدعى « انيتو ريتسو » يعمل مســاعدا لاوزاكي في سكة حديد جنوب منشوريا ، فقــد اعتقل بتهمة الشيوعية ، فتحول الي مرشد للبوليس بعــد تردد ، وسأله البوليس عما اذا كان يعرف أحدا من أعضاء الحزب الشيوعى بين اليابانيين الذين عادوا أخيرا من أمريــكا وهم فريق كانت الشــبهات تحوم حولهم بصفة خاصة .. وتذكــر ايتو أن مدبرة منزله لها عمة جاءت من أمريكا منذ بضع سنوات ، وكانت تفخــر أحيانا بأنها شيوعية ، فذكر اسمها للبوليس ، وهو يعتقد أنها شخصية صــغيرة لن تضر التضحية بهــا بالقضية .

وكانت المــرأة وتدعى كيتابايايش تومو تدير مدرســة لوس انجليس لتعليم الحياكة بشارع أوندا شيبويا - كو بطوكيو .. وبعد حوالي شهر زارها شــابان من القسم الاجنبي بادارة الامن وهما يمســكان بعض الدفاتر في أيديهما ، واعتــذرا عن ازعاجهما قائلين انهما يقومان بمسح دوري للمنــازل ، وأنهما سيوجهان اليها بعض أسئلة روتينية .

لم تكن ادارة الامن تنوي اعتقالها في ذلك الحين ، فانها ليست الا سمكة صغيرة ، واذا أرادوا اعتقالها فانهم يستطيعون معــرفة أين يجدونها . ورغم وضعها تحت الرقابة الدقيقــة بعد استجوابها الذي أجري بلااكتراث فانهم لم يعرفوا مدي قربهم من شيء عظيم القيمة ، ولكن وســائل الادارة التي لا ينفد صبرها أتت ثمراتها رغم ذلك ، اذ أن مستر ومسز كيتابايايش كانا قد أســكنا في منزلهما بعض الاشخاص في لوس انجليس عام١٩٣٢ وكان بينهم فنان شاب يدعى مياجو يوتوكو !

الاذاعة الاخيرة

كان « زورجا » مشـــغولا تماما بالمشكلة التي كلفته بها موســـكو وهي : ماذا تنوي اليابان ان تفعل ؟. وقد ابلغها عن التعبئة العامة ، وكل المعلومات التي استطاع الحصـــول عليها عن ارسال القوات الي حدود سيبيريا. وعندما علم أوزاكي بالقرار الذي اتخذ في المؤتمر الامبراطوري الذي عقد في ٢ يوليو ، ارسل زورجا ذلك ايضا . ان اليابان ستتحرك جنوبا ، ولكنها ستضرب روسيا اذا اضطرتها الاحداث لذلك .

ولكن السحب كانت تتجمع فوق علاقات اليابان بالولايات المتحـــدة ، وكان زورجا يعتقـــد ان الحرب بين الدولتين احتمال ممكن ، واذا كانت اليابان تعتزم قتال امريكا فانهـــا ولاشك لا تريد مهاجمة روسيا . وجاء تأكيد ذلك في ٢٠ اغسطس عنـــدما اجتمـــع جنـــرالات جيش كوانتونج بالقيادة اليابانية العليا في مؤتمـــر استمر اربعة ايام . وعندئذ قال أحد العاملين مع أوزاكي في سكة حـــديد جنوب منشوريا ان جيش كوانتونج قرر الا يدخل الحرب مع روسيا ، وهذا هو سبب وجود ممثلين في طوكيو للتحدث مع السلطات المركزية .

وعندما ذهب أوزاكي بحكم منصبه الي ديرن ، تنقل من هناك الي شنكنج وهوتين مراقبا تحـــركات القطارات بعناية ، وقد ابتهج عندما لاحظ انه ليست هناك تحركات كبيرة للجنود او العتاد ، وساعده الحظ غير العادي في هوتين عندما فاز بثقة مدير احصاءات فرع المكتب العام ، فقد أبلغه الرجل انه قبل التعبئة العامة في يوليو مباشرة كان جيش كوانتونج قد امر السكك الحديدية ان تستعد لنقل ١٠٠ الف طن من الشحنات العسكرية يوميا لمدة ٤٠ يوما ، وطلبوا ايضا جمع ٣٠٠٠ من عمال السكك الحديدية المدربين ، وانتظار شن هجـــوم علي الجيش الاحمر ، وقد نفذ الامر في البـــداية فقط ثم اخذ عـــدد العمال المطلوبين يتناقص تدريجا حتي اصبح ١٥٠ فقط لم يستخدم منهم حتي ذلك الحين غير عشرة فقط ..

ان مغزي هذه المعلومات بالنســبة لاوزاكي لا يمكن المبالغة فيه ، فهاهو لاول مرة دليل حقيقى .. معلومات حقيقية واضحة من مصدرها الصحيح عن عملية ضخمة كانت تدبر ضـــد الاتحاد السوفيتي ، والتخلي عنها بعد ذلك ...

وفي يوم السبت ٤ أكتوبر ١٩٤١

ـ عيـد ميـلاد زورجا الســادس والاربعــين ـ أبلغ كلاوزين هــذه المعلومات الي المخابرات الروسية ، وقد قام بالارسال من بيت فوكليتش حيث بعث فحوي تقـرير أوزاكي من رحلته الي منشوريا ، وتأكيد زورجا النهائى بأن الوطن الشيوعى في أمان ـ مؤقتا علي الاقل ـ من حرب ذات جبهتين · وقال زورجا لرؤسائه : « ان الشرق الاقصى السوفيتي قد يعتبر في أمان من الهجوم الياباني ، حتي نهاية الشتاء المقبل علي الاقل·· لاشك هناك في هــذه النقطة ، فان الهجوم الياباني لن يقع الا اذا نقلتم أغلب جنودكم من سيبيريا الي الجبهة الغربية ، أو اذا نشبت حرب أهلية في سيبيريا » ·

كان أثر هــذه المعلومات علي الاستراتيجية السوفيتية من العسير تحديده بالضبط فان الاتحاد السوفيتي لم يتخل قط عن فكرة نقل القوات·· وفي نهاية ١٩٤١ نقلت روسيا أكثر قليلا من نصف قواتهــا في الشرق الاقصى للقتال في الغرب ، ولم تكن تلك القوات كافية لوقف التيارالزاحف علي موسكو ، حيث كانت الجيوش الالمانية المنتصرة تدق أبوابها فعلا ·

كانت هذه المعلومات هي آخـر رسالة تصل الي موسكو من شبكة زورجا في طوكيو !

انتحار يفشل

عنـدما جـاء رجـال الامن أخيرا لاعتقال مسز كيتاباياش تومو صاحبة مدرسة تعليم الحياكة ، كانت اسئلتهم مؤدبة ، روتينية ، غير متعجلة ، وكان هناك شيء واحد فقط فيها هو الذي أثار اهتمامهم حقا ، فعندما اعتقلت كانت تحمل مبلغا من النقود الامريكية فمن الذي اعطاها الدولارات الامريكية ·· ولماذا ؟

وأجابت « تومو » علي الســؤال بصدق ·· قالت ان صـديقها مياجى يوتوكو كان يعطيها النقود احيانا من أجل ايامهما القديمة عندما كان ينزل في بيتهــا بلوس انجليس ، وظلت معرفتهما متصلة بعـد عودتهما الي اليابان ·· ثم اعترفت بعد قليل من الضغط بأنها ومياجى كانا عضوين في الحزب الشيوعى بأمريكا ·

وأخذت الاصــابع الماهرة تقلب بسرعة سجل مياجى في ادارة الامن ، فتبين انه ولد في اوكيناوا من اسرة مهاجرة ، ثم انتقل الي كاليفورنيا وهو في الســادسة عشرة ، ثم عاد الي اليابان كرسام محترف ، وانه مصاب بالسل ، ولم يكن في حالة من الثراء

تجعله في وضع يتيح له ان يقدم هدايا في مثل هذا الحجم من النقود ولاسيما الدولارات علي صاحبة بيته السابق٠٠ فلماذا اذن يعطي مياجى نقودا لمسز كيتابایاش ؟

لم يكن لدي رجال الامن حتي ذلك الحين اية فكرة عن احتمال ان يكون مياجى جاسوسا ولكنهم قرروا استدعاءه للسؤال ٠٠ وطرق ثلاثة من رجال البوليس بابه بعد ان تبعوا صاحبة البيت الي اعلي قبل ان تتمكن من الاحتجاج ٠٠ فوجدوا مياجى في الفراش وقال أحدهم :

ـ لدينا بعض اشياء نريد سؤالك عنها ٠٠ فهل تأتي معنا ؟

واذعن مياجى للاعتقال في عزة وسكون ، فقد كان يتوقع منذ شهور ان توضع هذه اليد علي كتفه ٠ وبينما كان يرتدي ثيابه أخذ المخبرون يفتشون غرفته ٠٠ كانت هناك بعض وثائق موضوعة بحيث تبدو للعيون بسهولة ٠٠

وعندما نظروا في هذه الاوراق ، كادت عيونهم تقفز من محاجرها ٠٠ فقد كانت تحوي دراسة كاملة لمخزون اليابان من البترول في منشوريا ، وهي معلومات علي اعلي درجة من السرية، ولم تكن هذه المعلومات الدقيقة مكتوبة باليابانية فحسب ، بل وكانت ترجمتها بالانجليزية مكتوبة علي الآلة الكاتبة بأناقة ٠٠ وفي تلك اللحظة بدا شيء من الطبيعة الحقيقية للقضية ٠٠ لقد جاء رجال البوليس السري يبحثون عن سمكة صغيرة ، فاذا بهم يصيدون سمكة قرش !

لم يكن رجال « توكو » رقيقين مع مياجى ، بلكانوا يهددونه ،ويصيحون فيه ويصبون عليّ رأسه كل الشتائم واللعنات ولكن دون جدوي ٠٠٠ وأخذوا يتملقونه ، ويتوسلون ولكن عبثا ، وعند الظهر احس الجميع بالحيرة والارهاق ، وعندما توقفوا لتناول الغداء ، توجه اربعة من رجال البوليس الي غرفة عبر القاعة لتناول الطعام تاركين وراءهم اثنين لحراسة مياجى ، فطلبا طعاما للسجين ، ولكنه رفض ان يلمسه زاعما انه ليس جائعا

وبعد انتناولوا طعامهم ، جاء اثنان من المخبرين ليتوليا الحراسة بدلا من زميليهما اللذين جاءا لهما بالطعام ٠ وفي لمح البصر ، قفز مياجى واقفا ودار علي عقبيه ثم القى بنفسه من النافذة المفتوحة الي الارض التي تقع علي مسافة عشرة امتار ٠ ٠

وصاح أحد المخبرين ويدعى ساكاي تاماتسو طالبا محاصرة المبني ثم قفز

من النافذة خلف مياجى مباشرة وعندما هرع الآخرون خارج المبني ٠ وجدوا المطارد والطريد مستلقين علي الارض وقد فقدا وعيهما ، ولكنهمـــا كانا لايزالان حيين٠ واستدعي البعض عربة البوليس لنقلهما الي المستشفى ٠

وتبين ان مياجى قد استقر فوق اشجار كثيفة خففت سقطته ٠ ونجا بجروح سطحية وكدمات مع التــواء بعض عضلات فخذه فقط ، وعندما عرف آسروه ذلك اسرعوا باعادته الي قسم البوليس لمواصلة استجوابه ٠٠ وقد وجدوه رجلا آخر ، فقد قفز من النافذة وفقا للتقاليد اليابانية للانتحار الكريم ، متوقعا ان يكون هذا آخـر عمل له علي الارض ، وعندما خذله الموت ، أصابته هزة عقلية وجسمانية عنيفة ، فقد أحس كأنه بعث من جديد واحس بالحاجة الي الاعتراف لكي يبدأ حياة جديدة في صفحة نظيفة ٠

وهكذا فانه عندما عاد مياجى الي غرفة الاجتماعات ، تكلم ، وراح يتكلم بافاضة ٠٠ وكشف كلشيء عن شبكة التجسس التي انشـأها زورجا ٠٠ واصغى رجال البوليس في ذهول تام لهذه التصريحات !

قط امام جحر الفأر

اعتقلت ادارة التوكـــو أوزاكي هوتسومي في السادسة من صباح ١٥ أكتوبر في مكتبة منزله ولم يســاوره القلق ، بل سار دون مقاومة اليقسم بوليس ميجورو وقد ظهر انه اعتقـل من اجل كتاباته كمثقف حر ٠٠ ولكن الضابط المستجوب قال له بصراحة :

ـ اننا لا نستجوبك باعتبارك يابانيا بلبصفتك أوزاكي جاسوسالكومنترن

وظل اوزاكي متمسكا بالصمت ١٨ ساعة ، ولكن عند منتصف الليل ، انهار اخيرا ليخفف التوتر الذي لايطاق وقال : « سأذكر لكم الحقائق ٠٠ فدعوني استريح اليوم وافكر قليلا »

ووافق البوليس وقد أحسوا بارتياح بينهم وبين انفسهم ، فقـــد كانوا يشعرون انه بدون اعتراف اوزاكي فانهم لن يستطيعوا اتخاذ اية اجراءات ضد الاجانب الثلاثة : ريتشارد زورجا وبرانكو دي فوكليتش وماكس كلاوزين

وكذلك واجه زورجا يوما مليئـــا بالقلق٠٠ وعندما جاءه ماكسكلاوزين الي بيته بعد ظهر ذلك اليوم ، اعطاه زورجا مظروفا اخيرا من البرقيـــات لارسالها باللاسلكي ٠٠٠ وكان يشعر ان مهمة الشبكة قد تمت، فقد تأكدوا وارسلوا الي موسكو معلومات لاتقدر بثمن عن ان اليابان لن تهاجم الاتحاد السوفيتي ٠٠ وكان زورجا نفسه فى

حاجة الي تغيير المناظر • ومن ثم فان الرسائل الاخيرةتضمنت طلبا لتعليمات جديدة قائلا ان اي بقاء في اليابان بعد ذلك سيكون لا معني له •• فهل تعود الشبكة الي الاراضى الروسية؟ ام تبدأ نشاطا جديدا في ألمانيا ؟

وقلب كلاوزين الاوراق بسرعة ثم أعادها الى زورجا قائلا : « لم يحن بعد أوان ارسال هذه البرقيات •• ومن ثم فانى أرجوك ابقاءها قليلا معك » •

واذا كان زورجا لم ينفجر في وجه ماكس ، فان ذلك وحده يكشف مدي التغيير الذي طرأ على بطل المخابرات الروسى • فقد استبد به القلق لان أوزاكى ومياجى لم يحضرا وفقا للميعاد المتفق عليه •• وأخذ يسأل نفسه : تري هل اعتقلا ؟ كانت رائحة الخطر قد أخذت تتسلل الى خياشيمه •

والواقع أنه بعد اعترافات مياجى، أمرت ادارة « التوكو » ساتيو أن يضاعف مراقبته لزورجا : ألا يتركه يهرب ، ولا ينتحر ، ولا يوحى له بأن اعتقاله وشيك • واستأجر ساتيو غرفة في الطابق الاعلى في المنزل الذي يقع عبر الطريق، وفي يوم ١٥ أكتوبر كان يراقب بيت زورجا بعيون القط الذي يقف أمام جحر الفأر

وفي اليوم التالى ازداد زورجا عصبية وكآبة • وبعد أن تناول غداءه مع ماكس في أحد المطاعم ، عاد الى بيته ، وترك سيارته كالمعتاد في الجاراج القريب ، وكان هذا الجاراج جزءا من شبكة البوليس التى تحيط به الآن ، وفي كل مرة كان يترك سيارته هناك كان البوليس يفتشها بدقة• وفي تلك المرة ، كشف التفتيش السريع عن مبلغ كبير من النقود ، مكدس في مظروفات • وبعد احصاء عددها أخذت الى ادارة البوليس حيث صورت ثم أعيدت الى صاحب الجاراج •

وفي ذلك المساء ، جاء صاحب الجاراج ـ بناء على تعليمات البوليس ـ الى بيت زورجا ليعيد النقود • كان البوليس يريد منه تقريرا عما يفعله زورجا هناك • وعندما طرق الرجل الباب، كان زورجا وكلاوزين وفوكليتش يعقدون مجلس حرب تسوده العصبية حول عضوي الشبكة الغائبين• ودعا زورجا صاحب الجاراج للدخول ، وبعد أن أحصى المبلغ ، أعطاه مكافأة طيبة ، ولكن لابد أنه دهش وانزعج لهذا الدليل على اهماله •

وفي ساعة مبكرة من صباح ١٨

أكتوبر ، أحضرت ثلاث فرق من رجال البوليس زورجا وكلاوزين وفوكليتش بعد أن اعتقلتهم وهم فى الفراش ·

وداعا ياصديقى !

أثار اعتقال زورجا ردود فعل سريعة وعنيفة في السفارة الالمانية ، ولما كان اليابانيون لم يعلنوا بعد الاتهامات الموجهة اليه ، فان الدهشة كانت ممتزجة بعدم التصديق عندما ذاع النبأ في أنحاء المبنى ·

وأصدر السفير الالماني أوت في غضب احتجاجا رسميا وجهه لوزارة الخارجية اليابانية وقدم معه طلبا قويا بمقابلة زورجا · ولكن المدعى العام أرجأ هذه الزيارة الى أن يحصل على اعتراف زورجا بالتجسس، وهو أمر كان في طريقه سريعا ، فان الادلة ضده كانت ساحقة ·· لقد تحدث بقية أعضاء الشبكة بحرية ، وعثرت ادارة الامن العام على دفتر الشفرة الذي كان يستخدمه كلاوزين وجهاز الارسال ، ومجموعة من رسائل مكتوبة بالانجليزية لم يتم ارسالها بعد · وانتهى زورجا الى ادراك انه لافائدة من انكار نشاطه في التجسس ، ولكنه لم يرغب فى رؤية السفير الألمانى خوفا من الحرج الذي تثيره مقابلة الرجل الذي خدعه طوال هذا الوقت ·

مكافأة لجاسوس مخلص

عاش زورجا عيشة لا بأس بها في السجن ، أفضل من كثير من اليابانيين المثقلين بالضرائب خارج جدران السجن · ويقضى القانون اليابانى أن النقود المملوكة للسجين يستطيع أن ينفق منها مايشاء، وكان مع زورجا وقت اعتقاله ١٠٠٠ ين وحوالي ٤٠٠٠ دولار امريكى ، ومثل هذا المبلغ كان يستطيع أن يفعل الكثير في اليابان في أوائل العقد الخامس من هذا القرن ·· ولم تذع قضية الاعتقالات للصحف الا في مايو ١٩٤٢، وفي مايو ١٩٤٣ بدأت المحاكمات ·

وقد اختلفت مصائر أعضاء الشبكة ، فقد مات مياجى الرسام الشاب بالسل خلال محاكمته، وحكم على المصور اليوغوسلافي فوكليتش بالسجن المؤبد ، ومات في السجن متأثرا بالالتهاب الرئوي بعد ١٦ شهرا، وحكم على ماكس كلاوزين بالسجن مدي الحياة بينما حكم على زوجته أنا بالسجن ثلاث سنوات · وحررهما الامريكيون في ١٩٤٥ بعد الافراج عن المسجونين السياسيين، وهما يعيشان الآن في ألمانيا الشرقية ، أما مسز

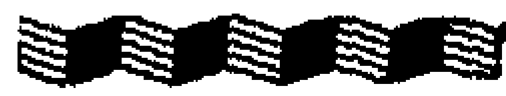
كيتا باياش حائكة الثياب فقد حكم بسجنها خمس سنوات ٠٠ ولم يحكم بالاعدام الا على زورجا وأوزاكى٠

وقد تقبل زورجا الحكم بهدوء ، وقد استؤنف الحكمان آليا وفقـــا للقانون اليابانى ، وظل زورجا واثقا من أنه لن يموت ، وقد ظل متعلقـا بأمل أن يجري الاتحـــاد السوفيتى بعض الترتيبات لاطلاق سراحه ٠

ومع أن زورجا كان يعرف أنه في الغالبية العظمى من قضايا اعتقـال الجواسيس ، تفضل الدولة المعنيـة التضحية بالعميل على أن تواجه هي حرجا ، الا أنه كان يعتقد أنه أكثر أهمية من هذه الاغلبية٠٠ انه زورجا الفريد في نوعه، ولاتستطيع الشيوعية أن تستغنى عنه ، ولابد أن ستالين سوف يعمل من أجل مبادلته ٠

ولكن زعماء الكرملين لسوء الحظ لم يتفقوا معـه في ذلك ٠٠ ومع أن الاتحـــاد السوفيتى قد فعل الكثير أخيرا من أجل زورجا ، فأطلق اسمه على شارع في مدينة باكو ، وعلى سفينة تمخر عباب البحـــار ، كما أصـــدر طابع بريد يحمل صورته ، وجعل منه بطلا للاتحاد السوفيتى٠٠ رغم ذلك فان الحكومة الســـوفيتية تجاهلته وقت الحاجة ، وأنكرت أنه كان هناك شىء يسمى شبكة زورجا للجاسوسية ، مؤكدة أن المسألة كلها مجرد مؤامرة من المخابرات اليابانية لاحراج الاتحاد السوفيتي والحط من شأن الاحرار اليابانيين ٠

وهكذا شنق أوزاكي ، وبعـــده زورجا يوم ٧ نوفمبر ١٩٤٤ ٠



حكم رادع !

مثل فتى فى الخامسة عشرة من عمره امام قاضى المحكمة البلدية فى بلدة شاين بولاية وايومنج متهما باقتحام أحدى المدارس فى الساعة الثانية ذات صباح وكان ابو الفتى يقف الى جواره فى المحكمة

وبعد ان قال القاضى للفتى انه سوف يحكم عليه بدفع تعويض عن كل الخسائر التى سببها للمدرسة ٠ اضاف قائلا : « ولما كنت اريد ان يكون هذا درسا لا تنساه ابدا ٠ فاننى ساحكم عليك ايضا بالطواف حول المدرسة فى الساعة الثانية صباحا كل يوم لمدة شهر »

والتفت القاضى الى الاب واستطرد يقول : « ولما كنت انت لا تعرف اين كان ابنك فى تلك الساعة ٠ فاننى ساحكم عليك بان تكون معه عندما يدور حول المدرسة فى الثانية صباحا طوال الشهر ٠٠ ان الآباء عندما يعرفون اين يكون ابناؤهم فى كل وقت فان نصف المشكلة يكون قد حل ! »

كتاب الشهر

قلعة الأسرار

تلخيص كتاب :

THIS SECRET PLACE

بقلم

جيمس ستيوارت جوردون



من أكثر أسرار الحرب العالمية الماضية التي احيطت بالكتمان، سر مكان - بل ووجود - مركز القيادة الذى كان ونستون تشرشل يوجه منه معركة بريطانيا .. وحتى الآن لم ير غير قلائل من الناس هذه المجموعة من الغرف التي كانت تجتمع فيها وزارة الحرب تحت الارض ، واهمها مازال مجهزا ومؤثثا كما كان خلال معركة بريطانيا .

ولقد كتب جيمس ستيوارت جوردون قصة رائعة للاحداث المثيرة التي وقعت فى ((هذا المكان السرى)) كمـــا كان تشرشل يدعوه ، وكشفت الاحاديث مع الرجال والنساء الذين عملوا هناك تفاصيل لم تنشر قبل الآن عن الاحداث الهامة خلال الحرب .

ان شجاعة تشرشل وعبقريته وشخصيته الغريبة ما زالت تتألق فى تلك الغرف الموجودة تحت الارض ، وقد اضفت شخصيته لونا زاهيا على هذه القصة .

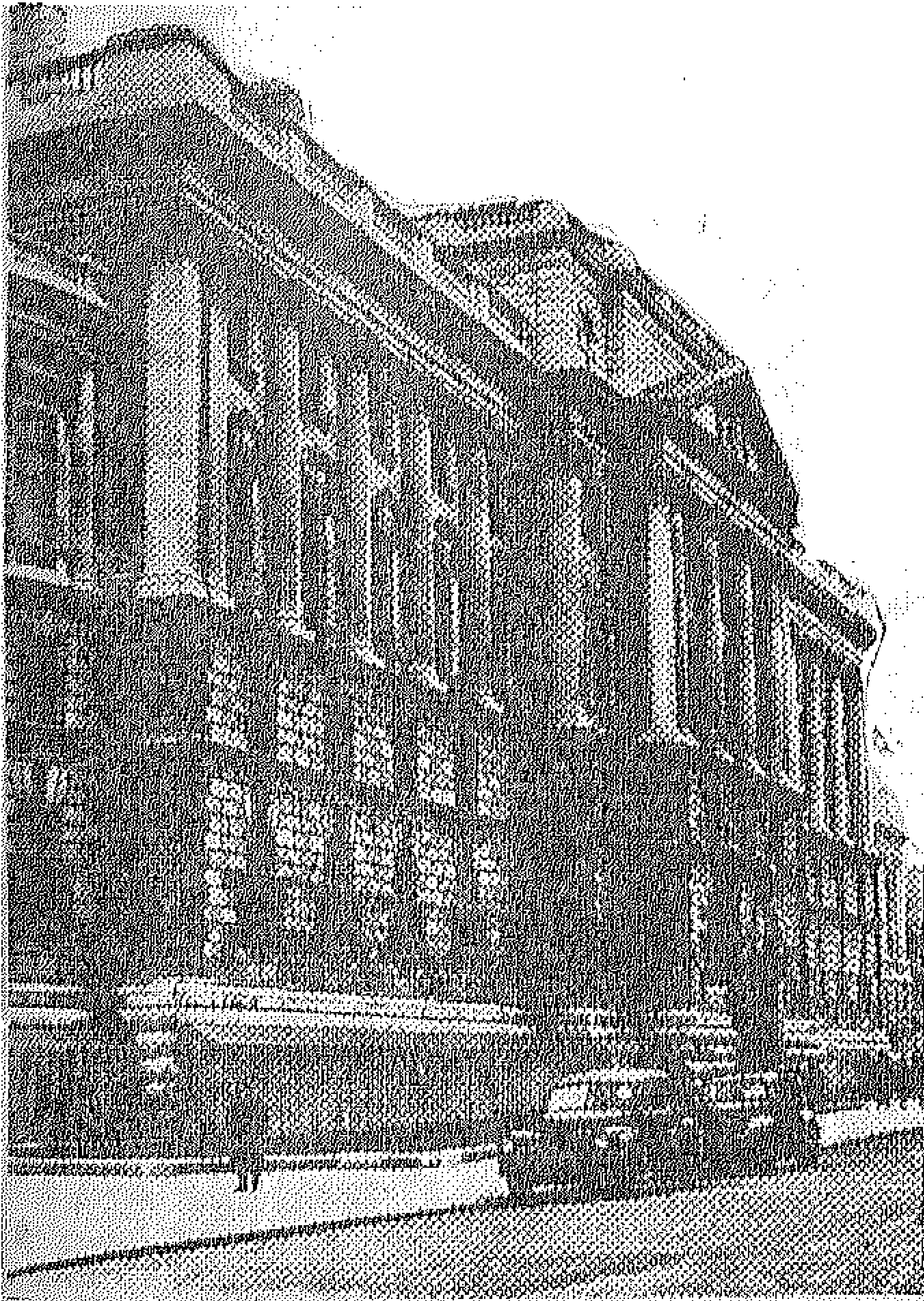
قلعة الأسرار

كانت غرف وزارة الحرب تقبع مدفونة تحت بناء ضخم ملتو من مبنى حكومى يقع في قلب لندن ٠٠ أكثر من ١٥٠ غرفة أشبه بالزنزانات ، بعضها لايزيد حجمه على جحر الثعلب تفتح كلها على ممر طوله ١٥٠٠متر، وهي تغطى مساحة تبلغ ستة أفدنة ، كلها تحت ألواح منالخرسانة الصلبة التى يبلغ سمكها ٥ر٤ متر ٠٠ وفي عنفوان الحرب كان حوالي ٣٠٠ شخص يعملون في هذه الاقبية ، وكانوا يطلقون عليها اسم «الحفرة» أو مجرد «ذلك المكان السفلى» أما بالنسبة لونستون تشرشل، فقد كان يسميها : « هذا المكان السري» ٠

وفي تلك الغرف ، أعلن تشرشل في مايو ١٩٤٠ : « اذا جاء الغزو ، فانني سأجلس هنا» وأشار الى مقعده على رأس مائدة مجلس الوزراء وقال: «سوف أجلس هناك حتى يندحر الالمان ، أو يخرجوني جثة هامدة»٠

ولم يعرف العدو قط أي شيء عن هذا المقر الشاسع القابع تحتالارض، ومع ذلك ، فهنا نوقشت كل خطة في صراع الموت مع ألمانيا ، وسجلت كل ضربة من ضربات الحرب ٠٠ هنا كانت توجد خرائط هائلة ورسومات، رصعت بدبابيس ملونة ، مشيرة الى معارك البر والبحر والجو الكبري٠٠ هنا دبرت الخدع الكبري أمثال : «الرجل الذي لم يوجد قط» و «بديل مونتجومري» ٠٠ هنا أذاع تشرشل منغرفته التى تستخدم للنوموالجلوس

المبنى العتيق فى ((ستوريزجيت)) بالقرب من وزارة الخارجية حيث كانت توجد وزارة الحرب



اذاعاته التاريخية ، ومن غرفة لاتزيد على دورة الميـــاه أجري محادثاته التليفونيـــة مع الرئيس روزفلت فى واشنطون .

ان الجزء الاكبر من هذه المساحة قد تحول اليوم الى مخازن أو ترك خاليا خاويا ، ولكن ست غرف فقط احتفظ بها كمكان تذكاري .. وعلى جدار غرفة نوم رئيس الوزراء ، التى لم تعـــد تختفى وراء ستار ، كان حاجزها الوحيد خلال الحرب ، علقت أكثر الخرائط سرية وتظهر بالتفصيل كل استعداد ضد الغزو . وفي غرفة الخرائط السرية ، كانت الارقام تدون خلال معركة بريطانيـــا للعدد الذي أسقط من طائرات العدو والطائرات البريطانية فوق جهـــاز أشبه بلوحة تسجيـــل أهداف الكريكت ، ومازال الرقم المسجل لاعظم أيام المباراة، وهو يوم ١٥ سبتمبر ١٩٤٠ ، قائما على اللوحة وهو : ألمانيا ـ اسقاط ١٨٣ ـ محتمل ٤٢ ـ أتلف ٧٥ .

وعلى مقربة من هذه الغرفة، توجد غـــرفة مجلس الوزراء ، وما زالت مائدتها تحمل بطاقات الجلوس التى حال لونهـــا : مستر بيفن ، مستر أتلى ، لورد بيفر بروك ، وهنا فى أحلك أيام الحـــرب ، دعي المجلس لاجتماع من أخطر اجتماعاته . لقد أرسل تشرشل ـ الذي كان في مصر يومئذ ـ طلبا لاختيار قائد جديد في شمال أفريقيا حيث كان رومل يحرز نصرا بعد آخر . ولكن الضابط الذي طلبه كان قد عين فعلا بين أركان حرب الجنرال ايزنهاور في لندن .

وناقش المجلس المســـــألة طوال الليل ، حتى قال وزير العمل أرنست بيفن والضوء يلمع على نظارته ذات العدسات السميكة ، وبقية سيجارة تتدلى من شفته السفلى : « ان علينا اما أن نرسل الرجل أو نقترح بديلا له . ولما لم يكن لدينا بديل ، فاننا يجب أن نرســل الرجل الذي يريده ونستون » وكان الرجـل بطبيعـــة الحال برنارد مونتجومري ، وقد كان انتصاره على رومل في العلمين نقطة تحول في تاريخ الحرب .

وفي «الحفرة» أيضا ، لاحظ البعض بعد فحص مجموعة من الصور ، أن أدولف هتـلر كان يضيف طولا الى قامتـــه بزيادة حجم كعب حـذائه تدريجا .

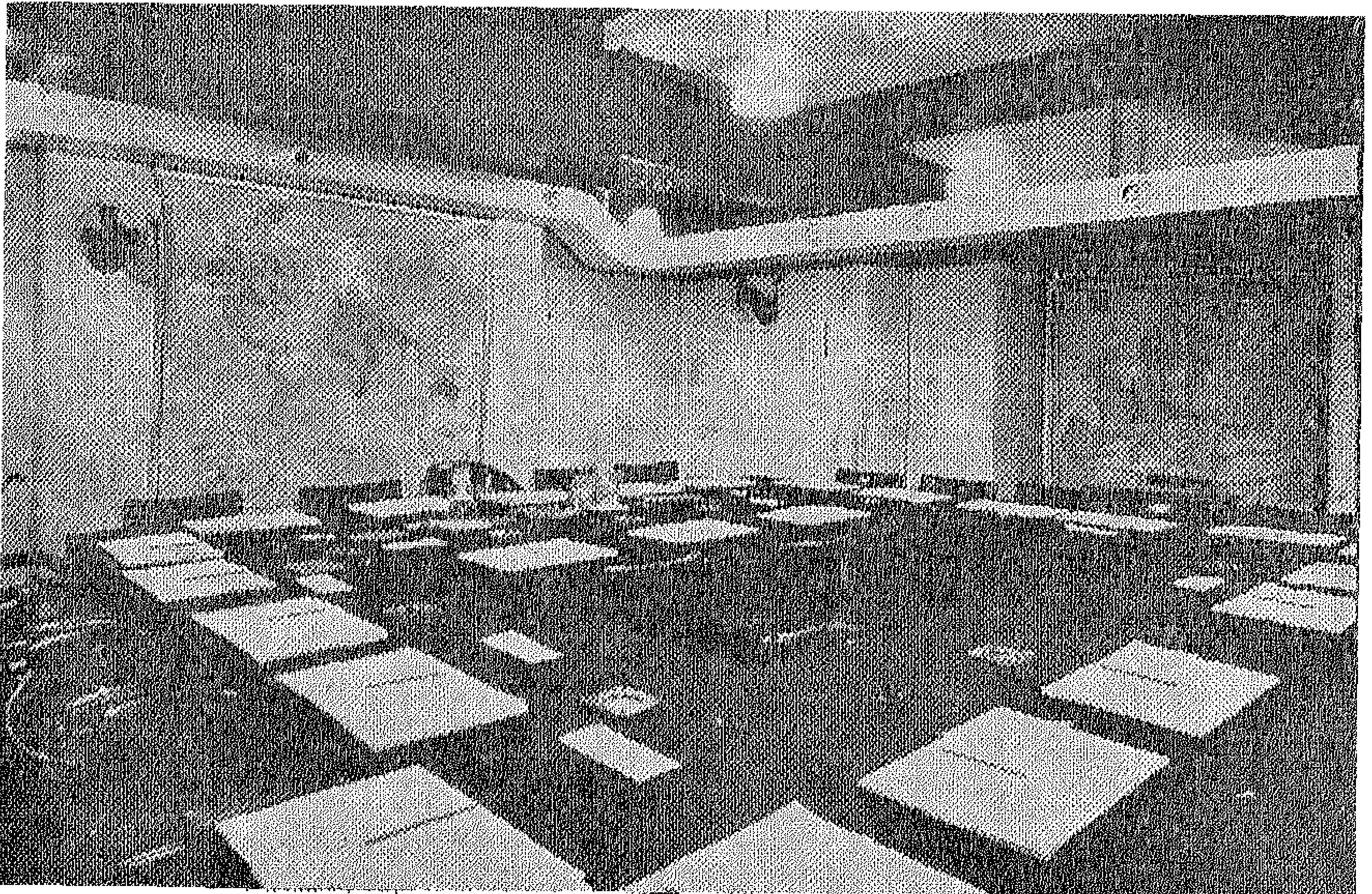
ومن أجل الترفيه الهزلي ، اقترح ضابط شاب هنـــا في صيف ١٩٤٠ طريقـة مؤكدة لوقف عمليـة «سبع البحر» التىأعدها هتلر لغزو بريطانيا

٠٠ وكانت الخطة الالمانية تتطلب أولا أن يقضى سلاح الطيران الالمانى على سلاح الطيران الملكى ، ثم يشترك مع الاسطول الالمانى فيالقضاء على أسطول الجزر البريطانية ، وبعد ذلك يجري سحب مئات من الصنادل المحملة بجنود النازي ودفعها عبر بحرالمانش، فاذا هبطت الى الشاطىء ، فان القوات سوف تستخدم الدراجات في زحفها النهائى ٠٠ وقال الضابط الشاب متسائلا : «عندما يهبطون الىالشاطىء ٠٠ ألا نستطيع أن نفرغ الهواء من اطارات دراجاتهم ؟ »

« لو استطاع هتلر سماعه ! »

بدأ اعداد «الحفرة» خلال أزمة ميونيخ ، وقد زارها نيفل تشمبرلين رئيس الوزراء في اليوم الذي أعلنت فيه الحرب ، ولكنها لم تتخذ جو الاهمية والاثارة الذي يستطيع الزائر أن يحس به حتى اليوم الا بعد أن تولى تشرشل الحكم ٠

ويقول أحد الضباط الذين خدموا في هذا المكان السري : « ان الناس يقولون أنها حرب هتلر ، ولكنها لم تكن كذلك ٠٠ ربما كان هتلر هو الذي بدأها ، ولكن بعد العاشرة من



غرفة اجتماع مجلس الوزراء فى المخبأ السرى ..



كلمنت اتلى .. نائب رئيس الوزراء فى الوزارة البريطانية أثناء الحرب

شهر مايو ١٩٤٠ ، بعد أن تولى تشرشل الحكم ، أصبحت حرب ونستون . ولقد حاربها بكل حماسة وغيرة تلميذ أحاط به أصدقاؤه وهو يصارع بلطجيا !

وما أن تولى تشرشل رئاسة الوزارة ، حتى قام بزيارة تفتيشية لقلعته ، كما هو شأنه دائما .. وقد وصل دون انذار ، وانطلق بسرعة خلال الغرف، ثم سأل عن باب الخروج الذي يؤدي مباشرة الى رقم ١٠ داوننج ستريت . وأرشدوه الى باب قليل الاستعمال ، فخرج من الكآبة الى صباح مايو الانجليزي المشرق، وسرعان ماتجمع عدد صغير من العمال ، كأنما اجتذبتهم قوة غير منظورة ، وعندما سار تشرشل بينهم وعصاه تدق في توافق مع قدمه الراسخة الخطى ، انفجروا هاتفين، وابتسم تسرشل وقال لاحد مرافقيه وقد بللت الدموع عينيه : « انهم يثقون في ، وليس في استطاعتى أن أمنحهم الا الكارثة لفترة طويلة » .

كان قلب «الحفرة» يتكون من حفرتين رئيسيتين : غرفة الخرائط الرسمية ، وغرفة مجلس الوزراء ، والاخيرة مازالت حتى اليوم كما كانت يومئذ : مساحة بسيطة مستطيلة الشكل تمتلىء بمجموعة من الموائد التى صفت في هيئة مربع أجوف ، وازدحمت حول الموائد مقاعد الوزراء ، وفي وسط المائدة ، الى اليسار من الباب يوجد مقعد كبير من النوع الموجود في غرف انتظار أطباء الاسنان .. وكان هذا هو مقعد تشرشل .. وكانت القرارات التى اتخذت هنا ، هي التى انعكست في النهاية في الانتصارات والهزائم التى تبدو على جدران غرفة الخرائط .

وعندما كان مجلس الوزراء يدعى للاجتماع هنا ، وكان تشرشل يدخل أولا ، ثم يتبعه الباقون ويتخذون

مجالسهم ، فيجلس الى يسار رئيس الوزراء أعضاء فريق مستشاريه غير الرسميين : لورد بيفر بروك الذي يشبه القزم حارس الكنوز وبرندان براكن الاحمر الشعر ، وأحيانا البروفسور ف٠ ليندمان، الذي أصبح فيما بعد لورد تشرويل ٠ وكان ارنست بيفن يجلس الى يمين تشرشل ٠٠ والى يسار تشرشل مباشرة كان يجلس نائبه كليمنت أتلى وهو رجل هاديء ذو وجه غامض ، الا أنه يمكن أن يغضب في بعض الاحيان ٠

وبعد أن يفتتح تشرشل الاجتماع، يعرض أول مسألة في جدول الاعمال، فيتحدث الوزير الذي تتعلق المسألة بوزارته ، ويبدأ الجدل ، وترتفع الاصوات ، ويطرب تشرشل لضجيج المناقشة ويشترك فيها حتى يغرق صوته وعباراته البرلمانية الحماسية أصوات أعضاء حكومته ٠

ورغم أن الغرفة كانت ذات جدران كاتمة للصوت، فقد تركتكوة صغيرة من القضبان الحديدية مفتوحة بعد تغطيتها بشبكة من السلك ، فاذا كان هناك خلاف كبير في الرأي ، فان مستوي الصوت يرتفع حتى يتدفق من خلال الشبكة الحديدية ٠ وقد حدث في خلال فترة مليئة بالصخب أن قال أحد مشاة الاسطول وكان في نوبة حراسة : « لو استطاع هتلر أن يسمعهم لتوقف عن ازعاجنا وأسرع بالفرار » ٠

وفي خلال هذه الاعاصير ، كان السكرتيرون يدونون قرارات مجلس الوزراء بأيديهم، وعند انتهاء الاجتماع يسرعون لاملاء النتائج على الكاتبات على الآلة الكاتبة ثم ترسل التقارير بسرعة لنسخها ، ولما كان تشرشل رجلا يكون في أفضل حالاته بعد الخامسة مساء ، فانه كثيرا ماكان يدعو وزارته للاجتماع في ساعة متأخرة من الليل ٠

ومن الاشياء الجديرة بالفخر، أنه طوال الحرب كلها ، ومهما كانت الساعة التى تتلقى فيها كاتبات الآلة التقارير ، فان نسخة من محضر اجتماع الليلة السابقة تكون على مائدة افطار كل وزير عند الصباح ٠

وفي غرفة مجلس الوزراء ، كان تشرشل بصفته أيضا وزيرا للدفاع، يجتمع برؤساء أركان الحرب ، ومع أنه لم يكن هناك غير ثلاثة من رؤساء أركان الحرب هم سير ألان بروك للجيش وسير دادلى باوند للاسطول، وسير تشارلز بورتال لسلاح الطيران بالاضافة الى السكرتيرية ، فان هذه

الاجتماعات كانت تشبه كثيرا اجتماع مجلس الوزراء في رنين أصواتها، وقوة المقاصد والمناقشات ٠

وقد اعتاد مارشال الجو بورتال أن يذكر آراءه في ايجاز وهدوء ، أما سير « ألان بروك » وهو رجل ضئيل الجسم وذراعاه طويلتان ، فقد كان يندفع في الحـــديث ، حيث تتساقط كلماته واحـــدة فوق الاخري كنهر متدفق ، وفي بعض الاحيـان يختلط بعضها البعض ٠ وقد حدث ذات مرة أن أمضى نصف ساعة وهو يذكر بالتفصيل موقفا عسكريا على مقربة من ايران ، التى ظل يشير اليها على أنها « ألمانيا » وعندما حاول أحـد المساعدين أن يصحح له ذلك صاح فيه بروك : « لاتصحح لى كلامى٠٠ انك تعرف جيدا ماأعنيه ! »

وكان الاميرال باوند يظهر دائمـا وكأنه نائم الى أن تذكر كلمـــــة «الاسطول» وهنا يستيقظ وهو يطلق الكلام كمدافع السفن خلال المناقشة وابداء الرأي ٠

وفي غضون ذلك ، كان تشرشل ــ الذي له آراؤه الخاصة في المسائل العسكرية ــ يجلس في مقعده كالمبارز الذي يواجه الفرسان الثلاثة بمفرده، وهم يهاجمونه بشدة من كل الجهات في وقت واحد ٠

مركز الاعصاب

وعلى النقيض من غـرفة مجلس الوزراء ، كان العمل يجري في غرفة الخرائط في سكون وصمت ولكن الجو كان مشحونا بالتوتر ، ولاسيما خلال المعارك البحـرية الكبري مثل معركة «جراف شبى» و «بسمارك»، ومطاردة «شارنهورست» و «جنيسنزو» ٠

وبينما تتغير مواقع السفن والطائرات وينتهى القتال تقريبا ، تمتلىء الغرفة ويبدو أن كل شخص يمسك أنفاسه٠

ويقول أحد الموظفين المدنيين ممن كانوا هناك: «كان في استطاعتك أن تري وميض المدافع وتسمع انفجارات الطوربيد تقريبا ٠٠ وبعد أن غرقت الطرادة (بسمارك) خرجت من الغرفة، ولم أدرك أن ساقى ترتعشان وأننى لا أكاد أستطيع السير ، الا بعد أن شرعت في عبور الشارع » ٠

وكان سقف غرفة الخرائط ــ كبقية الغرف الموجودة تحت الارض ــ مرفوعا بكتل ضخمة من الخشب لحمل الثقل الكبير لالواح الخرسانة التى تستهدف جعل هذا المكان السري محصنا ضد القنابل ٠٠ وكانت هذه الاعمدة تعزز الصورة الخيالية بأن هذه الغرفة هيَ مقر قيادة معركة في أعماق بارجة

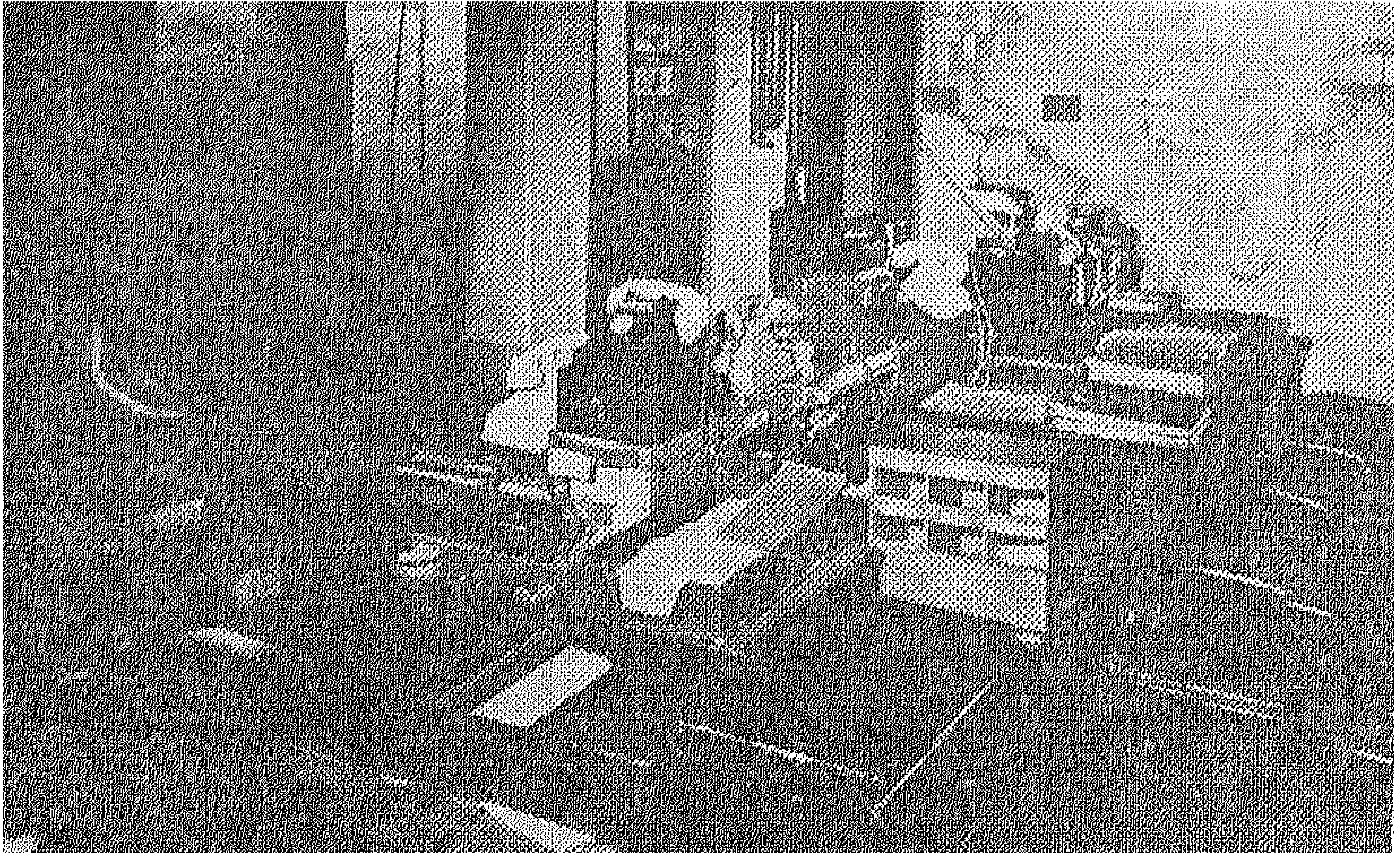
حربية .

وفي وسط الغـرفة كانت هنـاك مائدتان طويلتـان ، مازالتا تحملان بعض الاوراق التى حال لونها ، التى تتحدث عن أحداث ربع قرن مضى، وفوق كل مائدة رف مرتفع يمتلىء بتليفونات حمراء وخضراء وبيضاء، وجهزت بأضواء بدلا من الاجراس، وأجهـزة لتشويش الاصوات حتى لايستطيع أن يستمع أحد الى المكالمات التليفونية ، وكانت هـذه التليفونات تستخدم بوساطة الضباط خلال نوبات الحراسة التابعين للقـوات المسلحـة الثلاث ، ولم يكن بينهم من تقل رتبته عن لفتنانت كولونيل أو مايعادلها.. يجلسون هناك لتلقى التقارير مباشرة من مقر قيـاداتهم بالتليفون ، وعن طريق أنابيب الهـواء المضغوط تنقل المعلومات الي الضبـاط الذين يعملون أمام خرائط الحائط الهائلة .

وأمام المائدتين مكتب كان يشغله يوما كولونيل ينسق التقارير الواردة

رؤســاء أركان الحرب : سـير آلان بروك ... وسير دادلى باوند .. وسـير تشـارلز بورتال ..





غرفة الخرائط والجهاز العصبى للمقر السرى.

من كل سلاح من أسلحة القوات ومازال على المكتب صندوقان مغطيان بالجلد ، كل منهما يحمل تاجا ، أحدهما أسود اللون كتبعليه «مجلس الوزراء ولجنة الدفاع الامبراطورية » والآخر أحمر حائل اللون كتب عليه «الملك» • وكانت محتويات هذين الصندوقين تسلم يوميا الى قصر بكنجهام ومكتب رئيس الوزراء •

ومنذ سبتمبر ١٩٣٩ ، عندما ترجمت الجيوش البولندية والالمانية الى صفوف منالدبابيس ذات الرؤوس السوداء والحمراء مغروسة في خرائط يواجه كل منها الاخري ، كانت غرفة الخرائط دائما هي مركز الاعصار• وعندما جاءت الانباء الى الغرفة عن وقوف الفرسان البولنديين الباسلين أمام الدبابات الالمانية والمدافع ذات المحركات الذاتية ، نقلت الدبابايس ذات الرؤوس الحمراء التى تمثل الوحدات البولندية الى الامام نحو الدبابيس ذات الرؤوس السوداء التى تمثل الالمان •• وعندما انهار الجيش البولندي ، انتزعت الدبابيس الحمراء الرأس من الخرائط ، وألقى بها فى صندوق •

كانت تلك هي أيام مجد ألمانيا•• الايام التى كانت فيها الدبابيس

السـوداء الرؤوس تتحرك الى الامام في كل مكان دون أن تقهر ٠٠ وبعـد خمس سنوات أخذت هذه الدبابيس نفسها تتساقط واحدا بعد الآخر فى صندوق آخر يمثل الهزيمة المطلقـة الكاملة في كل الجبهات : جوا وبحرا، وفي أنقاض مدنها القديمة ٠

وكان تشرشل رجلا يحسن تقدير المواقف عندما تتمثل أمامه، ولهذا كان يعيش مع الخرائط ، وبعد أن تولى رئاسة الوزارة كانت له غرفة خرائط خاصة به نقلت من وزارة البحرية الى مكان ملحق بمسكنه الخاص ٠ ورغم أن المعلومات التى كانت تصل الى كلتا الغرفتين كانت متماثلة ، فان تشرشل الذي يكره مصابيح الفلورسنت فوق الخرائط ، كان يفضل أن ينظر الى خرائطه هو ٠

وفي كثير من الاحيـان ، عندما يكون في «الحفرة» ويحتاج الى تحديد موقع ما ، كان يقلب صفحات أطلس مدرسى يحتفظ به في درج مكتبه٠

ولايزال أحد حوائط غرفة الخرائط يحمل خريطة البحار الكبري في العالم وقد ظهرت عليه مواقع الاسطول ، وغواصات العـدو ، والتقدم اليومى للقوافل البحرية ٠ وهنا تري مواقع السـفينتين «كوين ماري» و «كوين اليزابيث» تمثلهما دبابيس تعـلوها أعلام صغيرة خاصة ٠

وكانت هذه الخريطة التى تضيئها مصابيح عادية هي المفضـلة لدي تشرشل ، وكلما دخل غرفة الخرائط كان يحوم حولهـا ٠ وكثيرا ماكان يسأل الرجال الذين يرقبون تحركات القوافل البحـرية التى تعتبر شريان الحياة لبريطانيا، أسئلة دقيقة يستفهم فيها عن سبب عدم تحرك سفن معينة بالسرعة التى ينبغى أن تتحرك بها، أو لماذا لم تستطع ترك مراسيها فى الميناء ٠

وفي احدي المناسبات استولت احدي السفن على لبه ، وكان قد علم أنها تسـير ببطء خلال شـمال الاطنطى المليء بغواصات الالمان تحمل شحنة من ٦٠٠٠ طن من البيض ٠ وظـل يلاحظ تقدمها كل يوم ، وبدا كأنه يشعر بكل اهتزازة لها أثناء سيرها وأخيرا التفت الى صديقه ف٠ليندمان أسـتاذ أكسفورد الذي كان يعتبره تشرشل نوعا من آلات التفكير المتنقلة وسأله عن عدد البيض الذي يوجد في ٦٠٠٠ طن ٠

وشغل الاستاذ قواه العقلية بأقصى طاقتها ثم رد قائلا : «١٠٧ ملايين بيضة» ٠٠ وبدا أن حجم تشرشل

قد انتفخ وقال هادرا : « هذا يعنى بيضتين لكل رجل وسيدة وطفل فى بريطانيا ! » وبعد أن تم حل تلك المسألة . استطاع الرجلان أن يركزا اهتمامهما على كسب الحرب !

واذا كانت مشكلة البيض الكبري تبدو تافهة ، فانها كانت دليلا جديدا أمام تشرشل على موارد البروفسور العقلية الجبارة. وفي خلال معركة بريطانيا ، وبعد ذلك في طريق العودة الى العلمين والنصر في شمال أفريقيا ، كان لثقة البروفسور ليندمان بنفسه ، وثقة تشرشل بعقله أثر كبير في تحول جهود بريطانيا من العمل الدفاعى الى الهجومى .

وفي ذلك الحين ، كان العسكريون الذين تأثروا بتفوق الالمان الساحق فيالجو، يتمسكون بالاحتفاظ بطائرات احتياطية أكثر مما يراه تشرشل ضروريا .. والتفت تشرشل الى البروفسور يلتمس العون ، فأجابه بأن العسكريين على خطأ . وكان البروفسور يدرس الارقام على جدار غرفة الخرائط والتى كانت تظهر المعدل اليومى للخسائر الجوية لدي الجانبين، وانتهى بعد تفكير معقد الى أن هناك طائرات ألمانية أقل كثيرا مما يتصوره أحد .. وبعد أن تسلح تشرشل بهذا التقدير من مصدر يعتبره معصوما من الخطأ ، أخذ يكافح العسكريين، حتى حصلعلى الاسراب التى يريدها لاستراتيجيته لشن هجوم مضاد .

وبعد أن انتهت الحرب ، ظهر من السجلات الالمانية التى وقعت في أيدي الخلفاء أن تقدير البروفسور كان غير صحيح ، وأن العسكريين كانوا على صواب حقا في تقديراتهم ، ولكن تشرشل في نفسالوقت كسبمعركته، وحصل على طائراته ، واستعد للمعركة الحاسمة في العلمين .

من غرف الحرب الى البيت الابيض : بينما كانت غرفة الخرائط وغرفة مجلس الوزراء هما قلب العمليات ، كانت هناك غرفة صغيرة في حجم دورة المياه ـ بل ولها ترباس دورة المياه ـ تعتبر هي الاخري مركزا أساسيا .. هنا كان التليفون الذي كان ينقل محادثات تشرشل والرئيس الامريكى روزفلت في البيت الابيض خلالالحرب. وقد قام بتركيب التليفون سلاح مشاة الإسطول الامريكى ، وكانت التعليمات لاستخدامه تقول : «تحدث بصوت طبيعى» .. ومازال التليفون موجودا في مكانه على الرف الصغير .

كانتالمحادثات تدور فيسرية تامة،

وعندما تظهر على القفل الموجود على الباب كلمة «مشغول» كانت الممرات تخلى حتى لايمكن سماع أية تفاصيل للمحادثات التى تجري عبر الاطلنطى٠

وفي الغرفة ساعة حائط تبين الزمن بتوقيت لندن بعقارب سوداء، وبتوقيت واشنطون بعقارب حمـــراء ، ورغم ذلك فان تشرشل لم يكن رجلا يتأثر بالساعة اذا كان هناك شيء في ذهنه ٠٠وكان من المحتمل أن تصل مكالماته الى واشنطون في الساعة الثالثـــة صباحا أو أية ساعة أخري مناسبة٠

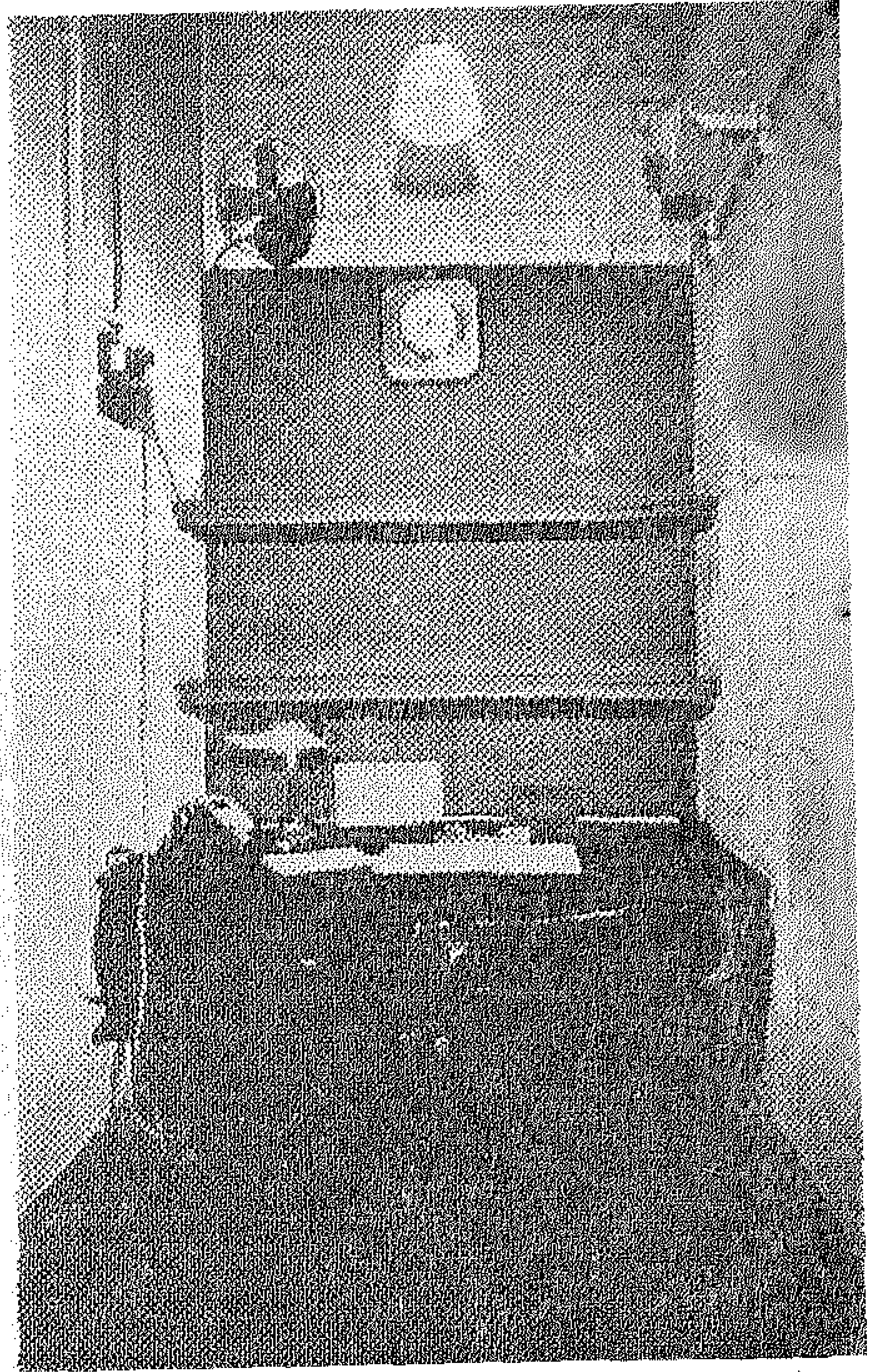
وكلما تمت مكالمة ، كانت تحدث مسرحية كوميدية أخلاقية صغيرة ، فان تشرشـــل أو روزفلت لم يكن يستطيب أن يمسك التليفون الا اذا كان الآخر هناك مستعدا للكلام٠ ومن ثم فانه ما أن تطلب المكالمة ، حتى يمسك أحد مساعدي رئيس الوزراء السماعة حتى يتأكد من أن الرئيس الامريكى على التليفون فعلا ٠٠ وكان نفس الاجراء يتبع فيواشنطون، وكانت عملية التأكد من أن الرجلين يبدآن الحديث في نفس الوقت تثير أعصاب السكرتيرين ٠

وعندما يرفع تشرشــل السماعة أخيرا ، كان دائما يحمــل سيجارا جديدا يدخنه خلال الحديث٠٠ وكانت الغرفة صــغيرة ، ورغم أن حواف الباب تكاد تحتك بكتف الباب فقد كانت هناك ثقوب يتسرب منهـــا الدخان ٠٠ وبينمـــا كانت المحادثة تجري ، كان الدخان يخرج من الباب الي الردهة في تجعدات ٠٠ ثم تنتهي المكالمة ، ويفتح تشرشل الباب بقوة ويخرج منه وهو يرتدي روبه المنزلى المعهود الذي رسمت عليـــه صورة التنين ٠

حرف V الشهير

عندما أسفرت قنبلة ألمانيا مصادفة عن تدمير جـزء من المبنى رقم ١٠ داونـنجستريت انتقل تشرشل وأسرته الى مسكن أعد لهم في جناح للضباط يقع فوق الاقبية مباشرة وقد عرف هذا المسكن باسم«الملحق» وكان دفاعه ضد القنابل يتكون كلية من مصاريع فولاذية وضعت فوق النوافذ ٠

كان على تشرشل وأسرته ــ من الناحيـــة النظرية ــ أن يلجأوا الى مسكنهم في «الحفرة» ذاتها عنـــدما تزداد الغارات شـــدة ، ولكن على الرغم من أن تشرشل كان له غرفة خاصة للجلوس والنوم هناك ، فانه كان يستخدم الفراش فقط للاستراحة بينما كان يجري مناقشاته مع الوزراء الذين يجلسون على مقاعد من حوله٠



الغرفة الصغيرة التى كان تشرشل يستخدمها فى الاتصال بواشنطون

وحدث ذات ليلة خلال غارة عنيفة، أن أصر أحد مساعديه على وجوب هبوطه الى غرفة النوم الموجودة تحت الارض تحقيقا لرغبات مسز تشرشل. وأذعن تشرشل على مضض ، وحزم أوراقه وهبط الى أسفل وقد انتعل خفا في قدميه وخلع ثيابه ثم صعد الى الفراش ، وبقي نحو دقيقة ثم نهض مرة أخري ، وحمل أوراقه وبدأ يشق طريقه الى أعلى .. واحتج المساعد ، ولكن تشرشل أسكته قائلا: «لقد وافقت على الهبوط الى غرفة النوم السفلى .. وقد نزلت اليها ، وأنا الآن صاعد الى أعلى للعمل، ثم للنوم بعد ذلك .. وهكذا حافظنا أنا وأنت على كلماتنا ! »

ولكن البقاء بين الجدران خلال ليالى الغارات الالمانية على لندن كان بالنسبة لتشرشل أمرا غير عادي في أية ظروف، فقد كان يصر على مراقبة لا الغارات فحسب ، بل والظهور فى أسرع وقت مستطاع حيث سقطت القنابل، ويتفنن في وسائل التهرب مما كان بمثابة أمر مباشر من الملك ، وتوسلات رجاله .

وفي خلال جولات تشرشل وظهوره خلال ليالى الغارات ، بدأ يستخدم علامة V اشارة الى النصر ، وهو شعار أوحى به مشهد وقع خلال معركة بريطانيا، فعندما جاءت التقارير عن فشل آخر دفعة للطائرات الالمانية الى غرفة الخرائط ، قطع ضابط شاب أربعة شرائط من الورق لصقها حول حرف V «ف» من الشعار الملكى لعبارة «الملكة فيكتوريا» المرسوم على واجهة الساعة الكبيرة. وجاء تشرشل الى الغرفة ليري عدد الطائرات التى

أسقطت ، ولاحظ حرف V المحاط بالشرائط وأخذ يحدق فيه بضع دقائق في صمت ، ثم استدار فجأة وغادر الغرفة ٠

ومنذ ذلك الحين ، أخذت العلامة التى ولدت في غرفة الخرائط ، تظهر باستمرار في شوارع لندن التى دمرتها القنابل ، وفي أنحاء العالم ، في يد تشرشل اليمنى المرفوعة الى أعلى ــ علامة على الثقة والامل ٠

« لقد صنعنا التاريخ »

وفي غرفة نوم تشرشل وجلوسه الموجودة تحت ارلاض ، كان يوجد مكتبه أيضا ، وهو عبارة عن مكعب صغير من خشب الماهوجنى العتيق، حيث كان يوقع أوراق الدولة، ويكتب مذكراته ٠٠ ومازال هناك عدد من الاغلفة غير المستخدمة في رف صغير للاوراق على المكتب ، وقلم رصاص، وشمعتان ٠

ومن على هذا المكتب وجه تشرشل أربعا من أكثر اذاعاته أهمية ٠ كانت الاولى في ١٩ مايو ١٩٤٠ عندما انهارت الجيوش الفرنسية ، حيث وجه تحذيرا بعبارات جياشة عن المعركة المقبلة ــ معركة بريطانيا وقال : «سلحوا أنفسكم ، وكونوا رجالا شجعانا » ٠

وبعد شهر ، وبينما كانت بريطانيا يسودها التوتر من أجل الضربة التى كان هتلر يستعد لتوجيهها اليها من الجو ٠٠ ذكر تشرشل خطورة الموقف ، ثم لخص في عبارة واحدة روح كل مقاومة للنازي في أي مكان وقال : « دعونا اذن نوطد أنفسنا للقيام بواجباتنا وأن نعمل بأنفسنا فان الناس سوف يقولون : « كانت تلك أروع ساعاتهم » ٠

وسرعان ماجاءت هذه الساعة ــ اذا أمكن تحديدها بالضبط ــ يوم ١٥ سبتمبر ١٩٤٠ وذلك عندما دار سلاح الطيران الالمانى ــ بعد أن هزمه سلاح الطيرانالبريطانى ــ على أعقابه وولى الادبار ٠

وفي ٢١ أكتوبر ١٩٤٠ عندما أوشكت معركة بريطانيا على الانتهاء، تحدث تشرشل من غرفة نومه مرة ثالثة ، وكان حديثه في هذه المرة موجها للامة الفرنسية المنكوبة ٠٠ لم يكن هناك مقعد في الغرفة للمذيع ، ولم يكن من المستطاع تحريك الميكروفون، ومن ثم فقد اضطر المذيع مايكل سانت دنيس الى تقديم رئيس الوزراء وهو جالس علي ركبتيه ٠ ثم تحدث تشرشل بلهجة فرنسية لايمكن أن ينطق بها غير رجل انجليزي، وقال

مقتبسا منابليون: «هؤلاء البروسيون أنفسهم الذين يتباهون اليوم كثيرا ، كان عددهم يزيد علينا بنسبة ثلاثة الى واحد في (نيا) وبنسبة ٦ الى احـــد في مونتميريل ٠٠» ومضى يقول : « انني لن أؤمن أبدا بأن روح فرنسا قد ماتت ٠٠ تحيا فرنسا ! »

ويقول سانت دنيس بعد ذلك : بعد أن انتهى تشرشـــل ، ساد الصمت لحظة ٠٠ كنا جميعـــا في حالة تأثر شديد ٠٠ ثم نهض تشرشل واقفـــا وقال : « لقد صنعنا التاريخ الليلة» وكانت عيناه مليئتين بالدموع ٠

وبينما كان الصراع بين بريطانيا وألمانيا ينتقل الى عامه الثانى، تغيرت الظروف تغيرا ملموسا ، ولم يعــد الصراع من جانب واحد فقط ٠

ومضى تشرشل الذي امتلأ ثقـــة الى الاثير مرة أخري يوم ٩ فبراير ١٩٤١، وتجاهل أن الاحتمالات مازالت ضد النصر ، وقال للشعب الامريكى وزعيمه : « أعطونا الادوات وسوف ننهى العمل» ٠

رئيس الوزراء والجاويش :

اذا كانت شخصية تشرشل هي التى أضفت على هذا المكان السري طابعه، فان براعة جورج رانس مراقب المبنى هي التى جعلت الامور تسير هناك في يسر ، وكانت العـــلاقة بين الرجلين عـــلاقة متوازنة بدقة تامة ٠٠ كان الاثنان جنديين قديمين ، وكلاهما من نفس السن تقريبـــــا ، وقد تولى تشرشل الحكم يوم عيد ميلاد رانس، وكان رانس يري أن لذلك أهميـــــة خاصة ٠

كان أحدهما بطبيعة الحال رئيسا للوزراء ، والآخر هو مراقب المبنى، الا أن الشعور بينهما كان أقرب الى شعور كولونيل الفرقة، وجاويشها٠٠ وكان الجميـــــع يطلقون على رانس اسم « الرئيس العجوز » واذا أراد أحدهم شيئا منه ، وكان رانس يعتقد أنه غير سليم ، لم يكن يتردد فى قول ذلك ٠

ومع أن تشرشل كان متخصصا في طلب مايبدو مستحيلا ، فانه لم يكن يطلبه الا من الاشخاص الذين يعرفهم ويشعر أنهم لايمدون قدراتهم الى آخر مداها٠٠قد يكونون جنرالات مترددين خوفا من الهزيمة ، أو قوادا بحريين حريصين على عدم خســـارة سفنهم ، أو سياسيين يخشون ايذاء مستقبلهم ، أو الجاويش الســـابق جورج رانس ٠

وبعـــد الاجتمـــاع الاول في غرفة مجلس الوزراء ، نادي تشرشل رانس

ليحدثه حديثا خاصا وقال له : «هذه المقاعد ليست جيدة • ان مجلسها صلب للغاية ، وانى أريد مقاعدجديدة الليلة» •

فأجاب رانس : « لا يمكن عمل ذلك » •

فقال تشرشل هادرا : « ليس هناك شيء اسمه لا يمكن !! »

واتصل رانس بوزارة الاشغال ليذكر أنه يحتاج الى ٢٤مقعدا جديدا تسلم فورا ، فأبلغوه أن ذلك غير ممكن ، فقال لهم : « سأذكر لكم الآن ماقاله لى رئيس الوزراء » ••

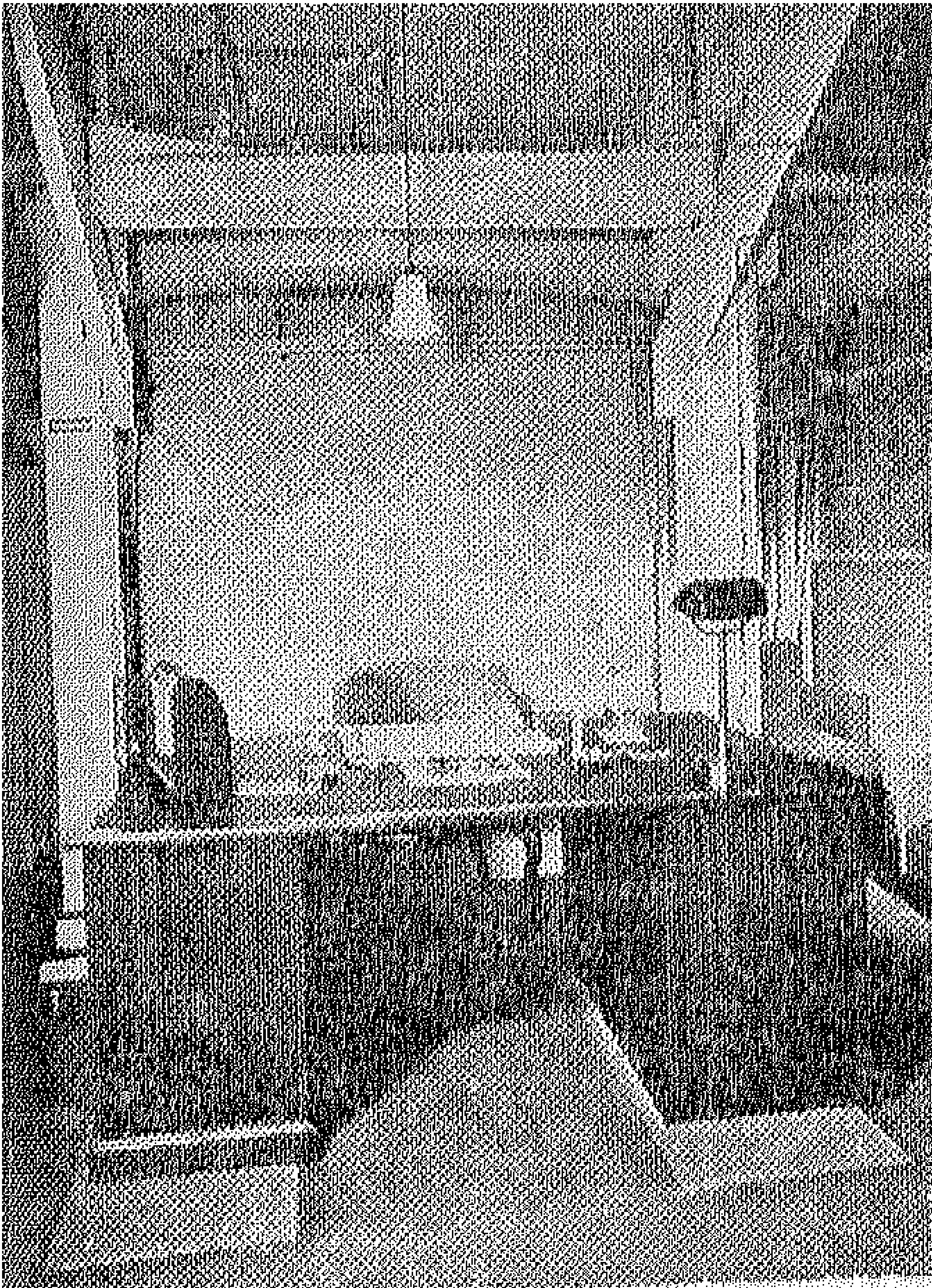
وسلمت المقاعد فورا قبل اجتماع مجلس الوزراء ••

وكانت مسز تشرشل تعتمد هي الاخري على رانس ، وكانت لها غرفة تحت الارض لايفصلها عن غرفة نوم وجلوس تشرشل غير باب رفيع ، وهي الغرفة التى كان يسهر فيها عادة مع زملائه يبحثون مشكلات الحرب •

وأخيرا استدعت مسز تشرشل رانس وقالت له : « ان زوجى يستمر في الحديث طوال الليل•• ألا تستطيع أن تفعل شيئا لتقلل الضجيج ؟ »

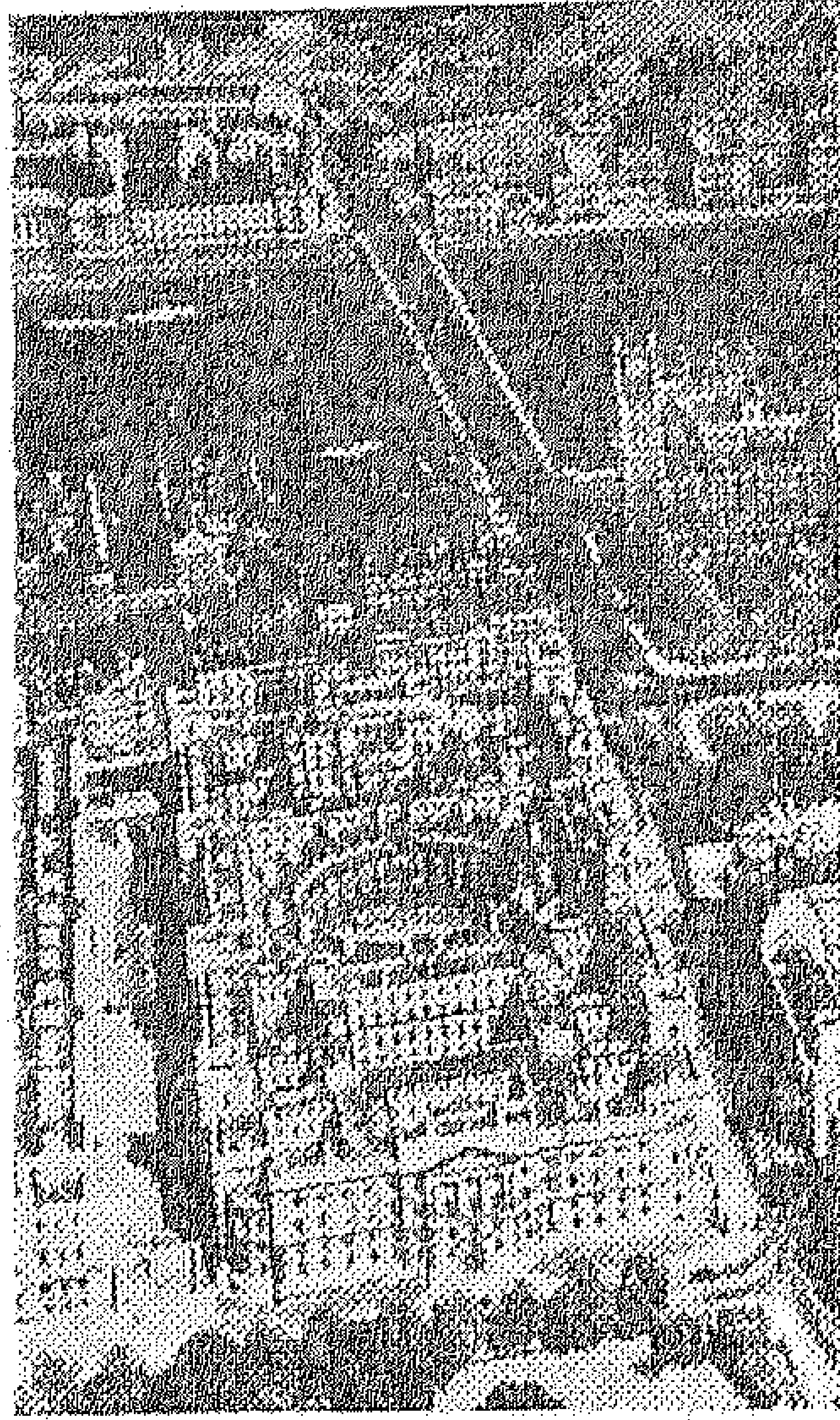
وبحث رانس الموقف •• وأخيرا استطاع أن يغلق الباب بطبقة سميكة من الصوف • ومنذ ذلك الحين، كان رئيس الوزراء ينفث دخان السيجار، ويواصل الحديث طوال الليل •• وبينما كانت القنابل تتساقط ، كانت مسز تشرشل وابنتها ماري التى لها سرير صغير في نفس الغرفة، تنامان دون أن يزعجهما شىء •

وعندما بدا الغزو وشيكا أجريت الاستعدادات للمقاومة اذا حدث أن هوجم المكان السري • فأعد الحرس الوطنى فوق الارض وكرا للمدافع الرشاشة عند ناصية المبنى ، وداخل



مكتب تشرشل

الباب مباشرة كان هناك مجموعة من الحرس يحملون القنابل اليدوية، وقد ـق عليهم اسم «حرس رانس» لاغراض تتعلق بالامن ، وهي المرة الوحيدة التى ذكر فيها اسم شخص عادي فى تاريخ الفرقة الذي يرجع الى ٣٠٠ عام ، أما داخل القلعة السفلى ذاتها، فقد كان هناك جنود من مشاة الاسطول الملكى .



صورة « المقر السرى » كما تبدو من الجو .. وتظهر ساعة « بج بن » الشهيرة فى مؤخرة الصورة ...

فأجاب رانس: «انه من أجل مستر تشرشل ياسيدي حتى يستطيع استخدامه عندما يحضرون هتلر أمامه » وأصغى تشرشل الى ذلك ، ولكنه لم يضف اليه شيئا !

مهراجا ملتهب العاطفة

في ١٩٤٣ ، بعد أن زال خطر الغزو ، وبدأت بريطانيا موقف الهجوم ، أصبح

وأقيمت على الجدران رفوف للبنادق ، فاذا حدث هجوم فان هذه البنادق سوف تستخدم للمساعدة على الاحتفاظ بالقلعة صامدة الى آخر رجل . وكان «للرئيس العجوز» نفسه مسدسه الرسمى الخاص منذ الحرب العالمية الاولى كما كان يحتفظ بخنجر في درج مكتبه .

وعندما زار الملك جورج السادس هذا المكان خلال أحلك أيام الحرب ، لاحظ الخنجر وسأل عن المقصود به،

الضغط شديدا ، حتى على تشرشل نفسه . وبعد أن قام بزيارة لافريقيا، أصيب بالتهاب رئوي ، وترددت الانباء بأنه قد رقد في فراشه .

وبعث تشرشل الذي اضطر للازمة الفراش في استدعاء رانس .. وقد ارتجف الجاويش السابق عندما رأي مدي شحوب رئيس الوزراء ، ولم ير أي أثر لسيجار في أي مكان.. وكانت كلمات تشرشل واضحة رغم وهن صوته . قال انه واثق أن بعض

الصور المعلقة في غرفته ليست معلقة جيدا وطلب الى رانس ضبطها ٠

ودار رانس بأنظــاره في أرجاء الغرفة ، ورأي الصورة التى يعنيهــا تشرشل وشرع في تعديل وضعها ، وهنا بدأ صوت تشرشل يزداد قوة مشيرا الى الاتجــاه الذي ينبغى أن تتحرك نحوه الصورة ٠٠ وأخيرا أبدي ارتياحه ، وعندما التفت رانس نحوه وجده قد جلس في سريره ، وتألقت شرارة الحماسة القــديمة في عينيه ، وزال عنه المرض ٠

ولكن بعد نوبة أخري من الالتهاب الرئوي لم تستطع ساقا تشرشل أن تصعدا درجات السلم ، وظل يواصل حضور اجتماعات مجلس الوزراء فى «الحفرة» ولكنه كان يهبــط الدرجات في كرسى ، يحمله اثنان من مشاة الاسطول ٠ وتســـاءل أحد الحراس قائلا : « انه يبدو أشــبه بمهراجا متحمس أليس كذلك ؟ » ولم يستطع رانس ــ الذي يذكر كيف كان يعــدو خلال الممرات ــ الا أن يحنى رأسه في سكون ٠

***

في هــــذا المكان السري ، بدأت الحرب ، عندما نظر «ايسماي» الى ساعته وقال في الساعة الحاديةعشرة من صباح ٣ سبتمبر ١٩٣٩ وقال : «سادتى ٠٠ اننا في حرب مع ألمانيا»٠

وانتهت الحرب بنفس الصـــورة العابرة ، عندما توقفت آلات التليفون عن الرنين يوم ١٦ أغسطس ١٩٤٥ وراح الضباط يغادرون مكاتبهم واحد بعد الآخر ٠

وأطفــأ جورج رانس الانوار فى مكاتبهم ، وأغلق الابواب ، ثم صعد الدرجات الى حيث ضوء الشمس٠٠ وكانت تلك هي النهاية تقريبا ٠

***

وفي٣٠يناير١٩٦٥عندما أخذالموكب الطويل البطىء الذي يشيع جنـــازة سير ونستون سبنسر تشرشل يدور في شوارع لنــدن ، من وستمنستر حتى المدينة ٠٠ كانت آثار الحــرب قد طمست الآن منذ وقت بعيد ، ولم يعد هناك شىء يبين المبنى الذي كان يخفى قلعة الحرب ٠٠ مجرد جــدار من الطوب خال من أية اشارة ٠

وفي كاتدرائية سانت بول ، جلس جـــورج رانس مراقب المبني الذي عاش كل هــــذه التجربة بحـــلوها ومرها ــ والذي يبلغ الان الحـــادية والتسعين منعمره ــ في صف خلفى، يرقب مايجري ٠٠ وتذكر عنــدئذ الكلمات القليلة العميقــة التى دارت

بين الكولونيل السابق لفرقة رويال سكوتس لرماة البنادق ، والجاويش السابق لآلاي البنادق ، عندما انتهت الحرب .. كان تشرشل قد قال :

«أظن يارانس انك تعتقد أننى لأعرف كل مافعلته أنت .. حسنا .. لقد كنت أعرف .. وانى أشكرك .. أشكرك كثيرا جدا » .

كتاب الشهر



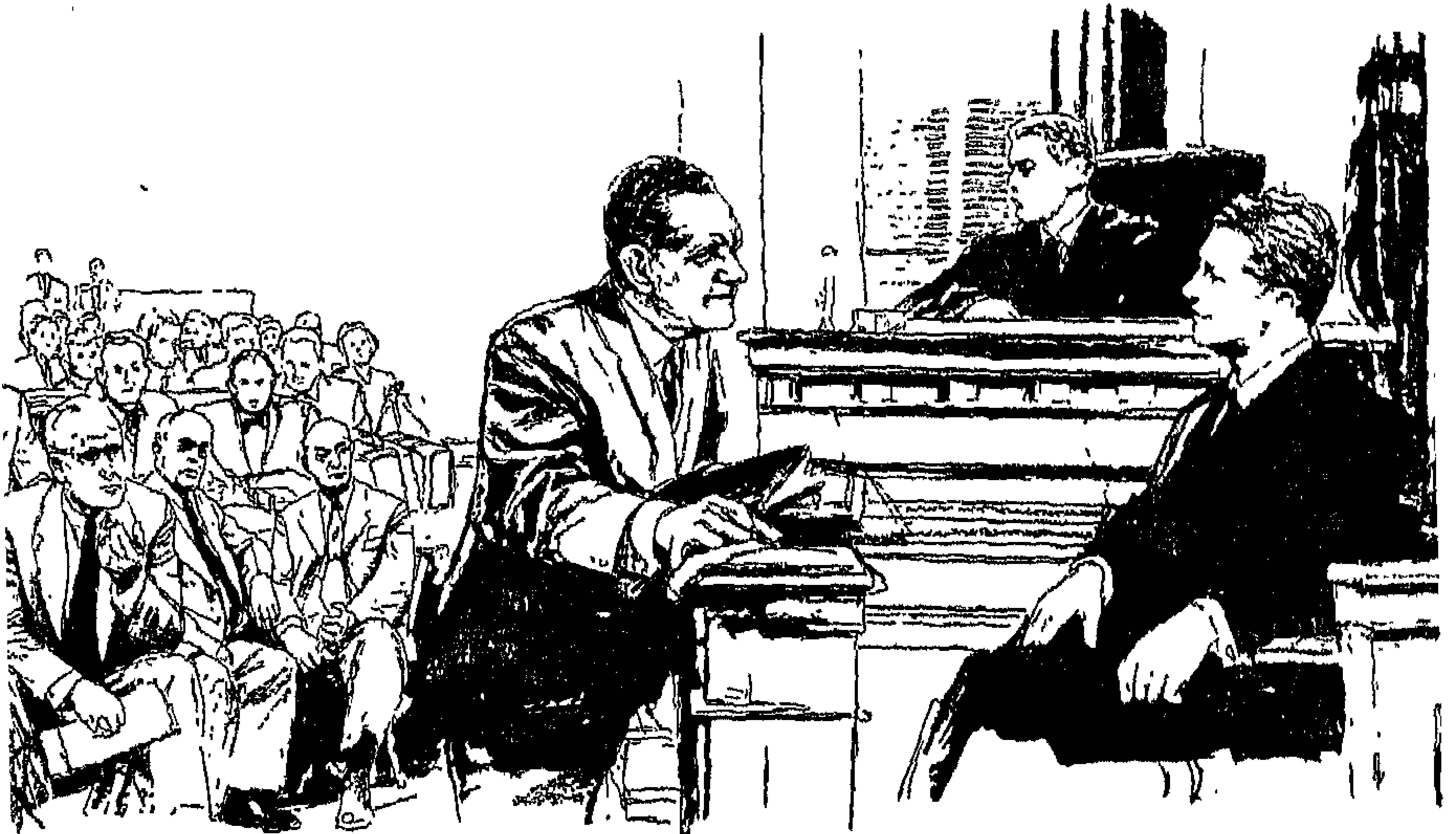
بقلم : لويس نايزر

قلائل من الكتاب من استطاع أن يصور المعارك فى المحاكم كما تجرى فى صميم الحياة ، بصورة أكثر حيوية مما صورها به المحامى لويس نايزر •• كما أن قليلا من المحاكمات أثار من المفاجآت والاثارة مثلما حدث فى القضية التى كان نايزر وكيلا فيها عن فنان الاذاعة والتليفزيون جون هنرى فوك •

لقد ظلت حفنة من الرجال تضع صناعة الاذاعة فى أمريكا بأسرها سنوات فى قبضة الخوف ، وكانت قائمتهم السوداء ، هى الفيصل بين ممارسة المهنة ، والموت لكل فنان تقريبا ••

وعندما شنوا هجومهم على فوك قضوا على حياته الفنية المرموقة • وأدى ذلك الى رفع قضية قذف ، كانت من أهم القضايا فى تاريخ القضاء الامريكى الحديث • • • وهذه القضية هى احدى قضايا أربع ، صورها نايزر فى كتابه الجديد (عودة المحلفين) الذى لقى رواجا كبيرا •

((لويس نايزر يستجوب المنتج التليفزيونى ديفيد سسكيند بينما أخذ هنرى فوك ينصت فى اهتمام))



جاءت اللطمة دون انذار .. لقد عاد جون هنري فوك ممثل التليفزيون ، ونجم برنامجه الاذاعي الخاص ، الي مكتبه بمدينة نيويورك بعد ظهر أحد ايام فبراير ١٩٥٦ ، وأجاب علي مكالمة تليفونية ، كان المتحدث مخبرا من صحيفة « نيويورك تايمز » ، وقد أبلغ فوك ان وثيقة قد صدرت تتهمه باعتناق الشيوعية .

وذهل فوك ... وعندما سمع بعد ذلك ان الاتهامات وردت في نشرة أذاعتها شركة « آوير » – ومعناها «احترس» – ازداد قلقه عمقا ، فقد كانت « آوير » منظمة لا تستهدف الربح ، انشئت من أجل غرض وطني مقرر وهو المساعدة علي مكافحة الشيوعية ، وكانت طريقتها هي جمع المعلومات عن النشاط السياسي للفنانين ، وعن طريق نشراتها وبياناتها الصحفية تتهم فنانين معينين بأن لهم سجلات « تطرف » او عضوية في « جبهة شيوعية »

كان الخوف من النشاط الشيوعي الهدام عظيما في أمريكا في أوائل العقد الماضي ، وكانت صناعة الاذاعة ، التي كرست كل انفاسها لنيل حظوة الجمهور ، شديدة الحساسية حيال هذه المسألة وهكذا فان منظمة «آوير» رغم انه ليس بها غير ٣٥٠ عضوا فقط ، اصبح لها نفوذ عظيم . وكانت تقاريرها ، والمعلومات التي يقدمها مديرها «فنسنت هارتنت» هي مصدر القائمة السوداء التي ترسل الي شبكات الاذاعة ، ومموني البرامج ، ووكالات الاعلانات وكان فوك يعرف انه اذا كان اسمه قد ورد في القائمة السوداء ، فانه قد يصبح عاطلا عن العمل .

وكانت هناك سبع تهم محددة فى نشرة «آوير» . وقد بدت بصياغتها الماهرة بمثابة فضح مدعم بالوثائق باعتباره شيوعيا او عاطفا على الشيوعيين . وكانت اربع من التهم الواردة كفيلة باتلاف مستقبله بصفة خاصة وهي :

× وفقا لما جاء في صحيفة « الديلي ويركر » في ٥ ابريل ١٩٤٨ فان جون فوك اسهم بمادة لحفلات فنية نظمتها هيئة « المواطنين التقدميين في أمريكا » (وقد اعتبرت رسميا جبهة شيوعية) وذلك تأييدا لترشيح هنري والاس لرئاسة الولايات المتحدة . ورغم ان والاس كان المرشح الذي يؤيده الحزب الشيوعي رسميا ، فان كل مؤيديه لم يكونوا بالضرورة

شيوعيين • والمهم هنا هو تأييد أي مرشح يتقـــدم عن طريق جبهـــة شيوعية •

× برنامج تاريخه ٢٥ ابريل١٩٤٩ وضع فيه اسم « جون فوك » باعتباره الفنان الذي سيظهر فيه مع شخص معروف من الشيوعيين ، تحت رعاية لجنة الفنون والعلوم والمهن المستقلة للمواطنين (وهي معتبرة رسميا كجبهة شيوعية) •

× المجلد الثالث من **نشرة اغاني الشعب** (وهي معتبرة رسميا جبهة شيوعية) ذكر اسم فوك باعتباره ممن ارسلوا تهانيهم لاغاني الشعب بمناسبة عامها الثاني •

× كان « جون فوك » راعيا لمؤتمر القارة الامريكية للسلام ، الذي نظم في مدينة المكسيك في المدة من ٥ الي ١٠ من سبتمبر١٩٤٩ • وقد وصفت لجنة النشاط المعادي لامريكا بمجلس النواب فيما بعد هذا المؤتمر بأنه مرحلة أخري في حملة العالم الشيوعي للسلام التي تستهدف تعزيز القوات المعادية لامريكا في انحاء نصف الكرة الغربي •

***

ان اغلب الناس يتقبلون الكلمـــة المطبوعة باعتبارها حقيقة جوهرية ــ لا لانهم سذج ، بل لانهم يعرفون ان الانسان لا يستطيع ان يطبع كذبة تامة عن شخص آخر دون ان يخاطر بقضية قذف ترفع ضده • وكلما كانت الكذبة اكثر خطورة ، اصبحت اكثر قابليـــة للتصديق •

وارسلت نشرة منظمة (آوير) الي ٢٢٨٥ شخصا ومنظمة فيقائمة بريدية خاصة ، فأرسلت الي كل شـــبكات الاذاعة والتليفزيون الامريكية ، والي وكالات الاعـــلان الرئيسية ، وممولي البرامج ، والصحف الكبري ، والمعلقين الصحفيين ، وشركات السينمـــا ، والمنتجين ، وناشـــــري الكتب ، والاتحادات المسرحية ، وسرعان ما ظهرت آثارها الاولي ، فقد بدأ ممولو البرامج يلغون اعلاناتهم في برنامج فوك الاذاعى ، وتوقفت فجـــأة الدعوات للظهور في التليفزيون •

وأدرك فوك من النداءات اليائسة الموجهة من رؤســـائه في العمـــل ، ونظرات التقييم الجـــديدة من بعض اصدقائه ، انعالمه بدأ ينهار من حوله !

● مثل مفزع

كانت التهم الواردة اكثر من مجرد هجوم شخصى علي فوك ، فان مسألة القائمة الســـوداء كانت تختمر منـــذ سنوات ، وفي ابريل ١٩٥٥ انفجرت العاصفة علنا • ففى اجتماع عقــده

فرع نيويرك لاتحاد نقابات « الاتحاد الامريكي لفناني الاذاعة والتليفزيون » قدم مشروع قرار يستنكر منظمة «اوير» لوسائلها في التلطيخ بالاستدلال والتلميح ، والتي « تحرم الممثلين من الاعمال »

وتبع ذلك جدل طويل عنيف ، اذ كان للمنظمة انصار متحمسون في الاتحاد ، ولكن مشروع القرار حصل في النهاية على ٨٩٢ صوتا مقابل ٥١٤ — أى اثنين الى واحد تقريبا — وعندئذ اجري انتخاب جديد للمسئولين بالمنظمة ، ولجعل المسألة واضحة ، اختيرت مجموعة من مرشحين يعادون الشيوعية بقوة ، وقد اطلقوا على انفسهم اسم مرشحى « منتصف الطريق » الذين يعارضون الشيوعية والقائمة السوداء كذلك ، ولكن انتصار هذه المجموعة لم تتقبله شركة (آوير) بامتثال واذعان ، وكذلك لم يقبله فنسنت هارتنت او حليفهما لورنس جونسون وهو صاحب متجر كبير ناجح ، يكفل القوة الاقتصادية التي تساعد على جعل تقارير هارتنت فعالة

كان أكثر الذين حصلوا على أكبر عدد من الاصوات من بين الذين انتخبوا حديثا من المسئولين المعادين للقائمة السوداء في « الاتحاد الامريكي لفناني التليفزيون والاذاعة » هو جون هنري فوك نائب الرئيس — وهكذا فان آوير وهارتنت وجونسون، يدفعهم حافز من اقتناع صارم بالوطنية وحب السلطة — قرروا تحطيم المعارضة ، باطلاق الاتهامات على فوك واسقاطه ، وكانوا يأملون ان يجعلوا منه مثلا مفزعا ٠

وقد قدر لهم أن ينجحوا أكثر مما كانوا يحلمون به ، فقد ابعدوا فوك في النهاية من صناعة التمثيل ، فقضوا على سمعته ، وانزلوه هو واسرته الي حالة تكاد تجعلهم يموتون جوعا وتركوه عاطلا ، ولا يمكن استخدامه لمدة ست سنوات ونصف سنة٠ وفي الانتخابات التالية للاتحاد الامريكى لفنانى الاذاعة والتليفزيون ، عاد مؤيدو منظمة آوير الي السلطة ، واصبح النصر كاملا !

ولكنه لم يكن كاملا تماما ٠٠ فقد اصاب الضرر انسانا ، وفي تلك المرة قرر الرجل ان يكافح ، وذلك في خلال شهور من ظهور النشرة ، وكانت النتيجة نضالا لم يشهد مثله من قبل تاريخ المحاكمات الامريكية ٠

● الحية ذات الصليل !

كان الاثر الذي تركته رؤية فوك في نفسي رائعا عندما التقيت به ، كان حليق الشعر ، مؤدبا ، يبدو اصغر

كثيرا من سنواته الاثنتين والاربعين، وكانت سترته المصنوعة من صـوف التويد وغليونه يكسبانه جوا بهيجا وكأنه استاذ جامعي ، وكانت له لهجة اهل تكسـاس الحاسمة ، فهو من مواليد « اوستن » ، كما انه كان يتمتع بموهبة القدرة على تمثيل شخصيات من ولايات امريكا الجنوبية وطريقتهم الساذجة في الحديث ٠

وكان سجل فوك يكشف عن علم ووطنية ، فقـد كان حاملا لدرجة الماجستير في اللغة الانجليزية من جامعة تكساس ، ثم اشتغل هناك بالتدريس بينما كان يحضر رسالته وقد كان الفولكلور الامريكى يخلب لبه دائمـا ولاسيما عظات الوعاظ الزنوج القدماء وقد تجول في ارجاء الجنوب دارسـا هذا الفن الذي يوشك على الاختفاء ، مسجلا هذه العظات ٠ وكان يطلب منه القاؤها أحيـانا ، وكانت تلك هي المصادفة التي بدأ بها حياته كممثل ٠

وقرر فوك أن القضية يجب ألاتكون مجرد دعوي قذف ، بل فضـيحة لأسلوب القائمـة السوداء ، وكان مستعدا للقتال من أجل المبدأ ٠ وقد أعجبت بهذا التحدي ، ولكن كان على أن أحذره بأننا نواجه عقبات كثيرة ٠٠ اننا نعترف أن التليفزيون والاذاعة يبدوان في قبضة طرق القائمةالسوداء، ولكن أحدا لم يثبت أو يدحض هذه التهم حتي الآن ٠

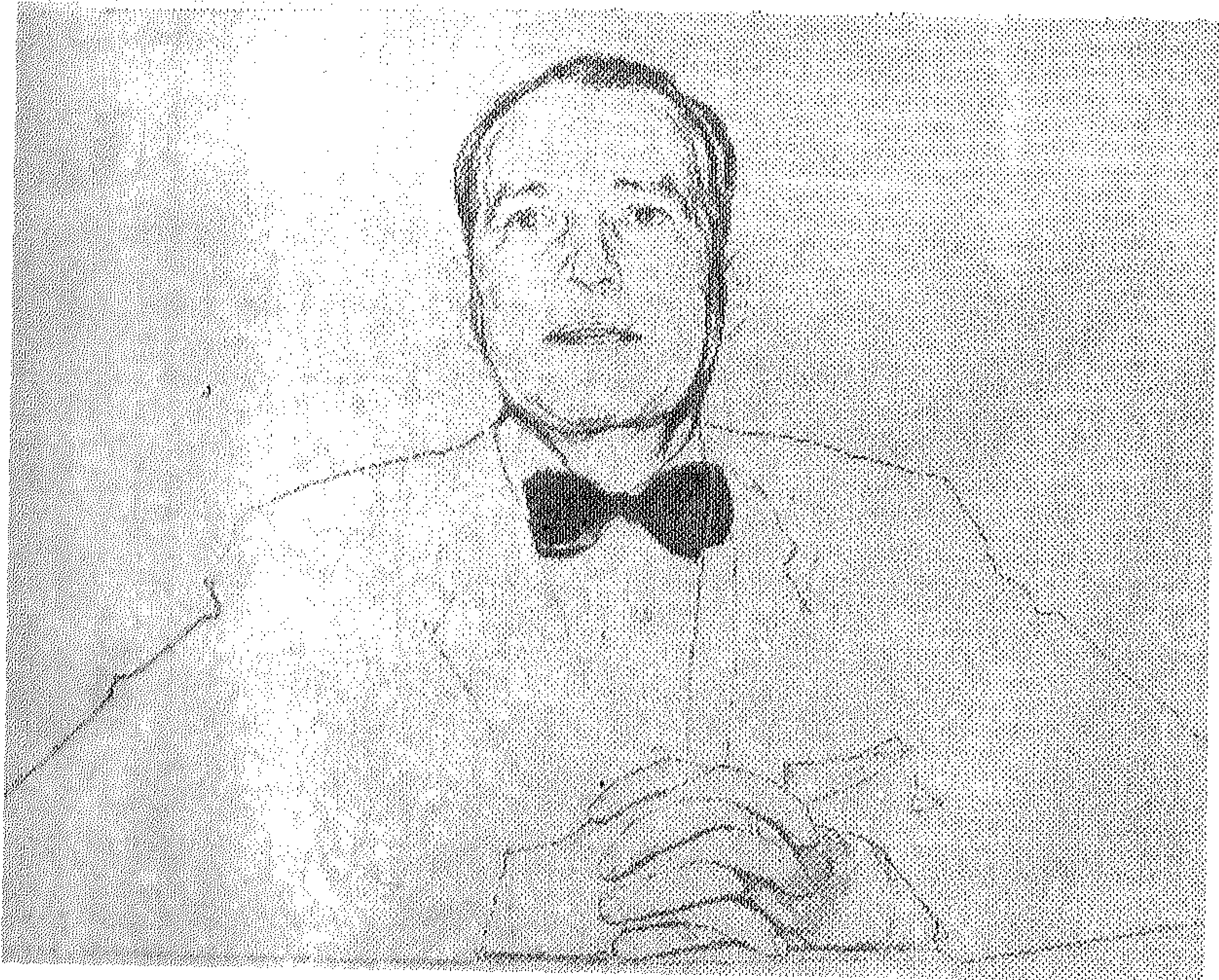
ولقد أنكر كثيرون وجود القائمـة السوداء ، ولكن بعد أن يهاجم أحد الفنانين كان يجد نفسه بطريقةغامضة لا يدعى للقيام بأي دور ، وقد يخيل لوكلاء أصـحاب المواهب أن نجمهم العتيد ، قد أصيب فجأة «بالجذام»٠ كانوا يعرفون ما حدث ، ولكنهـم قل أن يتمكنوا من متابعته ، وحسن التصرف يتطلب عدم توجيه أية أسئلة حتى لايفقدوا الحظوة هم أيضا !

فمن يكون المدعى عليه في قضيتنا هذه ؟٠٠ انه فنسنت هارتنت وشركة «آوير» بكل وضوح ، ولكننا رأينـا أن لورنس جونسون يجب ادخاله هو الاخر ٠ ففى حـين أن هارتنت هو الذي وجه هذه الاتهامات عن طريق «آوير» فان جونسون هو الذي تابعها بالتهديد بالعقوبات الاقتصادية ضـد ممولى البرامج ووكالات الاعـلان وشركات الاذاعة ٠

كان جونسون ـ وهو رجـل في عقده الثامن ، أبيض الشعر ، له منظر حنون ، مقتنعـا بأن الشيوعيين يتسللون الي الاذاعة والتليفـزيون ، وقد أصبح مشهورا في أوساط الاذاعة

باسم « البقال من سيراكيوز» فقد كان يمتلك ستة متاجر كبري فى سيراكيوز بولاية نيويورك ،ويستطيع أن يساعد أو يعرقل مبيعات أي انتاج يختاره ، وكان أيضا أحد المسئولين في الاتحاد القومي للمتاجر الكبري ، ويفخر بأن له سيطرة غير مباشرة على منافذ الآلاف من السلع ٠

ولزيادة نفوذه ، كان جونسون يستخدم منظمتين لارسال احتجاجات عنيفة باستنكار الممثلين الذينيعتبرهم مشبوهين ، واحدي المنظمتين هي لجنة العمل للمحاربين القدماء لمتاجر سيراكيوز الكبري ، وهي مكونة من موظفيه أنفسهم ، أما الاخري ، فهي لجنة مكافحة النشاط الهدام ، وكان رئيس هذا الفرع من الاصدقاء المقربين لجونسون ٠ وبعد اذاعة نشرة منظمة (آوير) أرسلت هذه اللجنة اليمختلف ممولي برامج فوك رسائل مليئة بالقذف والسب تصف فوك بأنه خائن وفي نفس الوقت كان جونسون نفسه



جون هنري فوك ٠٠ الرجل الذى حطم القائمة السوداء

يذرع ماديسون افنيو ـ مركز صناعة الاعلان في أمريـكا ـ ليزور وكالات الاعلان وممولي البرامج مطالبـــا بمقاطعة فوك ٠

وقد سئل فوك يوما عما اذا كان يعزو محنتـــه الي هارتنت أم الي جونسون فقال بوضــــوح : « انك لا تجادل ما اذا كان الذي لدغك حية ذات صليـــل ، أم أفعى ذات راس نحاسى » ٠

ولقد انحـــدرت «آوير» وهارتنت وجونسون بالاذاعـــة ـ التي تعتبر الصناعة الخامسة فيالولايات المتحدة ـ الي حالة من المقاطعات غير المشروعة يجري تنفيـــذها بمؤامرة الصمت ٠ ولكن هل نستطيع الحصول علي دليل قوي ؟ هل من الممكن اقناع المحلفين بأن فئة قليلة من الرجال ، يعملون بوسائل خاصة ، استطاعوا السيطرة علي هذه الصــــناعة الضخمة ، واجبارها علي اتباع معاييرهم المعادية لامريكا من الاتهام السري والتنفيـــذ بطريقة سرية ؟

كانت تلك هي المهمة التي أخذناها علي عاتقنا ٠

● **لقد حاصروني !**

ورفعنا دعوي في يونيو ١٩٥٦ ، وفي ذلك الوقت كان فوك مازال يذيع في شبكة اذاعة شركة كولومبيـــا ، رغم أن كل التكليفات الاخري كانت قد ضاعت منه وهو مدين باستمرار توظيفه لتشارلس كولنجوود ، مدير الفرع المحلي بنيويورك لاتحاد فنانى الاذاعة والتليفزيون ، وهو نفسه فنان محترم بشـبكة كولومبيا الاذاعية ، والي ادوارد مورو المذيـــع الشهير والذي كان مديرا للشـبكة يومئذ ٠ وقد تدخل الاثنان لصالح فوك مصرين علي عدم طرده بسبب ضغوط القائمة السوداء ٠

ولكن الوقت كان في صالح المدعى عليهم ٠ ولتحديد المسائل ، وتوضيح فحوي النزاع يسمح القانون لأي من الطرفين قبل المحاكمة ، بتحدي صحة دعوي الآخر ، وبهذا يزيل الاضطراب الكامن وراءها ٠ ومن ثم فقد أصبحنا مشتركين في صراع تمهيدي استـمر عامين ـ أنهي خلالهما مورو علاقتـه الرسمية مع شركة اذاعة كولومبيا ، وفقد كولنجوود مكتبه في الاتحاد ، وبذهاب هذين الاثنين ، أذعنت شركة اذاعة كولومبيا أخـــيرا تحت ضغط الهجوم المستمر من منظمة (آوير) ، وفصل فوك من عمله الاذاعى ، وفقد بذلك مصدره الوحيد الباقى للدخل٠

كان فوك قد تلقى علي مر السنين

كثيرا من العروض الجذابة ولكنه كان يرفضها وقد سعى الان لتجديد هذه الفرص ، ولكنني شاهدت في هلع كيف كانت الابواب تغلق في وجهه واحدا وراء الآخر ، وأصبح أسلوب البطالة الكلية واضحا • ولكن فوك له زوجة وأربعة أطفال ، وقد خلق عجزه عن كسب دولار واحد ، عبئاً على روحهم المعنوية كان كفيلا بتحطيم قلب أي انسان ، ومع ذلك فانني كنت كلما سألته عن حاله ، كان يرد قائلا : « ان الاوزة تحلق عاليا » •

وكانت واحدة من أفضل فرصه تتمثل في محطة راديو تجارية كبيرة في مينابوليس فقد ظن مديرها أن الحظ قد جعل فوك في متناول يده ، فكتب له رسالة يقول أنه يمكن أن يكون نجما للمحطة ، وعرض عليه ربحا يبلغ ١٠٠ ألف دولار سنويا •

ووثب فوك الي هذه الفرصة •• وطار المنتج الي نيويورك حيث أخذ فوك وزوجته الي مينابوليس •• وظهر فوك في كل برنامج للمحطة للاعلان عن عنوانه الاذاعى الجديد ، واشتدت روح الحماسة ، وأعد كل شيء ، لتوقيع العقود •• .

وفجأة •• اقترح أن يعود فوك وزوجته الي نيويورك على أن يدعى بعد ذلك •• ولكن فوك لم يسمع بعد ذلك أية كلمة أخري منهم !

واتصلت به محطتان أخريان بعروض ، احداهما في نيويورك والاخري في سان فرنسيسكو ولكنهما تراجعتا أيضا بطريقة غامضة فى اللحظة الاخيرة • وقد قدمنا فيمابعد أدلة علي أن هارتنت قد تحدث الي العاملين في محطة نيويرك قائلا انه يعتقد أن البيانات الواردة في نشرة (آوير) صحيحة ، وكذلك تراجعت محطة سان فرنسيسكو بسبب «مشكلات جوني القانونية مع آوير» •

ولما وجد أنه ليس هناك من يطلبه ، خفض طلباته أخيرا الي اجر ضئيل للحصول علي عمل في التيفزيون ، يقف فيه تحت الاضواء لضبط الكاميرات ريثما يستريح النجم الاصلي •• وحتي هذا العمل لم يعد متاحا له !

وقال لزوجته في أسى : « أعتقد أنهم حاصروني تماما ! »

● اعتراف لعين

وشرعنا في اجراء الاستجوابات التي تسبق المحاكمة ، وكان لنا حق استجواب المدعى عليهم بعد أداء القسم ، كما أنه في استطاعتهم استجواب فوك ، ومثل هذه الجلسات تكفل للطرفين استعراض الادلة قبل

المحاكمة ٠

وبهذه الطريقــة التقيت لأول مرة بفنسنت هارتنت ، ولا يستطيع المرء أن يتخيل صورة أقل مهابة لطاغيــة مرعب ، بث الفزع في قلوب الكثيرين من صورة هذا الرجل ٠٠ لقد كان هزيلا ضئيل الجسم ، وجــلا ، في حوالي الاربعين من عمره ، ولا يزن اكثر من ٥٦ كيلوجــــراما ، وبدت عينــاه السوداوان فى فزع ، بينمــا كان صوته مترددا يميل الي التلعثم٠

وبدأت استجوابي لهــارتنت حول الطريقة التي يبحث بها الســــجلات السياســـية للممثلين ٠ وكانت تلك الاجتماعات طويلة ، تتسم بالمرارة٠٠ الي أن حدث تطور مذهل ذات يوم٠

كانت هناك سلسلة من الاسئلة قد وجهت حول اتهامات نشرة منظمــة « آوير » بأنه وفقا لصحيفة « ديلى ويركر» فان جاك فوك ظهر في (نادي ٦٥) وهو مكان مفضل يرتاده أنصار الشيوعيين ، واعترف هارتنت بأنه لم يتصل بأحد من الفنانين الاخرين الذين وردت أسماؤهم في هذا الحفل للتأكد مما اذا كان فوك كان موجودا فعــلا أم لا ، وقال انه لم يسمع قط أن فوك يشار اليـــه باسم «جاك» ، وانه لم يبحث قط للتأكد من أن هناك ممثــلا زنجيا يدعى «جاك فوك» اذ أنه تبين أن هذا الاســتعراض زنجي كله ٠٠ وهكذا (وقد أظهرت الشهادات فيما بعد أنه كان فعلا معاديا للشيوعية ، وأن نادي ٦٥ لم يكن مكانا لمــزاولة الاعمال الشيوعية) ٠

ولأول مرة ، بدأ هارتنت يعترف في حقد بأنه ربما كان مخطئا ٠٠

وبينما كنت اغوص في أعماق ذهنه فيما بعد ، برز فجأة أخطر الاعترافات ٠٠ وكان هارتنت قد بدأ يمهد لفكرة أنه ليس في نشرة (آوير) شيء يقول ان فوك كان من أتباع الشيوعيين ٠٠

س : على قدر فهمي لموقفــك ، فانك لم تتهم مستر فوك قط بأنه كان شيوعيا فهل هذا صحيح ؟

ج : نعم

س : ولم تتهمه قط بأنه كان من أنصار الشيوعية العاطفين عليها ؟

ج : لقد بيع لي مرة برميل من المعلومات الكاذبة ٠

كنت آمل ألا يكتشــف وجهي عن الصدمة التي أثارتها تلك الكلمات ٠٠ فهو ، المحقق والباحث ، كان يعترف بالخطأ ، ولكنه أدلى بهذا التصريح ارتجالا ، بحيث أنه لم يكن من الحكمة تنبيهه لســــحبه أو تعديله باظهار الدهشة ، أو الاســـراع بالهجوم ٠

وبينما كان الاستجواب مستمرا ، مضى هارتنت شوطا أبعد ..

س : سأسألك الآن .. اذا كان لدي فوك اليوم عرض للظهور فى التليفزيون ، فهل تمنحه بركتك وتشجع استخدامه ؟

ج : أجل .. انني أفعل .

وسرعان ما أجلنا الجلسة بعد ذلك ، وذهبت أنا ومحامي هارتنت لتناول العشاء وبحث تطورات الاحداث .

كان الاستعداد لاعادة امكان استخدام فوك خطوة كبري نحو تسوية الموضوع خارج المحكمة وبقيت مسألتان أخريان فقط : تصريح قوي بالتراجع والاعتذار ، ومبلغ لتعويض فوك عن خسائره . ولم تكن المسألة الاولى تمثل أية صعوبة ، فقد قيل لي انني أستطيع أن أكتب مسودة التصريح بنفسى ، أما بالنسبة للمبالغ ، فقد قال المحامي أن الاعتمادات محدودة ، وان جونسون لن يدفع شيئا .. ومع ذلك فانه ربما أمكن جمع مبلغ صغير يصل الي ١٠ آلاف دولار .

وقلت لفوك : « هاهي فرصة لاستئناف عملك بشرف .. سوف تكسب مبالغ أكبر وتسدد ديونك . ولاداعى للقلق بشأن أتعابنا نحن . وسيكون التراجع والاعتذار كما تريد من قوة . سوف تنتصر في أعين الجمهور ، ونحن نرجو أن تفكر في ذلك جديا » .

وكان رد فعل فوك حازما قويا.. قال انه اذا قبل هذه التسوية ، فان آوير ، وهارتنت ، وجونسون سوف يواصلون عملية القائمة السوداء ، وسوف يفلتون من الفضيحة في قاعة المحكمة . وتوسل الينا أن نتم المهمة، مؤكدا لنا أنه لن يأسف علي أية تضحية مهما كانت ..

ووافقنا .. فقد كان قراره صائبا.

● أسابيع وشهورا ، بل وسنوات !

وعلي اية حال فقد تبين انه ليس في الامكان الوصول الي أية تسوية ، فقد تلقينا خلال أسبوعين رسالة تبلغنا أن محامي المدعى عليهم قد استبدل ، وعند استئناف استجوابه، تخلي هارتنت عن كل التساهلات التي سبق أن أبداها ، وزعم أنني أربكته وأجريت له « غسيل مخ » .

كانت تعليمات المحامين الجدد لهارتنت المتكررة ألا يرد علي الاسئلة في الاستجواب السابق للمحاكمة ، ولن يعود الي الجلسات الا اذا أجبر علي ذلك بأمر المحكمة نفسها . وكانت كل خطوة في الطريق مليئة بالعراقيل

والمنازعات ، تتطلب العديد منالطلبات للمحكمة ، كما واجهنـــا صعوبات مماثلة عندما أردنا استجواب لورنس جونسون ، وهكـــذا مضت الدعوي اسابيع وشهورا ، بل وسنوات !

وفي غضون ذلك زادت ديون فوك، وظل عاجزا عن الحصول علي عمل، وأخيرا حاول أن يصبح بائعا للاسهم، ثم بائعا لدائرة معــارف ، ولكنه لم ينجح في أي العملين وفي النهاية عاد الي أوستن بولاية تكســاس ، حيث توجد محطة اذاعة صغيرة قوة ٢٥٠ وات ·· وطلب فوك العمل هناك ·

ودهشت هذه المحطة لان هــذا المواطن الشهير في أنحاء أمريكا يقبل العمل بها وأعد تعهد مكتوب لتوقيعه علي الفور ، ولكن بينما كان فوك في نيويورك مستعدا للسفر ، تلقى رسالة بالبريد الجوي جاء فيها : « ان مسألة لا أستطيع ذكرها قد ظهرت فجـــأة تمنعنا من التعاقد معكم ·· »

وهكذا طارت الوظيفة !

وأخذت الكوارث تنهال واحدة بعد أخري ، فقد أنذره صاحب البيت الذي يقطن فيه بالاخلاء بسبب عدم سـداد الايجار · وفي يأس انتقــل فوك الي أوستن حيث أسسهو وزوجته وكالة للاعلان يديرانها من غرفة جلوسهما، واستطاعا بالعمل الجـاد المستمر أن يجمعا ٢٥٠٠ دولار في عام ١٩٥٩ ، وهو مبلغ لا يكفى لاعالة الاســرة ويثير الاشفاق عندما يقارن بمرتبـه السنوي الســابق من اذاعة كولومبيا وهو ٣٥ ألف دولار ·

وطوال تلك الشهور المحطمة للقلب، كنا نرسل اليه تقارير مطولة عنتقدمنا البطىء ورجوناه أن يصمد ·· وأخيرا بعد سبع سنوات تقريبـــا من رفع قضية القذف ، استطعنا أن نستدعيه للعودة الي نيويورك للظهور فيالمحكمة·

● **تلال من الأدلة**

تطلب اختيار المحلفين يوما ونصف يوم · وألقي المحــــامون كلماتهم الاستهلاليـــة ثم قلت : « هل تتكرم يا مستر جون هنري فوك بالتوجـه لمنصة الشهود ؟» ·

ومر أمام مائدة المحامين ثم صعد الي المنصة ·· وبعد أن أدي اليمين. جلس والي يمينــه القاضى ابراهام جيلر ، والي يساره المحلفون ، وأمامه قاعة مليئة بالجمهور ، والكل يفحصه بامعان ·

وظللنا نضع الادلة أمام المحلفين ، ونكوم التفاصيل بعضها فوق بعض ، حتي أصبحت مائدة المحامين مثقلة بالمعروضات ، وفي النهاية أصبح هناك

تل من الادلة يحجب منظـرنا عن هارتنت ، وكأن النصب التـذكاري لانجازات فوك يشكل جدارا بيننا ·

● وراء الكواليس

بعد أن بلغنا هذا الحـد ، دعونا شاهدا آخـر : هو المنتج ديفيد ساسكنيد وكان مسئولا عن عدد من تمثيليات التليفزيون المسلسـلة من النوع الممتاز ، وكذلك برنامج المناقشات المعروف باسم «الطرف المفتوح» كما أنه أنتج مسرحيات في برودواي ، مع عدد كبير من الافلام ·· وسألته: هل القائمة السوداء مجرد نظرية أم أنها حقيقة واقعة ؟·· ان شهادته في هذا الموضوع ستكون حاسمة ·

وكان ساسكنيد قد باع برنامجا اسمه « موعد مع المغامرة » لاحدي وكالات الاعلانات وقال في شهادته :

« كان شرط البيع هو أن تقـدم أسماء كل العاملين في كل عمل ، وفي كل برنامج، لكي تفحص الوكالة ميوله السياسية ·· ولا ينبغي استخدام أحد الا بعد أن توافق الوكالة عليه » ·

وقال انه في هذا البرنامج وحده ، قدم تليفونيا ـ وفقـا للتعليمات ـ حوالي ٥٠٠٠ اسم في سنة واحدة ، وقد عاد حوالي الثلث مرفوضـين لاسباب سياسية !·

وكانت اعتراضات بولان محـامي الدفاع تنطلق بانتظام كالمدفع الرشاش، ولكن سمح للشاهد أن يتحـدث عن حديثه مع نائب مدير الوكالة الاعلانية ·· فقال :

« قلت : ان انتاج البرنامج أصابه العجز بصورة خطيرة · فقال لي : «انني لاحول لي ولاقوة ·· فهذا هو النظام المتبع · ان علينـا أن ندفع خمسة دولارات عن كل عملية فحص ، ودولارين عن كل اعادة فحص ·· أتظن أننا راضون عن ذلك ؟ انه يكلفنا ثروة ضخمة ! » ·

وتلونا بعض ماجاء في الاستجواب قبل المحاكمة ·· كان هارتنت قد ذكر لنا أنه عقد اتفاقا مع تلك الوكالة علي فحص أسماء الفنانين الذين يقدمون اليه لبرنامج «موعد مع المغامرة» ·· وقال :

«·· وذلك لنري ما اذا كانت هناك أية معلومات شائنة ، وذلك مقـابل ٥ دولارات عن التقرير الاول ، وعن التقرير الاطول قد يصـل المبلغ الي ٢٠ دولارا أو أكثر أما اعادة الفحص فانها تتتم مقـابل دولارين لكل اسم عادة » ·

وقد انطبقت اعترافات هارتنت مع شهادة ساسكنيد ، وكأنهما لغز جمع

أجزاء الصور المقطوعة ٠٠ وهكــذا عادت الحقيقة تظهر نفسها مرة بعد أخري ٠٠

لقد حصل هارتنت خلال العام علي ٩٠٠٠ دولار تقريبا من أجل هــــذه التقارير ، وتلقى عن برنامـــج ثان لساسكنيد أيضا حوالي ٧٠٠٠ دولار في سنة واحدة و ١٠ آلاف عن برنامج ثالث لمول آخر ٠

ماذا كان ساسكنيد يقول للممثلين الذين يرفضهم هارتنت ؟٠٠ ان نائب المدير الذي يتحدث باسم أحدالمولين سبق أن نصحه بأن يكتفى بالقول بأنه « غير فكره » فحسب ٠٠ أو أن الممثل أو الممثلة « أطول أو أقصر » من الدور المطلوب !٠٠ وحــذره من أن يذكر لهم أن للامر أي صلة بانعدام الثقة السياسية ٠

وقال ساسكنيد : « كنا في حاجة لممثلة طفلة في السابعة أو الثامنة من عمرها ، وكانت مهمــة العثور علي طفلة تتقن التمثيل مهمة شاقة عسيرة جدا ٠ وأخـيرا عثرنا علي طفلة في السنة الثامنة من عمرها ، ولكن اسم هذه الطفلة عاد الينا علي اعتبار أنه غير مقبول ، ولا يمكن الوثوق به من الناحية السياسية !

ودوت قهقهــــة من الضحكات في قاعة المحكمة عند سماع هذه الملاحظة ٠٠ ومضى ساسكنيد في شهادته ، فقال انه احتج علي ذلك وطلب اعادة الفحص ، وعندئذ علم أن هذه الطفلة قد أدرجت في القـائمة السوداء لان والدها كان معتبرا «من المشبوهين» ٠ وهكذا اضطر المنتج الي البحث عنطفلة أخري !

وقد ساعدت شجاعة ساسكنيد في تحطيم الصمت الذي يخيم داخـــل القاعة حيال عملية القائمة السوداء، علي فتح الباب لشهود آخرين ، بعد أن شهد بأن هذا الاجــراء عام في التليفزيون ٠

ولاثبات الخسائر يســمح القانون أيضا بتقدير الاحتمالات المستقبلة ، وقد أكدنا أن فوك كان شـــخصية تليفزيونية مرموقة لها عدد كبير من المعجبين المنتظمين ، وهذا النوع من الممثلين يصبح غالبا أكــثر شهرة ، وأكبر أجرا من الممثل الدرامى فقط وشهد ساســـكنيد بأنه كان موهوبا بصفة خاصة في هذا الميدانالتليفزيوني وأنه مرح سريع البديهة ، فصيح ، ذكي ، وقال انه يعتقد أنه كان من أفضل من رآهم على الشاشة ٠

س : ما هو مدي دخل هذا النوع من الشخصيات ؟

ج : من ١٥٠ ألفا الى ٢٠٠ ألف دولار سنويا ، وقد يصل في بعض الحالات الى مليون دولار سنويا ٠

س : هل كان فوك حريا بأن يبلغ مرتبة مماثلة لهؤلاء النجوم لو لم تعترض منظمة آوير سبيله ؟

ج : أجل ٠٠ أعتقد ذلك !

وكان أكثر الاتهامات الواردة فى نشرة منظمة (آوير) خبثا وشرا ، ذلك الاتهام الذي يقول أن برنامجا بتاريخ ٢٥ ابريل ١٩٤٦ ذكر اسم فوك بين المثلين المقرر ظهورهم فيه (مع الفنان الشيوعى ايرل روبنصون) تحت رعاية لجنة المواطنين المستقلة للفنون والعلوم والمهن(والمعتبرة رسميا جبهة شيوعية) ٠

وقد سألنا المدعى عليه كما يلي :

س : هل تذكر لنا متي كانت هذه المناسبة ؟

ج : كانت في الاحتفال بمرور عام علي انشاء الامم المتحدة ياسيدي ، عندما أقيمت حفلة عشاء لهذه المناسبة، وكان المدعوون يتكونون من مجلس الأمن بأجمعه ٠

المحكمة : مجلس الامن ؟

ج : مجلس الامن التابع للامم المتحدة ، وقد أقيمت الحفلة في فندق آستور برئاسة تريجفى لى السكرتير العام للامم المتحدة في ذلك الحين ، وتحدث فيها ادوارد ستيتنوس وزير خارجية أمريكا ٠

وكانت اذاعة كولومبيا قد أذاعت الحفل ، وطلبت من فوك التمثيل في تلك الليلة وأخذت بقيةالاتهامات تنهار بسرعة ٠٠

وقد بلغ مجموع المدة التي أوقفنا فيها فوك علي منصة الشهادة حوالي ستة أيام وكانت فترة عصيبة بالنسبة له ، ولكنه الان واجه استجوابا من محامي الخصوم ، مرهقا طويلا ٠٠

كان خصومنا يعتقدون أن أفضل دفاع هو الهجوم العدواني ، وعلي الفور بدأ بولان يحاول التحقير من شأن فوك والسخرية منه ، فقال انه كان مجرد مذيع لتقديم الاسطوانات ٠٠ ولكن فوك نفى ذلك ٠ وعندئذ اتهموه بأنه كان يبالغ في تحريف لهجته وسرعان ما ازداد الهجوم سرعة بالايحاء بأن فشله كممثل ، وتدهور مركزه فيالاستفتاءات الشعبية هما السبب في الاستغناء عنه ٠

● مكالمة تليفونية عابثة

لم يكنالمدعى عليه لورنسجونسون قد حضر الي المحكمة حتي ذلكالحين، فقد زعم أنه كان مريضا ، وارتدت كل استفهاماتنا عن مكانه دون

معلومات، وكان لابد من اجراء مواجهة بين جونسون وفوك ، والا شــطبت الدعوي ضده ٠

وقد قدم الحلقــة المفقودة توماس موراي الذي كان يعمل لحساب احدي وكالات الاعـــلان ، وقد أدار برامج يقدمها فوك وتمولها شركة للمشروبات ٠٠ فقد شهد بأن جونسون اتصل به تليفونيا ذات يوم ، مقدما نفسه علي أنه رجل له نفوذ علي بعض المتاجر الكبري التي يبلغ حجم تجارتها من المواد الغذائيــة ما يتراوح بين ١٨ و ٢٠ مليون دولار سنويا ٠

موراي : ٠٠ وقال عنــدئذ أنه يعتقد أنه من العـــــار أن تستخدم شركتنا شخصـــا شيوعيا هو جون هنري فوك للاعلان عن منتجـاتها ٠ فأجبتــه بأنني ليست لدي معلومات كهذه عن فوك ، فقال : « من الافضل لك أن تسمع كلامنا » ٠٠ فقلت انني لا أستطيع قبول تضمينا تليفونيا من هذا النوع ، وأن هناك وسائل قانونية لاظهار ما اذا كان فوك أو غـــــيره شيوعيا ٠

فقال : « ما رأيك اذا تلقى عميلك رسالة من الفرقة الامريكية الموجودة هنا ؟ » ٠

فقلت: «انني أنا نفسى من المحاربين القدماء ، ولا أعتقد أن الفرقة الامريكية تورط نفســـــها فيما أعتبره محاولة واضحة للابتزاز » ٠٠ فقال : «حسنا ٠٠ سوف تري » ٠

***

وقد أبلغ موراي هذه المكالمـــــة التليفونية الغريبة الي رئيســـــه ، وعندما علم هذا أن الرجل الذي تحدث هو « لاري جونسون من سيراكيوز» أبدي جزعا بالغا ٠ وقال « يجب أن تفعل شيئا بسرعة ٠٠ فان هذا يمكن أن يكون كالديناميت » ٠

وخشى موراي أن يكون قد أهان شخصية عظيمـــــة دون أن يدري ، فأسرع الي الفندق الذي يقيم فيـــه جونسون بنيويورك في سيارة أجرة ، ولكن أحدا لم يرد في غرفة جونسون٠

وقال موراي في المحكمة : « كنت شديد الانزعاج ، فسألت كاتب الفندق عما اذا كان يستطيع مســاعدتي في العثور علي مستر جونسون ، فقال لي : « انه واقف هناك » فذهبت اليه وقدمت له نفسى ، فقال لى جونسون: « لا أريد التعامل معك بعــد الطريقة التى كلمتنى بها بالتليفون » واستدار مغادرا الفندق ٠

ولم يصفح جونســـــون عن موراي ووكالته لعدم اذعانهما علي الفور ٠٠

وتلقت عميلتهما شركة المشروبات رسالة من لجنة مقاومة النشاط الهدام التابعة للفرقة الامريكية في سيراكيوز توجه نظرها الى « أحد بائعيها المدعو جون هنري فوك ٠٠» وتتضمن نشرة منظمة آوير وارسلت الشركة هذه الرسالة الي الوكالة الاعلانية ، مع التعليق المناسب ٠

ولما كان جونسون قد هدد موراي بمثل هذه الرسالة ، فانها قدمت للمحكمة كدليل اثبات وقال القاضى جيللر أن مثل هذا الدليل يمكن تقييمه الآن لتحديد مدي ارتباط جونسون ومسئوليته في الدعوي ٠

وواصلنا استدعاء الشهود ، وكثير منهم من اشهر رجال الفن : تشارلس كولنجوود وتونى راندال ، وكيم هانتر وجوزيف كوتن ، وجاري مور ٠ وكان ظهورهم دليلا علي الشجاعة ، اذ كان اصحاب القائمة السوداء مازالوا أقوياء ، وفوك نفسه مثالا قاسيا لما يمكن ان يحدث لاولئك الذين يقاومون النظام ٠

وقد لمس هؤلاء الشهود – وبينهم بعض مديري التليفزيون وشركات الاعلان ايضا – نواحى كثيرة من الدعوي ٠

وقد تحدي بولان جيرالد ديكلر ، مدير اعمال فوك السابق ، ان يذكر حادثة واحدة منع فيها فنان من الاذاعة بسبب الجدل الدائر حوله ، فذكر ديكلر قصة فيليب لوب الذي كان يقوم بدور الاب جولدبرج عدة سنوات في المسلسلة التليفزيونية «آل جولدبرج» ثم حرم من العمل بسبب الجدل حوله ولم يستطع الحصول علي عمل فى الاذاعة او التليفزيون فانتحر ، وكذلك أنهت ماري كريستيانس حياتها بالانتحار ، عندما حرمت من العمل بسبب ظهور اسمها في احدي القوائم السوداء ٠

وأخيرا ٠٠ وبعد ستة اسابيع ، و٣٨٨٩ صفحة من أقوال الشهود ، اختتمنا مرافعتنا في الدعوي ٠٠ وكان علي اعداء فوك الآن أن يواجهونا ، والتعرض لما يمكن ان يسفر عنه الاستجواب ٠

● أرجوك أن تقفى

في خلال اليوم الثاني من الاستجواب لاحظت ان هارتنت كان يخرج بطاقة وردية من جيب صديريته بين حين وآخر ، ويكتب عليها شيئا ثم يعيدها ويشرع في الرد علي اسئلتي وقد ظننت في البداية انه يأخذ مذكرات لمحاميه ، ولكنني لاحظت بعد ذلك انه قبل ان يدون هذه المذكرات ، ينظر

الي ابواب قاعة المحكمة المواجهة له مباشرة ، وسألت عما اذا كان يدون ملاحظات عن اشخاص معينين جاءوا الي القاعة ، فاعترف بأنه يفعل ذلك٠ ولما كان التعليق يجب ان ينتظـــر تلخيص الدعوي ، فانني وجهت نظرة طويلة ذات مغزي الي المحلفين ٠

وبعد عدة أيام كان بولان يستجوب هارتنت كمايلي :

س : لقد سألك مستر نازير عما اذا كنت تسجل اسماء الاشخاص الذين جاءوا الي المحكمة فهل تذكر ذلك ؟

ج : اجل

س : من كانوا هؤلاء الاشخاص ؟

ج : اليوت ســـوليفان الذي كان يجلس بجوار مســـز فوك ، وجون راندولف ، وألان مانســـون ، وجاك جيلفورد ٠٠ وهؤلاء هم بعضهم ٠

وبدا لي ذلك أمرا غير عادي ٠٠ فهل سيقدم هارتنت تقريرا عن الذين حضروا محاكمة علنية لمنظمة (آوير) كدليل علي عدم الولاء لبلادنا ؟ ٠٠ وادهشني بصفة خاصة الاشارة الي ان واحـــدا من الزائرين كان يجلس بجوار مسز فوك ٠

وبدأ غضبي يزداد شدة ، فقررت الاقدام علي مغامرة كان الحـــــرص يستبعدها وواجهت هارتنت مرةأخري اثناء الاستجواب :

س : هل تري مسز فوك في المحكمة الآن ؟

ج : أعتقد أنها السيدة التى تجلس هناك

المحكمة : أى سيدة ؟

فأشار هارتنت الي سيدة ، فطلبت منها الوقوف

نازير : ارجو ان تذكري اسمك ٠

السيدة : صوفر

ودوي هدير من الضحكات ، عندما فهم هارتنت مدي المقلب الذي وقع فيه وصمت انا قائلا : « أهذه هي الطريقة التي تتعرف بها علي الناس عندما ٠٠ »

ولكن محاميه اعترض علي هـــذا الســـؤال ، ووافق القـــاضى علي الاعتراض ٠٠

وكان التأثير الشديد للحادث اعظم من ان يقدر ٠٠ فهنا في قاعة المحكمة كشف هارتنت نفسه بأنه غير دقيق متهور ، لا يقدر المسئولية ، فأى طريقة أفضل من هذه نستطيع ان نختم بها استجوابنا ؟

× مقامرة علي المحلفين

بعد الشاهد الاخير ، عقد القاضى اجتماعا للمحامين لاعداد الترتيبـــات لتلخيص الدعوي ٠ ومنح بولان يوما كاملا في المحكمة لمرافعته الختامية ،

علي ان اتلوه انا في اليوم التالي ، ثم يوجه القاضي تعليماته للمحلفين ٠

وفي اليوم المقـــرر ازدحمت قاعة المحكمة تماما وبدأ بولان حديثه وانهاه باتهام فوك بأنه تعمد الكذب في كل ناحية من الدعوي ، بعكس مستر وارد الذي كان يقول الصدق وكرر كلمات «الكذب» و «الكاذب» بسرعة متتابعة ترددت أصـــداؤها بين جدران قاعة المحكمـــة حتي شحب وجه فوك ، واستبد به غضب دفين ، بينما كانت الاهانات تنصب عليه ساعة بعد اخري ٠٠ وسأل نفسه : أهذا هو اليـوم المشرق الذي سيسترد فيـه شرفه ، والذي قضى اكثر من ستة اعوام فى انتظاره ؟

وبعد ست ســـاعات من اهانات وسخرية مستمرة ، كاد فوك يبكى ، ورحت أواسيه قدر استطاعتى قائلا: «سوف يكلفهم هذا غاليا ٠٠٠ لقد قامروا بمهاجمتك وقد يرد المحلفـون بحكم كبير ٠٠ فانتظر الى الغد » ٠

● « المشكلة هي الشجاعة »

وصلنا مبكرين في الصباح التالي ، ووجدنا غرفةالمحكمة ممتلئة ، وسرعان ما اعد المسرح لمحاولتنا ، فوضع أحد السعاة مائدة امام مقصورة المحلفين ، وضعنا عليها ٢٠ مجلدا من أقـوال الشهود ، وكان كل منها يحمل علي غلافه رقما أحمر كبيرا ، يتفق مع الارقام التي في مذكراتي حتي استطيع ان اختـــــار المجلد فورا ، واقتبس الشهادة المعنية المطلوبة ٠ ثم بدأت التلخيص ٠٠ وقلت :

« كان اليوم الاخير يوما مريرا جدا بالنسبة لنا ٠٠ كنت اتوقع من المدعى عليهم ان يدافعوا عن انفسهم ، ولكن لم يكن عليهم ان يسكبوا حقـــدهم وخبثهم فيهذه المحكمة انهذه القضية من القوة بحيث انه بعد عشرة اسابيع لا تجدون شيئا يمكن ان تقـــرروا بمقتضاه ان المدعي عليهم قالوا الصدق في هذه التهم السبع ٠ لقد وقفوا عراة في هذه القاعة ، باعتبارهم مرتكبي جريمة قذف ، دمروا هذا الرجـــل واسرته « ألا ترون انه كان من الاكرم في هذه الظروف اتخاذ الموقف المعتاد للمدعي عليه عندما يقول : لقد اخطأت وانا آسف ، فانني لم اكن اقصد ذلك ، ولكن كلا ٠٠ فحتي في هذه الظروف وصفوا موكلي بأنه كاذب ٠ وفي آخر لحظة ، قذفوا في حقنا مرة اخري ٠

ومن هو الذي يقـدمونه على أنه رجل صادق ؟ ان مستر بولان يقول: «انني أقامر بقضيتي علي صدق مستر هارتنت ، مع ان النشرة التي كتبها

قد تبين دائما انها كذب تماما ٠٠ فكيف يمكن ان يكون رجلا صادقا ؟ »

« ولو أن أي وطني حقا توصل الى دليل ضد شخص شيوعي ، لارسله الي مكتب التحقيقات الفيدرالي ، اما هذا السيد الجالس هنا ، فقد كان يتقاضى ٢٠ دولارا عن كل رمية ! »

وأخيرا وصلنا الي مشكلة لورنس جونسون ، الذي لم يظهر قط في المحكمة وكان عذره ، مرضا أصاب المريء مما جعل من الصعوبة ان يأكل ، ويسبب القيء أحيانا ٠ وكذا قد استدعينا شاهدا طبيا ، كان قد فحصه ، وذكر انه بالرغم من هذا المرض فان جونسون كان في حالة صحية طيبة بالنسبة لرجل في الثالثة والسبعين ، وانه يستطيع الوقوف علي منصة الشهادة ٠ وقلنا اننا علي ثقة من ان المحلفين سوف يدركون أن عدم حضوره هو امر متعمد وان معناه انه عاجز عن مواجهة شهاداتنا »

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف ٠ وحان الوقت لاستراحة قصيرة ، ومن ثم فانني انتقلت الي ختام لهذه المسألة فقلت :

« ليس هناك محكمة بلا قلب ٠٠ وكل ما اردت ان افعله ، هو ان اري جونسون بعض الرسائل واسأله عما اذا كان قد وقعها ، ولكنه لم يرد الحضور الي هنا لنتعرف علي هذه الرسائل ٠٠٠ لقد اصيب بهذه الحالة في المريء منذ خمس أو ست سنوات، بينما كان يسحق مستر فوك ٠٠ ان المشكلة الوحيدة التى تواجهه هي الشجاعة وليس المريء ٠ كان يجب أن يمثل هنا ويدافع عن نفسه ، ولكن لم تكن لديه الشجاعة للقيام بذلك»٠

***

ووافقت المحكمة بعد ذلك علي الاستراحة ، وفي تلك اللحظة بالذات اندفعت سيدة شابة داخل السياج الداخلي ، ودفعت مذكرة الي بولان وعلي الفور شحب وجهه ودون انينطق بكلمة ، قدم لي المذكرة ٠٠ وكان مكتوبا فيها :

« لقد عثر على لورنس جونسون ميتاً الآن »

● حبيس طوال الليل

تري هل تدخل الموت لكي يقضى علي دعوانا ؟ ٠٠ كيف يتصرف المحلفون عندما يعرفون ان جونسون ــ الذي دمغته بالجبن ــ قد مات بينما كنت اسوق اتهامه علي شفتي ؟ وهل تسقط دعوانا ضده الآن ، وتتركنا بدون أحكام يمكن تنفيذها ضد المدعى عليهم الآخرين ؟ والاسوأ من ذلك ان

المدعوي كلها قد يعـــاد نظرها من جديد ؟

واصابنا الذهول :

وطلبنا الاجتماع بالقاضي في غرفة الملابس .. وقد اقترح ان يقـــوم المحامون فورا باخطار موظفيهم بالبدء في دراسة القانون الذي يغطي الموقف. ثم طلب مني ان اواصل تلخيص القضية دون ان اكشف عن موت جونســـون بطبيعة الحال .

بعد سنوات من الاعداد ، وعشرة اسابيع من المحاكمة ، تلقينا في آخر لحظة ما يمكن ان يكون لطمة قاضية .. ومع ذلك فقد كان من الضروري مواصلة الترافع بنفس القوة ، وهكذا مضينا في المرافعة ساعة بعد اخري ، فوصفنا المراحل الاخيرة في كارثة فوك الشخصية ، واقتراضه من الاصدقاء ، ورحلته الاخيرة الي اوستن ، ووكالة الاعلان التي انشأها ، والتي تثير الاشفاق .

وقلت : « انني لن امضي في الحديث عن بقية محنة هذا الرجل ، ولكني اضع حياته الآن بين ايديكم ، لان سمعته اما ان تعاد بحكم يدوي رنينه في انحاء العـــالم ، او تلوث مرة أخري ! »

وكان القاضي جيللر قد انتهي الي انه يجب عدم اخطار المحلفين بموت جونسون الي ان يوضح البحث اولا آثاره علي المحاكمة . وهكذا احتجز المحلفون في فندق ، دون ان تصل اليهم الصحف او المجلات ، او الاذاعة او التليفزيون ، وفي غضـــون ذلك ظل المحامون يعملون حتي الفجر ، عاكفين علي بحث كل قانون ، واعداد المذكرات .. وفي الصـــباح كانت التعقيدات القانونية قد تم حلها .. .. وقرر القاضي بقاء جونسون في القضـــية عن طريق تركته . ان موته لم يستبعد مسئوليته أو يقض على المنـازعة ، وهكذا حفظت حقوق فوك .

وعـــاد المحلفـون من الفنـــدق ، واطلعهم القـــاضي جيللر علي موت جونسون ، وبعـــد استعراض قانون القذف المعقد ، قال في الساعة ٣٥ر٥ بعد الظهر : « أيها السادة المحلفون. تستطيعون الاجتماع الآن والتداول »

في الساعة ٤٠ر١١ نادي الحاجب بعودة الجلسة ، فأسرع الجميـــع بالعودة الي القاعة . وبعد ان جلس الجميع ، نهض مقرر هيئة المحلفين واعلن انهم اتفقوا علي قرار .. وكان القرار في صالح فوك ... اذ يقول :

« لقد منحنا المدعى تعويضا قدره مليون دولار ضد منظمة آوير ، ومستر

فنسنت هارتنت ، وتركة المرحـوم لورنس جونسون ، كما منحنا المدعي تعويضات جنائية قدرها مليون و٢٥٠ الف دولار ضد منظمة آوير ومثلهـا ضد مستر هارتنت »

وانطلقت صيحات وهتافات تكشف عن الفرحة والالم معا من مؤخـرة القاعة فان الحكم بمبلغ ٣ر٥ مليون دولار لم يسبق له مثيل ، وكان اكثر مما طلبنا نحن بنصف مليون دولار (كان اقتراع المحلفين ١١ صوتا ضد واحدة لم تستطع الموافقة علي كل هذا المبلغ الضخم)

وهكذا نال فوك البراءة التامة ، وماكاد القـاضي والمحلفون يرحلون حتي هرع نحوي ، وتعـانقنا نحن الاثنان في ايماءة تكشف عن شعور عميق ، يتيح للصمت ان يعبر عن كل ماانشعر به في ذلك النصر التاريخي ·

رفض القاضي جيلر طلب المحامي بولان بأن يطرح الحكم جانبا وايد بقوة ما قرره المحلفون من تعويضات وقال : « يبدو للمحكمة ان هدف المحلفين من هذا المبلغ الكبير ــ ولو لم يمكن تحصيله ــ ان يكون تحذيرا للآخرين ضد التورط في سلوك مماثل » وهكذا أيد الحكم المبلغ كله ·

كانت آمالنا عظيمة في ان يكـون المدعى عليه جونسون مسئولا ماليـا عن المليون دولار التعويض المحكوم به ولكن تبين أن صافي أرصدة التركة لا تساوي جزءا من هذا المبلغ ، ومن ثم فقد قبلنا تسوية بمبلغ ١٧٥ ألف دولار ، وحصلنا عليه ·

واستأنف المدعي عليهما الباقيـان الحكم وهما منظمـة آوير وفنسنت هارتنت ، ولم يكن السبب هو المال ، فلم يكن مع أحدهما أي مبلغ، ولكنهما أرادا تبرير اجراءات التحقيقات التي يقومان بها علي اعتبار انها وطنية !

وكان قرار محكمـة الاستئناف اجماعيا من قضاتها الخمسة وقد جاء فيه : « ان امامنا ــ كما ثبت للمحلفين والأدلة الوفيرة ــ قضية قذف شريرة، رسمت عمدا وبخبث ، ونفذت بأثر مدمر علي المدعى ، دون اي مبرر او شبه مبرر »

ومع ذلك فقد اعتبرت المحكمـة الحكم شـديدا ، وخفضت مبلغ التعويضات الي ٤٠٠ الف دولار ، والتعويضات الجنائية الي ٥٠ الف دولار ضد آوير و١٠٠ الف ضـد هارتنت ، الذي كان أكثر الاثنين ذنبا»

وواصل المدعى عليهما الاستئناف بعناد ، فأتاحا لفوك اختبار مظلمته خلال كل محاكم الاستئناف ، وبهـذا

كتاب الشهر

عسكر وحرامية



بقلم : چيمس ميلز

THE DETECTIVE

نقلا عن : مجلة لايف

عسكر وحرامية



في قلب مدينة نيويورك يقع ميدان « تايمز سكوير » ، حيث شوارع متقاطعة متوازية تكتظ بلافتات النيون ،ودور السينما المتألقة ، والحانات الصاخبة ، والحوانيت المختلفة ، معاستعراض من انواع بشرية مختلفة متباينة ، لا تنقطع لحظة طوال الاربعوالعشرين ساعة كل يوم ••• وتحت بريقه الرخيص ، يؤوي «تايمزسكوير»عالما سفليا خطيرا من ذوي الشذوذ الجنسي ، والبغايا ، ومدمني المخدراتوالقتلة •

ان « تايمز سكوير » والاحياء التيتحيط به هو منطقة دورية رجل البوليس السري جورج باريت •••الرجل الذي يتولي القيام بعمل تحت ضغوط لا تكاد تحتمل : العنف الذييمكن ان ينفجر في أية لحظة ، وغابة من التقارير الرسمية ، والنقد من الاشخاص الذين يخاطر بحياته كل يوم لحمايتهم ••• ولعلك لن تستطيبالصورة الدنيئة التي نعرضها في هذه العينة من تجارب باريت في عملهاليومي ، ولكنك ستجدها صورة من الصعب نسيانها •••

في كل مســــاء ، يقبل جورج باريت أبنـــاءه متمنيــا لهم ليلة سـعيدة ، بما فيهم ولداه الكبيران اللذان يبلغ احدهما ١٣ عاما والآخر ١٧ عاما ٠٠ ويشعر الولدان الكبيران بالحرج عندما يقبلهما أبوهما ، ولكنه يقول : « ان الطريقة التى أعيش بها تجعل من المحتمل أننى قد لا أراهما مـرة أخري ، ولست أريد أن أرقد محتضرا فوق أرض شارع ما، متمنيا فرصة أخري لكي أودع أسرتى، ومن ثم فاننى كلما قبلتهم خيل لى أنهـا آخر مرة ، وأننى أقبلهم مودعا اياهم الى الأبد » ٠

والأبد يمكن أن يأتى فجأة لرجل البوليس السري جورج باريت ، فهو صياد رجال ، وليس بين أولئك الذين يطاردهم ــ من اللصوص ، وتجـار المخدرات ، والبلطجية ، والقتلة ــ من يريد أن يواجهه فيظروف متساوية٠٠ لان جورج باريت اذا طارد رجلا فانه يجده دائما ، وعندما يجده ، فان الرجل لايقبض عليـه دائما ، ولكنه يأسف دائما لانه عثر عليه ، وجورج باريت شرطى صلب ، عيناه باردتان كمعدن المسدس ، يمكن النظر اليهما ولكن لايمكن النظر فيهمـا ، وفكه قاس مربع كقالب الطوب، فاذا ضحك فانوجهه وصوته هما اللذان يضحكان فقط ، أما في الداخـــل فان جورج باريت لايضحك أبدا ٠

انه يقول : «تسيطر علي فكرة أنني يجب أن أفوز ، وتستطيـع هــذه الحيوانات أن تشم هــذه الفكرة ٠٠ اننى سوف التهمهم ، فان عنــدي الادوات ، وأعرف كيف أستخدمها ، فاذا لم أستطع التغلب على الرجـل باللكمات ، فاننى أركله ، فاذا كان ركله أفضل من ركلى، فاننى أستخدم هراوة الجندي ، او الحزام الجلدي ، واذا اضطرنى الحـــال ، استخدمت مسدسى » ٠

وجورج باريت بالنســـبة لبعض الناس ، هو بالضبط موضع العيب في تنفيـــذ القانون ، أما بالنسـبة لآخرين ، فانه كل مايستطيع أن ينفذ القانون ٠

البالوعة : انه يقف في الشـــارع الثانى والخمسين ــ غرب ــ بمدينة نيويورك وسط الظلام الذي يســـود أواخر المساء ، ويتطلع جنوبا نحـو الكرة النارية من أنوار النيون التى تومض في « تايمز سكوير » ٠٠ تلك هي برودواي ، الطـــريق الابيض الكبير ، شـــارع الاحلام الخرافي ، ويسميه باريت «البالوعة» ٠٠٠ ففى

أسفله يتدفق أسـوأ ماتقدمه أمريكا من الفاسدين ، والضالين ، وأعـداء القـانون ، الذين يسـميهم باريت «الجراثيم» ٠

ففى برودواي ، تطوف البغايا ، وينطلق القوادون بحثا عن ضحاياهم، ويعمل سارقو السيارات على مقربة من الرصيف ، وهم يحدقون رؤوسهم كلما مروا بكل سيارة ليروا مايمكن أن يجدوه داخلها، ويطوفون بالشوارع الجانبية دائما في عكس اتجاه المرور لتعطيـل المخبرين الذين قد يتبعونهم بسيارات دوريات البوليس ٠٠ ومن الساعة الثامنـة مساء حتى منتصف الليل ، يقومون بأضـخم عملياتهم ، بسرقة سيارات رواد المسارح ودور السينما ، ولن يستطيع أي قفـل أن يحمى الحقائب من مفك اللص ، أو شوكته المثنية ٠

وفي هذا الوقت المبكر من المساء، يتجمع «القوادون» على مقـربة من قاعات الرقص ، والنوادي الليلية التى تستخـدم الموسيقى المسجلة بدلا من الفرق الموسيقية ، باحثين عن رجال منحتهم الخمـــر بعض الشـجاعة ، ويسعى معهم أبنـاء عمومتهم الاكثر شرا ، من المشـاغبين واللصـوص المتخصصين والسـكارى ٠٠ بينمـا تتناثر الغجريات في أرجاء المنطقة في حوانيت صغيرة ذات واجهات زجاجية وأضـواء خافتة ، ومقاعد مخملية ، وزهور صناعيـــة ، وقد جلسن فى أوضاع مغـرية ، متنقلات بين حين وآخر الى عتبـة الباب لدعوة بعض المارة لتذوق اللذة المحرمة في الغرفة الخلفية ٠٠ فاذا دخلت الفريسـة ، فان جيوبه سوف تفرغ بوساطة خبراء في النشل ذوي أصابع مدربة ٠

وفيما بين الشـارعين الثـالث والاربعين والخـامس والاربعين فى برودواي ، يصطف البغايا من الذكور ـ شبان ذوو وجوه كالاطفال، وأجلاف ذوو أحذية سوداء طويلة العنق ، وكل نوع تتطلبه المهنة ٠٠ أما في الشارع الثاني والاربعين ، فهناك لافتـــات بيضاء براقة ، تعلن عن أفلام سينمائية جنسية ، وفيض متدفق من الفساد من كل الانواع ٠٠ وفي كل مكان فى أعلى الدرك وأسـفله ، تجد مدمنى المخدرات من كل صنف ، وتجارها الذين يمارسون مهنتهم غير المشروعة

ان درك جورج باريت صغير ٠٠ عبارة عن ٣٨٤ فدانا ، و٤ر٢٥ كيلو مترا من الشـوارع ـ تستطيع أن تقطعه سيرا على الاقدام من أقصاه الى أقصاه في ٢٠ دقيقة ٠

ولكن في داخل اجزائه السبعين المربعة الشكل يتجمع مركز روكفلر ، و « راديو سيتي » وحى المسارح ، والمركز الماسي (دياموند سنتر) وميدان تايمز سكوير ٠٠٠ وفي هذا الدرك يبلغ في كل شهر عن ١٥ حادث سرقة بالاكراه و٢٠ جناية اعتداء ، و٢٠ حادث سطو ، و٣٢٠ سرقة عادية ، وحادثي اغتصاب ، وكثير من جرائم الدعارة ، والانحراف ، والتهديد التي لا يمكن عدها ٠٠٠ وفي كل يوم ، يتدفق خلال هذه المنطقة أكثر من مليون شخص ، البعض لكي يغادره عندما تغلق المكاتب والحوانيت والحانات والمسارح أبوابها ، والبعض الآخر لكي يبقى ليلة او ليلتين في فنادق تتراوح بين ملاجيء تمتليء بالفئران للعاهرات والاوباش ، وبين اغلى الاجنحة الفاخرة في فندق آستور ٠

ويعمل باريت ضمن فريق من اربعة رجال ، يتبادلون العمل في تسجيل الشكاوي والتحقيق فيها ٠٠٠ وفي تلك الامسية ، عاد اثنان من زملائه الي مبني قسم البوليس لكتابة التقارير علي الآلة الكاتبة ، والرد علي المكالمات التليفونية ، بينما كان باريت — الذي يكتب علي الآلة بسرعة ، ولكنه يفضل العمل في الشارع — يقوم بالدورية مع الزميل الرابع ٠ ويقول باريت انه يريد ان ينتقى تلك الليلة بصفة خاصة ، فغد يوم راحته ، ولو انه اعتقل أحدا الليلة فانه سيضطر الي قضاء يوم غد في المحكمة خلال وقت راحته ، مما يمد وقت عمله اليومي الي اكثر من ٢٠ ساعة متواصلة ، ولكن هناك وسائل لاحباط الجريمة بدون الذهاب الي المحكمة ٠

كان باريت قد سار مسافة اقل من المسافة بين نواصى شارعين عندما توقف هو وشريكه علي مقربة من منطقة مخصصة لوقوف السيارات ، ووقفا يتحدثان معا حديثا عابرا ٠٠٠ ومع ان أحدهما لم يقل شيئا للآخر ، فان كليهما كان قد رأى رجلا طويلا نحيلا ، شرع في الدخول في الكشك الخالي المخصص لحارس موقف السيارات ثم اسرع بالتراجع عندما رأى الحارس ينظر اليه من مكان وقوف السيارات وفي تلك اللحظة مر الرجل النحيل أمامهما ، فاستأنفا سيرهما وهما يرقبانه ٠٠ وزاد الرجل من سرعة حركته ، وهو ينظر داخل السيارات التي يمر بها مسرعا واقترب من الشارع السابع والاربعين وبرودواي عندما توقف امام احدي السيارات وحدق داخلها ، ثم فتح

الباب ، ومد يده ، فأخرج آلة تصوير من لعب الاطفال ، هزها بيده ، واصغى اليها ، ثم قذف بها في صندوق للقمامة

ويقـول باريت : « هذه سرقة طفيفة ، مهما كانت قيمة الشيء ، ولكن لنر ما سيحدث بعد ذلك » ٠٠ ان الرجل ينظر الي البضائع التي توجد علي الرصيف ، ثم يدخل صيدلية ، ويفحص البنوك الخشبية ، واخيرا يبرز من متجر للثياب ويداه مليئتان باربطة العنق ، وهنا يمسكه باريت فيقول الرجل :

« ماذا تفعل بي يارجل ؟ ٠٠ لماذا تمسكني ٠٠ انني سأدفع ثمنها ٠ لقد كنت علي وشك الدفع »

ويعود باريت وزميله بالرجل الي المتجر ، ويجدان مديره الذي يقول انه منكوب باللصوص ، وانه سيذهب الي المحكمة بكل تأكيد كمجني عليه ، ويثير اللص ضجـة ، محاولا التأثير في الجمهور الذي تجمع علي الصـوت قائلا : « سأدفع ثمن هذه الاشـياء يا رجل ٠٠ دعني اعـود الي بيتي وسأكون انسانا طيبا ٠٠ اعدك بذلك انني لا اكذب عليك »

فيقول باريت : « كلا ٠٠ انك لاتكذب ٠٠ ولكن ما رأيك في لعبـة آلة التصوير ؟ »

— اية آلة تصوير ؟

— تلك التي اخرجتها من السيارة ٠

— اية سيارة ؟

وصحب باريت وزميله الرجل الي قسم البوليس ، وطـعدا به الدرج الحلزوني الغريب الي غرفة المخبرين الكبري ٠٠ ان المبني الذي يضم خمسة طوابق من الطوب يقف هناك منذ اكثر من قرن ، وجدرانه المتشققة ، تبرز منها رقائق الطبقة رقم مليون من الطلاء الذي طليت به ، بينما ينبعث صرير ارضياته الخشبية السميكة وهي تنوء بأثقـال قرن من الزمان ، وطفحت سلال المهمـلات بما فيها من اوراق تدفقت علي الارض ، بعد ان امتلأت بأوراق الاسـتمارات التي رميت ، واعقاب السجائر ، والاشرطة المطاطية والدبابيس ، وينبعث الضوء من اربعة مصابيح في السقف — واستعيض عن الكرة الزجاجية المكسورة حول احداها بقطعة من الورق المقـوي المثنية ، وغطيت الجدران الخضراء بصـور المجرمين المطلوب اعتقالهم ، والمراهقين من الفتيان والفتيات الذين هربوا من بيوتهم ٠٠ وفي احد اركان الغرفة قفص من الاسلاك في حجم دولاب ملابس كبير ، به اربعة سجناء ٠ ثلاثة منهم من مدمني المخدرات ، اعتقلوا لسرقة

ما في السيارات ، والرابع يرتدي ثياب النساء ، ويرفع صوته مطالبا فصله عن هؤلاء « الرعاع ! »

رجل طيب حقا : كان باريت يكتب بعض السجلات عن اللص الذي ضبطه عندما ظهر على عتبة الباب رجل وجيه المظهر ، في منتصف العمر ، ورفع باريت بصره اليه وسأله عما يريد وهل يستطيع مساعدته في شيء ؟ .. فقال الرجل انه كان يسير في أحد الشوارع عندما تحسس حافظة نقوده فلم يجدها ، وكان فيها ٢٥٠ دولارا وقال ان سيارته في أحد « الجراجات » وهو في حاجة الى خمسة دولارات لاخراجها . وذكر انه من كبار موظفى الشركات ، وقد حرص تماما على ان يكون مؤدبا مقبولا ..

واصغى باريت الى الرجل دون ان ينطق بكلمة ، وعندما انتهى من حديثه ، مال باريت في مقعده الى الوراء وقال له : « لقد اخبرتني عما حدث الآن . والآن استمع الي .. لانني سأخبرك بما حدث حقا .. لقد كنت تظن انك ستكون لك مغامرة مع احدى الغجريات ، أليس كذلك ؟ وقد تناولت كأسين من الخمر من الحانوت الذي يقع في الشارع السابع والاربعين بين برودواي ، والشارع الثامن ، وكانت تبدو جميلة في عينيك . وقد ادخلتك في حانوتها ، ونشلت حافظتك .. أليس كذلك ؟ »

وبدا الرجل مذهولا مرتبكا ، يحاول ان يقرر ماذا كان ينبغى ان يكذب ام لا . وعاد باريت يقول : « اسمع يا صديقى .. انت الآن رجل بالغ .. فكن رجلا ، واتجه الى التليفون ، واتصل بزوجتك او أحد اصدقائك لكي يأتي ويأخذك الى المنزل . ولا تذكر لي تصصا صغيرة ملفقة عن فقد حافظة نقودك .. أفهمت ؟ فانني انا الآخر لم اولد امس ! » وسكت لحظة ثم اضاف قائلا : « اذا كنت تريد مني ان اذهب وأحاول استعادة نقودك ، فانني سأفعل ذلك »

ومد الرجل يده الى باريت قائلا : « شكرا لك .. انك رجل طيب .. رجل طيب حقا »

ونظر باريت الى الآلة الكاتبة ، ولم يمد يده ليصافحه ... وانصرف الرجل بينما جلس باريت يحدق في مفاتيح الآلة الكاتبة دون ان يكتب عليها .

وأخيرا قال : « ان كل ما يريده هو خمسة دولارات ليعود بها الى بيته . انه لم يفكر قط في ركوب قطار المترو ، بل جاء الىهنا بقصة ملفقة

كهذه ، وهو يتوقع ان اعطيه خمسة دولارات ! »

في الدورية : انتهي باريت من عمله المكتبي ، واخذ بصمات سجينه ، ثم انطلق هو وشريكه عائدين الي الدورية .

وفي الساعة الثانية صباحا ، ابتعدا عن اضواء برودواي الساطعة الي كهف من الظلام في أحد الشوارع الجانبية .. كان هناك ظهر مسرح ، وحائط من الطوب تتدلي منه سلالم حريق حديدية ، ويرتفع عاليا الي اليسار ، والي اليمين وهج من ضوء خافت ينبعث من ارصفة الشحن بمطبعة النيويورك تايمز ، وعدد قليل من عمال المطبعة يضعون علي رؤوسهم قبعات مطوية من ورق الصحف يقفون بجوار الارصفة يرقبون جدلا يدور عبر الشارع .. كان هناك اثنان من المصابين بشذوذ جنسى يتبادلان الصيحات واربعة آخرون يرقبون ما يحدث ، كانوا جميعا يضعون باروكات من شعر نسائى طويل ، يتحلون بأقراط طويلة ، ويضعون رموشا صناعية في عيونهم ، ومساحيق الزينة في وجوههم ! وتوقف باريت بجوار عمال المطبعة الذين يشاهدون هذا المنظر ، بينما واصل شريكه السير وهو يقول : « هيا ياجورج .. انت تعرف انك لن تعتقل أحدا ، فلماذا تنظر ؟ » .. ان باريت لن يعتقل أحدا ولكنه لن يتجاهل اي اعتداء قد يحدث .

وفجأة ، اسقط احد المصابين بالشذوذ الجنسى ـ وهو زنجى ـ الآخر علي ارض الشارع ، وقفز فوقه وراح يضربه .. واتجه باريت نحوهما ، بينما يقول احد عمال المطبعة : « احترس . انه يحمل سكينا » . ويجذب باريت الزنجى من قميصه ، ويبعده عن الضحية ، ثم يدفعه نحو جدار المسرح ، فتطير باروكة شعره وتسقط في البالوعة !

وينهض الآخر من سقطته وقد اصيب بجرح تحت عينه اليسري ، وينصرف الباقون محاولين الابتعاد عن الانظار قبل ان يلاحظهم باريت . ويصيح باريت فيهم ان يعودوا ، ثم يجمعهم تحت سلم الحريق ، ويكون الرجل الذي اسقط زميله لايزال واقفا أمام الجدار ، فيتجاهله باريت .. ويتحدث الآخرون جميعا في وقت واحد فيصرخ باريت :

« كفى ! .. لا يتحدث أحد الا اذا سألت انا عن شيء » . ويكتب اسماءهم وعناوينهم في نوتة صغيرة ،

ثم يسأل المضروب ان كان يريد ان يتقدم بأية اتهامات ، فيرد بالنفى ، ثم يسأل باريت كلا من الآخرين نفس الاسئلة ، ويحصل من كل علي نفس الاجابة :

ـ هل انت ذكر ؟

ـ أجل

ـ أأنت مصاب بشذوذ جنسى ؟

ـ أجل

ـ هل انت مدعى الانوثة ٠

ـ كلا

وقد أجابوا بلا علي السؤال الاخير لان ادعاء الانوثة جريمة ، ولكن ماداموا لا يرتدون ثيابا نسائية ، فانه لا يمكن اعتقالهم ٠

ويتجه الرجل الذي كان رابضا فوق الآخر ٠ نحو البالوعة ، ويستعيد شعره المستعار ، فيصرخ فيه باريت : « انت ايها الجرثومة ٠٠٠ تعال هنا ! »

ويضع الرجل الشعر المستعار على رأسه ، بينما يسأله باريت عن اسمه وعنوانه ، فيرد الرجل بنفس الاجابات علي نفس الاسئلة ٠

ويشير باريت الي الجميع ماعدا المعتدي ويقول : « والآن انصرفوا جميعا ايها الجراثيم من هذا الشارع الي برودواي واختفوا هناك ٠٠ واياكم والعودة »

ثم يشرع في السير في الاتجاه الآخر مع الاخير ٠

ويقول وهما يسيران معا : « والآن استمع الي يا جرثومة ٠٠٠ لقد شاهد كثيرون من الناس هذا الشيء الصغير ، وسوف اشعر بارتياح كبير اذا سجنتك ، ولكنني لن افعل ذلك ٠٠ سوف اصحبك حتي الناصية الي نفق المترو ، وسوف تجري داخل النفق ، وتبتعد عن هذا المكان ، واذا عدت مرة أخري فانني سوف اطلق الرصاص بين عينيك رأسا ٠٠٠ أفهمت ؟ ٠٠٠ والآن هيا ادخل هذه الفجوة واخرج من هناك ٠

ويختفى الرجل في نفق المترو ٠٠

انني افكر في الضحايا ٠٠ وفي أحد بارات تايمز سكوير ، أحس باريت بعد ذلك انه يجب ان يشرح مافعله فقال : « انني لا احب المصابين بالشذوذ انهم مرضى وانا ادرك ذلك ولكن هذا لا يعني ان لهم الحق في ان يحاول احدهم قتل الآخر ٠ ان الكثيرين من مخبري البوليس لا يفعلون شيئا حيال ذلك ولاسيما ان الرجل زنجى (نظرا للحساسية الفائقة في الظروف الحالية ازاء حقوق الزنوج في امريكا) ٠ ولكنني حصلت علي اسمائهم وعناوينهم واعترافات بأنهم

مصابون بالشذوذ ، وان أحدا لا يريد ان يتقدم بأية اتهامات ، وهكذا فانه اذا جاء أحد الصحفيين غدا الي مقر البوليس وأراد ان يعرف كيف اســـاء أحد مخبري البوليس معاملة مواطن محترم ، فانني سأكون مستعدا للدفاع عن نفسي • ولكن اغلب رجـــال البوليس يخشون ان يفعلوا ذلك في مواجهة كل هؤلاء الشهود ومنثم فانهم اما ان ينصرفوا بعيدا ، او يقفـــوا ويشاهدوا جريمة قتل • واذا كنت قد عاملت أحدا بخشونة ، فانه علي الاقل لن يدخل السجن مدي الحياة من أجل جريمة قتل ، ولن يفقد الشخص الذي سقط علي الارض حياته » •

« ان المحامين يقضون اســـابيع عـديدة وهم يحضرون قضية ما ، والقاضي ينفق عدة اسابيع في بحثها ، ولكنني يجب ان اتخذ قراري في ثانية واحدة•• تري هل هو يحمل سكينا؟•• أمعه مسدس ؟ •• هل ينبغي ان اضربه ؟ •• وباية شدة ؟ •• انني إن لم اضربه بقوة كافية فانه يستطيع يقتلني ، ولو ضربته بشدة فانني اكون متوحشا • انني لا اتحرك الا اذا كنت اعرف انني علي صواب ، ولكنني عندما اتحـــرك فعلا ، فانني اكون مستعدا للمضي الي آخر الشوط » •

طريق طويل : لقد مضى باريت مع الجريمة والمجرمين وقتا طويلا ، منذ كان في الثانية عشرة من عمره ، فقد كانت اسرته تعيش في بروكلين ، وقد تذوق طعما كريها لما يمكن ان تعنيه الجريمة ••• كان ابوه ، وهو عامل طباعة ، في طريق عودته من الكنيسة الي البيت عندما سرق وضرب وترك امام عتبـــة احد الابواب علي اعتبار انه مات وظل راقدا هنـــاك ساعتين قبل ان يعثر عليه أحـــد الجيران ويستدعي طبيبا •

وبعد عام كان باريت يسير وراء شقيقيه عندما سمع اثنين من المجرمين يتآمران علي مهاجمتهما •• ويقول : وتسللت داخل احد الابواب ، وامسكت زجاجتي لبن فارغتين ، وعندما شرع المجرمان في الاعتداء علي شـــقيقي ، تقدمت ، وضربتهما بالزجاجتين حتي اسقطتهما علي الارض ، لقد فعلت ما كان يجب عمله ، ومنذ ذلك الحين ، اصبحت هذه هي قصة حياتي •

وقد بدأ باريت صعوده في صفوف مخبري البوليس في احدي ليالي ديسمبر ١٩٥٤ وهي المرة الوحيدة التي اضطر فيها الي اطلاق مسدسه ليقتل •• كان ليلتئذ بثيابه المدنية ، وقت خلوه من العمل في طريقه لزيارة احدي عماته •

وسمع صيحات استغاثة ، ورأى سائق سيارة اجرة يصارع ثلاثة رجال من الركاب ، واقترب باريت من السيارة ورأي مسدسا في يد أحد الركاب ، فأطلق عليه النار ، ولكن الرصاصة طاشت ، واسرع الركاب بالنزول ، فضرب باريت أحدهم بالمسدس في فمه فحطم اسنان الرجل ، ولاذ الاثنان الآخران بالفرار ، وركب باريت مع الرجل الذي امسكه السيارة الي مركز البوليس وقال : « لقد صوبت المسدس اليه ، فقرر ان يخبرني بأسماء صديقيه » وقد اعترف الثلاثة بأنهم ارتكبوا ٢٢ حادثا آخر للسرقة والسطو بالاكراه ٠٠ وكان احدهم قد اطلق النار علي رجل في الليلة السابقة ٠٠ وادينوا وحكم عليهم بالسجن ، ورقى باريت الي رتبة مخبر سري ٠

وفاز باريت بترقيته الثانية بفضل علامة خاتم في اصبع رجل قتيل ٠ كان هناك سجين سابق فى العشرين من عمره يدعى هنري دوسابلون يعمل مع صديق له ، فسرقا وقتلا ستة من اصحاب الحوانيت فى خمسة ايام ٠ وكان بين القتلي رجل يدير حانوتا للخردوات في درك باريت وبعد ان قام بالتحري في هذه الجريمة لاحظ باريت علامة الخاتم ، فافترض ان الخاتم قد سرقه القتلة ٠ وحصل من زوجة القتيل علي وصف الخاتم ، ولما كان يأمل ان القتلة سيحاولون بيع الخاتم ، فقد ذهب باريت وعدد من المخبرين الآخرين الي محال الرهونات وأخيرا وجدوا الخاتم مرهونا من « دوسابلون » باسمه الحقيقى وتذكر موظف في محل آخر ان رجلا يشبه دوسابلون ذكر انه يقيم في فندق قريب ٠٠ وقام المخبرون بالمرور علي الفنادق حتي وجدوه ٠ وفي عام ١٩٦٣ ، أدين دوسابلون وزميله بتهمة القتل ، وكوفىء باريت بزيادة في راتبه ورتبته ٠

العمل الكتابي ضد منع الجريمة :

ان المخبر الذي يريد البقاء بعيدا عن الشوارع ويتحاشى الاشتراك في هذه الاعمال ، يمكن ان يفعل ذلك بسهولة فان الروتين الحكومي حليفه في ذلك فانه يجب ان يقضى ساعات كل يوم يكتب علي الآلة الكاتبة جبالا من الاستمارات التي لا تتعلق بالجرائم الخطيرة فحسب ، بل وتافه المسائل أيضا ـ كفقد سلاسل المفاتيح وضياع اقلام الحبر وغيرها من جرائم السرقة الطفيفة التي لا يمكن حلها فاذا قام باعتقال ذي مغزي فان عدد التقارير يتضاعف ٠ ان اعتقال حدث مدمن للمخدرات في أى ظرف عادي ،

يتطلب تحرير ٢٢ استمارة وتقريرا ، كلها يكتبها علي الآلة الكاتبة الضابط الذي اعتقله، والمخبر الذي يستطيع أن يعتقل ١٠ أو ٢٠ من المتهمين بادمان المخدرات أو التحريض علي الرذيلة في ليلة واحدة ، لا يعتقل في الحقيقة غير واحد أواثنين ، لانه يعلم أنه سيقضى بقية وقته ينجز الاعمال الكتابية المطلوبة . ويشعر كثيرون من المخبرين بأنهم أشبه بموظفين كتابيين ويقول : « اننا قد لا نكافح الجريمة . . لكننا نسجلها بكل تأكيد » . .

وعندما لا يكتب مخبر البوليس بنيويورك شيئا علي الآلة ، فانه يكون موجودا في المحكمة ، ففى مقابل كل حالة اعتقال تتم ، يقضى المخبر ساعات ، وغالبا أياما ، في المحكمة وأغلبها من وقته الخاص !

وعندما لا تكون هناك أعمال كتابية أو مثول أمام المحكمة ، فان المخبر يسمح له أن يكون مخبرا — تقريبا — ! انه ينطلق لبحث قضية وهو واثق تماما أنه اذا كان ضميره حيا أكثر مما يجب كرجل بوليس ، فانه يمكن أن يقضى علي مستقبله وهو يعرف أنه قد يكون عليه أن يختار بين المغامرة بحياته أو عمله ، وهذه المعرفة هي التي تضغط عليه لكيلا يكون رجل بوليس .

عنف مسيطر عليه : «الاشرار» ، تعبير كثيرا ما يستخدمه باريت، وهو يقصد به الشخص الذي يقترف الجرائم الوحشية كأسلوب للحياة : لصوص السرقات المسلحة ، والقتلة ، والذين يحترفون ابتزاز الاموال ، لا مزيفى الشيكات أو صغار اللصوص . وهو يتحدث عن الاشرار برزانة بالغة من رجل ركز روحه كلها علي تحديد فكرة واحدة بكل دقة . انه لا يسأل من يكون ، أو أين هو ذاهب ، أو ماذا يجب أن يفعل . . ان مهمته هي استئصال الاشرار، وهو يقول : «انني في الخامسة والاربعين من عمري ، أعمل في البوليس منذ ٢٠ عاما ، ومازلت مكرسا كل جهودي لمطاردة المجرمين » .

ويستطيع باريت أن يكتشف الاشرار بنفس السرعة والتأكد اللذين يستطيعون اكتشافه بهما ، فهو لايجد أية مشقة في تحديد اللص القديم الذي يرتكب السرقات المسلحة ، كما يستطيع الطبيب أن يعرف ضحية الجدري ، وهو يعامل اللص الحقير الذي اعتقل للسرقة من المتاجر ، باعتباره لصا حقيرا فحسب ، أما اذا كشف اللص عن ميل الي العنف ، فان باريت يستطيع أن يرد بعنف،ويتحرك

جسمه بقوة شديدة خاضعة للسيطرة يستطيع اطلاقها في لحظة اذا دعت الحال ، لتصبح عملا عنيفا محسوبا بدقة ٠

لقد ظل ساعتين ذات ليلة يتابع أحد المحتالين ، وهو عادة لا يهتم بالمجرمين التافهين ، ولكنه يعرف أن مثل هؤلاء الرجال كثيرا ما يلجأون الى العنف اذا لم ينجحوا في الحصول على نقود من ضحيتهم ، وعادة ما يستخدمون السكين في اعتداءاتهم ٠٠ وأخيرا بعد أن ظل يرقب الرجل فترة تكفي لتقديمه للمحاكمة ، اعتقله ووضعه في المقعد الخلفي لسيارة الدورية ٠ وجلس الى جواره ٠ ثم سأله باريت عما في جيوب معطفه الصوفي ، فنظر اليه الرجل في تحد وقال بغطرسة : « لاشيء ٠٠ » وأعاد عليه باريت السؤال مرتين ، فحصل على نفس الجواب ، ثم دس يده اليسري في جيب المعطف الايمن وأخرجها بمدية ذات نصل ذي زنبرك ، وفي مثل لمح البصر كانت يد باريت اليمنى قد ارتفعت بسرعة فى حركة مليئة بتهديد غاضب، وقال وقد التوي وجهه في ازدراء : « لا شيء ! ليس معك شيء ! ٠٠ ماذا كنت تنوي أن تفعل بهذه ؟ ٠٠ أكنت تريد قتلى أيها الجرثومة ؟ » ٠٠ واختفى تحدي الرجل وغطرسته وقال : « كلا ٠٠ انني لم أكن أعرف أنها موجودة هناك ٠٠ اننى لا أذبح الناس يارجل قد أكون نصابا ، ولكننى لا أقتل أحدا »

داخل الحواجز والقضبان : اذا كان باريت يكره الاشرار ، فانه يتألم من أجل الاخيار ٠ انه يطوف بدركه بين العمارات السكنية المزدحمة ويشير الى الستائر السلكية الثقيلة والقضبان التى تغطى النوافذ الخلفية المطلة على الازقة وقطع الارض الخلاء ويقول : « أنظر الى هذا ٠٠ انهم مضطرون لصنع سجون لانفسهم لابعاد الجرائيم عنهم ٠ وهم مضطرون لاخفاء أنفسهم وراء القضبان » ٠

وكثيرون من الاشخاص الذين يعرفهم باريت في دركه خاب ظنهم في البوليس والمحاكم ٠ انهم يرون رجالا في الشوارع ، أدينوا في جرائم القتل والاعتداء على النفس، وهم لايستطيعون أن يأخذوا على محمل الجد مايعتبرونه واجب البوليس والمحاكم ٠٠ لكي يفصلوا المجرمين عن المجتمع ٠ وعندما يواجهون المتاعب أحيانا يلجأون الى أحد رجال البوليس ممن يثقون فيه ليساعدهم ، لا لكي يعتقل أحدا ، بل لكي يساعدهم حقا ٠

لقد طلب عجوز يوغوسلافي يمتلك بارا صغيرا في « وست سايد » الي باريت ان يحضر لمقابلته • لقد كان البار منذ سنين يقدم الطعام والشراب لعـــــدد من الزبائن اليوغوسلافيين المقيمين في الحي • وكان عددهم قليلا ، ولكنهم زبائن دائمون ، غير أنبلطجية وست سايد بدأوا أخيرا في السيطرة علي المكان ، مستخدمين التليفـــون الآلي في أعمال المراهنة علي ســـباق الخيل ، محولين البار الي مقـــر للمراهنات غير المشروعة ، وعنـــدئذ توقف زبائنه القدامي عنالحضور الي محله ، وعندما تقدم بالشكوي هدده البلطجية ، وهو يخشى ان يفقـــد ترخيص البار بسبب المراهنات • وقد ذكر لباريت انه يعرف انه اذا اعتقل هؤلاء الرجال ، فانهم سوف يخرجون من السجن سريعـــا ويعتدون عليه ويحطمون باره •

ويقول باريت : « وهكذا اخذت انا واحـــــد زملائى الاشرار ــ وكانوا اشرارا حقا من بلطجية وست سايد القدامي ــ الي بقعة هادئة بجـوار ارصفة الميناء ، واكدنا سلطاتنا عليهم كرجال بوليس ، وحذرناهم بعد ان عاملناهم بشدة ، لنظهر لهم اننـــــا جادون في موقفنا • وعنـــدما ذهب أحدهم في اليوم التالي الي بار العجوز وسأله كم دفع لي لكي احميه ، اثارني ذلك الي حد الجنون ، لان أحـــدا لا يستطيع ان يرشوني •• ومن ثم فقد أحضرته وعدنا مرة اخري الي ارصفة الميناء ، واعطيته جرعة اخـــري من نفس العلاج ، حتي اصبح يعاملني باحترام شديد •

القيم القديمة : منذ فترة من الوقت زار باريت نيفادا لكي يحضر سجينا ، ومنـــــذ ذلك الحين ، وهو يحكي لاصدقائه ــ ربما علي سبيل المزاح ــ ان الشيء الذي يريده حقا في الحياة هو ان يكون مأمورا للبوليس في بلدة صغيرة هادئة في الغرب الامريكي • حيث الناس لم تتبلد احساساتهم بعد حيال الجريمة •• انه يستطيع انيذكر عنـــدما كان فتي دون العشرين في بروكلين وكان رجال البوليس يبدون دائما في أفضل حالة ، واكثر الناس احتراما في الحى ، اما الآن فان الرجل يأتي للانضمام الي قوة البوليس ، لانه مجرد عمل ، ولانه بدلا من ان يصبح نجارا او سباكا او شيئا آخر ، فانه يعتقد انه سوف يقضى ٢٠ عاما هينة ثم يستريح ويأخذ معاشا ••• اما اذا حصلت علي رجل طموح ، كثير المعرفة حقا ، فانه بعد فترة من اعتقال كل

مذنب ، سوف يجد انه يعيش في المحكمة ، وان الجراثيم هي التي تعيش في الشارع ، ومن ثم فانه سيبدأ عملية اختيار ، فلا يعتقل الا الاشرار حقا ، ويتجاهل الآخرين . وسيكتشف انه مع وجود المحاكم هناك ، فان الاشرار يزدادون حقوقا يوما بعد آخر ، وانه هو – رجل البوليس – علي خطأ !

وهكذا فان باريت يفكر في مناطق امريكا الاقل اهتماما بالمظاهر ، حيث « لايزال الناس يعرفون الفرق بين العسكر والحرامية » !

انه في أحد الفنادق الصغيرة المقامه علي جوانب الطرق العامة يتحدث الي المخبر الخاص بالفندق عندما يأتي نبأ بأن أحد النزلاء قد سرق ، ويتوجه باريت والمخبر الي الغرفة .. لقد دخل أحدهم الغرفة بينما كان شاغلها – وهو رجل اعمال من وايومنج – وزوجته وابنهما الصغير يقومون بجولة سياحية .. وقد اخذ اللص مبلغ دولارين و١٧ سنتا بالضبط!

وبينما كان باريت ومخبر الفندق يتجهان نحو المصعد ، قال المخبر في سخط : « ماذا في ذلك ؟ .. مجرد دولارين و١٧ سنتا ، وهو يريد ان يدعي ان هذه جريمة هامة تستدعي تدخل مكتب المباحث الفيدرالي ؟ »

ويقول باريت : « كلا .. انت مخطيء .. انه من وايومنج ، وقد دخل البعض غرفته ، وهذا ما يثير غضبه . وانا اؤيد ذلك تماما . لقد بدأنا نأخذ هذه الامور ببساطة « هل دخل البعض غرفتي ؟ .. لابأس » وكأنما نقول ضمنا ان هذا شيء عادي ! .. حسنا .. يجب الا يكون هذا شيئا عاديا . انني اؤيد الرجل القادم من وايومنج .. انه واحد من الاخيار ... ولم يبق لنا منهم كثيرون »



شذوذ !

قال احدهم لصديقه فى واشنطون :

– لقد أصبحت معتادا الشعور بالتوتر الى حد اننى عندما آكون هادئا ، تنتابنى حالة عصبية !



وسائل اخرى

قال الزوج لزوجته ، وهى تجرب ارتداء معطف ثمين من الفراء :

– بحق السماء ياروث .. ان هناك وسائل اخرى لمكافحة البرد !

أنا الملك



قصة حياة محمد علي



يبدو محمد علي وكأن كل ما يحيط به ويمت اليه يتسم بصيغة التفضيل العليا. رجل ينادي بنفسه انه "اجمل واعظم" بطل للملاكمة من الوزن الثقيل في العصور قاطبة. هذا هو محمد علي، الذي ولد باسم كاسيوس كلاي واصبح اشهر الملاكمين في تاريخ الرياضة، واقربهم الى القلوب، واكثرهم عرضة للكراهية، واكثرهم اثارة للجدل، وافذهم في جميع الفئات.

واما روبرت ليبسايت، فهو المحرر السابق لباب الرياضة في صحيفة "النيويورك تايمس"، وقد تابع خطوات محمد علي منذ انطلاق شهرته. وهو يعرض هنا السيرة الاسطورية بكل ما فيها من سعود الطالع ونحوسه، وما تحفل به من جد وهزل، ويصف لنا التناقضات المتعددة التي تتميز بها شخصيته المحببة والمثيرة في آن.

انا الملك

في ساعة السكون التي تسبق الفجر، تحت قمر افريقي متخافت غارب، وقف رجلان من الامريكيين السود وجها لوجه في بداية الفصل الختامي من مسرحية قاسية يراقبها الملايين في انحاء العالم. كان الرجل الاصغر سنا، وهو بطل العالم في الملاكمة من الوزن الثقيل، يحدق في خصمه بنظرة ثابتة من عينين تنضحان بالشر وتحملان نذر الالم والهلاك. غير ان الرجل الآخر الاكبر سنا والذي كان بطلا

بدوره، لم يظهر اي خوف، وقال بصوت هادىء خافت: "لقد كنت تسمع عني منذ حداثتك، وتتابعني منذ كنت صبيا صغيرا ٠ وها أنتذا الان امامي، في حضرة مولاك!"

كان الهواء مثقلا بما يحمل من رموز واساطير٠ والبلد كان اسمه الكونغو البلجيكي، يوم كان مسرحا للاستغلال الاستعماري، فأصبح اسمه الان زائير، بعد ان افتدى استقلاله بفترة دامية من الصراع الداخلي العنيف٠

وفي ذاك الصباح من يوم ٣٠ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٤ الذي اشرق على العاصمة كينشاسا، كانت حكومة زائير هي اول حكومة في التاريخ تنظم مباراة في بطولة الوزن الثقيل بالملاكمة، وقد ضمنت لكل من الملاكمين مبلغا لا يصدق مقدارهخمسة ملايين دولار٠

كان البطل جورج فورمان في الخامسة والعشرين من عمره، تكسو جسده عضلات بالغة القوة، وتبدو كتفاه كأنهما قذيفتا مدفع٠ وكان المفضل فينظر الجمهور، والتنبؤات تميل الى جانبه، لأنه منذ حصوله على الميداليةالذهبية الاولمبية فى ١٩٦٨، فاز في ٤٠ مباراة للملاكمين المحترفين، منها ٣٧ بالضربة القاضية، ولم يحدث ابدا ان استطاع ملاكم طرحه ارضا٠

غير ان المتحدي كان محمد علي، ذاك الذي يعود اليه الفضل في اخراج هذا المهرجان الذي وصفه هو نفسه بأنه "زئير في زائير"٠ وهو كان له من العمر ٣٣ عاما تقريبا، وقد جاوز عنفوانه وبدأ يذبل على مشارف الرحلة الى منتصف الحياة٠ ولم يكن قد اشتهر بعد بلكماته الساحقة المهلكة.

والان وهو يواجه منافسا تقوم شهرته على مثل تلك اللكمات، فكيف لمحمد علي - بحكم السن - ان يعتمد على موهبته الكبرى، اي سرعته التي تخطف الابصار٠

كان بين المشاهدين اولئك الذين يحبون محمد علي واولئك الذين يكرهونه، لكن الجميع كانوا متفقين في تنبؤهم بالنهاية نفسها لهذه المباراة٠ فالذين احبوه لقوة ايمانه الاسلامي ومؤاخاته لغير البيض في العالم اجمع كانوا يخشون ان ينكل به خصمه ويسحقه٠ وكان الذين يكرهونه لخروجه على المسيحية وعلى روح الوطنية الامريكية التقليدية، يأملون في ان يجيء انتصار فورمان عليه حاسما، ساحقا، كفيلا باسكاته الى الابد٠

وقبل ذلك بعشر سنين، كان الذين احبوه والذين كرهوه - لمجرد نزعته الى التفاخر الصاخب - قد اجمعوا ايضا على توقع نهايته، وكان ذلك في ليلة انتصاره على سوني ليستون وانتزاع البطولة منه٠ ولكنه لم يكن يومئذ سوى كاسيوس كلاي فحسب، وها هو قد اصبح منذ ذلك الحين اكثر الرياضيين اثارة للجدل وفتنة للجماهير في تاريخ الرياضة على اطلاقها وصاحب وجه من اوسع الوجوه شهرة في انحاء المعمورة٠ فهل حانت نهايته الآن؟ ام ان التنبوؤات قد اخطأت الحساب؟

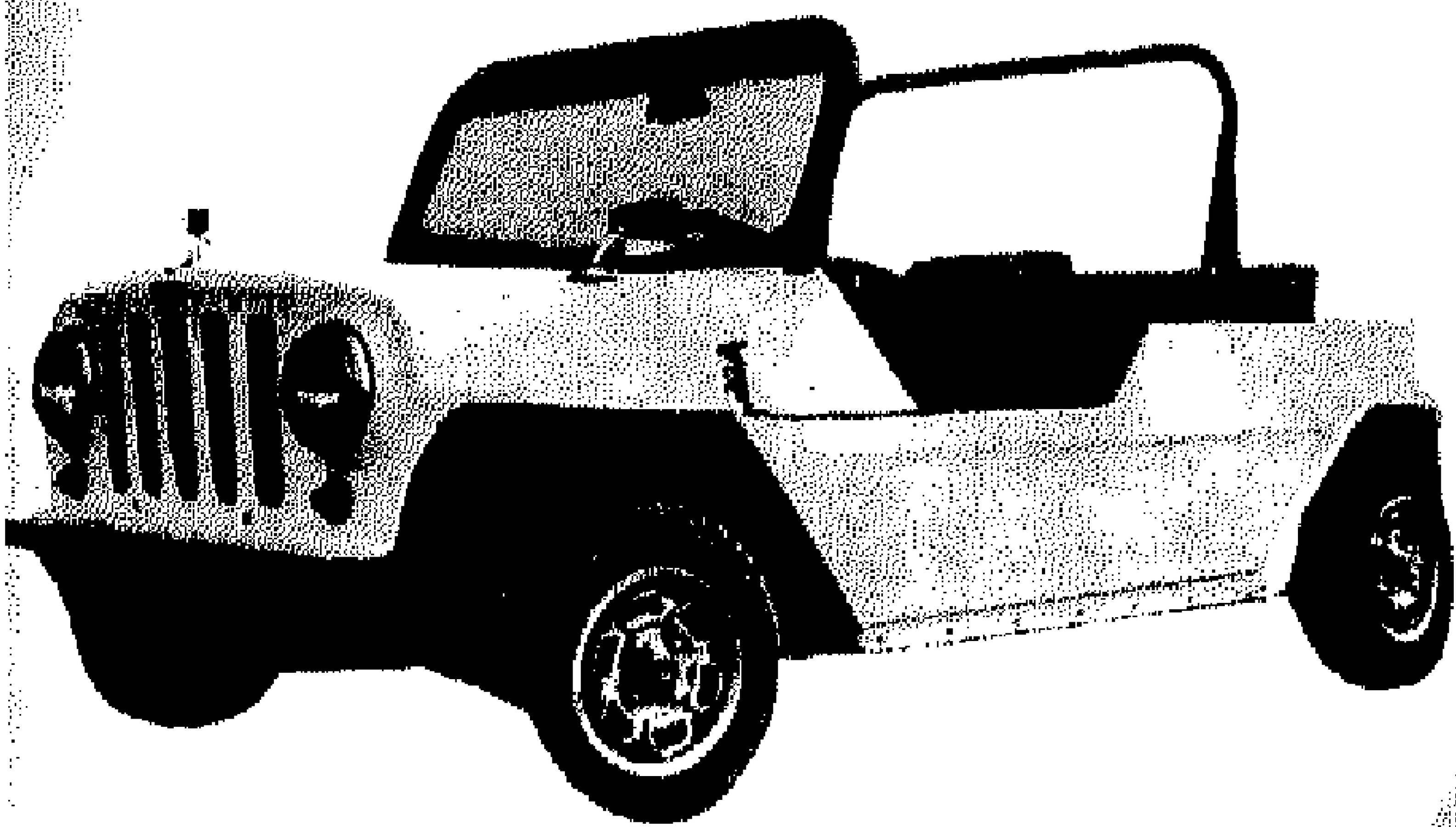
التكتيك الخطر

وما ان قرع الجرس حتى تقدم العملاقان الى وسط الحلبة٠ ومضت

رانجر ٤

شركة رانجر للسيارات
تقـدّم

★ السيارة
المبتكرة
الحديثة المصممة
لكافة الحاجات
والاستعمالات
★ أهم الأسباب
التي تجعلك تفكر
ثم تقرر اقتناء
رانجر ٤

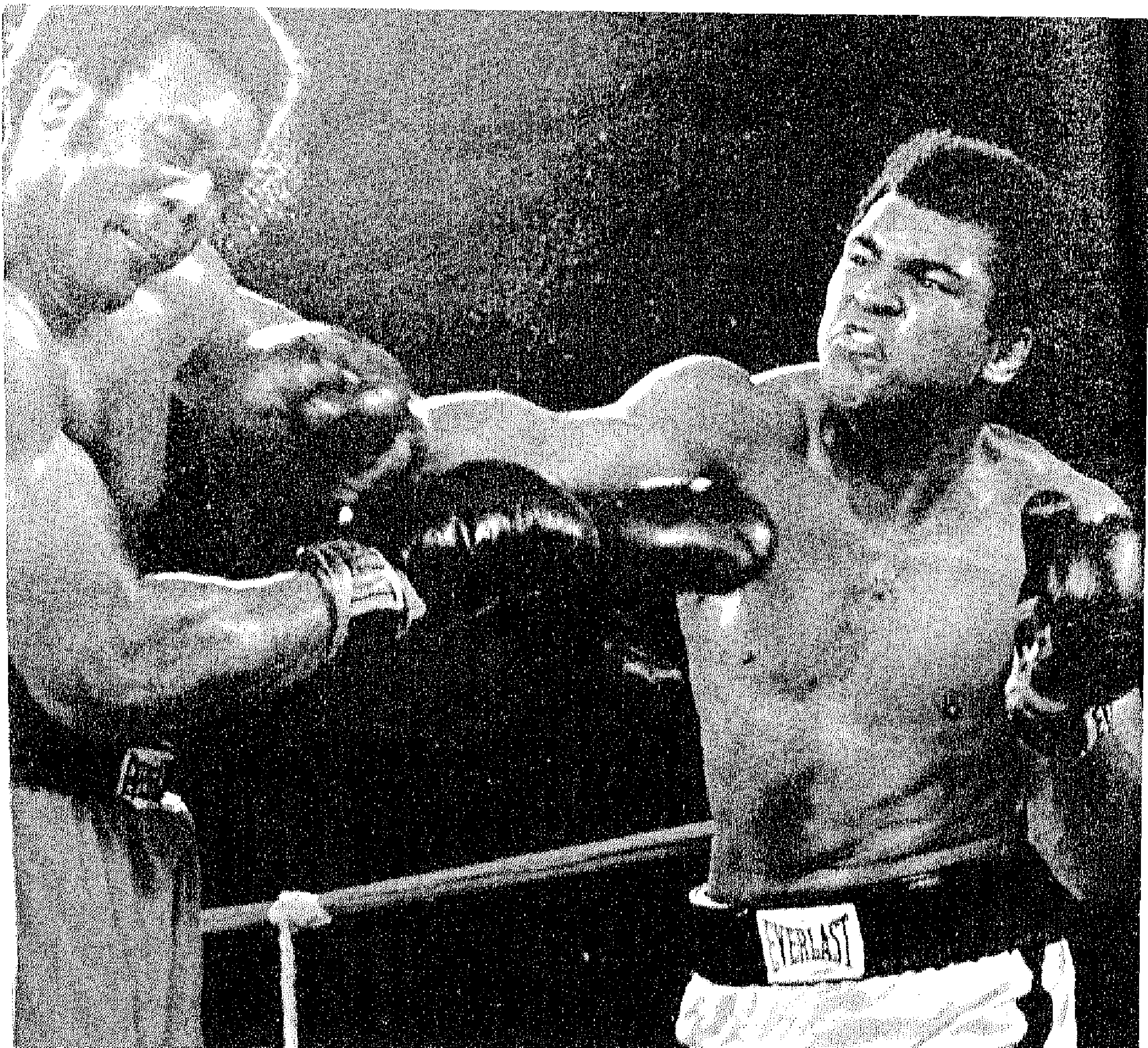


٣٠ ليتر بنزين لكل ٣١٠ كلم
قوتها ١٤ حصان ١١٠٠ س. س.

للمزيد من المعلومات اكتبوا إلى :
شركة رانجر للسيارات
وطى المصيطبة - كورنيش المزرعة - ص. ب ١١-٧٧١٣٠
بيروت - تلفون : ٣٠٢٠٧١ - ٣٠٨٤٧٤ - ٣١٩٨٣٨
TELEX: Zco 20324 LE
مطلوب وكلاء لجميع أنحاء العالم
والبلاد العربية وافريقيا

RANGER4

حاليًا في الأسواق



خلال مباراة البطولة في كينشاسا، زائير، محمد علي يقذف فك جورج فورمان بيمنى صاعقة.

هنيهة وهما يدوران حول بعضهما بحذر، ثم لم يلبث محمد علي ان اطلق هجومه الاول: مجموعة من ضربات يسرى خطافية قوية ويمنى لاحقة صوبهما الى رأس فورمان فأصابه. واندفع فورمان الى الامام هائجاً، فالتحم به محمد علي وطوق رقبته ودفع رأسه الى اسفل. ولم يسبق لاحد ابدا ان ضرب فورمان بهذه الشدة او في مثل هذه اللحظة المبكرة من

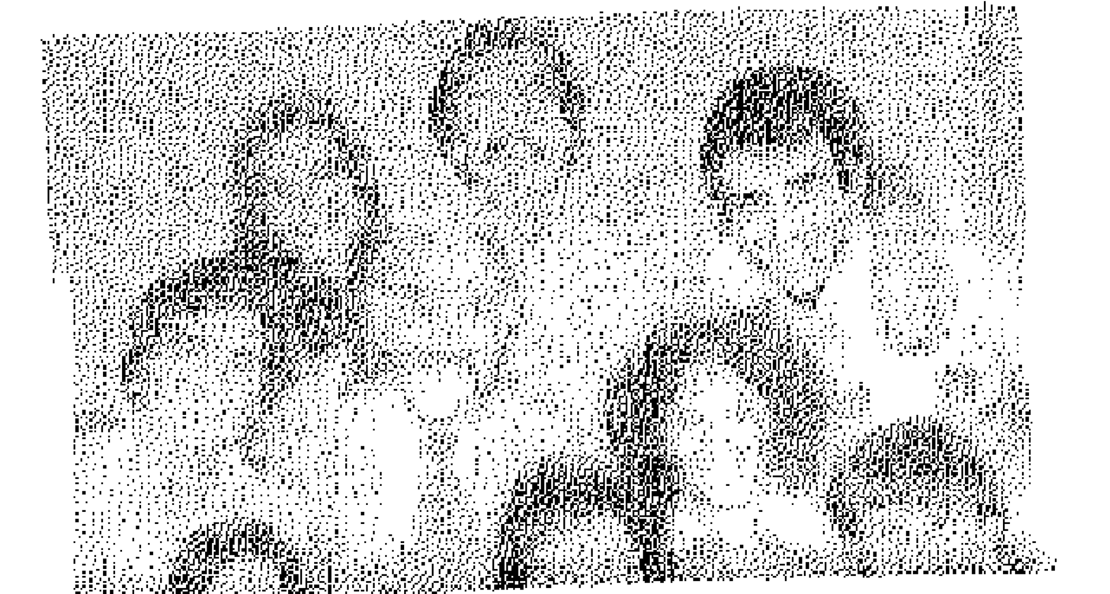
المباراة، ولم يحدث ابدا ان تجاسر احد على اختبار قوته بالتلاحم معه.

وفي هذه الجولة الاولى تمكن فورمان بعد قليل من دفع محمد علي الى الحبال بجانب الحلبة، وراح يدقه بقبضتيه. لكن محمد علي تمكن بسهولة من اخماد حدة الهجوم، بأن جعل اقوى ضربات فورمان تنزلق على ذراعيه وكتفيه. بينما راح خبراء الرياضة القابعون الى جانب الحلبة

ما عليك إلّا أن توجّه الكاميرا وتضغط الزرّ، أما الباقي فتقوم به بولارويد ١٠٠٠ الجديدة.



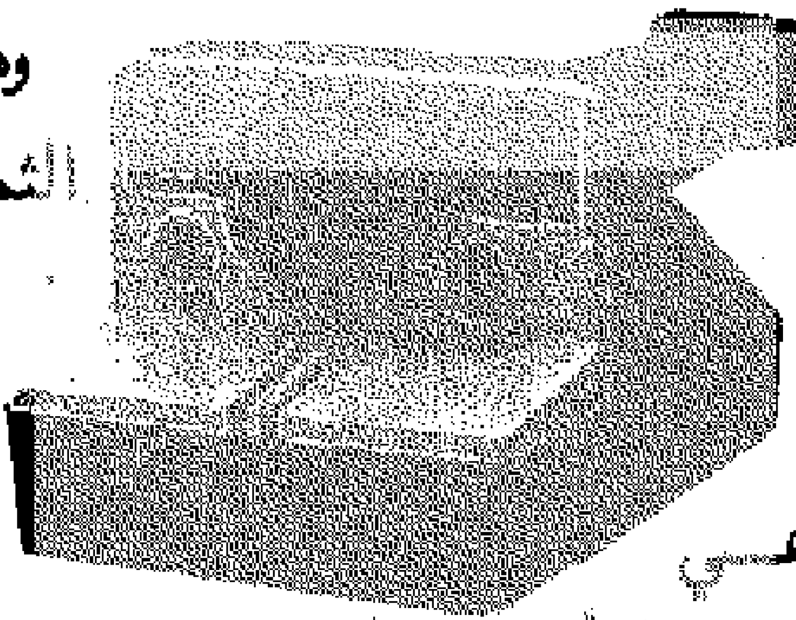






كاميرا بولارويد ١٠٠٠ الجديدة للصور الفورية تضع في يدك حالاً صورة ملوّنة من نوع إس إكس ـ ٧٠. شاهدها وهي تتبلوّر أمام عينيك.

لا داعي لضبط فتحات العدسة أو سرعة الحجاب لا داعي للتركيز. لا داعي ضبط المسافة. لا داعي لضبط أي شيء أو العبث بأي شيء قبل أو بعد أن تلتقط الصورة. ما عليك إلاّ أن توجّه بولارويد ١٠٠٠ نحو الهدف وتضغط الزر. العين الكهربائية تتحكّم أوتوماتيكياً في مدّة التعرّض بالفلاش أو في ضوء النهار، فتخرج صورة زاهية الألوان من نوع إس. إكس ـ ٧٠ [...] ثوانٍ، بفعل موتور يعمل ببطّارية تر[...] داخل كل علبة فيلم.



وهناك مفاجأة سارة أخر[...] الثمن متهاود جداً بحيث [...] يبدو مستحيلاً. وهذه المنفعة التي تجنيها أنت [...] خبرة بولارويد الواس[...]

تفضل بزيارة أقرب محل اللوازم الفوتوغرافية اليوم.

بولارويد
٣٠ عاماً في طليعة التصوير الفوري

بولارويد و إس إكس ـ ٧٠ علامتان تجاريتان لمؤسسة بولارويد، كامبردج، ماساتشوستس، بالولايات المتحدة الامريكية. الحقوق محفوظة لبولارويد

يغمغمون مذعورين: ان محمد علي لا يرقص بل يتمايل من جانب الى آخر فحسب، ويصوب ضربات يمينية، وهذا تكتيك خطر ازاء ملاكم ضرّاب مثل فورمان، لأنه يعرضه للهجمات المضادة، ويسمح محمد علي لفورمان بأن يدفعه الى الحبال، ويثخنه ضربا لعله بذلك يستنفد قوة الضرب لدى فورمان. ولكن محمد علي اكبر من فورمان بسبع سنوات، وبالتالي كان من غير المحتمل ان ينجح مثل هذا التكتيك.

ولكن طرقات قبضتي فورمان كانت تنزل على ذراعي محمد علي وكتفيه من دون ان تنال الاجزاء الحيوية من جسمه، كما انه اتخذ من حبال الحلبة التي كان يستند اليها وسادة تمتص الصدمات وتلطف وقعها. وكان فورمان ملاكما آليا مهيأ لتسديد ضربات متواصلة الى خصم راقص، فاذا به في حضرة خصم يتلقى الضربات ولا يبدو اطلاقا انه ينوي التهرب منها. ولم يعتم الامر حتى انبرى محمد علي للرد على الضربات بمثلها، وبسرعة تفوق سرعة فورمان، ويوسعه تأنيبا مهينا ساخرا، بقوله: "انك لست سوى هاو يا جورج. هيا، ارني شيئا منك له قيمته".

وعندما حلت الجولة الخامسة، كان وجه فورمان مليئا بالاورام وكانت ساقاه مثقلتين بطيئتين، ونال منه الجهد حدا اصبح لا بد معه من بذل كل ما في وسعه: راح يقذف وجه محمد علي وبطنه بضربات يمينه الطارقة وشماله الخطافية، حتى أوشك بدنه الهائل على الانفجار من فرط الجهد. مئة ضربة تقريبا، وكان ذلك اقصى ما يقوى عليه.

ولكن محمد علي ظل صامدا، ثابتا على قدميه كالطود.

وهبت جماهير المتفرجين وقوفا وهي تهدر: "علي، بومايي!" ("اجهز عليه يا علي!"). وسرعان ما تحركت يدا محمد علي وانطلقتا بضربات تخطف البصر، فأصاب خصمه بأثنتي عشرة لكمة صاعقة، انهاها بيمين عرضية كادت ان تطوح رأس فورمان هنا وهناك.

وجاءت النهاية فجأة في الجولة الثامنة. ويقدر البعض ان تلك الضربة الختامية الحاسمة كانت اروع لكمة واقوىها وجهه محمد علي في حياته كلها، فقد كانت يمينا ساحقة كأنها مطرقة هائلة انهطلت بثماني لكمات عنيفة على فورمان، فانحنى من شدة وقعها الى الامام، وانطرح متكوما على حلبة الملاكمة. فاستعاد محمد علي عرشه، وهو ما لم يفلح به قبله سوى رجل واحد.

ومشى محمد علي الى حافة الحلبة ونظر الى اسفل حيث يجلس الصحافيون ورجال التلفزيون والمعلقون الاذاعيون. وكان هؤلاء من المخضرمين الذين عرفوه جيدا ولم يعودوا يتوقعون منه ذلك التواضع التقليدي الذي يتحلى به الرياضي الظافر.

وصاح فيهم محمد علي: "ألم اقل لكم؟ ها انذا قد قرنت القول بالفعل. لقد قلت اني اعظم ملاكمي الوزن الثقيل في التاريخ كله، فهل سمعتم؟"

شيء جديد بالاهتمام

صبي ناحل في الثانية عشرة من

عمره، يقف تحت المطر عند ناصية شارع في مدينة لويزفيل في ولاية كنتكي، وهو يصرخ باكيا، وقد ضم بعنف قبضتيه الملوثتين بالدهن من اثر الفشار (حب الذرة المشوي) الذي كان يوزع مجانا في معرض صناعي محلي. وقد اغراه المعرض- والفشار- واجتذباه الى وسط المدينة. مغفل! فبينما هو مستغرق في اشباع شراهته الى الفشار، اختفت دراجته الحمراء التي يبلغ ثمنها ٦٠ دولارا. وها هو يركض هنا وهناك في جميع الاتجاهات ويحدق في غبش الغروب باحثا عنها، ولكنها تبخرت... فراح يتساءل مستغربا: كيف يبلغ بك الاهمال هذه الدرجة، يا كاسيوس كلاي؟

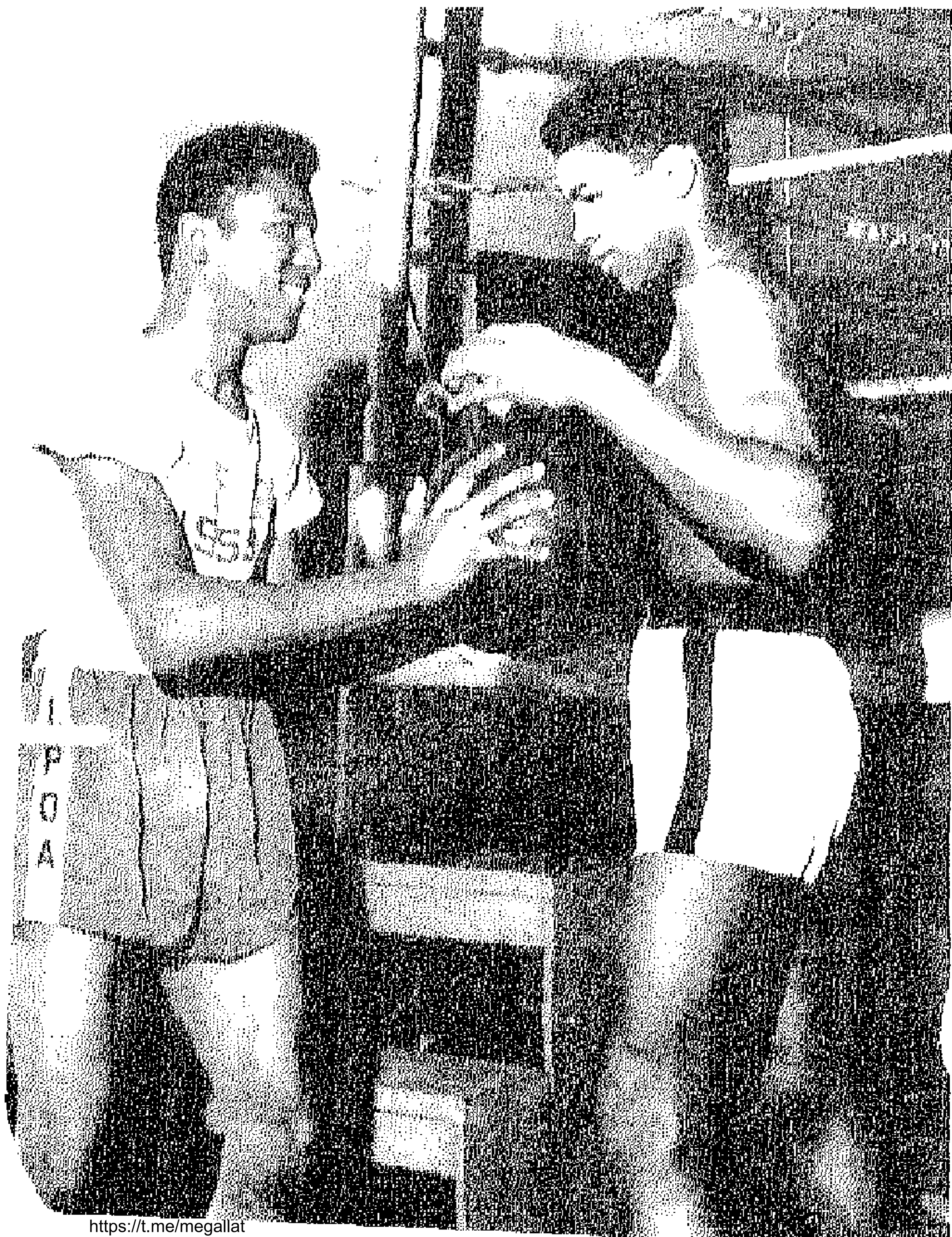
ويوقف الصبي احد المارة: "هل رأيت دراجة حمراء؟" فيهز الرجل رأسه نفيا، ويقترح عليه ان يتجه الى الدور التحتي من مبنى قريب: "هناك ستجد شرطيا اسمه جو مارتن، قد يمكنه ان يساعدك"

ويسرع الصبي الى هبوط الدرج، ويندفع من باب امامه ليجد نفسه وسط نادي كولومبيا الرياضي، فتنحبس انفاسه دهشة لما فاجأه من الانفجارات الحركية والصوتية: فهناك في احد الجوانب، زمرة تضم عشرة فتيان، من السود والبيض، يثبون ويتلولبون، والاجراس تدق، والحبال تطقطق في التطامها بعضها ببعض وتختلط بصرير اخشاب الارض، والقبضات ذات القفازات ترتطم بكيس جلدي ثقيل محدثة صوتا مكتوما. وكان في الحلبة شخص يلاكم ملاكمة وهمية ويرسل الضربات بسرعة يعجز كاسيوس عن ملاحقتها بعينيه، وتعلو الاصوات، يتخللها ايقاع على كرة اللكم السريع شبيه بايقاع طلقات المدفع الرشاش "توك توك تاك، توك توك تاك".

ويجمد كاسيوس وكأنه مسحور، فتنقضي دقائق قبل ان يبحث عن جو مارتن ويعثر عليه، ويقول له: "لقد سرق احدهم دراجتي، وعندما اجده سأضربه ضربا مبرحا".

ويهز مارتن رأسه بصبر. وعلى الرغم من انه ليس في نوبة عمله، الا انه يكتب تقريرا عن الحادث، ثم يفحص الصبي بعينيه، ويسأله: "هل

في الثامنة عشرة، كاسيوس كلاي (الى اليمين) يتدرب في نادي كولومبيا مع شقيقه رحمن (١٦ سنة) قبل دورة ١٩٦٠ الاولمبية.



تعرف كيف تلاكم؟"
- كلا، ولكني سأقاتله وأضربه ضربا شديدا و...
- ولماذا لا تأتي هنا وتبدأ التدرب؟ فنحن ندرب على الملاكمة كل مساء من السادسة حتى الثامنة.

ثم يعطي مارتن كاسيوس طلب التحاق، يدسه الصبي في جيب خلفي.

ولم يوفق كاسيوس الى استعادة الدراجة الضائعة. ولم تكن الستون دولارا بالامر الهيّن لدى عائلة كلاي، فأبوه كاسيوس مارسيلوس كلاي كان يعول زوجته وابنيه من عمله كدهان للافتات. وهو وان كان قد تمكن من شراء بيته الخاص، الا انه لم يكن لديه ما يكفيمن المال. كان رجلا ذلق اللسان، وسيم الصورة، وله مطامح فنية تفوق حدود عمله. وكان يحس بالهوان لاضطرار زوجته الى العمل في تنظيف البيوت في مقابل اربعة دولارات في اليوم تساعدها على سداد تكاليف الاسرة.

واحس كاسيوس الصغير بفداحة غفلته، فظل حبيس منزله وهو منكس الرأس خلال الايام التالية. وفي يوم السبت جلس يشاهد برنامجا تلفزيونيا محليا عن هواة الملاكمين، فلاحظ وجود ذلك الشرطي، جو مارتن، في ركن الحلبة وهو يعاون احد الملاكمين. عندئذ وثب كاسيوس الصغير من مقعده وصاح يخاطب امه: "هل رأيت قصاصة من الورق في جيب بنطلوني؟"

كانت اوديسا غرادي كلاي امرأة جميلة، تفيض حبا لبكرها. فهزت رأسها ايجابا عن سؤاله اذ انها كانت قد انتزعت الورقة من جيبه وحرصت على وضعها جانبا قبل ان تغسل بنطلونه. وفي مساء الاثنين، عاد كاسيوس الصغير الى نادي كولومبيا الرياضي.

كان جو مارتن، شرطي المرور الابيض، رجلا تنازل عن كل الترقيات في سلك شرطة المرور، ليتفرغ بكليته لحبه الاول والاخير: الملاكمة، منصرفا بحماسة في نادي كولومبيا الرياضي الى الاهتمام بالفتيان المتدربين، وباخراج البرنامج التلفزيوني عن الملاكمين الهواة بعنوان "بطل الغد"، الذي شاهد كاسيوس عرضه على الشاشة في منزله والذي كان يتيح لمارتن ان يقدم الى كل من الفتيان الفقراء اربعة دولارات عن كل مباراة يقوم بها وتذاع في البرنامج، فضلا عن الشهرة الفورية التي ينالها الملاكم الفتى نتيجة لذلك.

وكان كاسيوس في الثانية عشرة من عمره، فتدرب طيلة ثلاثة اشهر تأهبا لاول مباراة تذاع له بالتلفزيون. وكان استعداده لها تمهيدا لذلك النوع من "الترويج الذاتي" الذي تميزت به في ما بعد مبارياته الاسطورية ذات الملايين من الدولارات لنيل البطولة. فهو استمر على مدى اسبوع قبل المباراة التلفزيونية يطوف بأنحاء مدينة لويزفيل ويطرق الابواب، ويستوقف الغرباء معلنا بقوة:"انا كاسيوس كلاي، وسيذيع التلفزيون مباراتي في الملاكمة، فآمل ان

فافرلوبا

ساعة فافرلوبا قلب سويسرا النابض.



FAVRE-LEUBA
Genève
"FLATLINE QUARTZ"

تشاهدوني". فاذا لم يغلق الباب في وجهه، واصل كاسيوس حديثه ليحدد تاريخ المباراة وموعدها والقناة التي ستذيعها، مضيفا تنبؤه لنفسه بالفوز.

وبعد ذلك بسنوات، عندما فاز كلاي ببطولة الوزن الثقيل، اعترف جو مارتن بان كاسيوس الصغير كان المؤمن الوحيد، منذ البداية، بتمكنه من ان يصير يوما ملاكما عظيما. ويقول مارتن: "كان كاسيوس مجرد ولد عادي، طلق اللسان، ولكنه كان يجهد اكثر من اي واحد من مئات الفتيان الاخرين الذين دربتهم، وكان يأبى الاستسلام لليأس او ضعف الامل، وكان يبدو بوضوح انه مستعد للقيام بأي شيء يرفعه الى القمة".

صيف في روما

كانت لكاسيوس موهبة ارضاء الجماهير، على الرغم من فجاجة اسلوبه، وسرعان ما اصبح يظهر بانتظام في برنامج التلفزيون، وذاعت شهرته في حيه، فهابه افراد العصابات وتغافل المدرسون عن ضعف جهده المدرسي، بل- وهو الاهم- بدأ يكتسب تقدير افراد عائلة ابيه الكبيرة البارعة، والمليئة بالمدرسين والموسيقيين والحرفيين واصحاب الاعمال. وقد نفى محمد علي بغضب في ما بعد، ما قيل عن نشأته بأنه ينتمي الى "الطبقة المتوسطة" وحكى قصصا عن الملابس المستعملة وقلة الوجبات بسبب نقص النقود في البيت، ومما لا نزاع فيه

كلاي في لقاء مع تسعة من اصحاب الملايين العشرة في لويزفيل الذين تولوا رعايته في سنواته الأولى في عالم الملاكمة.



انه كان يتمتع في حضن اسرته بالدعم المعنوي والامان الذي يوفره تماسك الاسرة، وبذلك التوجيه نحو الهدف المنشود الذي تميزت به عائلة كلاي والذي تفتقر اليه الاسر التي يرهقها العوز.

وفي عامه الاول في ساحة الملاكمة، مني كاسيوس بهزيمة قوية في دورة محلية للفوز "بالقفاز الذهبي" انزلها به ملاكم يدربه رجل اسود يدعى فريد ستونر، يدير حلبة رياضية صغيرة في مركز اجتماعي في سموك تاون، افقر الاحياء الثلاثة التي يسكنها السود في لويزفيل. وفي اليوم التالي جاء كاسيوس الى حلبة ستونر وسأله: "هل شاهدتني في التلفزيون؟" فقال ستونر: "انت تملك الشجاعة والارادة، وانما تنقصك المهارة. ونحن ندرب هنا من الثامنة مساء حتى منتصف الليل. واذا تمكنت من الحضور فسأعلمك كيف تلاكم". وبذلك تقرر نمط حياة المراهق كاسيوس، فراح يستيقظ في الخامسة صباحا ليمارس العدو في منتزه المدينة، ثم يسابق الاوتوبيس ركضا حتى يصل الى المدرسة على بعد كيلومترين تقريبا، ثم يجلس في المدرسة يغالب النعاس حتى موعد الغداء فيعود الى العدو مرة اخرى. وكان يقضي اوقات ما بعد الظهر وعطلات نهاية الاسبوع في السعي الى كسب مصروفه الشخصي بالعمل في تشذيب الحدائق الخاصة وتنظيف الارض في مدرسة كاثوليكية. وما زالت الراهبات يتذكرن تدريباته على الملاكمة امام زجاج دواليب الكتب في المكتبة. وفي العشية كان يتدرب مع جو مارتن، وكثيرا ما كان يذهب في الليل بعد ذلك، ليواصل التدرب مع ستونر.

وامتلأ جسده الناحل وكسته العضلات، وانصبت حيويته وسرعته الطبيعيتان في لكماته السريعة كالبرق وحركات قدميه التي تخطف البصر، يساعده عقل رشيق لم ينهكه التعليم التقليدي، فراح يتغذى على دراسة الملاكمة. وكان يرتاد حلبات الرياضة ليراقب الملاكمين الآخرين، ويحملق في صور الابطال السابقين، ويستثير المدربين والمديرين والملاكمين السابقين ويستدرجهم الى ابداء النصح ويبادلهم الهذر.

وقد حفظته الملاكمة قويا صحيح البنية، وابعدته عن التسكع في الشوارع واسبغت عليه احتراما اجتماعيا وأكسبته ميزات وفرضت عليه انضباطا خلقيا وبدنيا وعقليا تسنى له معه ان يتجنب المتاعب والاغراءات. كما تجنب المخدرات والخمور والنساء ومشاجرات العصابات وبقية المزالق في الاحياء الفقيرة، بمجرد ان يقول لنفسه ببساطة: "انني اتدرب كي اصبح البطل".

ولا نزاع في انه كان ذاك البطل. فمنذ الثانية عشرة من عمره حتى الثامنة عشرة، وضع كاسيوس نصب عينيه هدفا: ان يصبح ابرع الملاكمين الهواة في العالم. فلاكم طيلة ست سنوات في أكثر من مئة مباراة للهواة ولم يخسر منها سوى النزر القليل الذي يعد على الاصابع.

وفي صيف عام ١٩٦٠، في دورة الالعاب الاولمبية في روما، برز

كاسيوس كلاي الى العالم. كانت امريكا تترنح على حافة عقد تملأه الاضطرابات. فهناك نذر القلاقل العنصرية وارتفاع ميزان الحرب الباردة وتتأجج المشاعر المضادة لامريكا في البلاد النامية، في آسيا وافريقيا. وها هوذا، فجأة، زنجي ضخم وشاب وسيم، مليء بالحيوية والحماسة، لا يكاد يفوز بسهولة تثير العجب، بالميدالية الذهبية للملاكمة في وزن الخفيف الثقيل، حتى يتخلص من اسئلة صحافي سوفييتي عن التفرقة العنصرية في امريكا بقوله: "ابلغ قراءك ان لدينا رجالا اكفياء يعالجون هذه المسألة وانني لست قلقا على النتيجة. وان الولايات المتحدة، في نظري، لا تزال افضل بلاد العالم، بما في ذلك بلادك انت".

وعاد كاسيوس الى بلدته لويزفيل حيث لقي استقبال الابطال... بما في ذلك من مواكب وولائم ومصافحات من رئيس الشرطة ومفتاح من عمدة المدينة وخبطة ودودة على ظهره من حاكم ولاية كنتكي الذي قال له: "يا غلام، اعرف انك فخور بأسم "كاسيوس كلاي"، واعرف انك فخور بأن تحمله". وتدفقت عروض التعاقد من كل صوب. ووقع آل كلاي اخيرا على عقد مع مجموعة من اعيان لويزفيل، عشرة من اصحاب الملايين قدم كل منهم الف دولار، وضمنوا تكاليف التدريب كاملة لمدة ست سنوات، نظير حصولهم على النصف من كل دولار يكسبه كاسيوس. وكانت تلك صفقة جيدة لكاسيوس في ذلك الحين، حيث سادت اريستوقراطية المشروبات والتبغ في كنتكي، وها هي تدعمه بما يبعث على الاطمئنان. الا انه كان يدرك على الرغم من ذلك، ان اصحاب الملايين هؤلاء يعتبرونه وكأنه من "الممتلكات الرياضية"، مثل جيادهم الاصيلة وسياراتهم الاجنبية. وقد ازعجه بعض الشيء ما قالته الصحف عن اصحاب الملايين هؤلاء بأنهم الملائكة الحارسة لفتى اسود فقير بلا حيلة، وما سمعه عن ردة فعل الجمهور، من فم قسيس اسود قال في عظته يوم احد: "لكم يجدر بكاسيوس ان يشعر بالامتنان الابدي لما يفعله اولئك المسيحيون الطيبون اصحاب الملايين من اجل روحه السوداء".

"غلباوي" لويزفيل

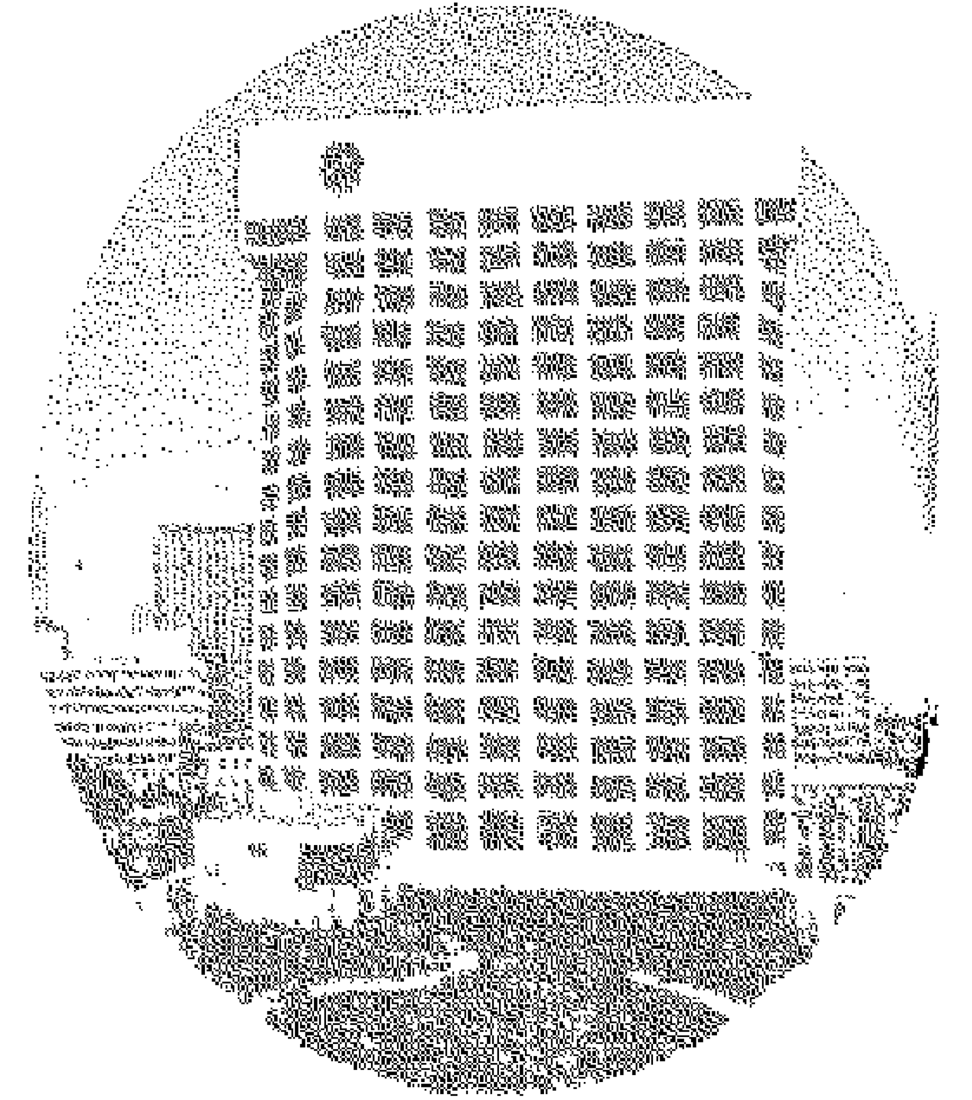
في ٢٩ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٠، فاز كاسيوس كلاي بأولى مبارياته كمحترف، وكانت الحصيلة ٢٠٠٠ دولار، اي ما يكاد يعادل كل ما كسبه بعدئذ في مبارياته الاربع التالية جميعها.

وانتقل كاسيوس الى ميامي بيتش لاتقان حرفته. وكان في وسع جماعة لويزفيل ان تنفق على افضل المعلمين،فأختارت انجيلو داندي. وكان ذلك اختيارا حكيما. وقد غير كلاي في السنوات التالية اسمه، وديانته ومدير اعماله ومتعهديه وزوجاته. لكن ذلك الايطالي- الامريكي القصير القامة من فيلادلفيا، ذا العينين الكئيبتين واللسان اللاذع، كان دائما ظلا الى جانبه، يعرف كيف يوجهه. ويقول انجيلو: "هذا نوع جديد من البشر، بل انه حالة خاصة لا تتقبل الاوامر، كما

حديقة اوتيل نيو اوتاني - طوكيو.

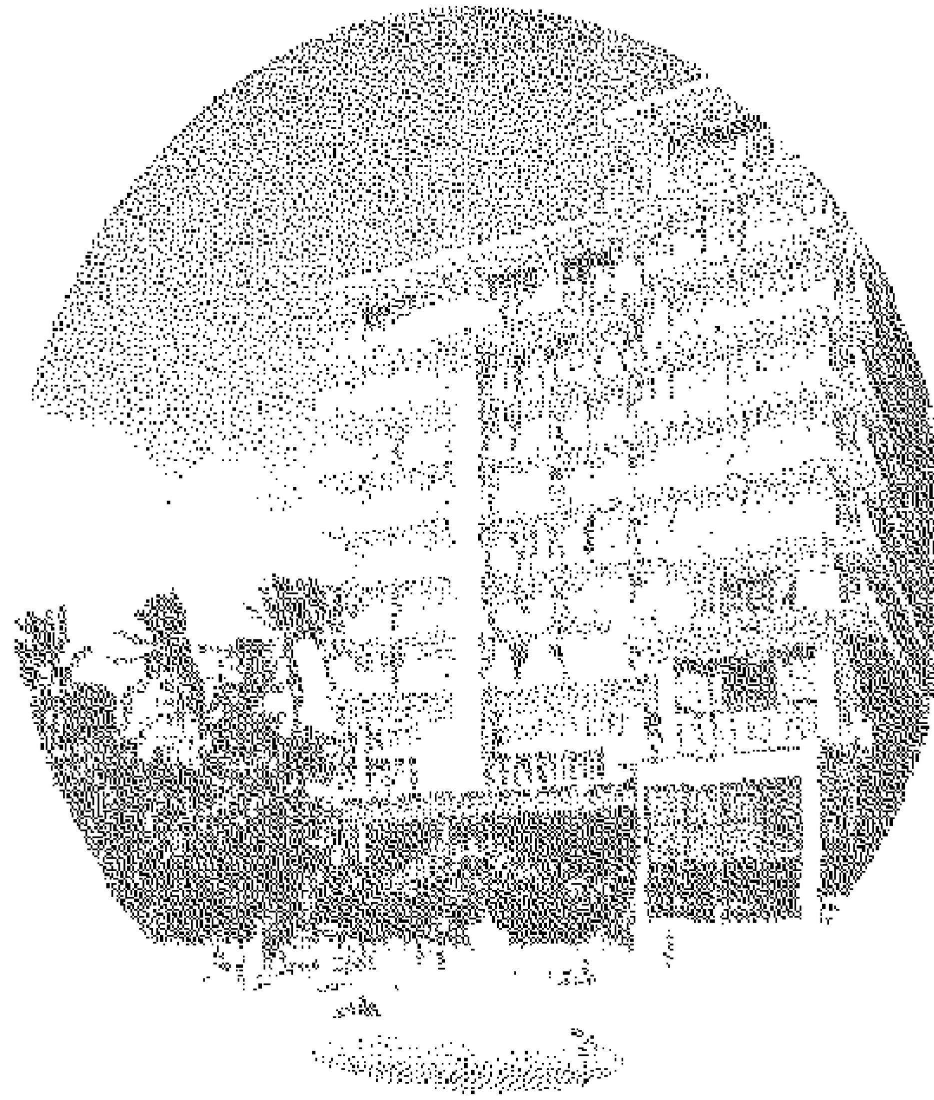
اوتاني الجديد انيق وفسيح

لوس انجلس



نيو اوتاني اوتيل
هاتف (٢١٣) ١٢٠٠ - ٦٢٩

هاواي



نيو اوتاني كيمانابيتش اوتيل
هاتف (٨٠٨) ١٥٥٥ - ٩٢٣

عندما تقوم برحلتك المقبلة الى منطقة المحيط الهادىء - طوكيو، هاواي او لوس انجلس، جرّب الاوتاني الجديد. انه عالم انيق رحيب.

أوتاني الجديد

موضع اختيارك الطبيعي

للحجز والمعلومات:
لندن: ٤٩ ٤٦ ٣٧٤ - ٠١ ■ طوكيو: ١١١١٢٦٥ - ٠٣ ■ هونغ كونغ: ٦٨٧٨٧٨٠٢ - ٣ ■ سنغافورة: ٢٣٥٧٢٤٢

انه لا يحب الصراخ في وجهه وهو يتدرب، فعليك ان تستعين بقوة الايحاء. فأنا اقول له مثلا: "ما كان ابدع ضربات يسراك القاطعة اليوم، بينما هو لم يوجه ضربة واحدة من هذا النوع في يومه، ولكنه كان يفعل ذلك في اليوم التالي".

وقد كان التوافق متبادلا بينهما، فيقول كلاي عن داندي: "ليست بيني وبين انجيلو قضية سيطرة ورئاسة، فنحن نناقش الامور بالعقل والمنطق، ونستمتع بصحبة احدنا الاخر، بالاضافة الى ان هناك طائفة من الاماكن يستطيع انجيلو ان يصحبني اليها". ثم يغمز بعينه ويدق بأصبعه على جسم انجيلو الاسمر، ويقول: "لانه نصف ملون".

وقد حرص انجيلو على ان يتجنب اي تدخل في حياة كلاي الخاصة. ولعله كان من البيض الاوائل الذين علموا بأن الملاكم الشاب يحضر اجتماعات طائفة السود الانفصاليين المدعوة "امة الاسلام المفتقدة المستعادة"، لكنه تجنب الاسئلة في هذا الصدد، ولم يفاتح كلاي في الامر بكلمة واحدة.

وكانت مهمته تنحصر خصوصا في تكييف جسم كلاي، وصقل اسلوبه في الملاكمة، والمحافظة عليه في احسن حالة معنوية.

وكان العمل ممتعا في السنوات الاولى. فكثيرا ما كان يشكو المدربون من ان اصعب الامور في مهمتهم هو ايقاظ ملاكميهم في الصباح الباكر واخراجهم للعدو قبل الفجر، واغراؤهم بالتدرب حتى النهك ثم اعادتهم الى النوم مبكرا وفي وحدة تامة. لكن كاسيوس كان يحب العدو والتدرب وتكييف جسده على خير وجه. وكان اعتزازه بجسده يكاد يبلغ حد الافتتان النرجسي وكان لا يكاد يرى عضلة قد لانت قليلا في جسمه حتى يندفع مسعورا الى التمارين الجمبازية كي يتدارك الامر.

وخارج حلبة الرياضة، وعلى كثرة احاديثه عن "الثعيلبات" - وهو الاسم الذي يطلقه على الفتيات الجميلات - لم يكن كلاي من المسرفين في السهر واللهو. ويقول احد اصدقائه القريبين: "كان كلاي خجولا دائما مع الفتيات، وسواء صدقت او لم تصدق، فان لسانه ينعقد ارتباكا عندما يحاول طلب موعد من فتاة".

ولكن كلاي كان دائما، ولا يزال، مرتاحا، رخي البال مع الاطفال، وهو يقول: "ان الفرق الوحيد بيني وبين زمّار الاطفال هو انه ليس للزمار سيارة كاديلاك".

هذا الرجل الودود الرقيق الحاشية الذي يحترم كبار السن، يبدو في الحياة الخاصة نقيضا صارخا لكاسيوس المولول المتفاخر كما يبدو للجماهير. كاسيوس عفريت الدعاية، الذي كتب ذات مرة: "انا؟ ما اروعني" ثم اضاف: "وانني لشديد التواضع".

وكانت هناك تناقضات اخرى برزت في اوائل الستينات، ولا تزال عالقة بشخصيته. فعلى الرغم من الوحشية البربرية التي تسود حلبة ملاكمة المحترفين، كان كلاي شديد الحساسية ازاء العنف، قلما يسحق خصما مصابا بجروح (والنقاد يسمون ذلك افتقارا الى "غريزة الفتك")،

الطريقة فيليبس الفريدة للحلاقة - لا يوجد لها مثيل



ماكينة حلاقة
فيليبس :
خطوة أخرى نحو
حلاقة مثلى

فيليبس الأفضل لكم دوماً



وقلما يسعى الى الضربات القاضية التي تؤذي المخ بتركيز الضربات الثقيلة على رأس الخصم. ولا ينحصر سبب هذا السلوك في العاطفة الانسانية الخالصة اذ ان كلاي لا يحب ان يتلقى بدوره ضربات مؤذية. وعندما اخبره احد الصحافيين ان من الامور العاديةان يفقد لاعبو الهوكي بعض اسنانهم في المباريات، ارتعد اشمئزازا وقال: "لماذا يفعلون ذلك؟ ان الالعاب لا تستمر الا فترة محدودة، اما وجهك واسنانك فتلازمك طوال العمر".

وفي خلال عامين، بعد اول مباراة احترافية له، سجل كلاي ١٦ انتصارا متواليا من دون انقطاع. ولئن كان المشككون لا يزالون يرتابون في موهبته بالملاكمة فلم يكن هناك ادنى شك في موهبته بالدعاية لنفسه، فقد جعل كاسيوس من نفسه احدى معجزات شبابيك التذاكر واجتذاب المتفرجين بما كان ينظمه من مقطوعات لا نهاية لهامن الشعر الهزلي:

"احكي لكم عن رجل بلا بديل
قبضته خارقة ولون بشرته جميل
وهو كثير اللغو في فخاره الطويل
لكن بطش يده ليس له مثيل".

وكان كاسيوس ايضا يفتقر على نحو لا يصدق الى التواضع الرياضي التقليدي: "انا جميل. جميـ يـ يـ يل. انا نظيف متألق، وسأكون بطلا نظيفا متألقا".

اضف الى ذلك تنبوءاته الغريبة الخارقة للطبيعة:

"لقد عاش آرشي طويلا طويلا
على خير هذا البلد
وها قد اتيت لاعطيه
امر اعتزال من الآن حتى الأبد.
فان جئتم للمباراة
لا تغلقوا الباب قبل الاوان
فمن بعد رابع جولاتنا
لن تكون له قدمان".

وبالفعل، فقد اجهز كلاي، بالضربة القاضية، وفي الجولة الرابعة نفسها كما تنبأ في شعره الهزلي، على البطل السابق آرشي مور عندما نازله في مباراته الاحترافية السادسة عشرة، في ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٢، ومنذ تلك اللحظة اصبح كلاي اعز الرياضيين في عالم الملاكمة. وكان ذلك انسب الاوقات لبروز "غلباوي" لويزفيل، كما كان يسميه كتاب الرياضة بعد ان وصلت الملاكمة الى وضع يرثى له اكثر من أي وقت مضى.

البطل

تختلف الملاكمة عن بقية الرياضات الكبرى في امريكا، في انها لم تكن لها ابدا سلطة مركزية قوية. فليس هناك ترتيب منطقي لتتابع المباريات، او نظام يضمن للملاكم نجاحا يتناسب مع قدراته، بل ليس هناك اي مجموعة موحدة لقواعد الملاكمة.

وكثيرا ما كانت الرياضة تتطلع الى جماعات عالم الرذيلة والاجرام لضمان حمايتها وتمويلها، فقد تأبى رجال الاعمال المشروعة ان يجازفوا باموالهم وسمعتهم في حلبات الملاكمة، فانفسح المجال بذلك لاهل الابتزاز المتموليين والقادرين على فرض الانضباط على الملاكمين الخشنين الذين نشأوا في احياء الفقر والعنف، وعلى سماسرة المراهنات

والمزورين، وأي شخص آخر يخرج عن "السبيل".

ولكن امور الملاكمة تغيرت تغيرا جذريا في عام ١٩٥٧، حين صدر قرار اتحادي مناهض للاحتكارات ادى الى حل اتحاد مشبوه لمنظمي المباريات كان يعمل تحت اسم "نادي الملاكمة الدولي"، كما ادى الى تجريد حلبة "ماديسون سكوير غاردن" - التي كانت عاصمة الملاكمة - من احتكارها الفعلي لمباريات بطولة الوزن الثقيل. وفي الوقت نفسه تقريبا انجزت طريقة الكترونية تتيح الاذاعة التلفزيونية في دوائر مغلقة تكفل الارسال الى كل القاعاتوالمسارح التي ترغب في عرض المباريات في أي مكان من العالم.

وكان اول المستفيدين من هذه التطورات فلويد باترسون، البطل المنطوي على نفسه والمتقلب المزاج الذي ظل بعيدا عن نظام العصابات في هذه الرياضة. وكان باترسون حرا من جميع الارتباطات التعاقدية ، فتمكن من تأسيس شركة خاصة به يتحكم عن طريقها بالترويج لمبارياته. وكان مديره الماكر كاس داماتو يختار له خصومه بعناية وحرص، بحيث انه قلما كان يخسر مباراة. ولكن فلويد كان يتوق الى انتزاع الاعتراف العالمي به كبطل عظيم، وابت عليه كبرياؤه ان يتقاعس عن قبول التحدي الذي وجهه اليه سوني ليستون، الملاكم الوحشي ذو الهيئة المرعبة، الذي كان في ما سبق مجرما من نزلاء السجون والذي كان يبدو وكأنه لا يقهر. ولم يرد داماتو ان ينازل فلويد باترسون سوني ليستون لكن باترسون اصر وخسر.

وتردد النداء بحثا عن منقذ شاب وسيم يهب لنجدة بطولة الوزن الثقيل ويرد اليها الكرامة والاعتزاز. فمن يا ترى يقبل تلك المهمة الخطرة؟

وسمع كاسيوس كلاي النداء، واسرع الخطى الى مباراة البطولة.

وفي يناير (كانون الثاني) ١٩٦٣، في اثناء الوزن الذي سبق مباراته مع ملاكم يدعى تشارلي باول، خرج كلاي عن طوره وتحدى باول وطالب بان يلاكمه عند الميزان وراح يصرخ: "انتظر وسترى، سأهزمك في الجولة الثالثة!" واستدعى الامر تدخل مساعد كلاي "لمنعه". واطلق عليه الكتاب الرياضيون لقب "كاسيوس الغازي"، ولكنه لم يلبث ان هزم باول بالضربة القاضية في الجولة الثالثة، تماما كما تنبأ.

وفي يونيو (حزيران) من ذلك العام، نازل كلاي البطل البريطاني هنري كوبر، وقد اثار كلاي في ذلك الحين زوبعة في لندن، حيث راح يخطر مرتديا قبعة بريطانية وسترة صباح تقليدية، ويوقف المرور في ميدان "بيكاديلي سيركس" وهو يدعو الجمهور الى حضور مباراته صائحا منشدا:

"تقول لكم حاستي السادسة
سيذهب كوبر في الخامسة".

وفي الجولة الخامسة بالضبط ذهب كوبر.

وفي شهر يوليو (تموز) من العام

نفسه، قضى ليستون على باترسون مرة ثانية كي يحتفظ باللقب. ولم يعد في الافق متحد آخر يجتذب الجمهور الى شباك التذاكر، الى ان اعد المسرح لمباراة بين ليستون وكلاي في ميامي بيتش خلال شهر فبراير (شباط). وصرخ كلاي: "اريد فروة ذلك الدب الضخم القبيح". واجاب ليستون: "اذا لاكمت هذا الصبي سيقبض علي بتهمة القتل".

وكان الكثيرون يشاطرون ليستون ذلك الشعور. وحدد سماسرة المراهنة في لاس فيغاس معدلات الرهان بـ ٧ - ١ لمصلحة ليستون. واوفدت صحيفة "النيويورك تايمس" احد رجالها لتغطية المباراة، مع تعليمات بأن يتأكد من مكان اقرب مستشفى حتى لا يضيع وقتا بعد ذلك في اللحاق بكلاي الى غرفة العناية الفائقة.

"انا الاعظم"

وتصاعدت الدعاية للمباراة الى حد الغرابة، واجتذبت المباراة نفسها الى ميامي بيتش فيلقا دوليا من الصحافيين يزيد على ٥٠٠، ومن بينهم كتاب كانوا ملاكمين سابقين من الوزن الثقيل، مثل نورمان مايلر، وباد شولبيرغ. وتطوع مساعد مدرب كلاي، درو (بانديني) براون، لاطلاق شعار المعركة: "اطفو كفراشة بديعة والدغ كنحلة فظيعة". ولم يلبث الشعار ان طاف حول المعمورة بعشرات اللغات.

احتفظ كلاي بهدوء تام يلفت النظر في الايام السابقة للمباراة. وفي عصر احد الايام، بعد ان انتهى من تدريبه العلني، استلقى على طاولة في غرفة ملابسه ليتلقى تدليكه اليومي. وكانت اوراق مفكرات الصحافيين تتقوس من جراء البخار المتصاعد من حجيرات "الدوش" ووجه صحافي من لوس انجلس السؤال الآتي الى كلاي: "ولكن ماذا ستفعل اذا خسرت المباراة يا كاسيوس؟" فهمس كاسيوس يخاطب نفسه وهو ينظر الى صورته الغائمة في مرآة غشاها البخار المتكاثف: "ما اجملك! لقد حجبت ضوضاء الدعاية مواهبك! انك الاعظم مرتين".

فتدخل صحافي آخر قائلا: "لنلتزم الجد دقيقة واحدة. ماذا ستفعل اذا هزمك البطل"؟

ورد كلاي: "اذا هزمني ليستون، فستجدني منذ صباح اليوم التالي على الارصفة اصيح باعلى صوتي: "لا يهزمني رجل مرتين ابدا". ثم استرخى جسده الاسمر الضخم وبدا وكأنه يذوب في طاولة التدليك، وانخفض صوته حتى اصبح همسا فقال: "او لعلني عندئذ اهجر الحلبة الى الابد، وقد بلغت الثانية والعشرين". ثم اغمض عينيه واضاف: "اعتقد اني قد بدأت اسأم الملاكمة".

وحتى اللحظة التي خطا كاسيوس الى داخل الحلبة، كانت الاشاعات تتطاير بأنه غادرالبلاد. وفي اثناء عملية الوزن في ذلك الصباح، تفوق كلاي على تمثيليته الماضية مع تشارلي باول، بمشهد اكثر جنونا انتهى منه وهو يرغي ويزبد بالفعل،

Omega. For those who value time.

أوميغا للذين يقـدّرون الوقت

Ω OMEGA



وقد تحدى فيه ليستون ان يلاكمه في التو، واحتاج الامر مرة اخرى الى "منعه" عن ذلك. واما ليستون فقد اقتنع بان كلاي مخبّل، مجنون، وسجل احد اطباء لجنة الملاكمة ان نبض كلاي مرتفع في شكل غير عادي لانه "يكاد يموت رعبا". والذي يحدث عادة هو ان الصحافة تسلم برأي الاطباء من دون مناقشة.

الا ان كلاي كان مسيطرا على نفسه وعلى المباراة منذ ان دق جرس بداية الملاكمة، وهو يرقص رائغا من يسرى ليستون الخطافية التي يفخر بها، كي يعود واثبا فيهاجمه ويمطره بضربات سريعة متتابعة في رأسه. وفي الجولة الثالثة، فتح كلاي بضرباته جرحا بالغا تحت عين ليستون اليسرى، احتاج اقفاله بعد ذلك الى ست غرز.

وكان النظارة لا يصدقون اعينهم، وهم لم يفيقوا بعد من صدمتهم الاولى حين اكتشفوا ان كلاي اطول من ليستون بثلاث بوصات (البوصة سنتيمتران ونصف سنتيمتر) تقريبا، فضلا عن انه يفوقه في شكل ملحوظ في عرض الكتفين. وها هم الآن يتلقون صدمتهم الثانية اذ يدركون ان "الغلباوي" المتفاخر كان يقول الحقيقة طوال الوقت وانه لا يخاف فعلا من ليستون، وانه ابرع منه بكثير في الملاكمة.

واما ليستون فقد بلغ به الامر انه لم يخرج من ركنه حين دق جرس بداية الجولة السابعة، وظل متكوما على مقعده، بينما الحكم يرفع يد كلاي معلنا انتصاره. وكانت ذراع ليستون اليسرى تتدلى الى جانبه كالخرقة البالية، بسبب انفصام عضلات كتفه اليسرى، من جراء الضربات العنيفة التي سددها الى خصمه المراوغ. فضاعت سدى في الهواء. وكان مخبرو الصحف لا يزالون جالسين في مقاعدهم يحاولون استيعاب هذه النهاية غير المتوقعة، حين اطل عليهم البطل الجديد من علياء حلبته وهو يصيح: "هيا امضغوا ما كتبتموه من هذر. فانني انا الاعظم. انني انا.. ال..ا..اعـ..ظم!"

الفتى الطيب ضد الشرير

قبل ان يفوز كلاي ببطولة الوزن الثقيل، كان يعاوده في لحظات الصفاء حلم شبيه باوهام الخرافة العذبة، فيقول في نفسه: "عندما افوز بالبطولة، سألبس بنطلونا قديما (جينز) وارتدي قبعة قديمة واطيل لحيتي، واسير في طريق ريفي قديم حيث لا احد يعرفني، حتى اجد "ثعيلبة" جميلة تجهل اسمي وتحبني لذاتي كما انا فحسب، عندئذ ساعود بها الى منزلي الذي يساوي ٢٥٠٠٠٠ دولار، واريها مجموعة سياراتي الكاديلاك وحوض السباحة الداخلي الذي انشأته احتياطا من المطر وسأقول لها: "كل هذا لك، يا حبيبتي، لانك احببتني لذاتي!"

وجاء الواقع خلافا لما كان حلم اليقظة. فلم تكد تمضي بضعة اشهر على فوز كاسيوس بالبطولة، حتى ارتد عن المسيحية، مما ادى الى توتر موقت في علاقته بوالديه وتزوج امرأة تكبره سنا ولها طفل من زواج سابق، واعلن ان اسمه الجديد هو "محمد علي"، الذي سماه به الشريف اليجا

زعيم الجماعة التي تطلق عليها الصحف اسم "المسلمين السود".

وصدم اولئك الذين كانوا يشعرون بالاعزاز بكاسيوس كلاي الذي عرفوه من الالعاب الاولمبية في روما، فقد بدا لهم هذا الـ"محمد علي" الجديد لغزا من الالغاز، وضالا، وجحودا مجسما لطريقة الحياة التي اوصلته الى النجاح. لكن رجل الدين المسلم الذي انتشل في الاصل كاسيوس كلاي يوم كان غلاما في السابعة عشرة من العمر من ناصية الشارع بحديثه عن "الشيطان الازرق العينين"، كان لوقع كلامه سحر عميق المغزى في عقل الملاكم الشاب وقلبه. فقد ابهج كلاي ما رآه في الجامع من نظافة المسلمين وبراءة نسائهم ذوات الاردية الطويلة وذلك الشعور بالانتماء الذي تلمسه في الاخوة المطمئنة بين ارباب الاسر المسؤولين.

وكان من السهل على الملاكم المتدرب ان يلتزم بقواعد الاسلام، ولم يكن كلاي بطبيعته من هواة الشراب او التدخين او العربدة باي شكل. وفضلا عن ذلك، فقد كانت فكرة تفوق السود بلسما لقلقه.

وبحماسة المؤمن الجديد، اصبح محمد علي مسلما ممتازا. وكانت تعاليم الشريف اليجا كما يقول، هي التي مكنته من ان يفوز ببطولة الوزن الثقيل. وقال ان عليه كبطل ان يكون نموذجا يحتذيه الشباب السود. وراح - على غير المألوف من نجوم الرياضة - ينفق جانبا كبيرا من الوقت في الاحياء الفقيرة، ماشيا في الشوارع الصغيرة المليئة ببسطاء الناس، حاملا معه رسالة الاسلام التي تطالب الانسان بان "يرفع رأسه ويفرد جناحيه ويطير معتدلا".

غير ان محمد علي لم تفارقه المتناقضات. فقال لاحد القريبين منه ذات مرة: "متى اقدمت على الزواج ساتخذ زوجة لي فتاة مسلمة صغيرة السن، في نحو السابعة عشرة، لكي اعودها على طباعي. عذراء لم يمسسها احد قبلي". وما هي الا اشهر قليلة حتى تزوج محمد علي سونجي روا التي تعمل في عرض الازياء في شيكاغو، وكانت قبل ذلك عاملة في احد البارات وتكبره بعدة اعوام، وكانت دنيوية، خبيرة في الحياة والناس، ومستقلة السلوك، وتحب التدخين والشراب وتستخدم مساحيق التجميل ويستهويها الرقص وحفلات السمر وترتدي الملابس القصيرة والقمصان الشفافة.

وقد دامت علاقتهما متقلبة اقل من عام. والواقع ان زواجهما لم يستمر طوال تلك الفترة، الا لان محمد علي لم يشأ ان يواجه الم الانفصال الا بعد لقائه الثاني مع ليستون.

وكان حضور المسلمين هائلا في هذه المباراة الثانية التي جرت في مدينة لويستون في ولاية ماين في شهر مايو (ايار) من عام ١٩٦٥. وكان البطل محاطا على الدوام بفيلق من "خيرة المسلمين" ذوي النظرات الصارمة، وهم جماعة تجيد مصارعة الكاراتيه وتضطلع بمهمة المحافظة على "الامن". وقد صادف وجودهم انتشار اشاعة مؤداها ان جماعة من السود المسلحين مقبلون بالسيارات من نيويورك كي يفتكوا بمحمد علي انتقاما لمقتل مالكولم اكس الذي كان استاذ محمد علي في الاسلام الى ان حدث الانشقاق المرير بين مالكولم

اكس واليجا محمد. وقد تبين بعد ذلك ان تلك كانت مجرد اشاعة. لكن الامتعاض الذي اثاره تحول محمد علي الى دينه الجديد كان له اثره في توكيد هذا الواقع. وبعد المباراة التي خسرها ليستون بالضربة القاضية في الجولة الاولى انطلقت النداءات مرة اخرى بحثا عن ملاكم منقذ، وبدا فلويد باترسون سعيدا مغتبطا باحتمال بعثه من جديد. بل راح يتمادى الى حد التصريح علنا بان "وجود احد المسلمين السود كبطل للوزن الثقيل عار على الرياضة وعلى الامة باسرها. فلا بد من هزيمة كاسيوس كلاي واقصاء المسلمين السود عن اجواء الملاكمة".

وكانت المباراة التالية ضد باترسون في نوفمبر (تشرين الثاني) نقطة حاسمة في تدهور علاقات محمد علي مع الجمهور. فقد خلعت الدعاية على كل من الملاكمين الخصمين ثوب المصارع العقائدي، واصبح الامر وكأنه امر المسيحي ضد المسلم، والوطني الوحدوي ضد الانفصالي الاسود، والملاكم الطيب ضد الملاكم الشرير. واصر فلويد على مناداة خصمه باسم كاسيوس كلاي، وراح يصلي لكي يتمكن من "اعادة البطولة الى امريكا".

واما علي فكان رزين التصرف يقول دائما: "انني لا ولن اتهجم على ديانته ابدا. وكيف لي ان اهاجم اولئك الكاثوليكيين الطيبين: البابا وهؤلاء القوم الرائعين الذين يديرون المستشفيات ويغيثون الاطفال؟ فلماذا اهاجمهم بجريرة احمق واحد؟".

لكن هجوم محمد علي في الحلبة لم يكن فيه اي رزانة او تعقل. فهو استمر يذل باترسون ويقسو عليه طوال ١٢ جولة، حتى ارتمى الحكم بجسده امام باترسون ليحميه بعد ان اصبح عاجزا تماما عن الدفاع عن نفسه. وحقق محمد علي نبوءته بانه "سيؤدب" فلويد على ما قاله، وقد كان التأديب فظيعا!

وبعد المباراة، اخذ محمد علي يظاهر فلويد بالعطف عليه، وراح يدسه في حلق امريكا كي تغص به. فكان يقول له: "من حقك يا فلويد ان تنال الوان الشرف ومختلف الاوسمة مكافأة على ما عانيته، شابا امريكيا نظيفا طيبا يكافح في سبيل امريكا. من واجبهم ان يضمنوا لك الا تحتاج الى العمل يوما واحدا بعد الان طوال حياتك. وانه ليكون عارا على الحكومة لو تركتك تضطر الى كسب رزقك في النهاية من مباريات الملاكمة التافهة في الحانات الحقيرة".

وقد اقتصر فلويد على القول: "لقد هزمني ملاكم عظيم، هو محمد علي"، مستخدما الاسم المكروه للمرة الاولى.

ولكن الصحافة كانت لا تزال تغص بالاسم، وكان اقصى تنازل من معظم الصحف هو ان تشير الى البطل بقولها: "كاسيوس كلاي، الذي يفضل ان يدعى محمد علي"، ثم تواصل تسميته "كلاي" في بقية المقال. وفي المقابلات الشخصية، كان اكثر كتاب الرياضة يلجأون الى حل وسط فيخاطبونه باسم "البطل"، ريثما يتسنى لهم ان يسموه "البطل السابق". وبعد مباراة باترسون دعت صحيفة "النيويورك تايمس" في مقال افتتاحي، الى اصدار قانون بمنع

ملاكمة المحترفين.

وعاد النداء يتردد داعيا الى انقاذ تاج بطولة الوزن الثقيل. لكن قائمة الابطال كانت خاوية على عروشها!

قرار حاسم

في ١٧ فبراير (شباط) ١٩٦٦، كانت نسمات العشية ناعمة مثقلة بالعبير في ميامي. وجلس محمد علي في كرسيه الاخضر تحت النخلة المنتصبة امام داره المستأجرة، وهو يشعر بالراحة والغبطة. فهو ركض كثيرا في ذلك الصباح، وكاد ان يستكمل تدريبه استعدادا لمباراته في شيكاغو خلال شهر مارس (آذار). واذ بصوت يناديه من داخل البيت ويدعوه الى الرد على مكالمة تلفونية مع مدينة اخرى.

كان التلفزيون قد اذاع في صباح ذلك اليوم عن جلسة للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الامريكي حول الحرب في فيتنام، حدثت فيها مساجلة حادة بين السناتور وين مورس والجنرال ماكسويل تايلور. فقد قال مورس ان تايلور والرئيس جونسون قد ضللا الرأي العام في ما يتعلق بالحرب، بينما لمّح تايلور الى ان ناقدي الحرب يساعدون الاعداء. وكان رأي تايلور هو السائد في ذلك الوقت، وكانت المشاعر تزداد تأججا ضد مناهضي الحرب من "المطالبين بالسلام الذي يخدم اهداف الشيوعية".

وفي فترة سابقة، كان الجيش الامريكي يطبق معايير عالية على المجندين. وكان محمد علي قد ادرج، بعد اختباره، في فئة من لا تنطبق عليهم معايير التجنيد. ثم اعيد اختباره بعد ذلك وتكرر ادراجه في الفئة نفسها، وهو امر تعذر تصديقه على كثير من الناس: الا يستطيع الرجل الذي ينظم كل هذا الشعر الهزلي ان يتذكر الاوامر العسكرية العامة؟

وفي تلك العشية في ميامي، أكتشف محمد علي من تلك المكالمة التلفونية ان الجيش قد اعاد تصنيفه في الفئة الاولى الصالحة للتجنيد. وفي غمار غضبه وحيرته هتف: "لماذا انا؟ لست افهم كيف يتصرفون معي على هذا النحو، وانا بطل العالم في الوزن الثقيل؟"

وسرعان ما تقاطرت سيارات التلفزيون امام المنزل، وراحت المقابلات تتوالى. وصاح محمد علي في الميكروفونات المتراكمة امامه: "عندي سؤال: لقد استمرت الحكومة طوال عامين تسبب لي حرجا دوليا، وتحمل الناس على الاعتقاد بأنني مجنون، وقد اثار لي ذلك كثيرا من المتاعب بلا شك، كما عانى منه ابواي كثيرا من الالم. وهم الان يصنفونني في الفئة الاولى من دون ان يبالوا بمجرد انذاري او اختباري! فلماذا استمروا عامين طويلين قبل ذلك يلصقون بي تهمة الامية؟"

وبين مقابلة وأخرى، كان محمد علي يجلس على كرسيه الاخضر في الحديقة وحوله حرسه الخاص من المسلمين السود، واصدقاؤه يلهبون شعوره المتزايد بالاضطهاد ويقولون له: "هذا مثال آخر لمحاولات الشياطين البيض أن يقضوا عليك!" وتطوعوا بأن يرووا له قصصا من تجاربهم الخاصة عن التمييز العنصري

في اثناء الحرب العالمية الثانية وحرب كوريا. وتنبأ احد المسلمين بأن محمد علي لن يخرج من التدريب الاساسي، حيا: "لن يلبث جاويش متبجح سمين ان ينسفك نسفا في ساحة التدريب على القنابل اليدوية".

وظل الصحافيون يسألون محمد علي مرارا وتكرارا عن رأيه في حرب فيتنام، وهو يكتفي بهز كتفيه. وسألوه عما اذا كان يعرف ايـن فيتنام، فهز كتفيه ايضا. واخيرا سأله احدهم: "حسنا، ما هو رأيك في الفيتكونغ؟"

وهنا قالها، وكان قد نال منه التعب والحنق والغضب والاحساس بالغدر: "ليس لدي شيء ضد هؤلاء الفيتكونغ".

وتلقفت تلك الجملة حكومات الولايات ولجان الملاكمة وجماعات المحاربين القدماء ومحررو افتتاحيات الصحف، وراحوا جميعا يلوحون بها وكأنها علم احمر. والغيت مباراة شيكاغو، ولم تعد اي مدينة في الولايات المتحدة تقبل ان تقام فيها مباراة لمحمد علي. بينما قامت الرابطة العالمية للملاكمة، وهي نوع من الاتحاد الطليق من النظام يضم لجان الملاكمة في مختلف الولايات والمدن، بمضاعفة جهودها كي تفرض ملاكما آخر زاعمة انه البطل الحقيقي.

واصبح محمد علي الملاكم المنبوذ شبه منفي من الولايات المتحدة. فتوجه الى كندا لينازل جورج شوفالو، البطل الكندي الذي يمتاز بصلابة العود وضعف الموهبة. وكان هناك كثير من الصحافيين الاجانب الذين وقفوا من محمد علي موقف التكريم والاجلال. واذا كان بعض ذلك يرجع الى سحر شخصيته، فأن الجانب الاكبر منه يعود الى الشعور المعادي لامريكا في ذلك الحين بسبب حرب فيتنام. وقال له احد الهولنديين: "ان الامريكيين تنهشهم الغيرة لانك تقول الحقيقة".

وأنتصر محمد علي في مباراته هذه على شوفالو، وانتصر بعد ذلك على هنري كوبر وبريان لندن في لندن، وعلى كارل ميلدنبرغر في فرنكفورت.

واتسع نطاق الاسفار. وبدا محمد علي في اعين كثير من الاجانب رمزا للامريكيين المعارضين، فاستمال المثقفين والطلبة والزعماء السياسيين. وقد غبطه هذا الاهتمام به وأنبرى الى استخدام لغة تشف عن منظور عالمي اشمل. واوضح للطلبة الافريقيين والهنود الذين سعوا اليه ان اولئك الذين ينصبون له العداء "لا يحبونني لانني رجل حر. لقد كان الزنجي يبيع نفسه دائما رغبة في المال او في النساء، ولكنني اتنازل عن كل شيء في سبيل ايماني. فأنا رجل حر، ولست ملكا لأحد".

وفي اواخر عام ١٩٦٦، عادت القوى التي كانت قد اقصت محمد علي عن الملاكمة في الولايات المتحدة، وفتحت الباب امامه مرة أخرى، فلعب وكسب ثلاث مباريات جديدة قبل ان يغلق الباب ثانية في وجهه. وكانت احدى هذه المباريات ضد ايرني تيريل الذي القمه محمد علي ضربات "تأديبية" على طراز "تأديبه" لباترسون. وكان تيريل قد اصر على مناداته بأسم "كلاي"، فظل محمد علي طوال المباراة يصيح به

وهو يضربه: "ما هو اسمي ايها العم توم؟ اعطني كلاي آخر يا عبد البيض..."·

ومع حلول ربيع عام ١٩٦٧، كان محمد علي قد صرح بوضوح تام انه يأبى التجنيد· وكان محاموه يسعون الى اعفائه من الخدمة العسكرية بأعتباره من اتباع الدين الاسلامي فالمسلمون لا يدخلون الجيش، واليجا محمد نفسه سجن في اثناء الحرب العالمية الثانية لرفضه التجنيد· وجرت آخر مباريات محمد علي في عهد بطولته الاولى كملك للوزن الثقيل في الحلبة القديمة في ماديسون سكوير غاردن ، بين الشارعين التاسع والاربعين والخمسين في مدينة نيويورك· وكانت المباراة ضد ملاكم يخطو الى القمة يدعى زورا فولي، واخذ منظموها يروجون لها بقولهم: "انها آخر فرصة لمشاهدة محمد علي قبل ان يحصل على واحد الى ثلاثة"، مشيرين بذلك الى عقوبة السجن من عام الى ثلاثة اعوام التي يحكم بها على كل من يرفض التجنيد· ولم يكن في المباراة شيء يميزها غير ذلك· وقد انهاها محمد علي بأن هزم فولي بالضربة القاضية في الجولة السابعة·

وقال محمد علي متنبئا: "عندما ازول انا، ستتدهور الملاكمة الى لا شيء مرة اخرى· سيكون هناك الهواة بسيجارهم وقبعاتهم، ولكن لن تتابعها الزوجات وبسطاء الناس ورؤساء الدول الاجانب، وسيقتصر امر الملاكم الذي يأتي الى المدينة على شم زهرة، وزيارة مستشفى، والتزمير بسيارته، والتبجح بأنه رجل لائق· حكاية قديمة مهلهلة· انا الملاكم الوحيد في التاريخ الذي يسأله الناس رأيه اسوة بأعضاء مجلس الشيوخ"·

وقبل موعد مثوله بيومين امام لجنة التجنيد، جلس محمد علي في مقهى احد فنادق شيكاغو، متأملا بكآبة الامواج المتلاطمة في بحيرة ميشيغان التي عصفت بها رياح شهر ابريل (نيسان)· وقال: "انا لا ابتغي دخول السجن، وانما لا بد لي ان اعيش الحياة التي يلهمني اياها ضميري وربي· فماذا ينفعني ان احب الناس في امريكا هذه التي تنبذ الصالحين؟"

وسأله صحافي: "ولماذا لا تلعب اللعبة كسائر كبار الرياضيين؟ فعندئذ لن يرسلوك الى خط النار· فيمكنك مثلا، ان تقدم وانت في الجيش مباريات استعراضية وان تعلم اصول اللياقة البدنية"·

فاتكأ محمد علي الى المائدة وقد برقت عيناه، وقال مؤمنا: "ماذا عساك تقدمين الي يا امريكا في مقابل تنكري لعقيدتي؟ فأنت تريدينني ان امتثل لاوامر الرجل الابيض، فاذهب لاحارب اناسا لا اعرف عنهم شيئا، حصولا على الحرية لاناس آخرين، بينما يتعذر حصول الحرية على ابناء قومي"·

ويتضح من هذا ان محمد علي كان مستعدا لدخول السجن· وبالفعل، لم يمض يومان على هذا الحديث - وكان ذلك في ٢٨ ابريل (نيسان) ١٩٦٧ في مدينة هيوستون - حتى ابى محمد علي ان يخطو تلك الخطوة من اجراءات التجنيد التي كانت ستجعل منه الجندي كاسيوس كلاي·

فأصبحت قضيته بذلك تقتضي محاكمته مدنيا امام القاضي الاتحادي.

العودة

لعل فترة "المنفى كما يسمي محمد علي فترة انقطاعه الاجباري عن الملاكمة لمدة ثلاث سنوات ونصف سنة، كانت اخصب فترات حياته، بما حفلت به من تعليم مركز وتثقيف. فعلى الرغم من ان الحكومة لم ترخص له بمغادرة البلاد، الا انه قام باسفار كثيرة على نطاق واسع لكي يحضر جلسات المحاكمة واجتماعات المسلمين ويلقي الخطب والاحاديث، حيث اصبح محمد علي من اشهر المحاضرين في مختلف الكليات. وقد كان من هذه اللقاءات ان صقلت اسلوبه ووسعت نطاق وعيه بالاحاديث الجارية وكثيرا ما عارض الطلبة حملاته العنيفة على الماريغوانا (نوع من القنب المماثل للحشيش)، وعلى اللقاءات المنفردة بين الفتيان والفتيات، وكثيرا ما ارغموه على ان يشرح مواقفه الدينية من منطلق فكري بحت. وكان محمد علي يستعد لهذه اللقاءات ويمارسها بالتركيز نفسه الذي عالج به الملاكمة. فكان يكتب احاديثه ويعيد كتابتها مرات ومرات على بطاقات كبيرة، ويسجلها بصوته على الاشرطة ثم يعيد سماعها ويعنى بتحليلها. ومع تزايد ثقته بنفسه، اصبح يطعم احاديثه بنكات صغيرة، فلم يعد يقول: "انا الاعظم"، لانه يعرف الان ان "العظمة لله وحده"، ولكنه ظل يسلم بانه "الاجمل".

بل انه تنازل عن تلك الصفة في ١٨ يونيو (حزيران) ١٩٦٨، بعد ان وضعت زوجته الجديدة المسلمة بليندا، طفلتهما مريم، باكورة ابنائهما الاربعة. فاصبحت مريم الان هي "الاجمل"، وقد تجسد فيها حبه الشديد للطفولة.

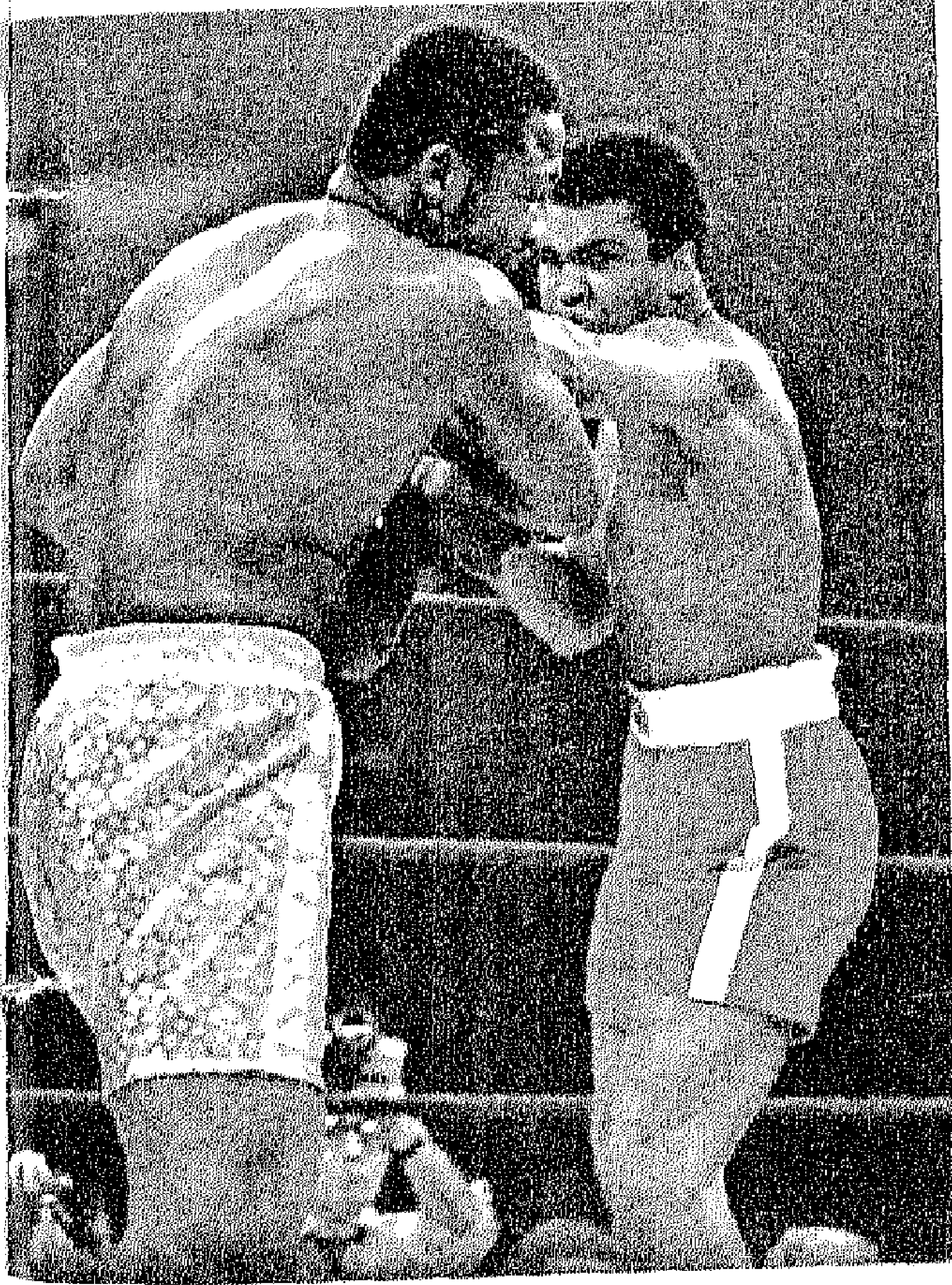
وكانت تلك الفترة كذلك فترة امتحان معنوي عسير بالنسبة الى محمد علي. فكان المال ينقصه حينا، والاصدقاء يتخلون عنه احيانا اخرى. وقد اقامت الملاكمة على عرشها بطلا سواه هو جو فريزير. وكان محمد علي يدرك يوما بعد يوم ضعف حظه في استعادة اللقب المنتزع منه خصوصا ان تقدمه في السن كان يحول دون احتفاظه بلياقته البدنية ومهاراته الرياضية. وفي النهاية، صدر عليه الحكم بالسجن لامتناعه عن الالتحاق بالجندية، لكن هذا الحكم لم ينفذ بعد استئنافه امام القضاء.

وعلى الرغم من تضاؤل معنوياته احيانا، فقد احتفظ محمد علي بشجاعته وصموده، ولو انه كان يخرج في بعض الاوقات، هائما على وجهه، وراء مقود سيارته، في انحاء شيكاغو حيث يقيم، فيعرج على دكاكين الحلاقين في الاحياء الفقيرة ليتبادل معهم اطراف الحديث، ويمر على مطاعم المسلمين، ويتوقف هنيهة في مكاتب صحيفة المسلمين السود " محمد يتكلم" ويبحث عن بعض الاعمال والمهمات الصغيرة التي تبعده عن البيت. واصبح وزنه على ازدياد.

غير ان الامة التي ادارت له ظهرها اخذت تتراجع عن موقفها. فقال محمد علي في هذا الصدد: "من الامور

الطيبة في هذا البلد انك اذا صممت على الدفاع عن حقك، فان الناس تتقبل ذلك وتتكيف معه بعد حين". فكانت تلك هي ادق نبوءاته وابلغها اهمية. وبالفعل، فقد اخذت المحكمة العليا تعيد النظر في حالته، في ضوء قرار حديث اصدرته واعتبرت فيه ان الاعتراض المعنوي والاخلاقي على الحرب يتساوى في شرعيته مع الاعتراض الديني. وكان هذا الموقف بمثابة الاعلان عن رغبة المحكمة العليا في الغاء الحكم الصادر عليه. وفي الوقت نفسه، اعد المحامون المهتمون بالدفاع عن الحريات المدنية في نيويورك قائمة بالمجرمين الذين ثبتت ادانتهم بتهمة القتل والسرقة المسلحة، ومع ذلك فقد حصلوا من لجنة الرياضة في ولاية نيويورك على الترخيص لهم بممارسة الملاكمة. ويتضح من ذلك ان قرار اللجنة الذي اصدرته بحرمان محمد علي ممارسة الملاكمة اصبح واهيا لا يصمد لاي اعتراض جاد، علما بان اللجنة قد استندت فيه الى اعتبارها ان سلوك محمد علي في رفضه الالتحاق بالجندية مهين للرياضة. فماذا عساها تقول في الترخيص الممنوح للمجرمين السابقين؟

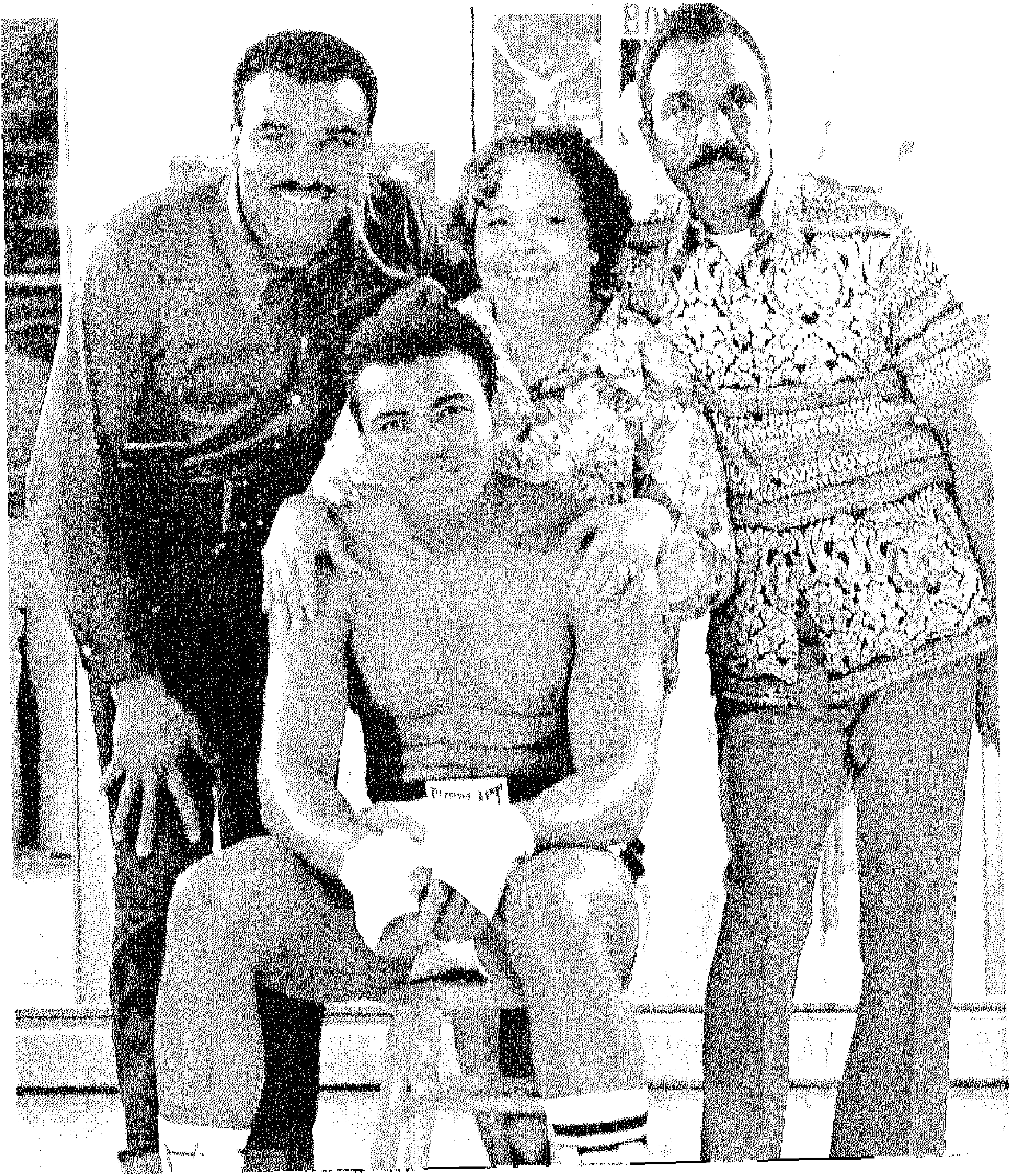
وفي النهاية، دخل الحلبة عضو اسود في مجلس الشيوخ في ولاية جورجيا يدعى ليروي جونسون، ولوح بكتلة الاصوات التي تؤيده وكأنها هراوة قتال تتهدد من يجرؤ على معارضته. فوفق الى تنظيم مباراة في مدينة اتلانتا بين محمد علي وجيري كواري، وهو ملاكم ابيض من المرشحين للتنافس على بطولة الوزن الثقيل. وكان حاكم ولاية جورجيا ليستر مادوكس من المتعصبين العنيفين لسيادة البيض، ولكنه لم يقم باي محاولة جادة لايقاف المباراة، بينما راح عمدة اتلانتا الابيض يصف المباراة بانها دليل على



"جو المدخن" فريزير ومحمد علي يتبادلان الضربات خلال مباراتهما على اللقب في ماديسون سكوير غاردن في مارس (آذار) ١٩٧١.

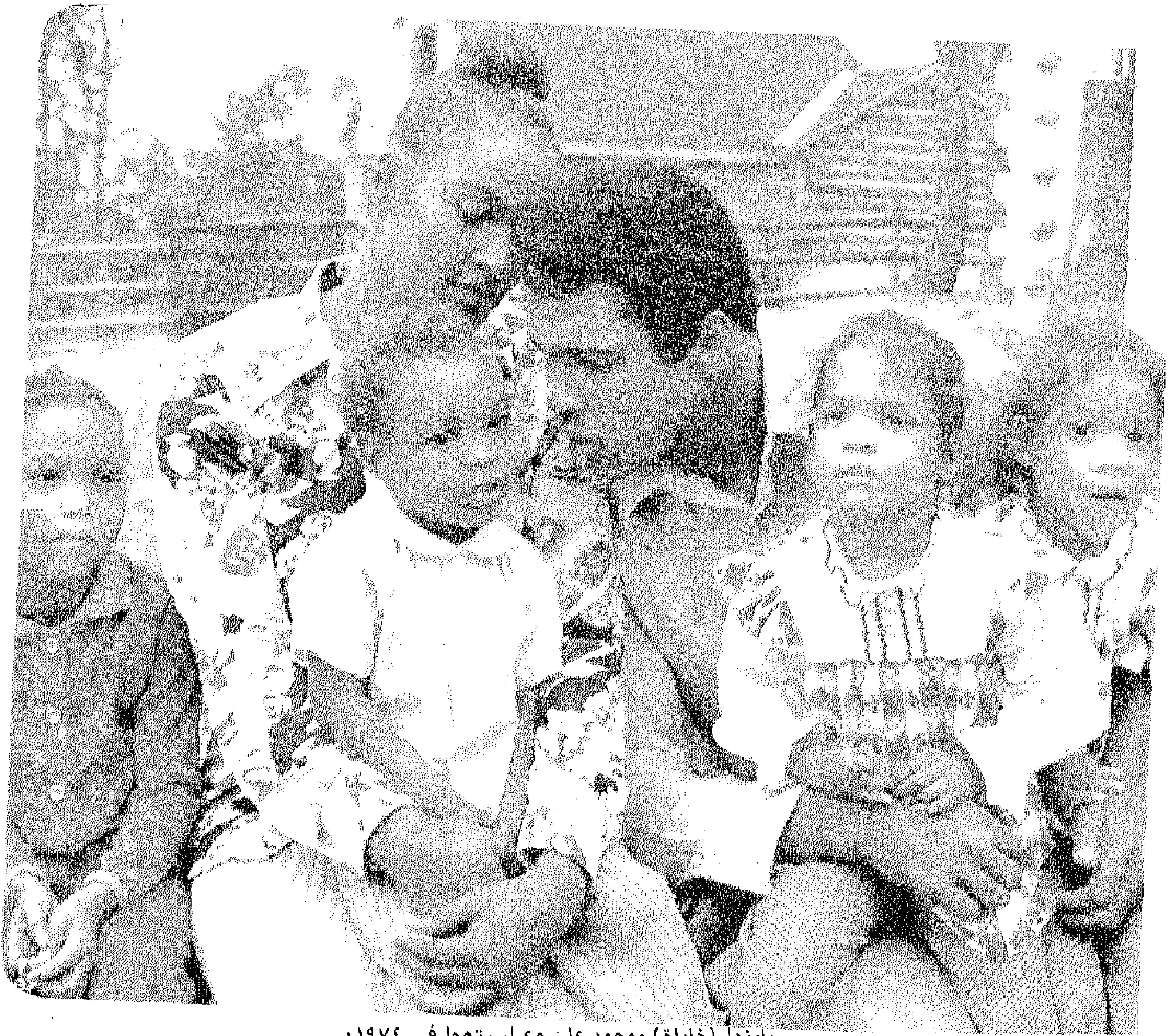
"الديموقراطية". وفي ٢٦ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٠، لاكم محمد علي بسرعة ناعمة كالحرير وضربات كالمطارق، فلم يلبث ان هزم جيري كواري بالضربة القاضية في الجولة الثالثة.

لقد عاد محمد علي. ولكن هل هو لا



صورة عائلية في ١٩٧٤: محمد علي (جالسا) يحيط به، من اليسار، شقيقه رحمن، ووالدته اوديسا غرادي كلاي، ووالده كاسيوس مارسيلوس كلاي.

يزال ملك الحلقة؟ فقد تصدى له جو فريزير، وهو شاب في السابعة والعشرين من العمر، وابن مزارع من بوفورت في ولاية ساوث كارولينا، وقال: "لا"، غير انه كان على "جو المدخن" ان يجيب عن هذا السؤال في حلبة الملاكمة. وفي السنوات الاربع التي انقضت منذ تجريد محمد علي من لقبه، كان فريزير قد انتصر في ١١ مباراة على كل ملاكم له اهميته من الوزن الثقيل تقريبا، متغلبا على تسعة منهم بالضربة القاضية. ولكن كل هذا اصبحت قيمته مرهونة الآن بنتيجة منازلته لمحمد علي.



بليندا (خليلة) ومحمد علي مع اسرتهما في ١٩٧٤.
من اليسار: مريم، ومحمد الابن، والتوأمتان رحيمة وجميلة.

وقد اطلقت الاعلانات على مباراتهما - بكل بساطة - اسم "الملاكمة" علما بأن كليهما كانا افضل اثنين من ملاكمي الوزن الثقيل في عصره، وكلاهما يحمل الميدالية الاولمبية الذهبية، وكلاهما لم يهزم من قبل في مبارياته الاحترافية. وها هما يتجابهان الان في حلبة الصراع، وكل منهما يريد ان يثبت رجولته. وعين تاريخ المباراة في ٨ مارس (آذار) عام ١٩٧١، ومكانها في المبنى الجديد لـ"ماديسون سكوير غاردن"، وكان المبلغ المرصود ضخما لم يسبق له نظير ومقداره ٢،٥ مليون لمكافأة كل منهما، غير ان المباراة كانت في نظر الكثيرين اكثر من مجرد ملاكمة، انها كانت بمثابة مسرحية اخلاقية!

وقد استغرقت المباراة ١٥ جولة من اقسى واعنف الجولات التي شهدها ذاك الجمهور الحافل بمشاهير الشخصيات. فقد جاء محمد علي

ليعرض رائعة لا نظير لها ولم يكن قصده الفوز فحسب، وانما كان يريد ان يثبت ايضا صموده في تحمل اقسى ضربات فريزير، وتفوقه على "الضراب" في الضرب. ولكن محمد علي قدر قوة فريزير باقل من حقيقتها كما بالغ في تقدير قوته هو في الوقت نفسه.وفي الجولة الاخيرة، نجح فريزير في طرحه ارضا (★).

وكانت الليلة ليلة فريزير، اذ ربح المباراة باجماع آراء الحكام.

الا ان كلا الرجلين خرجا من تلك الليلة رابحين: فلم يعد فريزير تحت ظل محمد علي، وانما اصبح بطل العالم من دون منازع، ينال الاحترام اللائق بالملاكم العظيم. واما محمد علي فقد دلل بدوره على شيء: لم يكن احد يشك ابدا من قبل في سرعته او موهبته. لكن شجاعته في الحلبة، او بالاحرى "قلبه" كما يقول هواة الملاكمة، كان موضع ارتياب، اما الان، فلم يعد ثمة شك في شجاعة محمد علي او "قلبه"، او في بطولته الاصيلة، سواء أحمل اللقب ام لا.

وفي اليوم التالي للمباراة بقي محمد علي رابط الجأش، متمالك النفس في الهزيمة كشأنه دائما عند الفوز. وقال: "لقد خسرت المباراة، وليس هذا كل شيء. فهناك اشياء اهم في الحياة. ولعلني خرجت من هذه الهزيمة رجلا افضل.لقد كان لي يومي. وعلى الخاسر ان يتقبل الخسارة لا ان يطلق الرصاص على نفسه.

(★) الوقوع في اثناء المباراة مسألة خطيرة بالنسبة الى اي ملاكم، لان نتيجتها المباشرة هي ان يفقد الملاكم نصف النقاط التي حصل عليها حتى لحظة وقوعه..

جمهور المعجبين يحيط بالبطل الذي استرد عرشه في شوارع كينشاسا، زائير، بعد ان هزم البطل جورج فورمان بالضربة القاضية.



"من واجبي ان تغبطني الخسارة كما يغبطني النصر، لكي يتمكن انصاري من الانتصار على هزائمهم، وعلى مآسي الحياة اليومية. كأن تفتقد الاسرة عزيزا من افرادها او يخسر الانسان ممتلكاته".

وقاطعه احدهم مخاطبا اياه: "ايها البطل..."

فرد محمد علي برقة: "لا تخاطبني بهذا اللقب. فالبطل الان هو جو".

فقال آخر: "هل تتذكر، يا محمد علي، تلك الكلمات التي تفوهت بها قبل مباراتك الاولى ضد ليستون، حين قلت انك اذا خسرت فستخرج الى الشارع في اليوم التالي صائحا: "لا يهزمني رجل ابدا مرتين؟".

وهنا ارتسمت ببطء ابتسامة عريضة على ملامح محمد علي، وقال: "بلى، اذكر ذلك. وهل تعرف ما الذي اقوله الآن؟ هاتوا لي جو فريزير... فلا يهزمني رجل ابدا مرتين..."

ثم ارتفع صوته ورعدت كلماته بالوعيد: "سأنال من جو هذه المرة. انني حاضر هذه المرة... هل تسمعني يا جو؟ اما اذا هزمتني هذه المرة، يا جو، فستكون انت الاعظم حقا!".

"لا يزال هو البطل"

في الساعة التاسعة والربع من صباح يوم ٢٨ يونيو (حزيران) ١٩٧١، كان محمد علي يتجول في الجزء الجنوبي من مدينة شيكاغو بسيارته اللنكولن ذات اللونين الابيض والأخضر، حين قرر فجأة ان يتوقف ليروي ظمأه في محل يبيع عصير البرتقال. وبينما هو يخرج من سيارته، اقبل عليه رجل وهو يصيح: "لقد سمعت الخبر لتوي في الراديو. فقد برأت ساحتك المحكمة العليا وانك حر".

فشهق محمد علي شهقة طويلة وقال منفرجا: "الحمدلله"، واندفع الى داخل السيارة يدير جهاز الراديو، ليسمع بنفسه الخبر. لقد ابدت المحكمة العليا رأيا قانونيا من دون توقيع، تعلن فيه ان وزارة العدل قد ضللت ادارة التجنيد حين افتتها خطأ بان دعوى محمد علي بصفته مستنكفا ضميريا (يرفض الخدمة في القوات المسلحة لاعتبارات تتعلق بالمبادىء الخلقية او الدينية) عارية عن الصحة وانها لا تستند الى الاساس الديني، وقررت المحكمة العليا باغلبية ثمانية اصوات ضد لا شيء ان تجنيد محمد علي كان تصرفا خاطئا من اساسه.

اما جو فريزير فقد احتفظ بلقب البطولة لفترة تقل عن عامين، ثم انتزعه منه جورج فورمان، وهو رجل مفرط القوة، يستهويه توجيه الضربات ولا يكف عن اللكم. وكان الرأي السائد انه اذا التقى محمد علي وفورمان فان البطل الجديد سيكون اول رجل يهزم محمد علي بالضربة القاضية.

ولم يكن فورمان بطلا نشطا، ولم تكن له الشخصية ولا الرغبة في ان يستثمر لقبه، فراح ينفق معظم وقته في التفكير المتجهم. ربما في ذلك

الشبح المديد الذي يسد له محمد علي على الحلبة وعلى العالم، وينذر باقتراب عودته، حسب ما قاله الكاتب الروائي باد شولبرج: "مهزوم ولكنه لا يزال هو البطل".

وكانت المعركة بينه وبين جو فريزير قد اثبتت اياته القتالية، كما ان قرار المحكمة العليا قد فسح له طريق العودة الى مجرى الحياة الامريكية الرئيسي، بل والى اكثر من ذلك: فهو يظهر باستمرار في الاعلانات التجارية والمقابلات التلفزيونية، ويتلقى عروضا تعاقدية لا آخر لها.

وفي فترة الثلاث سنوات والنصف التي انقضت منذ الهزيمة التي انزلها به فريزير حتى منازلته فورمان، خاض محمد علي ١٤ مباراة كانت بمثابة مهرجان حقيقي للاسفار. فلم يعد محمد علي ولا شك سيد الانقضاض الراقص الذي يتنبأ بالجولة الختامية ويوجه المباراة على هواه، وقد بدأ التعب ينال منه في الجولات الاخيرة واضطره الى الملاكمة على قدمين منبسطتين، كما خانته القدرة على تفجير مجموعاته الفورية من اللكمات الصاعقة التي كانت تنهال طرا في خمس او ست او سبع ضربات ساحقة متتابعة فتقلب مسار المباراة وتربك الخصم وتزعزع كيانه. بل ان محمد علي قد اصبح ايضا اكثر تعرضا للضربات.

لكن ذلك لم يحل دون انتصاره الحاسم على جو فريزير في مباراته الثأرية من ١٢ جولة في "ماديسون سكوير غاردن"، وكان ذلك في ٢٨ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٤، بعد عيد ميلاده الثاني والثلاثين باحد عشر يوما. وبدا محمد علي مرتاحا الى هذه الملاكمة، وراح بعد المباراة يأكل البوظة (جيلاتي) ويقول في صوت ناشز التنغيم: "هل يبدو علي ان عمري ٣٢ سنة؟"

وتزايد الضغط على فورمان كي يثبت انه يستطيع هزيمة محمد علي. واستغرق الامر اشهرا من المكالمات الهاتفية الليلية والمفاوضات اللبقة الدقيقة التي اجراها فريق من جماعة محمد علي، وانتهى الامر الى تنظيم اغنى ليلة وابهاها مشهدا في تاريخ الحفلات والمشاهد على الاطلاق. والواقع ان الكلفة كانت باهظة الى حد يتعذر على اي بلد تحملها ما لم تحدُه الرغبة في بذل المال لكسب الشهرة العالمية والنفوذ. وكان المكان المختار هو كينشاسا، عاصمة دولة زائير الناشئة في افريقيا السوداء.

وتفيد التقديرات اليوم ان مباراة "زئير في الزائير" قد شاهدها ربع مجموع سكان الكرة الارضية، سواء عن طريق التلفزيون المباشر، او عروض التلفزيون المتأخرة او الافلام السينمائية. وكان الممثل السينمائي انتوني كوين، في اثناء هذه المباراة، يعمل في فيلم في طرابلس، ليبيا، وهو يذكر كيف راح المشاهدون المسلمون يضرعون الى

الله العلي القدير قبل المباراة، وكيف اندفعوا الى شاشة التلفزيون يقبلونها عندما اتاح محمد علي لفورمان ان يستنفد قواه في الضرب، قبل ان يشن عليه هجومه المضاد الساحق. وحين هزممحمد علي فورمان في الجولة الثامنة، تصاعدت انفجارات الغبطة في انحاء العالم الثالث، وراحت الجماهير ترقص في شوارع افريقيا وآسيا، بل واعلن سائقو سيارات التاكسي في ايران ابتهاجهم فراحوا ينقلون الركاب مجانا.

... وماذا بعد؟

بدأ محمد علي فترته الثانية كبطل للوزن الثقيل، بالاسلوب البطولي الطنان الذي حرمه في المرة الاولى. فبعد انتصاره بيومين، توجه محمد علي الى شيكاغو، المدينة التي رفضت ان تقام فيها مباراته بعد الملاحظة التي اباها عن الفيتكونغ. وفي هذه المرة، كان عمدة المدينة في انتظاره ليقدم اليه آيات التكريم. وبعد ذلك باسبوع قصد الى مسقط رأسه لويزفيل، فنادى بها "اعظم مدينة. ولا بد ان تكون كذلك، لسبب رئيسي هو: انني منها".

وبعد لويزفيل بشهر، ذهب محمد علي الى نيويوركليحضر الاحتفال "بيوم محمد علي". وفي ١٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٤. استقبل الرئيس فورد محمد علي في المكتب البيضاوي في البيت الأبيض. وقال محمد علي: "البطولة هي قمة العالم".

كان محمد علي يحب تقبيل الاطفال، ويحك انفه بانوفهم، ويحضنهم ويقول لهم: "ستتذكر هذا طوال حياتك. واذا نسيت فسيذكرك به امك وابوك، وهم يعرضون عليك الصورة. فقد حظيت بقبلة من فم البطل".

وكان يتأنى في شرح ذلك فيقول: "ذات مرة جاء جو لويس الى لويزفيل واستند الى احد اعمدة التلفون في الشارع الي اسكنه. ولم يكن ذلك يعني شيئا بالنسبة اليه، اذ طالما استند الى اعمدة تلفون اخرى. لكن امي لم تنس ذلك ابدا. وهي حتى الآن لا تستطيع ان تمر بجانب عمود التلفون هذا من دون ان تذكر لنا ان لويس استند اليه. مسألة لا تعني شيئا لجو لويس، ولكنها بالغة الاهمية في نظر امي".

ومحمد علي رجل كريم، يوجه في طبيعة الحال مقدارا كبيرا من احسانه الى المسلمين. وقد تبرع بمبالغ ضخمة لبناء مدارسهم ومساجدهم وتغطية التكاليف الاساسية لبدء المشروعات التجارية او الصناعية الصغيرة التي يتولاها مسلمون. وهو قدم مساهمات كبيرة ايضا الى صندوق كليات الزنوج المتحدة، وتبرعات ضخمة الى ضحايا الجفاف في افريقيا.

وقد دافع محمد علي عن لقبه الجديد ثماني مرات، في عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦ اضافة الى عدد من المباريات الاستعراضية. وخاض اهم مبارياته -

من الناحيتين الرياضية والشخصية - في اواخر عام ١٩٧٥ في الفيليبين. وكانت تلك المباراة، التي سماها هو "اعجوبة مانيلا"، عنيفة قاسية حافلة بالضربات المتبادلة من دون هوادة، وانتهت بانتصاره مرة اخرى على منافسه القديم جو فريزير، كما انتهت ايضا بطلاقه من زوجته الثانية خليلة، وهو الاسم الذي اصبحت تدعى به زوجته بليندا، وزواجه من عارضة ازياء هيفاء تدعى فيرونيكا بورش، كانت تصاحب البطل في رحلاته من وقت الى اخر منذ عام تقريبا، بعد ان كان التقاها في مسابقة للجمال عقدت قبل ان يلاكم جورج فورمان ببضعة اشهر، وكان اصطحبها الى زائير ومانيلا حيث قدمها الى الرئيس فرديناند ماركوس كزوجة له. وفي ٦ اغسطس (آب) ١٩٧٦ وضعت فيرونيكا بنتا سميت "هناء ياسمين علي"، هي اول مولود لفيرونيكا وخامسة اطفال محمد علي.

مع حلول عام ١٩٧٧، بدأت بنية محمد علي تميل الى الافول، ولم تعد ساقاه القويتان كسابق العهد بهما. وقد اعترف محمد علي بذلك قائلا: "الامر ببساطة هو انني لم اعد استطيع الرقص طوال الليل. ولكن من ذا الذي يظل صامدا على حاله؟" وكثيرا ما اصبح البطء ينتابه في الحلبة. وقد اعلن مرارا رغبته في اعتزال الملاكمة بعد مباريات لم يرتح لادائه فيها، ثم يتراجع عن هذه الرغبة امام صفقة دسمة. فنازل كين نورثون للمرة الثالثة. وتبارى مع الفريد ايفانجليستا الاسباني، ومع ايرني شيفرز، وكلهم ملاكمون كانوا يعتبرون مجرد لعبة في يديه وهو في اوجه، ولكنه اصبح الان يجد صعوبة في التغلب عليهم.

وقال الدكتور فيردي باتشيكو من ميامي، الكاتب والطبيب الذي اشرف طوال خمسة عشر عاما على تدريب محمد علي ومبارياته: "ان قلب محمد علي وعقله لم يعودا يربطانه بالملاكمة".

وقد ثبتت صحة هذا التشخيص الخطير في ليلة ١٥ فبراير (شباط) ١٩٧٨، بعد عيد ميلاد محمد علي بأسابيع قليلة. ففي تلك الليلة، تمكن ليون سبينكس، الاقصر قامة والاخف وزنا، ولكنه افتى من محمد علي باثني عشر عاما، من الفوز في لاس فيغاس بقرار انقسم فيه الحكام وانتزع من محمد علي لقبه ليصبح بطل العالم الجديد في الملاكمة في الوزن الثقيل.

وكان الخبراء قد استهانوا بأمر سبينكس. فهو لم يلاكم كمحترف قبل ذلك الا في سبع مباريات، كما ان سبب شهرته الحقيقي (مثله مثل كاسيوس كلاي الشاب قبله) هو فوزه بالميدالية الذهبية في الالعاب الاولمبية في وزن الخفيف- الثقيل.

وقد استهان محمد علي نفسه بغريمه سبينكس، فلم يلزم نفسه بالقدر المناسب من التدريب الشاق قبل المباراة، وظهر فيها وقد احاطت بخصره غلالة سميكة من شحم السمنة. وكان آخر ما توقعه ان يجد سبينكس الشاب يصمد له ويبادله اللكمات طوال خمس عشرة جولة قاسية، تزيد كثيرا

على ما سبق لسبينكس ان تحمله في ليلة واحدة.

أيامه صارت معدودة

وفي ختام المباراة، بدا محمد علي مرتبكا تكاد الدموع تطفر من عينيه. وقال انه لن يعتزل بل سيحاول ان يصبح اول ملاكم من الوزن الثقيل في التاريخ يحصل على البطولة للمرة الثالثة.

ولقد كان هذا الهدف الجديد حافزا له على شحذ عزيمته والزام نفسه بالتدريب الشاق. فكان له ان وجده هواة الملاكمة، في ليلة ١٥ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٨ في نيو اورلينز، ذاك المنافس الخاطف اللكمات والعازم على الظفر غير الذي عرفوه منذ سنوات. واجمع الحكام على انتصاره وهزيمة سبينكس في الخمس عشرة جولة. وفي حين ان محمد علي لم يعد ذلك المعلّم الراقص السابق، الاّ انه قد سيطر على منافسه الاصغر منه سنا ولقّنه امثولة في الملاكمة.

لكن هذا النصر لا يعني ان ايامه كملاكم ممارس تعتبر معدودة. فليس من المعقول أنه يفكر يوما في توقفه عن بريق الشهرة. فهناك أشياء أخرى في مقدوره ان يقوم بها حتى من دون ملاكمة. وهناك ايضا مجموعة من المشروعات التجارية الجديدة يمكن تكنيتها باسم محمد علي، كالمشروعات العقارية وصناعة الدمى وملاءات الاسرّة وادوات زينة الرجال والساعات. وقد صور فيلم من الرسوم المتحركة للاطفال عن محمد علي بعنوان "انا الاعظم"، قال هو انه اعده: "كي يبقى ماثلا في عيون الجماهير. فان الاطفال الذين سيصبحون في الغد حكام الولايات وعمد المدن في بلادنا، وسوف يتذكرونني جميعا، لانني سأظل حيا في أذهانهم، وسيظلون متأثرين بي".

وهناك النشاط السياسي ايضا. فقد اصبح المسلمون يطلقون على انفسهم اسم "امة الاسلام العالمية في الغرب"، وتزعمهم والاس د. محمد ابن المرحوم اليجا، فوجههم الى الانشطة السائدة في حركة المجتمع، وراحوا يعملون بهمة على ضم السود من الطبقة المتوسطة الى صفوفهم، كما بدأوا يسبرون غور النشاط السياسي في عالم البيض. وليس مستبعدا ان يرشح محمد علي نفسه ذات يوم لاحد المناصب العامة.

وفي ١٩ يونيو (حزيران) ١٩٧٨، اصبح محمد علي اول رياضي اجنبي مشهور يحظى بمقابلة الرئيس السوفييتي ليونيد بريجنيف. وبعد المقابلة التاريخية التي استمرت ٣٥ دقيقة، عقد مؤتمر صحافي تبادل فيه الرئيس والملاكم العناق، وكشفت تعليقات محمد علي عن تمتعه بالموهبة الديبلوماسية. قال: "لقد وجدت الشعب الروسي يفيض بمشاعر الانسانية والحب مثل جميع الشعوب الاخرى على ظهر هذه الارض. واسعدني ان ارى الكثير من الامم والشعوب هنا تعيش في سلام. ولم اشاهد شخصا واحدا يتطفل للانتقال في سيارة او يستعطي او يعاني الفقر المدقع. ولم اشعر في حياتي بمثل هذا المأمن من السرقة".

غير ان مغامرة محمد علي الروسية قد اثبتت شيئا لا ريب فيه، وهو ان محمد علي سواء أكان بطلا حاليا ام بطلا سابقا، فانه لن يعتزل المسرح

العالمي بسهولة. ومن بين الادوار الجديدة التي يمكنه ان يلعبها دور نجم السينما.

أدوار المستوى

ومع ان فيلم "الاعظم" الذي يروي قصة حياته، والذي كلف انتاجه خمسة ملايين من الدولارات، لم يحقق النجاح الساحق المأمول، الا ان محمد علي اثبت ايضا ان في مكنته ان يلمع على الستار الفضي، وقد بدأ لفوره- في طبيعة الحال- يفكر ويتحدث بطريقته المسرفة عن تحقيق افلام اخرى.

وقال: "بعد هذا الفيلم سأمثل دور هانيبعل مستعينا بمئات الافيال، ثم دور محارب مصري اسمر مستعينا بعشرة آلاف حصان. انها افلام نظيفة، افلام لها رسالة تنفع البشرية...

ولا بد لي ان امثل ادوارا في مستوى حياتي. وهذا وحده يساوي آلاف الملايين.

ولا مكان في افلامي لمسائل الجنس والتدنيس، بل يجب ان تكون كلها افلاما تتاح مشاهدتها للنساء والاطفال. ولا محل عندي لابطال الجنس ولا لاساطير الحشرات الضخمة المرعبة. وانا رجل متدين، والتقي رؤساء الدول، فكيف يمكنني ان اظهر في فيلم وانا عار امارس الجنس.

ان كيسينجر يأبى ذلك لنفسه، فكيف بي وانا اهم من كيسينجر؟".

كان هناك صحافي يجلس بجانب محمد علي في ذلك اليوم، فأضحكه هذا الكلام.

"اهم من كيسينجر؟ ولم لا؟"

فأن وجه محمد علي، من حيث الشهرة لدى الجمهور، معروف ولا شك اكثر من وجه وزير الخارجية السابق بل ربما كان اشهر شخص معروف في العالم باسره. فهو وحده- من بين جميع المشاهير- الذي تتعطل بسببه حركة المرور في كل مدينة يزورها في العالم اجمع.

واما من حيث التأثير الدولي، فربما جاء يوم يتفوق محمد علي على هذا المتجول هنري كيسينجر. ويكون لوقع وداده نحو الاخرين صدى ايجابيا بعيد المدى، خصوصا في بلاد العالم الثالث. ولقد لمّح هو الى انه على استعداد للقيام بمثل هذه المهمة. وقد قال في ٢٣ يونيو (حزيران) ١٩٧٨ انه يعتزم تنظيم جماعة تدعى "العالم- المنظمة العالمية للحقوق والحرية والكرامة"، وصفها بانها منظمة خيرية تستهدف الى الدفاع عن حقوق الانسان.

وبعد ذلك بأسابيع كان محمد علي واقفا امام تمثال الحرية في نيويورك حيث تعهد بمساعدة الهنود الامريكيين في احتجاجاتهم على مقترحات استخدام الاراضي التي تحرمهم الحقوق التي كفلتها لهم المعاهدات. وقال:

"لقد فات الوقت لانقاذ نيويورك او كليفلاند واعادتها الى الهنود، لكن الوقت لم يفت لانقاذ الصحارى القليلة التي خصصت لهم. واذا لم اساعدهم وانا رجل غني، لتملكني الشعور العميق بالاثم".

وماذا بعد؟

لقد قال محمد علي: "كل شيء ممكن لمن يجرؤ على السعي اليه". ولمحمد علي جرأة تفوق جرأة معظم الناس، وهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين بعد.

■ روبرت ليبسايت

فوق كتفَيْ عملاق



قصة طفل أعجوبة
وُلِدَ بلا ذراعين وبلا سَاقين

فوق كتفي عملاق

قال لها وهي تنقله الى فراشه: "عمتي، لماذا يمسك الأطباء بالأطفال الجدد ويرفعونهم ويصفعونهم فور ولادتهم ؟"

وتساءلت هيزل بينها وبين نفسها في عجب عما عسى ان يؤدي اليه هذا الحديث، ولكنها أجابت وأوضحت الأمر.

غير ان الصوت الصغير عاد يسأل في إصرار: "حسنا، فكيف صفعوني اذا ؟ ومن أين أمسكوا بي ليعلقوني مقلوبا ؟"

فقالت هيزل في عجلة: "عندما خرجت الى الوجود، أظن أنهم أمسكوا بك من أذنك وصفعوك، وكانت تلك هي طريقة مجيئك الى الحياة".

كان الصبي كتلة بشرية صغيرة، فقد ولد بلا ذراعين ولا ساقين، وانما كانت له ارادة لا تقهر للتغلب على عجزه. وكان الاندماج بين حياة هذا الطفل الذي جاء ضحية عقار "الثاليدوميد" وحياة كل من أبويه بالتبني أمرا بعيد الاحتمال ولكن كان له فعل السحر على الثلاثة جميعا. لقد كان هؤلاء كلهم ضحايا هزمتهم الحياة فانصهروا معا في وحدة متراصة سداها الحب ولحمتها التماسك وهي اكسبتهم في النهاية نصرا لم يكن في الحسبان".

كان الزوجان العجوزان الواقفان على عتبة الباب في حاجة الى المعونة. فقبل خمس سنوات ولدت ابنتهما طفلا بلا أطراف، ومن دون احدى العينين بينما تعاني العين الباقية ضعفا في البصر. وقد جاءا الآن يلتمسان العون من ليونارد وهيزل وايلز.

كانت الصدمة التي مُنيت بها ابنتهما من ولادة هذا الطفل بالغة العنف فنصحها الأطباء بأن تمتنع عن رؤيته. وعاش الطفل منذ ولادته في مستشفى، لكنه أصبح يحتاج الى ولي" قانوني... شخص يوقع على الأوراق ويتولى الأمور الرسمية. وقام العجوزان بتلك المهمة بضع سنوات ولكنهما أصبحا عاجزين عن تحمل هذا العبء، ولم يستطيعا الاهتداء الى شخص آخر يرضى بتحمل تلك المسؤولية.

وقالا وهما يخاطبان الزوجة: "لقد كنت أعز صديقات ابنتنا يا هيزل، فهل تتكرمي أنت وزوجك لين بمعاونتنا وتقبلان مهمة الوصاية على الطفل آندي؟"

وحين جلس الزوجان للعشاء بعد حين، أخذ الزوج ليونارد وايلز يقلب الأمر على وجوهه، وقال لزوجته: "اسمعي يا هيزل، ان هذين العجوزين لا يطالباننا بشيء مرهق. أليس كذلك؟ المسألة ببساطة هي أنه اذا احتاجت حالة طفل صديقتك الى اجراء اي عمليات جراحية أخرى له فسيطلب منا أن نوقع على تصريح بذلك. فأين هي الصعوبة؟"

فقالت الزوجة: "لست أريد أن أراه يا لين. لا أريد ان أراه أبدا".

فقال هو: "ولا أنا. ولا حاجة بنا الى رؤيته. كل ما علينا أن نفعله هو أن نكون هنا اذا حدث طارىء عاجل كي يجد الأطباء من يخاطبونه".

وأضافت هيزل: "حسنا، اذا كان هذا كل ما في الأمر فلا مانع سنفكر في الأمر، ولكننا لن نتخذ اي قرارات متعجلة".

غير أن ليونارد قرر بينه وبين نفسه أن يتحين الفرصة متى لاحت له كي يذهب ليرى الطفل ويتحدث الى المسؤولين في المستشفى. وراوده أمل في أنه قد ينجح في اقناع هيزل بمصاحبته، ربما اعانهما ذلك على بت الأمر.

النظرات الاولى

أخذ ضباب البكور يتزايل مخليا السبيل لشمس الشتاء بينما كانت سيارة النقل التي يقودها ليونارد وايلز تتخذ طريقها نحو غابات ساسيكس وبراريها الوادعة. كانت السيارة تحمل شجيرات ونباتات مغروسة في أوعية، وكلها آتية من مشتل قائم في براميتون في مقاطعة هانتينغدو نشاير، على بعد ١٥٠ كيلومترا قطعتها السيارة منذ الفجر.

كان وايلز رجلا عريض المنكبين، في منتصف العقد الخامس من عمره، له يدان خشنتان يتخلل نسيجهما خليط من الزيت والطين. وكانت عيناه العسليتان الحادتان تتحركان باستمرار وهو يقود السيارة عبر مجموعة من المباني المنخفضة، حتى أوقفها في ساحة تحيط بها الأشجار، فنظرت اليه كلبته "شيبا" الألزاسية القابعة على المقعد المجاور له، وقد بدا في تطلعها الأمل.

فقال لها لين: "الأفضل ان تنتظري هنا".

وقطع الساحة على قدميه الى أقرب مبنى،ثم نظر حولهفلم تقع عينه على أحد. ففتح الباب وخطا داخلا الى ممر يتردد فيه صوت آلة كاتبة تطقطق من بعيد. ثم تدانت على الأرض الخشبية خطوات نسائية سريعة، فتوقف ليونارد مترددا، حتى ظهرت سيدة تحمل ملفا مليئا بالأوراق فسألته: "ما الخبر؟ ماذا تريد؟"

فأجاب: "لديكم هنا طفل يدعى آندي أود أن أراه".

فنظرت اليه في ريبة وقالت: "آندي. لا اعلم اذا كان من المناسب أن تراه".

"ولكن اليوم هو السبت، أليس كذلك؟ - سأل ليونارد - وقد قطعت مسافة طويلة".

فراحت عيناها تنتقلان عبر ملابس ليونارد القديمة، وتتوقفان عند أظافره المتشققة وسراويله المكرمشة ذات اللون الحائل. وهو أحس بما يخالجها من شك لكن صوته كان هادئا ومهذبا وجدّي اللهجة، على نحو بدا متناقضا مع مظهره.

وأخيرا قالت: "سأرى اذا كان ذلك ممكنا. ويحسن بك ان تأتي معي".

فسار ليونارد خلفها ثقيل الخطو، وأحس بالعرق يبلل راحتيه، فمسحهما بسرواله.

واقتربا من مبنى آخر، فسألته السيدة: "أظنك جئت قبل الآن، أليس كذلك؟"

فأجاب: "كلا".

فقالت: "هل تعني أنك لم تر الصبي أبدا من قبل؟ عفوا اذاً، ولكن لماذا جئت الآن؟ لقد أوشك على أن يتم عامه السادس، ولا يبدو أنك أظهرت أي اهتمام به حتى اليوم!"

كان الأمر يتطور الى أسوأ مما هجست به مخاوف ليونارد وقال: "لقد كنت مارا بهذه المنطقة كما ترين، وخطر لي... انني أعرف الأسرة، وأعلم بأمر آندي منذ... ولادته".

وبدا على السيدة مزيج من نفاد الصبر والتعاطف، فنظرت فوق كتفها، ثم تطلعت الى ليونارد وقالت: "أظنك تدرك ما أنت مقبل على زج نفسك فيه؟"

فهز ليونارد رأسه ايجابا.

واضافت: "أرجو ذلك. ان لديهم من المتاعب ما يفوق كفايتهم، ولست أريدك أن تدخل عليهم وأنت غير مستعد لذلك". وكان ذلك بمثابة فتح باب في وجه ليونارد يمكنه أن ينسحب منه ولكنه قال: "انني أود ان أراه، من فضلك".

فهزت السيدة رأسها، وانحرفت في طريقها حتى بلغت بابا يدور على مفصلة ينفتح ويرتد تلقائيا، وتبعها ليونارد الى الداخل في شيء من التردد.

كان ضوء الشمس ينير الغرفة، فرأى الوجوه الصغيرة ترتفع متطلعة اليه.

لقد شاهد ليونارد في أثناء الحرب العالمية الثانية الآثار التي يلحقها التشويه بالمحاربين: جنود فقدوا أطرافهم كلها، وآخرون فقدوا عيونهم، وغيرهم اصابتهم حروق شنيعة.. وعلى رغم ذلك فانه لم يتحسس من قبل أبدا بما يشبه من قريب أو بعيد تلك الصدمة التي انزلتها به رؤية تلك الوجوه الصغيرة، فسار خلف السيدة ببطء وهو يحاول

ألا يتطلّع حواليه، حتى رآها تلتقط من الأرض جسما ضئيلا أسود الشعر مشوه التكوين، بدا أنه جسم طفل.

وقالت متسائلة: "السيد...؟"

- ليونارد وايلز.

"آندي! ها هنا زائر يريد أن يقابلك... سيد اسمه وايلز".

كان رأس ليونارد يدور من هول المفاجأة، ولكنه حاول أن يغتصب ابتسامة، وقال: "أهلا بك أيها الصغير! ما رأيك في أن ترتدي ملابسك وتصحبني في نزهة في سيارة النقل التي أقودها؟"

وحمل ليونارد الصبي الذي يبلغ الخامسة من العمر وسار به نحو سيارة النقل، حيث كانت الكلبة "شيبا" جالسة وقد مدت رأسها خارج النافذة ترقب اقترابهما.

وصاح الصبي: "أوه... ذلك كلب ألزاسي، أليس كذلك؟ أراهن على أنه شرس... أهو كلب حراسة؟"

"انها كلبة أنثى - قال ليونارد - واسمها شيبا. والمفروض انها تحرس سيارة النقل، ولكنها لا تؤذي ذبابة. هيا يا فتاة هذا هو آندي".

فبدأت "شيبا" تلعق قدمي الصبي وتتشممهما، فقال: "انها لا تكاد تداعبني. ولكنها لا تعض، أليس كذلك؟"

ولم تكد تمضي دقائق حتى تلاشى من نفس ليونارد كل ما كان أحس به في البداية من اشمئزاز واشفاق، اذ تبين انه أمام صبي صغير يتميز باليقظة والانتباه واستقلال الشخصية وقوة الارادة. ومضى الصبي يسأله بلا انقطاع وبذكاء عن عمله، وبيته وزوجته، ويتسوّل منه الحلوى ويستمتع بها مثل أي ولد صغير عادي. وعندما أعاده ليونارد في النهاية الى المستشفى، صاح الطفل مفتخرا فقال لرفاقه: "لقد اصطحبني عمي في نزهة. ولديه سيارة النقل الضخمة تلك وهذه الكلبة الألزاسية التي تدعى شيبا. ولن يلبث أن يعود مرة أخرى ليصطحبني في نزهة بالسيارة... أليس كذلك يا عماه؟"

فأجاب ليونارد: "انني سأعود يا آندي. والآن الى اللقاء".

فرد آندي: "الى اللقاء. وشكرا".

وحين بلغ ليونارد الباب عاد الصوت الصغير يلاحقه مصرصعا في اصرار: "عدني! عدني بأن تعود!"

فنان الفرار الكبير

كان مستقبل آندي متجهماً قاتم الأفق منذ ولادته. وحين خرج الى الدنيا في ١٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٢ لم يعتقد الأطباء أنه سيعيش. فهو ولد بلا ذراعين، وكانت كتفاه ملساوتين تماما بحيث انزلق جذعه الصغير بين ايدي الممرضات في نعومة وكأنه جسم فقمة (عجل بحر) حديثة الولادة. وكانت له بدلا من الساقين زعنفتان تبرزان على الجانبين في أسفل جذعه، وهما أشبه بشيء وسط بين اصابع القدمين وقوائم الطيور التي تمتد بين أصابعها أغشية جلدية. وكان محجر عينه اليسرى ممتلئا بكيس لحمي كبير بدلا من العين ذاتها، أما أنفه فكان أفطس عريضا.

كان آندي المشوّه الى أقصى الدرجات ضحية صارخة من ضحايا الأخطاء الفادحة المرتكبة في صناعة الأدوية، وواحدا من ذلك الرعيل

البائس المسكين من الأطفال العديمي الأطراف الذين أخذوا يدخلون المستشفيات في انحاء العالم بعدما نزل الى السوق عقار "الثاليدوميد" الالماني ثم أصبح يباع بترخيص في انكلترا حيث غدا في متناول الجمهور في شهر أبريل (نيسان) ١٩٥٨ بمقتضى وصفة طبية.

وقيل في مزايا "الثاليدوميد" انه يعالج القلق والأرق وهبوط المعنويات وغثيان الصباح، كما ساد الاعتقاد بسلامة تعاطيه التامة خلال فترة الحمل. وبعد ثلاث سنوات ونصف سنة (عام ١٩٦١) نسبت رسميا الى العقار مسؤولية تفشي ظاهرة شبه وبأية من المواليد المشوهين تشويها بالغا، وسحب من السوق في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من العام نفسه، بعد أن بلغ عدد ضحاياه في بريطانيا أكثر من ٤٠٠ طفل تراوح تشوهاتهم بين نقص مفصل من احد اصابعهم والافتقار التام الى الأطراف الأربعة، اضافة الى ما صاحب الكثير من هذه التشوهات البدنية من اصابات الصمم او التأخر العقلي أو غير ذلك من أنواع العجز.

وكان بيت آندي هو جناح المستشفى المشمس المدهون بالألوان الزاهية، غير أنه كان بلا شك مؤسسة يعيش فيها معا عدد كبير من الأطفال وينقصها الجو العائلي وحرارة الأسرة واتاحة المجال الكافي للذوق الفردي والميول الفردية كذلك. ومع مرور السنين، نما آندي وذكاؤه النيِّر وعزيمته المفعمة بالتصميم على ما يتجاوز حدود أطرافه الضائعة وبداياته التعسة، فبدت له جدران المستشفى ذات الألوان الزاهية قضبانا يقيم وراءها سجن كابح. وكان يدرك أن في هذه الدنيا أنواعا من الحياة خيرا من هذه، وكان مصمما على الاهتداء اليها.

وكان، وهو في فراشه في موعد النوم، يقضي ساعات المساء وهو يدبر الخطط الخيالية للهرب، فيتصور نفسه مرة في دور الهارب الكبير، ومرة اخرى في دور الساحر الشهير هوديني وهو يخرج طليقا من تابوت محكم، ومرة ثالثة فيدور أسير حرب يتفادى الرصاص الذي ينهال عليه وهو يدلي الحبل الذي حاكه من ملاءات الفراش المعقودة والمشدود الى نافذة زنزانته في القلعة المنيعة التي سجنه فيها الأعداء، ومرة رابعة في دور "آندي الذي لا يقهر"، قائد المقاومة السرية الذي يضع مكامن من المفرقعات في أحذية الألمان الطويلة بينما رجاله يفلتون خلال القضبان المحترقة من غرفة التعذيب التي عانوا فيها الأمرين.

وكان يتحسس ملاءات الفراش بقدميه الدقيقتين الشبيهتين بالزعنفتين، ويسائل نفسه عما اذا كانت ستتوافر له القدرة ذات يوم كي يمزقها ويربطها عقدا الى بعضها.. عندئذ سيتدلّى بها هبوطاً محاذياً الجدار.. وقد قضى ساعات طويلة يستظهر في عقله مواضع الشقوق فيه ثم ينفلت الى الأرض بهدوء تام على الحشيش ويتدحرج عبر الطريق بعيدا عن الغرفة البيضاء حيث تغرز فيه الأبر، بعيدا عن غرفة الدراسة حيث يأسرونه ساعات طويلة وهو حبيس ساقيه الصناعيتين الثقيلتين البطيئتين.

غير أن العزاء الذي كان يستمده

من خيالاته وأوهامه تلك، لم يلبث ان راح يتناقص مع اطراد نموه أو تقدمه في العمر على الأصح نظرا الى قلة نموه البدني، وبدأ هاجس آندي يقنعه بأن حاله هذه ليست سوى عقاب نزل به من اجل ذنب ارتكبه من دون علم منه، فجازاه الله بحرمانه ساقيه وذراعيه. أما المستشفى فأصبح في نظره مكانا للأطفال المذنبين عندما تمتنع أمهاتهم عن ابقائهم في احضانهن.

وظل آندي ينتظر على هذه الحال المضطربة وهو يعتزم شدّ جسده الضئيل وزعنفتيه الى أي شخص يرضى دخول حياته والبقاء فيها فترة تكفي لدعم آندي وتمكينه من الصمود... فلقد كان يشتهي لنفسه أسرة يعيش في كنفها وبيتا يطمئن اليه، تدفعه الى ذلك غرائزه مثل حيوان يسعى الى ما يسد رمقه.

ليونارد وهيزل

لم تبرح من خاطر ليونارد تلك الأحاسيس المرعبة وذلك العجز الذي تلمسه في نفسه حين رأى عنبر الأطفال للمرة الاولى، فراح يقود سيارة النقل على مهل في اتجاه بيته، وهو يدير في رأسه أفضل ما يمكنه ان يقوله لزوجته هيزل التي كانت تنتظره عند عتبة البيت، فبادرته سائلة: "كيف سارت الامور؟ وما شكل هذا الطفل؟"

فقال: "هيا بنا ندخل أولا ونتناول قدحا من الشاي".

كان بيتهما صغيرا لا يتجاوز الغرفتين، كما كانت مواردهما ضئيلة. وكان مدخل المطبخ من باب يقع في حجرة الجلوس.

وعادت تسأل: "حسنا يا لين، ما هو رأيك؟"

كانت هيزل في الثلاثينات، ممتلئة البنية، سوداء الشعر، تضع نظارتين وتتملكها البشاشة والرغبة في الحديث حين يعود اليها ليونارد من عمله. لكنها أحست هذه المرة بما ينتابه من قلق وارتباك، فاستولى عليها الصمت والقلق ولم تجد شيئا يبعث على الراحة او الاطمئنان في ما رواه لها عن زيارته.

ولم تكن الحياة رفيقة بأي من الزوجين. فقد ولد ليونارد عام ١٩١٢، وكان ترتيبه الخامس بين ستة أطفال. وهو يكبر زوجته هيزل بثمانية عشر عاما. وكان منذ صباه الباكر شديد الميل الى الوحدة عنيد التمسك بها، فراح ينتقل من عمل الى آخر من دون أن يجد نجاحا مستمرا في أي منها. وكان برهن في سنيّه المدرسيّة عن عقل فطن سريع الفهم لكنه سريع الملل، فجاءت تقاريره الدراسية سجلا طويلا حافلا بالذنوب. ومات أبوه وهو في التاسعة، وحين قارب الرابعة عشرة ترك المدرسة نهائيا كي يعمل في حانوتين للحلويات تملكهما أمه.

وجرب ليونارد حظه خلال السنوات التالية في البستنة التجارية، ثم التحق بالجيش وقضى خدمته العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية عامل رادار في المدفعية الملكية البريطانية في العراق ومصر وصقلية، حتى سرّح من الجيش لاصابته الجسيمة في حادث تصادم بين سيارتي نقل أدى الى تهشم وجهه تهشيما خطيرا مما استلزم اجراء عدد

من جراحات التجميل الكبيرة. وبعد الحرب تزوج ليونارد واشتغل بالاصلاحات الكهربائية، ثم عمل حينا في وظيفة مراقب لمصايد الأسماك في المجلس المحلي لأحدى المقاطعات، وانتهى أخيرا الى العمل سائقا لسيارة نقل في أحد مشاتل هانتنغدون. وحين التقى هيزل كانت حياته الزوجية تتدهور بسرعة، وكان يعاني مصاعب مالية، كما هي حاله على الدوام.

أما هيزل فقد ولدت في ضوء مصباح زيتي داخل بيت متنقل (كارافان) في حقل قريب من بلدة بيتر بورو، وقضت سني مراهقتها في أكواخ خالية من التدفئة وفي الملاجىء المحلية حيث يعمل النزلاء نظير ايوائهم واطعامهم، وحين غادرت المدرسة في السن الرابعة عشرة كانت عاجزة عن القراءة والكتابة، وان تكن تمكنت في النهاية من تعليم نفسها بنفسها حين قاربت العشرين.

كانت - ككل مراهقة- تبحث عن مثل أعلى. عن رجل يحررها من أسر حياتها البائسة المرتبكة ويمنحها الأمان والحب الدائم.

وتزوجت للمرة الاولى قبل أن تبلغ السابعة عشرة وانجبت بنتا بعد ذلك بثمانية عشر شهرا، ولم يلبث زوجها الاول أن غادرها واختفى في صحبة مهرجان متنقل. واصاب هيزل مرض خطير، وتملكها الانقباض النفسي فزاد حالها ضغثا على إبالة، فأخذت السلطات منها الطفلة ولم ترها امها أبدا بعد ذلك.

ثم أنجبت هيزل طفلا آخر كان ثمرة علاقة تالية، فأخذته السلطات منها أيضا (★). وغدت هيزل حطاما، واقتنعت بأن القدر يتحامل عليها فعاشت على حافة الانهيار العصبي وغرقت في بحر من القلق وعدم الاستقرار واليأس القاحل المجدب، واتاحت لوصمات طفولتها البائسة ان تنشر ألوانها القاتمة فيصطبغ بها شبابها، وقضت عشرينات عمرها في سلسلة من العلاقات العابرة المتتابعة مع الرجال والأعمال المخفضة الأجر والاغراق في الشراب.

وحين التقت ليونارد كانت في السابعة والعشرين بعدما طلقت مرة وترمّلت مرة أخرى. وبعد حين، كشف كل منهما لصاحبه عن نواحي القصور في حياته، كوارث هيزل العاطفية القاسية والجدب الاجتماعي الذي يعيش فيه ليونارد، وسرعان ما ربط الحب بينهما فتزوجا. ولم تكن حياتهما معا سهلة على الدوام، لكنها كانت أفضل منها بكثير قبل الزواج.

كانت هيزل لا تزال عصبية المزاج ومتطرفة في انفعالاتها تفاجئه بين حين وآخر بانفجارات الغضب والاحباط، وذات مرة نشبت بينهما مشاجرة طويلة انتهت بأن أمسكت هيزل بطقم الشاي والقته أرضا. وراقبها ليونارد وهي تفعل ذلك من دون أن يهتز له جفن أو تتغير ملامحه، ثم انحنى والتقط القدح الوحيد الذي بقي سليما وسار عبر الغرفة نحو هيزل الباكية، وقدمه اليها رسميا: "اليك يا سيدتي. هذا هو القدح الوحيد الذي نملكه، ولكنه سليم معافى".

(★) يعطي التشريع البريطاني السلطات الاجتماعية حق سحب الطفل من أحد الأبويين او منهما معا اذا تبين من دراسة الحال ان مصلحة الطفل تقتضي ذلك.

فحملقت هيزل في وجهه لحظة وقد أعمتها الدهشة، ثم انهار غضبها في ضحك طويل متصل.

واخذا يتحدثان بلا نهاية عن المستقبل: هل يحسن بهما أن ينجبا أطفالا؟ لا سيما ان ليونارد لم يرزق اطفالا من زواجه الاول، وهو كان يتمنى من كل قلبه أن تنجب له هيزل ابنا أو ابنة، لكن زيارتها لأحد الأطباء أكدت لها ما كانت تهجس به مخاوفهما الخفية: ذلك ان جراحة قد اجريت لها بعد وقت قصير من ولادة طفلها الثاني ادت الى تضاءل فرصة هيزل في انجاب أطفال آخرين، وكان لا بدّ لها من أن تتقبل هذه الحقيقة.

لكن الحياة مع ليونارد قد أسبغت على هيزل مقدارا من الثقة والاستمتاع بالحياة. فقد كان ليونارد يمثل كل ما افتقرت اليه حياتها: اللباقة والأدب وحسن التصرف والعطف والرقة.. وقد جعلها ذلك حريصة على هذا التوازن الجديد الدقيق الرقيق في حياتها وتتحاشى الاضطراب الذي ربما الحقه بها طفل عاجز لم تسبق لها رؤيته.

وخلال الاسابيع التي أعقبت زيارة ليونارد لآندي، أوضحت هيزل لزوجها موقفها تجاه هذا الأمر، فقابل ترددها بالتقدير والاحترام، ولكنه حثها على أن تحاول على الأقل مرافقته في زيارته التالية للصبي.

"الوقت كفيل بالامر"

لقد استلزم الامر من هيزل خمسة اشهر كاملة لكي تقرر مرافقة ليونارد في زيارته للصبي. غير انها اخذتها الدهشة حين رأت امامها في المستشفى صبيا عادي القامة في السن السادسة يرتدي سترة وسروالا طويلين.

وغمغمت: "ولكن يا لين..."

فسارع هو يقول لها: "لا بأس. انه يرتدي أطرافه الصناعية".

وهنا صاح آندي: "أهلا بعمي!" وحاول ان يسير نحوهما. واحتاج الى دقائق عدة كي يقطع بضعة أمتار فوق قضبان الالومنيوم التي تقوم مقام ساقيه الاصطناعيين، اذ راح يدور الى الامام نصف دورة كي يتقدم في كل "خطوة" خمسة سنتيمترات، مؤرجحا جذعه الى احد الجانبين مرة ثم الى الجانب الآخر مرة اخرى، الى ان انتصب امامهما يترنح قليلا وهو يتطلع نحوهما الى اعلى في تساؤل حذر يطل من عينه العسلية المنفردة خلف نظارته.

وسأل: هل هذه هي عمتي؟"

فرد ليونارد: "نعم يا آندي. وقد جئنا نصطحبك اليوم في نزهة".

فأشرقت اسارير الطفل بالبهجة على الفور، وعاد يسأل: "تقصد خارج منطقة المستشفى؟ بعيدا عن هنا؟"

فسأله ليونارد بدوره: "هل يسرك ذلك؟"

فصاح آندي: "رائع!"

وبحث ليونارد الامر مع الممرضة فسلمت ان خروج الطفل لبضع ساعات فكرةممتازة، غير انها قالت: "ولكن لنخلع عنه ملابسه ونغيرها اولا، فهو لن يحتاج الى ذراعيه وساقيه بصحبتكما في السيارة".

ولم تلبث الممرضة ان خلعت الذراعين والعدة والمقعد المجوف والساقين جميعا، فاستطاعت هيزل ان ترى - للمرة الاولى - مدى عجز

وضآلة حجمه، فاصطرع في نفسها الاشفاق والهلع.

وقالت: "هيا يا حبيبي". والتقطت الصبي ابن السنوات الست وكأنه رضيع واحتضنته بذراعيها. وانطلقت بهم السيارة على الطريق الرئيسي الى المدينة. ولم تلبث هيزل ان سألت آندي عما يشاء.

فقال: "هل يمكننا ان نذهب الى مقهى؟ اقصد داخل مقهى، من فضلكم، فانا احب ارتياد المقاهي".

وسرعان ما عثروا على مقهى كبير فأوقفوا السيارة بالقرب منه، واقاموا الكلبة "شيبا" حارسا عليها ومشت هيزل وهي تحمل آندي نحو المقهى، يتبعها ليونارد. وكانت هناك شلة من الناس في جوار المدخل متحلقة حول قائمة الاطعمة والمشروبات ومهتمة بتبادل التعليقات. وسرعان ما توقف الحديث بين افراد المجموعة عندما اقتربت هيزل وآندي، وراحوا يحدقون ويتبادلون الهمسات، فتوقفت هيزل متهيبة وقد عراها الارتباك والحرج. وانضم اليها ليونارد، ووقفا مترددين في الدخول. لكن آندي صاح معترضا: "كنت اظن اننا سندخل المقهى!" فرد هيزل وليونارد على حملقة الفضوليين بحملقة مماثلة، وقالت هيزل: "هيا بنا ندخل اذا!"

وما ان دخلوا المقهى حتى بدأ آندي على الفور يثرثر بحماسة عن المكان وما يحتويه من اطايب الطعام والشراب غير ان ليونارد وهيزل توقفا امام خوان المعروضات مرة أخرى. فكيف يأكل الطفل بلا ذراعين؟

وسأل آندي: "ماذا في الامر؟"

فتوسلا اليه ان يقول لهما: "ماذا يريدهما ان يفعلاه؟"

فقال: "سأريكما". واسر الى هيزل بما يشتهيه: "ساندويشا من سمك السلمون، وفطيرة بالمربى، وكوبا من عصير البرتقال". فحملته هيزل الى احدى الموائد، وتبعهما ليونارد وهو يحمل طلبات آندي وطلباتهما معا.

وقال آندي: "ضعيني في كرسي من فضلك، وحدي" فاستجابا الى طلبه. و"الآن تابع آندي، ارجوكما ان تضعا طعامي وشرابي امامي على حافة المائدة".

ونظر الزوجان الى الصبي، مأخوذين فوجداه قد تزحزح الى الامام من مقعده واخذ حافة الكوب بين اسنانه، وأماله وبدأ يشرب من دون ان يريق قطرة واحدة. ثم اعاد الكوب الى المائدة وتأهب ليأكل الساندويش. فجذبه بذقنه الى حافة الطبق، ثم امسك به بين اسنانه وقضم منه قضمة نظيفة، واعاد ما تبقى منه الى الطبق ومضى يأكل باستمتاع ظاهر. وبعد بضع دقائق تبين لجميع الناظرين ان آندي قادر على الاكل من دون مساعدة، ومن غير ان يريق نقطة واحدة او يلوث شيئا، فتلاشى فضولهم، واستطاع الرفاق الثلاثة عندئذ ان يستمتعوا بوجبتهم الخفيفة بعيدا عن حملقات الرواد المرهقة.

وحين عادوا الى المستشفى تذاكر ليونارد وهيزل في امكان اصطحاب آندي الى بيتهما طوال عطلة العيد، في أوائل شهر يونيو (حزيران)... وقالا: "اننا نود ان نراه ثانية في طبيعة الحال، ولكن لخمسة ايام كاملة".

ومن بعيد، كان آندي يجأر بهما ويجهش بصوت عال عميق، وبينما

كان ليونارد وهيزل يجتازان الجناح، كانت عين آندي العسلية عالقة بهما ترمقهما بلهفة.

وصاح آندي: "سوف تصحباني الى البيت، اليس كذلك - في عطلة العيد؟ وسأرى جميع الاماكن التي حدثتماني عنها!"

واذا كانا يعبران الفناء نحو السيارة قالت هيزل: "لا أستطيع يا لين. لا أستطيع. هذا مستحيل. ما فائدة الانزلاق الى موقف لن نستطيع حياله شيئا؟"

فقال هو يحثها: "لا تتعجلي فالوقت كفيل بالامر".

"أحبك يا أماه"

واخيرا قر رأي ليونارد وهيزل في كثير من التخوف والظنون، على اصطحاب آندي الى بيتهما لمدة خمسة ايام في عطلة العيد.

قال ليونارد يشجعها: "ليست المسألة في انه متخلف عقليا او اي شيء من هذا القبيل، فهو صبي صغير ذكي يحسن التفكير والكلام والتصرف أيضا. وقد رأيت انت كيف تناول وجبته وحده. ولن يكون الامر سيئا في الحقيقة، والفترة كلها لا تعدو اياما خمسة".

ووافقت هيزل، ولكنها قالت: "لست أريده أن يتعلق بنا عاطفياً يا لين، والا انتهى بنا الامر الى كثير من المتاعب والحسرة. وليس في نيتي ان ارتبط به عاطفيا، فلدينا من مشاكلنا الخاصة فوق الكفاية، اليس كذلك؟"

وكانت زيارة آندي للبيت في عطلة العيد بمثابة كارثة من جميع النواحي. فعلى رغم ما في طبيعة هيزل وليونارد من عطف وسخاء طبيعيين، الا انهما عجزا في ما يبدو عن اختراق حاجز التحفظ الذي كان يحتمي به آندي كالدرع، فهو لا يستجيب لمحاولات هيزل ان تداعبه وتقبله، ويجفل من الاعزاز العاطفي الصريح، وكثيرا ما يبقى واقفا في جمود التمثال على ساقيه الاصطناعيتين في حجرة الجلوس.

وافرط الزوجان في جهودهما التي بذلاها كي يجعلاه يشعر بانه شخص عزيز فلم يلبثا ان وجدا نفسيهما رهن اشارته طوال الوقت من الصباح الى المساء. فهو يريد ان يشرب ويحتاج الى ان يذهب الى دورة المياه، ويشاء ان يخرج الى الحقول ويريد ان يعود الى المنزل ويود تركيب اطرافه الاصطناعية، ثم يرتعد منها؛ ويريد ان يشاهد التلفزيون - اين التلفزيون؟ هل يمكنه ان يحصل على بعض الحلوى لا، ليس من هذا النوع؛ وانما من النوع الآخر.

وبعد ثلاثة ايام استبد العياء بليونارد وهيزل وساء مزاجهما فوجد ليونارد عذرا للابتعاد عن البيت حين عرض عليه العمل صباحا لمدة نصف يوم، فالزوجان كانا يحتاجان الى ما سيحصل عليه ليونارد من اجر اضافي.

ووجدت هيزل نفسد وحيدة مع هذا الطاغية الضئيل الذي لا يتجاوز طوله نصف المتر، وساورتها الشكوك في ان تتمكن من الصمود حتى نهاية الصباح.

ولم يكد ليونارد يغادر البيت حتى بدأ آندي هجومه بطلبات لا تقع تحت حصر. فهو يريد ان يلعب مع الكلبة "شيبا"، مع انه يخاف منها، هل

يمكن ان يجلس في كرسي؟ انه يريد ان يتدحرج على الارض. هل يمكن ان يحصل على بعض الاقلام الملونة؟ اين القلم الاحمر؟ ان هذا الورق لا يصلح. وكانت هيزل طوال هذا الوقت تهرول في كل مرة الى حجرة الجلوس ركضا من المطبخ حيث تعنى بتحضير طعام الغداء. وعند الطلب العشرين نفذ صبرها وصاحت به: "انت ولد أناني فظيع!" فقاوم ليجلس معتدلا، وعدل نظارته على أنفه بكتفه، وقال: "ماذا حدث؟".

فتقدمت منه هيزل عابسة وقالت: "انني اهتم بتحضير الطعام وسأقضي الساعة التالية بكاملها في المطبخ من دون مقاطعة واذا سمعت منك صيحة أخرى فلن ينتهي الامر على خير".

فهز آندي رأسه موافقا وقال: "هل تسمحين باجلاسي ارضا من فضلك؟"

فردت: "سأفعل ذلك. وهذا آخر شيء اقوم به من اجلك حتى انتهي مما في يدي!"



آندي مع هيزل.

ووضعته هيزل على الارض مستندا الى كرسي وتركته لشأنه ودخلت المطبخ تزبد غيظا فأفرطت في تمليح البطاطا (البطاطس) ثم خرجت الى الهواء الطلق كي تهدأ اعصابها قليلا وكانت يداها ترتجفان غضباً. وقالت لنفسها: "فور عودة لين الى البيت سنحمل هذا الطفل الى المستشفى من دون ابطاء والا فأني اترك البيت". ثم عادت الى المطبخ وما تطهو من طعام. ولم تلبث ان لاحظت ان آندي قد زحف على ردفيه من وسط حجرة الجلوس حتى بلغ باب المطبخ.

وقال بهدوء: "ماما".

فردت: "اسكت يا آندي. أنا لست امك".

فقال: "آسف"

وبقي آندي مستندا الى عارضة الباب بينما هيزل تنتقل من غرفة الى اخرى، ترتب المنزل وتخط رسالة، ثم

تهرع عائدة الى المطبخ لترقب نضج الطعام.

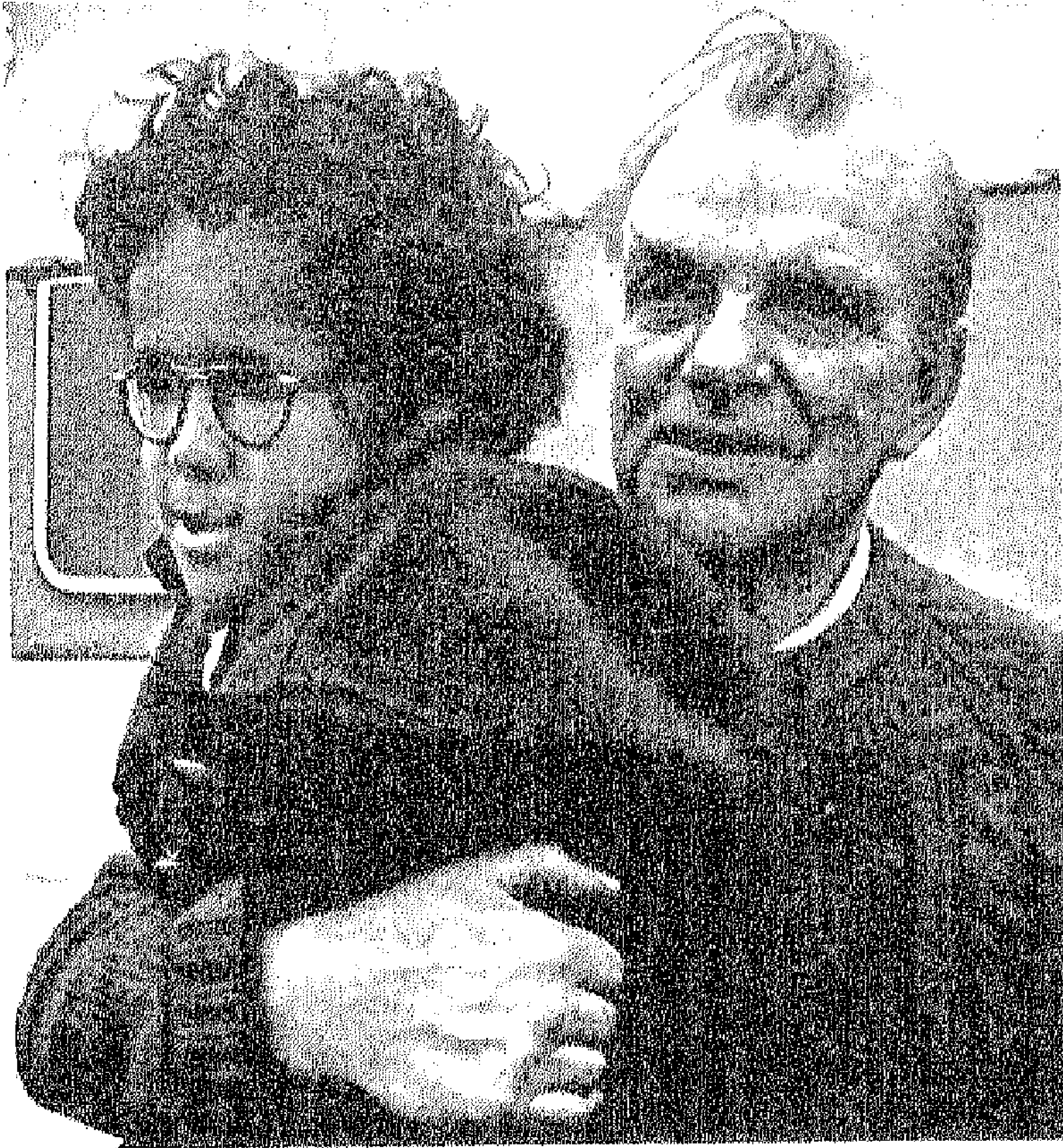
وقال آندي متهيبا: "معي شيء لك".

فنظرت الى اسفل، فوجدت قطعة ورق مطوية تطل من زعنفته اليسرى. وقالت: "حسناً. على هذا الشيء ان ينتظر. اليس كذلك؟" فلم ينبس آندي ببنت شفة، وتعمدت هي ان تجعله ينتظر. فلا بد له ان يدرك من هو صاحب الامر في البيت والا ضاعت مكانتها. واخيرا مسحت يديها بمنشفة وقالت: "حسناً، لدي الآن قليل من الوقت. ما هو هذا الشيء؟" قال: "انها رسالة صغيرة". فانحنت واخذت منه الورقة، وفتحتها، فقرأت فيها جملة واحدة كتبت بحروف كبيرة متناسقة. جملة لا شك انها استغرقت من آندي ٢٠ دقيقة كاملة كي يكتبها بزعنفته: "احبك يا أماه".

خرجت هيزل من البيت، وعبرت الطريق حتى بلغت خلاء الحقول، وبكت...

لين.. المخترع

حين عاد آندي بعد الاجازة الى المستشفى توقع هيزل وليونارد ان تستعيد حياتهما وتيرتها الهادئة المألوفة، وعاشا بضعة ايام يهنئان انفسهما على عدم تورطهما مع الطفل ولكن لم يكد يمضي اسبوع واحد حتى بدآ يتطلعان الى الروزنامة ويضعان علامات بارزة على الايام التي سيتمكنان فيها من مصاحبة آندي.



آندي مع ليونارد.

وكان المستشفى قد استفسر عما اذا كانا يقبلان ان يستضيفا آندي مدة اسبوعين كاملين، فرأيا ان هذا سيثير لهما عددا من المصاعب، اذ ستضطر هيزل الى الحصول على اجازة من عملها، على حين ان ضياع اجر هذين الاسبوعين من دخلهما يلحق ضررا كبيرا بمواردهما المحدودة على الدوام. الا ان كل اسباب القلق هذه تضاءلت امام الحماسة التي بعثتها

فيهما فكرة مجىء آندي الى بيتهما مرة اخرى.

وكانا وعدا المستشفى بان يستخدم آندي ذراعيه وساقيه الاصطناعية في اثناء اقامته لديهما، وكانت رعاية ضحايا "الثاليدوميد" لاتزال في مستهل عهدها وتعتمد الى حد كبير على الاطراف الاصطناعية التي تزيل اشمئزاز الجمهور الذى لم يألف بعد رؤية آثار العقار الفادحة. لكن جدوى هذه الاطراف أصبح امرا مشكوكا فيه بعد بضع سنوات.

ولم يلبث ليونارد ان ادرك مدى العجز الذي يفرضه على الطفل هذا الجهاز المعقد الرهيب. فقد كان يتحتم على آندي في المستشفى ان يربط في كلصباح بسرج مجوف يتصل بـ"دعامتين" صلبتين. وكان يحتاج الى عشر دقائق كاملة كي يخطو متأرجحا من احد طرفي العنبر الطويل الى طرفه الآخر (وكان آنذاك يبتسم قائلا: "انني ابدو مثل غول فرنكشتاين").

وكان يتلقى دروسه ويتناول غداءه واقفا في ذاك الجهاز، ويظل طوال اليوم يحلم باللحظة التي يفك فيها اساره من الآلة الجهنمية حتى يتمكن من التدحرج بحرية على الارض مرة اخرى. بل انه كان يتطلع بلهفة الى موعد قضاء حاجته لان ذلك كان يمنحه استراحة قصيرة من الساقين الاصطناعيتين والمقعد المجوف. لكن الاسوأ من هذا كله (كما بدا لليونارد) هو ن زعنفتيه اللتين تساعدانه في اداء اشياء كثيرة كانتا تحتجزانه بلا فائدة بين "الدعامتين" وتظلان مختفيتين في ثنايا السروال الطويل.

وللمرة الاولى قرر ليونارد وهيزل ان يراقباه باستمرار لعلهما يدركان ما ينبغي ان يعملاه لكي يصبح اقل اعتمادا على اطرافه الاصطناعية وكانت الكلبة "شيبا" هي التي جعلتهما يصممان على التخلي عن اطراف آندي الاصطناعية(التي تصعب الحياة معها وتغدو عذابا مستمرا، بتلك الروافع الهوائية الكأداء المتخذة شكل الاذرع والاصابع).

فقد كانت "شيبا" الهادئة الامينة ممدة ساكنة في ركن الغرفة، فتدحرج آندي نحوها حتى التصق بها، واسند رأسه على جسدها.

فقالت له هيزل: "حاول ان تلاطفها وتمسدها".

فراح آندي يتلوى حتى دار حول نفسه، وتلمس الكلبة بزعنفتيه الخلفية، على نحو تعوزه الرقة فرفعت "شيبا" رأسها، وتثاءبت، وعادت الى الاسترخاء.

وقال ليونارد: "الا ترين انه ما دام حبيس هاتين الذراعين الاصطناعيتين فانه لن يعرف ملمس حيوان ابدا؟"

وعلقت هيزل قائلة: "تماما كما لو اضطررنا الى رفع كل شيء بملقط".

وخلال ايام قليلة كان العياء قد استولى على هيزل مرة اخرى. فقد كانت تشعر هي وليونارد بان آندي لا يترك وحده لحظة - سواء اكان مرتديا اطرافه الاصطناعية ام لا، حتى انه اذا ما اسندته هيزل الى الحائط او الى السرير، استولى عليه الخوف من ان يقع متدحرجا. وكلما دخلت الكلبة "شيبا" الحجرة واخذت تتشمم في ما حوله، صاح مستغيثا بهيزل، خشية ان توقعه الكلبة فيصاب رأسه بأذى. وازاء ذلك كله، تفرغت هيزل طوال مساء بأكمله وبمنتهى العناية والدقة

كي تنتزع منه تخوفه من الوقوع.
وكان آندي خائفا متهيبا في البداية، ولكن سرعان ما تزايدت مهارته، فتعلم كيف يتدحرج لكي يخفف حدة السقطة ويتجنب اصطدام رأسه او وجهه، ولم يلبث ان غدا قادرا على الدوران والتدحرج بحيث يستقر على كتفه، فصار يتأرجح ويقع باختياره في رشاقة يحسده عليها غصن البان. وخرج الاثنان من هذه الدورة التدريبية منهكين، فاحتضنت هيزل آندي وهيأت له شرابا من عصير البرتقال.
وقالت لدمن دون تفكير: "سيكون لدينا خبر يسر له ابوك لدى عودته". ثم ادركت لفورها مغزى ما قالته، ونظرت الى آندي، فاذا به جالس على الارض وقد امسك كوب عصير البرتقال بين اسنانه وهو يبتسم لها في غبطة تامة، فاسرعت تلجأ الى المطبخ.
وأعرب ليونارد عن اغتباطه بما حققه آندي من تقدم، الا أنه بعد أن وضع الصبي في فراشه، أسر بمخاوفه لهيزل. وقال: "ما دام الصبي هنا معنا فانه يستطيع أن يحقق تقدما كبيرا من دون ذلك الجهاز البشع. ولكنه لن يكاد يعود الى المستشفى حتى يضطر الى ارتدائه ثانية، وهو يقضي في المستشفى مقدارا من الوقت يزيد كثيرا عما يقضيه معنا هنا". وأشعل سيجارة ثم اختفى في المطبخ.
وانقضت ثلاث ساعات وهو لا يزال في المطبخ، بينما كان النوم قد استولى على هيزل، ثم استيقظت وهي تتساءل عما يفعله زوجها، فخطت الى المطبخ لتجده قد بسط أمامه الساقين الاصطناعيتين بعد أن فككهما تماما.
وصاحت به: "ما هذا الذي تفعله يا لين؟ إن هذه الأشياء غالية الثمن!" ولكنه لم يأبه لما قالته، واستغرق في عمل رسم تخطيطي سريع على ظهر علبة سجائر ممزقة وهو يقول: "لا بد أن هناك وسيلة ما لتسهيل سيره على هذه الأشياء. اذهبي أنت ونامي. فسوف يستغرق الأمر بعض الوقت".
ومضت هيزل لتنام.

العربة الرقم ١

ورث ليونارد عن أبيه موهبة الاشغال الميكانيكية أيا يكن نوعها. وقد نجح وهو لما يكد يبلغ التاسعة من عمره، في اصلاح سيارة أمه من طراز "موريس" التي كانت تثير متاعب لا حصر لها، ففكك محركها على نحو منظم ثم أعاد تجميعه.
وفي عهد طفولة الراديو، في اوائل العشرينات، كان ليونارد يصنع لنفسه أجهزة الراديو الخاصة به. بل وصنع جهازا لعرض الافلام الناطقة من دون ان يتلقى اي تعليم او ارشاد من هذا القبيل، معتمدا على الملاحظة الشخصية والاستنتاج الذاتي. وقد اصبح خلال الحرب العالمية الثانية عامل رادار ماهرا غير انه طوال السنوات التي قضاها بلا هدف لم يمارس اي نشاط ابداعي في مجال الميكانيك والكهرباء. فلم تكن لديه حاجة لذلك أما الآن فالأمر يختلف.
وفي تلك الليلة، بينما كان آندي مستغرقا في النوم، أخذ ليونارد الساقين الاصطناعيتين والكرسي المجوف، والسرج والذراعين، وجاء بها الى ورشته الصغيرة وبدأ يدخل

عليها ما ارتآه من تعديلات.. كان الجهاز الموجود يتيح لآندي أن يحرك ساقيه الاصطناعيتين مسافة خمسة سنتيمترات تقريبا في كل مرة، بينما قدّر ليونارد أن الجهاز يمكن أن يتيح له الحركة مسافة عشرة سنتيمترات كاملة، وربما خمسة عشر. واستخدم ليونارد حشوات "وردات" من المطاط لتحريك مفصلي القدمين وأدخل قصبة ربط بين الساقين تأمينا لانتظام حركة القدمين جنبا الى جنب، فعندما يشد السرج على جذع آندي، تؤثر حركته المتأرجحة تأثيرا يؤدي الى تشغيل حدَبة قائمة على محور، فيؤدي ذلك بدوره الى دفع الساقين نحو الأمام ويتيح له أيضاً أن يدور حول نفسه.

وكان اول عمل قام به ليونارد في الصباح هو اختبار "لعبة آندي"، التي بدا الصبي يقفز بها عبر الغرفة قفزا. واندهش ليونارد، نفسه، لسرعة الحركة واضطرت هيزل الى أن تهرع الى الأمام كي تحول دون اندفاع آندي واصطدامه بالجدار. وبدا آندي متحمسا ومتهيبا بعض الشيء، أما ليونارد فقد استولى عليه الخوف وحده، لأن سقوط آندي وهو يتحرك بسرعة قد يؤدي الى موته. لذلك خلع ليونارد الجهاز الذي ركبه، وأخذه الى الخارج وهشمه بالمطرقة. فلا بد من الاهتداء الى حل آخر.

وعندما ذهب ليونارد وهيزل الى المستشفى بصحبة آندي بعد انتهاء العطلة المدرسية، طلب ليونارد رؤية المعدات التي تتيح الحركة للأطفال المعوقين. وفي طريق العودة الى البيت اوضح لهيزل عيوب تلك الآلة التي أطلعوه عليها وتسمى "إيمّا". وكانت هذه قادرة على حمل طفل مشدود اليها بساقيه الاصطناعيتين في وضع رأسي وجعله يتجول في المستشفى بسرعة أكبر وبأكبر مقدار من الأمان من تلك التي يستطيعها وهو يتعرّج على ساقيه الاصطناعيتين.

وقال ليونارد لهيزل: "ولكن ما أبتغيه هو أن أصمم آلة يتنقل بها آندي من دون حاجة الى هاتين الساقين ~~العينتين~~، كي يتمكن في الوقت نفسه من القيام بشيء آخر، مستخدما قدراته البدنية الخاصة ومن غير حاجة الى مغادرة الآلة".

فقالت هيزل وهي تلفت نظره: "ولكنك حتى اذا نجحت في تصميم شيء من هذا القبيل، فانه يتطلب تكاليف لا قدرة لك عليها". ذلك أن أجر ليونارد لم يكن يتجاوز الحد الأدنى الذي يبلغ قرابة ١٤٢٥ جنيها استرلينيا في الأسبوع والذي لا يتيح لهما أي فائض ينفق على تجارب هندسية باهظة التكاليف. وقال ليونارد: "سأضطر في طبيعة الحال الى الاعتماد على ما أستطيع تدبيره". وعاد في تلك الليلة الى ورشته القائمة في الجرن الملحق بالبيت، وبدأ يفكر على الورق.

وبعد سبع ساعات كان أمامه رسم تخطيطي لعربة يفترض انها صغيرة وذات ثلاث عجلات يجلس فيها آندي على كرسي بين العجلتين الأماميتين. وكان تخطيط تلك العربة هو البداية. ثم راح ليونارد يبحث في محلات الخردة ولدى تجار المهملات المعدنية. وكان معظم هؤلاء حين

يعرفون الغرض من سعي ليونارد يبادرون عن رضا الى اعطائه ما يتيسر لديهم من خامات من دون مقابل. وعرض أحد جيرانه، ويدعى لين كاري، أن يتولى هو متطوعا اجراء اللحامات اللازمة في العربة، فكان ذلك مصدر عون كبير لليونارد، فلم يعد باقيا أمامه سوى التفكير في وسيلة تزويد العربة بالقوة المحركة.

لا شك في أن صبيا بلا ذراعين لا يمكنه استخدام وسيلة يدوية للتوجيه، ولذا فلا بد من الاستفاضة في شأن الحركة والقوة المحركة. ولا مفر لآندي من أن يستخدم كتفيه في توجيه حركة الآلة، بحيث يصبح هذا التوجيه محكوما بوسادتين للكتفين على كل جانب من المقعد. لكن آندي له زعنفتان، في اليسرى منهما مقدار من المرونة يكفي السائق الصغير، وعلى ذلك تستطيع كتفاه التحكم بالحركة يمينا ويسارا بينما تستطيع زعنفته التحكم بالحركة الى الأمام والى الخلف.

واستمر ليونارد يرجو، ويقنع، ويدبر، حتى توافرت لديه في النهاية كل الأجزاء اللازمة لصنع العربة.

وحين جاء آندي لزيارتهما مرة أخرى في شهر مايو (أيار)، كان يهذي من فرط الابتهاج. فها هي أمامه: عربته الخاصة، يضمها جسم خارجي من الألياف الزجاجية، وفيها مكان صغير للقيادة يحتوي على كل الأجهزة مرتبة حول جانبه. وأوضح له ليونارد — ببطء وحرص كما يفعل دائما — طريقة تشغيل العربة. وكان آندي يركز انتباهه مسحورا، فلم تفته كلمة واحدة. كان محرك الدفع عبارة عن مولد كهربائي (دينامو) ذي قدرة ١٢ فولتا شبيه بالذي يستخدم في السيارات، يتولى دفع مفرقية (ديفرنسيال) منه خلال ترس لولبي. أما التوجيه فيجري من خلال الفرملة. فعندما يضغط آندي وسادة الكتف اليسرى، تبدأ العجلة اليسرى التوقف، بينما تستمر العجلة اليمنى في الحركة فترسم قوسا حول العجلة اليسرى. ويحدث عكس ذلك تماما عند ضغط وسادة الكتف اليمنى. أما الحركة الى الأمام والى الخلف، فهي تقتضي من آندي أن يستخدم زعنفته لدفع قصبة صغيرة.

وكان الصبي يقول: "نعم، نعم. هل أستطيع أن أنطلق بها الآن يا أبي؟"

وانطلق الصبي بالعربة حتى نهاية الشارع الصغير ثم عاد وهو يسير بها الى الأمام والى الخلف، ويلف ويدور، ويسرع ويبطىء. وخلال عشر دقائق أصبح آندي يقود عربته بمهارة الخبير. وعبّرت هيزل عن غبطتها ببضع دموع سكبتها في سكون، بينما راح ليونارد يدخن من دون انقطاع ويدوّن ما تستلزمه العربة من تعديلات. وكاد الصبي أن يطير من الفرح، ولا يريد أن يغادر العربة على الاطلاق حتى بعد اغرائه باللحم المشوي والفطائر المحشوة بالزبيب. وبينما كانت هيزل ترفع آندي من العربة طقطق ليونارد أصابعه وصاح: "لقد وجدتها!"، وأسرع الخطى نحو ورشته.

وذهب ليونارد الى الورشة وبدأ يضع رسما تخطيطيا بدائيا، ويقدر التكاليف والجوانب العملية لتنفيذه.

وعلى رغم أنه لم ير أمامه وسيلة لأنجاز الأمر، إلا أنه كان يعلم أنه لا بد أن ينجزه وأن عليه زيادة قدرته التقنية والابتكارية الى مدى لم يكن يتصور امكانه من قبل.

واصطحب الاثنان آندي في السيارة لاعادته الى المستشفى. وخلال العودة، أجرى ليونارد وهيزل بعض الحسابات المالية مرة أخرى، فهما كانا مدينين للمصرف بمبلغ كبير، لأن تكاليف عربة آندي تجاوزت تقديرات ليونارد بكثير، فأصبح اعتمادهما على اجره الاسبوعي الضئيل لا يترك لهما أي أمل في جمع المبلغ اللازم لمواصلة تحسين العربة.

وقال ليونارد: "ان صيفا طويلا شاقا ينتظرنا".

فردت هيزل: "أو ليست كل الفصول كذلك؟"

غير انهما كانا تغلبا - ربما على نحو لا شعوري - على أصعب العوائق جميعا، إذ أصبح مجرد التفكير في الحياة بغير آندي أمرا بعيدا عن التصور.

وصارح ليونارد هيزل وهو يتنهد: "اصبحت المسألة أننا بدأنا نحتاج اليه بمقدار ما يحتاج هو الينا".

مولد "تيري وايلز"

خلال الفترة التي بدأت في يناير (كانون الثاني) ١٩٦٩ دخل فيها ليونارد أخصب مراحل الاختراع والابتكار في حياته كلها، قرر هو وهيزل أن يتبنيا آندي.

وتولى محامي ليونارد الأستاذ روبين بويز من هانتنغدون، اجراءات تقديم الطلب بدقة وكفاية. وسارع ليونارد الى اثارة اهتمام الصحف المحلية والوطنية بآماله، فنشرت مقالات عن الموضوع، كما اشير اليه في التلفزيون. غير أن المستشفى اعلن معارضته التامة لخروج آندي منه بصفة دائمة.

وتباطأ المستشفى في اصدار تقرير طبي عن الصبي وفي الوقت نفسه اجرت الاختصاصية الاجتماعية المحلية زيارات لليونارد وهيزل، وقررت في النهاية - على رغم مما في ماضي كل منهما من متاعب - أنها لن تعارض طلب التبني.

وكان آندي في طبيعة الحال يتلقى تباعا أنباء تقدمهما البطيء كما كان مطلوبا منه أن يحضر الى المحكمة مع ليونارد وهيزل عند الحكم في القضية.

ووصل الثلاثة الى مجلس المدينة - حيث تعقد الجلسة - في هانتنغدون قبل الموعد المحدد بوقت طويل. وكان المحامي بويز موجودا هناك ليزوّدهم بالنصح والمشورة في شأن الأجراءات القانونية، ونصحهم بلباقة ان ينضبطوا ويحتفظوا بهدوء أعصابهم ايا تكن الضغوط أو الاستفزازات التي يتعرضون لها، وكانت قضيتهم هي الثانية في الجدول. وكان آندي يجلس على حجر هيزل التي ضغطت يد ليونارد بقوة عندما سمعت النداء بأسمائهم، ورأت القاضي ينحني ليفحص الأوراق التي أمامه.

وبعد برهة رفع القاضي رأسه بتؤدة ووقار وقال: "لقد درست كل الوثائق والمستندات في هذه القضية. ويبدو

لي أن السيد والسيدة ليونارد وايلز هما أصلح الناس لحضانة الطفل، ولذا فانني أوقع على أمر التبني بلا تردد".

وكان ذلك هو كل ما في الأمر، اذ تقرر في أقل من ٩٠ ثانية مصير مسألة استغرقت عامين تقريبا قبل ان تبلغ المحكمة.

ووقع حادث طريف أخير قبل أن تعود الأسرة الجديدة الى بيتها. فبينما كانت هيزل تسير في الشارع الرئيسي حاملة آندي في ذراعيها، كان الصبي يصيح: "أصبحت ابنا! أصبحت ابنا!". فكان المارة يتوقفون في سيرهم ويحملقون في عجب. فها هي سيدة تحمل ما يبدو أنه رضيع في ذراعيها، إلا أن هذا الرضيع يزعق - بصوت يبدو، لأرتفاعه، مستحيل الصدور عن مخلوق دقيق الحجم على هذا النحو - ويعلن للعالم اغتباطه بأنه قد "أصبح ابنا!"

وكانت هيزل وليونارد قد أعلماه بأنه يستطيع أن يحمل اسما جديدا مثلما أصبح يحمل لقبا جديدا، فتشبث بهذه الفرصة للتخلص الكامل من ماض أصبح يكرهه بمرارة. وعندما حمله ليونارد الى مكتب المحكمة المحلية ليطلب اصدار شهادة ميلاده الجديدة، سارع آندي بنفسه الى اعلام كاتب المحكمة بأنه لا يريد ان يحمل اسم آندرو وايلز.

فقال الكاتب: "حسنا يا بني، وأي اسم تريد أن تحمل؟"

قال: "تيرينس، بتشديد الراء. هل تتفضل بكتابتها؟"

فوافق الكاتب، واصبح اسم آندي تيرينس وايلز. وصار منذ تلك اللحظة يرفض الاستجابة لأي نداء باسم غير اسمه الجديد: تيرينس أو "تيري".

شبل الكشافة

غير أن الأيام لم تكن رفيقة بالأسرة الجديدة. فقد ظلت الضغوط المالية شديدة وتعثرت الآمال في إلحاق تيري بمدرسة برامبتون حين اصطدمت بطبقات متتالية من البيروقراطية. لكن الأسوأ من ذلك كان نارا شبت فجأة واجتاحت ورشة ليونارد في منتصف عام ١٩٧١.

واحترقت في النار عربة تيري الثانية المسماة "القنبلة"، كما احترق النموذج الأولي لعربة "سوبر كار" جديدة كان ليونارد يعمل في تطويرها. وتجاوزت قيمة الخسائر الـ٢٠٠٠ جنيه استرليني، اضافة الى ثلاث سنوات من العمل الليلي حتى ساعة متقدمة... كل هذا تلاشى في لحظة، فانهار ليونارد وبكى.

وبعد ثلاثة أيام، نشرت الصحيفة المحلية خبر الكارثة بالتفصيل في مقال طويل، وحمل البريد التالي هبة مالية مقدارها ٢٠ جنيها استرلينيا تبرع بها العاملون في الصحيفة. وأعقبت ذلك مساهمات كريمة أخرى وردت على مدى الأيام العشرة التالية، وسرعان ما استعد ليونارد لاستئناف العمل مرة أخرى. وكان الحريق قد شحذ تصميمه على النجاح، واصبحت لديه بصيرة نافذة بما اشتملت عليه جهوده السابقة من نواحي القوة والضعف.

ورأى أن أكثر ما يحتاج اليه تيري هو ان يتمكن من رفع نفسه لا لبضعة

سنتيمترات من الأرض فحسب بل الى ارتفاع يكفيه لمواجهة الناس على مستوى ارتفاعهم، وللنظر في عيونهم، وللعمل على منضدة عادية، ولاختيار الكتب من على رفوف المكتبة. ذلك أن أكبر عيوب القامة التي لا تزيد على ٥٣ سنتيمترا هي - بصفة رئيسية - ذلك الحاجز الذي تفرضه الحياة في عالم تسوده الأقدام والسيقان. عالم تفرض فيه الضرورة أن تكون رؤية كل شيء وكل شخص رهنا بالنظر الى أعلى. ولم يكن تيري يحتاج الى أن تكون عيناه في المستوى الصحيح فحسب بل كان يحتاج أيضا الى أن يكون قادرا على "الانحناء": أي أن يخفض نفسه الى الأرض كي يلتقط سكينا وقعت، ثم يرفع نفسه على الفور كي يضعها على المائدة، أو حتى الى مستوى أعلى من ذلك كي يبلغ أحد الرفوف أو يدهن اطار الباب بالطلاء. وهو يحتاج الى تأدية ذلك بالسرعة واليسر نفسهما اللذين يؤديه بهما شخص عادي. كان حلم ليونارد أن يبتدع امتدادا ميكانيكيا لجسم تيري الضئيل، امتدادا يرفعه - ببساطة - الى حيث يريد بأسرع وأسهل ما يمكن.

كان تيري حتى ذلك الحين يتلقى دروسا خصوصية مرتين أو ثلاثا كل أسبوع على يد معلم يأتيه في البيت. وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من ذلك العام ورد خطاب من مجلس مقاطعة هانتنغدون يقول انه قد وافق على قبول تيري في مدرسة برامبتون الابتدائية لمدة ستة أشهر على سبيل التجربة. وقد دهش التلاميذ في البداية حين وجدوا تيري بينهم، ولكنهم لم يلبثوا أن تقبلوه كواحد منهم.

بيد أن ذلك الخريف من عام ١٩٧١ كان أصعب الأوقات التي مرت بأسرة وايلز. فقد واصل ليونارد كفاحه كي يحيي العربة (سوبر كار)، وكان في معظم الأيام يزحف الى فراشه في الساعة الثانية صباحا وقد استبد به البرد والتعب بعد ساعات طويلة من العمل المرهق في ورشته، ولا يلبث أن يستيقظ مترنحا في الساعة الرابعة والنصف صباحا بوجه مربد رمادي اللون كي يستأنف عمله في مفاتيح العربة ودوائرها الكهربائية الدقيقة.

وكانت هيزل تواجه في عياء متاعب الحرج اليومي الناتج من الفواتير التي تأخر سدادها والكفاح المرهق من أجل اطعام الأسرة وتدفئة البيت. لكنها واصلت جهودها مع تيري، مصممة على تحسين مرونة زعنفته اليسرى ومهارتها، وقدرته على استعمال أصابعها القابضة. وراحت تشجعه على قضاء أطول وقت ممكن في تدريب أصابعه واستخدامها لكتابة حروف أصغر وأكثر انتظاما، وللرسم بالاقلام والألوان. وكلما كانت اختراعات ليونارد تتقدم، كان تيري يقضي المزيد من الوقت جالسا على مقعدته يتدرب. وكانت هيزل تحرص على أن يحظى تيري أكثر ما يمكن من النزهة والرياضة حين يكون غير مشدود الى آلته أو غير مقيد في كرسي المستشفى ذي العجلات، فشجعته على تقوية عضلات بطنه بابتكار أساليب جديدة يتبعها للانتقال من وضع الاستلقاء على ظهره الى وضع الجلوس. وحين ثبتّت ليونارد لوحا صغيرا منحدرا من الخشب في أرضية الغرفة، تمكن تيري من الزحف فوقه ورأسه أسفل

المنحدر، ثم استطاع مستعيناً بعضلات بطنه - الانتصاب فوقه جالسا في وضع قائم. بل انه نجح في تسلق سلالم البيت باتباع هذه الطريقة.

وأدت جهود هيزل مع تيري الى زيادة اهتمامها بمساعدة الأطفال الآخرين، فأشتغلت معاونة لأحد قادة أشبال الكشافة في قرية مجاورة. وبعد بضعة أسابيع، استفسرت عما اذا كان يتاح لتيري أن يصحبها كي يتفرج، فوافق قائد الأشبال على الفور. وذهب تيري ليتفرج. ولم تكد تمضي دقائق قليلة حتى كان اشتبك على أرض اللعب مع الصبية الآخرين في لعبة عنيفة من ألعابهم تسمى "البولدوغ البريطاني".

وقال قائد الأشبال: "أرى يا هيزل أنه يجدر به الانضمام الى الفريق. أليس كذلك؟"

وبعد فترة قصيرة، أثلج صدر هيزل برؤية تيري وقد أصبح عضوا كاملا في فريق أشبال الكشافة.

لا سيقان بعد اليوم

في يناير (كانون الثاني) ١٩٧٢، جاءت ثمرة نكران الذات طوال أشهر الشتاء الأربعة القاسية: فقد تمكن ليونارد من احضار العربة (سوبر كار) الى البيت لاجراء أول اختبار كبير عليها في حجرة الجلوس. وبدت العربة كاملة جاهزة، لا ينقصها الا طبقة أخيرة من الدهان. وكانت ثقة هيزل وتيري في مهارة ليونارد بلا حدود، دائما كانت هناك تلك اللحظات الأولى من التوقع المتهيب. وبدت أمامهم الآلة في حجرة الجلوس، مرتفعة غريبة الشكل.

وتعاون ليونارد وهيزل على دفع الأريكة (الصوفا) والمقاعد لصق الجدران لفسح فراغ كبير وسط الغرفة يتيح لتيري اجراء مناوراته.

وقال ليونارد لهيزل: "علينا الآن أن نجلس ونترك تيري يتولى العمل".

وسأل تيري: "هل يمكنني أن أبدأ الآن يا أبي؟"

فهز ليونارد رأسه ايجابا. فأنزلق تيري فوق الكرسي الذي كان في مستوى الأرض.

وقال ليونارد: "عليك الآن بحزام الامان. وانت تعرف ما يجب ان تعمله". فاستخدم تيري اسنانه وكتفه ليضع حزام الامان حول جسمه. وكان لا يزال رافعا رأسه ينظر اليهما.

قال ليونارد: "انطلق الآن".

فابتسم تيري في شيء من القلق، واستند الى قصبة الضبط الرأسية بكتفه، فأخذ الكرسي يرتفع بنعومة ارتفاعا متصلا. ورأى تيري الارض تتدنى عنه، فانتابه الخوف فجأة.

وقال ليونارد يشجعه: "استمر. انك لن تسقط".

فواصل تيري ضغط القصبة وقلبه يدق بعنف، واستمر الكرسي في الارتفاع حتى اصبح في مستوى عيون والديه. ثم مضى يرتفع اكثر واكثر. وتجاوز ارتفاعه رأس هيزل! ثم استقر الكرسي. وسادت لحظة صمت، ورفعت هيزل وليونارد رأسيهما ينظران اليه، وقد استبد العجب بهيزل، وتملك الفخر ليونارد.

وقال ليونارد: "اذهب الى المائدة".

فتقبضت الاصابع المرنة الماهرة

على قصبة الضبط الصغيرة، ودارت العربة حول نفسها، ثم تحركت بنعومة الى الامام نحو المائدة. وكانت قدما تيري في مستوى المائدة، فالتفت ينظر اليهماوقد اشرق وجهه. وقال: "لم اعد احتاج الى المعونة. فانا استطيع ان آتي الى هنا بنفسي كما استطيع ان اتناول طعامي بنفسي".

وادار العربة فجأة وتحرك نحو ليونارد وهو يخفض من مستوى المقعد، حتى بلغ ليونارد وقد اصبح المقعد في مستوى ركبتيه. وحل الصبي حزام الامان، وتحرك نحو أبيه، فحمله ليونارد الى حجره واحتضنه بقوة كي لا يرى الصبي دموعه.

وكان تيري يصيح: "لا سيقان بعد اليوم.. لم اعد تائها بين سيقان الكراسي وسيقان الموائد وسيقان الناس! انني استطيع ان ابدأ الحياة مثل اي صبي آخر تماما".

وراح الزوجان يكتشفان، ذلك المساء، مجموعة الانشطة التي اصبحت في متناول تيري. فهو يستطيع معاونة امه في اعداد المائدة ورفعها، ويستطيع ان يلعب الورق في المستوى العادي، وان يذهب الى جهاز التلفزيون ليختار القناة التي يريدها ويدير الجهاز عليها، وان ينتقل الى الحمام ويغسل وجهه وان يقود عربته الى غرفة النوم حيث يخفض مقعده قليلا ثم يتدحرج الى فراشه. ولم يعد يحتاج في الصباح الى انتظار ليونارد او هيزل ليرفعاه من فراشه. وهو يستطيع فتح الادراج. واختيار الكتب من على الرفوف.

وفي شهر يونيو (حزيران) حمل ليونارد وهيزل العربة (سوبركار) الى المدرسةليستكشفا مدى ما يمكنها ان تقدمه من عون هناك. وقد تمكن تيري من استخدامها طوال ساعات الدراسة وفي حجرة الدراسة ايضا. وحين كان يريد الخروج، كان يقود عربته الى كرسيهالمتحرك الذي يعمل بالكهرباء، ويخفض مقعد العربة الى مستوى مقعد الكرسي المتحرك، ثم ينتقل اليه ويقوده خارجا الى ساحة اللعب كي ينضم الى الاطفال الآخرين.

الا ان ليونارد كان بدأ يعيد التفكير في تصميماته، وسرعان ما اخذ يعد رسوما لعربة تصلح للداخل والخارج معا وتتيح لتيري كل الحرية التي يحتاج اليها بالفعل.

يوم في الحقول

كان لين وهيزل يعيشان خلال الجانب الاكبر من تلك الفترة في ريبة من تمكن لين من الاحتفاظ بعمله او الالتحاق بعمل آخر لفترة طويلة. فقد انتقلت ملكية المؤسسة التي يعمل فيها الى ملاكين جدد، وأصبحت وظيفته في خطر. والأسوأ من ذلك أن استمرار اقامة الثلاثة في البيت الذي يسكنونه كان مرتبطا باستمرار لين في عمله فأصبحوا مهددين بضياع مسكنهم أيضا. الا ان أصحاب المؤسسة الجدد كانوا من اهل المروءة فسمحوا لأسرة وايلز بالاستمرار في سكن البيت، وراحوا من آن الى آخر يسندون الى لين بعض العمل الموقت كسائق سيارة. لكن الوضع كان موقتا.

ثم جاءتهما مكالمة تلفونية من صحيفة "الصنداي تايمس" تعرب عن اهتمامها بقصة تيري. وكانا خبرا من قبل كثيرا من عروض المعونة، وعرفا كيف تتضاءل الحماسة والاهتمام حتى يتلاشيا. كما سبق لهما ان قرآ من قبل، بخليط من المشاعر المضطربة، مقالات اخرى عن الاطفال من ضحايا "الثاليدومايد". ولم تكن لديهما أدنى فكرة عما يحتمل ان يتوقعاه هذه المرة.

واعتقد ليونارد ان قصتهم قد تحظى بنصف عمود في الصحيفة على أكثر تقدير، وذهب الى القرية صباح يوم الاحد كي يشتريها. وقال بعد ذلك: "لم اكن انتظر ان اجد حكايتنا على صفحة كاملة، جميلة التصميم، توضح ما انجزناه وتفصح عن آمالنا المستقبلة". وحين امكنه بعد حين ان يتلمس تأثير تلك المقالة على حياتهم، كتب: "لقد غلبني التأثر لما بدا من كرم الناس العاديين. وكنت اعرف ان ما انجزته وما انا في سبيل أنجازه يساعد الكثيرين في الحصول على الحرية التي حظي بها تيري، لكن الامر كان يتجاوز قدرتي على النهوض به وحدي".

ومع حلول العام الجديد، كانت الهبات والتبرعات التي تلقوها قد بلغت خمسة آلاف دولار. وبعد أن رد ليونارد وهيزل على كل خطاب موقع وصلهما وعلى كل هبة تلقوها، أزف الوقت كي يستأنف ليونارد تفكيره في عربة الاحلام لتيري، بعد ان غدا في وضع يسمح له باعداد التجهيزات اللازمة للتحسينات الدقيقة الاخيرة.

وبعد انقضاء عام على نشر مقالة "الصنداي تايمس"، تم اعداد "سوبركار ٢". وهي كانت تشتمل على كل مزايا العربات السابقة وعلى اكثر منها بكثير. فالكرسي لا يزال قادرا على رفع تيري اكثر من متر وربع متر في الهواء، لكن العربة قد اصبحت قادرة على اجتياز الارض غير المستوية في الحقول وعلى صعود الحواجز الحجرية عند حافة الطريق.

وذات صباح في شهر اكتوبر (تشرين الأول) كان النسيم عليلا والغيوم المخفوضة تتلاشى تدريجا تحت اشعة الشمس، والعصافير تثرثر في الجو وقد "وشق" الهواء هزيم طائرة نفاثة لم تلبث ان اختفت. وكانت "سوبركار ٢" واقفة خارج البيت وكأنها عرش عال، وقد رفع الصبي الضئيل الحجم رأسه يتأملها.

وقال تيري: "هل استطيع الانطلاق الآن؟"

فرد ليونارد: "هيا اركب".

فحمل تيري نفسه الى الكرسي الرافع، وثبت حزام الأمان، ثم رفع نفسه مترا فوق سطح الارض. ووضعت هيزل الى جانبه سلة صغيرة وقالت: "حسنا، اذهب واقطف لي بعض ثمار العليق (الفراولة البرية)". فتحركت اصابع قدم تيري اماما نحو قصبة التحكم ودارت "سوبركار ٢" من دون صوت بزاوية مقدارها ٩٠ درجة، حتى اختفى الصبي وراء قائم العربة المرتفع.

وصاح: "الى اللقاء!" ثم تحركت العربة الى الأمام. واحس ليونارد ببعض التوتر وهو يرقب العربة تمضي مسرعة لتتسلق منحدرا وعرا وكأنها دبابة مدربة، ثم تجري فوق

الحشائش التي ارتفع منها صرير الاحتكاك، وتمضي لتخترق المرج مخلفة وراءها خطوطا سوداء عند موطىء عجلاتها.

كان تيري وحيدا يعبر ارضا مكشوفة وكأنه عريف (أومباشي) يقود سيارة جيب حربية، او فارس من فرسان القرون الوسطى على صهوة جواد كريم، او قائد دبابة في الصحراء، مع انه لم يكن الا صبيا صغيرا يتواثب ويتأرجح فوق مروج غير مستوية متجها نحو سور من النباتات يستدعيه في اغراء بما يحمل من ثمار العليق (الفراولة البرية) المكتنزة. وبدأ تيري يغني بصوت حاد صاف مرتفع كأي صبي يبحث عن ثمار العليق واي صاحب من اصحابه في المدرسة. بل ان وضعه هو أفضل!... فقد لمس المقابض واذا به يرتفع مقدار نصف متر ثم متر ثم اكثر فوق مستوى السور ليرى المرج الذي وراءه حيث وقفت فرس تحرك ذيلها الكثيف وتحلم في شمس الصباح الباكر. وادار تيري عربته بحذاء السور واختار عنقود العليق الذي اعجبه، ثم مد اصابع قدمه السمراء يمسك به. وكان ليونارد وهيزل يقفان متشابكي الذراعين الى جانب عتبة البيت، وهما يسمعان غناءه يأتيهما من بعد نصف كيلومتر.

ولم يعد تيري الى الظهور الا بعد ساعة كاملة، صبيا صغيرا ضاحك السن يناديهما زاعقا عبر المرج. وجاء يتأرجح ويتواثب فوق الارض غير المستوية بعربته العجيبة حتى قطع بها آخر مساحة معشبة وعبر الى الطريق المجاور للبيت. وبدت عينه العسلية البراقة مليئة بالمرح، وفمه محاطا ببقع قرمزية واضحة.

وقالت هيزل تخاطبه: "تيري، اين ثمار العليق (الفراولة البرية) التي كان المفروض ان تقطفها لي؟"

فكسا تيري ملامحه بمظهر الجد، ثم انفجر مقهقها.

وقال بلهجة خطابية وهو يصطنع لكنة امريكية فظيعة: "تارومتارا! ان الشرطة تبحث اليوم عن تيرينس وايلز بتهمة سرقة حدثت اخيرا. ويبلغ وايلز من العمر ١١ سنة، وطوله حوالى ٦٠ سنتيمترا، وهو بلا ذراعين ولا ساقين، وقد شوهد اخر مرة وهو يقود عربة سوبركار خضراء فيممر برامبتون. وهو معروف بخطورته، وقد التهم منذ عهد قريب كيلوغراما كاملا من ثمار العليق".

الطريق الى الحرية

في السن الثانية عشرة، اصبح تيري فتى ثريا. فبعد ١١ عاما من النزاع القضائي والجدل المرير، توجتها حملة مكثفة في الصحافة وبين الجماهير وفي البرلمان، تقدمت الشركة البريطانية المنتجة لمستحضرات "الثاليدوميد" بعرض تعويض سخي لضحايا العقار.

وقسمت النقود بين الـ٤٠٠ طفل تبعا لمدى العجز الذي اصاب كلا منهم، ودفع جزء منها في حساب امانة او وديعة باسم كل طفل، وذهب الجزء الآخر الى صندوق وديعة مشتركة لاطفال "الثاليدوميد"، يستطيع كل منهم ان يطلب العون منه. وفحصت

لجنة من الاطباء حال تيري وقررت انه يستحق تعويضا عالياً.

وبعد عام، في صيف ١٩٧٤، وصلت اول دفعة من المال. ولما كان ليونارد وهيزل هما الأبوان بالتبني والوصيان على تيري، فقد منحا شخصيا مبلغ ٧٥٠٠ دولار. ولم يلبث هذا المبلغ ان تلاشى اذ انفق جزء منه لسداد دين للمصرف وذهب الجزء الآخر ثمنا للمواد والأدوات. لكن الزوجين وايلز وجدا نفسهما للمرة الأولى منذ زواجهما غير مضطرين الى التوسل لمأموري الحجز او الى الصراع مع الديون. واستطاعت هيزل ان تستمتع بحياة هادئة ناعمة لم تكن تتخيلها في طفولتها التي انقضت في عربة متنقلة او في مراهقتها الحافلة بالعذاب.

ولم توضع نقود تيري في يديه مباشرة في طبيعة الحال، وانما اصبح نصيبه يدار بواسطة مجلس اوصياء يضم والديه وتصرف منه المبالغ اللازمة لحاجات تيري الشخصية المحددة. وكان من بين هذه الحاجات شراء بيت ريفي صغير باسمه، يمكن تعديله بما يناسب حاجاته كي يتمكن - اذا شاء - من قضاء بقية حياته فيه.

وكان تيري هو الذي اختار البيت. فقد التحق منذ الخريف بمدرسة أرنولف في بلدة سانت نيوتس على مسافة ١١ كيلومترا من برامبتون، وادى ذلك الى ارهاق ليونارد وهيزل لاضطرارهما الى القيادة الطويلة كل يوم لايصاله الى المدرسة ثم العودة به منها، حتى عثروا ذات يوم مصادفة على اعلان عن بيع بيت يقع على مسافة قريبة من المدرسة. والقى تيري نظرة واحدة على الحديقة الواقعة خلف البيت، وعلى حجرة الجلوس الفسيحة والاماكن التي تتسع لوضع كرسيه من دون ان تزدحم الطريق، ثم اطلق صيحة ابتهاج طويلة.

وهمس في أذن هيزل: "هذا هو ما يصلح لنا يا أماه، بل إن فيه مدفأة مفتوحة أيضاً".

وبمجرد انتقالهم الى البيت الجديد، بدأ ليونارد يعمل في تهيئته فوضع روافع خاصة على مقدم حوض المطبخ بحيث يتمكن تيري - باستخدام زعنفيته وامساك الكوب بين اسنانه - من ان يملأ لنفسه قدحا من الماء، كما ادخل تعديلات على تصميم الأبواب واقام منحدرات على الدرجات الخارجية وركب دورة مياه اسوجية فيها نافورات للمياه والهواء الساخن، فأصبح تيري بذلك قادرا على الوفاء بحاجاته من دون معونة من احد. وغدا في امكانه ان يضبط ارتفاع مقعد كرسيه في مستوى الفراش وينزلق الى سريره الصغير وحده، وان يستخدم كتفه او زعنفته لاضاءة النور الخاص به او ادارة جهاز الراديو او التلفزيون. واضاف ليونارد توصيلة لبقة الى جهاز التلفون تتيح لتيري ان يتصل بأصدقائه.

واشتملت الحديقة على كوخ خشبي صغير يحمل في بابه مقبضا مخفوضا. واصبح ذلك هو عرين تيري الذي لا يسمح لأحد من الكبار بدخوله من دون تصريح. وغدا تيري يستقبل اصدقاءه في ذلك العرين وينجز فيه واجباته المدرسية في احيان كثيرة. لكنه

حافظ على كرامته ومكانته. فهو يركب عربته الى المدرسة او يشدها الى مؤخر سيارة أبيه، وما ان يبلغ المدرسة حتى يصبح مكتفيا بذاته تقريبا.

ويقول ليونارد وهو يبتسم: "ان الاشياء التي يتعذر عملها على تيري قليلة بالفعل. ونحن نريد له ان يجرب كل ما هو ممكن قبل ان يبلغ العشرين، فيعرف انه قادر على رشق السهام وقذائف اللعب وعلى ركوب الخيل والحياكة والطبخ، وزراعة الخضر او العزف على الارغن. وهو لا يحتاج الى عمل كل ذلك الآن، ولكنه يستطيع أختيار اي منها حين يصبح أكبر سنا. والأمر المهم هو ان يكون قد جربها وهو صغير".

غير ان مجموعة الاجهزة التي تيسر هذه الانشطة كانت ستغدو مجرد اشياء للزينة من دون عربة تيري الحديثة، المسماة "الشبح الفضي". فهذه "المعجزة" ذات اللون الرمادي - الفضي باتت محور حياة العائلة ومن دونها يصبح تيري - الامير الطويل القامة - مجرد ضفدع ضئيل يحتاج الى العون في كل حركة... فالبيت والحديقة والسيارة كلها مهيأة بما يتناسب مع العربة، التي تبدو كبقعة من الضوء الوهاج وسط لوحة مزدحمة بالألوان والاشكال، تنير الجدار وتضفي المعنى على كل ما حولها؛

لقد انقضت اكثر من عشرة اعوام منذ رأى ليونارد للمرة الأولى تلك الكتلة البشرية الصغيرة التي اصبحت تدعى تيري. وهو يقول: "ان مجرد النظر الى طفل مثل تيري يجعلك تتحول الى حالم يمتلئ رأسه بالرؤى". ولكن ليونارد رجل لا يقتنع بالرؤى، كما ان طموحه لا يقف عند تيري. وهو يرى في عرباته امكانا لتحرير الآلاف من ضحايا الشلل ومن كبار السن الذين يعيشون منفردين، او الاطفال المعاقين الذين يعوزهم التحرر من حياة الأسر وسط الكبار.


وقد نما تيري خلال هذه السنين العشر فأصبح شابا متحمسا فصيح اللسان. حقيقة ان جسمه لم يكبر، فطوله لا يزال اكثر قليلا من نصف متر ووزنه لا يزال اقل من وزن طفل ابن عامين، لكن قصوره الجسدي لا يضايقه، كما انه لا يهاب شيئا، وهو مفعم بالآمال في مستقبله، ويريد ان يصبح كاتبا او موسيقيا.

وتعلم تيري من ليونارد وهيزل ان يكون على ثقة متنامية بالحياة. وهو مقتنع مثلهما بأن ارتباط حيواتهم الثلاث معا لم يحدث مصادفة. وهو يؤمن ايمانا عميقا بأن الاقدار قد عوضته افتقاره الى ذراعين وساقين باهتدائه الى هذين الأبوين الممتازين وبما حظي به من الهبات المتعددة الأخرى.

وقد كتب تيري: "أود أن أصف حياتي بأنها طريق لا نهائي تتخلله العقبات والمسيرات السهلة الناعمة، وقد اعترضتني ذات مرة عقبة دفعتني الى الاعتقاد بأن الحياة لا تستحق من المرء ان يعيشها، ثم التقيت فجأة ابوين مفعمين بالحب أسبغا علي الحماية من مصاعب الحياة، وهأنذا الآن قد قطعت شوطا طويلا طويلا على طريق الحرية".

■ مارجوري والاس

■ ومايكل روبسون


كتاب الشهر
رحلات فضاء

حامل النار



ملخص كتاب رائد الفضاء الأمريكي مايكل كولينز

"هذا الكتاب النير الشامل، الحافل بالملاحظات الحسية ونفاذ البصيرة كما تلمسها رائد الفضاء مايكل كولينز في الرحلة البشرية الاولى الى سطح القمر، يجمع ثمرات الفكر التأملي والنظرة الشعرية علاوة على النظرة العلمية. وهو ينطوي على السيرة العالمية الآسرة التي كتبها كولينز وتناول فيها انجازاً من أعظم منجزات الحضارة ومغامرة من ادهش مغامرات الانسان. وسيظل هذا الكتاب قبلة انظار القراء واهتمامهم في الحاضر والمستقبل ما دامت هناك في العالم سجلات مكتوبة".

من مقدمة للكتاب
بقلم تشارلز ا. لندبيرغ

حمل النار هو، ببساطة، التشبيه الانسب في رأيي لوصف الطيران في الفضاء اذا ما اقتصر التشبيه على كلمتين. فقد جاء في الاساطير اليونانية القديمة ان احد الالهة - ويقول بعضهم انه ابولو - حمل الشمس المتقدة في مركبته عبر السماء. هذا ما اوردته الاساطير. واما نحن فكيف لنا ان نحمل النار وننتقل بها عبر الفضاء؟ بحرص شديد، طبعا، وبمقدار كبير من عناية التخطيط ومواجهة كثير من الاهوال الخطرة والمجازفات، نظرا الى دقة الحمولة وحساسيتها واضطرار حاملها الى التيقظ المستديم خشية سقوطها. وانا الذي حملت النار على مدى ست سنوات، اود الان ان احدثكم عن ذلك ببساطة مباشرة، كما ينبغي على طيار رائد مثلي، خصوصا لان الرحلة جديرة بان تروى.

انطلقت الاشاعة بان الادارة القومية الامريكية لبحوث الطيران والفضاء (ناسا) استأنفت عملية اختيار رواد الفضاء. وكان المسؤولون في ناسا قد بدأوا عام ١٩٥٩ اختيار سبعة رواد - وهم السبعة الاصليون الذين كانوا جميعا طياري اختبار عسكريين - على اثر فحص عام مدقق اكثر من فحص اي مجموعة من الطيارين او المهندسين او العلماء او غيرهم عبر التاريخ المدون. وكان رد الفعل طيبا عموما، اذ ظهروا جميعا فولاذيي العزيمة، متفائلين بثقة، مستعدين لمواجهة اي اخطار يمكن ان تكون كامنة في انتظارهم "هناك"، اي في الفضاء. وقد غمرتهم الولايات المتحدة الامريكية كلها بمحبتها.

كل الامة احبتهم ما عدا "الرؤوس القديمة" في قاعدة ادواردز الجوية العسكرية في كاليفورنيا حيث كنت انا طيار اختبار. فبعض هؤلاء الطيارين المتمرسين كانوا ساخطين بسبب عدم اختيارهم، لكن آخرين منهم تجنبوا البرنامج وكأنه داء الطاعون. انهم هنا كي يطيروا، لا كي يحشروا في علبة ويطلقوا حول العالم كما تطلق الذخيرة.

اما المستجدون مثلي، ممن لم يحصلوا على مزايا ومؤهلات تمكنهم من الاستعلاء، فكانوا يراقبون ويبدون اعجابهم. وبالنسبة الي، جاء العامل الحاسم في ٢٠ فبراير (شباط) ١٩٦٢ مع رحلة جون غلين الرائعة الثلاثية الدورات على متن المركبة "فريندشيب ٧". تخيل انك تستطيع الدوران حول الكرة الارضية مرة كل ٩٠ دقيقة وانت على ارتفاع شاهق فوق كل الغيوم والانواء الجوية!

كان اعلان ناسا، عندما صدر في ابريل (نيسان) ١٩٦٢. مشجعا للغاية، اذ اعلنت الوكالة انها ستقصر الاختيار على طياري الاختبار. وهذا ضيق المجال الى حد كبير. وطلبت ناسا كذلك درجة جامعية في احد علوم الاحياء او الهندسة، واشترطت الا يزيد طول المرشح على ١٨٣ سنتيمترا وسنه على ٣٥ سنة. وتقدمت بطلبي قبل جفاف حبر الاعلان.

كان الحاجز الاول صعبا للغاية: فحص طبي عام لمدة خمسة ايام في قاعدة بروك الجوية العسكرية في تكساس. تصل يوم الاثنين صائما، فيستقبلك احد فنيي المختبر ويأخذ من دمك ما يعادل ملء كوب قهوة. ثم تفطر على كمية كبيرة من الغلوكوز الحلو الى درجة تجلب الغثيان. ويتبع ذلك وخزك بالابر على فترات منتظمة. يصب ماء بارد في احدى اذنيك، تلصق على جسمك مجسات لتخطيط نبضات قلبك، تنفخ في كيس... الخ.

ثم يتولى امرك الاطباء النفسانيون والاختصاصيون الاجتماعيون، وتدور المبارزة بينك وبينهم. ولكن ما الذي يمكن ان تعنيه بقع الحبر التي يطلبون منك تفسيرها؟ اني اريد متلهفا الطيران الى القمر، وسأصف البطاقة التي يعطونها لي بأي شكل يسرهم. ربما ارى على البطاقة قمرا عظيما ابيض او صورة لامي وابي يظهر فيها ابي اكبر حجما من امي الى حد ما.

وتلا ذلك مزيد من المقابلات والفحوص في هيوستون. وبحلول ذلك كانت مجموعتنا قد غربلت ونخلت

وقلمت الى حد لم يبق معه من مجموع ٣٠٠ مرشح تقريبا سوى ٣٢ فقط. وهكذا، دخلت المقابلات مرحلة جدية من دون ان اكون واثقا بنفسي كل الثقة، خصوصا لعلمي بان خبرتي التي تكاد لا تبلغ السنة في الطيران الاختباري تضع مؤهلاتي على هامش الاهمية.

في هيوستون عرض علينا شريطان سينمائيان، احدهما يصور جولة واسعة في ارجاء نظامنا الشمسي، والثاني مجموعة لقطات تحت مياه البحر تصور حياة الكائنات البحرية عند سلاسل الصخور القريبة من سطح الماء. ثم اخذ كل منا ورقة وقلما ووصف، على ادق نحو ممكن، كل كوكب جرت زيارته وكل سمكة لمحها.

بعد ذلك بلغنا ميدان السباق الرئيسي: المقابلة الفنية. واستدعت الاسئلة اجوبة دقيقة واضحة. في بعض الحالات شعرت بان اجاباتي كانت مرضية، وفي حالات اخرى كان واضحا انني لم اجب كما ينبغي.

ولما عدنا الى قاعدة ادواردز بدأت المرحلة الصعبة حقا، الا وهي مرحلة الانتظار. كان ستة من مرشحي السلاح الجوي التسعة النهائيين موجودين في قاعدة ادواردز. وكان بعضنا يترصد بحذر اخبار البعض الآخر ويحرص على التنبه لاي سلوك قد يشتم منه ان مرشحا ما سمع نبأ سارا من ناسا.

وفي منتصف سبتمبر (ايلول) وصل الي النبأ اليقين ضمن رسالة من بوب غيلروث، مدير مركز هيوستون لمركبات الفضاء المأهولة، تقول:

"كان الانطباع الذي تركته لدى اعضاء لجنة الاختبار ايجابيا. لكننا، عموما، لم نشعر بأن مؤهلاتك تلبي المتطلبات الخاصة لبرنامج رواد الفضاء بالدرجة التي بلغتها مؤهلات بعض المرشحين الآخرين المتفوقين".

نحو الخارج والى اعلى

كان اخفاقي طبعا صفعة قاسية، على رغم اني لم آمل في الفوز ابدا. ومن المؤكد اني لم اداعب في طفولتي حلما بالطيران الى القمر، او اي مكان آخر.

المرة الاولى التي ركبت طائرة في صباي كانت في بورتوريكو حيث كان والدي الضابط في الجيش مرابطا تلك الايام. وسمح لي الطيار بان امسك مقود الطائرة برهة قصيرة. وكانت تلك اهانة تحملتها طائرة "غريمان ويدجون" القديمة ذات المحركين برشاقة وكياسة بينما كنت اخفض مقدمها واعليها من دون موازنة او اناة. لكن ولعي بالطائرات - على نقيض كثيرين من الشباب الامريكيين - لم يكن ولها تاما او مستمرا. وفي السنوات التي تلت طائرة "ويدجون" كانت مكانة الطائرات في حياتي اقل شأنا من الشطرنج او الكرة او الفتيات. وعلى اي حال، فقد التحقت باكاديمية ويست بوينت العسكرية الامريكية. وعندما اقترب موعد التخرج كان علي ان اقرر ما اذا كنت سأظل في الجيش أو اتخذ اتجاها جديدا فالتحق بسلاح الجو الذي اصبح مستقلا قبل ذلك بوقت قصير.

العمل في الطيران له مشكلاته، اذ يمكن ان يفصل المرء عن التدريب كطيار، وهذا ما يحدث لـ٢٥ في المئة من المتقدمين. ويمكن ان يقتل ايام

السلم بسهولة تعادل عمليا سهولة قتله في الحرب. اضف الى هذا انه كانت لدي مشكلة شخصية: فقد كان الاخ الاصغر لوالدي رئيسا لاركان الجيش آنذاك، وتقاعد والدي برتبة فريق، وكان عم آخر لي برتبة قائد لواء، وابن عمي برتبة رائد - كلهم في الجيش. وشعرت بان لدي فرصة افضل لاشق طريقي وحدي في سلاح الجو. فالتحقت فعلا بهذا السلاح.

بعدما قضيت ستة اشهر في ميسيسيبي اتعلم الامور الاساسية، نقلت الى تكساس للتدرب على الاجهزة والطيران ضمن تشكيلات اضافة الى تلقي دورة اولية في الطيران النفاث. وفي حفل التخرج كنت بين عدد قليل ممن وقع عليهم الاختيار للذهاب الى قاعدة نيليس الجوية التي كانت آنذاك المنفذ الوحيد الى كوريا حيث كانت طائرات "سابر جيت ف٨٦" الامريكية تحارب طائرات "ميغ" بنجاح كبير.

في قاعدة نيليس تلقينا دورة طيران مركزة وهجومية ومصممة لعزل اي طيار يمكن ان يكون ضعيف الاداء. وكانت الدورة قاسية جدا. فخلال الاحد عشر اسبوعا التي قضيتها هناك لاقى ١١ شخصا حتفهم.

وبعد انتهاء الحرب الكورية عينت في كاليفورنيا، ثم في فرنسا. وبدأت افكر في طريقة تقدمي على مركزي الحالي. كان زوج اختي، وهو طيار في البحرية، قد اكمل اخيرا دورة في مدرسة طياري الاختبار التابعة للبحرية في ماريلاند. وكانت تعجبني اللمحات السريعة الواردة في رسائله حول طيرانه. وهكذا، بعدما عدت الى الولايات المتحدة عام ١٩٥٧، لم اضيع اي فرصة لقيادة الطائرات مهما اختلفت انواعها، عن طريق توددي بالكلام المعسول الى ضباط عمليات غرباء عني، وبوضع نفسي في تصرفهم نهارا وليلا، وقبولي القيام برحلات لم يكترث لها اي شخص آخر. وبهذه الطريقة تمكنت من تنمية مدة طيراني الى ما يزيد على علامة ١٥٠٠ ساعة السحرية اللازمة عند تقديم طلب الى مدرسة طياري الاختبار في قاعدة ادواردز. وارسلت طلبي فورا.

لا بد من ان يكون آلاف مثلي تقدموا بطلبات. لذلك كنت في غاية السرور عندما عينت في "الصف ٦٠ سي" ابتداء من ٢٩ اغسطس (آب) ١٩٦٠ - مدة الدورة ٣٢ اسبوعا. كان ذاك المكان مرموقا. فهناك تم اختبار اول طائرة نفاثة امريكية. وهناك اخترق الكابتن تشاك ييغر الحاجز الصوتي في ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٧. وهناك كان الكابتن مايكل كولينز يحلق الى الامام والى اعلى.

وكان المكان ايضا جافا وحارا، وكان شديد الرياح ومعزولا، ولا يشبه في شيء المكان الذي تصورته زوجتي بات لميلاد طفلنا الاول. ولكن كنا نعلم على الاقل اننا في فترة تعيين طويلة ومستقرة. ويعلم الله ان بات تستحق ذلك: ففي اقل من اربع سنوات منذ تزوجنا، عشنا في اربعة منازل واربع شقق وقرابة ٤٤ نزلا.

وسرعان ما انغمست في تعقيدات اختبار الطائرات الجديدة: تعلمنا التحكم بالسرعة الى اقرب عقدة جوية. تعلمنا أن نلاحظ ونتذكر

ونسجل كل شاردة وواردة في حركة طائرة رجراجة جياشة لولبية. تعلمنا تنظيم واجباتنا بحيث لا تضيع سدى اي دقيقة من وقت التدرب على الاختبار... لقد كنا في غاية الدقة.

اشد ما نخشاه كان الا نتمكن من استخدام هذه الدقة، اي ان نعين في مهمات اختبار من الدرجة الثانية، او نعين لنحلق في السماء وندور في حلقات تكاد لا تنتهي بينما يعبث احد المهندسين، وهو في مؤخر الطائرة، بازرار صندوق الكتروني جديد. ومعظم الذين في صفنا سيملأون وظائف طياري الاختبار من الدرجة الثانية، بينما سيعين طيارو الاختبار الحقيقيون فيدائرة عمليات الاختبار (فرع المقاتلات طبعا). واخذنا ننتظر بقلق متزايد.

وأخيرا وصل النبأ: المكان الوحيد الخالي في عمليات المقاتلات اعطي - ولا ادري وفقا لاي معادلة سحرية - الى مايك كولينز. ولمدة سنة تقريبا بدا لي أن وظيفتي احسن وظيفة في العالم. ثم اخذت تفقد رونقها وعظمتها تدريجا بعدما تعرفت الى اشخاص في هيوستون وحسدتهم.

لحظة الحقيقة

يريدون مؤهلات خاصة؟ لنفترض اني لا املك هذه المؤهلات افلا استطيع الحصول عليها؟

مع نمو ناسا السريع، زاد شعور سلاح الطيران بالقلق في شأن الدور الذي قد يوكل اليها في استكشاف هذا المجال الجديد الذي يسمى "الفضاء" تعظيما. ونتيجة لذلك، اطلق على المدرسة التجريبية لطياري الاختبار اسم جديد هو "مدرسة طياري البحوث الفضائية"، واحدث صفان للدراسات العليا. وقد اعيد اليهما خريجون منتخبون من دورة طياري الاختبار لتلقي تدريب اضافي لستة اشهر. وكان اي شيء يمكن ان يؤهلني للاشتراك في مسابقة ناسا المقبلة يستحق التجربة. وهكذا، اخذت اجازة لستة اشهر من عمليات المقاتلات والتحقت في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٢ بمدرسة طياري البحوث الفضائية.

وكان امامنا نحن الطلبة رحلات طيران شائقة تتركز على طائرات "ف١٠٤". وكانت طائرة "ستار فايتر" التي بنتها شركة لوكهيد في أواسط الخمسينات، اول طائرة على قائمتنا تبلغ سرعتها ضعفي سرعة الصوت. كان هيكلها طويلا، لكن طول كل من جناحيها لا يزيد على ٢،٣ متر من الهيكل حتى النهاية. وهما حادان في الطرف الامامي الى درجة ان واقيات للسلامة كانت تركب عليها لدى وجودها على الارض. والطائرة صممت للسرعة القصوى، وكانت تنطلق انطلاق الشياطين. اما اذا انطفأ المحرك فكانت تسقط كحجر.

كانت الطائرة "ف ١٠٤" لعبتنا في مدرسة طياري البحوث الفضائية. وكنا نتظاهر بانها مركبة فضاء ونحاول ان نعاملها احيانا على هذا الاساس. كما كنا نرتدي ملابس الضغط ونتسلق الى علو ١٠،٦٦٨ مترا، ثم نسرع بها الى الحد الاقصى القانوني. ومن ثم نشد العصا الى الوراء ونصعد الى اقصى ارتفاع يمكننا بلوغه، الى ان نطفو فوق قوس هوائي متراخ يشهد على صحة انعدام الوزن في الفضاء. وعلى ارتفاع ٢٧،٤٣٢ مترا ترى السماء

فوقك دكناء الزرقة الى حد انها تكاد تبلغ اللون الاسود الخالص للفضاء. اما الطقس، بل جميع الاحوال الجوية، فانها تبدو تحتك على مسافة قريبة، ومع ذلك على بعد سحيق!

وقضينا وقتا داخل المدرسة، كان بعضه مملا جدا وبعضه مثيرا. تأمل مسألة ضرب المواعيد في الفضاء، حيث تكون مركبة وراء الاخرى، تحاول اللحاق بها. الحل سهل في الطائرة: زد السرعة وتقدم من الوراء. لكن هذا لن يؤدي النتيجة المطلوبة في مركبة فضائية: فزيادة السرعة نحو الهدف تضعك في فلك اعلى، وفي الافلاك الاعلى تقل السرعة. وعليه، ينبغي للمرء ان يتأخر بدلا من ان يحاول التقدم. عليه ان يستخدم السرعة - نقيض ما تمليه كل احاسيسه - للاتجاه بعيدا عن هدفه. انزل الى فلك ادنى واكثر سرعة، ثم عد الى الفلك الاصلي في النقطة الصحيحة بالضبط.

بلغ صفنا نهاية الشوط وسط اشاعات ملحة عن دورة اختبار اخرى ستجريها ناسا. وثبت نبأ ذلك في ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٣. ولحسن الحظ، كنت لا ازال دون الحد الاقصى للعمر بـ١٦ شهرا. ولبيت جميع المتطلبات الاخرى. من جهة اخرى، ونظرا الى ان ناسا وسعت ميدان الاختيار، لم يعد في وسعي تقدير امكان اختياري.

سارت عملية الاختيار على النمط الذي حدد في السنة الماضية. فبحلول منتصف يوليو (تموز) كانت ناسا غربلت ٢٧١ مرشحا وابقت منهم ٣٤. وبعد جولة فحوص طبية اخرى، عدت الى هيوستون في سبتمبر (ايلول) لحضور مقابلات. وكنت احمل بين جوانحي هذه المرة احساسا بالنهائية، اذ ان لحظة الحقيقة كانت تقترب من جهودي لاقناع المسؤولين في ناسا بانه لا يمكنهم ان يحلقوا الى القمر بدوني.

ولعدم اقتناعي شخصيا، فقد استأنفت بهدوء حياتي في قسم عمليات المقاتلات في قاعدة ادواردز، متظاهرا بان كل شيء على ما يرام. وبدا كل اسبوع شهرا او اكثر. واخيرا، في ١٤ اكتوبر (تشرين الأول) استدعيت الى الهاتف، فسمعت صوتا اجش عرفت انه صوت ديك سلايتون، وهو من السبعة الاصليين. وذكر لي ديك الذي يستغني عن فقرة طويلة اذا كانت عبارة قصيرة تغني عنها، كيف سيوظفني اذا كنت لا ازال مهتما بالعمل في ناسا. ولست اذكر شيئا البتة مما قلته ردا عليه، وان كنت اذكر انه كان مبهما، اذ غمغم سلايتون ثم امرني بالذهاب الى هيوستون في ١٨ اكتوبر (تشرين الأول) واقفل الخط.

"ما الذي يحدث اذا...؟"

في هذا الوقت في هيوستون، كان لا يزال من الضروري الاجابة عن كثير من الاسئلة قبل ان يتمكن اي شخص متعقل من تقدير امكان الوصول الى القمر. ما هي البداية، وما الواجب دراسته، واين تبدأ الخطوة الاولى في رحلة الالف ميل الشهيرة؟ وكانت ناسا قد اعدت بعناية دورة مرتبة صغيرة تنتظم في صفوف لتدريس مواد يمكن الى حد كبير التنبؤ بأقسامها: فلك، دفع صاروخي، ملاحة جوية، آلات حاسبة رقمية، وهكذا. وبدا كل شيء

في القائمة متوازنا، ولكن الى حين وصول المادة الاخيرة: "جيولوجيا - ٥٨ ساعة". جيولوجيا؟

واتضح اننا لن نطير الى القمر فحسب، بل ينتظر منا، عندما نصل الى هناك، ان نعمل كمنقبين. (ومن اين لي ان اعرف وقتها ان معدنا مكونا من الحديد والمغنيزيوم سيكتشف في قاعدة "بحر السكون" عام ١٩٦٩، وان هذا المعدن الجديد سيسمى "آرمالكولايت" تبعا لاسماء آرمسترونغ وآلدرين وكولينز؟). كان علينا ان نتعلم طريقة جديدة تماما للتعرف على الصخور: "رمادية ومكتلة" ليس وصفا كافيا، بل علينا الآن ان نقول: "حبيبية، سماقية، هايبيديومورفية، فينوكريستية، رمادية، متوسطة الحبيبات".

بعد ذلك تلقينا دورة في المحافظة على البقاء، هدفها تعليمنا ما يجب عمله اذا هبطت المركبة الفضائية على نحو غير متوقع في منطقة نائية من العالم. وهكذا سافرنا الى باناما قاصدين مدرسة سلاح الجو الخاصة بالمحافظة على البقاء في المناطق المدارية، حيث قضينا يومين في صف الدراسة ثم يومين في العيش على ما تعطيه الارض من غذاء.

كان واجبنا الاول ان نقطع بضعة اميال عبر الادغال نحو منطقة مخيمنا المعينة. وحاولنا هناك، عبثا ومن دون نجاح، ان نصطاد اسماكا من جدول صغير، وبحثنا بلا جدوى عن نباتات صالحة للاكل. واخيرا جاء بعض العاملين في المدرسة لانقاذنا. وكانوا قد وجدوا عظاية امريكية استوائية (وهي سحلية ضخمة تعيش على الاعشاب). وبما يقل كثيرا عن الحماسة، توليت انا وزميلي بل آندرز اشعال نار غلينا عليها ماء في علبة صفيح (تنك) والقينا فيه نصيبنا من العظاية. واذكر ان آخر قطعة وضعناها في الماء، كانت ساقا امامية، ظلت طافية على السطح وقدمها الصغيرة ممتدة ضارعة، على رغم كل الجهود التي بذلتها لادفع بها الى اسفل. وشاهد بل هذا كله بصمت غير مريح، واخيرا تمتم عبارات مؤداها ان نصيبي من العظاية في متناولي اذا اردته. يا له من صديق شهم!

لحسن الحظ، لم تنزل اي مركبة فضاء حتى الآن في منطقة يحتاج المرء فيها الى تطبيق ما تلقاه من تدريب للمحافظة على البقاء. وهكذا، كما يحصل في حالات كثيرة من تدريب رواد الفضاء، فان المعلومات لم تستخدم ابدا. لكن مثل هذا الاعداد، القائم على التساؤل المستمر من مجموعات كبيرة من الرجال الاكفياء: "ما الذي يحدث اذا...؟"، هو من أكثر تقاليد ناسا حكمة.

ورويدا رويدا، اتجهت مجموعتنا - الاربعة عشر - نحو اعتماد هؤلاء الرجال رواد فضاء "حقيقيين". وكانت رحلتا "جيميني" (الجوزاء) و"ابولو" في المراحل التشكيلية، لكن الوقت كان لا يزال مبكرا لاحداث تغييرات في التصاميم على اساس اقتراحات الملاحين المرشحين. وتم توزيع المهمات على الرواد، ومنها تخطيط الرحلة والمواصلات والارشاد والملاحة. وكان نصيبي بذلت الضغط والنشاط خارج العربة.

ثمة علاقة بين رائد الفضاء وبذلته المضغوطة، هي مزيج من المحبة

والكراهية. فهو يحبها لانها لباس وثيق يحميه ٢٤ ساعة في اليوم، ويكرهها لانها يمكن ان تكون متعبة للغاية. وتفصل لكل عضو في طاقم الملاحين ثلاث بذلات وفقا لمقاساته الفردية. الاولى، وتسمى بذلة التدريب، كانت تلبس في آلات التدريب واسطوانات الطرد المركزي وطائرات انعدام الجاذبية كلما كانت هناك حاجة الى إلباس الملاحين بذلات خاصة. وقد عطبت هذه البذلة نتيجة قسوة استعمالها لمئات الساعات. والبذلة الثانية هي بذلة الطيران، اما الثالثة فاحتياطية. وكانت كل منها تلبس قرابة ٢٠ ساعة عموما، اي ما يكفي لترويضها.

قبل اي شيء، يجب ان تكون بذلة الضغط مانعة لخروج الهواء، بحيث يمكن نفخها لحماية رائد الفضاء من الفراغ الفضائي. فمن دون ضغط غاز حول الرائد، تتبخر السوائل الموجودة داخل جسمه ويتحول دمه فعلا الى فقاقيع. لذا، فان علينا ان نبدأ بقربة غاز يمكن ضغطها بمقدار ٢٦٠ غراما لكل سنتيمتر مربع. ولمنع التوتر البالوني، لا بد من وجود طبقة كابحة تسمح للبذلة بالانثناء عندما ينحني رائد الفضاء وبالالتواء اذا ما التوى، بحيث تكون عموما بمثابة طبقة جلدية اضافية قوية.

لكن رائد الفضاء، اذا وضع داخل قربة مانعة للهواء، يغرق في بركة من العرق. لذا كان لا بد من اضافة شبكة انابيب تهيئة معقدة الى جسم البذلة والخوذة واليدين والرجلين. الى ذلك، كان هناك نظام كهربائي يزود ممرا يضمن وصول الاشارات اللاسلكية الى سماعتي الاذنين. وجُعل مرور المعلومات البيولوجية الطبية من اربعة مجسات (ملصقة على الصدر) عن طريق الموصل الكهربائي ذاته.

واضاف القفازان والخوذة سلسلة اخرى من مشكلات التصميم. فالقفازان يجب ان يكونا رقيقين ومرنين للسماح بتشغيل مفاتيح التحكم الحساسة وضبطها، حتى عندما يكونان مضغوطين. وكان لا بد من ان تكون الخوذة قوية، خفيفة، مريحة، مشتملة على سماعتي الاذنين ومكبرات الصوت، وان تؤمن رؤية ممتازة.

اذا اخذت الاشياء تبدو معقدة، فتذكر ان كل ما فعلناه حتى الآن هو السماح لرجل بان يعمل في فراغ. ويجب الآن ان نضيف الاخطار الاخرى الى ذلك الفراغ: طاقة الشمس المعمية، درجة الحرارة التي هي دون درجة التجمد بالنسبة الى اي شيء محجوب عن الشمس، امكان اختراق البذلة بقذائف تسمى الشهيبات. ومن حسن الحظ ان مشكلات الحرارة والبرد والشهيبات لها حل مشترك: طبقة تغطية كثيفة من مادة شبيهة باللباد تشكل عازلا حراريا ممتازا، وغطاء نايلون خارجي متين يضمن الحماية ضد الصدمات الشديدة السرعة.

ولكي نجرب البذلات، ركبنا طائرة منعدمة الجاذبية من طراز "كي. سي ١٣٥" (وهي في الاصل بوينغ ٧٠٧)، ازيحت جميع مقاعدها وغطي داخلها باللباد. وكان الطيارون يغوصون بانحدار شديد ثم يرتفعون على نحو حاد، ومن ثم يوازنون اندفاع الطائرة الى الامام بالسرعة الصحيحة لابقائنا معلقين ما بين السقف والارضية في الحجرة الخلفية.

الرحلة الاولى من هذا النوع، التي قمت بها في قاعدة ادواردز الجوية عام ١٩٦٣، كانت رحلة تعريف بسيطة. وصعد اعضاء صفنا في مدرسة طياري البحوث الفضائية بحماسة كبرى الى الطائرة، مرتدين بذلات طيران قطنية خفيفة. وقد ضحكنا ملء افواهنا محاولين شرب الماء من أكواب ورق (في حال انعدام الجاذبية لا يمكنك حقا عمل ذلك، اذ يطفو الماء خارجا من الكوب على شكل كتل اسطوانية كبيرة قبل تمكنك من ايصاله الى فمك)، وقمنا بمئة حركة أخرى سخيفة لا يمكن اداؤها هنا على الارض.

الطائرة العديمة الجاذبية التي تعلمت ان اكرهها في ما بعد كانت شيئا مختلفا تماما. فمن ناحية اولى، كنا على متنها لنعمل، لا لنلعب. وثانيا، كنا في كل المرات تقريبا نرتدي بذلات الضغط، بمعنى اننا كنا نشعر بالحرارة اصلا ثم تزداد حرارتنا عما كانت في البداية. وثالثا، كان علينا ان نكتشف اشياء كثيرة تزيد على ما يسمح به الوقت. وهكذا كنا نشتغل باهتياج شديد خلال كل قطع مكافىء، وقد اجرينا رحلات قطع مكافىء كثيرة!

الى ذلك، تم تعريفي مرة اخرى على تلك الاداة الشيطانية المعروفة باسم اسطوانة الطرد المركزي، ومهمتها تقليد التسارع الذي يشعر به المرء خلال ركوبه صاروخا في الفضاء، او تناقص السرعة الناتج من العودة الى الغلاف الجوي للارض. وهي تفعل ذلك بتدوير جندول صغير او حجرة قيادة مقلدة على نهاية ذراع طوله ١٥ مترا. وبينما يلف الذراع اسرع فاسرع، تدفع قوة الطرد المركزي الشخص الجالس في الحجرة بضغط متزايد نحو مقعده. وكان يتم الوصول عادة الى سبع جاذبيات خلال عودة "ابولو" من الرحلة الى القمر. واذا كانت زاويتك اكثر حدة بقليل من المعتاد، فان قوة الجاذبية يمكن ان ترتفع بسهولة الى عشر مرات او ١٥ مرة. من هنا كان الحد الاقصى لنا هو ١٥ قوة جاذبية على العجل، ولم يكن ذلك هزلا بالمرة.

بعد اي مقدار يزيد على ثماني قوى جاذبية، ينتابني الشعور بألم تحت عظام صدري. وعند بلوغ عشر قوى جاذبية يشتد الالم ويصبح التنفس مستحيلا تقريبا. والواقع ان المرء يحتاج الى طريقة تنفس مختلفة تماما في قوى الجاذبية العالية. فاذا تنفست عاديا، وجدت انك تزفر على ما يرام، ولكن عندما تحاول اعادة نفخ رئتيك تشعر كأن احزمة فولاذية شدت بقوة حول صدرك. لذا، فان عليك ان تبقي رئتيك مليئتين بالهواء في جميع الاوقات تقريبا، وان تعطي نفثات سريعة قصيرة "من فوق".

كل هذا ينطوي على سحر شرير في المرة الاولى. غير ان المرة الاولى كافية، اذ يصبح الامر بعد ذلك عملا بغيضا يخلف اثرا نفسيا متعبا يستمر يوماً او يومين، تصاحبه دوخة احيانا عندما يدير المرء رأسه فجأة. لذا فاني لم اكن سعيدا جدا بالعودة الى اسطوانة الطرد المركزي، خصوصا لانه كان علي ان امر عبر التجارب كلها، بالبذلات الثلاث، ثلاث مرات.

الآلة الجهنمية

كانت ١٩٦٥ سنة رحلات "جيميني" الفضائية. وبعد اطلاق مركبتين غير

مأهولتين بنجاح، كانت "جيميني ٣" جاهزة بحلول ٢٣ مارس (آذار)٠ ثم تلتها "جيميني ٤" و٥ و٦ و٧٠ وكان الغرض من رحلات "جيميني" تجربة النشاط خارج العربة واساليب اللقاء في الفضاء، وخصوصا معرفة ما اذا كان في وسع طاقم الملاحين ان يصمد ثمانية ايام في حال انعدام الوزن، وهي المدة اللازمة للوصول الى القمر والعودة الى الارض٠ عموما، سار كل شيء على ما يرام٠

وفي اواخر يونيو (حزيران) علمت باني سأكون من الملاحين الاحتياطيين لمركبة "جيميني ٧" وعضوا رئيسياً في فريق ملاحي "جيميني ١٠"٠ واختير جون يونغ، الذي اشترك في رحلة "جيميني ٣"، لرحلة "جيميني ١٠" ايضا٠ وما ان عادت المركبتان ٦ و٧ الى الارض حتى كنا قد بدأنا تدريباتنا بجد وعزم٠ وادركنا جسامة العمل المطلوب منا: كان علينا، خلال ثلاثة ايام، ان ننجز لقائين مع عربتي هدف مختلفتين في فلكين مختلفين، وان نقوم بمهمتين خارج العربة، كل منهما مختلفة تماما عن الاخرى، فضلا عن ١٥ تجربة علمية وفنية٠

مع بداية عام ١٩٦٦ طرأ على حياتي شعور بالاستعجال الشخصي لم اشعر به من قبل ابدا٠ احتفظت بدفتر ملاحظات قياسه ١٨ × ٢٥ سنتيمترا، مقسم ستة اجزاء: (١) الجدول، (٢) معلومات الانظمة (٣) التجارب، (٤) خطة الرحلة، (٥) مسائل متنوعة، و(٦) بنود مفتوحة٠ الجزء السادس كان معناه المشكلات التي اصبحت احس بها خلال تدريبنا والتي سجلتها بارقامها٠ وكنت اراجعها من وقت الى آخر وازعج المعنيين بها بحثا عن حلول واجوبة٠ وكنت، كلما تم حل مشكلة، اسطر خطا على رقمها٠ وبحلول صباح الاطلاق كنت قد دونت ١٣٨ مشكلة، لكني شطبتها جميعا٠

كانت المركبة الفضائية معظم الوقت في سان لويس داخل غرفة خاصة٠ وهي غرفة مدهونة باللون الابيض تحفظ في غاية النظافة ويدخلها هواء مصفى٠ وكان الجميع يلبسون بذلاتوقبعات واحذية بيضاء كلها٠ ونظم برنامج الغرفة البيضاء على اساس ٢٤ ساعة عملا، وكان فيها عادة ثلاث مركبات فضائية او اربع، مركَّبة عمودياً كما لو كانت على منصة الاطلاق٠ وساعة تلو ساعة، كنت انا وجون نستلقي على ظهرنا وارجلنا فوقنا، ونُدير بكسل مفاتيح مركبة "جيميني ١٠" خلال اجراء طائفة تجارب متنوعة٠ وكان لكل تجربة نصها، وهو مجلد ضخم يبين دور كل واحد من الفنيين المساندين في عملية تقليد الرحلة الحقيقية٠ وكان بعض الفصول سهلا واضحا، بينما استدعت نقاط اخرى تنسيقا معقدا بين المشرف على التجربة وطاقم مشغلي المعدات المساند له والملاحين الموجودين فى حجرة القيادة٠ وقد تصفحنا المجلد سلفا ووضعنا خطوطاً حمراء تحت كل اشارة تتعلق بمشاركتنا٠ ثم كنا، في اللحظة الصحيحة من تتابع التجربة، نشغل المفتاح المناسب لاداء ما هو مطلوب بالضبط٠ واذا اخطأنا نحن او اي شخص آخر في الفريق، كانت التجربة تعاد وتكرر احيانا ثلاث مرات او أربع مرات٠

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ان من لم ير ابدا مركبة "جيميني" لا يمكنه ان يقدر حال من يحصر داخلها. فهي صغيرة جدا (اصغر من المقعد الامامي لسيارة فولكسفاكن) مع منضدة كبيرة بين الطيارين، كما لو كان ثمة جهاز تلفزيون ملون موضوع بين شخصين في سيارة فولكسفاكن. ولا يمكنك ان تنهض من مقعدك لان لا مكان هناك يسعك الذهاب اليه. ولم استطع الجلوس في "جيميني" وهي على الارض اكثر من ثلاث ساعات متواصلة. اما الشيء الذي جعل الرحلات الطويلة امرا ممكنا فهو انعدام الوزن، مما يسمح لرواد الفضاء بحرية الجري بعيدا عن المقعد، فتعود دورتهم الدموية الى النشاط ولا تحدث لهم قروح من جراء ملازمة الفراش.

وحين لم نكن في المركبة الفضائية، فقد كنا نعمل داخل المركبة التجريبية، وهي قلب ناسا وروحها. وكشفت لنا التجربة ان تعلم الجيولوجيا يستحق الثناء، والعيش في الادغال مسل، واسطوانة الطرد المركزي مؤلمة، والتجارب الارضية على مركبة الفضاء مفيدة. غير ان المرء لا يطير الا اذا حكمت المركبة التجريبية بانه استكمل الشروط.

المركبة التجريبية "سان لويس" كانت مختصة باللقاءات الفضائية. وكنا، يوما بعد يوم، نجلس في تلك الآلة الشيطانية ونراقب ضوءا على شاشة معتمة يمثل المركبة الهدف محاطة بأضواء اخرى تمثل النجوم. وكنا احيانا نقبض على هذه المركبة بسهولة، بينما كنا احيانا اخرى نتيه في السماء بعيدا جدا عنها، او نلحق بها بعدما تكون خزانات وقودنا نضبت (نظريا).

مع اقتراب موعد الرحلة، يقيس فريق الملاحين الوقت المتبقي لانجاز اهداف التدريب. ومهما يكن المرء مجتهدا، فانه يصل الى نقطة يضطر معها الى الاقرار بانه لا يستطيع انجاز كل اهداف التدريب. هذه كانت الحال، على الاقل، في رحلة "جيميني ١٠". لكننا كنا قد رتبنا اولوياتنا بحيث ادرجنا المواد غير المدروسة تحت عنوان: "من المفيد ان تعلم"، بعدما كان عنوانها: "من الضروري ان تعلم". وبالنسبة الي، كانت خطوات التدريب آخذة في التسارع منذ اشهر، وبلغت ذروتها قبل الرحلة بثلاثة ايام. وفي تلك اللحظة قلت ببساطة: "الى الجحيم بتلك الخطوات! ان لم اعرفها الآن، فلن اعرفها ابدا".

تجوال في الفضاء

كانت بذلة الضغط المعهودة هناك في انتظاري داخل بناية مقطورة تم تعديلها لنرتدي فيها الملابس. والبناية ليست بعيدة عن المنصة ١٩ حيث يجثم صاروخنا. وتقدم احد الفنيين الطبيين وحلق فسحة في شعر صدري ولصق عليها مجساته التي تشبه الاقراص.

بعدئذ ارتديت لباسا قطنيا داخليا ذا حزام مخاط حوله من شأنه جلاء صوت ضربات قلبي لاعادة بثها الى مقر التحكم بالرحلة. ثم لبست البذلة الرئيسية. واخيرا وضعت الخوذة على رأسي باناة تشبه الوقار، وتم انزالها ببطء الى عنقي كي تتوازن قبل ان تضغط بقوة الى اسفل وتثبت في مكانها. ولم يكن ينقصنا لبدء الصعود الى الفضاء سوى انزال نافذة الرؤية واقفالها. ومن هناك فصاعدا لا يعود المرء يتنفس الهواء، بل

الاوكسيجين النقي، كما لا يسمع صوتا انسانيا البتة ما لم يصل اليه عبر الاجهزة الالكترونية٠

ثم خرجنا نحو منصة الاطلاق، فالى حجرة القيادة، تساعدنا ايد مستعدة تدفعنا قليلا، وتوصل خراطيم الاوكسيجين ثم تقفل الفتحات علينا بلطف في نهاية الامر٠ واخيرا وجدنا انفسنا منعزلين في عالمنا الصغير، لا نسمع الا قرقعة اجهزة التخاطب الداخلي وهسهسة الاوكسيجين٠

الايام تحولت الى ساعات، والساعات الى دقائق٠ لقد انتهت المرحلة التجريبية، ولم يعد في امكاننا النزول في المصعد كي نعود ادراجنا ولا الاستماع الى التقارير خلال احتساء القهوة٠ الصوت المتحمس عبر اللاسلكي يبلغ نهاية رسالته: "١٠ - ٩ - ٠٠٠٨" امسك حلقة القذف التي على شكل D بكلتا يديك واضعا اياها بين رجليك٠ هزة واحدة وتنطلق مقاعدنا بعيدا عن هذا الوحش٠ "٧ - ٦ - ٠٠٠٥" ها نحن سننطلق حقا٠ "٤ - ٣ - ٢ - ٠٠٠١" لا بد من ان تشتغل المحركات الآن٠ اشعال٠ انتبه لهذه العدادات٠ انطلاق!

رجة طفيفة نكاد لا نحس بها، وننطلق في الهواء٠ مستوى الضوضاء مرتفع، لكننا نحس بوجود المركبة بدلا من سماعها، من دون ان يكون هناك اي احساس بالسرعة٠ زيادة معتدلة على قوة الجاذبية تعطينا شعورا باننا ندفع برفق في مقاعدنا المتعرجة السطح٠ وفي ٥٠ ثانية نتجاوز الحد الذي يسمح بعده بفك الحزام الذي على شكل D ٠

ومع وصولنا الى الفك، المس المظاهر الاولى لانعدام الوزن: قطع صغيرة متناثرة، حلقات لاحكام الوصل، براغ، جزيئات غبار تسبح بلا هدف في ارجاء حجرة القيادة٠ وخلال ساعة تقريبا تكون كلها قد ذهبت وشفطت داخل الستار المثقب لمدخل جهاز التهوئة٠ لكنها في الوقت الحاضر منظر مسل، وهو يذكرك ايضا بان هذه الالة جمعتها ايد غير معصومة عن الخطأ٠

بعد ساعتين وعشر دقائق نشغل اجهزة دفعنا لفترة وجيزة لندخل في اتجاه ملائم مع اول مركبة هدف لنا٠ في الساعة الثالثة والدقيقة ٤٨ نهبط الى مسار يقع على مسافة ٢٤ كيلومترا تحتها٠ المدربون الارضيون علمونا كل هذه المناورات٠ في الرابعة والدقيقة ٣٤ نقوم وحدنا بحركة نستخدم فيها الرادار والدماغ الالكتروني لنحسب مسافة مسار معترض٠ كل شيء يبدو حسنا بينما تنمو مركبة الهدف من ضوء لامع الى اسطوانة مميزة٠ وفجأة يطرأ خلل: لقد ملنا الى جنب واخذنا ندور، ولكن من دون ان نقترب٠ انه خطأ ارتكبناه في المركبة التجريبية، وهو خطأ لا يمكن تصحيحه الا باستخدام وقود اضافي٠

اخيرا، وجدنا انفسنا واقفين الى جانب المركبة الهدف في الوقت المحدد بالضبط، من دون ان يبقى لدينا سوى ٣٦ في المئة من وقودنا بدلا من الـ٦٠ في المئة التي يجب ان تكون لدينا في هذه المرحلة٠ وللمرة الثانية في التاريخ (بعد "جيميني٨") تلتحم مركبة فضائية بمركبة اخرى٠ ويتولى جون ارشاد مقدم مركبتنا الدقيقة بيسر وخبرة الى داخل قبة الالتحام على مقدم

المركبة الهدف. مركبة الهدف لها محركها الخاص بها، وسنستخدمه الان ليزيد سرعتنا نحو المركبة الهدف الثانية: "جيميني ٨" الموجودة في مكان ما فوقنا.

الخطوة الاولى في عمليات اللحاق هذه سترفعنا، جون وانا، الى علو يفوق ما جرؤ عليه انسان حتى الان: ٧٦٥ كيلومترا. لكن الغرض من المناورة ليس الوصول الى رقم قياسي للارتفاع بل الى التوقيت الصحيح لفلكنا بالنسبة الى فلك المركبة الهدف الرقم ٨. علينا خفض سرعتنا قليلا، وهذا يعني زيادة الارتفاع. وبعد ذلك تتم العملية بسهولة.

النشاط الاول الى خارج المركبة كان في اليوم الثاني، وهو مصمم لالتقاط توقيعات الاشعة فوق البنفسجية لنجوم فتية حارة ومختارة. ونظرا الى ان نوافذ المركبة الفضائية لا تبث الضوء فوق البنفسجي، فان علي ان اشغل آلة التصوير خلال وقوفي في الكوة المفتوحة ثم نخفض ضغط المركبة بفتح صمام صغير. وتستغرق هذه العملية - كما هي الحال عندما يخرج الماء من حوض الاستحمام - فترة قصيرة. ولا نجرؤ على فتح الكوة الا بعد وصول مؤشر الضغط الى علامة الصفر.

واخرج بحذر، مغمورا حتى مستوى الخصر، وأجد نفسي في ظلام دامس. النجوم في كل مكان وفي كل جانب. والى اسفل تكاد الارض لا ترى. فالقمر غير ظاهر، والضوء الوحيد يأتي من لمعة برق بين حين وآخر على طول صف من السحب القزعية التي تسبق عواصف الرعد. ونطير عبر العالم في صمت مطبق ويسر مطلق.

وتجعلني حركتنا التي تتسم بأناقة المراسم، اشعر بالعظمة وانا اقف ممدود القامة في عربتي ذارعا بها السماء المعتمة.

المهمة الرقم ٢ خارج المركبة في اليوم الثالث اكثر صعوبة. جون يطير في تشكيل مع مركبة الهدف الرقم ٨، وعلي" ان اذهب اليها وازيل رزمة تقيس اثر الشهيبات منذ ثلاثة اشهر. وكان يربطني بمركبة "جيميني" حبل يبلغ طوله ١٥ مترا، يحمل الاوكسيجين ويؤمن المواصلات. واحمل "مسدس" نيتروجين يصدر طلقات الغاز للتحكم بحركاتي.

ورويدا رويدا، ادفع نفسي بعيدا عن "جيميني". ولا تكاد تمضي ثلاث ثوان او اربع حتى ارتطم بهدفي، الا وهو مكيف الالتحام في مؤخر المركبة الهدف. وامسك شفة كوز الالتحام الزلقة بكلتا يدي وابدأ العمل حولها بعكس اتجاه عقربي الساعة. وامشي على يدي بزاوية تقرب من ٩٠ درجة مع القفازين اليابسين المضغوطين كي اصل الى الرزمة. والان يجب ان اتوقف. انني اسقط! لقد تجاوزت حركتي الحد المعقول. وقوة الاندفاع الذاتي في جذعي وساقي ترغمني على التحرك باستمرار. في اول الامر تشعر يدي اليمنى بابتعاد المركبة الهدف، ثم ينتقل هذا الشعور الى اليد اليسرى. ولا ارى أي شيء مطلقا سوى سماء مظلمة. ويدوم هذا بضع ثوان قبل ان تلوح "جيميني" امام ناظري. واجد نفسي فوقها، ناظرا من اعلى نحو نافذة جون.

وبمساعدة مسدسي، اطير الى ما وراء "جيميني"، وهو موقع لم اكن انوي استكشافه البتة. واناد جون

قائلا: "انني في المؤخر يا جون، وراء حجرة القيادة، فلا تشعل اي محرك من محركات الدفع".

اقترابي من الكوة المفتوحة ليس رشيقا كفاية. لكني امسك بها بيد واحدة فيخفف ذلك من سرعتي الى درجة التوقف تقريبا. ويحين الوقت لاجرب مرة اخرى. فأسبح الى اعلى والقي يدي اليمنى داخل الفجوة الموجودة بين مكيف الالتحام والجسم الرئيسي للمركبة الهدف. واجد اسلاكا امسك بها. هذه المرة لا اريد الافلات! واخيرا افلح في الدوران الى ان ابلغ حزمة الشعيبات والتقطها. واعود ادراجي بالطريقة السهلة، واضعا يدا فوق اخرى على الحبل الذي يشدني الى المركبة. غير اني اتحرك ببطء لتجنب الاسراع وبالتالي الارتطام بمركبة "جيميني".

خبر فاجعة عبر الهاتف

ان كوني الامريكي السابع عشر الذي طار في الفضاء لهو امتياز صغير، وقد غير حياتي بمقدار ضئيل. لم يصبح اسمي كلمة شائعة في بيوت الناس، لكني اصبحت رائد فضاء مجربا وحقيقيا الآن. وكان ذاك المؤتمر الصحافي الذي عرضنا فيه تقاريرنا الفنية بداية مرحلة جديدة من حياتي بت فيها اجيب عن السؤال الآتي: "كيف كانت الحال هناك في الفضاء؟" ووضعت في جيبي قسيمة راتبي للاشتراك في رحلة "جيميني": ثمانية دولارات علاوة يومية على ثلاثة ايام، فيكون المجموع ٢٤ دولارا. واخذت اجازة لمدة اسبوعين لأتعرف من جديد على زوجتي بات واطفالنا الثلاثة. ثم عدت الى مكتبي، مكرسا نفسي لبرنامج "ابولو".

وبدا التوقيت مناسبا تماما، اذ كان غاس غريسوم يتحدث عن اطلاق "ابولو ١" (وكانت تسمى آنذاك "٠١٢") قبل نهاية السنة. وكان يؤمل ان يكون الهبوط على القمر ممكنا في موعد مبكر من عام ١٩٦٨. لذلك، غمرتني البهجة عندما ابلغني فرانك بورمان اني عينت في طاقم ملاحي "ابولو".

وكان يوم الجمعة ٢٧ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٧، الذي بدأناه باجتماع رسمي في مكتب ديك سلايتون الذي كان غائبا آنذاك، عندما رن جرس تلفون الكوارث الاحمر على مكتب ديك. ورفع دون غريغوري، مساعد ديك، السماعة بسرعة واصغى بصبر نافذ. ثم اعاد السماعة الى مكانها وقال بهدوء: "حريق في المركبة الفضائية". هذا كل ما قاله. ولم يكن ثمة شك حول المركبة الفضائية المقصودة ("ابولو ٠١٢") او من كان داخلها (غاس غريسوم، روجر تشافي، اد وايت) او اين (المنصة ٣٤ في كيب كينيدي) او لماذا (تجربة نهائية للاجهزة) او ماذا (موت، كلما كان اسرع كان افضل).

يا الهي! شيء واضح كهذا، لكننا حتى الان لم نفكر فيه. اهتممنا بالمحركات التي يمكن الا تشتغل، اهتممنا بالسيلان، واهتممنا حتى بطريقة خفض ضغط المقصورة لمنع حدوث حريق في الفضاء. اما هنا على الارض، فقد وضعنا ثلاثة اشخاص داخل مركبة فضاء غير مجربة، وشددنا احزمة مقاعدهم حولهم ولم نترك لهم منفذا سريعا للهرب.

وفيما جلسنا ذاهلين، بدأنا نفكر في عائلات الملاحين. واتصلت هاتفيا

بمكتب رواد الفضاء ورد" علي" آل بين الذي قال انه سينظم امر ابلاغ الزوجات بينما اظل انا قرب الهاتف الاحمر. وخلال بضع دقائق، كان آل قد وجد زوجات ورواد فضاء ليذهبوا الى منزلي غريسوم ووايت، لكنه لم يجد شخصا مناسبا لابلاغ مارتا تشافي. ومع شعور بضغط قوي في احشائي، قلت لآل اني سابلغها. وقدت السيارة ببطء مسافة كيلومترين ونصف كيلومتر الى بيتها الذي يبعد ثلاثة ابواب عن منزلنا.

وبقيت مارتا مع علم مطوي وطفلين تربيهما، كما بقيت جميع الزوجات الاخريات وهن يعلمن ان الطيران الفضائي - شأنه شأن الطائرات - يقتل فعلا. حتى ذلك الحين كان ذاك احتمالا واردا، لكنه لم يحدث ابدا. كم من رائد فضاء يمكنه الان ان يقرر انه لم يلتحق بالمهنة كي يموت حرقا، وبالتالي يستقيل؟ كم من زوجات الملاحين سيتركن ازواجهن ما لم يبادروا الى ترك المهنة؟ لكن الحقيقة ان احدا لم يقدم على الاستقالة، ولو لم يكن احد يعلم ما هو عدد المكالمات الحميمة التي جرت حول هذا الموضوع. الامر الوحيد الذي اعلمه هو اني لم اناقش زوجتي بات في المسألة الا سطحياً، اذ لعلي كنت خائفا من معرفة مدى عداوتها لبرنامج "ابولو" الذي اوقعنا نحن الاثنين اسرى لديه.

نصر حلو مرير

في الاشهر المبكرة الموحشة من عام ١٩٦٧، ازداد وضوحا ان الحريق الذي حدث في "ابولو ٠١٢" لم يكن مجرد حدث فردي عابر، بل علامة من علامات ضعف شامل. وكان معنى ذلك البحث عن مواد وادوات جديدة، وهذه كلها اشياء تستغرق وقتا. وفي اعقاب الحريق، تبخرت بسرعة آمالنا في ارسال ثلاث مركبات مأهولة خلال ١٩٦٧. فالمدة التي قدر العارفون انها ضرورية لجعل داخل المركبة مانعا للحريق، وهي سنة، استحالت سنتين تقريبا.

في تلك الاثناء استمر العمل في شتى وجوه برنامج "ابولو" دونما توقف. وكان نصيبي الشخصي ادارة جهاز ارشاد "ابولو" وجهاز التحكم بها، فضلا عن ادارة اشياء اخرى فيها، مثل دماغ الكتروني وتلسكوب وآلة سدس (لقياس ارتفاع الاجرام السماوية) ومنضدة ثابتة ثلاثية الارجل. وكانت الفكرة الاساسية في غاية البساطة، وقد بدأت كلها بالنجوم التي كانت مواقعها في الفضاء معروفة جيدا ولا تتغير. وامر اساطين الارشاد في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا ان يلقم الدماغ الالكتروني الخاص برواد الفضاء معلومات حول ٣٧ نجما مختارا. واذا شاهد الرائد احد هذه النجوم عبر التلسكوب او آلة السدس، عين مكانه عن طريق وضع شعرة تعامد في بؤرة الاداة التي ينظر منها وضغط زرا في لحظة الظهور المثالي المستقيم للنجم من اجل الاحتفاظ بالعلامة. ثم يلقم الدماغ الالكتروني اسم النجم مستخدما رقمه. وتكرار هذه العملية على نجم ثان يتيح للدماغ الالكتروني معرفة الوجهة التي تتخذها المركبة.

عانيت اياما طويلة من التفسيرات "المبسطة" لهذا النظام من خبراء معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا.

ولكن بحلول ١٩٦٨ وجدت نفسي اكتب بلغة خبراء المعهد: "م٠س٠ف٠ن٠ يرقم مناورة ١٠ف٠ الخارجية٠ م٠س٠ف٠ن٠ يسجل احدث حال للاتجاه، مستخدما حالات اتجاه ل٠م٠ الملاحون ينقلون اتجاه م٠س٠ف٠ن٠ من مواقع ل٠م٠ الى س٠س٠م٠ في الدماغ الالكتروني٠٠٠"

غير ان قلقا آخر كان قرابة ذلك الوقت آخذا في التسلل بقوة متزايدة الى وجداني٠ وكانت بداية ذلك القلق احساسا راودني خلال ممارستي لعبة البيسبول بان ساقي" لا تعملان عادياً٠ وبين حين وآخر، في اثناء نزولي على السلم، كانت ركبتي اليسرى تلتوي فأكاد اسقط٠ وشعرت باحساس غريب في ساقي اليسرى كان آتيا من خدر في بعض الاماكن٠ والاسوأ من ذلك ان منطقة الخدر بدأت تتسع٠

وبعد تعب شديد زرت الطبيب المسؤول عن رحلات ناسا، فأحالني على جراح مختص في الاعصاب٠ واظهرت صور الاشعة السينية ان نموا غضروفيا بين الفقرتين الخامسة والسادسة في رقبتي كان يضغط على حبلي الشوكي٠ وكان لا بد من ازالة الضغط بازالة النمو الغضروفي جراحيا، مع وصل الفقرتين بوتد عظمي صغير يؤخذ من مفصل وركي٠ ودخلت المستشفى في ٢٢ يوليو (تموز) ١٩٦٨٠

تمت العملية على ما يرام٠ وبعد اسبوع من التمارين البدنية والتدليك عدت الى منزلي لقضاء شهر نقاهة٠ وخلال هذه الفترة تلقيت مفاجأة سارة مفادها ان مركبة "ابولو ٨" – وهو الاسم الذي صبح يطلق الان على رحلتي – يحتمل ان تطير حول القمر٠ وكنت قد استبعدت، طبعا، من طاقم الرحلة٠ غير اني، قبيل موعد الاطلاق في ديسمبر (كانون الاول)، اصبحت احد المخاطبين الثلاثة للكبسولة خلال الرحلة، اي ناطقا باسم طاقم الملاحين ضمن محطة توجيه الرحلة وناطقا باسم محطة توجيه الرحلة حين مخاطبة طاقم الملاحين٠ والله اعلم اننا كنا سنتحدث في امور كثيرة٠

وكان جيري ليديرر، المسؤول عن السلامة في ناسا، اشار الى ان "هناك ٥،٦ ملايين قطعة في مركبة "ابولو"، واذا بلغت نسبة صحة عملها ٩٩،٩ في المئة، لانتهينا الى امكان وقوع ٥٦٠٠ خلل"٠

عندما ارتطمت مركبة الفضاء "ابولو ٨" في نهاية الامر برفق بمياه المحيط الهادئ على بعد ثلاثة اميال بحرية من سفينة يوركتاون التابعة للبحرية الاميركية قبيل فجر اليوم السابع، عم الهرج والسرور قاعة توجيه الرحلة التي تسودها الرزانة عادة٠ ولوح الناس باعلام اميركية مصغرة وربتوا بعضهم على اكتاف بعض واشعلت لفائف السيجار حسب التقاليد٠ ولم يقع شيء مما كنا قلقين منه، بل كان تخطيطنا سليما واعمالنا التجريبية دقيقة٠ وكان في وسعنا ان ندمر مركبة "ابولو ٨" بألف طريقة مختلفة، لكننا رعيناها بدلا من ذلك وارشدناها خلال اكثر الاسابيع اثارة واثرا في تاريخ البشرية٠

بالنسبة الي شخصيا، كانت تلك اللحظة مزيجا من العواطف والذكريات٠ فقد ساهمت في جعل هذه المهمة رحلة ملحمية٠ وانا اعدها رحلتي الشخصية اذ اني وظفت من اجلها سنتين من حياتي٠ لكنها، مع

ذلك، لم تكن رحلتي. فقد كنت واحدا من بين ١٠٠ شخص مرصوصين في غرفة مليئة بالضوضاء. وكان في وسعي ان الوح بعلمي وادخن سيجاري واعبث بندبة عمليتي الجراحية. لكن هذا كان كل شيء. ولسبب ما شعرت بدافع الى البكاء، ولكن لم يسعني ان افعل ذلك في محطة توجيه الرحلة. لذا اكتفيت بالتربيت على اكتاف عدد كبير من الجنود المجهولين العاملين، وغادرت المكان.

ونزلت "ابولو ٨" في مياه المحيط في ٢٧ ديسمبر (كانون الاول). وفي ٩ يناير (كانون الثاني) اللاحق اعلنت اسماء ملاحي "ابولو ١١". واذا سار كل شيء حسب الخطة، فان "ابولو ١١" ستنزل رجلين على سطح القمر. وقد كان طاقمها مؤلفا من نيل آرمسترونغ وباز آلدرين ومايك كولينز.

اوامر الزحف

آرمسترونغ وآلدرين لم يكونا فقط قرب قمة الهرم. بل كانا يتمتعان باحترام كبير ضمن مجموعة رواد الفضاء الصغيرة التي كنت فيها. وكان نيل اكثر طياري الاختبار خبرة، وبز اكثرهم علما باشواط بعيدة خصوصا في ما يتعلق باللقاءات الفضائية. واعتبرت نفسي سعيد الحظ بالانضمام اليهما.

في الاشهر الستة قبل موعد اطلاقنا في ١٦ يوليو (تموز)، كنت اكثر انشغالا من اي وقت مضى في حياتي. كان مركز ناسا في لانغلي (ولاية فرجينيا) اجرى دراسة واسعة على مشكلات التحام المركبة القمرية مع مركبة القيادة. وكان في المركز نموذجان كاملا الحجم مماثلان للعربتين، معلقان بأسلاك في المخزن الكبير. وكان علي ان اتفقدهما و"اطير" بهما. ثم توصلت الى استنتاجاتي في شأن مشكلات الالتحام الممكن حدوثها عندما يتلاقى الجسمان الحقيقيان للمرة الاولى (★)

ويمكن تصنيف مشكلات تدريبي كطيار لمركبة القيادة في قسمين: تلك التي ستواجهها المركبة "ابولو ١١" للمرة الاولى والتي لا جواب عن الاسئلة المتعلقة بها من الخبرات السابقة، وتلك التي ووجهت في الماضي. لكني - لعدم اكتراثي او قلة انتباهي او عجزي - لم افهمها على نحو كاف. ومن مشكلات النوع الاخير الاداة التي تصل مركبة القيادة بالمركبة القمرية، الا وهي المرساة والمجس.

عندما التحمت مركبة القيادة (التي سميت بعد ذلك "كولومبيا") بالمركبة القمرية ("ايغل"، اي النسر)، وضعت مجسها داخل مرساة المركبة القمرية فانفتحت ثلاث شعب صغيرة واستقرت في مواضعها. ثم استعيد المجس عبر النفق، فانطلق ١٢ مزلاجا ميكانيكيا. وفي تلك اللحظة ايضا غادر الطيار (انا) مقعده، وتسلم دور رئيس الميكانيكيين. وكان المجس يسد الطريق عبر النفق، فكان لا بد من ازالته كما ازيلت المرساة، كي يستطيع الاشخاص المرور ذهابا وايابا بين المركبتين.

ولكن قبل اتمام ذلك، كان لا بد من

(★) المركبة القمرية لم تحلق ابدا بوجود ملاحين على متنها، وكنا نأمل في ان تزودنا المركبتان "ابولو ٩" و١٠ بكل الحقائق الثابتة التي نحتاج اليها، باستثناء تلك المتعلقة بانجاز عملية الهبوط على القمر.

التدقيق في جدول طويل مفصل يتناول اشياء عدة. واذا لم يتجاوب الجهاز او سواه كان علي أن اخرج حقيبة العدة لافكه، انا الذي لا استطيع اصلاح مزلاق باب منزلي!

وكانت قدرتي على التركيز والاستيعاب تزداد مع اقتراب موعد الانطلاق. ذلك ان تجربتي لكثير من هذه الاشياء من قبل، خلال ايام "جيميني"، ساعدتني الى حد كبير. ولكن كانت هناك فوارق مهمة. فعلى متن المركبة "ابولو ١١"، كنا نحن الثلاثة سفراء لامتنا سيشاهدنا العالم اجمع، بما فيه من مناطق غير مصادقة لنا، ويجب الا نخفق، وكان ثمة ضغط من اجل التخطيط والدرس والتركيز والبحث في كل زاوية من دماغي عن غلطة مميتة: امر سهونا عنه، جهاز لم يصمم كما يجب، فعل يفترض ان اكون قمت به ولكن لم اقم به في الواقع.

والاسوأ من ذلك ان الذين منا داخل البرنامج كانوا وحدهم يعلمون بالاسباب الكافية لاخفاقنا: مجس مكسور، فوهة محرك مكسورة، عطل كهربائي، غفلة الملاحين عن انتباههم، وامور اخرى كثيرة. ولم اكن اعلم شيئا عن شعور نيل وباز، لاننا لم نتحدث في هذه الامور ابدا. ولكن اعلم اني شعرت بوطأة هذه المسؤولية الثقيلة على كاهلي. وعندما حان موعد الرحلة كنت ارمش بعيني الاثنتين على نحو لا ارادي. ولم يتوقف ذلك الا بعد انطلاقنا في الفضاء.

وكنا قد انجزنا كل انواع التكيف: الجسماني والفيزيولوجي والعقلي، حتى لم يبق امر لم نفعله. واخذت يوم الثلثاء ١٥ يوليو (تموز) اجازة وتمشيت في ارجاء مقر اعضاء الطاقم. وتحدثت الى زوجتي بات في هيوستون، وقرأت ثم اعدت قراءة الرسالة القصيرة التي كتبتها الي، وضمنها القصيدة الآتية التي يتضح انها لم تخطر على بالها في الدقيقة الاخيرة:

"كان يمكنني ان اسعى بالمكر والخديعة
الى تعتيم حلمي الساطع.
لكني لو ثنيتك عن عزمك بابتسامة
لما جنيت سوى الندم.
لذا فانك لن تسمع هذه المرة
صوت بكائي، ولن تحس برعشات خوفي
في عتمة الليل.
تلك اشياء لا اريدها لك هذه المرة.
خذ صمتي، مع انه متعمد،
واملأه بالفرحة التي تشعر بها.
خذ شجاعتي التي اتظاهر الان بها
فانت، يا حبيبي، ستجعلها حقيقية".

وكان املي ان استطيع ذلك.

وفي صباح اليوم التالي ارتدينا بذلاتنا واخذونا الى مصعد برج الاطلاق. وكان هذا صعودنا العمودي الاول، وهو البداية الفعلية لرحلة "ابولو ١١"، اذ لم تلامس ارجلنا الارض الا بعد نهاية الرحلة - الملحمة. وكان المنظر الاخير الذي رأيته على الارض - وانا اقف على ممر ضيق بارتفاع ١٠٠ متر تقريبا - شاطئا مترامي الاطراف خاليا من الناس عن يساري، فيما رأيت عن يميني كومة من المعدات ربما كانت اضخم شيء من نوعه عبر التاريخ. واذا بي - انا الانسان الاول - اغمض عيني اليمنى فاري فلوريدا ووراءها البحر الذي هو امنا جميعا، واغمض عيني اليسرى فاري اكواما مخيفة من

الاسلاك والمعدن. واعطتني تلك التجربة شعورا باني لست اكثر من يافع تكنولوجي في جيش تلقى اوامر زحفه.

وخطا نيل داخل المركبة الفضائية، ثم خطوت في اثره.

لحظات على طريق نيوتن

ان اشارة اقتراب موعد الاطلاق هي العد العكسي التقليدي نحو الصفر. والمعروف عن مديري الاطلاق ان لديهم هذه النزعة، وغايتها زيادة الاثارة المحيطة بالحدث. ترى لماذا لا يستخدمون فتاة عذبة الصوت لتهمس: "هيا بنا يا حبيبي" لقد حان وقت الذهاب"؟ ومهما يكن من امر ذلك، فاني اجد مضخة الادرينالين لدي تعمل جيدا حينما يهب هذا الوحش من غفوته: اهتزاز، خشيش، دحرجة، ضوضاء! نعم، ضوضاء مرتفعة. لكن الحركة هي الغالبة، بينما نحن نقذف يمنة ويسرة قبالة احزمتنا بهزات صغيرة متقطعة. الصاروخ يتجه كسيدة منفعلة تسوق سيارتها في زقاق ضيق، وأملي ان يعرف الى اين يجب ان يتوجه...

نرتفع بسرعة جنونية: ١٠،٨٤٤ مترا في الثانية. وفي تسع ساعات، وهو الموعد المقرر لانجاز اول تصحيح في مسارنا. نكون قد ابتعدنا عن الارض مسافة ٩١،٧١٣ كيلومترا. من الصعب ان نصدق اننا في طريقنا الى القمر بعد اقل من ثلاث ساعات اثر الاطلاق. وانا اراهن على ان الجموع التي احتشدت لمشاهدة الاطلاق تحتنا في كيب كينيدي ما زالت محصورة في ازدحام السير، متجهة ببطء نحو الحانات والفنادق الصغيرة على جوانب الطريق.

لدى خروجنا من ظل الارض، اصبحنا ضمن ضوء الشمس المستمر. لكن ثمة ظلاما مستمرا كذلك من ناحية اخرى. فالامر يعتمد على الجهة التي تنظر اليها. ففي اتجاه الشمس لا تمكن رؤية اي شيء سوى قرصها المعمي، وفي اتجاه ما تحت الشمس ليس من شيء سوى فراغ اسود. بل، النجوم الموجودة، ولكن تستحيل رؤيتها.

واذا احتفظنا باي وضع ثابت، فان جانب مركبة القيادة المواجه للشمس سيصبح حارا جدا والجانب الموجود في الظل سيصبح باردا جدا. ولكي نحول دون اي الحالين، علينا ان ندور ببطء كما تدور الدجاجة على قضيب المشواة.

القمر لا يبدو اكبر حجما، لكن الارض تتقلص على نحو ملحوظ. ومع اقتراب موعد النوم نرى ان ارضنا تكاد لا تحجب نافذة صغيرة. ولكن ما تفتقر اليه من حيث الحجم، تعوضه باللمعان. نحن البشر معتادون على مراقبة القمر والتفكير في انه ساطع الضياء (عندما يكون بدرا على الاقل)، لكن الارض المع منه اربع مرات.

اذكر في ديسمبر (كانون الاول) الماضي، خلال رحلة "ابولو ٨"، ان ابني الذي يبلغ الخامسة من عمره ظل يسألني سؤالا واحدا محددا: من الذي سيقود المركبة؟ وفي احدى الليالي، عندما كان الجو هادئا في مقر توجيه الرحلة، وجهت هذا السؤال الى مركبة الفضاء، فاجاب بل اندرز مسرعا بان الذي يسوق ليس بورمان وانما اسحق نيوتن. وليس في الامكان اعطاء وصف اصح او ادق من هذا للطيران

بين الارض والقمر. فالشمس تشدنا، والارض تشدنا، والقمر يشدنا، بالضبط كما علم نيوتن انها تفعل ذلك. وان كان اثر الارض هو الاقوى حتى الآن، فمع حلول اليوم الثالث - اواخر يوم غد - سيصبح القمر هو المسيطر. وفي هذه الاثناء علينا ان نصحح اتجاه سيرنا قليلا. وخلال الثواني الثلاث التي يشتغل فيها المحرك، يتولى مايك كولينز قيادة العربة بدلا من السير اسحق نيوتن.. ثلاث ثوان بأكملها!

وأعجب من قلة التخاطب، او على الاقل شكل التخاطب الغريب، بيننا نحن الثلاثة: نيل وباز لا يثقان بي، وانا لا اثق بهما. ولدينا من التوافه الفنية ما يكفي لتبادل الحديث مع مرور الأيام، من دون ان يطمح اي منا الى اضافة اي شيء آخر. تلك كانت الحال طوال فترة تدريبنا التي سبقت الرحلة. واظن ان النمط نفسه سيستمر بعد الرحلة.

اليوم الرابع يسوده شعور مختلف تماما. الصدمة الأولى تأتينا خلال دوراننا حول انفسنا لنرى القمر. انه ضخم، يملأ نافذتنا. وينتأ سطحه المنتفخ على نحو أكاد اشعرمعه بانني استطيع ان امد يدي والمسه. انه مستكين، رائع، معلق في مكانه بجلال، يبدو لك منيعا بلا صوت او حراك، ولا يغريك بان تغزوه.

وبينما نتحرك بيسر حول الجانب الايسر للقمر، اعرب عن ارتياحي لدقة مسارنا. فقد تجنبنا الارتطام بالقمر بمسافة لا تتجاوز ٥٥٥ كيلومترا على بعد مسافة تقارب ٤٦٣،٠٠٠ كيلومتر من الأرض، مع العلم بان القمر هدف متحرك. وعندما أنطلقنا قبل ايام، كان القمر وراء موقعه الحالي على بعد قرابة ٣٧٠،٤٠٠ كيلومتر. ومع ذلك، فان اجهزة الكومبيوتر الضخمة في هيوستون لم تتذمر - او على الاقل ارجو الا تكون تذمرت - وهي تصدر تنبؤاتها الدقيقة.

حقا ان للنسر جناحين! نيل وباز، في المركبة القمرية، يبتعدان عني اكثر فأكثر ويتجهان بسرعة الى اسفل. محادثتهما الموجزة الدقيقة تسمع وكأنها اختراق للضباب بمساعدة تحكم ارضي، فيما يعلن باز درجات الارتفاع والسرعة الى نيل الذي ثبت عينيه على المشهد عبر النافذة. "١٨٣ مترا. سرعة النزول ٥،٨ امتار في الثانية". "٣٠ مترا. سرعة النزول متر في الثانية". "١٢ مترا. سرعة النزول اقل من متر. وهذا يثير بعض الغبار". وتقول هيوستون: "٣٠ ثانية". الوقود الباقي يكفيهما لهذه المدة فقط. الافضل ان تهبط بالمركبة على السطح يا نيل. ويقول باز مغنيا: "ملامسة لطيفة". ها قد وصلا! ويقول الصوت من هيوستون بلهجة نصفها سؤال ونصفها جواب: "نسمعك جيدا يا ايغل". ويعلنها نيل رسميا: "هيوستون، هنا قاعدة بحر السكون، لقد هبط النسر". يا للفرحة!

اعلم من اسئلة الصحافيين السابقة للرحلة اني سأوصف كرجل وحيد. لكني، بدلا من ان اشعر باني وحيد او مهجور، احس، الى حد كبير، بأني جزء مما يحدث على سطح القمر. اعلم اني سأكون كاذبا او احمق اذا قلت ان مقعدي هو افضل مقاعد "أبولو" الاحد عشر. ولكن في وسعي ان اقول، بصدق ورجاحة، اني قانع تماما بمقعدي. لقد وضعت هذه

المهمة لاشخاص ثلاثة. وانا اعتبر شخصي الثالث ضروريا فيها ضرورة اي من الاثنين الآخرين.

بيد اني لا أقصد طمس شعوري بالعزلة. فهو واقع ناجز يزيده قوة ان الاتصال اللاسلكي بالارض ينقطع فجأة بمجرد اختفائي وراء القمر. انا الآن وحيد، وحيد حقا، ومعزول تماما عن اي حياة معروفة. اني تجسيد للعزلة. وذاك شيء أحس به احساساً قويا، لا في شكل خوف او وحدة ولكن في شكل ادراك وترقب ورضا وثقة، وحتى في شكل يكاد يكون ترفعا. واني احب هذا الشعور.

اليوم هو يوم اللقاء، وهذا يعني الانهماك في امور كثيرة. وعلي ان اضرب قرابة ٨٥٠ ضربة مختلفة على مفاتيح الكومبيوتر، وهي ٨٥٠ فرصة لارتكاب خطأ ما. واذا سار كل شيء على ما يرام بالنسبة الى "ايغل"، فأن خطأي لن يكون بالغ الاهمية، لاني، ببساطة، احتفظ بدوري كمجرد مشغل لقاعدة العودة واترك لغيري مهمة العثور علي. اما اذا... اذا... اذا حدث اي من الف خلل ممكن بالنسبة الى "ايغل"، فعندئذ اصبح انا الصياد بدلا من الفريسة.

وعندما تحين لحظة الانطلاق عن سطح القمر، اجدني كعروس منفعلة، اني اطير منذ ١٧ سنة، ولكن لم يسبق ان قلقت خلال أي رحلة كقلقي على المركبة القمرية الآن. لقد كان مصدر رعبي السري خلال الاشهر الستة الماضية فكرة ترك نيل وباز على سطح القمر والعودة الى الارض بمفردي. وها انا الآن على بعد دقائق من معرفة الحقيقة: اذا اخفقا في الارتفاع عن السطح او تحطما عليه، فلن اقدم على الانتحار، بل سأعود فورا لكني سأغدو رجلا مشبوها طوال حياتي.

انصت! هذا باز يعد عدا تنازليا ينطلق الاثنان بعده. ويبدو محركهما الوحيد منفذا عمله، غير ان الامر يبقى مخيفا على رغم ذلك، اذ يكفي خلل واحد بسيط ليصبحا في عداد الاموات. ويخيل الي اني احبس انفاسي خلال الدقائق السبع كلها التي يستغرقها الوصول الى فلكهما.

الامور تبدو جيدة! يمكنني ان انظر عبر نافذة الالتحام بمركبتي فاري. المركبة القمرية تكبر حجما شيئا فشيئا وهما يتجهان عبر مسار الاقتراب النهائي. وللمرة الاولى منذ تعييني لهذه الرحلة العجيبة قبل ستة اشهر، احس باننا سنفلح حقا في انجازها.

وبمجرد ارتباطنا بمزاليق القبض الثلاثة الصغيرة، اضغط زرا لاشد المركبتين احداهما نحو الاخرى. ثم ادخل مسرعا في النفق وازيل الغطاء والمجس والمرساة كي يستطيع باز ونيل المرور فيها. شكرا لله: كل شيء يعمل على خير ما يرام. واطل باز اولا وعلى وجهه ابتسامة عريضة. ورفع يديه الى رأسه، واضعا يدا على كل من صدغيه. وكدت اقبل جبهته، لكني احجمت عن ذلك حرجا، مكتفيا بالشد على يده ثم على يد نيل.

هذا الشيء الثمين

بعد خمس سنوات ونصف سنة من هبوط نيل وباز على سطح جرم سماوي آخر، يعود بي التفكير الى الحدث بمزيج من الفخر وعدم التصديق والغرور. انه متفائل في شأن حال العالم وحال مايكل كوينز في

الحاضر والمستقبل، فقد تأمنت لي وظيفة لاحقة لريادة الفضاء، وانا احبها، وتلك هي الحال بالنسبة الى نيل، انا الآن مدير المتحف القومي للطيران والفضاء التابع للمعهد السميثوني في واشنطن، ونيل استاذ الهندسة في جامعة سنسيناتي، لكن باز، من جهة اخرى، لم يحالفه الحظ، فهو عانى نوبات هبوط عصبي شديدة الى حد اقتضى العلاج في المستشفى، والجدير بالذكر ان دور رائد الفضاء يصعب اتباعه، كما تبين لنا نحن الثلاثة جميعا،

ان رحلتي الفضائيتين غيرتا فهمي للارض، ولا شك في ان رحلة "ابولو ١١" غيرت فهمي للقمر ايضا، لكن القمر مليء بالندوب ومقفر ورتيب جدا الى حد لا استطيع معه تذكر سطحه المعذب من دون ان افكر في التنوع اللامتناهي الذي يوفره كوكب الارض المبهج: شلالات ضبابية، غابات صنوبر، جنائن ورد، الوان زرقاء وحمراء وخضراء وبيضاء،

ومع ذلك، فاني لو استخدمت كلمة واحدة فقط لاصف فيها الارض كما تبدو من القمر، لتجاهلت كلا من حجمها ولونها وبحثت عن صفة اساسية اكثر أهمية،الا وهي الرقة، فمن الفضاء لا تلمح للارض وعورة، بل تجدها ناعمة مثل كرة البليارد ومتوازية بدقة في رحلتها الدائرية حول الشمس، وهي تبدو، قبل اي شيء، رقيقة،

الطيران في الفضاء غيّر ايضا ادراكي لنفسي، فقد نمت قدرتي على قياس ما هو مهم، ويعود جزء من هذا الى الاكرام الذي لقيته في عدد من المناسبات التي اقيمت خصيصا لذلك، بينما يعود الجزء الاخر الى الحظ الذي أتاح لي مشاهدة الارض من بعيد،

ان اسلوب حياتي لم يتغير في الظاهر بالمقدار الذي كنت اتصور، عموما يعود المرء من القمر بالامور المحدودة عينها التي حملها معه في الرحلة - من خيال وذوق وكتاب جيب لا غنى له عنها،

غير اني، على رغم شعوري باني لا ازال اساسا ذلك الانسان نفسه، فانا مختلف ايضا، ذلك اني تدليت من حبل وانا على ارتفاع ١٦٠ كيلومترا، ورأيت الارض محجوبة بالقمر، ونظرت الى ضوء الشمس الحقيقي غير مصفى عبر جو اي كوكب، وشاهدت سواد اللانهاية الخالص في سكون لا يزعجه اي كائن حي، ولم تكن قدرتي على عمل هذه الاشياء نتيجة اي موهبة عظيمة املكها، بل كانت مسألة اقرب الى مصادفة الزهر في لعبة النرد او ما شابهها، فمن جانب الجيش ومن آخر الطيران، من جانب ضابط ارضي ومن آخر طيار اختبار، من جانب قاعدة ادواردز ومن آخر هيوستون،،، حقا اني كنت في حياتي، حتى الآن، محظوظا جدا،

ربما كان من المؤسف ان عيني رأتا اكثر مما استطاع دماغي استيعابه او تقويمه، غير اني حاولت، كما حاول الدروديون في ستون هنج، ان استنبط نظاما مما لاحظته وراقبته، حتى وان لم افهمه تمام الفهم،

ليس في نيتي ان اقضي بقية حياتي متطلعا الى الوراء، فعندي كثير من السحر هنا على هذه الارض، ولكن لدي هذا السر، هذا الشيء الثمين، وسأحمله معي دائما،

■ مايكل كولينز


ذئب في الدار

ما ان عاد ريتشارد تومكيز الى فناء داره في مقاطعة كولومبيا البريطانية في كندا مع بوبو الذئب اليافع حتى استبد به القلق وحار في امر هذا الحيوان الذي جاء به ليعيش وسط افراد اسرته. وقد روت الاساطير عن حكايات الذئاب المفترسة ما روت. لكن جوهر المشكلة، كما تكشف لم يكمن في هذه الحكايات والمخاوف التي تثيرها، بل في المصاعب التي نشأت عندما تحقق تومكيز من ان اسرته لم تعد في عداد الاسر، بل اصبحت الآن سربة للذئب، وتعين عليه وعلى زوجته وابنتيه الطفلتين ان يعيشوا كلهم طبقا لشريعة السربة، والا جر عليهم الويل.



ذئب في الدار

ابصرت بوبو للمرة الاولى في باحة لوقوف السيارات في قلب مدينة فانكوفر الكندية. ولم أكن في ما مضى اثق كثيرا بنظريات الادراك الغيبي خارج نطاق الحس. ولكن في تلك اللحظة ايقنت، كما لو في الحلم، ان شيئا مهما على وشك الوقوع. وما ان ترجلت من سيارة اللاندروفر حتى وقفت منشدها أتلمس تفسيرا لما حل بي اذ وجدتني احملق في عيني اروع ذئب رأيته في حياتي.

ولو ان احدا شاهدني في تلك اللحظة لقال اني ولجت حالة من السحر تجمدت فيها اوصالي وتخشبت كل

حركة من حركات جسمي، فلم استطع فكاكا من اسر عينيه. وذابت الاشياء من حولي وتلاشت الا هاتين العينين الواسعتين الصافيتين. وخلت انهما تكادان تنطقان وانهما تسبران اغوار نفسي بحثا عن وتر يتجاوب مع احاسيسهما. ومكثت على تلك الحال دقيقة من الزمن. ورويدا رويدا، بدأ الواقع يغلفني مثل بصلة تلف قشورها حولي، ويوطد اركانه من جديد. فأبصرت ذلك الرأس الكبير بخطمه الابيض وحاجبيه الفضيين. وقد صرّ الذئب اذنيه الشبيهتين باذني الهر، فانتصبتا في وجهي. وبدأ جسمه الضخم يتجلى بالوان تتفاوت من الفضي عند الظهر الى البرتقالي الذي يشوبه بياض عند البطن، بينما عقص ذؤابة ذيله وهي في حجم الساق على مؤخرته ونتأ مخلباه من امامه كقفازي ملاكم مكسوين ببلور صخري. وكان قابعا في مؤخر سيارة طويلة داخل قفص من النوع الذي توفره شركات الطيران لنقل الكلاب.

كان الرجل الذي جئت لمقابلته قد اشترى الذئب من هنود اليوكن قبل اسبوع، وهو ينوي استخدامه لتصوير شريط سينمائي عن الحيوانات البرية. وكان اسم الذئب "بوبو". ومع انه كان اليفا الى حد، الا انه بدأ يظهر توترا لا يساعد على تصوير الشريط. وكان يعسر تبديل طباعه الراسخة وهو في الثالثة من عمره. وما ان تأكد القائمون على التصوير من هذا الامر حتى بادرت الى توقيع عقد شراء الذئب، فانتقلت ملكيته الي.

ان الذئاب، في نظر معظم الناس، لا تعدو كونها فكرة او مفهوما نظريا. فالذي نفهمه من دروس علم الحيوان انها وحوش كبيرة من فصيلة الكلاب البرية وانها مفترسة. كما نعرف من خلال قصص مثل "رد رايدنغ هود وجدتها التعيسة" (ليلى والذئب) و"الخنانيص الثلاثة" ان الذئاب كبيرة ورديئة. ولهذا فان الخوف الذي يغشانا منها، سواء أكان خرافيا او علميا، هو خوف حقيقي للغاية. وهذا هو ما اكتشفته بنفسي يوم جئت لانقل بوبو في سيارتي بصحبة زوجتي فاليري وابنتينا الصغيرتين سوريل وكستر.

وفيما وقفت اراقب بوبو من ثقوب شبك زريبته الفولاذي، ادركت اننا سنصبح بعد حين وما من شيء يفصلنا سوى سلسلة قصيرة عن ذئب كبير مجهول الطباع من ذئاب الغابات.

قضينا اكثر من ساعة ونحن نداري بوبو ونلاطفه بغية ادخاله سيارة اللاندروفر. وكان مرتابا في البدء، وفاتر الانفعال وهادئا الى حد مخيف حين ربطنا السلسلة حول عنقه، وعنيدا لدى سحبه وحثه على التوجه نحو السيارة. ورحنا نجره برفق شبرا فشبرا ونحن نتمتم بلا انقطاع مناجاة رتيبة لا معنى لها. ولكن ما ان وصل الى نقطة تبعد مترا ونصف متر عن اللاندروفر حتى انشب مخالبه الاربعة في الارض رفضا لمزيد من التقدم.

ومن دون مشاورة لادراك مدى مجازفتها، لحست زوجتي فاليري ظاهر يدها ومدتها الى رأسه المشاكس. وانحبست انفاسي وانا اراقب المشهد. فقد اخذ بوبو يتشممها ثم يلحس يدها بلسانه ويكف عن المقاومة بينما راحت فاليري تمسد اذنيه. وحدقت ابنتاي سوريل وكستر في المشهد مثلما

حدقت انا بعينين مفتوحتين عجبا. وقالت فاليري: "انت خائف يا بوبو. أو لست خائفا حقا؟" ثم اردفت وهي تحدجني بابتسامة: "ان هلعك منه يزيد حاله سوءا". وبدأت فاليري تحثه على التحرك نحو السيارة، فوثب داخلها مرة واحدة.

شددت سلسلة بوبو الى حبل من النايلون كنت اوثقت ربطه تحت نافذة خلفية من سيارة اللاندروفر، ثم انطلقنا في الطريق. وفجأة اضطرب بوبو من جديد واخذ يتحرك بعنف في عرض السيارة وهو يشد الحبل بقوة حتى بدأت خيوطه تنسل وتتهرأ ونحن لم نتجاوز بعد سوى مئات من الامتار. وايقنت انه في غضون دقائق معدودة سيفلت من معقله ويحل بيننا ما لم ندعم متانة الحبل.

فأوقفت السيارة وتسلقت فوق المقاعد الى مؤخرها متظاهرا بعدم المبالاة. الا اني لم احسن اخفاء امتقاع لوني. وقبل انتهائي من شد وثاقه الى ارض السيارة مباشرة، احسست بوجود قوة قاهرة قوّضت جميع سبل دفاعي، فتلاشى ذلك التظاهر باللامبالاة وتبدد. وادرت رأسي ببطء شديد صوب الذئب، واذا بي اجد ان خطمه الوحشي الرهيب لا يبعد عن وجهي اكثر من خمسة سنتيمترات. وقد تجعدت شفتاه عن كشرة وتقوس شعر شاربيه الى الخلف. وبدا لي ان هذه الامور كلها حدثت ببطء اتاح لي متسعا من الوقت كافيا لاحس بالوهن الذي اجتاح امعائي ولاقدر ما تعنيه ملاقاة الموت، وجها لوجه، حق قدرها. ولا بد من اني تراجعت قليلا لاني تمكنت من مراقبة لسانه القرنفلي الغليظ ينساب من مستقره بين الانياب ويمتد فوقها في اتجاهي الى ان غمر وجهي برطوبة قبلة دافئة.

وتمتمت متابعا صلاتي: "لكن نجّنا من الشرير..." وانهيت شد وثاقه الى ارض السيارة، وتسلقت المقاعد رجوعا الى مكان السائق، مدركا ان ما كنت اكنه من رجاء ازاء بوبو اصبح الان، او بات ممكنا ان يصبح، امرا متبادلا.

عيون محجّبة

ان تأسيس نظام اجتماعي لسربة الذئاب بين افراد الاسرة الانسانية ليس هدفا يتوخاه رب الاسرة. ولم يكن هذا هدفي عندما جاء بوبو ليعيش بيننا. والحق ان لحظة لقائنا الاول كانت ختاما لسلسلة من الاحداث وبداية لاخرى.

ورجوعا الى الماضي، بدأت السلسلة الاولى قبل سنوات عندما كنت محررا صغير الشأن في احدى وكالات الدعاية التجارية في لندن. وكان من عادتي ان اقتل الوقت بعد ظهر كل يوم من ايام الاجازة الاسبوعية في حديقة الحيوان في لندن وسط حدائق "ريجنت". وكانت للذئاب في اقفاصها جاذبية مغناطيسية تشدني الى حدقات عيونها - وهي في لون الكهرمان الاصفر - المرة تلو المرة. وبدت كأن في نظراتها حجبا تستر آفاقا ابعد كثيرا من سآمة اسرها، فتولد لديّ نزوع عاطفي نحوها. واذ كنت احدق في عيونها، نسجت مخيلتي خيوطاً شفافة من الحلم نقلتني بعيدا عن رتابة العيش المضجر في لندن الى اقاصي تخوم موطن الذئاب.

قيل: "ما الحلم الا رجيّة لنا في

صورة تلفزيونية ملتقطة

سوني
SONY

سُوني بيتاماكسْ

أنتَ لاتحتاج بَعدَ اليَوم أن تَأتي مبَكرًا لتجْلس في أنسَب المقاعد



Sony Betamax سوني بيتاماكس

انتظار التحقق في المستقبل". وهذا قول يصدق في وضعي: فتلك الخيوط العنكبوتية، التي نسجتها في لندن بوحي من الذئاب، القت مراسيها باحكام غرب كندا، فجذبتني بقوة عنيدة الى هذه الارض الرائعة التي اعيش عليها الان. وفي السنين العشر التي امضيتها هنا، ظلت الذئاب تتعقب خطاي في ملابسات عجيبة وتتجسد امامي، كما يبدو لي الان، في الاوقات نفسها التي حامت فيها الشكوك حول القرار الذي اتخذته بعدم الرجوع الى لندن وكنت في حاجة الى من يشد عضدي.

تجسد الذئب الاول ذات مساء من امسيات مايو (ايار) على ضفاف نهر روس في منطقة يوكن حيث كنت اعد نص شريط وثائقي حول افتتاح احد المناجم. وسرت في ذلك المساء الى هضبة صخرية تبعد بضعة كيلومترات عن المنجم، وجلست مطمئنا الى الخلوة ومتنعما بالروعة، وقد طوقتني الشمس باشعة غروبها. غير ان فرحي لم يدم طويلا حتى زعزعته روح موحشة من هذا المشهد الغريب الذي يكتنفني، فاجتاحتني مشاعر الحذر والخوف وتملكني حنين الى لندن وضجيجها المألوف لحظة من الزمن.

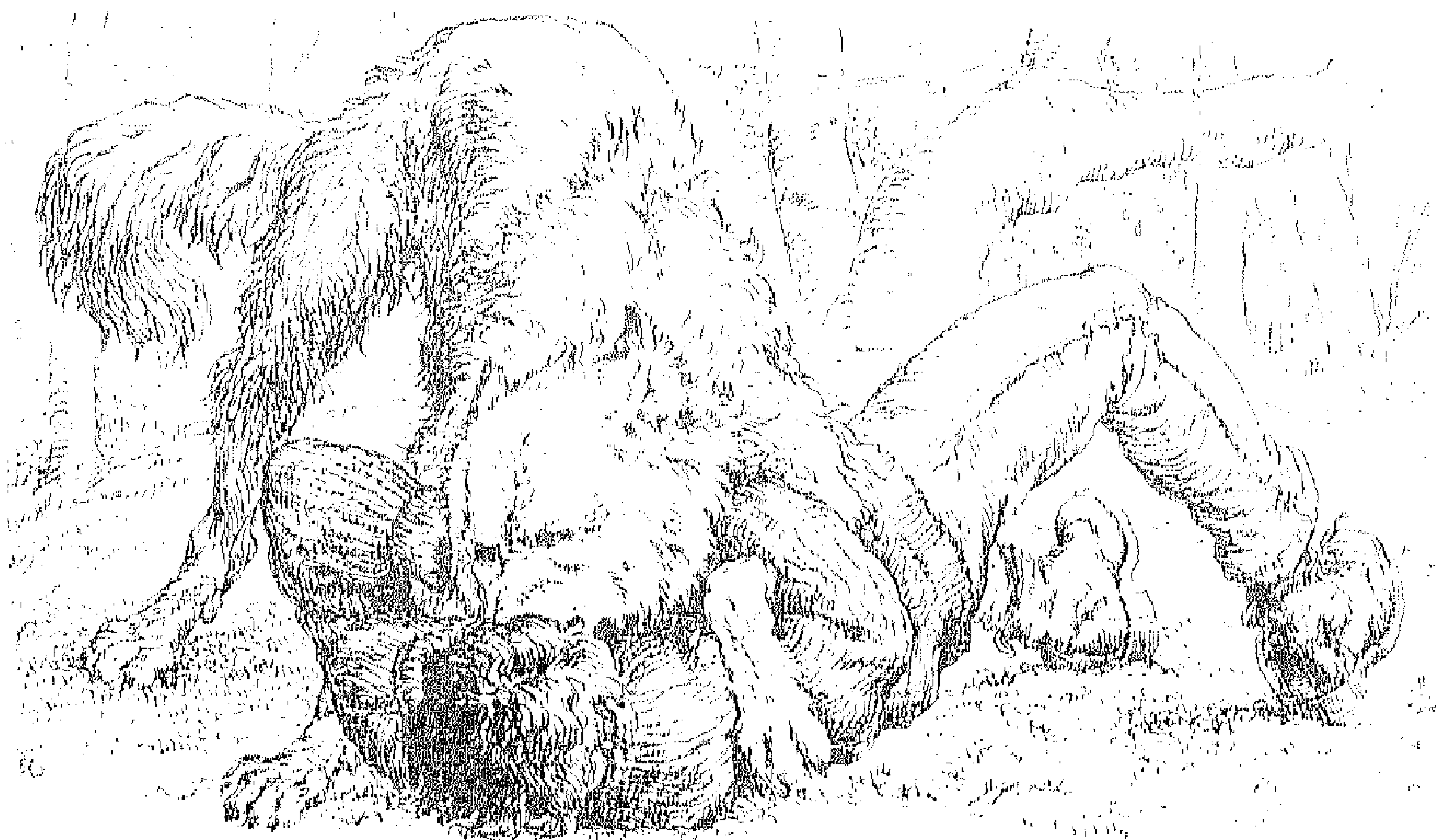
وفي تلك اللحظة طلع الذئب من بين الاشجار الصنوبرية المتشابكة على بعد ١٥ مترا، ووقف ساكنا يرمقني بتينك العينين الصفراوين اللتين رأيتهما في لندن. الا انهما هذه المرة كانتا صافيتين، بلا حجب تعوق نفاذهما الى النفس. وبقينا نحدق الواحد منا في الآخر مدة نصف دقيقة، ثم اغضى هو وراح يمشي في نصف دائرة واسعة فوق فسحة قفراء من الارض، وبعد ذلك توقف ونظر اليّ ثانية قبل ان يختفي في تحابك الادغال. وبدا لي انه كان، في نظرته الاخيرة، يوبخني على الشكوك التي ساورتني في الدقائق السابقة. ودفعة واحدة عمني سلام مساء يوكن القرنفلي مؤكدا على وجودي هناك، فانقشعت حجب الشكوك وتبخرت.

وفي عدد من المناسبات خلال السنوات الست التالية، كانت الذئاب، كلما استبد بي الحنين الى الوطن او بلغ الاستياء من كندا اشده، تقمع هذه المشاعر بتدخلها في الوقت المناسب. حقا ان كندا ترفقت بي ووفرت لي اسباب الحياة الكريمة، وعرفتني على الفتاة التي اتخذتها رفيقة لحياتي ومنحتنا الانعتاق في ظل سماء الغابة الساحلية في مقاطعة كولومبياالبريطانية حيث نعيش الآن.

واعتقد ان معظم المهاجرين يصلون الى نقطة ينمو معها اقتلاع الجذور لديهم الى حد لا يطاق. ولذا فان عليهم اما ان يبتروا نهائيا جميع صلاتهم النفسية عندما يزمع المهاجر على القيام برحلته الاولى الى "الوطن" لمجرد الزيارة في الظاهر، في حين يراوده سرا امل في العثور على حلم جديد من البقاء المستمر هناك.

وقد جاءت هذه الازمة بالنسبة اليّ والى فاليري عام ١٩٧٠ حين وضعنا خطة لزيارة الوطن في فصل الخريف ضمناها الاماكن التي عزمنا على زيارتها، ومنها تلك المدن والقرى الانيقة التي انتشرت في ذاكرتنا كالدرر ترصع بساط ريف انكلترا الاخضر الناعم.

غير اني، سعيا الى الانصاف،



قررت ان اتزود في رحلتي بذكرى جديدة اخيرة من عوالم البراري والقفار التي اجتذبني سحرها الى كندا قبل ستة اعوام.

ولهذا انطلقت في السيارة قبل اسبوع من موعد رحلتنا طلبا لسكينة قمة المنحدرات الغربية من وادي نهر ليلويت، وبرفقتي كلبتنا كليو وهي من فصيلة الدوبرمان. وعند المساء وصلنا الى مكان فوق شفير جدول تنصب فيه عين ماء ساخنة من جنب الوادي ورافد آخر بارد، ثم تصب المياه في سلسلة من الاحواض الطبيعية القائمة على طول مجرى الجدول الصخري.

ارخى الليل سدوله وطلع القمر باردا وراحت اجنحة البخار تنعطف فوق العين الساخنة وتتراكم فوق اوراق الخريف لتكسوها بالماس من بلور الصقيع. وافترشت انا وكليو كيس النوم على الارض في محاذاة اللاندروفر.

وران هدوء على الغابة التي تلألأت بفضية القمر. ولم يكن الذئب مرئيا بادىء الامر، الا انه في غضون ثوان تبدى كالشبح الهائل على بعد يقل عن عشرة امتار. وكان يحدق فينا ويتشمم بخطمه محاولا التعرف على ذبذبات الرائحة التي تنبعث مني ومن كليو. وزفر زفرة قصيرة في اتجاهنا ثم ادنى رأسه من الارض وعوى عواء متكررا بصوت ارتفعت طبقته حتى كاد لا يسمع.

في تلك الليلة عوت الذئاب. وكان لبعض نداءاتها المعولة المستوحشة فعل البلسم في جروح الشكوك التي شعرت بها حيال البقاء في كندا.

وبعد اسبوع مررت عبر البوابات الدوارة عند مدخل حديقة الحيوان في لندن، حاملا معي اربعة كيلوغرامات ونصف كيلوغرام من شرائح اللحم الطري التي اقتطعت من خواصر البقر



مع بوبو على سجادة المستوقد، من اليمين الى اليسار: فاليري، كستر، المؤلف، سوريل، كليو (كلبة الدوبرمان) ·

وبيعت بثمن فاحش، ورميت بها خفية الى تلك الذئاب الحزينة التي فتحت عيونها المحجبة عيني · وعدنا بعد ستة اسابيع الى ساحل كندا الغربي، ولكن للاقامة هذه المرة ·

وبعد سنة من ذلك التاريخ التقيت بوبو · ولم يكن في يوم اللقاء من اهالي فانكوفر البالغين قرابة المليون عددا سوى رجل واحد يملك ذئباً سرعان ما سيحتاج الى بيت يأويه، وآخر يملك دارا مناسبة وهو على استعداد لان يتقاسمها والذئب · اما ان يتلاقى الرجلان، فتلك لعمري مصادفة عجيبة ·

الدجاج والكلاب والذئب

وصلنا الى البيت في سيارة اللاندروفر بعد منتصف الليل وشددت بوبو بالامراس الى شجرة الارز التي تبعد ١٥ مترا عن البيت · وقبيل فجر اليوم التالي خرجت لاتودد الى بوبو حاملا اليه عظمة بقر كبيرة · لكنه تجاهلني وتجاهل العظمة ايضا · ولم يخفف من برودة عدم مبالاته، وان كان متنبها، الا مجيء كليو التي اقتربت منه برعشة وحذر · ومدّ كل منهما انفه الى الآخر حتى تلامسا · تلامسا وجيزا، ثم اندلع لساناهما في تماس وتبادل من اللعاب اسس بينهما اواصر الصداقة ·

ورحت انا والبنتان في ما بعد نعلف الدجاج، فاظهر بوبو مرة اخرى اهتماما بالامر · وما من شك في انه كان يبيت لها نيات الافتراس · وبعيد ساعة الفطور تهادى ديك احمق منتفخ تيها واستفزازا ودنا من حبل بوبو · لكنه، بعد انقضاضة في مثل لمح البصر، فرّ هارباً وقد خلف من ريشه ما جعل قفاه املط كابهام اليد ·

لم يعترف بوبو على الاطلاق بحق الدجاج والبط والاوز بحياة آمنة مطمئنة. لكن ما أجهز عليه من الدواجن في السنوات الثلاث الاخيرة كان أقل مما قتلته الحيوانات القناصة الاخرى في سنة واحدة سبقت مجيئه. فاللواحم من الراكون والوشق والظربان الامريكي والقضاعة والكلاب الشاردة كانت تتسلل ببراعة فائقة مرارا وتكرارا لتولم الولائم مهما بالغنا في الحرص واقفال الاقفاص واغلاق الزرائب ولكن كفانا الحديث في هذا الشأن. فمنذ مجيء بوبو خلا المكان الا من البوم او النسر احياناً.

ومع ذلك، فان سمعة الذئب في القدرة على اماتة النفس هي سمعة نالها باستحقاق. وقد شهدنا براهين عليها في بعض المناسبات. فعلى سبيل المثال، لنا صديق لديه كلب ضخم الجثة من كلاب سيبيريا، اسمه "مغول". وكان الكلب امينا لاسمه، فانتهك بجسارة الحدود الاقليمية لجميع الكلاب الاخرى التي صادفها لا لشيء سوى متعة القتال. وفي أحد الايام تربص بوبو بين الاعشاب الطويلة يترقب مغول وهو يقتحم بكل خيلاء حرمة دياره. وحاولنا جهدنا ان ندعو مغول الى التراجع، ولكن بلا طائل.

وفي اللحظة التي ادرك مغول مدى امتداد الحبل، وثب بوبو عليه فتراجع قليلا لكي يقابل الناب بالناب. الا ان فكيه اطبقا على فراغ الهواء بينما دق بوبو مخنقه بقوة جعلت الكلب الذي يزن ٣٥ كيلوغراماً، يرتفع في الهواء رأسا على عقب وينطرح في الارض على بعد ثلاثة امتار. ومع ان المناوشة لم تدم اكثر من ثانية واحدة، الا انها اسفرت عن ٦٤ قطبة جراحية لرأب عنق مغول.

بيد ان المعركة التي احتدمت بين بوبو و"غارتي" كانت الوحيدة التي خسرها بوبو واذلته اذلالا مشينا. وغارتي خنزيرة عملاقة يربو وزنها على ٢٠٠ كيلو غرام، انضمت الى اسرتنا قبل سنوات وانجبت في أوج ايامها عشرة خنانيص اثارت اصواتها الطفولية شهية عارمة من جانب بوبو تحلب لها فمه. وكان في الامكان تجنب ما وقع لولا الرياح التي أقتلعت احدى الاشجار وقذفت بها فوق خطوط الطاقة الكهربائية، فتعطل التيار الذي كان ينبض في اسلاك السياج ويحصر الخنازير في نطاق حظيرتها. وترقب بوبو قطيع الخنانيص القرنفلية اللون وهي تنسل تحت أسلاك السياج. وما ان أحست الخنانيص بالحرية التي تحققت لها وراء السياج حتى بدأت تشق طريقها تدريجا الى بوبو. وقبل ان اتمكن من الوصول اليها عدوا، كان زعيم الخنانيص قد ادرك دائرة انقضاض بوبو، فانقض هذا عليه. وانطبقت انياب بوبو على ظهر الخنوص فانشق سكون العصر بصرخة الذعر، واذا ببقية رفقائه يتفرقون باختلاط واضطراب طلبا للحماية وكان رد فعل غارتي كالزلزال اذ اندفعت بجسمها - تلك الربوة من اللحم والأمومة - لاغاثة وليدها بسرعة حرثت السياج الكهربائي حرثا، وشقت طريقها بقوة الى بوبو في غضون ثلاث ثوان

بالتمام، وواصلت اندفاعها اليه حتى رطمته بفنطيستها (انفها) في وسطه. وللحال تعالى جسد بوبو في الهواء مما اتاح للخنوص ان يهرول مسرعا نحو حظيرته. وما ان بلغ بوبو ذروة مداره فوق الأرض حتى بدأ يرفص سيقانه استعدادا للهبوط على قوائمه وفكاه يهددان غارتي التي ارتفعت في الهواء، لكنها استجمعت بثقلها من جديد واندفعت لتنطحه مرة اخرى قبل ان يتمكن من استرجاع توازنه فاصعدته ثانية عن الارض، ولما هبط من عل ادارت له ظهرها باستخفاف ورباطة جأش واستعلاء، واخذت تتهادى ثقلها عائدة الى الحظيرة لتهدئ من روع وليدها بعدما انجزت مهمتها على أتم وجه من دون ان تصاب بأدنى اذى.

شهوة بدائية

ترتفع الارض برفق خلف بيتنا ثم تستوي لمسافة ٣٠ متراً قبل ان تنفذ طبقة صخرية من التراب لتكون عقداً صخرياً ينتأ في هيئة تلة وتتكثف النباتات الدائمة الخضرة وتلتف وراء هذه التلة لتبدأ زحفا متراصا عبر ٣٠ كيلومترا حتى تبلغ قمم الجبال الداخلية. وكنت قد شيدت لابنتي بيتا صغيراً للعب على رأس القمة الصخرية، فحولته يوم مجيء بوبو الى وجر له ريثما تتوثق بيننا اواصر التعارف.

وعلى رغم كراهيتي الشديدة للكبح من حريته وتقييد حركاته، كانت غايتي الأساسية ان اجعل وثاقه مانعا للهرب. فربطت حبلين بين شجرتين على طول ٣٠ متراً فوق حافة الصخور، وركبت الحبلين على بكرة وصلت بسلسلة طولها خمسة امتار، وكان في الطرف الآخر من السلسلة قفل ينغلق مع الشد لاحكامه في طوق حول عنق بوبو. لكن العثور على طوق يلائم عنق بوبو، وهو بقياس ٥٥ سنتيمترا، كان مشكلة قائمة في ذاتها. وأخيراً وجدت الحل باستخدام حزام السلامة الذي يستعمله عمال البريد في تسلقهم اعمدة الاسلاك الهاتفية، وبطنت الحزام بجلد خروف. وما ان انقضى نصف النهار الأول على مجيء بوبو حتى اصبحت له حظيرة جاهزة لاستقباله.

وحين تقدمت من بوبو وجدت ان موقفه ازائي قد تبدل. فهو في الصباح تجاهلني، بل كان ايضا مشاكسا ومهددا. اما الآن فقد اظهر سروراً لقدومي، عبر عنه بهز ذيله وتحريك رأسه والكشف عن مخنقه بخضوع واستسلام. فلم أجد عناء في شبك الطوق حول عنقه وسوقه الى حظيرته.

غير اني اظن ان مرور كلبتنا في طور الاهتياج الجنسي في الوقت نفسه الذي وصل فيه بوبو هو الذي بدّل من طباعه. وكنت خلال ساعات الصباح قد ذدت كعادتي عن كليو ملاطفات كلب هجين يعيش في منطقتنا وطردته خارج فناء الدار. ولما كان التوالد بين الذئاب يقتصر غالباً في السربة الضئيلة العدد على زعيم السربة الفحل والأنثى المرافقة له بينما يتولى سائر اعضاء السربة امور الصيد وكسب الرزق، فمن المحتمل اني، بعد طردي الكلب الدخيل، اصبحت في مفهوم بوبو زعيما للسربة باعتبار كليو رفيقة

حياتي. واظن انه، في اعقاب استئصاله من يوكن، لا بد ان يكون وجد في احداث ذلك الصباح نظاماً اجتماعياً مطمئنا فانحاز اليه وارتاح له.

لم أكن أعي حقيقة وضعي الجديد عندما بدأت السهر طوال شهر من الزمن على الحافة الصخرية خلف بيتنا. وقد قيل لي انه، اذا هاجمني بوبو في اي وقت، يتوجب علي ان اكف عن محاولة الدفاع عن النفس اذ ان في الرد على هجوم حيوان ضار يضارعني وزنا ويفوقني تسلحا استجلابا للهلاك. وليس من بديل من الدفاع عن حياتي سوى الوقوف بلا حراك مع احناء الرأس وتطويق عنقي بذراعي والاسترخاء التام للتعبير له عن خضوعي واستسلامي.

توجهت الى دار اللعب على التلة الصخرية مستعدا لهذه الاحتمالات ومحاولا اخفاء مقدار كبير من التخوف. وكنت قد القيت على كتفي كيس النوم وحملت في يدي كيساً صغيراً من النايلون فيه فضلات لحم. وقفز بوبو في اتجاهي وانتزع كيس الفضلات من يدي وهو يجتازني والقى بها على بعد خطوات. ثم عاد فوثب فوق رأسي من دون ان يمسني، لكنه في وثبته مزق كيس النوم فوق كتفي منتزعا احشاءه الصوفية، فتناثرت ككرات من الثلج لم تلبث ان غطت نصف التلة. وارتد بوبو من قفزته ليثب علي من جديد مسندا رجليه الاماميتين هذه المرة الى كتفي المرتجفتين، ونظر في وجهي بحنو وقبلني.

ولكن اذا فوجىء المرء بمجابهة

ذئب يقف باستقامة على ساقيه الخلفيتين فيتجاوز طوله المترين ويرخي عليه وزنا يزيد على ٧٠ كيلوغراماً، فلا بد لذلك المرء من ان يختبر جسامة الموقف نفسياً وجسدياً. وهكذا انثنت ساقاي من تحتي ووقعت على ظهري ومن فوقي بوبو، واذا بنا نخوض غمار مصارعة ضارية.

كان بوبو يندفع بقوة نحوي، ثم يبتعد عني ليعود الى الوثوب من فوقي او الانزلاق على جسمي كجرو الكلاب.

واخيرا تمكنت من الاستدارة على الارض والاعتماد على قدمي في الوقوف. لكن بوبو في هجمته التالية فتح فكيه واطبق انيابه على عضدي، ولكن من دون ان يغرزها في لحمي، وجرني بلا الم حتى وقعت على الارض فوقه. واقسم على انه اراد لي الغلبة لانه استدار تحتي باستسلام وانقلب فوق الارض ومد رقبته نحوي مسلماً نحره الي. فاعترتني للتو نشوة وحشية لم تكن شعوراً باللذة وانما بشهوة بدائية في النصر اشتعل اوارها في دمي. فزمجرت واثباً عليه وأقفلت رأسه الى الوراء بساعدي الايسر بينما انقبضت يدي اليمنى على كتلة من اللحم والوبر فوق مخنقه. ولما عاودني العقل وجدت وجهي مدفونا في كثافة صوف رأسه بينما كنت اعضض اذنه اليسرى وازمجر فيها بغضب.

وببطء شديد ارخيت مماسكي ووقفت مستقيما على قدمي. فلم يتحرك بوبو الا قليلا ليميل برأسه الى الجهة الاخرى فيرمقني من زاوية عين واحدة. ولم يقوّم وضعه الا بعدما



تركته لأعود اليه بكيس فضلات اللحم، فربض على الارض يراقبني وانا اقدم اليه مكافأته.

زعيم السربة

بقيت شهراً بأكمله اقضي ست ساعات يوميا مع بوبو وفي كل ليلة كنت اهرب كيس نومي الجديد الى دار اللعب خشية ان يمزقه. وكنا ننام

معا على السرير الذي صنعته لطفلتي. لكن النوم مع ذئب على سرير طفل لم يكن افضل سبيل للراحة في الليل. اضف الى ذلك ان اضعف الاصوات كانت تنبه بوبو، فيرفع رأسه ويصرّ اذنيه في اتجاه الباب ويبث من جسمه موجات من التوتر كانت توقظني باستمرار. وكان في معظم الاحيان يربض مثل ابي الهول لمدة دقيقة او اكثر، ثم يغمغم من اعماق صدره قبل ان يستأنف النوم. اما اذا كان ما سمعه او شمه جديراً بمزيد من التحقق، فهو كان ينسل من السرير وينساب نحو الباب كطيف لطيف لا يصدر عنه ادنى صوت، حتى ان السلسلة التي كانت تطوقه لم تحدث اي رنين ينم عن تحركاته.

وفي غضون اسبوع حاضت كلبتنا كليو بقوة، وبما اني طردت الكلاب عن الدار، فقد بدأت كليو تظهر اهتماما خفراً ببوبو. وقد بدأ ذلك حين كنا نخرج في نزهتنا اليومية الى الارض المحيطة ببيتنا. ولاحظت آنذاك ان بوبو كان يبول على نحو غريزي على حدود ملكنا، وكان معينه لا ينضب. وحرت في الأمر الى ان ادركت انه كان يبول على المواقع نفسها يوميا، فأيقنت انه يطبق بذلك انظمة سربة الذئاب تطبيقاً حرفياً، واضعاً علامات تحدد ديارنا مثلما تفعل الذئاب حول اوجارها.

ولدى اشتداد تحرق كليو جنسيا بدأت تتعقب السلائق التي خلفها بوبو وتقرفص فوق معالمها الرئيسية، فلم يعد بوبو يقوى على تحمل الأمر. واخذ هو الآخر يتزايد حمأة وينتفض حولها وقد انتصب ذيله وومضت عيناه. غير اني وزوجتي فاليري عزمنا على احباط هذه الرومانسية لعلمنا ان الجراء التي تتولد من ذكر ذئب وانثى دوبرمان سيصعب تطويعها.

وكنت في تلك الآونة احرص على وضع السلسلة حول عنق بوبو خشية من هربه. وذات يوم حين اشتدت حمى مغازلاته لكليو، شددت سلسلته بعنف وانتهرته بقسوة. على اني لم اصدق اثر ما فعلت حين خرّ بوبو على بطنه كما لو كان لتوبيخي له فعل الرصاص، ثم حبا نحوي وقد انسدلت اذناه على رأسه وانعقص ذيله تحت جسمه الا الذؤابة التي ارتعشت في الهواء. ولم اكن قد شاهدت في حياتي تجسيداً أبلغ من ذاك لمذنب يستجدي المغفرة. وما ان بلغ قدمي حتى استلقى على ظهره وفرج رجليه الاماميتين امام بطنه تاركا نحره عرضة للذبح. وادركت مغزى ما حدث، فانحنيت فوقه ممسكا مخنقه بعنف وهززته بقسوة.

ومنذ ذلك الحين لم يتقدم بوبو من كليو بتوجد او شبق ولا مرة واحدة. وهكذا افترضت انه استنتج من تصرفاتي اني انا الكلب القائد وان التوالد بينه وبين كليو محظور طوال بقائي حيا. وبلغ يقيني من هذه النتيجة حدا ابحت فيه لكليو حريتها في اثناء طور الاستجعال (الحيض)، فلم يقترب بوبو منها على الاطلاق. واذ علمت بحقيقة منزلتي عنده اغتبطت كثيرا، متيقنا من اني سأكون في مأمن من مهاجمته لاحقا اذا انا تصرفت بحكمة ضمن حدود العرف الذئبي. الا ان العيب الوحيد

في هذه العلاقة الثلاثية بيني وبين بوبو وكليو هو انها تركت الاناث في دارنا، اي فاليري والطفلتين، في وضع وسط لا يحسدن عليه كونهن ايضا عضوات في السربة خاضعات لاهواء بوبو ونزواته. فهو سيعتبر نفسه، بصفته الذكر الآخر الوحيد في السربة، في منزلة نائب القائد الاعلى.

نظام الزوجتين

بدأت اكون آراء في الاختلاف الرئيسي بين الكلاب والذئاب. فمن جهة، يمكن الحكم على معظم الكلاب في رفقة الانسان، من حيث مطاوعتها ورغبتها في الارضاء، بأنها تعد نفسها، بمقدار ما يسمح به ذكاؤها، بشراً. اما الذئاب في صحبة الانسان، من جهة اخرى، فنادرا ما تظهر اي رغبة في الارضاء عن طريق الاستجابات المطيعة. وهي لا تظهر مطلقا اي تبعية او خنوع في مفهوم الكلاب، وانما قد تظهرها بمفهوم ذئبي محض حيث تصبح التبعية مجرد اذعان في وجه السلطة كما يقتضي قانون السربة المتوارث.

وما ان قبل بوبو بمنزلتي كزعيم للسربة وبكون كليو خليلة لي حتى اصبح ايسر له ان يطير في السماء من ان يجامع كليو.

في وحشة القفار المهيمنة على منطقة يوكن الوسطى، يتدبر افراد سربة بوبو شؤون مناطقهم الاقليمية في وجه ظروف من شظف العيش قد تتطلب فسحة من الارض تربو على ٢٥٠٠ كيلومتر مربع للقيام بأود سربة من عشرة افراد فقط. والتحايل على البقاء المحض على قيد الحياة اقتضى الذئاب دهورا طويلة من الاختبار بحيث انطبعت في نواة كل خلية من خلاياها المتوارثة قوانين التصرف الاجتماعي التي لا يمكن كسرها مطلقا لان البديل الوحيد لها هو الموت. وليس في شريعة السربة سوى نطاق محدد يمنح بعض الافراد اللامعين مقداراً من المرونة من أجل غايات البقاء.

وهكذا شعرت بأنه، اذا شئنا ان تنجح تجربة المزج بين حياتنا وحياته، فسوف يتطلب ذلك أموراً تتجاوز توفير الطعام والمحبة من جانبنا. بل سيتوجب علينا ان نتعلم نحن شريعة السربة وان نحاول العيش بمقتضاها، وان "نتذأب" بمقدار ما تسمح به طبيعتنا البشرية.

وفي الوقت عينه يتوجب على بوبو من ناحيته ان يكبح طبيعته الذئبية الى أقصى حد ممكن في جهد يبذله هو لقبولنا، والا ستنتهي التجربة برمتها بمأساة قد يثبت معها انها كانت غلطة دموية. وثمة ظاهرة ينبغي على بوبو ان يقبل بوجودها، على رغم تناقضها التام مع كل ما تعوده في اختباراته السابقة، وهي ما يبدو له من نزعة زعيم السربة الجديد الى تعدد الزوجات. ولئن كنت ارضى لبوبو ان يعتبر كليو رفيقة لحياتي، غير اني لم اكن على استعداد للتخلي من اجله عن علاقاتي الزوجية مع فاليري.

ولهذا اقتضت خطتنا ان نلجأ الى التمثيل بالايماء والحركة لشرح الوضع الحقيقي على اوضح ما يكون. ووفقا لذلك اخذت فاليري تتهرب مني على نحو لعوب بينما قمت انا بمطاردتها

حتى استسلمت لي بالعناق والقبل على بعد لا يتجاوز مدى حبل بوبو الا قليلا. واذا به يغدو كالمسعور ينهب الارض امامنا جيئة وذهابا على مدى رباطه. وكان من فترة الى اخرى يتوقف امامنا زافرا انفاسه وقد انتصبت اذناه امام رأسه. ثم فككنا العناق وافترقنا. ومشت فاليري الهوينا في اتجاه بوبو بينما قمت انا بمناورة خاطفة من ورائه وامسكت سلسلته بحزم. وللحال ضمت فاليري ذراعيها حول نحرها وقاية من ترحيب بوبو لها بالوثوب عليها واقفا على رجليه الخلفيتين. وسمعتها تتمتم: "آه... رحماك يا ربي"، اذ اطبق الذئب فكيه على زندها. ثم اردفت: "مرحبا بوبو، مرحبا ايها الصبي!" وفي طرفة عين بدأ بوبو يجرجرها صاعدا الى دار اللعب ورجلاه تتخبطان وتنغرسان في درجات الارض المتصاعدة. وشددت السلسلة بكلتا يدي فلم افلح الا في تبديل وجهة سيره.

وصاحت فاليري: "رينشاردا!" ثم نادت ثانية وقد ارتفعت طبقة صوتها درجة كاملة.

ولما ادركتها كان بوبو يغسل وجهها بلعابه على نحو ما نغسل نحن قطعة لحم سقطت في ماعون من الرماد. فوثبت عليه مزمجرا واطلقت فاليري بعدما رميته على ظهره وارتميت فوقه منشبا اظافري في مخنقه بانتقام مرير. ثم تصارعنا بعض الوقت حتى استسلم لي وارتمى على ظهره من تحتي. فوقفت فوقه انظر فيه وقد راح يبص بعين واحدة بينما تدلت قائمتاه الاماميتان وارتعشت ذؤابة ذيله تعبيرا عن اعتذار مكبوت.

واظن اننا، عصر ذلك اليوم، صنعنا تاريخا ذئبيا جديدا. فللمرة الاولى، على حد علمي، قبل ذئب راشد من ذئاب الغابات الشمالية بوجود زعيم متعدد الزوجات.

درس مفزع

لقد اقتضى تعريف بوبو على الطفلتين مشقة اكبر من جانبي. سوريل كانت في الثالثة فقط من عمرها ولم تكن كستر بلغت الثانية بعد. وشعرت، مع شيء من اليقين، بان بوبو سيتصرف حيالهما تصرفا وديا، وربما احبهما. لكن مجرد وجود بعض الشك كان ينطوي على مقدار من المجازفة. وتعين علي ان اسأل نفسي باي حق يجوز لي ان اعرض طفلتين بريئتين لخطر محتمل.

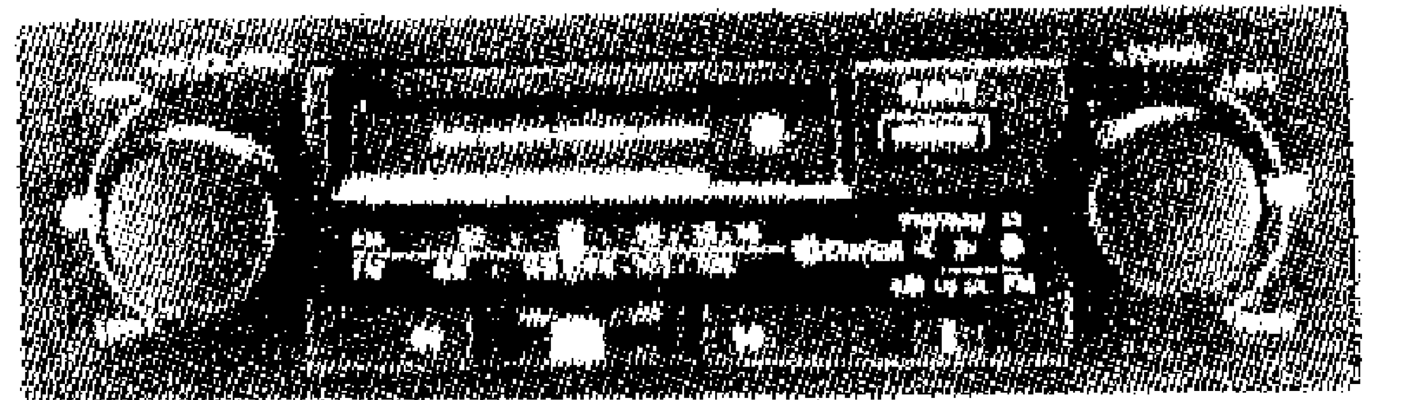
ودار تفكيري على اساس ان للطفلتين في نظر بوبو اعتبار جروين من جراء الذئاب. وعليه، فان وجودهما يمثل استمرار اسرتنا السربية وديمومتها. ففي البراري قد يتولى افراد السربة مساعدة الام على تربية انجال قائد السربة. وما لم يظهر بوبو انفصاما تاما عن المنطق الذئبي. فسيكون من المستحيل عليه ان يؤذي النشء الجديد خصوصا لما يحمل من معاني الاستمرار. على ان هواجس الشكوك هاجت لدي بالحاح: هل ثمة سبب من الاسباب المنطقية او ظرف من الظروف الشرعية في مفهوم الذئاب يبيح لبوبو عضهما بانيابه؟ وقررت ان ارجىء تعريفه على الطفلتين ريثما اتمكن من الحصول على الاجابة الصحيحة عن هذا السؤال. الا اني حرصت في هذه الاثناء على ان يألف بوبو على الاقل

كلاريُون

رفيقك المفضل على الطرق

اثبت جهاز كلاريون انه جدير بثقتك على الطرق الاشد وعورة وفي الطقس الاشد حرارة. وهو مصمم ليكون سهل التشغيل فيساهم بالتالي في راحتك وامان سيرك. وكلاريون التي اشتهرت بجودة منتجاتها ومتانة ادائها تزودك بمجموعة كبيرة من ستيريوهات السيارات، وكلها سهلة التركيب. فاختر منها الجهاز الذي يروقك.

كلاريون — يجعل القيادة اكثر متعة.



PE 66.3

Clarion

Clarion Co., Ltd. Tokyo, Japan

رؤية البنتين وان يدرك مدى حبي لهما. فصرت العب معهما يوميا بالقرب من حظيرته، ولكن على مسافة آمنة منه.

وحصلت على الاجابة عن سؤالي بعد ستة اسابيع. وكان ذلك في جبال بيلي الواقعة في منطقة يوكن على بعد ١٣٠ كيلومترا الى الشمال الشرقي من وايتهورس. وكانت تحرياتي قد افضت بي الى الاحاطة بآراء وافرة ومتناقضة تتفاوت من قصص شبيهة بما نسجه رومولوس وريموس حول تبني الذئاب وتنشئتها لاطفال البشر الى تحذيرات حاسمة من ان بوبو سيأكل الطفلتين لا محالة. وفي النهاية ادركت انه ما من شيء سيشفي غليلي مثل المعرفة الشخصية والاختبار الذاتي. ومن اجل ذلك توجهت جوا الى الشمال.

واستطعت، بمعاونة احد الصيادين الهنود، العثور على وكر للذئاب تسهل مراقبته. وكان الوكر قريبا من رافد يصب في نهر بيلي. ومكثت داخل كيس النوم اربعة ايام وثلاث ليال قارسة البرودة، محشوا بين ملاءتين من النايلون. ولم اكن آتي باي حركة الا وقت الاكل الذي اقتصر على قطع الكعك القاسي وعلب حساء الدجاج المزودة بوسائل التسخين الذاتي. وكنت اراقب بمنظار مكبر تحركات سربة من الذئاب على بعد ١٢٠ مترا. وكانت الذئاب تعلم بوجودي، فتحفظت بادىء الامر ولم تخرج الا لماما. لكني، عصر اليوم التالي، رأيت صغارها تخرج للمرة الاولى خارج الوكر، وكان عمرها لا يتجاوز ثلاثة اسابيع او اربعة. وشهدتها تتقلب وتتدحرج خارج الوكر، ولم تلبث طويلا حتى تدرجت الجراء الستة عائدة الى وكرها.

وتعرفت خلال مراقبتي على اربعة ذئاب كبيرة ايضا، منها ذئبة ضرعاء حلوب لا شك في انها الام، وذئب آخر اكبر يفوق بوبو حجما، ولا بد من انه كان "الالف" كما يدعى، اي طليعة ذكور السربة وابا الجراء. اما الاثنان الاخران، وهما ذكر وانثى، فقد احضرا الى الوكر شيئا بريا، ربما كان ارنبا صغيرا. وكانت هذه هي المرة الاولى خلال اربعة ايام متواصلة من المراقبة شهدت فيها عملية تأمين الاكل. ولا يسعني الا ان افترض ان الجراء كانت تقتات بالقيء.

وفي جميع المرات التي خرجت فيها الجراء للعب، لم اشهد سيدها "الالف" الا مرة واحدة ربض فيها على الارض بينما لهت الجراء وهرجت من حوله ومن فوقه. وراحت تنهش اذنيه تارة وذنبه تارة اخرى. وكانت تعوي وتزمجر في هجوم وهمي عليه، الا انه كان مطرقا ومتضايقا، بل كاد ان يكون ضجراً بمجونها ولم يعد يطيق لهوها، فابتعد عنها مسافة مترين، ولكنها لحقت به وجددت هجماتها.

وكان بين الجراء الستة واحد تميز عن خلانه، وهو اكبرهم حجما واشدهم ولعا بالقتال. الا انه اظهر نزعة الى مشاكسة اخوته وايذائهم اقوى من نزوعه الى اللهو بذيل ابيه او اذنيه. وكان هذا الابن الضال يمسك احد اخوته بفكيه الصغيرين وينشب انيابه فيه حتى تتعالى صيحات المه فتصل الى مسمعي. ولم يكن يكف عن مواصلة تعذيبه الا بعدما يركله ابوه بمخلبه. وعندها يتحول

هذا الزعيم الصغير الى نهش مخلب ابيه، فيسحب الاب رجله بسرعة من شدة الالم. ثم يعود هذا الجرو الى مهاجمة ضحية اخرى من بين اقرانه. ورأيت من خلال المنظار ان الذئب الكبير اخذ يزيد غيظا من مشاكسة الجرو وقحته.

وفي صباح اليوم الرابع لحقت بالجرو عقوبة مفزعة. فما ان بلغ بضحيته الثانية في غضون عشر دقائق حد صيحات الالم التي تثير الشفقة حتى اطبق الذئب الكبير فكيه على جمسه الصغير العصي وهزه مرة واحدة بقوة، فزهق آخر نفس من انفاسه، وتعالت صيحة واحدة قصيرة هرع لها بقية الاقران فتسابقوا الى وكرهم. والقى الذئب الكبير بالجثة الصغيرة الهامدة على الارض، واخذ يقلب لسانه ويلويه باشمئزاز للتخلص من الشعر الذي علق عليه.

وخرجت الذئبة الام من وكرها وتشممت جثة ولدها، ثم اقتربت من خطم خليلها وشمته. وبعدما نظرت بحزن، على ما اظن، في الافق، عادت الى وكرها. ووقف الذئب الكبير وتمطى بكسل، ثم وثب واختفى وراء اشجار الدغل. ولم ار بعد ذلك مزيدا من الذئاب.

لقد عملت الان ان هناك ظروفا يمكن فيها الذئب ان يقتل انساله، وانه يحتمل بالتالي ان يهاجم بوبو طفلتي. وكان مجرد التفكير في ذلك بشعا ومثيرا للهلع حتى اني لم اكترث حينذاك لتقصي ما حدث وفهم مغزاه حق الفهم. لقد انتهت التجربة، فالمجازفات اعظم من ان تحتمل، ويجب تسليم بوبو الى حديقة للحيوان.

تعريف حذر

ارتجت اللاندروفر فوق مدخل دارنا وكان الوقت عصرا. ولمحت بوبو يركض من جهة الى اخرى مهتاجا لمقدمي، فصعدت الى الهضبة لزيارته. وراح يمرح في استدارات محمومة حولي ثم يندفع في وجهي محاولا مصارعتي. فتصارعنا الى ان طرحني ارضا وصار من فوقي، وكان كلما انفجرت ضاحكا يلعق وجهي بلسانه.

واخيرا تمكنت من الوقوف وتحركت في اتجاه فاليري وطفلتي. فاذا به يشد ذراعي بانيابه ويرفض السماح لي بمغادرته حتى اتصارع معه مرة اخرى، ففعلت. وعلمت من فاليري خلال العشاء ان بوبو كان يعوي باستمرار كل ليلة في فترة غيابي. وقالت انها متأكدة من انه كان مستوحشا من وحدته. وفكرت في تلك العيون الكهرمانية المحجبة في لندن والالم الدفين فيها، فادركت اني لن اتمكن مطلقا من الحكم على حياة بوبو بالسجن في حديقة الحيوان، وان علي اما ان اواصل تجاربي فيشاطر بوبو حياة اسرتنا على نحو تام، واما ان "اطلق سراحه" الى الابد برحمة رصاصة لا بد منها، لان اطلاقه بالمعنى الحر للكلمة سيكون بمثابة الحكم عليه بالموت البطيء. فهو لن يستطيع، من دون مؤازرة سربته، البقاء على قيد الحياة في الخلاء. كما لا يمكنه الان الانتماء الى أي سربة، اذ ان دخول ذئب غريب المناطق الاقليمية للذئاب الاخرى يعني عادة الطرد او القتل.

وكلما استرسلت في التفكير اتضح لي اكثر فاكثر اني، في غمرة

استغراقي في الحادث المرعب الذي حل بالجرو العصي، فاتني ان ادرك مغزى ما شاهدته. فالمجتمعات التي يعتمد فيها البقاء المحض على انظمة صارمة تبلغ احيانا حد تحريم متعة الانجاب على جميع اعضاء السربة باستثناء الزعيم وخليلته، كيف يصح ان تتسع انظمتها لقبول جرو وحشي الطباع مثل ذلك الجرو العصي؟ ان ولعه بالخصام والقتال مع افراد اسرته سيعني وجود مصدر مستديم للاخلال بالامن. واني استطيع الحكم مما رأيت بان تلك السربة ما كانت لتعرف الامن والسلام الا بموته او بموت زعيمها. فهو، بتهديده النظام والامن، انما يهدد حياة جميع الذئاب في سربته. ولهذا كان اعدامه امرا حيويا بالنسبة الى بقاء السربة، ولم يكن، كما تصورته، قتلا للاطفال.

بيد ان استنتاجاتي النظرية من حادث مفرد معزول لم تكن في ذاتها قاعدة نعتمدها في مجابهة مع بوبو قد تسفر عن تشويه ابنتي او عما هو اسوأ. وانطلاقا من هذا، كان لا بد من تقصي مزيد من الوقائع، فتحريت جميع المشاهدات والتقارير التي تحدثت عن ذئاب افنت صغارها. وتبين لي ان الذئب "الالف" كان المسؤول الوحيد عن القتل في كل مرة. وعزت بعض الآراء ذلك الى شكل من اشكال تحديد النسل بغية المحافظة على وجود السربة.

وبما اني كنت، في نظر بوبو، زعيم السربة، فان ما يتعلق بتحديد عدد السكان هو من اختصاصي وحدي. وهذا يعني ان اقدام بوبو على ايذاء الطفلتين سيكون انتهاكا مستحيلا من وجهة شرعية. واذا تقيدت الطفلتان بلباقة التصرف وامتنعتا عن الامعان في مضايقة بوبو، فسيكون لقاؤهما به امرا مأمون السلامة. واقصى ما يمكن ان يفعله بوبو هو ايذاؤهما عن غير قصد في مرح صاخب. ولكن على رغم ذلك، قررنا ان يتم التعارف بالتدريج.

وكنت قد قرأت عن عادات الذئاب في الاكل وعلمت ان زعيمي السربة في البراري يقبلان قبل سواهما على الاكل حتى الشبع من اي قنيصة، وعندما يتخمان فقط تقبل بقية الذئاب لالتهام ما يتبقى. لكن هناك حالة استثنائية غالبا ما تتكرر ايام الوفرة والنعمة او حين تكون الجراء من الصغر بحيث لا تقوى على الصيد على نحو فعال. في هذه الظروف الاستثنائية تمنح الجراء، على ما يبدو، امتيازات خاصة تؤهلها، الى جانب الابوين، لاولوية الولائم. وقررت ان استغل عادة الاكل هذه لازيد من ترسيخ الانطباع في ذهن بوبو بان للبنتين اولوية عليه.

وعمدت الى تثبيت مائدة النزهات عند سفح التلة واقمت فوقها عريشة تقينا انهمار المطر. وكنا نجلس الى المائدة معا وقد توسطتها قطعة لحم تزن كيلوغرامين ونصف كيلوغرام هي حصة بوبو، وكنا نأكل طعام الفطور على مهل. وكانت فاليري تنضم الينا ومعها طبق عليه ابريق شاي وخبز محمص، بينما تقبع كليو تحت المائدة ملتقطة الفتات.

وكنا، حالما نفرغ من الاكل، نتناول حصة بوبو من اللحم فيلعقها كل منا بلسانه، ثم اقرب القطعة من كليو لتلعقها بلسانها (لا لتخطفها مني)، فيدرك بوبو بحاسة الشم اننا

١٢٥ مليونا
العبها واربح معها

الضمـــان

ان دفع هذه المبالغ مضمون
في الدورة الواحدة (نصف عام)

٢ × مليون	= ٢٠٠٠٠٠٠	مارك
٨ × ١/٢ مليون	= ٤٠٠٠٠٠٠	مارك
١٢ × ١/٤ مليون	= ٣٠٠٠٠٠٠	مارك
٦ × ١٠٠٠٠٠ دم	= ٦٠٠٠٠٠	مارك
١٤ × ٨٠٠٠٠ دم	= ١١٢٠٠٠٠	مارك
١٨ × ٥٠٠٠٠ دم	= ٩٠٠٠٠٠	مارك
٢٢ × ٤٠٠٠٠ دم	= ٨٨٠٠٠٠	مارك
٢٦ × ٣٠٠٠٠ دم	= ٧٨٠٠٠٠	مارك
٣٠ × ١٠٠٠٠ دم	= ٦٠٠٠٠٠	مارك
٣٠٣ × ١٠٠٠٠ دم	= ٣٠٣٠٥٠٠٠	مارك
٤٤٠ × ٥٠٠٠ دم	= ٢٢٠٠٠٠٠	مارك
١٦٨٠ × ٢٠٠٠ دم	= ٣٣٦٠٠٠٠	مارك
١٣١٢٠ × ١٠٠٠ دم	= ١٣١٢٠٠٠٠	مارك
١٨٤٨٠٠ حتى ٨٠٠ دم	= ٨٥٠٤٠٠٠٠	مارك
٢٠٠٤٨٦ جائزة مجموعها	١٢٥٦٢٠٠٠٠	مارك

أكبر يانصيب في أوروبا
يتيح لك مرة اخرى
فرصة شائقة للربح ،
يتوافر لك فيها امكان لم يسبق له مثيل
يجعلك من اصحاب الملايين
بين ليلة وضحاها

- فقط ٤٠٠،٠٠٠ ورقـة تعرض للبيع
- في مقابل ٢٠٠،٤٨٦ جائزة مضمونة في كل دورة!
- ويبلغ مجموع الأرباح: ١٢٥،٦٢ مليون مارك الماني ٠
- سبع جوائز كبرى كل منها بمليون مارك ٠

منذ ٣٢ سنة ويانصيب "سودوتش كلاسنلوتري" يصنع رابحين سعداء ٠ وما زالت أعدادهم تتزايد عاماً بعد عام، نظراً الى الفرص الممتازة التي يتيحها لاصحاب الحظوظ، كونه لا ينفق شيئاً من دخله على التبرعات الخيرية، وكون الرابحين يتسلمون جوائزهم خالية من الضرائب٠
ومن المعروف ان المارك هو من أقوى العملات في العالم، وفي ذلك حفز للكثيرين على شراء ورقة من هـذا اليانصيب الذي تشرف الحكومة عليه٠ وفي استطاعة أي فرد ان يشترك فيـه، والأمر سهل وبسيط٠ يجري اعلام الرابحين شخصيا وبكتمان بمعرفة الحكومة وفي اشرافها٠ اذا شئت ان تصبح رابحاً محظوظاً فلا تتأخر، بل اكتب اليوم للحصول مجاناً على كراسة اليانصيب وصورة الطلب الخاص بقسيمة الاشتراك:

GREGOR FRANKFURT

STATE ACCREDITED LOTTERY OFFICE

WORLD WIDE SERVICE
State Accredited Lottery Office
GREGOR
Rüsterstraße 24, P.O.Box 119020
D-6000 Frankfurt/Main (W.-Germany)

Please mail order form and Free brochure with all details for the next cycle of the SÜDDEUTSCHE KLASSENLOTTERIE

Mr./Mrs./Miss ____________________

Street address (or P.O.Box-No.) ____________________

City (Postal code No.) ____________________

Country ____________________ Please print or type all entries

جميعا اكلنا منها قبله، وكنا بعدئذ نسير اليه جميعا لتسليمه الأكل، فيشب على قائمتيه الخلفيتين ويتناول اللحم بين فكيه، ثم يبتعد وثوبا الى فسحة صخرية جعلها مكانه المعتاد لتناول الطعام.

وقبل مضي وقت طويل ادنيت ابنتي من بوبو، وسرعان ما بدأتا تقدمان اليه ظاهر اليدين بعد لحسهما، فيشمهما بوبو مترفقا بهما ومرتعش الانف، ثم ينسل لسانه بلطف شديد ليلثمهما لثمة مبللة. واذ كان بوبو يضع رجلا على قمة رأس كل واحدة منهما، كانتا تقعان على الارض مستغرقتين في الضحك.

لكن هذه المواجهات الاولى بين بوبو والطفلتين كانت مدعاة للقلق. وعلى رغم ان المنطق كان يوحي الي بانه لا داعي الى الفزع. الا ان اثر الحكايات والاساطير في نفسي جعل من العسير علي قبول فكرة ان الذئب سيقتصر على مداعبة ابنتي وشمهما بخطمه. وعلى اثر هذه المقدمات الاولية المترددة بدأت البنتان تقتربان منه اكثر فاكثر حتى اخذتا تلعبان معه من دون تحفظ. فكانت سوريل تمتطي صهوته وهو رابض بلا حراك، وتشد اذنيه يمنة ويسرة وتركل جنبيه بكعبيها وصوتها يرن كالاجراس: "هيا. انهض. امش".

اما كستر فكانت ترتمي عند خطمه او ذيله، مستلقية على ظهرها عادة وممسكة بقبضتين من الوبر تشدهما باقصى ما اوتيت من قوة وتقرقر مسترسلة في ضحكها بينما يلعق بوبو بلسانه ما استطاع الوصول اليه من جسمها بكل صبر ورزانة.

وكنت في عين مخيلتي استرجع مشهدا مماثلا عبر جدول في مقاطعة يوكن، ولتلك الصورة في ذهني ظلال سود كامنة فيه ابدا. ولهذا استقر رأينا، اي فاليري وانا، على اننا لن نسمح مطلقا للطفلتين، على رغم عذوبة لعبهما، بان تخلوا ببوبو.

"لننتف بوبو"

تحول ربيع بوبو الاول بيننا الى دفء فصل الصيف، وغدا العشب على التلة دغلا نمرح فيه ونلعب شتى انواع اللعب. وكان اكثرها تكرراً وشعبية لعبة "اختبىء واهجم"، وهي تحوير للعبة التغمية، او "اختبىء وابحث"، حيث يتولى بوبو دور المختبىء متواريا بين الاعشاب الى ان يقترب احدنا منه متظاهرا بعدم معرفة ممكنة، فيهاجمه بوبو بوابل من اللكمات بمخالبه ليبدأ شبه مصارعة ينطرح معها بوبو مستسلماً في كل مرة عن عمد.

لقد بت متأكدا، بعدما راقبت بوبو طوال ثلاث سنوات، من ان اللعب جزء رئيسي من حياة الذئب اليومية. وفي حين ان الكلاب، على غرار البشر، تقلع عن العاب الطفولة لدى بلوغها، تدأب الذئاب، كما يبدو، على المحافظة، على هذه الظاهرة من حياة الجراء، فتنغمس فيها يوميا من اجل المتعة المجردة وربما من اجل ارضاء حاجة نفسية بعيدة الغور توازي حاجتنا نحن الى الاستجمام.

وفي الأيام التي لم يتسن الوقت لأي منا للعب معه، كان بوبو يلعب بمفرده ساعات متواصلة احيانا. وقد رأيته مرة يطارد ذنبه باستمرار طوال مدة لا تقل عن ٤٠ دقيقة. وكان يثني مقدمه ببطء وحرص وينتظر بصبر احتدمت مع الروح الافتراسية،

فريسته المرتعشة، حتى اذا بات على بعد وثبة منها قفز عليها بغتة. لكن ذنبه في تلك اللحظة يرتد بعيدا عن صائده، فيطارده بوبو بعنف في دوائر ينكمش محيطها المرة تلو المرة وتزيد سرعة دورانها على نحو يتعذر معه حصر نطاقها. واخيرا يلوذ بوبو بالفرار متظاهرا بالهلع من ذيله الذي بدأ الآن يطارده هو.

ومع مرور الأيام جمع بوبو تشكيلة العاب، منها اطار سيارة قديم، وكرة بحر منبعجة، وجمجمة حيوان الموظ، وجزء من حبل نايلون ضخم يستخدم في شدّ السفن الى البر. وكان يحتفظ بها وبغيرها من الكنوز داخل دار اللعب، فيخزنها بحرص وعناية تحت سرير النوم ويخرجها من مخبأها متى شاء.

وفي احد اوقات اللعب معا، وكان يوما من شهر يوليو (تموز)، افزعني بوبو كثيرا ومنحني في الوقت نفسه منحة غير مرتقبة. فقد قبضت على وبره لامسكه باحكام بغية مصارعته، واذا بقبضتي تنزعان الوبر من جلده انتزاعاً. وخطر لي انه اصيب بعدوى مرض لا يلبث ان يجعله املط. غير اني، بعد فحص مكان الوبر، لم اجد بقعا عارية بل كساء من شعر اشد خشونة واكثر دكنة. فادركت انه كان ينزع عنه معطفه الشتوي.

وعرضت علينا جارة طيبة مهارتها ودولاب غزلها بعدما وجدت ان صوف الذئب، اذا غزل مع صوف الخراف، يعطي خيوطا متينة وناعمة ودافئة كأجود اصناف "الموهير". وفي خلال سنوات ثلاث جاد علينا بوبو بصوف نسجنا منه كنزات لنا جميعا. وعيب هذه الكنزات الوحيد هو ان الكلاب، بدلا من اكتفائها بالشم العرضي كما هي عادتها، اظهرت اهتماما حادا بنا حتى ان بعضها كان يفاجئنا بالتصرف كما لو مسه تيار كهربائي مكثف. فهي اما تفقفق في نباحها وتنكمش خوفا باذلال وخنوع، واما - وهذا لعمري هو الأمر الاسوأ - تتحفز للهجوم فتصلب سيقانها وتتقدم متوعدة. ومن حسن الحظ ان الكلاب لم تعضنا في اي مرة، وان كادت هي ان تفعل ذلك.

في المنزل امام الموقد

ارجأنا مشروع ترويض بوبو على العيش وحسن السلوك داخل منزلنا الى مطلع شهر اغسطس (آب)، اي الى ان يحتّ صوفه الشتوي كله. وكان ذلك الارجاء استجابة لاصرار فاليري. لكنها، لو درت بعواقب ادخاله المنزل، لتخلينا عن مشروع تدريبه كلياً.

ادخلت بوبو البيت عبر باب المطبخ وفككت للتو مشبك طوقه. وكان الامر الأول الذي استرعى انتباهه منشفة صحون تركت باهمال فوق احد الرفوف وفي ثناياها طبق خزفي ثمين. وبعد ذلك جاء دور غطاء ابريق الشاي، ولكن انى لبوبو ان يعلم ان الابريق كان فيه شاي حتى منتصفه.

وخاف بوبو من صوت تكسر هذه الاواني وانتشار شظاياها في ارض المطبخ، لكن خوفه لم يدم طويلا، ففي غضون لحظات سحب طبقا عن دفة المغسل، وكانت المصيبة الكبرى ان الطبق احتوى على نصف ما نملكه من آنية الخزف الصيني. وقبل ان اسكن روعي مما حدث، كان بوبو قد امسك بمنشفة اخرى للصحون يبدو ان رائحتها راقته كثيرا، واندفع

بالمنشفة الى غرفة الأكل المجاورة وراح يتقلب فوقها وتحتها، فاشتبكت قوائمه عرضا بقوائم طاولة استندت فوقها اجزاء جهاز استماع "هاي - فاي". ووثبت عليه وفي يدي سلسلة طوقه، فطار مكبر الصوت وتهشم محدثاً حريقاً محدود النطاق في اثاث الغرفة. ولولا سرعة الخاطر في سحب قابس التوصيل الكهربائي وحسن استخدام مطفأة الحريق، لأتت النار على البيت ومن فيه.

وكان بوبو لا يزال مزهوا بلعبه، فوثب الى غرفة الاستقبال وطفر، قبل ان اتمكن من اللحاق به، على اربع من الستائر الست التي تزين نوافذ الغرفة وخلعها من مكانها واطاح عوارضها وحواشيها في عاصفة من التدمير الفضولي. وكان فخورا، بل فرحا ومغتبطا، برؤيتي عندما تمكنت اخيرا من اصطياد طوقه وشبك السلسلة في عروته. والواقع انه كان ينضح اعتدادا بنفسه الى حد انه ثغر في اثناء جره من الصالون على كرسي كنا كسوناه حديثا بالمخمل، تاركا عليه مسحة من بوله للاعراب عن ملكيته الاقليمية.

عند هذا الحد طفح كيل فاليري. وهي، كربة بيت، معذورة اذا طغى اعتزازها بالبيت على كل ما عداه. والمحت بتهديد خفي الى انه، اذا داس بوبو عتبة دارها مرة اخرى فستهجر البيت الى الابد. ولم يكن امامي من خيار سوى اصلاح ما افسده بوبو او ابداله في اسرع وقت ممكن. وبعد مرور فترة على اندمال الجروح تخللها الكثير من التأكيدات العاطرة راودني أمل جديد في ادخال بوبو البيت مرة اخرى.

ان مستوقد النار في جدار غرفة الجلوس الامامية واسع، وليس ثمة عوائق تعترض حرية التنقل في فسحة الارض امامه، وهي ارض غطيت بطبقة من الاسمنت في حين بني جدار المستوقد من الصخور. فاستأجرت ثقابة صخرية تعمل بضغط الغاز، واغتنمت فرصة غياب فاليري في عصر احد الايام وثقبت الجدار ودققت فيه رزة حديد. وما ان عادت فاليري الى البيت حتى كان بوبو يرقد بسلام على حصيرة المستوقد وقد احكم سلسلته بالجدار الصخري.

ورضخت فاليري في النهاية للأمر الواقع، وكم اكبرت فيها ذلك واحببته. واظن ان رؤية ذئب يلاعب في دعة ابنتينا الصغيرتين هو الذي استهواها. وكنا نبقي بوبو مربوطا بسلسلته ساعة او اكثر كل يوم. وبعدما فقدت الاشياء جدتها وغرابتها بوقت قصير، فككنا رباطه وراقبناه بحرص شديد وهو يقوم بجولات تفقدية في أرجاء البيت وقد خلف علامات ملكيته في مكانين. ولكن بعدما طبع زعيم السربة في ذهنه ان هذه الاعمال محظورة في المنزل، تخلى بوبو عن جميع حقوق الاولوية في الممتلكات باستثناء سجادة المستوقد.

شعور بفداحة الذنب

استغرق تحديد المعالم الأساسية لجغرافية العلاقات مع بوبو الجزء الاعظم من السنة الأولى. وتمكنا، من معرفة الملامح الرئيسية في سلوكه وحدود تصرفاته، وتوصلنا عن طريق المساومة الى العيش ضمن نطاقها. على ان الخريطة ما زالت بعيدة عن الاكتمال. والواقع ان مركب السلوك

الذئبي معقد الى حد ان علماء الحيوان ينفقون اعمارهم في محاولة فهمه. ولكن اذا جمعت بين ذلك التعقيد ومركبات السلوك البشري الاكثر تعقيدا لتصاعدت الاحتمالات السلوكية في تعاقب هندسي الى ما لا نهاية له. وتصرف بوبو ازاء الناس الذين يزوروننا هو امر ملحوظ. فموقفه تجاههم يراوح، دونما نظام او منطق ظاهر، من المحبة الى الكراهية القاتلة او الفزع.

ويتضح لي، من خلال استرجاع ذكريات الماضي، ان تعلمنا العيش بحسب الشريعة الذئبية كان يتطور بالتدرج نتيجة الانسجام مع مقتضيات الضرورة في حينه. وقد حدث ذلك على مراحل من دون علم منا، فجلب معه مقدارا ناميا من البهجة بتحقيق علاقة مع الذئب مبنية على المحبة والاحترام المتبادلين. والحق ان البهجة التي يجلبها بوبو الينا تنمو من لحظات استكشاف متفرقة وبسيطة حتى تغمر قطاعات برمتها من حياتنا، فتدر علينا محاصيل وافرة من الخبرة ما كانت لتتوافر لولا ان دروب حياتنا لم تتقاطع. وهي بهجة شاملة تعم حياتنا الى درجة انها تبدو هبة من الهبات غير المكتسبة. والغريب انها تولد احيانا حزنا غير مألوف، كأنما هو شعور بفداحة الذنب.

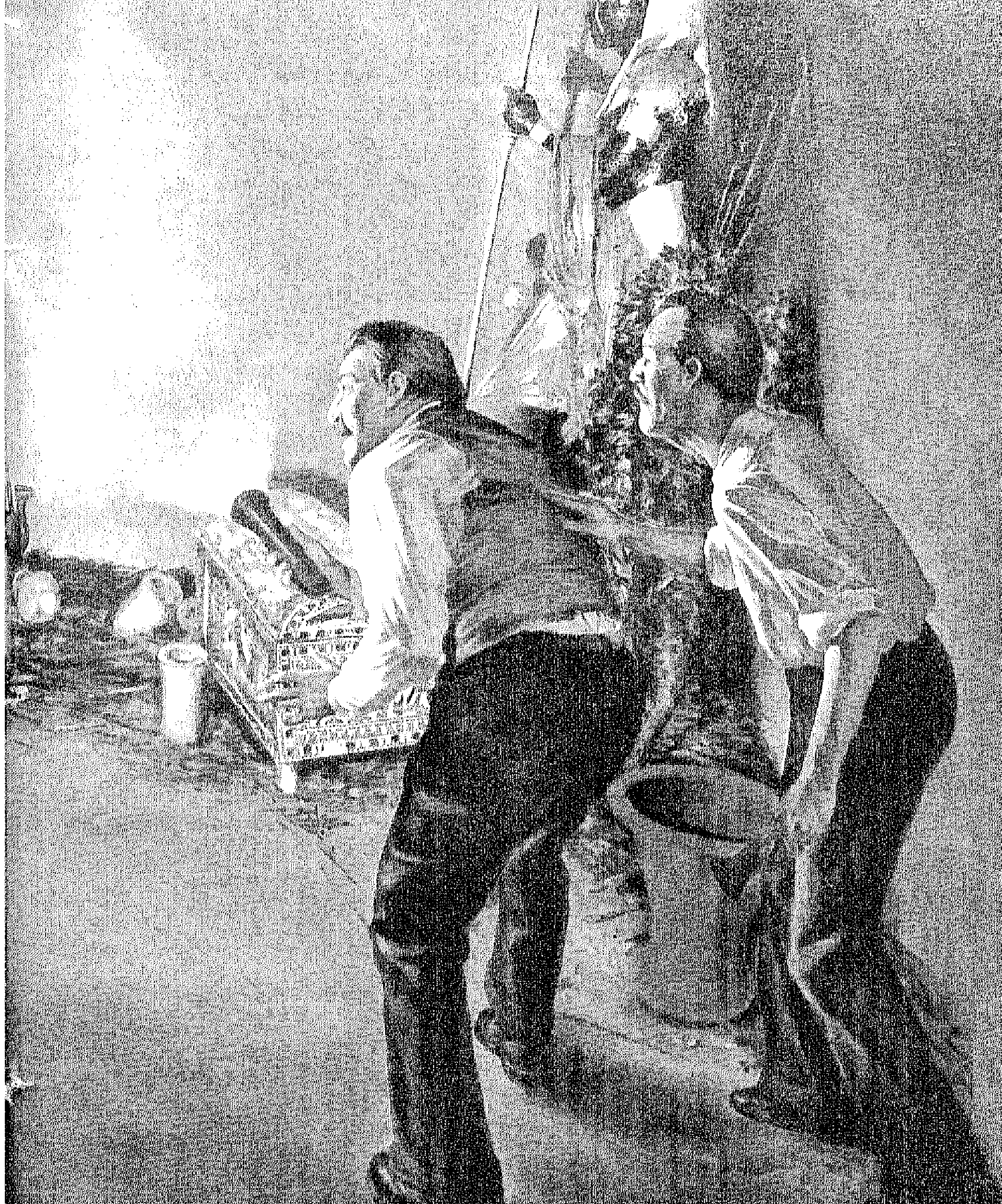
كم مكثت ساهرا في فراشي ساعات متقدمة من الليل، منصتا الى رجع نداءات بوبو كأنها اصداء جرس وحيد تنطلق دندناته المستوحشة عبر كاتدرائيات الغابة. وذات ليلة، بينما كنت انا وفاليري خارج البيت، كانت حماتي، التي جاءت حديثا من انكلترا واعتادت حياة المدن الانكليزية، ترعى الطفلتين. وكانت البنتان تلعبان في حديقة الدار حين عوى بوبو فاستجاب لعوائه ذئب آخر وراء التلة. ولما عدنا الى البيت وجدنا الجدة تحتضن الطفلتين داخل الدار وقد احكمت اقفال جميع الابواب خوفا من تهديدات الذئاب القناصة التي توهمت انها احاطت بالدار من جميع منافذها. ولم نكن قد رأينا في اي مرة اصدقاء بوبو من ابناء جلدته. غير اني اعرف، من تقصي الأثر على صفحة الثلج وراء التلة، ان اثنين على الاقل من الذئاب البرية يزورانه من حين الى آخر.

اني، اذ انظر الى بوبو، اتحسس مدى روعته وارى فيه تجسيدا لثمرة النشوء والارتقاء، وهي ثمرة بلغت من التطور حدا في اتقان الصنع والتناسب مع طبيعة موطنه يجعلني اتساءل: باي حق، بل باي شهوة مؤسفة، اختار الانسان ان يستأصله من جذوره الى الأبد؟ واراه، وانا في تلك اللحظات من التأمل، منطلقا وقد انتصب ذيله عاليا في سباق عبر سهول المنطقة القطبية الشمالية الجرداء. واكاد اسمع عواءه الضاري كما يجب ان يكون، فاتمنى، على رغم تعلقنا الشديد به، لو انه لم يرنا قط.

ولكن لا رجاء في عودة بوبو الى البراري. فهو لن يقدر مطلقا على استرداد ميراثه المفقود، وان كان قادرا على ان يشركنا معه في نتاج ذلك الميراث. وهذا ما يفعله بوبو بطيب خاطر وكرم من النفس، واننا لشاكرون له ذلك.

■ ريتشارد تومكيز

مدفن توت عنخ آمون



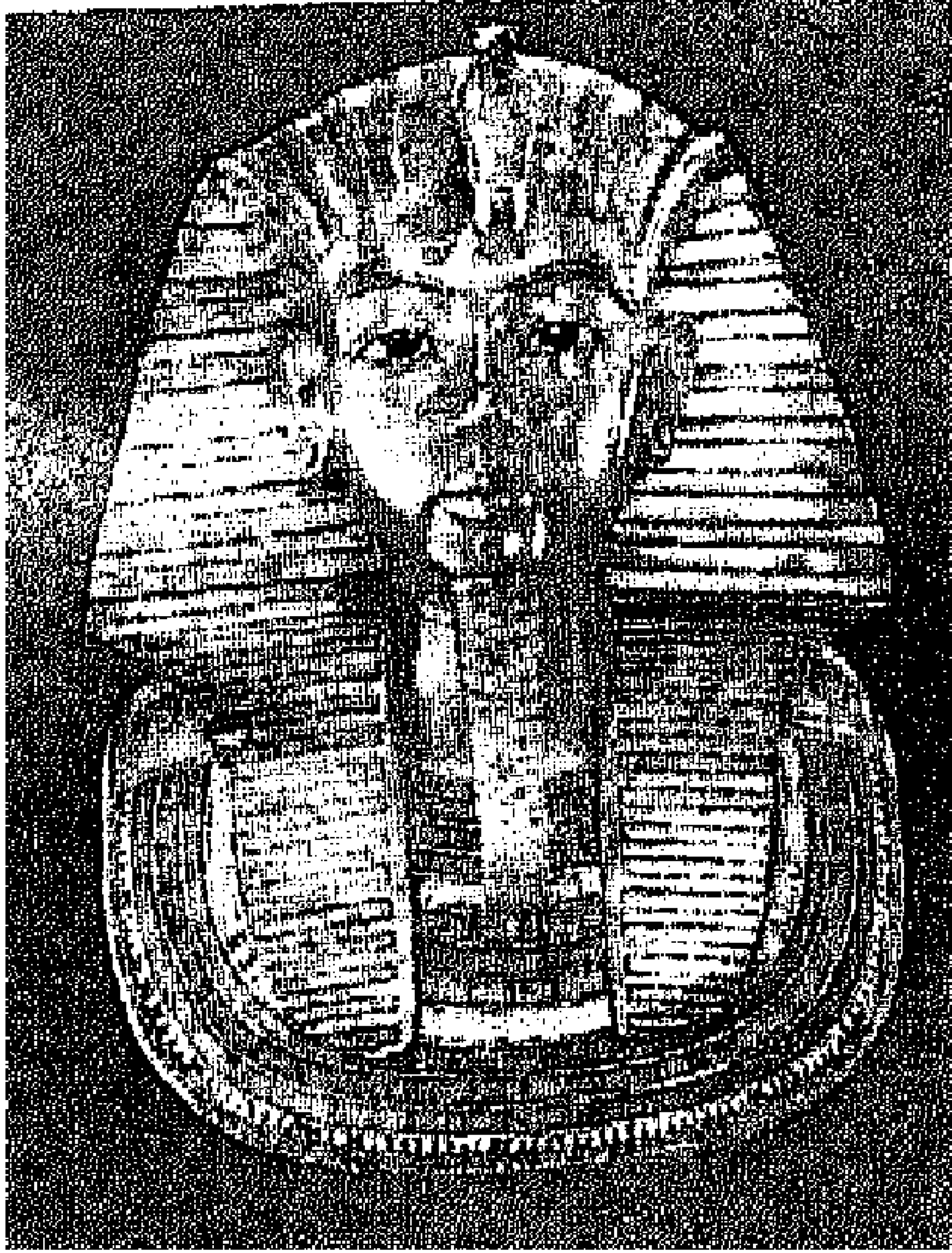
كتاب الشهر

ملخّص مِن كتاب

بقلم

توماس هوفينغ

مدفن توت عنخ أمون



قصة أروع اكتشاف أثري تروى للمرة الأولى

بقلم توماس هوفنغ

توماس هوفنغ، مؤلف هذا الكتاب، كان مدير متحف المتروبوليتان في نيويورك ورئيس الفريق الذي نظم معرض "كنوز توت عنخ أمون" في جولتها الأخيرة عبر الولايات المتحدة الامريكية. وقد توافد ملايين الزوار على متاحف واشنطن وشيكاغو ونيويورك لمشاهدة القطع الخمس والخمسين من كنوز توت عنخ أمون التي لم تنته جولتها الامريكية بعد.

والذي حدا توماس هوفنغ على تأليف كتابه هو البحوث التي تولاها استعدادا للمعرض والتي كشفت عن تناقضات في الروايات الرسمية التي وصفت التنقيب عن مقبرة توت عنخ أمون. وفي اثناء مواظبته على الدراسة في متحف المتروبوليتان، عثر هوفنغ على مئات الوثائق الاصلية التي غبرها عدم الاستعمال، وهي رسائل ورسوم ومذكرات كتبت بخط المنقبين انفسهم. وقد اعتمد تلك الوثائق القيمة من أجل قص الرواية الكاملة للمرة الأولى.

ان اكتشاف ضريح توت عنخ أمون ليلة ٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٢ وما تبعه من عثور على قرابة ٥٠٠٠ تحفة فنية رائعة خلال عشر سنين، اثار اهتماما واسعا في العالم كله. فهو كان ولا يزال اغنى الاكتشافات طرا في تاريخ الآثار.

واصبح توت عنخ أمون، الفرعون الذي حكم تسع سنوات ومات في ظروف غامضة وهو في الثامنة عشرة من عمره عام ١٣٥٠ قبل الميلاد، شغل الناس. كذلك اصبح مكتشفا الضريح، وهما عالم الآثار المصرية البريطاني هوارد كارتر وممولة الثري اللورد كارنارفون، شغل الناس من دون ان يسعيا الى ذلك ففي اعقاب سنوات الحرب العالمية الاولى المرهقة، بدت الاحداث التي شهدتها منطقة وادي الملوك في مصر القديمة مثيرة للاهتمام على نحو غير عادي. وتولدت عن هذا الاهتمام آلاف القصص الجديدةحتى ليخال المرء انه لم يبق مجال اليوم لاضافة جديد نافع حول توت عنخ أمون والاكتشاف المذهل. غير ان الامر في الواقع ليس هكذا.

فجميع الروايات التي نشرت حتى الان تقصر عن كشف بعض الحقائق البالغة الاهمية، ذلك ان الرواية الكاملة لا تتوافق في جميع اجزائها مع تلك القصة البطولية السامية التي اعتدنا سماعها. بل انها تضج بالكيد والخداع والاكاذيب والآمال الخائبة والغم، وبهذا تغدو قصة مذهلة على نحو لا يقل عن الاكتشاف العظيم عينه.

في العام ١٩٠٧، العام الذي جمع اللورد كارنارفون وهوارد كاتر، كان جورج ادوارد ستانهوب مولينكوس هيربرت لورد بورشستر ايرل كارنارفون الخامس (وهو اسم اللورد) غير معروف الا على نطاق ضيق خارج دائرته الخاصة. ولو تحرى الناس عنه لوجدوا ان اللورد كارنارفون، الذي عرف باسم "بورشي" كان اريستوقراطيا انكليزيا ثريا في الحادية والاربعين من عمره، ولم يكن حقق اي شيء يذكر حتى ذلك الوقت.

وكان اللورد كارنارفون في حداثته قوي الشخصية وانيقا وعلى شيء من الاندفاع. ولكن بحلول العام ١٩٠٧، اصبح وجهه مضنى وهزل جسمه. وهو يظهر، في الصور التي اخذت له آنذاك، حاملا عصا في احدى يديه وواضعا يده الاخرى في جيب سترته وواقفا كمن اصابه جرح.

لقد انسحب بورشي من كلية "ترينيتي" (الثالوث) في جامعة كيمبريدج عام ١٨٨٧ لان انجازه الدراسي كان عديم الجدوى، وبدأ سلسلة من الاسفار دامت سبع سنوات. وكان برنامج رحلاته لافتا، حتى وان قيس بعصر الفضاء الحالي. فهو افتتح رحلاته بالابحار ثلاثة ارباع الطريق حول العالم، ثم سافر الى افريقيا الجنوبية واوستراليا واليابان وفرنسا وتركيا واسوج وايطاليا والمانيا والولايات المتحدة الامريكية التي جال فيها من المحيط الى المحيط. وفي يوم مولده التاسع والعشرين تزوج آلمينا وومبويل، وهي امرأة جميلة وذكية. وفي السنوات الاربع التي تلت زواجهما، رزقا صبيا وبنتا. والصبي هنري، اللورد بورشستر، وهو اليوم في العقد

التاسع من العمر، لكنه لا يزال رشيق الحركة، اما البنت ايفلين، فقد كانت رفيقة والدها الحميمة.

وبعد سنوات قليلة من ولادة هنري وايفلين، وقع للورد كارنارفون حادث اصطدام سيارة غير مجرى حياته. وكان من حسن حظه ان بقي على قيد الحياة، وان كان لازمه ارتجاج في الدماغ وكسور في عظام الصدر. ومنذ ذلك الحادث لم يتعاف كليا، لكنه خرج منه مصقول الشخصية ماضي العزيمة ونازعا الى التحليل.

وبناء على نصيحة طبيبه، قصد اللورد كارنارفون الى مصر عام ١٩٠٣، فغدا على الفور اسير ذلك المكان. وكان مهتما بعلم الآثار في السنوات القليلة السابقة، فتحول اهتمامه هناك الى هواية. وفي العام ١٩٠٦ حصل على ترخيص منوزارة الاشغال العامة المصرية ومديرية الآثار التابعة لها للعمل في وادي الملوك المسكون بالاساطير.

واذا نحن تأملنا اليوم في ذهاب لورد انكليزي - او "لوردي" كما كان المصريون يسمون كارنارفون - الى مصر والحصول فورا على اذن رسمي يخوله التنقيب في التخوم الفرعونية المقدسة من دون تدريب سابق او اشراف، لوجدناه امرا مروعا حقا. اما في تلك الآونة فكان في امكان اي مواطن عادي ان يحصل على موافقة احد المسؤولين الفرنسيين في مديرية الآثار المصرية على الشروع في الحفر، بشرط ان يكون ذلك المواطن ثريا، وعالما بالوسيلة المناسبة للوقوف امام المسؤول. وكان للفرنسيين سيطرة شبه تامة على كل ما يمت الى الآثار المصرية بصلة، وهو امتياز حافظوا عليه منذ حملة نابوليون المصرية.

في ذلك الوقت كان امتياز التنقيب قائما على اتفاق بسيط. يقضي، باديء الامر، بان يتم العمل في رعاية مديرية الآثار، وهو شرط لميتحقق الا نادرا. واذا وقع المنقب على مقبرة، كان عليه اعلام المديرية فورا. وكان في وسعه ان يكون اول الداخلين اليها، بشرط ان يرافقه احد مفتشي الآثار.

اما المسألة الحساسة، وهي توزيع العمل، فقدعولجت بطريقة مرتجلة. وكان هناك عرف غير مكتوب يقولبان المومياءات والاكفان والنواويس يجب ان تبقى ملكا للدولة، في حين توزع محتويات المقابر التي سبق ولوجها في الازمنة الغابرة على المنقب ومديرية الآثار بالتساوي. واذا تم العثور على مقبرة نجت من النهب على ايدي اللصوص في القدم - وهو امر لم يكن قد تحقق حتى ذلك الوقت - فان كنوزها تذهب كلها الى الدولة.

وباشر اللورد كارنارفون اعمال الحفر بحماسة فور حصوله على الترخيص ولكن على نحو يعوزه الانضباط والنظام. ولزم عمله يوما بعد يوم طوال ستة اسابيع، وسط سحب كثيفة من الغبار. وجعله ازدياد الغبار يدرك انه يحتاج الى خبير يساعده وحين قدم ذاك الخبير اخيرا، كان شخصا غريب الاطوار يدعى هوارد كارتر.

مسحة من العناد

كان كارتر سليل بيت متواضع. وقد ولد في كنسنغتون، (انكلترا) عام

١٨٧٤، وكان ابوه رساما بالالوان المائية، اختص في وضع رسوم للحيوانات التي كان يملكها اريستوقراطيون. وكان الاب فقيرا فعلم ابنه في البيت ولم يرسله الى المدرسة. واكتسب الولد حرفة ابيه، وبدا انه كان مقيضا له الاستمرار في تلك المهنة التي لا فائدة ترجى منها، وهي رسم الحيوانات والمناظر الريفية المبتذلة.

الا ان تغيرا كليا طرأ على حياة كارتر صيف ١٨٩١. فقد عرض الاستاذ بيرسي نيوبيري من متحف القاهرة على احدى معارفه القديمات في انكلترا، الليدي امهرست اوف هاكين، رسوما لكتابات هيروغليفية منسوخة عن تماثيل قديمة، طالبا ان تدله على شخص لديه القدرة على اكمال الرسوم. فما كان من الليدي امهرست الا ان اقترحت اسم هوارد كارتر الذي يعيش في جيرتها، وكان آنذاك في السابعة عشرة من عمره.

وهكذا تم توظيف كارتر الذي عمل ثلاثة اشهر في المتحف البريطاني قبل ان ينضم الى مؤسسة خاصة مرتبطة بالمتحف، تتولى اعمال التنقيب في ارض النيل. وبعد حين اصبح كارتر مساعدا لاحد اهم علماء الآثار المصرية، وهو السير وليم فلندرز بيتري. وبين عامي ١٨٩١ و١٧٩٨، راح كارتر ينسخ بتؤدة، بواسطة الالوان المائية، الرسوم والنقوش التي كانت تزين جدران معبد "دير البحري" الخاص بدفن الموتى.



هوارد كارتر بريشة شقيقه وليم (١٩٢٤).

كان كارتر رجلا قصيرا، ممتلىء الجسم. وعلى مقدار كبير من القوة البدنية، وقد لزم عمله طوال فترة تدربه. وكان شخصا صارما وذا اندفاع بالغ، ولكن يعوزه المرح.

وعلى رغم افتقاره الى الدراسة التقليدية، فقد اكتسب اصول الآثار بسرعة. ويبدو انه كان يتصف بمسحة من العناد وحدة في الطبع. غير ان انصرافه التام الى عمله وحماسته اكسباه تقدير رؤسائه.

وفي العام ١٨٩٩، عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، عينه السير غاستون ماسبيرو، وهو فرنسي متفوق كان يشغل منصب مدير الآثار المصرية، مراقبا للتماثيل في مصر العليا والصحراء النوبية.

وسارت مهمة كارتر في مديرية الآثار على أتم وجه حتى العام ١٩٠٣، حين انقطعت نهائيا. وقصة تلك النهاية ان السير وليم بيتري، الذي كانت ترافقه زوجته وثلاث شابات متدربات، كان يعمل على نسخ الكتابة الهيروغليفية على مقبرة في سقّارة. وحسب رواية بيتري، دخل بعض الرجال الفرنسيين السكارى المخيم في احدى الامسيات طالبين ادلاء يرافقونهم في جولة سياحية، ثم حاولوا اقتحام ركن النساء. فطلب بيتري نجدة كارتر الذي وصل الى المكان ومعه زمرة من المصريين العاملين لحساب مديرية الآثار. وحصل عراك رمي فيه احد الرجال الفرنسيين ارضا.

ورفع الفرنسيون شكوى شديدة اللهجة الى ماسبيرو، حملت القنصل الفرنسي العام على طلب اعتذار رسمي. لكن كارتر رفض الانصياع.



اللورد كارنارفون.

فبذل ماسبيرو، الذي كان يكن مقدارا كبيرا من الود لكارتر المتصلب، قصارى جهده لاقناعه باصدار اعتذار شكلي اكراما للصداقة الانكليزية - الفرنسية. الا ان كارتر، الذي لم تكن التوافه السياسية تعني له شيئا، رفض الاعتذار. فاضطر ماسبيرو آسفا

الى تسريحه من الوظيفة٠

وخلال السنوات الاربع اللاحقة، واجه كارتر ظروف عيش قاسية٠ فعمل دليلا سياحيا، وباع رسومه المائية للسياح، وتعاطى من وقت الى آخر تجارة "الانتيكا" (كما يسمي المصريون السلع القديمة)٠ وعندما قدمه ماسبيرو وبجزع الى اللورد كارنارفون ليعمل لديه خبيرا في الآثار، كان سريعا جدا الى القبول٠ وكان ذلك تدبيرا رائعا للاثنين، لان هوارد كارتر كان محترفا فضلا عن كونه رهن الاشارة وبخس الثمن٠

مقاعد الصمت الابدي


ان المسرح الذي كانت ستجري عليه الاحداث التي اشترك في تمثيلها توت عنخ امون واللورد كارنارفون وهوارد كارتر كان مكانا مهيبا هو وادي الملوك٠ والاسم نفسه مليء بالخيال والشعر٠ غير انه يعسر على المرء ان يتصور مكانا اشد بعدا وكراهة وسخونة ووحشة٠

وكان الناس في الازمنة الغابرة، كما هي الحال اليوم، يذهبون الى الوادي من طيبة، وهي اليوم مدينة الاقصر، الواقعة على نهر النيل على بعد ٧٠٠ كيلومتر جنوب القاهرة٠ وكانت وراء النهر ارض منبسطة يبلغ طولها خمسة كيلومترات او اكثر، حولتها الفيضانات الموسمية الى ارض وافرة الخضرة٠ اما الحد الفاصل بين الارض الصالحة للزراعة والصحراء فلم يطرأ عليه سوى تغير طفيف لم يتجاوز امتارا معدودة خلال آلاف السنين٠ وعند ذلك الحد ترتفع الصحراء تدريجيًا الى ان يتعاظم ارتفاعها ليبلغ ذروته في شكل منحدر صخري شاهق يعرف باسم دير البحري٠ وفي اسفل هذا المنحدر يقوم وادي الملوك٠

لقد كان المصريون القدماء يعتنقون عقائد، من اهمها ان يكون المرء مجهزا بعد الموت لملاقاة كل ما يواجهه في الحياة الثانية، وان يبقى جسده سليما في المكان المعد له٠ وسعى الملوك الاوائل الى تحقيق هذا الغرض عن طريق تشييد اهرام فوق اجسادهم المائتة، وهي جبال مرتفعة من الحجار، ولم يألوا جهدا في ابتكار كل ما توحيه العبقرية وشراء كل ما يوفره المال من اجل ذلك الغرض٠ وكانت مداخل ضرائحهم مسدودة بحجار صوان يزن الواحد منها اطنانا٠ وقد اقيمت ممرات وابواب خفية داخل المقابر، لكن ذلك كله لم يكن مجديا٠ ففي الصراع المستديم بين الذين حاولوا اخفاء كنوزهم الى الابد واولئك الذين طفقوا يبحثون عن تلك الكنوز لسلبهم اياها، لم تكتب الغلبة للساعين الى التخفي٠

ومع بداية حكم السلالة الثامنة عشرة في حدود العام ١٥٨٠ قبل الميلاد، قل ان يوجد بين مقابر الملوك في مصر واحدة لم تنهب٠ غير ان الملك تحوتمس الاول كسر التقليد بعنف حين قرر اقامة غرفة دفن مستورة كليا٠ تحت الارض٠ ووقع اختياره على واد عند سفح المنحدر الصخري العظيم، يشرف على النيل من عاصمته طيبة٠

واقتفى ملوك السلالة الثامنة عشرة جميعا خطى تحوتمس٠ وكانت النتيجة ان سرقات المقابر في


البحر الأبيض المتوسط
الاردن
فلسطين
الشمال
القاهرة
السويس
سيناء
النيل
وادي الملوك
مدخل مقبرة
توت عنخ آمون
وادي الملوك
الكرنك
الاقصر
٥٠
٢٥
بالاميال
البحر الأحمر

عهدهم الذي استمر ٥٠٠ سنة، كانت قليلة جدا. لكن هذا النوع من السرقة ما لبث ان تفشى كالوباء في ايام السلالتين التاسعة عشرة والعشرين (بين العامين ١٣٢٠ و١٢٠٠ قبل المسيح). ومع الوقت، انتهكت حرمات جميع الملوك العظام.

لقد شغف كارتر بالطابع الموحش لوادي الملوك، كذلك بتاريخه وبما سماه "شعورا دينيا ينبثق منه بعمق حتى ليبدو مصبوغا بحياة خاصة به". وغالبا ما احب كارتر ان يكون هناك بمفرده، راكبا ظهر حمار ومدفوعا بالمهابة التي تثيرها "الصخور الوحشية" التي لا تنتهي. كل شيء هناك كان ميتا وابكم. واحيانا كان مرعبا ان يمر المرء عبر الشعب الصحراوية الصخرية، الملتفة وغير المطروقة، الى المقابر نفسها التي سميت في الازمنة الغابرة "مقاعد الصمت الابدي العظيمة."

واحتفظ كارتر على مر السنين بسجل دقيق لكل اكتشاف اثري، مهما يكن تافها، مدونا ما يعرفه حول كل ضريح ملكي او مومياء. ومنذ اول عهده بالمهنة بدأت تتكون لديه قناعة بان وادي الملوك لم يكن كشف عن جميع اسراره بعد، على رغم ان كل عالم او باحث عن الكنوز كان يؤمن انه استنفد المنطقة برمتها.

ولكن في العام ١٨٧٥ حصل اغرب اكتشاف وكان ذلك في دير البحري. فقد عثرت جماعة من لصوص المقابر المحترفين، وهي من عائلة عبد الرسول، على غرفة محفورة في الصخر تحتوي على مومياءات ٤٠ ملكا من السلالات الثامنة عشرة حتى الحادية والعشرين، كانت موضوعة كلها في غرفة واحدة في محاولة سريعة لاحباط خطط اللصوص.

ولدى مشاهدته الكنز الذي لم يسبق العثور على مثيل له، اقسم رئيس عائلة عبد الرسول على كتمان الامر. غير ان الطمع استولى عليه، فما لبثت السلع الملكية الغنية ان نزلت الى سوق "الانتيكا". وتناهت القضية الى مسمع حاكم المنطقة داود باشا.

وكانت لداود طريقة فذة وبسيطة في الاستجواب، وهي تحديق النظر الى المشبوه بعينين ليس في مصر نظير لهما من حيث القسوة والحقد. وقد سبق لاحد عمال كارتر، وكان لصا في حداثته، ان اقتيد الى داود الذي كان قابعا في برميل ماء، مغمورا حتى العنق. وكان يكفي المرء ان يرى رأسا ضخما مدورا يفصله الماء عن جسمه وعينين سوداوين وحشيتين ليضطرب لتوه. ويصف كارتر المشهد كما يأتي:

من كرسي حكمه غير التقليدي، نظر داود الى العامل ولم يفعل شيئا آخر، "فنفذت عيناه"، كما يقول المسكين، "الى داخلي، وأحسست بأن عظامي استحالت ماء. ثم قال بهدوء شديد: هذه هي المرة الاولى التي تظهر امامي. واني اطلقك بشرط ان تكون حذرا، فلا تظهر هنا مرة اخرى. واعتراني خوف شديد حفزني على تغيير مهنتي".

ولجأ داود الى الطريقة نفسها مع احد افراد عائلة عبد الرسول. فأقر هذا بما حصل وقاد السلطات الى داخل الغرفة. وهناك، في ضريح قليل العمق، كانت بقايا اعظم الملوك سلطانا في مصر القديمة قابعة في

أسمال بالية ولكن من غير ان تمس. وعلى التوابيت الخشبية الخالية من الزخارف الثمينة (التي سرقها اللصوص منذ زمن طويل)، وعلى اقمطة الكتان التي كفنت بها المومياءات كان الكهنة قد دونوا روايات مصورة عن رحلات الملوك. وبهذه الطريقة امكن التعرف بدقة على كل ملك، وهو امر خطير بالنسبة الى كارتر الذي لم ينس بعد سنوات طويلة اسماء الملوك الذين كانوا لا يزالون مفقودين.

وكان ذلك الاكتشاف الضخم كافيا لاقناع المؤرخين هذه المرة بان وادي الملوك استنفد حقا. غير انه حدث، في العام ١٩٠٢، ان المليونير الامريكي تيودور ديفيس حصل على ترخيص بالعمل هناك. وعثر عام ١٩٠٧ على عدد من الاشياء التي حملت معها دلالة مباشرة على الملك توت عنخ أمون.

وفي السنة التالية وجد حفرة بسيطة على تلة بالقرب من مقبرتين اخريين معروفتين. ولم تحمل الحفرة اي اشارات تدل على وجود شيء في الداخل. غير ان ديفيس عثر فيها على قرابة ٤٠ جرة مملوءة بالكتان وعدد من الكؤوس الخزفية وما شابهها، مما ثبط عزيمته. لكنه لم يشك في ان تلك البقايا غير الخلابة كانت ذات علاقة بتوت عنخ أمون. ووجد ان "غطاء احدى تلك الجرار كان مكسورا وقد لفت حوله قطعة قماش كتب عليها اسم توت عنخ أمون". الا ان البقايا نفسها كانت تافهة بحيث لم يكترث لها احد.

وما لبث ديفيس ان اعلن خلو وادي الملوك من كل شيء جديد، وتخلى عن حقوقه. وكان ذلك قبيل حصول اللورد كارنارفون وهوارد كارتر على الترخيص بالعمل هناك. وبعد موافقته على الترخيص، اسر لهما ماسبيرو بأنه يظن ان الاشياء التي قد يعثران عليها لن تكفي بدل تعبهما. لكن كارتر كان مقتنعا بان مقبرة فرعون واحد آخر كانت لا تزال في وادي الملوك، وان ذلك الفرعون هو توت عنخ أمون.

المواسم العجاف

ان النظرة التقليدية الى اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون تذهب الى القول بان كارتر عثر عليها مصادفة، اي بضربة حظ قوية. غير ان الواقع كان على نقيض هذا الاعتقاد، وهو ان كارتر أجرى حسابات دقيقة على مدى سنوات كان فيها توت عنخ امون شغله الذهني الشاغل. وفيما كان يحاول مع كارنارفون اكمال خطة لحملة مفصلة تبدأ في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٤، اندلعت الحرب العالمية الاولى، فأدى هذا الى تعليق الامور موقتا.

واستأنف الاثنان حملتهما في خريف ١٩١٧. وكان قرار كارتر ان يتجاهل الحفريات التي جرت سابقا ويبادر الى الحفر مجددا بغية الوصول الى الطبقة الصخرية السفلى. وارتأى ان يعمل على ارض مثلثة الشكل تقوم عليها مقابر الملوك رعمسيس الثاني ومرنفتاح ورعمسيس السادس. كما ارتأى، بناء على الدراسات السابقة، ان تلك البقعة مرشحة اكثر من سواها لان تضم مقبرة توت عنخ أمون.

ولكي يضمن لعمله المنهجية التامة،

ابتكر كارتر طريقة الشبكة المتسامتة، اي ذات الخطوط الافقية والعمودية المتساوية، على غرار الحواجز المدفعية التدريجية ذات الفعل المدمر في الحرب. وكان مزمعا على تنفيذ مخططه كاملا من دون تغيير.

وعلى رغم ان مساحة قطعة الارض المثلثة لم تتجاوز الهكتار، الا ان العمل كان هائلا. فهناك عشرات آلاف الامتار المكعبة من الرمل ورقاقات الحجار والجلاميد التي تجب ازالتها. وبما ان التجهيزات الآلية لم تكن متوافرة في تلك الايام، فقد وقع العمل على عاتق الصبية والرجال الذين استخدموا المعاول والمعازق والسلال الصغيرة التي كانوا يملأونها ويفرغونها من دون توقف.

في موسم العمل الاول، وصل كارتر عمقا حتى اسفل بوابة قبر رعمسيس السادس. وعلى بعد عشرة امتار او ١٥ مترا امكنته مشاهدة الاساسات القديمة لاكواخ العمال التي اقيمت فوق كتلة من حجار الصوان الضخمة. وكانت الصخور المدورة تلك علامة اكيدة على وجود مقبرة قريبة. غير ان كارتر توقف عن الحفر فجأة وطلب من عماله التوجه الى طرف المثلث المقابل.

وانه لامر غريب جدا ان يكون كارتر فعل ذلك. وربما قدر ان الاكواخ ترجع الى زمن رعمسيس السادس الذي جاء بعد توت عنخ امون بمئتي سنة. وعلى كل حال فقد بدأ الحفر في الطرف الآخر من المثلث. ولم يظهر في الشهرين التاليين اكثر من الغبار والحجار.

وكان الموسم الثاني، الذي بدأ في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٨، افضل قليلا من السابق. وكان في نية كارتر تنظيف كل ما تبقى من المثلث. واستغرقت ازالة الانقاض السطحية ستة اشهر قبل ان يبدأ الانحدار الى الصخور العذراء. وبعيد وصول كارنارفون وزوجته في زيارتها الاولى، عثر الفريق على ١٣ جرة مرمرا تحمل اسمي رعمسيس السادس ومرنفتاح، وهو الامر الوحيد الذي يمكن ان يسمى اكتشافا خلال سنتين تقريبا.

اما الموسم الثالث والرابع والخامس، التي استمرت من ١٩١٩ حتى ١٩٢٢، فلم تخلف شيئا سوى اشهر من العمل الذي يقصم الظهور فضلا عن الاجور الباهظة التي صرفت على فريق العمل الكبير. وبدأ اللورد كارنارفون يفقد اهتمامه في الامر، واخذت صحته تخبو على رغم انه لم يتجاوز السابعة والاربعين. ولاحظ اصدقاؤه وافراد عائلته استغراقه في فترات طويلة من الصمت على نحو مطرد. واستمر المه الجسدي وارهاقه الروحي والنفسي حتى كاد ان ينهي رعايته لعلم الآثار المصرية.

وزاد مزاجه فسادا الموقف الجديد لمديرية الآثار. وعند هذه النقطة من الرواية ينبغي تقديم شخصية لعبت دورا رئيسيا في المسائل المتعلقة بتوت عنخ أمون. والشخصية التي نعني هي مدير الآثار المصرية بيار لاكاو الذي خلف السير غاستون ماسبيرو عام ١٩١٧. وقد كان لاكاو عالم آثار بارعا وقديرا جدا وفخورا بمواهبه الادارية. وكان في امكانه

ان يتكلم بلا انقطاع وبمهارة في عشرات المواضيع. وكان عمله من الدقة بحيث قيل انه "يحفظ فهارس للفهارس".

وكان اختيار ماسبيرو قد وقع شخصيا على لاكاو كخلف له. ولكن في حين كان ماسبيرو على قناعة راسخة بانه ينبغي تشجيع المنقبين الاجانب عن طريق وعدهم بالحصول على نصف الموجودات على الاقل، اصر لاكاو على ان لمدير الآثار الحق، بالنسبة الى كل الاكتشافات، في ان يأخذ ايا من الموجودات او كلها لمصر. واثار هذا الموقف اشمئزاز هوارد كارتر الذي كان من دعاة سياسة عدم التدخل الحكومي في شؤون المنقبين.

وفي العام ١٩٢١ ظهر اكتشاف مهم في احدى غرف الخزن التابعة لمتحف المتروبوليتان في نيويورك. وكان هيربرت وينلوك، مدير المتحف السابق، حصل للمتحف على بعض الاشياء الثانوية التي عثر عليها تيودور ديفيس. وعندما سنحت له الفرصة لتفحص تلك الاغراض، وقع نظره على اشياء لم يشاهدها احد من قبل. ومكنته تلك الملاحظة من ان يبرهن على ان بعضا من المواد يعود الى مراسم تحنيط توت عنخ أمون. وكانت بين المواد المذكورة ادوات استعملت خلال مأدبة الدفن التي اقيمت داخل المقبرة قبل قفلها للمرة الاخيرة. وكان ذلك دليلا قاطعا على ان توت عنخ أمون دفن في وادي الملوك.

وما كان من وينلوك الا ان اعلم كارتر فورا بالامر. فابتهج هذا، فيما قرر اللورد كارنارفون ان يستمر في تقديم العون المالي خلال الموسم اللاحق.

مقبرة العصفور المذهب

وصل كارتر الى وادي الملوك في ٢٨ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢٢ استعدادا للموسم "الاخير". وقضى بضعة ايام في نقل المعدات واستقدام العمال، ومراجعة مخططات العمل بمساعدة المقدمين الثلاثة من رجاله. ولم تكن المعدات كلها ذات علاقة خالصة بالآثار، اذ كان بينها عدد كبير من علب اللحم وصناديق كعك خاصة ووفرة من اجود الخمور التي اختارها كارنارفون بعناية من محلات "فورتنام آند ماسون"، متعهدة تموين الاريستوقراطيين ذات الشهرة العالمية. وكانت صناديق الخشب الوافرة المميزة مشدودة بأحزمة فولاذية، وقد كتبت على كل منها اسماء محتوياتها كتابة دقيقة، حتى بات ممكنا ان يخال الزائر الطارىء نفسه في محلات "فورتنام آند ماسون على النيل"!

وحمل كارتر معه كنارا ليحيي وحشة بيته. وسرعان ما اصبح الكنار محبوبا من العمال والمقدمين. واطلقوا عليه اسم "العصفور المذهب"، ناظرين اليه كرمز للنجاح.

وفي اليوم الاول من نوفمبر (تشرين الثاني)، بدأ كارتر العمل على البقعة التي سبرها قليلا وتوقف قبل خمس سنوات، وهي البقعة التي تقوم عليها اساسات اكواخ العمال. ولدى حلول مساء اليوم الثالث، كان في امكان كارتر ان يرى تحت الاكواخ قرابة متر من التراب القديم الذي يفصل الاكواخ عن طبقة الصخور

السفلية. وهناك كان مزمعا ان يعمل في اليوم التالي.

وعندما وصل كارتر في الصباح فوجيء بصمت غير عادي بين العمال الذين كانوا في العادة يثرثرون طوال النهار. والفكرة الاولى التي راودته كانت ان حادثا حصل. لكن احد المقدمين اعلن الخبر، وهو الوقوع على درجة محفورة في الصخر. وبعد اجراء قليل من التنظيف، وجد كارتر نفسه في مدخل حفرة صخرية عميقة، دل شكلها على انها درج مغمور يؤدي الى مقبرة ملكية.

واستمر العمل على نحو محموم طوال ذلك النهار والنهار التالي. واشار شكل الدرجات الى ان المقبرة ترجع الى السلالة الثامنة عشرة التي ينتسب اليها توت عنخ امون. وبدأ كل شخص هناك مشدوها، واخذ بعض العمال يتكلم عن المقبرة على انها "مقبرة العصفور المذهب"، عازيا الحظ السعيد الى كنار كارتر.

وكان الدرج المحفور كله في الصخر ينحدر بزاوية تبلغ ٤٥ درجة ليصل الى هضبة صغيرة. ومع بروز درجات اضافية، ظهر سقف فوق الطرف الغربي واتخذت الدرجات شكل نفق سحيق. وقبيل الغروب، وقع كارتر عند الدرجة الثانية عشرة على الجزء الاعلى من باب شيد بحجار كبيرة جصص بعضها فوق بعض ووضعت عليها اختام وكتابات هيروغليفية. وفي حمى الترقب راح يفتش الاختام، التي يبلغ كل منها حجم اليد، بحثا عن اسم صاحب المقبرة. وكان ينبغي ان يكون هناك اسم، اذ كانت تلك القاعدة مطردة ومقدسة في وادي الملوك. وحين لم يعثر على اسم، استنتج كارتر ان المقبرة لم تكن تؤوي ملكا.

ولو ذهب كارتر اعمق قليلا لوجد اختاما عليها اطار بيضوي مزخرف يحمل اسم "نبخفرورا"، وهو الاسم الملكي لتوت عنخ امون، ولكان، كما قال هو، وفر على نفسه عناء ثلاثة اسابيع واكثر من القلق. غير انه لم يفعل لسبب عملي هو ان الوقت كان متقدما ولم تكن الانوار الكهربائية مؤمنة في ذلك الجزء من الوادي. وكان عليه ان يكرس الساعات الباقية من النهار لتغطية الجزء المنظف من الدرج حماية له قدر المستطاع. وكان ثمة سبب آخر متعلق بكرم الخلق، وهو التوقف عن العمل ريثما يصل راعيه، كارنارفون، من لندن. وكان ذلك عذرا لائقا.

وهكذا اعاد كارتر ملء الحفرة على مضض. وبعدما اختار من العمال ادعاهم الى الثقة لحراسة المكان نهارا وليلا، غادر الوادي مؤقتا.

وفي اليوم التالي ارسل برقية الى كارنارفون وطلب مساعدة عالم الآثار البريطاني ا.ر. "بيكي" كالندر. وكان في امكان كالندر ان يتولى اي عمل يعهد اليه في مواقع التنقيب عن الآثار، وكان، كما لاحظ وينلوك، "احد الزملاء القلائل الذين تمكنهم ملازمة كارتر وقتا طويلا من دون فقد عقولهم". وخلال انتظاره وصول كارنارفون، اشترى كارتر المعدات اللازمة لتأمين الكهرباء للحفريات المرتقبة. وسار العمل من غير عائق.

ثم وقع حادث هز العمال بعنف: لقد قضى "العصفور المذهب"، بشير الحظ

السعيد، في ظروف غريبة. ووصف وينلوك الحادث لاحقا في رسالة الى زميل بقوله: "ذهب كارتر الى القاهرة لملاقاة كارنارفون. وكان كالندر يقيم وحده في منزل كارتر ويعتني بالعصفور. وبعد ظهر احد الايام سمع رفرفة صاحبها صوت قصير حاد، واذ به يبصر في القفص صلا كان يزدرد العصفور.

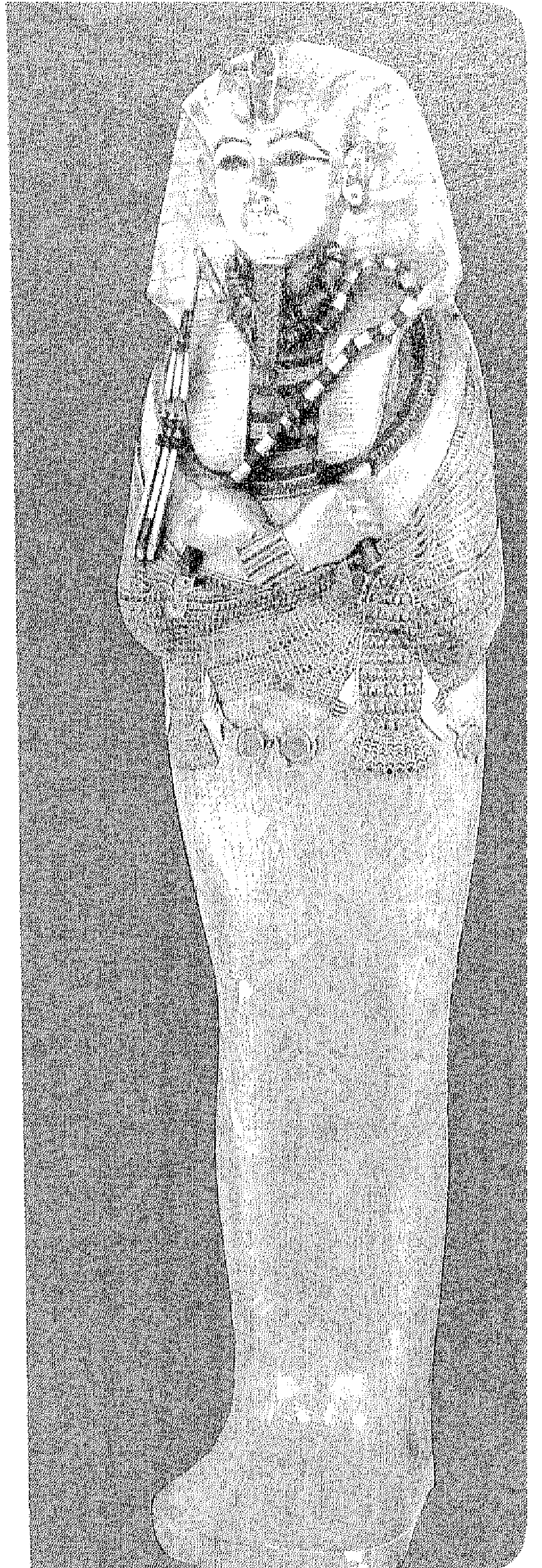
"وكما يعرف جميع الاهالي المحليين، كانت الافاعي من نوع الصل تنمو على رؤوس الملوك الاقدمين. لذلك بدت النتيجة واضحة، وهي ان افعى الملك انقضت على جالب الحظ الذي باح بسر المقبرة. وكانت النتيجة واضحة كذلك، بالنسبة الى العمال المحليين على الاقل، وهي انه سيموت شخص ما قبل انقضاء الشتاء".

"اشياء رائعة"

في ٢٣ نوفمبر (تشرين الثاني) وصل اللورد كارنارفون وابنته المفعمة، حيوية ايفلين هيربرت الى الاقصر ومعهما كارتر.

وفي صباح اليوم التالي ازال العمال الركام عن الدرجات الباقية. وعندئذ تمكن المنقبون من فحص الدرج المختوم بكامله. وكانت الاختام في الجزء الاسفل تحمل اشارات واضحة نسبيا. واستطاعوا قراءة اسم توت عنخ امون على عدد منها.

واعقب ذلك لحظة من الابتهاج فها هو حلمهم الاروع يتحقق اخيرا. ولدى استئناف التدقيق يوم ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني)، اكتشفوا دليلا على وجود فتحتين وقفلين على الاقل لجزء



كفن توت عنخ امون الأخير الذي وصفه كارتر بانه "سبيكة ذهب صرف، على مقدار كبير من الضخامة".

من الباب. وهذا يعني ان المقبرة لم تسلم من عبث اللصوص. لكن السرقة لا يمكن ان تكون حدثت بعد تشييد مقبرة رعمسيس السادس، اي بعد ٢٠٠ سنة من زمن توت عنخ امون. وتمسك كارتر وكارنارفون بالرجاء الذي استمداه من كون المقبرة اعيد ختمها مرتين باحكام. فالختم علامة على ان اللصوص لم ينهبوا كل شيء.

وحضر كبير مفتشي مديرية الآثار، ركس انغلباك، الى المكان ذلك اليوم بناء على الحاح لاكاو. وبذل كارتر جهدا لكي يوضح لانغلباك ان الثغرات التي اعيد سدها في القدم دليل على ان المقبرة لم تسلم من الزيارات غير المشروعة.

واستمر الحفر طوال صباح ٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني)، وكان العمال يملأون السلال واحدة بعد الاخرى. وعلى بعد عشرة امتار من الباب الاول، عثر الفريق على باب آخر عليه اختام تحمل اسم توت عنخ امون الملكي.

لقد كانت اللحظة التي لا تصدق. وارتعشت يدا كارتر وهو يتناول قضيب حديد من كالندر ليحفر ثقبا صغيرا في زاوية الباب العليا الى اليسار. واضاء شمعة وقرب لهبها الى فتحة الباب تحريا للغازات الفاسدة. ثم وسع الفتحة ونظر الى الداخل.

وما حدث بعد ذلك يصفه كارتر في قطعة من اكثر قطع ادب الآثار حيوية وشهرة:

حملت الشمعة ودخلت، وكان اللورد كارنارفون والليدي ايفلين وكالندر يقفون قلقين الى جانبي. ولم استطع، في البداية ان اتبين شيئا اذ كان الهواء الساخن المتسرب من الغرفة يحدث ذبذبة في لهب الشمعة. ولكن عندما اعتادت عينياي الضوء، اخذت تفاصيل الغرفة ترتفع رويدا رويدا من خلال الضباب. وكانت هناك حيوانات غريبة وتماثيل وذهب، وكان بريق الذهب يملأ المكان. وفي تلك اللحظة التي بدت دهورا للواقفين هناك، اخرستني الدهشة. وعندما سألني اللورد كارنارفون، الذي لم يطق مزيدا من الارجاء، بترقب قلق: "هل يمكنك ان ترى شيئا"؟ كان كل ما امكنني قوله الكلمات الآتية: "اجل، اشياء رائعة".

وتجدر الاشارة الى ان رواية كارتر المنشورة، بالاضافة الى عشرات بل مئات الروايات التي تصف تلك الدقائق الساحرة، تذهب الى ان المكتشفين الاربعة اكتفوا بالنظر الى غرفة المقبرة الاولى التي سميت بعد ذلك "حجرة الانتظار"، ثم سدوا الفتحة وغادروا. والواقع ان رواية كارتر غير صادقة، وان الاحداث الصحيحة مدونة في قسم الآثار المصرية في متحف المتروبوليتان للفن، كذلك في ثلاث ملاحظات مجهولة نشرها في مجلة علمية بين ١٩٤٥ و١٩٤٧ الفرد لوكاس، وهو انكليزي شارك في اعمال التنقيب.

وتبين مقالات لوكاس ان كارتر كتب سطورا سريعة الى انغلباك يعلمه فيها بازالة الركام عن الباب الداخلي ويسأل الحكومة ان ترسل مفتشين الى المكان. لكن الرسالة وصلت الى دائرة الآثار في الاقصر متأخرة عند المساء بحيث لم يتمكن انغلباك من الرد عليها وعندئذ توجه كارتر الى الباب.

وكان ان اثار هذا الاكتشاف

الهائل، بعد سنوات مضنية من العمل غير المثمر، شعورا بالنشاط والخفة. وقد يكون اول من طرح فكرة التسلق الى المقبرة اللورد كارنارفون او الليدي ايفلين، ولكن لا سبيل الى التأكد من اي منهما فعل. غير ان كارنارفون كتب مسودة مقال لم تنشر اطلاقا، يصف فيها الانطباعات الاولى لدى افراد الفريق، ويقول ان كارتر جعل في الباب فتحة كبيرة تكفي للقفز الى غرفة الانتظار. وبما ان ايفلين كانت اقصر شخص بينهم، فقد كانت الاولى في الدخول، ثم تبعها الآخرون.

لم تكن حجرة الانتظار واسعة، بل كانت بطول ثمانية امتار وعرض ٣،٧٠ امتار وارتفاع مترين ونصف متر. وقد "كدّس الى جانب كل جدار منها، "بفوضى ولكن فوضى منظمة" على حد تعبير كارتر، كنز من الاشياء. وبدا كل شيء جديدا على نحو لا يصدق. ومن تلك الاشياء هاون استعملت لاعداد الجص الذي كسا الباب، ومصباح بدا كأنه اطفئ قبل برهة، وعلامة اصبع فوق الدهان، وازهار محفوظة على نحو رائع تركت على العتبة. وكانت الخصوصية الملازمة لتلك الاشياء ونسمة الحياة العميقة التي لم تفارق الغرفة القديمة عاملين جعلا اعضاء الفريق ينظرون الى انفسهم كمعتدين.

وبدت بعض محتويات الغرفة، لدى تسليط النور البراق، عليها، مبعثا على الرهبة في نفوس الحاضرين. فقد تأرجحت على الجدار الغربي طيوف ثلاث ارائك مطلية بالذهب، وكانت جوانبها المحفورة على هيئة حيوانات جبارة تلقي على الحائط ظلالا ضخمة. وكانت على يمين المدخل مباشرة منحوتتان سوداوان تمثلان الملك في حجمه الطبيعي وتواجه احداهما الاخرى في شكل حارسين يرتدي كل منهما لباسا نصفيا من ذهب ويحمل عصا وصولجانا مذهبين ايضا. وكان شكل المنحوتتين مهيبا، وقد بقيتا في وضع ممتاز.

تلك كانت الاشياء الاولى التي لفتت الباحثين. لكن ثمة مئات من الاشياء الاخرى كانت مكدسة بعضها فوق بعض حول الاشياء الرئيسية. ومن تلك الاشياء علب جواهر صغيرة، مصبوغة ومرصعة، تجل عن الوصف، وآنية زهر مصنوعة من المرمر، ومقامات سوداء غريبة الشكل، مقفلة ومختومة، ومجموعة عرضية من العلب البيضاء تبدو الواحدة منها مثل بيضة عملاقة، ومركبات مكسوة بالذهب، وصورة للفرعون تكاد لا تظهر بين تلك الاشياء.

وعلى رغم الدهشة التي اعترته، كان كارتر يبحث عن شيء يفوق تلك الاشياء اهمية بالنسبة اليه، الا وهو الدليل على وجود حجرات اخرى. وعثر على الدليل المنشود في الجدار على الناحية الجنوبية الغربية حيث وقع نظره على فتحة صغيرة. وحدق من خلال تلك الفتحة فرأى غرفة اخرى مكتظة بالاشياء. وتولدت لديه قناعة بان اللصوص استعملوا تلك الغرفة، التي سماها "الحجرة الملحقة"، لتفحص الكنوز وتعريتها من الذهب.

ولكن اين كان الناووس والمومياء؟

اللحظة المثيرة

بالاضافة الى مدخل الحجرة الملحقة، كان هناك باب واحد آخر. وكان ذلك الباب حاجزا مكسوا

بالجص ومختوما، يقوم بين الحارسين الاسودين المذهبين. وصعق كارتر حين وجد ان اللصوص تسربوا من ذلك المكان ايضا. وكانت في وسط الباب من اسفل لطخة شبه دائرية شبيهة بتلك التي وجدت على البابين الخارجيين. ولكن ظهرت على الجزء الجديد مجموعة اختام مدينة الموتى، وهي علامة اكيدة على ان الكهنة سدوا الفتحة بعد مغادرة اللصوص. غير ان الطلاء وضع بسرعة اذ كانت هناك شقوق كبيرة في الجانب السفلي ظهرت من خلالها حجار غير منتظمة.

ولم يستغرق كارتر سوى دقائق معدودة في رفع بعض تلك الحجار. وحين وجه ضوءه الكشاف من خلال الفتحة، لم ير سوى ممر ضيق ينتهي عند جدار مسدود. وقفز كارتر من الفتحة. فيما كان الآخرون ينظرون. وكان الممر على عمق متر تقريبا من حجرة الانتظار. ولبضع ثوان، بدا ان كارتر اختفى.


وحين وقع على موطىء لقدميه، سلط الضوء الكشاف على الجدار الغربي للممر فوجد بابين كبيرين جدا لمقام خارجي. وكان البابان مقفلين من دون ختم ومزينين بذهب وخزف أزرق مزخرف على جمال يخطف الانفاس. ولم يكن ذاك ممرا على الاطلاق، وانما كان غرفة الدفن نفسها.

وتمكن اللورد كارنارفون وايفلين هيربرت من عبور الفتحة الى الداخل، لكن كالندر، وهو ممتلىء الجسم، لم يفلح في ذلك. ويبدو ان كارتر قرر الا يوسع الفتحة. فقد تراءى لهم جميعا انهم على وشك الاقدام على مغامرة لا يسمح بها الترخيص الرسمي. غير ان الخرق كان قد حصل، ولم يكن من تراجع عنه.

وفيما هم يتفحصون ابواب المقام الازرق الذهبي الهائل، تشاوروا حول الاقدام على فتحه اذ لم يكن ذلك يحق لهم. لكنهم كانوا اولا، علماء آثار، وكانوا بشرا.

واخيرا رفعوا المزلاجين المصنوعين من الابنوس. وسحب كارتر الباب الضخم المزدوج على مهل في البداية، لكنه لم يتزحزح، عندئذ شده بقوة اكبر، فكانت حركة مفاجئة حادة وانفتح الباب. وكشف الضوء عن ثوب كتان معلق، كان من الشفافية بحيث بدا مصنوعا من ذرات الهواء عينها. وقد تدلت منه ورود مشغولة بالبرونز والذهب، وكانت، كل وردة في حجم قطعة نقود. ولمس كارتر واحدة منها فسقطت في يده كأنما بقيت منتظرة ٣٢٠٠ سنة كي تنتزع. وبعدما وضعها في جيبه، ازاح الثوب بحذر ليجد وراءه بابا لمقام آخر. وكان هذا مطليا بالذهب على نحو رائع ومغطى بالكتابة الهيروغليفية. وفي الوسط، فوق رزتين كبيرتين من البرونز، كان حبل مجدول وملفوف باحكام وممهور بختم مدينة الموتى الملكية الذي لم يمس على الاطلاق. وفي صوت هادىء مكبوت، اعلن كارتر ان الملك كان يقبع هناك آمنا. وعلق لاحقا ان تلك اللحظة كانت اكثر لحظات حياته اثارة.

وكانت بين بابي المقامين مجموعة كنوز نفيسة. ولم تخل زاوية او شق في جدار من الاعمال الفنية. وبعد تفحص بضعة اشياء من بينها علبة عطر غريبة وضعها كارتر في جيبه،



وبعد لمس الحبل المجدول باحكام والختم السليم الذي يحمله، اعاد الفريق باب المقام ومزلاجيه الى الوضع الاساسي.

ثم اتجهوا شمالا من امام المقام الى الجدار الشرقي لحجرة الدفن. وكان في الزاوية الشمالية الشرقية من الغرفة باب مفتوح، فسلط كارتر النور عبره ليرى غرفة اخرى شبه مربعة، وضعت عند مدخلها منحوتة كبيرة من الخشب الاسود على قاعدة مرفوعة للاله انوبيس الذي كان على صورة ابن آوى. وكانت المنحوتة صاعقة في جمالها المهيب: "فالرأس من الرفعة بحيث ظهر شاخصا، والاذنان من الانتصاب بحيث بدتا مصيختين.

وسلط كارتر الضوء الكاشف على بقية اجزاء الغرفة المربعة التي اختار لها اسم "الخزنة". وكانت الصناديق وعلب المجوهرات الصغيرة والعلب المستطيلة الرفعية السوداء - وهي جميعا مقفلة ومختومة - تملأ الغرفة. وقد وضعت عليها عشرات المراكب الصغيرة حتى استحالت الغرفة اشبه بنهر النيل وعلى سطحه اسطول صغير متأهب للابحار.

وانقضت ساعات على وجودهم في الداخل. ولم يجرؤوا على تفحص عدد كبير من الاعمال الفنية لئلا تعلم مديرية الآثار بدخولهم غير المشروع. فعادوا ادراجهم. بحذر عبر حجرة الدفن واعادوا قطع الحجار الى موضعها. ورفع كاتر غطاء سلة قصب كبيرة بالقرب من احد الحارسين واسندها، مع حزمة قصب غير محكمة، الى الحائط لكي يستر آثار تلك المغامرة.

وخرج الفريق وسدوا الفتحة الداخلية، ثم ركبوا حميرهم وغادروا الوادي عائدين الى بيوتهم في وجوم مكبوت.

تفان وتعاون

في ٢٧ نوفمبر (تشرين الثاني) كان انغلباك منهمكا في واجبات رسمية. فحضر الى المكان عند الظهر المفتش المحلي لمديرية الآثار. وكانت جميع معالم الليلة السابقة قد طمست.

وانتشر خبر الاكتشاف على الفور في مصر كلها. واخذت الاشاعات في الظهور، ومنها ان ثلاث طائرات حطت في الوادي ثم اقلعت وعلى متنها حمولة كبيرة من الكنوز. ومن اجل قمع تلك الروايات، نظم كارنارفون وكارتر افتتاحا رسميا للمقبرة يوم ٢٩ من ذلك الشهر، من دون ان يطلبا سماح مديرية الآثار بذلك.

وتماديا في خطأهم اكتفيا بدعوة صحافي واحد هوآرثر ميرتون، مدير مكتب صحيفة "التايمس" اللندنية في مصر وصديق كارتر. ولم يسمح لاي مندوب عن الصحافة المصرية او الاوروبية او الامريكية بحضور الافتتاح. وكان ذلك مثلا ساطعا على لامبالاة كارنارفون وكارتر، اذ عزلا اولئك الاشخاص الذين كانا سيحتاجان اليهم في المستقبل.

ومنذ اللحظة التي ظهرت اولى الروايات في الصحف، اخذت البرقيات والرسائل تنهال على المكتشفين. وقد وصلت التهاني اولا،

قناع ذهب بالحجم الطبيعي كان يغطي وجه توت عنخ امون.

وتبعتها عروض المساعدة وطلبات التواقيع وعقود الحقوق السينمائية. وكانت حشود هادرة من الزوار تصل في جميع الاوقات. ومع ازدياد تدفقها اخذ كارتر يرد كل زائر لم ينل رضاه الشخصي. ولكن كان سيأتي وقت يدفع كارتر ثمنا غالياً لتصرفاته تلك.

ولم يطل الوقت بكارتر حتى تحقق من ان سنوات من العمل البالغ الدقة كانت في انتظاره. ذلك ان اصلاح رداء ملكي واحد مزدان بمئات النقود الذهبية من شأنه ان يستغرق شهرين. وكانت ثمة امور لا تحصى برسم الانجاز قبل ان يتاح لكارتر رفع اصغر قطعة من حجرة الانتظار. وكان عليه ان يحصل على مواد للحفظ والصر وان يجند خبراء في الحفظ للعمل معه.

وتخلى عن فكرة الاعتماد على اعضاء مديرية الآثار لان جدارتهم كانت موضع شك ورأيهم غير منسجم مع رأيه. ولم تراوده قط فكرة طلب العون من المتحف البريطاني، بل وقع اختياره على متحف المتروبوليتان للفن في نيويورك. وكان ذاك الاختيار امرا بدهيا تبعا لازدهار دائرة الآثار المصرية في المتروبوليتان، ومن بين اعضائها وينلوك الذي امد كارتر بالدليل القيم على وجود المقبرة.

واذا تركنا هذا العامل جانبا، فمن الجدير الاشارة الى ان كارتر وكارنارفون بقيا طوال سنوات على علاقة مالية خاصة بالمتروبوليتان، وهو امر ابقته المؤسسة حتى اليوم طي الكتمان. والحق ان من اجود التحف المصرية الفنية في حوزة المتحف مجموعة جاءت عن طريق

السرقة وسهت عنها مديرية الآثار. واشتراها المتحف بطريقة سرية من كارتر مباشرة، وكان هو ابتاعها من تاجر مصري بمال امده به كارنارفون من اجل افادة كارتر من الصفقة. وقد بدأت تلك العلاقة مع المتحف عام ١٩١٧ واستمرت حتى ١٩٢٢. وكانت حصيلتها المادية ان دفع المتحف مبلغا خياليا هو ٢٥٦،٣٠٥ دولارات، اي ما يعادل اليوم مليونين ونصف مليون دولار. وكانت عمولة كارتر من ذلك المبلغ قرابة ٤٠،٠٠٠ دولار.

الى هذا، كان كارنارفون وكارتر على علم بان وينلوك والبرت ليثغو، امين الدائرة المصرية في المتروبوليتان، يبذلان كل ما في استطاعتهما لثني لاكاو عن ابطال العرف القائل بقسمة الكنوز المكتشفة مناصفة. وكان الاثنان مهتمين جدا بهذا الامر.

وارسل كارتر برقية الى ليثغو الذي كان آنذاك في لندن، فحصل على جواب يمنحه تفويضا مطلقا للاستعانة بكل عضو تابع للدائرة المصرية "بأي طريقة يجدها ملائمة".

وقد اجمع الذين وصفوا ذلك التدبير على الثناء عليه كتجسيد للتفاني والتعاون. والحق انه كان هكذا من ناحية، لكنه من ناحية اخرى كان ميثاقا لخدمة المصلحة الشخصية المتبادلة، تعهد بد الطرفان بعد تمحيصه في ضوء العقل من اجل جني اكبر فائدة مالية وفنية. وقد اسر كارنارفون الى ليثغو بالآتي: "ينبغي ان اعطي المتحف البريطاني شيئا ولكن يهمني ان ينال المتروبوليتان النصيب الصالح".

وحين كان الفريق مجتمعا، اغلق كارتر ابواب المقبرة. وكلفت مفرزة من الجنود المصريين حراسة المكان طوال ٢٤ ساعة في اليوم. غير ان كارتر وظف حراسا خصوصيين من اجل مراقبة الجنود. وغادر كارنارفون والليدي ايفلين مصر الى انكلترا لقضاء فرصة عيد الميلاد، فيما توجه كارتر الى القاهرة لشراء معدات من بينها بوابة ذات قضبان فولاذية لسد الباب الداخلي. وبقي كالندر في وادي الملوك، وكان يجلس معظم الوقت بالقرب من المدخل وعلى ركبتيه بندقية ملقمة.

اللعنة

في ١٠ يناير (كانون الثاني)، وقع كارنارفون عقدا شاملا مع صحيفة "التايمس" اللندنية منحها بموجبه حقوق نشر الاخبار عن المقبرة الملكية في العالم. واثار الاتفاق عاصفة احتجاج هبت من صحف العالم الكبرى جميعا. وفي القاهرة وجد لاكاو نفسه مطوقا من جميع الجهات. فقد رفع رجال الصحافة المصريون، بدافع من الاوساط الصحافية الاجنبية، شكوى عنيفة لانهم حرموا دخول مقبرة مصرية. كما تدفق الوف ممن كانوا يودون زيارة المقبرة على مكاتب مديرية الآثار، معربين عن غيظهم حيال عدم سماح كارتر لاي كان، بزيارة المكان، حتى اولئك الذين يحملون اذنا رسميا.

واجتمع لاكاو مرات عدة بكارتر على حدة والتمس منه ان يصدر بيانات صحافية ويوزعها على المراسلين المصريين. لكن كارتر رفض. كذلك توسل اليه لاكاو ان يسمح لمديرية الآثار بارسال زوار الى المقبرة لينضموا الى الجماعات التي

كان كارتر يعمل لها دليلا يوميا. فرفض هذا الطلب ايضا بحجة ان زواره الاخصاء هم جميعا علماء آثار ولهم ملء الحق في الدخول.

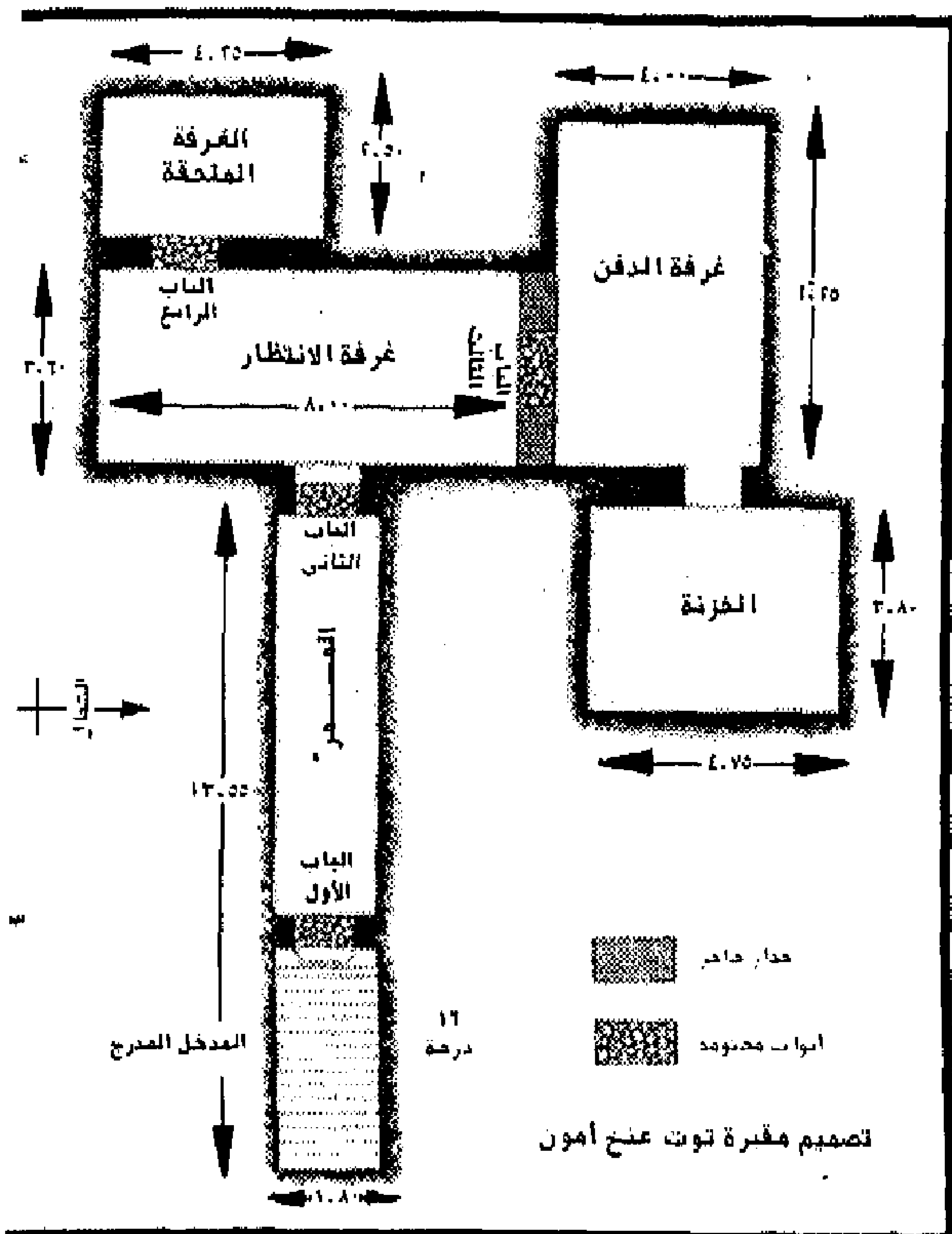
وفي الوقت نفسه، كان كارتر يحاول استئناف عمله العلمي الدقيق. فحصل على غرفة مظلمة لمصوره هاري بورتون الذي حضر من المتروبوليتان، كما حصل على اذن باستخدام مقبرة قريبة كمختبر وغرفة خزن.

وابتكر الفريق طريقة ثابتة لحفظ سجل بالكنوز. فكان بورتون يلتقط صورة اولى لكل كنز في مكانه. وبعد ذلك يرسم كارتر الكنز نفسه بالقلم على ورقة مساحتها ٢٠ × ١٣ سنتيمترا، مدونا قياساته كلها، مع اشارات حول الاجزاء المفقودة او التالفة منه. ثم يلتقط بورتون مجموعة اخرى من الصور، واضعا بطاقة مرقمة امام كل كنز. ويتبعه رسامان بوضع رسوم بارعة على ورقة تمثل، من فوق الى تحت، الكنوز في سياقها. وبعد الفراغ من ذلك كله كان الكنز ينقل الى المختبر حيث يلتقط بورتون صورا اضافية تظهر فيها مراحل اصلاحه. وهذا تدوين دقيق قل ان حصل مثله في المقابر التي اكتشفت سابقا.

وقد عبر كارتر في هذا العمل الدقيق المجهد عن براعة لا توصف. واشار الى الكنوز "كارث مباشر من الماضي"، وتكلم عن نفسه كما لو كان الوسيط المحظوظ، ولكن الموقت، الذي حدث ان مرت تلك الاشياء عبره. وهو قال ما يأتي: "اذا ادى الاهمال او الجهل بالمنقب الى انقاص المعرفة التي قد تكون جاءت عن طريق الكنوز، فلن يغيب عن باله انه مسؤول عن جريمة من الدرجة الاولى في علم الآثار".

وكان كارتر دائم الشكوى من المشاهدين، وان بدا عديم الاكتراث تجاههم. وعلى رغم ان وجودهم في المكان اغاظه، فقد امر عماله بلطف ان يحملوا المكتشفات المهمة عارية على مرأى من صفوف النظارة الى غرفة المختبر. اما الاشياء الاقل اهمية فكانت تلف وتنقل بعناية فائقة على حمالات فيما كانت تبدو اغراضا تافهة مرفوعة من الخنادق.

وحين عاد اللورد كارنارفون والليدي ايفلين في اواخر يناير (كانون الثاني)، كانت ٦٠ تحفة قد نقلت من حجرة الانتظار. وفي ١٧ فبراير (شباط)، رأس كارنارفون



تصميم مقبرة توت عنخ أمون

الاحتفال الرسمي بافتتاح غرفة دفن توت عنخ امون. وقبل يومين من موعد فض الباب المختوم، غدت الاقصر قبلة المعمورة. واخذت مئات الرسائل الصحافية تقعقع يوميا على اسلاك التغراف الحديثة التركيب في القاهرة. ووصل المشاهير والوجهاء والسلاطين والباشوات في قطارات غصت بهم. واقيم منبر موقت لتلك المناسبة المثيرة. وكان كارتر مزمعا على فتح الحاجز لجمهور مختار يعد ٢٠ شخصا، ويلي ذلك يومان يسمح لكارتر فيهما بفحص المحتويات فحصا مفصلا. ثم في اليومين اللاحقين يتاح لممثلي الصحافة العالمية والزوار "الخواص" مشاهدة الكنوز.

وكان كارتر يرفع بنفسه حجار المدخل واحدا واحدا ويدفع بها الى احد معاونيه. وحين اصبحت الفتحة كافية للمرور، نفذ منها الى الغرفة. وتبعه اللورد كارنارفون. وظهر الاثنان مرة اخرى بعد ٢٠ دقيقة تقريبا. ولم يتفوها بكلمة واحدة، بل اكتفيا برفع ايديهما دلالة على الدهشة. وبعد ذلك دخل افراد الفئة المختارة، اثنين وراء اثنين.

واتصفت التقارير اللاحقة كلها بالابتهاج الغامر. واجمعت الشخصيات الملكية والاشراف والعلماء على تقريظ الاكتشاف والمثابرة التي تم بها حفظ الموجودات. وتكونت لدى كارنارفون وكارتر قناعة تامة بانهما تجاوزا النقد السلبي الذي جاء على السنة المصريين والصحافة العالمية.

وفي ٢٦ فبراير (شباط) اغلق الاثنان المقبرة بعد انهاء العمل لذلك

الموسم، واعادا طمر الممر والدرج، وعادا الى المختبر حيث كثف العمل وراء الكواليس. وكان للحر هناك اثر سلبي ظاهر في صحة كارنارفون. فقد كان معدل الحرارة داخل غرفة المختبر قرابة ٣٨ درجة مئوية. وكانت عواصف الغبار تثقل الهواء في الخارج فتعوق تسربه.

وقصد كارنارفون الى القاهرة في اوائل مارس (آذار) بغية الحصول على ضمانات من لاكاو في شأن قسمة "صحيحة" لمحتويات المقبرة. وكانت ايفلين تكتب الى كارتر رسالة كل يومين تطلعه فيها على سير الامور. وفي ١٦ مارس (آذار) بعثت برسالة تحمل نذيرا اذ كتبت عن والدها: "البارحة اخذت كل الغدد في عنقه تنتفخ فجأة، وفي الليل ارتفعت حرارته ولا تزال مرتفعة اليوم. وقد بلغ به الارهاق مبلغا لا يقوى معه على الكلام".

وفي الاسبوع اللاحق بلغ المرض بكارنارفون حدا حاسما، وكان مرضه الاخير. وتوفي في ٥ ابريل (نيسان). وقيل ان انوار القاهرة انطفأت كلها لحظة وفاته، وان التحقيق اللاحق لم يكشف سبب انقطاع التيار. وجاء تصريح ابن كارنارفون ووريثه، اللورد بورشستر، ليزيد ذلك اللغز تعقيدا، حين اعلن ان كلب والده المفضل عوى وسقط ميتا في لحظة وفاة سيده ايضا، وكان ذلك في بيت العائلة الريفي في هايكلير.

وعزت الصحف في العالم اجمع موت كارنارفون الى لعنة مصدرها القبر. وعلى رغم انه لم توجد لعنة حقيقية في ضريح توت عنخ أمون وانها لن توجد البتة، فان رواية "اللعنة" معروفة اليوم على نطاق واسع كما هي حال رواية توت عنخ أمون نفسه وكنوزه الفريدة. وعندما سئل اللورد كارنارفون الحالي عن تلك اللعنة خلال مقابلة تلفزيونية اجريت معه في نيويورك في ١٤ يوليو (تموز) ١٩٧٧، اجاب بان موقفه منها "ليس موقف المصدق ولا موقف الرافض". غير انه اكد للمذيع الذي اجرى معه المقابلة انه "يرفض دخول مقبرة توت عنخ امون في وادي الملوك حتى وان اغري بمبلغ مليون جنيه استرليني".

الخروج

وانتهى الموسم الاول المثير وعندئذ قال كارتر لوينلوك: "كل ما علينا فعله الآن هو أن نقشر المقامات الملكية كما تقشر البصلة، وسنكون بعد ذلك مع الملك نفسه".

ويخرج المرء من قراءته وصف كارتر لموسم العمل الثاني بانطباع مؤداه ان اعمال الحفر استؤنفت بهدوء ومن دون ازعاج. لكن الحقيقة ان كارتر صرف ٨٠ يوما في كشف الضريح قبل ان يتمكن من فحص محتوياته. وغالبا ما ادى به هذا التأخير الى فقدان الصبر وحدة الطبع. ومرت بعد ذلك الوقت عشرة اشهر كاملة قبل ان تكشف المومياء، وهي اشهر عشرة انطوت على مفاوضات على جانب كبير من الدقة، وانفجارات غضب، ومماحكات، ودعاوى قضائية، وفضيحة ابقيت طي الكتمان، ونزاع سياسي.

وظهرت الصعوبة الاولى حين ابرم كارتر عقدا صحافيا حصريا مع "التايمس" اللندنية. فمن اجل تطويق محاولة دخول المراسلين المقبرة في

كل مرة يدخلها احد رجال الصحافة، ارتأى كارتر ان يعين مراسل "التايمس"، آرثر ميرتون، عضوا رسميا في بعثة التنقيب. وهذا التدبير يكفل لميرتون دخول المقبرة في أي وقت يشاء كارتر. اما بالنسبة الى الطلبات التي تسلمتها مديرية الآثار في شأن مشاهدة المقبرة، فقد قال كارتر ان الزوار ايا كانوا، من شأنهم اعاقة العمل العلمي.

وكان لاكاو يفخر بنفسه كاداري ممتاز. والحق انه كان لبقا وساعية وفاق. اما العلاقة المعقدة التي جمعته بهوارد كارتر فقد اصبحت فيها اللباقة نقطة ضعف. من هنا كان رفض لاكاو او عجزه عن التصرف بصراحة تامة - وهو امر راجع جزئيا الى عدم رغبته في ان يجرح مشاعر الآخرين - يفسر من قبل كارتر على انه تذبذب وعدم اخلاص واحيانا نفاق صريح. ورضخ لاكاو وزملاؤه في النهاية لاقتراحات كارتر حول ميرتون والزوار. غير ان احدا لم يخبر كارتر ان انقساما حادا في الرأي ظهر بين معاوني لاكاو المصريين. وعاد كارتر الى وادي الملوك في ١٨ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢٣ مقتنعا بان كل الامور كانت تجري على خير وجه.

لكن ضغط الصحافة وضغط المصريين الذي لم يلن له جانب سرعان ما حتم اجراء محادثات لاحقة مع لاكاو. واشتكى كارتر من ان ثلث الايام الخمسين الاولى من الموسم الجديد "بدده التدخل الاداري". وخلال تلك المحادثات المطولة، وفي سياق تصريحات عامة متعددة، نجح كارتر في اهانة لاكاو. ومن عوامل ضغينته على لاكاو شعوره بانه هو (كارتر) وورثة كارنارفون "يملكون" المقبرة فعلا. ويضاف الى هذا العامل انه كان يكره لاكاو كرها شخصيا. غير ان العامل الاساسي كان الارهاق الذي عاناه كارتر ودوامته الذهنية التي لا تهدأ. وكانت ادنى نكسة واقل اثارة تحملانه اما على الغيظ واما على التأمل الصامت.

واشير على لاكاو مرارا وبالحاح ان يعطل الترخيص ويطرد كارتر من المقبرة. الا انه قرر اتباع خطة اخرى بعدما ارتأى ان التمسك بحرفية القوانين وفرضها على نحو غير منقوص من شأنهما دفع كارتر الى تصرف احمق. وهكذا راح لاكاو يلقن انغلباك كلاما لكي ينقله عفويا الى كارتر، ومؤداه ان مديرية الآثار تريد الحصول على لائحة باسماء معاونيه. وهو طلب وجده كارتر "شائنا" وتبعته في الاسابيع اللاحقة سلسلة متطلبات بدت الغاية منها، في نظر كارتر انتهاك الحقوق التي يمنحها الترخيص.

واعان لاكاو في حملته حدث سياسي ذو حجم هائل. ففي انتخابات ١٩٢٣، هزمت الحكومة التي كانت تؤيد الوصاية البريطانية على مصر لتحل محلها حكومة تقوم على نظام قومي متين. وكان وزير الاشغال العامة في الحكومة الجديدة - وهو المسؤول الاعلى الذي يخضع له لاكاو - مرقص بك حنا، وهو شخص اخرق متبلد الحس سبق ان حاكمه البريطانيون وادانوه وسجنوه بجرم الخيانة. وقد حفزه عدم ثقته بالاجانب، ولاسيما البريطانيين

"النرفانا" بمئتي دولار

اذا شئت الاستمتاع بالطمأنينة، بل وبالطمأنينة الكاملة. فلماذا لا تقصد "النرفانا". حيث السعادة القصوى التي تتخطى الهم، تنتظرك في الهند.

والطمأنينة التي توفرها لك الهند تقصر عن شرحها الكلمات، فالهند تقدمها لك اينما اتجهت: في الابتسامات الدافئة التي تحييك، والوجوه البشوشة الودودة التي تستقبلك، والاسواق الغنية بالالوان والنابضة بالحياة، وفي تناغم الصنوج، وايقاع الاقدام الراقصة، والضيافة الطبيعية المنفتحة، والبساطة التي يتحلى بها كل فرد.

فكل هذا

يمكنك الحصول عليه، دون اسراف في التكاليف او تبذير، عن طريق شركة الخطوط الجوية الهندية

في أطار "برنامج اكتشاف الهند"
لمدة اسبوعين في مقابل ٢٠٠ دولار فقط
او ما يعادلها بعملة قابلة للتحويل.

فيمكنك السفر في انحاء الهند كلها لمدة ١٤ يوما. بمئتي دولار لا غير (او لمدة ٢١ يوما بكلفة لا تزيد على ٢٧٥ دولارا).

ويمكنك الاختيار بين ٦٠ رحلة تراوح بين كشمير وخاجوراهو والسواحل الغربية التي تغسلها مياه المحيط الهندي.

وهناك تعرفة "خاصة للشبان" ايضا

يستفيد منها جميع الذين تتراوح اعمارهم بين ١٢ و٣٠ سنة، فينالون حسما بـ٢٥٪ من التعرفة العادية بالدولار لرحلة تستغرق ٩٠ يوما.

ويمكن شراء البطاقات من اية مدينة كبرى من مدن العالم، عن طريق الـ١١١ شركة خطوط جوية دولية التي تربطها اتفاقات مع شركة الخطوط الجوية الهندية.

ولا يكلفك ذلك الا الاتصال بممثل الشركة التي تتعامل معها.

فتعال واكتشف الهند،
وستجد فيها اكثر مما تتوقع،
كالطمأنينة والراحة الفعليتين.

IA-4911

Indian Airlines

واحدة من كبريات الشركات العالمية للخطوط الجوية الداخلية

وخصوصا كارتر، على تأييد اي مخطط من شأنه ارغام كارتر على ترك المقبرة ومغادرة المنطقة والخروج من مصر.

وبلغت المسألة ذروتها في ١٣ فبراير (شباط) ١٩٢٤. وكان كارتر قبل ذلك الوقت قد نجح في الوصول الى الناووس نفسه، علما بانه من المدهش ان يكون وجد وقتا لمتابعة اعمال الحفر. فقد كان عليه اولا تنقيب المقام الخارجي الذي تقوم وراءه ابواب تؤدي الى مقام آخر. ولدى فتح تلك الابواب، ظهرت ابواب مقام ثالث تخفي وراءها عالما متألقا من الذهب. وكان ثمة مقام رابع بدت على مدخله كتابة هيروغليفية جلية تبين انها عبارات الملك نفسه : "لقد رأيت الامس، فها انا اعرف الغد".

وكان وراء المقام الرابع ناووس من الحجر الرملي البلوري البديع، يعلوه غطاء من الصوان. واخيرا في ١٢ فبراير (شباط)، رفع الغطاء الذي يزن طنين بواسطة حبال، خلال احتفال حضره لاكاو ومجموعة من الاعيان. وكان يملأ الناووس تمثال مذهب للملك - الفتى، ويتألق في ملء مجده لدى انعكاس الانوار عليه. وكان ذلك التمثال مثالا على الصنعة التي بلغت ذروة البراعة والابداع. وهو كان مصنوعاً من الخشب المذهب ومرصعا بالخزف المزخرف والزجاج والحجار شبه الكريمة.

وقبل ان يغادر الرسميون المكان ذلك اليوم، بحث كارتر معهم في تفاصيل مؤتمر صحافي يعقد في اليوم التالي. وطرح سؤالا عرضيا حول السماح لزوجات الذين شاركوا في الحفر بزيارة المقبرة، فجاءه الجواب ايجابا. غير انه تسلم رسالة صباح اليوم التالي تعلمه بان وزارة الاشغال العامة رفضت طلبه. فهرع كارتر الى المقبرة وعرض الرسالة "المهينة" على زملائه الذين لم تقل دهشتهم وحنقهم عن دهشته وحنقه هو. وللحال وضعوا مسودة موجزة لارسالها الى لاكاو ومرقص بك حنا والرأي العام، ينذرونهم فيها بانهم سيغلقون المقبرة ويهجرون عملهم. ونفذوا ما قالوه حرفيا. فاقفل كارتر المقبرة والمختبر كليهما، حاملا معه مفاتيحهما التي لم يكن هناك نسخة عنها في حوزة احد، ومخلفا وراءه اطنانا من الحجار المعلقة فوق التمثال المذهب والمنذرة بالسقوط عليه.

رأس اللوتس

من العسير ان نفهم كيف يمكن ان يكون عدد كبير من الاشخاص ذوي العقل الراجح ارتكبوا خطأ فادحا في تقدير الامور. فهم اساؤوا فهم طبيعة نظام الحكم الجديد، ولم يدركوا ان فكرة السماح لنساء اجنبيات بدخول المقبرة قبل ان يدخلها اي مصري بوقت طويل من شأنها اثارة الغضب في مصر كلها. حقا انهم كانوا اسرى مفاهيم تخطاها الزمن حول انماط السلوك اللائقة بالمستعمرين والنخبة ورجال العلم.

وكانت الحكومة سريعة الى رد الفعل. فبعد مضي يومين على "الاضراب"، كما سمته الصحف، توجه كارتر الى المقبرة فصدته فرقة من الجنود المصريين. وبعد ذلك الحادث بايام حضر عمال الى المكان وكسروا اقفال البوابة الحديدية ليدخل اعوان الحكومة ويعيدوا، بحذر شديد، وضع

غطاء الصوان على الناووس. وفي الوقت نفسه كان مرقص بك حنا يبلغ كارتر الغاء الترخيص للموسم الراهن.

فما كان من كارتر الا ان رفع المسألة الى المحكمة المختلطة في القاهرة. وكان نظام الوصاية المصرية يتيح للاجنبي ان يقدم دعواه امام هيئة مؤلفة من قضاة اجانب ومصريين ويرئسها قاض اجنبي. ووكل كارتر الى محام انكليزي اسمه ف.م. ماكسويل مهمة الدفاع عنه، لكن اختياره لم يكن مناسباً. فقد سبق لماكسويل ان شغل وظيفة المدعي العام البريطاني عندما جرت محاكمة مرقص بك حنا بتهمة الخيانة. وبعدما اوجز حججه في قضية كارتر في ختام يوم طويل داخل المحكمة، راح ماكسويل يشرح للمحكمة ان موكله لم يزل يحمل الصفة القانونية التي يخوله اياها الترخيص حتى بعد اقفال المقبرة ورفع الدعوى، وان الحكومة دخلت "في شكل عصابة لصوص وسلبته حقوقه عن طريق العنف".

وحدثت جلبة في المحكمة. فكلمة "لص" هي من اقسى العبارات العربية التي يمكن ان ينعت بها شخص. واستغلت الصحافة المصرية تلك العبارة الى اقصى حد، موحية بان ماكسويل، ووراءه كارتر وجميع معاونيه، اطلقوا على الوزير صفة "لص"، فأهانوا بذلك جميع المصريين.

وعلى الاثر اصدر مرقص بك حنا بيانا اعلن فيه ان وزارة الاشغال العامة لن تفاوض كارتر اطلاقا، حتى وان طلبت منها المحكمة ذلك. وفي الوقت نفسه قرر كارتر مقابلة نائب القنصل البريطاني على أمل ان يفوز منه بضغط سياسي على الحكومة المصرية.

ووصل كارتر الى مكان الاجتماع في حال من حب الخصام والمشاكسة. وسرعان ما فقد سيطرته على نفسه، فراح يوجه الكلام اللاذع كلمة بعد اخرى حتى وصل الى نعت مديرية الآثار بعدم الجدارة ونائب القنصل بالسذاجة فما كان من نائب القنصل الا ان فقد اعصابه ورمى محبرة على رأس كارتر. وعندئذ تدخل اشخاص كانوا هناك لتهدئة الرجلين الغاضبين.

وحين طلبت المحكمة من هيربرت وينلوك ان يتوسط في الخلاف، أصابه قلق عميق لدى اكتشافه المؤامرة، وقرر ان يرسل كارتر خارج مصر. وكان اسم كارتر مدرجا على جدول محاضرات عدة في امريكا، لكنه كان يفكر في الغائها. غير ان وينلوك اقنعه باحترام ما تعهد به. وهكذا، غادر كارتر القاهرة في ٢١ مارس (آذار) من دون ان يدري ما اذا كان سيرى مصر مرة اخرى.

إلا ان المسألة لم تنته عند ذاك الحد. فقد توجهت لجنة خاصة من المصريين برئاسة لاكاو للكشف عن المقبرة وغرف الخزن. وهناك وجد اعضاء اللجنة ان كل الأشياء كانت مصنفة ومرقمة على اكمل وجه. فقد سجل كارتر أرقامها بنفسه في ثلاثة مواضع مختلفة: خارج كل صندوق، وداخله، وضمن فهرس وضع على طاولة قريبة. وتركت مناهج كارتر الدقيقة انطباعا ملموسا في أعضاء اللجنة.

ثم وصلوا الى الركن الخلفي من

غرفة الخزن حيث رأوا كومة من صناديق "فورتنام آند ماسون" الفارغة، وبينها صندوق كتب عليه: "نبيذ احمر". وكانوا على وشك تجاوزه حين سألهم لاكاو ان يفتحوه. وعندما فعلوا وجدوا في داخله رأسا خشبياً في حجم رأس طبيعي تقريباً، وقد رسمت ملامحه بدقة كاد يبدو معها انه يتنفس. وكان ذلك التمثال يقوم على قاعدة حفرت عليها بتلات زهرة اللوتس الزرقاء، وهي زهرة النيل المقدسة.

وأخذ لاكاو العجب، لكنه عمد الى المحافظة على الانضباط بين معاونيه، مصراً المرة تلو المرة على انه لا يعقل الا يكون هناك تفسير منطقي للدافع الذي حدا كارتر الى حفظ الرأس في ذلك المكان الغريب من دون ان يصنفه ويرقمه على غرار الاشياء الاخرى. غير ان المصريين طالبوا بارسال برقية استنكار على الفور الى رئيس الوزراء المصري نفسه.

وفي اعقاب ذلك الحادث ذهب انغلباك في زيارة الى وينلوك. فأخبره الأخير أن المصريين "فقدوا اعصابهم تماما"، وراحوا يصرخون قائلين ان المنحوتة سرقت من المقبرة دونما شك. فما كان من لاكاو إلا ّ ان اخبرهم بأن كارتر كان اشترى رأس اللوتس من سوق التحف الفنية. لكن انغلباك لم يكن على يقين من ان المصريين صدقوا رواية لاكاو، على رغم ما أظهروا من ميل إلى الأخذ بها بعدما شاهدوا "الطرق المنهجية" التي ابتكرها كارتر. إذاً، هل يمكن ان يحصل وينلوك على تأييد من كارتر لذلك الرأي؟

ومن أجل هذه الغاية، أرسل وينلوك استفهاما الى كارتر بواسطة مصطلح رقمي كان الاثنان قد ابتكراه قبل سنوات لاستعماله في حال حدوث امر طارىء. وجاء جواب كارتر ان القطعة كانت بين الأشياء التي اكتشفها في ركام المدخل المؤدي الى المقبرة. وقال انه أعطى تلك الاشياء "ارقاما جماعية"، لكنها "لم تكن قد سجلت كليا في الفهرس". وتجدر الاشارة الى ان حجة كارتر غير مقنعة. ففي الجزء الأول من كتابه "مقبرة توت عنخ امون"، الذي نشر قبل ستة اشهر من ذلك الحادث ، لم يرد ذكر رأس اللوتس بين الأشياء التي وجدها كارتر في ركام المدخل ووصفها وصفا مفصلا.

وعلى رغم ذلك، فقد قبلت اللجنة المصرية بتوضيح كارتر، وكتب وينلوك ان لاكاو "أبهجه ذلك التوضيح كليا لأنه كان يعني، مما يعنيه، ان القطعة هي بالتأكيد ملك متحف القاهرة". وفي اواسط ابريل (نيسان) بدأ وينلوك يأمل في ان يكون الجو الذي خلفته قضية توت عنخ امون اخذ ينحسر كي يتمكن من أقناع "المحامين جميعا بالانسحاب من القضية واتاحة الفرصة لعالمي الآثار الوحيدين اللذين دخلا في المسألة" - اي لاكاو ووينلوك نفسه - لكي يحلا الخلاف المرير.

الاستسلام

ان جهود وينلوك الرامية الى تجديد الترخيص بشروط مختلفة جدا عن الشروط السابقة كادت ان تكلل بالنجاح في اوائل يونيو (حزيران) حين تسلم كارتر من دار النشر التي يتعامل معها النسخ الخمس الاولى من

كلاريون

رفيقك المفضل على الطرق

اثبت جهاز كلاريون انه جدير بثقتك على الطرق الاشد وعورة وفي الطقس الاشد حرارة. وهو مصمم ليكون سهل التشغيل فيساهم بالتالي في راحتك وامان سيرك. وكلاريون التي اشتهرت بجودة منتجاتها ومتانة ادائها تزودك بمجموعة كبيرة من ستيريوهات السيارات، وكلها سهلة التركيب. فاختر منها الجهاز الذي يروقك.

كلاريون — يجعل القيادة اكثر متعة.



PE 663

Clarion

Clarion Co., Ltd. Tokyo, Japan

كتيب وضعه غفلا من التوقيع، وكان ذلك قبيل انهاء رحلته الى الولايات المتحدة التي لقي فيها نجاحا منقطع النظير. وقد وضع الكتيب في الظاهر "من أجل التوزيع الخاص" المحدود، لكنه كان اتهاما لاذعا، كتب في الضمير الغائب (هو)، ضد الحكومة المصرية ومديرية الآثار ولاكاو الذي نعت كارتر طرقه بأنها "عائق يواجه مستقبل علم الآثار في مصر".

وتسلم وينلوك نسخته من الكتيب من مكان مجهول في الاول من يوليو (تموز) ١٩٢٤، وكان مزمعا في صباح اليومنفسه ان يستقبل كارتر في مكتبه في المتروبوليتان، بعد انقطاع دام بضعة أشهر. وقلب وينلوك صفحات الكتيب بسرعة، وامتعض حين وجد ان كارتر ضمنه كل شيء ولم يترك شيئا خارجا من برقيات مشفرة ورسائل سرية وملاحظات تظهر دور وينلوك في ستر الفضيحة التي اثارتها المنحوتة التي كانت في صندوق الخمر. وكانت تلك ضربة قوية ضد سمعة وينلوك كعالم آثار.

وعندما وصل كارتر فوجيء بالحنق الظاهر على صديقه. واحاطه وينلوك علماً بأنه، بعد صدور الكتيب، لا يريد ان يكون مرتبطا به بأي طريقة. وقال له بجفاء انه مقتنع بان تصرفه منذ بروز المشكلة كان صادرا عن عناد وعدم اتزان، وأن الكتيب اللعين كان القشة الأخيرة. وأفضى اليه برأيه انه لن يُسْمَح له بالحفر ثانية في مصر ما لم يرضخ للشروط المصرية. وحيال هذا كله، وجد كارتر نفسه غير قادر على الكلام.

وقطع وينلوك الاجتماع بعد وقت قصير ليطلع مدير المتحف، ادوارد روبنسون، فورا على رأيه في عمل كارتر الأخير المتهور. وحذره من ان كارتر، الذي كان سيسافر واياه على ظهر باخرة واحدة متوجهة الى انكلترا، سيسلمه نسخة من الكتيب المقيت الذي وضعه ويحاول كسب مدير المتحف الى جانبه في حملته ضد المصريين. وأستغل وينلوك المناسبة ليحذر روبنسون من عدم الانجرار الى حجج كارتر.

غير ان غضب وينلوك، الصديق القديم، هز كارتر هزاً عميقاً. ولم يدر في خلده قط ان نشر المعلومات التي تورط وينلوك في قضية رأس اللوتس من شأنه ان يولد فيه احساساً بأن كارتر خانه. لكن كارتر بذل جهودا سريعة لوقف توزيع الكتيب، ولم يبارح غرفته في الفندق حتى موعد اقلاع الباخرة "موريتانيا" الى الوطن. وعندما جلس في الباخرة يحادث روبنسون، اعترف بأنه "فعل وقال حماقات كثيرة تجعله يندم ندماً شديداً" وقال "ان بعض تلك الحماقات مرده الى سوء النصح والبعض الآخر الى التوتر الذي كان يعانيه والذي منعه من التفكير الجلي او الهادىء". وحين وجد روبنسون ان كارتر كان في حالة قبول وتلق مذهلة، نصحه بأن يقدم الى الحكومة المصرية "اي اعتذار تطلبه" من اجل انهاء عمله في المقبرة.

وفيما كانت الباخرة تبحر نحو انكلترا، قرر كارتر أخيرا وضع حد لذلك النزاع الطويل. وكان كيانه مرهقا ومليئا بالهواجس حين جلس يكتب رسالة الى لاكاو يتنكر فيها "كليا لأي فعل او ادعاء او ذريعة من اي نوع في ما يخص مقبرة توت عنخ

أمون ومحتوياتها ... وأني اعلن سحب كل الامور المعلقة".

النصر الأخير

لدى عودة هوارد كارتر الى وادي الملوك في ٢٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٢٥، سلم في لقاء رسمي مجموعة مزدوجة من مفاتيح المقبرة والمختبر. وأجرى على الفور تفتيشاً لمحتويات حجرة الدفن برفقة بيار لاكاو. ورأى كل شيء في مكانه من دون اي تبديل. فأعرب عن رضاه تجاه لاكاو الذي باح له، في صوت مخفوض، بأنه كان مسرورا جدا لعودته. وكانت تلك مصالحة سريعة وخصوصية وودية.

ومنذ ذلك اليوم، وعبر ثماني سنوات مليئة بالعمل المضني الذي كان يجري، كما في السابق، تحت حر وادي الملوك وريحه وغباره، نادرا ما كشف كارتر عن الجانب القاتم النزق من شخصيته. فقد وجد نفسه منغمسا مرة أخرى في اعباء علم الآثار الصرف ومنهجيته، مما جعل الجانب اللطيف والحساس من شخصه يطغى على ما عداه.

وكانت مهمة كارتر الأولى رفع غطاء التابوت المذهب الذي اكتشفه قبل سنة. ووجد داخله شيئا اشبه بتابوت آخر مغطى بأكفان من الكتان الرقيق ومزين بأكاليل الزهر. وبعدما رفعت الاكفان وقف كارتر يحدق في "أروع مثال فني لصناعة التوابيت القديمة ظهر حتى الآن". وكان غطاء التابوت الثاني، كغطاء الأول، يرمز الى الملك الصغير في شكل الاله اوزيريس. لكن التمثال الثاني فاق الأول في فخامته الى حد كبير.

ولدى انتزاع غطاء التابوت الثاني، بان لعيني كارتر المذهولتين تمثال بشري آخر. وكان هو الآخر مغطى بطبقة من الكتان الرقيق. فانتزعها كارتر وانتزع معها الياقة المشغولة بالخرز والزهر والتي كانت تحيط العنق، ليقف وجها لوجه امام مشهد حابس للانفاس. ذلك كان التابوت الثالث الذي يزيد طوله على ١،٨ متر، وهو مصنوع من الذهب الخالص الذي بلغت كثافة بعض اجزائه ١٥ مليمترا تقريبا. وقدر كارتر ان ما يراه هو "سبيكة ذهب صرف، على مقدار هائل من الضخامة".

ورفع كارتر غطاء التابوت الثالث حيث كانت مومياء الملك ملفوفة بدرع من الذهب والزخارف. وكان هناك تمثال للملك في الحجم الطبيعي، استعمل قناعا له، وكان يلمع لمعانا باهرا قبالة اقماط الكتان القاتمة. ولا ريب في ان هذا القناع هو من اجمل المجسمات في تاريخ البشرية.

وبعد الكشف عن المومياء، شرع كارتر في رحلة على منتهى الغرابة، وهي الحفر في طبقة ضمن طبقة من الأقمطة. وجهز كارتر نفسه بمشارط مشحوذة الى اقصى حد، وطفق، بمساعدة استاذ التشريح في جامعة القاهرة المصرية، يقص الكتان القاسي الذي يكون الطبقة الاولى لينكشف له كنز حقيقي من الذهب يضم التاج الملكي وصدرة ذهبية وخنجرا مع غمد مصنوعين من الذهب الخالص. وقد وضعت على الذراعين المحنطتين اللتين جعلت احداهن فوق الاخرى ١٣ سوارا. وبعد قص طبقات الاقمطة كلها، اخرج كارتر ما لا يقل

عن ١٤٣ قطعة رائعة من مجوهرات وحلى وتمائم وادوات·

وبواسطة فراش مصنوعة من وبر السمور، ازيلت بقايا القماش المتهرّئ· واخيرا تجلى وجه توت عنخ امون نفسه· وبدا ان جمال الملك كان يجل عن الوصف· وحين اخذ الرأس بين يديه، خيل الى كارتر انه حمل الى الوقت الذي كان الملك المفعم بالنشاط حيا· وهزته تلك التجربة حتى الصميم·

وبحلول نهاية فبراير (شباط) ١٩٣٢، كان هوارد كارتر قد اخرج اخر الاشياء من المقبرة وأشرف على نقلها الى المتحف المصري في القاهرة، وذلك قبل مرورو عشر سنين على اليوم الذي انجز اروع اكتشاف اثري.

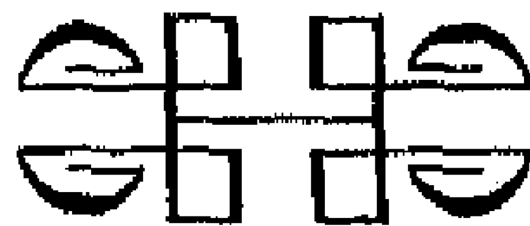
وعاد في ربيع ذلك العام الى انكلترا· وفي اقل من سنة اصابه مرض لم يستطع منه فكاكا· وعلى رغم زياراته المتكررة لمصر، فهو لم يعد الى الحفريات الاثرية على الاطلاق· وفي ٢ مارس (آذار) ١٩٣٩، مات وهو في اواسط العقد السادس من عمره· ولم يحضر دفنه سوى عدد قليل من الاشخاص، بينهم الليدي ايفلين هيربرت بوشان، ابنة اللورد كارنارفون·

لم يكتشف كارتر اي وثيقة او ورقة بردي من شأنها ان تحل اللغز اللازم لوفاة توت عنخ امون في سن مبكرة جدا· غير ان حقائق جديدة قد تنكشف يوما ما في مكان غير متوقع في وادي الملوك على يد شخص ورث من هوارد كارتر احلامه وطموحه·

وحتى ذلك الوقت سوف تبقى هناك شكوك وتساؤلات·

ان توت عنخ امون، الذي يلفه الصمت ويحيطه لغز عميق، ضمن لنفسه سحراً آسراً اكثر مما تسنى لمعظم حكام الأزمنة الغابرة· وهو حقق النصر الأخير المتجلي في حياة ثانية مستمرة وآمنة· ولا تزال الكلمات الجريئة المحفورة على المقام الاخير المؤدي الى ناووسه الضخم تبدو صادقة: "لقد رأيت الأمس، فها انا أعرف الغد"·

■ توماس هوفنغ



جعة رهبانية

فازت الراهبة الفرنسيسكية دوريس انغلهارت البالغة من العمر ٤٩ سنة بشهادة ماجستير في تخمير الجعة في مدينة أولم الالمانية، متفوقة في ذلك على ٢٦ من زملائها الرجال· وتعد هذه الراهبة أصغر سنا من سائر مخمري الجعة البارعين في المانيا، وهي تعمل بمساعدة راهبتين اخريين وتحضر قرابة ١٨٠،٠٠٠ ليتر من الجعة سنويا، وتستخرجها كلها من محصول الشعير في مزرعة الدير· وتتميز الجعة التي تخمرها الراهبة وتبيعها محليا بلونها الفاتح وباعتدال نسبتها من الكحول (٤ في المئة)، الا في فترة اعياد الميلاد ورأس السنة والفصح حيث ترفع الراهبات الثلاث نسبة الكحول تجاوبا مع رغبة المستهلكين·

روبير


الأوراق الأخيرة
بقلم كورنيليوس
وكاترين ريان

الأوراق الأخيرة...

ما ان وصل كورنيليوس ريان الشاب من دبلن، حتى بدأ نشاطه كمخبر في ساحات المعارك في اوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، ثم اصبحت تلك الحرب موضوعا رئيسيا عالجه في انتاجه في كتبه الآتية: "اليوم الاطول" و"المعركة الاخيرة" و"جسر واحد بعيد"، التي لاقت كلها رواجا كبيرا. وكانت التحقيقات والبحوث اللازمة لهذه القصة الوثائقية، الاخيرة قد اكتملت، ولكن لم تكن كلمة واحدة كتبت حين نزلت الفاجعة بريان عام ١٩٧٠ وهو في الخمسين من عمره. عند ذاك عمدت ارملته كاترين الى استخدام الاشرطة والمذكرات التي كان ريان قد دون عليها تفاصيل نضاله بسرية طوال اربع سنوات ونصف سنة، مضيفة اليها ملاحظاتها الخاصة، لصياغة هذه القصة الحادة المثيرة عن البطولة الشخصية وعن تعاونهما الاخير.



كورنيليوس وكاترين ريان في المكتب حيث كان الاثنان يعملان.

كورنيليوس: في هذا الصباح الباكر في الصيف، كان مكتبي الواقع في مبنى من غرفة واحدة على مسافة ٣٠ مترا من منزلنا في كونتيكت مغمورا بالشمس والظلال، حتى ان مجموعة كبيرة من اشجار قائمة في الطرف الآخر من الزقاق عجزت عن حجب النور الذي راح يتدفق على الحديقة الصغيرة المسيجة خارج نوافذ مكتبي ويغمر غرفتي. وفي هذا النهار، كما في ايام اخرى مماثلة، كنت قد ادرت الكرسي بحيث استطيع ان ارى المناظر في الخارج. وكانت العادة ان تقع عيناي على منظر يمتد مسافة كيلومترات عبر التلال البعيدة.

اما هذه المرة فقد كانت المناظر ترتدي اهمية جديدة غير مألوفة. العالم في الخارج يضج بالحياة، اما في الداخل فلست متأكدا كثيرا مما يجري. في هذا الصباح الرائق يجب علي، كما أرى، ان ابدأ الاقرار بأني اموت.

في هذا النهار، نهار السبت الموافق ٢٥ يوليو (تموز) ١٩٧٠، كانت الساعة الكبيرة المعلقة على الجدار المقابل في الغرفة، تحدث صوتها المعتاد. الوقت هو الساعة ٦،١٣ صباحا. منذ قرابة ١٢ ساعة، اي في الساعة ٦،٣٥ من مساء امس، قال طبيب بارز من نيويورك، وهو

اختصاصي في المجاري البولية، لي ولزوجتي انني مصاب بسرطان البروستات في مرحلته الاولى.

انه سرطان على كل حال. وها اني في الساعات الاليمة هذه انطق هذه الكلمة للمرة الاولى بصوت عال.

ان التشخيص يغير كل شيء. وحولي في المكتب الان يبدو كل شيء في حياتي جديرا بالذكر. على الدرج رسمزوجتيكاترين الفتية، منذ ٣٠ عاما، تبسم لي من اطار فضي صغير. ومقابل ذلك صورة ولدينا جيف وفيكي. الوقت لا يطير. انه ينطلق بسرعة وعنف. لقد اخذت لهما هذه الصورة منذ تسع سنوات حين كان احدهما في السابعة والآخر في الرابعة. ذلك الطفل الصغير بوجهه واذنيه وجبهته البارزة الى حد، قد اختفى تحت كتلة ضخمة من الشعر القاسي. اما فيكي فلم تغير تصفيف شعرها خلال هذه السنوات كلها. وهو لا يزال يرتد من جبهتها الى الوراء، اصفر اللون كشعري من قبل. اما ذلك الوجه الصغير المستدير الممتلىء، فقد رق مع بلوغ سن المراهقة، كاشفا عن وجنتين بارزتين وجمال متزايد. وهناك كذلك مزاج او طبع، ولكن احب ان انظر اليه كأنه روح، لان ذلك كان فيّ ايضا.

وعلى الجدار، الى جانب الساعة، كانت صور حبيبة الي، لرؤساء دول، واصدقاء احبهم، وصحافيين زملاء. وعلى الطاولة المقابلة لدرجي اوسمة ولوحات منقوشة وميداليات. والى جانبي خوذتي وحقيبة الجندية التي كنت احملها على ظهري ومصورات جغرافية، وهي اشياء باقية لي من الحرب العالمية الثانية تثير الذكريات.

قبل اليوم كانت هذه الاشياء هي التي تزين مكتبي. اما الان فالسرطان هو الشيء الاقرب الي. وهو الذي يرافقني كيفما ذهبت.

احب ان اجنب كاترين والولدين كل شيء مستطاع. ولن اتمكن من معالجة هذا الموضوع بصراحة الا بواسطة هذا الشريط المسجل او مدونات اخفيها بين مواد لا ينظر فيها احد سواي.

وفي الساعات الطويلة التي تلت معرفتنا بالنبأ، بذلت جهدي في تبرير هذا الحكم. لكن القول بأني ساعيش ١٥ عاما آخر، او ان سيارة قد تدهسني بعد ظهر هذا النهار، لم يكن يجدي الا هنيهة واحدة.

وسرعان ما كنت اسمع صوت الطبيب ثانية.

يقول الطبيب ان املي الوحيد في "الشفاء" هو استئصال البروستات استئصالا جذريا: "ستكون عاجزا من حيث القدرة الجنسية. وهناك احتمال نسبته ٣٠ في المئة بان تكون عاجزا عن ضبط البول. واذا حدث هذا، فلا بد من ربط وعاء من مطاط لتلقي البول". ان الذي يقصده الطبيب بـ"الشفاء" هو انني سأحيا خمس سنوات بلا سرطان بعد العملية الجراحية.

الطبيب يريد ان اجري عملية استئصال البروستات في الاسبوع المقبل. هذه العجلة تخيفني. فقد كنت ،من الناحية المهنية، ارفض قبول اي معطيات تاريخية من غير التدقيق فيها حتى النهاية، جامعا كل الآراء والمقابلات المتعلقة بها.

والذي اعلمه هو ان السرطان قد يكون ترسخ الى حد لا تجدي معه الجراحة الجذرية. غير ان الطبيب يقدر ان المرض لا يزال محصورا في البروستات. ولنفترض ان ذلك غير صحيح. فما جدوى الجراحة؟

يجب ان اسمع آراء اخرى في هذا الشأن حتى ان كان الطبيب المختص في امراض المجاري البولية مصيبا. لا بد ان هناك في مكان ما في دنيا الطب، مصادر واحصاءات وعبارات تعوزني لتقدير احتمالات نجاتي كيما يتسنى لي بعد ذلك ان احدد المسلك الافضل الذي انتهجه.

الان اذكر امرا لعله اشد الامور شبها بالمأزق الذي اجدني فيه حاليا. في الحرب العالمية الثانية وجدت نفسي الى جانب دورية في حقل الغام. ولا استطيع ان اتذكر اني عرفت الخوف، آنذاك، كما لا اذكر اني شعرت بفيض كبير من الشجاعة. ولا فائدة من التأكيد على حقيقة اننا كنا عالقين في حقل ألغام وكان الهدف الوحيد ان نجتاز ذلك الحقل بأمان. والواقع اننا نجحنا جميعا في اجتيازه. وهذا يشهد على ان الحظ عامل كبير في الحياة. لكن الظاهر في هذه اللحظة ان حظي آخذ بالافول. انني في هذه المرة، كما في ايام الحرب تلك لا اعرف الخطوات التي تنقذني من هذه المحنة، وفي الوقت نفسه لا استطيع ان ابقى مسمرا في مكان واحد.

ولكن ربما مر علي في هذا المكان وقت طويل من دون ان ادري. الاشارة الاولى الى سوء حالي تنبهت اليها منذ اربعة اشهر. ومن المفترض انني كنت اموت خلال القسم الاكبر من هذه الفترة، في العام الخمسين من حياتي. لقد اقدمت على التلاعب بهذه الجمل القليلة الاخيرة. في هذه المرحلة الباكرة يمكن رفع الشعور بالشفقة على الذات الى الدرجة القصوى. ولا بد ان ذلك عائد الى الصدمة.

هنا بعوضة تطن حول الطاولة. ولعلها، ان لسعتني، تصاب بالسرطان.

العائلة المباشرة

كاترين: في المساء الذي سبق مباشرة كورنيليوس بتسجيل اشرطته السرية. كنت عائدة واياه من المدينة الى منزلنا بعدما امضى يومين ونصف يوم في المستشفى من اجل الفحوص الطبية. وقد افترضت بسذاجة انها فحوص عادية سوف تؤدي الى علاج لمرض البروستات الذي كان يعاني منه منذ بضعة اشهر. لكنها، عوضا عن ذلك، كشفت عن زحف السرطان المقيت.

لم نتبادل الحديث ونحن في طريق العودة بالسيارة نحو كونتيكت في الليل. فقد كنا منهكين من الناحية العاطفية، وكانت افكارنا متجهة الى السرطان، لا الى الطريق فتجاوزنا منعطفنا العادي، وبقينا نتابع السير في الطريق العام. وكان كورنيليوس هو الذي اكتشف الخطأ، فقال: "بحق السماء، اين نحن يا كاترين؟"

في الاحوال العادية، كان تأخرنا في المدينة او خطأنا بالنسبة الى المنعطف، امرين مثيرين وتافهين في الوقت نفسه. اما في يوم الجمعة ذاك، فكانا نكستين جديدتين في

يـوم حافـل بالـكـروب٠ وطـوقـت كورنيليوس بذراعي وبكيت بكاء مراً٠

فهزني بلطف وقال: "كفي عن هذا يا فتاتي الصغيرة"٠

وكانت انوار واجهة السيارة تحجب وجهه، اما صوته فكان متزنا ومنضبطا٠ وجعلتني رباطة جأشه هذه اشعر بالتفاؤل بعض لحظات سريعة٠ ثم ارتد الي حزني، فقلت: "اتمنى من صميم قلبي يا كورنيليوس لو ان هذا حدث لي لا لك"٠

ورأيت ابتسامة شاحبة على وجه كورنليوس الذي قال: "عديني بأنك لن تحسديني"٠ فأجبته: "امنحك كل شيء آخر املكه"٠

ثم اضفت باصرار: "علينا ان نتقاسم هذا الذي ينزل علينا٠ ان ما يحل بك يحل بي ايضا٠ وانت كنت دائما تقول اننا فريق واحد"٠

ورد كورنيليوس: "نحن فعلا فريق واحد٠ على ان هناك، شئت ام ابيت، تغيرا في اصول هذه الرفقة"٠ وقبل جبهتي واعطاني منديله لاجفف عيني، ثم ادار وجهة السيارة نحو البيت٠

"العائلة المباشرة" - نحن الاقارب الاقربين الى المريض - للمرة الاولى منذ ١٧ عاما تقريبا اجتمعت باجيالها الثلاثة تحت سقف واحد: والدة كورنيليوس، اميلي وقد جاءت من دبلن (عاصمة ايرلندا) لتقضي اجازة معنا، ووالدي الذي جاء يزورنا من ولاية ايووا، ثم نحن الاربعة٠

وعند وصولنا الى البيت بعد الساعة العاشرة ليلا بقليل، كان والدي واقفا في اسفل السلم الذي يؤدي الى غرفة الجلوس٠ وكان وجهه يعكس شيئا لا بد انه رآه في وجهينا٠

وفي محاولة مضطربة لتجنب اللحظة المحتومة، مررت بجانب والدي مسرعة كالسهم، او كالشرارة المنطلقة، ثم رحت انتقل من غرفة الى غرفة وانا انثر الاعتذارات على تأخرنا في الوصول٠ والتقيت بولدينا، فسألتهما كيف قضيا يومهما٠ لكني لم انتظر منهما جوابا٠

وتقدم والدي وشدني اليه، واجبرني على الوقوف في مكاني، وقال: "ما المسألة؟"

ورد كورنيليوس: "مرض خبيث"٠

هنا اندفعت اميلي، ام كورنيليوس، نحوه والقت ذراعيها حول خصره، ثم اخذت تبكي٠ وببطء وهدوء، ركعت على الارض وراحت تتلو الصلوات ابتهالا٠ وكثيرا ما كان كورنيليوس قد تكلم عن والدته مازحا ليقول انها "تقلق السماء" من اجل اولادها٠ ووقفت احدق اليها وانا لا أفهم ما يجري٠

وبعد انقضاء بعض الوقت على ذلك، ذهبت الى غرفة النوم٠ وكان كورنيليوس يتكلم بالهاتف الى الدكتور باتريك نيليغان، الذي اصبح في الفترة الاخيرة صديقا أكثر منه طبيبا٠ وجلست اراقب زوجي: شعر آخذ بالشيب قليلا عند الصدغين، كتفان عريضتان، قوة جسم على نحافة، طريقة كلام جازمة منظمة - هذه كلها كانت صفات كورنيليوس بالذات٠ وهو لم يكن منحنيا ولا متجعد الجسم ولا أقل حيوية من ذي قبل٠ فكيف يمكن ان يكون مصابا بالسرطان؟ ذلك غير معقول٠

وتركته وهو لا يزال يتكلم على الهاتف، وذهبت الى جناح ولدينا متسائلة عما اذا كانت كلمة "خبيث" عنت لهما شيئا. كانت فيكي، البالغة ١٣ عاما من العمر، جالسة على سريرها وفي حضنها طبق فيه عدد من قطع لعبة صور متقاطعة. وفي جوارها كان باب غرفة جيف مغلقا كالعادة، اذ فرض علينا منذ مدة ان نقرع بابه وننتظر حتى ندعى للدخول اليه.

وجلست الى جانب فيكي، وتحدثنا كيفما اتفق. قلت لها ان والدها كان في المستشفى وانه قد يعود اليه في وقت لاحق. فهزت برأسها قانعة بذلك في ما يبدو، ثم عادت الى لعبتها.

وقرعت باب غرفة جيف ووقفت خارجها في الممر انتظر. ثم قرعت الباب ثانية، فسألني ماذا اريد. فاجبت: "اريد ان اراك". وحين فتح الباب بعد دقائق قليلة، لم يكن في غرفته غير مصباح واحد مضاء، مما جعلها تبدو مظلمة كأنما ليس فيها ضوء ابدا. وكان ترتيب الملصقات المثيرة على جدران غرفته يجعلها تبدو بألوان قوس الغمام المتعددة التي توقظ الخوف في تلك العتمة الخفيفة. وجلست واخبرته كل شيء بعفوية. انه في السادسة عشرة، وله الحق في ان يعرف الحقيقة.

ولعلي كنت مخطئة في اطلاعه على النبأ بمثل هذه السرعة. فقد جلس وأصغى الي بكل بساطة. ولكن حين انتهيت من الكلام، بدا شديد البعد عني. ولست اعلم متى قام هذا الحاجز بيننا، لكنه هناك في اي حال، وخطأي في قيامه لا يقل عن خطأه.

لقد كانت ضغوط تأليف الكتب سيئة جدا على افراد العائلة كلها. فقد كنا، كورنيليوس وأنا، نبقى ساعات طويلة في عملنا في المكتب، ونهمل صرف الوقت الكافي مع ولدينا. ثم ان هذا النبأ الرهيب سيكون اشد اثرا في تغيير حياتنا. ولن يسهل في ما بعد ان نحتفظ حتى بهذهالعلاقة الهزيلة التي كانت لنا مع جيف في وقت كان يقضي فيه الواجب بكل وضوح تعزيزها بسرعة. وكان لا بد لنا جميعا من ان يساعد احدنا الآخر.

مخطط معركة

كورنيليوس: ينبغي ان احاول استعادة النظرة العامة الشاملة الى الامور، لتسجيل تبرير عقلاني على هذه الاشرطة. يجب ان اجتاز مرة ثانية هذا الحقل المزروع بالالغام، يقظا وسليما، كما حدث حين اجتزت حقل الالغام في الحرب العالمية الثانية.

كنت دائما احس بخوف بارد حين ينتهي البحث لوضع كتاب ما. كنت في الماضي استطيع ان اتفرغ للمهمة، ولا اتذمر، الا في ما ندر، من عدم التمكن من انجاز الكتاب. اما بالنسبة الى هذا الكتاب، فان "مفكرة الكاتب" لا تزال محفوظة منذ وقت طويل بحيث انني اصبت بالذعر. وقد بدأت الآن اعرف بعض السبب على الاقل: لا استطيع ان اموت و"جسر واحد بعيد" لم تتم كتابته.. ولكن كيف ابدأ الكتابة وسيف ديموكليس معلق فوق رأسي؟

كل شيء منظم وجاهز. لقد رتبت كاترين كل مقابلة عسكرية، بدءا من رجال قيادة الفرقة الى الجنود في

مستوى الانفار. هناك خمسة ملفات سوداء ضخمة، موزعة على كل من الهولنديين والالمان والامريكيين والبريطانيين والبولونيين، وهي موضوعة على طاولتي. وقد ضمنت كاترين كل ملف خير سرد للعمليات واشارت الى جميع ذوي العلاقة باي حادث ايا كان الملف.

ثم ان سكرتيرتي،آن بارديناغن، تأكدت، المرة تلو الاخرى، من صحة كتابة اسماء الرجال والنساء ممن جرت مقابلتهم او ارسلوا اي معلومات. وان مصورات الشوارع في مدن آيندوفن ونييمغن وآرنهيم الهولندية، كما كانت عام ١٩٤٤، جاهزة لتعليقها على اللوحة التي تحتل نصف جدار المكتب. ثم ان المذكرات والرسائل العسكرية موضوعة بترتيب اليوم والساعة. وكل شيء جاهز للعمل، ما عداي. فبعد هذه الاشهر الطويلة، لا يزال علي ان اكتب ولو جملة افتتاحية مرضية.

ان كلامي لذاتي عن هذه المسألة اخذ يفيدني. فقد بت احسب انني اعرف ماذا يجب ان افعل: يجب ان اجري تحقيقا حول السرطان كما اجري بحثا من اجل تأليف كتاب. لا يمكنني ان اعتمد كلمة طبيب واحد فقط، ولا بد لي من الوصول الى السلطات الطبية العليا. لا بد ان اكتشف بنفسي اين يجري البحث الاكثر تقدما حول السرطان. ثم علي مع ذلك ان اضع كتابي. ليس في امكاني ان أدع السرطان يقضي علي قبل اتمام معرفتي به وانجاز عملي بالنسبة الى الكتاب الجديد. ينبغي علي ان اواصل السير، حتى ولو كانت العقبات تعترضني. ولا بد انني منتصر بطريقة ما، على نحو ما... لا بد انني منتصر.

الاحد، ٢٦ يوليو (تموز). دونت على سجل اصفر رسمي المقررات التي لا بد من اتخاذها على وجه السرعة. أولها، طبعا، استئصال البروستات. والدكتور باتريك نيليغان هو الذي سيتولى اجراء العملية شرط ان ينصح بها طبيبان او ثلاثة اطباء من الاختصاصيين في المجاري البولية.

والأمر الثاني الذي ينبغي تقريره هو من اخبر، وماذا اخبره. لدي زملاء وناشرون من ناحية، واصدقاء من ناحية اخرى. وهناك سؤال واحد ينطبق عليهم جميعا، وهو: كيف سيتلقون النبأ حين اطلعهم عليه؟ احسست فجأة بوجوب وقاية نفسي والمحافظة على سمعتي. ان كلمة "سرطان" تثير الخوف نفسه الذي يشل كالجزام او الطاعون.

والنقطة الثالثة المدونة في السجل الرسمي هي "رحلة صيد السمك". وهي الوحيدة التي لا علامة استفهام امامها.

كان ذلك منذ اعوام ثلاثة حين اصطدت في نهر التا على مسافة ٤٠٠ كيلومتر شمال دائرة القطب الشمالي، وهو اروع مكان اصطاد فيه. وكانت هناك مجموعات كبيرة من شجر الصنوبر والبتولا تغطي الضفتين وتلال صوانية ترتفع في الفضاء في امكنة اخرى. وكانت المياه بيضاء وتحدث صخبا عند الشلالات، وسوداء وهادئة في البرك العميقة حيث يعيش سمك السلمون. واذا كان مستبعدا، لسوء حظي، ان ارى نهر التا ثانية،

فان ذلك ادعى لوجوب ذهابي اليه.

وحين اصل الى اوسلو، في المرحلة الاولى من رحلتي الى نهر التا، سوف ابدأ بالتعرف الى امكنة وجود الاختصاصيين الاوروبيين البارزين في المجاري البولية، حتى اذا حصلت على اسمين او ثلاثة اسماء لاطباء كبار، تمكنت من ترتيب مقابلتهم. الدكتور باتريك نيليغان يتولى اليوم جمع الصور لاعراض المرض كي احملها معي اذا قررت مقابلة اطباء اوروبيين. وكان قد بدأ سابقا البحث عن اطباء في هذه البلاد، وهو سيحدد لي مواعيد لمقابلتهم خلال رحلتي. وقد بدأنا الاعداد لذلك.

لقد جلت العالم خلال ٤٠ عاما، ابحث، واقابل الآخرين، واضع التقارير. وكنت احقق هذه الاعمال كأي شخص آخر. اما ان يقوم ريان بالتحقيق في شأن اصابة ريان نفسه بالسرطان فامر غريب جدا، يتضح معه على الفور وجود نقطة ضعف واحدة، وهي ان علي ان احافظ على الحد الاقصى من الموضوعية والتجرد اللذين لم اشعر بهما ابدا وانا اعد كتبي.

هذه المعركة التي سأتولى التحقيق في شأنها لم تقع منذ ٢٥ عاما. ولا وقت لمطالعة خلفياتها وجمع الاحصاءات حولها خلال عدد من السنين. انها معركة فورية. ومعرفتي بقوة العدو وتحركاته المحتملة ضئيلة جدا الى حد يرثى له.

الوالد والابن

كاترين: في الثالث من اغسطس (آب) عاد كورنيليوس من اوروبا. كان الطقس الرديء في نهر ألتا قد

اجبره على اختصار رحلة الصيد. ولدى عودته من "نهر السلمون"، كان يغلق عليه باب حجرته في الفندق في اوسلو ويتصل هاتفيا بمركز بحث بعد الآخر، وكان سؤاله الرئيسي: "اين يجري البحث الاكثر تطورا حول سرطان البروستات، ومن يجريه؟"

وكان ستة أشخاص من أصل ١١ شخصاً تحدث اليهم، ذكروا مؤسستين وطبيبين اختصاصيين. والاسماء هي: مركز سلون كيثيرنغ التذكاري للسرطان في مدينة نيويورك والدكتور ويليت ف. ويتمور (الابن)، ثم مؤسسة برادي للمجاري البولية في مستشفى جونز هوبكنز (ولاية بالتيمور والدكتور هيو ج. جويت. وكتب في ما بعد يقول: "كان علي ان اذهب الى اوروبا لاجد ان اثنين من ابرز الخبراء موجودان في بلادي".

وكان الدكتور باتريك نيليغان هيأ لكورنيليوس ولي مقابلة مع الدكتور وورد في نيويورك في الخامس من اغسطس (آب).

كورنيليوس: لم يؤكد الدكتور وورد التشخيص الذي توصل اليه طبيب المجاري البولية الاول فحسب، ولكن صرح عن ظنه بان السرطان ليس محصورا في البروستات، بل لعله امتد الى خارج هذه الغدة.

ووضع الطبيب لنا رسما ايضاحيا للبروستات بدت فيه هذه الغدة، من حيث الشكل والحجم، شديدة الشبه بحبة الكستناء، وتزن نحو ٢٠ غراما. وهي تستند الى جزء من المخرج، مما يتيح فحصها أحيانا باصبع ملفوفة بقفازه ثم ان الغدة كلها مغلقة بغطاء ليفي رقيق متين، يسمى "الغشاء البروستاتي". وفي تقدير الدكتور وورد ان السرطان تسرب عبر هذا الغشاء الرقيق الذي لا يرى الا بالمجهر.

ثم نظر الي مباشرة وقال: "اذا كان الامر كذلك فليس في رأيي ما يبرر عملية استئصال البروستات".

ويرى الدكتور وورد في" نموذجا جيدا للمعالجة بواسطة الهورمون. ولئن كان هورمون الذكورة، او التستوستيرون، يثير البروستات، فان هورمون الانوثة، او الاستروجين، يستطيع ان يقلص الغدة ويحول دون نشاطها. وبواسطة الاستروجين يمكن حصر السرطان ومنعه من الامتداد فترة طويلة.

ولذي الآن رأيان - وجهتا نظر متناقضتان تماما. وقد قلت للدكتور وورد: "اظن ان علي مواصلة البحث. فهل ترى ان هناك أحدا يجب ان اجتمع به؟"

فأجاب عن اقتناع: "بالتأكيد. وهناك طبيبان في ذهني: الاول هو الدكتور هيو جويت من مستشفى جونز هوبكنز في بالتيمور، والثاني هو الدكتور ويليت ويتمور من المركز التذكاري". وهما الطبيبان نفسهما اللذان سمعت بهما مرارا في اوروبا.

وكانت فكرة حرماني من رؤية ولدي" (بعد الوفاة) تراودني أكثر من اي شيء آخر. كان يصعب علي ان اواجه عدم رؤيتهما يزدادان طولا وينضجان ويكبران ويشقان طريقهما.

افكر في ابنتي فيكي وفي الرجال الذين سيتجمعون حولها ذات يوم. افكر في احتفال زواجها الذي لن احضره ولا ريب، في حين كان يجب

ان اسير بجانبها في احد اروقة الكنيسة، وشعرها مصفف كالفضة، وزينتها ناعمة وجمالها بالغ حد الروعة. ذلك الغريب الذي لا بد ان يأتيها ذات يوم، هل يعرف فيكتوريا حق المعرفة؟ هل يستطيع ان يكون كأبيها حبا لها، ويوفر لها حماية كحمايته ويشجعها في مطامحها؟

وهناك جيف، ابني الوحيد. انه شديد الانطواء على ذاته. وهو بلغ السن التي تكون فيها العائلة اقل اهمية، الى حد بعيد، من الاصدقاء وقد كنا، انا ووالدته، منشغلين في المكتب كثيرا وباستمرار. وكنا نتوقع من ولدينا ان ينظرا الى العمل واللعب، كما ينظر الكبار اليهما. وكنت اظن في بعض الاحيان اننا قضينا على الحنان والحب اللذين لدى الولد نحونا باصدار الاوامر والتوجيهات واحدا بعد آخر.

لقد تحادثت واياه هذا النهار. وكان الحديث ذا فائدة لنا معا. غير ان جيف كان صلبا لا يلين كالصخر، وكانت عيناه تتقدان بعاطفة شديدة الشبه بالازدراء.

ونزل الى المكتب وقد غلب عليه النعاس. وكان اشعث الشعر ويرتدي قميص صوف طويلة وسروال جينز في هذا الطقس الحار البالغ اليوم ٣٧ درجة مئوية. ويبدو انه ليس في حال حسنة. فهو شديد الشحوب، وحول عينيه خطوط حمراء. وكان يتنشق كثيرا منعا لسيلان أنفه. فناولته منديلي قائلا:

ـ انفخ انفك فيه. هل انت مصاب برشح او سواه؟

فرد جيف: "كلا. لست مصابا بالرشح ولا بأي سوء".

ـ انتبه يا جيف، هل نستطيع ان نتحادث؟

فقال: "طبعا. حديثنا هو ان تحاضر وان اصغي". ثم انحنى واضاف: "الق محاضرتك".

واخبرته بنبأ السرطان، عارفا ان كاترين كانت قد نقلت اليه الخبر، ومتمنيا لو انها تركت الامر لي. ثم قلت: "لا بد من ان تكون ظننتني غبيا فعلا لو لم اذكر ذلك لك".

ورد جيف:

ـ كلا. لم اظن ابدا انك غبي.

ـ حسنا. ان كل ما استطيع قوله لك هو اني ابذل جهدي لمعرفة كل شيء عن هذا المرض. فأنا لن انهزم امامه. وهذه العائلة لن تنهزم امام اي شيء".

فرد جيف بملل: "أنا أعرف ذلك. ولا أزال أسمع هذا الكلام طوال حياتي".

وهنا غيرت موضوع الحديث. "تقول والدتك ان بعض الاصدقاء جاؤوك في الليلة السابقة ليوم مولدك، وانكم خيمتم في الغابة. وهي كانت قلقة الى حد، لا بسبب التخييم في العراء، ولكن لانها لم تكن تعرف هؤلاء الاصدقاء كما لم تكن مرتاحة الى نظراتهم".

ورد بصوت قاس مرير: "انها حقا متكبرة. فماذا تلبس لدى التخييم في العراء؟ سروالا رمادي اللون وقميصا وربطة عنق؟" وهنا عطس مرة اخرى ومسح أنفه بطرف كمه.

"ماذا بك بحق السماء؟ لقد اعطيتك منديلي، فاستعمله. هل لك ان تخبرني عن سبب ارتدائك قميص

الصوف في هذه الموجة من الحر؟"
وفجأة شعرت بالخوف الشديد عليه. فامسكته بذراعه وأزحت كمه الى الوراء. فجلس هادئا بلا حراك، ثم راح يحدق بي وقال:
- انظر يا رجل. لا أثر لوخز الابر. أهذا ما تسعى اليه؟
- اريد ان اعرف لماذا تبدو كأنك مصاب بالرشح؟ ولماذا ترتدي هذه الثياب في طقس حار كهذا؟ ولماذا انت كسول وغير مبال طوال الوقت؟ ولماذا لا تبارح البيت؟
فقال جيف: "وأيضا لماذا لا اكون مثلك؟ هذا ما يقلقك في الواقع. اليس كذلك؟"
ولم أكن اريد ان يكون مثلي، لأن هذا يعني السرطان. وسألته: "جيف، هل تتناول مخدرات؟"
فضحك ثم نهض عن الكرسي واتجه خارج الغرفة وهو يقول: "لك أن تظن ما شئت".
ولا أزال جالسا هنا منذ ذلك الوقت، مرغما نفسي على التفكير في الامر من خلال تسجيله على شريط. واذا كان جيف يتعاطى المخدرات، فعلي ان اوقفه عن ذلك. وربما كان كل ما يقلقه لا يعدو كونه امتعاضا مكبوتا، ولكن لا شك في انه تغيّر. ولئن كان أحسن ما في حياتي ولّى وزال، فهو لا يزال في بداية الطريق. ومهما يكن الامر، فلا استطيع ان اقف مكتوف اليدين وأنا أراه يتحطم.

إني عائد اليه

كاترين: نهار الاربعاء، ١٢ اغسطس (آب). ذهبنا، كورنيليوس وانا، بالسيارة الى نيويورك للمقابلة المحددة مع الدكتور ويتمور. ورفع الطبيب الصور بعناية وقال: "انه سرطان غدة البروستات بالتأكيد. وقد امتد بين اغشية الاعصاب، مما يعني اصابة الياف الاعصاب في المنطقة الواقعة بين وعاء الخصيتين والشرج".
وسأله كورنيليوس: "ماذا علي ان أفعل في رأيك؟" فابتسم ويتمور وقال: "لا شيء على الاطلاق". ثم تابع كلامه: "دعني اشرح لك ذلك.
"لعلي اجريت من عمليات استئصال البروستات اكثر مما اجراه اي طبيب آخر في البلاد باستثناء الدكتور جويت في بالتيمور. الا انها كثيرا ما تسفر عن تعقيدات جراحية ووفيات تفوق ما يسببه السرطان نفسه. لقد اصبحت الآن انزع الى فكرة دراسة تطور خلايا السرطان في الشخص بالذات. في بعض الاحوال تتكاثر الخلية الخبيثة في البروستات او تمتد بحيث تتضاعف كل سنتين. وفي احوال اخرى يتم ذلك كل يومين او كل بضعة اشهر. وقبل معرفة نسبة النمو عند الفرد المعني، لا أنزع الى فعل اي شيء باستثناء الفحوص المنتظمة".
وهنا قال كورنيليوس: "مثل هذا الخبر من شأنه ان يؤدي الى تحرير الانسان واسعاده معا. على انه يبقى شعور مزعج بأن السرطان قد يكون مستمرا في امتداده. ولا اعرف ما اذا كان في امكاني ان احيا في ظل هذا القلق وان اركز على كتابة الكتاب. ماذا تفعل اذا جاء وقت تبين لك فيه انه لا بد من عمل شيء ما؟"
فأجاب ويتمور: "في هذه الحال تعالج بالهورمونات التي توقف

الامتداد الى حد ما". وتوقف عن الكلام قليلا ثم أضاف:

"هناك ايضا طريقة علاج ثالثة وهي طريقة ابتكرناها هنا بزرع ذرات الاشعاع في البروستات. ومن شأن هذه الذرات ان تعمل على تقليص الغدة والقضاء على نسبة عالية جدا من خلايا السرطان في وقت واحد. وقد بدأنا هذا النوع الخاص من المعالجة منذ نحو ثلاث سنوات فقط، وهي فترة قصيرة جدا بالنسبة الي وغير كافية لكي اؤكد، ولو الى حد بسيط، انها طريقة ناجحة في معظم الاحوال. ومع ذلك، فاني أطلب منك، اذا لزم الامر، ان تفكر في هذه الاساليب".

كورنيليوس: لما كان لا بد من ذلك، فقد كنت احاول ان اشرع في الكتاب. لقد كتبت نحو ٣٠ صفحة وقمت بما يقرب من ٢٠٠ محاولة مخفقة لوضع الجملة الاولى. اعرف كيف اريد ان استهل الكتاب، ولكن يبدو انني اعجز عن تدوين ذلك على الورق. لقد سجلت العبارة الآتية: "ظلمة سبتمبر (ايلول) الرقيقة وضباب الصباح الباكر". وكتبت عبارة عادية بسيطة هي: "شيء ما كان مختلفا". ووضعت عبارة اخرى أكثر التواء هي: "شيء ما كان مختلفا بصورة غريبة". لكني اريد جملة اولى جازمة رنانة، تشد القارىء شداً وتحمله على مواصلة القراءة.

الثاني من سبتمر (ايلول) ١٩٧٠.

بسبب ما جرى امس كانت تتملكنا موجة لطيفة من التفاؤل. والرجل المسؤول عن تحسن حالنا هو الدكتور هيو ج. جويت.

كنت واثقا من انه سيشير باستئصال البروستات. غير انه رأى ان الحد الذي بلغه الورم السرطاني في حالتي يجعل استئصال البروستات امرا مستحيلا. وكان رأي الدكتور جويت ان الطريقة المثلى لمعالجة حالتي السرطانية هي تلك التي تستخدم قذف النسيج المصاب بجزيئات تحت النووية بواسطة آلة تسمى "المسرّع الخطوطي". وصعقني ذلك اذ لم اكن سمعت بمثل هذا العلاج.

والطبيب الذي اشار علي به هو الدكتور مالكولم باغشو، مدير قسم العلاج بالاشعة في مستشفى جامعة ستانفورد في بالو ألتو (كاليفورنيا). ولدى الدكتور باغشو احصاءات مجموعة خلال عشر سنوات، تدل على انه استطاع القضاء على الخلايا الخبيثة بهذه الوسيلة. وكان الدكتور جويت يشعر بأن هذه الطريقة قد تضمن النجاح الكامل. فسألته: "ما معنى النجاح الكامل؟ هل يشير الى عدد من السنين، ام يعني اني اتخلص من السرطان الى الأبد؟"

وجاء جواب الطبيب في شكل سؤال هادىء: "حسنا! ما رأيك في اطالة حياتك سنوات كثيرة؟"

وشعرت في تلك اللحظة، ولا ازال اشعر حتى الآن، انني حصلت على هذه السنوات الجديدة.

الجمعة، التاسع من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٠. انا في الطائرة متوجها الى بيتي. لم اكن اريد ان اسجل ما عرفته على شريط. لم تكن لدي رغبة في التحدث عن مشاعري حتى الى هذه الآلة الجامدة. لا شيء

اسوأ من ان يشفق المرء على نفسه، لكن ذلك هو كل ما تبقى لي، بل بقي لي شيء واحد اخر هو الغضب من القدر.

يوم الاثنين ذهبت الى سان فرنسيسكو بالطائرة. وفي اليوم التالي قطعت بالسيارة مسافة ٥٥ كيلومترا لمقابلة باغشو. وبعدما فحصني، شرح لي علاج "المسرّع الخطوطي". قال انه يحدد مكان الورم ثم يعرّض النسيج المعني فقط للاشعاع. ويقف المريض على طاولة تدور دورة كاملة من ٣٦٠ درجة، ويعطى ١٥٠ - ٢٠٠ دفقة شعاعية عادة في اليوم، الى ان يبلغ المجموع ٧٥٠٠ دفقة.

وفي الصباح التالي تم تصويري على اشعة أكس من رأسي حتى قدمي. وأدخل نظير اشعاعي الفاعلية في الوريد وراحت الصفائح تصوره وهو يسري في الجسم ليبين ما اذا كان السرطان موجودا في اي مكان من العظام. وبعد ذلك جرى فحص مدى الانتشار لمعرفة ما اذا كان السرطان قد امتد او انتقل الى اعضاء اخرى غير البروستات. ثم صور الغشاء اللمفاوي لتحديد حاله وحال المفاصل في جسمي.

وبلغني يوم الخميس نبأ مفجع، وهو ان عقدتين لمفاويتين على جهتي البروستات دلتا كل الدلالة على انهما في حال "غير طبيعية". وهذا يحتم،

قبل المعالجة بالاشعاع، اجراء جراحة لاستئصال قطعة من العقدة وفحصها مجهريا ليتقرر بعد ذلك ما اذا كان الورم خبيثا. وسألت عن معنى هذا كله، فاعترف الدكتور باغشو بقوله ان الخبث في العقد المفصلية مميت حقا. وسألته: "كم من الوقت يعطيني ذلك؟" فأجاب: "نحو ثلاث سنوات".

ورحت اتخبط في خضم من التردد، وكنت افكر في كتاب "جسر واحد بعيد" باستمرار. ولم اكن استطيع العمل على مادة الكتاب على نحو متقطع، كما كان من المستحيل ان انقل المادة كلها الى كاليفورنيا. ثم انه يتعذر علي نقل عائلتي الى كاليفورنيا ايضا، مقتلعا أياها من بيئتها طوال الوقت الذي تستغرقه معالجتي لدى الدكتور باغشو.

كاترين: الساعة الثامنة تقريبا من مساء الجمعة. كورنيليوس عاد الى المنزل، لكنه فاقد نشاطه وحماسته العاديين كليا، وفي وجهه نظرة ألم. وسألني ان اخبر بات نيليغان بأننا متوجهان اليه.

وحمل كورنيليوس حقيبته الى الدكتور نيليغان وفيها نسخ افلام العقد اللمفاوية، وقال: "لا بد من العناية بالعقد اللمفاوية. الا انني افضل اتخاذ القرار بشأنها هنا مع الناس الذين احبهم، وليس حيث اكون وحدي. وأرجوك يا بات ان تتصل بالدكتور ويتمور هاتفيا وتعلمه بأني متوجه اليه نهار الاثنين. واي شيء ينبغي ان يعمل، يجب عمله هنا في نيويورك، وبواسطته".

جراحة

كاترين: في سجل المواعيد الخاص، دون كورنيليوس في ١٢ اكتوبر (تشرين الاول) ما يأتي: "رأيت ويتمور اليوم. تقرر اجراء العملية". وهو يقول في اشرطة التسجيل:

"تقرر ان اذهب الى مركز سلون كيتيرنغ التذكاري لاجراء عملية تتألف من فحص دقيق للمنطقة بكاملها: فحص للعقد للتأكد مما اذا كانت اصابتها خبيثة، واستئصالها اذا كانت كذلك، ثم زرع ذرات اشعاعية، تحتوي على يود اشعاعي الفاعلية (١-١٢٥)، في البروستات بالذات. انها جراحة رئيسية. ومن يدري ما اذا كانت اي خطوة منها ستنجح؟ لكني سأخضع لها بكاملها على كل حال".

ودعي باتريك نيليغان من قبل الدكتور ويتمور لحضور العملية. وفي منزل آل نيليغان كتبت شيئا وطلبت من باتريك ان يعطيه لكورنيليوس. كنت أعلم ان احد المقاطع الحبيبة الى كورنيليوس في مؤلفه "اليوم الاطول" كان يتناول التحليقات الجوية قبيل فجر يوم الغزو، يوم السادس من يونيو (حزيران) ١٩٤٤، حين كانت حاملات المظليين تحوم فوق الاسطول الضخم الذي ينقل المشاة الى السواحل. وكان قد عمل على هذا المقطع نحو اسبوع قبل شعوره بالارتياح اليه. ونقلت هذا المقطع مما كان عالقا في ذاكرتي.

وتليت رسالتي على كورنيليوس قبيل نقله على عربة الى غرفة العمليات. كان هادئا يغلب عليه النعاس، لكنه قال لباتريك: "انها مخطئة في روايتها". ثم اخذ يتلو من

ذاكرته: "... كان رجال الاسطول الغازي يسمعون اصوات الطائرات. موجة اثـر موجـة كانـت تمـر فـوق رؤوسهم... لم يكن احد يستطيع ان ينبس ببنت شفة. وعندما كانت المجموعة الاخيرة من الطائرات تحلق في الجو، انطلق نور كهرماني خلال الغيوم نحو الاسطول تحته. وببطء لمع بريق على طريقة "مورس". ثلاث نقط ففاصلة صغـيـرة. "ن"،. اي النصر".

وبقيت في المدينة عند اصدقاء لنا. وقرابة الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر رن جرس الهاتف وكان الدكتور نيليغـان هنـاك يـحـب ان يراني. كان يبدو جاف الوجه، لكن كلماته الاولى انطلقت بسرعة: "لقد خرج من العملية في حال جيدة. له جسم قوي كالثور، الا انه ينام اعمق نوم بعد هذه الجراحة".

- وماذا بشأن العقد يا بات؟

فأغمض نيليغان عينيه، وبدا وجهه شاحبا الى درجة غريبة جدا. "كان هذا اليوم طويلا بالنسبة الينا جميعا يا كاترين. لكن صورة باغشو عن اللمفاويات كانت صحيحة. فالعقد مصابة، وكذلك غيرها، بحيث كان على ويتمور ان يعمل مبضعه".

وقلت: "ما يعني هذا الآن يا بات؟".

فرفع بات نظارتيه ثم فرك عينيه وقال: "آمل في ان يكونوا قد ازالوا القسم المصاب كله".

ولمـا كـان كورنيليـوس شـديـد الاهتمام بمعرفة ما تبقى له من الوقت، حاول ان يتعرف الى جميع الحقائق عن مرضه وعن علاجه، واجدا في هذه المعرفة الامل الوحيد لتنظيم حياته وقد كتب الدكتور باغشو: "لم يسبق ان صورت الورم اللمفاوي لاحد فـي مثـل هـذا الوقـت الباكـر مـن الاصابة. واحسب ان هذا يشجعنا على تصوير الاورام اللمفاوية في مراحل باكرة".

وكتب الدكتور ويتمور الى الدكتور باغشو يقـول: "لقـد قلبـت الصـورة اللمفاوية افكارنا بالنسبة الى هذا المريض.

وقال كورنيليوس نفسه معلقا على ذلك: "الولايات المتحدة بلاد غنية بالموارد الكبيرة والاموال المخصصة للبحث عن السرطان. ومع ذلك، لا سبيل للاطبـاء والاختصاصيـيـن الـى التعرف علـى كـل مـا يجـري وهـم يواصلون عملهم اليومي. ولا بد من وجود طريقة يستطيع معها الطبيب ان يدير رقما من الارقام فيتمكن دماغ الكتروني ان يبلغه على الفور ما يجري في حقل خاص من الحقول. كم من حياة كانت تنجو او تطول! وكم كان اقل كلفة للمريض لو استطاع الطبيب الاول الذي يقابله ان يخبره على الفور عن الخيارات المتوافرة له وامكنة توافرها".

يوم الخميس، ٢٩ اكتوبر (تشرين الاول)، صرف كورنيليوس من المركز التذكاري وكان صعبا عليه ان يقبل واقع عجزه. لكنه قال لي: "لن الومك ابدا ان فعلت امرا يناسبك. ولكن ليبق ذلك مكتوما عنـي".

واوضحت له مشاعري نحوه على خيـر مـا استطعـت. كنـت فخـورة بزوجي، كـان يشـع حيـاة ويتدفـق حماسة وتنبها على نحو لم اعهده قبلا

ممن عرفت. وان قيامي باي عمل غير وفي لعلاقتنا الزوجية سيؤدي، مهما بلغ من الحذر والتحفظ، الى هدم ما بنيناه معا والى تشويهه كذلك. لقد اقسمت ان احبه واخلص له في المرض والصحة على السواء، وان ابقى متعلقة به وحده. انها فلسفة مبسطة، او لعلها قديمة، ان نقول بأن الزمن يتغير، وان الناس يتغيرون كذلك، وان هناك اسبابا للافتراق او للطلاق. لكن الانسان، اذا كان موفقا، يبقى مشدودا الى فتنته الاولى. وأظن اني احببت زوجي في سنوات مرضه أكثر من اي وقت آخر في حياتنا الزوجة. والطريقة التي واجه بها مرضه، والشجاعة الشديدة التي قاومه بها، كانتا تقضيان على رغباتي بمقدار ما كان فخري به يتزايد.

وما ان صرف من المستشفى حتى ابدى كل استعداد لاستئناف نشاطه اليومي المألوف على الفور. في اليوم التالي نهض باكرا كالعادة، واستحم، وارتدى ثيابه ببطء، رافضا اي مساعدة في ذلك. وبعد تناول طعام فطور خفيف، اخذ يشق طريقه نحو المكتب بشيء من الألم. وكان حريصا على ان يتفحص كومة الرسائل التي تنتظره. وقد عمل طوال النهار في املاء الرسائل. ولم يذكر كلمة واحدة عن حاله. الا انه دون في مذكراته لذلك اليوم كلمتين عنيفتين شديدتي الوضوح: "الالم شديد". وكان هناك دواء لمعالجة هذا الالم، لكنه رفض أن يتناوله.

وفي ١١ ديسمبر (كانون الاول) عاد كورنيليوس فاجتمع بالدكتور ويتمور. وكان كورنيليوس يبدو في حال جيدة. فقد اندمل جرحه على وجه مرضٍ. ووجد الطبيب عند فحص المخرج باصبعه ان البروستات كانت غير مختلفة نسبيا من حيث الحجم والشكل عما كانت عليه قبل العملية. وبدا الأمل آنذاك افضل مما كان عليه منذ اشهر. وكانت معنويات كورنيليوس عالية جدا.

ضغوط

كاترين : ظل كورنيليوس يعمل على كتابه بانتظام طوال ربيع ١٩٧١. وكان يجد ان الكتابة تجري ببطء مقلق ثم طلب منه، بالاضافة الى ذلك، عمل آخر، فقبل ان ينجزه بكل سرور. لقد طلبت فيكتوريا من والدها ان يساعد في اخراج مسرحية "اوليفر" الموسيقية في المدرسة. لم يكن كورنيليوس، وهو في السادسة عشرة من عمره في دبلن، اتقن العزف على الكمان فحسب، لكنه كان صاحب جوقة موسيقية خاصة به. وكان محبا للمسرح ايضا، فاخذ يصرف الساعات مترددا على مسرح "آبي" الشهير في دبلن، حتى ان الروايات كانت تعرض عليه (وكان يرفضها كلها رفضا قاطعا).

وبالاضافة الى ذلك، تعلم الرقص النقري الذي يتميز بالضرب على الارض ضربا قويا برؤوس الاقدام او بكعوبها. ومنذ ان تمكن ولدانا من المشي، اخذ كورنيليوس يصرف الساعات مع جيف وفيكي لتعليمهما خطوات الرقص بكثير من الصبر.

ولفترة زادت على الشهر، ظل كورنيليوس يغادر المكتب عند الساعة

الثانية والنصف بعد ظهر كل يوم ويذهب بسيارته الى مدرسة فيكي ليعنى بشؤون الرقص والاضاءة والموسيقى. وبعد الحلقة الاخيرة قدمت اليه المخرجة الشابة صفيحة فضية حفرت عليها العبارة الآتية المقتطفة من احدى الاغنيات: "اعتبر نفسك واحدا منا". وللمرة الاولى خانت الكلمات كورنيليوس، لكن هذه الصفيحة احتلت مكانا بارزا بين ممتلكاته العزيزة.

ومع عودتنا الى الحياة والعمل، كانت هناك مسألة رئيسية مهملة منذ زمن بعيد، تحملنا على القلق والخوف. فقد عمدت، على رغم كل النصائح الى غزو غرفة جيف، واكتشفت فيها اثباتا على ان ابننا كان يتعاطى شيئا آخر غير التبغ. وقابلته بما وجدته، فاعترف، وجرى بيننا حوار طويل عاصف. قلت له: "عليك ان تعدنا الآن بأن هذا الامر انتهى، او ان تغادر هذا البيت".

ونظر كورنيليوس نحوي محذرا، وهز برأسه. لكني قلت: "اني أعني ما اقول. لا اريده في هذا المنزل الا اذا استقام منذ هذه اللحظة. ثم استدرت الى جيف، وقلت وانا ارتجف غضبا: "والآن ماذا ستفعل؟".

وشتم ثم قال: "وماذا يمكن ان يكون الا ما تريدين؟" ثم اندفع بجانبي وصفع الباب بعنف حتى ان الرتاج اهتز بقوة هائلة.

كان لون وجه كورنيليوس مغبرا كالرماد. وادركت انه تكلم قليلا، ثم قال: "انك لن تطرديه". فاجبته، وكنت لا ازال حزينة غاضبة فضلا عما جدّ لدي من حقد مفاجىء: "قل لي كم من الوقت صرفت انت معه في هذه السنة الاخيرة؟" فأجاب كورنيليوس: "ليس هذا عدلا".

- لا عدل ابدا. الحياة غير عادلة. اني متعبة، بل مرهقة. لدي عملي هنا، بالاضافة الى العمل المستمر في شراء الحاجات من الدكاكين او الذهاب بالسيارة الى مدرسته او مدرسة فيكي لاجراء هذا العمل او ذاك. لقد سئمت جيف وتصرفه. سئمت ذلك كله.

اخيرا قال كورنيليوس: "لعلك انت، يا كاترين، هو الشخص الذي يجب ان يذهب قبل فوات الاوان. والسبب ان حياتنا لم تعد كما كانت، ولن تعود. وليس امامنا غير علامات استفهام".

وفي وقت متقدم من ذلك المساء زارنا في منزلنا صديقنا تيد سافورد الذي كان طبيب جيف ايضا. وقال لنا: "لا جديد في مثل هذا الامر بالنسبة الى المخدرات. والاسباب تختلف بين شاب وآخر. ونحن نتوقع الكثير منهم احيانا، ولكن يشتد الضغط عليهم ويعجزون عن التحمل. ومن المؤكد ان احد الضغوط التي واجهها جيف هو المرض الذي اصابك السنة الماضية ورغبته في ان تتخلص منه".

ووضع كورنيليوس يديه على وجهه وقال بصوت مخنوق: "السرطان. يا للسرطان اللعين. انه سيقتلنا جميعا".

ورفع يديه عن وجهه وكانت عيناه غاصتين بالدموع. ثم قال له "لعنة الله على هذا المرض. لن اسمح له بذلك. يجب علي ان انقذ ابني".

ومع مرور الايام اخذت احوال جيف

تتحسن فعلا. واخذ يؤلف قطعا موسيقية ويتعلم العزف على القيثار، كما راح يعمل في الكتابة والاخراج والادارة والتمثيل في مسرحية مدرسية حققت له جائزة. وبات حضوره في البيت ملحوظا اكثر فأكثر.

ليلة ماطرة

كاترين: كانت أيام عام ١٩٧١ تمر سراعا، وكان كورنيليوس يعمل بانتظام. لكن جهوده لم تكن مجدية في نظره. وكان يرمي صفحة بعد صفحة من النسخ المخطوطة في محاولته وضع االكتاب. ثم حدثت بعد ذلك مأس اخرى مفاجئة. فقرابة الساعة الحادية عشرة من صباح ١٥ اكتوبر (تشرين الاول)، شعرت بشيء حاد ثقيل يضغط على صدري، ثم بخدر مؤلم في ذراعي اليسرى. وخلال دقائق تبللت بالعرق كأنما كنت هويت في بركة ماء. ولم اعد استطيع ان اتنفس تنفسا عميقا. وعلى الفور نقلني كورنيليوس بالسيارة الى مستشفى "نورووك" على مسافة ٢٥ كيلومترا.

وبعد فحوص عدة متوالية، لم يستطع الاختصاصيون في امراض القلب سوى ان يقولوا ان الذي اصابني "هو الم في صدري لا يمكن تحديده"، ولعله ناتج عن ارهاق. وفي اقل من عشرة ايام عدت الى البيت. وطوال بقائي في المستشفى، كان كورنيليوس يأتي لزيارتي كل يوم، وأحيانا برفقة جيف وفيكي. وفي كل مرة كان يبدو مغموما وقلقا. فقد كان مرضي يشغل وقته وافكاره، وكان لا بد لعمله في الكتاب ان يتعثر.

وكان كورنيليوس استقدم امرأة لتعد الطعام، لكنه كان يحمل الاطباق الي بنفسه، ويعني باغتسالي، ويقضي الامسيات الى جانبي لتسليتي بالحكايات.

ومرة اخرى حدثت ازمة جديدة. ففي مساء ٩ ديسمبر (كانون الاول) كنت في الحمام. وقرع كورنيليوس الباب ودخل علي وقد امتقع وجهه، وقال: "الآن، يا كاترين، جاء شاب يطلب جيف. تكلم معي على الهاتف الداخلي، وبقيت استمع لاتأكد من ان جيف رد عليه. وقبل ان اترك السماعة، كان هذا الشاب يقول ان لديه "الغرض" ويسأل ما اذا كان جيف يستطيع ان يأتي بال٧٥ دولارا غدا. الا تظنين يا كاتي...؟".

ولم يحاول جيف ان ينكر، وقال: "لم اتوقف يا اماه. انما بدا لك الامر كذلك".

وذهل كورنيليوس. فهو كان ينشد الهدوء، ولم يكن يريد المزيد من الامراض، لا له ولا لي ولا لجيف.

"اخرج"، قلت لابني الوحيد.

وفجأة جاءت فيكي مغضبة وصرخت: "لا تلوميه. انه خطأي. فالشاب الذي اتصل به يذهب الى مدرستي. وانا اخبرت جيف بامره".

وسألها كورنيليوس عمن يكون ذلك الشاب، ثم تكلم على الهاتف فورا. غير ان والد الشاب انكر بكل بساطة ان يكون لابنه علاقة بذلك.

ولم يفطن احد منا الى ذهاب جيف. لقد انسحب بهدوء من غير ان يأخذ اكثر من الثياب التي كان يرتديها. كان المطر يتساقط برفق، ولكن باستمرار.

وقالت فيكي: "انت جعلته يذهب.

كلما كانت شمعات الاشعال جديدة تحسّن انطلاق السيارة

– كيف تؤثر شمعات الاشعال (البوجيات) البالية في انطلاق المحرك؟
– الامر بسيط: في الطقس الرطب او السيء، يتعسر اشعال الشمعات البالية، وفي الطقس البارد يستلزم اشعال الشمعات البالية مقدارا اكبر من الجهد الكهربائي، بينما يقل تجاوب المشعلة، فاذا كان الطقس باردا او رطبا، او كليهما معا، فاحرص على تركيب شمعات "شامبيون" جديدة، تأمينا لانطلاق المحرك،
– ولماذا تبدل شمعات "شامبيون" بالشمعات البالية؟
– ذلك لعدة اسباب: لان معظم صانعي السيارات في العالم يفضلون شمعة اشعال "شامبيون" على سواها من الاصناف، ولانها اكثر شمعات الاشعال استعمالا في بطولة سباق السيارات العالمية،

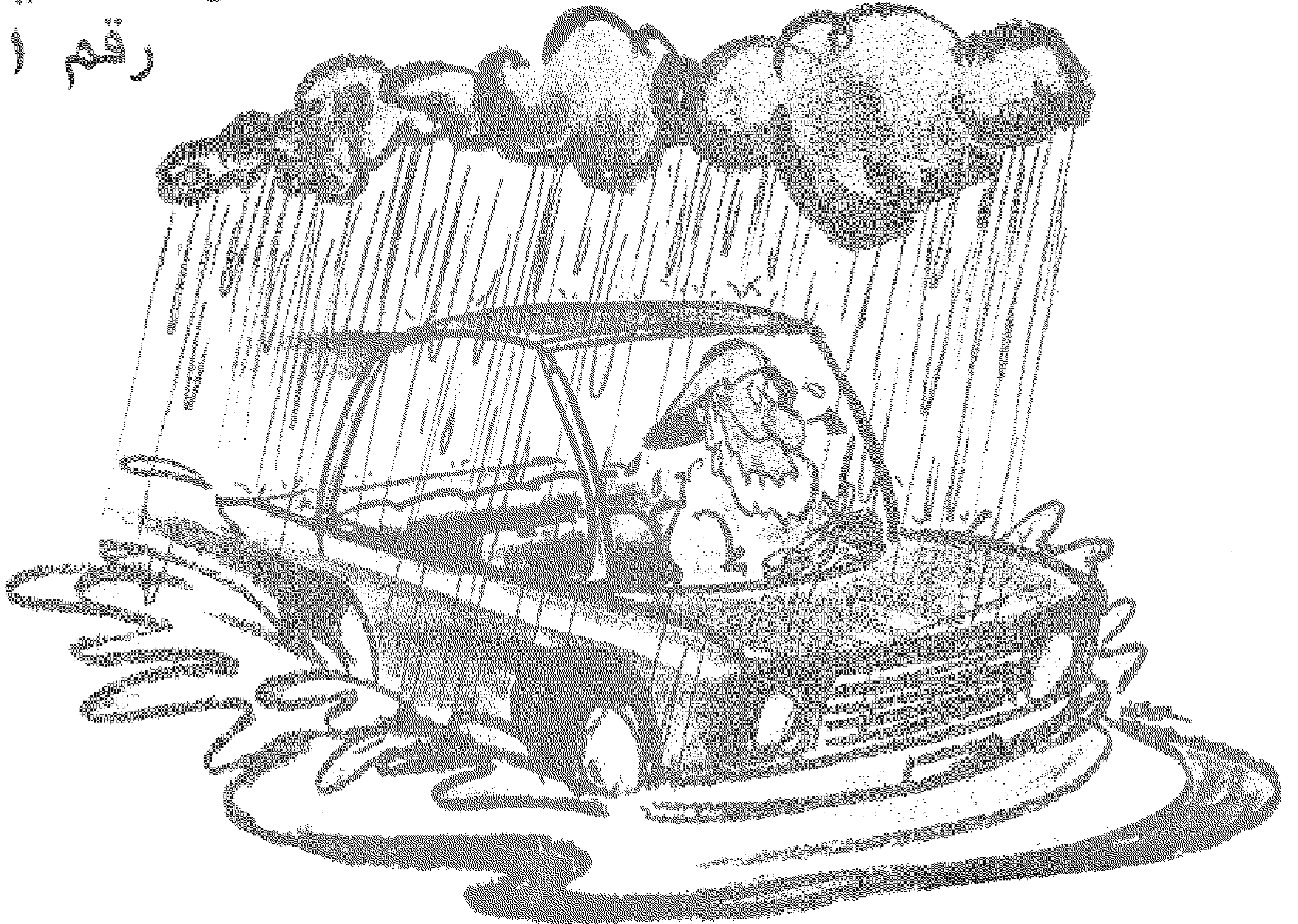
بالاضافة الى انها الصنف الرقم ١ الذي يباع في العالم، فعندما تحتاج الى شراء شمعات اشعال، كن على ثقة بان "شامبيون" يصنع شمعات ملائمة تماما لسيارتك،

وبالتالي، فاذا شئت ان تتجنب مشكلات الانطلاق، غير شمعات الاشعال مرة على الاقل كلما قطعت سيارتك مسافة تراوح بين ١٤٠٠٠ و١٦٠٠٠ كيلومتر، وركب شمعات "شامبيون"،

فهي الشمعة التي يفضلها معظم سائقي السيارات في العالم،



البائع العالمي رقم ١



واللوم يقع عليك، لا عليه". وذهبت الى غرفتها صافعة الباب خلفها بقوة.

وكنت اسمع كورنيليوس يصفع ابوابا اخرى في غرفته بعدما غير ملابسه. ثم نزل السلم، واسرعت خلفه قائلة: "الى اين انت ذاهب؟".

وتناول من خزانة الدار مصباحين كهربائيين قويين، والقى معطفه على ذراعه وفتح باب غرفة فيكي. ثم خرج وفي يده ورقة صغيرة.

كانت الكتابة على الورقة بخط فيكي الجميل، وفيها: "لا تقلقا علي. سأكون بخير".

وسألني كورنيليوس: "هل هذا ما تريدينه فعلا؟ لقد ذهبا معا".

ثم تركني وخرج الى حيث كان المطر المتساقط بهدوء قد ابتلع ولدينا.

بعد الساعة الخامسة صباحا بقليل، اتصل كورنيليوس بي هاتفيا. كان صوته كئيبا. وقال باختصار: "لا شيء. انا عائد الى البيت".

وعند الساعة السادسة والنصف رن الهاتف ثانية. وابلغني معلم في مدرسة جيف ان جيف جاء اليه في منزله قبل ساعات معدودة، وانه وضعه في السرير. كان صوته متحفظا، وكنت اظن اني شعرت باستيائه من هذه الام التي تأمر ابنها بالخروج من المنزل في ليلة ماطرة.

وبعد ذلك، في الساعة الثانية تماما، سمعت ضجة من المطبخ. كان كورنيليوس يشرب القهوة وهو لا يزال يرتدي سترته الجلدية القصيرة. واخبرته عن جيف، ثم اتصلت بمدرسة فيكي هاتفيا. كانت فيكي هناك. ووعدت بان تأتي الى البيت هذه الليلة.

واتصل كورنيليوس بمعلم جيف الذي آواه. وكان عطوفاً على قضيتنا كما كان عطوفا على مشكلة جيف. ونصحنا بان الافضل لجيف في الوقت الحاضر ان يبقى في مدرسة داخلية.

وبعد اسبوع طلبت مني المدرسة ان آخذ له بعض حاجاته الى القاعة التي ينام فيها. فحملت الى هناك الحقائب، والعلب والثياب. ولما انتهيت من ذلك عدت الى السيارة. وكان جيف واقفا بجانبها فنظرت اليه وشهقت بالبكاء. ثم قلت له: "لم اكن اقصد ان يتطور الامر الى هذا الحد متى نراك ثانية؟"

فأجاب: "لا ادري. اني سعيد لما فعلت، ولا احب ان اعود ثانية الى ذلك المكان".

- هذا المكان بيتك يا جيف!

- كلا يا والدتي، انه لك. انه منزلك، انه عائلتك، انه طريقة حياتك. وانا لا اريده.

ثم انحنى بسرعة وقبل خدي قائلا: "كفي عن البكاء يا والدتي. اني احبك".

وفي ليلة عيد الميلاد جاء جيف الى البيت. وكان يبدو غريبا حتى ونحن على مائدة العشاء. شعره الطويل كان مرسلا على كتفيه، وكان يرتدي قميصا زرقاء باهتة اللون وسروال جينز منسل الخيوط عند الركبتين والقفا، فكأنه غريب جاء من عالم آخر. وسواء اسمينا ذلك انقلابا على الثقافة، او ظاهرة دون الثقافة، او

ثورة شباب، فقد كان واضحا ان مظهره يعبر عن المسافة التي تفصل بيننا. في هذه الاثناء كان كورنيليوس مريضا، شاحب اللون. وكانت فيكي هي التي انقذت عشاء الميلاد من ان يتحول مجرد لقاء صامت.

وبعد ثلاثة ايام اتصل جيف بي هاتفيا وسألني ما اذا كان يستطيع اصطحاب رفيق معه الى العشاء. كان الشاب وسيما ونظيفا ومهذبا . وكان يصغي بدون اي تعليق بينما راح جيف يطلعنا على مشاريعه. انه سينتقل ليسكن مع هذا الشاب في منزله. وكان الوالدان قد كتبا الينا رسالة مسهبة عنهما وعن عائلتهما وعن الازمة العائلية التي تعرضا لها وسلما منها . وكانت خطة جيف، اذا وافقنا على ذلك، ان يواصل تعلمه لينهي دراسته في مدرسته الحالية، ثم ينتقل الى الجامعة بعد ذلك. الا انه لم يكن يريد ان يعود ليعيش معنا في البيت في الوقت الحاضر على الاقل، او لعله لن يعود اليه ابدا .

ثم اطلعنا على خبر كان اغرب ما ذكره لنا . فهو تطوع مختارا في مشروع اصلاحي بالنسبة الى الذين يتناولون المخدرات ليتعرف الى طريقة اجتماع الآخرين ومواجهتهم ضغوط حياتهم. وهو سيقضي امسياته في المركز في جلسات العلاج، عاملا في الارض وفي المطبخ. وفي ايجاز، انه كان يبدأ حياة جديدة. واخيرا قال: "هذا هو ما قررته. وهذا ما يجب ان يتم".

وهكذا كان. وفي الثامنة عشرة من عمره كان جيف مسؤولا عن نفسه. كان لا بد له من ان يغادر العش في النهاية. غير ان الطريقة التي تم بها ذلك كانت صعبة. لقد بدأ جيف مصارعة الحياة في الوقت نفسه الذي كنا نبذل فيه قصارى جهدنا للمحافظة على حياتنا .

كم سيطول ذلك؟

كورنيليوس: منذ ثلاثة ايام، في ١٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٢، رأيت ويتمور. كان كلامه مطمئنا: البروستات اصغر حجما وقاسية، وهي احترقت نتيجة الزرع الاشعاعي. وطلب مني ان اعود اليه بعد شهرين. ترى هل يأتي يوم يقول لي فيه: "اتصل بي هاتفيا خلال سنة او سنتين"؟

لا اظن ذلك. والحقيقة هي اني محافظ على وضعي، وسيأتي يوم ابدأ فيه بالتأخر. ان هذا المرض لا بد من ان يظهر في مكان آخر في الجسم. وتفيد قراءاتي عنه بان عدم عودته ظاهرة طبية نادرة.

كاترين: ذهبنا في مارس (آذار) الى سياحة بحرية في البحر الكاريبي. واخذنا فيكي معنا لانها كانت في اجازة الربيع. وفي تلك السياحة تجنب كورنيليوس الرقص تجنبا شبه كلي، على رغم انه كان من هواته الدائمين. ففي كل ليلة، بعد العشاء مباشرة، كان يعتذر ويذهب الى غرفتنا . وكنت اجده بعد ذلك وقد اخذته سنة نوم خفيفة، او انصرف الى العمل كليا .

وباقترابنا من منتصف سياحتنا البحرية اطلعني كورنيليوس على امر كنت قد ارتبت به، وهو ان حالته الصحية تأخرت بصورة ملحوظة. فهو

لم يعد يستطيع تحديد مكان الالم. وقال ان توعكا عاما اشبه بالضعف الشامل يستنفد نشاطه وحيويته.

بيد ان الالم لم يمنعه من العودة الى المساعدة في رواية في مدرسة فيكي. كان اسم الرواية "انا والملك". وقد احب كورنيليوس ابنته في دورها. وكان واضحا للمرة الاولى انه احس بان لديها قدرة حقيقية على العمل في المسرح الذي كان يتوق اليه هو نفسه من قبل. وقد توصلت فيكي الى هذا القرار منفردة. ان المسرحيات والموسيقى والدراما ليست، بالنسبة اليها، مجرد تسلية لفتاة في المدرسة. فهذه الامور كانت تشغل المزيد من ساعات فراغها يوما بعد يوم. ومع مرور الوقت سيكون المسرح مهنتها المفضلة.

وفي وقت متأخر من احدى ليالي الربيع الجميلة، عام ١٩٧٢، عاد جيف الى البيت ليبقى معنا هذه المرة. ولم تكن الليالي التي قضيناها معه خلال الاشهر التي سكن فيها خارج البيت قد ارشدتنا الى حقيقة التغيرات التي كانت تحدث له. ثم تبين انه كثيرا ما كان في "مواجهاته" معنا يلاقي تشجيعا على خصومتنا. ان الفكرة التي تنطوي عليها عبارة "مواجهات" يصعب قبولها لدى الوالدين لتحديد علاقاتهم بابنائهم. لكن المهم ان جيف عاد.

وبعد ذلك بوقت قصير كان مقررا ان يخضع كورنيليوس لفحص دقيق للعظام. وبعد نحو عشرة ايام ابلغنا الدكتور ويتمور الخبر الرهيب. وهذا بعض ما كتبه: "فحص العظام يدل على تزايد الامتصاص الاشعاعي في مواقع كثيرة. وقد قر الرأي على مباشرة معالجة بالاستروجين".

كان كورنيليوس يعرف معنى ذلك غاية المعرفة. ان ازالة العقد اللمفاوية الخبيثة واشعاعات ١ - ١٢٥ التي زرعت في البروستات عجزت عن القضاء على السرطان قضاء تاما.

ولم يظهر كورنيليوس اي اكتئاب او انحطاط. فقد واصل العمل يوميا. وكثيرا ما كنا نجتمع باصدقائنا، كما ان كورنيليوس كان يلعب الغولف مرة بعد مرة. وبعد تخرج جيف في المدرسة في يونيو (حزيران) وقبوله في جامعة ميسوري، حيث ينوي التخصص في الصحافة، قام هو ووالده بنزهتين قصيرتين لصيد الاسماك. وكان كورنيليوس في منتهى الاعجاب بجيف.

وظهر ان العلاج بالاستروجين مفيد. ولعل هذا النوع الثاني من العلاج اكثر استمرارا وثباتا. ولو ان السؤال بقي: كم سيطول ذلك؟

كورنيليوس: اليوم السبت ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٢، امس في الساعة الثانية والنصف تقريبا، انجزنا، كاتي وانا، القسم الثاني من الكتاب. لا اذكر اني شعرت بمثل هذه النشوة من قبل. لا استطيع ان اكتب بسرعة كافية. لا شيء يماثل امتلاكك المادة، ثم تدفقها عليك بوفرة لا تستطيع معها تدوينها.

لا اجد نفسي افكر في السرطان الا حين اواجه عقبة حقيقية. اني اواصل ذهنيا فحص جسمي باستمرار. ولا شيء يؤلمني وقتا طويلا في الواقع. غير اني مصاب، في ما يبدو، بكثير من الآلام المتنقلة التي تظهر ثم

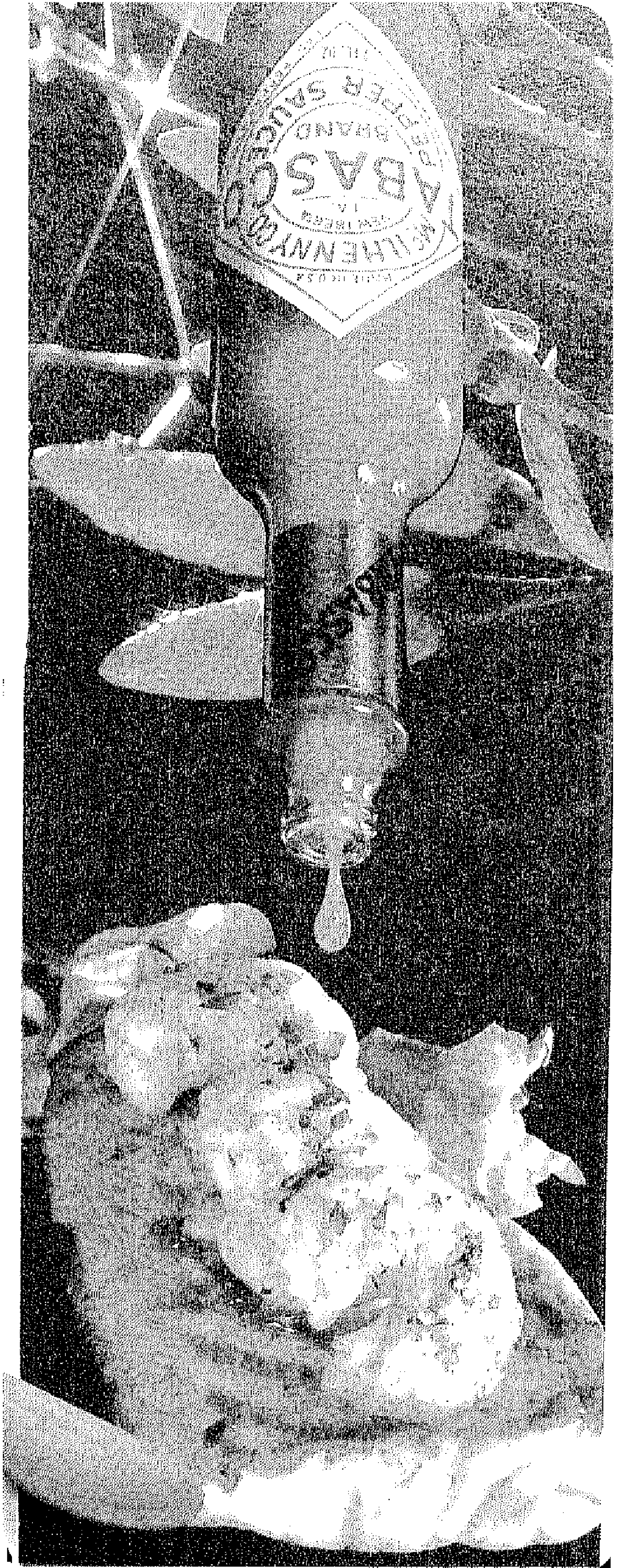
تختفي. احاول ان احتفظ بموقف ايجابي. والا انكفىء على ذاتي. ولا احاول تخمين ما قد يحدث لاني احسب نفسي عالما بما سيحدث بعد ذلك. سيكون علاج الاستروجين مفيدا لبعض الوقت الى ان تنشأ مشكلة اخرى.

لقد بدأت بالصلاة اخيرا. وهذا ما لم افعله عن ادراك ووعي منذ سنوات. اريد وقتا لانهاء الكتاب. ولا شيء غير ذلك استطيع انجازه بالنسبة الى كاتي والولدين.

"انه يشحذ الذهن"

كورنيليوس: اليوم السبت، ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٧٣. منذ نحو عشرة اشهر اواصل علاج الاستروجين. ومنذ شهر تقريبا بدأت اشك في انه لم يعد مجديا. ومنذ ثلاثة ايام اكد ويليت ويتمور مخاوفي هذه. مرة اخرى تغلب السرطان على العلاج. ساقاي، حيث يتركز الالم رئيسيا، احس كأنهما من مطاط. واكاد احيانا لا اجروء على الوقوف خوفا من الا تحملني ساقاي. وكان بات نيليغان قد اعطاني دواء "بيركودان" لمقاومة الالم. الا اني لا استعمله الا قليلا، وذلك في الليل فقط. وأجد نفسي في النهار محتاجا الى صفاء ذهني تام لكي استطيع العمل.

كاترين: السبت ٣١ مارس (آذار)، اشتد مرض كورنيليوس على نحو مخيف. والح عليه الألم الى حد عجز معه عن الكلام. ولم يفده حتى "البركودان" نفسه. وكان يتصبب عرقا ولونه يشحب، وينتفض بشدة في حين كانت النوبات تتوالى عليه وهو يعض شفتيه حتى يسيل منهما



الدم، ويصارع الالم بصمت رهيب.

وعاد الى نفسه بعد ذلك، لكن الالم بات يلازمه يوميا . فهو لم يعد يجهده ابتداء من بعد الظهر ومرورا بالليل كله، بل تحول الى وجود دائم يقاومه كورنيليوس بعناد وهو يكتب صفحات أكثر من ذي قبل. واتضح انه لم يعد يستطيع احتمال الالم، وانه لا بد من ان يراه الدكتور ويتمور. فادخل المركز التذكاري في ٢١ ابريل (نيسان).

كورنيليوس: الاحد، العاشر من يونيو (حزيران). انقضى وقت طويل منذ ان استعملت شريط التسجيل للمرة الاخيرة، فكان علي ان اتأكد من انه لا يزال صالحا.

ان كتاباتي في دفاتر مذكراتي خلال الشهرين الاخيرين تبدو كانها مكتوبة من قبل شخص بدأ يتعلم كيف يكتب. من ٢٢ ابريل (نيسان) حتى ١٦ مايو (ايار) كنت في المركز التذكاري. وأظن اني شارفت على الموت هناك، مما يفسر غرابة خطي. ثمة امور كثيرة لم ادونها . ولا استطيع ان افترض تفسيرا لذلك سوى اني كنت شديد المرض او شديد الخوف.

واقدّر اني اصبت بشلل جزئي وانا في المستشفى، لأني لم اعد استطيع لفظ الكلمات. وحالي الآن أفضل مما كانت عليه آنذاك. غير ان أحدا من الناس - سواء أكان نيليغان أو ويتمور او سواهما من الاطباء - لم يعطني اي تفسير لذلك. ولعله العلاج الكيميائي الذي اتناوله، او لعله تغير جذري في الدم او اللمفاويات، او لعل ذلك يعود، ببساطة، الى ان السرطان ينتشر في كل مكان من جسمي.

لا حال اسوأ من الحال الرهيبة التي اجد نفسي فيها في الوقت الحاضر. كنت اظن اني ذقت الحد الاقصى من الاذلال، ولكني مخطىء. انا الان جالس في كرسي تسير على عجلات. كل يوم تعينني كاترين على الهبوط بضع درجات من غرفتنا الى الردهة، ثم على العودة الى الكرسي والرجوع الى الباب الامامي. بين الباب الامامي والممر ١٧ درجة، وفي الممر مكان واحد تستطيع كاتي ان تستريح فيه. ولا اعرف من اين تأتيها هذه القوة لنقلي من مكان الى آخر.

ومع الاقتراب من المكتب يرتفع الممر. وهذا هو الجزء الاكثر صعوبة بالنسبة الى كاتي. كنت اريد ان ابكي عند كل نزهة. وكنت افضل لو اني مت قبل ان تضطر الى القيام بمثل هذا العمل.

أما النواحي الاخرى لحالي في الوقت الحاضر فهي اشد سوءا من ذلك. لم اعد استطيع ضبط البول. الانبوب على ركبتي وزجاجة البول على الجهة الاخرى من الطاولة، ولكن لا استطيع ان اعرف متى يجب علي استعمال زجاجة البول. وكثيرا ما يسبقني البول قبل ان اتهيأ.

صرنا في الفترة الاخيرة نبذل افضل جهد، بالنسبة الى انهاء كتابنا، في الليل. فأنا متحمس له. وقد بت، على رغم الحال الحقيرة التي بلغتها، اعنى بألا ينعكس اي شيء من ذلك على الكتاب. اما اذا ظهر شيء من هذا القبيل، فقد كانت كاتي تطرحه وتعيد كتابته.

ويوم الخميس، ٣١ مايو (ايار)

اتممنا الصفحة ٣١٠ منه، على حد ما قالت سكرتيرتي آن.

يبدو ان احدا لا يدرك ان الالم يشحذ العقل. ومما يثير السخرية اني، مع السرطان، اكتب خيرا مما اكتب بدونه.

ستأتي كاتي عما قليل لتنقلني. كان يجب ان أكتب بدلا من ان اقضي هذه الساعة مسجلا افكاري. غير اني احسب ذلك علاجا جيدا. الكتابة تتطلب انضباطا فكريا دقيقا. أما آلة التسجيل فيمكنني الاسترخاء معها لأني استخدمها للتخلص من بعض ما يقلق بالي ولتقدير فرصة بقائي حيا بصوت عال. انها فرصة ضئيلة. لكن حقيقة معرفتي ذلك تساعدني على عدم القلق على ذاتي أكثر مما يجب. ينبغي عدم الاستسلام، حتى مع انقطاع الرجاء. في الحياة امور اخرى اكثر اهمية من خوف الموت. كل يوم هو اشبه بعطاء يجب ان نتمتع به ونتلذذ. والغريب اني، على رغم الاحوال التعيسة السابقة، لا اقبل ان ابادل موقعي مع اي شخص آخر.

انسان جديد

كاترين: منذ نشر "اليوم الاطول" اخذ الاصدقاء القدامى ومحاربو الحرب العالمية الثانية والفرنسيون والفرنسيات والمراسلون يكرسون الخامس من يونيو (حزيران)، وهو يوم مولد كورنيليوس او السادس منه، وهو يوم اقتحام اوروبا، للكتابة. وفي العام ١٩٧٣، اصبح عدد الرسائل الواردة أكثر من اي وقت آخر. وكان خبر مرض كورنيليوس قد انتشر.

وفي ٣٠ يونيو (حزيران)، علمنا ان رئيس جمهورية فرنسا، جورج بومبيدو، قرر تكريم كورنيليوس بمنحه الوسام الفرنسي الاعلى، وسام جوقة الشرف. وتقرَّر تقديم الوسام في منزلنا يوم الاحد، الثامن من يوليو (تموز)، بواسطة جاك كوسيوسكو موريزيه، السفير الفرنسي في الولايات المتحدة.

كنت مسرورة بذلك، لكني كنت في حالة فزع. ذلك لأن مرض كورنيليوس وعملنا المكثَّف بالنسبة الى "الجسر" والاعتناء الدائم الذي كان يتطلبه، لم تترك لي اي فراغ لترتيب مصاطب الزهر والحدائق والممرات والسياجات، التي كانت كلها في حال يرثى لها. وهي حُرمت العناية منذ أكثر من سنة. كذلك كانت حال البيت. ولم يكن هناك مجال لكي نستعد لاستقبال مثل هؤلاء الضيوف المميزين في فترة اسبوع واحد.

لقد نسيت قوة الاصدقاء الذين، ما ان علموا بالنبأ حتى باشروا العمل في المنزل وفي الحديقة.

وفي مساء يوم السبت، اخذنا كورنيليوس بالكرسي الى الحديقة. وهو كان منشغلا طوال الاسبوع في اعداد كلمة قبول الوسام وفي كتابة "الجسر"، فلم يلاحظ العمل الذي كان يجري حوله. ولم يستطع ان يصدق ما حدث حوله من تغير. وكان الاصدقاء يقتلعون بقايا الاعشاب من بين الحجار فيما هو جالس في الصيف القائظ. وكان هناك جار يجفف الممر، وجار آخر يعنى بجرف الاوساخ.

في تلك الليلة نام كورنيليوس نوما عميقا. وعند الساعة الثامنة والنصف

صباحا وصل بات نيليغان ليفحصه ويقضي ساعة معه. وقال كورنيليوس بصوت مرتجف: "اريد ان اقول لكما شيئا. هذا هو الوسام الاكبر الذي يمنح لي. لعنني الله اذا سمحت لنفسي استلام وسام جوقة الشرف وانا قابع في كرسي عربة ومشدود الى وعاء من مطاط. اني أنوي ان استقبل السفير الفرنسي عند باب بيتي، واقفا على قدمي. ولن اسمح بحدوث شيء مزعج في طرفي الادنى".

ونظر بات الي وقال: "هكذا، اذا، يا كاتي". ثم خاطب كورنيليوس: "انبهك الى اني سأبقى خلفك طوال الوقت".

فأجاب كورنيليوس وهو يهز رأسه: "كلا. بل يجب ان أقف وحدي".

وبلغنا عتبة الباب والسفير يهبط من سيارته الفخمة. وتقدم الديبلوماسيون وزوجاتهم في الممر بينما أخذ زوجي، بقامته المديدة واناقته، يرحب بهم بأسمائهم. ثم دعوناهم للدخول الى المنزل. وسار الاحتفال سيرا حسنا جدا. ثم جاءت تلك اللحظة ذاتها. لقد صعد كورنيليوس الى الطابق العلوي. (كانت ثيابه قد تبللت فعلا من شدة الالم وكثرة العرق، كما قال لي بات في ما بعد). واغتسل، ثم ارتدى ثيابا اخرى نظيفة بمساعدة بات، وبدأت الباحة تغص بالزائرين. وكنا ثلاثة - السفير وزوجته وأنا - ننتظر عند اسفل السلم، بينما كان كورنيليوس يهبط السلم ببطء الى جانب بات وهو في ملابسه الاخرى، من البذلة حتى القميص وربطة العنق.

كان كورنيليوس يدفع ثمن تصميمه على المشي، وهو ثمن استمر في دفعه حتى نهاية حياته، ولم يقبل بعد ذلك ان يسمح بنقله على كرسي عربة الا في المطارات. وكانت الميدالية الفرنسية السامية قد اخذت تحدث اعجوبة صغيرة في حياتنا.

وجيء بالميدالية على حمالة ذات لون ارجواني ملكي، وكانت الوانها تلمع في الشمس المتوهجة الحارة.


كورنيليوس ريان يتسلم وسام جوقة الشرف من السفير الفرنسي.

وبينما كان السفير يعلق الوسام، رأيت يد كورنيليوس وقد اخذت ترتجف، فتقدمت نحوه وانا اخشى ان يسقط، لكن الانفعال، لا المرض، هو الذي سبب هذا الاضطراب.

وكان يقف في الشمس منتصب القامة، فخورا، ووسام جوقة الشرف معلق على صدره. واظن انه لم يسمع التصفيق الذي دوّى في الباحة.

وسرعان ما انصرف السفير وصحبه بعد ذلك، وأصرّ كورنيليوس على تشييعهم حتى الباب. ولم يرجع عن العتبة الا بعدما رآهم تجاوزوا الممر.

وخاطب بات: "حسنا ايها الطبيب، انك الآن تنظر الى رجل جديد".

فأجابه هذا: "اصعد واسترح ايها الاحمق. اقسم بأني لا اعلم كيف استطعت ان تفعل ذلك".

فقال كورنيليوس: الله اعاد الي ساقي، والفرنسيون اعطوني جوقة الشرف. اما اصدقائي.." ثم توقف عن الكلام فجأة واتجه نحو السلم بانتباه، ومددت اليه يدي بالعون، فقال: "لست اريد ذلك يا كاتي. انا ذاهب للاستراحة والتفكير في ما حدث

اليوم. غدا اعود الى "الجسر". يجب ان يكون ذلك تعبيرا عن شكري لجميع الذين ساعدوا في هذا العمل او قرأوه. يجب ان يكون رائعا كروعة هذا النهار". واستدار على السلم ببطء ونظر الى بات وقال:

- هل تعرف شيئا ما يا نيليغان! احسب ان ذلك الانسان الذي يوجد في الاعلى سيتيح لي مجال انجازه".

شامبانيا لثلاثة

كورنيليوس: الخميس، ٢٦ يوليو (تموز). امس قابلت ويليت ويتمور. وهو يرى، في ما يبدو، ان العلاج بالمواد الكيميائية يفيدني. وفي المستشفى اعطيت نوعا آخر من الهورمون، قرأت عنه في القاموس الطبي ان اثره على الجسم، في المرحلة العلاجية التي بلغتها، اشد وضوحا من استعمال الهورمونات المؤنثة.

الوجه الذي اراه في المرآة لم يعد وجهي. لقد انتفخ واستدار كالقمر، فامحت خصائصه وغلظ عنقي. ومع مرور الوقت،لا بد من ان يظهر نتوء صغير بين الكتفين، شبيه باحديداب صغير في الظهر. انني ساتحول الى شخص عجيب في النهاية.

الاحد، ٢٣ سبتمبر (ايلول). الكتاب في سباق مع الوقت، وانا اعطيه كل ذرة املكها من النشاط. لا استطيع ان انتظر النهاية، ومع ذلك اريد ان اطيله. واخشى ان اصل الى الصفحة الاخيرة، لاني عالم ان "الجسر" يبقيني على قيد الحياة.

في اواخر شهر اغسطس (آب) عادت فيكي من فرنسا بعد قضاء الصيف هناك. كانت قد ذهبت الى الخارج وهي في اضطراب عميق، وكنت شديد المرض آنذاك فلم الاحظ ذلك عليها. وكانت اسباب قلقها كامنة في الغالب هنا، في البيت. فهي كانت تخاف علي. ثم انها، حيال عدم رغبتها في اضاعة وقت والدتها، اخذت تغرق في الحزن والاسى. لكننا، كاتي وانا، رحنا ننتشلها منه شيئا فشيئا.

في الامسيات، تصعد فيكي الينا وتجلس معنا. صرت اعرف ابنتي افضل مما عرفتها في اي وقت مضى. وانا مستعد لبذل حياتي في سبيلها. لكن الاهم من ذلك هو ان استخدم ما تبقى من حياتي للاصغاء اليها وحبها.

اما ابني جيف فترك الجامعة ولم يعد اليها. ليتني اعرف الاسباب. لكن امر شهادته يهمني اكثر مما يهمه. ومع ذلك، فانه كان يزداد تعلما يوما بعد يوم في قراءاته وعمله. انه يكتشف فلسفته الخاصة في الحياة، وهو محترم وشريف. ولعلمي ان افضل ثقافة في العالم لا تستطيع ان تضمن الاستقامة والامانة، وجدتني راضيا بحاله وقد تلاقى ما كنت اريده له وما كان يعد نفسه من اجله.

كاترين: في الخامس من اكتوبر (تشرين الاول) كنا نكتب الصفحات الاخيرة المأسوية من الكتاب. وكثيرا ما وقف كورنيليوس على شفير البكاء وهو يقرأ مقابلة، ولا سيما ما كان مختصا منها بالانسحاب البريطاني في الجنوب عبر نهر الراين. كان يعرف ما هي الحاجات اللازمة للنقل والتموين في هذا الانسحاب، لكنه

كان يريد ان يعيد قراءة كل رواية بمفردها كما رواها له كل شخص. وفي هذه المقابلات كان الالم الانساني في قبول هزيمة الحلفاء المحتومة يضفي حياة على جميع المشاهد واحدا بعد واحد. وكان كورنيليوس يكتب دونما توقف تقريبا.

السبت، ٢٧ اكتوبر (تشرين الاول)، تم كتاب "جسر واحد بعيد". ووقف كورنيليوس وعانقني قائلا: "لقد كان الله كريما علينا... علي".

وكان في عائلتنا فرد يراقب الاحداث باقرب مما كنا نظن. وكنت بعد ظهر نهار الاحد اضع الملفات الاخيرة في مواقعها المضبوطة، وكان المكتب يبدو شديد النظافة والترتيب. ونظرت حولي فشعرت بالاسى والارتياح معا. كذلك كان كورنيليوس ذا نظرات حزينة ضائعة. وانفتح الباب بقوة ودخل جيف وعيناه لامعتان مضيئتان، وقال بكبرياء: "لقد انتهيتما منه. كنت اعلم ذلك. كنت اشعر بانتهائه يقترب في كل مرة كنت اجيء اليكما". ثم وقف وتطلع الينا وقال: "اني فخور بكما، ايها الرفيقان". واخرج كيسا من الورق وسحب منه بهدوء زجاجة شامبانيا، ثم اضاف: "لقد اشتريتها ليلة امس. ليست افضل نوع، ولكن ارجو ان تكون طيبة المذاق".

وبعناية فتح الزجاجة وصب الشامبانيا في كؤوس ثلاث. ووقف بين طاولتينا وقال: "لا احسب ان في العالم انسانا آخر كان اكثر شجاعة منكما انتما الاثنين". ثم رفع كأسه.

تلك كانت احدى اجمل اللحظات خلال اشهر. ان الجسر الذي يربط عائلتنا، بعضا الى بعض استطاع ان يصمد امام الهجمات المتعددة عليه.

كورنيليوس: السبت، العاشر من نوفمبر (تشرين الثاني). اجد صعوبة في تصديق ان الكتاب انتهى. لقد مرت ايام كثيرة قاتمة ظننت فيها اني لن استطيع ان اجمع اي ذرة من القدرة.

حين بدأت كتابة "اليوم الاطول" و"المعركة الاخيرة" كنت مفتونا بالاساطير ومواطن القوة والضعف عند الانسان العادي وهو يخوض معركة. وكان هدفي ان اعرف بماذا يشعر الناس وبماذا يفكرون. اما في هذا الكتاب الجديد فقد تسنت لي فرصة النظر الى ظلمة الهاوية. وبذلك كسبت ادراكا اكثر عمقا لاحاسيس اشخاص الكتاب مما تيسر لي من قبل. وآمل في ان يعكس هذا الكتاب الشجاعة الداخلية التي اكتشفتها لدى الرجال والنساء، والتي اواصل اكتشافها يوما فيوما.

غريب ان اقول ان في الاصابة بداء السرطان فضيلة. انها تجعل الانسان اكثر احساسا نحو الآخرين.

في الخلاصة التي يضعها القائد العسكري، وفي الاحصاءات المتعلقة بالسرطان، يحذف المخلوق البشري، البائس - اعني الخائف والمتألم - من الصورة. وها اني قضيت حياتي المهنية محاولا اعادته الى الصورة واظهاره فيها، اذ يستحيل فهم الحرب والمرض بدون معرفة ما يقاسيه الاشخاص المعنيون.

متعب جدا

كاترين: لم يكن يكفي

١٢٥ مليوناً

العبها واربح معها

أكبر يانصيب في أوروبا
يتيح لك مرة اخرى
فرصة شائقة للربح ،
يتوافر لك فيها امكان لم يسبق له مثيل
يجعلك من اصحاب الملايين
بين ليلة وضحاها

- فقط ٤٠٠،٠٠٠ ورقــة تعرض للبيع
- في مقابل ٤٨٦،٢٠٠ جائزة مضمونة في كل دورة!
- ويبلغ مجموع الأرباح: ١٢٥،٦٣ مليون مارك الماني ٠
- سبع جوائز كبرى كل منها بمليون مارك ٠

الضمـــان

ان دفع هذه المبالغ مضمون
في الدورة الواحدة (نصف عام)

٧ × مليون =	٧٠٠٠٠٠٠	مارك
٨ × ١/٢ مليون =	٤٠٠٠٠٠٠	مارك
١٢ × ١/٤ مليون =	٣٠٠٠٠٠٠	مارك
٦ × ١٠٠٠٠٠ دم =	٦٠٠٠٠٠	مارك
١٤ × ٨٠٠٠٠ دم =	١١٢٠٠٠٠	مارك
١٨ × ٥٠٠٠٠ دم =	٩٠٠٠٠٠	مارك
٢٢ × ٤٠٠٠٠ دم =	٨٨٠٠٠٠	مارك
٢٦ × ٣٠٠٠٠ دم =	٧٨٠٠٠٠	مارك
٣٠ × ١٠٠٠٠ دم =	٦٠٠٠٠٠	مارك
٣٠٣ × ١٠٠٠٠ دم =	٣٠٣٠٥٠٠٠	مارك
٤٤٠ × ٥٠٠٠ دم =	٢٢٠٠٠٠٠	مارك
١٦٨٠ × ٢٠٠٠ دم =	٣٣٦٠٠٠٠	مارك
١٣١٢٠ × ١٠٠٠ دم =	١٣١٢٠٠٠٠	مارك
٨٤٨٠٠ احتى ٨٠٠ دم=	٨٥٠٤٠٠٠٠	مارك
٤٨٦٢٠٠ جائزة مجموعها	١٢٥٦٣٠٠٠٠	مارك

منذ ٣٢ سنة ويانصيب "سودوتش كلاسنلوتري" يصنع رابحين سعداء٠ وما زالت أعدادهم تتزايد عاماً بعد عام، نظراً الى الفرص الممتازة التي يتيحها لاصحاب الحظوظ، كونه لا ينفق شيئاً من دخله على التبرعات الخيرية، وكون الرابحين يتسلمون جوائزهم خالية من الضرائب٠
ومن المعروف ان المارك هو من أقوى العملات في العالم، وفي ذلك حفز للكثيرين على شراء ورقة من هـذا اليانصيب الذي تشرف الحكومة عليه٠ وفي استطاعة أي فرد ان يشترك فيـه٠ والأمر سهل وبسيط٠ يجري اعلام الرابحين شخصيا وبكتمان بمعرفة الحكومة وفي اشرافها٠ اذا شئت ان تصبح رابحاً محظوظاً فلا تتأخر، بل اكتب اليوم للحصول مجاناً على كراسة اليانصيب وصورة الطلب الخاص بقسيمة الاشتراك:

GREGOR FRANKFURT
STATE ACCREDITED LOTTERY OFFICE

WORLD WIDE SERVICE
State Accredited Lottery Office
GREGOR
Rüsterstraße 24, P.O.Box 119020
D-6000 Frankfurt/Main (W.-Germany)

Please mail order form and Free brochure with all details for the next cycle of the SÜDDEUTSCHE KLASSENLOTTERIE

Mr./Mrs./Miss

Street address (or P.O.Box-No.)

City (Postal code No.)

Country — Please print or type all entries.

كورنيليوس انه كتب "الجسر". فقد كان مصمما ان يراه منشورا، وان يرى ما بعد نشره ايضا. عند ذلك فقط يستطيع ان يشعر بالراحة والسلام.

في منتصف نوفمبر (تشرين الثاني) تجول كورنيليوس في اوروبا، وقد اصطحبنا انا وفيكي معه، وقابل الناشرين والوكلاء والبارزين من ذوي العلاقة بالكتاب.

وفي منتصف يونيو (حزيران) ١٩٧٤ عدت واياه الى اوروبا، حيث عقد الاجتماع تلو الاجتماع بالمسؤولين الهولنديين للنظر في احتمال الجمع بين الشخصيات التي يتكلم عنها الكتاب ورجال الصحافة.

وفي سبتمبر (ايلول) عدنا مرة اخرى الى اوروبا بالطائرة لتلك المناسبة وحين بدأنا الرحلة كان كورنيليوس منتهك القوى، بالغا الحد الاقصى من الطاقة على الاحتمال. ولم اكن استطيع ان افعل شيئا سوى ان اراقب ما يجري واعد الايام حتى نعود الى بلادنا. وكان يبدو لي ان حال كورنيليوس تتدهور يوما بعد يوم.

واخيرا، قابل الدكتور ويتمور في ٩ اكتوبر (تشرين الاول)، وذلك للمرة الاولى منذ شهر يوليو (تموز). وكان السرطان قد عاد الى الانتشار والتغلب وفي ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) خرج كورنيليوس من الشقة التي كنا نزلناها في فندق شيري - نيذرلاند وهو يعرج، وصعد سيارة الى المركز التذكاري لتلقي المعالجة الاشعاعية الاولى من خمس معالجات في وركه الايمن.

وفي يوم الثلثاء التالي، افقت على زفرات غليظة، ورأيت كورنيليوس جالسا على جانب سريره المقيت والدموع تنهمر على وجهه. وهرعت اليه بسرعة وركعت الى جانبه. وقال بصوت متكسر: "تبا لحالي يا كاتي. اني آسف اذ لا استطيع ان انهض للذهاب الى المستشفى. يجب عليك ان تلبسيني ثيابي وتذهبي معي.

ودلت الفحوص الطبية على وجود انسداد في ثلاثة مواقع، مما يسبب ضغطا على العمود الفقري وجاء رأي اطباء الجهاز العصبي قاسيا: "لعله تورم. يستحيل اجراء جراحة". وادخل المستشفى واعطي ما مجموعه ٣٠٠٠ وحدة اشعاعية ذرية في القطن العجزي الفقري بين ٢٤ اكتوبر (تشرين الاول) و٦ نوفمبر (تشرين الثاني).

والظاهر ان المعالجة والادوية والرقابة الدقيقة من الاطباء والممرضات فعلت فعلها مرة اخرى. لكن كورنيليوس كان يتغير مع مرور الوقت. وخلال زياراتي له كان يبتسم، ويمسك يدي، ويسأل عن فيكي، ويخبرني عن زيارات جيف. لكنه كان، في ما يبدو، يسدل ستارا على الاخبار المتعلقة بالاصدقاء ومشاريع المستقبل. لقد واجه السرطان وكسب منه الوقت اللازم لتأليف كتابه، ولرؤية ولدية يقاربان النضوج. وها قد حانت الساعة التي لم يعد يهتم فيها بعملية "الترقيع" والتدابير الوقائية الموقتة. واظن ان كورنيليوس كان يتهيأ للموت.

وفي ٢٢ نوفمبر (تشرين الثاني) اصيب كورنيليوس باشتراكات في الرئتين. وفي الصباح الباكر من اليوم

التالي ذهبنا بالسيارة الى المستشفى - جيف وفيكي وانا.

كان كورنيليوس ممدداً، مغمض العينين، يزفر زفرات حادة قصيرة. وقد رق وجهه وشحب جلده وصار بلون الوسادة. وكانت يداه، باصابعهما الطويلة، تتحركان على الغطاء باستمرار. واقتربت منه، ففتح عينيه وابتسم. وخاطبني ببعض صعوبة. "كاتي الصغيرة". ثم سمعت من يقول لي انه عليه اعادة قناع الاوكسيجين. واعدت وضعه كما كان. لكنه حاول ان يزيحه على الفور. فقلت له: "ارجوك، يا كورنيليوس، تنفس. اظن انك مصاب بزكام".

وهز رأسه قائلا: "اظنني مصابا بنزلة صدرية". ثم توقف للتنفس، واضاف: "غريب امر الاصابات بالسرطان. في نصفها يموت المصاب بذات الرئة".

ورأى فيكي على طرف السرير، وعيناها مليئتان بالدموع، ولونها مغبر كلونه تقريبا، وسألها: "ماذا تفعلين هنا يا طفلتي"؟

فأجابت وهي تحدّق الى الارض محاولة ضبط مشاعرها: "مشتاقة الى رؤيتك".

وناداه جيف: "أبي!"

فرد كورنيليوس: "بني الكبير". وأشار نحو الغرفة الغاصة بالاجهزة: "شيء مزعج. أليس كذلك؟"

فقال جيف: "كلا، اذا كان يساعدك على التحسن".

وعند الساعة السادسة، مساء كنت لا ازال بجانب كورنيليوس، وفي يدي قطعة قماش باردة. كان ذلك كل ما استطيع ان افعله له. وفجأة انفتحت عيناه. وفي المكان المقابل لسريره كانت صورة صياد يلقي بصنارته الى نهر.

وزفر كورنيليوس: "جيف".

وتقدم جيف من السرير بسرعة.

"المعصم". قال كورنيليوس همسا: "لا تنس ان تستعمل المعصم".

وتابعناه وهو ينقل عينيه في الصورة. وقال جيف: "سأفعل ذلك يا والدي. انك دائما تقول لي ان النجاح في الصيد هو في المعصم. ساتدرب اكثر على ذلك".

وابتسم كورنيليوس. وبدا كأن تنفسه الخشن ارتفع. ووقفنا هادئين الى جانب هذا الرجل الذي منحنا الحياة بطرق مختلفة.

وفجأة تمسك كورنيليوس بجانبي السرير. وبما له من قوة كبيرة في كتفيه وذراعيه، جلس فيه مستقيما. ووضعت ذراعي حوله لتهدئته. فتطاول حتى وضع احدى يديه على يدي، وقال:

- كاتي، انني متعب جدا.

ثم زفر زفرتين عميقتين وانطفأ.

ودفناه في مدفن ريفي صغير. قرب منزلنا. وفي رسالة منه خلال صيف عام ١٩٧٣. الى فيكتوريا حين كانت في فرنسا، ذكر ان الكتاب على وشك ان يتم وانه كان مسرورا لذلك لانه متعب. ثم اضاف:

"اذا اضطررت قولي لوالدتك يا فيكي ان الشيء الوحيد الذي اريده على مدفني هو: "كورنيليوس ريان"، ثم تاريخ مولدي وتاريخ وفاتي. ولتضع بعد ذلك عبارة واحدة هي: "الراوية الصحافي".

وهذا ما فعلته.

كتاب الشهر

ملخص من كتاب
بقلم ريتشارد كولير



جسر عبر السماء



جسر عبر السماء



طائرات لبدت موقتًافي أرض مطار تمبلهولف في قلب برلين بسبب

"ملحمة جسر برلين الجوي" تعتبر احدى ابرز المآثر الانسانية لانقاذ مدينة محاصرة من الجوع والاحتلال٠

كانت برلين التي هزمت عام ١٩٤٥ جاثمة في انقاضها، اهلوها يرتدون الاسمال ويتضورون جوعا، وقد امسى الآن، في يونيو (حزيران) ١٩٤٨، مليونان ونصف مليون من سكانها بيادق في لعبة الصراع على القوة، عندما شرع الروس المحتلون في تنفيذ خطة استهدفت أمرين: تجويع الأهالي بغية اخضاعهم، وتضييق الخناق على الحلفاء بقصد اخراجهم من المدينة٠ لكن البريطانيين والفرنسيين والامريكيين عقدوا العزم على مواجهة الاجراء الروسي باطعام المدينة وتموينها جواً، وبدأوا ذلك فعلا على نطاق ضئيل ومحدود٠ على ان جهودهم الأولية سرعان ما تصاعدت وتضافرت حتى غدت مأثرة من اعظم المآثر الانسانية والسياسية اعجازا وتصميما٠٠



بقلم ريتشارد كولير



الثلوج، وهي تنتظر صدور الأوامر لاستئناف حركة التموين الجوية.

وقد تحدّث مؤلف الكتاب ريتشارد كوليير الى مئات الاشخاص الذين خبروا تجارب المدينة المحاصرة، وبينهم جنرالات وطيارون وسكان مدنيون لا تزال اذهانهم تنبض بذكريات تلك الأيام البطولية التي كادت ان تكون أياماً مفجعة ومأسوية.

كانت عقارب الساعة في غرفة الاخبار في صحيفة دير تاغ الالمانية تشير الى الحادية عشرة ليلا، والاعدادات لاصدار النسخة الصباحية ليوم ٢٤ يونيو (حزيران) ١٩٤٨ توشك على الانتهاء، حين وقفت مارغو ديريغز تدقق في آخر تجارب لوحة الطباعة. وفي تلك اللحظة بالذات دبت الحياة من جديد في جهاز المبرقة الكاتبة (التليبرنتر).

وللتو هجر المراسلون مقاعدهم قبالة الآلات الكاتبة وأخذوا ينادون بعضهم بعضا ويتجمعون حول الجهاز. وانضمت اليهم مارغو، في حين راحت حروف المبرقة تطقطق الكلمات على الورق الابيض واحدة تلو الأخرى:

"برلين، ٢٣ يونيو (حزيران). قسم النقل التابع للادارة العسكرية السوفييتية مرغم على وقف حركة النقل والركاب من برلين واليها

اعتبارا من الساعة السادسة صباحا يوم غد نظرا الى وجود مصاعب فنية، حركة المرور المائي ستعلق أيضاً".

واستمرت المبرقة تطقطق مزيداً من التفاصيل. وما ان جاء صباح اليوم التالي حتى كانت الأنباء المروعة قد بلغت معظم المليونين ونصف المليون نسمة من سكان برلين الغربية الذين علموا ايضا ان شحنات الفحم من الغرب عبر المسالك المائية قد حظرت ومنع عليهم استيراد الحليب، وان جميع الودائع في دار المحاسبة (شتادكونتور) قد جمدت. وهكذا اصبحت برلين الغربية معزولة عن العالم الخارجي براً وماء وسكة حديد، وتوجب عليها الآن مواجهة احد امرين: إما الاعتراف بالحكم الروسي وإما الجوع.

لقد مضت ثلاث سنوات منذ أن أسرّ الجنرال لوسيوس كلاي، حاكم المانيا الامريكي وقائد القوات المسلحة الامريكية في اوروبا، لأحد المسؤولين في وزارة الخارجية الامريكية بتأكيده على ان "مفتاح التعامل مع السوفييت انما يتأتى عن طريق منحهم الثقة لكسب الثقة من جانبهم". بيد أن ذلك المسؤول في الخارجية تنبأ في حينه بان كلاي سيصبح، في مدى عام واحد، من أعنف المناوئين للروس. وهذا ما حصل فعلا.

وكانت قصته مع السوفييت، التي استعاد كلاي ذكرياتها عام ١٩٤٨، قصة مؤسفة حبكت فصولها النيات الخبيثة ونكث العهود، وشابتها باستمرار تأكيدات على استعراض العضلات السوفييتية لاختبار مدى تصميم الحلفاء على البقاء في برلين. وتعود جذور هذه الحكاية الى تلك النشوة المتفائلة التي لعبت بالرؤوس في مؤتمري طهران ويالطا قبل خمسة اعوام حين شجع الرئيس الامريكي فرانكلين روزفلت وهما خادعا ومهلكاً، وهو ان الولايات المتحدة، في تعاملها مع الروس الشيوعيين، انما تتعامل مع اصدقاء.

وفي ذلك الوقت اتخذ قرار تقسيم المانيا فور انتهاء الحرب الى أربع مناطق: فرنسية وبريطانية وامريكية وروسية، وكذلك تقسيم الحكم في برلين على نحو مماثل. واذا كان لذلك القرار اي حسنة لمصلحة الغرب، فهي ابعاد الروس عن منطقة الروهر، قلب الحركة الصناعية الالمانية. لكن القرار حوّل برلين، في الوقت ذاته، الى قنبلة موقوتة تنذر دقاتها ابدا بوشوك الانفجار. فقد غدت المدينة جزيرة ذات ادارة بلدية يتشارك السوفييت والعالم الغربي معا في حكمها، إلا انها جزيرة تقع في خضم النفوذ السوفييتي داخل المانيا.

ولم تكن برلين، حتى قبل الحرب، قادرة على الاكتفاء الذاتي. فكيف تكون حالها الآن وقد دعت الحاجة الى تزويدها بآلاف الاطنان من الحمولات اسبوعيا؟ وكان ذلك التزويد يجري عبر خط حديدي "دولي" منفرد يبدأ من مارينبورن على الحدود الغربية للمنطقة السوفييتية وينتهي في القطاع الغربي من برلين، مخترقا مسافة ١٧٥ كيلومترا داخل المنطقة السوفييتية ذاتها. كما كانت كل مادة يستهلكها اي من سكان برلين الغربية، فضلا عن ٦٥٠٠ جندي من

قوات الحلفاء، يقسم استيرادها عبر طريق برّية هي بمثابة حبل الحياة الذي يمكن الروس ان يقطعوه .

ومن اجل اعطاء صورة اوضح عن الوضع، تجدر الاشارة الى ما وقع في شتاء ١٩٤٦ الذي يعد اقسى فصل شتاء عرفته المانيا منذ قرن خلا، اذ انخفضت الحراة الى ٢٠ درجة مئوية تحت الصفر، فتجمدت انابيب الماء واتفعت نسبة الوفيات بين الاطفال ارتفاعا مروعا وعثر على عشرات الاشخاص الذين ماتوا تجمدا حتى في احياء راقية مثل ضاحية غرونفالد. وقد دفع الجوع بذئاب الغابات حينذاك الى اقتحام "برلينر رينغ"، وهي شبكة الطرق الواقعة على اطراف برلين. وعمد بعض الاهالي الى انتهاك حرمة المقابر وسرقة ٢٠٠ صندوق كانت تضم رفات الضباط البروسيين، واستخدموها وقودا للتدفئة. وهكذا يتضح انه لو ابتليت البلاد بفصل شتاء مماثل في قسوته وشاء الروس ان يغلقوا الطريق في وجه شحنات الفحم، لتعذر على الحلفاء الصمود في مواقعهم.

اما الآن وقد أغلقت الطرق فعلا، فقد حق السؤال الآتي: هل سيبقى الحلفاء في برلين ام انهم سينسحبون تاركين الاهالي وشأنهم امام السيطرة السوفييتية؟ ولئن يكن الجنرال كلاي صرّح علنا بأنه "لن يتمكن الروس من طردنا الا غلبة في الحرب"، غير انه كان في الواقع متحيراً ومرتكبا. وقد علق احد مستشاريه على الوضع ناصحا: "اذا كانت يدك في النار، فلم لا تسحبها؟".

لكن كلاي فضل، بادىء الامر، الزحف بقافلة مسلحة قوامها ٢٠٠ سيارة شحن على الطريق الرئيسية الى وسط برلين، لأن السوفييت لن يستطيعوا ردعها الا باستخدام القوة، مما يعني المجازفة باندلاع الحرب، وهو أمر لا يريده الروس حسب اقتناع كلاي الشخصي. ووافقت رئاسة الاركان المشتركة، خلال الاجتماع الذي عقدته في واشنطن، على المشروع، شرط ان يؤمر الجنود الامريكيون الذين سيرافقون القافلة بعدم محاولة شق طريقهم عنوة بفتح النيران اذا ما تصدت لهم قوات الحصار الروسية بعناد. بيد ان كلاي رفض الانصياع لهذه الشروط.

عندئذ اقترح الحاكم العسكري البريطاني، السير بريان روبرتسون، خطة بديلة لتموين برلين بطريق الجو. والواقع انه صدر امر مسبق باقلاع الطائرات من انكلترا الى المانيا في اليوم التالي، فضلا عن ان كلاي نفسه كان قد جرب هذا البديل الباهظ التكاليف عندما تولى، خلال شهري ابريل (نيسان) ومايو (أيار)، عملية امداد جوي محدودة النطاق الى افراد القوات الامريكية في برلين. على انه، وان كان يسلم بان هذا النوع من عمليات الامداد اقل عرضة للاخطار من غيره وانه يمكن استخدامه لسد حاجات العسكريين المرابطين في برلين، الا انه استبعد كليا امكان امداد المدينة بأسرها جوا، ولذلك رفض الاقتراح رفضا باتا، مؤكدا انه "يستحيل ذلك قطعا".

وانقضى النهار من دون ان تبرز خطة بديلة. وعاد الجنرال روبرتسون

يحث من جديد على تبني مقترحاته، فسايره كلاي بشرط ان يكون رأي رجل واحد آخر - هو ارنست رويتر - حاسما في الموضوع. والمعروف عن رويتر انه مناهض عنيد للشيوعية عمل مستشارا لخدمات المرور والمرافق العامة وانتخب رئيسا لبلدية برلين قبل عام، ولكن السوفييت نجحوا في الحيلولة دون تسلمه مهام منصبه.

واستدعي رويتر الى مقر كلاي، حيث بادره الجنرال الامريكي قائلا: "سأحاول اطعام المدينة جوا". ثم تواترت الاسئلة على رئيس البلدية المحظور: هل يستطيع البرلينيون الصمود على رغم ضآلة الامدادات التي يمكن نقلها جوا؟ وهل يستطيعون الثبوت ايضا طوال فصل الشتاء اذا اقتضت الضرورة؟

يا لها من لحظة تاريخية وقف فيها الجنرال الانيق المظهر، الحاد الملامح، المضنى من شدة الارهاق، امام هذا الرجل الساخر الاشيب في سترته المهلهلة المقلمة تقليما دقيقا، والمعروف بميوله الديموقراطية الاشتراكية، وكلاهما يبحث عن وسائل كفيلة بتحقيق المعجزة!

ورد رويتر بكلمات هادئة ومتزنة: "برلين تضحي بكل ما لزم"، ولكنه اردف: "من الخطأ التوهم ان كل شيء سيكون على خير ما يرام ما دام البرلينيون يتزودون بالطعام والثياب والوقود. بل ينبغي ايضا، بقدرة قادر، ان تستمر صناعات برلين الغربية على مواصلة انتاجها على نحو اعتيادي قدر المستطاع، "لأن الناس، اذا فقدوا اعمالهم، فقدوا كذلك ثقتهم بالنفس واستسلموا صاغرين للشيوعية".

وحين خرج رويتر من مكتب كلاي، التفت الى جنرال امريكي آخر قائلا: "ان تصميم كلاي رائع، ولكن لا أظن شخصيا ان تحقيقه ممكن". وهز الجنرال رأسه وقال: "ولا أنا أيضاً".

وفي تلك اللحظة بالذات رفع كلاي سماعة الهاتف للاتصال بفرانكفورت حيث كان مقر الجنرال كورتيس لوماي، قائد سلاح الجو الامريكي في اوروبا: "قل لي، يا كورتيس، هل لديكم طائرات لنقل الفحم؟".

وتردد لوماي هنيهة، ثم اعتذر بقوله: "لا بد من ان يكون الخط مشوشا ايها الجنرال، فقد توهمت انك تستفسر عن طائرات لنقل "الفحم"!".

- نعم، هذا ما قلته بالضبط: الفحم.

وسادت المكالمة فترة اخرى من الصمت قبل ان يتعهد لوماي بأن في امكان سلاح الجو ان ينقل اي شيء.

تلك كانت اللحظة التي ولد فيها "جسر برلين الجوي"، وهو المواجهة الاولى التي درج العالم في ما بعد على تسميتها بـ"الحرب الباردة".

"استمتعوا بالحرب"

تفاقم الوجود الروسي خلال السنوات الثلاث التي اعقبت الحرب العالمية الثانية حتى لاح كنذير يهدد بهبوب عاصفة رعد في سماء اوروبا. وأمست كل دولة "حررها" الجيش الاحمر في زحفه غربا - وهي بولونيا والمجر ورومانيا وبلغاريا والمانيا الشرقية - تابعة للسوفييت ترابط فيها القوات الروسية ويحكمها صنائع

الروس، حتى اصبح ١٢٣ مليون فرد سيء الطالع سجينا ضمن حدود مليون كيلومتر مربع. وكان الشيوعيون قبل وقت قصير لا يتجاوز شهر فبراير (شباط) الماضي قد استولوا على الحكم في تشيكوسلوفاكيا، واعقب ذلك انتحار وزير الخارجية التشيكوسلوفاكية جان مازاريك. وكان هدف الروس الابعد تعميم الشيوعية ونشرها في ارجاء اوروبا، مما بعث على تساؤل الجنرال كلاي: هل المقاطعات الالمانية الخاضعة للحلفاء الغربيين، ومدينة برلين المقسمة هي السلع التالية المدرجة في قائمة مشتريات موسكو؟

كانت برلين لا تزال مدينة من الهياكل الجوفاء بعدما قوضت باكثر من ٧٠ الف طن من القنابل. وبدت من الجو ركاما من الحجار تتصاعد منه رائحة الحرائق القديمة وزيت الديزل وغبار الاسمنت الرطب.

وفي زيغزاللي (شارع النصر) بدت تماثيل الحكام الذين رحلوا عن هذا العالم منذ زمن بعيد وكأنها تحدق بعقم عبر جذوع الاشجار. واما فندق ادلون الذي يقع في اونتردن ليندن، وهو من أرقى شوارع المدينة سابقا، فقد اصبح كالهيكل الاجوف، واقتصرت لائحة الطعام في قبوه على حساء الكرنب وصحن من اللفت. وانك لتسمع ايضا اصداء مكررة لخفقات اجنحة الغربان في فروع مبنى الرايخستاغ!

وانعكست مظاهر المدينة هذه على وجوه الناس وملامحهم. واندثرت روح الفكاهة الساخرة بعدما كانت تجود، حتى في اوج القصف، بكتابات على الجدران مثل: "استمتعوا بالحرب،



الجنرال لوسيوس كلاي وارنست رويتر.

لان السلام سيكون مخيفا". وصارت المواد الغذائية كالحليب والسكر والسمن والخضار، اندر من من السماء بالنسبة الى معظم الاسر، واقتصرت وجبات العديد من الناس على جذور النباتات واوراق القراص بعد غليها. واجمل احد العاملين في الحقل الاجتماعي الحال بقوله: "يبذل الناس طاقاتهم في الكدح والكد وراء رغيف من الخبز وزوج من الاحذية. اما الامل في الحياة فقد غاب كغراب نوح".

لكن الداهية الدهياء تمثلت في الوجود الروسي. وقبل ثلاث سنوات طفق الجنود السوفييت يعصفون في ارجاء المدينة بضراوة لا نظير لها. ويقدر عدد النساء اللائي اغتصبهن

السوفييت في اثناء ما يسميه الالمان "الزمن الروسي"، اي فترة الاربعة عشر يوما من ابريل (نيسان) ١٩٤٥ التي حددت معركة الاستيلاء على برلين، بما يراوح بين ٢٠ الف و١٠٠ الف امرأة. وفي خضم صيحات "فراو كوم"، اي "تعالي يا امرأة"، المحمومة ابتهاجا بالنصر، اقتاد الجنود السوفييت النساء والفتيات اللواتي لطخن وجوههن بالسخام اخفاء لمحاسنهن، الى المخابىء واقبية المنازل واغتصبوهن. حتى ان الدكتورة آن ماري نيتشه، التي تعمل في مستشفى فيلمرز دورف للاطفال، لاحظت بعد ثلاث سنوات ان الاحداث، في السن الثامنة ما زالوا يلعبون "لعبة الاغتصاب" اذ يثب الصبيان على البنات محاولين تمزيق ملابسهن.

وتبع ذلك النهب والسلب. ولم يسلم على المستوى الصناعي اي شيء، من عبث الروس - لا مولد الطاقة الضخم بقوة ٢٢٨ ألف كيلو واط في منشآت الطاقة في كرافت فيرك الغربية، ولا انواع المعدات في كبريات المصانع مثل سيمنز - شوكرت واوزرام وتليفونكن وديملر - بنز، التي جردت، جميعا من كل الآلات بغية نقلها الى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. وقام الجيش الاحمر اثر ذلك بنهب كل ما وقعت عليه ايديهم من المنازل الآهلة بالسكان على نحو يصعب تصوره. الدراجات واجهزة التلفون والمغاسل حتى الازرار الكهربائية واقفال الابواب.

واخذ مجرى التفكير السوفييتي يتزايد وضوحا. وفي محاولة عنيفة لحمل الامة الالمانية على الافلاس، طبع السوفييت آلاف الملايين من عملة المارك الالماني مما ادى الى كابوس اقتصادي. وانهالت على الاسواق سلع من كل ما لذ وطاب: الكافيار والشمبانيا والحرير الناعم والبنزين والافلام الفوتوغرافية، في حين بلغ سعر الكيلوغرام الواحد من الزبدة ١٣٠ دولارا ووصل سعر رغيف الخبز الى ١٢ دولارا. كما كان على المرء ان يدفع ١٠٠ دولار وما فوق للحصول على زوج احذية رديئة.

وغدت حديقة الحيوان الصغيرة (تيرغارتن) فسحة من الاعشاب المحروقة والاشجار المجتثة، ممتدة خلف مبنى الرايخستاغ. واخذ الناس يتوافدون اليها يوميا، وظهورهم مثقلة بالاكياس وايديهم تجرجر على الارض حقائب اليد او العربات ذات الدواليب. وراح الاطفال، الذين سلبهم الحرمان نضرة وجوههم، يلوحون ببضائعهم من السجائر التي كانوا يستجدونها من جنود الحلفاء، بينما أخذ المحاربون القدامى، وقد استندوا الى عكازاتهم، يعرضون الميداليات للبيع. وكان بعض الرجال البدن يبيعون جوارب النايلون النسائية بـ٤٥ دولارا للزوج الواحد. غير ان اصعب ثلاث عملات في السوق كانت السجائر والقهوة والشوكولاته. وربما انتقلت ملكية علبة واحدة من السجائر من شخص الى آخر مئات المرات. وكانت تباع بسعر ٣٥ دولارا على الاقل.

في هذه الاثناء نجح الروس في اعاقة كل محاولة بذلها الحلفاء في سبيل اصلاح الوضع النقدي. وبعد يأس عزمت امريكا وبريطانيا وفرنسا

على ادارة المناطق التابعة لها في المانيا كوحدة اقتصادية مستقلة. وردا على هذا الاجراء انسحب الحاكم العسكري الروسي المارشال سوكولفسكي في ٢٠ مارس (آذار) ١٩٤٨ من الاجتماع الدوري لمجلس قيادة الحلفاء- وهو الهيئة المشتركة التي تحكم برلين - بكبرياء وأنفة. ثم اوقف الروس في الاول من ابريل (نيسان) قطار الاكسبريس "برلينر" السريع عند نقطة الحدود في مارينبورن واعادوه الى فرانكفورت. كما اوقفوا قطارين آخرين في اليوم ذاته لمنع وصول مواد حيوية ضرورية، تزن ٦٠٠ طن، الى برلين. عندئذ امر الجنرال كلاي بنقل ٦٠ طنا من اكثر المواد ضرورة بالطائرة الى برلين.

وبعد بضعة ايام، في ٥ ابريل (نيسان)، شنت احدى الطائرات المقاتلة السوفييتية هجوما مصطنعا على طائرة بريطانية عندما اقتربت من برلين فوق احد الممرات الجوية الثلاثة المخصصة للطيران الدولي. واخترقت المقاتلة السوفييتية من طراز "ياك -٣" الاجواء بسرعة فائقة حتى تجاوزت الطائرة البريطانية التي كانت تحمل عشرة ركاب. ثم عكست المقاتلة اتجاهها مع صعود مفاجىء، سريع، وعلى ارتفاع الف قدم ارتطمت الطائرتان وجها لوجه وتحطمتا فوق الحقول وصرع جميع من فيهما.

وعلى رغم المضايقات المستمرة، مضى الحلفاء قدما في مخططاتهم الاقتصادية الخاصة بالمانيا الغربية. وكان رد الروس الاخير الحصار والامتناع عن اجراء المحادثات، والاصرار ببساطة على احتجاز برلين الغربية بكاملها، رجالا ونساء واطفالا، رهائن بين ايديهم.

عرض عضلات

شرع كلاي لتوه في تنفيذ عملية تعد من اكثر عمليات الانقاذ طيشا على الاطلاق. لقد كان في امكان البريطانيين حشد ما مجموعه خمسون طائرة. ولم يكن لدى الفرنسيين طائرات نقل متوافرة نظرا الى انهماك الاسطول البحري الفرنسي في الهند الصينية. اما ما يملكه سلاح الجو الامريكي في اوروبا - عدا طائرتين اثنتين من طراز "سكاي ماستر سي - ٥٤" ذات المحركات الاربعة - فلا يتجاوز عدده الـ١٠٢ من طائرات "سي - ٤٧". ذات المحركين، التي تبلغ حمولة الواحدة منها اقل من ثلاثة اطنان. وكان بعض الطيارين يصفونها بانها "اشد الطائرات رأفة وتسامحا". لكنها قامت بدورها في ما مضى على وجه حسن.

كان الملازم جوزيف كيسر من الرعيل الاول الذي طار في ذلك اليوم وفي عشرات الرحلات الجوية في ما بعد، حيث قاد طائرات من طراز "سي - ٤٧" تعطل فيها جهاز حفظ التوازن الجيروسكوبي وانعدم الضوء في معظم اجهزتها، حتى توجب عليه حمل مصباح كهربائي من اجل قراءة قياساتها المختلفة. وصادف طيار آخر هو الكابتن فرانسيس كنيدي، عاصفة في احدى رحلاته، واكتشف ان حاجب الريح الزجاجي في قمرة القيادة في طائرته "سي - ٤٧" يرشح مطرا كالغربال. ولدى انتهاء رحلته افرغ الطيار الماء من حذائه.

اضف الى هذا ان مطاري برلين الغربية لا يصلحان في اي وجه من الوجوه لاستقبال عملية النقل الجوي. كما ان مطار سلاح الجو الملكي البريطاني في غاتو لا يتعدى كونه مطارا ريفيا على حافة المنطقة السوفييتية، ولا يبعد سوى دقائق قليلة عن قواعد المقاتلات السوفييتية. وسرعان ما اكتشف طيارو الجنرال ليميه ايضا اخطار المطار الامريكي في تمبلهولف، قلب مدينة برلين. ولا يمكن ان ينسى الرقيب فيرنون ايرلي، احد رجال الاتصال بالراديو، ما حدث له خلال رحلته الاولى عندما بدأت طائرة "سي - ٤٧" تهبط كعادتها في انحدار شديد. وما ان شقت حجب الغيوم حتى غدت في مستوى بناية سكن ذات سبعة طوابق. ويذكر الرقيب رؤية وجوه هلعة تحدق من وراء زجاج النوافذ.

لكن ثمة عاملا واحدا بعث على تشجيع الامل والتفاؤل. ويعود الفضل فيه الى بعد نظر الكولونيل فرانك هولي قائد الوحدة العسكرية الامريكية في مدينة برلين الذي عمد وفريق خبرائه، تحرزا من ضرب الحصار على المدينة، الى تكديس المؤن الغذائية بكميات تفي باحتياجات الاهالي طوال ٣٦ يوما. ولهذا لا يتوقع ان يسوء الوضع على نحو ميؤوس منه قبل مضي بضعة اسابيع.

واستهدف كلاي من الحركة الجوية النشطة التي نظمها ان يظهر بوضوح عدد الرحلات التي يمكن القيام بها الى برلين، مما سيثبت للمسؤولين في واشنطن ان في امكانه توفير الغذاء لبرلين الغربية بكاملها عن طريق الجو لو اتيح له ان يستخدم اسطولا من طائرات "سي - ٥٤" الاكثر حمولة. ولكن الى اي مدى ستدعمه حكومات الحلفاء بثبات وعزم؟

لم يستغرق الجواب طويلا! فقد اتخذ مجلس الوزراء البريطاني يوم الاثنين ٢٨ يونيو (حزيران) قرارا يقضي بالمكوث في برلين مهما ساءت الظروف. وعلق ارنست بيفن، وزير الدولة للشؤون الخارجية في حكومة بريطانيا على موضوع النقل الجوي بقوله انه لن يجدي على المدى الطويل، اذ من المتعذر اطعام مليونين ونصف مليون نسمة من الجو. بيد انه اردف ان العملية جديرة بالمحاولة ومن شأنها تأمين متسع من الوقت لاجراء المفاوضات.

وفي اليوم ذاته اجتمع الرئيس هاري ترومان في واشنطن مع وزير الدفاع جيمس فورستال ووزير الحربية كينيث رويال ووكيل وزارة الخارجية روبرت لوفيت.

وتجدر الاشارة الى انه كان قد مضى على رئاسة ترومان حتى ذلك اليوم ثلاث سنوات، وكان من عادة النقاد السخرية منه لضآلة معرفته بالشؤون الخارجية والاستهزاء بنزعته الى مخاطبة زوجته بـ"الريس" على غرار ما يفعله اهالي المدن الصغيرة وبميله الى الافتخار الشديد بمقدرة ابنته مارغريت على الغناء. وقد جلس ترومان ذلك اليوم منصتا الى لوفيت وهو يسرد وقائع الجلسة التي عقدها رجالات الخارجية والدفاع في اليوم السابق حيث نوقشت ثلاث وسائل بديلة: اولا الانسحاب من برلين، ثانيا البقاء فيها تحت ضغط الازمات المستمرة والمستجدة، ثالثا تموين

المدينة جوا والمجازفة بالحرب. وقال لوفيت ان اجتماع وزارتي الخارجية والدفاع لم يتخذ قرارا حاسما في الموضوع، واجمل كلمته بالقول ان الغرض من الاجتماع اليه شخصيا الان هو دراسة هذه الامور الثلاثة.

وما ان فرغ لوفيت من كلامه حتى قاطعه الرئيس ترومان قائلا: "ليس في المسألة نقاش. اننا سنبقى في برلين. وانتهى الموضوع".

وأعترض رويال قائلا: "سيادة الرئيس، هل فكرّت ملياً في الأمر؟"

فأجابه ترومان:

- سنعالج الوضع في ضوء ما يطرأ عليه من تطوراته. ان وجودنا في برلين حسب شروط الاتفاق هو جوهر القضية، ولا يحق للروس اخراجنا سواء بالضغوط المباشرة او غيرها.

وتبع ذلك اتخاذ قرار رئيسي آخر. لقد أراد ترومان ان تتوسع عملية كلاي المرتجلة للنقل الجوي الى أقصى حدّ ممكن وأن ترتكز الى أسس تنظيمية سليمة. وبناء عليه امر بتعبئة جميع الطائرات الامريكية في القارة الاوروبية من اجل هذه الغاية، وأكد على ضرورة تموين برلين، "حتى وان اقتضى الامر تطويع كل شبل في كشافة الولايات المتحدة". وخوّل الرئيس الامريكي السلطات المسؤولة، اثر حصوله على موافقة البريطانيين الفورية، "استعراض قوتها"، وصادق على مخططات لنقل اسراب طائرات "ب - ٢٩" الى قواعد في انكلترا والمانيا مما عنى وضع هاتيك القلاع الجوية المنيعة، التي كان الروس يدركون حق الادراك انها حاملات القنابل الذرية، ضمن مدى يهدد الاهداف في موسكو نفسها.

عملية "سقط المتاع"

اتخذ الجنرال ليميه، توقعا لأوامر الرئيس ترومان، قرارا بتجميع الطائرات الامريكية من اماكنها القصية المتباعدة مثل فيينا وبريمن. وبذلك التزمت جميع الطائرات في الميدان الاوروبي التزاما تاما بعملية النقل الجوي. الا ان الحاجة دعت الى مزيد من الطائرات، خصوصا طائرات "سي - ٥٤" التي تبلغ طاقة حمولتها ثلاثة اضعاف طاقة "سي - ٤٧".

وتشكلت على الفور قوّة عسكرية جديدة أنيطت بها مهمة "الجسر الجوي"، وترأسها البريغادير جنرال جوزيف سميث قائد معسكر فيسبادن الذي يناهز السابعة والاربعين من عمره. وهو رجل عسكري فظّ الطباع، قَبِلَ القيام بمهمته الجديدة بعدما أُبلِغَ ان العملية كلها ستدوم فترة اسبوعين. وعندما الح عليه احد رجال الاعلام المتحمسين - وكان هذا مشغوفا باضفاء لون مسرحي مثير على العملية - ان يستنبط لها اسماً رمزياً يأسر الالباب، اجابه سميث متأففاً:

- بئس الاسم وبئس المصير! كل ما أفهمه اننا سننقل حمولات الأكل ونسقطها على المدينة. واذا كان لا بدّ من اسم، فسمها "سقط المتاع".

وهكذا اصبحت العملية تعرف بسقط المتاع. وفي ٢٩ يونيو (حزيران)، اي حين بدأت الطائرات تتوجه الى مقر العمليات، عقدت هيئة النقل الجوي اجتماعا برئاسة سميث، اعلن فيه مدير الشحن الجديد الميجور ادوارد ويلرفورد عن ثقته قائلا: "أقدّر ان تبلغ الشحنات المرسلة الى برلين بحلول ٢٠ يوليو (تموز) معدّل ١٥٠٠ طن كل ٢٤ ساعة"، علما بأن المجموعتين ٦٠ و٦١ من ناقلات الجنود لم تستطيعا، على رغم جهودهما المتضافرة وحشد أقصى الطاقات في ذلك اليوم بالذات، من نقل أكثر من ٣٨٤ طنا. وبدا من الحماقة التنبوء بمضاعفة تلك الكمية في مدى ثلاثة اسابيع مقدار اربعة أضعاف.

غير ان الهدف المنشود تحقق في موعده المحدد. واستنفر ليميه، الذي وجد نفسه ملزماً باستخدام كل وسيلة ممكنة، جميع الطيارين غير العاملين آنذاك للعودة موقتا الى قيادة الطائرات. وعلى رغم حشد جميع الطاقات المتوافرة، كان الطيار يعد نفسه محظوظا جدا اذا ما اقتنص لنفسه سبع ساعات نوم كل ٣٦ ساعة.

وواصلت الطائرات رحلاتها ذهابا وايابا كالمكوك طوال الليل والنهار. وكانت تحلق في الممرات الجوية ١٠٤ طائرات امريكية و٥٠ طائرة بريطانية محملة بكل ما امكن تجهيزه للشحن. وكان الطيارون ينتهزون الغفوة انتهازا كلما سنحت الفرصة ويتناولون وجبات الطعام اختطافا، وكثيرا ما اقتصرت على فنجان قهوة وقرص كعك. والهب حماسة الجميع شعار كتبت كلماته في كل مكان، من هيكل الطائرة الداخلي الى أكياس الطحين: "شركة ليميه للفحم والطعام - خدمات مضمونة ليل نهار".

وفي هذه الاثناء أكبّ الكولونيل هاولي مع رجلين من بلدية برلين، هما كارل مونتر وبول فولساك، ساعات طويلة على العمل في محاولة لابتداع طرق جديدة من شأنها تخفيض وزن الحمولات الى ادنى حدّ ممكن

وقصرها على المواد الجوهرية. وتبين لهم ان في نقل الخبز جوا الى برلين تبذيرا هائلا لطاقات الشحن، خصوصا لأن ثلث وزن الرغيف هو وزن الماء الذي فيه. وبما ان برلين محاطة بالماء، يجب ابدال الخبز بالطحين. وتحققوا ايضا من ان تجفيف البطاطس منعصارتها يوفر وزنا يعادل ٧٨٠ طناً يومياً، وان سلخ اللحوم عن عظمها يخفف الوزن بمقدار الربع. وأدت هذه الحسابات االدقيقة الى خفض الحد الادنى لاحتياجات برلين اليومية في بحر ١٩ يوما من ٤٠٠٠ طن اغذية الى نصف هذا الوزن.

والواقع ان هذه العملية المشتركة بين الالمان والحلفاء من أجل نجدة برلين وانقاذها ساعدت على ظهور شعور قوي بالتضامن بحلول شهر يوليو (تموز) وعلى تلاشي الضغائن بين الاطراف. واخذ أهالي برلين يطوقون السياج الانيق المضروب حول ثكنات لوفتفافه سابقا حيث يقوم مطار غاتو البريطاني، ويصفقون ويهتفون استحسانا وتشجيعا كلما هبطت طائرة من طراز "يورك" ذات المحركات الاربعة على مدارجه. وكانت الجماهير تحتشد ايضا حول مطار تمبلهولف الامريكي بحيث بلغ عدد الرجال والنساء والاطفال في برلينر شتراسه (شارع برلين) المحاذي عشرة آلاف نسمة. وكان بعضهم يتسلق الاشجار فتعكس الشمس المشعة في وجوههم ظلالا لهم على جدران المنازل المهدمة خلفهم. وكان البعض الآخر يتسلق سطوح السيارات والحافلات والجميع يلوحون بأيديهم ومنهم من حمل الهدايا الى الطيارين، بما فيها اواني "ميسن" الشهيرة والرقيات وجراء كلب الدشهند الالماني ذات الاجسام الطويلة والقوائم القصيرة.

لقد نطق ارنست رويتر بالحق حين اقسم باسم اغلبية المواطنين: "لتصبحن برلين ستالينغراد الالمان التي سترد موجة الضغط الشيوعة الى النحر". وشك بعض المقربين اليه بثقته قائلين له: "سيرغمنا الروس على الركوع". غير ان ايمان رويتر لم يتزعزع: "ان ما يحدث سيهز ضمير العالم".

والحق انه عند الشدائد تذهب الاحقاد وتنمو عرى الصداقة وتتوثق بين الذين يتهددهم خطر مشترك. ولكن على رغم ذلك وعلى رغم هدير الطائرات المستمر فوق سماء برلين، ظلت هناك مشكلات عدة مستعصية اولها الفحم. وقد صرف وليم وست، ضابط العمليات في المقر العسكري في برلين، ساعات طويلة وهو يحوم بطائرته الاستطلاعية بحثا عن مناطق صالحة لانزال الفحم. وتم اخيرا اختيار موقعين، احدهما في ساحة التدرب على المرمى داخل المقر ذاته والآخر في المنطقة المحيطة بالستاد الاولمبي ضمن القطاع البريطاني.

وتقرر في نهاية الامر انزال اكياس الفحم من عنابر القنابل بطائرات "ب - ٢٩"، على ان تتولى مجموعات من العمال نقلها ليليا الى المخازن تحت الانوار الكاشفة. وتبين بعد الانزال التجريبي الاول ان قوة الارتطام بالارض حولت قطع الفحم الى غبار فحمي. وهكذا، على رغم رد فعل ليميه التقليدي عندما سأله الجنرال كلاى عما اذا كان سلاح الجو

الامريكي قادرا على نقل الفحم، لم تصل الشحنة الاولى منه الى برلين الا ليلة ٧ يوليو (تموز)٠ وقد بلغ وزن الحمولة ١٦٠ طنا فقط، وكان الفحم محشوا داخل اكياس للجيش مصنوعة من نسيج صوفي غليظ٠

وتهكمت احدى الصحف الشيوعية آنذاك قائلة: "ان نقص الوقود حاليا يمكن احتماله، ولكن ما الذي سيحل بالناس في الخريف او الشتاء؟"٠

وتحسبا للمستقبل، اصدر هاولي ورفقاؤه في القيادة مرسوما بخفض استخدام الطاقة بنسبة ٧٥ في المئة حفاظا على الفحم، وبحظر حركة السيارات في الشوارع وقطارات النفق بعد الساعة السادسة مساء، وبتحديد استخدام الكهرباء للاغراض المنزلية باربع ساعات يوميا، فضلا عن قطع الكهرباء كليا عن عدد كبير من المصانع الصغيرة٠

ومع ذلك، بدأت نبوءة رويتر تثبت صدقها٠ وها ان بلدة ملسونغن ذات الاسوار القديمة، التي لا تبعد سوى ٣٥ كيلومترا عن حدود القطاع السوفييتي غربا، تدخر حمولة اربع سيارات شحن مملوءة قمحا وسمكا مجففا وخضرا طازجة لنقلها جوا الى برلين٠ وأصدرت كل من هامبورغ وبريمن وساكسوني المنخفضة قرارا بالتبرع بمؤن يوم كامل من جميع المواطنين بغية ارسالها الى برلين٠ وفي الروهر، حيث ارتفع شعار "الفحم لبرلين" فوق تكنات عمال المناجم، حول ١٠٠ ألف طن من الفحم

المخصص للاستهلاك المنزلي المحلي الى العاصمة برلين. وسرعان ما بدأ جسر برلين الجوي، الذي عرف باسم "دي لوفت بريكيه" بالالمانية و"برلين ايرليفت" بالانكليزية و"لو بون ايبريان" بالفرنسية، يأسر الخيال ويهز ضمير العالم.

وعادت الى برلين روح الدعابة اللاذعة القديمة التي لا تراعي حرمة لشيء، وبدأت تقوى وتنتشر يوما بعد يوم. ومن طريف كلامهم الآتي: "اننا محظوظون: تصوروا فقط لو عكست الامور وكان الحلفاء هم الذين يحاصروننا والروس يتولون اغاثتنا من الجو".

سقط المتاع الصغير

شاءت المصادفات الغريبة ان يكسب رجل بعينه خلال هذه الاسابيع العصيبة قلوب عدد كبير من اهالي برلين اكثر من اي شخص آخر. وذلك الرجل هو الملازم غيل هالفرسون الذي يبلغ السابعة والعشرين من عمره. وهو حيي الطبع، قضى ايام خدمته الاولى في قاعدة "راين - ماين" الجوية خارج فرانكفورت بين الطيران وسرير النوم كغيره من الطيارين. ولهذا خشي ان تنتهي عملية النقل الجوية من دون أن يطأ بقدميه ارض برلين. وتصحيحا للوضع، اتخذ في ١٧ يوليو (تموز) خطوات معينة.

قضى هالفرسون الليلة السابقة في رحلات جوية. وما ان تناول وجبة الفطور في ساعة مبكرة حتى صعد الى متن طائرة رفيق له للتوجه معه الى مطار تمبلهولف. والحقيقة ان هالفرسون كان، في تحليقه سابقا الى ذلك المكان، يحار في امر الهبوط على زاوية حادة في محاذاة عمارة الشقق السكنية قرب المطار في برلين. وأراد هذه المرة ان يصور ذلك الهبوط فوتوغرافيا. ولما هبطت الطائرة ترجل هالفرسون حاملا معه معدات التصوير، ومشى عبر حقول المطار الذي يبلغ قطره اربعة كيلومترات فيما كانت عدسة الكاميرا مصوبة الى اعلى لتلتقط صور الطائرات وهي تنقض في انحدارها نحو الارض. وظل على حاله تلك حتى بلغ الحاجز المحيط بالمطار، حيث أبصر عددا من الاطفال - ربما اكثر من عشرة - يراقبونه بحذر واهتمام. وكانوا يرتدون ثيابا رثة مرقعة، ووجوههم الذابلة تنم عن عيشهم في اقبية المنازل تحت سطح الارض. وكادت تلك الثياب وهاتيك الوجوه ان تكون رمزا لاوروبا بعد الحرب.

وبدأ على الفور حوار متردد باللغة الانكليزية بينه وبين اكبر الاطفال سنا، وهؤلاء كانوا يتعلمون الانكليزية في مدارسهم. وسألهم هالفرسون عما اذا كانت مراقبة الطائرات تهز مشاعرهم، لكنهم لم يفهموا قصده، وأجابوا بابتسام وتردد: "اننا نراقب الطائرات طوال النهار".

ولما كان هالفرسون قد عمل مع الشباب الكشافة في امريكا، احس بصلة قوية تربطه بالصغار. لكنه لاحظ امرا غير طبيعي في تلك الساعة، وفجأة ادرك وجه الغرابة. لقد اعتاد طوال سنيّ الحرب رؤية الاطفال وهم يلاحقونه او يلازمونه ويلحون عليه بلجاجة وفرح وصخب في طلب العلكة والشوكولاته. اما هؤلاء الاطفال فلا يفعلون شيئا، ربما لانهم لا يعرفون اصلا بوجود هذه السلع لكي يطلبوها.

واذ لم يكن في جيب هالفرسون سوى قطعتين مستطيلتين من العلكة، اخرجهما وقسمهما اربعة اقسام بينما أتلع الاطفال اعناقهم، وملامحهم تدل على "عدم التصديق، كأنما دلفوا لساعتهم الى بلاد العجائب".

ومن لم يسعده الحظ بالعلكة تأسى بلعق الغلاف او بشمه. وظن هالفرسون ان في مستطاعه ان ينقل هؤلاء الاطفال الى قمة النعيم بثلاثين سنتا لا اكثر، ولهذا قال بصوت عال:

- تعالوا الى هنا يوم غد ،سأقذف اليكمالعلكة والشوكولاته من طائرتي، شرط ان تعاهدوني على تقاسمها بالتساوي.

وسأله احد الصبيان: "ولكن كيف سنعرف طائرتك بين الطائرات؟"

راقبوا الاجنحة لان طائرتي ستهز جناحيها. راقبوا رفرفة الجناحين.

وحين عاد ادراجه الى قاعدة راين ماين، احس هالفرسون بالندم على ما تعهد بفعله. ان من اليسر الحصول على الشوكولاته، ولكن أنى له ان يسقطها والمنفذ الوحيد الذي يمكن استخدامه لهذه الغاية في طائرة "سي - ٥٤" هو الانبوب ذو الفوهة الموسعة بطول ٢٥ سنتيمترا خلف مقعد الطيار؟ وكيف يمكنه انزال الحلوى الى الاطفال بلا مظلة؟ وما الذي يمكن ان يستعمله بديلا لمظلة الانزال؟ اضف الى ذلك ان مثل هذه العمليات محظورة قطعا في انظمة سلاح الجو.

ولمعت في ذهن هالفرسون فكرة جديدة. غير ان اول ما فعله كان جعل رفيقه في الطيران جون بيكرنغ يقسم على عدم افشاء السر. ثم دخل حجرته واخرج كيسا مملوءا بالمناديل التي اشتراها درءا لزكام اصابه.



الميجور جنرال وليم تانر.

وفي اليوم التالي، عندما اخترقت طائرته أكداس الغيوم المتفرقة فوق مطار تمبلهولف، شاهد هالفرسون زمرة من الاطفال متراصة على السياج، فحرك جناحي الطائرة حسب الاشارة المتفق عليها، وامر رفيقه بانزال ثلاثة مناديل ربط كلا منها على هيئة مظلة عبر الانبوب المتسع تدريجا، وكانت محملة بانواع من العلكة والحلوى تكفي لاسعاد ثلاثين طفلا. وهكذا حافظ الرجل على كلمته وانتهى الامر على خير وسلام.

ولكن مهلا! ان العملية لم تنته، وانما هي بدأت لتوها. ومع مرور الايام لم يغادر الصبية المكان. وانما تزايدوا عددا وعنادا حتى فاق عددهم المئة. وكانوا يتدافعون الى السياج ويراقبون بلا طائل رفة الجناحين التي سترف لها افئدتهم فرحا. ومرة اخرى اخطأ هالفرسون الحكم على الامور

بقوله: "انزال آخر يكتفون به ويكفونني شرهم".

الا انهم لم يكتفوا. وفي محاولة يائسة لارضائهم، قام هالفرسون بعمليتين اخريين لانزال الحلويات، منزلا في كل منهما ستة مناديل. وفي عصر احد الايام، عندما هبط هالفرسون بطائرته وسط حجب الضباب التي اكتنفت مطار تمبلهولف، احس بارتياح عظيم وتنفس الصعداء لانه لم يستطع رؤية اطراف المطار من خلل الضباب، فاقنع نفسه بان الاطفال ليسوا هناك. لكنه، في وقت لاحق، دخل مكتب العمليات والقى نظرة عابرة على اكداس من الرسائل فوق المنضدة، ذات غلف بنيةومعصوبة بخيط قنب، وشل هالفرسون في مكانه وتجمد. يا للهول! انها كلها موجهة اليه!

كان بعض الرسائل مكتوبا باقلام من الشمع حمراء وخضراء فاقعة اللون، وقد رسمت على غلفه صور طفولية لطائرة "سي - ٥٤" وهي تسقط المظلات، وحملت كلها. اسماء اسطورية جديدة مثل. "اونكل فاكل فلوغل"، اي "العم ابو الجناحين الهزازين" و"در شوكولادن فليغر"، أي "طيار الشوكولاته". واحسرتاه! هذه هي الخاتمة التي تودي بالطيار الى المحاكمة العسكرية!

ولم يطل ترقب المجابهة طويلا. وفي صباح احد الايام استدعي لمقابلة قائد الجناح.

- ما الذي فعلته، بحق السماء؟

وأجاب هالفرسون ببراءة:

- الذي فعلته هو الطيران كالمجنون ليل نهار ايها الكولونيل.

عندئذ استشاط رئيسه غيظا وصاح:

- اسمع انا لست ابله. الخبر ملأ الصفحات الاولى في صحف برلين. اتدري انك كدت تصيب احد رجال الصحافة في أم رأسه بتلك الشوكولاته؟

ثم اضاف بصوت اكثر عذوبة: "لحسن حظك، يأمرك الجنرال بمواصلة ما تفعله".

ومنذ تلك اللحظة اتسع نطاق انزال الشوكولاته، واطلق عليها اسم: "عملية سقط المتاع الصغيرة". وحين نفد رصيد هالفرسون من المناديل، ساهم سائر الطيارين بمناديلهم وبشراء العلكة والشوكولاته.

وبين عشية وضحاها اصبح هالفرسون نجما متألقا لا في سماء المانيا فحسب، وانما في ارجاء الولايات المتحدة ايضا حيث تبنت المحطات الاذاعية من لوس انجلس الى بوسطن قضيته في حملة "ارسلوا المناديل اليه". وفي غضون وقت قصير بات هالفرسون يتسلم خمسة اكياس بريدية في اليوم الواحد.

ويذكر هالفرسون ان سياج تمبلهولف اصبح بمثابة صفوف متراصة من الاطفال. ولذا توجب البحث عن مناطق انزال اكثر أمنا وسلامة. وبعد انتزاع الحواشي من فتحات النجاة في طائرات "سي - ٥٤" التابعة للوحدة التي ينتمي اليها هالفرسون، خصصت للطيارين مناطق محددة لانزال الحلوى من ارتفاع ٦٠٠ متر فوق حديقة الحيوان وباحات المدارس والمتنزهات حيث كانت تفرغ صناديق الكرتون من محتوياتها من الشوكولاته فتتناثر عبر الحدائق والبساتين تناثر العناقيد من زغب النباتات الشائكة.

وحين اشتكى الاطفال في برلين الشرقية من حرمانهم هذه الطيبات، وسع هالفرسون بصفاء طوية نطاق مظلات الشوكولاته لتشمل فيسنسي وبانكوف. ولكنه امر بعد ايام قليلة بالتوقف لان السوفييت بعثوا بمذكرة الى وزارة الخارجية الامريكية تندد بالعملية وتصفها بانها "خدعة رأسمالية مفضوحة".

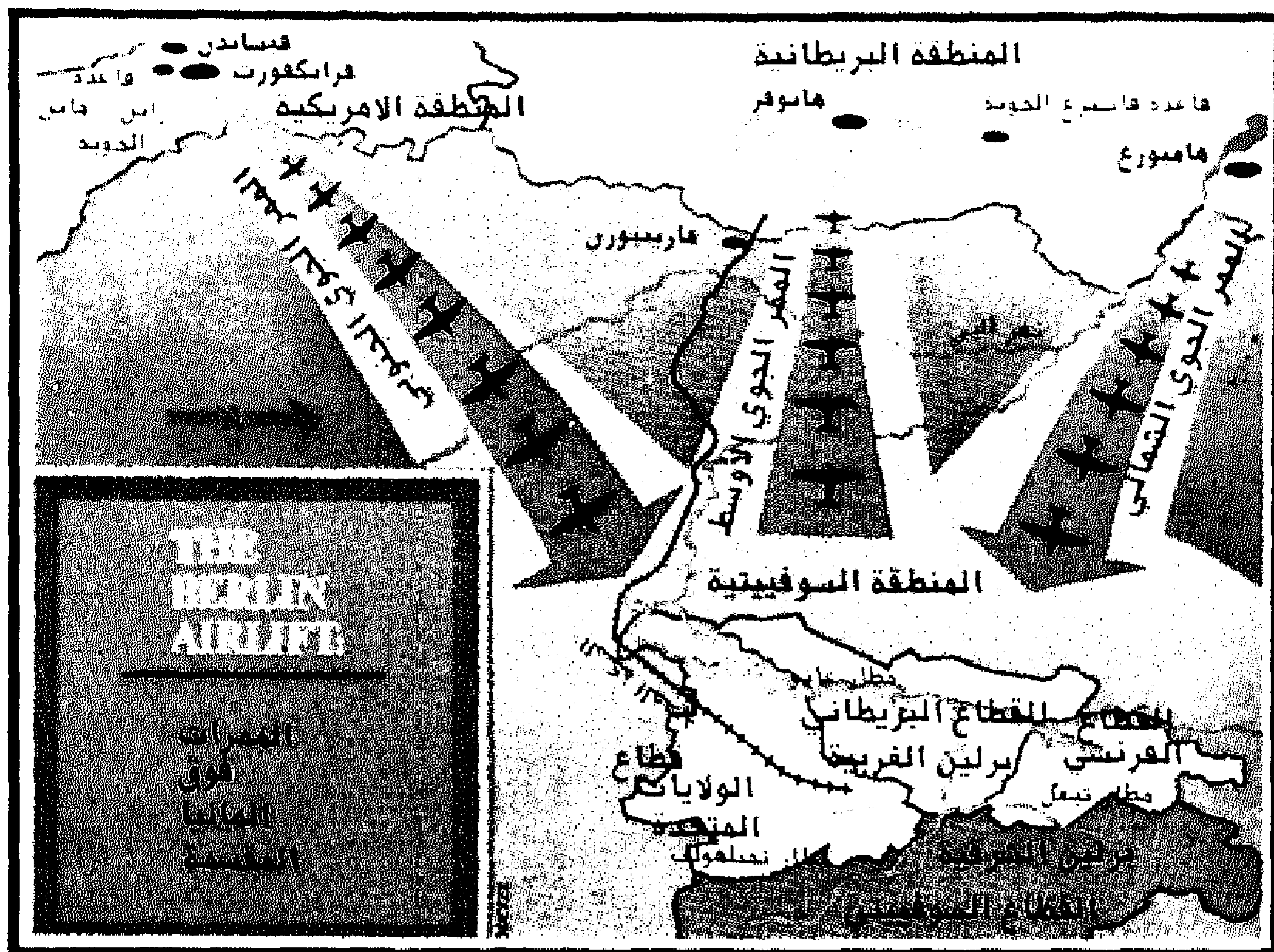
انذار

ومهما يكن الامر فقد بقيت الاخطار تهدد وضع التموين. ولئن كانت كميات المواد الغذائية المشحونة جوا تتناسب واحتياجات الاهالي، الا ان المشكلة الكبرى كانت تأمين الفحم. وثمة حاجة ماسة الى عدد اكبر من الطائرات لنقله. لكن واشنطن، على ما يبدو، مترددة في الاستجابة لمطالب الجنرال كلاي الملحة. وفي آخر الامر استدعي الجنرال الى العاصمة الامريكية في اليوم السابع عشر من يوليو (تموز). ولدى اجتماعه الى الرئيس ترومان في اليوم الثاني والعشرين من الشهر ذاته، ابلغ كلاي الرئيس الامريكي وكبار مستشاريه ان برلين لن تقوى على الصمود اذا اقتصرت طائرات التموين على ٥٢ طائرة "سي - ٥٤" و ٨٠ طائرة "سي - ٤٧"، وانه اذا اريد لها الثبات الاكيد فلا بد من الحصول على اسطول جوي قوامه لا اقل من ١٦٠ طائرة "سي - ٥٤" واستطاع كلاي، على رغم وجود بعض المستشارين الذين ما زالوا يفضلون الانسحاب الكامل من برلين، ان يربح الجولة ويفوز بتعهد من ترومان لتلبية مطالبه.

واتضح، بناء على هذا الالتزام ضرورة تحويل الامداد الجوي من عمل ارتجالي، جريء، كعهده في بداياته، الى عملية منظمة لا تقل عن مقياس الايقاع الموسيقي (المترونوم) دقة وانتظاما. ولهذا جاء الى المانيا في ٢٩ يوليو (تموز) الميجور جنرال وليم تانر (٤٢ سنة) الذي ترأس ايام الحرب عملية مد جسر جوي فوق الجبال الواقعة بين بورما والصين. وكان تانر رجلا شديد البأس، كفؤا، مشهورا بصلابته، الى حد ان احد اعوانه حذر ذات مرة موظفا جديدا بقوله: "اؤكد لك يا بني انه لو لعب الجنرال تانر دور ترويض الاسد في سيرك الاخوان "رينغ لينغ"، لانعكست الآيةووضع الاسد رأسه بين فكي الجنرال".

وسرعان ما اكتسبت حجرات مكاتب الجنرال تانر صبغة فنية سوريالية، اذ امتدت من النوافذ الى الابواب، وبالعكس، حبال ارتكزت فوقها تشكيلة من علاقات الملابس المرقمة ترقيما يمثل طراز الطائرات المتوافرة لعملية النقل الجوي. واسفرت مناورات المعاونين في ترتيب العلاقات على الحبال عن ظهور انماط جديدة للجسر الجوي.

وتمخضت المشروعات المحدثة عن قرار جوهري يلزم الطائرات بالسلوك في اتجاه واحد عبر الممر الجوي الجنوبي الى برلين وبالعودة بعد تفريغ حمولتها عبر الممر الجوي الاوسط. وأمكن بذلك تفادي احتمال وقوع اصطدام في الجو بين الطائرات في كلا الاتجاهين، خصوصا لأن الطائرات كانت في ما مضى تستخدم الممرين الجويين من دون تمييز في الاتجاه. وبالاضافة الى ذلك، توجّب



على كل طيار الآن ان يحرص على اجتياز نقاط المراقبة في الوقت المحدد له، واصبح ملزما بالتحليق فوق مركزي المرشد الاشعاعي لهداية الطائرات في فولدا بالقرب من فرانكفورت وفي فروهناو في ضواحي برلين، مستخدما كلا المرشدين للحفاظ على مسافة محددة بينه وبين الطائرة السابقة ولضبط مدى ارتفاعه عن سطح الارض وسرعة طيرانه ضبطا دقيقا للغاية.

ورتبت الامور بحيث لا تكاد عجلات الطائرة تستقر في سكون بعد الهبوط في مدارجها في برلين حتى ينطلق فريق النقل الخاص لتفريغ حمولتها في الوقت نفسه اذ تتقدم عربات الوقود والصيانة. والزم الطيار ايضا بالبقاء على مقربة من طائرته حيث يسارع اليه فريق آليات خاص لتزويده بتقارير الاحوال الجوية وبأكواب القهوة والسندويشات، "لأن الطائرة الجاثمة بلا حراك انما تضيع سدى" في رأي الجنرال تانر.

وما من شك في ان التعاون الانكلو - امريكي كان عاملا حاسما. وفي ٢١ اغسطس (آب) حصل تانر على موافقة بريطانيا في ما يتعلق بجعل قاعدة سلاح الجو الملكي في فاسبرغ قرب هانوفر التي تقع داخل المنطقة البريطانية من المانيا محطة لثلاثة أسراب من طائرات " سي - ٥٤". والجدير بالذكر ان الممر الجوي الجنوبي الذي يفضي الى القطاع البريطاني من برلين كان أقصر بمعدل النصف من الممر الجوي الشمالي (الامريكي) الى تمبلهولف، مما عنى

ان الطائرات انطلاقا من قاعدتها الجديدة في فاسبورغ، ستتمكن من انجاز خمس رحلات كاملة يوميا الى برلين ومنها بدلا من ثلاث رحلات ونصف رحلة فقط، وهو معدلها الحالي انطلاقا من قاعدة راين ماين.

ولكن، على رغم هذه الترتيبات، تبين انه سيتعذّر على برلين الصمود في وجه الشتاء القاسي ما لم تقم مدارج اضافية لاستقبال الطائرات. واذ تعذّر بناء مدارج جديدة في مطار غاتو البريطاني الذي بدأ يستوعب حركة جوية تعادل ضعفي الحركة في تمبلهولف وأصبح اكثر نشاطا وانشغالا حتى من مطار لاغوارديا في نيويورك بمقدار ثلاثة امثال، فقد اقبل ١٩ ألف برليني بهمة ونشاط لفتح مطار ثالث في تيغل، القطاع الفرنسي من المدينة.

ولكم كان منظر هؤلاء القوم رائعا ومؤثرا وهم يعبرون الاراضي المنبسطة التي كانت في وقت من الاوقات ميدانا لتدريب فرق المدفعية المضادة للطائرات بقيادة هرمان غيرينغ، وقد اعتلت اكتافهم المعاول والمجارف وكأنها بنادق الجنود في ساحة الوغى! وكان نصفهم تقريبا من النسوة اللآتي ضاهين الرجال قوة وتصميما في نقل الطوب والحجار الى الكسارة، بينما أخذ اساتذة الجامعات سابقا، بستراتهم السوداء الرثة التي تكاد تلامس الركب، يعملون جنبا الى جنب مع الفلاحين الأشداء الذين انتعلوا القباقيب الخشبية، ومع رجال فقد الواحد منهم يده أو رجله أيام الحرب. ووصف احد المراقبين العملية بانها شبيهة بالمعجزات التي اجترحها الحمالون في الصين وهم في طريقهم الى بورما. واستمر العمل بالتناوب اثناء الليل تحت الاضواء الكاشفة وأطراف النهار في نوبات متصلة، طول الواحدة منها ثماني ساعات.

على ان احداً من الناس لم يعمل أكثر من تانر نفسه الذي كان يتنقل كالمكوك صباح مساء من مقره في فيسبادن الى تمبلهولف ثم الى فاسبرغ، ويقفل بعدها راجعا الى مقره، متناولا وجبات طعامه حيثما امكن ومرتديا معطف الطيارين الزيتي اللون، وقد نزع عنه جميع شارات رتبته العسكرية واعتمر طاقية كالتي يرتديها لاعبو البيسبول. وكان يتهالك فوق سرير وضع موقتا داخل مكتبه، عاجزا عن متابعة السير بضعة امتار الى حجرته الخاصة. ويذكر الرقيب لويس كوتنر، المسؤول عن العمليات خلال النوبة الليلية التي تبدأ عند منتصف الليل وتنتهي في الثامنة صباحا، انه كان يرى تانر في الساعة الثالثة صباحا وهو يجيل النظر بعينيه الزرقاوين في جداول الطائرات والنقل بانتباه وتأهب، مستفسرا عن عدد الطائرات المعطلة وكم تطول فترة صيانتها. ثم يراه مرة أخرى في السابعة صباحا يترأس اجتماعا مع فريق خبرائه للنظر في امكانات تحسين عمليات النقل الى حد أبعد.

وتبلورت مع الايام مسألة اكيدة واحدة هي مسألة زيادة التنسيق التي أصبحت امرا ملحا طالما بقيت الطائرات الامريكية والبريطانية تستخدم الممرات الجوية نفسها. ولا يتم ذلك التنسيق في رأي تانر الا اذا اصبحت جميع الطائرات المخصصة لاغراض النقل الجوي تحت قيادته

هو. وعلى رغم الضغوط المختلفة والمقاومة، فقد تم التوصل الى اتفاق نهائي في اواسط شهر اكتوبر (تشرين الاول)، تشكلت اثره قوة مشتركة أنيطت بها عمليات الجسر الجوي برئاسة تانر باعتباره القائد الاعلى، وعين قائد سلاح الجو الملكي، ج.و.ف. ميرر، نائبا له. وبذلك تهيأت لتانر اسباب تنسيق نظام نقل يسهل الحركة ويسمح بشحن حمولات جوية كل ثلاث دقائق على مدى ساعات الليل والنهار.

ومع ذلك ارتعدت فرائص الكولونيل نيكلاس شافاس، المسؤول عن "مجموعة ٢١٠٥" الخاصة بالاحوال الجوية، وهو ينتظر حلول فصل الشتاء. وبلغ به الفزع أشده اذ سمع الجنرال تانر يقول له في صباح أحد ايام الخريف المعتدلة: "لن تضيرنا الاحوال الجوية مطلقا". واعترض شافاس على الملاحظة:

ـ لن يدوم الطقس على هذا المنوال ايها الجنرال، بل قد يسوء كثيرا ابتداء من أول شهر نوفمبر (تشرين الثاني) بحيث يصعب الارتقاء فوق الغيوم المتعالية او الانخفاض تحتها لشدة دنوها من الارض.

وبروح تتحدى العراقيل، لم يعره تانر اهتماما كبيرا، وأجاب: "عليك فقط ان تقدم لنا افضل خدمة ممكنة عن الاحوال الجوية".

وكان هذا الرد بمثابة حسم للمناقشة. وعاد شافاس الى مقر المراصد الجوية مشوش الذهن ومثقلا بالهموم، ولديه بعض التحفظات.

"سيبيريا أبرد"

بدأت اوراق الشجر ترتعش على اغصانها وتتساقط واحدة بعد الاخرى على الارض في "غونافيلد" (منطقة الغابات)، وانساب الهواء الجليدي على شواطىء بحيرات هيغل مشبعا بالادخنة الحادة التي تصاعدت من النار المضرمة في الهواء الطلق للتخلص من الاغصان اليابسة وغيرها. وتوهجت في صفحة سماء رصاصية اللون مثقلة بالغيوم شمس شاحبة اشبه ما تكون بيقطينة برتقالية اللون. وفي سقيفات التموين الباردة في مطاري غاتو وتمبلهولف، حيث تجمع الحمالون، راح الرجال يضربون الارض بأقدامهم ويصفقون بأيد مكسوة بالقفافيز درءا للبرد.

وهكذا جاء فصل الشتاء القارس، "رفيق الشيوعيين المرتقب"، واتخذ من برلين مقاما له. ودلت احصائيات الحلفاء لدى اقبال "الرفيق" على أن نصيب معظم المنازل في برلين من الفحم لن يتجاوز ١١ كيلوغراما .ونصف كيلوغرام، أي ما معدله ملعقة شاي واحدة من الفحم يوميا. وأيقن الجميع ان زمن الشدائد بدأ حقا.

ولئن كان الانسان عرضة للنسيان، الا أنه لا يمكن للبرليني ان ينسى قسوة تلك الاشهر. وعلى سبيل المثال، حاولت هيلينا غوزه، التي كانت تعمل في قسم بحوث ارنست رويتر، ان تعد لنفسها في احدى الليالي شرابا دافئا من قنينة تحتوي على ثمر العليق. وبما ان الثمر كان قد تخمر، فما ان فتحت هيلينا غطاء القنينة حتى تطاير العصير الاسود في ارجاء الغرفة وتجمدت فورا قطراته التي سقطت على الجدران. ويروي ايضا الممثل الهزلي فولتر غروز، الذي كان يلعب دورا تمثيليا على مسرح "كورفيرسن دام"، انه وجد خشبة

المسرح كحلبة التزلج على الجليد نتيجة لتصدع انبوب ماء واندلاق قليل منه على الخشبة. وبكل شجاعة واقدام، تولى افراد الفرقة التمثيلية تأدية أدوارهم بعدما عصبوا احذيتهم بالخرق والثياب. اما الجمهور الذي شاهد المسرحية فكان مدثرا بالمعاطف والبطانيات. ويقول فولتر غروز: "لقد صفق الجمهور لنا بحماسة منقطعة النظير، وأظن انهم فعلوا ذلك طلبا للدفء".

وراح الناس يحتطبون في الغابات المحيطة ببرلين. بل ان بعضهم اقتلع ارضيات الغرف المفروشة بقطع خشبية مزخرفة ذات قيمة فنية رفيعة وألقمها وقودا للنار، كما فعل الشيء نفسه بالأثاث غير الضروري قطعة بعد قطعة. بل ان الصحافية كورنيليا هيرستات في تيرغارتن احرقت رزما من رسائل الغرام، "الا ان تلك الرسائل، على رغم لهيب عواطفها، لم تسعف حتى في قلي شرحات قليلة من البطاطس" على حد قولها.

وعمد كلّ من استطاع الى انجاز اعماله من داخل فراش النوم مرتديا كامل ملابسه، بما في ذلك المعطف والقفازان والطاقية، كما فعل كاتب الاغاني كوبت فلاتو. ونظرا الى انعدام وسائل التدفئة، اصبح الدوام المدرسي امراً اختيارياً. وأمضى عدد كبير من الاطفال اشهرا داخل الاسرة، بكامل ملابسهم ايضا.

وفي السادسة من صباح ١٣ نوفمبر (تشرين الثاني)، استيقظ الكولونيل شافاس (المسؤول عن رصد الاحوال الجوية) مذعورا من نومه اذ شعر غريزيا بان خللا ما قد طرأ. ولبد في فراشه لحظة يفكر في ما عسى أن يكون ذلك الخلل. وفجأة ادرك حقيقة ما حدث، لأنه الآن انما يصغي الى السكون فقط.

وهرع الكولونيل من سريره الى النافذة وأزاح الستائر عنها، لكنه لم ير شيئا على الاطلاق. لقد غابت معالم الشارع واختفت خلف جدار أبيض من الضباب. وانقطع أزيز الطائرات كليا تقريبا، ولم تتمكن من الاقلاع في ذلك اليوم بطوله سوى ٣٥ طائرة من كلا القاعدتين الامريكيتين.

وتذكر شافاس قول تانر له في احد الايام: "اذا هبطت الغيوم دون ١٥٠ مترا، فسآمر بتحديد تباعد زمني بين الطائرة والاخرى مدته خمس دقائق. اما اذا هبطت دون ٧٥ مترا، فيجب على الطائرات ان تجثم في مدارجها، على ان تبقى محركاتها مشتغلة".

لكن عددا كبيرا من ضباط عملية النقل الجوي لم يسمحوا ابدا بوجود اي تباعد زمني حفاظا على استمرار الشحن. وقد تلقى الطيار الملازم ادوارد ويبر وفريقه في قاعدة راين - ماين الجوية نشرة الانباء الجوية باسلوب عسكري محض: "ايها الرجال! انتم الان متطوعون للطيران في حال الصفر المطلق: مدى الرؤية صفر وعلو الضباب عن سطح الارض صفر ايضا". وتلمّس الملازم ويبر طريقه الى طائرته وركز مقودها باتجاه خط ابيض، وانطلق مسرعا كالاعمى لا يرى شيئا. حتى اذا سجل مقياس السرعة ١٦٠ كيلومترا في الساعة، ارتفع بها فوق سطح الارض مقتحما خضم الغيوم المتلبدة ومسترشدا بأجهزة القياسات، الى ان اصبح على بعد ثوان فقط من برلين.

استمر الضباب طوال شهر نوفمبر

(تشرين الثاني)، وهجعت اوروبا تحت غطاء بلون الزعفران، وهو بارد كالثلج وكثافته ٣٠٠ متر. وغالبا ما كانت الطائرات تقلع من قاعدة راين - ماين قرب فرانكفورت متجهة الى برلين، في حين ان حافلات النقل (الاوتوبيس) في شوارع فرانكفورت شلَّت عن الحركة بسبب انتشار ظلمة حالكة يتعذر سبرها. حتى ان الرجل الذي كان يسير في الشوارع حاملا مشعله الكهربائي، لم يكن يرى أبعد من نطاق مترين فقط. ولم تقتصر الصعوبات على حركة الطيران وحدها، بل اصبحت عملية نقل مواد الشحن الى الطائرات مشكلة عويصة في ذاتها. ولعل ما كان يحدث في بلدة بيبريخ على ضفة نهر الراين، التي تبعد ٢٩ كيلومترا عن القاعدة الجوية الامريكية، ما يوضح مدى هذه المشكلة. فثمة ألف عامل يعملون بالتناوب على حمل اكياس الفحم من المراكب النهرية الى موقف سيارات الشحن التي ستنقل الفحم الى القاعدة الجوية. لكن الرؤية انعدمت الى درجة استوجبت صف العمال واحدا بعد الآخر من ضفة الراين حتى سيارة الشحن بحيث تلامس القدم اليسرى لكل عامل كعب زميله للتعرف على مكان وجوده. وكان الواحد منهم يتلقف كيس الفحم ويمده الى رفيقه حتى يصل الكيس الى الرجل الاخير قرب سيارة الشحن، ثم تتحرك قافلة السيارات المحملة بالفحم فيما تسترشد كل منها طريقها بالاضواء الحمر الخلفية للسيارة التي تتقدمها. وكان سائق سيارة الاولى يهتدي بضوء مشعل كهربائي حمله مرشد القافلة الذي يسير على قدميه.

وكانت هناك، بطبيعة الحال، لحظات حرجة كثيرة. ويذكر الملازم البحري ريتشارد جيرزوفسكي أنه تلقى، فور هبوطه بالطائرة على المدرج "٢٤" في مطار راين - ماين، الارشادات الآتية: "اتجه يسارا... والآن اتجه يمينا الى ارض الوقوف الصلبة". لكنه اوقف الطائرة فجأة بدافع فطري، وطلب الى رفيقه انزاين برنالد سميث النزول من الطائرة والتحقق من طبيعة المكان. ووجد سميث ان الطائرة توقفت على بعد مترين لا اكثر عن مقدم طائرة عملاقة اخرى من طراز "سي - ٧٤" (التي لم تكن مدرجة في جداول الطيران).

وانحطت حركة النقل الجوي الى الحضيض يوم ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني)، اذ لم تصل الى برلين سوى عشر طائرات. وقبعت بصمت، تحت ستار زاحف من الضباب، مطارات برلين الثلاثة: غاتو وتمبلهولف وتيغل الذي فرغ الالمان باعتزاز من بنائه قبل شهرين من الموعد المحدد لاتمامه.

وأخذت كميات المخزون من الاغذية تتناقص، فيما تضامن مع الشيوعيين "رفيق" آخر هو "الجوع العام".

وكانت مخصصات الاغذية لسكان برلين الغربية قد زيدت في اواسط الشهر السابق، اي اكتوبر (تشرين الاول)، حتى بلغت الحد المطلوب للبقاء على قيد الحياة: ٢٨ غراما من السمن في اليوم الواحد، ٥٦ غراما من اللحم المعلَّب او البيض المجفف المسحوق، ٨٤ غراما من البطاطس المجففة او الدقيق، ٥٦ غراما من الحبوب، ٢٨ غراما من السكر، ٥٠٠

غرام من الخبز. وتقلّص سيل الامدادات وهبط حجم المواد المتوافرة في الاسواق، ولم يتمكن أصحاب المتاجر من الوفاء بمتطلبات بطاقات التقنين، حتى بالنسبة الى الزبائن القدامى.

وبلغت الازمة في محافظات ستيغليتز وداهلم وليخترفيلد حدّ استدعاء مدير فرقة الاطفائية - رودولف هاردر - الى عشرات البيوت لنقل جثث اصحابها من المسنين والمقطوعين الذين ماتوا جوعا. أما الاحياء فقد لاحظ عدد كبير منهم ان ردود فعلهم اصبحت بليدة وبطيئة الى حد مؤلم. ومن الظواهر الغريبة ان بعض المسائل الحسابية البسيطة أعيت حتى رجال المحاسبة، ولم يعد اطفال المدارس قادرين على حفظ أبسط المعلومات. وغالبا ما كانوا يتكئون على المناضد امامهم نصف نائمين او شبه مغميّ عليهم.

وتكاثرت في تلك الآونة وصفات أطباق الطعام، ونزلت في اعمدة الصحف الخاصة بشؤون المطبخ نصائح لملء البطون، كنقع الخبز الاسود بالماء واضافة البهارات اليه ثم قليه على النار بلا سمن. وأقدمت هيرتا بيزولد، احدى ربّات البيوت، على طحن حبات من القمح كانت التقطتها من الحقول إثر موسم الحصاد، في مطحنة القهوة لتجعل منها طبق تريد مغذ للفطور. واستنبطت ربة بيت أخرى اسمها هيرتا يونغتو وهي زوجة مهندس يعمل في مصانع "سيمنز" اسلوبا جديدا في طهي فطيرة الحلوى اذ خلطت مسحوقا من قشرة البطاطس مع قليل من طحين القمح ومسحوق البيض المجفف، ثم قلت الخليط في زيت السيارات الذي جاء به زوجها من مكان عمله. ولما أكمل كارل يونغتو أكل الفطيرة، سألته زوجته ما اذا كانت لذيذة المذاق، فأجاب: "انها مقيتة، ولكنها تملأ المعدة".

وقاوم معظم سكان برلين، على رغم الحرمان الكبير، ملاطفات الشيوعيين واغراءهم. وكان السوفييت قد اعلنوا، منذ وقت مبكر في شهر اغسطس (آب)، عن عرض أعتبر بمثابة رشوة نكراء، وهو منح أي مقيم في القطاع الغربي من برلين حق صرف قسائم التقنين في برلين الشرقية التي قيل انها تتمتع بوفرة عظيمة من المواد الغذائية. لكن عدد الذين قبلوا العرض السوفييتي لم يزد على ١٩ ألف شخص، ولم يتجاوز، حتى في اوج أزمة الغذاء، ٨٥ ألفا من أصل مليونين ونصف مليون نسمة. وكان معظم هؤلاء يعمل اصلا في القطاع الشرقي ويشتري مقتناته من هناك.

وعندما استفحل البرد القارس، أقيمت نقاط اخرى للتفتيش الصارم، وأصبح البرلينيون الذين يتوجهون الى القطاع الشرقي للمقايضة بمدّخراتهم وكنوزهم مقابل الحصول على الفحم او البطاطس، عرضة للتفتيش الدقيق لدى عودتهم. وكثيرا ما صودرت سلعهم باعتبارها مواد محظورة مهربة. واتسع نطاق التفتيش حتى شمل قطارات النفق ما بين شرق برلين وغربها. ولم يتورع السوفييت حتى عن تفتيش دفاتر الجيب او محافظ النقود ومصادرة الاوراق المالية. وبذلك تعاظم الشعور بالحصار واشتد احساس الناس بالسخط والنقمة.

وربما كان من العجيب استمرار سبل الحياة على رغم هول المصاعب. غير ان معظم الناس تقبلوا واقع الجوع والبرد بخضوع لحكم الضرورة ومن غير تذمر، بعدما ادركوا حقيقة كلمة ارنست رويتر: "البرد هنا قارس، لكن سيبيريا أبرد".

لعبة الروليت الروسية

لقد شارف شهر نوفمبر (تشرين الثاني) على الانتهاء، وبدأت عزائم طياري الجنرال تانر تنهار في وجه الانهاك الجسدي المضني. ولم يسبق الا لقلة بينهم ان عملت في ظروف مرهقة مماثلة. وبدأت تلوح على سيمائهم ملامح الارهاق والتوتر. وكان الد اعدائهم في معظم الاحيان ذلك الضباب العنيد وتلك الجحافل المخيفة من الجليد. وفي احدى الليالي الباردة المتجمدة، كان الطيار الملازم فيرنون هامان يحوم بطائرته فوق مطار تمبلهولف في برلين استعدادا للهبوط عندما امر بصورة قاطعة لا تقبل المناقشة بالعودة الى قاعدة راين - ماين. وفجأة خيم صمت مطبق! لقد انطفأت محركات الطائرة الاربعة دفعة واحدة بسبب الجليد. ومن علو ٦٠ مترا بدأ هيرمان ينحدر انحدارا اخيرا مرعبا نحو الهلاك. وباعجوبة ارتطمت عجلات طائرته بارض مقبرة سانت توماس على الطرف الشرقي من مطار تمبلهولف بقوة واندفاع هائلين جعلا الطائرة ترتد كالكرة في الهواء وتنقذف الى المدرج الرئيسي في مطار تمبلهولف حيث اندفعت العجلات فوق الارض حتى توقفت من دون ان تنفجر حتى عجلة واحدة.

ومن بين الاعداء اللداد ايضا ذلك المطر الذي يظل ينهمر يوما بعد يوم من سماء سوداء مكفهرة حتى اطلق على تلك البقعة الموحلة المعروفة بالراين - ماين اسم جديد هو الراين - طين.

وجابهت عمليات النقل البري ايضا صعوبات جمة. وكانت الجزم التي ينتعلها الرجال تتشرب بزيت الديزل الذي ينز من قارنات الصهاريج فتسبب التهابات في انسجة باطن القدم. وفي غمرة الامطار، كانت تلك الفسحة من الارض بطول خمسة امتار ما بين قمرة الطيار وبوابة التفريغ تتحول الى "كتلة دبقة من العجين" حيث يختلط الطحين بالماء. اما غبار الفحم فكان يتسرب الى كل مكان داخل اعمدة القيادة فيسدها، والى نقاط الوصل والمفاتيح الكهربائية فيفسدها بالتآكل. وكان الغبار يندس في فتحتي الانف والاذنين وبين الجفون.

وهكذا تضافرت جميع العقبات والاخطار والمتاعب معا وتجسدت في هيئة عدو لا يقهر هو الانهاك. وكان الطيارون، بعد قضاء ١٢ ساعة في الجو، يغطون في نوم عميق ثم يستيقظون ولا يدرون اين هم. وفيما كانت محركات الطائرات الجاثمة تهدر باستمرار ريثما يسمح لها بالاقلاع. كان الطيارون يغطون من جديد في النوم داخل قمرات القيادة، ولهذا احتفظ الرائد البحري توماس كريتس، وهو ضابط عمليات من سلاح البحر، بعصا طويلة في حجرة الانذار. وكان، كلما سمحت الظروف الجوية بالاقلاع، يتوجه الى الطائرات واحدة بعد الاخرى ويضرب بعصاه جسم الطائرة ضربات ايقاعية لتنبيه الطيارين.

وكان من المحتوم في هذه الظروف ان يرتفع عدد الاصطدامات٠ وذات ليلة من ليالي الصقيع الشديد ابصر الكابتن جاك اولين بينيت، من افراد مجموعة الطيارين المدنيين، ارض المطار بوضوح امامه، وكانت تتقدمه طائرة اخرى على وشك الهبوط٠ وعلى حين غرة هبت من ناحية جبال تاونوس عاصفة ثلجية من دون سابق انذار، ورشقت ندف الثلج الحاجب الزجاجي امامه وكأنها "طلقات مدفع رشاش"٠ وللتو اطفأ بينيت، الطيار المحنك، انوار هبوط الطائرة احترازا من الاصابة بدوار العواصف الثلجية، وحدد نظره بكل تصميم الى لوحة المفاتيح واجهزة القياسات٠ غير ان الطيار الذي كان يقود الطائرة الاخرى امامه عشي بصره من شدة دوران ندف الثلج وكان اقل خبرة من بينيت، وراحت طائرته تتهابط في حركة دائرية حول نفسها حتى ارتطمت بالارض وتبعثرت اشلاء فوق المطار٠

وما اكثر الليالي التي بات فيها رجال الارشاد الجوي في مراصد المراقبة على الارض مجرد مستمعين عاجزين عن اسداء المساعدة الى طيارين واجهوا محنا خطرة مهلكة٠ وفي احدى تلك الليالي التقط الطيار الملازم جورج غيلبرت في مطار غاتو الكلمات الاخيرة التي تبادلها طياران كانا يقودان طائرتيهما من طراز "سي - ٥٤" في مكان ما فوق الغابات بين فروهناو وداننبرغ، وسمع احدهما يتصل بالاخر قائلا: "انني احاول السيطرة عليها٠ اظن ان في امكاني ان اسيطر عليها"٠ ثم سمع صوت الاخر يحثه بالحاح: "ابتعد، ابتعد عن هذا المكان"٠ واذا بالطيار الذي اصطدم يصيح لاهثا: " لقد هبطت الان الى علو ١٥٠ مترا"٠ وبعد هنيهة قصيرة تلفظ الطيار الاخر غير المنظور بكلمات كأنها النعي لرفيقه: "اللهم، لقد سقط"٠

في تلك الفترة من التاريخ شهد اناس عديدون سلسلة من الاحداث لا تخبو ذكراها ما حيوا٠ وذات يوم رأى الملازم يوجين فيدل شاحنة وقود من طراز لانكاستر مقبلة مع الريح المتعامدة، اي التي تهب على زاوية قائمة من خط طيران الطائرة٠ واذ بها تضرب مدرج الهبوط في مطار غاتو بعجلتها اليمنى وتنقلب من جناح الى آخر اربع مرات متتالية، وتنفث دخانا اسود كثيفا مشوبا بالسنة اللهب وكأنه ركام السحب التي تسبق العاصفة الرعدية٠ واتصل فيدل ببرج المراقبة فورا:

- برج غاتو! هل خرجوا احياء؟

وجاءه جواب يجمد الاطراف:

- لا نظن ذلك٠ وكيف ينجو من ركب القنبلة؟

لكن الاقدار شاءت ان ينجوا باعجوبة من موت محقق٠

غير ان النجاة لم تكتب للجميع٠ فقد لقي ستون طيارا مصرعهم في اثناء عمليات النقل الجوي، بينهم ٣١ طيارا عسكريا امركيا و١٨ بريطانيا و١١ مدنيا، فضلا عن خمسة المان من رجال الادارة الارضية٠ وقد نقشت اسماء الخمسة والستين رجلا على قاعدة النصب التذكاري" برلين لوفت بريكية" (جسر برلين الجوي)٠

وادت كثرة حوادث الاصطدام الى اعتقاد عدد كبير من الناس بصحة الانباء التي راجت في ذلك الوقت حول قيام الروس بعمليات التشويش

والتخريب، على نحو كبير، الا ان الجنرال تانر لم يستطع معرفة مدى صحتها، ولكن ما من شك في ان المضايقات السوفييتية الرامية الى احباط الجسر الجوي تزايدت حدة، وانهم بذلوا ما في وسعهم للتشويش والعرقلة بشتى الاساليب والحيل.

وكم مرة سمع الملازم جيرالد هالاس بعد اقلاعه من قاعدة راين - ماين طنينا غريبا داخل سماعتي رأسه اسفر عن تشوش في جهاز البوصلة. وكان الروس يشوشون ايضا الاشارات الاشعاعية على مركزي الارشاد الارضي المستخدمين لهداية الطائرات. وكثيرا ما ابتلي الملازم فيرنون هامان بسماع اصوات تقلد صوت ضابط حركة الطيران في تمبلهولف وتصدر اليه التعليمات بغية انحرافه عن مسار رحلته الجوية. وواجه الطيار انزاين برنالد سميث في احدى رحلاته ٤٢ مقاتلة روسية من طراز "ياك" تعترض ممره الجوي كأنها حشد من الدبابير القارصة. وفزع الملازم وارين ساندمير خلال رحلته ليلا عندما انقضت عليه من بطن الظلام مقاتلات روسية اشعلت انوار هبوطها في وجهه. واحس طيار آخر هو ادوارد فيبر بان جسم طائرته من المقدم الى الذيل بدأ يهتز كالريشة عندما جابهته مقاتلة "ياك" روسية وجها لوجه، حتى اذا دنت منه انزلقت تحت طائرته، كأنما هذا العمل نمط جديد من انماط لعبة "الروليت" الروسية. لكن رحلات النقل الجوي مضت على رغم كل شيء.

استعراض عيد الفصح

أيقن القائد الامريكي فرانك هاولي، حين استعاد ذكريات الحصار، ان الاسبوعين الاولين من شهر يناير (كانون الثاني) كانا بمثابة فترة حاسمة، أذ اقدم في ذلك الوقت، بعد الاتفاق مع نظيريه البريطاني والفرنسي، على اخطر مغامرة في تاريخ الحصار. وكانت موجودات المواد الغذائية حينذاك متوافرة بكميات مناسبة تكفي ٣١ يوما. الا ان مخزون الفحم آخذ في التناقص بنسب مفزعة، ولن يلبث ان ينفد في بحر عشرة ايام.

وفي حين كان يتضرع الى الله لكي تنفرج كربة الطقس، امر بحسم استيراد المواد الغذائية جوا والتعويض عنها بمزيد من الفحم، واتخذ في الوقت ذاته اجراءات لخفض مستوى انتاج الغاز والكهرباء، اللذين يعتمدان على الفحم، الى ادنى حد ممكن، علما بان درجات الحرارة كانت تنخفض الى ما دون درجة التجمد. ونتيجة لخفض حركة سير الحافلات الكهربائية، غصت العربات التي كانت تتسع لنقل ١٢٤ راكبا بالناس الى حد الاختناق، واصبح معدل ركابها ١٧٥ شخصا في الرحلة الواحدة. ونجحت المغامرة: فبينما تقلصت المؤن الغذائية الى معدل ٢٧ يوما، ارتفع مستوى احتياطي الفحم الى معدل ٤٠ يوما.

بيد ان هذه الاجراءات اسفرت عن اغلاق خمسة آلاف مؤسسة ومصنع وارتفاع عدد العاطلين عن العمل الى ١٥٠ ألفاً. ولكن دخلت ميدان الصراع عوامل اخرى في مصلحة الحلفاء الذين اتخذوا من جانبهم اجراءات تقييدية مضادة لحظر شحن المواد الاساسية الى مناطق النفوذ السوفييتي، مما حرم المنطقة الروسية منتوجات

المانية غربية حيوية مثل فحم منطقة الروهر والفولاذ وقطع الغيار. واوقفت بموجب هذه الاجراءات المضادة جميع الشاحنات البرية المتوجهة من المانيا الغربية الى القطاع الروسي، وامرت بالعودة من حيث اتت. وهكذا بدأ الحصار الاقتصادي المرير اخيرا يؤلم القطاع الشرقي اكثر مما يضر بالقطاع الغربي.

وكأن الوحي هبط على ارنست رويتر يوم ٣١ يناير (كانون الثاني)، فالتفت الى صديقه القديم درو ميدلتون من صحيفة "النيويورك تايمس" خلال تناولهما طعام الغداء، وقال له: "لقد انتهى الامر. ان الروس يدركون الآن انه ليس في استطاعتهم الاستيلاء على برلين بالحصار، وسيبحثون قريبا عن مخرج للازمة".

والجدير بالذكر ان الصحافي كينغزبوري سميث، من "وكالة الانباء الدولية"، كان قد ارسل في ٢٧ يناير (كانون الثاني) اربعة اسئلة مكتوبة الى جوزيف ستالين للاجابة عنها، وبينها سؤال ذو اهمية خاصة: "هل يحتمل ان يفك اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية الحصار اذا ارجأ الحلفاء الغربيون انشاء دولة المانيا الغربية التي يفكرون في انشائها حتى يتم انعقاد مجلس وزراء الخارجية؟". (وهو المجلس المؤلف من ممثلي الحلفاء في الحرب العالمية الثانية: فرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة الامريكية واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية). وبعد ثلاثة ايام اجاب ستالين انه لا يرى صعوبة في تحقيق ذلك، شرط ان يرفع الحصار المضاد في الوقت ذاته.

وبدا ان الروس، حتى في تلك الآونة، كانوا يستبقون أجرأ خطة فكر فيها وليم تانر في حياته.

وقد بدأت تلك الخطة، كما يذكر الكولونيل ادوارد غيلبرت، بمجرد وميض في عيني تانر خلال جلوسهما الى مائدة الفطور في فندق "شفارزر بوك" في فيسبادن صباح يوم من شهر ابريل (نيسان)، حين التفت تانر، ووجهه يشرق حيوية وانفعالا، في اتجاه غليبرت وسأله فجأة: "كيف يمكننا يا غيلبرت ان ننجز أقصى ما يمكن؟".

وبصفته ضابط الشحن، كان غيلبرت قد فكر مليا في هذه المسألة، بل صمم مع فريق الموظفين في مصلحة الشحن، منذ اوائل اغسطس (آب) ١٩٤٨، رسما يمثل وجه الساعة، وقد بلغت نقاط الدقائق فيه ١٤٤٠ نقطة بعدد دقائق اليوم الكامل. وراحوا يسترسلون في حلم طالما راود المسؤولين عن النقل الجوي، وهو نقل عشرة اطنان في كل دقيقة اذا توافرت الطائرات اللازمة والطيارون والاحوال الجوية المثالية. ولهذا رد غيلبرت على سؤال تانر بقوله: "لو توافرت الظروف الملائمة، لامكننا شحن ١٤ ألف طن يوميا".

ومع ان تانر لم يكن يدري بالمفاوضات الحاسمة التي كانت تدور بين فيليب جيساب، سفير الولايات المتحدة لدى الامم المتحدة، ونظيره السوفييتي جاكوب مالك، الا انه توصل الى قرار حصيف معلنا: "قسما يا غيلبرت لنفعلن ذلك".

ومنذ اليوم الاول الذي مد فيه جسر النقل الجوي وبلغت الحمولة ٨٠ طنا، تزايدت مستويات الشحن الجوي

باستمرار. وارتفعت الحمولات المنقولة من ١٠٠٠ طن في ٧ يوليو (تموز) الى ٣٨٠٠ في ٧ اغسطس (آب) ثم الى ٧٥١٣ في ٢٢ فبراير (شباط). لكن الحمولات اليومية لم تبلغ ابدا الهدف الجديد الذي وضعه تانر الآن نصب عينيه.

وتوالت الاحداث على جناح السرعة. واتضح، بعد تحليل خمسين جدولا بيانيا معلقا على جدران قاعة المؤتمر حيث يعقد تانر اجتماعاته، ان افضل ظروف جوية قد تسود في يوم معين ستكون فترة الـ٢٤ ساعة بين ظهر يوم السبت ١٦ ابريل، (نيسان) وظهر الاحد ١٧ ابريل الذي يصادف عيد الفصح. واذ كان من المتوقع ان يكون الطقس معتدلا في تلك الفترة وان تكون معظم طائرات "سي - ٥٤" - وعددها ٢٢٥ - جاهزة للطيران بالاضافة الى وجود مخزون من الفحم جاهز للنقل يزيد على عشرة آلاف طن، فقد عقد تانر العزم على ان تكون العملية "استعراض عيد الفصح وهدية العيد الى شعب برلين".

وبقيت المسألةحتى اللحظة الاخيرة سرا مطويا، لانه لو اعلن عن نقل عشرةآلاف طن في يوم واحد واخفقت العملية، لأثار ذلك هرجا ومرجا بين رجال الدعاية السوفييتيين. وهكذا لم يتحول الاستغراب العابر بين ضباط الصف في الراين - ماين وفاسبرغ وست قواعد جوية اخرى الى انفعال قوي نام الا وقت الظهر من يوم السبت، ذلك اليوم البارد من ايام ابريل (نيسان) حين بدأ ضباط الصف هؤلاء يشدون الحمولات الى الواح الشحن. وعندها تعاظم الاحساس بأن ذلك اليوم لن يكون عاديا بين الايام.

واستمرت حمى النشاط وتزايدت دقيقة تلو دقيقة في جميع القواعد الجوية، وصارت السماء مثل اللوح المصوت ترجع الى الارض اصداء رعد المحركات. وفي خضم ضجيج محركات الطائرات، كانت ترتفع قليلا اصوات اخرى تنم عن الروح الباسلة في استعراض عيد الفصح: هدير كالقذائف حين يهوي الفحم في مساقطه وصيحات "شنيل، شنيل" (بسرعة، بسرعة) وحشرجة محركات سيارات الشحن بحمولة عشرة اطنان.

وأحس الجميع، حتى الطيارون المتمرسون المحنكون، برهبة المسؤولية حين انسابت في صفحة السماء طائرة بعد طائرة من دون ان تفصل الواحدة عن الاخرى سوى ٩٠ ثانية. ولم يسبق ان ظهر في التاريخ اسطول نجدة من هذا القبيل. وكانت معظم الطائرات محشوة بالفحم حتى السقف. الا ان حمولات بعضها تنوعت بحيث اشتملت على كل ما يخطر في البال من مواد تحتاج اليها مدينة محاصرة: الكاكاو والمقانق ودقيق الشوفان، وحمولة طائرة كاملة من اغطية القنوات والمجاري، وبراميل مملوءة تبغا، ورقاقات موز مجفف للاطفال المرضى، وقرب ماء ساخن لمستشفيات برلين، وكثير سواها.

واشتد الانفعال والهياج على الارض ايضا. وكان الخدم في مطاعم قاعدة راين - ماين يتراكضون الى خدمة الطيارين الجائعين وكأنهم في سباق التناوب بين الموائد. وبلغ نشاط الفريق المسؤول عن تفريغ الطائرات في تمبلهولف حدا جنونيا كاد ان يذهب ضحيته الكولونيل تيودور ملتون، رئيس اركان الفرقة

التابعة لتانر. فما ان هبط بطائرته المحملة على ارض المطار في الرابعة صباحا من يوم الاحد وبدأ ينزل السلم حتى تلقفه افراد ذلك الفريق بحماسة وهمّوا خطأ بقذفه مع بقية اكياس الفحم على ظهر سيارة الشحن.

وفي فيسبادن اختار موظفو حركة النقل الجوي العمل نهارا وليلا، والنوم بين الثالثة والسادسة صباحا.

وبقيت شاشة الرادار البعيد المدى تومض بصورة ذات معالم ثابتة طوال الليل والنهار: نقاط متقاربة من الضوء منسربة الى برلين ضمن عمودين غير مستقيمين كأنهما طابوران من النمل، وعمود ثالث من النقاط يومض بثبات مماثل في اتجاه معاكس.

وأحس الطيارون بان الفرصة سنحت لاثبات تفوقهم في الاجواء، فاغتنموها. وعف عدد كبير منهم عن تناول وجبات الطعام، مكتفين بأكل السندويشات داخل قمرات القيادة.

وفي برلين تناول الكابتن كورتني دانيالز فنجانا من الشوكولاته الساخنة. وما كاد يلسع شفتيه بحرارة السائل حتى تعالت صيحات الاستحسان معلنة اتمام تفريغ طائرته في غضون سبع دقائق ونصف دقيقة. فارتقى دانيالز سلم الطائرة مستأنفا رحلة العودة.

وبقي تانر طوال ذلك اليوم يجول في ميدانه الطبيعي، متنقلا كالمكوك من فيسبادن الى تيغل وغاتو وقد تشجع برسالة وجهها اليه الجنرال كلاي تقول: "لست ادري ما الذي تحاول ان تفعله، ولكن ارجو ان تواصل فعله".

وبلغ تانر مقره في فيسبادن مرة اخرى عند الفجر، وكانت تفصله عن معرفة النتائج الباهرة سبع ساعات. لقد انجزت طائرات الحلفاء في ٢٤ ساعة ١٣٩٨ رحلة جوية، ونقلت الى برلين ١٢،٩٤١ طنا من المؤن. غير ان ما أدركه تانر في تلك الساعة المبكرة من اقسى يوم في حياته هو الحقيقة الآتية التي تم برهانها: ان الروس، في حصارهم البري، قد أخفقوا أخفاقا ذريعا مخزيا.

نوعان من الابطال

لم يسعد رودولف غونتر فاغنر، المذيع في محطة الاذاعة في القطاع الامريكي، من قبل بمثل هذا الجمهور الغفير من المستمعين الذين بدأوا يتدافعون في اتجاه عربته، وهي بمثابة وحدة ارسال اذاعي متنقلة. وغصت منطقة "كورفيرسن دام" على مدى النظر بالناس الذين كانوا ينتظرون موعد اذاعة فاغنر لنشرة الاخبار، على غرار عادتهم طوال ايام الحصار. ومع ان نشرة الانباء المطبوعة كانت جاهزة بين يديه، الا انه لم يسهل عليه ان يقرأ اخطر اعلان اوكلت اليه مسؤولية اذاعته. واخيرا بدأ يخاطب الميكروفون بتردد على النحو الآتي:

"تم التوصل الى اتفاق بين الدول الغربية الثلاث والاتحاد السوفييتي في ما يتعلق برفع الحصار عن برلين وانعقاد مجلس وزراء الخارجية. وتقرر بموجب هذا الاتفاق رفع جميع التقييدات التي فرضت من كلا الجانبين على وسائط النقل والتجارة بين برلين والقطاعات الشرقية اعتبارا من يوم ١٢ مايو (أيار) و....".

وخامر فاغنر الشك في ما اذا كانت

الجماهير سمعت مزيدا من التفاصيل، لأن المدينة باسرها هاجت حينذاك وانطلقت هتافات صاخبة مدوية:

"هورا فياليبن نوخ! هورا! فيا زنت نخت فير هونغات!" - مرحى! اننا ما زلنا احياء! مرحى! اننا لم نتضور جوعا!

وفي تمام الثانية عشرة والدقيقة الاولى بعد منتصف الليل، وتحت شعاع يخطف الابصار من الانوار الكاشفة، رفعت حواجز الحصار الروسية عن الطريق الرئيسية الى برلين، وتدفقت على الفور اول قافلة من سيارات الشحن البريطانية محملة بالامدادات الى برلين.

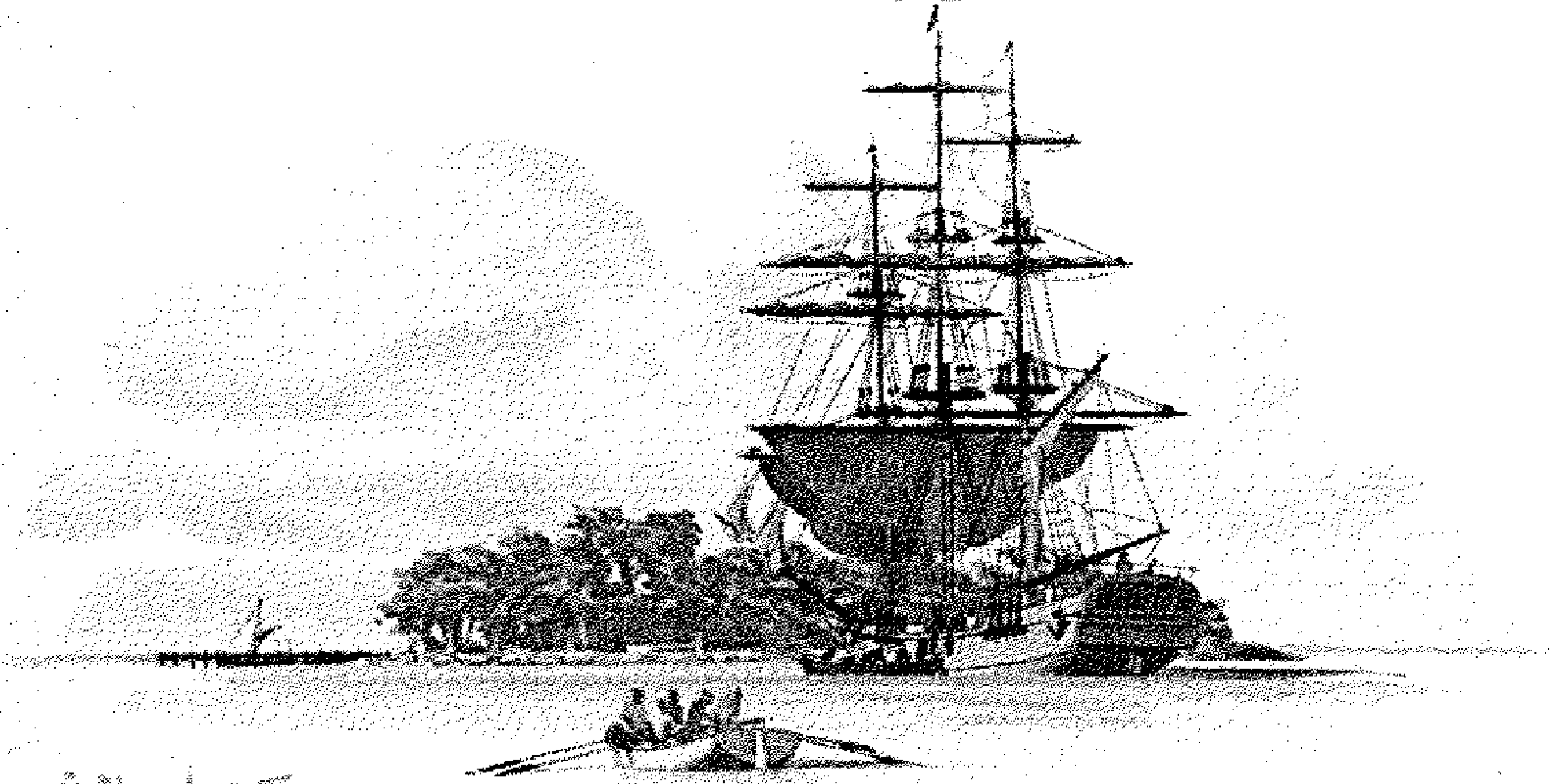
لقد كانت ليلة عوض الناس فيها عما فاتهم زمنا طويلا. وفي محافظات داهلم وشتيغليتز وفيدينغ، كان جميع افراد الاسر يتنقلون من غرفة الى اخرى كالاطفال تماما، يشعلون الانوار الكهربائية ويطفئونها للمتعة المجردة. وخرج افراد بعض الاسر بثياب السهرة الى السيارات واتجهوا بها الى نقطة انطلاق الطريق الرئيسية، ثم ترجلوا ورقصوا على الارصفة تحت اضواء سياراتهم.

وعلى رغم القرار الذي اتخذ بمواصلة النقل الجوي حتى اغسطس (آب) ضمانا لتوفير احتياطي من المواد الاستهلاكية، فقد اعتبر معظم الطيارين يوم ١٢ مايو (أيار) نهاية الشوط. ففي ذلك اليوم ازيلت جميع تقييدات الحصار وبدأت الاستعدادات النهائية لتأليف حكومة المانية غربية برئاسة المستشار كونراد اديناور وزعامة تيودور هس، اول رئيس للدولة الجديدة.

وبحلول الساعة الحادية عشرة صباحا من يوم ١٢ مايو (أيار)، ازدحمت الشوارع المحيطة بدار البلدية بالناس. وفي الساحة المفتوحة، حيث رفرفت مع النسائم اعلام الجمهورية الالمانية القديمة بالوانها السود والحمر والذهبية، توافد ٣٠٠ ألف برليني تحية وتقديرا للرجل الذي قادهم خلال ٣٢٨ يوما من الحرمان والشدائد. انه صباح يوم تاريخي، الا انه ايضا وقت حسرة واسف، لان لوسيوس كلاي جاء ليقف في الجموع مودعا. واذ اصطف حوله عدد كبير من الاعوان الذين آزروه خلال الاشهر العصيبة، بمن فيهم روبرتسون وهاولي وروبيتر، دخل كلاي المبنى وصعد الى منصة الخطباء في قاعة الاجتماع، وقال للناس ان ثمة نوعين من ابطال الجسر الجوي: اولهما الطيارون الذين قادوا طائراتهم في جميع الاحوال الجوية الى برلين، وثانيهما شعب المدينة الذي لا يقل عنهم اهمية، لانه، باختياره الحرية، ظل على استعداد لتقديم جميع التضحيات اللازمة حفاظا على حريته، وقد قاده صبره والتضحيات الى الانتصار.

وارتفع الهتاف والتصفيق بينما وقف كلاي في مكانه وقد خانته الكلمات. ولاحظ المترجم روبرت لوخنز، الذي وقف الى جانبه، ان قناع كلاي سقط وبدأت الدموع تسح على وجهه. ولكن لم تكن هناك حاجة الى قول المزيد من جانب كلاي. فقد تضاعف الهتاف والتصفيق نيابة عن كلامه، وترددت الاصداء في ارجاء المدينة كلها كأنشودة من اناشيد الشكر والتقدير.

الجذور



ملخّص من كتابٌ بقلم اليكس هيلي

هذه قصة الامريكيين السود٠

ان قصة كونتا كينتي، السلف الافريقي لاليكس هيلي، لا تقتصر على وصف الالام المبرحة التي قاساها رجل فرد فحسب، وانما هي تعبر باجلى المعاني عن جوهر الكفاح الملحمي الذي قام به الامريكيون السود٠

وفي هذا الجزء الاول من القصة، يصور هيلي طفولة كونتا وصباه، ثم وقوعه اسيرا في ايدي تجار الرقيق خلال عام ١٧٦٧ والمحنة التي كابدها عبر الاطلسي على متن احدى سفن العبيد المسترقين٠

اما الجزء الثاني الذي سننشره في عددنا المقبل، فانه ينتقل بنا مع كونتا الى عالم العبودية والقسوة في امريكا٠

الجذور

في بواكير الربيع من عام ١٧٥٠ رزق عمر كينتي وزوجته بينتا كيبه طفلا ذكرا، في قرية جوفوري التي تقع على مسيرة أربعة ايام صعودا في النهر من ساحل غامبيا في افريقيا الغربية. وما ان انسلخ هذا الطفل عن امه الفتية المتينة البنية والسوداء البشرة وتغشى حبيبات دمها جسمه الزلق، حتى تعالى منه الصراخ، بينما ارتسمت ابتسامات الابتهاج على ثغري القابلتين العجوزين المتجعدتي البشرة نيوبوتو وجدة الطفل لابيه يابيسا، ودوت قهقهات ضحكتهما المتقطعة حين تبين لهما انه طفل ذكر.

ويعتبر الطفل البكر اذا جاء ذكرا - حسب اعتقاد الاسلاف الذين اعتنقوا الاسلام منذ مئات المواسم السنوية الماطرة - فألا طيبا بنعمته تعالى.

وتمت الولادة ساعة واحدة قبل صياح الديك، وكانت خيوط الدخان الازرق تتصاعد في شكل لولبي من نيران الطهي وتنتشر معها رائحة الاطعمة النفاذة المستحبة عبر القرية الصغيرة المتربة المؤلفة من اكواخ الطين المستديرة. وتوافد الرجال بخطى سريعة الى المسجد لاداء اولى الصلوات الاسلامية الخمس خلف امام القرية الذي كان صوته يصدح بالآذان: "الله اكبر الله اكبر، اشهد ان لا اله الا الله". وبعد الصلاة، راح عمر يتنقل بينهم متحمسا، مشرق الاسارير، ويحيطهم علما بمولد ابنه البكر. وتمشيا مع العادات القديمة، قضى عمر الايام السبعة التالية مشغولا باختيار اسم لابنه له منزلته المرموقة في مجال التاريخ وملىء بالبشائر والوعود، وذلك لاعتقاد قبيلة عمر الماندينكا ان الطفل يتحلى عادة بسبع من خصال الشخص الذي يتيمن باسمه.

وفي عشية اليوم الثامن، تجمع اهل القرية امام كوخ عمر وامسكت بينتا ببكرها في اعتزاز، بينما كان مقربون يقطعون خصلا من شعره الاول، كما درجت العادة، وراح النسوة يتبارين في ابداء اعجابهن بحسن تكوين الرضيع، فيما طبال القرية يغرق في قرع طبوله الصغيرة.

وتلا الامام بعض الصلوات وبارك بها قرعات الكسكسي وكعكات المونكو المصنوعة من الارز المطحون

وعسل النحل الذي جاء هدية من أهل القرية. ثم تلا صلاة يبارك بها الطفل ويدعو الله ان يهبه طول الحياة وقوة الجسد والروح كي يشرف الاسم الذي يحمله.

ثم خطا عمر الى جانب زوجته، وانحنى فوق الرضيع على مرأى من الجميع ووشوش ابنه الاسم الذي اختاره له. فقد كانت قبيلة عمر تؤمن بأن الكائن البشري ينبغي ان يكون هو اول من يسمع اسمه.

ودوت الطبول ثانية، وعاد عمر يهمس بالاسم في اذن زوجته بينتا، فابتسمت هي في اعتزاز. ثم همس بالاسم في اذن معلم مدرسة القرية الذي رفع صوته معلنا: "ان الابن البكر لعمر كينتي وبينتا كيبه قد سمي كونتا!"

وقد اعطي كونتا اسم جده لابيه، القريب الى ربه كيرابا كونتا كينتي الذي كان هاجر من موطنه في موريتانيا الى غامبيا حيث ادت مثابرته على الصلاة طوال خمسة ايام الى انقاذ اهل قرية جوفوري من المجاعة. وقد تزوج كونتا كونتي بعد ذلك في القرية من يايبسا، وظل يخدم جوفوري بصدق وامانة كامام لها حتى وفاته. وكان هذا السلف الكريم موضع اعجاب الجميع واحترامهم.

وفي تلك الليلة اتم عمر طقوس تسمية ابنه في الهواء الطلق في ضوء القمر والنجوم، فوقف الى جوار المسجد الصغير المبني بالطين والمسقوف بالقش، ورفع طفله الرضيع نحو السماء وقال يخاطبه: "انظر الى الشيء الوحيد الاعظم منك".

وكانت بينتا تطري جلد رضيعها كل مساء في كوخها بدهنه من قمة رأسه حتى اخمص قدميه الصغيرتين بزبدة شجيرة الشيح، ثم تحمله بفخر عبر القرية الى كوخ الجدة يايبسا، حيث كانت الاثنتان تشبعان الطفل قرصا وضغطا على انفه الدقيق واذنيه وشفتيه ورأسه الصغير فتكرهانه على التذمر والبكاء.

وكثيرا ما كان عمر يبعد ابنه عن الامرأتين ويحمله الى كوخه الخاص - لان الازواج كانوا يقيمون دائما منفصلين عن زوجاتهم - حيث كان يترك لعيني الصبي واصابعه استكشاف حقيبة الصيد المكسوة بالاصداف والحربة الداكنة الرشيقة التي انصقلت عصاها من كثرة الاستعمال. وكان عمر يتحدث الى كونتا عن اعمال الشجاعة التي سيأتيها حين يكبر.

وعندما بلغ كونتا شهره الثالث عشر، حاول اولى خطواته المتعثرة، ولم يمض وقت طويل حتى اصبح يدرج بخطواته من دون مساعدة.

وانقضت ثلاثة مواسم ماطرة، فبدأ كونتا الصغير يمضي ايامه لاعبا لاهيا تحت انظار الجدات العجوزات اللائي يرعين ما كان يسمى الفوج الاول (الكافو) الذي يضم جميع الاطفال ممن يقل عمرهم عن خمسة مواسم ماطرة (خمس سنوات). وكان الصبيان والبنات يقفزون عراة في ساحة القرية كصغار الحيوانات، وهم يضحكون، ويصيحون ويلعبون ويشتتون شمل الكلاب والدجاج ويتعقبونها وراء اشجار الخيزران العالية التي تسور القرية.

ولكن سرعان ما كان الاطفال يتراكضون للجلوس في صمت وسكون عندما تعدهم احدى الجدات بحكاية، ولا سيما الجدة المحبوبة نيوبوتو ذات الرأس الاصلع والتجاعيد العميقة والسواد الفحمي الذي يشبه قعر وعاء الطهي القديم، والاسنان القليلة الباقية البرتقالية اللون لكثرة ما مضغت من حبات الكولا. وكانت نيوبوتو تتأهب لمهمتها بزمجرة خافتة ثم تستوي فوق مقعدها المنخفض وتبدأ حكاياتها دائما بالمقدمة التي درج عليها جميع قصاصي الماندينكا: "كان يا ما كان، في ذلك الزمان، في تلك القرية حيث كان يعيش فلان...".

وتحدثت العجوز عن تلك الفترة الشاقة التي تتذكرها، عندما شح المطر. وعلى رغم الصلوات والابتهالات، وقيام النساء برقصة المطر المتوارثة عن الاسلاف، وتقديم القرابين بذبح عنزتين وعجل كل يوم، فان المطر لم يهطل وساد الجفاف، ونضبت حفر المياه الضحلة في الغابة وساق الظمأ الحيوانات المفترسة الى بئر القرية وتزايد عدد المرضى وعبث الموت بكبار السن والضعفاء.

وقالت نيوبوتو: "في ذلك الوقت العصيب هدى الله سبحانه وتعالى خطى المغفور له كيرابا كونتا كينتي الى القرية فراعته محنة اهلها فركع وصلى متوسلا الى الله ان يرد عنهم ذلك البلاء. وواصل الرجل الصلاة طوال الايام الخمسة التالية، بلا نوم تقريبا ومن دون غذاء سوى جرعات قليلة من الماء. وفي مساء اليوم الخامس هطل المطر كالطوفان فانقذ جوفوري".

وعندما انتهت نيوبوتو من حكايتها، راح الاطفال ينظرون باحترام جديد الى رفيقهم كونتا الذي يحمل ذلك الاسم الشريف.

الذ من لحم الماعز!

وتعاقبت الفصول، فحل اولا فصل الزرع، وسارعت بينتا وسائر الزوجات الى القوارب الطويلة المنحوتة في جذوع الاشجار والراقدة على ضفاف نهر القرية الصغير، وهو أحد الفروع المتعددة التي تشق طريقها المتعرج في الداخل الى ان تصب في نهر غامبيا، ومضين بها يجدفن حتى بلغن الحقول حيث تزرع نساء جوفوري ارزهن منذ اجيال. وكدس الرجال في الحقول الاخرى كوما عالية من الاعشاب الجافة واشعلوا فيها النار لتغذية التربة. وحين تساقطت الامطار الخفيفة الاولى بدأ الرجال يبذرون الفول السوداني وغيره، ثم جاءت الامطار الغزيرة وبعدها الحصاد الذي تلاه فصل الجفاف القائظ.

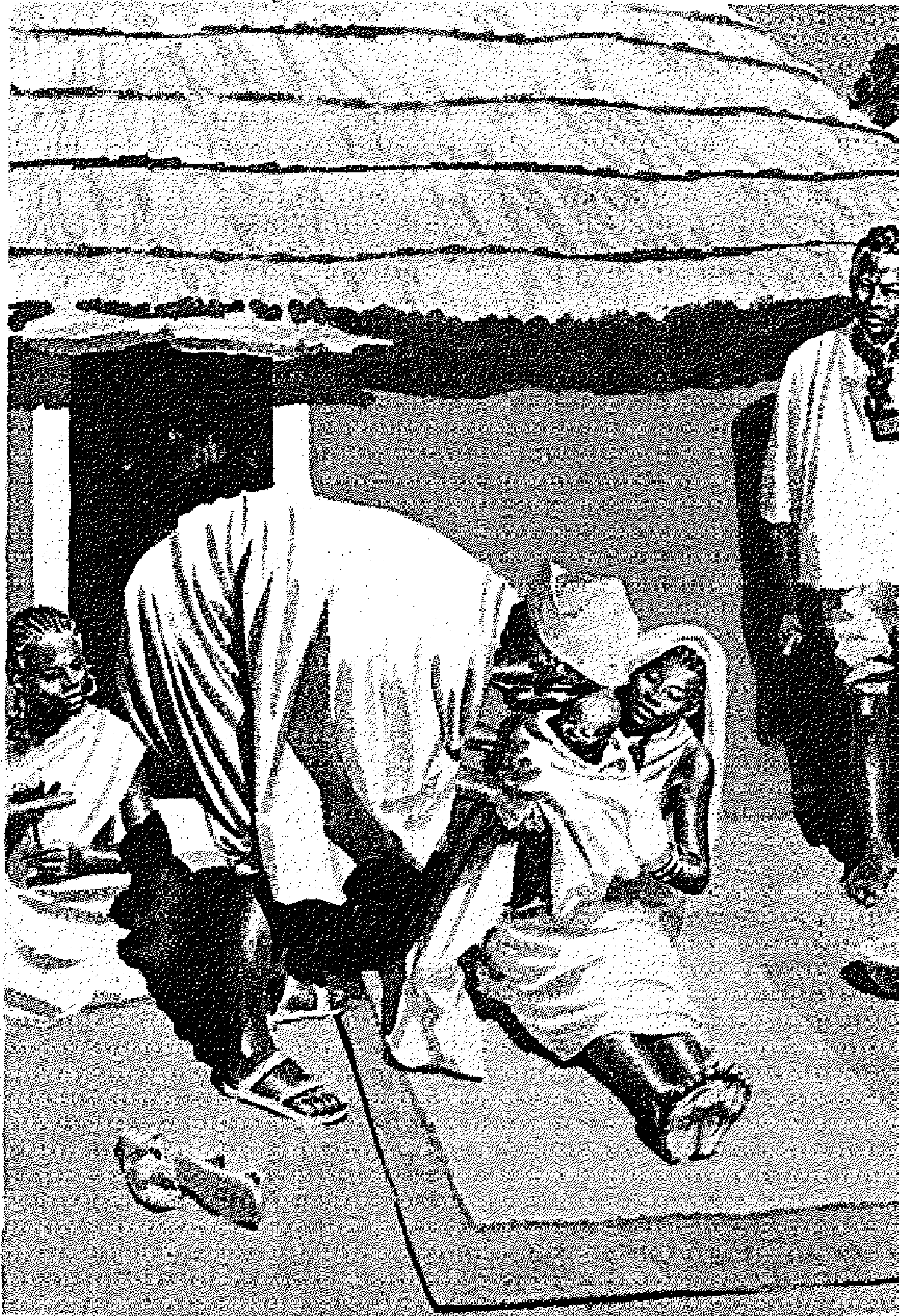
وبدأ كونتا ورفاق فوجه (الكافو) يشعرون بان اعمارهم تزيد على عدد المواسم الماطرة التي اصبحت تراوح بين الخمس والتسع سنوات، ويحسدون الاولاد الاكبر سنا من ابناء الفوج الثالث على رعي الماعز الذي يوكل اليهم، وعلى الاثواب القطنية الطويلة (الدونديكوس) التي يرتدونها، وبدأوا يأنفون البقاء عراة بعد بلوغهم هذه السن واصبحوا يتجنبون الاطفال الرضع والصغار من امثال لامين شقيق كونتا الجديد، كما يتجنب المرء الوباء، وبدأوا يستطيبون البقاء قرب الكبار املا في ان يكلفوهم بعض المهمات.

وفي صباح اليوم الثاني من ايام الحصاد، بينما كان كونتا خارجا من كوخ امه، قالت له، بينتا في خشونة مصطنعة تشي بالود: "لماذا لا ترتدي ثيابك؟" فاستدار كونتا ورأى فجأة ثوب "دونديكو" جديدا يتدلى من ملقط غسيل، فحاول ان يخفي اضطرابه وارتداه على الفور وخرج مختالا من الباب. وكان في الساحة عدد من رفاقه وقد ارتدوا الدونديكو مثله للمرة الاولى في حياتهم وهم يتواثبون ويصيحون ويضحكون في جذل لتمكنهم في النهاية من ستر اجسادهم العارية، وارتقوا بذلك رسميا الى فئة "الكافو" الثانية، في طريقهم الى بلوغ الرجولة.

وفي اليوم التالي، عندما اعطى عمر كونتا مقلاعا جديدا اوشكت انفاس الصبي ان تتقطع انفعالا، ووقف رافعا بصره الى ابيه في اكبار وهو لا يجد ما يقوله، فتكلم عمر وقال له: "بما انك قد اصبحت الآن من فئة الكافو الثانية فان ذلك معناه ان تذهب الى المدرسة وترعى الماعز. وعليك ان تذهب اليوم مع توماني توري".

انطلق كونتا كالسهم وانضم الى رفاق فئته الذين تجمعوا قرب حظائر الماعز حيث كان الاولاد الاكبر سنا يفتحون البوابات للخروج الى الرعي في ذلك اليوم. ولم تلبث الماعز ان سرحت بمعاونة كلاب "الوولو" وتمادى رتلها على الطريق الغباري، وتعالى ثغاؤها، بينما الصبية من رفاق كونتا يهرولون وراءها ووراء رعاتها في حيرة.

واخذ توماني توري يعامل كونتا وكأنه



حشـــرة صغيـــرة . فسأله: "هل تعرف قيمة الماعز؟" وقبل ان يعترف كونتا بانه ليس واثقا تماما من ذلك، قال توري: "حسنا، انك اذا فقدت معزاة منها فسوف يوضح لك ابوك الامر". ثم انطلق توماني توري في الحديث عن رعي الماعز، فقال: "اذا ما شردت عنزة في الغابة، فهناك الاسود والفهود تشب من مكانها وسط الاعشاب وتنقض عليها بوثبة واحدة فتمزقها ،واذا حدث وكان هناك صبي على مقربة منها، فان لحمه الذ من لحم الماعز!"

وفي الصبـاح التالـي بـدأ كونتـا ورفاقه دروسهم الدينية. وقال لهم المعلم بريمـا سيسـاي: "انكـم لـم تعودوا اطفالا، فقد دخلتم الفئة الثانيـة، ومعنـى هـذا ان عليكـم مسؤوليات معينة". وبدأ منذ مساء ذلك اليوم، يتلو عليهم آيات من القرآن الكريم ليحفظوها. ولم يبق بعد الان لدى كونتا متسع من الوقت للعب فعليه ان يرعى الماعز طوال اليوم وان يتلقى دروسه بعد الفطور والعصر وان يتمرن على استخدام المقلاع في ما تيسر له من وقت قبل حلول الظلام. ثم ان حلول مهرجان الحصاد بعد اقل من شهر، وهو يستمر سبعة ايام، فرض على كونتا ان يرعى شقيقه لامين الصغير الشقي الكثير الحركة امسيات عدة كانت امه خلالها تغزل القطن لينسجه الرجال بعد ذلك ثيابا جديدة للاسرة.

وفي فجر اليوم التالي لظهور القمر الجديـد دوت "التوبـالـو" (طـبلـة الاحتفالات الضخمة) وبدأ مهرجان الحصاد صباحا بالرقص. واتسعت عينا كونتا وهو يرى اباه ينضم الى حلقة من الاجساد التي تدور وتثب وقد ارتدى بعضها ملابس واقنعة مخيفة بينما ظلت وجـوه اخـرى سافـرة. وكانت ركبتا عمر تدوران في الهواء وقدماه تثيران سحابات من الغبار. وانطلقت من عمر صيحات ثاقبة وهو يميل الى الخلف وعضلاته ترتعش، ثم اندفع الى الامام وهو يدق صدره بقبضتيه وراح يثب ويتلوى في الهواء ثم يهبط الى الارض فتتصاعد من رئتيه انفاس ثقيلة.

لقد سبق لكونتا ان شهد مهرجانات اخرى في مواسم الحصاد والبذار والصيد والاعراس واحتفالات الولادة والوفاة، لكنه لم يلمس الرقص شفاف نفسه ابدا مثل هذه المرة. فقد بدا وكأن دقات "التان - تانغ" (الطبول الصغيرة) تنبض في اطرافه وفيما يشبه الحلـم، احـس بكامـل جسمـه يرتعش وبذراعيه تضربان الهواء، ولم يلبث ان قفز صائحا مع الاخرين. وبقي الجميـع، الصغـار والعجائـز، يرقصون... ويرقصون طوال اليوم.

واستمر المهرجان سبعة ايام اخرى تخللتها المواكب والمآدب والاسواق الشعبية ومباريات المصارعة ورواية القصص والحكايات على لسان الرواة (الجريوت) المتجولين وهم ينشدون قصائد لا نهايـة لـهـا عـن الملـوك القدامى والعشائر والمعارك الكبرى واساطير الماضي. وكان كل يوم يأتي بعـدد مـن الموسيقييـن المتجوليـن وامهر العازفين على "الكورا" ذات الاربعـة والـعشـريـن وتـرا وعلـى "البـالافـون" العـذبـة الـنـغمـات والمصنوعة من القرع المجفف والتي

يدق عليها بعصا دقيقة ومكورة الاطراف٠
وفي اليوم الاخير من المهرجان، ايقظت اصداء الصياح كونتا فانتشل ثوبه الدونديكو والقاه على جسده واندفع خارجا حيث رأى مجموعة من الرجال واقفين امام الاكواخ وهم يضعون اقنعة رهيبة على وجوههم ويغطون رؤوسهم بقبعات طويلة واجسادهم بالبسة من اوراق الشجر ولحائها٠ وارتعب كونتا عندما رأى ان كلا من هؤلاء الرجال يدخل كوخا ويخرج منه وهو يجر صبيا مرتجفا من فئة الكافو الثالثة وقد غطي رأسه بعمامة كثيفة من القطن الابيض٠ وعندما تجمع كل الفتيان الاكبر سنا، شق الرجال طريقهم وهم يدفعون الصبيان معهم الى خارج بوابة القرية٠

كان كونتا يعلم ان الرجال يجمعون الفتيان الاكبر سنا مرة كل خمس سنوات ويأخذونهم الى خارج جوفوري ليتلقوا تدريب الرجولة، الا انه لم يكن يعرف ان الامر يتم على هذه الصورة٠ وقضى كونتا الايام التالية هو وسائر ابناء فئته لا يستطيعون التفكير الا في الاشياء المخيفة التي تناهت الى علمهم عن هذا التدريب٠ فقد بلغهم ان القمر سيصير بدرا مرارا كثيرة ويتوارى مرارا كثيرة ايضا قبل عودة الفتيان٠ وقيل لهم كذلك ان الفتيان يتعرضون للضرب كل يوم وانهم يرسلون منفردين في حلك الليل الى اعماق الغابة الكثيفة غير ان اسوأ ما تناهى الى علم كونتا، وجعله فريسة للقلق كلما اضطر الى التبول، هو ان تدريب الرجولة يتضمن قطع جزء من الفوتو (عضوه التناسلي)٠

الـ"توبوب" المجهول

ومر موسمان ماطران وحبلت بينتا مرة اخرى واحتد مزاجها، فكان كونتا يحمد الله كل صباح عندما يتيح له رعي الماعز وغيره من المهمات ان يهرب من الكوخ ساعات قليلة٠ وكان يأسف لصغر سن لامين وعدم تمكنه من مغادرة المنزل وحده٠ ولم يكن منه الا ان سأل بينتا ذات يوم عما اذا كانت تأذن له باصطحاب لامين في احدى المهمات٠

وبعد ذلك درج كونتا على اصطحاب اخيه كل يوم تقريبا، وراح يعلمه المصارعة والصفير من خلال اصابعه ويريه اوراق النبات التي تصنع منها امهما الشاي، ويوصيه بالامتناع دائما عن الامساك بالخنافس الكبيرة اللامعة التي كانا يريانها تزحف في الكوخ ووضعها على الارض بدقة٠ وان يتجنب إيذاءها لان ذلك مجلبة للحظ السيء مثل الشوكة في رجل الديك٠

وكان لامين يسير الى جانب كونتا ولا يكف عن امطاره بسيل لا ينقطع من الاسئلة:

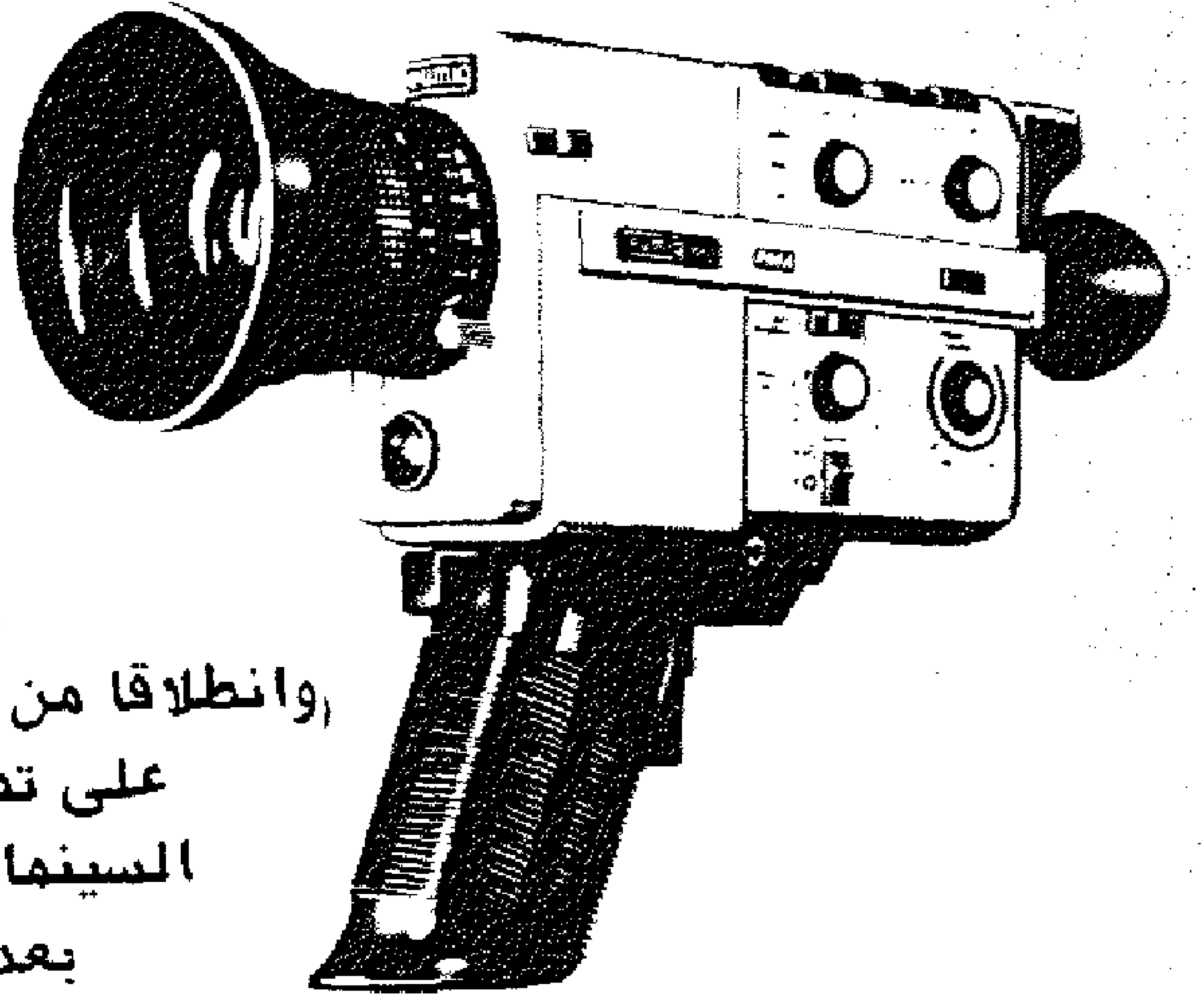
- لماذا يمتنع الناس عن ايذاء البوم؟

"لان ارواح جميع اسلافنا الموتى تسكن اجساد البوم"٠

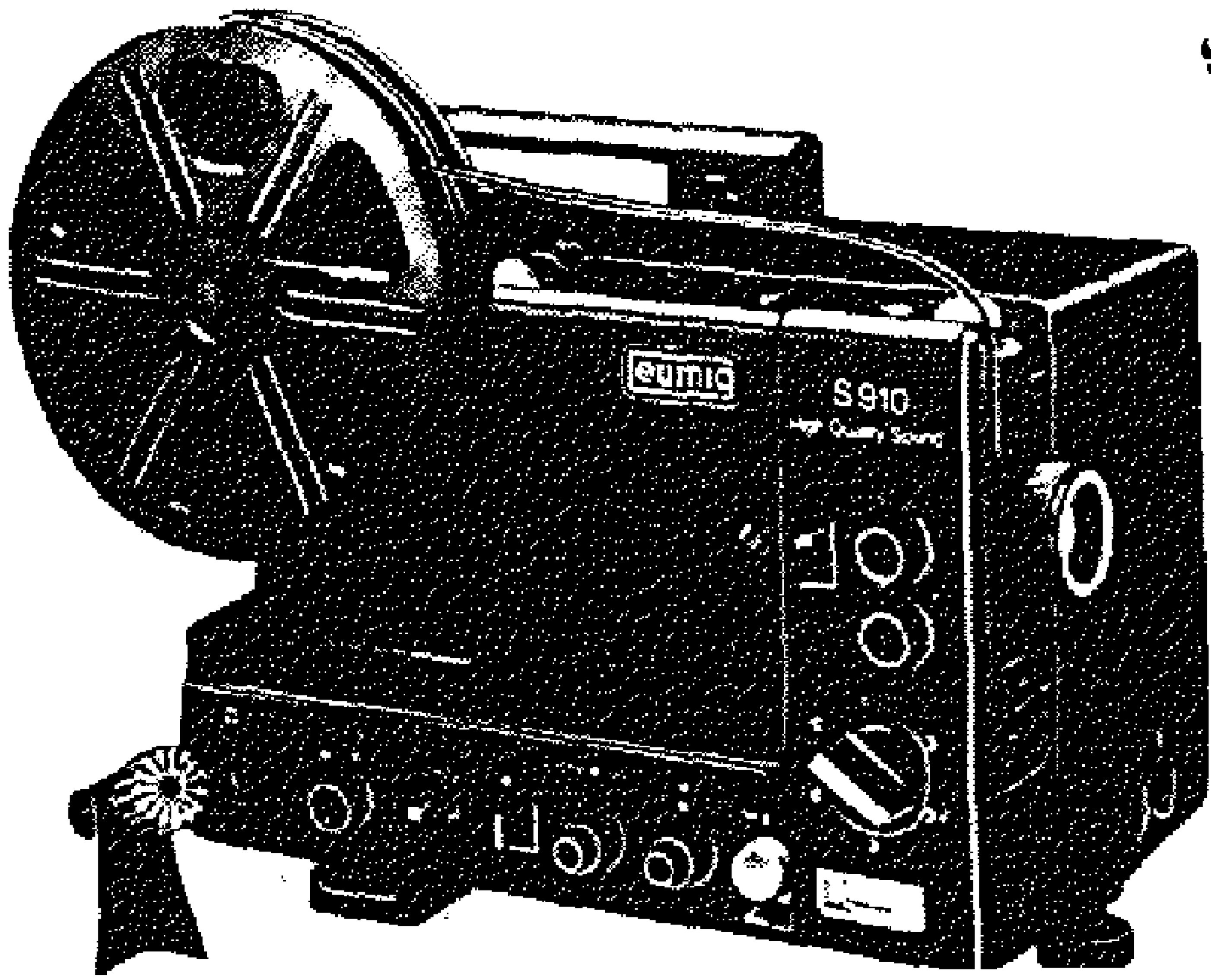
وكان لامين يسأل من وقت الى آخر، عن امر لا يعرف عنه كونتا شيئا على الاطلاق: "هل الشمس مشتعلة"؟ او "لماذا لا ينام والدنا معنا؟"

في مثل هذه المناسبات كان كونتا يصمت، تماما كما كان يفعل عمر عندما تضايقه اسئلة كونتا مع الفارق انه كان يطرح بعد ذلك الاسئلة نفسها على ابيه للحصول على اجابات عنها٠

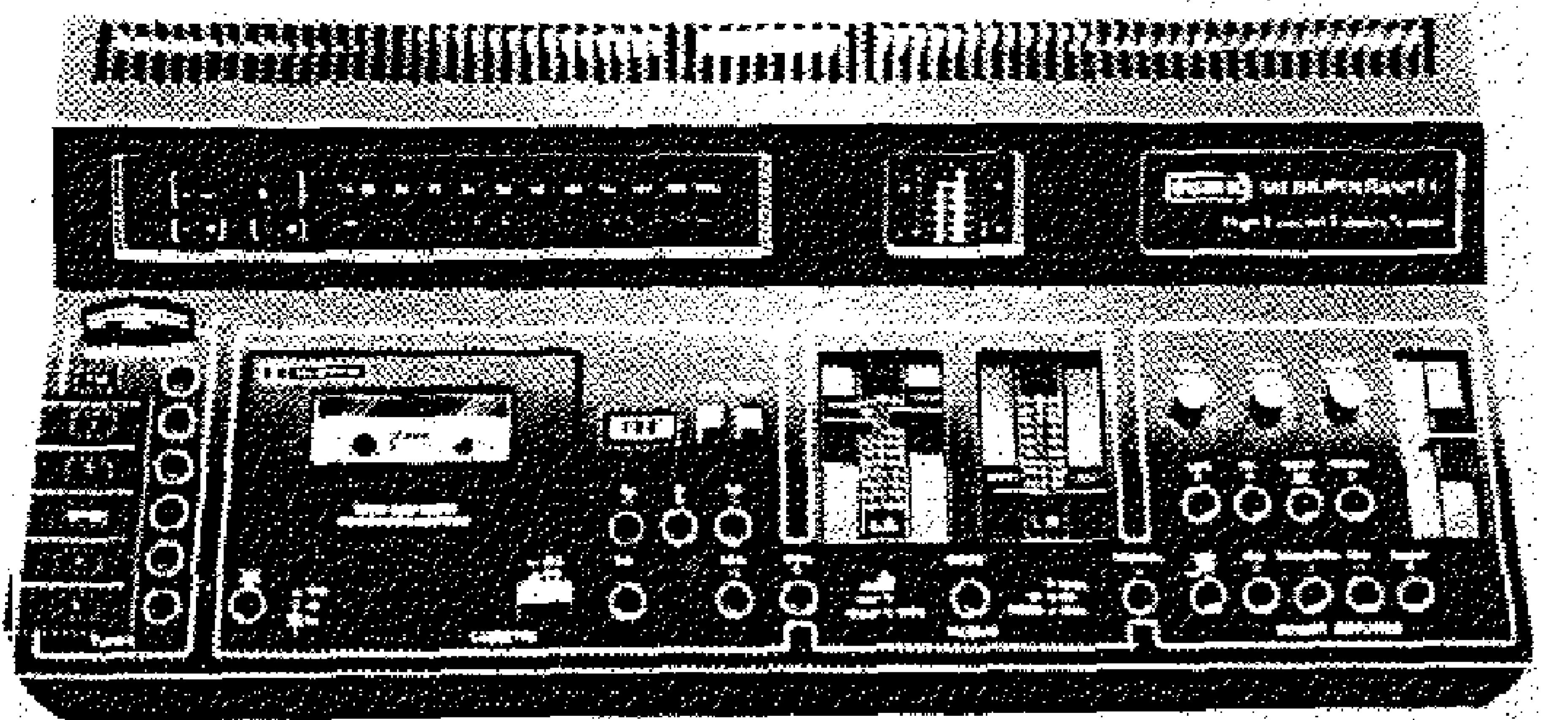
النجاح يولّد النجاح



ان الخبرة التقنية والجودة والدقة المتناهية وضعت
eumig في مقدم اجهزة العرض السينمائي الناطق ٠
واصبح النجاح حليف اجهزة eumig في العالم بأسره ،
بل اصبحت هي قدوة تحتذي بها الصناعة بأجمعها ٠
وقد عقد eumig العزم على متابعة هذه الخطة
ومواجهة المستقبل بكل ثقة في انجاز الاصناف الممتازة ٠
وانطلاقا من ذلك ، فان eumig يعمل دائما في الطليعة
على تطوير الكاميرات
السينمائية المزودة
بعدسات PMA
والكفيلة باعطاء



صور كبيرة ومتسعة في الاجهزة السينمائية الناطقة
او الصامتة على السواء ، علما بان منتجات
eumig توفر التسلية لملايين البشر في انحاء العالم ٠
هذا ، وبالاضافة الى كونه في طليعة صانعي
الكاميرات السينمائية واجهزة العرض ، فان eumig
يشغل كذلك مركزا فريدا بين صانعي منتجات HI-FI
"هاي في" ، بالنظر الى الجودة الفائقة التي يوفرها
لمراكز الحفلات الموسيقية المزودة باجهزة eumig وللكاسيت الموسيقية ٠ فهي تمثل
ذروة ما وصل اليه التطور في تقنيات الكاسيت واكتمال تزامن التعشيق ، اي الجودة
الصوتية الرفيعة الطراز بين احسن التسجيلات الشريطية والاجهزة الفونوغرافية ٠ وان eumig
مصمم على المحافظة على هذه المكانة
الفريدة ، وبالتالي فان eumig مصمم على
بقاء منتجاته في طليعة الصناعة المتنافية
لاجهزة الفيديو ، بفضل الخبرة التي احرزها
eumig وانجازاته التقنية المرموقة
وحرصه الاكيد على الجودة والاتقان ٠ ومن
الطبيعي اذا ان يكون eumig هو السباق
الى صنع المنتجات الممتازة المتقنة ،
اقتناعا منه بان النجاح يولد النجاح ٠
وبان سر النجاح يقوم على متانه الانتاج وجودة المنتجات ٠



eumig ®

وذات يوم، سأل لامين: "من هم العبيد"؟ ولم يكن كونتا يعرف الرد، ولذلك وجه السؤال نفسه في اليوم التالي الى ابيه، فصمت عمر فترة طويلة ثم قال: "ليس من السهل دائما تمييز العبيد من غير العبيد". وشرح لكونتا ان الناس يصبحون عبيدا بطرق مختلفة. فبعضهم يولدون لامهات من العبيد، وذكر له عددا من هؤلاء يعيشون في جوفوري. وهناك آخرون تهددهم الموت جوعا في قراهم خلال فصل الجدب فقدموا الى جوفوري آملين في ان يستعبدهم احد اهل القرية ويتولى اعالتهم، وهناك فئة اخرى من العبيد كانوا اعداء ثم وقعوا في الاسر.

واضاف: "ولكن لهؤلاء العبيد، على رغم وضعهم، حقوقا ضمنتها قوانين اسلافنا". واوضح ان الواجب يقضي على كل سيد بان يكفل لعبيده الغذاء والكساء والمسكن، وقطعة ارض زراعية يفلحها ويقتسم غلتها مناصفة مع وليه وزوجة او زوج اذا كان الرقيق انثى. كما ان العبد يستطيع شراء حريته بما يدخره من اتعاب عبوديته. واذا تزوج الرقيق الذكر او الانثى من احد افراد الاسرة التي تملكه فان هذا يضمن له الا يباع او يوهب للاخرين.

وتمنى كونتا ان يعرف المزيد، فقد روى له توماني توري ان الرجال البيض من ذوي الشعر الكثيف (التوبوب) يهاجمون القرى في بعض الاحيان ويحرقونها ويستولون على ابنائها وينقلونهم الى امكنة بعيدة. ولكن اباه التزم الصمت. وبعد بضعة ايام دعاه واخاه لامين الى مرافقته خارج القرية لجمع بعض الجذور. وهناك، اخذ الوالد يروي لهما حكاية الرحلة التي قام بها بصحبة شقيقيه منذ مواسم عدة ماطرة عندما سار الثلاثة خفية على ضفاف نهر غامبيا بولونغو حتى وصلوا اخيرا الى مكان من النهر يرسو فيه عشرون قاربا ضخما من قوارب التوبوب، يكفي الواحد منها لاستيعاب اهل جوفوري باجمعهم، وقد زود كل قارب منها بقطعة هائلة من القماش الابيض مشدودة بالحبال الى عمود في شكل شجرة ويعادل ارتفاعه قامات عشرة رجال. وكان هناك عدد كبير من التوبوب، يروحون ويجيئون، ومعهم عدد من السلاتي (المعاونين السود). وكانت هناك ايضا قوارب صغيرة تنقل الى القوارب الضخمة طائفة من الاشياء مثل اصباغ النيلة المجففة والقطن وشمع العسل وجلود الحيوانات. لكن الشيء الفظيع الذي يفوق كل وصف، حسب قول عمر، كان الضرب المبرح وغير ذلك من صنوف القسوة الوحشية التي رأوها تكال لاولئك الذين اعتقلهم التوبوب كي يأخذوهم بعيدا. ثم نظر عمر الى كونتا مليا، وقال: "ان بعض الماندينكا يبيعون عبيدهم للتوبوب، وهؤلاء الماندينكا خونة مارقون، ولا يجوز ابدا مثل هذا الفعل لاحد من آل كينتي".

وجلس كونتا ولامين وقد جمد الدم في عروقهما فزعا، وقال لامين: "ابي! الى اين تأخذ القوارب الضخمة اولئك الناس المسروقين؟"

فاجاب عمر: "يقول الشيوخ انها تأخذهم الى توبابودو، وهي ارض

Graphics - McCann

https://t.me/megallat

oldbookz@gmail.com

يباع فيها العبيد للمتوحشين من اكلة لحوم البشر يسمـون توبابوكومـي، فيأكلوننا· ولا يعرف احد شيئا اكثر من ذلك"·

رحلة القمر الجديد

وبعد بضعة ايام، دوت القرية فجأة، في عصر هادىء حار، باصداء الطبول الحادة، فاندفع كونتا الى كوخ طبال جوفوري حيث وجد حشدا من القرويين قد سبقوه لاستجلاء الاخبار· وكان هناك رسول من القرية المجاورة يتحدث الى عمر· وفهم كونتا ان عميه جانح وسلوم كينـتي يبنيان قرية جديدة على مسيرة خمسة ايام في اتجاه شروق الشمس، وقد اوفدا الرسول لدعوة شقيقهما عمر كي يحضر حفلة تدشين القرية ومباركتها مع اشراقة القمر الثاني الجديد·

وبعد ان انهى الرسول حديثه، اجاب عمر انه سيكون هناك في الموعد المضروب باذن الله·

وقبل رحيـل عمـر بايـام قلائـل، تملكت كونتا فكرة اذهلته ضخامتها حتى الارتياب: هل يحتمل ان يسمح له عمر بمصاحبته في هذه الرحلة؟ لقد كان يحدث من وقت الى آخر ان يصطحب والد ابنه في رحلة، وانما لم يحدث ذلك ابدا لصبي لم يتجاوز عمره الثمانية مواسم ماطرة· واحس كونتا بان امه ستعترض على تحقيق حلمه هذا، فادرك ان امله الوحيد يكمن في توجيه طلبه مباشرة الى ابيه·

وقبل رحيل عمر بثلاثة ايام، كان كونتا يرعى قطيعه وقد اوشك اليأس ان يتملكه، واذا به يرى اباه يغادر كوخ بينيتا، فتخلى عن عنزاته وعدا كالارنب البري حتى وصل الى ابيه، فوقف امامه وقد تقطعت انفاسه، ورفع رأسه اليه في رجاء صامت بينما ارتسمت علائم المفاجأة على وجه ابيه· وغص الصبي وعجز عن تذكر كلمة واحدة مما كان يعتزم ان يقول·

وتفرس عمر في وجه ابنه برهة ثم قال: "لقد انبأت امك للتو"، وواصل طريقه···

وانقضت بضع ثوان قبل ان يدرك كونتا مغزى ما قاله ابوه، ثم صاح: "آي!"، ووقع على الارض مستلقيا على بطنـه، ثـم قفـز فـي الهـواء كالضفدع، وعاد ركضا الى عنزاته· وعـاوده الهـدوء فـجـأة واطمـأن، لاقتناعه بان اباه كان يفكر فيه منذ ان بلغته الرسالة·

وفي صباح سفرهما، مشى عمر وتبعه كونتا خطوتين في التراب امام كوخ عمر، ثم استدار كل منهما وانحنى يكشط التراب، حيث ارتسمت آثار قدميه، ويضعه في حقيبته تأمينا لعودة هذه الاثار الى ذلك المكان· وكانت بينتا تراقبهما وهي تبكي عند باب كوخها· وحين سار الاثنان عبر القرية، ادار كونتا وجهه لالقاء نظرة اخيرة، ولكنه لاحظ ان اباه لا يلتفت، فوجه بدوره عينيه الى الامام وسار بخطى سريعة قاربت الهرولة، محافظـا علـى مسافـة الخطوتـيـن المناسبة بينه وبين ابيه·

وبعد ساعة تقريبا خف اهتياج كونتا بمقدار ما تباطأت خطواته· وبدأ يشعر بتزايد ثقل الصرة التي يحملها فوق رأسه وبالالم في عضلات ساقيه في اسفل الركبتين، واخذ العرق يتصبـب مـن وجهـه· وحيـن

توسطت الشمس كبد السماء تقريبا، بدأ كونتا يعتقد انه لن يقوى على مواصلة السير، فانتابه احساس بالذعر. وهنا توقف عمر، بعد ان بقي صامتا ولا يلتفت الى خلفه، والقى ارضا الصرة التي تعلو رأسه بجانب بركة من الماء الصافي. وارتشف الاثنان جرعات عذبة من مياه النبع الباردة وشويا اربع حمامات سمينة اصطادها عمر بقوسه وسهامه وتغدياها ثم استأنفا مسيرتهما.

وبعد ان قطعا مسافة كبيرة قال عمر:"ان التوبوب يأتون بقواربهم الى مكان على مسيرة يوم واحد من هنا فاحرى بنا ان ننام الليلة في قرية". واستأنف عمر السير بمزيد من السرعة واصابعه تلامس خنجره في غمده.

وكانت كرة الشمس البرتقالية تقترب من الارض حين رأى عمر وكونتا خيطا رفيعا من الدخان يتصاعد من قرية على مسافة قصيرة امامهم. وبدا لهما، وهما يقتربان من القرية، ان هناك شيئا لا يبعث على الارتياح. اذ لم يتراكض الاطفال الى لقائهم. وحين مرا في القرية بجانب شجرة "الباوباب" العريضة الجذوع، لاحظ كونتا ان جانبا منها قد احترق. وبدا ان اكثر من نصف اكواخ الطين خالية وان سكان القرية كلهم من العجائز او المرضى، وكان معظمهم راقدا على اعتاب الاكواخ.

وتقدم عدد من العجائز ببشراتهم المليئة بالتجاعيد فاستقبلوا المسافرين، بضعف ووهن، واخذوا يقاطعون بعضهم البعض في تسابقهم على شرح ما حدث: لقد اغار النخاسون على القرية وخطفوا او ابادوا شبيبتها بأجمعهم. وأضاف أحد الكهول موضحا ومشيرا الى عمر ثم الى كونتا: "من عمرك الى عمره.. اما نحن العجائز فقد ابقوا علينا".

وتابع عمر وكونتا المسير طوال الايام الثلاثة التالية بلا توقف، يتجاوزان القرى ويفترشان الاغصان الرطبة ويناما على حافة الطريق. وكان يبدو لكونتا انه لا يكاد يستغرق في النوم حتى يهزه ابوه ليوقظه عند بزوغ الفجر. وتبشرت قدما كونتا ودب الالم في كل جسمه، ولكنه تحمل ذلك وواصل سيره خلف عمر وهو يوهم نفسه بانه يجتاز مرحلة تدريبات الرجولة، وانه عقد العزم على ان يكون آخر من يعرب عن المه من فتيان الكافو جميعا.

وفي اليوم الرابع بلغ عمر وكونتا قرية لم يجدا فيها نسمة واحدة على الاطلاق ولم يسمعا فيها غير اصوات الطيور والقرود. وانتظر كونتا عبثا ان يشرح له عمر سر ذلك. ولكن ما ان اطلا على القرية التالية حتى راح الاطفال يروون الامر فقالوا وهم يشيرون الى قريتهم خلف الطريق ان اهل القرية قد نفروا من تصرفات زعيمهم النابية فقرروا في النهاية اخلاء القرية خلسة، وتحينوا فرصة استغراق الزعيم في النوم ليلا فهبوا وجمعت كل اسرة ما تملكه ولاذت ببيوت الاقارب والاصدقاء في القرى الاخرى. وترك اهل القرية زعيمهم وحيدا فراح ينتقل من مكان الى آخر ملتمسا الصفح منهم ومتعهدا بتحسين سلوكه اذا هم رجعوا الى القرية.

وفي هذه القرية الثانية، تدبر عمر الامر مع الطبال لاعلام شقيقيه بقرب

وصوله. وقد فهم من الرسالة ان عمر لن يلبث ان يصل، وانما لم يتضح منها ان كونتا بصحبته. ومع هذا، فقد ملأ الاعتزاز جوانح كونتا لقطعه كل تلك المسافة مع ابيه، وترددت في رأسه اصداء دوي الطبول اعلانا لقدومهما.

وفي اليوم الخامس حين بدأت الشمس ترتدي لونها القرمزي فوق افق المغيب، ابصر كونتا دخانا يتصاعد من قرية اصبحت قريبة. ولم يلبث ان بدأ يسمع عن بعد دوي الطبلة الضخمة (توبالو) ودقات الطبول الصغيرة (تان - تانغ) وقعقعة الراقصين. ثم انعطف بهما الطريق فاذا هم امام القرية.

ولم تعد كونتا قدما تشعران بالارض تحتهما. وتزايد دوي الطبول، ثم ظهر الراقصون فجأة، يزمرون ويصيحون في ارديتهم من اوراق الشجر ولحائه، ويندفعون خلال بوابة القرية لاستقبال الزائرين الكريمين. وتقدم رجلان يشقان طريقهما خلال الحشد، فسقطت الصرة ارضا من فوق رأس عمر وهرع نحوهما. واذا بكونتا يلقي صرته هو الآخر ويعدو بدوره.

كان الرجلان يتبادلان مع ابيه العناق والتربيت على الظهر، ثم قالا:

"ومن هذا؟ ابن اخينا؟" ورفعاه عن الارض وراحا يحتضنانه ويقبلانه وسط صيحات الابتهاج. ودق العم سلوم قبضته على رأس كونتا وقال: "اننا لم نتقابل منذ تسميته. ها هو الان امامنا "كم موسما ماطرا عمرك يا كونتا ابن اخي؟"

فاجاب كونتا بلطف وكياسة: "ثمانية مواسم ماطرة يا عمي."

فصاح عمه: "قاربت التأهيل لتدريبات الرجولة!"

وسرعان ما هبط الظلام، فاشعلت القرية نيرانها وتجمع الناس حولها. ثم خطا جانح وسلوم داخل دائرة المستمعين يرويان الحكايات عن مغامراتهما. فهما كانا قبل بناء هذه القرية من اهل التجارة المتجولين التي يشتهر بها رجال قبيلة الماندينكا. وتحدثا عن حيوانات غريبة لها ظهور مسننة. وقال سلوم: "انها تسمى الجمال، وتعيش في ارض تكسوها رمال لا نهاية لها".

وبسط جانح قطعة كبيرة من الجلد المدبوغ عليها رسم. وقال: "هذه هي افريقيا". وراح يتابع باصبعه على الرسم منطقة قال لهم انها صحراء رملية شاسعة تزيد مساحتها اضعافا كثيرة على مساحة مملكتهم.

واوضح سلوم ان سفن التوبوب تأتي الى ساحل افريقيا الشمالي بالخزف والتوابل والاقمشة والجياد واشياء اخرى لا حصر لها، تصنع بواسطة الآلات، ثم ينقل الرجال والجمال والحمير هذه السلع الى مدن الداخل، مثل سجلماسه وغداميس ومراكش. وكان جانح ينتقل باصبعه على الرسم ليبين مواقع هذه المدن للمستمعين.

ثم اخذ سلوم الرسم المخطوط على الرق المدبوغ وبدأ يشير باصبعه الى الاماكن الاخرى التي بدأ جانح يتحدث عنها. وقال جانح: "ان سلعنا الافريقية تنقل الى كثير من المدن الكبيرة التي نصدر اليها الذهب والعاج والجلود والزيتون والتمر

والقطن والنحاس والحجار الكريمة. وبينما نحن جلوس هنا الليلة، هناك كثير من الرجال ينقلون على رؤوسهم احمالا ثقيلة ويخترقون بها غابات كثيفة كي يصلوا بها الى سفن التوبوب.

وكان كونتا يجلس الى جانب ابيه في وقار وكبرياء، ويستمع معجبا، الى ذلك كله، واقسم صامتا بينه وبين نفسه ان يقوم يوما، هو ايضا، بمغامرات الى تلك الاماكن المثيرة.

كتبوا اسماءهم بالعربية

بلغ عمر كونتا موسمه الماطر الثاني عشر، واوشك ان يتم، هو وافراد فئته، التعليم الذي كانوا يتلقونه مرتين كل يوم منذ السن الخامسة. وعندما جاء يوم التخرج، جلس آباء الفتيان في فناء كوخ المعلم وقد اشرقت وجوههم بالاعتزاز. ثم وقف المعلم بريما سيساي واجال الطرف في تلاميذه، ووجه سؤالا الى كونتا: "ماذا كانت مهنة اسلافك القدامى يا كونتا كينتي؟".

فاجاب كونتا بثقة: "منذ مئات المواسم الماطرة كان رجال كينتي في ارض مالي يشتغلون حدادين، وكانت نساؤهم تصنع الاواني وتغزل القطن".

وجاء بعد ذلك دور الاحاجي والالغاز، ثم كتب التلاميذ اسماءهم على الواح حجرية باللغة العربية، كما تعلموا ان يكتبوا. واخيرا طلب المدرس من كل متخرج ان يقف لدى مناداته باسمه: "كيرابا كونتا كينتي". فوقف كونتا وهو محط عيون الجميع، يملؤه التفاخر باسرته الجالسة في مقدم صفوف المشاهدين، بل وباسلافه الراقدين في المدافن وراء القرية. وقرأ كونتا بصوت عال آية من القرآن الكريم. وما ان انتهى من قراءتها حتى رفع المصحف الى جبهته وقال: "صدق الله العظيم". وبعد ان انتهى جميع الخريجين من القراءة واحدا تلو الآخر، اشترك الجميع في هتاف مرح عاصف.

وتلاحقت الاشهر المتتابعة في الفصول حتى انقضى عام آخر تولت فئة كونتا خلاله تعليم فئة لامين طريقة رعي الماعز. ثم اخذ الموعد الذي طال انتظاره يقرب شيئا فشيئا. فلن ينتهي مهرجان الحصاد التالي الا وتبدأ تدريبات الرجولة لافراد فئة الكافو الثالثة، اولئك الفتيان المراوحة اعمارهم بين ١٠ اعوام و١٥ عاما. وحاول كونتا ان يتناسى تلك الذكرى الحية العالقة في ذهنه منذ خمسة مواسم عندما تملكه الرعب هو ورفاقه وهم يرقبون الفتيان الذين غطيت رؤوسهم بالعمامات البيضاء وانتزعتهم من القرية عصبة راقصي "الكانكورانغ" المقنعين الصاخبين.

ولم يلبث ان دوى الطبل الكبير معلنا بدء الحصاد الجديد وانضم كونتا الى القرويين المنتشرين في الحقول، مرحبا بايام العمل الشاق الطويلة لانها تصرفه بمشاغلها الكثيرة ومتاعبها الشديدة عن التفكير في ما يخبئه المستقبل. وحين بدأ المهرجان، وجد نفسه عاجزا عن الاستمتاع بالموسيقى والرقص والقصف، مثلما يفعل الآخرون.

وفي الليلة التي سبقت اليوم الاخير من المهرجان، كان كونتا في كوخ عمر يوشك على الانتهاء من وجبة

المساء، حين دخل خاله الكوخ وتقدم نحوه ووقف خلفه. ولمح كونتا بطرف عينه خاله يرفع شيئا ابيض، وقبل ان يتمكن من الالتفات كانت الغماءة الطويلة قد هبطت فوق رأسه. واجتاح كونتا ذعر كاد ان يشله، وشعر بيد تقبض على زنده وتحثه على الوقوف، ثم تدفعه الى الوراء وترغمه على اقتعاد كرسي منخفض.

وجلس في سكون تام محاولا ان يألف الظلام، وقد خيم الهدوء على الكوخ. وكبت كونتا خوفه علما منه بان اي فتى يفشل في تدريبات الرجولة يعامل بقية حياته معاملة الاطفال ويتجنبه الآخرون ولا يسمح له بالزواج خشية ان ينجب ابناء على شاكلته.

وانقضت ساعات، وتوقف قرع الطبول وصياح الراقصين التي كانت تبلغه اصداؤها من بعيد. وغلبه النعاس لحظة ولكنه انتفض مستيقظا، ثم استولى عليه من جديد نوم متقطع.

وحين دوى فجأة صوت الطبل الضخم (التوبالوا) اعترته الرعبة وكادت نفسه ان تثب من جلده. وبدأ يتخيل مظاهر الحياة الصباحية من خلال الاصوات التي تلتقطها اذناه، صياح الديوك، ونباح كلاب (الوولو) واصداء اجران النساء وهن يدققن الحبوب لوجبة الفطور. وبعد فترة قصيرة، بلغت اذنيه اصوات متزايدة العلو، واعقبها دق الطبول، فبدا هنيهة وكأن قلبه اوشك ان يتوقف حين احس فجأة بشخص يندفع داخل الكوخ. وقبضت يدان على معصميه واندفعتا به خلال باب الكوخ وسط ضجيج يصمّ الآذان: من دق الطبول

وصيحات راقصي الكانكورانغ التي تجمد الدم في العروق. وكان الضجيج يخفت قليلا ليعود الى الارتفاع المسعور، كلما حان سحب صبي آخر من احد الاكواخ.

وادرك كونتا، بفضل السمع، انه انضم الى رتل من المشاة على ايقاع الطبول السريع الحاد. وخلال اجتيازه بوابة القرية، بدأ ضجيج الحشود يخفت ويتقلص واحس كونتا بالدموع الساخنة تتصاعد الى مآقيه لتنساب على خديه، فادرك ان ما يخلفه وراءه هو أكثر من ابيه وامه واخوته ومسقط رأسه، فتملكه الحزن بمقدار ما استولى عليه الذعر.

وانما كان كونتا يعرف ان ذلك امر لا مفر منه، وقد اتاه ابوه من قبله، وكما سيأتيه ابنه هو ذات يوم، وانه سيعود من هذه المحنة، رجلا، او لا يعود على الاطلاق.

بين الخوف والغضب

وتراءى لكونتا انه يقترب الآن من غيضة (دغل) خيزران. فقد استشم من خلال غماءته العبير القوي المتصاعد من سيقان الخيزران التي قطعت حديثا. وبعد بضع خطوات، انكتم دوي الطبل في مقدم الرتل، وكأن المشاة قد دخلوا مكانا مسورا؛ ثم سكت الطبل وتوقف السائرون واستمروا بضع دقائق وقوفا في سكون وصمت. وتذكر كونتا انه عرف مثل هذا الاحساس مرة من قبل عندما كان يرافق اباه في رحلته. فقد اشار اليه عمر فجأة، عند ذاك، بان يظل جامدا بلا حراك على الاطلاق، الى ان مر على مقربة منهما قطيع اسود في غبش المساء. وارهف كونتا اذنيه لعله يلتقط صوتا يهتدي به الى المكان الذي بلغه. لكنه لم يفلح بسبب صياح الطيور وثرثرة القردة في اعالي الشجر.

وفجأة، انتزعت غماءة كونتا عن رأسه، فراح يرمش بعينيه في الشمس الساطعة في باكورة العصر، وقد وقف امام كونتا ورفاقه مباشرة رجل متجهم ومجعد الوجه اسمه سيلا باديبا، احد كبار شيوخ جوفوري، وهو يتفحص وجوههم بعينيه وكأنه يرقب ديدانا زاحفة. وادرك كونتا ان الرجل لا بد ان يكون هو "الكينتانغو" الذي يتولى امرهم خلال تدريبات الرجولة. ووسع كونتا نطاق نظرته لحظة، وهو حريض على الا يحرك رأسه، فتبين له انه ورفاقه يقفون في ساحة يحيطها سور ويتناثر فيها عدد من اكواخ الطين المسقوفة بالاعشاب، وكان السور من اعواد الخيزران التي قطعت حديثا.

وقال الكينتانغو بصوت عال: "لقد غادرتم قرية جوفوري اطفالا. واذا كان مقدرا ان تعودوا اليها رجالا، فلا بد من استئصال مخاوفكم، لان الذي يستولي عليه الخوف يكون شخصا ضعيفا، وان الشخص الضعيف يكون خطرا على قبيلته".

وما ان فرغ سيلا باديبا من هذا الكلام حتى انصرف، وفي الحال وثب الى الامام اثنان من مساعديه وراحا يوزعان الضربات بالعصي على الفتيان في كل اتجاه، موجهين اياها الى اكتافهم واسفل ظهورهم وهما يدفعان بالفتيان الثلاثة والعشرين الذين تضمهم فئة الكافو، ويحشدانهم داخل اكواخ الطين الصغيرة.

وبقي كونتا مع اربعة فتيان آخرين في كوخهم ساعات طويلة وهم لا يجرؤون على الكلام. وبعد غروب الشمس مباشرة، بينما اخذ الجوع يعض بانيابه بطن كونتا، اندفع مساعدو الكينتانغو داخل الكوخ صائحين: "تحركوا!". وانقضت العصا على كتفيه بضربة شديدة اثناء اندفاعه في غبش المساء الى الخارج، حيث القى الكينتانغو على الفتيان نظرة متجهمة قاسية واعلن انهم سيقومون على الفور برحلة ليلية في الغابة المجاورة، وصدر الامر بالسير فخرج رتل الفتيان الطويل منطلقا على الدرب في تشوش فوضوي، وانهالت العصي صاعدة هابطة على اكتافهم لفرض النظام.

وكان الفجر على وشك البزوغ حين عاد الفتيان بخطى متعثرة ليدخلوا ساحة الجوجو (مقر التدريب) وقد خارت قواهم وتكاثرت القروح والخدوش في اقدامهم وشعر كونتا انه يوشك ان يموت من العياء فتكابر على نفسه حتى بلغ كوخه، ولم يكد يدخله حتى خانته قدماه فتعثر وسقط على ارضه القذرة، واستغرق في النوم على الفور حيث سقط.

وتكررت المسيرات في الليالي القليلة التالية، وكل منها اطول من سابقاتها. وشرح الكينتانغو للفتيان كيف يسترشد الرجال بالنجوم وهم في اعماق الغابة، وتعلم كل فتى في فئة الكافو كيف يقود رفاقه ليعود بهم الى معسكر التدريب.

وقال لهم الكينتانغو ان الحيوانات تعتبر افضل المعلمين لفن الصيد. وكان معاونوه يشيرون الى المواضع الحديثة التي كمنت فيها الاسود ويعلمون الفتيان كيف يتعقبون الظبى ويتفحصون شقوق الصخور التي تختبىء فيها الذئاب والضباع. وتعلم الفتيان تقليد اصوات الحيوانات والطيور، فملأوا الجو بغمغماتهم وصفيرهم. وسرعان ما اصبحت كل قطعة لحم في مؤونة المعسكر تأتي اما من الفخاخ التي ينصبها الفتيان او من نتاج اقواسهم وسهامهم.

غير ان الكينتانغو العجوز لم يكن يتكرم بالرضا ابدا، مهما ازدادت معارف الفتيان ونمت قدراتهم ومهاراتهم. وظل متشددا في مطالبه وصارما في ما يفرضه عليهم من انضباط، الى درجة جعلت الخوف والغضب يتوزعانهم معظم الوقت. وكان اي امر يصدر الى اي فتى منهم ولا ينفذ بكامله على الفور يسبب الضرب المبرح على رؤوس فئة الكافو بمجموعها. وكان المانع الوحيد الذي يصد كونتا والآخرين عن ضرب هذا الفتى او ذاك، ممن تصدر عنهم بعض الاساءات، هو اقتناعهم التام بان مثل هذا التأديب يبعث على الاقتتال والعراك. ولقد كان اول الدروس التي تعلموها في حياتهم، قبل ان يجيئوا الى معسكر التدريب بزمن طويل، انه لا يجوز اطلاقا لافراد الماندينكا ان يقتتلوا في ما بينهم.

رجال جوفوري

جرى الحادث من دون سابق انذار. فذات يوم عند الظهيرة وقد توسطت الشمس كبد السماء أصدر أحد معاوني الكينتانغو أمرا - بدا روتينيا عاديا في ذاته بان يصطف أفراد فئة الكافو في ساحة معسكر التدريب، ثم أقبل الكينتانغو من كوخه وراح يتمشى

أمامهم. وقال آمرا: "أبرزوا أعضاء التناسل".

وفكر كونتا ان الساعة قد دقّت لحدوث ما كان يخشاه: عملية الختان (الكاساس بويو) التي تطهّر الفتى وتعده لان يغدو أبا لأطفال كثيرين. وتردد الفتيان وهم لا يريدون تصديق ما سمعوا، فصاح فيهم الكينتانغو: "الآن، هيا!" فأطاعوا في بطء، وقد نكس كل منهم عينيه الى الارض وهو يمد يده داخل مئزره.

وجاء معاونو الكينتانغو فلفوا حول رأس عضو التناسل لكل فتى قطعة قصيرة من القماش مدهونة بعجينة خضراء مصنوعة من نوع من ورق الاشجار المسحوق. وقال الكينتانغو: "عما قليل ستتخدّر اعضاؤكم التناسلية". ثم أمرهم بالعودة الى أكواخهم.

وتجمع الفتيان داخل الاكواخ وقد غلب عليهم الخجل والخوف وتملكهم الصمت حتى انتصف العصر، فجاءهم الامر بالخروج ثانية الى الساحة، حيث اصطفوا وشاهدوا عددا من رجال جوفوري - آباء واخوة كبارا وأخوالا وأعماما وهم يدخلون واحدا تلو الآخر من البوابة، وبينهم عمر. واصطف الرجال في مواجهة الفتيان وهم ينشدون معا: "هذا الذي سيتم... قد جرى لنا أيضا... كما جرى لأسلافنا من قبلنا... حتى تصبحوا أنتم أيضا... مثلنا... فنغدو جميعا رجالا معا". ثم صرف الكينتانغو الفتيان مرة اخرى الى أكواخهم.

وعند الغروب بلغتهم فجأة اصداء الطبول الكثيرة العدد، وجاءهم الامر بالخروج مرة أخرى. فوجدوا الآباء والأخوال والاعمام والاخوة واقفين على مقربة منهم وهم ينشدون هذه المرة: "قريبا تعودون الى بيوتكم... وفي الوقت المناسب ستتزوجون... وستنطلق الحياة الابدية من عورتكم".

وراح أحد مساعدي الكينتانغو ينادي كل فتى باسمه ويومىء اليه بان يتوارى خلف ستار طويل من الخيزران المحبوك. وبعد لحظات قليلة يخرج الفتى من خلف الستار وقد ظهرت بين ساقيه قطعة قماش ملوثة بالدم. وجاء اخيرا دور كونتاكينتي:

ذهب كونتا الى خلف الستار فوجد أربعة رجال، امره أحدهم بأن يستلقي على ظهره فأطاع، ولم تكن ساقاه المرتجفتان قادرتين على حمله الى أبعد من ذلك على اي حال، ثم انحنى الرجال وأمسكوا به بقوة ورفعوا فخذيه الى أعلى. وقبل ان يغمض كونتا عينيه رأى الكينتانغو ينحني فوقه وقد أمسك شيئا بيديه ثم أحس بألم القطع. وفي لحظة قصيرة كان جرحه قد ضمّد باحكام وأعانه خاله على الخروج من خلف الستار. فقد تم له الان ما كان يخشاه أكثر من أي شيء آخر.

وبينما كانت جروح الفتيان تلتئم، خيّم على معسكر التدريب جو من الابتهاج، فقد تحرر الفتيان الى الابد من عار البقاء اطفالا من الناحيتين الجسدية والعقلية. وها هم الان قد أوشكوا ان يكونوا رجالا مكتملين. بل ان الكينتانغو نفسه أصبح يخاطبهم بقوله: "انتم الرجال..."

وكان لذلك وقعه الرائع في نفوس كونتا ورفاقه.

وذات مساء قال "الكينتانغو": "عندما ينتهي تدريبكم ستبدأون

خدمة جوفوري بأن تصبحوا عيونها وآذانها • فسيتعين عليكم أن تحرسوا القرية، خارج بوابتها، كي ترصدوا من يقترب منها من المغيرين او الهمج• وستقع عليكم أيضا مسؤولية التفتيش على اوعية الطهي التي تستخدمها النساء لتتأكدوا من نظافتها، وعليكم أن تؤنبوهن بأقصى شدة اذا وجدتم في الأوعية اي قذارة او حشرات"•

وبعد ذلك، سيتولى هؤلاء "الفتيان الرجال" مهمات اكثر اهمية مع تتابع المواسم الماطرة (الاعوام)• فالرجال الذين في سن عمر - فوق الثلاثين - يرتقون تدريجا في الرتبة والمسؤولية حتى يبلغوا المركز المشرّف الذي يشغله شيوخ القرية ويصبحوا أعضاء في مجلس المسنين•

ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الفتيان يدركون أن رفاهية الجماعة تتوقف على كل فرد منهم - كما أن خير قبيلتهم ورفاهيتها سيتوقفان على كل منهم ذات يوم فلم تلبث ان تضاءلت مع الوقت انتهاكاتهم للقواعد المتبعة حتى اصبحت محصورة في زلات طفيفة تحدث من وقت الى آخر، وتضاءلت بالمثل عقوبات الضرب، فتطاير بالتدريج ذلك الخوف الذي كانوا يشعرون به تجاه الكينتانغو وحل محله احترام لا يعادله سوى احترامهم لآبائهم•

ومع ذلك، فقلّما كان يمضي يوم واحد من دون أن يتعرض كونتا ورفاقه لنوع من الحرج يشي بوقوعهم في الجهل من جديد. وبدت لهم الامور التي يعيها الرجال ويجهلها الفتيان متعددة لا تقع تحت حصر. فقد أدهشهم مثلا ان يعرفوا ان قطعة من القماش تطوى وتعلق في شكل معين قرب كوخ أحد الرجال تكفي لافادة سائر رجال الماندينكا عن موعد عودة ذلك الرجل، او ان وضع حذاءين متقاطعين بأشكال معينة أمام كوخ رجل يفيد أشياء كثيرة لا يفهمها سوى الرجال الآخرين. ولكن "السيراكانجو" كانت الاكتشاف المدهش الاكبر في نظر كونتا، فهي نوع من رطانة رجال الماندينكا تتغير فيها أصوات الكلمات ومخارجها على نحو حاذق بارع.

وتذكر كونتا مرات كان يسمع فيها أباه يتحدث بسرعة كبيرة الى رجل آخر من دون ان يفهم كونتا شيئا ومن دون ان يجرؤ على الاستفسار عنه. وها هو كونتا نفسه الان يتعلم تلك اللغةالسرية التي يتعذر فهمها على شخص لا دراية له بالامر. وسرعان ما أصبح كونتا ورفاقه يقتصرون تقريبا على استخدام هذه اللغة السرية.

مدن الاسلاف العامرة

وقضى كونتا ورفاقه طوال الشهر التالي يتعلمون اساليب المحاربة. وقال لهم الكينتانغو: "انكم تعلمون أن الماندينكا هم أبرع المحاربين وادهاهم".

وأخذ الكينتانغو يرسم على التراب أشهر استراتيجيات الماندينكا، فيعيد الفتيان تنفيذها في معارك وهمية. ثم تعلموا كيف يصنعون الحراب المزودة نصالها بالاشواك المسمومة. واعقبتها دروس المصارعة على يد أبطال هذا الفن في جوفوري. ثم جاء دور تعليمهم تاريخ القبيلة.

وقدم الى المعسكر راوية هرم بدا الكينتانغو أمامه وكأنه غضّ الشباب. وجلس الراوية يحيط به الفتيان متربعين في نصف دائرة، وأخبرهم كيف أن الراوية يحتفظ في أعماق عقله بتاريخ الأسلاف... والا فكيف لكم ان تطلعوا على المآثر التي قام بها القدامى من الملوك والقديسين والصيادين والمحاربين منذ مئات المواسم الماطرة؟ فمن هنا ينطلق تاريخ شعبنا الى المستقبل". ونقر بأصابعه رأسه الذي انتشر فيه بياض الهرم.

وظل الراوية حتى ساعة متقدمة من الليل يقص عليهم الحكايات التي خلّفها له أبوه عن عظمة الامبراطوريات السوداء التي كانت تحكم افريقيا منذ مئات المواسم الماطرة.

وقال الراوية العجوز: "قبل أن يحط التوبوب أقدامهم في افريقيا بزمن طويل، كانت تقوم في غانا امبراطورية الاسلاف التي أفردت مدينة بأكملها لسكن أفراد البلاد الملكي. وكان أشهر ملوكها يدعى كانيساي وكان يملك ألف جواد، لكل منها ثلاثة خدم ومبولته الخاصة من النحاس. وفي كل مساء، حين كان الملك كانيساي يخرج من قصره، كانت توقد ألف نار فتضيء كل ما بين السماء والارض. وكان الملك

يجلس على شرفة من الذهب ومن حوله جياده باعنّتها وسروجها الذهبية وكلابه باطواقها الذهبية ايضا وحرسه بدروعهم وسيوفهم المصنوعة من الذهب وأبناؤه الامراء تزين رؤوسهم الحلي الذهبية ·

"ومع هذا، فلم تكن غانا أغنى الممالك السوداء، وانما كانت مملكة مالي القديمة أعظمها ثراء وعراقة بفضل طرقها التجارية المتفرعة الى كل حدب وصوب، وتجارتها في الملح والذهب والنحاس· وكانت القوافل التي تضم آلاف الجمال مشاهد شائعة مألوفة في كثير من المدن، مثل تاكيده ونيامي، حيث كانت تنتظم المهرجانات والاحتفالات الضخمة في كل يوم تقريبا ·

"وكانت مساحة مالي تقاس بأربعة أشهر من السفر طولا وأربعة أشهر عرضا· وكانت عظمى مدنها تمبوكتو الاسطورية، التي كانت تحوي ٦٠٠٠ منزل للسكن وعددا من المساجد الفخمة· وكانت المركز الرئيسي للعلوم في افريقيا كلها، يقيم فيها آلاف العلماء اضافة الى موكب لا ينقطع من أهل الفكر الزائرين الراغبين في اغناء معارفهم، وقد بلغت اعدادهم حدا تفرّغ معه بعض كبار التجار لبيع الرقاق والكتب· ولم يبق رجل صالح أو معلم في أصغر القرى الا واستقى جزئيا على الاقل، من معين المعرفة في تمبوكتو" ·

وكان الزائر التالي لمعسكر التدريب منشد شهير (غالي كيا) تولى قيادة الفتيان في أغان جماعية عن عظماء الصيادين وزعماء الماندينكا الحكماء الشجعان

الاقوياء• ولم يكد يغادر المعسكر حتى خلفه مورو شهير من أئمة المعلمين، فتلا عليهم ما تيسر من القرآن الكريم، ثم قرأ لهم من كتب لم يسمعوا بها من قبل، مثل اسفار موسى الخمسة الاولى من العهد القديم، ومزامير داود النبي، وكتاب أشعيا• وحين انتهى العجوز من ذلك، كلمهم عن الاحداث المهمة التي وردت في الكتاب المقدس كتلك التي تتناول آدم وحواء ويوسف وأخوته وداود وسليمان•

وكان كونتا يرقد يقظا في كوخه ليلا، يفكر كيف ان كل الاشياء التي يتعلمونها تكاد تترابط في ما بينها، فالماضي يبدو مصاحبا للحاضر، والحاضر مصاحبا للمستقبل، والموتى هم زملاء الاحياء وزملاء من لم يولدوا بعد، والكل يعيشون في رحاب الله• وأحس بأنه ضئيل جدا، وبأنه كبير جدا في الوقت ذاته، وقال لنفسه: هذا هو ولا شك معنى بلوغ الرجولة•

وذات ليلة، والقمر بدر في قلب السماء، تلقى فتيان الكافو أمرا من مساعدي الكينتانغو يدعوهم الى الانتظام صفا في الساحة بعد وجبة العشاء بقليل•

ترى هل جاءت اللحظة التي كانوا ينتظرونها؟

أجال كونتا النظر حوله بحثا عن الكينتانغو في أرجاء المعسكر، حتى رأى الرجل أخيرا يقف عند البوابة الخارجية يدفعها لتنفتح على مصراعيها• ولم يلبث الكينتانغو ان التفت اليهم وصاح: "هيا بنا الان يا رجال جوفوري، فقد حان موعد عودتكم الى قريتكم!"

فوقفوا لحظة جامدين في أماكنهم، ثم اندفعوا وهم يتصايحون، نحو الكينتانغو ومساعديه وراحوا يحتضنونهم، فنفر هؤلاء من مثل هذه الوقاحة والاجتراء••• ثم اتجه الفتيان بأفكارهم الى بيوتهم•

الأسر

حين عاد كونتا الى قريته، وجد أن أباه قد خصص له كوخا مستقلا كي يسكنه بمفرده كسائر اعضاء مجموعته• غير ان بينتا استمرت تطهو له الطعام، كما أنها زودت كوخه بفراش للنوم وبعض الاوعية وبمقعد وسجادة للصلاة• ومضى كونتا بدوره يساوم بمهارة لشراء أشياء أخرى يستكمل بها أثاث كوخه، فيقا يضها بالحبوب والفول السوداني الذي زرعه بيده في قطعة أرض صغيرة منحه اياها مجلس شيوخ القرية• وكان يعرف ان الشاب الذي يحسن الاهتمام بمحاصيله ورعاية عنزاته يستطيع ان يغدو رجلا ميسورا متى بلغت سنه ٢٥ أو ٣٠ موسما ماطرا، فيبدأ التفكير حينئذ في اتخاذ زوجة له وتربية أبناء من صلبه•

وكان كونتا في كل صباح يحمل سجادة الصلاة وينضم الى أفراد فئته فيسيرون الى المسجد برؤوس خاشعة خلف الرجال الاكبر سنا• وكانت بينتا تأتيه بفطوره بعد الصلاة، ثم ينضم الى رفاقه في أداء واجباتهم التي كانوا يباشرونها بحماسة ودقة يثيران فضول من يكبرونهم سنا•

وقلَّما كانت النساء يلتفتن حولهن من دون ان يجدن احد هؤلاء الرجال الجدد يطالبهن بالتفتيش على أوعية الطهي ليتأكد من خلوها من



الحشرات. وكان الفتيان كلما قاموا بجولة استكشافية حول سور القرية عثروا هناك على مئات المواضع التي تشكو من سوء الترميم وفقا للمعايير الدقيقة التي حددوها. وتوجه بضعة عشر منهم سوية الى بئر القرية فاستخرجوا منها ملء دلاء عدة، تذوقوها بعناية من قرعة الاغتراف للتحقق من احتوائها اي ملوحة او اطماء او أي شيء آخر غير صحي. فخاب ظنهم، ولكنهم، على رغم ذلك، افرغوا البئر من الاسماك والسلاحف المائية التي كانت فيها لتتغذى على الحشرات وتبيدها، وابدلوها باسماك وسلاحف أخرى جديدة.

وعندما كان يأتي دور كونتا في حراسة القرية، كان يتوجه عند هبوط الليل الى خارج سورها عبر الشجيرات الشائكة المتراكمة خلفه والاوتاد المدببة المغروسة تحتها، الى ان يبلغ المخبأ المتستر بأوراق الاشجار فيكمن فيه لمراقبة الجوار والسهر على سلامة القرية من اي مكروه يهددها. وذات ليلة، بعد انقضاء عام كامل على تخرجه في تدريبات الرجولة، ذهب كونتا الى موقع حراسته وتزوّد هذه المرة ببلطة اضافة الى حربته وقوسه وسهامه، لاعتزامه اختيار بعض الاخشاب في صباح الغد وقطعها وتجفيفها ليجعل منها اطارا لطبل كبير للقرية. وحين

بلغ موقع الحراسة، تسلق بسرعة القائم الخشبي المتين الذي يحمل منصة المراقبة على ارتفاع مترين ونصف متر تقريبا.

وكان كونتا في أوائل عهده بنوبات الحراسة الليلية المنفردة يتوهم ان كل حركة، سواء صدرت عن قرد او ضبع أو فهد، هي نذير باقتراب عدو، ولكن ليالي المراقبة الطويلة شحذت أذنيه وعينيه الى حد بعيد، حتى أصبح في مقدوره ان يوكل الى حاستيه البصرية والسمعية أمر الرقابة اليقظة من دون الاضطرار تقريبا الى الاستعانة بالارادة، فيتسنى له بذلك ان يطلق لذهنه العنان في سبر افكاره الخاصة.

راح كونتا، منذ بلوغه مرحلة الرجولة، يفكر في القيام برحلة من نوع نادر، متمنيا لو وطئت قدماه تراب ذلك المكان الذي يسمى مالي، حيث نشأت، حسبما يقول أبوه عمر وأعمامه، عشيرة كينتي منذ ٣٠٠ أو ٤٠٠ موسم ماطر. وكان معلم المدرسة رسم خريطة لرحلته، وقدر انها ستستغرق قمرا كاملا تقريبا في الذهاب والاياب. ومن ذلك الحين اخذ كونتا يرسم مرارا وتكرارا هذه الخطة على تراب ارضية كوخه ويدرسها بكل عناية. ولم يلبث ان دوى فجأة نباح كلبه فتطايرت الافكار من رأسه، ووقف على منصته، وراح يصرخ ملوحا بذراعيه ليطرد القردة الكبيرة التي استجمعت شجاعتها واندفعت من وسط الاعشاب المتنامية في جوار الحقول لتختطف بعض الفول السوداني ثم تكر راجعة الى الاختفاء في الآجام. وقد شنت القردة غارتين أخريين من هذا الطراز في تلك الليلة، ولاحظ كونتا أن جرأتها قد ازدادت مع اقتراب الفجر.

وما ان لاحت في المشرق خيوط الضوء الاولى حتى جمع كونتا اسلحته وحمل بلطته وهبط ارضا وقد تصلبت أطرافه قليلا، فبادر الى تليينها ببعض الحركات، ثم انطلق على طول ضفة النهر نحو دغل من أشجار المانغروف لعله يجد فيه ما يلزمه من خشب. ومر خلال الاشجار الاولى المتناثرة من دون اكتراث، علما منه بان الناحية الكثيفة من الدغل تتيح له مجالا أكبر للاختيار. وعندما بلغ مقصده أسند أسلحته وبلطته الى شجرة ملتوية الجذع، وأخذ ينتقل هنا وهناك ويجيل النظر بحثا عن الجذوع.

وبلغ أذنيه صدى غصن جاف يتكسر بعنف ويعقبه طائر يطلق صوتا قصيرا حادا، فخيل اليه في اول الامر ان كلبه يعود على أثر تعقبه ارنبا بريا، ثم فطن الى ان الكلب لا يقوى على كسر الاغصان الجافة، فاستدار فجأة ليرى وجها شاحبا مختلط الملامح يندفع صوبه، ولمع فورا في ذهنه شيئان: التوبوب وسلاحه البعيد عن متناول يده.

وساوره القلق: "يخطفونني... يأكلونني؟" وانطلقت قدمه الى أعلى فأصابت التوبوب في بطنه، لكن شيئا ثقيلا من الخلف هوى محتكا برأسه ثم هبط على كتفه فانفجر منه الالم. واذ بالتوبوب الذي ركله كونتا ينحني ويهوي الى الامام، وما ان استدار كونتا وهو يضرب بقبضتيه حتى رأى رجلين أسودين من "السلاتي" (مساعدي البيض) يصحبهما توبوب

آخر ينقض بهراوة قصيرة غليظة، تفاداها كونتا بوثبة جانبية خاطفة.

واندفع الاسودان نحوه، وكان عقله يتوجع في طلب السلاح، أيا يكن السلاح - فوثب كونتا فيهما يخدش هذا وينطح ذاك ويكيل الضربات لكليهما بركبته يحاول قلع عيونهما باصابعه، واذ سقط الثلاثة معا ارضا هبطت على ظهره ضربة هراوة أخرى واندفعت ركبة تسحق كليتيه حتى شهق من الألم. والتقى فمه المفتوح بلحم فأطبق عليه أسنانه يقطع ويمزق، ووقعت أصابعه على وجه فأغار أحدها في عين تلمسها، ثم أحس بضربة هراوة ترطم رأسه، فدارت به الدنيا وتناهى الى سمعه صوت كلبه يعوي مستنجدا، فهب واقفا وهو يتلوى ويبدي حركات سريعة ليتفادى الضربات، وقد نزف رأسه بغزارة، ولمح واحدا من التوبوب واقفا قرب الكلب الذي تحطمت جمجمته.

واتقد غيظ كونتا، فهجم على التوبوب وكاد ان يختنق من رائحة هذا الرجل الكريهة، وحاول في استماتة ان ينتزع منه الهراوة. وراح يؤنب نفسه: لماذا لم يسمعهم؟ ولم يحس بهم؟ ولم يشم رائحتهم؟ ولاحت لعينيه في لحظة خاطفة صورة أسرته وكل أهل جوفوري، وتذكر ان المحارب الذي يموت وهو يقاتل بشجاعة يصبح في عداد الاسلاف النبلاء. وعاودته تفاصيل الاعمال التي انجزها خلال أعوامه الستة عشر. وثار على ضعفه علما منه بأنه يقاتل في سبيل شيء أعظم من حياته. ثم نزلت هراوة التوبوب الثقيلة بضربة مباشرة فوق أذنه وصدغه، افقدته صوابه.

زورق التوبوب

عاد كونتا الى وعيه بالتدريج وبجهد كبير، ليجد نفسه محكما، معصوب العينين وقد قيد معصماه قيدا شديدا خلف ظهره وربط كاحلاه الى بعضهما بحبل آخر. ورفعه مجهول ليقف على قدميه، وأحس بعصي حادة تنخسه لتحثه على السير وهو يتعثر في خطاه، وما ان بلغ ضفة النهر حتى دفعت به يد عنيفة الى داخل الزورق. وعندما رسا الزورق، عاد الى السير مرة اخرى حتى بلغ مع آسريه في تلك الليلة معسكرا حيث ربط الى عمود خشبي سميك ثم رفعت عصابته عن عينيه، وتركه آسروه وحيدا على تلك الحال. ومع اشراق الفجر استطاع كونتا ان يرى أسرى آخرين مثله مشدودين الى أعمدة مشابهة، كانوا ستة رجال وثلاث فتيات وطفلين وقد انتشرت على أجسامهم العارية الدماء والرضوض من ضرب الهراوات.

وجنّ جنون كونتا واخذ يراوح اماما وخلفا محاولا فك قيوده، لكن ضربة شديدة اخرى عادت فأفقدته الوعي. وحين استعاد حواسه مرة اخرى وجد نفسه عاريا ايضا وقد حلق شعر رأسه ودهن جسده بزيت النخيل الاحمر. وبعد برهة قصيرة، قدم الى المعسكر اثنان من التوبوب لم يرهما من قبل، احدهما قصير بدين أبيض الشعر. وجاء السلاتي (المعاونان الاسودان) وقد انتشر على ملامحهما ابتسام بشع فحلاّ ميثاق الاسرى وجمعاهم في صف واحد. واشار الرجل الابيض الشعر

الى كونتا، فصرخ كونتا رعبا حين شعر بأحد السلاتي خلفه وهو يرغمه على الركوع ويجذب رأسه الى الخلف: وتقدم التوبوب الابيض الشعر بهدوء ففتح شفتي كونتا المرتعشتين وفحص اسنانه. وعاد كونتا مرغما الى الوقوف بينما راحت اصابع التوبوب تستكشف عينه وصدره وبطنه، ثم امسكت الاصابع بعضوه التناسلي، وأخيرا ارغمه اثنان من السلاتي على الانحناء بشدة، واحس مرتعبا بيدي التوبوب تباعدان بين ردفيه الى أقصى حد.

ومضى التوبوب الابيض الشعر يجري فحصا مماثلا لسائر الاسرى واحدا تلو الاخر، ولم يتورع عن فحص مواطن العضة في اجساد الفتيات. ثمّ اشار الى احد التوبوب الآخرين الموجودين في المعسكر ليقترب ولوّح باصبعه مشيرا الى اربعة رجال - منهم كونتا - وفتاتين.

وعاد كونتا يكافح من جديد وهو يزأر غضبا حين امسك به السلاتي السود ثانية ودفعوه الى الجلوس وظهره محنى الى الأمام. وعاوده الرعب وهو يرى احد التوبوب يسحب من النار قطعة طويلة رفيعة من الحديد، وفيما هي تحرق ظهره ارتفع صراخه وهو يتلوى في عنف، ولم يلبث المعسكر ان ردد اصداء صرخات الآخرين الذين وقع عليهم الاختيار. ثم جيء بزيت النخيل الاحمر فدهنت به علامات الحرق البيضاء التي بدت على الظهور في حرفي "ل.ل".

وبعد ايام قلائل، مشى الاسرى جميعا وهم مربوطون معا في صف واحد، تحثهم هراوات السلاتي التي تهبط فورا على اي شخص يتباطأ. وقد اكتسى ظهر كونتا وكتفاه بالرضوض والدماء حين وضع الاسرى في قوارب انطلقت بهم مجاديفها في حلك الظلام. وما ان ابصرت عينا كونتا ذلك الهيكل الداكن الضخم الذي يتوجهون نحوه ثار من جديد على قيوده، فأخذت ضربات الهراوات الثقيلة تتهاطل عليه كالمطر بينما كان القارب يصطدم بجانب الهيكل، ثم سمع صيحات كثرة من التوبوب تأتي من أعلى، والتفت حوله حبال عجز عن مقاومتها، ووجد نفسه يرتفع نصف مدفوع ونصف مجذوب على سلم من الحبال.

ولمح كونتا في ضوء المصابيح الظليل الضارب الى الصفرة ذلك التوبوب القصير البدين الأبيض الشعر يدون بهدوء ضربا من العلامات في دفتره، ثم وجد نفسه مدفوعا على نزول درجات خشبية فكادت ان تزل به قدمه، وادت به الى مكان حالك الظلام تتصاعد منه رائحة العفن بما لا يتصوره العقل، ودوت أذناه بأنات الكرب الصادرة عن مجموعة كبيرة من الرجال. وجاءته دفعة عنيفة رمته الى اسفل راقدا على ظهره، فتوهم للحظة خاطفة انه يحلم، ثم تداركته رحمة الوقوع في الغيبوبة.

"أعنّي يا الله!"

لم يكن كونتا يصحو من غيبوبته حتى اخذ يسائل نفسه عما اذا كان قد مسه الجنون. فها هو يرقد عاريا بين رجلين اخرين تهزه الرجفة وتكبله السلاسل في ظلام دامس يطفح بالحرارة ورائحة العفن ويسوم جنباته كابوس مروع تختلط فيه اصداء

البكاء والصلاة والقيء. واحتك خده بجلد جرذ سمين فاندفع برأسه الى اعلى، واذا به يصطدم بسقف لا يكاد ارتفاعه يزيد على ثلاثين سنتيميترا. واصابته الصدمة بدوار فشهق الما وتكوم في مكانه يشتهي الموت:

"انني اسير مثل الفهد الواقع في الفخ!" واخذ يقاوم الهلع، وظن ان هذه الظلمة الكريهة تضم كثيرا من الرجال المكبلين بالسلاسل على رفوف هذه الالواح الخشنة، وربما كان بعضهم يرقد على رفوف يقل علوها عن الرف الذي يرقد عليه. وسمعهم يتحدثون بخليط من اللغات، منها: الفولاني والسيريري والوولو والماندينكا. وكان الرجل الراقد الى يمينه والمقيد اليه من رسغه وكاحله يهمهم لنفسه في غضب بلغة الوولوف، اما ذلك الراقد الى يساره فلم يكن يصدر عنه سوى أنين مستمر.

ورقد كونتا فترة ينتحب وقد تخدر عقله وعلى رغم عجزه عن الجثو، او عن الاهتداء الى ناحية الشرق، الا انه اغمض عينيه وتضرع الى الله ملتمسا منه العون.

وكانت الظلمة التي تلفه في قاع السفينة الضخمة لا تتيح له ان يعرف ما اذا كان الوقت نهارا ام ليلا، الا عندما تنفتح الكوة في أعلى الدرج ليهبط منها عادة أربعة من التوبوب، اثنان منهم يحملان السياط والمصابيح والآخران يدفعان بأواني الطعام عبر الممرات فوق الاقذار

المتراكمة بين الرجال المقيدين بالسلاسل الى بعضهم البعض. غير ان كونتا اطبق فكيه في تحد عنيد، مفضلا ان يموت جوعا، حتى بلغت الام معدته حدا اصبح الجوع معه عذابا لا يقل هولا عن الامه الاخرى.

وبعد ايام، التقطت اذنا كونتا، على اثر وقت الطعام، صدى تردد فوق رأسه من خلال الواح الخشب، وكأنه اقدام كثيرة تتحرك بسرعة جيئة وذهابا، ثم بلغه صرير شيء ثقيل يندفع ببطء الى اعلى. ولم تلبث احشاؤه ان تقبضت فزعا حين ادرك: "ان هذا المكان يتحرك ليمضي بنا بعيدا!"

وفجأة، تملكت الاسرى المقيدين في قاع السفينة نوبة عنيفة من الصراخ، وراحوا يضربون رؤوسهم بألواح الخشب ويخشخشون بسلالهم. وصاح كونتا وسط هذا الهرج والمرج: "يا الله، اسمعني! ساعدني!". وحين بح صوته من الصراخ، ظل عقله يصرخ في غيظ وعجز: "الموت للتوبوب!"، ثم همد في مكانه اعياء واخذ ينتحب.

وحين ارتفع صرير الكوة ايذانا بفتحها مرة اخرى، ترددت في ذهنه جملة قالها الكينتانغو ذات مرة: "يجب على المحاربين ان يتغذوا جيدا كي تتوافر لهم قوة كبيرة". ورأى ان الضعف الناتج من الجوع لن يتيح له ان يقتل التوبوب ولذلك، فعندما وضع الى جانبه وعاء الصفيح هذه المرة، دفع كونتا بأصابعه في العصيدة السميكة من دقيق الذرة المغلي وزيت النخيل، واخذ يبتلعها على مضض قبضة بعد اخرى حتى احس بالطعام وقد اصبح مثل الكتلة المتحجرة في بطنه، ولم تلبث ان اصابته نوبة عنيفة من القيء المتكرر.

رقصة الموت

وتوالت الايام على الاسرى وهم مقيدون في قاع السفينة، فتراكمت عليهم الاقذار من قيئهم وافرازاتهم وبرازهم وهم يئنون بلا حول ولا قوة، وتكاثر عليهم القمل بالملايين واصبح يزحف من حولهم في كل مكان. واخيرا، هبط من الكوة ثمانية من التوبوب العراة وهم يشتمون ويلعنون بأصوات عالية، وكانوا يحملون بدلا من الطعام فؤوسا طويلة الايدي ودلاء كبيرة، ومضوا يتحركون كل اثنين معا على طول الممر وهم يمدون فؤوسهم الى رفوف الاسرى ويجرفون بها الاقذار المتراكمة ليجمعوها في الدلاء. بيد انهم حين انتهوا من مهمتهم لم يبد اي فرق في مستوى الرائحة الكريهة الخانقة التي تملأ بطن السفينة. وبعد ذلك بفترة قصيرة نزل عدد كبير من التوبوب، قدر كونتا انه يبلغ العشرين من قرقعة اقدامهم على الدرج. وكان بعضهم يحملون سياطا وبنادق، تلك الاسلحة المعدنية التي ينطلق منها النار والدخان والتي طالما سمع كونتا اخبارها من الناس وهم يتحدثون عن التوبوب في جوفوري. وتجمعت في احشائه عقدة من الخوف حين بلغت اذنيه الاصداء المعدنية الغريبة، واعقبتها قعقعة ثقيلة. وفجأة، فكت قيود الكواحل وبدأ كاحله الايمن يرتجف. ثم بدأ التوبوب يصيحون ويضربون بالسياط من حولهم. وسمع كونتا اصوات الاسرى يتوسلون

بلغاتهم المختلفة الى التوبوب كي لا يأكلوهم.

وبدأ الرجال يتحركون كل اثنين معا مقيدين من معصميهما، وينزلون من الرفوف الى الممرات زوجا وراء زوج، وتقبضت عضلات كونتا التي طال خمولها بالالم، وتلقى هو وزميله في القيد دفعات وركلات في الظلام. وحين تعثر وهو يصعد الدرج، صدمه ضوء الشمس بقوة كالمطرقة فأعماه. وتلمس طريقه الى الامام، وفتح شفتيه المشققتين وهو ينهل هواء البحر المالح فتقبضت رئتاه واوشك على الاختناق. وهوى فوق سطح السفينة مع رفيق قيده الذي ينتمي الى قبيلة "الوولوف".

وبدا التوبوب في النور اكثر بشاعة وشحوبا من شكلهم في جوف السفينة المظلم، وظهرت الوان شعرهم الطويل الاصفر والاسود او الاحمر، بل كان لبعضهم شعر ايضا حول افواههم وتحت ذقونهم وفي وجوه بعضهم الآخر واجسادهم ندوب قبيحة من آثار الطعن بالمدى والنصال، وبينهم من فقد احدى يديه او احد اطرافه او احدى عينيه، كما كانت تنتشر على ظهور الكثيرين منهم ندوب متقاطعة عميقة من اثار السياط. وكان عدد كبير من التوبوب يقفون على مسافات متساوية على طول اسوار السفينة وهم يحملون سيوفا او بنادق. والتفت كونتا فرأى حاجزا عاليا من الخيزران ممدودا بعرض السفينة الضخمة، وقد برزت عند وسطه فوهة مدفع سوداء.

وللمرة الاولى تمكن كونتا من مشاهدة فريقه الوولوف في النور. وكان الرجل في مثل حاله، هو، قد اكتسى جسده بطبقة سميكة من الاقذار الجافة، وكان الصديد ينزف من الدمغة التي طبعت على ظهره بحرفي "ل.ل". وأجال كونتا نظره في ما حوله فرأى رجالا اخرين، وقد اشتد بهم العناء.

ثم ربط الاسرى بالسلاسل معا من خلال قيود كواحلهم مجموعات تضم كل منها عشرة افراد، واغرقوا في اغتراف الدلاء من ماء البحر، بينما راح التوبوب يحفون اجساد الرجال العارية بفراش مستطيلة الايدي. وصرخ كونتا متألما حين مسه ماء البحر فلسعه كالنار في آثار السياط المنتشرة في جسده، ثم صرخ مرة اخرى فاخذت الجروح تنزف من جديد. عندما راحت شعرات الفرشاة الغليظة تمزق القرف (قشور الجروح) اللاصقة بظهره وكتفيه، وجمع كونتا ورفاقه وسيقوا كالقطيع عائدين الى منتصف متن السفينة، حيث انهاروا على الارض رعبا في كتلة واحدة.

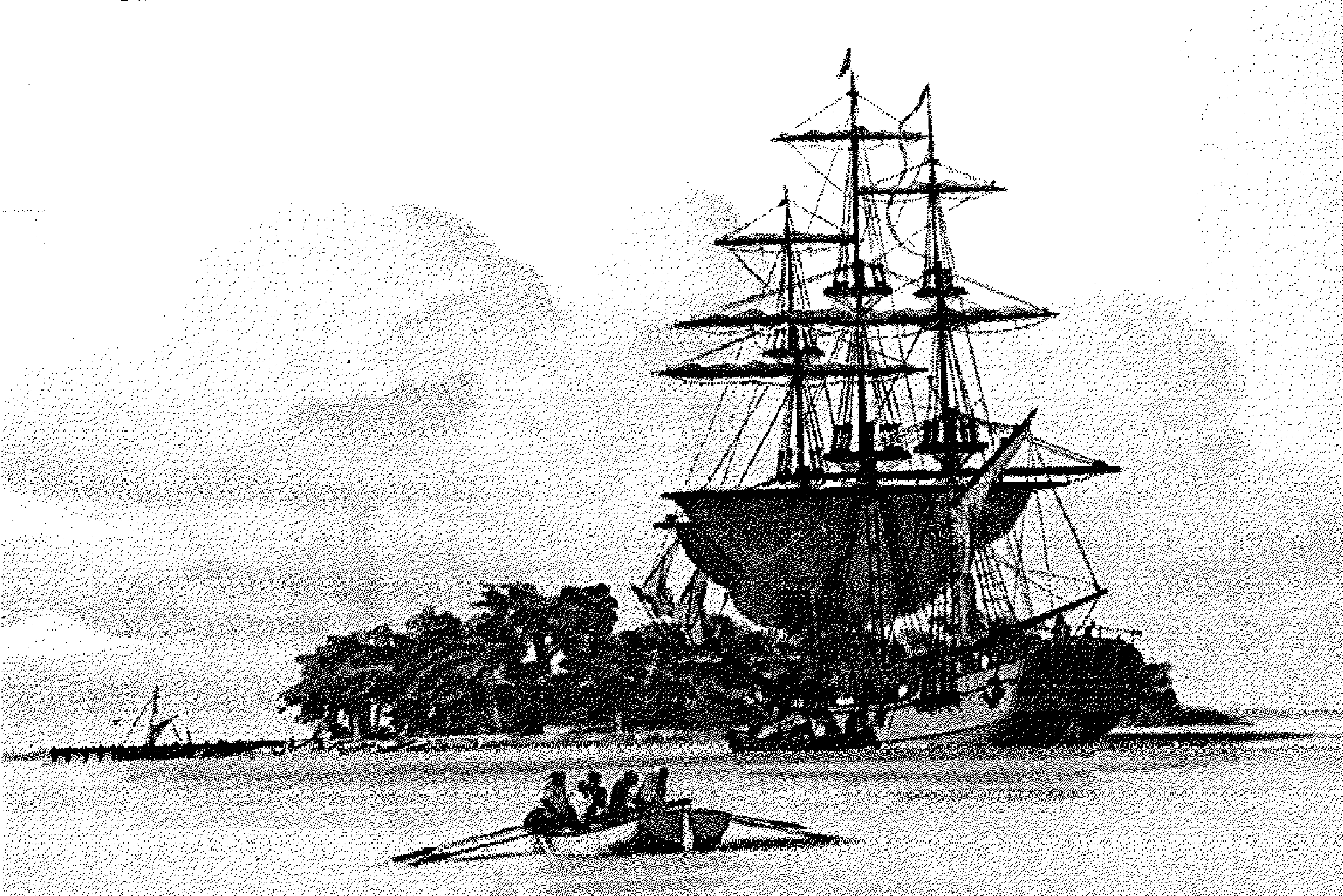
وعلا فجأة صراخ نساء لم يلبث ان هزّ دهشة الرجال المقيدين فهبوا واقفين، ورأوا قرابة عشرين امرأة يقبلن راكضات من خلف الحاجز وهن عاريات وبلا قيود. ولاحظ كونتا في ثورة من الغضب ان التوبوب ينظرون شزرا اليهن بخبث ووقاحة. ثم اخذ احد التوبوب الواقفين قرب سور السفينة ينشر ويطوي بين يديه شيئا غريب الشكل تصدر عنه موسيقى صافرة، وراح اخر يدق على الطبل، بينما مضى توبوب اخرون يقفزون قفزات قصيرة على ايقاع دقات الطبل وهم يلوحون للرجال المكبلين الذين صعقهم الرعب بان يفعلوا مثلهم.

وفجأة ، صرخت كبرى النساء بلغة الماندنيكا: "اقفزوا! اقفزوا حالا واقتلوا هؤلاء التوبوب!"، وراحت المرأة تثب وتنطلق ذراعاها بحركات رقصة المحاربين. وعندما استقر مغزى كلام المرأة في نفوس المكبلين بدأوا يثبون زوجا بعد اخر في ضعف متعثر وسط جلبة السلاسل وقرقعتها وهي تصطدم بسطح السفينة. واحس كونتا ان ساقيه لم تعودا تحملانه واصبحتا كالعجينة اللينة تحته وهو يستمع الى غناء النساء من دون ان يتبين ما يقلنه بوضوح، ثم ادرك فجأة انهن يقلن في غنائهن ان التوبوب كانوا يأخذونهن الى اركان السفينة المظلمة ويقضون معهن وطرهم. وصاحت النسوة "الموت للتوبوب!" ورحن يثبن الى اعلى في عصبية متشنجة، بينما يصفق التوبوب ضاحكين مهللين.

"يجب ان نصبح قرية!"

بعد ان عاد كونتا الى قيده وسلاسله في قاع السفينة الناضح برائحة العفن، لاحظ بالتدريج ان هناك اصواتا تتهامس في الظلام. وكان قد تبادل من قبل مع زميل قيده (رجل الوولوف) همسات حذرة بين حين واخر، فتعلم الواحد منهما بضع كلمات من لغة رفيقه كما يتعلم صغار الاطفال من فئة الكافو الاولى كلمات بعضهم بعضا. اما الآن وقد شاهد كل من الرجلين زميله في ضوء النار، فقد اصبح لهمسهما صفة جديدة، وكأنما نشأ بينهما للمرة الاولى احساس بالاخوة.

ومع ازدياد التفاهم بين الرفاق في محنة الاسر، تكاثرت الاسئلة بينهم في الظلام. وكان احد الاسئلة: "كم هي المدة التي قضيناها هنا؟" فأفضى ذلك الى تخمينات كثيرة،



حتى تمكن احد الرجال اخيرا من احصاء اضواء النهار التي كان يراها خلال فتحة صغيرة للتهوية، فقال انه قد عدّ ١٨ يوما منذ تحرك المركب الضخم واستعلم البعض عما اذا كان في قاع السفينة احد ينتمي الى القرى التي جاؤوا منها واوشك كونتا ذات يوم ان ينفجر اهتياجا عندما نقل اليه زميله الوولوف سؤالا عما اذا كان على السفينة احد من قرية جوفوري.

فهمس لاهثا: "كونتاكينتي!" وبقي متوترا ينتظر طوال الساعة التي استغرقتها عودة الرد: "نعم. لقد كان ذلك هو الاسم. فقد سمعت الطبل يعلن الحداد عليه في قريته". واخذ كونتا ينشج منتحبا حين سمع ذلك، وعقله يتمثل اسرته وهي تنتحب وتندب ابنها كونتا كينتي، الذي غاب عنها الى الأبد.

كيف يمكن مهاجمة التوبوب على المركب الضخم وابادتهم؟ وكم هو عددهم؟ لقد انقضت ايام كاملة في توجيه هذه الاسئلة والبحث عن اجابات عنها. وفي النهاية جاءت المعلومات المجدية من اغاني النساء في اثناء رقص الرجال في سلاسلهم على متن السفينة. فأفادت النساء ان هناك قرابة ٣٠ توبوب باقين في السفينة، بعد ان وضع خمسة من موتاهم في قماش ابيض خيط عليهم قبل ان تلقى جثثهم في المياه الزرقاء التي لا نهاية لها. وثار الجدل حول طريقة قتل التوبوب. واراد البعض ان يهاجموهم في المرة التالية عندما يساقون الى سطح المركب، بينما رأى اخرون ان من الحكمة التزام اليقظة والتريث. وتفاقم الخلاف المرير في الظلام المفعم بالرائحة الكريهة، حتى رن ذات يوم صوت رجل كهل يقول: "اصغوا الي! على رغم اننا ننتمي الى قبائل مختلفة ونتحدث لغات مختلفة، الا اننا يجب في هذا المكان ان نتحد معا وكأننا قرية واحدة! وعلينا ان نكون كرجل واحد خلف قائدنا!" وحين سمع الجميع ذلك، ترددت همهمات التأييد والموافقة في باطن السفينة المظلم.

وتزعم رجل رهيب الشكل من الوولوف الرأي القائل بشن الهجوم على التوبوب فورا. وقد سبق للجميع ان رأوا وجه هذا الرجل على ظهر السفينة وهو يرقص بعنف في سلاسله ويكشر عن اسنانه الحادة المسنونة في وجه التوبوب الذين صفقوا له وهم يحسبونه يبتسم لهم.

اما المجموعة التي رأت وجوب التريث والاعداد اليقظ، فقد تزعمها رجل من الفولا كئيب السحنة يمتلىء ظهره بندوب السياط. ولم يكن لدى كونتا ادنى شك في قدرة رجل الوولوف الجريء الوحشي الهيئة على قيادة جيش بأكمله، ولكنه أيد اختيار رجل الفولا، لأن من الحقائق التي يعرفها الجميع ان اي رجل من الفولا على استعداد لان ينفق سنوات طوالا - بل وان ينفق عمره بكامله - كي يثأر لنفسه ثأرا قاصما اذا ما اصابه ظلم جسيم.

ولم يطل بهم الوقت حتى سيقوا مرة أخرى الى سطح السفينة، حيث حاولوا، اطاعة لامر رجل الفولا، ان يتظاهروا في تصرفاتهم بالرضا كي يخفف التوبوب من حذرهم. وعلى

رغم ذلك فقد انتاب القلق كونتا خشية ان يحس التوبوب بالفرق المتزايد في طريقة رقصهم، لأنهم لم يعد في مقدورهم الآن ان يمنعوا اجسامهم من عكس الخواطر التي تدور في أعماق اذهانهم. ولم يبد على التوبوب المبتسمين ما يدل على ان الشك قد تطرق الى نفوسهم.

وذات يوم وهم على سطح السفينة، جمد كونتا دهشة في مكانه وهو يرقب الاف الاسماك تطير فوق سطح الماء مثل الطيور الفضية، حتى انتزعته من تأمله فجأة صرخة عالية مثل صرخة الحيوان، فدار على عقبيه بسرعة ليرى رجل الوولوف العنيف وهو ينتزع البندقية من احد التوبوب ويلوح بها في الهواء كأنها هراوة، ثم يهوي بها على رأس التوبوب في ضربة عنيفة تناثرت لها جمجمته. واستمر الوولوف يزأر في غضب وينقض ضربا على التوبوب الآخرين الذين تجمعوا من حوله ليهاجموه، حتى لمع في الهواء نصف سيف، وسقط رأس رجل الوولوف منفصلا عن جسده، ثم انفجرت ماسورة المدفع السوداء الضخمة بزئير كالرعد وخرجت منها موجة من الحرارة والدخان فوق رؤوس الرجال المقيدين، فصرخوا وتساقطوا فوق بعضهم البعض في كومة يضمها الخوف والارتعاب.

وارتفعت صيحات التوبوب وهم يسارعون بدفع الاسرى المقيدين نحو الكوة ببنادقهم وسيوفهم. وقبل ان يدرك الرجال ما حدث، وجدوا انفسهم مرة اخرى في بطن السفينة مقيدين بالسلاسل في أماكنهم المظلمة، وقد اطبقت عليهم فتحة الكوة. وانقضت فترة طويلة قبل ان يجرؤ احد حتى على الهمس. وامتلأت نفس كونتا بالمرارة وهو يتساءل: لماذا لم تصدر الاشارة بالهجوم. واتضح من الهمهمات المطردة الارتفاع حوله ان كثيرا من الرجال يشاطرونه افكاره. ولم تلبث الكلمة ان جاءت من رجل الفولا بان الهجوم سيجري في المرة المقبلة عندما يساقون الى سطح السفينة لغسل ابدانهم.

ولكن كونتا سمع في تلك الليلة صوتا جديدا يأتيه من سطح السفينة، فاعتقد ان الرياح العنيفة تتلاعب بقطع القماش الكبيرة البيضاء (القلوع) المنتصبة فوق السطح بشدة تفوق المعتاد، ثم بلغ سمعه صوت آخر وكأن قطرات المطر تطرق سطح السفينة. وبدأت السفينة الضخمة تتأرجح وترتج بلا انتظام. بينما تعالت من الرجال صرخات الالم مع احتكاك اكتافهم واذرعهم والياتهم المتقرحة الدامية بالالواح الخشنة.

وشعر كونتا وهو على حافة الغيبوبة بصوت الماء يتسرب بكميات كبيرة الى جوف السفينة، واعقبت ذلك طرقات الخطوات، وتلاها صدى صوت اشبه بقماش ثقيل ينسحب عبر السطح، الى ان انخفض صوت الماء المتساقط عندما غطيت الفتحات. ولكن الحرارة والرائحة الكريهة اصبحتا محصورتين في جوف السفينة، فأخذ كونتا يشهق مكافحا كي يتنفس وقد انتابه الغيثان.

وعاد الى وعيه في تلك الليلة ليجد نفسه فوق سطح السفينة وهو يتنفس

باضطراب هواء البحر المنعش. ورأى في ضوء المصابيح بعض التوبوب وهم يصعدون متعثرين خلال الكوة لانـزلاق اقدامـهـم فـي الـقـيء، ويسحبون اجساما هامدة مقيدة على السطح ليلقوا بها على الارض قريبا منه. وكان المركب الضخم لا يزال يتأرجح بشدة تعذر معها على رئيس التوبوب الابيض الشعر ان يحافظ على توازنه وهو يدقق فاحصا الاجسام الملقاة على السطح، وكان يشتم ويلعن بمرارة في بعض الاحيان، ويصرخ آمرا، فيأتي توبوب آخرون يسحبـون جسـدا هامـدا الـى سـور السفينة ويلقون به في المحيط. فقد لقـي اولئـك حتفهـم فـي الجحيـم السفلي، وقد حسد كونتا على هذا المصير.

الهذيان

صفا الجو مع بزوغ الفجر، فاجال كونتا النظر حوله بتثاقل ليرى رفاقه الاسرى مستلقين على سطح السفينة وبينهم كثيـرون تنتابهـم تقلصـات شديدة، وكان رئيس التوبوب يتنقل بين الرجال المكبلين بالسلاسل ليضع الادهنة والمساحيق على جروحهم، ويفتح في بعض الاحيان افواه الرجال عنوة ليدفع الى حلوقهم بسائل من قنينة سوداء، وعندما اقترب التوبوب من كونتا ليضع شيئا كالوهن على جسده حول كونتا نظره الى الناحية الاخرى، مفضلا لسع السياط على ملمس هاتين اليدين الشاحبتين.

وقضى الايام التالية في ضباب من الالم والمرض، مستلقيا في مكانه من قاع السفينة وسط الاقذار وهو لا يعرف ما اذا كانت قد انقضت عليه في احشاء سفينة التوبوب اشهر او عام بأكمله، لان الرجل الذي كان يعد الايام مات كما مات رفيقه في القيد، وجاء التوبوب ففصلوه عن كونتا وسحبوا جسده المتصلب الى حيث لا احد يدري. وظل كونتا راقدا وقد شل الخوف والصدمة جسده، ومضى يصرخ في الظلمة: "الموت للتوبوب!" بعد ان بلغ المرض والضعف منه مبلغا لم يعد يكترث معه كثيرا لقتل أي شخص.

وطرأ حادث جديد عندما اصبح عدد من الرجال الذين في بطن السفينة يصرخـون صرخـات اليمـة مخيفـة، ويخرج من امعائهم خليط من كتل الدم والمخاط الاصفر السميك. وحين اقبل التوبوب الذين يحملون الطعام ورأوا وشموا للوهلة الاولى رائحة هذا الافراز العفن، بدا عليهم الاضطراب الشديد. وبعد بضع دقائق هبط رئيس التوبوب، وفـي فمـه كيـس كافـور يمسك به بين اسنانه الا انه لم يلبث ان انتابه الغثيان، واصدر اوامره باشارة حادة من يديه فحمل اعوانه المرضى الجدد الى اعلى من خلال الكوة.

ولكن ذلك لم يجد فتيلا، لان عدوى الافراز الدمـوي انتشـرت بسرعـة، ونقلت معها الى معظم الرجال آلاما شديدة في الرأس والظهر وحمى ملتهبة ورعدة مرهقة. وحين احس كونتا بالاحتراق الفظيع في امعائه انفجرت مـن حلقـه صرخـات الالـم لتضيف المزيد الى الضجيج الرهيب المتصاعد من بطن السفينة. وانتابه الهذيان فاخذ يصيح باسماء ابيه وجده: "عمر - عمر ثاني الخلفاء هو الثالث بعد محمد رسول الله القريب

الى الله، القريب الى الله رجل الاسلام".

ودرجت العادة في كل يوم ان يسحب المرضى المقيدون بالسلاسل الى الهواء الطلق على سطح السفينة بينما يحمل التوبوب دلاء ملأى بالخل والقار المغلي لتبخير بطن السفينة. وعلى رغم ذلك فقد كان كل يوم يحمل معه الموت الى شخص او اكثر يلقي بهم في البحر، ومن بينهم احيانا بعض التوبوب.

وذات يوم، عندما صعد كونتا الى النور والهواء، رأى في غير وضوح ان قطع القماش البيضاء الكبيرة (الاشرعة) المنشورة على الاعمدة العالية تبدو متهدلة مرتخية. وكانت الرؤية صعبة، لان عيني كونتا اللتين كانتا حادتي النظر اصبحتا الان ممتلئتين بافراز صمغي اصفر، ولكن المركب الضخم بدا ساكنا تقريبا فوق طبقة من اعشاب البحر الذهبية اللون، بعد دخوله بحر سارجاسو (منطقة في المحيط الاطلسي تسكنها الرياح في بعض الاحيان).

وتوقفت ضربات السياط، عن ظهور الرجال، واصبحوا يحظون بمقدار اكبر من الطعام والماء. وكان بحارة السفينة يجتذبون الاسماك الطائرة كل ليلة بالمصابيح فينالون منها قرابة ٥٠ كليوغراما في كل مرة، يضاف لحمها الى جريش الذرة الذي يقدم الى الاسرى. وعلى رغم ذلك فقد جاء في النهاية وقت عجز كونتا عن الاكل من دون معونة، لان بقايا العضلات في ذراعيه لم تعد تمكنه من رفع يديه لكي يتناول الطعام باصابعه من صحفته. وهنا جاء احد التوبوب فوضع في فم كونتا انبوبة مجوفة واخذ يصب الحساء في طرفها الآخر.

واخيرا بدأ النسيم يهب، وعاد المركب الضخم يشق عباب الماء بصوت كالفوران. ومع مرور الايام احس كونتا بنوع من الاضطراب يسري بين التوبوب. وذات صباح بدا على وجوههم الابتهاج الشديد وهم يندفعون الى جوف السفينة ليساعدوا الرجال المرضى على الصعود من خلال الكوة. وحين تغلب كونتا على انبهار عينيه بضوء الصباح الباكر رأى جميع التوبوب الآخرين يضحكون ويهتفون ويشيرون بأيديهم في فرح بالغ. وظل كونتا يركز عينيه المليئتين بالافراز الصحفي وينظر من بين ظهور رفاقه المليئة بالقشور والقروح والقمل، ثم جمد في مكانه فزعا.

فقد ظهرت له على البعد غائمة كالضباب، قطعة من ارض الله لا تخطئها العين.

ارض "توبوب دو"

حين بدا للعين ميناء كيب هنري في ولاية فيرجينيا ، دخل الكابتن توماس ديفيز، قمرته وبدأ يعرض رحلته بأكملها، وهي اول رحلة يقوم بها كربان بعد سنوات عدة قضاها ضابطا على سفن الرقيق. وكانت الرحلة ايضا هي اول رحلة لسفينته المسماة "لورد ليفونر" التي بنيت قبل اقل من عامين في مستعمرة نيو انغلاند والتي يبلغ طولها ٢١ مترا تقريبا وحمولتها ١٥٠ طنا.

واستخرج الكابتن ديفيز وثيقة من درج مكتبه وأخذ يعيد قراءة امر الابحار الصادر اليه: "اننا نطلب اولا الا يؤخذ من الزنوج الا الشباب

سوني
SONY

KV-2012ME

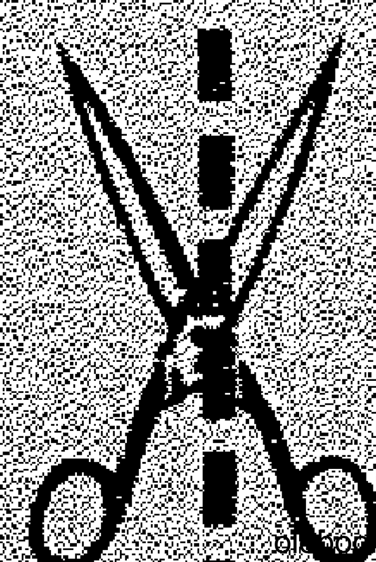
في البداية ترينيترون، والآن بيتاماكس
سوني تعطيك الابتكار العظيم تلو الآخر



SL-8000E
بال / سيكام
للتسجيل واعادة المشاهدة

في البداية انطلقت سوني بتكنولوجيا الفن التلفزيوني الى مستوى جديد بواسطة تلفزيون ترينيترون الملون. هذه التكنولوجيا تقدم لك الآن بيتاماكس، أول مسجل تلفزيوني للبيت. أربط بيتاماكس بجهازك التلفزيوني لتسجيل أي شيء ترغب بمشاهدة عرضه من جديد.
فاذا كان لديك برنامجان مفضلان في نفس الوقت، يمكنك مشاهدة احدهما في الوقت الذي يسجل فيه بيتاماكس الآخر.
ولتسجيل البرامج المفضلة أوتوماتيكيًا وأنت خارج البيت، ما عليك إلا ضبط جهاز الوقت اليومي كما وان بإمكانك مشاهدة عرض التسلية المسجل مسبقًا في أي وقت تشاء. حول غرفة الجلوس الى مسرح في البيت بواسطة الأفلام العادية والرومانسية. والبرامج العائلية من مختلف الأنواع. بيتاماكس يستخدم اصغر فيديو كاسيت واوفره كلفة في العالم. وهو سهل الترضيب والتعامل معه، وبالرغم عن أنه يتسع لشريط أطول من أي كاسيت آخر بالنسبة لحجمه، ويدوم اكثر من ثلاث ساعات.
كما وان جهاز بيتاماكس يو - لودنغ الذي انتجته وطورته سوني، أثبتت التجربة انه الأشد اعتمادًا والاكثر متانة وحمولة اذاعية بين سائر أجهزة التسجيل التلفزيوني.
عشرون عامًا من الاختبار في حقل التكنولوجيا، حققت لك أولًا الترينيترون، وتحقق لك الآن بيتاماكس ... الابتكار العظيم بعد الآخر.

Sony Betamax سوني بيتاماكس
شاهد ما فاتتك مشاهدته



الاصحاء الاقوياء ذوي التكوين السليم والابدان المتينة وثانيا اي شحنات اخرى يمكن ان يوجد لها فراغ بسبب نقص عدد العبيد المأخوذين".

ولما كان الكابتن الابيض الشعر صريحا مع نفسه الى ابعد حد ممكن، فانه لم يجد بعد المراجعة انه قد ارتكب اي خطأ يعتد به. اما العاصفة والمرض، والموت التي اختطفت ٤٢ من الزنوج وعددا من بحارته، فقد رأى انها جميعا امور مرهونة بمشيئة الله. وسوف يعود على اصحاب السفينة ربح ضخم من الـ٩٨ عبدا وعبدة الذين بقوا على قيد الحياة. اما اجره هو فيبلغ ١٢٠٠ دولار يضاف اليها ٣٠ دولارا عن كل عبد يسلمه.

وكان الكابتن ديفيز قد ابحر بسفينته "لورد ليفونر" في البداية من ميناء انابوليس الى ميناء غريفسند في انكلترا بحمولة من شراب الروم لم يجد صعوبة في بيعها، واشترى بجزء من ارباح تلك الصفقة ٤٥٠ مجموعة من اصفاد المعاصم والكواحل، واثنتين وسبعين قطعة من سلاسل القيد طول كل منها ستة امتار، وحديدتين للوصم عليهما الحرفان الاولان من اسم السفينة، وكمية كبيرة من السلع الرخيصة الزاهية الالوان لاستخدامها في التجارة في ساحل افريقيا.

وبعد ان اضاف الى بحارته عددا من الرجال، ابحر بسفينته متوجها الى افريقيا في شهر يوليو (تموز) عام ١٧٦٦. وجهزت السفينة في اثناء الطريق لاستقبال العبيد، اذ رفع النجار فتحات التهوية على السطح وبنى رفوفا طويلة من الالواح في العنبر السفلي، ثم استخدم المسطرة والدهان ليحدد على هذه الرفوف مسافات عرض كل منها ٤٠ سنتيمترا للعبد الواحد. وتولى المدفعي صنع قذائف للمدافع المتحركة، واستخدم الضابط اشرطة من الجلد الخام ليجدل منها كمية من السياط ذات الشعب.

وبعد ثمانية وستين يوما قضتها السفينة في بطء وخيبة لعبور المحيط، رأى الربان ديفيز الارض، ودخل بها في مصب نهر غامبيا حيث دفع ضريبة لملك ايساو الاسود الذي يحكم المنطقة، ثم صعد بالسفينة في النهر حتى رسا بها امام قلعة "فورت سانت جيمس" التي تملكها بريطانيا، والتي كان يشحن منها قرابة ٢٠٠٠ من العبيد سنويا.

وحرص ديفيز بادئ الامر، على ايفاد عدد من رجاله الى الشاطئ لشراء الخشب والقش من اشجار "المانغروف" لكي يقيم منها حاجزا فوق سطح السفينة، يركب في فتحة من احد جدرانه مدفعا متحركا تحوّطا لثورة قد يقوم بها العبيد في عرض البحر. ثم زار الربان عددا من السفن الاخرى الراسية في الميناء، فأنذره ربابنتها بان اسعار العبيد مرتفعة وتبلغ ١٢٥ دولارا للشاب، منهم، وان المعاونين السود لم يعودوا يقبلون الحلى الرخيصة ثمنا لمعاونتهم، وانما هم يصرون على النقود ولا يرضون بغيرها، غير ان ديفيز صمم على الامتناع عن دفع مثل هذه الاسعار الباهظة مؤثرا ان يستوفي ثمن حمولته بسرعة فاختار الاعتصام بالصبر، وشراء عبيده واحدا واحدا بعد التدقيق والتمحيص والاقتصار

على شراء الزنوج الذين يكفلون له الحصول على أعلى الاسعار في انابوليس.

وذهب ديفيز بعد ذلك لفحص بعض العبيد، فاشترى شابين منهم من الطراز الممتاز، ذكر وانثى، وتحمل صراخهما عندما احرقت حديدتا الوصم الجديدتان لحمهما بين الكتفين لدمغ جسديهما بحرفي "لل" رمز السفينة، وحين بلغ بهما السفينة، دون في سجلها العبارة التقليدية التي ترمز الى اول ذكر وانثى في الكون: "آدم وحواء على ظهر السفينة".

واستمر ديفيز يتعامل مع تجار الرقيق من الافراد، ويحصل منهم على العبيد الذين يختارهم، الا ان تعاقب الاشهر قد اضطره الى التعامل على نحو متزايد مع وكالات العبيد الكبيرة الباهظة الاسعار، وكان عددها يبلغ الثلاث عشرة على طول نهر غامبيا، يتولى عادة ادارتها ربابنة سابقون فاشلون ويتولى حراستها خفراء من السلاتي (المعاونين السود). وكانت هذه الوكالات تشتري العبيد باسعار الجملة. فتستولي على مجموعات كبيرة منهم يتم اعتقالها في اثناء غارات تشن على القرى.

وفي آخر شهر مايو (ايار) عام ١٧٦٧ لم يبق لدى ديفيز سوى ١١٨ عبدا، بينما كانت السفينة تتسع لمئتين منهم بحيث يوضع الذكور في العنبر السفلي والاناث والاطفال في المسكن المتصل بالحاجز. وكان عدد من السفن التي وصلت بعد "لورد ليغونير" قد اقلعت للعودة بعد ان استوفت حمولتها من عبيد الدرجة

الثانية. وسوف يبلغ ولا شك نبأ مجيئها وعودتها السريعة اصحاب سفينته الذين سيعجبون عندئذ لتأخره كل هذا الوقت الطويل.

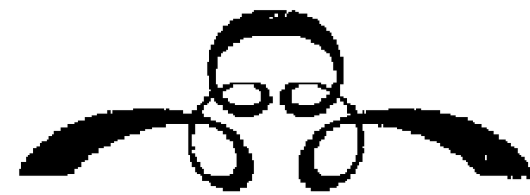
واخيرا، في ٥ يوليو (تموز) بعد ان اشترى ديفيز ٤٢ عبدا آخرين وملأ الاماكن الباقية الفارغة في السفينة بـ١٢٥٠ ناب فيل و١٧٠٠ كيلوغرام من شمع العسل، و٣٥٠ كيلوغراما من القطن و٩٠٠ غراما من الذهب، بادر الى نشر اشرعته وبدأ رحلة العودة، فبلغ ميناء "كيب هنري" في الاسبوع الثالث من شهر سبتمبر (ايلول).

وانكب ديفيز في قمرته على مراجعة حساباته، فوجد ان لديه ٩٨ من العبيد لا يزالون على قيد الحياة، ولن يقل ثمن الواحد منهم عن ٦٠٠ دولار، فيكون مجموع ثمنهم ٥٨٠٠٠ دولار على اعتبار ان سعر الاطفال يقل عن سعر البالغين. ويضاف الى ذلك ١٠٠٠ دولار اخرى ثمن الشحنات الجانبية التي نقلها. واذا طرحت من ذلك اجور البحارة (بمعدل ٥ دولارات للبحار الواحد شهريا) والنفقات النثرية وتكاليف السفينة، فان اصحابها سيحصلون على ربح صاف مقداره ٣٦٠٠٠ دولار. ومعنى ذلك انه قدم اليهم خدمة طيبة، ولا شك في انهم سيمنحونه في المقابل مكافأة طوعية طيبة علاوة على ما يستحقه من اجر. واذا تمكن من القيام برحلات اخرى مثل هذه، فانه لن يلبث ان يصبح قادرا على التقاعد وهو ميسور الحال.

اخذ كونتا يتطلع بعينين نصف مغمضتين الى الارض التي لا تزال غائمة في الافق البعيد وراح جسده يرتعد والعرق يتلألأ على جبينه. وانسابت الدموع فاحالت كل شيء في عينيه الى ضباب رمادي، وغمر جوانحه احساس بالشؤم والتطير من المستقبل.

اذا فان لهؤلاء التوبوب مكانا يلقون اقدامهم عليه ارض "توبوب دو"! وادرك كونتا في اعمق اعماقه ان ما تخبئه له الايام سيكون ولا ريب اسوا من كل ما عاناه من قبل.

القسم الثاني في العدد المقبل



بلغ الرجل اواسط العمر من دون ان يحقق الكثير في حياته. وعلى رغم ذلك، فقد ظل يفاخر اباه الجنرال المتقاعد بقوله: "ان ولدي أفضل من ولدك"، ويفاخر ابنه الطبيب بقوله: "ان ابي افضل من أبيك".

هـ.م. ش.

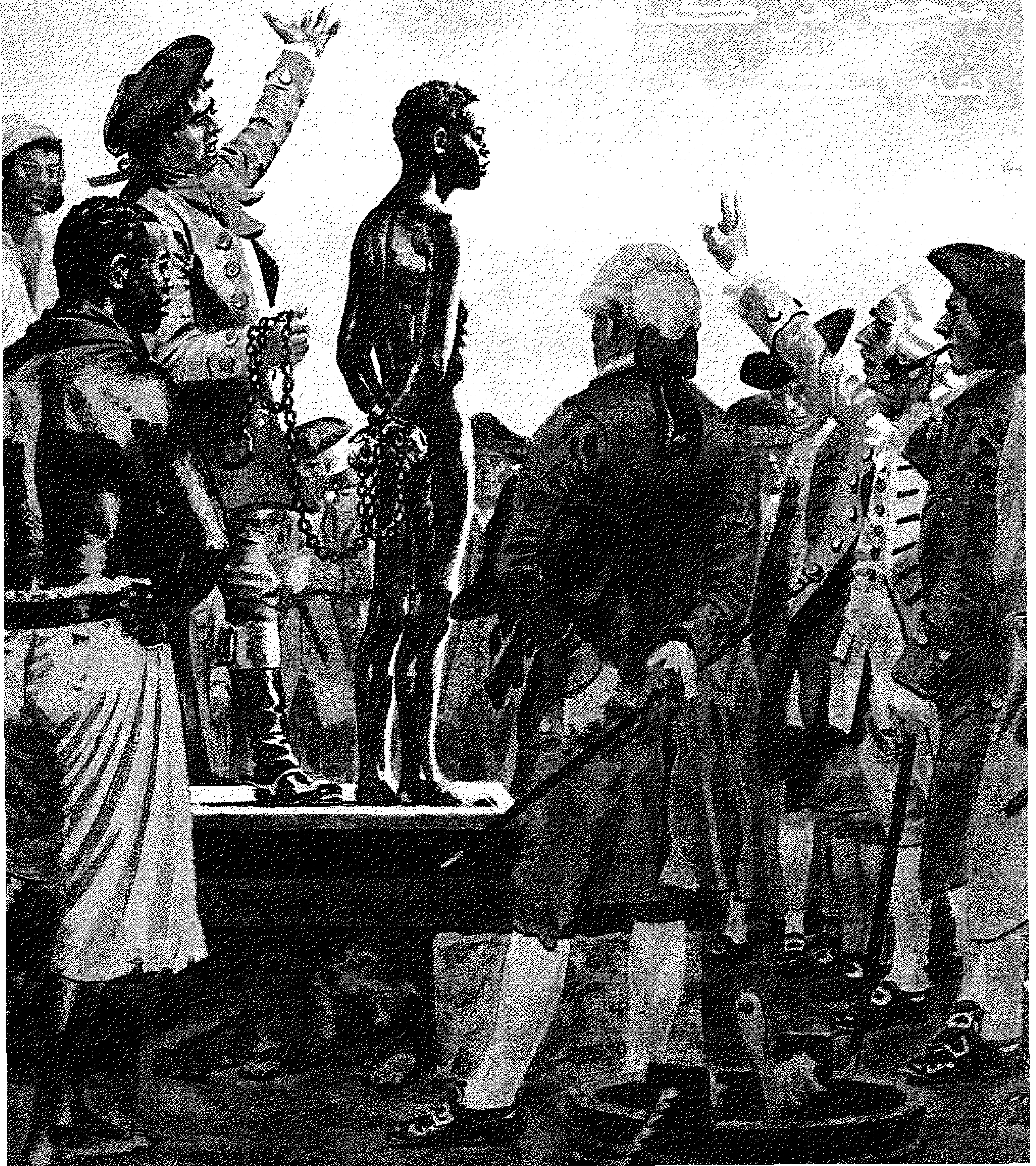
بعد فوات الأوان

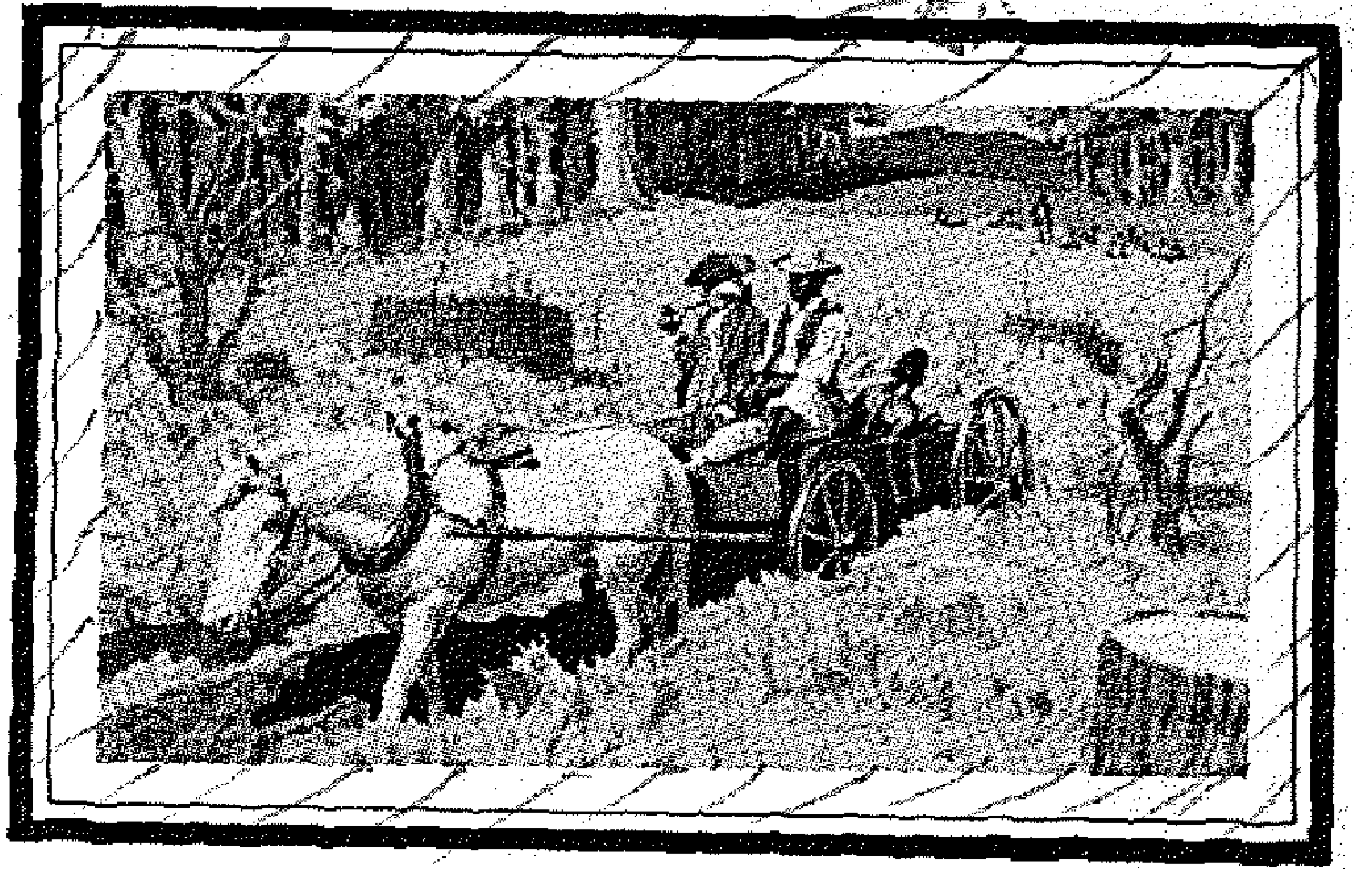
على جدار عال في مدينة ادنبرة في اسكوتلندا اعلان رسمي يقول: "التدخين يعوق نموك". وفي اسفل الجدار، وعلى ارتفاع لا يزيد على ستين سنتمترا عن ارض الشارع، كتب احدهم: "أجئت الآن تعلمني؟"

(مجلة "العالم الضاحك")

كتاب الشهر

الجذور II





الجذور II

ملخص من كتاب بقلم اليكس هيلي

منذ اكثر من عشر سنين، بادر اليكس هيلي الى محاولة طويلة شاقة للاهتداء الى اصل اسلافه. وكان مثله في ذلك مثل سائر الامريكيين السود، لا تتوافر له في البداية سوى مؤشرات واهية تبلغها عن طريق النقل في طفولته. فما كان منه الا ان واصل مساعيه لاستطلاع حقيقة ذاتيته، وراحت الروايات المنقولة عن عائلته القديمة تندرج شيئا فشيئا في موضعها الصحيح بين الوقائع، حتى انتهت به الى وضع كتابه هذا الذي لا تنحصر صفحاته في عرض محنة قاساها رجل فرد، وانما هي في الحقيقة طافحة بصور الملحمة الطويلة الاليمة التي عاشها العنصر الاسود الامريكي.

وفي الجزء الاول من "الجذور"، الذي نشرنا ملخصا له في العدد الماضي (يوليو/ تموز) من "المختار"، تحدث هيلي عن طفولة سلفه كونتا كينتي وصباه في افريقيا، وعن اسره عام ١٧٦٧ على ايدي المتاجرين بالرقيق ومحنة رحلته عبر المحيط الاطلسي في ظلمات احدى سفنهم. ويتناول هذا الجزء الثاني قصة كونتا الشاب في عالم الرقيق الوحشي الغريب، ايام كانت امريكا لا تزال خاضعة للاستعمار.

بلغت السفينة "لورد ليغونير" ساحل ولاية فرجينيا في شهر سبتمبر (ايلول) ١٧٦٧، واقتحمت التيار القوي المتحكم بخليج تشيزابيك قبل ان تتابع رحلتها طوال اربعة ايام الى مقرها النهائي في ميناء انابوليس. وكانت السفينة تنقل في عنبرها الذي يسوده جحيم من القذارة والقمل والوباء، شحنة من السود تضم ٩٨ شخصا اضناهم الضعف وارهقهم السقم، من اصل المئة والاربعين مسترقاً الذين اقلعت السفينة بهم من غامبيا في غرب افريقيا.

وكان هؤلاء يرقدون في الظلام المشبع بالروائح الكريهة ويرتعدون خوفا بعد ان احسوا باقترابهم من ارض التوبوب، الرجل الابيض، واستسلموا لاغلالهم صامتين. وقد ارهف الصمت آذانهم لاستماع طقطقة الاخشاب وصدى اصطدام الامواج ببدن السفينة ووطء اقدام التوبوب عبر السطح.

وظلت السفينة تتأرجح بهم بعنف مستمر على مدى الشهرين والاسابيع الثلاثة التي قضتها في البحر، فتحتك اجسامهم بالالواح الغليظة التي يرقدون عليها، حتى انتشرت القروح الاليمة في ظهورهم واكتافهم تنزف منها الدماء بلا انقطاع.

وقد ضم احد الرفوف المخصصة للسود الشاب كونتا كينتي البالغ السابعةعشرة من العمر.وكان الاسم الذي يحمله موضع احترام واجلال في قريته جوفوري لانه كان اسم جده رجل الدين الطيب الذكر الذي اكتسب شهرة لن تمحي منذ ان توسل طوال خمسة ايام وخمس ليال الى سبحانه تعالى ضارعا اليه ان ينهي الجفاف، فاستجاب الله لدعائه ونجت قرية جوفوري من المجاعة التي تهددتها.

وكان كونتا يعاني مثل الآخرين تسلخا في ظهره في اثناء الرحلة، كما دمغ مثلهم، قبل ان تقلع السفينة، بالحرفين الاولين من اسمها "ل.ل". وقد عانى مثلهم ايضا معاناة رهيبة قسوة سياط التوبوب وانتشار الطفيليات والامراض التي اجتاحت ابدانهم، كما انه - مثل معظمهم - قد واصل الصلاة لكي ينزل الله رحمته عليهم ويضع حدا لفترة رعبهم وعذابهم.

وفي اليوم الرابع، بعد ان برزت الارض في الافق، سيق السود بخشونة الى سطح السفينة حيث جرى تنظيفهم مرة اخيرة بالفراشي الخشنة، ثم دهنت اجسادهم بالزيت حتى بدت لامعة. وعندما رست السفينة، دفع الرجال السود الذين استبد بهم الضعف والمرض وشلهم الخوف، تحت وقع السياط التي لا تكف عن القرقعة، فاجتازوا المعبر الخشبي واستقرت اقدامهم فوق أرض التوبوب. وفارت في نفس كونتا رغبة جامحة مجنونة في الهرب، لكن سياط التوبوب فرضت عليه وعلى المشدودين اليه بالسلاسل رقابة لا تغفل.

وبينما كانوا يجرون اقدامهم في رتل متثاقل امام حشد صاخب يمطرهم بالسخرية والاهانات، لمح رجالا من التوبوب في ملابس انيقة يرقبون السود المكبلين وعلى وجوههم امارات الاشمئزاز. واوشك الا يصدق عينيه حين رأى بينهم مخلوقا لا شك في انه انثى توبوب لها شعر بلون القش الاصفر، ورأى كذلك رجلين من السود، اتضح له ان احدهما من قبيلة الماندينكا والثاني من قبيلة السيريري، وهما يسيران خلف رجل

من التوبوب وقد خلا وجهاهما من كل تعبير. ودار رأسه دهشة وذهولا: كيف يستطيع اثنان من السود ان يسيرا في وداعة خلف احد التوبوب؟

وسيق الاسرى الى مبنى كبير مربع من الطين المحروق فيه قضبان مركبة في الفتحات القليلة الموجودة في جوانبه، وزج كونتا ورفاقه في غرفة كبيرة وقيّد معصماه وكاحلاه هو ورفاقه باغلال من الحديد السميك وقد شدت بسلاسل الى مسامير ضخمة مثبتة في الحائط. وتكوم كونتا خوفا فوق الارض الترابية الباردة وراح يضرع الى الله ملتمسا انقاذه.

وبعد حلول الظلام، تمكن كونتا من رؤية النجوم من خلال احدى الفتحات التي تعترضها القضبان بالقرب منه، فهدأت نفسه قليلا وبدأت الافكار تومض في خاطره كما تلوح الظلال في الحلم. وانتفض فجأة وهو يتذكر اهماله الذي ادى الى اسره وهو يبحث خارج قريته عن قطعة من الخشب تصلح اطارا للطبل، والمسيرة الرهيبة الى النهر حيث كان قارب التوبوب الكبير. وعلى رغم عزوفه عن مجرد القرن بين ذكر اسرته واسم هذا المكان البغيض، الا انه لم يقو على اهمال التفكير في ابيه عمر، وامه بينتا، واخوته الثلاثة الاصغر منه. ثم استغرق في النشيج.

واحس كونتا باقبال الفجر، عندما تردد في رأسه صوت معلمه الكينتانغو وهو يقول: "الرجل الحكيم هو الذي يدرس تصرفات الحيوانات ويتعظ بها". ترى، اهذه رسالة من الله؟ لقد كان كونتا اشبه بحيوان في الشرك. ولكم تمكنت الحيوانات التي عرفها من الفرار من دون ان تضطر الى التخبط في الشراك والاستسلام الى الهياج، بل كانت تحتفظ بقواها في هدوء وصمت حتى تأتي لحظة من الاهمال فتتيح لها الفرصة للافلات. واسوة بذلك، لا بد لكونتا من ان يتظاهر للتوبوب وكأنه قد فقد الامل.

ومن خلال الفتحة الصغيرة المدعمة بالقضبان الحديد، عد كونتا ستة ايام وست ليال. وفي كل يوم، كان رجل اسود غريب يحضر لهم الطعام ثلاث مرات، وكان كونتا يبتلعه مرغما لاقتناعه بانه سيعطيه القوة. وبعد وجبة الصباح في اليوم السابع دخل اربعة من التوبوب ظل اثنان منهم في الداخل على مقربة من الباب وهما يمسكان بنادق وهراوات، بينما تولى الاثنان الآخران فك الاغلال الحديد. ووجد كونتا نفسه في صف من ستة رجال مقيدين الى بعضهم بالسلاسل وقد دفعوا الى الخارج في ضوء الشمس الساطع.

ووقف رجل على منصة خشبية منخفضة، واخذ يخاطب الحشد بصوت جهوري: "لقد قطفوا حديثا من الاشجار!... يلمعون كالقرود!" وتمردت انف كونتا عندما اقتحمها زخم رائحة التوبوب الكريهة - وهم يدفعون به مع رفاقه وسط الجمهور. ثم اطلق كونتا من السلسلة التي كانت تربطه بزملائه ودفع نحو المنصة.

وأخذ التوبوب يصيح ثانية: "لا يزال في عنفوانه، شاب طري!" وشل الخوف كونتا حتى اوشك ان يعجز عن التنفس. وكان عدد من التوبوب الآخرين يتحلقون حوله ويقتربون منه، واخذوا يمدون عصيهم القصيرة ومقابض اسواطهم ويفتحون بها شفتيه المنضغطتين ليكشفوا عن اسنانه المطبقة. ونخسوه في جميع اجزاء جسمه، في ظهره وصدره واعضائه التناسلية، ثم خطوا الى الخلف وبدأوا، وسط صياح رجل

المنصة، ينـادون بأعلـى اصواتهـم مدللين: "ثلاثمئة دولار!" "ثلاثمئة دولار!".

وتكرر المزيد من الاصوات الغريبة، ثم سمع كونتا "ثمانمئة وخمسين!" وعندما توقف الصياح بعد ذلك، تقدم الرجل الزاعـق وفـك سلسلـة كونتـا وجذبه نحو توبوب خطا الى الامام، ثم رأى كونتا خلف هذا التوبوب رجلا اسود يتضح من ملامحه انه ينتمي الى قبيلة الوولوف، فقال: "اي اخي! انت من وطني..." ولكنه بدا وكأنه لا يلاحظ كونتا، وجذب السلسلة بعنف جعل كونتا يندفع متعثرا خلفه، وراح الاثنان يتقدمان خلال الحشد وتوقفا عند شيء شبيه بصندوق قائم على عجلات خلف حيوان ضخم، كان هو اول حصان رآه كونتا في حياته. وامسك الاسود بكونتا من وركيه ورفعه والقاه في قعر الصندوق.

وسمع كونتا طقطقة الطرف الطليق من سلسلته لدى احتكاكه بشيء عند مقدم الصندوق، ثم تسلق الاسود والتوبوب مقعدا وبدأ الحصان يجر الصندوق ويبتعد به عن حافة المياه الرحيبة التي كانت تلامس ارض مولده ويوغل به في اتجـاه بعيـد المسافة عن المكان الذي تشرق منه الشمس. وتردد مرة اخرى في رأسه صوت صادر عن قريته من فم احد شيوخها وهو جالس الى جوار النار في جوفوري: "ليس بيننا من يعرف بالحقيقة ارض التوبوب لان احدا لم يعد منها لينقل الينا شيئا عنها".



الفرار

راح الصندوق يطقطق على الطريق، فرفع كونتا نفسه وأجال نظره واستطاع ان يرى ما قدر انه حقول التوبوب. وتعرف في احدها على سيقان الذرة فقد قطفت منها الاكواز، وشاهد في حقل آخر عمالا من السود يشتغلون في اشراف احد التوبوب ومر الصندوق قرب صف يضم قرابة عشرين رجلا من السود مشدودين الى بعضهم البعض بسلسلة تتخلل اغلال معاصمهم ويحرسهم توبوب على صهوة جواده، وهم ينشدون غناء حزينا لم يستطع كونتا ان يفهم شيئا من عباراته.

وعند الغسق، انعطف الصندوق ذو العجلات الى طريق صغير وتوقف امام منزل كبير ابيض حيث رأى كونتا عددا من السود، وانتعش الامل في نفسه عندما ابتعد التوبوب متوجها نحو المنزل. ترى هل يحرره هؤلاء السود الآن؟ ولكنهم لم يفعلوا شيئا على الاطلاق، فاستولى عليه العجب وثار غضبه من اولئك السود الذين يتصرفون وكأنهم كالماعز في قطيع التوبوب.

ونام كونتا على الارض مربوطا بالسلاسل الى عمود. وفي الصباح التالي لم يكد يتوافر له الوقت لاداء صلاة الفجر متخذا قبلته نحو الشرق، ثم لم يلبث ان وجد نفسه على الطريق مرة اخرى مع آسريه. وكانت المشاهد والاصوات التي بلغته شبيهة بما كانت في اليوم السابق. ورأى مرتين اخريين، على بعد عن الطريق، بيوت توبوب كبيرة بيضاء، تقوم بالقرب منها اكواخ من الطين والخشب رجح كونتا انها مساكن للسود.

وبعد ان غربت الشمس في اليوم الثالث انعطف الصندوق عن الطريق الرئيسي. وحملق كونتا في دماثة الليل الذي ينيره القمر، فبان له طيف منزل ابيض آخر. وسرعان ما توقف الصندوق وترجل منه التوبوب وتحدث مع الرجل الاسود ثم دخل المنزل بينما استأنف الصندوق ضوضاءه متجها نحو عدد من الاكواخ الصغيرة حيث توقف مرة اخرى، وسمع كونتا طقطقة الشيء الذي يثبت سلسلة قيده، ثم جاء الرجل الاسود وتقدم الى حافة الصندوق، ورفع كونتا بذراع واحدة قوية من فوق جانب الصندوق وانزله على الارض.

وفي تلك اللحظة اشرأب كونتا الصغير، وتشابكت يداه حول رقبة الرجل الاسود، مثل فكي الضبع، فصدرت عن الاسود صيحة مكتومة مبحوحة، واخذ يدق بقبضتيه وجه كونتا وذراعيه ويخدشه باظافره، بينما راحت قبضتا كونتا تتزايد احكاما حول رقبة الرجل حتى تعثر الى الخلف وهمدت حركته.

ووثب كونتا واطلق لساقيه العنان في جنون متجها الى حيث يمكنه ان يرى غابة نائية في ضوء القمر. وظل يركض منحنيا وهو يقتحم بساقيه صفوف اعواد الذرة، وكان الالم يجتاح عضلاته التي اصيبت بالخدر من كثرة الجهود، ولكنه انتعش بنسمات الهواء البارد وكاد يطير فرحا لانطلاق حريته من جديد. وبلغ الغابة، فاندفع الى داخلها يتعثر في النباتات الشائكة المتشابكة. ولكنه مضى يوغل اعمق فأعمق، حتى الفى نفسه فجأة خارج الغابة وسط شجيرات منخفضة، ورأى لصدمته انه امام حقل واسع الاطراف ينتصب منزل ابيض في آخره.

وعاد يعدو من حيث اتى حتى بلغ اكثف بقعة في الغابة، وقد انتشرت

الجروح والخدوش في قدميه العاريتين وسالت منهما الدماء. ثم زحف على اربع داخل مجموعة كثيفة من الشجيرات التحتية وقضى ليلته هناك. وحين اقبل الفجر ركع متجها نحو الشرق وصلى.

وسمع كونتا نباح كلاب عميق عن بعد، ثم اخذ الصوت يزداد ارتفاعا والحاحا، ولم يلبث ان علا صياح الرجال وراء نباح الكلاب، فاندفع في جنون خلال النباتات الشائكة. وما ان بلغ مسمعه دوي بندقية احد التوبوب حتى تملكه الخوف فارتمى وسط الاشواك المتشابكة.

واقبل كلبان يهاجمانه خلال الشجيرات وهما يكشران عن انيابهما ويحاولان ان ينهشاه، فأخذ يدفعهما بيديه وهو يتسلل في الوقت نفسه مثل السلطعون. ثم سمع رجالا يصيحون على حافة الدغل. ودوى صوت البندقية مرة اخرى فتراجع عنه الكلبان وهما يهران.

وهاجمه بضعة رجال مسلحين بالخناجر والهراوات، وميز كونتا بينهم ذلك الرجل الاسود الذي حاول خنقه وقد اكتسى وجهه بحقد قاتل. وكان خلفه عدد من التوبوب وقد احمرت وجوههم وتصبب عليها العرق لما بذلوه من جهد. وتقدم الرجل الاسود منه وهو يفرد حبلا، ثم اصابت رأس كونتا ضربة شلته صدمتها، وسرعان ما ربطت ذراعاه الى جانبيه ووجد نفسه مجررا بحبل الى خارج الغابة، ثم عبر حقلا الى ان بلغ شجرة حيث لف آسروه الحبل حول احد اغصانها. وبعد ذلك جذبه الرجل الاسود حتى كادت قدما كونتا ان تلامسا الارض. والهب ظهره سوط توبوب فتلوى من شدة الالم ولكنه ابى الصراخ. وتوالت عليه ضربات السوط، واحس بأن كلا منها تقطعه نصفين فأخذ يصرخ، لكن الضربات تعاقبت من دون هوادة حتى فقد الوعي.

وحين افاق كونتا، وجد نفسه ممدا وقد شدت اطرافه في اتجاهات اربعة وربطت بالسلاسل من معصميه وكاحليه الى اربعة اعمدة غليظة في الاركان الاربعة داخل كوخ صغير من الطين. وكانت اقل حركة منه كفيلة باثارة آلام مبرحة، فتمدد ساكنا وقد بلل العرق وجهه وتلاحقت انفاسه في شهقات ضحلة. واخذ يؤنب نفسه لانه لم يتريث كما لا بد وان يتصرف الحيوان الاسير الحكيم. وقال لنفسه: لقد فشلت لانني تعجلت الفرار.

القبيلة المفقودة

في الصباح الخامس، على اثر نفير الاستيقاظ، اقبل الرجل الاسود على كونتا حاملا قيدين من الحديد الغليظ تصلهما سلسلة قصيرة. ثم انحنى واغلق القيدين حول كاحلي كونتا. وبعد ان انتهى من ذلك حل السلاسل الاخرى التي تقيده ثم جذبه بخشونة ليقف على قدميه، وبدأ ينخز صدر كونتا بسبابته ويطلق اصواتا غريبة: "انت - توبي؟" فلم يفهم كونتا شيئا وظل يحملق فيه بغباء.

ودق الاسود على صدره هو وصاح: "انا شمشون!" ثم امتد اصبعه ينخز صدر كونتا مرة ثانية وهو يقول: "انت توبي! السيد يقول ان اسمك هو توبي!"

وببطء ادرك "توبي" المعنى الذي يقصده الرجل، فتملكه غضب جامح، وود ان يصرخ في وجه الاسود صائحا: "انا كونتا كينتي، الابن البكر لعمر ابن الرجل الطيب الذكر خير الله كونتا كينتي!".

واتجه الرجل الاسود بكونتا الى الخارج نحو دلو كبير من الصفيح مليء بالماء كي يغتسل فيه، ثم قذفه ببعض ملابس التوبوب ليغطي بها صدره وساقيه وبقبعة من القش الاصفر ليغطي بها رأسه. وتبع كونتا "شمشون" الذي صحبه في جولة سريعة للتعرف على المكان، فرأى السود يعيشون في عشرة اكواخ اقيمت على صفين وبنيت بكتل خشبية وسدت الثغرات في ما بينها بطين ضارب الى الاحمرار.

وفي احد هذه الاكواخ، قدمت اليه الطعام امرأة عجوز، ثم اشار شمشون برأسه الى الحقول البعيدة وسار نحوها وكونتا يتبعه متعثرا في اغلاله الحديد. وعندما اقتربا، رأى كونتا رجالا من السود يقطعون سيقان الذرة بينما راح النساء والشباب من السود يجمعون القصبات المقطوعة.

وفي الحقل اقبل عليهما توبوب يمتطي صهوة حصان ضخم، وتبادل بضع كلمات مع شمشون فالتقط هذا سكينا طويلة ثقيلة وقطع بها بضعة عشر عودا من الذرة، ثم استدار الى كونتا وامره ان يجمع الاعواد. واقترب التوبوب بحصانه من كونتا رافعا سوطه. واشتعل صدر كونتا بالغضب لعجزه ثم انحنى وراح يجمع العيدان.

وارغم كونتا نفسه في الايام التالية على ان يفعل ما يطلب منه، ولكنه مع تظاهره بالعقم والبلاهة كانت اليقظة تتقد وراء ملامحه الخالية من التعبير. فقد علم بانه في مكان يسمى مقاطعة "سبوتسيلفانيا" في فيرجينيا، وان التوبوب الذي جاء به الى هذا المكان كان السود يسمونه

"السيد"، وان في البيت الابيض الكبير الذي يعيش فيه السيد انثى توبوب تسمى "السيدة". وقد رآها كونتا مرة من بعيد فبدت له مخلوقة هزيلة بارزة العظام شاحبة اللون كبطن الضفدعة الباهت. وتعلم كونتا ان في الحقول "ذرة"، وعندما تقطع جميع السيقان وتكوم ينصرف السود الى التقاط ثمار كبيرة مستديرة تسمى "اليقطين" (القرع العسلي) توضع في "عربة وتحمل الى "الهرى" (مخزن الحبوب).

ولكن تصرف السود الاخرين كان اكثر ما لفت انتباهه واثار حيرته. وكان كونتا يجلس في المساء عند مدخل كوخه ويمد رجليه خارج الباب تخفيفا لالم الاغلال، بينما كان الراشدون الآخرون يجلسون بهدوء وسكون على مقاعد خشبية حول النار الموقدة امام كوخ الطاهية العجوز. وكان منظرهم يملأ نفسه بالذكريات الحزينة عن نيران الليل في قريته جوفوري.

وكانت المرأة التي تتولى الطهي في البيت الكبير هي التي تبدأ عادة بالكلام، فتقلد اشياء قالها السيد او السيدة. وكان كونتا يسمع الآخرين وهم يكادون يختنقون اذ يكتمون ضحكاتهم خشية ان يبلغ صداها البيت الابيض الكبير.

ثم يهمد الضحك ويبدأ السود يتحدثون في ما بينهم ببساطة وكان كونتا يسمع من بعضهم لهجة البائس العاجز، ومن البعض الآخر لهجة الغاضب بمرارة، ويميز بين هذه وتلك حتى وان غاب عنه فهم ما يقولون. واخيرا يتوقف الحديث عندما تبدأ احدى النساء الغناء وينضم اليها الجميع. ولم يكن كونتا يفهم الكلمات، ولكنه كان يتلمس ما في النغمات من حزن عميق.

وكان الرجال السود هؤلاء من الوثنيين، عبدة الاصنام، وكانوا يأكلون لحم الخنزير القذر، الا انهم كانوا يقومون باشياء من صميم الحياة الافريقية. وكان كونتا يلاحظ انهم يأتونها عفويا وعلى غير ادارك منهم. فلكم سمع طوال حياته في جوفوري مثل هذه الصيحات التلقائية مصحوبة بالاشارات والتعابير نفسها. وكانت طريقة تحريك اجسامهم هي هي، كذلك طريقة ضحكهم مجتمعين معا.

كيف انوجد هؤلاء الناس في هذا المكان؟

ولم يستطع كونتا ان يدرك ما حدث لهم فدمر عقولهم حتى اصبحوا يتصرفون على هذا النحو من الاستسلام والرضا عن النفس، يبتسمون للسيد وللمشرف على عملهم الشاق.

فلعل السبب انهم لم يعرفوا ابدا موطنا لهم في قرية افريقية، فقد ولدوا سودا في هذا المكان وهم اذا قبيلة مفقودة.

وتأمل كونتا في كل ما رآه وسمعه فلم يقو على فهمه او تقبله. وكان في كل ليلة، قبل ان يغلبه النوم، يقسم لاسلافه بانه سيلوذ بالفرار ويستعيد الحرية وانه يؤثر الموت على الانتهاء الى مصير مثل هؤلاء السود هنا.

الاختيار القاسي

ولم تلبث ان تلوثت القرحة في كاحل كونتا الايسر بسبب القيد حتى اضطر المشرف الى انتزاعه. وفي تلك الليلة وجد كونتا نفسه طليقا فلم يطق

الانتظار ولاذ بالفرار، وانما لم يطل به الامر بعد ان تعقبه شمشون وقبض عليه على مسافة قصيرة من الكوخ.

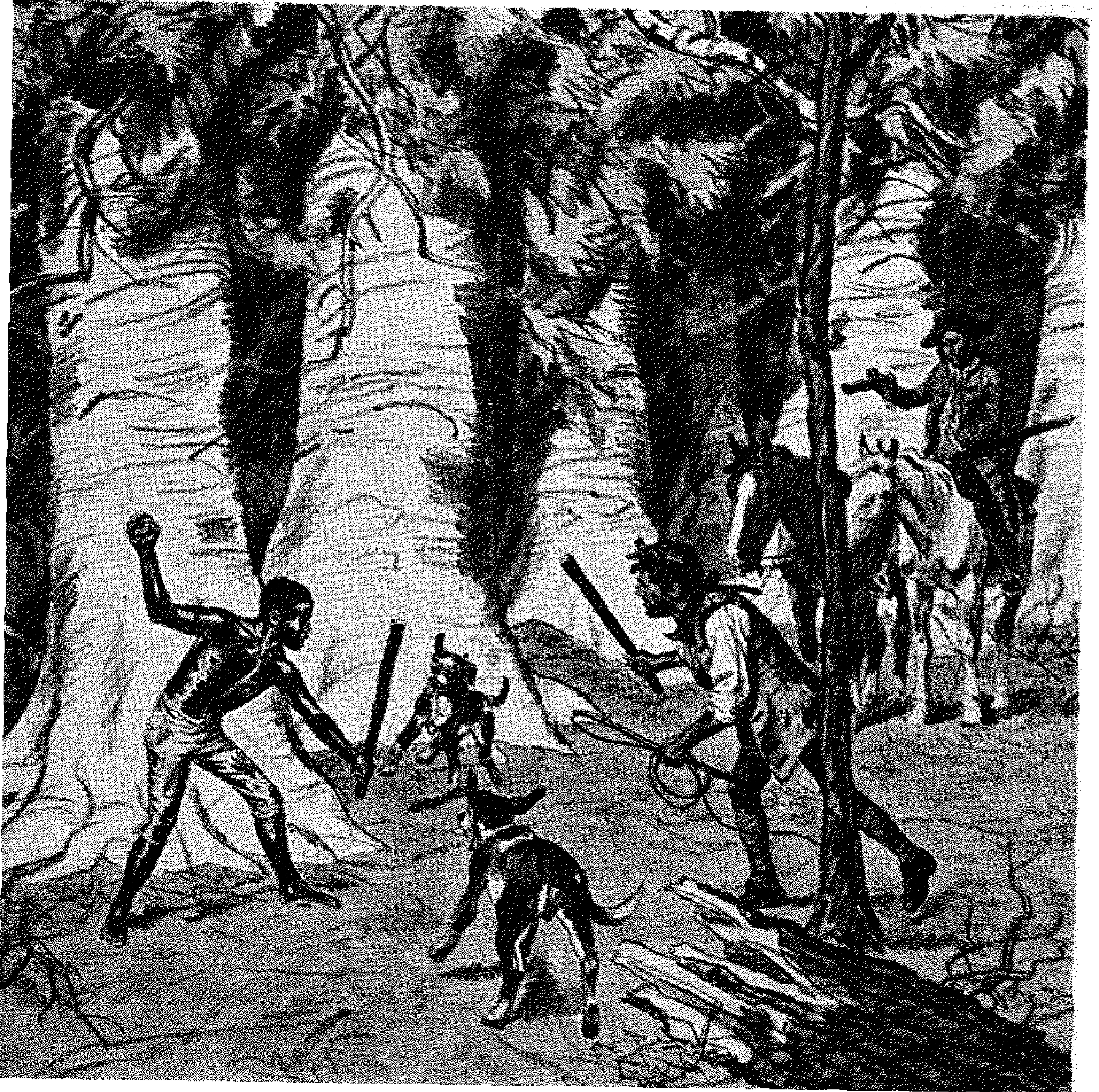
وتلقى كونتا عددا من اللكمات. والرفسات، ولكنه لم يجلد ولم يكبل. ثم تمكن من الفرار مرة اخرى بعد ان سقط من السماء ذلك الشيء الذي قال السود ان اسمه "الثلج". وقد طارده المشرف هذه المرة على ظهر حصان من جياد المزرعة الضخمة حتى لحق به مقتفيا آثار قدميه على غشاء الثلج الابيض الذي يغطي الارض، وعاد به ليجلد ويكبل بالسلاسل. غير ان كونتا ظل موقنا في قرارة نفسه ان لا بد له من الفرار مرة اخرى في اول فرصة سانحة.

وتعاقبت الاقمار، وحرثت الحقول وبدأ غرس البذور في الربيع من مختلف الانواع، معظمها بذور الذرة وشيء آخر اسمه "القطن". وقد فكت السلاسل عن كونتا فاخذ يتحين الفرص ويتظاهر بالرضوخ للاوامر ويقتلع الاعشاب من بين المزروعات. وعندما بدأ الحصاد، لاحظ كونتا ان العربات تتوافد بكثرة متزايدة على الطرق البعيدة لتنقل القطن الى السوق. وجالت في خاطره فكرة فذة: ان يختبيء في احدى هذه العربات لتحمله بعيدا.

واوشك رأسه ان ينفجر لفرط تدقيقه في تفاصيل الخطة. واستبعد من حسابه عربات القطن الخاصة بالمزرعة التي يعمل فيها لانها خاضعة للرقابة باستمرار. فلا بد له اذا من ان يهرب في احدى تلك العربات التي رآها من بعيد تروح وتجيء على الطريق الرئيسي.

وتظاهر ذات ليلة بالذهاب الى

المرحاض الخارجي وراح يدرس الطريق. وفهم من اضواء العربات المرتجفة بان السير على الطريق لا ينقطع في الليل كما في النهار. وفي ليلة اخرى تمكن من قتل ارنب بحجر، وجفف لحمه كما تعلم ان يفعل في جوفوري، ثم عثر على سكين قديمة صدئة فشحذها حتى ارهف حدها، وصنع مقبضا من الخشب زودها به، كما صنع تعويذه له ركز فيها ريشة ديك لاجتذاب الارواح وشعرة حصان لتجلب له القوة، وعظمة الترقوة من الطير لتوفر له النجاح، ولف ذلك كله وخاطه داخل قطعة من الخيش.



وذات مساء، وضع في احد جيوبه القطع المجففة من لحم الارنب وربط التعويذة باحكام حول زنده الايمن، وقبع في كوخه يرهف سمعه خلال الباب حتى بلغته اصداء الحركات المألوفة التي تصدر عن السود قبل ان يأووا الى مضاجعهم. واخيرا توقف غناؤهم الحزين، فانتظر حتى استوثق من انهم قد ناموا، ثم حمل سكينه التي صنعها بيده وانسل خارجا.

واجال الطرف فلم ير احدا حوله، وطمأنته حواسه الى ذلك، وبدأ الركض. وعندما بلغ النقطة التي يلتقي عندها طريق المزرعة بالطريق الرئيسي ربض وسط اجمة كثيفة، ولم يطل به الوقت حتى سمع ضجيج عربة مقبلة، ولكن الانتظار امتد حتى بدا له دهرا قبل ان يدخل ضوء مصباح العربة المرتعش في دائرة بصره. واقبلت العربة في النهاية حتى حاذته تماما، فرأى شخصين جالسين فوق مقعدها الامامي، وليس في مؤخرها اي رقيب. واندفع كونتا من بين الشجيرات باسنانه المطبقة وعضلاته المرتعشة وجرى منحنيا خلف العربة متسترا صريرها وطقطقتها. وعندما تخبطت العربة في بقعة غير ممهدة من الطريق امسك كونتا بمؤخرها وقفز فوق سورها الخلفي المنخفض.

وكان الليل حليفه، فاختبأ داخل القطن لا يشعر به احد، حتى لاح نور الفجر يلامس الافق، فترك العربة وسارع الى الاختفاء في دغل قريب.

وعندما دخل الدغل اسعده ملمس الندى على جسمه، فراح يؤرجح سكينه وكأنه ريشة خفيفة بين اصابعه، وهو يتوغل في ما بدا له انه غابة تمتد على مساحة كبيرة. وعند العصر، تزود بقطعة من لحم الارنب المجفف مضغها بعد ان بللها بالماء، ثم واصل توغله الى ما بعد غروب الشمس، حيث اعد لنفسه فراشا من الاعشاب واوراق الشجر.

وتابع سيره في الصباح التالي، جاهلا اين هو والى اين يتجه. والمهم في نظره هو ان يهرب فحسب. واذا استطاع ان يواصل سيره نحو مشرق الشمس فلا بد ان ينتهي به ذلك بعد حين الى مكان القارب الضخم. ثم تساءل: وماذا عساي ان افعل بعد ذلك؟ وعندما حاول الاجابة احس بالثقة تخونه وبالخوف ينتابه، فاخذ يكثر من الصلاة ولا يكف عن لمس تعويذته.

وقضى اربعة ايام مرتحلا في الغابة وهو لا يسمع غير نقيق الضفادع واصداء الطيور والحشرات. وفي صباح اليوم الخامس هب من نومه مذعورا على نباح الكلاب، وكان ذلك اكثر ما يخشاه. ووثب وانطلق يعدو. ثم تبين انه قد نسي سكينه فاندفع عائدا وأخذ يبحث عنه بيأس بين الفروع والاوراق ولكنه لم يجده. واخذ النباح يتقارب، فالتقط كونتا حجرا في حجم قبضة يده وتابع العدو، وقد طار صوابه فراح يتعثر ويقع مرة بعد اخرى.

وتمكنت كلاب الصيد من محاصرته في ساعة متقدمة من صباح اليوم التالي عندما اعجزه الاعياء عن مواصلة العدو، فوقف ينتظر وقد اسند ظهره الى جذع شجرة وهو يمسك بيده اليسرى فرعا غليظا كالهراوة، بينما تلتف قبضته اليمنى كالمخالب حول الحجر. وتوقفت الكلاب بعيدا عن متناول هراوته البدائية وهي تواصل النباح ولعابها يسيل، حتى ظهر

اثنـان مـن التوبـوب مقبليـن علـى صهوتي جوادين، ولم يكن كونتا قد رآهما من قبل، اذ كانا من قناصي العبيد المحترفين.

وترجل اكبر الرجلين سنا وسار نحوه وهو يحمل هراوة في احدى يديه وسوطا في اليد الاخرى. وعندما اقترب التوبوب قذفه كونتا بالحجز، وسمعه يصرخ ورأى الدم يسيل من رأسه.

وبدأ الرجلان يقتربان منه معا وقد حمل كـل منهمـا بندقيـة وهـراوة. وادرك من ملامحهما انه سيموت ولكنه لم يعبأ بذلك، وانهالا عليه بهراوتيهما حتى كاد ان يفقدوعيه ولكنه لم يكف عن المقاومة والصياح وهما يمزقان عنه ملابسه ويقيدانه الى شجرة. وبعد ان اعجزته قيوده عن الحركة استجمع عزيمته ليواجه ما توقعه مـن انهمـا سيضربانـه حتـى الموت.

ثم توقف التوبوب الذي جرح رأسه فجأة، وتغيرت ملامحه في ما يشبه الابتسامة، وخاطب زميله الاصغر سنا بكلمـات مختصـرة، فابـتسـم هـذا ابتسامة بشعة وهز رأسه، ثم عاد الى حصانه وحل من سرجه بلطة صغيرة اعطاها لرفيقه.

ووقف التوبوب الجريح امام كونتا، واشار الى خصيتي كونتا ثم الى سكين الصيد الذي يحمله في حزامه، ثم اشار الى قدم كونتا والى البلطة التي يحملها في يده.

وفهم كونتا ان عليه ان يختار: اما قدمه او خصيتاه. وصاح بد من اعماق دماغه صوت يقول: ان الرجل، لكي يكون رجلا، لا بد ان ينجب ابناء، فاندفعت يداه تغطيان عورته.

وكان الرجلان التوبوب يبتسمان ابتسامة نجسة. ودفع احدهما بكتلة من الخشب تحت قدم كونتا اليمنى، بينما ربط الآخر القدم الى الشجرة رباطـا شديـدا لـم تفلـح معـه كـل محاولات كونتا العنيفة لتحريرها، ثم التقط التوبوب الجريح البلطة.

ظل كونتا يصيح ويحاول الافلات، لكن البلطة ارتفعت ثم هوت فبترت نصف القدم الامامي. وما ان تفجر فيها الدم حتى تلاشى كونتا وارتخى جسده.

امرأة اسمها "بل"

حين عاد كونتا الى وعيه تبين انه في مكان جديد، داخل كوخ، وكان مربوطا من معصميه وكاحليه، وقد رفعت قدمه اليمنى فوق شيء لين.

واقبل توبوب طويل القامة يحمل حقيبة صغيرة سوداء لم يره كونتا من قبل. ونش (طرد) التوبوب الذباب. وانحنى الى جانب كونتا وفعل شيئا بعث في كيان كونتا دفقات من الالم الهائل جعلته يصرخ كالنساء، فنادى التوبـوب: "بـل!"، فدخلـت امـرأة سوداء قصيرة القامة متينة البنيان وهي تحمل ماء في وعاء من الصفيح. واخرج التوبوب شيئا من حقيبته السوداء واذابه في الماء، ثم ركعت المرأة السوداء وامالت القدح كي يشربه كونتا. وكان طعم السائل غريبا ولم يلبث كونتا بعد تجرعه ان غرق في سبات عميق.

وعندما صحا ادرك انه في اعياء شديد: كان جانبه الايمن بكامله خدرا وشفتاه جافتين بالحمى وعرقه تفوح منه رائحة المرض. وحاول على غير وعي منه ان يحرك اصابع قدميه ففوجيء بدفقة الم بالغ ثم فتح الباب ودخلت المرأة السوداء ثانية

وتربعت الى جانبه وضغطت قطعة من القماش المبلل البارد على جبينه.

وفي زيارتها التالية حاولت ان تحثه على الاكل. وكان هزاله قد اشتد فبدا انحف مما كان في الاسبوع السابق عندما فوجئت بل وهي تقدم وجبة الظهر بمن يستعجلها لكي تعاون على رفع الكتلة الدامية من العربة، بعد ان اصدر "الشريف" امره الى قناصي العبيد بتسليم هذه الكتلة الى الطبيب ويليم والير، شقيق الرجل الذي يملك كونتا. وكان الطبيب، سيد بل، قد اكفهرت هيئته غضبا حين علم بأمر التشويه الذي اصاب كونتا.

ووضعت بل على صدر كونتا العاري كمّادة ساخنة قوية الرائحة يتصاعد منها البخار، صنعت من اوراق البيلسان الممزوجة بالكبريت، ثم وضعت قطعا مبللة من القماش فوق الكمّادة وغطت كونتا بلحاف ثقيل.

وصحا كونتا وشعر بزوال الحمى وتساءل: اين تعلمت تلك المرأة مثل هذه المداواة الشبيهة بالتي كانت امه بنيتا تصنعها من اعشاب ارض الله، كما نقلت اليها بالوراثة عن الاسلاف.

وبدأت حدة الم تخف، باستثناء الفترات التي يأتي فيها التوبوب الطويل القامة لمتابعة علاجه اليومي. وذات يوم فك الرباط الذي يوثق كونتا الى الاعمدة، وتمكن من النهوض مستندا الى مرفقيه، فقضى ساعات يحملق في الاربطة التي تلف ما بقي من قدمه. لقد قضى معظم عمره الذي يبلغ ١٨ موسما ماطرا وهو يجري ويرتع ويتسلق حيث شاء، وها هو الآن ضحية الوحشية التي ارتكبها ذلك التوبوب حين بتر له نصف قدمه.

ونفّس عن غيظه ومذلته بانتفاضته

سوني
SONY



KV-2012ME

في البداية ترينيترون، والآن بيتاماكس
سوني تعطيك الابتكار العظيم تلو الآخر



SL-8000E
بال سيكام
لتسجيل واعادة المشاهدة

في البداية انطلقت سوني بتكنولوجيا الفن التلفزيوني الى مستوى جديد بواسطة تلفزيون ترينيترون الملون. لهذه التكنولوجيا نقدم لك الآن بيتاماكس، أول مسجل تلفزيوني للبيت. أربط بيتاماكس بجهازك التلفزيوني لتسجيل أي شيء ترغب بمشاهدة عرضه من جديد.

فاذا كان لديك برنامجان مفضلان في نفس الوقت، يمكنك مشاهدة احدهما في الوقت الذي يسجل فيه بيتاماكس الآخر.

ولتسجيل البرامج المفضلة أوتوماتيكيا وأنت خارج البيت، ما عليك الا ضبط جهاز الوقت اليومي كما وان بامكانك مشاهدة عرض التسلية المسجل مسبقا في أي وقت تشاء. حول غرفة الجلوس الى مسرح في البيت بواسطة الأفلام العادية والوثائقية. والبرامج العائلية من مختلف الأنواع.

بيتاماكس يستخدم اصغر فيديو كاسيت واوفره كلفة في العالم. وهو سهل التوضيب والتعامل معه، وبالرغم من أنه يسع لشريط أطول من أي كاسيت آخر بالنسبة لحجمه، ويدوم اكثر من ثلاث ساعات. كما وان جهاز بيتاماكس بي - لودنغ الذي انتجته وطورته سوني، أثبتت التجربة انه الأشد اعتمادًا والاكثر متانة وحمولة اذاعية بين سائر أجهزة التسجيل التلفزيوني.

عشرون عامًا من الاختبار في حقل التكنولوجيا، حققت لك أولًا الترينيترون، وتحقق لك الآن بيتاماكس ... الابتكار العظيم بعد الآخر.

Sony Betamax سوني بيتا ماكس
شاهد ما فاتتك مشاهدته

على المرأة السوداء عندما جاءت تطعمه، فراح يزمجر بلغة الماندينكا ويدق بالقدح المعدني على الارض بعد ان شرب ما فيه. ثم استلقى، وقد تزايد غضبه، واخذ يفكر في ذلك الدفء الذي بدا في عيني المرأة عندما شاهدت فورته.

وبعد ثلاثة اسابيع نزع التوبوب الضمادات فأوشك كونتا ان يصرخ عندما رأى ان نصف قدمه المتورم تغطيه قشرة سميكة بنية اللون. ورش التوبوب على قدمه شيئا ثم لفها برباط خفيف وانصرف. وعاد بعد ثلاثة ايام يحمل عصوين متينتين لكل منهما رأس متفرع الى شعبتين. وكان كونتا قد شاهد الجرحى في جوفوري يستعينون على المشي بمثل هذه العصي.

وبعد انصراف التوبوب، تحامل كونتا على نفسه وجرّب العصوين فتمكن من التقدم بضع خطوات غير منتظمة مستعينا بأرجحة جسمه. وعندما جاءت بل تحمل اليه افطاره في الصباح التالي لمح علائم السرور على وجهها وهي تلاحظ آثار العصوين على الارض الترابية، فقطب في وجهها وابى ان يتقبل الطعام الا بعد انصرافها. أكل عندئذ بشهية تقارب النهم، علما منه بأن الطعام يمده بالقوة. ولم تمض ايام قلائل الا وقد اصبح يتجول حرا حول كوخه.

عازف الكمان

كان السود في تلك المزرعة يتجمعون في المساء عند الكوخ الاخير من الصف الذي يقيم فيه رجل يقارب الخمسين من العمر، اسمر البشرة، مما يدل على ان اباه كان ابيض. وكان كونتا يرهف اذنيه فيسمع من خلال باب كوخه الرجل الاسمر يتكلم بلا انقطاع تقريبا. وكان يسمع الآخرين ينفجرون حينا بالضحك ويمطرون الرجل احيانا اخرى بالاسئلة. وتساءل كونتا في نفسه عمن يكون ذلك الرجل.

وذات يوم مر كونتا بالكوخ فأومأ اليه الرجل الاسمر بأن يجلس على مقعد هناك، فجلس كونتا امامه.

وقال الرجل: "لقد سمعت عما يملأ نفسك من هياج وغضب. فأنت سعيد الحظ لانهم لم يقتلوك! فالقانون يجيز لكل من يقبض عليك في اثناء هربك ان يجهز عليك، والقانون يقول بقطع اذنك اذا قال البيض انك تكذب، والقانون يمنع تعليم القراءة او الكتابة للزنوج، والقانون يحظر دق الطبول على الزنوج او اتيان اي عمل من تلك الاعمال الافريقية..."

وما هم كونتا ان لم يفهم تماما ما يقوله الرجل، طالما تملكته النشوة لمجرد وجوده امام شخص يبادله الحديث مباشرة. وكان الرجل يحب الكلام. وفكر كونتا في نفسه: لو كان هذا الرجل يعيش في افريقيا لاصبح على الارجح راوية متجولا من اولئك الذين يروون تاريخ الملوك القدامى والعشائر والعائلات.

وظل كونتا ارقا الى ساعة متقدمة من تلك الليلة، تتنازع عقله صراعاته الداخلية. وتذكر شيئا قاله له ابوه ذات مرة عندما رفض السماح لاخيه لامي بأن يقضم جزءا من مانغو كانت في يده. فقال له عمر يومذاك: "اذا ما اطبقت قبضتك بشدة فلن يستطيع احد ان يضع شيئا في يدك". غير انه كان يعلم ايضا ان اباه لا يريده ان يصبح كسائر السود.

وذات عصر قال الرجل الاسمر فجأة: "انظر هنا! انت، انت يا توبي!"

فتصاعد الدم الى وجه كونتا غضبا وقال بعنف مندهشا من نفسه: "كونتا كينتي"٠ وكانت تلك اول كلمات يتفوه بها منذ أكثر من عام بعد وصوله الى ارض التوبوب٠

وقطب الاسمر جبينه استنكارا وقال: "انت توبي٠ يجب ان تتناسى ذلك الكلام الافريقي! فهو يثير غضب البيض ويرتاع له السود"٠ ثم نظر حوله والتقط شيئا خشبيا غريب الشكل له عنق اسود نحيل وقال: "كمان!"

وانتهز كونتا فرصة عزلتهما، فاعاد نطق الكلمة، وقال مترددا: "كمان٠٠٠"

وراح الرجل الاسمر يشير الى اشياء اخرى، "دلو٠٠٠ كرسي٠٠٠ قش ذرة"، وكونتا يكرر مفرداته٠ وعندما انتهيا من أكثر من عشرين كلمة، غمغم الرجل الاسمر: "أرى انك لست غبيا كما يبدو من مظهرك"٠

واستمرت الدروس٠ وبعد فترة، اصبح كونتا قادرا لا على الفهم فحسب وانما ايضا على التحدث بلغة مفهومة الى الرجل الاسمر الذي شاء ان يكون اسمه "عازف الكمان"٠

وذات يوم تلقى كونتا حذاء احضره رجل اسود يدعى جدعون يهتم بصنع اطواق الجياد واحذية السود٠ وكان النصف الامامي لاحدى فردتي الحذاء محشوا بالقطن٠ وضع كونتا الحذاء في قدميه، فشعر بلذعات في نصف قدمه اليمنى عندما مشى به حذرا حول كوخه، ولكنه القى في النهاية بثقله كله على القدم من دون ان يحس بألم شديد٠ وكان يظن قبل ذلك انه سيضطر الى العكازين على الدوام٠

وفي الاسبوع نفسه، سمع "عازف الكمان" من لوثر، سائق العربة

الاسود، ان كونتا اصبح ملك التوبوب الطبيب، واخذ يشرح لكونتا بحرص وعناية: "يقول لوثر ان السيد حصل على عقد بتملك من اخيه الذي كان يملكك سابقا. والسود هنا يزعمون انه سيد طيب. وقد رأيت من هو اسوأ منه. ولكنهم جميعا لا خير فيهم".

وفي تلك الاثناء تقريبا، كان كونتا يعنى بتقويم زمني درج فيه بانتظام على اسقاط حصوات في قرعة فارغة. وقد قدر انه قد انفق ١٢ قمرا في مزرعة التوبوب الاول، فأسقط في القرعة ١٢ حصاة، ثم اسقط ٦ حصوات اخرى عن الفترة التي قضاها في بلاد التوبوب. فبلغت في جملتها ١٨ قمرا. وأضاف كونتا الاشهر الثمانية عشر الى مواسمه الماطرة السبعة عشر التي عاشها قبل خطفه من جوفوري، فقدّر انه الان في عامه التاسع عشر.

"انتهت الحرب"

وبعد مضي وقت قصير، اقبل على كونتا رجل اسود عجوز يفلح حديقة صغيرة للخضر وقال له: "لقد امر السيد بأن تعمل معي"، واوضح لكونتا كيف يعزق الاعشاب الضارة ويزيل الديدان عن ثمار الطماطم (البندورة) والحشرات عن ثمار البطاطا. وعندما مرض البستاني العجوز، اصبح كونتا يفلح الحديقة وحده. وتتابعت الايام غائمة في ذهنه حافلة بالتعب والعرق وهو يكدح في حراثة الحديقة وزرعها وقطف غلالها وتقديم الخضر الى الطاهية السوداء بل كي تطبخها للبيت الكبير.

ولدى حلول الليل كان التعب يبلغ منه مبلغا يعجز معه عن القيام بأي شيء سوى القاء جسده المكدود على الفراش المحشو بقش الذرة، فينام بملابسه التي بللها العرق.

وفي بعض الاحيان كانت تراوده فكرة الفرار، غير ان الذكريات الرهيبة لما قاساه كانت تهمد هذا الحافز وتحمله على التعقل.

وذات صباح في شهر مارس (آذار) من عام ١٧٧٠، اندفعت بل نحو الحديقة هائجة الاعصاب تصيح بلهجة مليئة بالاضطراب: "لقد انصرف الان رئيس الشرطة بعد ان اخبر السيد ان هناك قتالا كبيرا يجري في الشمال في مكان اسمه بوسطن! والسيد قلق جدا لذلك". ثم جاء لوثر سائق العربة بمزيد من المعلومات فقال: "لقد ثار اهل بوسطن ثورة شديدة على ذلك الملك المقيم عبر البحر الكبير وهاجموا جنوده، فأطلق الجنود النار وكان اول من قتل كريسبوس اتوكس، وهو زنجي! وقد وصف ذلك بمذبحة بوسطن".

ودرج لوثر منذ ذلك الوقت على نقل اخبار يستقيها من العبيد وسائر السائقين الذين يحدثونه عن الخلاف القائم مع انكلترا. وقلما مر يوم واحد من دون ان يتلقى العاملون في الحقل نبأ من مزرعة مجاورة او من عبد عابر على بغله وهو ينادي بنغمة مستطيلة: "يو.. هو.. آه.. هو.. ألا تسمعون ندائي؟" فيهرع اقرب العاملين في الحقل الى ملاقاة صاحب النداء ليلتقط منه آخر الاخبار، ويسرع عائدا الى الحقل لينقلها بدوره الى الآخرين.

واستمرت الانباء، عبر الفصول، في شذرات متناثرة، عما يحدث هناك في الشمال. وبينما كان كونتا يلقي حصاة بعد اخرى في قرعة تقويمه الزمني، كان يحاول ان يفهم ذلك كله. وقد تبين له باطراد ان اناس

التوبوب يواجهون ازمة شديدة مع ملك التوبوب. ووجه كونتا اهتمامه الخاص الى ذلك الشيء الذي يسمونه "الحرية"، وكان افضل تفسير لها هو الذي حصل عليه من "عازف الكمان" فقد قال له ان معنى الحرية هو الا يكون للانسان سيد على الاطلاق، وان يفعل ما يريد ويذهب حيثما شاء. ولكن كونتا استغرب الامر وأخذ يسأل نفسه: "لماذا يضطر البيض الى الحديث عن الحرية؟ وما الذي يحرمهم اياها؟".

وجاءت الاثارة الكبرى مع الاخبار التي وردت في اواخر عام ١٧٧٥ تفيد ان اللورد دانمور، الحاكم الملكي لفرجينيا، قد اعلن منح الحرية للعبيد الذين يتطوعون للخدمة في اسطوله لمعاونة ملك التوبوب. وبعد ذلك بفترة قصيرة استدعى السيد والر الطاهية السوداء بل الى قاعة الجلوس في البيت الكبير، وقرأ عليها ببطء مرتين متواليتين خبرا منشورا في صحيفة "فيرجينيا غازيت"، ثم امرها بأن تكرره على مسامع العبيد وتطلعهم على معناه. وكان الخبر يقول ان مجلس المواطنين في فرجينيا قرر "... ان يعاقب بالموت من دون حضور رجال الدين كل زنجي او عبد آخر يتآمر بقصد التمرد".



وسأل احد عمال الحقل: "ما معنى ذلك؟"

فقال "عازف الكمان" بجفاء: "معناه انك اذا تمردت فان البيض لن يستدعوا قسيسا عندما يعدمونك".

وازدادت الاثارة في الصيف التالي حين عاد لوثر من عاصمة المقاطعة بأخبار تقول ان "جميع البيض لا ينقطعون عن الصراخ والضحك. شيء له علاقة بما يسمونه اعلان الاستقلال".

وهز البستاني العجوز رأسه وقال: "ليس في هذا ولا في ذاك ما يدعو الزنوج الى الاغتباط والتهليل، لان

انكلترا والشعب هنا كلهم بيض سواء بسواء".

وفي عام ١٧٧٨، جاءت بل بخبر يقول ان العبيد نالوا وعدا بالحصول على حريتهم اذا هم تطوعوا في الجيش عازفين على القرب او كشافين. وسأل احدهم عن معنى كلمة "كشاف"، فأجاب "عازف الكمان": "معناها ان تكون في الطليعة وان تقتل!" وعندما انبأتهم بل بعد ذلك بأن هناك ولايتين، كارولينا الجنوبية وجورجيا، قد رفضتا السماح للعبيد بالتطوع في الجيش، جاء الرد سريعا من "عازف الكمان": "ذلك هو الشيء الوحيد الطيب الذي سمعته عن اي من هاتين الولايتين!"

وفي شهر مايو (ايار) من عام ١٧٨١ بلغهم النبأ المذهل: ان الجنود ذوي السترات الحمراء (الانكليز) من راكبي الجياد قد دمروا مزرعة السيد توماس جفرسون. ثم اخبرهم لوثر ان جيش السيد جورج واشنطن آت لانقاذ فيرجينيا - "وهو يضم كثيرا من الجنود الزنوج!" وفي اكتوبر (تشرين الاول) من العام نفسه هاجم الجيش قوات الجنرال كورنواليس عند يوركتاون، ولم يلبث ان علا الصياح في مساكن العبيد عندما نقلت الانباء استسلام الجنرال كورنواليس.

وراحت بل تردد لكل من تلقاه: "انتهت الحرب! جاءت الحرية! يقول السيد ان السلام سيسود الآن".

ولكن "عازف الكمان" علق على ذلك بلهجته المريرة المألوفة فقال: "لن يكون هناك سلام ولا هراء من هذا القبيل! اصغوا الي جيدا: ان الامور ستزداد سوءا، بالنسبة الى الزنوج".

حديث العبيد

بعد انتهاء الحرب بقليل ساعد لوثر فتاة من العبيد على الفرار، فاكتشف امره وبيع بالمزاد، وخلفه كونتا في قيادة العربة، ففسح له عمله الجديد آفاقا شاسعة، اذ كان يصحب الدكتور والر في جولاته لمعاينة مرضاه، فأتاح له ذلك ان يزور كثيرا من المزارع في ارجاء المنطقة، وان يرى البيض الفقراء ويطوف بالمدن القريبة.

وذات مرة، رأى في الفناء الخلفي لاحد البيوت الكبيرة امرأة شديدة السواد بدا انها من قبيلة الوولوف، وكان ثدياها الكبيران متدليين عاريين، يرضع طفل توبوب من احدهما، وطفل اسود من الآخر. وعندما وصف المشهد بعد ذلك للبستاني العجوز قال له الرجل: "قلما يوجد في فيرجينيا سيد لم ترضعه او تربيه امرأة سوداء".

ولكم اشتدت دهشة كونتا عندما علم، من خلال احاديثه مع بل و"عازف الكمان" والبستاني العجوز حول هذه الامور، ان كثيرين من الصغار البيض والسود قد تربوا معا وتعلق كل منهما بالآخر تعلقا كبيرا، وقال البستاني العجوز ان ثاني مزرعة حل بها كانت تضم صبيا من التوبوب وصبيا اسود نشآ معا، وفي النهاية اصطحب السيد التوبوب الشاب ذلك الفتى الاسود معه الى كلية "وليموماري".

واضاف: "وروى الفتى الاسود ان السادة كثيرا ما يصطحبون زنوجهم الى قاعة الدراسة ثم يتجادلون بعد ذلك ويتفاخر كل مهم بان زنجيه قد تفوق علما على زنوج الآخرين. ولم يقتصر ذلك الزنجي الذي عرفناه على تعلم القراءة والكتابة فسحب، بل تعلم الحساب ايضا وحفظ الاشعار وتلك الاشياء الاخرى التي لديهم في الكلية".

وعلق "عازف الكمان": "ان لم يمت حتى الان فهو كبير الحظ، لان البيض

يسارعون الى الارتياب في اي زنجي مثل ذاك، فيكون هو اول من يتهمونه باثارة التمرد او العصيان. فلا حاجة اذا الى التعلم اكثر من اللازم لان عاقبة الامر خسارة محققة".

وكان السيد والر يدعو بعض الاحيان احد اصدقائه الى الركوب معه. وكان ظهر كونتا المتصلب آنئذ لا يوحي اطلاقا بانه يسمع كل كلمة تقال. فكان الشخصان يتحدثان وكأنه هو غير موجود. وقلما كان البيض ينتقلون في عربة واحدة من دون ان يعربوا عن المخاوف المنتسرة في اقليمهم من مؤامرات العبيد وثوراتهم: "لم يكن من الجائز لنا ابدا ان نسمح لهم بحمل السلاح ضد بيض آخرين في اثناء الحرب. وها نحن نشهد النتيجة الان!"

واستأنف السيد والر حديثه قائلا انه قرأ انباء عن اكثر من ٢٠٠ حادث تمرد وعصيان قام بها العبيد منذ وصلت اولى السفن التي تحمل الرقيق. واضاف: "غير اني الى جانب ذلك قد رأيت بعض الوفيات بين البيض. حسنا، لن ادخل في التفاصيل ولكني اقول فقط انها تبعث على الشك".

وكان كونتا، في الواقع، يعلم كل ذلك بل واكثر منه. فكثيرا ما كان السود يلتقون سرا. وقد سمع في هذه المقاطعة عن رجال سود اقسموا على قتل سيدهم او سيدتهم، وكان يدري بوجود بنادق مخبأة كما تناهت الى سمعه همسات عن ثورات معتزمة.

وكان اكثر مصادر كونتا، خصوصا الاخبار الواردة من اماكن بعيدة، يتصادف مع وجود السيد في مقر مقاطعة سبوتسيلفانيا، عندما تصل عربة البريد المسرعة بما تثيره من زوابع الغبار فلا يكاد يتم افراغ اكياس البريد وحزم صحيفة "فرجينيا غازيت" حتى يتجمع عشرات من السادة واصحاب الحوانيت وغيرهم من رجال التوبوب في حلقات، ويتحدثون ويتصايحون. وكان كونتا عادة على مقربة منهم يسمع ما يقولون.

وامتلأت اذناه بما عبر عنه التوبوب من حنق وغضب لتزايد عدد من يسمونهم "الكويكرز" الذين تقول الصحيفة انهم يشجعون السود على الفرار، بل وقد بدأوا يساعدون امثال هؤلاء الهاربين ويخفونهم ويوجهونهم الى طريق الحرية في الولايات الشمالية.

وحين عاد كونتا الى المزرعة، تحدث عما سمعه ورآه، كعادته، بينما جلس العبيد جميعا عند كوخ "عازف الكمان" ينصتون اليه ببالغ الاهتمام. وقالت بل انها سمعت لتوها السيد والر وبعض ضيوفه على العشاء يعلقون بسخط ومرارة على نبأ مؤداه ان نظام الرقيق والعبودية قد الغي حديثا في ولاية شمالية تسمى "ماساتشوستس"، وان هناك ولايات اخرى بالقرب منها سوف تحذو حذوها.

وسأل احد عمال الحقل: "ما معنى كلمة "الغي"؟

فأجابه البستاني العجوز: "معناها اننا نحن الزنوج جميعا سنصبح احرارا يوما ما!"

الهاون والمدقة

في ربيع عام ١٧٨٨ بلغ عمر كونتا ٣٨ موسما ماطرا. وجال فيخاطره انه لو كان في افريقيا لكان تزوج من زمن واصبح الان ابا لثلاثة ابناء او اربعة، ولكن العمر المناسب للعروس آنئذ

يجب ان يراوح بين ١٤ و١٦ موسما، كما هي الحال في جوفوري. اما هنا في بلاد التوبوب فانه لم ير انثى سوداء واحدة في هذه السن الا وهي بلهاء سخيفة العقل، تقهقه كالمعتوهة.

والواقع ان المرأة الوحيدة التي كان يعرفها جيدا هي بل، ولكنها تتجاوز الاربعين موسما، وكانت هي الاخرى قليلة الاحترام للرجال، وثرثارة كذلك.

غير انه تذكر كيف عنيت به بل حين كان على وشك الهلاك، فمرضته واطعمته ونظفته وشفته من الحمى، ولم تتوقف عن طهي اطايب لا تنتهي من اجله تصنعها من دقيق الذرة الذي تطحنه بيدها على رغم ان هاونها الحجري ومدقتها لا ينعمان الطحين مثل الهواوين المنحوتة من الخشب الصلب والتي يستخدمها اهل جوفوري.

وانطوى كونتا على نفسه اياما وهو يقلب الامور في ذهنه. وذات مساء بعد ان اطعم الجياد، التقط كتلة قديمة مهملة من خشب الجوز الامريكي الصلب وحملها الى كوخه وبدأ ينحتها. وكان يرى بعين خياله الهاون والمدقة اللذين صنعهما ابوه عمر ثم اصبحا ناعمين لكثرة ما استخدمتهما امه في الطحن.

وكلما توافر له بعض الفراغ، كان يجلس في كوخه محاولا صنع هاون من خشب الجوز بواسطة الفأس والسكين. وما ان انجز المهمة حتى راح يبحث عن فرع قويم متين من خشب الجوز ايضا وفي سمك ذراعه ليصنع منه مدقة متقنة تتناسب مع شكل قاع الهاون وقد صقل الجزء الاعلى من المدقة بالمبرد، في بداية الامر، ثم بالسكين واكمل تنعيمه اخيرا بقطعة من الزجاج.

وبعد ان اتم عمله، حمل الهاون والمدقة متجها الى مطبخ بل، ووضعهما امام بابه على الدرج. وسمعت بل صدى الصوت المكتوم الذي احدثه الهاون عندما القاه كونتا على الدرج، فالتفتت ورأت كونتا يسرع مبتعدا. وتأملت النحت، فقدرت الجهد الذي بذله كونتا وتحركت مشاعرها، ولاسيما انها للمرة الاولى في حياتها تتلقى من رجل شيئا صنعه خصيصا لها بيديه. بل انها في الحقيقة لم تكن واثقة من انها هي المقصودة فعلا بهذه المبادرة.

وحين عاد كونتا بعد الظهر ليسأل اذا كان السيد يحتاج اليه، قالت له بل بعفوية وهي تشير الى هديته: "ما هذا؟"

واحس كونتا بالحرج الشديد، فأجاب منتفضا: "هذا لك كي تطحني فيه الذرة".

واقتصر الحديث بينهما طوال الاسبوعين التاليين على تبادل التحية، ثم قدمت بل ذات يوم كعكة مستديرة من دقيق الذرة بدا له انها اعدت طحينها في الهاون الذي صنعه لها، فغمغم شاكرا وحمل الكعكة عائدا بها الى كوخه.

وبعد ذلك اصبحا يلتقيان اكثر من ذي قبل. وعلى رغم ان بل كانت هي التي تتولى عادة مهمة الحديث. الا ان كونتا كان يزداد انجذابا اليها.

وذات صباح في شهر اغسطس (آب) عام ١٧٨٩، دعت بل كونتا الى تناول العشاء معها في كوخها، فلم يقل شيئا. غير انه بعد انتهاء العمل استحم ونظف نفسه بعناية بقماشة خشنة وبقطعة من صابون الرماد البني. وبينما هو يرتدي ملابسه بعد استحمامه اذا به يردد بصوت خافت

اغنيــة مــن اغانــي قريتــه: آه يــا ماندومبي الحلوة، حلو جيدك الطويل، حقا حلو.." ولم يكن لبل جيد طويل.. ولكن هذا بدا شيئا لا أهمية له.

كان كوخ بل اقرب اكواخ السود الى البيت الكبير. وعندما فتحت له الباب وجد نفسه داخل غرفة حميمية الجو توحي بالراحة والدفء بجدرانها الخشبية المثبتة بالطين ومدفأتها القرميدية اليدوية الصنع. وكان للكوخ نافذتان وحجرتان. وستــار مسـدول بينهما. وقد وضعت وسط الغرفة الرئيسية طاولة عليها وعاء ملىء بالزهــور التــي قطفتــهــا بــل مــن حديقتها. كما وضعت على النار وعاء لتسخين الدجاج والفطائر من تلك التي يحبها كونتا.

ودعته بل الى تناول العشاء مرة اخرى، فأعدت له اشياء من تلك التي قال لها كونتا انها تنمو في غامبيا ايضا: فاصوليــاء منقوطــة وحســاء بالفول السوداني وثمار اليام مخبوزة بالزبدة. وعندما كان كونتا يراها تطحن دقيــق الفطائــر فــي الهــاون وبالمدقة اللذين اهداهما اليها يقفز به الخيال الى جوفوري فتتراءى له بل وهي تطحن الحبوب في القرية.

وذات مســاء، عندمــا جــاء الــى العشاء مــرة اخــرى، اهــدى اليــهــا حصيــرة جدلهــا مــن نبــات الديــس (الحلفاء) وصمم في وسطها رسما بارزا من رسوم الماندينكا. وصاحت بل عندما رأتها: "لن اسمح لاحد ابدا بــان يضــع قدمــيــه علــى هــذه الحصيرة!"، وحملتها الى غرفة نومها ثم عادت بشيء في يدها، وهي تقول "كنت انوي ان اهديهما اليك في عيد الميلاد، ولكني سأصنع لك شيئا آخر غيرهما...".

وتأمل كونتا في هديتها فوجدها



زوجا من الجوارب، احدهما له نصف قدم مع وسادة لينة من الصوف في مقدمه. ووقف الاثنان عاجزين عن الكلام، وغمر احساس غريب جوانح كونتا، وامتدت يد بل تبحث عن يده. وللمرة الاولى في اعوامه التسعة والثلاثين احتضن امرأة في ذراعيه.

الطفلة البكر و... "فا"

وبعد الحصول على اذن السيد والر، اتم كونتا وبل مراسم "القفز فوق المكنسة"، (وهي طقوس زواج العبيد) يوم وقفة عيد الميلاد عام ١٧٨٩. وجرى الاحتفال البسيط في كوخ بل حيث تجمع سكان محلة العبيد وشاهدوا كونتا وبل يضفران اذرعهما ويقفزان معا فوق عصا مكنسة مبسوطة على الارض وسط الحجر.

ثم اقيمت وليمة الطعام والشراب. ولاحظ كونتا في قلق ان بل تستمتع بالنبيذ الذي ارسله السيد هدية. وسمعها تسر الى صديقة لها: "الحقيقة يا اختي ماندي، ان عيني وقعت على هذا الرجل منذ عشر سنين!" فغرق كونتا في خجله وارتباكه.

وفي ربيع عام ١٧٩٠ اعلنت له بل انها حامل، فامتلأت نفسه ابتهاجا، ورأى بعين خياله وجه طفله يشرق من صرة تشدها بل الى ظهرها.

وجاء الوليد في شهر سبتمبر (ايلول)، وبقي السيد والر مع بل في الكوخ اكثر من ساعتين، بينما جثم كونتا في الخارج يسمع انين بل الحافل بالالم يرتفع ويتزايد الى صراخ يمزق سكون محلة العبيد. واخيرا تصاعد صراخ الوليد الحاد ثم خرج السيد والر من الكوخ، وقال: "لقد كانت ولادتها عسيرة ولكنها ستنهض سالمة. يمكنك الان ان تدخل وترى طفلتك".

وغاص قلب كونتا بين جنبه. فتاة! ولكنه دخل الكوخ فوجد بل هادئة ساكنة، وما ان رأته حتى ارتسمت على وجهها المجهد ابتسامة ضعيفة. وقبلها كونتا، ثم وقف برهة طويلة يحملق في المولودة السوداء، وكانت لها ملامح الماندينكا بلا شك. وفكر في انه لا يستطيع هنا ان يختفي مدة سبعة ايام - كما يفعل الاب الجديد في جوفوري - كي يهتدي الى اسم ينطوي على معنى كبير يطلقه على الطفلة. فهنا لا بد له ان يتخذ لها اسما على الفور.

وفي تلك الليلة، بينما كان يتمشى في الممرات التي شهدت تقاربه من بل، تذكر شكواها مما روته له عن احزانها. فقد سبق لها ان تزوجت قبل ان تبلغ سن العشرين، ولكن زوجها قتل وهو يحاول الفرار وترك لها طفلين رضيعين لكن سيدها تملكه الشك في اخلاصها بعد مقتل زوجها فباعها واحتفظ بالطفلتين. "فلم ارهما منذ تلك اللحظة، ولا اعرف اين هما الان، وهل هما على قيد الحياة اليوم او تخطفهما الموت!"

وفكر كونتا في ذلك، واختار لطفلته اسما معناه بلغة الماندينكا "انت تبقين هنا". ولم يطلع بل على الاسم، تبعا لتقاليد قبيلته التي تقضي بان يكون الرضيع هو اول من يسمع النطق باسمه.

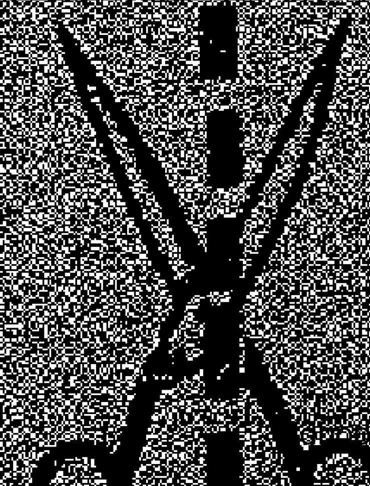
وفي الليلة التالية وعلى رغم اعتراضات بل، حمل كونتا طفلته البكر بعد ان لفها جيدا في بطانية وخرج بها الى هواء الخريف البارد. وعلى مسافة قصيرة من محلة العبيد، رفعها بين يديه وهمس في اذنها اليمنى قائلا ثلاث مرات "اي - تو - هو - كيزي - ليه". (ان اسمك هو كيزي). ثم ازاح طرفا من البطانية وعرض الوجه الاسود الصغير على القمر والنجوم، ولفظ بصوت عال تلك الكلمات التي قيلت له ذات مرة منذ زمن بعيد في قريته في غامبيا: "انظري الى الشيء الوحيد الاعظم منك!"

وثارت بل عندما سمعت الاسم: "كيزي؟" هذا اسم لم يسمع به احد! ولن يجلب سوى المتاعب". ولكن كونتا شرح لها معنى الاسم فهدأت نفسا. وفي اليوم التالي ادرج الاسم في الكتاب المقدس الكبير الاسود الذي يحتفظ به السيد والر: "كيزي والر، ولدت في ١٢ سبتمبر (ايلول) ١٧٩٠".

كانت كيزي طفلة ذكية مليئة بالحياة - ومع مرور السنين بدأ كونتا يعلمها كلمات من لغة الماندنيكا، فكان يقول لها مشيرا الى نفسه "فا!"، وعندما كررت الطفلة، في النهاية، الكلمة وراءه ملأت جوانحه النشوة. وكلما انتشت كيزي، كان كونتا يعلمها كلمات اخرى اكثر تعقيدا مثل اسمه، كونتا كينتي، و"كامبي بولونغو" (وهو اسم نهر غامبيا بلغة الماندينكا)، وجوفوري. وحكى لها عن ابيه عمر وعن اخوته، وعن عشيرة كينتي وتاريخها منذ عراقته في امبراطورية مالي القديمة.

وكانت بل تعترض على ذلك في بعض الاحيان قائلة ان مثل هذه الامور من شأنها ان تثير لهم المتاعب مع السيد، لكن كونتا كان يصر على الاستمرار.

وكان لقرعة الحصى جاذبية خاصة لدى كيزي. وقالت لها بل: "اياك ان تلمسي هذه الحصى!". ولكن كونتا اسعده اهتمام الطفلة بها، واصبح



يسمح لها بأن تلقي بنفسها حصاة في القرعة كل صباح يتلو استهلاك القمر الجديد.

وروى كونتا لابنته قصة اختطافه وحمله الى ارض البيض. وكان يصور لها قرية جوفوري ويقص عليها حكايات كثيرة يستمدها من ذكريات باتت قديمة. وكانت الفتاة تتعلم بسرعة وتتذكر جيدا على نحو بعث الغبطة في نفس كونتا. وكان يقول لها: "سيكون لك اطفال، ويجب ان يعرفوا منك خبر البلاد التي ينتمون اليها".

هذا البلد القاسي

اخذ العالم يتغير. فعندما اخترعت آلة حلج القطن، كانت كيزي لا تزال في الثالثة من عمرها، وما ان بلغت الفتاة العاشرة حتى بدأت تلك الآلة تغير انماط الحياة القديمة المستقرة في انحاء البلاد.

وفي ١٨٠٢، اصبحت مزارع القطن في اعماق الجنوب مصدر رخاء مطرد، بفضل آلة الحلج، وراح تجار الرقيق يستعلمون من كل مالك للعبيد عن استعداده لبيع اي من عبيده. وكانت جماعات العبيد تساق نحو الجنوب الى الاراضي السوداء في ولاية الميسيسيبي وولاية الآباما. ونقلت بل الى محلة العبيد ما قاله السيد عن امتناعه عن بيع احد من عبيده ما لم يخالف العبد القواعد التي وضعها السيد. وتذكر كونتا امر لوثر سائق العربة السابق، وقرر ان يبذل كل ما في وسعه كي يتجنب المتاعب، طالما اصبحت حياته مرهونة ببل وكيزي.

ومع ذلك فقد حدث خلال عام ١٨٠٦ وحده، عندما كانت كيزي في السادسة عشرة ان سيق ما يزيد على ٢٠،٠٠٠ من السود الى ولايتي جورجيا وكارولينا الجنوبية، وبلغت اسعار الرقيق مستويات لم يسمع بها من قبل حتى ان الرضيع الذي لا يتجاوز عمره بضعة اسابيع اصبح يساوي مئتي دولار.

وذات صباح من ذلك العام، جاء رئيس شرطة المقاطعة لزيارة السيد والر، فأصدر هذا امره الى بل بالانصراف من المطبخ في اثناء الحديث، وسرعان ما قدرت ان في الامر شيئا، وانه يمسها على نحو ما. وقبل موعد الغداء بقليل استدعاها السيد والر الى البيت من جديد. وكان صوته يوحي بالتوتر والغضب وهو ينقل اليها النبأ الذي جاء به رئيس الشرطة: لقد قبض على احد العبيد العاملين في المزرعة بعد فراره وعندما ضرب ليعترف باسم من عاونه اقر بأن كيزي هي التي ساعدته. وقال: "انت تعرفين القواعد التي وضعتها. فلا بد من بيع الفتاة".

وحين عاد كونتا من جولته في العربة، اختلى به السيد والر في غرفة صغيرة في البيت الكبير واطلعه على ما سبق ان قاله لبل.

وذهب كونتا الى كوخه فاقد الحس، وكأنه لم يفهم ما قاله السيد. ابنته كيزي تباع! ذلك امر يستحيل تصوره. وما ان اطل كونتا حتى بدأت بل بالصراخ: "لن يأخذوا طفلتي! لن يبيعوا صغيرتي! "ولم تلبث ان اتقدت في نفس كونتا مشاعر المرارة المختزنة وكل ما اضطرم في قلبه من ضغينة للتوبوب، وعاودته ذكريات الآلام المبرحة التي نزلت به في هذه البلاد القاسية.

وعاد رئيس الشرطة عند منتصف

العصر ومعه احد تجار الرقيق. ودخل التاجر البيت وخرج منه وهو يمسك بسلسلة ربط طرفها الآخر الى اصفاد مغلقة على معصمي كيزي المنتحبة.

واندفعت بل من كوخها تصيح في وجه ابنتها سائلة: "هل فعلت ذلك حقيقة يا كيزي؟" وبسط الالم وشاح العذاب على وجه كيزي دلالة على انها قد عاونت العبد فعلا على الفرار.

وصرخت بل: "آه يا رب السماوات! الرحمة يا سيدي انها لم تقصد ذلك! لم تقصده! اتوسل اليك! يا سيدي، اتوسل اليك! اتوسل اليك!".

وقال السيد والر بجفاء: "الخطأ هو الخطأ، وانت تعرفين شريعتي. لقد بعتها وانتهى الامر". ثم اومأ الى تاجر الرقيق فأخذ يجر كيزي الى عربته. فما كان من كونتا الا ان وثب نحو ابنته، وشدها اليه من خصرها بضمة قوية وكأنه سيسحقها. وصرخت الفتاة: "انقذني يا فا!".

وهوى رئيس الشرطة بمقبض مسدسه على رأس كونتا فسقط على ركبتيه وقد اصيب بالدوار لكنه استطاع، على رغم ذلك، ان يرى بعينيه الغائمتين تاجر الرقيق يدفع كيزي الى العربة وهي تقاوم وتتلوى وتلوح بذراعيها. ثم تحركت العربة وتزايدت سرعتها وراحت بل تعدو وراءها متعثرة وصراخ كيزي لا ينقطع.

واندفع كونتا الى اخر موضع وقفت فيه كيزي، وانحنى يجمع في يديه التراب الذي يحمل آثار قدميها. فقد كانت الارواح تقول: اذا احتفظ كونتا بذلك التراب فلا بد ان تعود قدما كيزي الى تلك البقعة.

"كان افريقيا"

باع تاجر الرقيق الفتاة لرجل يدعى توم لي، فأخذها الى مزرعة صغيرة في ولاية كارولينا الشمالية. ولم يلبث السيد الجديد ان فرض نفسه على كيزي واغتصبها فولدت صبيا يدعى جورج.

وعندما بلغ جورج الرابعة من عمره عرف من امه ان جده افريقي. وقلما كان اطفال العبيد في مزرعة لي يعرفون من كان آباؤهم، الا ان جورج امطر امه بالاسئلة لينال منها مزيدا من المعلومات عن ذلك الجد الذي قال ان اسمه كونتا كينتي والذي يسمي الكمان "كو" والنهر "كامبي بولونغو".

وراح يسألها: "من اين جاء جدي؟".

فترد امه: "كان افريقيا كما قلت لك!".

فيعود الى السؤال: "اي نوع من الافريقيين يا اماه؟ من اي مكان من افريقيا جاء؟".

وتذكرت كيزي ان اباها قد اوصاها باعلام اطفالها بوطنهم الاصلي، فروت لجورج ان كونتا كان يبحث قرب قرية تسمى جوفوري عن خشب ليصنع منه طبلة عندما اختطفه اربعة رجال ونقلوه في سفينة الى مكان يسمى "نابليس" (المقصود هو ميناء انابوليس في ولاية فيرجينيا)

وفي عام ١٨٢٧، عندما بلغ جورج سن الحادية والعشرين، "قفز فوق المكنسة" (اي تزوج) من فتاة تدعى ماتيلدا وانجبا سبعة اطفال بين عامي ١٨٢٨ و١٨٤٠. وكلما كان يولد طفل كان جورج يجمع الاسرة كلها في

كوخه فيضع الوليد الجديد على ركبته ومن حوله الاطفال الاكبر سنا قرب المدفأة، ويغرس في عقولهم قصة جدهم الكبير: "الافريقي الذي قال ان اسمه كينتي والذي كان يطلق على الكمان اسم "كو" وعلى النهر اسم "كامبي بولونغو ...".

وكبر اطفال جورج وماتيلدا، وانتظم كل منهم في العمل الزراعي فور سماح سنه بذلك، باستثناء الابن الرابع توم الذي اصبح حدادا.

وفي ١٨٥٦ افلس السيد توم لي صاحب المزرعة واضطر الى بيع عبيده، فذهبوا جميعا الى مزرعة تنتج التبغ في مقاطعة الامانس يملكها السيد موراي.

وهناك تزوج الحداد توم في ١٨٥٨ من فتاة نصف سوداء ونصف هندية تدعى ايرين. وكلما كانت ايرين تنجب طفلا كان توم يفعل ما فعله ابوه وما فعلته جدته كيزي من قبل، فيطلع اطفاله على امر الافريقي الذي كان يسمى كينتا. وبعد انتهاء الحرب الاهلية الشاقة المريرة اصبح العبيد كلهم احرارا، ولكنهم لا يملكون ارضا ولا يعرفون مكانا يذهبون اليه، فظلوا في مزرعة موراي حيث تعاون آل موراي البيض وآل موراي السود على الكفاح من اجل الحياة.

وفي عام ١٨٧٢ قاد جورج قافلة من ٢٩ عربة من الاسر السوداء خارجين من مقاطعة الامانس في كارولينا الشمالية متجهين عبر ممر كمبرلاند الجبلي (ثغرة كمبرلاند) الى مقاطعة هينيغ في ولاية تينيسي. وكان الذي يقود العربة الاخيرة من القافلة توم موراي الحداد، ابن جورج، مع زوجته ايرين واطفالهما السبعة. وكانت اصغر هؤلاء الاطفال فتاة عمرها عامان تدعى سينثيا.

وكانت تلك البنت الصغيرة هي جدتي التي سمعت منها للمرة الاولى وانا جالس على ركبتها قصة "الافريقي" كونتا كينتي، فقادتني تلك القصة الى البحث عن "الجذور".

واليوم، لا تزال اسرة هيلي تعكس في صورة مصغرة ما يحفل به عالم الامريكيين السود من اتجاهات متغيرة وفرص متعاظمة. فقد كان سيمون والد المؤلف اليكس هيلي يشتغل بعض الوقت عاملا في عربات النوم في سكك الحديد في اثناء دراسته في جامعة ولاية كارولينا الشمالية للعلوم الزراعية والتقنية في مقاطعة جرينزبورو. وفي صيف عام ١٩١٦ كان يمارس عمله في القطار بين بافالو وبيتسبيرغ، فالتقى رجلا يدعى ر.س.م. بويس، كان مديرا لشركة كيرتيس للنشر. وقد قدم بويس بعذ ذلك الى سيمون هيلي العون المالي الذي اتاح له اتمام دراسته ثم اكمالها في كلية ولاية نيويورك للزراعة وعلوم الحياة.

اما والدة اليكس هيلي بيرثا فكانت معلمة في المدارس الابتدائية. واليكس له شقيقان، هما جورج و. هيلي الذي يعمل مديرا مساعدا في وكالة المعلومات الامريكية وجوليوس س. هيلي وهو مهندس في البحرية.

اما اليكس هيلي نفسه، فقد اتجه منذ اعتزاله العمل في حرس البحرية الى احتراف الكتابة، واحرز نجاحا مطردا كمؤلف كتب وكاتب مقالات في المجلات ومؤلف سيناريو للسينما.